تاريخ العرب والعالم

السنة الثانية - العدد الخامس - تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٩

- الشيخ عبد القادر القباني مؤرخ
- أثر كتاب "المعراج" ...
- رشيد رضا : فقيه يبحث عن "الدولة" و"الإصلاح" في إطار الإسلام .
- المؤتمر الأول للطلاب العرب في أوروبا ١٩٣٨ .
- الماوردي : منظر الوزارة العباسية في العصر البويهي .
- بطل الوحدة الإيطالية : غاريبالدي .

بسم الله الرحمن الرحيم وعليه توكلي

مصنف ابي الحسن علي بن العباس المجوسي الارجاني [illegible] الطب [illegible] عضد الدولة [illegible]

في صدر الكتاب	في ذكر وصايا بقراط وغيره من علماء المتطببين
في الرؤوس الثمانية التي ينبغي ان تعلم قبل قراءة كل كتاب	في قسمة الطب
في معرفة الاسطقسات وماهيتها	في صفة اصناف المزاج
في العلامات التي [illegible] واحد من اصناف المزاج	في [illegible] مزاج كل واحد من الناس اي مزاج هو بالطبع
في تعرف مزاج كل واحد من الاعضاء الخاصية	في تعرف مزاج الدماغ
في تعرف مزاج العينين وسائر الحواس	في تعرف مزاج القلب
في تعرف مزاج الكبد	في تعرف مزاج الانثيين
في تعرف مزاج المعدة	في تعرف مزاج الرئة
في تعرف مزاج جملة البدن	في العلامات الدالة على المعتدل المزاج
في معرفة الاسباب [illegible]	في تغير مزاج [illegible]
في تغير المزاج من قبل الاسنان	في تغير المزاج من قبل الذكورة والانوثة
في تغير المزاج من قبل العادات	في [illegible]
	في صفة [illegible] الاخلاط الاربعة

المسجد العتيق
في غدامس
"الغلاف الخارجي
١"راجع مقالة - مل
الوطن العربي - ليب
ص ٤١

صورة الفهرس
من مخطوطة
كامل الصناعات
لعلي بن عباس
(راجع مقالة "تا
الطب العربي" ص ٤

تاريخ العرب والعالم

مجلة شهرية مصورة تبحث في التاريخ العربي

السنة الثانية
العدد الثالث عشر
تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٩
ذو الحجة ١٣٩٩ هـ

تصدر عن دار النشر العربية في منتصف كل شهر

رئيس التحرير : فاروق البربير   المستشار : د. أنيس صايغ

المدير المسؤول : محمد مشموشي

ص.ب : ٥٩٠٥ - بيروت . لبنان
بناية أبو هليل - شقة ١١
شارع الساادات - تلفون : ٨٠٠٧٨٣

الإعلانات
تهام : الشركة العربية لإنماء الإعلانات
ص.ب : ١١/٦٨٨ - بيروت . لبنان

الإخراج
مطبعة المتوسط ش.م.ل.

التوزيع
الشركة اللبنانية لتوزيع الصحف والمطبوعات

ثمن النسخة

لبنان :	٤ ل.ل	سوريا :	٦ ل.س
العراق :	٧٠٠ فلس	ليبيا :	٨٠٠ درهم
السعودية :	٧ ريال	الكويت :	٥٠٠ فلس
الأردن :	٥٠٠ فلس	أبوظبي :	٨ درهم
دبي :	٨ درهم	قطر :	٧ ريال
البحرين :	٧٠٠ فلس	المغرب :	٥ دراهم

الإشتراكات

في لبنان	٥٠ ل.ل
المؤسسات والدوائر الحكومية	١٥٠ ل.ل
في الدول العربية	٧٥ ل.ل
في أفريقيا وأوروبا	١٠٠ ل.ل
دول العالم الأخرى	١٥٠ ل.ل
المؤسسات والدوائر الحكومية في العالم العربي	٣٠٠ ل.ل

HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD

EDITED BY FARUK BARBIR
A MONTHLY ILLUSTRATED
MAGAZINE PUBLISHED FROM
SADATE ST. ABOU HLEIL
BLG. P.O.B. 5905
Tel.800783
BEIRUT, LEBANON

VOL. II
No. 13. Nov. 1979
PRICE : 4 L.L.
ANNUAL SUBSCRIPTION :
50 $ IN NON-ARABIC
SPEAKING COUNTRIES

"تاريخ العرب والعالم" في عامها الثاني

بهذا العدد تدخل «تاريخ العرب والعالم» عامها الثاني مسلّحة بخبرة عامها الأول وبرصيد من الثقة منحها إياها أصدقاؤها وقراؤها وكتّابها. وإذا كانت «تاريخ العرب والعالم» من ناحية الكيف، قد بذلت كل ما تستطيعه من جهد، خلال عامها الأول كي تتفاعل بالكلمة الحرة والرأي والتحليل والموقف والمناقشة مع جهود المناضلين العرب في نضالهم لبناء غد عربي أفضل، فإنها بالخبرة المكتسبة ورصيد الثقة تشعر بأن قدرتها على التفاعل وعلى التأثير قد تضاعفت.

وإذا كانت «تاريخ العرب والعالم» من ناحية الكم، قد تمكنت خلال عامها الأول ان تكسب آلافاً من القراء والاصدقاء والموجهين والناقدين، استطاعوا باحتضانهم الحار لها أن يحطموا ارقاماً قياسية في ميدان التوزيع وينتصروا لقضية الصحافة المتخصصة الجادة والملتزمة بطموحات وتطلعات المواطن العربي، فأنها بالخبرة المكتسبة ورصيد الثقة تثق بأنها ستكسب في العام الجديد مزيداً من الاصدقاء الجدد.

لقد جرت العادة في مناسبات كهذه، ان تلقي المجلة بعض الاضواء على الصعوبات والعراقيل التي واجهتها وتواجهها. وأن تبرر، بالتالي، تقصيرها في بعض المجالات. بالنسبة لنا، اننا نعترف، بكل صراحة، بأننا كنا واعين كل الوعي للصعوبات التي ستعترضنا، وكنا مدركين بأن المهمة ستكون شاقة وعسيرة، وان الانطلاق لن يكون سهلاً..

كان طموحنا ان تدخل «تاريخ العرب والعالم» جميع الاقطار العربية بدون استثناء.. وهذا ما حصل بالفعل مع بعض الاستثناءات، ولاسباب لا تمت إلى نهج المجلة العلمي.. كان هدفنا، ولا يزال، أن نخاطب امة مترامية الاطراف تمتد من الخليج إلى المحيط.

كنا نشعر بأن رسالتنا المتواضعة، يجب أن تصل إلى الجميع، إلى العامل في مدينة فاس وإلى الطالب في مدينة المنامة.

كان طموحنا، بعد الانقلاب الكبير والمذهل الذي حصل في الصحافة، أن نتحرر مادياً، لنستطيع ان نقدم للقارئ العربي عملاً علمياً وصحفياً ناجحاً، يمكننا من اداء رسالتنا على الوجه الأكمل. في هذا المجال، وبكل صراحة، فأن نجاحنا لم يكن كاملاً. وهذا ما يدعونا إلى بذل المزيد من الجهد واقناع بعض الحكومات العربية ومختلف المؤسسات الثقافية في الوطن العربي، بأن دعم المؤسسات الثقافية التي تتعاطى نشر المجلات المتخصصة العلمية هو اجدى وانفع على المدى الطويل.

لقد حاولت «تاريخ العرب والعالم» بمنهاج علمي ونظرة موضوعية، أن تمارس خلال العام الماضي التزامها نحو المواطن العربي من خلال تركيز جهودها الجماعية لتقديم صورة حقيقية وشاملة لتاريخ العرب مع كل ما صاحب ذلك من ايجابيات وسلبيات معاً. وذلك بهدف ان تساهم بتحديد نوعية وابعاد الأرضية الفكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية لتجربة انسانية جديدة.

وعلى هذا الأساس تضمنت الدراسات الأساسية «لتاريخ العرب والعالم» في اعدادها الاثني عشر خلال سنتها الأولى دراسات تمحورت حول موضوعات التاريخ القديم والوسيط والحديث، وبصورة أساسية حول موضوعات التاريخ العربي في جوانبه الحضارية والتراثية، مع مراعاة للتنوع القطري من جهة وتركيز الاهتمام والانظار على بعض الاقطار العربية من جهة ثانية (مثلا فلسطين ولبنان).

وإذا كانت هذه الدراسات قد افتقرت أحياناً، إلى شيء من التوازن من حيث الموضوعات والاقطار،

فأن مجلة «تاريخ العرب والعالم» قد حاولت سد هذه الثغرة من خلال اعتماد باب «ملف الوطن العربي» حيث تضمن كل ملف معالجة عامة لتاريخ قطر من الاقطار العربية الشقيقة. وتأمل المجلة متابعة هذا الخط في عامها الثاني آملة ان تتلقى التشجيع والمساهمة من الجهات التي يهمها توسيع هذا الباب واستمراره.

وإذا كانت هذه الدراسات الرئيسية قد شكلت العامود الفقري «لتاريخ العرب والعالم» في عامها الأول، فلقد صاحبته، في الوقت نفسه، دراسات وابحاث وترجمات وتحليلات عن قضايا دولية وذلك بهدف الاسهام في تأكيد اتصال وموقف المواطن العربي من واقع الحياة حوله، في مجتمعه ووطنه وعالمه على السواء. كما قدمت «تاريخ العرب والعالم» ابحاثاً تاريخية عالجت مواضيع طريفة، تحظى باهتمام قطاعات كبيرة من المثقفين والطلاب، كتاريخ الشطرنج والرياضة والفنون، والطوابع، الخ...

واليوم.. ماذا عن العام الجديد.

لقد انتهت «تاريخ العرب والعالم» بعد دراسات جماعية وافية لاتجاهات ورغبات القراء ومسؤوليات الموقف الراهن، محلياً وعربياً وعالمياً إلى وضع خطة عمل وأهداف سنتها الثانية.

ويمكن أن نلخص هذه الخطة وأهدافها في النقاط الرئيسية التالية:

● ستضاعف «تاريخ العرب والعالم» من جهودها لاعادة بحث وتقويم تاريخنا وتراثنا القومي وثقافتنا وفنوننا على أسس علمية وبمفهوم قومي، وذلك بهدف المساهمة في الوصول إلى رؤية موضوعية وعلمية واضحة لتطورنا القومي والحضاري والانساني، وتدعيم تيار الثقافة القومية الانسانية بكافة صوره.

● بدافع من التزام «تاريخ العرب والعالم»، بالمساهمة بتكوين كادر تاريخي جديد في الحقل الصحفي المتخصص، ستواصل «تاريخ العرب والعالم» تجنيد طاقات متجدّدة بالاضافة إلى الطاقات الجديدة التي ساهمت معها، مساهمة ايجابية، خلال السنة الأولى. وسوف تستمر «تاريخ العرب والعالم» في انتهاج سياسة الباب المفتوح امام جميع الاقلام القومية الحرة.

● ستعمل «تاريخ العرب والعالم» على تشجيع «الكتابات الحرة» التي تتوخى البحث العلمي الموضوعي، وترحب بأي بحث يرد اليها في حدود لا تتجاوز ١٥٠٠ كلمة.

● ستطرق المجلة موضوعات تاريخية عالمية لم تطرقها في عامها الأول كموضوعات من تاريخ الشرق الأقصى والبلدان الاسلامية الشرقية، ومن التاريخ الأميركي والأوروبي.

● ستخصص المجلة باباً لنشر الوثائق التي تلقي اضواء على تاريخنا، ان من حيث جدتها أو من حيث ضرورة اعادة قراءتها، وذلك بعد استخلاصها من مراكز المحفوظات أو استخراجها من كتب وثائقية لا تتوفر بسهولة للقارئ والباحث.

واننا إذ نشكر جميع الذين ساهموا في معالجة الموضوعات التي نشرتها المجلة في عامها الماضي، نتمنى عليهم الالتفات إلى هذه الموضوعات كما نتمنى من جميع الكتّاب والباحثين في كل أنحاء الوطن العربي تزويدنا بأبحاثهم واقتراحاتهم وملاحظاتهم.

وإذا كان الواجب يقضي ان نقوم بنقد ذاتي لنرى حصيلة «تاريخ العرب والعالم» في عامها الأول، فأن نظرة تلقى على ما نشرته خلال هذا العام ترينا ان «تاريخ العرب والعالم» ان كانت لم تبلغ في ابحاثها ودراساتها المستوى الذي ينبغي ان تبلغه وان كان ثمة تقصير وهنات في بعض الأحيان، فشفيعها في ذلك جهدها الصادق الأمين وسعيها الدؤوب إلى الافضل في خدمة ثقافتنا العربية.

وبعد.. ان «تاريخ العرب والعالم» ستواصل التقدم خلال عام ١٩٨٠، بنفس مناهجها العلمي، ونظرتها الموضوعية، وجهدها الجماهي، وثقتها التي لا تحد في شعبها العربي..

ونأمل من خلال ذلك ان نساهم، بكل تواضع، في انارة بعض معالم الطريق نحو غدٍ عربي أفضل.

«اسرة التحرير»

في هذا العدد

● المقالات الواردة توزّع حسب التبويب الفني للمجلة. ولا علاقة لذلك بمكانة الكاتب. مع حفظ المكانة الاجتماعية للكتاب. تراعى في الألقاب الصفات العلمية فقط.

الموضوع — الصفحة



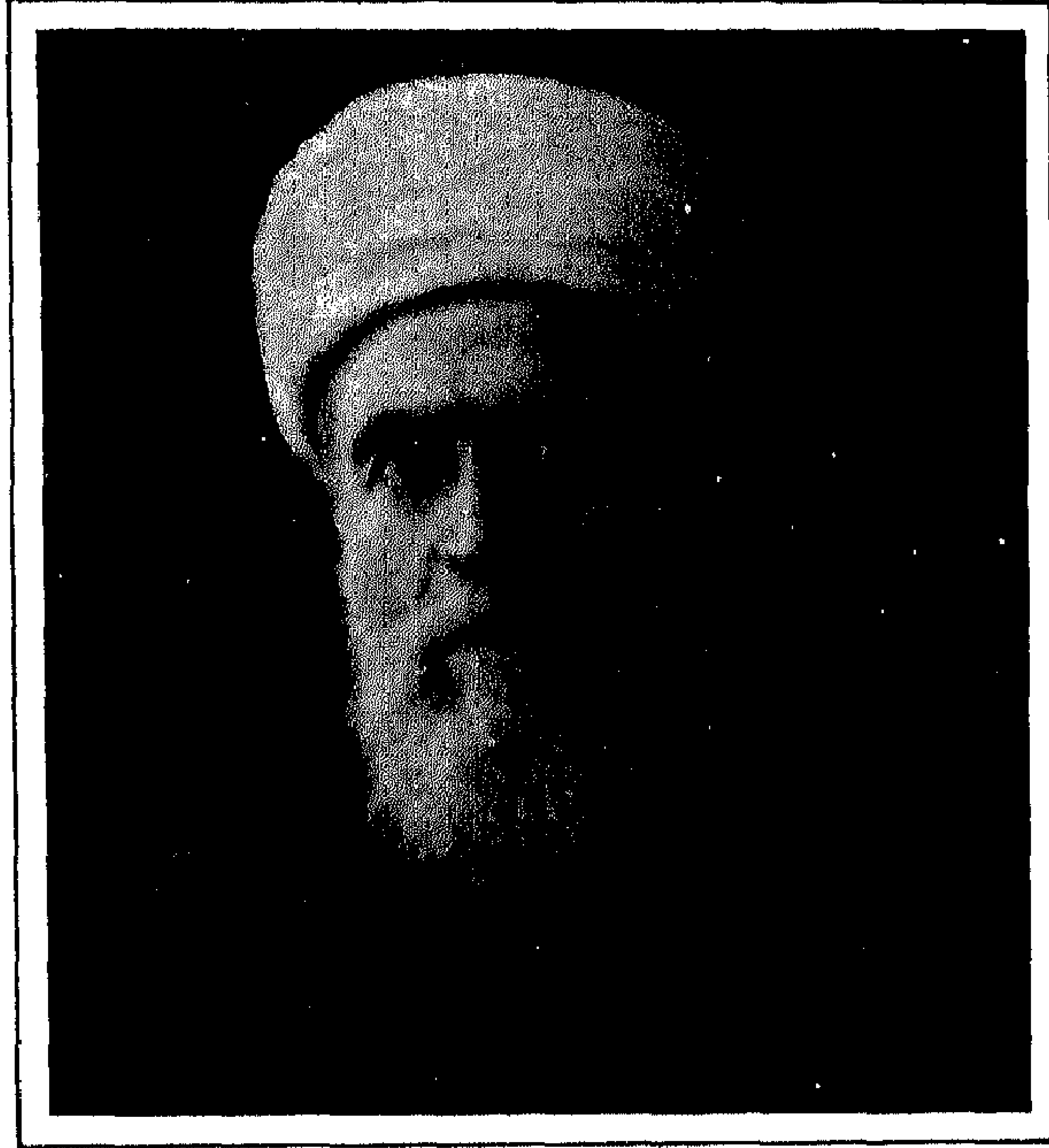
راجع مقالة ملف الوطن العربي «ليبيا» ص ٤١

● المقالات والدراسات تُرسَل باسم رئيس التحرير على عنوان المجلة: ص. ب ٥٩٠٥ في بيروت.

● المقالات والدراسات التي تُنشَر لا تعبّر بالضرورة عن آراء المجلة.

● المواد الواردة إلى المجلة لا تُردّ إذا لم تُنشَر.

الشيخ عبد القادر القبّاني



مؤسّس جمعيّة المقاصد الخيريّة الإسلامية في بيروت

د. هشام نشابه

من الناس من يستأثر بالاهتمام ويملأ الأعين والأفكار طالما هو على قيد الحياة، فاذا مات قلبت صفحته وطوي ذكره. ومن الناس من يعيش مغموراً طوال حياته لا يدرك مقامه إلا القلة النادرة، فاذا مات وانتهى وظن المرء ان النسيان سيلفه فاذا به يؤثر في الناس بعد مماته فيعترفون بفضله ويرفعون اسمه وينزلونه المنزلة التي ضنّ بها عليه معاصروه. ومن أمثلة هؤلاء وأولئك نماذج عديدة في تاريخ كل امة.

غير أن ثمة فئة ثالثة من الناس، شغلوا معاصريهم، واثروا في حياتهم، فاذا مرّت على وفاتهم اجيال وسنين، عاد الناس اليهم، ليكتشفوا جوانب جديدة من حياتهم، ادرك بعضها معاصروهم ولم يدركوا منها جوانب أخرى. فكان على اجيال لاحقة أن تعيد النظر لتتبين هذه الجوانب وتظهرها، خدمة للتاريخ وانصافاً لرجالاته، من جهة، وتعرفاً إلى العوامل الخفية الفاعلة في حياة المجتمعات، من جهة أخرى.

هذا الصنف الثالث من الرجال هم أكثر الناس أثراً في تطور المجتمعات، لأن أثرهم فيها لا يقتصر على فترة زمنية معينة، في رقعة جغرافية معينة، وانما يبقى اثرهم على مرّ الزمن. وهم بعد ذلك طبقات يتفاوت قدرهم وفقاً للمقاييس المعتمدة في تقويمهم.

والشيخ عبد القادر القباني في لبنان واحد من رجال هذا الصنف الثالث. فقد عاش حياة مليئة بالنشاط الفكري والعملي جعلته محوراً من المحاور السياسية والاجتماعية والثقافية في مجتمعه. ثم ترك مؤسسات ما تزال، بعد ما يزيد على مئة عام من تاريخ تأسيسها، متأثرة بافكاره، فاعلة، ناشطة في مجتمعه. فعنايتنا به اليوم هي بدافع التقدير لأعماله التي ما تزال تتفاعل مع المجتمع اللبناني حتى اليوم وتؤثر فيه.

ولا بد من الاعتراف بأن هذه الأعمال لو لم تجد من يتعهدها من بعده باخلاص، لما استطاعت ان تستمر إلى يومنا هذا. ولكن من الواجب التأكيد أيضاً أن هذه الأعمال لو لم تكن ذات أساس صالح وقابل للتطوير لما وجدت من يتعهدها بالعناية اصلاً.

وان من حسن الطالع أن يأتي هذا الحديث عن الشيخ عبد القادر القباني في العام الأول بعد المئة في التقويم الميلادي من حياة جمعية المقاصد الخيرية الاسلامية في بيروت التي كان للشيخ القباني الفضل الأول في تأسيسها. ولئن حالت ظروف الحرب اللبنانية دون احتفال هذه الجمعية بعيدها المئوي في الوقت المناسب، فلعل هذا المقال ان يكون اسهاماً متواضعاً في احياء هذه الذكرى الطيبة لأكبر جمعية تربوية واجتماعية اسلامية عرفها العالم العربي في تاريخه الحديث.


سليم علي سلام ١٩٠٩-١٩١٤.


سماحة الشيخ عبد الرحمن الحوت ١٩١٨.

نسبه:

ولد الشيخ عبد القادر سنة ١٢٦٤ للهجرة (١٨٤٧ للميلاد) وهو ابن مصطفى آغا بن السيد عبد الغني القباني المنتسب إلى الامام زين العابدين حفيد الامام الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم. وهو كما نلاحظ نسب شريف. غير أن منذ أواخر العصر العباسي اختلطت الأنساب الشريفة إلى درجة جعلتها تفقد الكثير من المعاني التي ارتبطت بها أيام الصحابة والأمويين والعباسيين. يذكر كتاب بحر الانساب أن آل القباني جاؤوا اصلاً من الحجاز، ثم انتقلوا منه إلى العراق، ومنه إلى بلاد الشام، حيث استقروا في مدينة جبيل في القرن الحادي عشر الميلادي. ولا نعرف عن عائلة شيخنا القباني شيئاً قبل



سماحة الشيخ مصطفى نجا ١٩١٨ – ١٩٣١.



محمد الفاخوري ١٩٣١ – ١٩٣٣.

القرن التاسع عشر الميلادي (الثالث عشر الهجري) فلا يأتي المحبي في خلاصة الأثر[1] على ذكر رجل نستطيع أن نثبت صلته بالشيخ القباني، وكذلك الأمر بالنسبة للمرادي[2].

فيبقى كتاب بحر الانساب المرجع الوحيد الذي استقينا منه المعلومات عن عائلة القباني قبل النصف الثاني من القرن التاسع عشر. يقول صاحب هذا الكتاب أن جدّ الشيخ عبد القادر كان يعرف باسم مصطفى آغا وكان في الجيش الموالي للدولة العثمانية والذي وقف في وجه ابراهيم باشا عندما جاء لفتح بلاد الشام. وانه جرح اثناء القتال ووقع في الاسر وارسل إلى مصر. ولكنه تمكن من الهرب من مصر إلى الاستانة لينضم إلى جيش السلطان العثماني. وقد تأثر ابراهيم باشا لما عرف بهرب مصطفى آغا من مصر، فاقتص من عائلته التي كانت مقيمة في جبيل، ونفاها إلى جزيرة قبرص. ونحسب ان هذا النفي وقع في أوائل الثلاثينيات من القرن التاسع عشر. ولم يعد آل القباني من منفاهم إلى الساحل الشامي الا بعد جلاء المصريين عنه، أي حوالي سنة ١٨٤٠. غير أن المؤكد ان آل القباني لم يذهبوا إلى جبيل بعد عودتهم من المنفى وانما جاؤوا إلى بيروت حيث اقاموا، وما زالوا فيها إلى يومنا هذا.

نشأته :

لا نعرف الا النذر اليسير عن حياة الشيخ عبد القادر قبل عام ١٨٧٠م/١٢٨٧هـ. سوى أنه درس في المدرسة الوطنية التي أسسها المعلم بطرس البستاني (١٨١٩–١٨٨٣) سنة ١٨٦٣ في بيروت. ولا شك ان انتسابه إلى هذه المدرسة ذات النزعة «الوطنية» والنظام القريب إلى انظمة المدارس الغربية، في زمن كان التعليم التقليدي العثماني هو السائد في البلاد، ترك اثراً ثابتاً في الشيخ القباني، ولفت نظره إلى أهمية المدارس وضرورة تطوير مناهج التدريس فيها. ذلك أن مدرسة البستاني كانت ذات نزعة وطنية وعربية بعيدة عن التبشير الذي كان السمة المميزة للمدارس الحديثة في ذلك العصر.

وبعد «المدرسة الوطنية» درس القباني على كبار علماء بيروت في عصره. نذكر منهم الشيخ عبد القادر الخليلي والشيخ يوسف الاسير، والشيخ محي الدين اليافي والشيخ ابراهيم الاحدب وغيرهم ممن اصبح فيما بعد من المتعاونين معه في مشاريعه العامة.

«ثمرات الفنون» ودورها الطليعي

وقد برز اسم الشيخ القباني لأول مرة سنة ١٢٩٠هـ/١٨٧٣م. عندما انضم إلى «جمعية الفنون» التي كان يرئسها الحاج سعد حمادة. وكانت غاية الجمعية «خدمة الفقراء ونشر المعارف» وكان لها الفضل في شراء المطبعة التي اصدرت صحيفة ثمرات الفنون، فارتبط اسمها باسم الشيخ القباني، باعتباره صاحب امتيازها. وكان صدور أول عدد من الثمرات في ١٥ ربيع الأول ١٢٩٢هـ الموافق ٢٠ نيسان ١٨٧٥م.

ولثمرات الفنون شأن خاص ومميز في تاريخ الصحافة العربية في بلاد الشام في أواخر القرن الماضي.

ذلك انها اعتبرت فور صدورها لسان حال المسلمين في بيروت. وهذا الاعتبار راجع بالدرجة الأولى إلى أن عدداً من الصحف التي صدرت في ذلك الوقت كانت مرتبطة بمؤسسات تبشيرية. مثال ذلك صحيفة البشير لسان حال المؤسسات التبشيرية الكاثوليكية وكوكب الصبح المنير والنشرة الاسبوعية التي كانت تصدرها الارساليات البروتستنتية.

وقد اتهمت الثمرات بأنها مسخرة للدولة العثمانية غير أن تاريخ الصحيفة يثبت انها كانت صحيفة حرة بعيدة عن التعصب أو التبعية. ولو استعرضنا ما حوته صفحاتها من مقالات في شتى المواضيع السياسية والاجتماعية لأعجبنا بالصراحة التي تميزت بها معالجتها الشؤون العامة.

ولم يكن محررو الثمرات من المسلمين وحسب، بل كانت تفسح المجال أمام الكتاب من مختلف الطوائف للاسهام فيها. أما المسلمون فنذكر منهم على سبيل المثال الشيخ ابراهيم الاحدب والشيخ يوسف الاسير والشيخ أحمد طبارة، ومن غير المسلمين أديب اسحق وسليم الشلفون وهم قليل من كثير.

وقد كلف الرأي الحر الصحيفة ثمناً باهظاً في بعض الأحيان، إذ طالتها الرقابة العثمانية وصادرتها عدة مرات، إلى أن اضطر الشيخ القباني إلى ايقافها نهائياً في ٢٠ تشرين الثاني ١٩٠٨ أي في العام نفسه الذي تم فيه الانقلاب على السلطان عبد الحميد الثاني على يد جماعة الاتحاد والترقي.

وكانت كلما احتجبت الثمرات بأمر الرقابة العثمانية ثم عادت إلى الظهور، لا تذكر أسباب احتجابها بل تكتفي بالقول: «فهذه جريدتنا ثمرات الفنون قد عادت اليوم إلى عالم الظهور بعد أن احتجبت عن قرائها الكرام امداً ترتل آيات الحمد والشكر لحضرة سيدنا ومولانا أمير المؤمنين»

«الحدث الأكبر: جمعية المقاصد...

«غير أن أهم انجاز في حياة الشيخ عبد القادر القباني هو دون ريب تأسيسه مع نفر من اصحابه سنة ١٢٩٥هـ/١٨٧٨م جمعية المقاصد الخيرية الاسلامية في بيروت واختياره ليكون أول رئيس لمجلس ادارتها، فقد كتب لهذه الجمعية ان تعيش وتزدهر لتصبح في


عمر الداعوق ١٩٣٣ - ١٩٢٩.


محمد سلام ١٩٤٩ - ١٩٥٨.

يومنا هذا أكبر جمعية تعليمية واجتماعية في الوطن العربي بل وفي العالم الاسلامي قاطبة. ومما لا شك فيه ان السبب الأهم لنجاح هذه الجمعية انها استجابت لحاجة ملحة في المجتمع اللبناني من جهة وانها بنيت على اسس من التقى والاخلاص والادارة الحكيمة، من جهة أخرى.

ولعل أول ما يستلفت النظر أن مؤسسي الجمعية فكروا أن ينشئوا مدرسة للبنات قبل التفكير بانشاء مدرسة للبنين والفضل في هذا التوجيه جاء من الشيخ عبد القادر لما عرفناه عنه لاحقاً من اهتمام بدور المرأة في تقدم المجتمع[٣].

وقد استطاعت جمعية المقاصد خلال القرن التاسع عشر أن تؤسس عدداً من المدارس في بيروت بلغت الست أو السبع مدارس. ثم استمر انتشار

مدارس المقاصد في مطلع القرن العشرين إلى أن شعرت السلطات العثمانية التي باتت ترتاب من كل الحركات والنشاطات القائمة في الولايات الشامية، فضمت مدارس الجمعية في أواخر القرن الحالي إلى شعبة المعارف ولم تعد الجمعية إلى الظهور مرة أخرى بشكل جدّي إلاّ بعد الحرب العالمية الأولى.

ولجمعية المقاصد اليوم ست وعشرون مدرسة في بيروت، وخمسون مدرسة في القرى تضم ما يزيد عن خمس وعشرين ألف تلميذ وتلميذة موزعين على مختلف المراحل الدراسية من الروضة حتى نهاية المرحلة الثانوية والنية متجهة اليوم لانشاء معاهد عليا تابعة للجمعية.

في سنة ١٨٨٠م عين الشيخ عبد القادر القباني عضوا في مجلس ادارة لواء بيروت. وحوالي ذلك الوقت عين أيضاً قاضياً في المحاكم البدائية. وفي سنة ١٨٨٨ اصبح قاضياً في محكمة التمييز لولاية بيروت. وفي سنة ١٨٩٨ رئيساً لبلدية بيروت. وكان في هذا المركز في سنة ١٩٠٥ عندما زار بيروت امبراطور المانيا فريدريك ولهلم الثاني أثناء زيارته الشهيرة للامبراطورية العثمانية.

ثم عين مديراً للمعارف حتى سنة ١٩٠٨ عندما ساءت علاقته مع جماعة الاتحاد والترقي وانقطع عن القيام بأي عمل حكومي لينصرف إلى أعمال تجارية ذات طابع ريادي نذكر منها تأسيسه شركة للتنقيب عن النفط في سوريا، بالاتفاق مع بعض المهندسين الألمان.

أما في عهد الانتداب الفرنسي فقد تولى الشيخ القباني ادارة الاوقاف الاسلامية مدة خمس سنوات تمكن خلالها من وضع جميع مقابر المسلمين في بيروت تحت ادارة جمعية المقاصد الخيرية الاسلامية في بيروت التي ما تزال إلى يومنا هذا مسؤولة عن هذا المرفق المهم في المجتمع.

توفي الشيخ القباني سنة ١٣٥٤هـ/١٩٣٥ للميلاد في بيروت تاركاً عدة أولاد وبنات واحفاد ما يزالون مقيمين فيها إلى يومنا هذا.

نظرة في حياة القباني، الشيخ الرائد:

عاش الشيخ القباني حياة حافلة بالنشاط، ذكرنا فيما تقدم معالمها الرئيسية، ولم نأت على ذكر العديد من معالمها الأخرى. ولو أن الدارسين يتناولون حياة هذا



مصباح الطيارة ١٩٥٨.



الرئيس صائب سلام ١٩٥٨–

الرجل بعناية أوفر واهتمام أدق، يكتشفون في حياته جوانب قد لا تقل أهمية عن تلك التي ذكرت فيما تقدم.

غير أن ثمة خصائص رئيسية تنتظم جميع النشاطات التي قام بها الشيخ في حياته تستلفت النظر، وهي التي اعطت الرجل مكانته الخاصة واضفت على اعماله طابعها المميز، وهي التي في النتيجة تجعله جديراً بالدراسة فضلاً عن التقدير والاحترام.

الخاصة الأولى، أن الشيخ اختار العمل في الميدان الثقافي والاجتماعي، يحاول بواسطتهما ان يضع اسس النهضة الجديدة التي شهدها لبنان في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. وبينما كان امثاله من رجالات عصره كالسيد جمال الدين الافغاني والشيخ محمد عبده والأمير شكيب ارسلان، وعزيز

الفجر الصادق

لجمعية المقاصد الخيرية الاسلامية

في بيروت

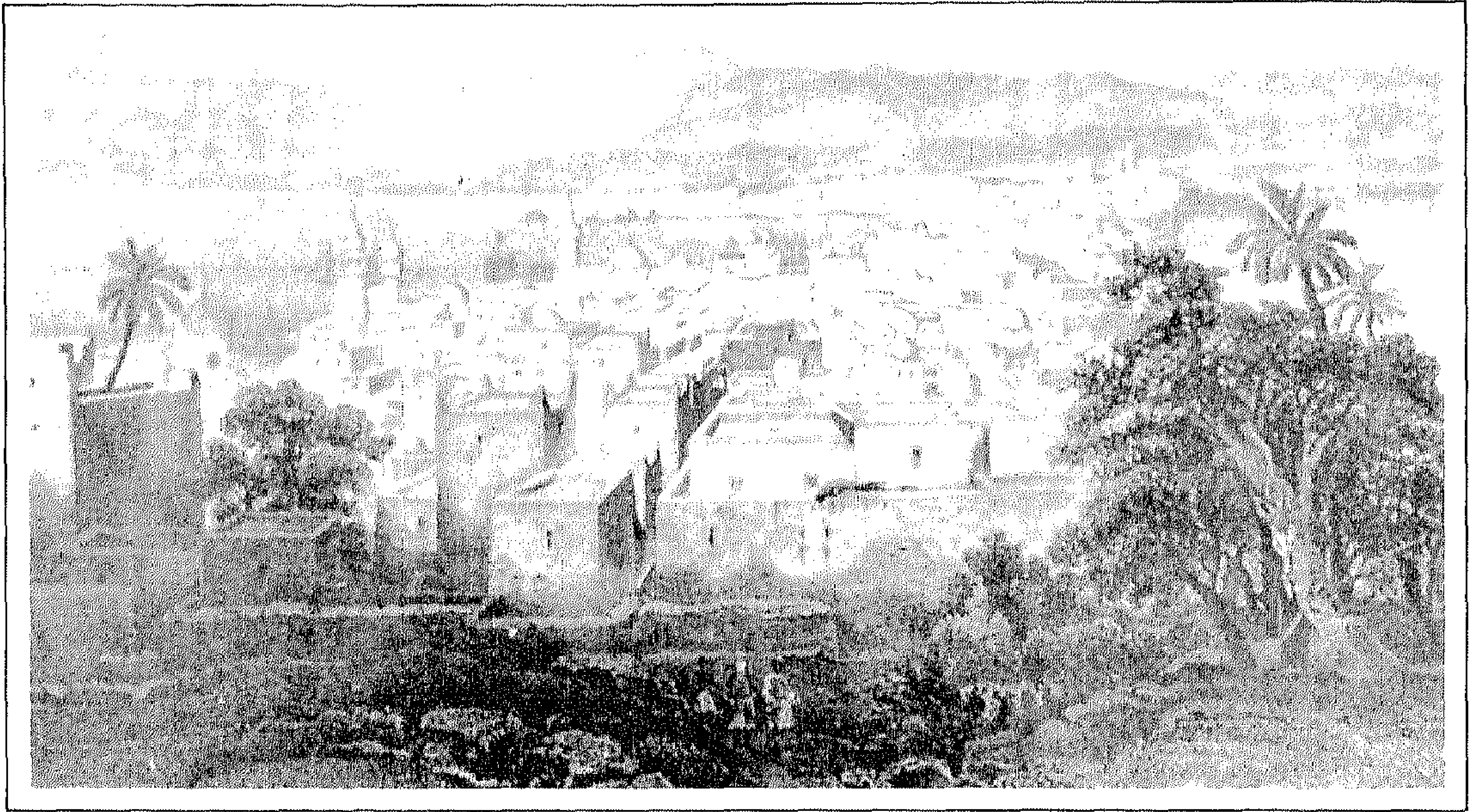
بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمه

وبعد فان هذه المجموعة السنوية تحتوي على اعمال جمعية المقاصد الخيرية الاسلامية التي انتظمت في بيروت ليلة غرة شعبان المعظم لسنة خمس وتسعين ومائتين والف للقيام بقضاء حاجات سيأتي الكلام عليها وتحتوي ايضاً على مجموع وارداتها ومصارفاتها وجهاتهما في سنة وستة اشهر اعتباراً من ليلة تأليف الجمعية الى ختام سنة ١٢٩٦ ومقدمتها نتكلم عن ملخص اعمال الجمعية وما صادفته الى يومنا هذا وقد سميناها الفجر الصادق وسننشرها ان شاء الله تعالى في رأس كل سنة بأوقاتها المقررة توفيقاً لنص قانون الجمعية الداخلي لان تأخرنا هذه السنة عن المسارعة الى نشرها كان ناشئاً من الحاق اشغال الجمعية في الأشهر الستة

٣

الصفحة الأولى من كتيب أعمال السنة الأولى لجمعية المقاصد الخيرية الاسلامية في بيروت.



مدينة بيروت القديمة. ١٨٤٦.

علي المصري وغيرهم، يخوضون المعترك السياسي، اختار الشيخ القباني أن يحصر اهتمامه بالنواحي الادبية والفكرية والتربوية تاركاً للميدان السياسي قدراً يسيراً من اهتماماته، وهو في هذا المجال ومن هذه الناحية فقط، اقرب إلى المصلح الهندي السيد أحمد خان الذي أسس في سنة ١٨٧٥ كلية اسلامية على النمط الأوروبي الحديث في عليكره في الهند.

أما الخاصة الثانية، فهي أنه كان يؤمن بانشاء المؤسسات لا بالعمل الفردي. فان خطرت له فكرة واقتنع بصلاحها عمد الي تجسيدها في مؤسسة لذلك نراه يدعو للاصلاح الاجتماعي عن طريق تأسيس جريدة ثمرات الفنون ثم جمعية المقاصد الخيرية الاسلامية في بيروت. وحرص أن يشرف شخصياً على كلا المؤسستين في فترة تأسيسها. فاذا ما استقام عودهما ووضع لها أسس العمل، عهد إلى مجالس ادارة مكونة من عدة اشخاص موثوقين ليتولوا مراكز القيادة في المؤسسة الجديدة، ويبقى هو عاملاً ثانوياً فيها. وهذه الطريقة في العمل تنم عن بعد نظر نادر بين القادة والمصلحين الذين غالباً ما يستأثرون بالسلطة في المؤسسات التي ينشئون.

أما الخاصة الثالثة فهي أن القباني كان مدركاً لأهمية الدور الذي تلعبه المرأة في اصلاح المجتمع. ولذلك نراه يحرص، إن في ثمرات الفنون أو في جمعية المقاصد أو في مراسلاته الخاصة، ان يدعو لتعليم المرأة لتتحمل المسؤولية في تقدم المجتمع.

لقد كان الشيخ القباني من مناصري الدولة العثمانية باعتبارها دولة اسلامية، ودولة الخلافة، ولكنه كان أيضاً داعية من دعاة الاصلاح في هذه الدولة وظل طوال حياته وفياً لهذه المبادئ.

رحم الله الشيخ عبد القادر القباني، لقد كان من هؤلاء الرجال الأفذاذ الذين يتركون وراءهم آثارا ستبقى الشاهد الصادق على جهادهم العظيم في سبيل مجتمعاتهم. ●

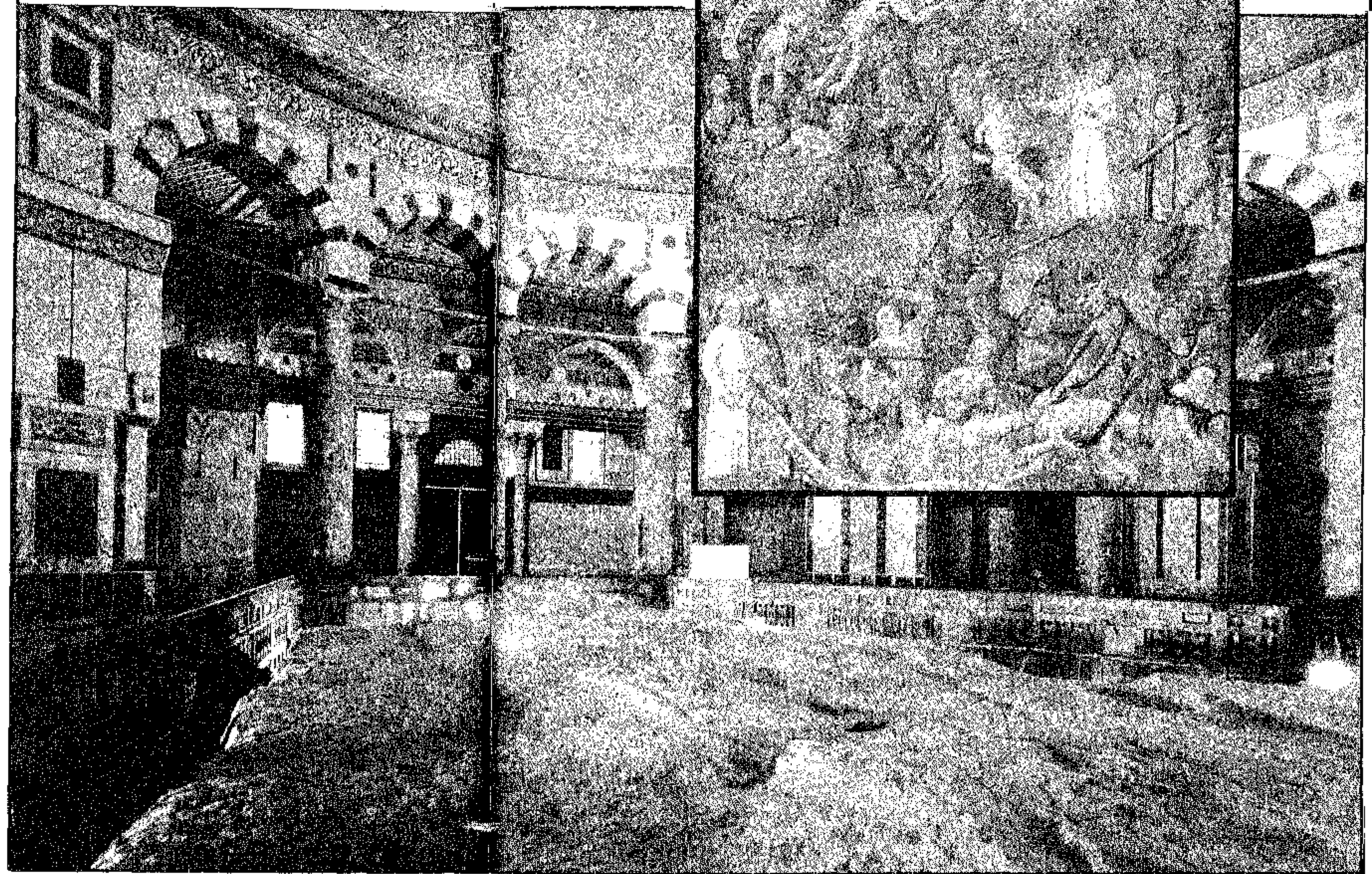
(١) راجع المحبّي، محمد، خلاصة الأثر في اعيان القرن الحادي عشر، ٤ أجزاء بيروت دار الصياد، (دون تاريخ).

(٢) راجع المرادي، سلك الدرر في اعيان القرن الثاني عشر، ٤ أجزاء القاهرة ١٨٧٤ – ١٨٨٣.

(٣) في رسالة مخطوطة من الشيخ عبد القادر القباني إلى السيدة عنبرة سلام الخالدي، وكانت من الرعيل الأول من السيدات المسلمات اللواتي درسن في المعاهد العليا في أوروبا، ما يدل على اهتمام القباني بتعليم المرأة وتقديره لها كعاملة وموجهة في المجتمع.

اثر كتاب "المعراج" للبصري في الكوميديا "الإلهية" لدانتي.

دراسات في التفاعل الحضاري بين الشرق والغرب



غلاف كتاب «الكوميديا الالهية» لدانتي.

د. مارتينيانو بيليغرينو. رونكاليا(•)

● تحدث الدكتور إحسان عباس في المركز الثقافي الاسلامي في بيروت على «الحضارة الاسلامية والنزعة الانسانية». والدكتور عباس واحد من اكبر الاخصائيين في العلاقات الثقافية بين العالم العربي واسبانيا وايطاليا، خصوصاً صقلية. مما يشير الى أن الباحثين في العالم العربي أخذوا يهتمون بتأثيرات الحضارة الاسلامية في العالم الغربي. وهي التأثيرات التي تركزت اكثر ما تركزت في اسبانيا وصقلية. ومن جهة الغرب ان دراسات ومحاضرات فرانشيسكو غابريلي، واومبيرتو ريدزيتانو، ومنشورات ميشال أماري («تاريخ المسلمين في صقلية»، المكتبة العربية — الصقلية، الخ.) وأوغو مونيريه دو فيريلار: «دراسة للاسلام في اوروبا في القرنين الثاني عشر والثالث عشر» (دراسة وبحث ١١٠)، حاضرة الفاتيكان، ١٩٤٤. وانريكو تشيرولي: «المعراج ومسألة الاصول العربية — الاسبانية للكوميديا الإلهية» (دراسة وبحث ١٥٠) حاضرة الفاتيكان ١٩٤٩، وأخيراً للكاتب نفسه: «بحث جديد عن المعراج.. وتأثير الاسلام في الغرب» (دراسة وبحث ٢٧١) حاضرة الفاتيكان ١٩٧٢، ان هذه الدراسات، تشكل، (مع المؤلف الذي طواه النسيان «المسيحية والاسلام» للمؤلفين ب. لاتور وماريو مارتينو مورينو وفرانشيسكو غابريلي وايتوره دوسي/ بريسيا: مورتشيليانا ١٩٤٩) مراحل مهمة جداً لنفهم بإيجابية متزايدة التأثيرات الحقيقية والقابلة للتوثيق، التي كانت للثقافة العربية الاسلامية في الثقافة المسيحية الغربية، وذلك خارج أية مفاهيم مجمعية، أو أية لقاءات اسلامية — مسيحية.

وللهبوط الى الصعيد العملي، كان انريكو

تشيرولي قد اهتم بالعنصر العربي في الأدب الايطالي والاسباني الحديث. كذلك فان أبحاث اوريليانو رونكاليا في مجال تأثير العناصر الادبية الشعرية العربية في الادب الايطالي، عن طريق أدب البروفانس، هي أبحاث معروفة.

ان الحديث بتأثير الحضارات هو حديث ساحر. وكل ما يمكن أن نقوله هو صحيح وخاطىء معاً. لأن ثمة مبادلات يصعب أحياناً تفسيرها. ومن الأمثلة: كلمة كاستروم (اي المخيم العسكري: المعسكر) انتقلت الى اللغة العربية في كلمة «قصر» وارتدت الى ايطاليا (صقلية) في كلمة كاسيرو العربية - اللاتينية - الايطالية. وفوساطوم (وهي الخندق العسكري عند الرومان) - فسطاط بالعربية. وهكذا...

من وجهة نظر لغوية، اهتم بهذه المشكلات جيوفان باتيستا بيللغريني: «أثر التعريب في اللغة النيولاتينية في ايطاليا» (بريسيا: بايديا، ١٩٧٢ - مجلدان) وقد أتاح له بحثه أن يكتشف حوالي ألفي كلمة انتقلت من العربية الى اللغات الرومانية أو النيولاتينية!

وللتأثيرات الثقافية مظاهر عديدة اخرى في الاساطير والفولكلور والتقاليد. وقد توصل جيورجيو ليفي ديلا فيدا في أبحاثه الاستشراقية الى خلاصات محددة.

دانتي والأصول العربية

نأتي الآن الى واحدة من المشكلات التي أسالت كثيراً من الحبر، وبدأت حول قضية معينة ثم تحولت الى السؤال: ما هو مدى ما كان معروفاً في العالم الغربي عموماً، وفي ايطاليا خصوصاً، عن الحضارة العربية، في العصور الاوروبية الوسطى؟

نقطة الانطلاق كان قد حددها ميغيل آسين بالاسيوس في مؤلفه الأساسي آنذاك: «المعتقدات الاسلامية والكوميديا الالهية» (مدريد ١٩١٩)، الذي عكس معارف، لكن أيضاً جهل أبناء ذلك العصر وأفكارهم المسبقة في هذه المسائل. وقيل يومئذ ان التشابهات التي ذكرها آسين بالسيوس بين الكوميديا الالهية والآداب العربية التي روت رؤيا النبي لم يكن لها حظ من الصحة بالنظر الى عدم قيام علاقة بين هذه الآداب ودانتي اليغييري الذي كان يجهل العربية. غير ان المعراج، الذي ذكره الفرنسيون قديماً في كلمة محرفة «هالميريغ»، وورد باللاتينية باسم «سكالا ماهوميديس» أو «سلم محمد» (ﷺ)، هذا المعراج، كان شائعاً في الترجمات المتداولة بين الأيدي، والتي انتشرت انتشاراً سريعاً وواسعاً جداً. فمثلاً غوفريدو دوفيتيربو، أمين سر فريدريك بربروس، ألّف سنة ١١٨٦ فصلاً من «البانتيون» المهم جداً بالنسبة لمعرفة ما كان الغربيون يعرفونه عن الاسلام في القرن الثاني عشر في أوروبا. وفي المكتبة الوطنية في باريس (المجلد اللاتيني ٦٠٦٤ للقرن الرابع عشر)، توجد النسخة اللاتينية التي عرفها دانتي اليغييري: «سكالا ماهوميديس...»

ويصف فازيو ديلي اوبيرتي، بين العامين ١٣٥٠ و١٣٦٠، في كتابه «ديتا موندو» المعراج، ويقدم وصفاً شعرياً للجنة كما يصفها القرآن. والملف ٥٠ (من القرن الرابع عشر) في مكتبة مجمع بيزا الكهنوتي، يضم رواية مهمة جداً عن النبي محمد. وقام الراهب الفرنسيسكاني روبرتو كاراتشيولو دي ليشي في العام ١٤٩٥ بنشر ملخص طويل بالايطالية عن معراج النبي. ومن المؤكد ان هؤلاء المؤلفين استندوا الى مؤلفات قديمة جداً، بعضها مما قبل القرن الثامن الميلادي، أي من عصر «فجر الاسلام».

ولنعد الى نقطة الانطلاق فان «كتاب المعراج»، ترجم من العربية الى اللغة الكاتالونية، ثم ترجمه عنها الى اللاتينية النبيل الفلورنسي بونافنتورا دوسيانا. كما ترجم الى الفرنسية والايطالية، وكلها لغات يعرفها دانتي اليغييري، مما حدا العلماء على طرح السؤال بأسلوب جديد. فهكذا أمكن تحديد الصلة بين رؤيا النبي محمد (ﷺ) وعصر دانتي اليغييري. واذا كان لا بد من حل المشكلة ايجابياً، فانه يتوجب الانطلاق من نص بونافنتورا دوسيانا اللاتيني، أو من النص الفرنسي. هذه النصوص نشرها انريكو تشيرولي

(*) د. مارتينيانو بيليغرينو رونكاليا، دكتور آداب من السوربون، مؤسس ومدير مركز الدراسات الشرقية في القاهرة، استاذ في كلية اللغات في جامعة عين شمس، استاذ زائر في جامعات فرانكفورت وجنيف، والاميركية ببيروت، وليون، واللبنانية، الخ.. عضو في الجمعية الدولية للدراسات القبطية، عضو في الجمعية الدولية للدراسات الشرقية، اسطمبول، وغيرها من الجمعيات العلمية المرموقة في المانيا وفرنسا.

استناداً الى مخطوطات اوكسفورد وباريس والفاتيكان. ومن هذه النصوص كانت حقيقة واضحة تفرض نفسها، حقيقة تاريخية بالغة الاهمية بالنسبة لتاريخ التأثيرات العربية - الاسلامية في الحضارة الاوروبية إجمالاً والحضارة الايطالية على الأخص - بما فيها بالتحديد الحضارة التوسكانية، حضارة دانتي اليغييري - أي ان عالم الثقافة الايطالي والغربي عرف حقيقة الرؤيا الاسلامية الماورائية، المعراج، ليس بواسطة الأدب الشعري الراقي، أو الفلسفي أو الروحاني، بل من خلال قطعة من الأدب الشعبي هي «كتاب المعراج» للواعظ أبو الحسن أحمد بن عبد الله ابن محمد البكري البصري. وهو كتاب يبقى تاريخ وضعه سراً، مثل تاريخ موت صاحبه. ذلك ان لبعض الكتب مصيراً لا يمكن التكهن به.

وثمة مسائل نعرف كيف تبدأ ولا نعرف دائماً الى أين تصل. وهكذا فان مسألة من هذه المسائل تركزت على دانتي اليغييري، واتخذت أبعاداً اوروبية. ثم انه، الى المعلومات المتزايدة شيئاً فشيئاً، عن التأثير الثابت والمؤكد للفلسفة الاسلامية وعلوم الشرق الاسلامي في الفكر الغربي في العصور الوسطى، منذ بداية القرن التاسع، يتعين إضافة كيفية معرفة الدين الاسلامي وطرح السؤال: الى أي مدى جرى تشويه صورة الاسلام خلال المجادلات الدينية؟ من المتعارف عليه انه، ضمن هذه المسألة، تتخذ معرفة الافكار الاسلامية عن الحياة الماورائية أهمية خاصة في النقاش، وحتى في فضول الغربيين. وهذا الفضول مشار إليه في كتابات العصور الوسطى ابتداء بالأب سبرنديو في قرطبة في القرن التاسع، حتى غيدو تيرينا في قطلونيا في القرن الرابع عشر، وهو معاصر لدانتي اليغييري. فمنذ العام ٨٥٠، كان الفارو مطران قرطبة يشتكي بسبب عظيم الاهتمام الذي يوليه المسيحيون المعاصرون له للاهوت والفلسفة الاسلاميين. حتى ان الاعتقاد الاوروبي الشائع الذي كان يعتبر ان الاسلام والمسيحية ليسا متباعدين كثيراً في العقيدة، كان يرى الديانة الاسلامية وكأنها «هرطقة» مسيحية. هذا الاعتقاد يثبت ان الاسلام كان معروفاً اكثر مما يظن، حتى لو كانت نقطة الانطلاق لمعرفته، تشوهها المجادلات العقيمة. ويرى ماريو مارتينو مورينو في: «الاسلام والمسيحية من القرن السابع الى القرن الحادي عشر» (لاتور - مورينو - غابرييلي - روسي، «المسيحية والاسلام»، بريسيا ١٩٤٩، ٢٦) ان ثمة انسجاماً اكبر بين الاسلام والمسيحية (بالمقارنة مع ما بين الاسلام واليهودية) بسبب المساومة اللاهوتية التي يتشاركان فيها.


دانتي.

وهكذا انزلقت مسألة دانتي رويدا رويدا الى مرتبتها الثقافية الحقيقية، على انها أقصوصة من تاريخ المبادلات الحضارية. وان كان هذا الواقع دينياً والآخر فلسفياً، أو أن كان هذا الموقف طبياً، والثاني شاعرياً، الخ، فليس ذلك موطن الأهمية. إذ أن كل شيء يجري استيعابه بالمعرفة، التي هي في أساس تفاهم البشر أصحاب النيات السليمة. وكل هذه المظاهر، الديني واللاهوتي والفلسفي والأدبي منها، ليست سوى مظاهر مختلفة لمسألة واحدة. فأوروبا العصور الوسطى لم تكن تستطيع، إلاّ عن طريق المعرفة، أن تأخذ موقفاً، فتتمثل أو ترفض المعتقدات الاسلامية حول الآخرة، وما تراه مقبولاً أو مرفوضاً منها. فانتشار «كتاب المعراج» في القرون الوسطى كان هائلاً، وظل على ازدياد حتى القرن السابع عشر. والى جانب هذا المؤلف الشعبي الذي ضرب أرقاماً قياسية، أضيف عدد من النصوص المستقاة من مصادر اخرى وصلت الى

الغرب، خصوصاً بعد الغزو المسيحي لغرناطة عام ١٤٩٢، من خلال كتاب خوان اندريس، وهو فقيه مسلم تحول الى المسيحية. وأضاف آخرون مساهمات الى معرفة الاسلام في الغرب، وخصوصاً حول المعتقدات الدينية والأخروية، مثل الحاخام موبسيس سفارادي في القرن الثاني عشر، الذي تحول الى المسيحية تحت اسم بتروس الفونسي، ومثل ابراهام الفقيم، في منتصف القرن الثالث عشر.

ان المجادلات هي أفضل الطرق لعدم التفاهم. لكنها تعطي المؤرخ ميزة معينة. فمن خلالها يستطيع ان يكشف مدى معرفة المجادل بخصمه الفكري. وهكذا نلاحظ كمية مثيرة من المعلومات في الكتابات الغربية، تسمح ربما للغربيين بأن يعرفوا عن الاسلام، اكثر مما عرف المسلمون عن المسيحية.

دراسات في التفاعل الحضاري

وفي حين كانت فيه للاحتكاك الاوروبي الغربي مع العالم الاسلامي في ميدان الفلسفة والعلوم حصة غالبة في تطوير الثقافة في العصور الوسطى، حتى في حقول التقاليد الدينية الاسلامية وهي حقول حساسة جداً، كانت المبادلات والاتصالات المتبادلة أهم وأوسع مما كان يجرؤ العلماء على تخيله قبل أبحاث انريكو تشيرولي الأساسية. فبأسماء أمثال كبار القديسين المسيحيين والدكاترة والعلماء الغربيين ألبرت الكبير وتوما الاكويني وبونافنتورا دي بالنيوريغيو، وجان دونز سكوت، والفلاسفة ابن سينا وابن رشد والغزالي، وبالأسماء الكبيرة الاخرى كالبطيني والخوارزمي والبيروني ومايكل سكوتس اريجينا وليوناردو فيبوناتشي وغيرهم كثيرين، بهذه الأسماء ارتبطت المنجزات العظيمة، التي استطاعت من قرطبة وعبر كل البلاد الاسلامية حتى آسيا الوسطى، ومن طليطلة وعبر قطلونية وحتى باريس واوكسفورد وبولونيا (المدينة الايطالية) وبادوا وصقلية، ان تحول الفكر والنشاطات الانسانية. وقد تشبعت الفلسفة السكولاستية بالفلسفة الاسلامية، في دراسة أرسطو الذي راجعه وصحّحه وترجمه خصوصاً ابن رشد. وقد نشر زديلاف كوكسيفتش في وارسو سنة ١٩٦٥ نصوصاً أصلية لاتينية لفلاسفة ايطاليين من جامعة بولونيا كانوا يتبعون مذاهب ابن رشد وينشرونها في تعاليمهم: انسيلمو دي كومو، وكامبيولو دي بولونيا، وجياكومو دي بياتشينزا، وجيوردانو دي ترنتو، وماتيو دي غوبيو، وبيترو دي بونيفاتشيس، وانجيلو داريدزو، وتاديو دي بارما. انظر مؤلفات أ. ماير («مدخل الى تاريخ الابن رشدية الايطالية في القرن الرابع عشر» – بالالمانية، المصادر والمراجع من المحفوظات والمكتبات الايطالية، ١٩٤٤) ومارتن غرابمان («انجيلو داريدزو، ابن رشدي ايطالي»، وهو مؤلف منشور في مونستر ١٩٥٠) وصوفيا فاني روفيغي («مسائل في كتاب «دي انيما» لتاديو دي بارما»، ميلانو ١٩٥١) و ش. ارمانتينغر («الابن رشدية في أوائل القرن الرابع عشر في بولونيا» – دراسات القرون الوسطى، ١٩٥٤) وسلستينو بيانا («مساهمة جديدة في دراسة التيارات العقائدية لجامعة بولونيا في القرن الرابع عشر» – في انطونيانوم، روما ١٩٤٨).

وثمة مدرسة «ابن رشدية» مهّدت، إذا صح التعبير، لاكتشاف غاليليو غاليلي، ودرسها أ. ماير («مدرسة ايطالية ابن رشدية مهدت لغاليلي»، روما ١٩٤٩). ودرس النشاطات الابن رشدية، عند زلفريدو دي بياتشينزا، ز. كوكسيفتش الذي توصل الى ان دي بياتشينزا هو فيلسوف ابن رشدي خصب جداً. وقد نشر لائحة مؤلفاته في مقالة بعنوان: «المؤلفات المخطوطة لابن رشدي بولوني هو ياكوبوس دي بلاسنتيا»، في «مجلة الفلسفة السكولاستية الجديدة»، ١٩٦٣، ص ص ٢١١ الى ٢١٦. أنظر ايضاً للعالم ذاته: «تعليق على كتاب دي انيما للابن رشدي البولوني ياكوبوس دي بلاسنتيا» في المجلة ذاتها والعام نفسه من ص١ الى ص٢٠. وليسمح لي ان أضيف أحد مؤلفات شبابي المتواضع، ملاحظة عن «جيوفاني دونز سكوتو والاسلام»، في «دراسات شرقية» (القاهرة ١٩٥٧ – ص ص ٥٢ – ٥٨). وكان جان دونز سكوت ملماً بالتراث الاسلامي في العالم الغربي، وهو التراث الذي يتخطى مجرد الفضول الموسمي.

ولختم هذه الملاحظات الموثقة والمختصرة، فيما يلي بعض الدراسات التي يمكنها ان تفي بغرض أية دراسات مفصلة لاحقة في الموضوع: جيمس كريتسيك: «بيتر الموقر والاسلام» (دراسات برنستون الشرقية، ٢٣ – منشورات جامعة برنستون ١٩٦٤) وهذه دراسة مهمة جداً لمعرفة الدفعة التي تلقتها الدراسات الاسلامية

والتحفظات التي واجهتها أحياناً بين الأوساط الكهنوتية على الأخص : فقد جرت أيضاً محاولات لترجمة القرآن الى اللاتينية. وعن مساهمة ودور العرب، هناك دراسة عبد الرحمن البدوي : «دور العرب في تكوين الفكر الاوروبي»، القاهرة ١٩٦٧ (الطبعة الثانية المزيدة). ونورمان دانييل : «العرب واوروبا في القرون الوسطى»، بيروت، مكتبة لبنان ١٩٧٥. ووليليام مونتغمري وات : «تأثير الاسلام في اوروبا القرون الوسطى» في دراسة اسلامية، ٩، ادنبرة، الصحافة الجامعية، ١٩٧٢. وغيورغ جاكوب : «اثر الشرق في الغرب خلال العصور الوسطى»، هانوفر ١٩٢٤ (أعيدت طباعته في أوسنابروك ١٩٧٢). و س. دوفريدي في «التّرجمة الايطالية الاولى للقرآن كأساس للعلاقات بين المسيحية والاسلام» (دراسات ومواد لمعارف الشرق في ايطاليا، ٢، نابولي، المعهد الشرقي العالمي، ١٩٦٧). ولمعرفة العلاقات بين الشرق والغرب بدءاً من القرن الثامن عشر، هناك دراسة موسى الكاظم التونسي : «وثائق التدخل الاجنبي في الوطن العربي»، دمشق، دار البعث، ١٩٧٢. وعن إمكانات التبادل الثقافي يمكن قراءة تقارير ندوة نشرها ايلي اديب سليم : «الانسان ومستقبل الحضارة العربية. أبحاث مؤتمرات العلائق الدولية لكبار علماء العالم ومفكريه»، بيروت، دار المتحدة، ١٩٧٣. وأحمد أمين : «الشرق والغرب»، القاهرة، ١٩٥٥. وعن العلاقات الثقافية بين الشرق والغرب المعاصر يمكن الرجوع الى مراجع كثيرة منها، لحسام الخطيب : «سبل المؤثرات الاجنبية واشكالها في القصة السورية. دراسة تطبيقية في الأدب المقارن»، دمشق، ١٩٧٤، وبصورة إجمالية دراسات تفسيرية حول الفكر العربي والحضارة الغربية المعاصرة، وضعها عاطف أحمد، وأنور السادات، ومحمد وهبي، واسحق موسى الحسيني، في «الفكر السياسي والاجتماعي في الشرق الاوسط المعاصر» الذي حرره كمال كربات، نيويورك، ١٩٦٨.

وفي شهر ايلول (سبتمبر) ١٩٥٥، (من ١٩ الى ٢٤ منه) جمع «مركز الثقافة والحضارة لمؤسسة جيورجيو تشيني — البندقية»، ندوة برئاسة الكاتب الايطالي غويدو بيوفيني، حول موضوع : «سيرورة الاسلام في الحضارة الغربية». (فلورنسا : سانسوني، ١٩٥٧). هذه المحاكمة للحضارة الغربية، من جانب نخبة مسلمة تهمنا، لأن بعض العلماء الايطاليين حاولوا منعهم من الكلام. المسلمون كان يمثلهم طّه حسين (مصر) حسن تقي زاده (ايران) حسن حسني عبد الوهاب (تونس) جواد علي (العراق) حسن قبلان (لبنان) زكي وليدي توغان (تركيا) مكتبة مينوفي (ايران). واذا ما قرأنا المساهمات المختلفة، فانك تشعر بالحزن، ذلك ان نخباً فكرية تهبط الى مستوى بلاغة المساجلات الضيقة. فلا يسعك إلاّ أن تلاحظ المسافة الهائلة التي تفصلنا عن التيارات الفكرية الكبيرة التي خلقت عملية الامتصاص الحضاري بين الاسلام والمسيحية الغربية منذ العصور الوسطى وحتى القرن السادس عشر. لقد كانت المبادلات ملموسة جداً الى حد ان الفكر الاوروبي تجدد، وانخرط في مناخ الوحدة الحضارية لبلاد المتوسط.



طّه حسين.

طّه حسين، طّه حسين الكبير، لم يجد ما يقوله في البندقية، سوى ان فرنسا خانت مهمتها الحضارية، وان الفرنسيين هم في نهاية الأمر مخمورون! أما اندريه مالرو، مالرو العظيم، فكتب : «رغم انني في شبابي عرفت الشرق في صورة عجوز عربي على حماره...» «مذكرات مضادة، ١، باريس : غاليمار، ١٩٦٧، ١١).

ان بعض العقول الكبيرة تبالغ أحياناً في ممارسة الذكاء، فنصل بذلك الى انحطاط في ثياب كلمات جيدة. فلا تعود هذه حضارة. ولحسن الحظ فان الامتصاص الحضاري حول المتوسط يواصل عمله رغم «الكلمات الجيدة» هذه، خصوصاً منذ حوالي عشرين سنة. وان حركة العودة الى الينابيع تسمح لنا بفهم أفضل للتكامل، الذي يتجلى في الحضارة بين الاسلام والمسيحية، اكثر بكثير مما يماثله بين المسيحية واليهودية : ولكننا هنا نلج موضوعاً جديداً... وانني أتوقف ●

رشيد رضا:

فقيه يبحث عن "الدولة" و"الإصلاح" في إطار الإسلام

د. وجيه كوثراني*



الشيخ رشيد رضا

* مدرّس التاريخ الاجتماعي العربي في الجامعة اللبنانية – كلية الآداب ومعهد العلوم الاجتماعية.

مؤلفاته:

* الاتجاهات الاجتماعية السياسية في جبل لبنان والمشرق العربي ١٨٦٠ – ١٩٢٠، بيروت، ط١، ١٩٧٦، ط٢ ١٩٧٨.
* بلاد الشام: السكان، الاقتصاد والسياسة الفرنسية في مطالع القرن العشرين. قراءة في الوثائق – تحت الطبع يصدر عن معهد الانماء العربي.
* رشيد رضا: مختارات سياسية من مجلة المنار، تحت الطبع، يصدر عن دار الطليعة.

إلى جانب أبحاث ومحاضرات نشرت في مجلة كلية الآداب، الجامعة اللبنانية، دراسات عربية، الفكر العربي، قضايا عربية..

نشأتـه

● ولد رشيد رضا في ٢٧ جمادى الأولى سنة ١٢٨٢هـ / ١٨٦٥م في قرية القلمون (وهي تبعد عن طرابلس الشام زهاء ثلاثة أميال) في بيت من بيوتات الأشراف، أو «الأسياد» الذين يتحدرون، وفق قصة تاريخ العائلة المتناقَل، الى آل البيت، فرعِ الحسين بن علي. وكان هذا الانتساب يحدد موقعاً في الهرم الاجتماعي في الدولة الاسلامية، يسمح بممارسة سلطة دينية تطال مجالات سلطوية عديدة: سياسية وقضائية، وترتكز الى عصبة عائلية ووظيفة علمية – دينية تتسع بشرياً وجغرافياً بمقدار قوة هذه العصبة وأهمية هذه الوظيفة «الايديولوجية» في مجال خدمة الدولة.

يحدثنا رشيد في سيرته عن موقع عائلته هذا فيقول: «وأهل بيتنا ممتازون فيهم بأنهم أهل العلم والارشاد والرياسة، ويلقبون بالمشايخ للتمييز، وجدّي الثالث هو الذي بنى لهم المسجد المعروف الآن بجانب بيتنا القديم الذي ولدت فيه، وكان لهم مسجد قديم هدم وتقاسموا حجارته لغلبة الجهل عليهم. فأحيا جدنا الدين ببناء المسجد وإقامة الشعائر فيه من إمامة وخطابة وتدريس، وكان عالماً صالحاً مشهوراً بالكرامات، وقد أنعم عليه السلطان العثماني ببراءة سلطانية حبس عليه فيها سبعة قراريط من ٢٤ قيراطاً من أموال الدولة الأميرية، وببراءات اخرى بالامامة والخطابة في المسجد، وقد تسلسلت هذه البراءات من السلاطين في ذريته حتى آلت إليَّ، فكانت آخر براءة وجهت عليَّ أو إلي من السلطان محمد وحيد الدين قبل الحرب العامة.»[1].

وفي مثل هذه البيوتات كانت الثقافة الاسلامية تتناقل في إطار مجالس العائلة وتقدَّم عبر كتاب القرية وعلى يد «علماء» معتمَدين في شتى علوم الدين. بيد ان المرحلة التي شبَّ فيها رشيد رضا هي المرحلة التي بدأت فيها المدرسة «العصرية» («كمؤسسة» تحتذي النموذج الغربي) تتأسس وتنتشر، وذلك انطلاقاً من مواقع سياسية وثقافية مختلفة: إرساليات أجنبية، مدارس رسمية (المدارس العثمانية)، ومدارس أهلية خاصة بأفراد أو طوائف.

وبالنسبة لرشيد رضا، التحق أولاً بكتّاب قرية القلمون ثم انتقل الى المدرسة الرشيدية بطرابلس، ثم الى المدرسة الوطنية الاسلامية التي كان قد أسسها الشيخ حسين الجسر في سياق التزاحم الطوائفي على نشر التعليم، وفي سياق تعاظم حاجة المسلمين للوقوف في وجه النشاط الارسالي التعليمي. يحدثنا رشيد رضا عن نشأته العلمية الأولى فيقول: «لقد تعلمت في كتاب قريتنا (القلمون) قراءة القرآن والخط وقواعد الحساب الاربع، ثم ادخلت في المدرسة الرشيدية في مدينتنا (طرابلس الشام) وهي مدرسة ابتدائية للدولة يدرس فيها الصرف والنحو والحساب ومبادىء الجغرافية وعلم الحال (العقائد والعبادات) واللغة التركية واللغة العربية، ولكن جميع التدريس فيها باللغة التركية. فأتممت فيها سنة ثم لم أعُد إليها لأنني لم أحب أن أخدم الحكومة».

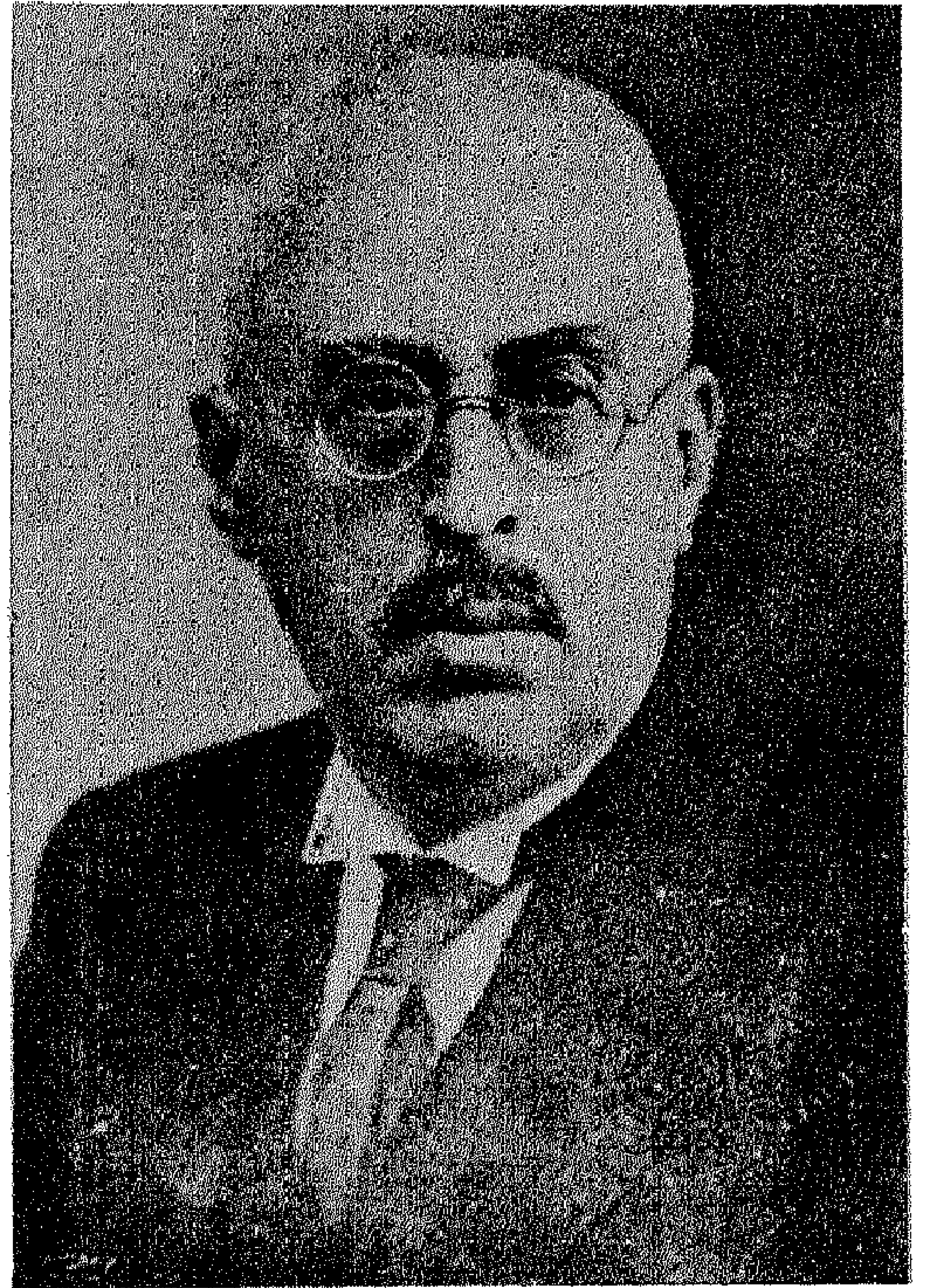
ويتابع: «ثم دخلت المدرسة الوطنية الاسلامية وهي أرقى من المدرسة الرشيدية وجميع التعليم فيها باللغة العربية إلاّ اللغتين التركية والفرنسية، وتدرس فيها العلوم العربية والشرعية والمنطق والرياضيات والفلسفة الطبيعية، وكان استاذنا العلاّمة الشيخ حسين الجسر الأزهري هو المدير لها بعد أن كان هو الذي سعى لتأسيسها، لأن رأيه ان الامة الاسلامية لا تصلح وترقى إلاّ بالجمع بين علوم الدين وعلوم الدنيا على الطريقة العصرية الاوروبية مع التربية الاسلامية الوطنية تجاه التربية الاجنبية في مدارس الدول الاوروبية والاميركانية، ولكن الحكومة العثمانية لم تقبل ان تعدها من المدارس الدينية التي يعفى طلابها من الخدمة العسكرية، فكان ذلك سبباً لالغائها، فحرمت مدينة طرابلس وملحقاتها من فوائدها بجهل الدولة وغباوتها. وتفرق طلبتها، فذهب بعضهم الى مدارس بيروت المختلفة وانقطع بعضهم للطلب في المدارس الدينية في طرابلس وأنا منهم.»[2].



مصدر ثقافته

ويذكر رشيد رضا مصادر تحصيله الثقافي في «سيرته الذاتية»[٣]، ومن بين المصادر الكتبية يذكر «إحياء علوم الدين» للغزالي. وهو يقول فيه: «وكنت أكثر مراجعته وقراءة بعض أبوابه عوداً على بدء، ثم صرت أقرأه للناس وكان له أكبر التأثير في ديني وأخلاقي وعلمي وعملي»[٤].

ويذكر أيضاً أساتذته الذين تتلمذ عليهم في ميادين علوم الدين فيقول: «وتخرجت في العلوم العربية والشرعية والعقلية على الشيخ حسين الجسر... وأخذت الحديث وفقه الشافعية عن شيخ الشيوخ العلاّمة الشيخ محمود نشّابة... وحضرت على العلاّمة الشيخ عبد الغني الرافعي قليلاً من كتاب «نيل الأوطار» للقاضي الشوكاني... وتلقيت عن العالم المحدث العابد الشهير الشيخ محمد القاوقجي الكبير كتابه في الأحاديث المسلسلة وبعض كتابه المعجم الوجيز...»[٥]. ويعلق رشيد رضا على اهتمامه بالحديث: «وقد فتح لي الاشتغال بالحديث رواية ودراية باب الانتقاد على كتب الوعظ والفقه والأدب ودواوين الخطب، فأنتقد ما فيها من الأحاديث الضعيفة والموضوعة»[٦]. وكان لهذا الاهتمام أثر في توجيه رشيد رضا نحو نزعة ابن تيمية في العودة الى النصوص وتحقيقها والابتعاد عن التأثيرات الصوفية التي رافقت مرحلة شبابه. ويعلق شكيب ارسلان في معرض نقل سيرة رشيد رضا على هذا الأمر بما يلي: «يقال ان الإمام الغزالي كان يستشهد حتى بالضعاف من الأحاديث لأجل تأييد نظرياته، فالأستاذ السيد رشيد عرف هذا بعد أن تبحر في علم الحديث وصار من أئمته. وكذلك بعد أن تبحَّر في علم الحديث نزع إلى مشرب ابن تيمية رحمه الله وترك أقوال الصوفية ورجع عن كثير من نظريات الغزالي العلمية»[٧].

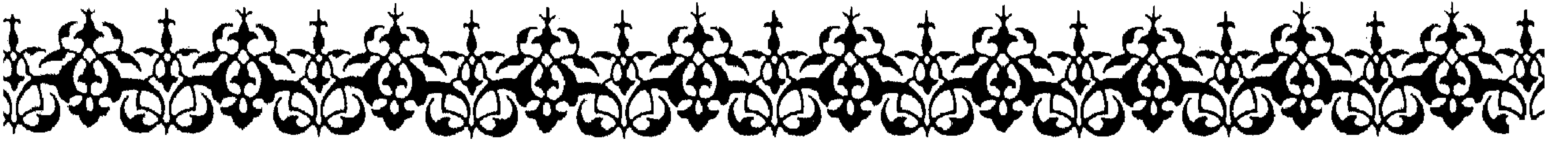


الأمير شكيب إرسلان.

تأثير «العروة الوثقى»: الأفغاني وعبده

هذا، بيد أن التأثير العميق الذي جاء عبر مقالات «العروة الوثقى»، الجريدة التي كان قد أصدرها في باريس جمال الدين الافغاني ومحمد عبده، كان هو الحاسم في إثارة الأسئلة الكبرى في حياته، وممارساته حول الاسلام كدين ودولة، أي كنظام علاقات في المجتمع. وكان رضا قد اطلع على أعداد هذه الجريدة قبل سفره الى مصر. يُذكر «إنه ظفر بنسخة من تلك الجريدة في أوراق أبيه فأكبّ على قراءتها في شوق وتلهف، ثم أخذ ينتقل من منزل إلى آخر باحثاً عن الأعداد الباقية، حتى إذا وجدها





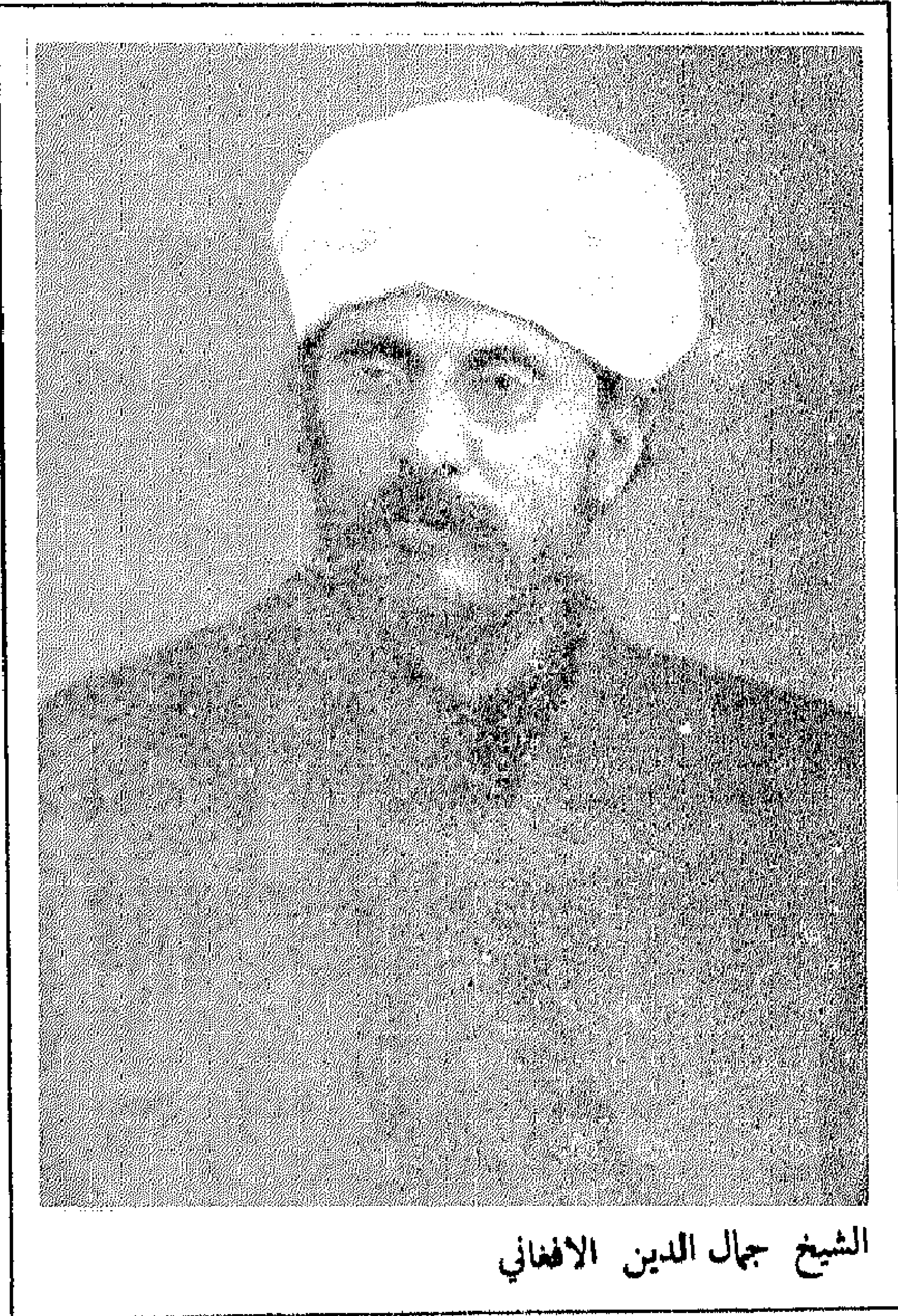
نسخها بيده، واستطاع أن يكمل مجموعة الأعداد التي صدرت من نسخ كانت عند الشيخ حسين الجسر.[8] »

ويشير رشيد رضا إلى أثر «العروة الوثقى» في توجيهه فيقول: «وأكبر أثرها عندي انها هي التي وجهت نفسي للسعي في الاصلاح الاسلامي العام بعد أن كنت لا افكر إلاّ فيمن بين يدي، وأرى كل الواجب على أن أظهر في دروسي العقيدة الصحيحة والأخلاق الفاضلة، وآمر بالمعروف وانهى عن المنكر وأنفر من المعاصي وأنا لا أعلم سبب الفساد الذي فعل في العقائد والأخلاق ما فعل، ودفع المسلمين الى مزالق الزلل، حتى هدتني «العروة الوثقى» الى المناشيء والعلل»[9].

«فالعروة الوثقى» كانت قد طرحت الواقع الذي آلت إليه أوضاع المسلمين من منظور «الفقيه» الذي يحرص على أنشاء دولة إسلامية مركزية قوية. «ففساد» المسلمين «دخل على توالي الزمن من عقيدة الجبر والخطأ في فهم القضاء والقدر»، ومما أدخله على الاسلام من «زندقة» وتشيعات وحزبيات، ومما أدخل على «الحديث» من أقاويل منحولة لتبرير الأمر الواقع[10]... والحل هو الحل الذي يقدمه «الفقيه» المسلم التقليدي: تنقية الاسلام وتوحيد اتجاهاته.

لكن أيضاً في مرحلة الهجوم الاستعماري الكبير، واحتلال الانكليز لمصر تكتسب دعوة «العروة الوثقى» للعودة الى الأصول وتمثل الاسلام في مرحلة صعوده وبناء دولته الأولى (الاسلام الراشدي) مضموناً سياسياً يتجلى في الدعوة إلى مقاومة الاستعمار ورد هجماته العسكرية والسياسية والثقافية: فثمة دعوة لتضامن الشرقيين، ونداء للدولة العثمانية «للذود عن مصر، وكف يد الانجليز عنها»، كذلك دعوة لاستنهاض الهمم والتصدي للدراسات الغربية التي تجعل من الاسلام ديناً ينشر الأوهام، والقنوط والاتكالية ويعادي العقلانية والعلم.

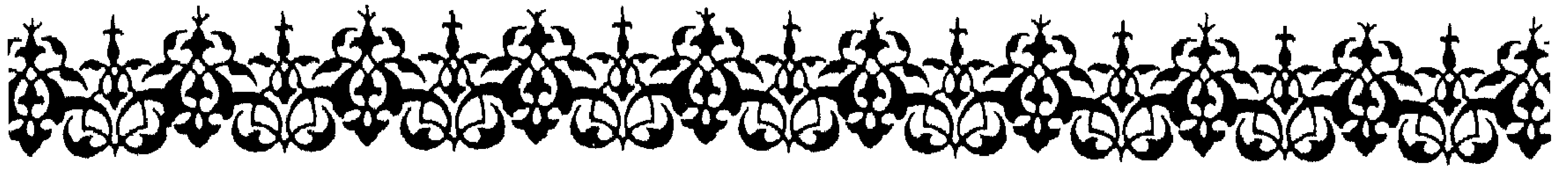
وكان قد صدر من «العروة الوثقى» ثمانية عشر



الشيخ جمال الدين الافغاني

عدداً، صدر أولها في ١٣ آذار (مارس) ١٨٨٤ وآخرها في ١٧ تشرين الاول (اكتوبر) سنة ١٨٨٤م. هذه الأعداد استنسخها رشيد رضا واطلع عليها وأصبحت بالنسبة إليه مراجع أساسية لاطروحات الاصلاح الديني والعمل السياسي وتوجهاته. وأثناء إقامة محمد عبده في بيروت بعد إقفال جريدة «العروة الوثقى»، كان رشيد رضا يتابع نشاط الاستاذ الإمام في بيروت، حيث اشتغل بالتأليف والتعليم في المدرسة السلطانية مدة خمس سنوات. ومما يذكر في هذا المجال تأثر رشيد رضا بترجمة «رسالة الرّد على مذهب الدهريين» التي كان قد ألّفها جمال الدين الافغاني بالفارسية. وقد عمل محمد عبده على ترجمتها الى العربية مستعيناً بشخصية تجيد الفارسية «فأتاح لهذه الرسالة القيمة أن تنشر بين الأوساط العلمية»[11].





في هذا الوقت كان رشيد رضا يشق طريقه في ميدان الكتابة في الصحف المحلية ويستلهم أفكار الاستاذين الكبيرين.

ومع عودة محمد عبده الى مصر وتوجُّه الافغاني الى الأستانة (١٨٩٢) تبدأ مرحلة جديدة في فرز الاتجاهات الاصلاحية الاسلامية بين صاحبي «العروة الوثقى». فجمال الدين استمر يعتبر الاصلاح السياسي في الدولة، ومقاومة الاستعمار هو المنطلق.. ولذلك ظل يراهن على رفع صوته من عواصم السلطنات الاسلامية. وكانت آخر مراهناته التي أضحت بالرغم عنه أسيرة دبلوماسية السلطان عبد الحميد، ذهابه الى الاستانة. وهناك ما لبث أن شعر أنه أصبح في قفص من ذهب ينال ما يريد من حفاوة وتكريم دون تلبية رسالته الأولى وهي إصلاح الاسلام والمسلمين»[١٢]، واستمر على هذه الحال الى أن قضى في «سجنه الذهبي» وكان ذلك في عام ١٨٩٧، العام الذي قرر فيه رشيد رضا الهجرة الى مصر.

أما عبده فان ثمة اتجاهاً اصلاحياً بدأ يتكون لديه أثناء إقامته في بيروت يؤكد على التربية والتعليم في الاصلاح، لا على العمل السياسي. لقد بدأ عبده يتخلى تدريجاً عن تجربته السابقة: «الاشتراك في الثورة العرابية ودعمها، محاربة الانكليز، التحريض السياسي ضد الاستعمار في «العروة الوثقى»، ليتجه في وجهة العمل التربوي معلناً ابتعاده واشمئزازه من السياسة»[١٣]، وهذا ما سيتبعه بعد عودته الى مصر، وفي سياق نشاطاته في مضمار اصلاح الازهر وتأسيس المدارس والموقف من الخديوي والسلطات الانكليزية.

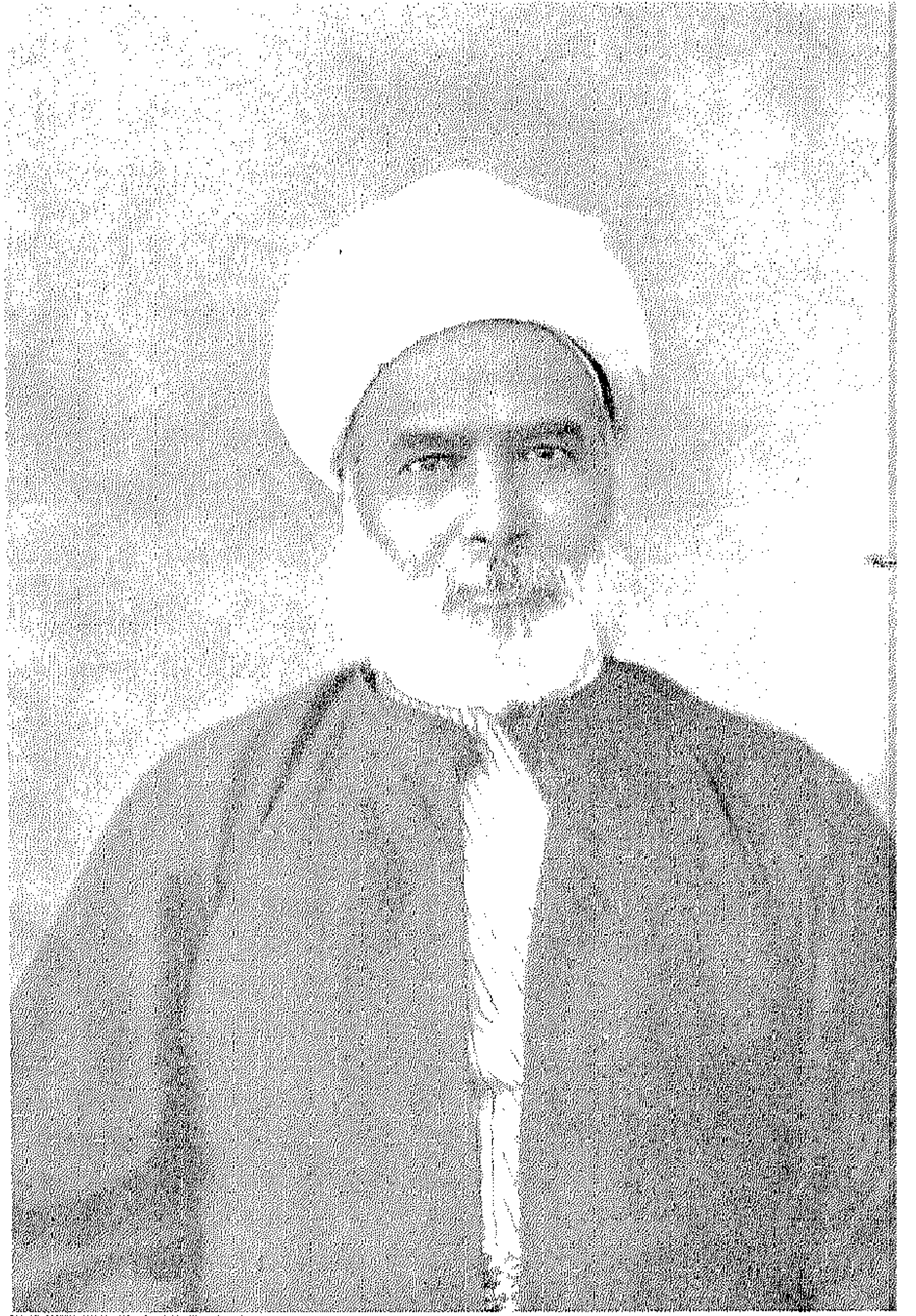
وبقيت تجربة «العروة الوثقى» «صيحة» فريدة في طبيعتها وتوجهها ومشروعها السياسي الكبير والطموح: محاربة الاستعمار، اصلاح الدولة، تحقيق التضامن والوحدة بين الشعوب الاسلامية، التحريض ضد الظلم والقهر...

وهكذا، في الوقت الذي ضاع فيه المشروع السياسي للأفغاني في نزعة تجريبية نضالية تحرِّض على الثورة والمقاومة لكن تراهن على إصلاح «الدولة» بقوى الدولة ذاتها، وفي الوقت الذي توجه فيه عبده بعد عودته الى مصر إلى إصلاح حال «الأمة» عن طريق التعليم، وفَصَل السياسة عن الاصلاح بحيث ضاع مشروع الاصلاح في السياسة الانكليزية «المحدِّثة» نفسها، نرى رشيد رضا يبدأ مشروعه الاصلاحي: العزم على الهجرة الى مصر وتأسيس مجلة اصلاحية هناك.

الهجرة إلى مصر وتأسيس «المنار»

وأتى مشروع هجرة رشيد رضا الى مصر كردّ على التدابير البوليسية الاستبدادية التي لجأ اليها السلطان عبد الحميد وعلى استحالة التعبير عن الآراء والأفكار التي بدأ رشيد رضا يتشبّع بها من خلال طروحات «العروة الوثقى» في فهم الاسلام وتمثله. لقد كانت طرق الصوفية من حلقات ذكر، وطقوس دراويش، قد أصبحت من ركائز الاستلاب الشعبي الواسع التي تدعمها قوى السلطان عبد الحميد. وكان أبو الهدى الصيادي الذي لعب دوراً مهماً في استدراج جمال الدين الافغاني الى الاستانة وتحجيمه، وإهماله أثناء مرضه حتى وفاته كما تردّد آنذاك، ينتسب إلى هذه الطرق ويدافع عنها ويشجع أشكال ممارساتها الشعبية، ويستخدم رسوخها في الوعي الجماهيري كظواهر اجتماعية، أداةً للتعمية وتشديد الارتباط بالسلطان والطاعة له عبر الوسطاء والشفعاء وأصحاب الكرامات. وكان رشيد رضا قد أخذ قبل سفره إلى مصر يتصدى لظواهر الصوفية الشعبية فألّف في ذلك كتاباً بعنوان: «الحكمة الشرعية في محاكمة القادرية والرفاعية» ولكن، حتى في حدود التصدي لمسائل إصلاحية إسلامية شرعية لم يستطع رشيد رضا أن ينشر كتابه هذا في بلاد الشام. وينقل لنا رشيد رضا حديثاً دار بينه وبين عبد القادر القباني، صاحب جريدة





الشيخ محمد عبده

«ثمرات الفنون». وكان هذا الأخير قد عرض على رضا بعد أن عرف بهدف رحلته إلى مصر تولي رئاسة تحرير جريدته، ويجيب رشيد على العرض: «ان الحرية التي في بيروت لا تسعني»، فقال عبد القادر القباني: أوتريد أن تنتقد السلطان عبد الحميد أو تخوض في سياسته؟ فقال رشيد رضا: إنما أريد إصلاح الاخلاق والاجتماع والتربية والتعليم. قال ان لك أوسع الحرية في هذا. (وأجاب رشيد): إذا أردت أن أكتب في فضيلة الصدق ومضار الكذب ومفاسده فأُبيِّن أن أكبر أسباب فشو الكذب في الأمم الحكم الاستبدادي أتنشر لي ذلك جريدتكم؟ فقال له القباني: لا، لا. عجِّل بالذهاب إلى مصر ولا تخبر أحداً [١٤].

«وركب رشيد رضا السفينة من بيروت الى الاسكندرية، فوصل ميناءها مساء الجمعة ٨ رجب سنة ١٣١٥هـ - ٣ يناير ١٨٩٨م. وبقي نحو اسبوعين متنقلاً بين الاسكندرية وطنطا ودمياط، وفي يوم ٢٣ رجب من السنة المذكورة توجه الى القاهرة، وفي اليوم التالي زار الاستاذ الإمام في داره، وشرح له هدفه من هجرته، ثم تردد عليه مرات ومرات، ثم استشاره في إصدار مجلة «المنار» لتكون صحيفة إصلاحية، فوافق الاستاذ الإمام على ذلك، وأرشده وعاونه، وصدرت جريدة «المنار»، وكان أول أعدادها بتاريخ ٢٢ شوال سنة ١٣١٥هـ - ١٥ مارس سنة ١٨٩٨م.» [١٥].

وكان أن صدر العدد الأول من «المنار» كجريدة اسبوعية من ثماني صفحات، وفي السنة الثانية تحوَّلت إلى مجلة شهرية تنشر إلى جانب ما ينشره رشيد رضا، دون توقيع، مقالات للكتاب الاصلاحيين في مصر وعلى رأسهم محمد عبده وتلامذته.

وفي السنة الثالثة بدأت «المنار» بنشر تفسير محمد عبده للقرآن وباباً خاصاً للفتاوى والاجابات على مسائل فقهية وشرعية، كذلك أبواباً في أخبار الأمم الاسلامية وفي مراجعات الكتب والتعريف بها...

من الاصلاح الديني إلـى العمـل السياسي

وسارت «المنار» في سنواتها الأولى وحتى ١٩٠٥م في وجهة الاصلاح الديني الذي كان يشدد عليه الشيخ محمد عبده ولم تدخل في موضوعات السياسة المباشرة، لا السياسة العثمانية ولا الانكليزية. وبالرغم من ذلك فان الوجه «العقلاني» و«العصري» الذي أبرز فيه الاسلام كان كافياً لمنع «المنار» من الدخول الى البلاد العربية الخاضعة بصورة مباشرة



للسلطان عبد الحميد. وكانت المعركة الأولى هي تلك التي بدأ بها أبو الهدى الصيادي عندما بدأ رشيد رضا بنشر بعض فصول كتابه القديم الذي ألّفه في طرابلس والذي يتصدى فيه للممارسات الغيبية والسحرية التي أدخلت على طرق الصوفية. واعتبر ابو الهدى الصيادي نفسه معنياً بهذا النقد، وبعد أن فشلت محاولة هذا الأخير في احتواء رشيد رضا عبر وعده إياه بالاستحصال له على أعلى «المراتب العلمية» من السلطان، لجأ أبو الهدى الى إرهاب رشيد بالاعتداء على اخوته في القلمون ونهب محتويات مكتبته؛ كذلك استطاع جواسيس ابي الهدى في القاهرة أن يصلوا إلى مكتب «المنار» فأحدثوا بعض التخريب فيه. وكان ذلك في عام ١٩٠٥م.

وتوفي محمد عبده في العام نفسه الذي تعرض فيه رشيد رضا لتلك الاجراءات الانتقامية. فكان ذلك مدخلاً لانخراط رشيد رضا في ميدان السياسة من باب الدعوة إلى اصلاح أوضاع الدولة العثمانية وممارسة الاستبداد الفردي والدعوة الى حكم الشورى والدستور، بعد ان كان الاستاذ الامام يمانع في إقحام «المنار» مجال العمل السياسي المباشر. وفي هذه المرحلة كانت حركة «تركيا الفتاة» في أوج اتساعها في الخارج وقد أشاعت حركة معارضة واسعة ضد الحكم الفردي الاستبدادي وفي هذا الاطار تأسست في القاهرة لجنة أطلق عليها اسم «جمعية الشورى العثمانية» تولى رئاستها رشيد رضا. وكان لهذا التحول أثره في مجلة «المنار»، إذ سيبدأ رشيد رضا منذ ذلك الحين بكتابة مقالات عن الاستبداد، والسياسة الحميدية، وحكم الشورى، وطرق إصلاح الدولة العثمانية. وسيتابع هذا الخط في «المنار»، في المرحلة اللاحقة، أي مع الانقلاب العثماني وسياسة الاتحاديين العنصرية، ثم مع الحرب الأولى وما أعقبها من أحداث مصيرية...

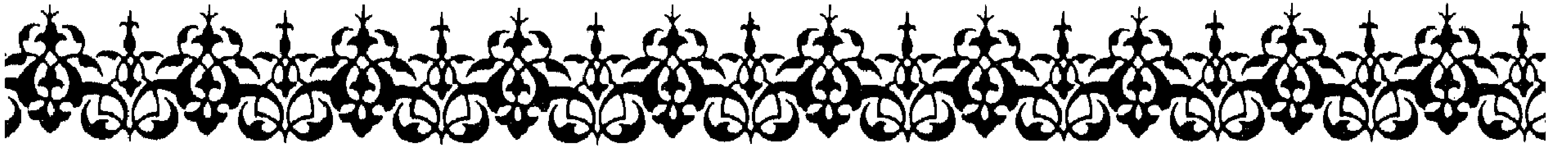
ورافقت «المنار» أحداث حوالي أربعين سنة من التاريخ العربي شكّلت مرحلة انهيار الدولة العثمانية وبروز الصيغ العربية البديلة «للدولة» في ظل أشكال التبعية للرأسماليات الغربية ونماذجها الدستورية والسياسية والثقافية، لقد صدرت «المنار» عام ١٨٩٨م وآخر ما طبع منها كان الجزء الثاني من المجلد الخامس والثلاثين، سنة ١٩٣٥م، وكان رشيد رضا قد توفي في العام نفسه في ٢٢ آب (اغسطس)، فوزع الجزء الثاني من «المنار» بعد وفاته.

وأهمية مجلدات «المنار» تكمن في انها تحوي سلسلة مقالات رشيد رضا طيلة كل هذه الفترة وهذه المقالات بالاضافة الى كونها محطات مهمة في مسار تطور فكر رشيد رضا، ومرآة لانعكاس أحداث تلك المرحلة التاريخية المهمة في وعي فقيه مسلم تمثّل بشكل من الأشكال الايديولوجية مهمات الاصلاح وتكوّن الدولة الاسلامية في مرحلة انتصار الامبريالية، فانها بالاضافة الى كل ذلك تشكل أهمية وثائقية باعتبار أن مؤلفات رشيد رضا الاخرى تجد منطلقاتها وأحياناً نصوصها الأساسية في مقالات «المنار» نفسها.

المواقف السياسية من خلال نصوص «المنار»

والذي يتتبع نصوص «المنار»، لا سيا تلك التي تطرح موضوعات سياسية أو تتابع أحداثاً مهمة، يلاحظ أن رشيد رضا قد تحوّل من معجب بالمدنية الانكليزية قبل الحرب، لا سيا قبل ١٩٠٥م، وذلك بتأثير محمد عبده الذي عارض إقحام «المنار» في «السياسة»، إلى معادٍ شديد للاستعمار الاجنبي، لا سيا بعد الحرب وانكشاف مخططات الاحتلال والإلحاق والتجزئة. وهذا التحول كان يترادف مع تحولات اخرى في مواقف رشيد رضا من القوى المحلية (الموقف من الاتراك، ومن الشريف حسين، الى الموقف المؤيد لعبد العزيز آل سعود)، وهذه التحولات، برغم التناقضات التي تثيرها في الظاهر، تخفي منطقاً واحداً، هو منطق الفقيه المسلم التقليدي الذي تشبّع بالعلوم الفقهية للدولة الاسلامية، والذي لا يزال يحاول ان







الشيخ محمد رشيد رضا وابن عمه السيد عبد الرحمن عاصم.

يكيف رؤيته للدولة وأجهزتها ومؤسساتها مع التحديات الداخلية والخارجية التي تواجهها، وذلك عبر الاجتهاد والاستدلال بالبرهان تمشياً مع محاولة الدمج بين النموذج الاسلامي – التاريخي والأمر الواقع[١٦].

ورشيد يبحث في نصوصه السياسية عن نواة لمشروع هذه الدولة. وبغض النظر عن طبيعة القوى الاجتماعية التي تحمل هذا المشروع ومدى إمكانات تحققه الموضوعية فان الفقيه المسلم الذي يرى بأم عينه زوال آخر مظهر من مظاهر الدولة الاسلامية (الدولة العثمانية)، يعلّق الأمل الكبير على إمكانية إعادة بنائها: تارة عبر محاربة الاستبداد الفردي للسلطان بالدعوة إلى «الشورى» التي توازي «الديمقراطية الغربية» التي سمحت له أن يصدر «المنار» في مصر، (هذه الديمقراطية التي تتراءى له وكأنها هي سر نجاح الانكليز وقدرتهم)، وتارة اخرى عبر الرهان على حزب الاتحاد والترقي و«الدستور»؛ ثم وبعد تمكن العصبية التركية وسيطرتها وقهرها للعصبية العربية عبر تأييد حركة الشريف حسين، (باعتبار هذه الحركة مشروع إنقاذ للدولة الاسلامية)؛ وأخيراً وبعد ضعف هذا الأخير، عبر تأييد الدعوة السعودية – الوهابية ومشروعها السياسي، باعتباره مشروعاً يرتكز كما يقول إلى عصبية قوية و«تدين» أكيد يضمن نجاحه[١٧].

والواقع أن متابعة مواقف رشيد رضا عبر نصوصه نفسها، والتي لن نستطيع في سياق هذا المقال أن نعرض لها جميعاً وبالتفصيل[١٨]، تكتسب في هذه المرحلة حيث تطرح مهمة إعادة قراءة تاريخنا على أكثر من صعيد ولأكثر من سبب، أهمية أكيدة، فالتعميمات التي أطلقت على الفكر السياسي لعصر النهضة لا تعدو نعوتاً ايديولوجية أسقطت إسقاطاً على أوضاع ينبغي إعادة درسها من جديد. فمن مسألة المواقف من الدولة العثمانية وتشعب هذه المواقف تبعاً لمواقعها وأصولها الاجتماعية والثقافية، إلى مسألة «التماهي القومي» وتعددية وتقلُّب أشكال هذا التماهي من عثماني، واسلامي إلى عربي وأقاليمي وطوائفي.. إلى مسالة الاصلاح وعلاقته بأوروبا أي بالعلمانية والليبرالية من جهة وبالاسلام من جهة ثانية، إلى مسألة طبيعة الدولة في الشرق العربي والاسلامي.. فكل هذه المسائل تجد صيغاً لها في نصوص «المنار».. صيغاً انتجت في مرحلة استقبال الغرب الرأسمالي في الشرق العربي والاسلامي، وارتبطت بمعاناة مثقف مسلم تمثل دور الفقيه «الرسمي» في التاريخ الاسلامي وبحث بالتالي عن الصيغة المناسبة لمشروع دولة إسلامية بديلة في مرحلة انتقالية اتسمت بانهيار الدولة العثمانية، وقيام الدول المحلية التابعة للغرب، وسيطرة الامبريالية. ●





الهوامش

(١) عن: الأمير شكيب ارسلان: السيد رشيد رضا واخاء اربعين سنة. دمشق، ١٩٣٧، ص٢٤.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص٣٥-٣٦.

(٣) دوّنها في كتاب «المنار والأزهر» ونقل فصلاً منها شكيب ارسلان في كتابه المذكور سابقاً: «إخاء أربعين سنة».

(٤) المصدر السابق نفسه، ص٣٦..

(٥) المصدر السابق نفسه، ص٣٦ - ٤٠.

(٦) المصدر السابق نفسه، ص٤١.

(٧) المصدر السابق نفسه، ص٣٧.

(٨) آدمس، تشارلز: «الاسلام والتجديد في مصر»، ترجمة عباس محمود، لجنة دائرة المعارف الاسلامية، ١٩٣٥م.

(٩) عن: العدوي، ابراهيم أحمد: «رشيد رضا الإمام المجاهد».

(١٠) راجع في موضوعات «العروة الوثقى»: العدوي، ابراهيم أحمد: «رشيد رضا».. ص٧٧ - ٨٦.

(١١) العدوي، ابراهيم أحمد: مرجع ذُكر سابقاً، ص٩٢.

(١٢) العدوي، ابراهيم أحمد، ص٩٦.

(١٣) من أقوال محمد عبده المشهورة: «أعوذ بالله من السياسة، ومن لفظ السياسة ومن معنى السياسة، ومن كل حرف يلفظ من كلمة السياسة، ومن كل خيال يخطر ببالي من السياسة، ومن كل أرض تذكر فيها السياسة، ومن كل شخص يتكلم أو يتعلم أو يجن أو يعقل في السياسة، ومن ساس ويسوس، وسائس ومسوس»، عن: العدوي، ابراهيم أحمد، ص٢١٦ - ٢١٧.

(١٤) كما ورد عند: ارسلان، شكيب: «إخاء أربعين سنة»، ص١٢٩.

(١٥) الفقرة لـ: الشرباصي، أحمد: «رشيد رضا، صاحب المنار، عصره وحياته ومصادر ثقافته»، القاهرة، ١٩٧٠، ص١٣٦.
راجع أيضاً بشأن المحاورات التي دارت بين رضا وعبده بشأن المجلة: العدوي، ابراهيم، ذكر سابقاً، ص١٢٦ - ١٣٥.

(١٦) ان نموذج الفقيه المسلم الرسمي، الذي واجه مشكلة استمرارية الخلافة الاسلامية وضرورة تكيفها مع المستجدات ورآها شرطاً لوحدة الاسلام واطاراً لاحتواء التناقضات بين القوى والفرق في صيغة توازن الأمر الواقع، ووسطية الحلول التي يفرضها هذا التوازن، هو الماوردي.
راجع حول هذه النقطة: «قوانين الوزارة وسياسة الملك»، للماوردي، تحقيق ودراسة الدكتور رضوان السيد، دار الطليعة، ١٩٧٩، ص١١٣.

(١٧) يقول ابن خلدون: «ان الدعوة الدينية تزيد في أصلها قوة على قوة العصبية».

(١٨) عرضنا لهذا الموقف في كتاب هو قيد الطبع: «رشيد رضا: مختارات سياسية من مجلة المنار»، يصدر عن دار الطليعة، بيروت.



- اذا أطعمت جائعاً سمكةً فسيجوع بعد ساعات،
أما اذا علمته صيد السمك فسيشبع طول العمر.

حكمة صينية



المؤتمر الأول للطلاب العرب في أوروبا

بروكسل ٢٧-٣٠ ك١ (ديسمبر) ١٩٣٨

السفير الدكتور حليم أبو عز الدين



ظروف الدعوة إلى المؤتمر:

بين يديَّ «كتاب المؤتمر»[١] الذي وضعه واصدره المؤتمر الأول للطلاب العرب في أوروبا، المنعقد في بروكسيل، بلجيكا، بين ٢٧ و ٢٩ كانون الأول (ديسمبر) عام ١٩٣٨، وفيه ابحاث عن «القومية العربية: حقيقتها - اهدافها - وسائلها».

قرأته، بل اعدت قرأته، بشغف وحنان، ذلك انه اعاد إلي ذكريات قومية عزيزة، وذكريات طالبية شخصية غالية، احببت ان يشاركني فيها جيلنا المخضرم، والجيل العربي الجديد، عله يجد فيها بعض الفائدة، وبعض العبر.

كنا مجموعة من الطلاب العرب في أوروبا: سوريون، ولبنانيون، وعراقيون، ومصريون وفلسطينيون، واردنيون، وكنا ندرس في جامعات فرنسا، وبريطانيا، والمانيا، وبلجيكا.

وكانت سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي، ومع ان البلدين كانا قد وقعا عامي ١٩٣٦ و١٩٣٧ على معاهدتين مع فرنسا تضعان حداً للانتداب، وتتيحان لهما الدخول كدولتين مستقلتين في عصبة الأمم، الا أن فرنسا، وقد بدت نذر الحرب تتجمع في أجواء أوروبا والعالم، توقفت عن ابرام هاتين المعاهدتين. وفلسطين كانت تئن من الانتداب البريطاني العامل على تحقيق سياسة الوطن القومي اليهودي وفقاً لما جاء في «وعد بلفور» الذي تبناه صك الانتداب

على فلسطين. أما العراق ومصر فكانا مستقلين تربطهما ببريطانيا معاهدتان تحدان من الاستقلال، وشرقي الاردن ضائع بين الانتداب والاستقلال.

وكنا في عام ١٩٣٨، عام «ميونيخ»، الذي سيطرت فيه المانيا على تشيكوسلوفاكيا، بعد أن كانت قد ضمت اليها النمسا، واعلنت «الانشلوس».

وكانت أوروبا تعيش في هاجس الحرب. فبعد الاستيلاء على النمسا، وعلى تشيكوسلوفاكيا، بقيت بولونيا، وممر دانزيغ. والاستيلاء على بولونيا، التي تضمن سلامتها معاهدة دفاعية بينها وبين بريطانيا وفرنسا، يعني الحرب. والحرب تعني الخراب والدمار، ولكنها قد تعني أيضاً الاستقلال والسيادة للبلدان المستضعفة الواقعة تحت الانتداب أو تحت الاستعمار.

تنادينا نحن الطلاب العرب في أوروبا، لعقد مؤتمر لنا نبحث فيه شؤوننا وشجوننا، آلامنا وآمالنا، حاضرنا ومستقبلنا. وشكلنا لجنة تحضيرية، كنت في عدادها، للاعداد للمؤتمر.

وبعد أن تدارست اللجنة التحضيرية أهداف المؤتمر وغاياته، ووسائله، ومكانه، واتفقت عليها، اصدرت بيانها الأول بالدعوة إلى المؤتمر.

وأرى ان من حق القارئ، ومن حق التاريخ، ان ننشر بعض وثائق المؤتمر كما صدرت في حينه. وأبدأ بنداء اللجنة التحضيرية:

إلى شبان العرب

بيان الهيئة التحضيرية المركزية

للمؤتمر الأول للطلاب العرب في أوروبا

«منذ فجر القدم أخذت السلائل العربية الأولى تنساب من الجزيرة إلى الاقطار المجاورة تحمل معها معالم المدنية والحضارة. ثم جاء محمد سيد العرب وموحد كلمتهم ومؤسس دولتهم. وكان البعث العربي الأكبر أكليل هذه المساعي لتأسيس حضارة عالمية خالدة. وانتشر العرب في العالم، واتخذوا مقاعدهم الدائمة في الأرض، ممتدة من العراق إلى المحيط، واضاؤوا في العالم مدى عدة قرون مصابيح مدنية جديدة فذة، وسلموا للاجيال التي تلتهم تراث المدنيات السابقة مزيداً فيه غير منقوص.

وادركت العرب اغفاءة، فتواترت على العالم العربي النكبات، فغابت الوحدة، وضاع الاستقلال. ثم تسرب الانحلال إلى نظامهم الاجتماعي والاقتصادي، فساد التأخر وعمت الفاقة، وران على الشمائل العربية الكريمة صدأ الأهمال، وتنبه العرب من بعد، فاذا عيشهم بؤس، وعلمهم جهل، وشملهم شتيت، وسادتهم أجانب.

واليوم تضطرب في جوانب العالم العربي عوامل اليقظة والنهوض، وتتجلى هذه العوامل كفاحاً مستعراً في الشمال الافريقي، وثورة دامية في فلسطين، وموتاً يتساقط قنابل في الجنوب العربي، وتطوراً يشبه الثورة في البلاد التي ادركت غايتها الأولى ونالت شبحاً من الحرية أو ظلاً من الاستقلال. وهذه الثورات، وان اختلفت صورها، انما هي في الحقيقة مظاهر متعددة لشيء واحد هو البعث العربي الجديد لقومية عربية تسعى نحو التحرر والوحدة والمجد.

وهذا البعث العربي الجديد انما يصدر عن ادراك العرب ان الاستعمار هو الوحش الجاثم فوق



الصف الأمامي: من اليمين: الدكتور عبد الغني الدّلي والسفير حليم أبو عز الدين الصف الخلفي: من اليمين: عبد الرحمن البزاز، السفير الدكتور فريد الخاني، والدكتور موسى عبد الله الحسيني.

صدورهم جميعاً، ليختطف من فمهم لقمة الخبز ويحرم اعينهم نور العلم، ولا امان من الاستعمار الا بالتكتل والوحدة، وينبعث عن شعورهم بانهم امة واحدة في ثقافتها وتاريخها ومصالحها، لها مكانتها تحت الشمس، وواجبها نحو المجموع البشري، ورسالتها للناس، كافة، وينبثق عن حيوية فيهم عجيبة حفظتهم طوال قرون الغفلة ولقد تألبت عليهم اذ ذاك قوى العالم تحاول ابادتهم وافناءهم، بشتى الافانين. ولكن الحيوية صمدت للقدر، وصبرت على البلاء، واستطاعت البقاء، ورجع الظالم يعض على يديه، ويقبض على الريح.

ولكن لئن كانت القومية العربية غنية بوسائل القوة وأسباب النهوض، فلانه لا يزال ينقصها شيء من الاتفاق والانسجام في اهدافها، والتحديد والوضوح في وسائلها، والتنظيم والتأليف بين جهود العاملين في سبيلها. وما لم يتأت ذلك للقضية العربية، بعدت الشقة وتشعبت السبل، وضاعت الجهود سدى، واوشكت ان تضل الهداة.

ولقد شعر بهذه الحاجة الطلبة العرب في أوروبا، وتجلت لهم اثناء اجتماعاتهم ومناقشاتهم في هذه الشؤون العامة. فأتصلت جمعياتهم وافرادهم في لندن وبرلين وباريس، والفوا من ممثلي هذه الهيئات هيئة مركزية تحضيرية تدعو إلى مؤتمر لهم يعقدونه في دوقية لكسمبورغ[٢] في أواخر كانون الأول (من هذا العام ١٩٣٨)، يحاولون فيه تحديد اهدافهم القومية في الشؤون الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، ويضعون المناهج الكفيلة بتحقيقها، ويبحثون في شؤون الطلبة العرب في أوروبا، ساعين إلى تهيئة ما يسهل تعارفهم وتعاونهم في المستقبل.

ولئن كانت تنقص الشباب الخبرة وتعوزهم كثرة التجارب، فانهم بوجودهم في هذا الافق الغربي أقدر على دراسة هذه المسائل بعيداً عن النزعات المحلية وتفهمها على ضوء ما يجري في هذه البلاد، وما كتبه أو عمله العاملون في الحقل القومي من قبل. وان لهم من ايمان الشباب وعزيمة الفتيان وخلوص النية ما يسهل عليهم واجبهم وينير امامهم السبيل. الا وان لهم أو عليهم المستقبل، لمن حقهم بل من واجبهم ان يكون لهم في تحديده والعمل له نصيب وفير.

فيا أيها الفتى العربي:

ان كنت قومياً يعتقد بأن العرب أمة لها في هذا العالم حق، هو ان تعيش الحياة التي تريد، حرة متحدة غنية عزيزة، وعليها واجب، هو ان تتعاون مع الامم الأخرى في بناء مجتمع عالمي اصح واهدى سبيلاً، ولها رسالة تحمل مشكاتها فتنير بها جنبات هذا العالم المظلمة هي رسالة الحق والحرية والسلام.

ويا ايها الأخ العربي!

إذا كان يعجبك ان تجتمع باخوانك من الاقطار الأخرى تحدثهم ويحدثونك عن قطرك وقطرهم، والمك والمهم، واملك في الحياة واملهم، ثم تسمر معهم ويسمرون معك، وتأنس بهم ويأنسون بك ثم تلهون قسطاً من الوقت معاً، وتنشدون اناشيدكم الشعبية معاً، ثم تجدون معاً خطة للعمل المشترك للاهداف القومية التي تستهدف ويستهدفون.

ويا أيها الشاب القومي!

إذا كنت تشهد في هذا العالم سير القوميات ونهضاتها وتقدمها فتتمنى لو كانت لقومك نهضة منظمة فعالة كنهضات تلك الأمم، وتحب ان تتعاون مع العاملين في فك القيود وتحطيم الاغلال، وتود لو اتيح لشبان العرب ان يجتمعوا ويفكروا في أحوال الوطن العربي فيشخصون الداء، ويعينون الدواء، ويقرون الهدف، ويحددون الغاية، ثم يرسمون الوسائل والخطط، ويمضون في تنفيذها قدماً.

إذا كنت كل أولئك، أو اذا اردت ان تكون كذلك، فهلم إذاً فها هو المؤتمر الأول للطلاب العرب في أوروبا يتيح لك الفرصة. ساعد في شأن هذا المؤتمر وتحدث عنه إلى اخوانك وفكر في بحوثه وتعاون مع اخوانك في تحضيرها.

اتصل حالاً بالهيئة التحضيرية المركزية وابعث اليها بعنوانك وعناوين اخوانك من الطلبة، ثم صمم على القدوم إلى لكسمبورغ (اصبحت بروكسيل فيما بعد) في آواخر كانون الأول من هذا العام».

الهيئة التحضيرية المركزية للمؤتمر الأول للطلاب العرب في أوروبا أول تشرين الأول ١٩٣٨.

افتتاح المؤتمر:

لقد لاقى هذا النداء تجاوباً طيباً من قبل الطلاب العرب الذين طلب الكثير منهم المشاركة في أعمال المؤتمر. وغني عن القول ان عدد الطلاب


الدكتور عدنان القوتلي. حليم أبو عز الدين، السفير الدكتور فريد الخاني. الدكتور أسعد المحاسني والدكتور موسى الحسيني.

العرب في أوروبا في ذلك الحين (عام ١٩٣٨) لم يكن على ما هو عليه الآن.

فأقبل الثلاثون منهم، ويمثلون العشرات من غيرهم، إلى بروكسيل، التي اختيرت في النهاية بدلاً من لكسبورغ كمكان للمؤتمر.

واعود إلى «كتاب المؤتمر»، الذي وضعناه في حينه واستعير منه كلامه عن «جلسات المؤتمر وقراراته». فقد ورد فيه بالنص:

«افتتح المؤتمر في وقته المحدد له في الساعة الثالثة بعد الظهر، يوم الثلاثاء ٢٧ كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٩٣٨ في «دار الطلبة» في بروكسيل».

وقد حضر جلسة الافتتاح السادة:

اسعد المحاسني (دمشق)، ادوار توتنجي (حلب)، اغسطس قسطندي (القاهرة)، امين الراوي (بغداد)، بدر الفاهوم (الناصرة)، حليم أبو عز الدين (العبادية - لبنان) حيدر العجلاني (دمشق)، رفاعي حديد (الموصل)، رفيق السيوفي (دمشق)، سالم المدلل (بغداد)، شاهر حسين ضاهر (فلسطين)، عبد الرحمن البزاز (بغداد)، عبد العزيز الدوري (بغداد)، عبد الغني الدلي (سوق الشيوخ - العراق) عباس عبد اللطيف (بغداد)، عبد الله عيتاني (دمشق)، عزت طرابلسي (دمشق)، عدنان القوتلي (دمشق)، عفيف فاخوري (بيروت)، عوني عزيز الداودي (القدس)، نوري كاشف الغطاء (النجف)، هاني هاشم (عمان)، وفيق الرمالي (القاهرة)، يحيى رضا (اللد).

«وهؤلاء السادة يدرسون في انكلترا وفرنسا وبلجيكا والمانيا، وقد حالت عقبات دون الكثيرين من الطلاب العرب منعتهم من الحضور، وقد ارسل الطلبة المغاربة في باريس يأسفون لعدم تمكنهم من الحضور، ويؤيدون المؤتمر، ووردت برقية تأييد واعتذار من الطلبة العرب في غرينوبل أما معظم الطلبة العرب في المانيا فقد امتنعت القنصلية البلجيكية عن السماح لهم بدخول بلجيكا فأرسلوا يعتذرون ويؤيدون المؤتمر».

ترأس الجلسة أكبر الاعضاء سناً الدكتور قاسم البزركان. وبعد الوقوف بضع دقائق حداداً على شهداء العرب، وتبادل كلمات الترحيب مع مندوبي اتحاد الطلبة البلجيكيين، قام السيد عبد الغني الدلي وتلي باسم الهيئة التحضيرية المركزية تقريراً عن اعمالها وعن مالية المؤتمر، فوافق عليه المؤتمر.

«وبعد ذلك انتخب المؤتمر بالاقتراع السري السادة: موسى الحسيني، عبد الرحمن البزاز، حليم

أبو عز الدين، اعضاء في الهيئة الادارية للمؤتمر، ليكملوا نصاب الهيئة الادارية مع العضويين الطبيعيين فيها، وهما السيدان فريد الخاني وعبد الغني الدلي، بصفتهما ممثلي باريس ولندن في الهيئة التحضيرية المركزية.

اللجان:

«ثم انتخبت الهيئة الادارية من بين اعضائها السيد فريد الخاني رئيساً للمؤتمر، وانتخب المؤتمر من بين اعضاء الهيئة الادارية السيد موسى الحسيني اميناً للسر».

«ثم انتخبت الهيئة الادارية السيدين عبد الرحمن البزاز وحليم أبو عز الدين نائبين للرئيس والسيد عبد الغني الدلي اميناً للصندوق.

«وانقسم المؤتمر بعد ذلك إلى ثلاث لجان»:

الأولى: اللجنة السياسية: لتدرس التقرير المقدم لها من لجنة البحث السياسية التحضيرية عن «أهداف الطلبة العرب القومية في الناحية السياسية ووسائل تحقيقها»، وقد كان رئيسها السيد وفيق الرمالي، ومقرراها السيدين موسى الحسيني، وحليم أبو عز الدين.

الثانية: اللجنة الاقتصادية: لتدرس تقريرا عن «اهداف الطلبة العرب القومية في الناحية الاقتصادية ووسائل تحقيقها»، وقد كان رئيسها السيد عبد الغني الدلي، ومقرراها السيدين رفيق السيوفي وفرحات زيادة.

والثالثة: لجنة الشؤون الاجتماعية وشؤون الطلاب: لتدرس تقريرين عن «أهداف الطلبة العرب القومية في الناحية الاجتماعية ووسائل تحقيقها»، وعن «شؤون الطلبة العرب في أوروبا»، وقد كان رئيسها السيد عبد الرحمن البزاز، ومقرراها السيدان عوني عزيز الداودي وحيدر العجلاني.

«وقد استمر عمل هذه اللجان بقية اليوم الأول، وطوال اليوم الثاني، الا انه في مساء اليوم الأول اقيمت حفلة سمر للاعضاء انشدت فيها الاناشيد الوطنية والشعبية، وفي صباح اليوم الثاني ذهب الاعضاء فوضعوا اكليلاً على قبر الجندي المجهول، وزاروا مدينة بروكسيل، واجتمعت لجان المؤتمر بعد الظهر.

«وفي صباح اليوم الثالث عاد المؤتمر بكامل هيئته للاجتماع، فبحث التقارير الأربعة كما اقرتها لجان المؤتمر، واقرها بعد تعديلات شتى».

وفيما يلي القرارات النهائية التي اتخذها المؤتمر:

قرارات المؤتمر الأول للطلاب العرب في أوروبا

بروكسيل ٢٧ - ٢٩ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٣٨

١ - يتخذ المؤتمر ميثاقاً قومياً مقتبساً من البحوث التي اقرها ومن مقرراته، ويتعاون الاعضاء مع الهيئة التنفيذية في سبيل تنفيذ مقررات المؤتمر بكل وسيلة وفي كل مكان.

والميثاق القومي هو:

«أنا عربي، اؤمن بان العرب أمة واحدة، حقها المقدس ان تكون كاملة السيادة في تصريف شؤونها، تدفعها قوميتها المتحفزة إلى تحرير الوطن العربي واتحاده بكافة اجزائه، وإلى تأسيس نظم سياسية واقتصادية واجتماعية أعدل وأصلح من النظم الراهنة فيه، تستهدف ترقية مستوى المعيشة وزيادة الخير المادي والمعنوي للشعب، وتريد ان تساهم في العمل لخير المجموع الانساني، وتسعى لتحقيق ذلك بالعمل الدائب على أساس التنظيم القومي. اعاهد الله على أن اجاهد في هذا السبيل ما استطعت، واضعاً المصلحة القومية فوق كل اعتبار».

٢ - تنشر اللجنة التنفيذية مقررات المؤتمر في كتاب خاص تترجمه للفرنسية والانجليزية والالمانية، ثم تلحقه بالدعاية الدائمة للفكرة القومية بأساليب مختلفة في الوطن والخارج.

٣ - تتصل اللجنة التنفيذية بالهيئات العربية التي تتفق مع مبادئها، وترسل اليها كتاب المؤتمر، وتدعوها إلى نشر مبادئ المؤتمر وتحقيقها.

٤ - هذا المؤتمر دوري. ينعقد كل عام، والهيئة التنفيذية تحقق ذلك، وتدعو إلى عقد مؤتمرات مماثلة له في الوطن العربي، وتسعى إلى توثيق الارتباط بين هذه المؤتمرات.

والمؤتمر يرحب بفكرة عقد مؤتمر للشباب العربي في دمشق ويتمنى له النجاح.

٥ – تؤلف في العواصم الاوروبية جمعيات للطلبة العرب يكون من واجبها العمل بروح هذا المؤتمر، وتتعاون مع الهيئات العربية المماثلة، بشرط ان تحتفظ بكيانها المستقل، وبصبغتها العلمية والعملية، بعيدة عن النزعات التي لا تتفق مع مبادئ هذا المؤتمر، وكذلك الشأن في الجمعيات الموجودة.

٦ – تتصل اللجنة التنفيذية بسائر مؤسسات الطلبة الدولية للعمل في سبيل الحرية ولشرح فكرة المؤتمر للغرب.

٧ – ارسال برقيتين بشأن سوريا وفلسطين للمراجع المسؤولة.

٨ – دعوة شعراء العربية لتأليف نشيد قومي للمؤتمر، يعبر عن فكرة القومية العربية، وتلحين ذلك النشيد.

٩ – ارسال مذكرة من قبل اللجنة التنفيذية للمؤتمر إلى وفود الدول العربية التي ستجتمع في لندن لحضور المؤتمر المزمع عقده بشأن فلسطين، تحتوي على النقاط الآتية:

أولاً: حل مشكلة فلسطين يجب أن يكون على الاسس التالية:

(أ) تأسيس حكومة دستورية مستقلة في فلسطين، وانهاء الانتداب، والارتباط مع بريطانيا بمعاهدة تحالف.

(ب) وقف الهجرة اليهودية إلى فلسطين وقفاً باتاً.

(هـ) فلسطين عربية، وتشكل نقطة هامة وجزءاً لا يتجزأ من الجسم العربي.

ثانياً: الاستفادة من وجودهم هناك لتقوية الحلف العربي سياسياً واقتصادياً، والسعي لدى الحكومة المصرية للانضمام إلى الحلف.

ثالثاً: استعمال نفوذهم في حلّ المسألة السورية.

١٠ – تأييد حركة الكفاح القومي في فلسطين،



هيئة المكتب: في الوسط السيد فريد الخاني وعن يمينه السكرتير السيد موسى الحسيني ثم نائب الرئيس السيد حليم سعيد أبو عز الدين وعن يسار الرئيس السيد البزاز فالسيد عبد الغني الدلّي أمين الصندوق.

وتحية الثورة الفلسطينية.

١١ – على الشباب العربي في العواصم الأوروبية ان يهتم بأمر الدعاية بكافة الطرق والوسائل لدعم مطالب سوريا، وتأييد مطالب عرب فلسطين، والدعاية لأي قضية عربية أخرى، وشرح الفكرة القومية العامة. ويأمل ان تتلقى هذه المساعي كل معونة وتشجيع من الافراد والهيئات العربية.

١٢ – شكر الهيئتين التحضيرية والادارية على جهودهما.

١٣ – تتكون اللجنة التنفيذية للمؤتمر من تسعة اعضاء، ينتخب المؤتمر ثلاثة اعضاء للجنة التنفيذية من الطلاب العرب في باريس، وثلاثة اعضاء من الطلاب العرب في لندن، ويتفاهم الستة مع الطلاب العرب في برلين على تسمية ثلاثة اعضاء من الطلاب العرب في المانيا.

١٤ – في حالة استقالة أو انسحاب أو تغيب أي بلد، ينتخب العضوان الباقيان عن ذلك البلد من يخلفه.

١٥ – انتخب عن باريس بالاجماع السادة: عدنان القوتلي، حيدر العجلاني، حليم أبو عز الدين.

١٦ – انتخب عن لندن السادة: موسى الحسيني، فرحات زيادة، عبد العزيز الدوري.

رسائل المؤتمر إلى فرنسا وبريطانيا وعصبة الأمم

وانفض المؤتمر في منتصف ليل الخميس ٢٩ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٣٨. وفيما يلي نص البرقيتين اللتين ارسلهما المؤتمر، وفقاً للبند السابع من المقررات المذكورة آنفا، إلى كل من الحكومتين البريطانية، والفرنسية، وإلى عصبة الأمم:

أولاً: البرقية التي ارسلها المؤتمر بشأن قضية فلسطين إلى كل من رئيس الوزراء، ووزيري الخارجية والمستعمرات في بريطانيا، وإلى عصبة الأمم في جنيف:

«الطلاب العرب في أوروبا، في مؤتمرهم الأول، يحتجون ضد السياسة البريطانية وفظائع الجند في فلسطين، ويعلنون ان الحل الوحيد هو:

١ – تشكيل حكومة مستقلة دستورية.

٢ – توقيف الهجرة اليهودية.

٣ – معاهدة صداقة وتحالف بين بريطانيا وفلسطين».

ثانياً: البرقية التي ارسلها المؤتمر بشأن سوريا إلى كل من رئيس الوزراء، وزير الخارجية، مقرري لجنتي الشؤون الخارجية في مجلسي الشيوخ والنواب الفرنسيين، وإلى عصبة الأمم:

«الطلاب العرب في أوروبا في مؤتمرهم الأول في بروكسيل يحتجون بكل قوة على السياسة المتبعة في سوريا، ويؤيدون كافة مطالب الشعب السوري الرامية إلى تحقيق استقلاله الكامل والناجز».

انفض المؤتمر الأول للطلاب العرب في أوروبا، وعاد اعضاؤه كل إلى البلد الذي يدرس فيه، وعمل اعضاء اللجنة التنفيذية في كل من بريطانيا وفرنسا والمانيا على تشكيل نواة للعمل الطالبي السياسي والاجتماعي على الصعيدين القومي والوطني.

ولا بد لي من القول اننا في جماعة باريس اجرينا اتصالات عدة مع الأوساط الطالبية والسياسية الفرنسية، اذكر منها تلك التي كانت تتعاطف والحركات التحررية في العالم. كما اجتمعنا بعدد من اعضاء لجنتي الشؤون الخارجية في مجلسي الشيوخ والنواب الفرنسيين وتناقشنا معهم في موضوع ابرام المعاهدتين السورية – الفرنسية، واللبنانية – الفرنسية. واخص بالذكر اجتماعاً لنا مع السناتور هنري هاي، عضو مجلس الشيوخ الفرنسي عن فرساي، ومقرر لجنة الشيوخ الخارجية عن المعاهدتين السورية واللبنانية. وخرجنا من الاجتماع بانطباع واضح ان فرنسا لم تكن في وارد ابرام هاتين المعاهدتين، خاصة بعد أزمة ميونيخ، وتجمع سحب الحرب في سماء أوروبا.

وفي أول أيلول عام ١٩٣٩ وقعت الحرب، وتفرق الطلاب العرب، واتخذت الاحداث اتجاهاً آخر تحدده الحرب ونتائجها. ●

---

(١) طبع في دار الأحد للطبع والنشر.

(٢) تم عقد المؤتمر فيما بعد في بروكسيل عاصمة البلجيك.

الماوردي

منظّر الادارة العباسيّة في العصر البويهي

الدكتور ابراهيم بيضون

● «الماوردي»[1] اسم يتردد خاصة في الكتابات التاريخية ذات الطابع الاداري والتشريعي. وهو من أكثر الأسماء جذباً للمهتمين بدراسة الفكر السياسي الاسلامي في التاريخ الوسيط. وكان كتابه الشهير «الأحكام السلطانية» أحد المصادر الرئيسية والنادرة للتعرف إلى طبيعة نظام الحكم في الدولة العربية الاسلامية، من عصر القوة والسلطة الفعلية للخلفاء إلى عصر الانحدار والحكم الاسمي مع امراء البويهيين خاصة، حيث عاش «الماوردي» موظفاً كبيراً في بلاط القادر بالله ثم القائم بأمر الله، وذلك في النصف الأول من القرن الخامس الهجري. وطلع آنذاك بالمقولة الشهيرة التي انطوت على نظريته في الحكم أو الخلافة – السلطة العليا من حيث المبدأ – بأنها «موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين والدنيا، وعقدها لمن يقوم في الأمة واجب بالأجماع»[2].

«والأحكام السلطانية» ليست كل تراث الماوردي في اطار الفكر السياسي، فقد ترك لنا بضعة كتب في غاية الأهمية وهي: تسهيل النظر وتعجيل الظفر في اخلاق الملك وسياسة الملك/نصيحة الملوك/أدب الدنيا والدين/قوانين الوزارة وسياسة الملك. وهي جميعها مضافاً اليها مؤلفات أخرى في الفقه الشافعي[3]، دوّنها على الارجح إثر ابتعاده عن القصر ودخول السلاجقة بغداد فاعتكف في بيته، متفرغاً للكتابة ومستفيداً من خبرته في الادارة ومعايشته لتناقضاتها وأمراضها المستعصية. والكتاب الأخير – أي قوانين الوزارة وسياسة الملك – كان لا يزال مجهولاً ربما للكثيرين، حتى قيام الدكتور رضوان السيد بتحقيق مخطوطته ونشرها مؤخراً في اطار دراسة قيمة ورضية.

والحقيقة ان مادة الكتاب الخاصة بالدكتور السيد جاءت في غالبيتها مناقشةً لـ «الأحكام السلطانية» ونظريته في الخلافة، ومن ثم دعوته للنهوض بها، كعلاج جذري لمشكلة السلطة في الدولة العباسية. ولعله وجد في هذا الكتاب – وهو مصيب بدون ريب – مفتاح نظرية الماوردي في القضايا السياسية الرئيسة في ذلك الوقت[4]. حيث نظر إلى الخلافة على أنها النظام الوحيد، القادر على تحقيق الاستقرار السياسي والاقتصادي. ومن الواضح ان هذه النظرية عاشت في وجدان الكثيرين من مفكري المشرق الأسلامي، الذين وجدوا في النظام المركزي أو الخلافي، حتى في عصور الانحطاط، القديمة والمستجدة، العلاج الوحيد لمشكلة الحكم في المنطقة، وليس أدلّ على ذلك من تعاقب الأنظمة ذات الطابع الاستقلالي، دون أن تتعارض مع خلافة بغداد الأسمية، ومن دون التوقف عند شرعية هذه الأنظمة أو من يمثلها، هويةً ومذهباً. ولعل الثورة الأيوانية تصب في ذات المجرى المركزي، حيث

الدكتور ابراهيم بيضون.
استاذ التاريخ الاسلامي في الجامعة اللبنانية.

المؤلفات:

- تاريخ العرب السياسي من فجر الاسلام حتى سقوط بغداد بالأشتراك مع د. سهيل زكار.
- التوابون.
- الدولة العربية في اسبانية.
- ملامح التيارات السياسية في القرن الأول الهجري.
- إلى جانب مقالات وأبحاث نشرت في مجلات:
- الفكر العربي.
- المؤرخ العربي.
- الباحث.
- المنطلق.

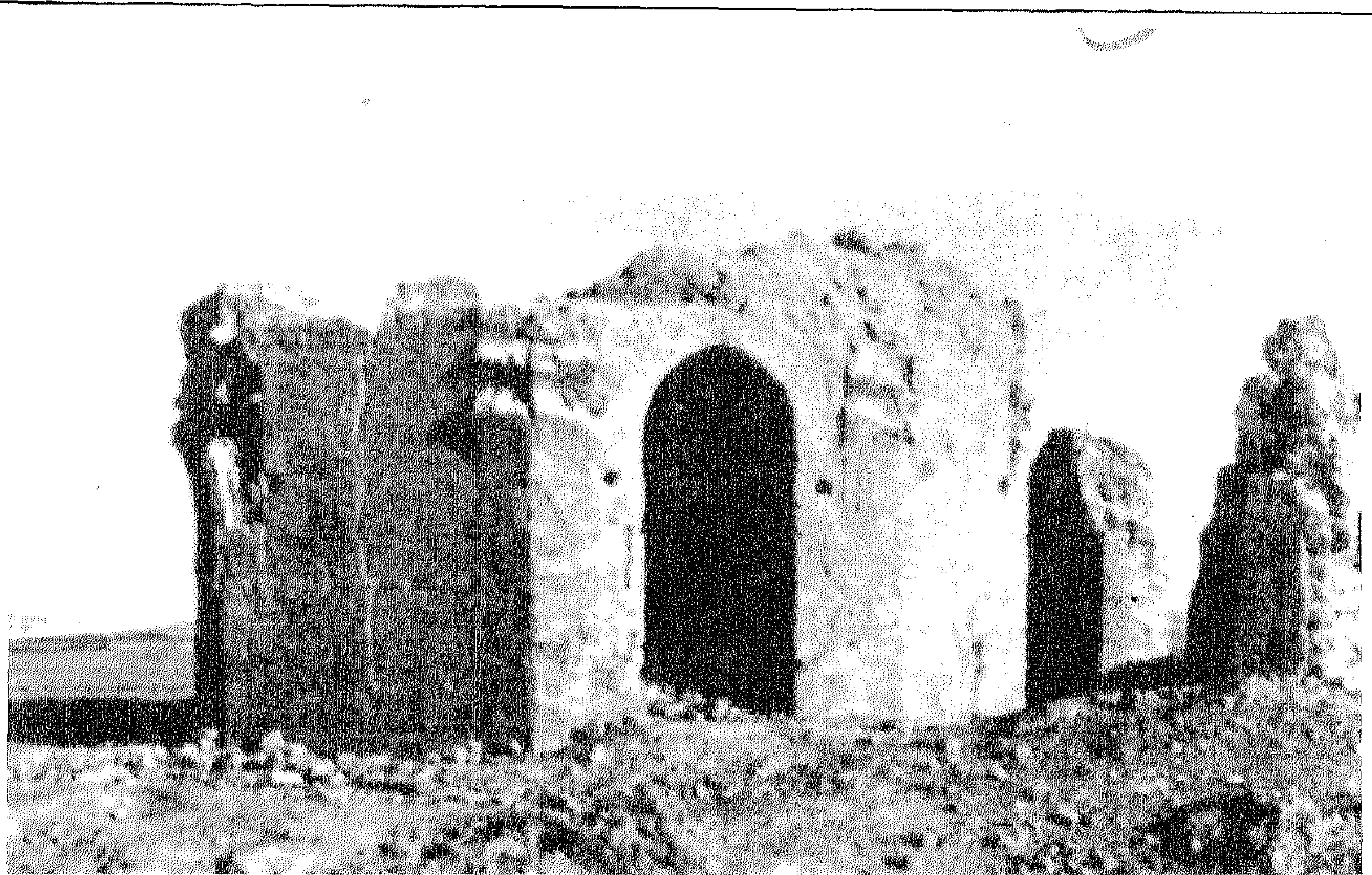
حملت – بصرف النظر عن النجاح أو الفشل – ملامح هذه الشخصية الاسلامية، المستمدة في العمق من النظام الخلافي في عهوده المبكرة والأولى، ورفضت أي أطار آخر بما فيه الأطار القومي، المتعارض حكماً مع هذه النظرية.

... والطريق إلى الوزارة ليس معقداً، فالخلافة تختصره حتى العدم أحياناً. والدكتور السيّد قد اجتاز الطريق العريض في هذا الاتجاه، حيث الخلافة هي السلطة المطلقة والمرجع لكل الأمور. أو كما عرفها الماوردي في قول آخر بأنها «مؤسسة ضرورية لا معدى عنها للدين أو الدنيا»[٥]. وهو تنظير لا يختلف عن سابقه في تحديد أهداف ومهام الخلافة، وتأكيد التحام السلطتين الروحية والزمنية في الدولة.

موقفه التقليدي

والماوردي هنا سلفي حتى التطرف، لا ينفك يقدّم السلف على الخلف، وهو موقف تقليدي لمفكر عاش قريباً من الخلافة وفي بلاطها. ومن الملفت للأنتباه، أنه في الجانب التاريخي مما كتبه كان دائماً رجل السلطة الذي تغلب عليه الموالاة وتسويغ المواقف المختلفة، مشروعةً كانت أم غير مشروعة. فخلفاء العهد الراشدي، متقدّمون باسبقيتهم أو بتسلسلهم. ولا يخرج من هذه القاعدة عثمان، الذي كان هدف ثورة دموية، حركتها النقمة على الاستغلال والاستئثار اللذين رافقا خلافته. فجل ما يقوله الماوردي في حادثة خطيرة كهذه «وكان مما نقمه الناس على عثمان رضي الله عنه، أنه جعل كل الصلات من مال الفيء ولم ير الفرق بين الأمرين»[٦].

ولا يتخلى الماوردي عن موقفه التقليدي هذا، عندما يتحدث عن خلافة الأمويين، متجاهلاً أو يكاد، قيامها في اعقاب حرب أهلية دامية. وكذلك خلافة العباسيين التي قامت على انقاض الأولى، دون ابداء تعليق أو موقف خاص. فهو يرى هذه المؤسسة وكأنها تتابع مسارها الطبيعي منذ خلافة أبي بكر، رغم التباين الجذري بين عهد وآخر في الرؤية والطرح والممارسة. وهو كذلك يتجاهل الأسباب التي كانت وراء انهيار هذا النظام أو ذاك، كما يغضي النظر عن أخطاء بعض الخلفاء ولا يجيز محاسبتهم عليها أو الثورة باسمها. فلم يتعرض مثلاً لخلافة يزيد الأولى بأي انتقاد، سواء انطلق من مسؤوليتها في مقتل الحسين، أو في انتهاكها للكعبة، في محاولة القضاء على



سامرّا: قبة الصليبية.

حركة ابن الزبير. وإذا ما حملت عباراته القليل من النقد لبعض الخلفاء الأمويين والكثير من المدح لأثنين منهم على الأقل (عبد الملك وعمر بن عبد العزيز)، فلأن الخلافة في نظره فوق النقد وربما فوق الشبهات، ولأن كلاً من هذين الخليفتين يمثل المضمون المثالي للمؤسسة، كما تطلع اليها أو رُوج لها في عصر الانحطاط السياسي للخلافة. فهو نازع إلى التقليد بالفطرة والثقافة والأنتماء ورافض لكل تغيير انقلابي أو ثوري، وإن تمادت السلطة في الأخطاء واستحكم فيها الفشل.

اعتداله وواقعيته السياسية

على أن ايجابية ينبغي أن تسجل «للماوردي» هي التزامه من جهة أخرى بالاعتدال والواقعية السياسية. وإذا كان محكوماً بعدم التعريض بالشيعة، بسيطرة البويهيين على السلطة كما يرى الدكتور السيّد، فأن الذي غلب عليه دائماً التوازن والبعد عن الانفعال. في وقت كان يتصدى لقضية حساسة هي الخلافة. وكان دفاعه عن هذه المؤسسة في أيام البويهيين. لا يختلف عنه في أيام السلاجقة. وهو يعدو أن يكون دفاعاً عن وجهة نظره، واستطراداً عن مذهبه الذي تمثله الخلافة[7].

وهكذا تنطلق فلسفة الماوردي في الحكم من موقع تقليدي وسلفي. ومن داخل السلطة نفسها. وجاءت كتاباته دراسة للعصر. حيث تأثر الماوردي وسجلاً لأحداثه المفصلة بما فيها الوزارة والامارة. فضلاً عن المذاهب وجدليات العلماء والصراعات السياسية والفكرية إلى آخر ذلك.. هذا عدا القضية المحورية التي استأثرت باهتمامه وهي الخلافة. وقد عالجها «من خلال منظورين كلاهما يرى الخلافة ضرورية وواجبة لكن الشكل يختلف»[8]:

المنظور الأول هو النص (منطق الشيعة الأمامية ونص السنيين) والمنظور الثاني هو الأختيار. «ويرى أن جماعة المسلمين الذي يمثلهم أهل الحل والعقد هم الذين يختارون الامام دونما نص أو تعيين سابق أو وراثة»[9].

فهو يرفض النص. ولكنه لا يجد ما يمنع تعيين الخليفة من جانب سلفه حرصاً على التسلسلية وتفادياً لشغور مركز الأمام. ومن ناحية أخرى. فإن الماوردي يرفض مبدأ عزل الخليفة حتى لو كان هدفاً للطعن في كفاءته. والحالة الوحيدة التي تجيز هذا الأجراء، هي ثبوت ما يسميه بـ «فساد الخليفة».. وهو إما جسدي كعاهة ما، أو أخلاقي كعدم توفر شرط العدالة فيه. الذي هو شرط الولاية أولاً وأخيراً برأي الماوردي[10].

الحكم العباسي وتأثيره في فكر الماوردي

والحقيقة ان ثمة عاملين تحكما في فكر الماوردي: أولهما. ضعف الخلافة العباسية. وثانيهما سيطرة البويهيين الشيعة على السلطة الفعلية في بغداد. وقد انعكس ذلك على آرائه بصورة مباشرة. وجعلها متأثرة بالتطورات التي اجتاحت العالم الاسلامي آنذاك. سواء في العراق والمشرق حيث سيطرت الشيعة الامامية على الحكم. أو في مصر والمغرب وبعض الشام. حيث تزعمت الشيعة الاسماعيلية خلافة جديدة. فكان موقف الماوردي في مضمونه دعوة إلى تدعيم الموقف السني. بمذهب الخلافة العباسية الرسمي. أو هجمة معاكسة ضد دعوات المعارضة وتياراتها المختلفة. وهذا ما يسميه الدكتور السيد بحركة الاحياء السني التي تبلورت في عهد الخليفة القادر.

ولكن الخلافة. مؤسسة مطلقة الصلاحيات كما تطلع اليها الماوردي. تحولت مع الوقت إلى مجرد رمز. وفشلت في تحقيق الحدّ الأدنى من السلطة الفعلية. وظلت مطية يتسلقها ذوو الطموح والسلطات. وتنوء باعبائها ومشاكلها المستعصية. فهي لم تنتصر باستيلاء السلاجقة على الحكم في بغداد. بل المذهب الذي تمثله. تعززت مكانته في العاصمة والأقاليم الأخرى المجاورة[11].

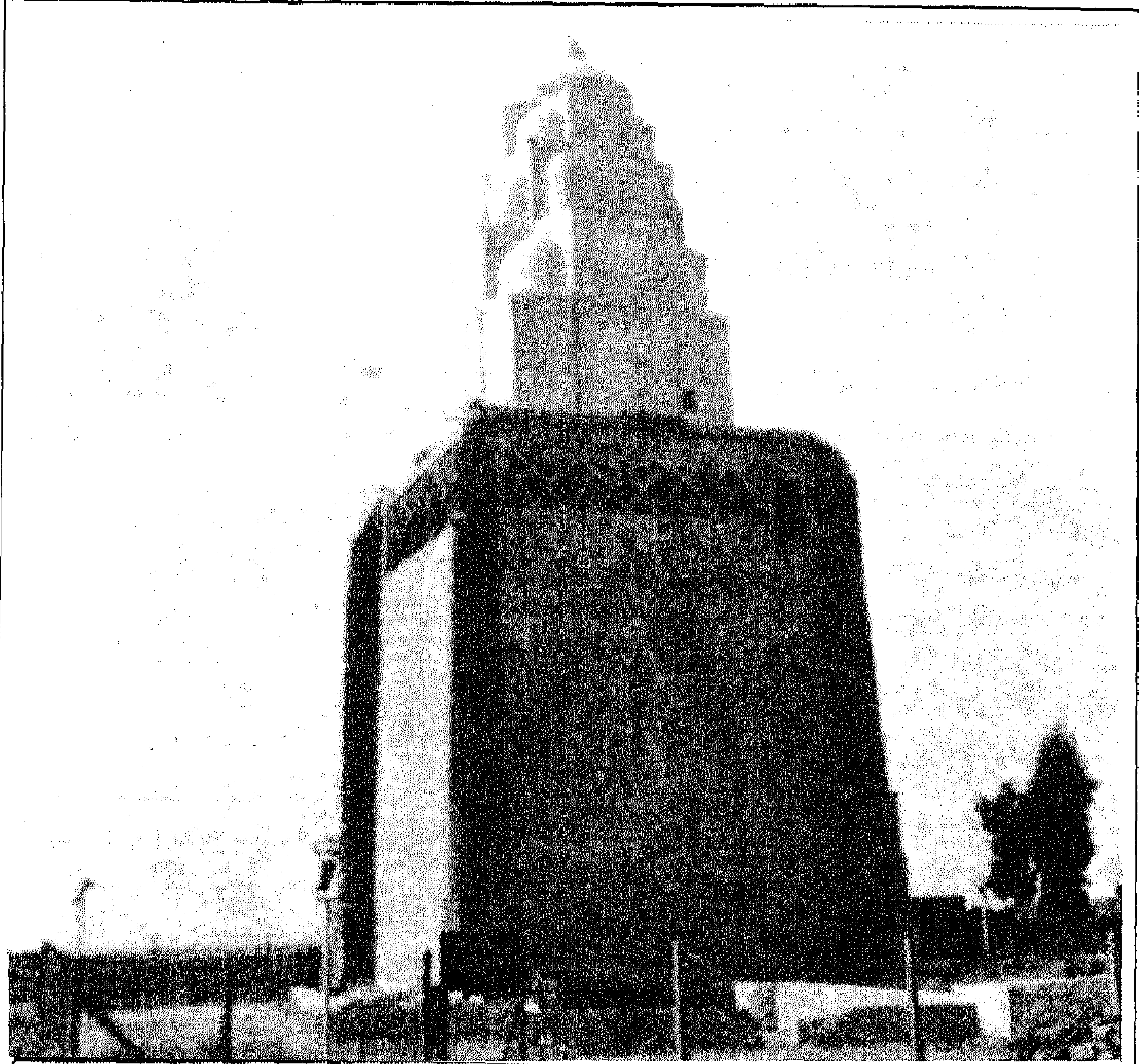
وإذا كانت نظرية الماوردي السياسية لم تحقق النجاح الذي تمناه. فأنها اسهمت في بلورة مفهوم متطور نسبياً لنظام الخلافة بجعله مؤسسة ضرورية لكل زمان ومكان «ورمزاً لوحدة الاسلام وتضامن المسلمين»[12]. ولعل ذلك يعود بنا إلى بحث مسألة الامارة وعلاقتها بالخلافة. على ضوء تشريع الماوردي. باعتبار أن الأمير هو نائب الخليفة[13]. فاذا جرى التعيين بشكل طبيعي. أي بتفويض من الخليفة. فهي (امارة استكفاء) على حد تعبير الماوردي[14]. بينما هي (امارة استيلاء) إذا كانت رغم ارادته ومرغماً على

الاعتراف بها. والماوردي كان معاصراً للنوع الثاني من الامارة، حيث الخلافة فقدت آخر رموزها المركزية بعد قيام خلافتي مصر والأندلس والماوردي فيما كتبه لم يشترع نظاماً جديداً، بل تعامل مع نظام قائم ووضع اطار صيغة توفيقيه بين خلافة فخرية وبين امارة استيلاء في يدها السلطة الحقيقية.

الوزارة...

ومن «الأحكام السلطانية» حيث أفاض الدكتور السيد في شرح وتحليل نظرية الماوردي في الخلافة. يتابع من خلال الرؤية ذاتها مناقشة «قوانين الوزارة وسياسة الملك» موضوع التحقيق. والمادة هنا رغم ضآلتها ليست في الواقع منفصلة عن المادة السابقة المتعلقة بالخلافة فهذه الأخيرة تمثل من حيث المبدأ السلطة المطلقة في الدولة وتتحجم في ظلها كافة المؤسسات الادارية والعسكرية. وهذا ما جعلها متنافرة بل متناقضة مع أية مؤسسة أخرى مستجدة كالامارة أو الوزارة. لان مفهوم الخلافة. حسب قول الدكتور السيد «لا يسمح بقيام مراكز قوى متعددة في الدولة»[١٥]. ومن هنا نفسر ظهور الوزارة بشكل وثيق الارتباط ببداية تدهور الخلافة.

بيد أن الوزارة التي تردد ذكرها لأول مرة في ظل الغياب المؤقت للأمام العباسي. حيث أشتهر أبو سلمة الخلال بوزير آل محمد. لم تنتزع من الخلافة سوى القليل من صلاحياتها التي انتقلت في معظمها إلى (امارة الاستيلاء) فقد فشلت كمؤسسة مدنية تجاوز



سامرّا: امام الدور.

دورها الثانوي، في وقت اشتدت فيه قبضة العسكريين على السلطة. أي ان الوزير عاش في ظل الأمير ابان عصر الانحدار، كما عاش في ظل الخليفة ابان عصر القوة. ولم تحقق الوزارة دورها الفعلي في السلطة الا في أواخر الحكم الفاطمي[١٦]، حيث ساعدت موازين القوى آنذاك على تألق هذه المؤسسة على حساب الخلافة، بينما كانت المؤسسة العسكرية في بغداد المستفيدة الأولى من هذه الظروف.

والماوردي في (قوانين الوزارة) يتوجه إلى معاصره الوزير ابن المسلمة بلغة مباشرة ضمنها مفهومه للوزارة، مستهلاً بمقدمة تاريخية لهذه المؤسسة ذات الجذور الفارسية. ويتبعها بنصيحته إلى صديقه الوزير «أن يجعل الدين قائده والحق رائده»[١٧]، وذلك في نطاق تصور خاص لا يقتصر على ابن المسلمة، بل يتناول دور الوزير كما أن ينبغي أن يكون أي كرأس للهرم الاداري في الدولة.

ويتجاوز الماوردي مقدماته إلى صلب الكتاب، بادئاً بالموضوع الأول وهو (في معنى الوزارة). وعلى غرار (الامارة) يقتبس من كتابه «الأحكام السلطانية» تشريعه السالف، محدداً شكلين للوزارة: «وزارة تفويض تجمع كفايتي السيف والقلم ووزارة تنفيذ تختص بالرأي والحزم، ولكل منها حقوق وشروط»[١٨]. ولعل ابرز ما يثير الاهتمام في تصور الماوردي لدور الوزير، بأنه حسب قوله «الدفاع عن الملك من الأولياء وعن المملكة من الأعداء وعن نفسه من الأكفاء وعن الرعية من خوف واختلاف»[١٩]. وهنا يأخذ عليه الدكتور السيد وضع الرعية في نهاية اهتمامات الوزير، التي تبدو مكرسة لخدمة السلطة، حيث يتحدث الماوردي باسمها ولمصلحتها، بعيداً عن هموم ومشاكل الرعية المغلوبة على أمرها والفاقدة حضورها في مشاغل السلطة وقراراتها.

وثمة ما يستلفت الانتباه أيضاً، دعوة الماوردي إلى مهادنة الاعداء، بما يحمله هذا الموقف من تخل عن ركن اساسي في النظام وهو الجهاد، ومن ثم تغليب المسالمة على الحرب. ومن الواضح أن خلفية هذه الدعوة متصلة بعجز الدولة العسكري في الفترة المتعاصرة مع الماوردي، حيث طاقات الدولة مهدورة في معارك داخلية ذات طابع سلطوي محلي.

والموضوع الثاني يدخل في (الدفاع عن مهمة الوزير) وهي محددة في الشروط الأربعة السابق ذكرها. والموضوع الثالث يدخل في (مزايا الوزير وصفاته)، ومن ابرزها الأقدام «على اجتلاب المنافع وعلى دفع المضار»[٢٠]. وأما الموضوع الرابع فيبحث في (الحذر) الذي ينبغي أن يتسلح به الوزير، وهو حذر «من الله تعالى فيما فرض ومن السلطات فيما فرض ومن الزمان فيما اعترض ومن غلبة الأعداء ومكر الدهاة»[٢١].

ويتبع ذلك موضوع خامس في (التقليد والعزل) ويبحث في معاوني الوزير وصفاتهم وفي الحالات التي تجيز له استنابة غيره. هذا في التقليد أما في العزل، فالماوردي لا يجيز شرعية عزل الوزير بغير سبب، كذلك لا يجيز شرعية عزل معاونيه بغير سبب أيضاً. وهو يعود هنا إلى نظريته في «الاحكام السلطانية» التي ترفض خلع الخليفة الا بعد ثبوت تهمة الفساد عليه، مضيفاً اليها مع الوزير تهمة الخيانة. ذلك ان عدم الكفاءة لا يسوغ برأيه خلع الوزير شأن الخليفة.

والمبحث الأخير خاص بوزارة التنفيذ التي تختلف عن وزارة التفويض بأربعة قوانين:

الأول: السفارة بين الملك وأهل مملكته.

الثاني: السفارة بين الملك وعماله.

الثالث: السفارة بين الملك ورعيته.

الرابع: السفارة في استيفاء حقوق السلطة التي للملك وعليه من غير مباشرة قبض ولا تنقيص.

ويتوجه الماوردي في خاتمة كتابه إلى صديقه الوزير ابن المسلمة، باسلوب واضح المباشرة، ودعوة تغلب عليها المناشدة والرجاء وأحياناً التحذير، وذلك بشيء من الخصوصية الحارة «وقد أوجزت لك أيها الوزير ما إن كان عملك به محيطاً ذكرك، وان كنت غافلاً عنه انذرك، والله يمدك بتوفيقه ويعينك على طاعته بجوده».

تقويم الكتاب

بعد هذا العرض السريع لأبرز محتويات هذا الكتاب، لا بد من العودة إلى التقويم الذي ختم به الدكتور السيد مناقشته لفكر الماوردي وتنظيره للأدارة العباسية، خلافة أم وزارة أم إمارة. فهو يرى فيه عالماً

معترض يخدع بغرامه ويحجب بتمامه وأنت أيها
الوزير أمدك الله بتوفيقه في منصب مختلف الأطراف
تدبر غيرك من الرعايا وتدبر بغيرك من الملوك فأنت
سائس مسوس تقوم بسياسة رعيتك وتقاد لطاعة
سلطانك فتجمع بين سطوة مطاع وانقياد مطيع
فشطر فكرك جاذب لمن تسوسه وشطره مجذوب لمن
تطيعه وهو أثقل الأقسام الثلاثة محملا وأصعبها
تحركا لأن الناس بين سائس ومسوس وجامع بينهما
وأنت من الرتبة الجامعة فأنت تجمع ما اختلف من
أحكامها وتستكمل ما تباين من أقسامها وسياسة
تدبير مملكة صلاحها مستحق عليك وفسادها منسوب
إليك تؤاخذ بالإساءة ولا يعتد لك بالإحسان
لأن لك المبادئ بالإرغام وتشذ عليك الغايات
بالإعنات مستظهرا لتكون أضداد الإحسان إليك وتسلم
من عتب المؤاخذة لك ويلزمك منه ما في حق سلطانك
أن لا يعتد عليه بصلاح ملكه لأنك بالصلاح مندوب
ولا تعتذر إليه من اختلاله لأنه بالاختلال إليك منسوب

الورقة ١ ب من المخطوطة

من علماء الفكر السياسي البارزين في التاريخ العربي الأسلامي، بيد أنه شأن غيره أو أكثر تفوقاً – تغلبت عليه نزعة المحافظة الشديدة، سمة العصر البارزة في وقت تعاظمت فيه الحاجة إلى «قوى ضبط فعاله في المجال السياسي لمواجهة فوضى المتغلبين»[٢٢].

ولكن الدكتور السيد، لا يلبث أن يسير بدوره مع الماوردي في الاعتقاد بعودة العافية إلى نظام الخلافة المترنح، الذي اثبت حسب قوله بأنه قادر مرة أخرى على الارتفاع إلى مستوى الأحداث، عندما وضع امكانياته الايديولوجية وراء نور الدين محمود ثم صلاح الدين، ادراكاً منه أنهما يقومان بالمهمة التي كان على الخلافة ان تقوم بها[٢٣]. فهل كانت حقاً الخلافة قادرة على أتخاذ موقف ما ازاء المتغيرات السياسية المعاصرة لها حينذاك؟ والحقيقة ان خلافة بغداد لم تكن في موقع صناعة القرار أو التأثير في مجرى التطورات الخطيرة التي اسفر عنها الغزو الصليبي للمنطقة. فجل ما قامت به آنذاك وتحت تأثير موجة الاستياء والاستنكار الشعبي، هو اعلان السلطان محمد السلجوقي باسم الخلافة الجهاد ضد الصليبيين وتكليف اتابك الموصل (مودود) القيام بهذا الدور . ولكن الجبهة الاسلامية في الشام كانت ممزقة تمزق نظام الخلافة المتقوقع في بغداد، حيث أسهمت في اخفاق مهمة (مودود)، الذي انتهى قتيلاً في صحن الجامع في دمشق، بتدبير من اتابكها (طغتكين) ، فغابت معه دعوة الخلافة إلى الجهاد.

وكانت حاجة المنطقة في الواقع إلى دفع الخطر عنها وعجز القوى المركزية والمحلية عن انقاذها، وراء ظهور شخصيات تاريخية من امثال عماد الدين ونور الدين وصلاح الدين، دون أن يكون للخلافة أي دور في التأثير ولو هامشياً على الظروف التي افرزت هؤلاء الزعماء. ومن ناحية أخرى لم يكن ثمة تعارض بينهم وبين الخلافة، إذا انطلقنا من نظرية الماوردي، بأن ما سيطروا عليه كان من نوع (سلطنة الاستيلاء)، نموذج السلطنات التي ظهرت في ذلك الوقت. ولقد استثمر القائمون عليها إرث الخلافة الأيديولوجي، وحققوا ما عجزت عن القيام به. فارتفعت معهم راية الجهاد، وسقطت نظرية الماوردي في المهادنة، المستمدة من واقع الحال في الخلافة العباسية.

انها دعوة غير جذرية إذن، يطرحها الماوردي في كتابه «قوانين الوزارة وسياسة الملك»، ومحاولة لدعم أو ترميم النظام القائم، دون البحث في اسباب ضعفه وانتكاساته المتواصلة. وهي طريقة للمعالجة عقيمة، تعتمد مداواة الواقع بالواقع، وتغليب المحاسنة على العنف والمهادنة على الحرب، أوكما عبر عنه الماوردي بقول الشاعر:

فاخطُ مع الدهر أن خطا

واجر مع الدهر كما يجري[٢٤]

«قوانين الوزارة وسياسة الملك»، كتاب يطرح أزمة نظام ومشاكل عصر، من خلال رؤية شديدة المحافظة، هي ايديولوجية النظام نفسه الذي كان

(الماوردي) أحد منظريه المتحمسين له والمشاركين فيه. وحيث كان المؤلف مطلاً عن كثب على تفاصيل، ربما لم تتوفر لغيره. فجاء كتابه غنياً في مادته، فريداً في موضوعه. وقد قدمه الدكتور رضوان السيد في اطار دراسة تحليلية قيمة ورصانة معهودة في البحث التاريخي. فبدا محيطاً بعمق وشمول لكل مفاصل الادارة العباسية والمؤثرات الخاضعة لها في ذلك الوقت. ●

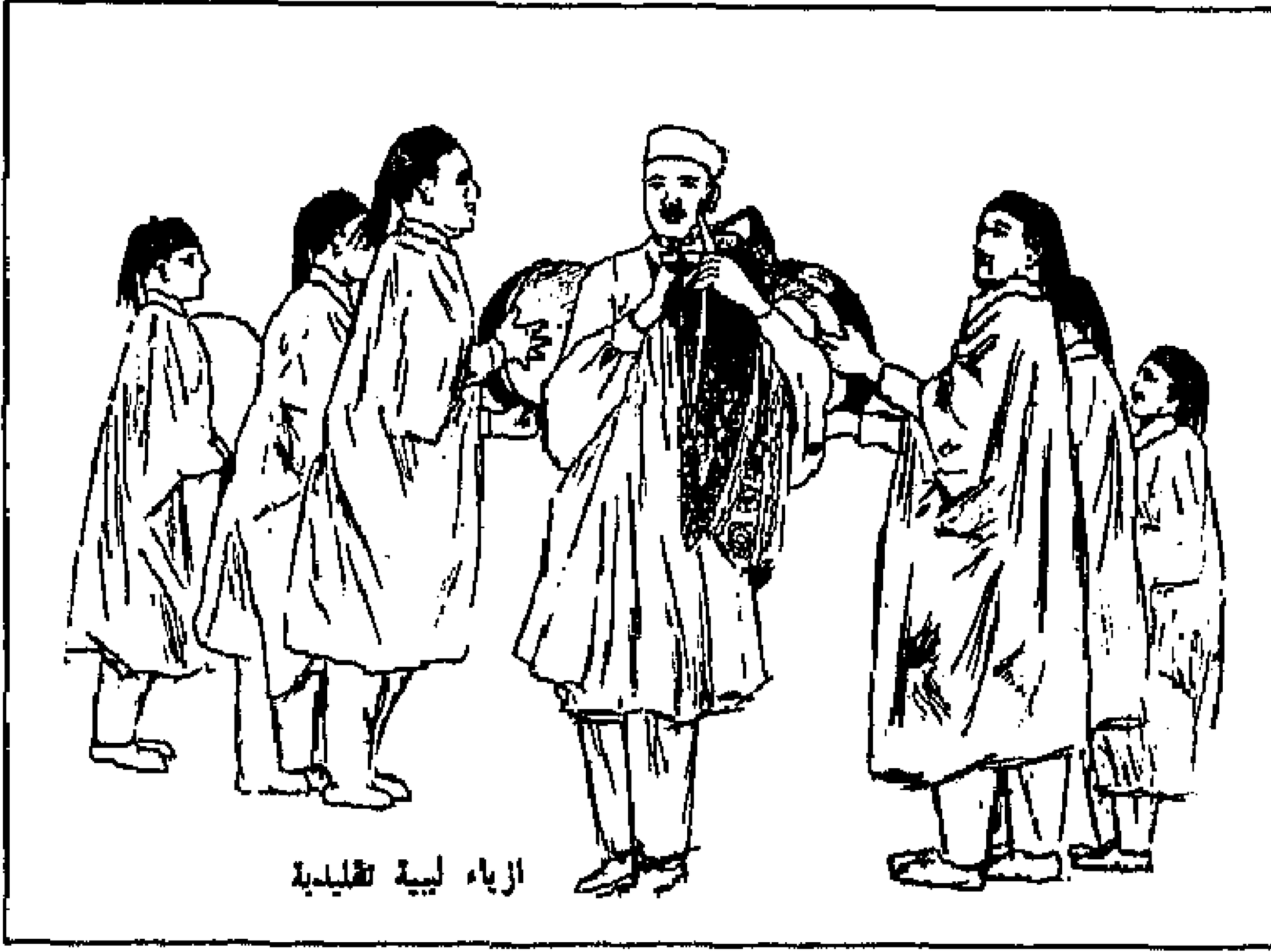
الهوامش

(١) أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب. من فقهاء القرن الخامس الهجري.
(٢) الاحكام السلطانية والولايات الدينية. ص ٣.
(٣) مذهب الماوردي.
(٤) راجع الكتاب صفحة ١١.
(٥) نفسه صفحة ١٢.
(٦) الاحكام السلطانية صفحة ١٤.
(٧) راجع الكتاب صفحة ١١.
(٨) نفسه صفحة ٢٤.
(٩) نفسه صفحة ٢٤.
(١٠) نفسه صفحة ٢٣.
(١١) نفسه صفحة ٨٧.
(١٢) نفسه صفحة ٨٨.
(٣١) نفسه صفحة ٢٨.
(١٤) نفسة صفحة ٢٩.
(١٥) نفسه صفحة ١٠٠.
(١٦) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة صفحة ٥ وصفحة ١٤١.
مختار العيادي: في التاريخ العباسي والفاطمي صفحة ٢٩٨.
(١٧) قوانين الوزارة صفحة ١٣٨.
(١٨) (١٩) نفسه صفحة ١٤٥ وما بعدها.
(٢٠) قوانين الوزارة صفحة ١٦١.
(٢١) نفسه صفحة ١٦٧.
(٢٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ حوادث سنة ٥٠٥هـ.
(٢٣) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق صفحة ١٨٧.
(٢٤) قوانين الوزارة صفحة ١٣١.

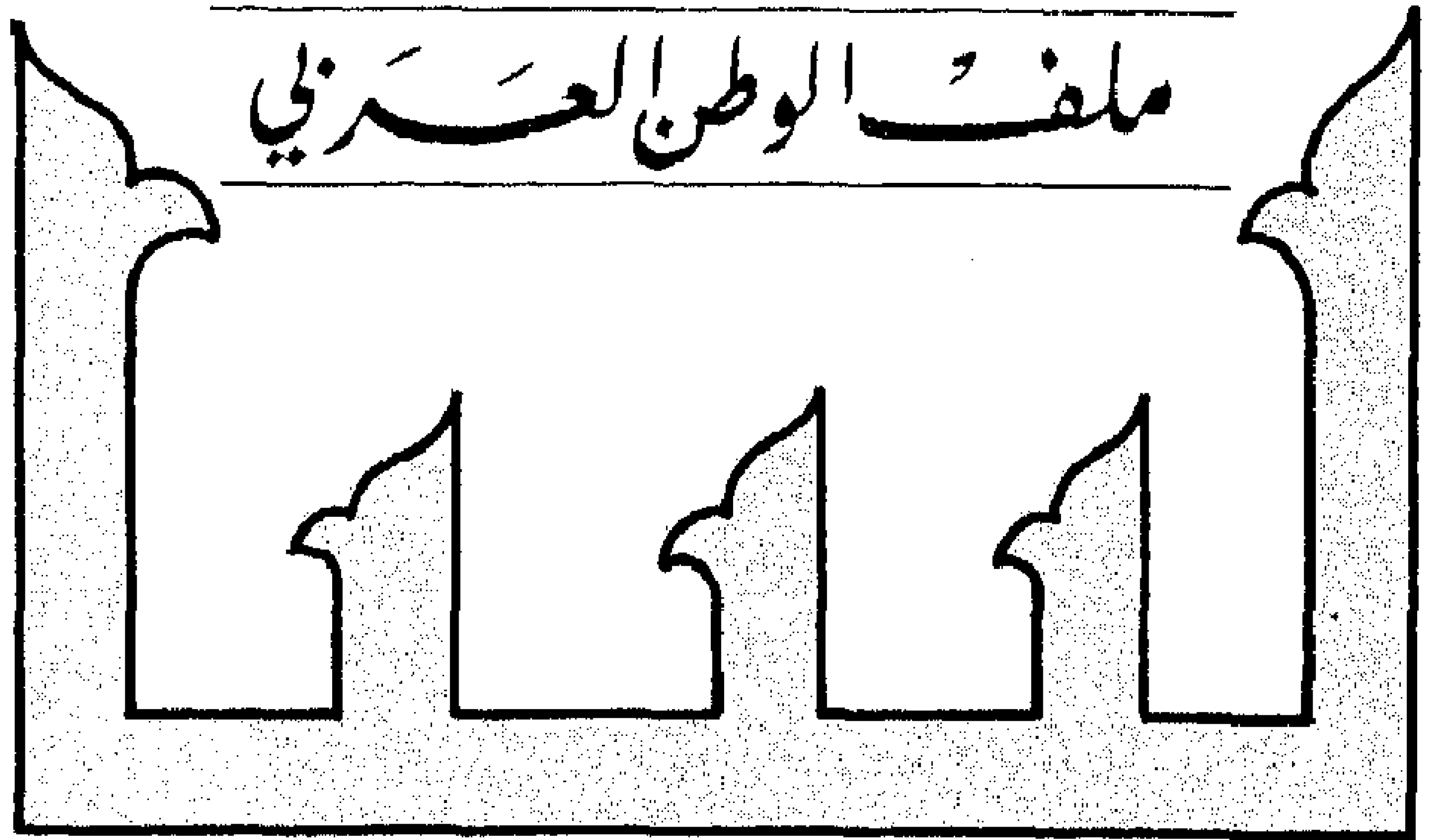


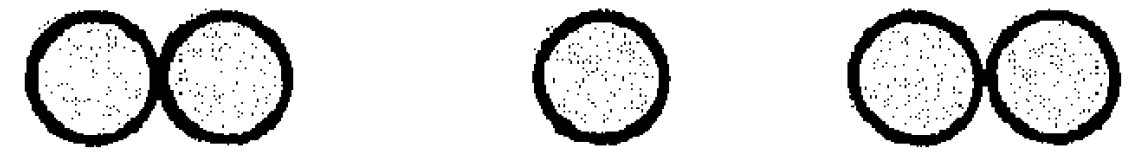
ينبغي أن تكون الرغبة في خدمة الخير العام قبل أي شيء آخر حاجة من حاجات القلب، وحالة من حالات السعادة الشخصية. فإذا كانت تصدر عن اعتبارات مبدئية أو سوى ذلك من اعتبارات، فانها تصبح شيئاً آخر.

انطوان تشيخوف



أزياء ليبية تقليدية





إعداد قسم الدراسات والأبحاث

الشعبُ الذي أعطى الصَحراء تاريخًا وحَضارة

المسجد العتيق في غدامس

هل من ميزة خاصة لتاريخ ليبيا القديم والوسيط تجعلنا نتناوله في شكل يختلف عن تاريخ البلدان الأخرى؟.

يقول الدكتور عبد اللطيف محمود البرغوتي، استاذ التاريخ في كلية التربية في الجامعة الليبية: «إذا كانت كتابة التاريخ بشكل عام هي مشكلة فإن كتابة التاريخ الليبي بشكل خاص، مشكلة متفرعة متشابكة بقدر ما في ذلك التاريخ من تفرع وتشابك ناجمين عن اتساع ليبيا وطبيعتها وموقعها وطبيعة سكانها وعددهم» (تاريخ ليبيا الاسلامي ص/٥/).

لذلك فاننا نهدف في هذه الدراسة إلى ابراز أهم المفاصل التاريخية في تاريخ ليبيا منذ العصر الحجري وحتى العصر الحديث مشددين على العهد الاسلامي الذي طبع بطابعه الحضارة الجديدة للشعب الليبي.

* * *

الانسان الأول

استوطن انسان «النياندرتال»، وهو جنس بشري بدائي مشوه البنية لاهدف له سوى البحث عن الطعام، ليبيا منذ عصور موغلة في القدم واقام فيها حضارته التي سبقت حسب رأي ماكبرني جميع حضارات المنطقة بآلاف السنين وجعلت من شمال افريقيا مركزاً تنطلق منه الهجرات والحضارة إلى بقية انحاء القارة.

ويذكر أن المؤرخ الاغريقي هيرودوت الذي زار ليبيا حوالي العام ٤٥٠ق.م. هو الذي اطلق على كل شمال افريقيا غرب مصر اسم «لوبيا» مستنداً إلى الصفة التي كان الفراعنة يطلقونها على القبائل القاطنة غرب بلادهم وهي «ليبو» أو «ريبو». وعندما جاء العرب المسلمون إلى شمال افريقيا حافظوا على اسم «ليبيا» لذيوعها بين الناس.

من هنا فان محاولات بعض المؤرخين الغربيين اضفاء صفة «البربر» على مجمل سكان شمال افريقيا لا تمت إلى العلم بأية صلة، إذ ان لفظ «بربري» الذي اطلقه الأغريق عموماً على شعوب الشمال الافريقي من واحة سيوه غرب مصر شرقاً إلى ساحل المحيط الاطلسي غرباً وحتى وادي النيجر، كان يعني لديهم كل ما هو غير اغريقي. ثم تطور استخدام هذا اللفظ ليعني «اجانب» عموماً وذلك استناداً إلى كون قدامى الرومان اطلقوا لفظ «بربر» على الشعوب التي اعتقدوا انهم ادنى منهم مرتبة وحضارة، كما اطلقوا على جميع البلاد التي قاومت الحكم الروماني المركزي اسم «برباريكوم» (أي بلاد البربر) منها مثلاً مدينة «بربره» (في الصومال).

من كل ما تقدم نستنتج انه لم يعرف في تاريخ السلالات البشرية عموماً أن هناك جيلاً من الناس يسمى باسم «البربر» له حضارته المتميزة. ان معظم كتاب الانساب يحتفظون لقبائل البربر بانساب عربية صريحة مثل صنهاجة وكتامه ذات الاصول اليمنية.

ليبيا قبل الاسلام

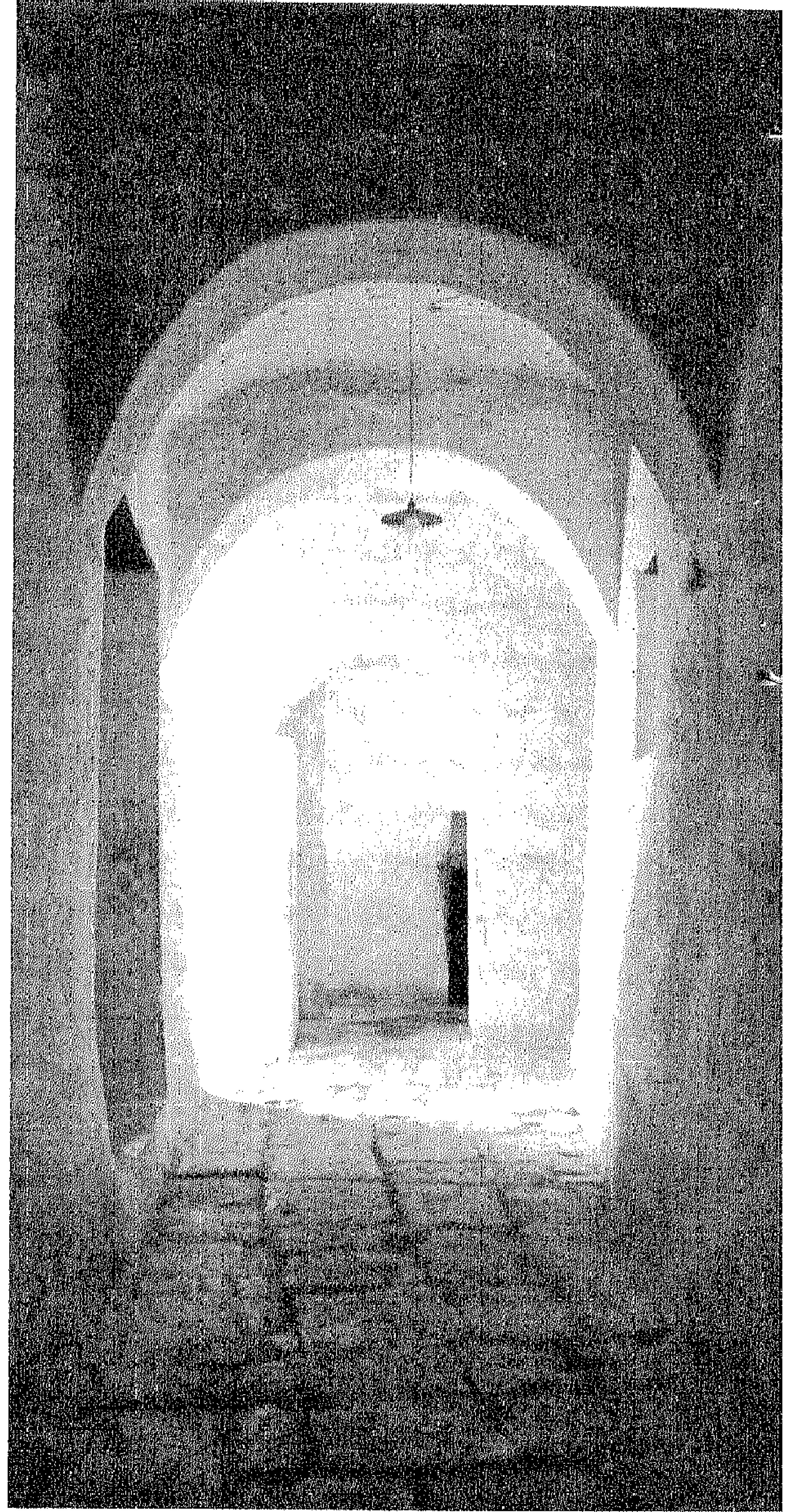
شهدت الأراضي الليبية تعاقب الغزوات والفتوحات ككل البلاد الواقعة على السواحل أو القريبة من مراكز التجارة العالمية يومها:

● في عهد الفراعنة نلاحظ ظاهرة جديدة بالدراسة وهي محاولات الحكم المركزي في مصر تحصين نفسه من تتالي الهجرات الوافدة إلى داخل الامبراطورية الفرعونية طلباً للماء والعشب.

وكانت أول الصدامات العسكرية في التاريخ القديم بين القبائل الوافدة من الجهة الغربية (ليبيا) والسلطة المركزية هي تلك التي امتدت حوالي ٤٠٠ سنة من عصر سيتي الأول (١٣١٨-١٢٩٨ق.م). إلى عصر رمسيس الثالث (١١٩٨-١١٦٦ق.م).

أن النقوش العديدة التي تعود إلى عهد رمسيس الثالث تشير إلى محاولات الفرعون حل مشكلة توافد المهاجرين إلى أرض مصر الخصبة والمروية (وخصوصاً في الدلتا) إما بقوة السلاح أو بالتفاوض ولكن ضغط الحاجة الملحة بالنسبة إلى هذه القبائل للماء والعشب جعلها في نهاية الأمر تتغلب على الآلة العسكرية الفرعونية:

في أواخر عصر الاسرة الواحدة والعشرين الفرعونية استطاعت القبائل الليبية اختراق تحصينات الدولة الفرعونية واستوطنت الدلتا مما اضطر الفرعون إلى الرضوخ. وقد حاول الفرعون استرضاءها وكسب ودّها



رواق مرصوف داخل قصر اجدابيا

بأية وسيلة مفسحاً المجال أمام الفرعون الجديد «شيشنق» الليبي الاصل إلى تأسيس حكم الاسرة الـ ٢٢ الذي دام ٢١ عاماً (٩٥٠ق.م.-٩٢٩ق.م). وهنا يتفق المؤرخون على اطلاق اسم «حكم الاسرة الليبية في الدلتا» على حكم الفرعون «شيشنق».

● اهتم الفينيقييون بليبيا لجهة استخدام سواحلها كمركز للتجارة والترانزيت أكثر من اهتمامهم باستعمارها واخضاعها لنفوذهم. وقد انطلقوا من قرطاجة (أو «قرت حداشت بمعنى «القرية الحديثة» في اللغة العربية القديمة) نحو السواحل الليبية فظهرت «صبراته» بمثابة محطة تجارية منذ القرن السادس ق.م. ثم «لبدة الكبرى» و«طرابلس» التي اطلقوا عليها اسم «فيعات».

أن تاريخ فينيقيا في شمال افريقيا جزء لا يتجزأ من تاريخ ليبيا إذ أن القبائل الليبية (ومنها قبائل المكاي التي تصدت بمساعدة فينيقيي قرطاجة لغزو الاسبارطيين بالقرب من لبدة في القرن الخامس ق.م.) قامت بالعبء الأكبر من القتال دفاعاً عن شمال افريقيا طوال فترة توسع وازدهار قرطاجة. وكانت هذه القبائل بالتعاون مع القرطاجنيين بقيادة هن بعل (هانيبعل) نجحت في اكتساح الامبراطورية الرومانية القديمة في حملة صاعقة وصعبة على ايطاليا انتهت بحصار روما نفسها لفترة من الوقت.

وحتى نهاية القرن السابع ق.م. كانت ليبيا ضمن وحدة جغرافية واحدة تمتد من مصر إلى المغرب وتعيش حضارة سامية الطابع تستمد جذورها من حضارات مصر والممالك الكنعانية في الشام والعراق وشبه الجزيرة العربية. ولكن بعد ظهور الاسكندر المقدوني على مسرح الاحداث الدولية حينها (حوالي العام ٣٣٤ق.م). أخذ العالم القديم يهتز من جذوره. فانهزم الساميون على جميع الجبهات في الشام وفارس والعراق ولكن الهزيمة الحاسمة التي اثرت على ليبيا أكثر من سواها هي سقوط مصر وانحسار حضارتها القديمة أمام زحف الاغريق. فتمّ تقسيم ليبيا إلى ثلاث مناطق:

١ - منطقة غربي القدس بطابعها الفينيقي (لبدة وصبراته وطرابلس).

٢ - منطقة شرقي القدس بطابعها الهليني (قورينة وطلميثة وتوكرة وبنغازي).

٣ - منطقة جنوبي القدس وهي تنتمي حضارياً إلى الكتلة الرئيسية من شعوب شمال افريقيا على امتداد الصحراء الكبرى من سيوه إلى اقصى موريتانيا.

وفي عصر ازدهار قرطاجة انجزت القبائل الليبية عملاً فريداً من نوعه هو فتح الصحراء الكبرى التي تبلغ مساحتها حوالي ٨ ملايين كيلو متر مربع وتعتبر أكبر مساحة صحراوية على سطح كوكبنا. والمثير في الأمر هنا هو أن الليبيين لم يكتفوا بعبور هذه الصحراء بل حولوا أجزاء واسعة منها للإقامة الدائمة فيها.

● طوال الفترة الممتدة من تاريخ سقوط قرطاجة بيد الرومان وتدميرها (١٤٦ق.م). وحتى بداية الفتح الاسلامي لشمال افريقيا (٢٠هـ/٦٤٠م). توالت الغزوات الأوروبية على ليبيا وذلك إما لاستعمارها مباشرة أو لاستخدامها كنقطة انطلاق لغزو مناطق أخرى على ساحل شمال افريقيا. وكان الاغريق يهتمون بالأراضي الليبية كثيراً لانها تبعد فقط ٢٥٠ ميلاً عن اراضيهم فكانت بالنسبة اليهم كشمال القارة الاميركية بالنسبة إلى الاوروبيين في القرون الوسطى. أما الرومان فانهم اخضعوا السواحل الليبية بقوة السلاح وذلك في اطار حلمهم الكبير يومها في استعادة كل البلاد المحيطة بالبحر الأبيض المتوسط الذي كانوا يعتبرونه بحرهم هم (MARE NOSTRUM).

وبعد ٤٧٠ سنة من بدء الاحتلال الروماني لليبيا (أي حوالي أواسط القرن الخامس الميلادي) غزت قوات «الوندال» الالمانية الاصل، السواحل الليبية واستطاعت اخضاع القبائل فيها لسيطرتها حتى العام ٥٣٤م. عندما نجح البيزنطيون في طردهم من البلاد بعد حرب دامية بين الطرفين الأوروبيين لم تشترك فيها القبائل الليبية. وما ان بدأ ميزان القوى يميل لمصلحة البيزنطيين حتى نظمت هذه القبائل مقاومة مسلحة امتدت حتى الأراضي الفينيقية نفسها (تونس) حيث انضم سكانها إلى جانب الليبيين في تصديهم للغزو البيزنطي. وفي العام ٥٤٧م. استطاع البيزنطيون اخماد الانتفاضة إلى حين.

ومن الجدير بالذكر هنا تسجيل ظاهرة تتكرر كلما خضعت الأراضي الليبية لغزو اجنبي في فترة ما قبل الفتح الاسلامي: وهذه الظاهرة هي تقطيع اوصال المدن الليبية ضمن اطار تجزئة كل الشمال الافريقي. وبالفعل قام الرومان، بعد تدميرهم قرطاجة، بتجزئة شمال افريقيا إلى ٤ اقسام:

١ - ولاية افريقية (منطقة قرطاجة - العاصمة).

٢ - مملكة نوميديا (عاصمتها قرطة أو قسنطينة اليوم).

٣ - مملكة المغرب الأقصى في غرب الجزائر (عاصمتها ايول).

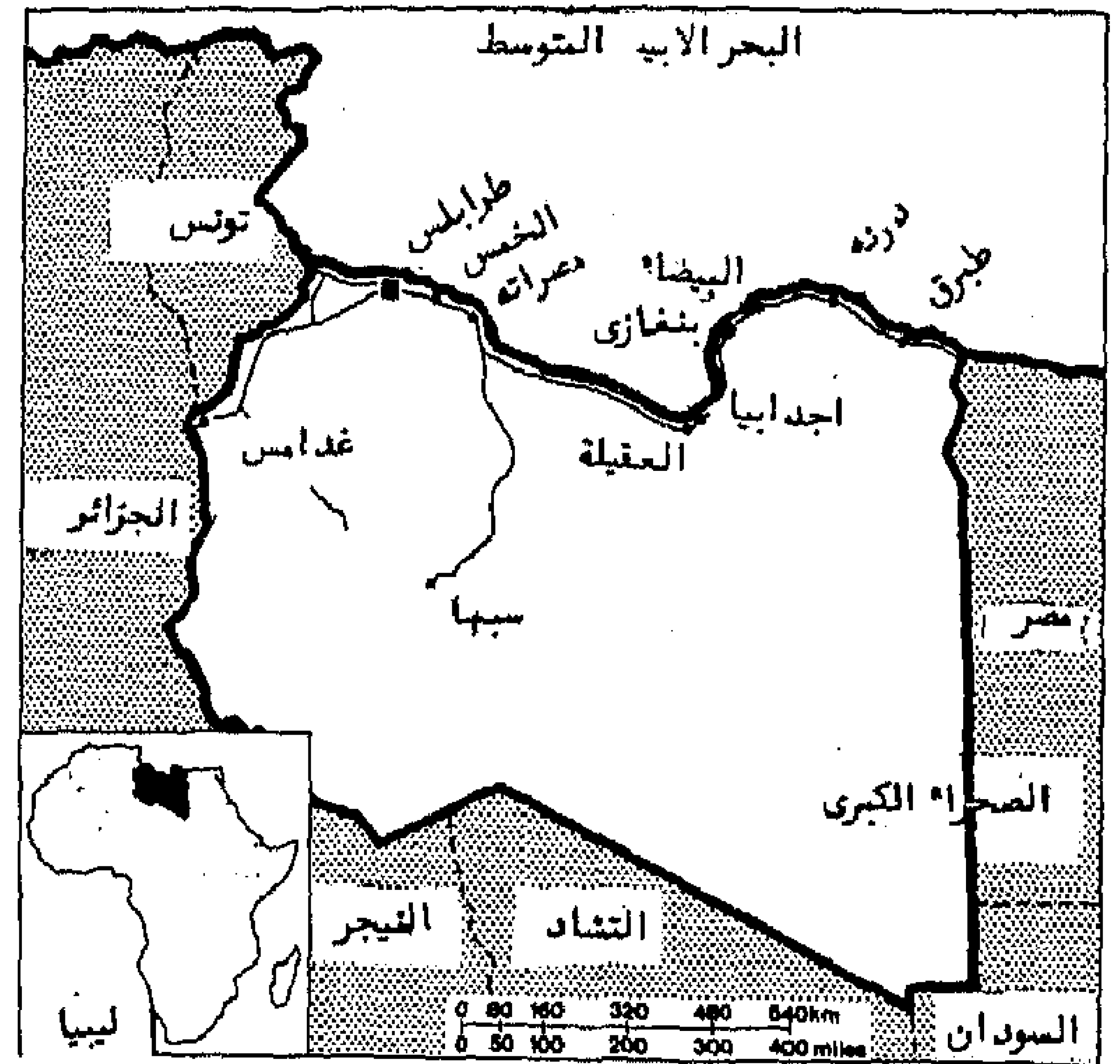
٤ - مملكة المغرب (عاصمتها طنجة).

وكانت مملكة نوميديا هي في الواقع أول دولة مستقلة منظمة في شمال افريقيا حكمتها أسر من اصل ليبي. ولكن هذه الاستقلالية للدولة الليبية الفتية لم تحميها من تدخل الرومان الذين كانوا يخشون من أن تصبح هذه المملكة قرطاجة أخرى. لذلك اعادوا تقسيم نوميديا إلى شرقية (واصبحت تحت سيطرتهم المباشرة وسميت «افريقيا الجديدة») وغربية (اندمجت مع المغرب)، كما فصلوا مدن لبدة وطرابلس وصبراتة عن المملكة - الام ووضعوها تحت الحراسة الرومانية المباشرة. كل هذه المحاولات التقسيمية لم تشل حركة مقاومة القبائل الليبية للسيطرة الرومانية بل على العكس جعلتهم يكسرون الحدود المصطنعة بين شعوب شمال افريقيا معلنين الثورة على الوجود الروماني في كل المنطقة. وكانت أبرز هذه الثورات «انتفاضة قورينة» (١١٥م). في منطقة برقة التي كانت حينها تابعة لمصر. وامتدت هذه الانتفاضة إلى ارجاء مصر وقبرص وبلاد ما بين النهرين وحتى انطاكية. دامت الانتفاضة أكثر من تسعة أشهر وكادت أن تزعزع اساس الوجود الروماني في المنطقة كلها، مما دفع الامبراطور تراجان إلى ارسال قائد جيشه ماركيوس توربو الذي ما لبث ان اقتحم قورينة وأباد كل من شارك وأيد الانتفاضة.

ولا بد من التنويه في هذا المجال الى أن السجلات الرومانية القديمة والمصادر التاريخية المستقاة منها لا تشير إلى هذه الثورة، التي انتهت إلى مذبحة بكل معنى الكلمة، الا باعتبارها عصيانا مدنياً عابراً لم يقم به سكان ليبيا بل «اليهود» أي حسب التعبير الروماني يومها «كل من لا يعبد الامبراطور» وهي نقطة يلتقي عندها الثائر غير اليهودي والثائر اليهودي. ولا عجب بالتالي أن تسمي المراجع الغربية ثورة قورينة بـ«ثورة اليهود».

الفتح الاسلامي العربي لليبيا

في العام ٢١هـ. (٦٤١م). تقدم عمرو بن العاص نحو برقة التي كانت تدعى في ذلك الوقت «بينتابوليس» (أي «المدن الخمسة»). ولكن لم يلق عمرو أية مقاومة جدية إلا على مشارف مدينة طلميثة (وكانت عاصمة الاقليم طوال عهد بيزنطية) التي كانت تقع على بعد ألف كيلو متر تقريباً من نقطة انطلاقه في الاسكندرية.



خريطة ليبيا : اشهر مدنها.

دارت معركة الاسلام الأولى على أرض ليبيا حول طلميثة، ومع سكان طلميثة كتب المسلمون النسخة الأولى من وثيقة الصلح مع بقية المدن في شمال افريقيا. وكما جاء في موسوعة الصادق النيهوم (تاريخنا) : «... كانت هذه الوثيقة، في ظروف العصر المظلم الذي عاشته شعوب المنطقة تحت نير الرومان، وثيقة تحرير، بالفعل، نصاً وروحاً.. أن التعبير الأكثر وضوحاً عن فكرة التحرير تمثل في مبادرة عمرو بن العاص إلى نقل العاصمة فوراً من طلميثة إلى مدينة المرج التي كانت تعرف حينها باسم برقة... وكانت مدينة برقة ترتبط في اذهان الليبيين بفكرة الثورة والتحرير من جهة، وتطابق حاجة الجيش الاسلامي إلى عاصمة تقع بعيداً عن البحر من جهة أخرى» (ص ٥٧ - ٦٠).

من العاصمة الجديدة في المرج خرج عمرو بن العاص في أوائل العام ٢٢هـ. (٦٤٢م). وتقدم غرباً حتى مدينة اجدابيا حيث انقسم الجيش الاسلامي إلى فصيلتين :

- الفصيلة الأولى بقيادة عقبة بن نافع اتجهت نحو الجنوب الغربي متوغلة في الصحراء لفتح المناطق الداخلية.

- الفصيلة الثانية تقدم بها عمرو بن العاص نفسه إلى طول الساحل ماراً بمدن سارت ولبدة وغيرها مخترقاً مسافة تزيد عن الف كيلو متر خلال شهرين فقط حتى وصل إلى اسوار طرابلس حيث استطاع في اواخر العام ٢٢هـ. انتزاعها من أيدي الروم وهدم قسماً من سورها كما سبق وفعل في بقية المدن المسورة.

بعد فتح طرابلس ارسل عمرو فرقة بقيادة عبد الله بن الزبير بن العوام إلى صبراتة فاستسلمت. وفي صبراتة تجمع الجيش الاسلامي الزاحف وسار بعد حين إلى مدينة شروس في جبل نفوسة ودخلها. وعند هذا الجبل توقفت الحملة الأولى على شمال افريقيا فعاد عمرو بن العاص إلى مصر تاركاً حامية عسكرية في برقة بقيادة عقبة بن نافع وأخرى في سارت بقيادة بسر بن أبي ارطأة.

بعد مقتل الخليفة عمر بن الخطاب (٢٣هـ) توقف الزحف الاسلامي عند أبواب افريقيا مؤقتاً. وهذا ما جعل البيزنطيين يستعيدون قواهم فاستردوا خلال سنة واحدة تقريباً معظم المدن الساحلية الممتدة على طول النمط الممتد من الاسكندرية إلى طرابلس. وفي العام ٢٦هـ. أمر الخليفة الجديد عثمان بن عفان بتسيير حملة على افريقيا لاسترداد طرابلس وبقية المدن التي استولت عليها جيوش الروم. وتولى قيادة تلك الحملة عبد الله بن سعد فتوجه من مصر إلى برقة حيث انضم اليه عقبة بن نافع. وحسب ما يتفق عليه المؤرخون فان طرابلس عادت مع سائر مدن اقليمها إلى ايدي المسلمين حوالي العام ٢٨هـ. بعد انهيار القوات البيزنطية في افريقيا وانسحابها إلى الغرب.

وفي بداية القرن الرابع للهجرة بلغ التمزق الاسلامي مداه عندما تحطمت قاعدة الخلافة الاسلامية تحت ضغط تعدد مراكز القيادة المركزية للدولة الاسلامية الكبرى. ومنذ ذلك الحين وحتى ظهور العثمانيين الاتراك بعد ٦ قرون تقريباً، كان على المسلمين أن يعايشوا تجربة الانفصال التي أدت إلى الحروب الأهلية المتفرقة، مما شد من عزيمة الصليبيين الذين كانوا يهيئون بعناية لغزوهم اللاحق للمنطقة انطلاقاً من قواعدهم القريبة في صقلية وجنوى واسبانيا.

ويذكر في هذا المجال انه بعد الفتح الاسلامي لم يبق في ليبيا على غير دين الاسلام الا مجموعات قليلة من الاقباط واليهود وبعض الوثنيين.

وبعدما تضعضعت سلطة الدولة الاسلامية المركزية. اشتدت سواعد القوى الأوروبية التي لم تتأخر في استعادة حركة غزوها لمنطقة شمال افريقيا ولكن هذه المرة كان الاتراك العثمانيون في وضع عسكري يسمح لهم بالتصدي للقوات الغربية الغازية. وبسقوط طرابلس في

أيدي العثمانيين العام ٩٥٨هـ. (١٥٧٧م). أصبحت ليبيا بأقاليمها الثلاثة (طرابلس وبرقة وفزان) جزءاً من الامبراطورية العثمانية. وظهر التذمر من الحكم التركي العثماني في صفوف الشعب الليبي خصوصاً منذ الأيام الأولى لسيطرتهم. فتتالت الانتفاضات الداخلية ضدهم حتى وصلت إلى قلب طرابلس نفسها، لما كان من أحمد القره مانلي ابن يوسف القره مانلي «الباش - اغا» الذي كان قائداً على جميع فرسان الساحل الافريقي، أن ثار ضد الاتراك الانكشاريين وأسس في العام ١١٣٢هـ. (١٧١١م). حكماً ليبياً وراثياً استمر أكثر من مائة عام (حتى العام ١٢٥١هـ/١٨٣٥م). وكان حكم القره مانلي المستقل في ليبيا شبيهاً إلى حد كبير باستقلال جبل لبنان النسبي عن سلطة الباب العالي في ذلك الحين.

ولكن في العام ١٨٣٥م. وجه السلطان العثماني محمود الثاني إلى طرابلس قوات تركية انكشارية ازاحت الاسرة القره مانلية عن الحكم المحلي واخضعت البلاد كلية للسلطة المركزية.

وفي بداية القرن العشرين عادت الحركات الاستعمارية الأوروبية ونشطت من جديد خصوصاً بعد تضعضع حكم الباب العالي:

فبدءاً من أواخر العام ١٩١١م. باشرت القوات الايطالية بالزحف التدريجي على الأراضي الليبية. فاحتلت أولاً مدينة طرابلس الغرب بعد مقاومة عنيفة. ولم تستطع انجاز سيطرتها الكاملة على البلاد إلا في العام ١٩٣٢ بعد سلسلة طويلة من العمليات الحربية القاسية والمذابح الرهيبة للمدنيين المسالمين.

منذ ذلك الوقت وحتى اعلان الاستقلال السياسي في ١٩٥١/١٢/٢٤، كانت ليبيا جزءاً من «لعبة الأمم» العالمية يتقرر مصيره خارج اراضيه وبمعزل عن طموحات شعبه وهذا ما جعل سواحل البلاد وصحراءها، في الفترة بين ١٩٤٠/٩/١٥ و١٩٤٣/١/٢٣، مسرحاً لمعارك عسكرية عنيفة بين قوات الحلفاء (بريطانيا بمساعدة بولونيا وفرنسا واليونان) وقوات المحور الالماني-الايطالي. وخلال هذه المعارك برزت اسماء قادة عسكريين غربيين أمثال رومل ومونتغومري.

ومنذ الفاتح من سبتمبر-أيلول ١٩٦٩ تشهد ليبيا طوراً جديداً من تاريخها الاسلامي العربي يتميز بروح القومية الوحدوية العربية المنطلقة من جذور ماضٍ مجيد لبناء مستقبل يجسد أفضل تجسيد طموح الشعب الليبي في الاستمرار في إعطاء الصحراء الكبرى تاريخاً وحضارة متجددتين.

معلومات جغرافية واحصائية

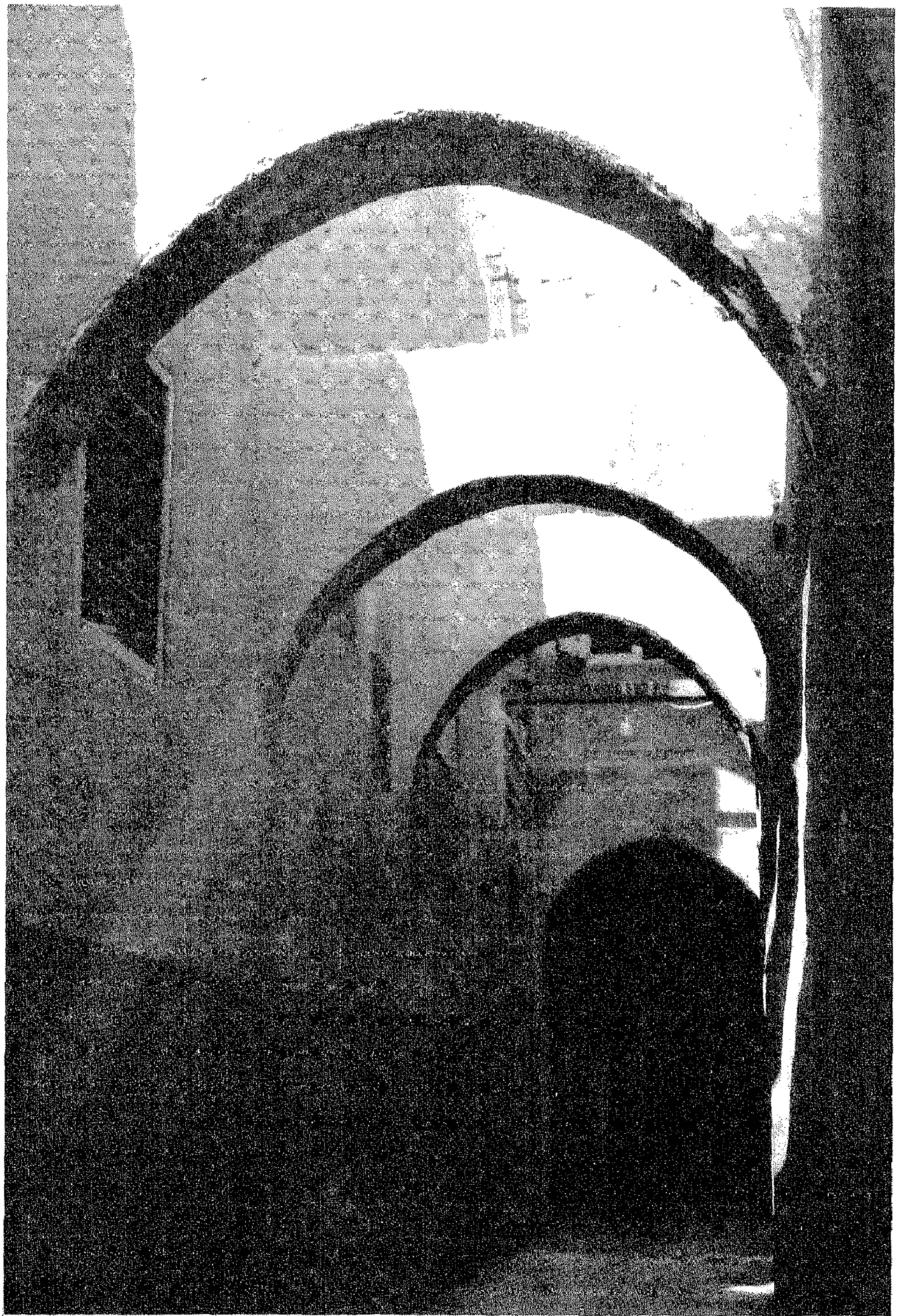
تمتاز حدود ليبيا البحرية والبرية باتساعها وطولها: فهي تحاذي البحر الأبيض المتوسط بخط ساحلي طوله ١٢٠٠ ميل وهذا الساحل مكشوف في معظمه قليل التنوع وخطر. ولها في الشرق خط مع مصر طوله ٨٠٠ ميل وفي الغرب خط مع تونس طوله ٢٥٠ ميلاً وفي الجنوب خط مع الجزائر طوله أكثر من ٦٠٠ ميل، اضافة إلى حدود مشتركة مع تشاد ونيجر والسودان.

تبلغ مجمل مساحة الاراضي الليبية ١,٧٦٠,٠٠٠ كلم مربع وأكثر هذه المساحة امتداد صحراوي هضبي للصحراء الافريقية الكبرى، ويستثنى من هذا الامتداد السواحل الضيقة المطلة على البحر الأبيض المتوسط. سكان ليبيا حوالي ٣ ملايين نسمة (احصاء ١٩٧٦) وسيرتفع عددهم في العام ٢٠٠٠ إلى حوالي ٥ ملايين نسمة.

أهم الآثار الاسلامية

ان العمران في مختلف عصور التاريخ الليبي تركز على طول الساحل. وكانت معظم مدن الساحل الأثرية لا تزال عامرة في أواخر العصر البيزنطي وظلت هكذا حتى بعد الفتح الاسلامي، وهي من الشرق إلى الغرب: طبرق، درنة، قورينة، سوسة، برقة، طلميثة، قوكرة، بنغازي، اجدابيا، سارت، مغمداش، لبدة، طرابلس وصبراتة.

سنركز في هذا المجال على أهم الآثار الاسلامية في ليبيا وذلك بعدما كتب د. ديمتري برامكي عن الآثار ما قبل الفتح الاسلامي أي من العصر الحجري إلى العصر الروماني (راجع مجلة «تاريخ العرب والعالم» العدد الثالث. كانون الثاني/يناير ١٩٧٩ ص ٢٣-٢٩).

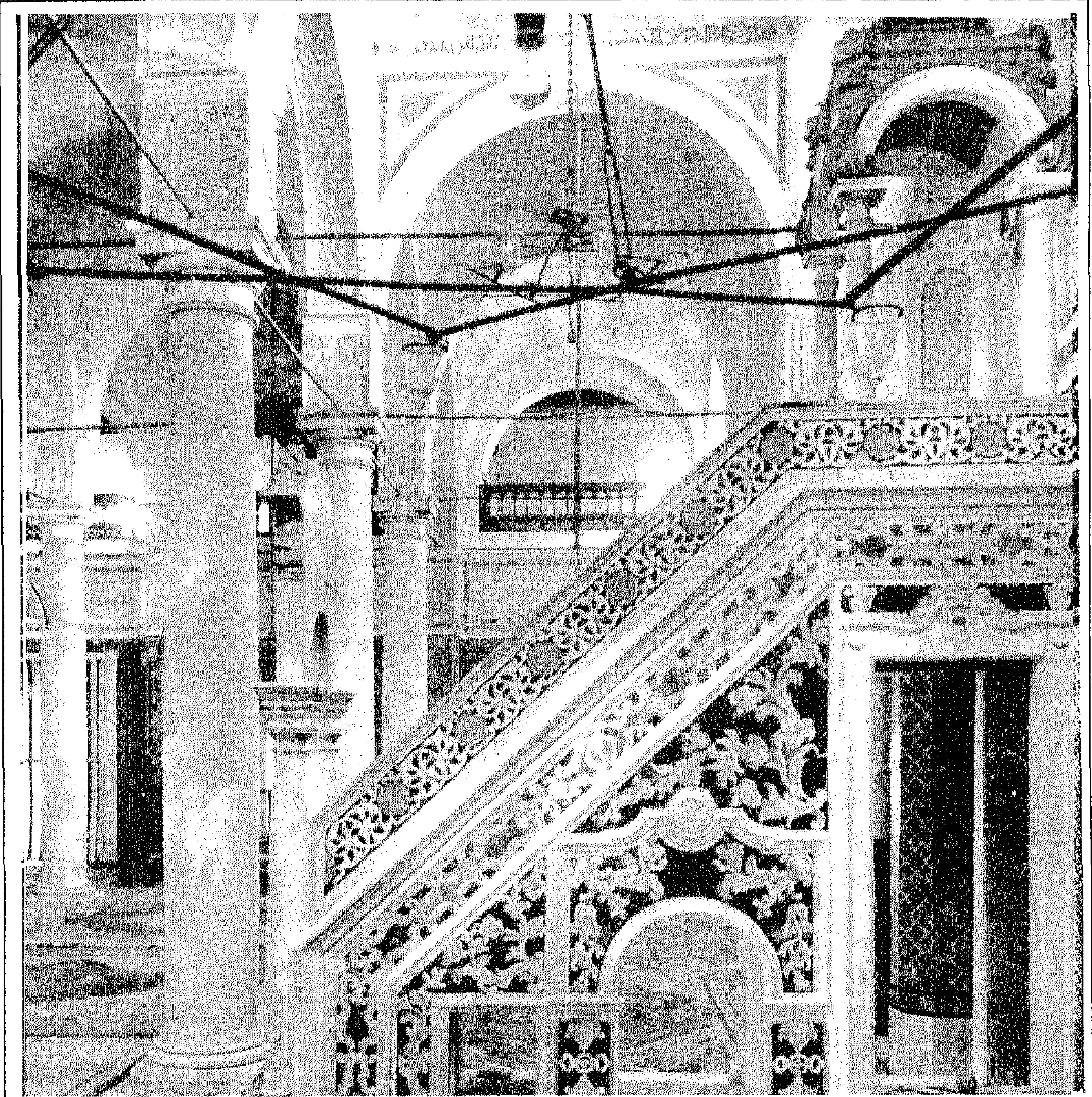


شوارع مسقوفة لتلافي الحر الشديد.

يعتبر المسجد من اقدم المعالم الاسلامية التي توطدت في ليبيا منذ سنوات الفتح الأولى، **فهو محور** الحياة الاجتماعية إذ كان في آن واحد مركز عبادة ومركز علم وثقافة واجتماع.

أن اقدم الجوامع في طرابلس هو «جامع الناقة» الذي نسبت الروايات بناءه إلى عمرو بن العاص. ولكن يذكر الصادق النيهوم في موسوعته التاريخية عن ليبيا (ص ٢٠٠) ان الذي بناه هو الخليفة الفاطمي المعز لدين الله. ويقال أن الخليفة هذا مر بطرابلس في طريقه إلى مصر العام ٣٦٢هـ. (٩٧٢م). فخرج اهلها لاستقبال موكبه بحفاوة رد عليها الخليفة بان اعطاهم جمل ناقة من الذهب. فاختار الأهالي ان ينفقوا المال في بناء الجامع ودعوه باسم جامع الناقة.

وأشهر خصائص هذا الجامع هو أن بعض عواميده أخذت من مبان رومانية قديمة، وهي ظاهرة تجلت أيضاً في مساجد أخرى نائية مثل مسجد غدامس الذي بني في هذه المدينة المسماة باسمه. ويذكر أن غدامس تقع عند ملتقى الحدود الليبية - التونسية - الجزائرية وتسمى أيضاً «المدينة ذات الطابقين» لأنها عبارة عن مبانٍ متصلة، طوابقها الأرضية للرجال والعلوية للنساء.



داخل جامع القرة منلي.

والمعروف أن مسجد غدامس هدمته قنابل الحلفاء العام ١٩٤٢ ثم أعيد بناؤه في وقت لاحق والغيت منه الغرف المخصصة للنساء.

ويقول بعض المؤرخين المعاصرين أن عمرو بن العاص بنى مسجداً في طرابلس أمام باب هوارة كما أسس مسجداً آخر في زنزور. وفي عهد الاغالبة (١٨٤-٢٩٦هـ/٨٠٠-٩٠٨م). شيد الكثير من المساجد والقلاع، خصوصاً على الشريط الساحلي.

قصر اجدابيا وجامعها

يقول علماء الآثار أن قصر اجدابي كان أحد القصور التي بناها الخليفة الفاطمي على طول الطريق بين المهدية وبين القاهرة خلال انتقاله إلى مصر في أواسط القرن الرابع الهجري. وكشفت الحفريات عن قصر محصن وعن قلعة بيزنطية تدل آثارها على وجود تعديلات أساسية أدخلها العرب المسلمون على تصميم المبنى. تشير القطع الفخارية الباقية منها إلى تاريخ مبكر ولكن شكل قواعد الابراج المستديرة الباقية تحمل ملامح الفن المعماري الأموي.

أما جامع اجدابيا فتاريخ تشييده يظهر على بقايا نقوش حفرت عليها العام ٣١٠هـ. و٣٢٠هـ. واسم بانيه الخليفة الفاطمي الثاني القائم أبو القاسم. ويمثل هذا الجامع، من الناحية الهندسية المعمارية، مرحلة من مراحل تطور الفن الفاطمي أي يمثل مرحلة وسطى بين أول مسجد فاطمي بني في المهدية العام ٣٠٠هـ - وهو مبني على مثال جامع اجدابيا - والجامع الأزهر المبني العام ٣٦٠هـ.

المدن - الحصون

وهناك ظاهرة جديرة بالانتباه في خصوص آثار ليبيا الاسلامية. العربية وهي تعدد المدن التي تحولت، بعد الفتح الاسلامي إلى حصون حصينة كمدينة طلميثة (أو قديماً بطليموسة) ولبدة (لبش ماغنا) وصبراتة.

فمثلاً قبل أن تتحول صبراتة إلى مجرد حصن عسكري، كانت من أعظم المدن في الشمال الافريقي. وقد انشأها الفينيقيون حوالي العام ٩٠٠ أو ٨٠٠ق.م. وكانت أكبر من طرابلس الغرب (التي تبعد عنها بنحو ٦٧ كلم) وأعظم منها عمراناً ومدنية. ولكن بنتيجة الفتح الاسلامي تم نقل كل النشاط التجاري إلى طرابلس نفسها.

أما لبدة (التي تبعد ١٢٤ كلم عن طرابلس) فلم تكشف الحفريات الاثرية - التي ابتدأت في العام ١٩٢٠ - إلا جانباً من حضارتها القديمة. ويذكر علماء الآثار أن المدينة تعرضت إلى نقل الكثير من نفائسها الأثرية فأخذت فرنسا أكثر من ٦٠٠ قطعة من التماثيل لاستعمالها في تزيين قصر لويس الرابع عشر كما نقل جزء كبير من آثارها إلى انكلترا في عهد جورج الرابع. ●

المراجع الرئيسية

● موسوعة «تاريخنا من عصور ما قبل التاريخ حتى مطلع القرن الحالي» (ليبيا) ٥ أجزاء من اعداد الصادق النيهوم - دار التراث، آذار - مارس ١٩٧٧.

● محمد مصطفى بازامه: «الديبلوماسية الليبية في القرن الثامن عشر - عبد الرحمن آغا البديري ١٧٢٠ - ١٧٩٢م» - منشورات مكتبة قورينا - بنغازي - بلا تاريخ.

● د. عبد اللطيف محمود البرغوثي: «تاريخ ليبيا الاسلامي من الفتح الاسلامي وحتى بداية العصر العثماني» - منشورات الجامعة الليبية - دار صادر - بيروت ١٩٧٣.

● جون وايت: «ليبيا» (بالانكليزية). لندن ١٩٦٩.

● د. ديمتري برامكي: «الآثار الليبية من العصر الحجري إلى العصر الروماني» (مجلة «تاريخ العرب والعالم» العدد الثالث ص ٢٣).

● ارشيف «تاريخ العرب والعالم».

تاريخ الفنون الشعبية في فلسطين

اسماعيل شموط

● ذكر البحاثة فيليب حتي في مؤلفه «تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين»:

«ظل الناس حتى الفترة الأخيرة يجهلون حقيقة ما قدمه الكنعانيون للحضارة واللغة والفنون وفن العمارة والأدب والزراعة والصناعة».

«كانت طقوس الهيكل تستدعي العزف على الآلات الموسيقية. وكان الموسيقيون والمغنون الأول في الهيكل كنعانيين في أشخاصهم وتدريبهم. وعندما بدأ داوود بالموسيقى العبرانية المقدسة ورقاها سليمان. لم يكن هنالك من نموذج يمكن اتباعه سوى النموذج الكنعاني».

ولعل في هذه المقتطفات ما يكفي للدلالة على ان سكان فلسطين الأوائل. الكنعانيين. عرفوا الموسيقى والغناء. وبالتالي اخترعوا الآلات الموسيقية لذلك.

كما عرف العرب الموسيقى والغناء. وبلغوا بها مستوى راقياً ابان عصر النهضة العربية منذ حوالي ألف عام. ويذكر في هذا المجال الاصفهاني والفارابي اللذان كان لهما اهتمام واضح بالموسيقى والغناء. ومن



العازفين والمغنين في تلك الحقبة يذكر ابن جامع وابراهيم واسحق الموصلي وزرياب. واخترع العرب الآلات الموسيقية الوترية. الرباب. والعود الذي زاد عليه زرياب وتراً خامساً وقد كبر صندوقه وفتحت له فتحة - تدعى الشمسية. ووصل الأندلس ومن هناك دخل أوروبه.

تقول السيدة يسرى عرنيطة في كتابها «الفنون الشعبية في فلسطين»:

«وتمتع العود بمركز مرموق بين الآلات الموسيقية الأوروبية. وهو أول آلة كتب لها الموسيقيون الغربيون مقطوعات آلية منفردة بالمعنى الصحيح».

كذلك عرف العرب القانون. وهو من الآلات الموسيقية الوترية العربية القديمة التي ذكرتها قصص ألف ليلة وليلة. وهناك ما يشير إلى ان الفارابي قد حسن فيه. وذكره الفارابي في أحد مؤلفاته قائلاً: «كان العرب يستعملون آلات كثيرة الأوتار من التي ينفرد كل وتر فيها باصدار صوت من أصوات السلم الموسيقي».

وهناك علاقة حميمة بين الموسيقى والغناء وبين الرقص الشعبي في فلسطين. ان جميع الرقصات الشعبية الفلسطينية تكون دائماً بمصاحبة الموسيقى والغناء. لذلك. فالحديث عن الموسيقى والغناء يجرنا للحديث عن الرقص في الوقت ذاته.

ان غالبية الألحان الشعبية الفلسطينية بسيطة في تركيب جملها الموسيقية. وهي صفة تتسم بها معظم موسيقى الشعوب الفطرية. كما ان المقامات الأساسية التي تعتمد عليها هي مقام البياتي وهو الغالب. ومقام الراست والسيكاه والعجم والحجاز.

وكغيرها من موسيقى الشعوب فان الموسيقى والغناء الشعبي الفلسطيني يتميزان بحركة رتيبة متكررة. غير ان ذلك يزيد في تصعيد الحس الفني عند الموسيقي والمغني والراقص والمستمع في الوقت نفسه. والمغني المتمكن ينطلق أحياناً بالخروج عن اللحن المتبع بحرية ضمن حدود الحفاظ على الايقاع والعودة إلى المقام الأساسي الذي يرتكز عليه اللحن. وهو نوع من الزخرف يضيفه المغني إلى الأغنية.

ان الأغاني والأهازيج التي تغنى دون الرقص قليلة نسبياً في الاحتفالات الشعبية. فالرقص كما أسلفنا. يكون جزءاً من عملية واحدة هي الموسيقى والغناء والرقص، وهو الأكثر شيوعاً في تلك المناسبات.

هناك رقصات شعبية أساسية معروفة في فلسطين. هي الدبكة والسحجة والسامر والدحي.

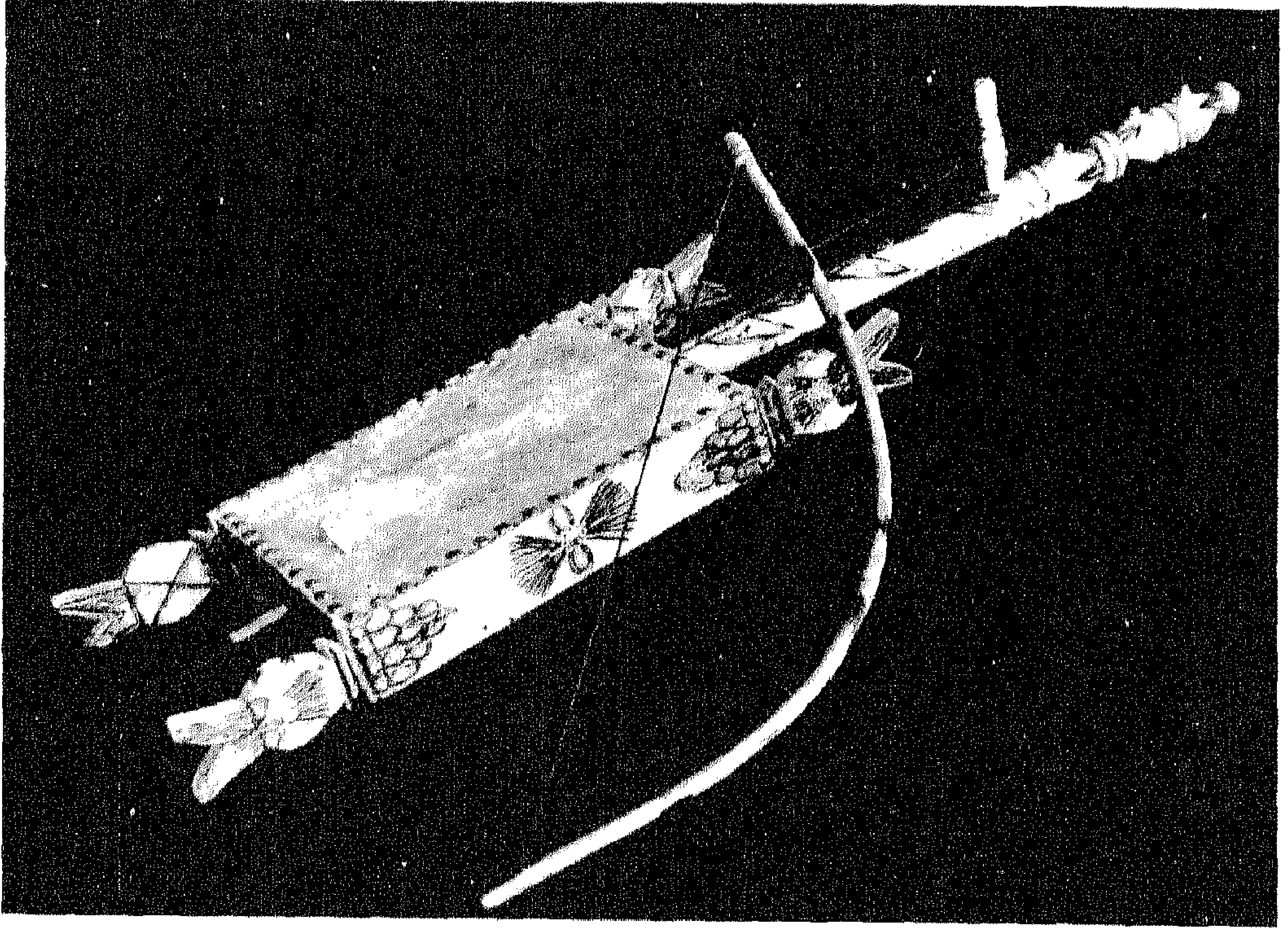
الرقصات الأربع

الدبكة: وهي رقصة الشباب تؤدى على أنغام المجوز أو الأرغول أو الشبابة. ويكون الشباب حلقة مفتوحة يديرهم «اللويح» الذي يلوح بمنديل في يده مشيراً بحركات من عينيه ويديه لادارة الرقصة. ويبدأ الرقص بالعزف المنفرد على واحدة من الآلات المذكورة. ويليه «القويل» وهو المغني في المجموعة بالغناء. في الوقت الذي تبدأ المجموعة بحركة بسيطة من الأرجل بشكل رتيب حسب الايقاع. ما تلبث أن يتصاعد عنفوانها مع اشارات اللويح. وعندئذ تنطلق المجموعة في حركات رشيقة تدور حول العازف محافظة على شكل الحلقة بينما ينفصل اللويح بين الفترة والأخرى عن المجموعة بحركة حرة ضمن الايقاع المتبع. ويستمر العازف طيلة الوقت بالعزف كما يستمر المغني أيضاً بالغناء. وفي أثناء الغناء تخف حدة حركات الراقصين. بينما تعود لعنفوانها بين كل فقرة وأخرى من الغناء. وكثيراً ما تلعب الكلمة المغناة بما تحمل من معنى دوراً كبيراً في اثارة الأحاسيس وتصعيد الحركة الراقصة وما يعكسه ذلك في المشاهدين من انجذاب وحماس.

وفي شمال فلسطين تشارك المرأة الرجل في رقص الدبكة. بينما في أماكن أخرى ترقص المرأة رقصات مماثلة في حلقات خاصة بالنساء.

السحجة: تختلف عن الدبكة في تشكيل مجموعة الراقصين. اذ يقف الرجال في صف واحد متشابكي الأيدي. يتمايلون بتناسق وانسجام جميلين مع خطوات مد وجزر. وتتميز اضافة إلى ذلك بأن الراقصين جميعاً يغنون وهم يرقصون معاً على أنغام الشبابة أو المجوز.

السامر: وهي رقصة تختلف إلى حد كبير عن سابقتيها. وهي أكثر شيوعاً في جنوب فلسطين. يقف صفان من الرجال متقابلين. يشتركون معاً في حركة ايقاعية معينة. ويغني أحد الصفين مقطعاً من الشعر



الربابة أم الأدوات الوترية.

بالعربية الأقرب إلى الفصحى، ثم يرد عليه الصف الثاني مقطعاً آخر من الشعر. وأغرب ما في هذه الرقصة ان أمرأة ملثمة بعباءة، تمسك بيدها سيفاً حاداً وبالأخرى أطراف العباءة عند الوجه حيث لا يظهر منها سوى عين واحدة، تقوم بحركات راقصة حرة أمام الصفين من الرجال إلى درجة تصل أحياناً إلى أن يمد الرجل يده على المرأة، وفي هذه الحالة من حق المرأة أن تضرب تلك اليد بالسيف أثناء عملية الرقص. ويحدث في كثير من الأحيان أن تصاب يد ذلك الرجل بالجروح.

وهذه الرقصة لا تتم إلا في الليل وخاصة في الليالي المقمرة، ولا تعرف من هي المرأة التي ترقص بين الرجال. كما ان ذلك يتم دون مشاركة أية آلات موسيقية، بل ان صوت المجموعة ومن حولهم يكون ذا جمال موسيقي له تأثير كبير في النفس.

الدحي: وهي شبيهة بالسامر إلى حد كبير. غير أن الأبيات المغناة تكون باللهجة العامية الخاصة بالمنطقة التي ينتمي إليها الجمع.

وتقام حفلات الرقص الشعبي هذه في الأفراح، خاصة مناسبات الزواج، وفي الأعياد الشعبية والرسمية والدينية.

ان أهم الآلات الموسيقية الشعبية في فلسطين هي:

الآلات الوترية: العود – القانون – الربابة – البزق.

آلات النفخ: الشبابة – الناي – المجوز – الأرغول – المزمار.

الآلات الايقاعية: الطبل – الدربكة أو الطبلة – الدف – المزهر – النقارتان – البازة – الفقاشات – الطاسات – المهباش.

الفنـــون الحـــرفيـــة

تتألف الفنون الحرفية الشعبية في فلسطين من: الغزل والنسيج. الأزياء الشعبية والتطريز. الزجاج. الصدف. الخشب. المعدن. الفخار والخزف.

الغزل والنسيج :

ان صناعة الغزل والنسيج في فلسطين صناعة متوارثة منذ آلاف السنين – فقد مارسها الكنعانيون واشتهروا بالثياب المصبوغة باللون الأرجواني الذي اكتشف في المريق (الموركس وهو نوع من الرخويات البحرية) عند مصب نهر النعامين في خليج عكا. كما ازدهرت هذه الصناعة اثر الفتح العربي الاسلامي وذكرها كثير من الرحالة العرب والأجانب.

وكانت صفد والناصرة ونابلس وبيت جالا والخليل والمجدل وغزة من أشهر مدن فلسطين في هذه الصناعة.

ولم يكن الأمر مقصوراً على النسيج فحسب. بل إن شعب فلسطين مارس العملية بدءاً من زراعة القطن. واستخراج حرير القز. وجمع الصوف والوبر وشعر الماعز. وغزله ونسجه وصبغه. واخترع لذلك الانوال الخشبية المختلفة الانواع. منها الارضي والعامودي المعقد والبسيط.

في اواخر القرن الماضي كان يوجد في مدينة الناصرة ٣٠٠ نول. وفي الثلاثينات من هذا القرن كان يوجد في بيت جالا ٣٠٠ نول وفي المجدل ٥٠٠ نول. ولقد بلغ عدد الانوال في المجدل عام ١٩٤٨. ٨٠٠ نول.

ومن الصوف ووبر الجمال وشعر الماعز صنع الرجل والمرأة في فلسطين البسط. وتشتهر كل من صفد ومجد الكروم ونابلس وابو دبس والخليل والسموع وغزة بهذه الصناعة.

وتستعمل البسط لأغراض عديدة. منها تصنع خيام الشعر. وفرش لأرض البيت. واكياس لحفظ الغلال والملابس. ومهود للأطفال وخرجة للدواب واكياس صغيرة يستعملها الفلاح للبذار. والراعي لحفظ حاجاته ومأكولاته.

وتشارك المرأة في معظم عمليات الغزل والنسيج. بل أن هناك أعمالاً تقوم بها المرأة وحدها. منها صناعة البسط على الأنوال الأرضية. أما العمل على الانوال المعقدة نسبياً. والتي يحتاج المرء فيها استعمال يديه وقدميه. فهي منوطة بالرجل.

الأزياء الشعبية والتطريز:

كان الزي الشعبي فيما مضى مظهراً يدل على الانتماء العشائري أو القبلي. ومع تطور الحياة. اتسعت دائرة الانتماء فصارت القرية او البلدة. ثم المنطقة. الى أن أصبحت تعم الوطن بأسره. ومن هنا برز تعبير الزي الوطني.

حتى أوائل هذا القرن كان من السهل جداً تحديد هوية الزي الشعبي للمرأة الفلسطينية ومعرفة القرية او على الاقل المنطقة التي تنتمي اليها المرأة من الزي الذي تلبسه. غير ان ذلك اضحى صعباً بعد العشرينات من هذا القرن. وذلك بسبب تطور وسائل النقل فانتقلت عبرها الخصائص المعنية لزي بلدة ما او منطقة ما الى مناطق اخرى. وسببت امتزاجاً في خصائص الزي الشعبي الفلسطيني بشكل عام.

لكن ذلك لم يقض نهائياً على الطابع المحلي لبعض الخصائص. بل أبقى على بعضها كما كانت. وزي بيت لحم خير مثال على ذلك. ومن مظاهر هذا التعبير الايجابية ان المرأة الفلسطينية وهي دائماً متطلعة فطرياً نحو الأفضل والاجمل. استوحت ونقلت من ازياء مناطق اخرى ما رأته جميلاً فأضافت الى ثوبها عناصر جديدة.

وللمرأة الفلسطينية ثلاثة انواع من الاثواب التي تعتبر الجزء الاساسي من الزي الشعبي:

ثوب العمل: وهو من القماش البسيط والرخيص الثمن. ويحتوي على بعض التطريز القليل. تلبسه المرأة اثناء عملها في الحقل او البيت.

ثوب المناسبات: وهو من القماش الغالي الثمن. وله ميزات وخصائص معينة تفرضها تقاليد الزي في البلدة. ويكون التطريز عليه اكثر كثافة ودقة وجمالاً. ويلبس هذا الثوب في مناسبات الافراح والاعياد والاتراح.

ثوب الجلاية: وهو زي ذو خصائص معينة تختلف من مكان لآخر حسب التقاليد المتبعة ويعتبر أهم ثوب في جهاز العروس تلبسه متجلية يوم زفافها.

يتشكل هذا الزي وسط وجنوب فلسطين من:

• الثوب: وهو فضفاض بشكل عام. ذو اكمام (اردان – جمع ردن) مختلفة الشكل من مكان لآخر.

تجدها ضيقة في بعض المناطق ومتسعة في غيرها. وفي اماكن اخرى ذات شكل قريب من المثلث الذي يكبر او يصغر حسب تقاليد متبعة. وتنتشر الزخرفة المطرزة باليد وبالخيوط الحريرية على كل من الصدر والاكمام وجانبي الثوب (البنائق) والجزء السفلي من خلف الثوب (ذيال) وعلى الاكتاف (الردحة) التي كانت في معظم الأحيان تزين بقطعة من قماش المخمل او الساتان.

وتتميز الجلاية عن الثوب بالزخارف التي تكسو الجزء الأمامي من الثوب. ابتداء من الوسط حتى اسفله. والمكونة من قطع الحرير الهرمزي المثبتة بأشكال هندسية الى حدما. اضافة الى التطريز على الصدر والاكمام والجوانب والخلف.

* الشداد او الحزام: وهو من القماش الذي يختلف نوعاً ولوناً من مكان لآخر. منه الساتاني المخطط. ومنه الصوفي او القطني. ويربط على الخصر بطريقة تقليدية محددة لكل منطقة.

* الوقاة والصمادة: وهي قبعة للرأس ذات خصائص معينة. تختلف من مكان لآخر. وتكون من القماش القطني او الكتاني المطرزة. وتثبت عليها مجموعة من النقود الفضية التي غالباً ماتكون قديمة غير متداولة. واحياناً يكون بعضها او كلها ذهبياً. غير ان لبيت لحم قبعة مختلفة وتدعى الشطوة. وهي اشبه بالطربوش. محلاة بالنقود الفضية او الذهبية. وحبيبات المرجان.

قماش محلي:

ان معظم انواع القماش الذي يستعمل للأزياء الشعبية الفلسطينية. كان يصنع في فلسطين. وقليل من انواع اخرى كان يستورد من دمشق او من الخارج.

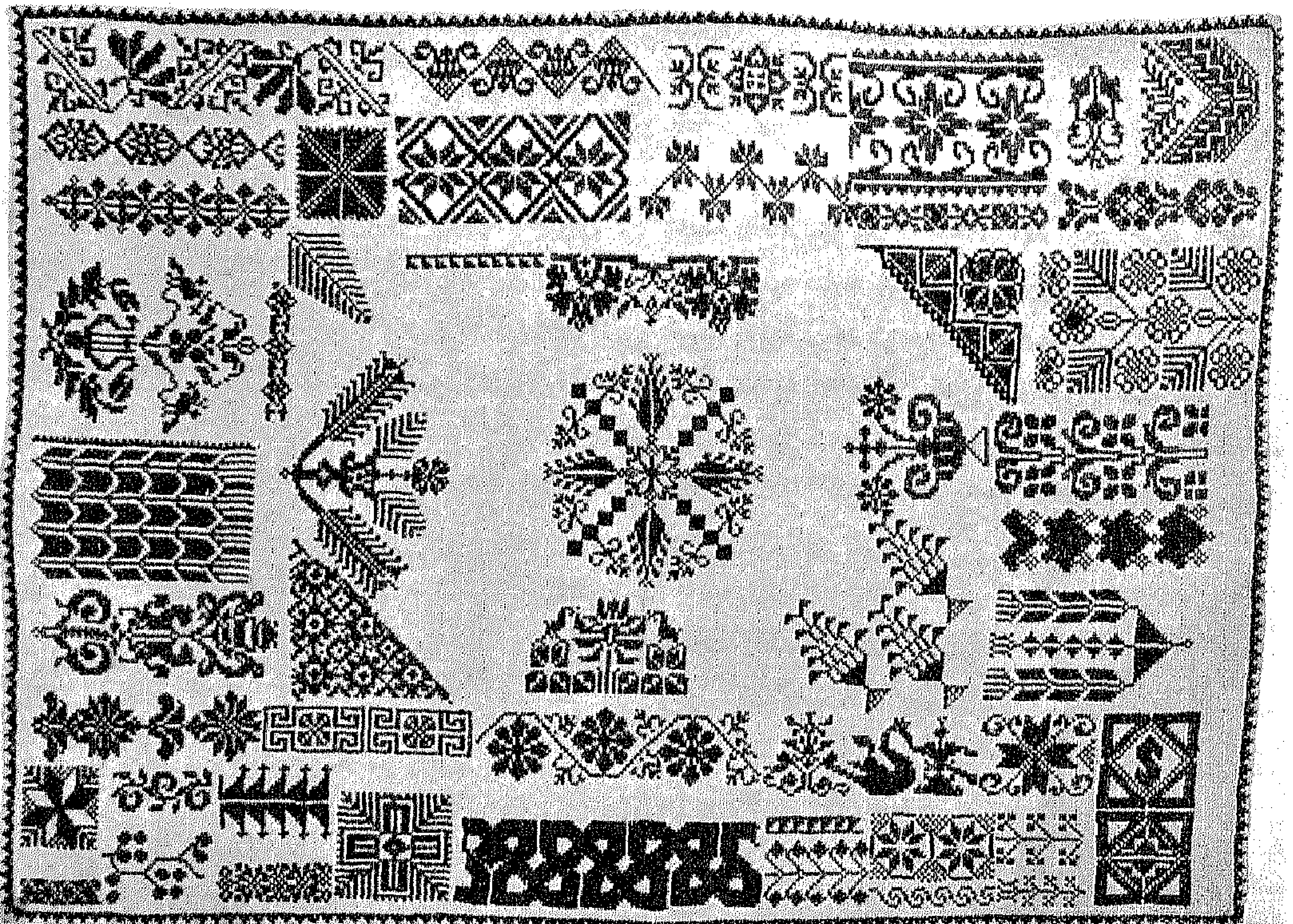
هناك ثلاثة انواع من التطريز وهي:

١ – التطريز بالغرزة الفلاحية (الصليبية).

٢ – التطريز بغرزة الرشق والتحريري.

٣ – التطريز بغرزة اللف.

نموذج من فن التطريز الفلسطيني.



هذا بالاضافة الى ما يسمى بقطبة الحاشية او الحافة، اي التي بواسطتها تثبت اطراف الثوب والقطع الحريرية المضافة فوق الثوب بأشكال مختلفة.

إن الغرزة الفلاحية هي السائدة، والتي لا يخلو ثوب منها باستثناء ثوب بيت لحم. والتطريز بهذه الغرزة يتم بواسطة الابرة وخيط الحرير الملون بطريقة الغرزة المصلبة. وتأخذ الزخرفة في هذه الحالة اشكالاً هندسية.

أما التطريز بغرزة الرشق والتحريري، فهي تثبيت خيوط حريرية سميكة ومبرومة او خيوط مقصبة اي من الخيوط المطلية بالذهب او الفضة على القماش. وتتشكل من هذه الخيوط وحدات زخرفية تعتمد الخطوط المنحنية والدائرية المتواصلة المستمدة عناصرها الاساسية من حركة النبات والازهار.

والتطريز بغرزة اللف يتم بواسطة الخيوط الحريرية التي تملأ فراغات معينة بقطبة لفائفية الحركة. وهذا النوع من التطريز يعتبر عنصراً مكملاً اكثر من كونه اساسياً في التطريز الفلسطيني، ولم تشكل هذه الغرزة كياناً مستقلاً كالغرزتين السابقتين.

ويغلب اللون الأحمر البني على غيره من الالوان في التطريز بالغرزة الفلاحية، ويطعم بألوان مختلفة منثورة بشكل عفوي خاضع لذوق الفتاة او المرأة، مشكلاً توازناً مريحاً وجميلاً. اما التطريز بغرزة الرشق والتحريري، فان اللون الاساسي يكون الذهبي او الفضي يشارك احدهما او كلاهما اللون الاحمر اضافة الى الالوان الاخرى والتي تكون مكملة. ويعتمد التطريز بغرزة اللف والالوان العديدة الصارخة في فراغات مهيأة بواسطة غرزة الرشق او التحريري، وغالباً ما يكون ذلك على جانبي الثوب والاكمام.

ان الوحدات الزخرفية الاساسية التي تستعمل في معظم انحاء فلسطين تستمد اشكالها واسماءها من علاقة الانسان الفلسطيني بالأرض والحياة والكون. ولهذه الوحدات اسماء شائعة، وبعضها يختلف اسمها من مكان لآخر.

هذه طائفة من اسماء الوحدات الاساسية:

السرو، السبلة، النخل العالي، عرق الورد، عرق التفاح، عرق البندورة، قوار الورد، الحية والعربيد، العصافير، الريش، عين البقر، قرص العسل، القلايد، خيام الباشا، المخدة، الفنانير، المشط، الساعة، عرق السيوف، الحجاب، طريق مصر، النجوم، الاقمار، المناجل.

ان التطريز في فلسطين فن تمارسه المرأة في أوقات فراغها، ملبية بذلك احاسيس فنية فطرية لديها، ومتبعة تقاليد شعبية نشأت عليها. والمرأة الفلسطينية تقوم بهذا العمل الفني الى جانب مشاركتها زوجها او اهلها في العمل سواء في الحقل او في مجالات عمل اخرى اضافة الى عملها في المنزل.

ومن المهام التي تقوم بها المرأة بشكل عفوي وتبعاً للتقاليد ايضاً هو تعليم الصغيرات هذا الفن. فعندما تصبح الطفلة في سن العاشرة تقريباً تكون قد اكتسبت معرفة مبادئ التطريز. وفي سن الرابعة عشرة تبدأ بالتحضير لثوب العرس. ومهارة الفتاة في التطريز تلعب دوراً في اختيارها عروساً، إذ يحكم على قدراتها العامة من خلال اتقانها فن التطريز. وفي هذه الحالة ينظر الى القطعة المطرزة من قبل الفتاة من الأمام والخلف لمعرفة مدى نظافتها وذوقها وترتيبها. وكان هذا التقليد عاملاً مشجعاً لتطور فن التطريز في فلسطين.

زجاج الخليل:

قرب مصب نهر النعامين في خليج عكا، وفي عهد الكنعانيين قبل نحو اربعة آلاف سنة اكتشف الكنعانيون صناعة الزجاج. فمن رمل ساحل خليج عكا النقي ومواد وجدت مصادفة قرب نار كانت موقدة لفترة طويلة، وجد البعض بعد ان همدت النار قطعاً بلورية تكونت بفعل تلك العناصر. ومع التجارب اللاحقة تم اكتشاف الزجاج، وصنع منه الكنعانيون بعض الاواني.

ومعمل زجاج الخليل التقليدي أحد أهم معالم التراث الفني الفلسطيني، فقد شاعت شهرته عالمياً. وهو معمل يعود تاريخه لمئات السنين. وتتولى ادارته والاشراف عليه والعمل فيه عائلة تملك سر المهنة التي يورثها الآباء الى الابناء.

ولا تزال الطريقة القديمة هي المتبعة في المعمل. وينتج هذا المعمل الزهريات والاباريق والكؤوس والقناديل والاطباق عن طريق النفخ والتشكيل باليد



أوانٍ زجاجية ملونة للزينة

بألوان وأحجام وأشكال متنوعة كثيرة. كما ينتج الخرز بأحجام تتراوح بين ٢ سم و ٤ سم طولاً وحوالي ٢ سم عرضاً ويصنع منه قلائد للنساء وقناديل خاصة.

ان الألوان الزرقاء هي الغالبة، خاصة الازرق التركواز والازرق النيلي (اولترامارين) ومنها ايضاً باللون العسلي والبنفسجي الفاتح والداكن. وكان يوجد اللون الاحمر العنابي الذي لم يعد المعمل ينتج منه منذ سنين لأسباب مجهولة.

أعمال الصدف:

بالاضافة الى شهرة بيت لحم بتطريزها الفريد من نوعه تشتهر في صناعة الصَدف. وهي المدينة الوحيدة في فلسطين. التي تصنع من الصدف تحفاً ذات اشكال وألوان ونقوش اصبحت معروفة بطابعها.

وكما هو حال معمل الزجاج التقليدي في الخليل. فان صناعة الصدف في بيت لحم تعود لمئات السنين. وقد بدأت في عمل المسابح بادئ الامر من أجل تزويد حجاج بيت لحم بها كتذكار من الاراضي المقدسة. ثم تطورت في أواخر القرن الماضي وفي القرن الحالي الى صناعة الحلى النسائية وغلافات للكتب الدينية والعلب ذات الاشكال المختلفة والاحجام المتعددة. اضافة الى نماذج مجسمة لمبانٍ شهيرة كمسجد الصخرة ولصور تمثل ميلاد المسيح وما شابه ذلك. ويستعان بخشب الزيتون في عمل العلب الصدفية المذكورة والصلبان. كما تستخدم الفضة في صنع بعض الحلى الصدفية.

وهذه الصناعة مقتصرة على عائلات بيت لحم. ومنذ اوائل هذا القرن لجأ التلحميون لتدريب جيرانهم في قرى بيت جالا وبيت ساحور للاستعانة بهم بعد ان ازداد الطلب على انتاجهم وعمت شهرة الاعمال الصدفية انحاء كثيرة في العالم.

ويستورد الصدف الخام من بومباي في الهند ومن جدة على البحر الاحمر.

وينقع الصدف الخام في الماء الممزوج ببعض المواد الكيمائية لازالة شوائبه وتليينه ويقطع فيما بعد

بأشكال مختلفة تستعمل حسب الحاجة. ثم تمر هذه القطع بسلسلة من العمليات يتولى كل من العمال الاهتمام بجزء واحد منها.

هناك لونان اساسيان للصدف، الابيض أو المموج المتعدد الالوان المائلة الى الاخضر. وكلاهما لمّاع.

خشب الزيتون :

تشتهر القدس بتصنيع خشب الزيتون. ولا يظن انها صناعة قديمة كصناعة الزجاج والصدف بل تعود الى حوالي مائة سنة على الاكثر. غير ان صناعة المسابح من خشب الزيتون ومن نوى الزيتون معروفة منذ القدم فقد ذكرها كثير من الرحّالة العرب والاجانب قبل مئات السنين.

ان تدفق الحجاج والسياح على فلسطين باعتبارها الاراضي المقدسة. خاصة الى القدس وبيت لحم. دفع الاهلين لتطوير هذه الصناعة في اشكال منحوتات انسانية وحيوانية وعلب وحلى لتكون في متناول الحجاج والسياح كتذكار من القدس.

ومن المعلوم ان خشب الزيتون يمتاز بجمال لونه الطبيعي وتموجات ألوانه. كما يمتاز ايضاً بصلابته وقدرته على البقاء طويلاً.

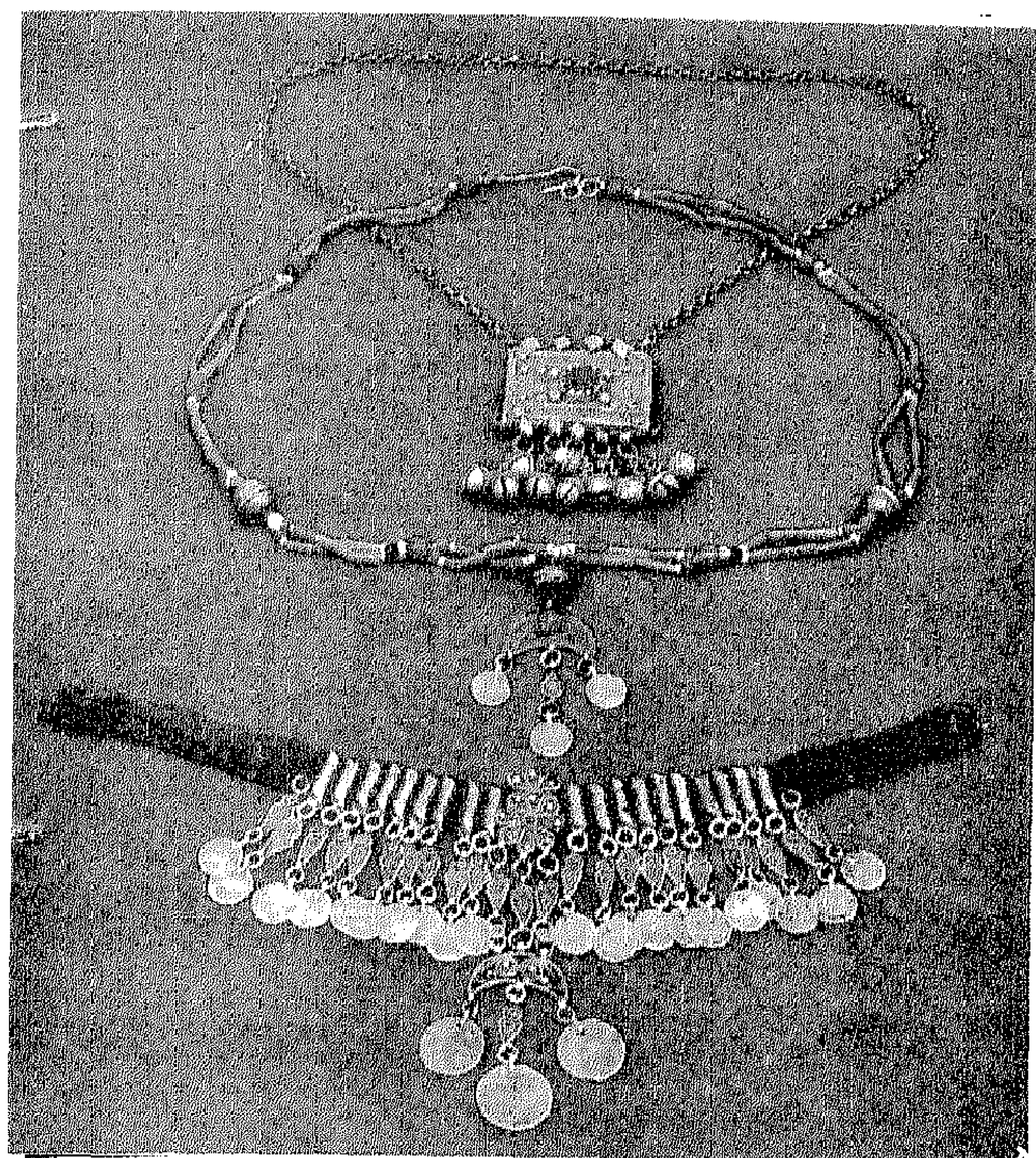
ولا يستخدم خشب الزيتون في تصنيعه إلاّ اذا كان كامل الجفاف. اذ يتعرض للتشقق فيما لو استخدم رطباً. ويستغرق جفافه وقتاً طويلاً يزيد على الشهور.

وهو لا يطلى بأي طلاء. بل يمسح باللليسترو (الكملاكة المحلولة بالسبيرتو) او بزيت الزيتون. وذلك للحفاظ على جمال ألوانه وتعريقته الطبيعية.

المعـــــادن

تنحصر الحرف المعدنية في فلسطين في :

١ — الحلى الفضية والذهبية.
٢ — الاواني النحاسية.
٣ — الادوات الحديدية.
٤ — الاسلحة التقليدية.



نماذج من العقود، للنقود القديمة فيها حصة كبيرة

الحلى الفضية والذهبية :

وصناعة الحلى قديمة قدم الزمان الذي عاش به الانسان على ارض فلسطين منذ آلاف السنين. فالمرأة الكنعانية عرفت الزينة وتحلّت بالقلائد والاساور وغيرها.

ان صناعة الحلى كانت منتشرة في كل المدن الفلسطينية. ذهبية كانت ام فضية. غير ان الفضية تتميز عن الذهبية بقيمتها الفنية. ان الحلى الذهبية في فلسطين لم تختلف كثيراً في شكلها العام عن باقي حلى المنطقة العربية. ان في الذهب قيمته المادية، اما الفضية فالقيمة الفنية ذات الشكل المميز هي القيمة.

واشتهرت القدس اكثر من غيرها من المدن الفلسطينية في هذه الصناعة، خاصة في الخمسين سنة الاخيرة.

وكما الازياء التي ينتسب كل زي منها لمنطقة او بلدة في فلسطين، كذلك الحلى الفضية. فالمرأة في نابلس تلبس في عنقها قلادة تختلف عن تلك التي تلبسها المرأة في بئر السبع او الخليل او القدس.

الأواني النحاسية :

ان أهم هذه الاواني هي اباريق القهوة التي تصنع منها انواع كثيرة، ذات اشكال وأحجام مختلفة حسب وظيفة كل منها. كذلك اباريق الماء وتوابعها. والمنقل وتوابعه ايضاً. ويستعمل للتدفئة بواسطة الفحم الخشبي كما يستعمل لتحضير وغلي القهوة.

والصواني، سواء أكانت للاستعمال ام للزينة، فانها لا تخلو من القيمة الفنية خاصة تلك التي للزينة فتكون مكسوة بالزخارف.

ان هذه الصناعة كانت موجودة في عدد من المدن الفلسطينية كالقدس ويافا ونابلس والناصرة وعكا، وهي حرفة عربية منتشرة في شتى انحاء الوطن العربي.

الفـخـار :

تدل المكتشفات الاثرية على وجود آثار من الفخار التي يرجع تاريخها الى العصر الحجري الحديث. وهي أوانٍ مختلفة الاشكال ومتنوعة الوظائف ومزيّنة بالزخارف المستمدة من اشكال الحيوانات والنبات. ويدل ذلك على تقدم في هذه الصناعة منذ آلاف السنين.

ان صناعة الفخار وجدت بشكل مستمر عبر آلاف السنين في فلسطين. فمنها كان يصنع الانسان العادي معظم ادواته التي يستعملها في البيت، والتي كان يحفظ فيها زيته وزيتونه وغلاله.

اما صناعة الفخار في وقتنا الحاضر في فلسطين، فهي ما تزال صناعة بدائية تتبع الطرق البسيطة في صناعته، سواء من حيث تحضير الطين اللازم، او صنع الاواني او شيّها. فالدولاب الذي يدار بالقدم هو الشائع المستعمل.

وهناك لونان من الفخار في فلسطين، الأسود والبني الذي يكون تارة فاتح اللون لدرجة البيج الفاتح.

وتشتهر مدن الرملة والخليل وعكا وغزة بهذه الصناعة الشعبية، وقد انحسرت بعد عام ١٩٤٨ في كل من غزة والخليل ونابلس. أما قرية الجيب وهي قرب القدس – فتشتهر بصناعة القدور.

ومن الفخار تصنع اواني الطعام والماء بأشكال مختلفة، لها طابع مميز يختلف الى حد ما بتشكيله عن مثيله في الاقطار العربية المجاورة. كما يصنع من الفخار ايضاً جسم بعض الآلات الايقاعية مثل الدربكة او الطبلة والنقارة والبازة.

وكثير من الاواني كان يزخرف بمادة ملونة خاصة من الاحمر والاسود وكانت بعض عناصرها من النبات، وفي غالب الاحيان مجرد خطوط واشكال لا معنى لها.

كما ان بعض الاواني مثل القدور وأطباق الاكل والاوعية الكبيرة لحفظ الزيت كانت تلبس بقشرة زجاجية.

الخزف :

ان معظم زخارف وكتابات مسجدي الاقصى والصخرة في القدس مصنوعة من الخزف. ونظراً لحاجة هذين المسجدين للترميم بشكل دائم من أجل الحفاظ على ما يحتويانه ويحتويه غيرهما من الآثار الفنية النفيسة، فقد أنشئ معمل للخزف في أوائل هذا القرن (١٩١٩) في مدينة القدس.

ويعمل هذا على عمل بديل للقطع التي تتعرض للتلف بتأثير من العوامل الطبيعية او الحروب.

وإضافة إلى ذلك، وبما ان عملية الترميم ليست عملية مستمرة يومياً، فقد بدأ المعمل، منذ تأسيسه. بصنع أوانٍ وأشكال مختلفة الأحجام والوظائف كالزهريات والاباريق والاطباق والقناديل وما إلى ذلك. وأصبحت هذه الصناعة واحدة من الحرف الفنية الشعبية التي تلبي حاجة الحجاج والسائحين في الحصول على تذكار من القدس.

ويستعمل المعمل الطرق اليدوية في العمل. فالدولاب يُدار بالقدم، والرسوم تتم باليد، وطريقة الشي تطورت نوعاً ما باستعمالهم المازوت والغاز بدلاً من الحطب. أما نوعية الزخارف، فهي في معظمها مستمَدّة من روح زخارف مسجدَي الصخرة والاقصى، ومن زخارف ورسوم عربية اسلامية في فلسطين، مثل قصر هشام في أريحا ●

بطل الوحدة الإيطالية:

جيوسيبي غاريبالدي

إعداد: هدى سكاكيني البربير



غاريبالدي في صورة له سنة ١٨٤٥ في الاورغواي.

● يعتبر جيوسيبي غاريبالدي من أهم رجالات القرن التاسع عشر، وكان من أنجح الجنرالات والادميرالات ومثالاً للبطل القومي، إلى جانب كونه رجلاً أمياً عظيماً، وفي أواخر أيام حياته أصبح واحداً من رواد الاشتراكية الايطالية.

واذا ما ربطت أعماله بعضها ببعض، يمكن اعتباره محرراً بالطبيعة ورجلاً أمضى حياته يقاتل من أجل المظلومين أينما وجدوا ـ بالرغم من سذاجة تحليله للقمع. ومهما كان ما فعله، فانه كان يفعله باقتناع وحماسة لا حدود لها. وكان طبعه هذا يجعل شخصيته لافتة وجذابة.

لقد كانت حياة غاريبالدي العملية مليئة بالأحداث والتلون. وخلف شخصيته المعروفة كانت تختبئ شخصية إنسان يتمتع بالبساطة والطيبة والوداد، الأمر الذي جعل البعض مستعداً لاطاعته بلا نقاش إلى حد الموت من اجله بسرور. كان غاريبالدي في عصره اكثر الناس شهرة وشعبية في العالم، وكان هناك اتصال مباشر بينه وبين عامة الشعب لأنه هو نفسه كان يجسد الانسان العادي. وكديمقراطي راديكالي وانساني، آمن قبل كل شيء بالحرية والعدالة الاجتماعية. وفي الوقت نفسه كان فريداً في سلوكه إذ كان غير تقليدي. إن في الدين او في اللباس او في عاداته الشخصية او في أحداث حياته غير العادية.

ولد غاريبالدي في فرنسا النابوليونية وعاش ما بين عامي ١٨٠٧ و١٨٨٢. ومثل كافور ظل طيلة حياته يتكلم الايطالية دون اتقان. وعمل في التجارة مثل والده وأصبح قبطاناً بحرياً. وتعرف على البحر الاسود وبحار الصين. كما خدم في سفن ايطاليا وفرنسا والولايات المتحدة والبيرو. وفي وقت من الاوقات عمل في خليج تونس. وكان قبطاناً لأول باخرة تعمل بمحرك مروحي تحت العلم الايطالي. وكما عمل مرتين في حياته معلماً في القسطنطينية ومونتفيديو. ومرة على الاقل سافر للتجارة، وفي مرة اخرى عمل في مصنع للشمع في جزيرة ستاتن. وقد تزوج ثلاث مرات.

ولعدة سنوات بقي خاطباً لسيدة انكليزية ثرية موهوبة وعرض الزواج على امرأة اخرى دون نجاح. ومن خلال تجواله طالب بالجنسيتين الانكليزية والاميركية، كما خدم كنائب منتخب في مجلس النواب الفرنسي. وعرض عليه لنكولن قيادة وحدة اميركية خلال الحرب الاهلية. وهذا ما يُظهر ان حياته كانت اكثر من حياة شخص عادي. ويمكن وصفها بالحياة المليئة بالحركة والأحداث.

الزعيم الفدائي

بدأ اسم غاريبالدي يتردد محلياً لاول مرة بعد دفاعه عن روما عام ١٨٤٩. وقبل ذلك. وهذا ما يوضح الكثير حول طباعه وتأثيره. كان خلال النصف الاول من رجولته زعيماً فدائياً في مجاهل البرازيل والارجنتين. وعندما عاد من اميركا الجنوبية. أحضر معه اسلوباً جديداً وناجحاً من الحروب. فقلة من المقاتلين غير النظاميين كانت تستطيع. من خلال خرقها تقاليد الحروب المتبعة. ان تكتسب قيمة ازعاجية كبيرة في ايطاليا التي يحتلها الاجانب.

وكان تأثير اميركا الجنوبية ظاهراً في لباسه الذي احتفظ به حتى نهاية حياته والمتمثل في المعطف او «البونشو» والقميص الاحمر الذي جاء به من بوينوس ايريس. وباتباعه هذا الاسلوب في الحرب استطاع جيشه الايطالي العيش على ارض معادية وذلك باصطياد الحيوانات الضالة وشيّها في الهواء الطلق.

والديمقراطية الصعبة التي اتبعها «البامباس» علّمت غاريبالدي معاملة الجميع بالمساواة كما تعلّم الايطاليون من خلاله حرية جديدة في التصرف والتخلي عن عادات التملّق مثل تقبيل الايدي والتلفظ بكلمات تدل على الخضوع. وبالوسائل نفسها تعلمت ايطاليا نموذجاً خطراً من الديمقراطية لم يكن هناك مثيل له من قبل.

عندما غادر غاريبالدي الى اوروبا كان متعطشاً للقتال ولم يستطع مقاومة اي دعوة للقتال بخاصة حين كانت هنالك مسألة شرف او انقاذ اشخاص. وبسهولة اقنع نفسه بأنه كان يقاتل من اجل الانسانية والحرية عامة. ومنذ اوائل عهده كانت اعماله واحلام اليقظة لديه تظهر تعلقه بأن يصبح بطلاً ويجعل العالم مكاناً

متحرراً وأكثر ملاءمة للعيش.

وأهمية غاريبالدي في تاريخ ايطاليا تكمن اولاً في كونه جندياً، وثانياً في كونه اسطورة قومية. ففي الوقت الذي كانت فيه سمة رجال الدولة الصمت والعجز، كان هو الوحيد المؤمن بالنصر وكانت لديه الشجاعة للعمل. وهذا العمل رفع من شأن البلاد وكشف عن مظالمها كما رفع من معنويات المتشائمين والمتخاذلين من أفراد شعبه.

ففي عام ١٨٤٨، وبمساعدة عدد ضئيل من الرجال، تجرأ غاريبالدي على جبروت النمسا في حرب خاصة. وفي عام ١٨٤٩ أدى دفاعه عن جمهورية روما إلى جعل اوروبا الليبرالية تحبس انفاسها اعجاباً به. وسقط بتراجعه عن روما عدد من الشهداء كانوا غذاء لفكرة القومية وأعطوا ايطاليا مثالاً للأبطال. ومن بينهم الفتاة الهايتية «أنيتا». ولم يتغلب غاريبالدي أبداً على صدمة وفاتها التي كانت اكبر تضحية له في حبه لايطاليا.

وفي عام ١٨٦٠، وبمبادرة شخصية منه، توجه غاريبالدي على رأس جيش من حوالي ألف جندي إلى صقلية. وخلال بضعة اشهر استطاع ان يحرر تقريباً نصف ايطاليا ليسلمها لعدوه اللدود كاميللو كافور ويعود برضاه من صانع للملوك الى مجرد انسان يمارس حياة عادية.

واذا ما قورنت اعماله الاخرى بهذا الانجاز، يمكن القول ان مغامراته العسكرية لم تكن ذات شأن. صحيح انه خلال حروب النمسا عام ١٨٥٩ و١٨٦٦ كان مسلحاً تسليحاً ضعيفاً من قبل الحكومة وبرهن مع ذلك على انه الجنرال الايطالي الوحيد الذي يتمتع بمهارات وطباع تستحوذ على اعجاب واحترام خصومه. ولكنه فشل في محاولات ثلاث في زحفه على روما. وكانت غيرة الجيش النظامي الى جانب الكره الشخصي والسياسي الذي كان يكنه له معظم رجالات الدولة الايطاليين، سبباً في جعله شخصاً معزولاً.

مغالطات كثيرة

ولم يخلف غاريبالدي وراءه وثائق موثوقاً بها يمكن للمؤرخين الاستعانة بها. فالنصوص المختلفة التي وضعها عن حياته كانت مليئة بالمغالطات ولم يكن لديه تلامذة او أتباع مقربون للوقوف على دقائق حياته.



الملك عمانويل.

لوحة تمثل غاريبالدي في وضع الفارس.

وجيوش الفدائيين التي بنى شهرته عليها انفرط عقدها ولم تخلف وراءها أي أثر. كما كانت حروبه مرتجلة الى حد يجعل إعادة ترتيب مسارها مسألة غير ممكنة.

وبالرغم من كل ما قيل وكُتب لا بد من القول ان غاريبالدي هو الذي اكتشف سر استقطاب المتطوعين غير المدربين الذين التفوا حوله بحماس منقطع النظير. والى جانب غوردون، كان غاريبالدي الزعيم الاكبر لغير النظاميين في الحروب القومية. وقد كسب الانسان العادي الى جانب قضايا كانت تبدو لفترة مضت صعبة المنال. وكان معظم مؤيديه من هذه الفئة من الناس الذين ألهب حماستهم وقوميتهم. مع العلم ان الاعجاب بشخص غاريبالدي قلما صحبته في معظم الاحيان رغبة في المشاركة في الصعاب التي كان يواجهها من أجل الأمة.

وبرغم ما يقال عن أنانية الايطاليين وعدم تمسكهم بالوطن فان غاريبالدي، بفضل شجاعته وأمانته واخلاصه، استطاع ان يوحّد ايطاليا.

شعبية غاريبالدي

لقد وضع سكان نابولي وصقلية في غاريبالدي ثقة عظيمة. وفي الشمال تقدمت النسوة بأطفالهن الى غاريبالدي كي يباركهم ويعمّدهم.

وحتى في خارج ايطاليا كان غاريبالدي موضوعاً للتملق المبالغ فيه. وعندما اصيب برصاصة عام ١٨٦٢ اجتمع حوالي ثلاثة وعشرين جرّاحاً من جميع انحاء العالم للاشراف على معالجته. كما وصلته رسائل سريعة تعبر عن الاعجاب والحب من زوجات عدد من اعضاء مجالس العموم واللوردات.

وقد احتفظت ابنة غاريبالدي المتدينة بأظافر والدها وعدد من آثاره، من اجل تثقيف اولئك الذين كانوا يأتون للحج في سفينة مكتظة بالركاب الى كابريرا.

وقد تعرض غاريبالدي خلال حياته لتمرّد الجيش ثلاث مرات بسبب محاربته لروما. وخلال احدى المرات جعلوه مقعداً للأبد. وقد ساعد ذلك على جعله اكثر بطولة في نظر مؤيديه وارتفعت الاصوات من كابريرا منتقدة سياسة الحكومة كما ادين البرلمان بوصفه مركزاً للفساد والرشوة.

وارتفع صوت غاريبالدي مطالباً الملك «أعطونا المعارك لا الحريات» وذلك لأنه رأى أن وراء «الحريات» تكمن حيلة واسعة من قبل البرلمان.

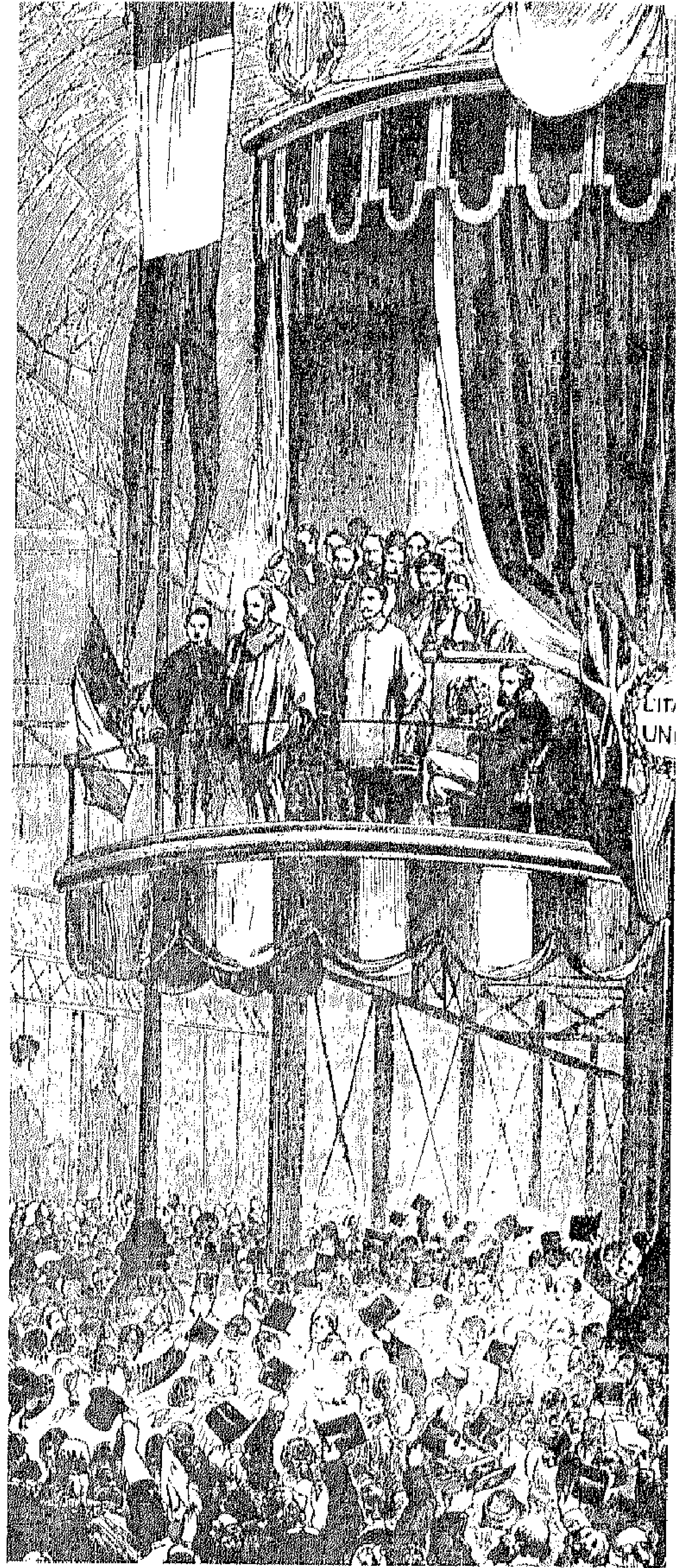
في هذا الوقت كان فيكتور عمانوئيل منخرطاً في أعمال سياسية خاصة من وراء ظهر معظم رؤساء الوزراء كما انه طالما كان يعينهم أو يقيلهم دون العودة الى البرلمان.

ومثال على ذلك، ان الملك اختلف مرات عدة مع كافور حول الاخلاق وسياسة البلاط في حين كان غاريبالدي من ناحية اخرى يتمتع بالصدق ولا يهتم بالأهداف الثانوية التي كان يتطلع اليها السياسيون.

وكان هدف غاريبالدي من السياسة دائماً الحرية. ولكن كان عليه فرضها بالقوة على الشعب. وعندما كان يحصل على السلطة كان يختار الديكتاتورية.

هواياته

قراءة الكتب كانت من بين هوايات غاريبالدي. وقد حوّت مكتبته الصغيرة على مؤلفات شكسبير، بايرون، بلوتارك، لافونتين، فولتير، وارثور يونغ وكتب انكليزية تتعلق بالملاحة والزراعة وفن الحرب. كما أنه كان يمارس الكتابة في بعض الأحيان من أجل الحصول على رزقه ومن اجل إثارة الجيل الجديد للقيام بأعمال عظيمة.

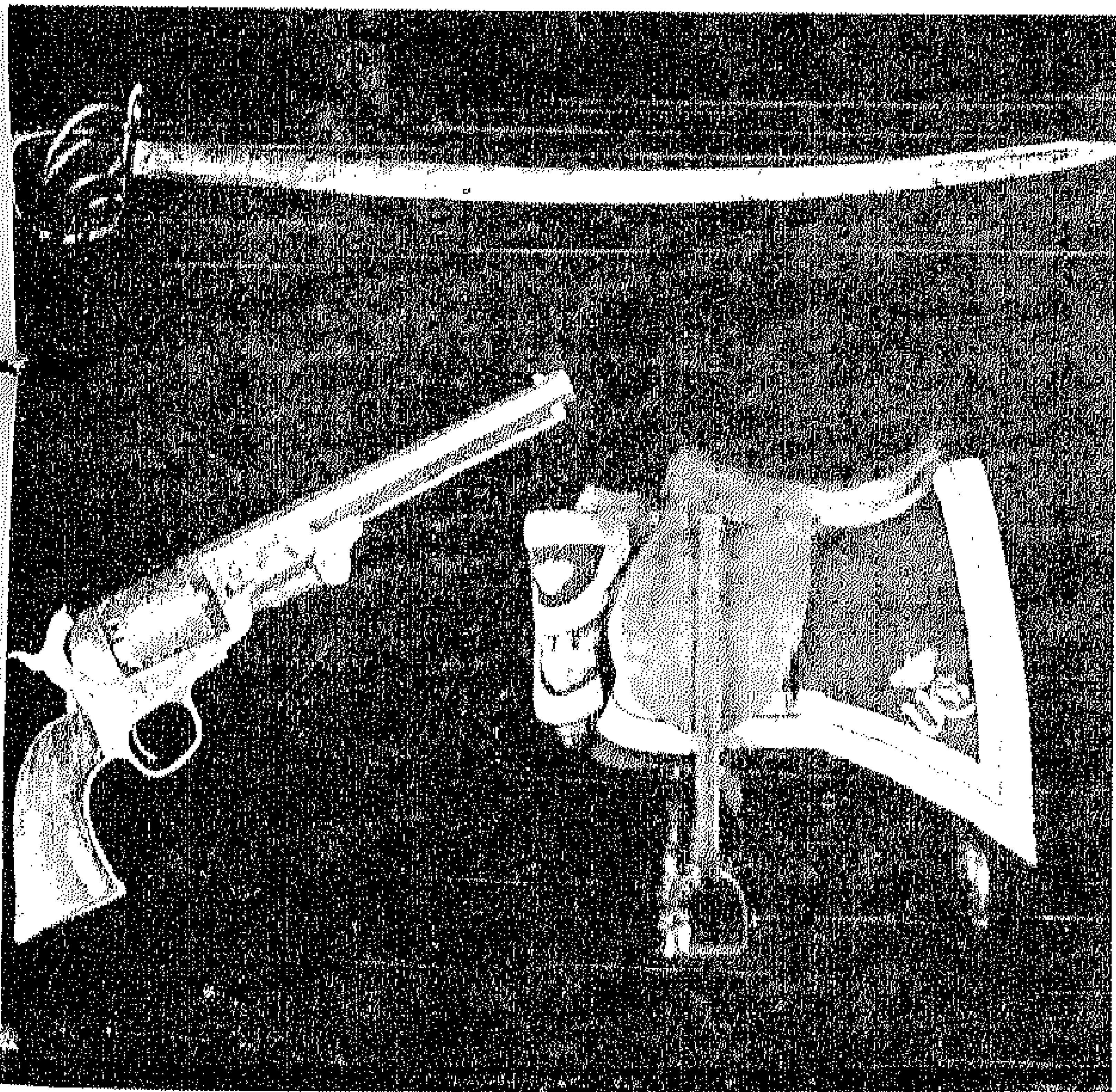


غاريبالدي يحيي الجماهير من على شرفة قصر كريستال – نيسان ١٨٦٤.

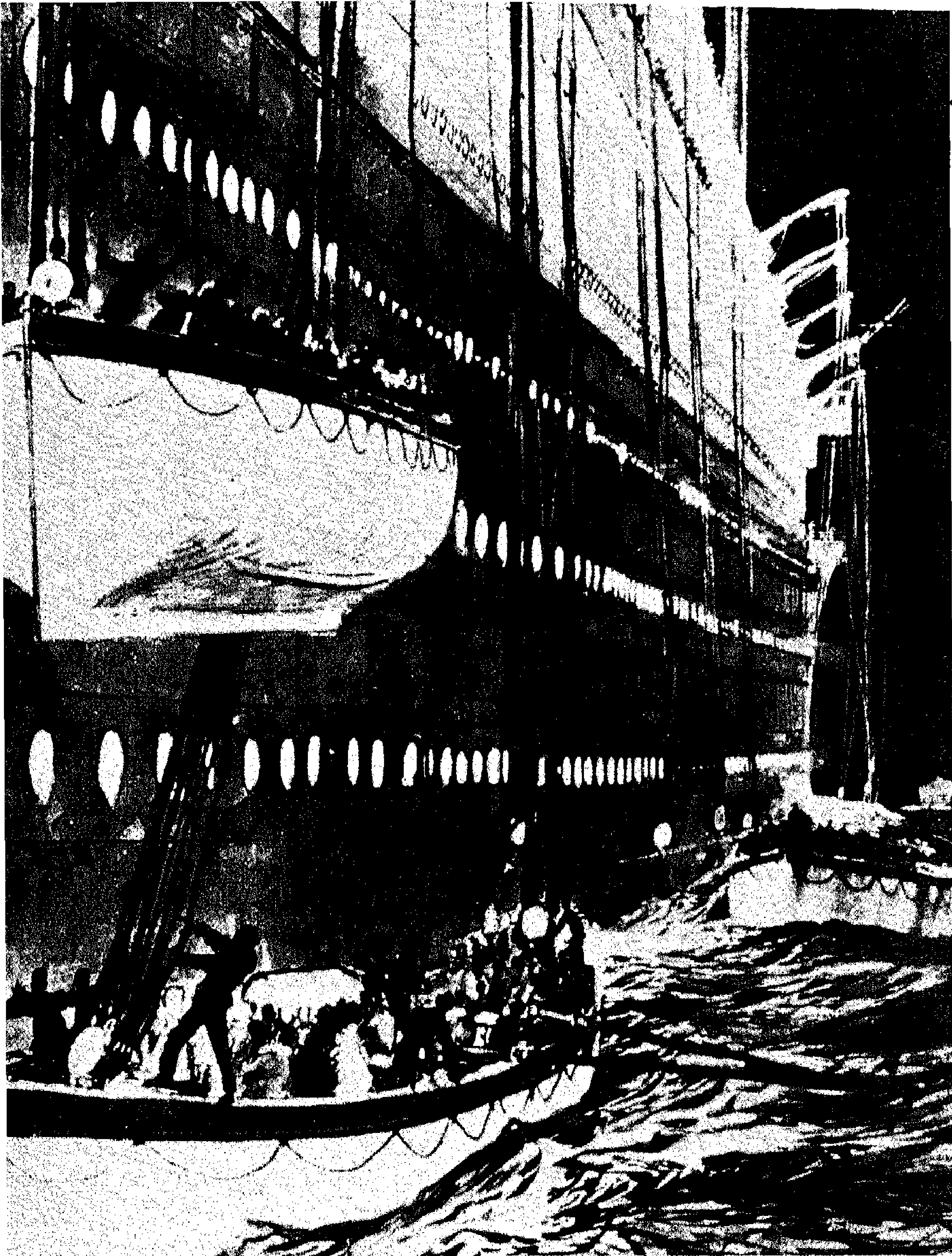
ومات غاريبالدي في كابريرا عام ١٨٨٢. وكانت أقواله الاخيرة بمثابة ميثاق سياسي. فقد ترك لأولاده وأصدقائه حبه للحرية والحق. وأدان الاكليروس الكاثوليكي أتباع مازيني واعتبرهم أعداء الوطن. وأوصى مواطنيه باختيار أصدق رجل في ايطاليا وجعله ديكتاتوراً مؤقتاً آملاً في انه عندما يصبح الايطاليون اكثر فهماً للحرية، وبلدهم أقل تعرضاً للتهديد من الخارج والداخل، يمكن للديكتاتورية ان تتخلى عن الحكم لتفسح المجال أمام الحكم الجمهوري العادي ●



كميل كافور.



أسلحة من أيام غاريبالدي.



أول وآخر رحلة لأكبر باخرة في التاريخ:

بقلم: هانسن بولدوين
ترجمة: "تاريخ العرب والعالم"

تيتانيك

● حكاية عبور البحار مليئة بالحوادث التي تؤكد شجاعة الملاحين. وتظهر ان الطبيعة كثيراً ما تتغلب على علم الانسان. وغرق السفينة «تيتانيك» هو من اكبر مغامرات التطور البحري المأساوية. ولقد اتاحت وثائق جديدة لمؤلف «سفن وأشباح» أن يستعيد تفاصيل هذه الكارثة.

* * *

أُعِدّت الباخرة «تيتانيك»، من الوايت ستار لاين. وهي اكبر سفينة عبرت البحار حتى الآن. في ساوثمتون يوم ١٠ نيسان (ابريل) ١٩١٢. لكي تقوم بأول رحلة لها الى نيويورك. وكانت قد خرجت لتوها في ورش هارلند وولف في بلفاست، حيث استغرق بناؤها ثلاث سنوات، فبدت رائعة ومهيبة بقفصها الحديدي الذي يزن ٤٠،٠٠٠ طن.

لم تكن الباخرة الأكثر اتساعاً فقط، بل كانت ايضاً الأكثر أماناً. إذ أن مهندسها كارلايل قد ضاعَف أساسها وقسم هيكلها إلى ١٦ مقصورة عازلة للمياه، مما جعل «التيتانيك» غير قابلة للغرق. لقد بُنِيَت كزورق انقاذ ضخم وانصب الاهتمام على جعلها فندقاً فخماً عائماً، يُدفع بثلاث مراوح، ويمكنه الوصول الى نيويورك بسرعة ٢٣ عقدة.

والواقع ان عملية التهيئة لم تمر بسلام. فبينما كانت السفينة تتقدم ببطء نحو الرصيف في ذلك اليوم من نيسان (ابريل)، أدى تحرك الحياة الذي أحدثته الى اقتلاع السفينة البخارية «نيويورك» الراسية عند الرصيف المقابل، اذ انتزعت الحبال التي طارت في الهواء محدثة ضجة قوية، ووقعت على الجمهور الذي كان يتابع العملية. وقد تم تفادي الاصطدام بين «نيويورك» و«التيتانيك» بصعوبة بالغة، مما جعل الملاحين المسنين يهزون رؤوسهم أمام نذير الشؤم هذا.

في المساء، توقفت الباخرة في شيربورغ، ثم اتجهت نحو كوين ستاون. وقد غادرت هذا المرفأ يوم الخميس ١١ نيسان (ابريل) عند الساعة ١٣ والدقيقة ٢٠، وعلى متنها ٢٢٠١ مسافر. شقق وكابينات الدرجة الاولى كانت تقل مشاهير كثراً، أما غرف الدرجة الثالثة فكانت تنقل ٧٠٦ مهاجرين الى «ارض الميعاد». وأما الحوض فكان يحوي حمولة متنوعة بقيمة ٤٢٠،٠٠٠ دولار.

تجاوزت «التيتانيك» فاستنت لايت في الليل. ثم أبحرت باتجاه نيويورك حيث كان من المنتظر ان تصل صباح الاربعاء التالي.

الابحار نحو النهاية:

فجر اليوم الثالث أي الأحد. بدا جميلاً وناصعاً. كانت الباخرة تتقدم بسهولة. وقد اقيمت الصلوات في صالون الدرجة الاولى. بينما كان المهاجرون في المؤخرة يلهون بعدة ألعاب.

في الساعة التاسعة. التقط عامل الراديو رسالة من الباخرة «كارونيا»: «الى قائد «التيتانيك»: «سجلت سفن متجهة نحو الغرب في ١٢ نيسان (ابريل) وجود جبال جليد جانحة على خط العرض ٤٢ شمالاً، بين خطّي الطول ٤٩ و ٥١ درجة. مع تحياتي. بار».

بعد الظهر، مال الطقس الى البرودة بالرغم من سطوع الشمس، ذلك ان السفينة، التي كانت مراوحها تقوم بـ٧٥ دورة في الدقيقة، كانت تقترب من ثلوج تيرنوف. وعندما حاولت الباخرة «كاليفورنيان» الاتصال «بالتيتانيك»، لم يكلف عامل الراديو الثاني هارولد برايد نفسه مشقة الرد وتسجيل الرسالة المتعلقة بثلاثة جبال جليد.

في الساعة ١٣ والدقيقة ٤٢، وصلت رسالة اخرى من السفينة «البالتيك» تبلغ ايضاً عن وجود جبال جليد على طريق الباخرة العملاقة، فسجّل برايد الاشارة وأرسلها الى ظهر السفينة حيث علقت لكي يتم إعلام الضباط، بعدما قرأها القبطان سميث. واسماي مدير شركته.

في صالة الطعام الكبيرة والمبنية على طراز القرن السابع عشر، كان العشاء مرحاً، اجتمع بعده عدة مسافرين من الدرجة الثانية في الصالون حيث كان الأب كارتر يقوم باحتفال ديني. كانت الساعة تقارب العاشرة والمضيفون قد حضروا القهوة والبسكويت عندما غنت المجموعة:

يا إلهنا اسمع دعوانا
من أجل الموجودين في خطر البحر

في هذا الوقت، حلَّ القبطان الثاني موردوش

محل الملازم الأول لايتولر وهو بحّار متمرس. وكان هذا الاخير قد ناقش مع ضباط آخرين أمر جبال الجليد التي أعلنت عنها خمس برقيات على الاقل. وقد أُمرت أبراج المراقبة بأن توجه لها اهتماماً خاصاً. وكان من المتوقع ان تلتقي الباخرة بهذه الجبال الجليدية اعتباراً من الساعة ٢١ والدقيقة ٣٠. ومع ذلك فقد حافظت على سرعتها.

بعدما التحق الجميع بغرفهم وخيّم الهدوء على الباخرة. ذهب موردوش للتحقق من وجهة سيرها بواسطة البركار. بالقرب من مدير الدفة.

وفي برج المراقبة العالي. كان فريدريك فليت و لي يراقبان كذلك المياه. وراءهما وتحتها كانت الباخرة ظلاً كبيراً ابيض تبرق فيه هنا وهناك بعض الانوار. وأمامها كان البحر بارداً أسود وصامتاً.

دقات الساعة معلنة الحادية عشرة والنصف. في مركز الراديو. حلّ فيليبس محل برايد. وعاد جهاز ارسال «الكاليفورنيان» الى البث.

– قل لي، يا عزيزي. يبدو أننا محاصَرون بالثلوج.

– اقفل. أجاب فيليبس، اني أتحدّث مع كاب ريس وأنت تشوّش عليّ.

الاصطدام الكارثة:

كانت الساعة ١١ والدقيقة ٤٠.

في هذه الاثناء بَرز فجأة. وكأنه يظهر من العدم. شكل أبيض كبير أمام «التيتانيك».

لم يصدّق فليت نظره بادئ الأمر. إلاّ أنه لم يلبث أن استسلم للحقيقة. فرن الجرس بعنف ثلاث مرات وطلب الأدوار العليا بالتليفون:

– جبل ثلج أمامنا!

فصرخ الكابتن:

– إلى اليسار. أقصاه!

فحوّل السائق دفته بسرعة. إلاّ أن الشيطان كان تقريباً قد التصق بهم.

قفز موردوش نحو التلغراف، ودقت الأجراس، أول إشارة خطر للمستخدمين. توقفت العقارب عند «ستوب». ثم عند «إلى الوراء. بأقصى سرعة». فلم يكن من الميكانيكيين إلاّ أن أداروا مقاودهم الكبيرة... حدثت هزة خفيفة، ثم صرير، ثم تمايل قليل نحو اليسار، وتناثر بعض الثلج على شاب كان واقفاً في صدر السفينة. وأخيراً توقفت «التيتانيك» تدريجيًّا

خرج الكومندان سميث مهرولاً من غرفته:

– بِمَ اصطدمنا؟

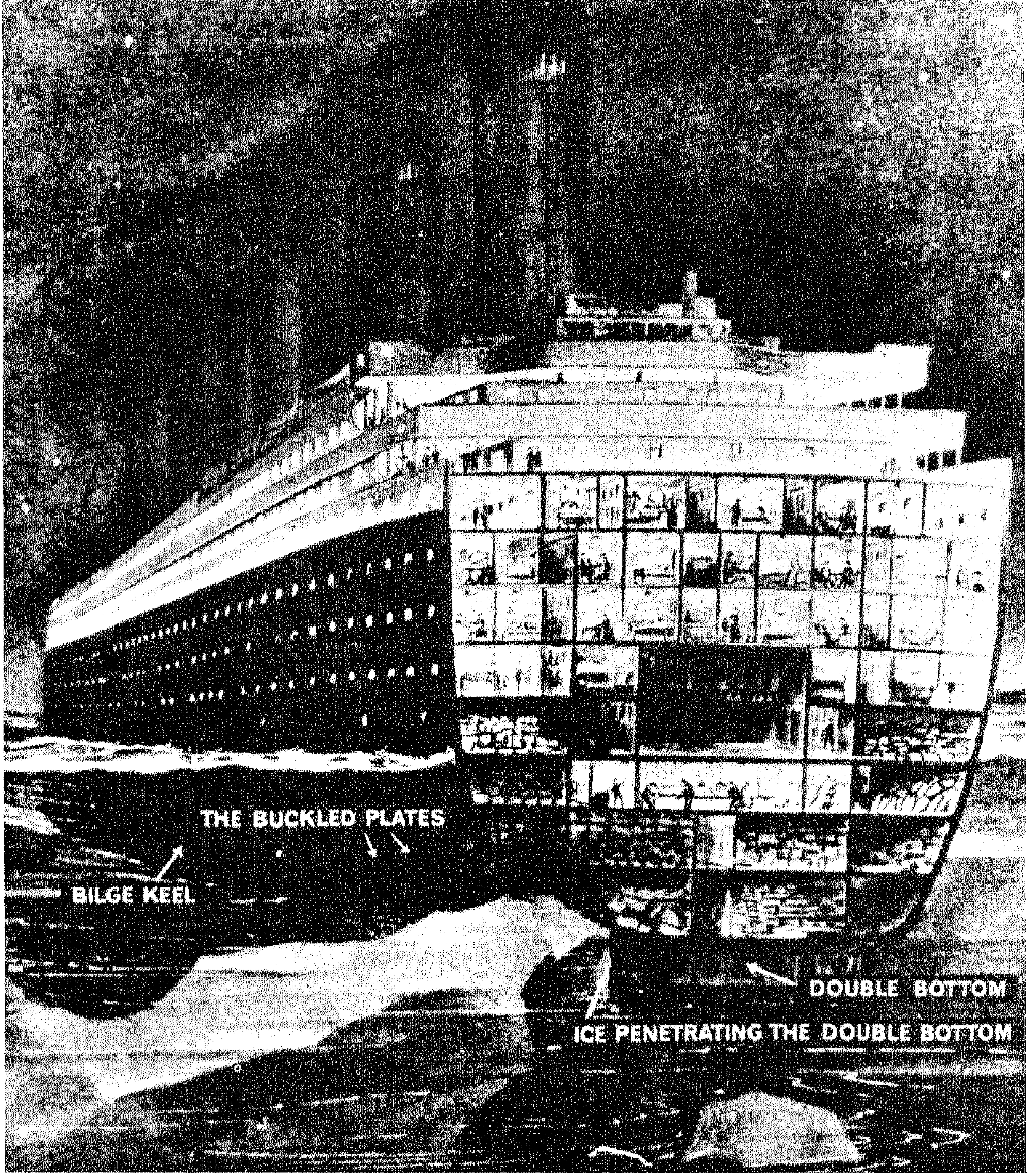
– بجبل جليدي، كومندان، أجاب موردوش. لقد أدرت المقبض كله الى اليسار، وقلبت الآلات، وكنت أنوي وضعه الى اليمين لكي أتفادى الجبل، إلاّ أنه كان قريباً جداً. لم يعد بالامكان القيام بأي شيء. لقد أمرت بإقفال الأبواب العازلة للمياه.

أُضيئت بعض الأنوار في كابينات الدرجتين الاولى والثانية، وأطلت رؤوس يغالبها النعاس. في قاعة التدخين، أحس لاعبو البوكر بالارتجاج الخفيف الذي أحدثه الاصطدام، ورأوا من خلال نوافذهم جبلاً جليدياً علوه عشرون متراً. إلاّ أن الليل كان هادئاً و«التيتانيك» غير قابلة للغرق، فلم يكلفوا أنفسهم عناء الخروج الى الجسر. لكن في الأسفل، في ممرات الميمنة الضيقة وفي حوض السفينة وفي مواضع المرجل الامامية، كان بعضهم قد فهم أن إصابة الباخرة مميتة.

في موضع المرجل رقم ٦، كان الماء يتدفق من فوهة كبيرة، فالهيكل بات مفتوحاً فعلياً للبحر، وفي خلال دقيقتين وصل علو الماء في هذا المكان الى مترين وخمسين سنتيمتراً.

عندما نظر الملازم بوكسهول الذي ارسل لتقدير الأضرار، الى المقصورة المخصصة للبريد، على ارتفاع سبعة امتار من القعر كانت أكياس الرسائل قد عامت، كذلك كان حال الغرف الست المقابلة لموضع المرجل رقم ٤. فخلال عشر ثوان، كان الجبل الجليدي قد فتح شقاً طوله تسعون متراً في غاطس الباخرة الكبيرة «تيتانيك».

بدأت الحياة تعود شيئاً فشيئاً الى الممرات والكابينات. رجال ونساء وأطفال أفاقوا وبدأوا بطرح الأسئلة، غير أن معظمهم كان ما يزال يجهل ان السفينة تغرق، فالصدمة كانت خفيفة لدرجة ان اكثرهم لم يستيقظ، ثم ان «التيتانيك» اكبر من ان تؤثر فيها ثلوج عائمة. والليل كان أهدأ وأجمل من أن



الباخرة من الداخل.

يحمل الموت في طياته.

ركض الكومندان سميث الى جهاز الارسال:

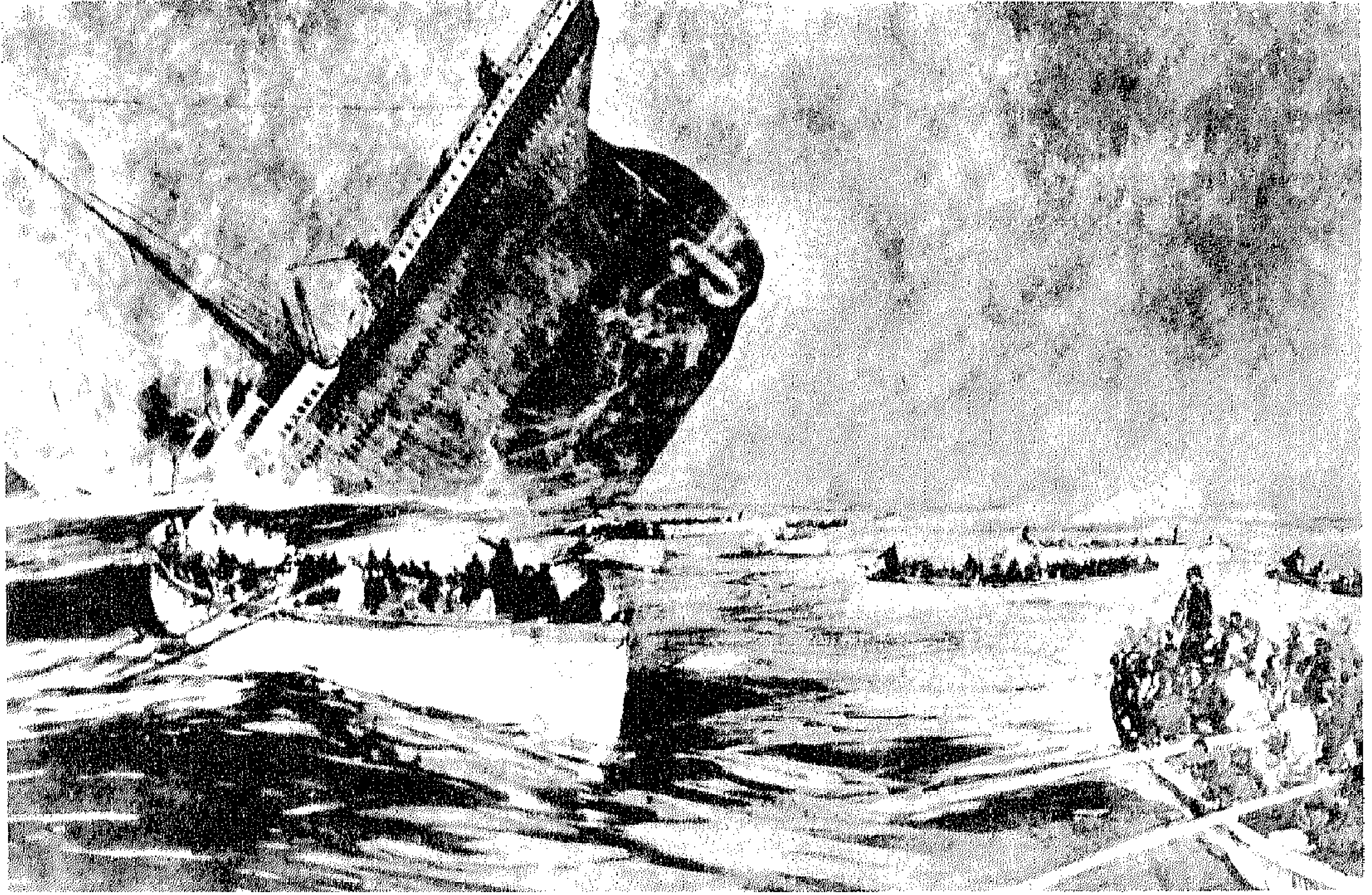
– اطلقوا نداء الاستغاثة!

فسمع النداء على بعد عدة أميال، ووصل الى بعض البواخر، كما وصل الى البر.

كان الماء يتصاعد بسرعة، فوصل الى مركز الوقادين الذين أسرعوا الى السلالم وهم نصف عراة.

وفي الثانية عشرة ليلاً احتل مركز الملاحين. وقد حاولت المضخات المقاومة دون جدوى، وجاء إطلاق زوارق الانقاذ متأخراً بعض الشيء بسبب تأخر الملاحين في الالتحاق بأعمالهم. وكان لا بدّ من توجيه الأوامر بصوت عال بسبب توقف صفارات الانذار وسيطرة صفير البخار على كل الاصوات الاخرى.

في الملجأ، كان بوكسهول يحدد بسرعة موقع



إنزال زوارق الانقاذ الى البحر. وكانت المسافة بينه وبين ظهر الباخرة ٢٣ متراً (رسم خيالي لماتانيا).

الباخرة بواسطة البركار والمنقلة.

– الساعة ١٢ ليلاً والدقيقة ٢٥ : عُين موقع الباخرة للسفن الموجودة في الجوار كالـ «كارباتيا» :

– إلحقوا بنا في الحال. لقد اصطدمنا بجبل جليدي.

– نحن نغرق ويستحيل علينا سماعكم بسبب البخار.

محاولات انقاذ الركاب :

– الساعة ١٢ ليلاً والدقيقة ٣٠ : أمر بوضع النساء والأطفال في زوارق الانقاذ، فأنهى المضيفون إيقاظ بقية المسافرين وساعدوهم على ربط الاحزمة. وبدأت السفن تغير وجهة سيرها نحو «التيتانيك» ما عدا «الكاليفورنيان» وكانت الاقرب إليها، لأنها لم تسمع النداء. فقد رفعت قبل لحظات السماعات للاخلاد الى النوم.

بدأت مقدمة السفينة بالغوص، ولم يكن أمام الميكانيكيين الذين كانوا يخوضون معركة خاسرة إلاّ التراجع أمام البحر.

– الساعة ١٢ ليلاً والدقيقة ٤٥ : أمر موردوش بإنزال القارب ٧ إلى الماء، وكانت نظراته توحي بالقلق وإن بدا هادئاً وبارداً. النساء قاومن، فمجرد فكرة التجذيف في بحر مليء بالكتل الجليدية كانت تخيفهن. ثم ان «التيتانيك» لا تغرق! أما الرجال فشجّعوهن، موضحين بأن هذا التدبير ما هو إلاّ احتياط :

سنلتقي بكن عند الافطار.

فجأة أطلق بوكسهول صاروخاً، فدوى انفجار تساقطت على أثره نجوم بيضاء أضاءت سطح الماء. عند ذلك بدأت الاوركسترا بعزف موسيقى راقصة، ووضعت الزوارق ٥ و٦ بحالة الاستعداد. وقد وصل عدد ركاب الاخير الى ٢٨، في حين يمكنه احتواء ٦٥ شخصاً. وعندما همّ الملازم الثاني بيتمن بركوب الزورق ٥، أمسك موردوش بيده وقال له :

إلى اللقاء وحظاً سعيداً.

– الساعة الواحدة ليلاً : الماء يتصاعد ويغمر صدر السفينة. زوارق الانقاذ تنزل تدريجيًّا الى البحر، بينما موسيقى الاوركسترا ما تزال تصل عبر صرخات المسافرين.

الزورق ١ المخصص للأغنياء والذي يتسع لـ ٤٠ شخصاً، غادر السفينة وعلى متنه ١٠ فقط.

في المؤخرة، بدأ المهاجرون وقد تملّكهم الخوف، يتنازعون على الركوب في القوارب ولم يتوقفوا إلاّ عندما دوت ثلاث طلقات نارية. وقد تمكن اربعة صينيين من الانسلال في زورق دون ان يراهم أحد.

– الساعة الواحدة والدقيقة ٢٠ : المياه تكتسح المرجل رقم ٤، وتصل إلى ركبة الوقادين الذين كانوا ما يزالون يعملون لضرورة تأمين البخار للدينامو والراديو، فيلجأون إلى الهرب عبر الأبواب العازلة.

صواريخ اخرى تُطلَق نحو السماء. الآن ثقلت حمولة الزوارق لأن المسافرين أدركوا ان الباخرة تغرق فعلاً. النساء يتعانقن ويبكين.

– الساعة الواحدة والدقيقة ٣٠ : الملازم الاول لايتولر يشرف على زوارق الميسرة وموردوش على زوارق الميمنة. وقد أصرت امرأة على أخذ كلبها الدانمركي معها، ولما جوبهت بالرفض، عادت إلى الباخرة لكي تموت معه.

على وجه الرسام ميه اختفت الابتسامة التي لم تفارقه طوال الرحلة، إلاّ أنه استمر بمساعدة النساء وبالتأشير لهن بالوداع. أما بنجامان غوغنهايم، فكان، بلباسه الكامل، يبتسم :

لقد ارتدينا ملابسنا لكي نموت ميتة وقورة.

– الساعة الواحدة والدقيقة ٤٠ : القوارب ١٤، ١٣، ١٦، و ١٥ تغادر بدورها السفينة.

– «مقصورة الآلات غمرت بالمياه»، أعلنت «التيتانيك».

– «نحن نتقدم بأسرع ما يمكننا»، أجابت «البالتيك».

المايجور بوتس يساعد النساء على الصعود الى الزوارق. وعندما همت مدام ستروس بركوب أحدها، تراجعت ولحقت بزوجها :

– نحن معاً منذ زمن طويل.. سأذهب حيث تذهب.

– الساعة الواحدة والدقيقة ٤٥ : صدر السفينة بات تحت الماء ومؤخرتها ارتفعت نحو النجوم. الاوركسترا ما تزال تعزف.

السيد والسيدة هاريس يقتربان سوية من الزورق، فيعترض أحد الضباط :

– السيدات أولاً.

فينحني هاريس ثم يبتسم ويتراجع :

– صحيح، السيدات أولاً.

أطلق بوكسهول آخر صاروخ لديه ثم اندفع لقيادة الزورق.

– الساعة الثانية ليلاً : «التيتانيك» تدخل مرحلة النزع الأخير وتنتصب اكثر فأكثر في الاتجاه العمودي. لكن الشرارات الزرقاء ما تزال تتراقص في مركز الارسال، حيث يطلب فيليبس مجدداً النجدة.

تغادر الزوارق الباخرة الواحد تلو الآخر. الكاتب الفرنسي جاك فوتريل يحث زوجته على الرحيل :

إذهبي. بحق السماء! هذه آخر فرصة لك. اذهبي!

النزع الأخير:

---

١٦٠ شخصاً تمكنوا من إيجاد اماكن لهم في الزوارق... وبقي ١٥٠٠ مسافر على ظهر السفينة الآخذة بالغوص في أعماق البحر.

كان الملاحون والضباط ما يزالون يواصلون الجهود، كل في مضماره، حين أطلّ عليهم الكومندان بوجهه الشاحب :

لقد قمتم بواجبكم يا صغاري. لن تستطيعوا شيئاً بعد الآن. فليعمل كل لنفسه.

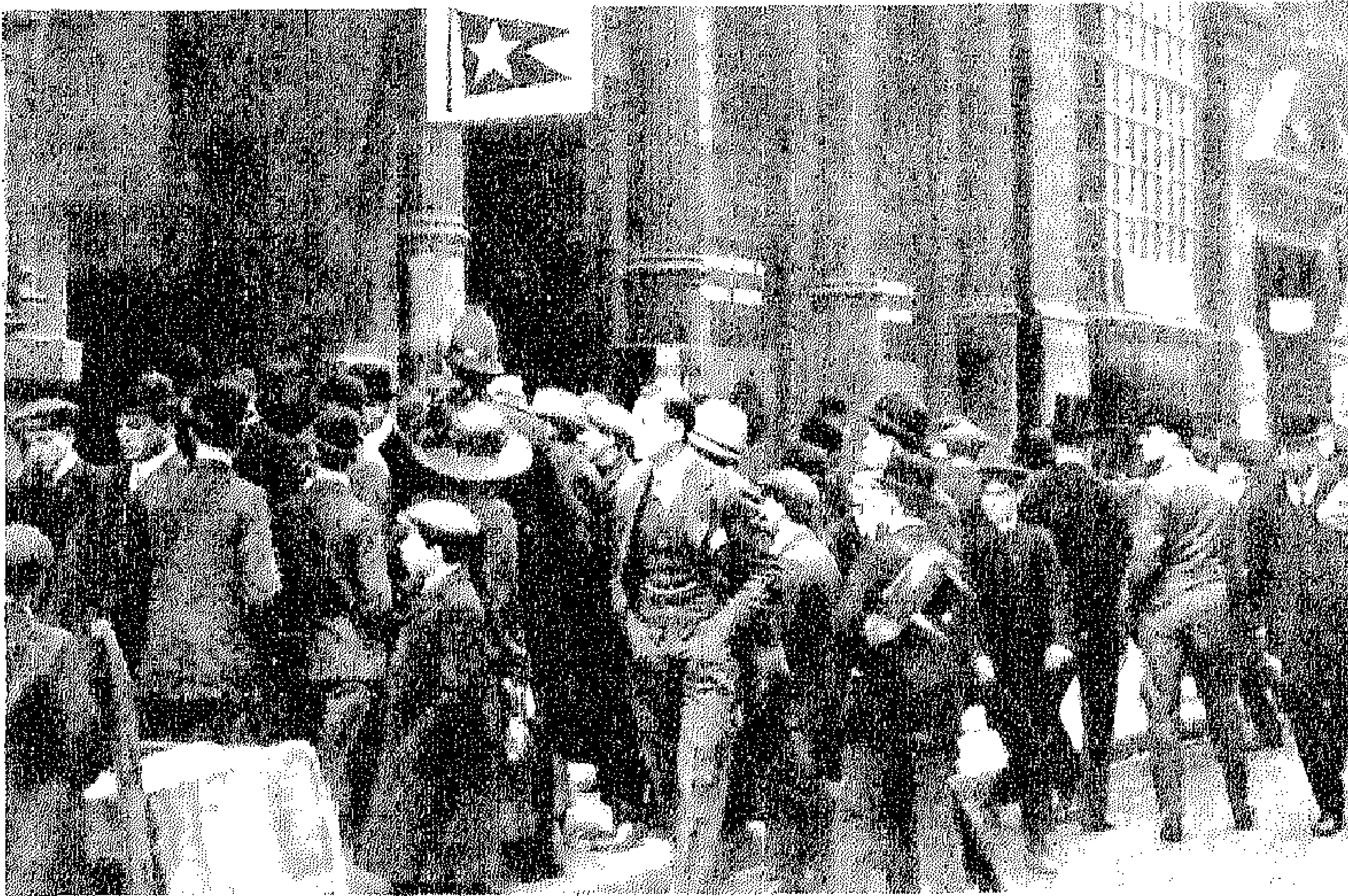
لحظة دخول برايد لمركز الارسال. وصل احد الوقادين بوجهه الاسود والرعب باد عليه. ومد يده ليأخذ صدرة الانقاذ الخاصة بفيليبس. فاستدار برايد وقضى عليه بضربة من مفتاح انكليزي.

– الساعة الثانية والدقيقة ١٠ : ما يزال هناك بخار، وان كان الضغط ينخفض بسرعة. في قاعة الرياضة ينظر المدرب الى سيدين ركبا دراجتين وآخر يضرب كرة الملاكمة.

عمال البريد يصعدون السلالم وهم يجرون وراءهم الرسائل المبللة. الشرارات الزرقاء ما تزال تتراقص والاوركسترا ما تزال تعزف. لكن الموسيقى لم تعد راقصة :



الكارباتيا تقدم الاسعافات للذين ظلوا على قيد الحياة من ركاب التيتانيك.



امام مكاتب الوايت ستار. بعد غرق «التيتانيك».

اقرب إليك، يا إلهي
اقرب إليك...

يردد هذه العبارات مجموعة من الحاضرين. بينما يركع آخرون على الجسور المنحنية ويصلون. يحاول الكثيرون الوصول الى المؤخرة حيث المئات ممسكون بالمراوح الكبيرة الصامتة.

الراديو يواصل البث والموسيقى تقترب من نهايتها. فيطلب هارتلي، قائد الاوركسترا، من الموسيقيين الثمانية أن يعزفوا مقطوعة الخريف، كانت المياه قد غمرت أرجلهم.

بعض المسافرين بدأوا بالقفز الى البحر البارد. امرأة تصرخ:

انقذوني! انقذوني!

فيجيبها رجل:

الله وحده يمكنه إنقاذك الآن، يا سيدتي الفاضلة!

تبدأ الاوركسترا بمعزوفة الخريف:

إله الرحمة والشفقة
انظر الى آلامي...

تصل المياه الى الطبقة العليا حيث القبطان، فيرمي نفسه فيها ببطء...

— الساعة ٢ والدقيقة ١٧: تسمع «فيرجينيان» نداء متردداً يتوقف فجأة. الشرارات توقفت عن التراقص، والأضواء انطفأت.

— الساعة ٢ والدقيقة ١٨ : يتراكض الرجال على الجسور المظلمة ويقفزون في الليل ، فتبتلعهم الأمواج. لايتولر لم يتخل عن السفينة . بل هي التي تخلت عنه . وهذا كان حال المئات غيره ، لكن قليلاً منهم سيعيش ليخبر عما حصل.

المداخن ما تزال ظاهرة فوق سطح البحر ، كذلك الصاري . بعض الرجال يسبحون وآخرون يسقطون . الاوركسترا تعزف في الظلام :

ساندني في الحياة القوية

ساعدني على النظر نحو السماء

فضيلة ، عدالة إلهية

ســلام ...

مدخنة الصدر اقتلعت وسقطت في البحر ، فهرست عدة سابحين. في مواضع المرجل حيث توقف الدينامو نهائياً عن الدوران ، يحاول الوقادون الهرب من الماء بالتمسك بقطع معدنية حامية ، وقطع اخرى تنهار بعدما تقطعت روابطها.

الباخرة «تيتانيك» واقفة الآن بشكل مستقيم. انتظرت لحظة ثم شرعت في الغوص ، ببطء في بادئ الأمر ، ثم بسرعة اكبر ، اكبر ، اكبر ، الى ان عاد القبر السائل فأغلق عليها.

— الساعة ٢ والدقيقة ٢٠ : اختفت اكبر باخرة في العالم. المياه الظلماء بدت كدوامة كبيرة بيضاء ، ومن اعماقها تصاعد انين طويل متواصل.

الناجون ...

ابتعدت القوارب عن هذه الدوامة خوفاً من أن تجرفها . ابتعدت كذلك عن صرخات البائسين رجالاً ونساء ، الذين كانوا يتصاعدون مع المياه الباردة. لم تكن الزوارق مجهزة جيداً ولا محملة بالتساوي . ففي بعضها كان يوجد عدد قليل من الملاحين ، مما اضطر الركاب وحتى النساء منهم للتجديف.

قسم قليل من الزوارق كان يحوي أعداداً كبيرة من الناس. الباقون قاموا بمحاولات شكلية لالتقاط الغرقى ، إذ كانوا يخشون الاخلال بتوازنهم إذا ما رجعوا بين المحتضرين. بعضهم ، وكأنهم أصيبوا بمس من الجنون ، أجبروا السابحين الذين حاولوا الاقتراب منهم على التراجع بضربهم بالمجذاف على رأسهم . والبعض الآخر حاول على العكس انتشالهم.

أحد الزوارق عامَ بعد غرق الباخرة ، فكان بمثابة خشبة خلاص لثلاثين او اربعين رجلاً. كان بينهم الكولونيل ارشيبالد كراسي الذي قفز من الباخرة في آخر لحظة ، وتيير الذي رأى والده يموت ، ولايتولر الذي جرف مرتين مع الباخرة الغارقة وأعيد مرتين الى سطح البحر بواسطة فقاقيع الهواء ، وبرايد وفيليبس . ولم يلبث هذا الأخير ان فارق الحياة.

بعض زوارق الانقاذ كان مجهزاً بالضوء ، غير ان الوحيد الذي ارشد «الكارباتيا» : هو ضوء القارب ٢ . شوهد هذا الاخير عند الساعة ٢ والدقيقة ٤٠ . ووجد أول زورق الساعة ٤ والدقيقة ١٠ ، حينما سكتت آخر صرخات المحتضرين.

عند ذلك فقط أدرك الكابتن روستن ان «التيتانيك» قد غرقت ، فبحث بدقة عن بقية الزوارق وانتشل ركابها. كانت قد اتخذت كل الاستعدادات لاستقبالهم ، لكن القليل منهم احتاج لعناية طبية.

لم يفهم العالم مدى فداحة الكارثة إلاّ في وقت متأخر ، لأن الراديو لم يكن آنذاك ما هو عليه الآن ، والأخبار الاولى المغالطة أيقظت الأمل في قلوب الناس فظنوا أنه قد تم إنقاذ ركاب السفينة . ولم تعرف الحقائق بكـل بشاعتها إلاّ ليلة الخميس عندما دخلت «الكارباتيا» نورث ريفير. فأحاطت بها القاطرات لكي تجرها الى الرصيف حيث كان ينتظرها عدد من الأطباء والممرضين وسيارات الاسعاف.

لكـن قبل ان تدنو من الشاطئ ، كانت «الكارباتيا» قد انزلت قوارب «التيتانيك» — ٣٠.٠٠٠ رجل كانوا يملأون الأرصفة والشوارع المجاورة ، وبينهم أهلو ٧١١ مسافراً ظلوا على قيد الحياة وأهالي المفقودين الذين كان الأمل ما يزال يراودهم.

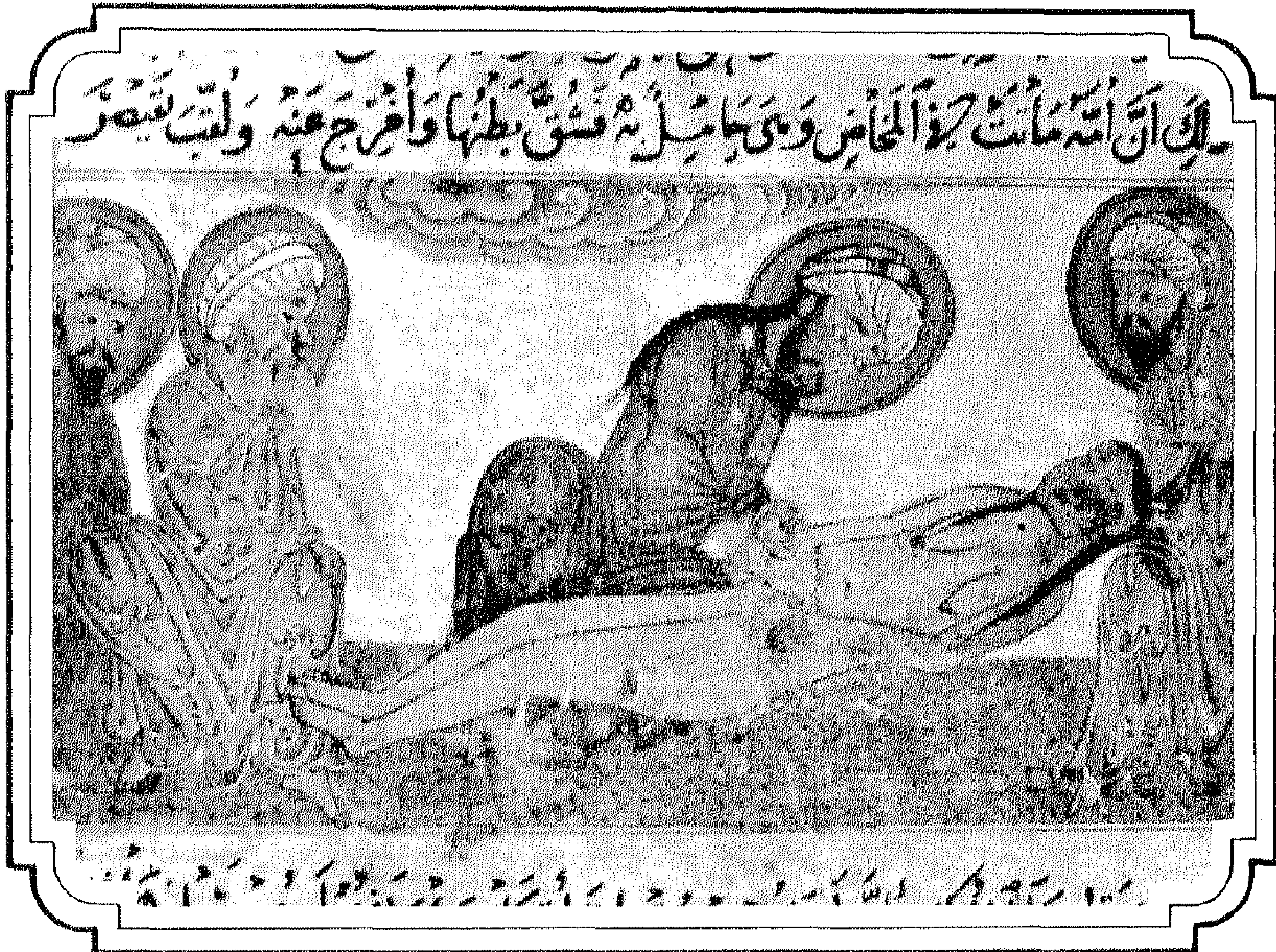
عندما رست الباخرة ومدت الجسور للعبور ، رأى الناس أول من رأوا امرأة تكاد تهوي وهي تتقدم ، يسندها موظفو الجمرك. تأمل الجمهور هذا المشهد بصمت أولاً ، ثم ما لبث أن تصاعَد أنين طويل وأخذ يكبر ، مرافقاً الموكب الحزين.

وهكذا انتهت أول رحلة لأكبر باخرة في العالم «التيتانيك» ●

مراجعة كتاب

تاريخ الطب العربي

للدكتور سامي حداد



أو إماطة اللثام عن مفخرة الطب لدى العرب

إعداد: محمد أمين فرشوخ

● هذا هو الجزء الأول من الأعمال الكاملة للطبيب الفلسطيني سامي ابراهيم حداد، وهو عبارة عن مقالات كتبها في فترات متباعدة باللغتين الانكليزية والفرنسية أما بمفرده أو بمساعدة أطباء آخرين.

أما المقالات التي كتبها باللغة العربية حول تاريخ الطب العربي فستصدر في كتاب مستقل. وفي خصوص كتبه الأخرى حول جوانب عدة من الطب فانها ستصدر تباعاً.

طبع هذا الكتاب في بيروت العام ١٩٧٥ بفضل مساهمة «مؤسسة لويز مسابكي» في مستشفى



«السيواك». أولى فراشي الأسنان المعروفة عند المسلمين العرب.

«أوريانت». عدد صفحاته من الحجم الوسط ١٥٢، تتخللها ٢٥ صورة لوثائق ورسوم طبية عربية قديمة، منها ٧ صور بالألوان، إضافة إلى الفهارس بالشخصيات والمستشفيات والمؤسسات الجامعية والعلمية والأسماء الطبية والجغرافية وأسماء الكتب الطبية العربية القديمة الواردة في الكتاب.

* * *

ولد الطبيب سامي ابراهيم حداد في يافا (١٨٩٠) وتوفي في بيروت (١٩٥٧). كان طبيباً جرّاحاً في الجامعة الأميركية في بيروت وأسس مستشفى «أوريانت» العام ١٩٤٦.

اهتم د. حداد في شكل خاص بتاريخ الطب العربي وجمع مجموعة فريدة من المخطوطات العربية حول الموضوع. سافر إلى العديد من الدول العربية والأجنبية بحثاً عن آثار المستشفيات القديمة وغيرها من البراهين المتعلقة بتاريخ الطب العربي.

يشمل الكتاب ٣ أقسام رئيسية:

١ - في القسم الأول (ص ٢١ - ٥٧)، يتناول د. حداد موضوع الطب العربي عموماً ويتطرق إلى العديد من الأطباء العرب القدماء ومؤلفاتهم. في المقال الأول: «العرب وفن الطبابة» (١٩٣٧)، يفنّد الكاتب المزاعم التي تروج بأن الطب العربي القديم اقتصر على السحر والتنجيم الفلكي.

ويشير إلى ان أول من تطرق إلى علم الطبابة عند المسلمين الأوائل هو الحارث بن خلده، عم النبي، الذي قطع الصحاري حتى بلاد فارس ليدخل إلى مدرسة ومستشفى (Gundishapur). ويوضح د. حداد هنا إلى أن النبي محمد نفسه «كان يهتم كثيراً بالطب وهو أعظم معلم لعلم الصحة» لجهة تشديده على ضرورة الوضوء خمس مرات يومياً قبل الصلاة.

أما في خصوص ترجمة النصوص الطبية الاغريقية إلى العربية فيذكر المؤلف أن الحاكم الأموي خالد بن يزيد هو أول من بادر إلى تشجيع هذه الترجمة لأكبر عدد من المصنفات الاغريقية التي استطاع الحصول عليها.

وفي العهد العباسي تابع الخلفاء اهتمامهم بهذا العمل إلى حد انه يقال ان المأمون كان يدفع ثمن تآليف الطبيب حنين بن اسحاق ثقلها ذهباً.

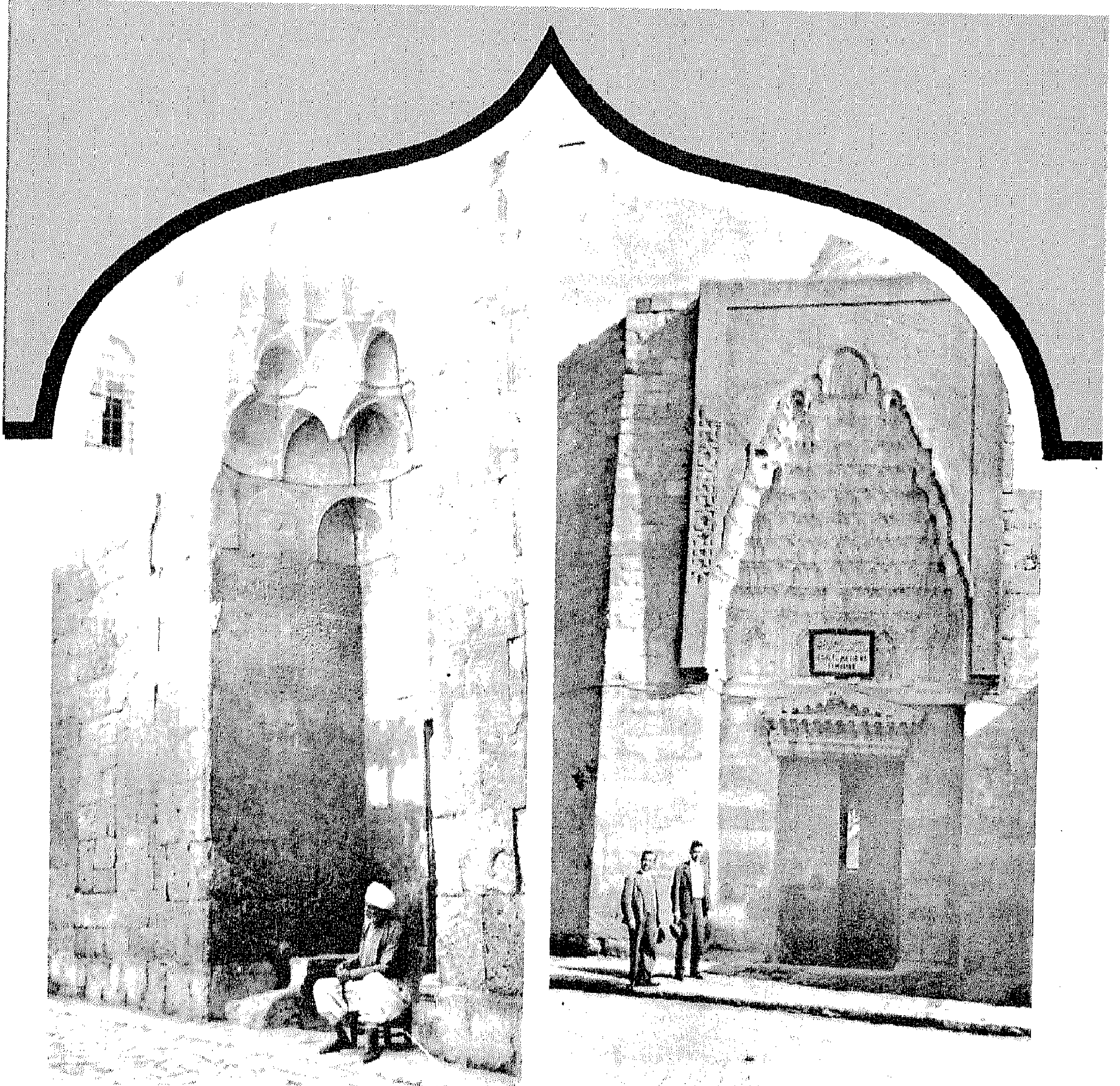
ومن المثير للاعجاب أن الغرب لم يتعرّف على علم الطبابة الاغريقية إلا من خلال الترجمات العربية لها. هذه الترجمات التي فقدت معظمها ولم يبق إلا القليل منها وهو غير محقق حتى اليوم.

ويكشف د. حداد ان العالم العربي «علي بن عباس» هو الذي كتب أول مقالة في علم التشريح، وهذه المقالة ذات الأهمية التاريخية الكبرى ترجمت إلى اللاتينية وعممت في أوروبا بواسطة كونستانتينوس أمزيقانوس ولكن من غير أي ذكر لأصلها العربي.

وفي المقالين الثاني: «المساهمات العربية في الطب» (١٩٤١) والثالث: «مساهمات العرب في الطب» (١٩٥٥)، يذكر المؤلف أسماء العديد من العلماء الأجانب الذين أقرّوا بفضل المساهمات العربية في اغناء الطب ثم يعرض في ايجاز لمنجزات أبرز الأطباء العرب.

ومن هؤلاء المستشرقين نذكر:

- أدوار بيردوو في كتابه «أصل وتطور فن الطبابة».



مدخل مستشفى النوري في دمشق.

جانب من مستشفى أرغون الكاملي في حلب.

– ادوارد براون في محاضراته في جامعة كامبريدج عن الطبابة العربية.

– فيلدينغ غاريسون في كتابه المعروف «تاريخ الطب».

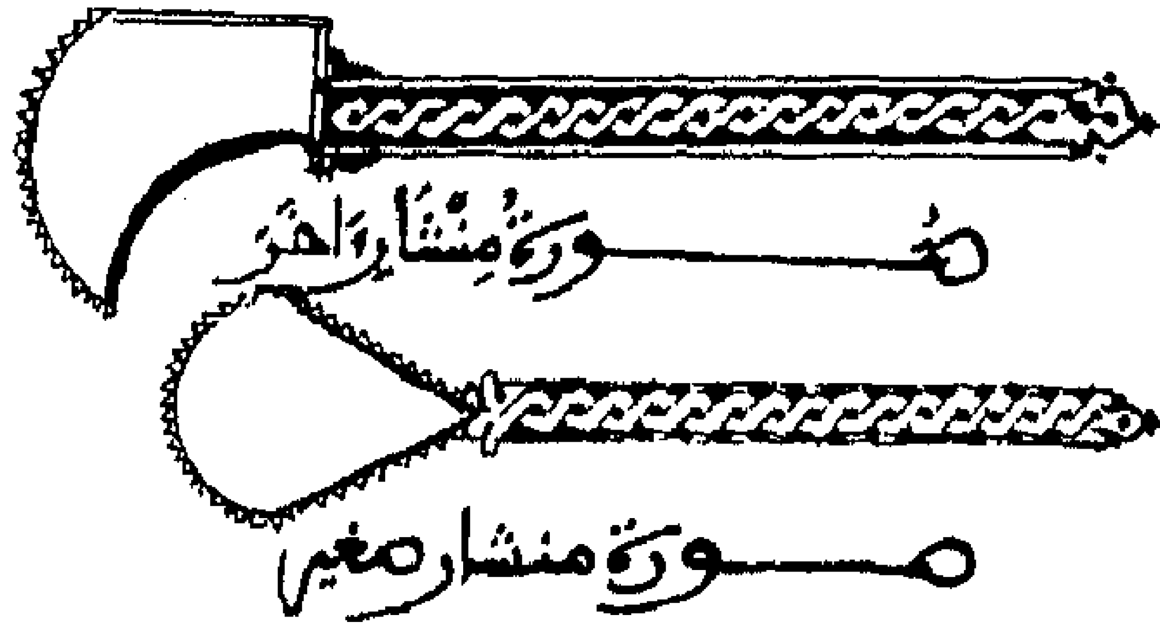
– شارلز غرين كومستون، وهو محاضر في جامعة جنيف، في كتابه عن «تاريخ الطب».

– دونالد كامبل في مقالته عن الطبابة العربية (نشرت العام ١٩٢٦).

– شارلز سينغر في كتابه «التاريخ المختصر للطب».

ولكن نلاحظ هنا قوله ان عهد الترجمة للمخطوطات الاغريقية الطبية بدأ في أيام هارون الرشيد (ص ٣٧) بينما كان ذكر في مقاله الأول (ص ٢٤) ان ذلك بدأ منذ عهد الحاكم الأموي خالد بن يزيد، وكما أكده في مقاله الثالث (ص ٥٠)

وهو في المقالين المذكورين يورد أهم الأطباء العرب والمسلمين القدماء مع نبذة عن مصنفاتهم. ويركز خصوصاً على كتاب علي بن عباس «كامل الصناعات» وكتاب ابن جزلا «تقويم الابدان».



أدوات للجراحة مأخوذة عن كتاب الزهراوي. المكتبة الوطنية في باريس.

وفي المقال الرابع: «الطبيب العربي» (نشر في ١٩٦١) يتحدث د. حداد عن أوضاع ومؤهلات الطبيب العربي القديم من النواحي العلمية والثقافية والمهنية.

وهذا المقال لم يتسن للدكتور حداد انجازه كاملاً ولكن على رغم ذلك كان من أكثر المواضيع طرافة وفرادة خصوصاً في ما يتعلق بمخصصات الطبيب العربي ومعنوياته وأخلاقه...

٢ - القسم الثاني (ص ٦٧ - ٨٦) مخصص للمستشفيات العربية: أماكنها، نوعها، ماليتها، ادارتها وموظفيها، طرق المعالجة فيها.

في المقال الأول: «دراسة عن المستشفيات العربية بالنسبة إلى التوحيد القياسي الراهن» (١٩٣٦) وفي المقال الثاني: «أول المستشفيات العربية» (١٩٣٩). يورد د. حداد تفاصيل جديدة عن موقع هذه المستشفيات وتخصصها وماليتها وادارتها وكيفية قبول المرضى فيها وأوضاع الموظفين المادي والمهني والتأهيل والطبابة فيها. كما يتطرق إلى دور الخلفاء في تشجيع بناء المستشفيات وتعميم الطبابة فيها على الجميع، فقراء وأغنياء، نساء ورجالاً.

٣ - في القسم الثالث (ص ٨٧ - ١٣٩) يعرض مسألة اكتشاف ابن نفيس للدورة الدموية العليا (Pulmonary Circulation) في القرن الثاني عشر الميلادي. أي ٣٠٠ سنة قبل الطبيب الانكليزي ويليام هارفي (١٥٧٨ - ١٦٥٧). كما يتناول طب الأسنان عند العرب إضافة إلى بعض المعالجات الطبية العربية الأخرى. ثم يورد لائحة بأهم الوثائق والرسوم الطبية العربية التي كان يحتفظ بها ضمن مجموعته الفريدة.

في المقالين الأول: «فصل منسي من تاريخ الدورة الدموية» (١٩٣٦) الذي كتبه بالتعاون مع الطبيب أ. أ. خير الله. والثاني: «فصل منسي من الدورة الدموية العليا» (١٩٣٧) الذي كتبه بالتعاون مع الطبيب انجيلوس كوسوغلو، يبرهن المؤلفون، استناداً إلى كتابات ابن نفيس خصوصاً، على اكتشاف هذا العالم العربي للدورة الدموية وأسرارها المجهولة يومها.

وهم هنا يستنتجون ٩ ملاحظات عن اكتشاف ابن نفيس المدهش في الزمن المبكر هذا:

١ - نصح ابن نفيس بدراسة علم التشريح المقارن لتسهيل فهم علم التشريح البشري.

٢ - في مجالات عدة يلمح إلى انه قام بعملية تشريح على رغم نفيه ذلك في المقدمة. إذ هو يذكر التشريح للتأكيد على استنتاجاته. والمعروف ان التشريح كان شبه محرّم عند الأطباء المسلمين.

٣ - لم يكن ابن نفيس تلميذاً يقبل كل ما يقال له. فكانت له قناعاته الخاصة. وهو لا يطرح استنتاجه إلا بعد المراقبة الدقيقة للحال المرضية، حتى ولو كان يعارض الرأي السائد.

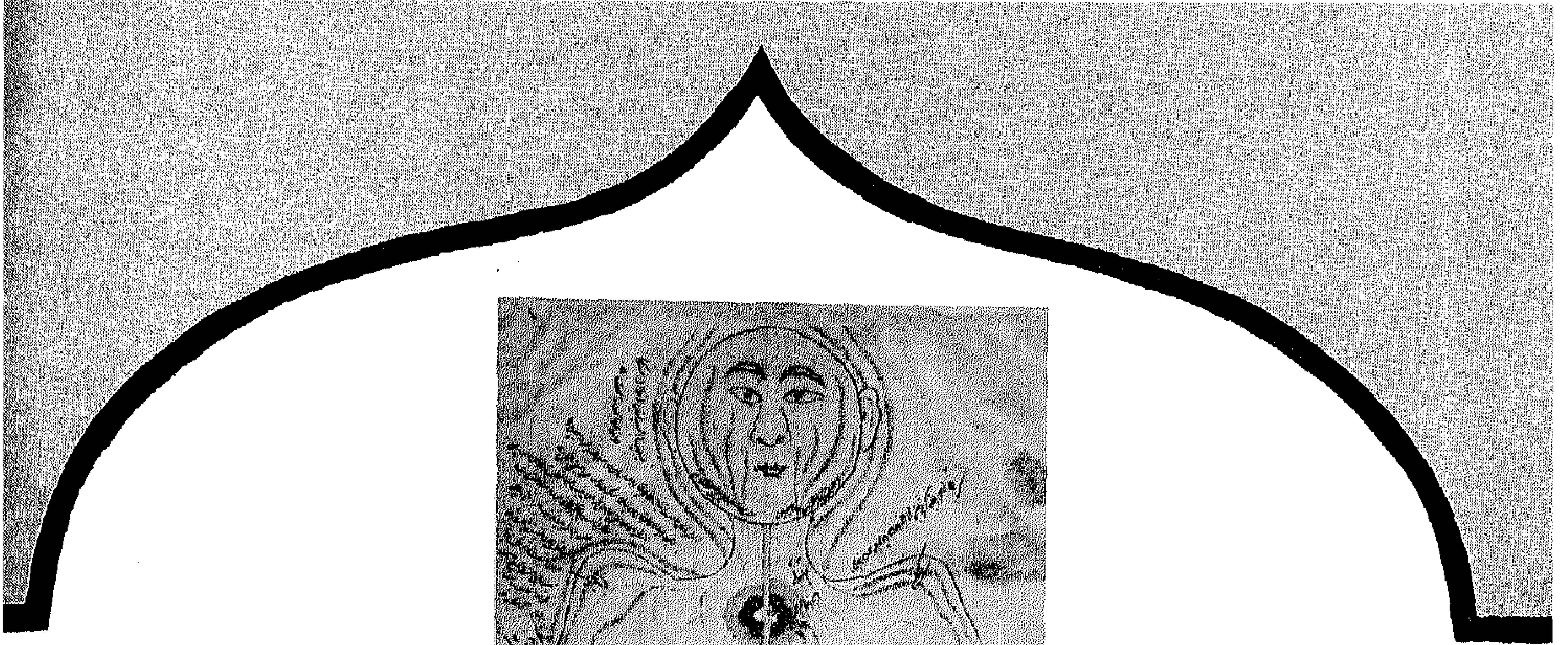
٤ - صنّف الانسان كحيوان يستنشق الهواء.

٥ - استخدم المنطق عندما لم يكتفِ بالمعلومات التي استخلصها وبعد عملته المراقبة

٦ - ذكر ان الدم تتم تنقيته في الرئة وأعطى تحديداً دقيقاً (Alveoli).

٧ - أكد ان القلب يتغذى من شريانه الخاص (الشريان التاجي).

٨ - يعطي وصفاً واضحاً ومحدداً للدورة الدموية العليا ويكرر هذا الوصف أكثر من خمس مرات في النص.



صورة من الرسوم العربية لجسم الانسان مشرّحاً.

٩ – هناك ثلاث مخطوطات لابن النفيس توضح في شكل لا لبس فيه ان هذا الطبيب العربي أعطى وصفاً علمياً للدورة الدموية العليا منذ القرن الثالث عشر ميلادي.

وفي المقال الثالث: «لقّاطات الأسنان الطبية عند العرب» (١٩٣٧) الذي كتبه بالتعاون مع الطبيب الياس س. خليفة، يكشف المؤلفان عن الاهتمام الكبير الذي أولاه العرب والمسلمون لمعالجة أمراض الأسنان ويفندان المزاعم التي كانت تروج بأنهم لم يكونوا إلا مجرد ناقلين عن الأطباء الذين سبقوهم.

وهو يفصّل الحديث عن الطبري والرازي والمجوسي وابن سينا وخصوصاً أبو القاسم الزهراوي.

وفي المقال الرابع: «قصة العملية القيصرية في الكتابات الشرقية» (١٩٤٨). يميط د. حداد اللثام عن مخطوطة للبيروني (رقمها ١٦١ وموجودة في أدنبرة - بريطانيا) يتحدث فيها الطبيب العربي في وضوح عن العملية القيصرية. فينطلق د. حداد من هذا النص ليدعو العلماء والباحثين العرب المعاصرين إلى البحث عن المزيد من الوثائق والمخطوطات العربية القديمة غير المعروفة حتى اليوم والمتناثرة هنا وهناك وهنالك.

وفي المقال الخامس: «مراجعة تاريخية في معالجة كسور الرضفة (Patella) بواسطة جراحة الـ Patellectomy (١٩٥٠) الذي كتبه بالتعاون مع فريد س. حداد يبرز المؤلفان – استناداً إلى مخطوطات موجودة في متحف دمشق – دور الجراح والطبيب العربي أبو القاسم الزهراوي في أسلوب معالجة كسور الرضفة، وهي العظم المتحرك في راس الركبة. كما يفندان زعم البعض ان الزهراوي نقل أسلوب المعالجة هذا عن الجراح الروماني القديم بولوس أجينيتا، فيستنتجان ان الجراحين العرب اكتشفوا هذه الطريقة لمعالجة كسور الرضفة قبل ٩٠٠ سنة من بدء تطبيق الجراحين الغربيين لها.

وفي المقال السادس والأخير يورد د. حداد لائحة بـ ٢٨ مخطوطة طبية عربية قديمة موجودة في مكتبة مستشفى «أوريانت». من بينها أقدم مخطوطة طبية عربية عرفت حتى اليوم وهو كتاب أحمد بن محمد ابن محمد المكنّى بإبن أبي الأشعث: «الغاذي والمغتذي» (موجودة في المتحف البريطاني أيضاً) ●

قبل ٢٥ سنة

ايمان نويهض

تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥٤

١ تشرين الثاني (نوفمبر):

● فارس الخوري يعرض حكومته السورية الجديدة على المجلس النيابي لنيل الثقة ويعلن في بيانه الوزاري عن أمله في الوصول إلى وحدة اقتصادية مع لبنان.

● الأمير عبد الاله، ولي العهد العراقي، يصل بيروت بزيارة خاصة.

٢ تشرين الثاني (نوفمبر):

● راديو القاهرة يطالب بانشاء قيادة موحدة للوطنيين في كل المغرب العربي.

● حالة توتر في برقة بليبيا تعود بالغالب إلى منازعات شخصية وسياسية.

٣ تشرين الثاني (نوفمبر):

● أكثر من ألف متظاهر يهتفون ضد حكومة فارس الخوري أمام دار البرلمان السوري.

٤ تشرين الثاني (نوفمبر):

● الأمير عبد الاله، ولي العهد العراقي، يعود إلى بغداد بعد زيارة لبيروت.

● اضراب عمال النسيج في حلب احتجاجاً على عدم تنفيذ قانون العمل.

٨ تشرين الثاني (نوفمبر):

● في بيانه الوزاري توفيق أبو الهدى رئيس الوزراء الأردني يعلن عزم الأردن على تغيير بنود المعاهدة البريطانية – الأردنية.

● وزير الدفاع الليبي يصل القاهرة.

٩ تشرين الثاني (نوفمبر):

● القاهرة تذيع خبر «مؤامرة انقلابية» فاشلة في سوريا.

١٠ تشرين الثاني (نوفمبر):

● الحكومة الليبية تطلب من فرنسا سحب جيوشها من منطقة فزان.

● المجلس النيابي السوري يرسل رسالةاحتجاج إلى الجمعية العمومية الفرنسية لاضطهادهم الوطنيين في الجزائر.

١١ تشرين الثاني (نوفمبر):

● مجلس الأمن يؤجل دراسة قضية الباخرة الاسرائيلية «بات غاليم» المحتجزة لدى مصر.

١٢ تشرين الثاني (نوفمبر):

● عقد مؤتمر عربي في نيويورك لبحث تحركات اسرائيل في القدس.

● الملك سعود، ملك العربية السعودية، يستقبل ايفيلين شاكبورغ الوكيل المساعد لشؤون الشرق الأوسط في وزارة الخارجية البريطانية في جولة له على البلاد العربية.

● الحكومة العراقية تعلن عدم ممانعتها لنقل خط أنابيب كركوك – حيفا إلى صيدا.

● دعوة رسمية للرئيس اللبناني كميل شمعون لزيارة ايطاليا.

● اسماعيل الأزهري يزور أوروبا الغربية.

١٣ تشرين الثاني (نوفمبر):

● الحكومة الأردنية تقرر ترشيح الاستاذ عزمي النشاشيبي أميناً عاماً مساعداً للجامعة العربية.

● اقتراح من المجلس البلدي في القدس باعتبارها عاصمة للملكة الأردنية.

١٤ تشرين الثاني (نوفمبر):

● اعادة العلاقات الدبلوماسية بين العربية ـ السعودية والمانيا الغربية.

١٥ تشرين الثاني (نوفمبر):

● اسماعيل الأزهري، رئيس الوزراء السوداني، يعلن أسفه لإقالة محمد نجيب.



اسماعيل الأزهري

● افتتاح الدورة البرلمانية الثانية للبرلمان السوداني.

● إلغاء امتياز شركة البترول الأردنية للتنقيب عن النفط المنبثقة عن شركة نفط العراق.

١٦ تشرين الثاني (نوفمبر):

● بدء محاكمة يوسف طلعت مسؤول الجهاز السري لجماعة الاخوان في مصر بعد اعتقاله البارحة.

١٧ تشرين الثاني (نوفمبر):

● بدء محاكمة الرئيس السوري السابق أديب الشيشكلي غيابياً بتهمة التآمر على قتل رقيب في الجيش السوري.

● تشكيل هيئة نيابة عن الملك العراقي فيصل خلال زيارته للأردن ولبنان.

١٨ تشرين الثاني (نوفمبر):

● حسن الهضيبي، المرشد العام للاخوان، يتمصل من أعمال العنف التي قام بها الجهاز السري، واعتقال سيد قطب عضو مكتب الأرشاد في الجماعة.

١٩ تشرين الثاني (نوفمبر):

● مصرع ٢٣ مجاهداً تونسياً وجندي وضابط فرنسيين في معركة جنوب شرق تونس.

● رئيس أركان حرب القوات البريطانية الفيلد مارشال سيرجون هاردنغ يصل إلى عمان.

● اشتباكات في الدار البيضاء خلال تظاهرات التأييد لمحمد بن يوسف السلطان المخلوع.



جمال عبد الناصر

● الرئيس الوزراء اللبناني السابق صائب سلام يصل القاهرة ويجتمع بعبد الناصر وصلاح سالم.

٢٠ تشرين الثاني (نوفمبر):

● لجنة الميزانية التابعة للأمم المتحدة تقر ترجمة الوثائق الرسمية إلى اللغة العربية.

● وصول ايفلين شاكبورغ إلى عمان بعد زيارة بغداد ودمشق.

٢٣ تشرين الثاني (نوفمبر):

● الطائرات الفرنسية تغير على الثوار في الجزائر.

٢٤ تشرين الثاني (نوفمبر):

● القيادة الجوية البريطانية في السويس تنتقل إلى قبرص.

٢٥ تشرين الثاني (نوفمبر):

● اعتقال سليمان النابلسي، سفير الأردن السابق في لندن، بتهمة اثارة المظاهرات خلال المعركة الانتخابية الأخيرة.

● والي اسطمبول ورئيس بلديتها فخر الدين كريم فوكاي يصل إلى بغداد.

● محاكمة محي الدين السنوسي تبدأ في ليبيا.

٢٨ تشرين الثاني (نوفمبر):

● أنباء عن خطة أردنية لاعتبار القدس عاصمة للمملكة الأردنية الهاشمية.

قيل منذ ٢٥ سنة

«ان قضية العلاقات بين اسرائيل والعرب هي أهم مشكلة في الشرق الأوسط وقضية كهذه لا تحل بمجرد ضربة قلم على ورقته.».

اللورد انطوني ناتنغ
(مجلس العموم)

«حان الوقت لنقول للمسيحيين والمسلمين بكل جرأة واخلاص بأن لبنان ليس لكم وحدكم، دينكم في معابدكم أما الوطن فهو للجميع. لقد حان الوقت لنقضي على الطائفية فلا تبقى مراكز معينة في أيدي فئة من الناس لأن عددها أكثر من غيرها.».

كمال جنبلاط
(المجلس النيابي)

«لا يمكن أن نقبل الدخول في أحلاف غربية أو اقامة دفاع بأي صورة من الصور مع الغرب لأنه سيمضي وقت قد يطول حتى تبنى الثقة بين العرب والغرب..».

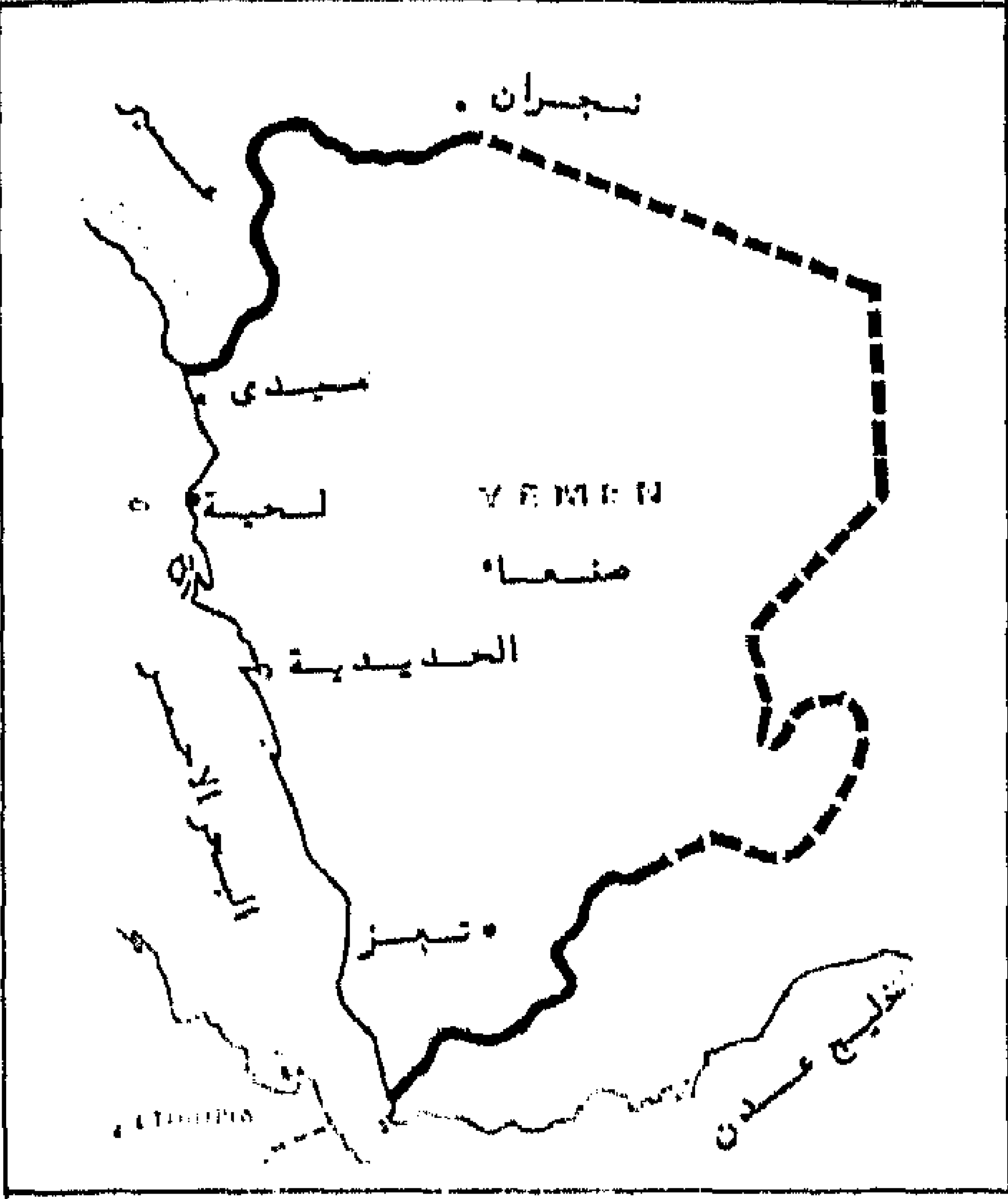
صلاح سالم
(حديث اذاعي)

«اعتقد انه إذا سمح للاجئين العرب بالعودة إلى أوطانهم والحياة في نوع من الكانتونات فانهم سيستطيعون العيش مع اليهود في فلسطين في سلام ووئام».

(د. فاضل الجمالي
(رئيس الوفد العراقي
في الأمم المتحدة).

معاهدة الطائف ١٩٣٤

سعيد كريديّه



● وصف أهالي الحجاز البلاد التي تقع جنوبهم وشمالهم وصفاً مناخياً. فعندما كانت الطيور تتجه شمالاً كانت أمطار الشتاء نادرة، وإذا اتجهت جنوباً كانت الامطار وفيرة، والأمطار مقدسة لبلاد صحراوية قاحلة مثل شبه الجزيرة العربية، لذلك كانوا يتشاءمون من اتجاه الطيور شمالاً فسميت البلاد شمال الحجاز بالشآم أي الشؤم وتطورت وأصبحت الشام. أما طيور الجنوب فكانت تبشر بالامطار لذلك سموا المنطقة جنوب الجزيرة العربية باليمن أي السعادة وأصبحت تعرف فيما بعد باليمن.

كانت اليمن تختلف عن باقي أقسام الجزيرة العربية أرضاً ومناخاً ونباتاً حتى قيل عنها أنها البلد السعيد. فقد قال عنها محمد رفعت وزير المعارف المصري السابق في كتابه التوجه السياسي للفكرة العربية الحديثة: «وصف الجغرافيون القدماء بلاد اليمن بأنها أرض العرب السعيدة، وذلك مما تميزت به عن سائر أقسام شبه الجزيرة سواء منها الصخرية أو الصحراوية من خصب ونماء، وجو معتدل صيفاً وشتاء وخاصة في الأجزاء المرتفعة منها والتي يصل ارتفاعها إلى أكثر من عشرة آلاف قدم ومن أمطار موسمية تهطل في فصل الخريف فينمو العشب والكلأ وترعى الأبل والماشية وتورق شجيرات البن على سفوح المرتفعات وتينع أشجار الفاكهة فيصيب الأهلون من كل ذلك ثمراً ورزقاً كبيراً. ومع ما أسبغته الطبيعة على اليمن من نعم وخيرات — وقد يكون لهذا السبب نفسه — قد ظل بمعزلٍ عن سائر الأمم والشعوب فيما عدا ما كانت تمارسه موانئه الساحلية من تجارة ومعاملات خارج اليمن حتى كان في عزلته عن العالم شبيهاً بعزلة بلاد التبت في قلب آسيا في الماضي».

ظلت هذه البلاد السعيدة مرتمية بأحضان عزلتها محتفظة بكيانها وسلامتها لقرون عدة. إلى أن شقت قناة السويس وأصبح للبحر الأحمر قيمة في عالم المواصلات وعز في دنيا الملاحة. وبحكم موقع اليمن على هذا الشريان المالي الحيوي، كانت هذه البلاد معه في السراء والضراء. وقد شهد مطلع القرن العشرين تطورات هامة في مجرى حياة اليمن جعلها تخوض حروباً ضروسة مع جيرانها وخاصة مع اخوانها في اللغة والدين. وكم هي مريرة تلك الحروب بين

الأخوة إذ قال عنها الشاعر:

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة

على القلب من وقع الحسام المهند

وذوو القربى هم السعوديون. وتفسير ذلك أنه وقع خلاف بين اليمن والسعودية بعد أن ضمت الأخيرة أرض الأدارسة في العسير اليها. وكان الأمام يحيى إمام اليمن يعتبر نفسه أولى بضمها. ولما قامت ثورة العسير عام ١٩٣٢ ضد السعوديين كان رجال اليمن أول من أشعل نارها. فلما تصدى السعوديون للثورة فرّ زعماؤها إلى اليمن لائذين بإمامها على أثر ذلك توترت العلاقات وأخذ الجانبان يستعدان للحرب. كان جوهر الخلاف منحصراً في امتلاك واحة نجران شمالي اليمن وفي احتلال الجزء الجنوبي من أراضي العسير.

كان الامام يحيى قد أرسل قوة لتحتل واحة نجران عام ١٩٣٢ لكنها طردت من قبل السعوديين وضموها نهائياً اليهم. أما القسم الجنوبي من العسير فأراد ابن سعود ملك السعودية أن يحل مشكلته بلغة الحوار بدل لغة السلاح. لكن تصلب رأي إمام اليمن حال دون نجاح أي مفاوضات وجدير بالذكر أن خلافاً مذهبياً كان قائماً بين الطرفين فحين كان السعوديون وهابيين كان أكثر من ٥٥٪ من اليمنيين يدينون بالمذهب اليزيدي الشيعي.

وأخيراً قامت الحرب في نيسان ١٩٣٤ ولم تمضِ ثلاثة أسابيع حتى كان الجيش السعودي قد احتل مدينة لحية وميناء الحديدية وبات يهدد صنعاء العاصمة. أما بريطانيا وفرنسا وايطاليا، الدول العظمى آنذاك فقد أوقفت كل منها قطعاً من أساطيلها أمام ميناء الحديدية تراقب ما قد يحصل بين المتحاربين. إزاء هذه التطورات تحركت وفود عربية إلى السعودية لحل نزاع الأخوة. وقد أثمرت الجهود التي بذلت إلى عقد معاهدة الطائف عام ١٩٣٤ أطلق عليها معاهدة صداقة اسلامية وأخوة عربية. أهم نصوص هذه المعاهدة:

١ - تنتهي حالة الحرب القائمة بين المملكة العربية السعودية والمملكة اليمانية بمجرد التوقيع على هذه المعاهدة.

٢ - يعترف كل من الفريقين الساميين المتعاقدين للآخر باستقلال كل من المملكتين استقلالاً تاماً ومطلقاً وبملكيته عليها.

٣ - خط الحدود الذي يفصل بين بلاد كل من الفريقين الساميين المتعاقدين موضح بالتفصيل الكافي فيما يلي ويعتبر هذا الخط حداً فاصلاً قطعياً بين البلاد التي تخضع لكل منهما:

يبدأ خط الحدود [أنظر الخريطة] بين المملكتين اعتباراً من النقطة الفاصلة بين ميدي والموسم على ساحل البحر الأحمر إلى جبال تهامة في الجهة الشرقية ثم يرجع شمالاً إلى أن ينتهي إلى الحدود الغربية الشمالية. ثم ينحرف إلى جهة الشرق. ثم ينحرف إلى أن يبلغ مضيق مروان وعقبه ثم ينحرف إلى جهة الشرق.

٤ - يتعهد كل فريق بسحب جنده فوراً عن البلاد التي أصبحت بموجب هذه المعاهدة تابعة للفريق الآخر.

٥ - يتعهد كل فريق تعهداً متقابلاً بأن يمتنعا عن الرجوع للقوة لحل المشكلات بينهما.

وهكذا نرى أن صراع الأخوة لا يدوم مهما أحتد وإشتد إذ أن الروابط التي تربط الطرفين أقوى بكثير من الخلافات المادية التي تحاول تفريقهم. ●

المراجع

المختار. صلاح الدين: تاريخ المملكة العربية السعودية.

الواسعي. عبد الواحد: تاريخ اليمن.

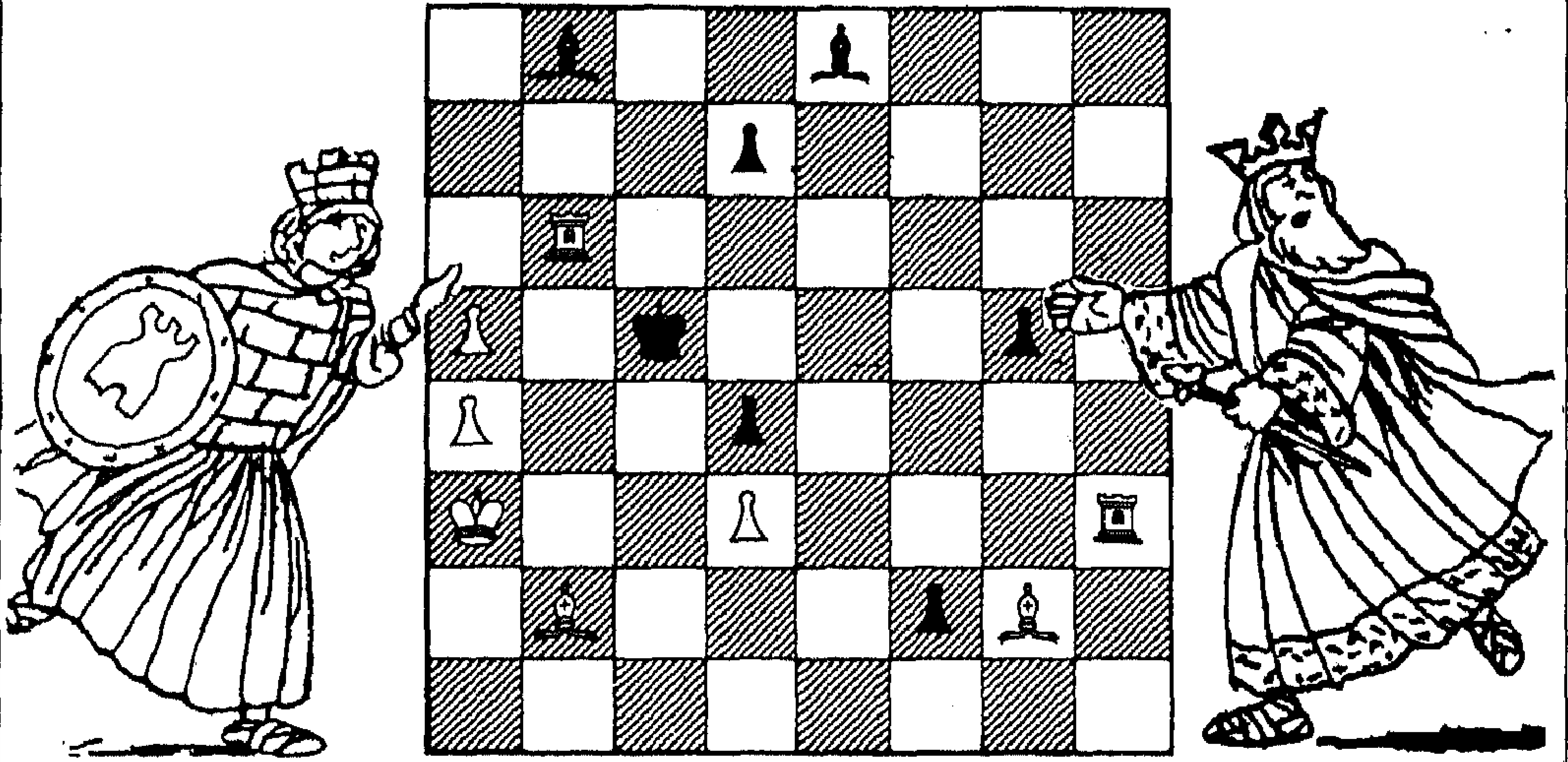
الثور. عبد الله: هذه اليمن: الأرض والانسان والتاريخ.

رفعت. محمد: التوجه السياسي للفكرة العربية الحديثة.

تاريخ الشطرنج

محمد مراد سكّر

التعديلات في الشطرنج عبر تاريخه



يعتبر القرن الخامس عشر، عهد النهضة والتجديد، وكان لاختراع الطباعة في ذلك القرن، الفضل الأول في تركيز الشطرنج ووضع القواعد له. إذ حددت في هذا القرن طريقة انتقال الفيل والوزير كما أوجد التبييت، ولم يكن يعرف قبل ذلك، كما سمح للبيدق الذي يصل إلى الخانة الثامنة ان يتحول إلى أية قطعة يريدها اللاعب (ولم يكن يسمح له بالماضي إلا أن يتحول إلى وزير). وقد تم تعديل طريقة تنقل الفيل والوزير في أواخر القرن الخامس عشر، وأصبحت كما هي معروفة اليوم، ويظن فان ديرلاند ان هذا التعديل تم في فرنسا. لأن الشطرنج كان منتشراً في ذلك الوقت في فرنسا أكثر من أي بلد آخر، بينما فان درلاسا يعتقد ان هذا التعديل يرجع إلى سنة ١٤٧٥م. ويعود الفضل إلى اسبانيا. وقد انتشر التعديل الجديد بسرعة حتى نسي الكثيرون الشكل القديم. وكان الفيل في الماضي يقفز من مكانه شأن الحصان

وبالتدريج ألغي ذلك وأصبح ينتقل عمودياً كما هو معروف اليوم. وكذلك الوزير (الفرز فيما مضى) وهذا التعديل جعل اللاعبين يتركون القاعدة العربية القديمة التي كانت تعتبر ألبات كالمات. ثم جرى التعديل النهائي عند وضع التبييت، وكان ذلك ثالثة الأثافي في التجديد، وبعد ذلك لم يطرأ على قوانين اللعبة أي تجديد سوى السماح للبيدق الذي يصل إلى الخانة الثامنة من أن يصبح أية قطعة يريدها اللاعب كما أسلفنا. وكان الرخ عند العرب أقوى القطع اطلاقاً فأصبح الوزير بعد هذه التعديلات أهم القطع كما نعرف اليوم.

بعد هذه التعديلات الجذرية، برز في الشطرنج جماله المعروف اليوم، وأخذ اللاعبون يرون فيه تسلية كبيرة، فبدأوا بكتابة الأدوار وحفظها.

ولعل أقدم مخطوطة ذكرت القواعد الجديدة هي مخطوطة فلورنسا، وهي مخطوطة ايطالية من القرن الخامس عشر. وفيها عدة مسائل شطرنجية، وأتى بعدها في سنة ١٤٩٧ م كتاب ايطالي، وهو أول كتاب طبع عن الشطرنج، ألفه لوسينا وهو ابن موظف كبير في أراغون سافر كثيراً إلى ايطاليا وفرنسا، والكتاب هذا يشرح القواعد الجديدة بالاضافة إلى ١٥٠ صورة لرقعة الشطرنج في أوضاع مختلفة وأحد عشر استهلالا لجولات لعبت. وظهر بعد هذا الكتاب مخطوطة كوتنغ وهي أيضاً على ما يظهر للوسينا نفسه وفيها ثلاثون مسألة واثنا عشر استهلالاً جديداً لجولات لعبت. وكان التبييت كما ظهر في هذه المخطوطة يجرى على نقلتين، ينقل الرخ قرب الشاه ثم يقفز الشاه في نقلة أخرى خلف الرخ، أما التبييت الطويل فيجري في ثلاث نقلات. هذه المخطوطة نفيسة جداً لأنها تحوي لأول مرة جولات كاملة لعبت في ذلك الوقت.

لم تتوقف النهضة بانتهاء القرن الخامس عشر بل تابعت تقدمها وكان أهم حدث في القرن السادس عشر كتاب داميانو الذي ظهر سنة ١٥١٢ م، وقد طبع هذا الكتاب في روما وأعيد طبعه مراراً فيما بعد كما ترجم في فرنسا وانكلترا خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر في المانيا. ويقسم الكتاب إلى عشرة فصول ويتبع الترقيم الوصفي المعروف حالياً، وقد اعتبر كأحسن كتاب عن الشطرنج ظهر في ذلك العصر. وداميانو كان صيدلياً من مواليد البرتغال. كما أقدم الشاعر اللاتيني مارك انطوان الذي دعي فيما بعد جبروم فيدا على نظم قصيدته المشهورة عن الشطرنج وهي مؤلفة من ٦٥٨ بيتاً وفيها وصف كامل شعري للعبة. نشرت قصيدته هذه لأول مرة سنة ١٥٢٥ والقصيدة على شكل قصة تقول: عند اعلان زواج المحيط مع الأرض، علم جوبيتير الشطرنج إلى الأولمبيين، ثم دعى أبولو ومركور للعب جولة، ثم يبدأ بشرح تفاصيل الجولة لصالح مركور الذي أخذ على عاتقه تعليم الرجال.

بعد نصف قرن من كتاب داميانو ظهر أول كتاب يتبع القواعد الجديدة ويهتم بالجولات الكاملة ألفه روي لوبيز الذي يعتبر بحق مؤسس القواعد التطبيقية والفنية في الشطرنج. نشر كتابه سنة ١٥٦١ في الكالا قرب مدريد ثم ترجمه إلى الايطالية بولبريو مع زيادة بعض الجولات ولكن الترجمة لم تطبع. كما ظهر كتاب آخر اسباني لفرنسيس فيسان سنة ١٤٩٥ في فالانسيا ولم يبق منه أية نسخة. ولوبيز هو واضع الجولة الأسبانية التي تدعى باسمه والتي يلعبها الكثيرون من الأساتذة اليوم. وقد لا تخلو مباراة دولية اليوم من عدة جولات اسبانية.

كان اللعب عند العرب صورة واضحة عن الحرب. تملأ المرء اعجاباً بفن العرب في هذه اللعبة. ولكن ترك العرب لها وانتقالها إلى أشخاص كانوا يحاولون ابتذاذ الأموال بها جعلها لا تحمل طابع الفن بقدر ما تحمل طابع الحيلة والخداع. ولكن كتاب لوبيز السابق الذكر أرجع لها الطابع القديم. فاستعاد الشطرنج في القرنين السادس والسابع عشر روحه النبيلة القديمة وعاد يمثل الحرب كما كان في السابق. وكان ذلك سبباً في انتشار الشطرنج في اسبانيا وايطاليا. كما كثر حماة هذه اللعبة بين الملوك والأثرياء أمثال الملك فيليب الثاني. دون فابريزيو. الملك سباستيان ملك البرتغال. دوق أوسينا. دوق أوربينو. البارون دي بيسكاري والبارون دي سيكيليانا وغيرهم. وهكذا أصبح الشطرنج التسلية المحببة للنبلاء الذين كانوا يحمون هؤلاء الأبطال ويهيئون لهم المباريات في قصورهم مما ساعد على انتشار الشطرنج والتعمق في قواعده فبرز في هذا العصر كثيرون جداً. منهم ليوناردو. بوا. سانتا ماريا. أفالوس. اسكوفارا مورو. سالفيو. كاريرا وكثيرون غيرهم بالاضافة طبعاً إلى لوبيز الذي كان يتمتع بعطف وحماية الملك فيليب الثاني.

القصة التالية التي نرويها عن أبطال ذلك العصر. تعطينا فكرة واضحة عن الشطرنج واهتمام الناس به في ذلك الزمان.

ليونارد شاب من مواليد كورتي، كان يدرس الحقوق في روما (١٥٧٢ - ١٥٨٥) أولع في الشطرنج وأخذ يتفوق على اللاعبين الرومان بسرعة عجيبة. وصادف أثناء دراسته ان حضر إلى روما في مهمة دينية من قبل الملك فيليب الثاني اللاعب الشهير لوبيز. وكان من الطبيعي أن يقابل لاعبي الشطرنج هناك. وأن يتغلب عليهم واحداً بعد الآخر بمن فيهم ليوناردو. ولكن الأخير وهو اللاعب الطموح، لم يعجبه ذلك. فانسحب إلى نابولي حيث بقي سنتين يدرس الشطرنج ويهيء نفسه لأخذ الثأر من لوبيز. في تلك الأثناء وصل إلى نابولي اللاعب المشهور باولو بوي المعروف بالسراقسي من مواليد ١٥٢٨ من عائلة نبيلة وغنية، عرف بذكائه الحاد وبنجاحه كرجل أدب. ولكنه كان ذا موهبة عظيمة في الشطرنج إذ كان يستطيع أن يلاعب ثلاثة لاعبين بالتتابع في وقت واحد وهو مغمض العينين بينما يتابع مناقشة مع المتفرجين في أي موضوع آخر. وتبارز الاثنان في سلسلة من المقابلات انتهت كلها بدون نتيجة. وفي صباح يوم كان عليه أن يتابع اللعب مع باولو بوا، قرر ليوناردو أن يسافر إلى اسبانيا لمقابلة لوبيز تحقيقاً لحلمه. وهكذا ترك نابولي دون سابق انذار تاركاً بوا يتابع جولاته بنجاح ضد أحسن اللاعبين.

وفي برشلونة، التقي ليونارد بأحسن اللاعبين المعروفين في ذلك الوقت، توماس كابيتو، وجيوفياني رودريكز. فاتفق الثلاثة أن يربحوا المال بطريقة غير شريفة ضد لاعب رابع يدعى موسياسو وذلك بأن يخفي ليوناردو قوته الحقيقية حتى يجر موسياسو ليلعب بمبالغ باهظة.

ووصل اللاعبون الثلاثة إلى مدريد حيث يقطن لوبيز، الذي كان يتمتع كما اسلفنا بحب الملك فيليب الثاني. ولم يعرف لوبيز ليوناردو فتحرش به، فقبل الأخير شرط أن يدفع المغلوب ٥٠ سيكودي أي ما يقابل ٢٥٠ فرنكاً كل جولة، وتعادل الاثنان في الجولة الأولى. ولكن ليوناردو ربح الثانية مما أدهش جميع الحاضرين الذين لم يكونوا يعرفون ليوناردو على حقيقته. فعلم بالأمر الفونسو شيرون الخصم الدائم للوبيز، وهو يماثله قوة. فحضر على الفور من غرناطة. وبدأ الثلاثة باللعب. ولكن تفوق ليوناردو كان ظاهراً في كل مرة.

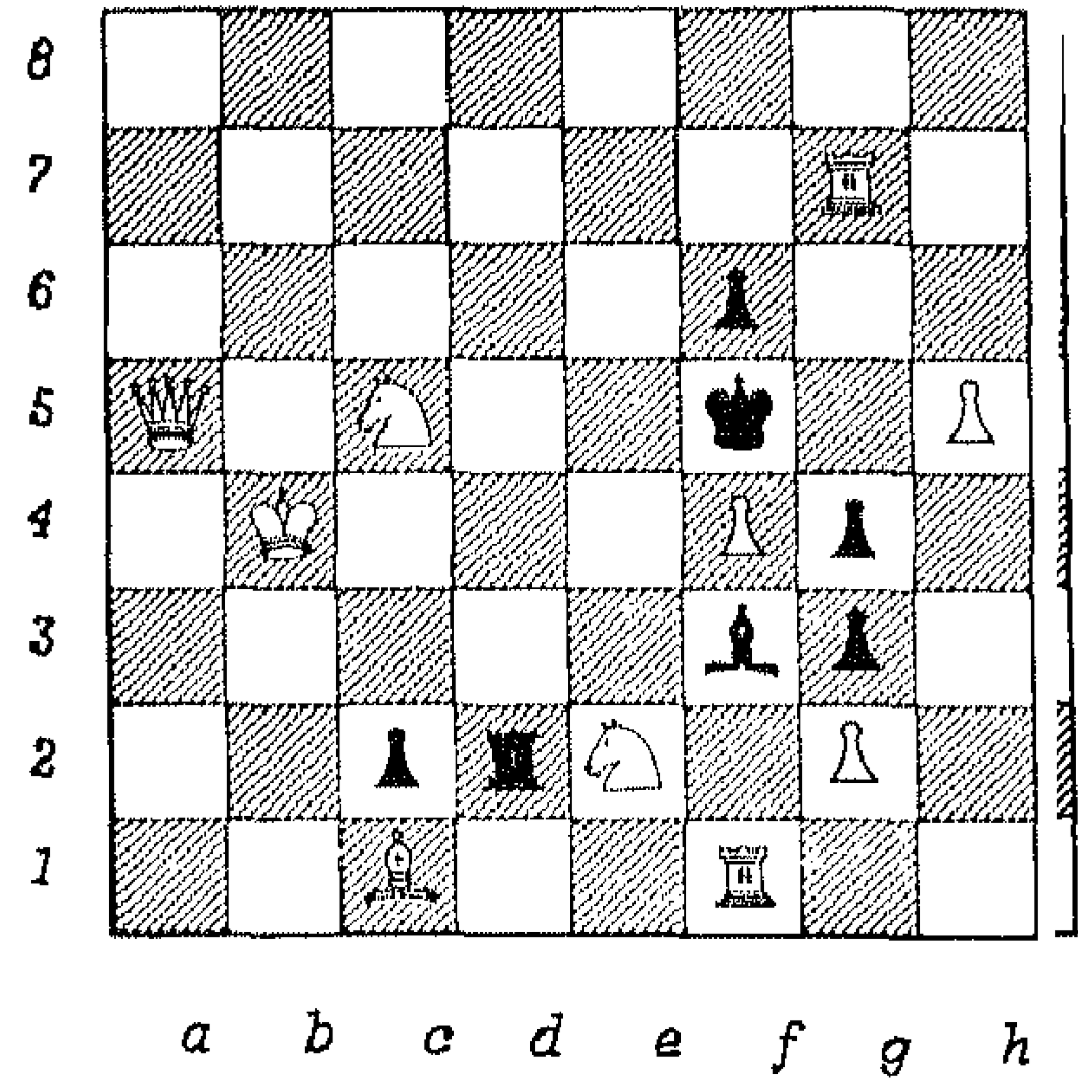
وعلم باولو بالأمر. وبالحظوة التي ينالها اللاعبون الثلاثة في مدريد من قبل الملك والنبلاء فتوجه على الفور إلى مدريد. ولكن القراصنة أوقفوه على الطريق وحجزوه في الجزائر مدة من الزمن. وما ان استعاد حريته حتى تابع سفره إلى مدريد في وقت كان ليوناردو يلعب مع شيرون. وبدون أن يلقي أية كلمة جلس بين المتفرجين. فلما انتهت الجولة رآه ليوناردو وتعرف إليه وقدمه للحاضرين معلناً عن رغبة مواطنه بمقارنة قوته في الشطرنج معه. فتقرر أن يلتقي الاثنان في اليوم التالي. ولكن ليوناردو اضطر ان يترك مدريد في المساء بعد أن تلقى نبأ وفاة زوجته. فلعب بوا مع شيرون ولوبيز وتغلب عليهما. ولما رجع ليوناردو بعد عدة أشهر إلى مدريد تقرر أن يلتقي البطلان.

بقي البطلان في اليومين الأولين متعادلين بدون أن تعرف النتيجة ولكن ليوناردو خرج ظافراً في اليوم الثالث تاركاً خصمه في حالة يائسة جعلته يغادر مدريد. ترى هل نستطيع ان نعتبر هذه السلسلة من المباريات أول دورة عالمية للشطرنج. قد يكون ذلك. وعلى كل حال فقد صنفت هذه المباريات اللاعبين في ذلك العصر ووضعت ليوناردو في الطليعة كأحسن لاعب في العالم.

بعد أيام من سفر بوا، غادر ليوناردو بدوره مدريد عائداً إلى نابولي حيث التقى كثيراً ببوا ثم رجع إلى بلدته كورتي حيث توفي مسموماً في قصر الأمير بيزينيونو وكان يبلغ الخامسة والأربعين. وتابع باولو بوا تنقلاته، ولعب كثيراً مع سيباستيان ملك البرتغال الذي كان يحب الشطرنج، ثم زار هنغاريا ونازل الاتراك الذين كانوا يلعبون بسهولة وهم على ظهر حصان ودون أن يروا الرقعة. ثم انقطعت أخباره مدة عشرين سنة حتى رجع إلى صقلية، وكان هناك يكثر من الانتقال من مدينة إلى أخرى وقضى أيامه الأخيرة في قصر الدوق أوربينو الذي كان يقدم له راتباً دائماً. توفي باولو سنة ١٥٩٨ وكان يبلغ من العمر سبعين عاماً. واختلف الرواة في موته، فمنهم من قال انه مات مسموماً من قبل خادمه وآخرون قالوا انه توفي على أثر نوبة قلبية.

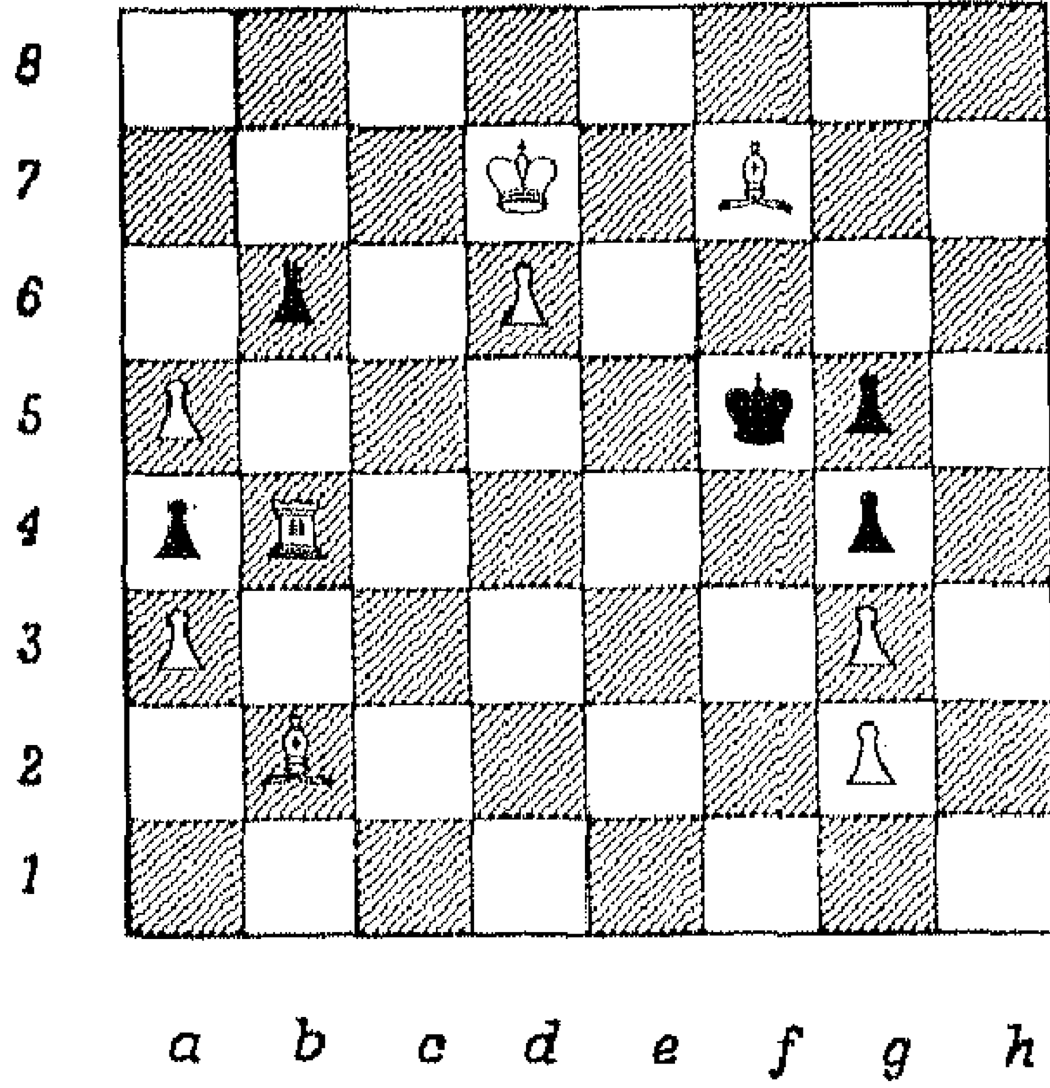
●

المسألة رقم ٢٥ مات بنقلتين



مسابقة العدد

المسألة رقم ٢٦ مات بثلاث نقلات



حل المسائل المنشورة في العدد السابق :

المسألة رقم ٢٣ : المفتاح : I: DXf7

المسألة رقم ٢٤ : المفتاح : I - Dç2

يهدد الأبيض بنقل الوزير إلى ç3

الامكانية الأولى : الأسود ينقل الرخ إلى (e6) فيجيب الأبيض بنقل الحصان إلى (e5).
الامكانية الثانية : الأسود ينقل الرخ إلى (f7) فيجيب الأبيض بنقل الحصان إلى (d2) النقلة الثالثة الرابحة واضحة جداً.

رسائل القراء

● السيد مجيد حبيب أبي راشد.

أشكر لك ولرفاقك عواطفكم النبيلة، اننا نحاول في هذه المجلة سد نقص ما يُكتب باللغة العربية عن الشطرنج وتاريخه، منذ أن توقف العرب عن كتابة الشطرنج – وقد كثر التعليق على الجولات الحديثة في الأيام الأخيرة أما الذين يحاولون نبش التاريخ القديم فلا يزالون، لذا أرجو أن أكون قد استطعت بهذه المقالات سدّ قسم من هذا الفراغ.

أما الاجابة على المسائل، فتجده وأصدقاءك في مكان آخر وشكراً لكم.

إلغاء الجوائز :

لتعذّر وصول البريد في الوقت المحدد لكل مسابقة رأينا أن نكتفي بنشر المسائل وحجب الجوائز، وذلك مؤقتاً واستعداداً لبرنامج مسابقات أفضل وأغنى.

تاريخ الطوابع

ميشال اسطفان

تونس

● دولة في افريقيا الشمالية على شاطئ المتوسط، مساحتها ١٢٥١٣٠ كلم مربع، وعدد سكانها نحو ٤٧٠٠٠٠٠، عاصمتها تونس. أهم مدنها صفاقص وسوسه والقيروان وسبيطلة وقابس وطبرقة وبنزرت والحمامات والمهدية ومنزل بورقيبة.

خلال الالف سنة الأخيرة قبل المسيح كانت شواطئ تونس مسرحاً لشتى الشعوب القادمة بحراً. وخصوصاً الفينيقيين الذين أسَّسوا فيها مدينة قرطاجة سنة ٨١٤ ق.م. فبسطت نفوذها على ما جاورها من المناطق والمستعمرات الفينيقية وغيرها في تونس وفي مضيق صقلية وجوارها. إلى أن سقطت سنة ١٤٦ ق.م. بيد الرومان. ورغم ان سكان البلاد الاصليين دافعوا الرومان عن الاستقرار والتوغل داخل البلاد حتى سنة ١٠٥ ق.م. استطاع هؤلاء أخيراً فرض سلطتهم، فصارت تونس اهراءً لروما تمدُّها بالحنطة والزيت والخمر. وانتشرت فيها المسيحية وازدهرت إلى أن غزاها الفندال القادمون من الغرب سنة ٤٣٩ إلى ٥٣٣م. ثم البيزنطيون سنة ٥٣٣ إلى ٦٤٧م. الا أن كلا الفريقين لم تستقر أوضاعه فيها بسبب الثورات المتتابعة التي كان يقوم بها التونسيون ضد الغرباء.

وفتح المسلمون تونس بقيادة عبد الله بن أبي سرح سنة ٦٤٧ وحكمها عقبة بن نافع سنة ٦٧٠ الذي قاد حملة توسعية في افريقيا ثم اقام في القيروان.

لا الرومانية ولا النصرانية اللتان سادتا في البلاد فترةً من الزمن استطاعتا أن تدخلا إلى الاعماق. ولا أن تتوغلا في ارياف البلاد ومختلف مناطقها. لذلك لم تلبث أن عفتهما الايام مع تقلب الاحكام. أما الفتح الجديد باسم الخليفة الاموي الذي حمل معه العروبة والاسلام فقد ادخلها المدن وادخلها الارياف وتوغل بهما في داخل افريقيا. فاستعربت وأسلمت قبائل البربر كما استعرب وأسلم سكان المدن.

كان الحكم باسم الخليفة الأموي في دمشق. ثم باسم الخليفة العباسي في بغداد. ثم باسم الخليفة الفاطمي في مصر. وصارت القيروان ليست عاصمة تونس فحسب. بل عاصمة شمالي افريقيا العربية المسلمة.

إلاّ أنه توقف الدعاء للخليفة الفاطمي في نحو سنة ١٠٤٨ ليقوم محله حكم محلي. عقبه ثورة الهلاليين التي خربت القيروان. ثم ثورات أخرى جانبية. فتمزقت البلاد إلى دويلات متناحرة. وهذا أطمع بها الصقليين فاحتل روجر الثاني مدينة جربا سنة ١١٣٤ ومدينة المهدية سنة ١١٤٨ الخ. فانبرى لوقف هذا الاجتياح سلطان الموحدين في المغرب. مولاي عبد المؤمن وطرد النورمان في سنتي ١١٥٩/١١٦٠. وجعل مركز الحكم في مدينة تونس. وصارت تونس تعني افريقيا.

اقام سلطان الموحدين نائباً له في تونس. هو أبو محمد مؤسس السلالة الحفصية التي وطدت في تونس اركان مملكة مستقلة استمرت من سنة ١٢٢٨ إلى ١٥٧٤ دون أن تخرج عن علاقتها بالموحدين التي كانت تقتصر على دفع نوع من الضريبة السنوية إلى أن زال حكم الموحدين سنة ١٢٦٩.

وكان لهذه المملكة جيش قوي احتلَّ الجزائر سنة ١٢٣٥ وتلمسان ١٢٤٢. وأمن للدولة أقصى مدى من التوسع. الاّ أن ثورات القبائل وخصوصاً قبيلة بني سليم اضعفت السلطة. ثم انهكتها النزاعات الداخلية على الخلافة. فاطمعت بها المرينيين من المغرب. فاحتلوها سنة ١٣٤٧ واعادوا اليها وحدتها وازدهارها.

وفي القرن السادس عشر. احتل تونس خير الدين بربروس (١٥٣٤) للسيطرة على مضيق

صقلية، فاستنجد الحفصيون بشارل كانت، فاحتل العاصمة سنة ١٥٣٥، فسبب هذا تدخل القراصنة الاتراك من جهة وباشا الجزائر من جهة أخرى، فاحتلّ بعض منها، ثم لم تلبث أن اصبحت البلاد التونسية من املاك السلطنة العثمانية سنة ١٥٧٤ يحكمها مندوب عنها يستقل في احكامه. فتأسست السلالة المرادية سنة ١٦١٢ ثم سلالة حسين بن علي سنة ١٧٠٥.

كان الازدهار التجاري ثم الزراعي المجال الأول الذي اتاح للاجانب أن يدخلوا البلاد، ثم أن يتدخلوا في الشؤون المالية ثم السياسية، ثم مختلف المرافق. وكانت الدول التي تزدحم مصالحها هناك هي انجلترا وفرنسا، وايطاليا. فأبعدت انجلترا باعطائها حرية التصرف بقبرص بموجب مؤتمر برلين سنة ١٨٧٨، أما الايطاليون فلم يستطيعوا الوقوف أمام الفرنسيين المتمركزين في الجزائر الذين استطاعوا أن يحصلوا على دعوة من محمد الصدوق (١٨٥٩–١٨٨٢) لعدد من الخبراء لتنظيم وتحديث مختلف مرافق البلاد، ثم تذرعت ببعض المزاعم فقررت غزو تونس سنة ١٨٨١، مما حمل محمد الصدوق على تسلم السلطة الخارجية إلى مقيم فرنسي يكون مسؤولاً عن الديبلوماسية التونسية وعن الجيش (معاهدة باردو في ٢ نيسان/ابريل سنة ١٨٨١). وقامت ثورة في البلاد على أثر ذلك قضى عليها الفرنسيون بالقوة وفرضوا على الباي الجديد علي بن حسين (١٨٨٢–١٩٠٢) ان يوقع معهم اتفاقية ١٨٨٣ التي تعترف بالانتداب على البلاد. وهذا معناه ان السلطة اصبحت في الظاهر محلية وفي الحقيقة يديرها الفرنسيون، الاّ أن الايطاليين المقيمين استطاعوا بواسطة اتفاقية ١٨٩٦ ان يحتفظوا بالجنسية الايطالية. ولم تُلغَ امتيازاتهم الاّ خلال الحرب العظمى الثانية.

لم يستتب الأمر طوال الوقت للفرنسيين لان ثورات الشعب ضدهم كانت متتابعة. صحيح أن الفوز كان يحالفهم لكن الخسائر كانت كبيرة والنتائج غير حاسمة. من ذلك حركات سنة ١٩٠٧ و١٩١١ و١٩٢٠ و١٩٣٣ التي تولاّها الحبيب بورقيبة. ثم الاحداث الدامية التي ادت إلى اعتقال صلاح بن يوسف وتعليق الدستور سنة ١٩٣٨.

ووقعت الحرب العظمى الثانية فأتسع المجال أمام الزعماء التونسيين للعمل. أخصُّ ذلك قيام الحبيب بورقيبة، تسانده جامعة الدول العربية بانشاء مكتب المغرب في القاهرة سنة ١٩٤٧. وقيام حزب الاتحاد العام للعمال التونسيين سنة ١٩٤٨. والحصول على بعض التنازلات من المقيم الفرنسي. فألف الباي حكومة دخلها صلاح بن يوسف (١٩٥٠) وصارت تجتمع بدون حضور المقيم الفرنسي وحصلت بعض التعديلات الجزئية في الدستور. الاّ أن قرار فرنسا المتشدّد في تحديد علاقاتها بتونس سنة ١٩٥١. أوجب اعلان الدستور الجديد بوجه الفرنسيين. فالقوا القبض على بورقيبة ورفقائه (١٩٥٢). لكن الفرنسيين اضطروا في النهاية إلى توقيع اتفاقية ١٩٥٥ مع طاهر ابن عماد التي تعترف للتونسيين بنوع من الاستقلال الذاتي وتستبقي للفرنسيين شيئاً من السلطة. الاّ أن الزعماء التونسيين لم يقبلوا بهذه الاتفاقية. وكانت الاوضاع العامة من جهة. واعطاء المغرب استقلالها من جهة أخرى. ووحدة الشعب التونسي بعزم وتصميم. أسباباً توجب على فرنسا الاعتراف باستقلال تونس. فكان ذلك في ٢٠ آذار/مارس سنة ١٩٥٦.

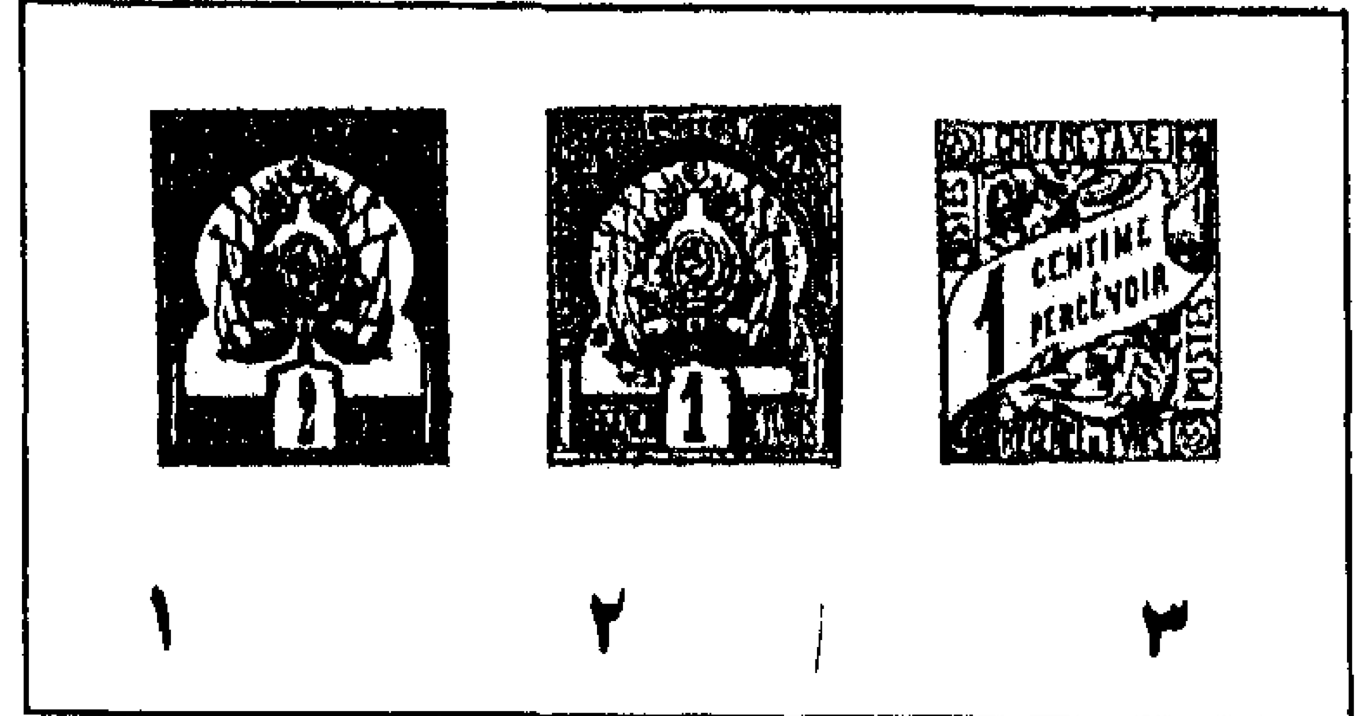
تسلّم السلطة الحبيب بورقيبة، فوطد الأمور الداخلية. وقضى على مختلف المتناقضات. وأوجد في الحكم الكثير من روح التجدد والانفتاح والتطور.

تاريخ الطوابع

بدأ استعمال الطوابع في تونس في عهد الحماية أو الانتداب الفرنسي. وكانت المكاتب البريدية الفرنسية قد افتتحت مكاتب بريد في مدينة تونس وفم الواد (LA GOULETTE) قبل سنة ١٨٨٨. وكانت تستعمل الطوابع الفرنسية. ولكن بخاتم خاص يحمل رقم (5107) لتونس ورقم (5121) لفم الواد. وكان هناك مكاتب بريد ايطالية ايضا في تونس وفمّ الواد وسوسه. تستعمل الطوابع الايطالية بارقام (235) و(3336) و(3364) بالتسلسل.

وفي أول تموز/يوليو سنة ١٨٨٨. باشرت المكاتب الفرنسية باصدار أول مجموعة مؤلفة من ثمانية طوابع من سنتيم واحد إلى ٥ فرنك. (صورة ١). قيمتها اليوم نحو ١٩٠ جنيهاً استرلينياً. ثم صدرت مجموعة من ١٣ طابعاً بتاريخ أول تشرين الأول/اكتوبر ١٨٨٨ أيضاً. (صورة ٢). قيمتها اليوم نحو ١٢٠ جنيهاً استرلينياً. ثم مجموعة ثالثة من سنة

طوابع من النموذج الثاني. ولكن بالوان مختلفة عن سابقتها. صدرت في كانون الثاني/يناير ١٨٩٩. قيمتها اليوم نحو ٥٥ جنيهاً استرلينياً. وفي أول نيسان/ابريل ١٩٠١. صدرت مجموعة للاجور المستحقة من عشرة



طوابع. (صورة ٣). قيمتها اليوم نحو ١٥ جنيهاً استرلينياً فقط. والجدير بالذكر أن جميع هذه الطوابع ولغاية سنة ١٩٠١. تعرف مخرمة بحرف (T) وهو أول حرف من كلمة (TAXE) وكانت تستعمل للاجور المستحقة.

ثم توالت الاصدارات المصورة العادية والجوية والطرود والتذكارية والاجور المستحقة. تحمل الصور المختلفة لمرافق البلاد من اثرية وزراعية ودينية وللمناسبات الوطنية والفرنسية. أسوة بباقي اصدارات المستعمرات. لغاية تموز/يوليو ١٩٥٥. وكان عددها ٨٨ مجموعة. جمعت ٤٩١ طابعاً.

وفي عهد الاستقلال الذاتي المحدود ما بين ١٥ تشرين الأول/اكتوبر ١٩٥٥ و١٧ آذار/مارس ١٩٥٦. صدرت مجموعة عادية وجوية ومجموعتان تذكاريتان لمناسبة المعرض العالمي الثالث في تونس. مؤلفة من ستة طوابع. وطابع واحد لمناسبة يوم الطابع. من فئة ١٢ + ٣ فرنك.

وفي ٨ نيسان/ابريل ١٩٥٦. صدرت مجموعة من ستة طوابع لمناسبة تأسيس الحكومة المستقلة. تلتها أربع مجموعات تذكارية. ليوم العمل. والانتاج التونسي. والذكرى الأولى للاستقلال. والمؤتمر الدولي الخامس لاتحاد النقابات التجارية الحرة. ومجموعة واحدة من ثمانية طوابع للاجور المستحقة.

وبعد أن اعلنت الجمهورية بتاريخ ٢٥ تموز/يوليو ١٩٥٧. صدرت ابتداء من ٨ آب/اغسطس مجموعات عدة عادية وتذكارية وبطاقات. وقد بلغ عددها ٤٣٦ طابعاً و٣١ بطاقة. تشكل ١٧٠ مجموعة. آخرها صدرت في ٢٧ حزيران/يونيو ١٩٧٧. ولا يسعنا أن نتغاضى عن ذكر المجموعة الأكثر عدداً. وهي عادية صدرت سنة ١٩٥٩/٦١. وعدد طوابعها ٢٨ طابعاً. (صورة بعض النماذج ٤.٥.٦).

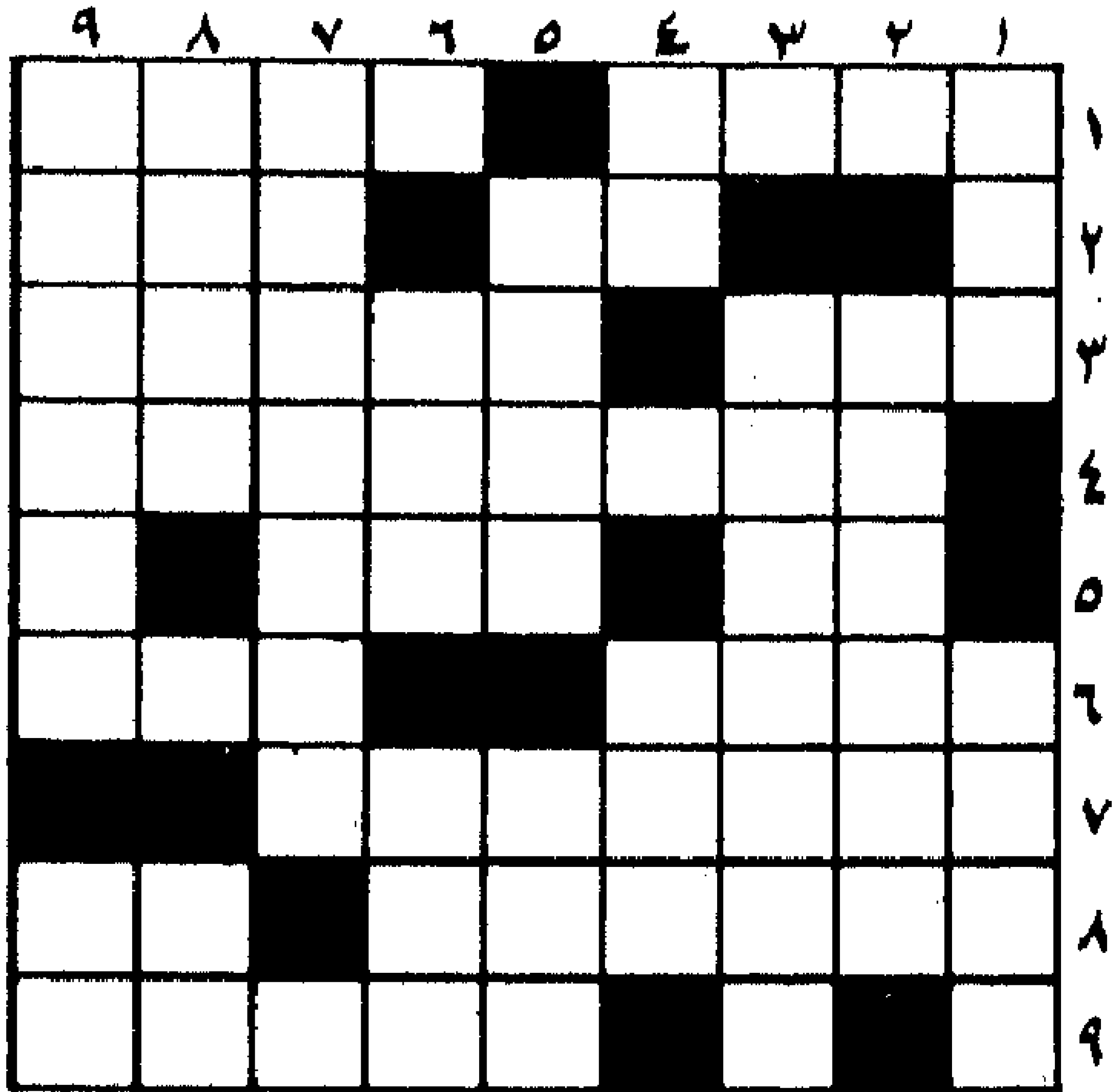


وقد طبعت جميع الاصدارات في مطابع عالمية من الدرجة الأولى، فاعطت مظهراً جذاباً وفخماً. أسوة باصدارات باقي البلاد المتحضرة في العالم. ●

إلغاء الجوائز:

لتعذّر وصول البريد في الوقت المحدد لكل مسابقة رأينا أن نكتفي بنشر المسائل وحجب الجوائز، وذلك مؤقتاً واستعداداً لبرنامج مسابقات أفضل وأغنى.

مسابقة العدد



افقياً :

١ – الإسم الأول لرئيس تونسي. مدينة في تونس (معكوسة).
٢ – اله الشمس في مصر. بُغية.
٣ – ذهب غير مصوغ (معكوسة). مدينة في تونس (معكوسة).
٤ – بلدة في تونس (معكوسة).
٥ – اسم لاغلظ أوتار العود ولأغلظ انغامه. أبيض براق.
٦ – مادة صمغية تداوى بها الجراح. حلقة توضع في الأنف أو في الأذن أو في الزند للزينة، وتوضع في أنف الحيوان لاذلاله.
٧ – مدينة في تونس.
٨ – منغمات (معكوسة). غرير لا خبرة له (معكوسة).
٩ – مدينة في تونس.

عمودياً :

١ – حضن. قاطع.
٢ – سجين سياسي منذ ١٢ سنة افرج عنه مؤخراً.
٣ – الجلد يحفظ الساق ويعرف بالقماطات (معكوسة).
٤ – حنطة. تجلب الهم (معكوسة).
٥ – ديك. طائر يعرف بأبي كثير (معكوسة).
٦ – اسم القشرة الخارجية اليابسة من البيضة ويقابلها الغرقي وهي القشرة الداخلية اللينة. ثغري (معكوسة).
٧ – الاسم الثاني لرئيس تونسي.
٨ – اضرب على الطبل. جلد الغزال يكتب عليه.
٩ – مدينة بناها الفينيقيون. امتلأ وضاق.

حل مسابقة العدد ١١

افقياً :

١ – خمار (معكوسة) سباخ.
٢ – صائف، (معكوسة) – ل –
٣ – مسقط وعمان.
٤ – – رس – الطيرة (معكوسة).
٥ – – ب – رر – م –
٦ – ادهن (معكوسة) صحار –.
٧ – طبريا – بح (معكوسة)
٨ – يمن – اقلل.
٩ – زج – اكمه (معكوسة).

عمودياً :

١ – مرباط.
٢ – افسس – دبي –.
٣ – مأق – هرمز –.
٤ – خاطة – جنين – (معكوسة).
٥ – صور – أ –
٦ – خ صريع (معكوسة) آه –
٧ – أ – مطرح – قم –.
٨ – بلال – كلبا (معكوسة).
٩ – س – الحرمان (معكوسة).

سيرة الأمير التنوخي في ذكراه المئوية الخامسة

شوقي نسيب الحلبي

● السيد الأمير جمال الدين عبد الله التنوخي، في ذكراه المئوية الخامسة، علم من أعلام الدين والتقوى، ومنارة من الفضيلة والأخلاق، بل ولي من أولياء لبنان، هو الرجل المفرد في بني معروف بعد الأنبياء.

ومزارُ الأمير عبد الله التنوخي في عبيه محجة المؤمنين، بل «كعبة» بني معروف يحجونه، ومن بركاته يلتمسون وينشدون.

ولد الأمير جمال الدين عبد الله التنوخي في عبيه – قضاء عاليه – في جبل لبنان، في اليوم الثاني والعشرين من شهر ربيع الأول سنة ٨٢٠ هجرية، الموافق الثامن من نوار سنة ١٤١٧ ميلادية.

ابن الأمير علم الدين سليمان، ابن الأمير بدر الدين محمد، ابن الأمير صلاح الدين يوسف، ابن الأمير سعد الدين خضر أمير الغرب التنوخي. والدته السيدة ريمة بنت الأمير شهاب الدين أحمد، ابن الأمير زين الدين صالح، ابن الأمير ناصر الدين الحسين، ابن الأمير سعد الدين خضر أمير الغرب التنوخي.

توفي في بلدته عبيه في السابع عشر من جمادي الآخرة سنة ٨٨٤ هجرية، الموافق الرابع من أيلول سنة ١٤٧٩ ميلادية.

نشأ الأمير السيد يتيماً إذ مات أبوه وهو طفل فربي في حضن أمه السيدة ريمة التنوخية على الصلاح. وكانت تظهر على وجهه مخايل التقوى والنجابة. فطاف بالقرى في طلب العلم والمعرفة وزار العلماء ليستزيد من التقوى والدين. فتورع وهو يافع فسبق الأقران ومال عن الدنيا وبهرجها وملاهيها، ورغب في عبادة الله، فاستظهر القرآن غيباً طرداً وعكساً. ودرس اللغة في كتاب «الصحاح» للجوهري «والقاموس» للفيروزآبادي وكتب النحو والمنطق والفلسفة والفقه. وقرأ «رسائل اخوان الصفاء» وغيرها من الكتب المفيدة، كما قرأ سير الأنبياء ومطولات التاريخ ودواوين الشعراء. وعنى بمؤلفات الحديث والفقه حتى بلغ في العلوم أعلى الدرجات فارتفعت منزلته في الدين وطارت شهرته في الآفاق. فكان يحلل الحلال ويحرم الحرام. فاقبل عليه طلاب العلم والدين من جميع الجهات فكان يفيد كل من قصده فلا يتكبر على صغير ولا على كبير، متواضعاً تواضع العلماء حتى غص مجلسه بالوافدين من طلاب العلم والمتقاضين، فيحكم بالعدل والقسطاس بين الناس ويمتثل لأحكامه العادلة كل من المتنازعين.

اقترن الأمير عبد الله التنوخي بالسيدة عائشة ابنة الأمير سيف الدين أبي بكر ابن الأمير شهاب الدين أحمد من آل تنوخ. وكانت السيدة عائشة تقية فاضلة تعنى بحفظ القرآن. تقدم إلى خطبتها العديد من أصحاب الوجاهة الأمراء فكانت تعرض عنهم كلهم. فلما تقدم الأمير السيد، على قلة ثروته وماله، أجابت طلبه لأنها كانت تؤثر الدين على الدنيا وهو خير وأبقى.

رزق الأمير من السيدة عائشة التنوخية أربعة بنين. ثلاثة منهم ماتوا صغاراً هم «عبد الخالق وفاطمة ومحمد». أما الرابع فسماه سيف الدين عبد الخالق باسم بكره الذي مات صغيراً، فعاش نحوا من احدى وعشرين سنة، وقتل يوم عرسه برمحة فرس. فحزن عليه والده حزناً شديداً، ولكنه أسلم أمره لله وتصبر صبر المؤمن بالله. فهو الذي أعطى وهو الذي أخذ. وكان والده يعلق عليه الآمال لما كان يتحلى به من فضائل برغم صغر سنه، إذ كان يتصف بصحة العقل والورع والحلم والتهذيب والعفة والذكاء. وعندما توافد

الناس إلى عبيه يعزون الأمير السيد بفقد نجله الحبيب ويواسونه وكلهم مفجوع ، كان الأمير المصاب هو الذي يواسيهم بقوله : «سبحان الله ، والحمد لله ، لا حول ولا قوة إلا بالله. له البقاء الدائم ، وهو العليم الحكيم. له الأمر النافذ ، وهو الواهب الآخذ. نحمده على ما أولى ، ونشكره على ما أبلى. لقد أعطى ومنع ، وتكرم وأشبع. منه الامتنان وعليه التكلان وإليه الايمان. هو العظيم الجليل ، وأنا العبد الذليل ، الواقف بباب الرحمة ، أطلب من كرمه النعمة».

ومن كلامه أيضاً في تعزية الناس وتبصيرهم في ارادة الله قوله : «لا فوت من الموت ، نحن وأنتم في قبضة المالك ، وهو المنجي برحمته من المهالك ، فعليكم بقبول أوامره طاعة وصبراً. وطوبى لمن قبل أوامر الله بالطاعة ، وركب جواد القناعة ، وقيد نفسه بقيد الوراعة ، وجعل من حق الموت أمانة الرضى بتسليم الوداعة. أيجوز أن يعترض العبد على ربه في ما أبدع ، أو يغضب من قبضه ما أودع ، أو يعصي قوله في ما أنبأ به وهو يسمع ، أو يظن ان حكم الله وقدره لهما مرد أو مدفع.

أيها الناظرون إلي ، أتظنون ان صبري على فقد ولدي الصالح جهالة ، أو ترك اعتراضي على القضاء فيه ضلالة ، أم اني نسيت منه علمه وحزمه وحلمه وأفضاله ، ورفقه وصدقه وصبره واحتماله؟ كلا ، ولكن الطاعة مطية من اتقى ، والتسليم منارة من ارتقى».

رحل الأمير السيد إلى دمشق رحلتين ومعه ولده الأمير سيف الدين عبد الخالق وأقاما في الحي المعروف (بالشاغور الجواني) نحو اثني عشرة سنة وكان يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر، فكان له محبون ومستفيدون ، كما كان له حاسدون. وجرت له مناظرات مع شيخ من مشايخ الميدان في دمشق هو الشيخ أحمد بن أبي قرن ومعه غيره وتحاملوا عليه ، ولكن الأمير السيد كشف أمر ذلك الحسد وعززه بالحجج القاطعة والبينات الدامغة ، وناضل معه رهط من العلماء. فأظهره الله على حساده وعلت منزلته ومدحه أهل المراتب بالمدائح الحسان.

ثم عاد إلى مسقط رأسه – عبيه – يعظ الناس ويعلم التلاميذ ويقضي بين الناس بالعدل. وأمر ببناء المساجد وبحفظ الكتاب المكرم. وأقام في كل قرية المعلمين يعلمون الأحداث – ونهى عن المسكرات والمحرمات حتى غدا مثالاً يقتدى وأصبح له في كل قرية تلاميذ ومريدون.

ان للأمير السيد لدى الطائفة الدرزية المنزلة السامية لايدانيه فيها أحد ، بلغها بزهده وورعه وتقواه وعلمه الغزير.

ألف كتباً جليلة الفائدة عظيمة النفع وهي :

١ – كتاب في السيرة النبوية اسمه : «سياسة الأخيار في شرح كمالات النبي المختار» :

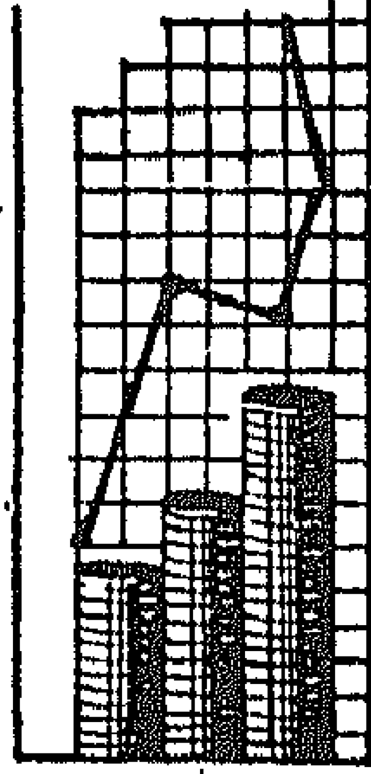
٢ – معجم فريد للغة العربية سماه : «اللغة العرباء».

٣ – «شروحات الأمير السيد» تبلغ أربعة عشر كتاباً مخطوطاً – وهي متفرقة في البيوت. وهي شرح عقيدة التوحيد. وشرح الأمير هذا على بعض رسائل في الدين يفيض بغزارة مادته وتعظيم عمله وتبحره.

وكان باراً بأبناء بلدته محسناً كريماً. لا يميز في عطائه بين أبناء دينه وأبناء سائر الأديان فأوصى ببعض أملاكه وعقاراته وبشيء من غلال أرزاقه لبعض الفقراء. وخص بيت سركيس المجاورين له في السكن في عبيه (بمقعده) أي دار الاستقبال له ، فحولوه بعدئذ إلى كنيسة باسم «مار سركيس وباخوس». فضلاً عن مائة حق زيت ومائة شنبل قمح يتناولونها من أملاكه الخاصة كل سنة بحسب ما هو متواتر ومعروف.

وجاء في تقسيم أوقاته انه قسم نهاره ثلاثة أقسام ، احدها للقراءة ، والثاني للكتابة ، والثالث لمصالح الناس. وكذلك قسم الليل ثلاثة أقسام أولها للسهر في تعليم التلاميذ ، والثاني للنوم والراحة ، والثالث للدعاء والاستغفار.

وصفه معاصروه بانه : «كان كامل الخلقة ، قوي الحركة ، معتدل السمرة ، في عينيه بعض غور. ضامر الصلب والوركين والعرقوبين ، في بنية متينة وقامة عدل ، حسن الصورة والخصرة ، يديم الجلوس لاما يديه ورجليه ، شديد الانتباه ، وقور المجلس ، ثابت الموقف ، إذا لبس أسبل ، وإذا مشى نصب قامته وغض طرفه وأوسع خطوه. حسن الصوت ، عذب النطق ، فصيح اللسان ، قليل الكلام في غير الحكمة. لا يرى بهجة إلا بربه ، ولا يبذل مسعى إلا لقربه. إذا ذكر اسمه ارتجفت أعضاؤه ، وإذا ناجاه فاضت من قلبه أضواؤه». ●



رأس المال

● يقصد برأس المال مجموعة الآلات والأدوات والمعدات والسلع التي صنعها الانسان وتساعده في الانتاج. غير أن التعريف يثير صعاباً معينة، فالهبات الطبيعية مثلاً لا قيمة لها دون أن تمتد يد الانسان إليها لتكييفها بحيث يتسنى له استخدامها في عملية الانتاج «الأرض الزراعية، المعادن الخ».

ويقسم الاقتصاديون رأس المال إلى:

١ – ثابت ويشمل الآلات والأدوات والمباني التي تسهم في العملية الانتاجية مرة بعد أخرى.

٢ – متداول: وهو الذي لا يستخدم في الانتاج سوى مرة واحدة ومن ذلك المواد الأولية.

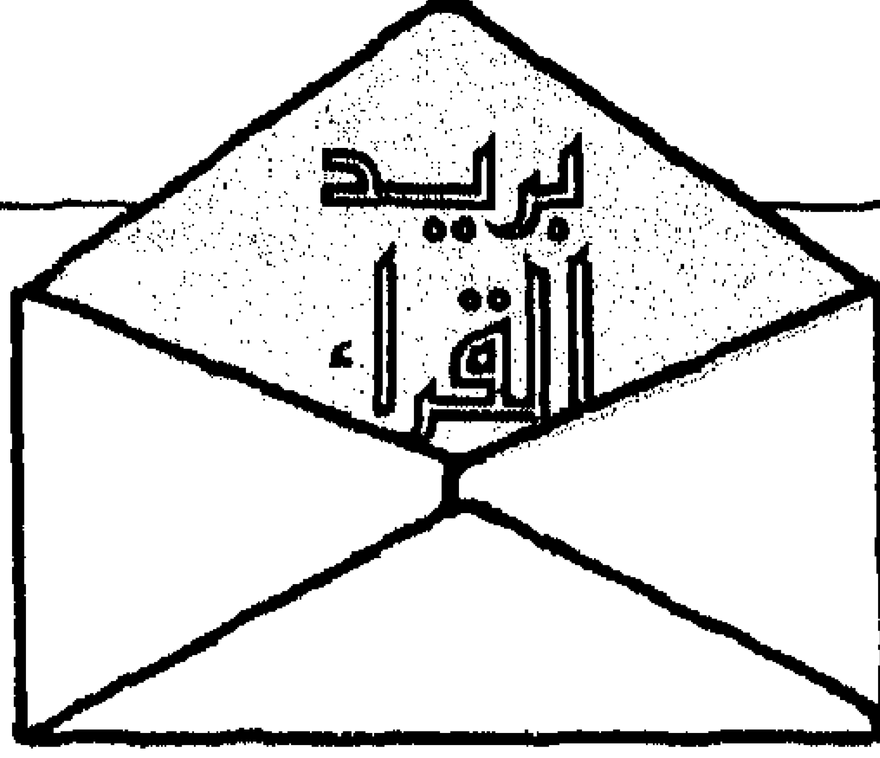
كذلك ينقسم رأس المال إلى عيني وهو السلع المادية والتي تدخل في عملية الانتاج ونقدي ويقصد به مجموع الأموال التي تستخدم في تمويل الانتاج. وهناك أيضاً رأس المال الاجتماعي ورأس المال الخاص.

ورأس المال لا ينشأ بمجرد ظهور تداول السلع والنقود، وانما ينشأ حين يجد ما لك وسائل الانتاج ووسائل العيش في السوق عاملاً حراً يعرض ما يملك من قوة العمل للبيع. وهذا الشرط التاريخي الوحيد يتضمن مرحلة برمتها من التاريخ الكلي. وبهذا فان ظهور رأس المال لأول مرة يشير ببدء عصر جديد في عملية الانتاج الاجتماعية.

ولا ريب أن رأس المال عامل هام في تحقيق التقدم والرفاهية الاقتصادية، ومن هنا أيضاً الصلة الوثيقة بين التكوين الرأسمالي ومستوى الاستهلاك السائد، ويتطلب الأول الحد من الاستهلاك الجاري وفضلاً عن هذا إذا كان متوسط دخول الأفراد ضئيلاً، تضاءلت أيضاً نسبة ما يمكنهم ادخاره.

ويلاحظ أن البلاد المتخلفة تعاني من انخفاض مستوى دخول الأفراد. وهذا الانخفاض مظهر من مظاهر انخفاض انتاجية العمل فيها أو نتيجة ظروف تاريخية مرت بها ولم يكن لها عليها من سلطان. ومن هنا فمن أجل رفع الانتاجية لا بد من تحقيق زيادة في كمية رؤوس الأموال. ويتضمن هذا بوجه خاص زيادة رأس المال الاجتماعي.

غير أن تحقيق هذه الزيادة في كمية رؤوس الأموال يتطلب تخصيص نسبة عالية من الدخل القومي لأغراض الاستثمار، وهذه النسبة قد تصل إلى ٢٠ في المائة من هذا الدخل بل وقد تتجاوز هذا الرقم كما شهدناه في مشروعات التنمية التي نفذت في عدد من بلاد أوروبا الشرقية بعد الحرب العالمية الثانية.



● ادي يبرودي – الذلقا – بيروت.

قدم بعض الاقتراحات لتطوير المجلة وطلب «بأن تتحقق هذه الاقتراحات لانها تساعد على تطوير المجلة التي طالما افتقد العالم اليها ولأنها تجعلها تضاهي المجلات العالمية التي تعني بالتاريخ القديم والمعاصر».

نشكر للأخ ادي يبرودي عاطفته الطيبة ونعده بتحقيق اقتراحاته الايجابية.

● نبيه بدور – السويدا – سوريا.

■ نشكر لك مشاعرك الطيبة مع تحيات اسرة التحرير ونعدك بتحقيق طلبك في اقرب فرصة ممكنة.

● ابراهيم محمد ابو شقرا – كلية الآداب – قسم التاريخ الجامعة اللبنانية.

الف شكر على كل جهد مبذول لامتاعنا واجبارنا على تثقيف انفسنا.

■ نشكرك على شعورك النبيل تجاه المجلة راجين ان نوفق لخدمة امتنا العربية.

● شهاب مهنا – ذوق مكايل – جونيه.

بدأت بمتابعة مجلتكم العزيزة من أول عدد. واعجبت جداً بما تحتويه من دراسات تاريخية قيمة عن تاريخ العرب والعالم. من اعماق قلبي اشجعكم على المثابرة على هذا الخط المستقيم متمنياً من الله أن يوفقكم.

■ اسرة التحرير تتقدم من الأخ شهاب مهنا باصدق شكرها وتعاهده على مواصلة المسيرة الصعبة.

● صلاح زين الدين – بعقلين – لبنان.

يعلن عن استعداده لمراسلة من يريد من هواة الطوابع.

● عبد الله محمد حاج عبدو – حلب – سوريا.

■ الموضوع الذي ارسلته محاولة طيبة وقسم التحرير بصدد تقييمه لنشره في أقرب فرصة. شكراً على مساهمتك ونرحب بك صديقاً للمجلة.

● اسامه رضا.

■ وصلتنا رسالة من الأخ اسامه رضا – صور. لبنان الجنوبي. ينوه فيها بدور المجلة الرائد ويذكّر بقضايا مهمة تدور في فلك مشكلة الجنوب اللبناني: صورة واضحة لواقعه. شخصيات منه. مسببات أزمته.. وذلك بنفَس البطل المتألم. واللبناني الجريح. طالباً الاهتمام بها في موضوعات المجلة.

■ أخ اسامة..

نشكركم على رسالتكم أولاً. ونؤكد لكم ان الجنوب قضيتنا جميعاً. واننا نهتم بذلك من وجهة عملنا: أحداث محلية وعالمية لها اتصال بما يحصل في لبنان عامة وفي جنوبه خاصة. دون التطرق لذلك مباشرة. فالعناية بالحدث الآني ليس من اهتمامنا المباشر. لكن هذا لا يمنع أن نفصل هذه المشكلة الخطيرة في مواضيع آتية. باذن الله.

برج العقرب 

٢٤ تشرين الأول

أكتوبر/٢٢/ تشرين الثاني - نوفمبر

● يعرف هذا البرج في أوساط علماء التنجيم الفلكي ببرج «العقرب والنسر» وهما الصفتان اللتان تطبعان تصرفات مواليد هذا البرج أي التجدد الدائم والصفاء في العمل. ولا تعرف الحضارة التي أطلقت هذين الاسمين على برج العقرب، مع العلم أن العلماء والسحرة في مصر القديمة كانوا يعتبرونه أنحس البروج الفلكية الاثني عشر. فقد اعتقدوا، ربما بسبب تكرار الصدف، ان الطاعون والأمراض على اختلافها تنتشر في البلاد على نطاق واسع عندما تمر الشمس في برج العقرب. من هنا كان اسم البرج مستوحي من أنحس الزحافات الصغيرة واخطرها على الإنسان في مختلف البيئات الطبيعية. ويعتقد أن هذا الرأي كان سائداً منذ عهد الأسر الفرعونية الأولى الحاكمة في زمن الدولة القديمة (٣٢٠٠ق.م-٢١١١ق.م).

ان مجموعة النجوم التي تشكل برج العقرب تضم بشكل خاص نجمة ساطعة أكثر من غيرها عرفت باسم «Antares» أي قلب العقرب ويحدد علماء الفلك قطر دائرتها بأكبر من قطر الشمس بـ ٤٠٠ مرة يظهر مواليد هذا البرج، خاصة الذين تخطوا العقد الرابع من عمرهم استعداداً كبيراً لتخطي كل أنواع العقبات ويجهدون لرسم حياة جديدة لهم. إنها الدورة الأبدية لشروق النور الساطع من رحم النار اللاهبة.

ما يميزهم عن غيرهم هو حيويتهم الفياضة التي تكسو كل عمل ونشاط يقومون به، بدنياً كان أم فكرياً، بالاضافة إلى عواطفهم الحادة والعميقة.

ومن هنا نفهم لماذا يربط علماء التنجيم الفلكي بين العقرب والنسر أي بين الصفتين المتلازمتين لمواليد هذا البرج وهما الطبع الفائض الحيوية (مثال حركة العقرب في الاتجاهات المتعددة) والطبع المثالي الطموح (مثال إنطلاق النسر وتحليقه الدائم في العلى).

إن كل الدلائل تشير إلى عكس الرأي السائد والقائل بأن برج العقرب هو أسوأ البروج الفلكية. ذلك أن مواليد هذا البرج، بفضل طبعهم المتحفز هذا ينجحون عادة في مواجهة الظروف العادية والاستثنائية وهم في معظم ما يقومون به قليلاً ما يجنحون نحو الاعمال المسيئة للنفس وللغير، ولكن إذا اخطأوا التصرف، يظهر هذا الخطأ للناس فادحاً وكبيراً وذلك بسبب طبيعة «دوي العقرب» الفياضة.

وبالنتيجة تكون اعمالهم الناجحة ناجحة بشكل باهر وأعمالهم الفاشلة فاشلة بشكل ذريع. وفي الحالتين يبدر عنهم تصرفات متسرعة ومليئة بالتشنج والتوتر. وهم يعرفون ذلك تماماً ولكن يصعب عليهم السيطرة عليها إلا بعد فوات الأوان. وهذا ما يدفعهم إلى ايثار الكتمان والانزواء في بعض الأحيان حتى الانتهاء من العمل الذي يقومون به. كما أنهم لا يأبهون بما يقوله الأصدقاء الذين لا يستوعبون، في معظمهم، مغزى العمل إلا بعد انجازه.

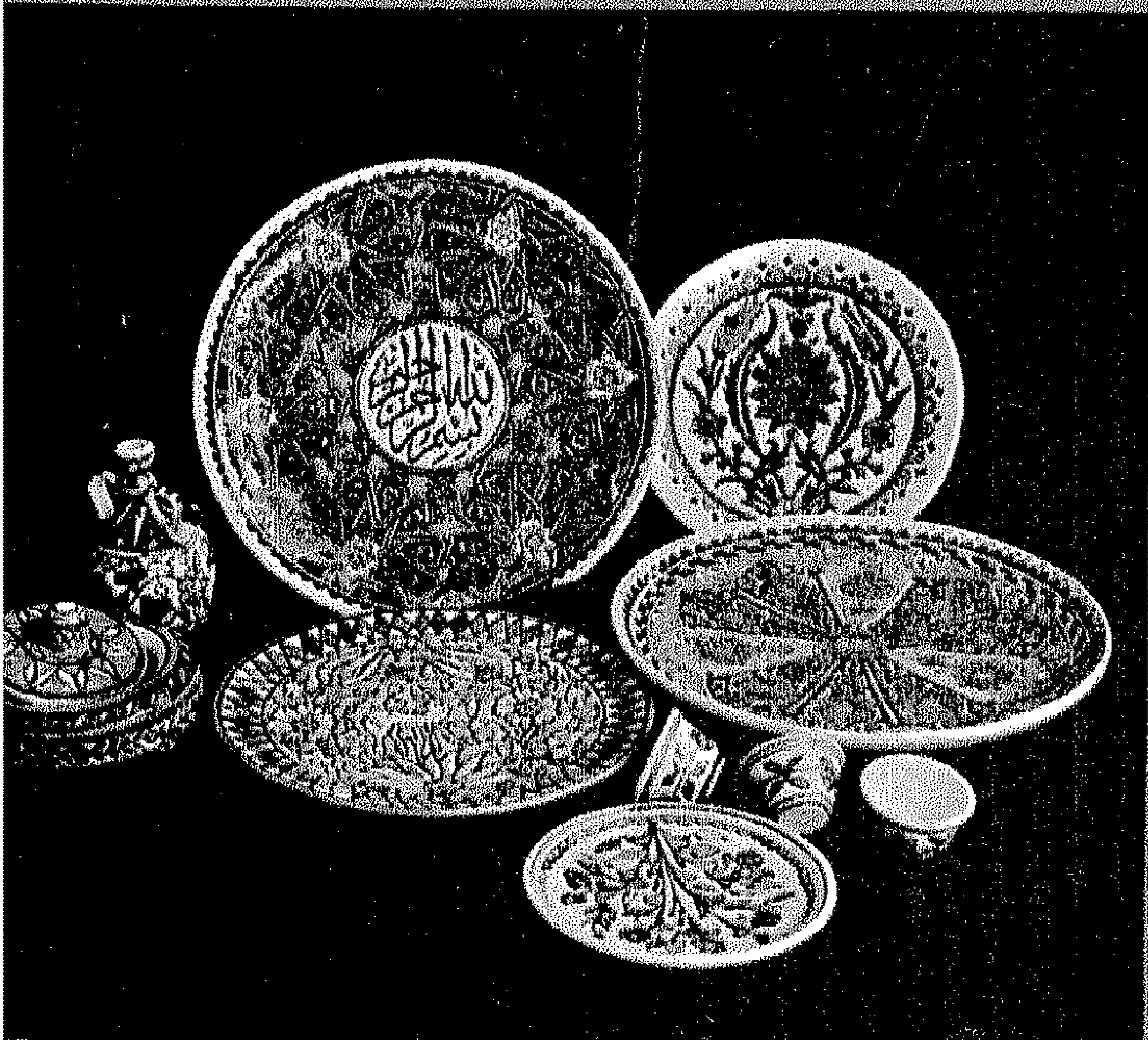
إستناداً إلى أبحاث العلماء فان برج العقرب له تأثير مباشر في ناحية محدودة من الجسم البشري هي الأعضاء التناسلية.

من الشخصيات العالمية المشهورة في التاريخ القديم والحديث والمولودة تحت برج العقرب، نذكر:

رئيسة وزراء الهند السابقة انديرا غاندي. السياسي الأميركي روبرت كينيدي (١٩٢٥-١٩٦٨) - زعيم الهند جواهر لال نهرو- الرئيس الأميركي تيودور روزفلت (١٩٠١ - ١٩٠٩)، الجنرال شارل ديغول، الملكة ماري انطوانيت زوجة لويس السادس عشر- المستشرق البريطاني ريتشارد بورتون (١٨٢١ - ١٨٩٠) وهو الذي ترجم كتاب «ألف ليلة وليلة» إلى الإنكليزية، العالمة الكيمائية البولندية الأصل ماري كوري (١٨٦٧ - ١٩٣٤) الفيلسوف الفرنسي فولتير- الكاتبة البريطانية جورج إيليوت (١٨١٩ - ١٨٨٠). ●



جوسيبي غاريبالدي
بطل الوحدة الإيطالية



من المصنوعات الحرفية
الفلسطينية الشهيرة
(راجع مقالة
"تاريخ الفنون الشعبية
في فلسطين" ص ٥٠)


محرّم ١٤١١



الأسس العثمانية للشرق الأوسط الحديث (راجع المقالة ص ٣)

تاريخ العرب والعالم

مجلة شهرية مصورة تبحث في التاريخ العربي

السنة الثانية
العدد الرابع عشر
كانون الاول (ديسمبر) ١٩٧٩
محرم ١٤٠٠هـ

تصدر عن دار النشر العربية في منتصف كل شهر

رئيس التحرير : فاروق البربير

المستشار : د. أنيس صايغ

المدير المسؤول : محمد مشموشي

ص.ب : ٥٩٠٥ - بيروت ، لبنان
بناية أبو هليل - شقة ١١
شارع السادات - تلفون : ٨٠٠٧٨٣

الإعلانات
تمام : الشركة العربية لإنماء الإعلانات
ص.ب : ١١/٦٨٨ - بيروت ، لبنان

الإنتاج :
مطبعة المتوسط ش.م.ل.

التوزيع :
الشركة اللبنانية لتوزيع الصحف والمطبوعات

ثمن النسخة

لبنان :	٤ ل.ل.	سوريا :	٦ ل.س
العراق :	٧٠٠ فلس	ليبيا :	٨٠٠ درهم
السعودية :	٧ ريال	الكويت :	٥٠٠ فلس
الاردن :	٥٠٠ فلس	أبوظبي :	٨ درهم
دبي :	٨ درهم	قطر :	٧ ريال
البحرين :	٧٠٠ فلس	المغرب :	٥ درهم
مسقط :	٨٠٠ بيزة	بريطانيا :	جنيه استرليني

الإشتراكات

في لبنان	٥٠ ل.ل
المؤسسات والدوائر الحكومية	١٥٠ ل.ل
في الدول العربية	٧٥ ل.ل
في أفريقيا وأوروبا	١٠٠ ل.ل
دول العالم الأخرى	١٥٠ ل.ل
المؤسسات والدوائر الحكومية في العالم العربي	٢٠٠ ل.ل

HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD

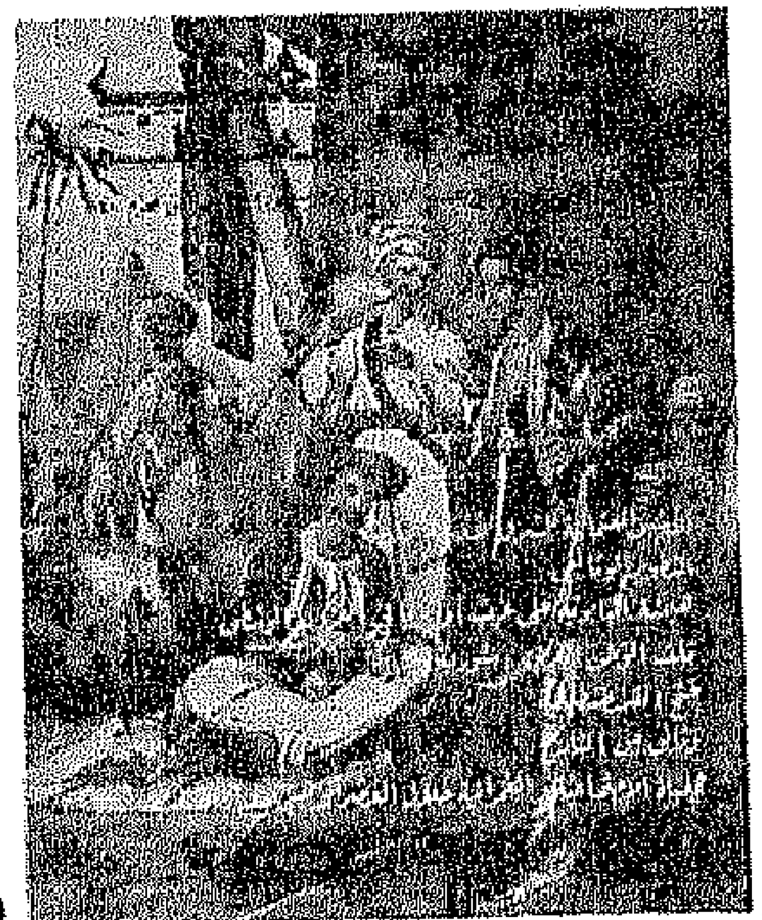
EDITED BY FARUK BARBIR
A MONTHLY ILLUSTRATED
MAGAZINE PUBLISHED FROM
SADATE ST. ABOU HLEIL
BLG. P.O.B. 5905
Tel.800783
BEIRUT, LEBANON

VOL. 11
No. 14. Dec. 1979
PRICE : 4 L.L.
ANNUAL SUBSCRIPTION :
75 $ IN NON-ARABIC
SPEAKING COUNTRIES

في هذا العدد

● المقالات الواردة توزّع حسب التبويب الفني للمجلة. ولا علاقة لذلك بمكانة الكاتب. مع حفظ المكانة الاجتماعية للكتاب. تراعى في الألقاب الصفات العلمية فقط.

الموضوع | الصفحة



جلسة مترفة في أحد قصور بغداد العباسية (راجع المقالة ص ٥٨).

● المقالات والدراسات تُرسَل باسم رئيس التحرير على عنوان المجلة: ص.ب ٥٩٠٥ في بيروت.

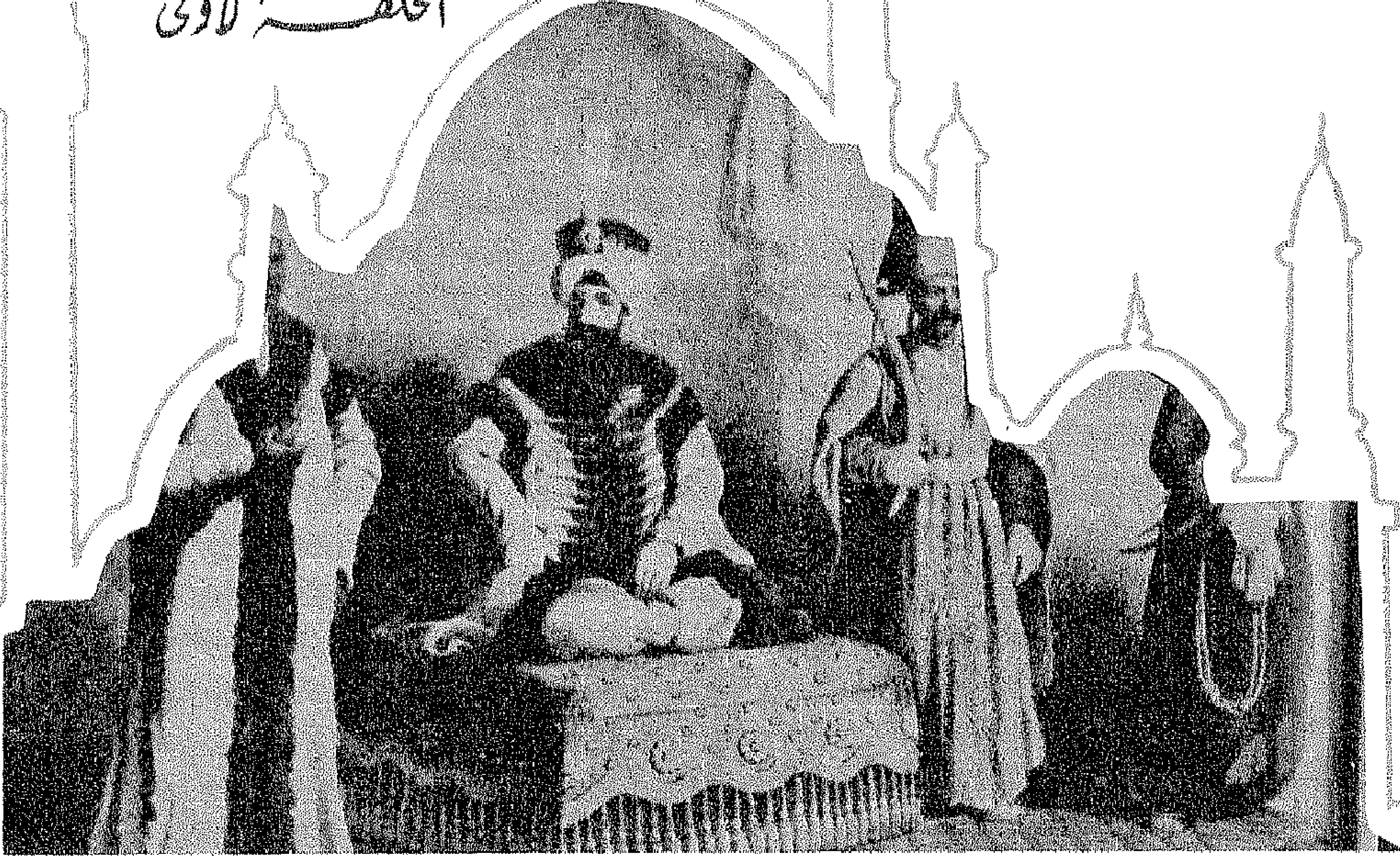
● المقالات والدراسات التي تنشَر لا تعبِّر بالضرورة عن آراء المجلة.

● المواد الواردة إلى المجلة لا تُردّ إذا لم تُنشَر.

الأسس العثمانية للشرق الأوسط الحديث

البروفسور البرت حوراني

الحلقة الأولى



الاشكالية دور الأتراك في الدولة الاسلامية

● أريد أن أتحدث عن حقبة من التاريخ مدتها أربعمئة سنة ، من ابتداء العصر السادس عشر إلى ابتداء العصر العشرين (أو إذا توخينا مزيداً من الدقة ، من ١٥١٦ إلى ١٩١٨) ، حينما كانت معظم البلاد العربية تحت حكم الأتراك العثمانيين يمارسونه من العاصمة في إستنبول. وفي الكتب القديمة عن تاريخ العرب لا يكاد يجد المرء شيئاً كثيراً في أقوال المؤرخين عن هذه المدة. فأنا مثلاً سألت مرة مؤلفاً لاحد هذه الكتب المشهورة لماذا أغفل تمام الإغفال تقريباً هذه المدة في تاريخه ؛ وكان جوابه لأنه لم يكن يوجد في الحقيقة تاريخ للعرب في هذه العصور. والمفروض أنه من الصعب أن يظن الإنسان أنه لم تجر في بحر أربعة عصور حوادث مهمة في منطقة كان لها تمدن قديم وبين شعوب أبدعت الشيء الكثير. ولكن الذي عناه هذا المؤلف ولا بد واضح كما أرى ؛ فهو يريد أن يقول أولاً ان العرب من ناحية سياسية لم يكن لهم إلا دور صغير يلعبونه في هذه المدة ، ولذلك كان أساس البحث أو الموضوع التاريخي مفقوداً ، لأنه ، ولو إن الأكثرين منا قد تخلوا عن الفكرة القديمة الخاصة بالتاريخ السياسي المحض وأخذوا بفكرة أخرى أوسع مدى منها ، فإن التاريخ الإجتماعي لا يمكن

فهمه إذا نحن اسقطنا من حسابنا الصراع لاغتصاب السلطة الذي تبرز فيه جميع القوى الإجتماعية وإذا أسقطنا أيضاً إستعمال السلطة من أجل الحفاظ على النظام الإجتماعي أو إبادته أو تغييره أو فرضه فرضاً. وهو يريد أن يقول ثانياً ان الحكم العثماني على المجتمع العربي حال دون أن يتطور التمدن العربي والإسلامي خطوات تقدمية أخرى، بل إنه قضى على الحيوية التي كانت له.

هذه النظرة نظرة تكاد تكون عامة عن التاريخ الإسلامي، لا تقتصر على الكتاب العرب وحدهم. وهي من جهة ما نظرة وطنية قومية إلى حد بعيد. فإن الذين يرغبون في الإستعاضة عن نظام سياسي في الشرق الأوسط قائم على الولاء الديني بنظام جديد قائم على الولاء القومي، كما هو الشأن لدى دعاة الثورة والإنقلاب في الأزمنة الأخرى، قد إستعملوا صورة ذهنية لزمان تاريخي بعيد يريدون بها أن تكون واسطة لأنكار ماضٍ قريب ولأظهاره في أعين الناس بمظهر مستقبح مذموم. والعرب في بعض الأحايين كانوا ينزعون في نفوسهم إلى التاريخ الإسلامي الأول كراهية بالعثمانيين، ونزع المصريون إلى زمان الفراعنة، واللبنانيون المسيحيون إلى الفينيقيين بل إن الأتراك أنفسهم رجعوا بنظرتهم متجاوزين العثمانيين والعرب إلى الحثيين، ورجع الفرس إلى عهد الإمبراطورية الفارسية، وهذا، شأنه شأن عوامل أخرى عديدة في الحركات القومية في الشرق الأوسط، صورة منعكسة عن أفكار معينة كانت متفشية شائعة في أوروبا في القرن التاسع عشر، ومن ذلك مثلاً: الحركة الرومانتيكية في تقديس الماضي البعيد، بما يمازجها من فكرة إنقلابية ثورية تدعو إلى أن الإنسان حر في تحطيم نظامه أو عالمه الإجتماعي وسبك عالم اجتماعي جديد له. ومن هذه الصورة الذهنية على الأخص القول بأن مجيء الأتراك وضع حداً للتمدن الإسلامي الأول وما له من بهاء وبداعة، وحال دون تطوره وتقدمه على غرار ما جرى من التطور والتقدم في أوروبا الحديثة. ولهذا أنكر روسو إخضاع العرب للبرابرة الأتراك[1]، واكتفى جون هنري نيومان في محاضراته عن تاريخ الأتراك بأن أقرّ لهم ببعض الفضائل الخاصة بالبرابرة (كالبسالة والصدق وعدم شرب الخمور) ونفى فضائل المدنية الخاصة بالآداب العقلية، واتهمهم بأنهم أطفأوا نور الدولة الإسلامية الأولى وهي الخلافة التي كانت متمدنة حقاً[2].

هذه النظرة، على بساطتها وإغراقها في الشمول، لا تقوى على الثبات عند الإمتحان الدقيق. وكل أحد ساح أو سافر في البلاد التي كانت تحت حكم الأتراك – ولا يقتصر ذلك على ما نسميه الآن بتركيا، بل يشمل البلقان والشرق الأدنى العربي وساحل أفريقية الشمالي – لا بد له من أن يلحظ مبلغ عمق الأثر الذي أحدثه العثمانيون ومبلغ ديمومة الوحدة التي فرضت على كثير من البلاد والشعوب المختلفة، كما يتجلى ذلك في الأبنية، من القباب والمآذن النحيفة اللطيفة الشكل على الطراز العثماني إلى الثكنات العسكرية ودور الحكومة المتينة البناء في عهد متأخر؛ وفي آداب السلوك البالغة التعقيد والتنوع والشديدة الترسم والتزمت عند الأسر القديمة في استنبول وفي عواصم الولايات، وهي على ما هي عليه من الاختلاف عن آداب السلوك عند القرويين في القرى الجبلية وعند البدو – وهذه ليست أقل جودة وإنما من نوع آخر؛ وفي أسلوب خاص في الحكومة وفي السياسة يصعب وصفه، وإن ظل قائماً حتى أيامنا هذه، ليس بين رجال السياسة الأتراك بل في القصور في بغداد وعمان والقاهرة وتونس وبين رجال السياسة المصريين قبل الثورة، وبين زعماء الحركة الوطنية في سوريا والعراق وبعض بلاد البلقان – وهو على العموم موصوف بالأناة والحذر والعناية بجعل نفوذ معين معادلاً لنفوذ آخر ضده حتى يبطل مفعول الإثنين، وإعطاء العدو من الوقت والمجال حتى يجلب دماره بيده مع حسن تقدير المدى الذي يمكن الذهاب إليه ثم الوقوف عنده وترك باب للتخلص قبل الفوات.

فإذا كان الرحالة أو المسافر يستطيع أن يجد بنفسه هذه الآثار التي خلفها حكم العثمانيين في الماضي، فإن المؤرخين أيضاً في الجيل الحاضر – باستعمال المحفوظات العثمانية الضخمة في استنبول وبكونهم أقل تأثراً من سابقيهم بحادث التفكك والانحلال النهائي للإمبراطورية على شكل دويلات قومية معادية تتصف سيرتها بضيق الخلق – قد أعطونا صورة جديدة عن كيفية دخول القبائل التركية إلى العالم الإسلامي وعما صنعت هذه القبائل لهذا العالم. فإن هذه القبائل لم تأت غازية فاتحة كالغازي والفاتح الأجنبي إلى عالم حاول التصدي لها أو كان في استطاعته ان يحمي نفسه



عسكري تركي من «الانكشارية».

ويحكم نفسه ويتطور بدونها ؛ وهذه القبائل أنفسها قدمت من جانبها إلى هذا العالم شيئاً إيجابياً ، لولاه لما كان من المحتمل له أن يعيش بعد ذلك ، أو على الأقل ان يتكون على الشكل الذي تكون فيه. فقد جاءت هذه القبائل أول ما جاءت من آسيا الوسطى بتأثير إحدى الحركات الخفية الأصل التي تقوم بها القبائل البدوية في التاريخ من زمن إلى آخر بسبب كثرة السكان أو تغير في حالة النبات والعشب أو في موارد المياه أو بسبب الحروب بين القبائل أو حوادث تجري على أطراف المحيط القبلي. ولعل السبب في هذه الحالة بعينها حدث جرى في الصين ، فإن برنارد لويس يقترح ان السبب في ذلك توطد حكم (سونك) في الصين بعد فترة من الإضطراب فأدى ذلك إلى سد الطريق أمام التوسع إلى داخل الصين وأجبر القبائل في آسيا الوسطى إلى الإمتداد والتوسع نحو الغرب(٣).

ولكن هذا التعليل لا يزيد على أن يكون نصف القصة. فإن رجال القبائل الأتراك لما دخلوا المناطق الشرقية للخلافة العباسية في بغداد وجدوا هناك مجالاً للعمل في انتظارهم : أولاً بكونهم جنوداً مرتزقة ، ولكن بعد ذلك على صورة أخرى وهي بكونهم حماة المجتمع الإسلامي والمدنية الإسلامية وحكامهما. وهنا نأتي مرة أخرى على وهم قديم باطل يعترض سبيلنا : وهو القول بأن الدين الإسلامي دين صحراوي ، وبأن مجتمع هذا الدين كانت تسيطر عليه مصالح القبائل البدوية ومبادئها. يجوز أن العرب كانوا مادة الإسلام الأولية ، على حدّ ما ورد في عبارة ترددت وجرت على الألسن في تاريخ العرب المبكر ، ولكن لم تلبث الخلافة ان توطدت وثبتت أركانها وتوطد المجتمع الإسلامي ورسخت أساساته حتى أخذت الخلافة مع المجتمع تتكيف مع جميع الحضارات والمدنيات الموجودة في الشرق الأدنى وتتماثل معها. وكان في قلب هذه الحضارات والمدنيات دوماً مدن عظيمة تستمد غذاءها الروحي من مناطق داخلية ريفية تابعة لهذه المدن ويرتبط بعضها ببعض بالطرق التجارية. وكان في هذه المدن وأمثالها ان نمت الحضارة الإسلامية السامية وتنشأت ، وكان فيها أن استحكمت جذور الحكومات الإسلامية العظيمة وأصولها ، وهي الحكومات التي كانت الغاية منها حماية النفوس وحماية المجتمع والحضارة والدفاع عن المدن وما وليها من الأقاليم الريفية.

ولا يخفى أن حياة الإستقرار والثبات في مكان واحد كانت دائماً عرضة للتقادير وعوارض الزمان في الشرق الأدنى. وإذا أريد لهذه الأقاليم الريفية وللطرق التجارية أن يكون في استطاعتها تقديم الفائض الذي بدونه لا يكون للحياة الحضرية الواسعة النطاق أمل في البقاء ، فلا بد من حمايتها من رجال البداوة وسكان الجبال ومن الغزاة الأجانب ومن جميع العوامل والقوى البشرية والطبيعية التي تستطيع إذا تركت وشأنها أن تجلب الخراب على نظام ري الأراضي (وقد صور حديثاً كتاب بقلم روبرت أدمز

وعنوانه (الأرض خلف بغداد) استعمل فيه المؤلف كل الأساليب من جغرافية وأركيولوجية أثرية وتاريخية لدراسة استخدام الماء والأرض في إحدى مقاطعات العراق من بداية التاريخ حتى يومنا هذا، ويبين فيه قرب الصلة الشديدة بين استخدام الماء وسياسات الحكومات وقوتها)(٤).

واحتاجت المدن الإسلامية الكبرى إلى نظام سياسي، ولم تستطع هي وحدها أن تجد لأنفسها هذا النظام؛ فإنه بينما كانت سلطة الخلافة العباسية آخذة في الإنحطاط في العصرين العاشر والحادي عشر، لم يظهر -كما ظهر في بعض أنحاء أوروبا في القرون الوسطى- شيء من السلطة أو القوة المعادلة المضادة في المجتمع يستطيع في النهاية إحداث نظام خاص به يبقي به على نفسه. وكان جواب المجتمع الإسلامي لهذه المعضلة أنه أحدث نوعاً جديداً من الحكم الإستبدادي قائماً على أساس عسكري، ونشأت في داخل الخلافة سلسلة من الدويلات كانت تعرف مجموعة باسم «السلطنات». وكان السلطان يحكم ضمن حدود منطقته، ولم يكن يدعي لنفسه أنه الحاكم لعموم العالم الإسلامي؛ وعلى العموم فإن السلطان، ما دام الخليفة موجوداً في بغداد، كان يقر له بالسلطة العرفية الرسمية؛ ولم تكن سلطة هذا السلطان في منشئها مستندة إلى تقدير رباني أو اختيار إلهي وإنما كانت بفضل السيف، وكانت تبقى قائمة محفوظة وتنتقل من سلف إلى خلف بفضل السيف أيضاً. أما شرعيتها فكانت تكون ضمن حدود الشرع، وبأنها تستخدم لتحقيق أغراض الإسلام الكبرى - ومنها مدّ حدود الإسلام وتوسيعها، وحمايتها من الهجمات الخارجية، والمحافظة على الشريعة والعقائد الإسلامية القويمة، وتنظيم الحج وحماية الحجاج، وغير ذلك من المناسك والشعائر.

وفي هذا المجال يجيء دور الأتراك التاريخي. فإنهم من وجهة عامة هم الذين أتاحوا لهذه السلطنات الجماعات السياسية العسكرية التي حافظت عليها، بمثل ما أتاح لها المغول قرناؤهم القريبون لهم في التاريخ في مدة من الزمن. ولا يصدق هذا القول على النصف الغربي أو النصف التركي العربي من العالم الإسلامي وحده؛ بل يصدق أيضاً على النصف الشرقي أو النصف التركي الايراني منه. فملوك أو شاهات الدولة الصفوية وهم الذين خلقوا بالفعل ما نسميه الآن بايران أو بفارس، كانوا من أصل تركي، وكانت لغة البلاط الملكي عندهم اللغة التركية لمدة قرن أو شبهه؛ كما أن **أباطرة** المغول في الهند كانوا هم أيضاً من أصل تركي مغولي. والأتراك في تمكنهم من القيام بدورهم هذا مدينون بعض الشيء إلى توحد كلمتهم وقدرتهم من ناحية عسكرية، وبعض الشيء الآخر إلى هيئة طبيعية في سلطتهم ومهارة في تنظيم الحكومات والإدارات الحكومية (وسنعرج على ذلك في كلامنا فيما بعد). وقد أقرّ العالم الإسلامي لهم بذلك في زمنهم، ولا أدل على هذا من قول نقيب المؤرخين والمفكرين العرب ابن خلدون بأن الأتراك ولا شك يستحقون خير الجزاء من المسلمين والإسلام. ولنقتبس مرة أخرى ما قاله برنارد لويس عن ابن خلدون: «رأى في مجيئهم برهاناً» على عناية الله المتواصلة بصلاح الإسلام والمسلمين. إذ بينما كانت الخلافة الإسلامية قد ضعفت وفسد أمرها، ولم تعد قادرة على صدّ اعدائها، جلب الله لها بحكمته وحسن تدبيره وإحسانه حكاماً وحماة جديدين، من بين قبائل الترك العديدة العظيمة، حتى ينفث من جديد الروح في جسم الإسلام **الآيل** إلى الفناء ويعيد إلى المسلمين وحدتهم(٥).

ولكن هذا الإقرار من قبل المسلمين الأتقياء الغيورين لم يكن بدون شرط. فإن سكان المدن الإسلامية وزعماءها والأسر الشريفة في خارج المدن، بما ورثته من نفوذ إجتماعي ومآثر دينية ثقافية، كانوا يرون أن صلاح المجتمع الإسلامي يقتضي نوعاً من التوازن أو التكاتف: فالسيف الذي كان بأيدي السلاطين الأتراك وبأيدي **اتباعهم** وذويهم من قواد ومقدمين في الدولة، وبأيدي جنودهم وعساكرهم، ينبغي أن يستعملوه بالتكاتف والتحالف مع العلماء العارفين بأمور الدين والشريعة القائمين بتعليمها وتفسيرها وتنفيذها؛ وقد قبل السلاطين بصورة غالبة هذا التحالف. فاحترموا العلماء واستشاروهم واستخدموهم في شؤون الدولة، وشدوا أزر القضاة في قضائهم، والمفاتي في إفتائهم في الشريعة والمدارس التي تدرس الشريعة؛ وكانوا إلى قدر كبير يستمدون رجال الإدارة والموظفين من بين هذه الفئة، بل إنهم على الأكثر من ذلك كانوا يستعينون بشوكة هذه الفئة ينتفعون بها في سبيل المحافظة على الإستقرار في المدن والحضر ورعاية الثروة والمال - وذلك بإبقاء التجارة في مجراها وحماية المزارعين من غارات القبائل والبادية.

وفي مقابل ذلك كان العلماء والشرفاء على العموم يعاضدونهم. فالمصلحة بين الطرفين مشتركة، بل إن جميع ما جرى الإجماع عليه في تاريخ الإسلام في عهد متأخر (أو على الأقل في إجماع أهل السنة) يقوم على فكرة سياسية هي فكرة (هوبس) الإنكليزية – وخلاصة ذلك أن الحكومة خير من الفوضى. ومع هذا التوافق والتعاضد فإن الأمر في كثير من الأحيان لم يكن يخلو من توتر باطني بين رجال السيف، وهم مختلفون من حيث العرق عن رعاياهم، وليس عهدهم ببعيد عن حياة القبيلة وتماسكها، وبين رعاياهم من السكان المستقرين في الحضر من فرس وعرب. وكان في مستطاع اشراف المدن أن يعملوا شيئاً من الضغط على حكامهم: ففي أيديهم مفاتيح مشروعية الحكم، وفي مقدورهم أن يضفوا على حكم أحد السلاطين صبغة إسلامية أو إقراراً شرعياً؛ وكانت في أيديهم أيضاً أداة السياسة الحضرية في المدن، وكان في إستطاعتهم إلى حد ما كبح جماح الحركات الإحتجاجية أو الثورية او قمعها بين طبقات الصناع والعمال في الأحياء الشعبية. ومع ذلك فإن الميزان على العموم كان يرجح في مصلحة رجال السيف، ليس لأنهم أصحاب السيف، ولكن لأنهم في معظم الدول من هذا النوع أصحاب السلطة السياسية يشفعونها بسلطة إجتماعية. وكان السلطان مع قواده وعماله يتولون أمر الأقطاعات والأراضي، ويتسلمون الفائض من الريف والأراضي الزراعية، وتمكنوا بذلك من التحكم في المبادلات الإقتصادية بين المدينة والريف، وضبط موارد المواد الغذائية للجماهير في المدن والسيطرة على عمل أصحاب الصنائع. ولكن هذا الوضع أفاد أيضاً بطريق أخرى المدينة الحضرية، فقد كان من مصلحة رجال الطبقة العليا من أرباب الجيش وأرباب السياسة بصورة خاصة أن يحافظوا على المدينة وعلى ما وليها من الريف والأقاليم في حالة حسنة من الرخاء والاستقرار.

الدولة العثمانية من داخل الامبراطورية السلجوقية:

في هذا السياق ينبغي لنا أن ننظر نظرتنا إلى الأتراك العثمانيين، والدولة العثمانية في أطوارها الأولى كانت دولة من بين عدد من السلطنات التركية، وقامت هي من داخل الإمبراطورية التركية الكبيرة وهي الإمبراطورية السلجوقية على حدود **بيزنطية** حينما كان جسم هذه الإمبراطورية آخذاً في التفكك والإنحلال. وجرى حينئذ حادثان إثنان غيرا من طبيعتها. وكان الحادث الأول، وهو مشهور، الإستيلاء في سنة ١٤٥٣ على القسطنطينية التي أصبحت عاصمة السلطان الجديدة استانبول. وأصبحت دولة السلطان هذه منذ ذلك الوقت فما بعد إحدى الدول العظمى في الجزء الغربي من العالم الإسلامي. وكانت لها تجارة واسعة مع المدن الايطالية، وأصبحت دولة بحرية في البحر الأبيض المتوسط، وبذلك كان لها إتصالات أوثق من إتصالات غيرها بأوروبا الغربية وأصبحت عاملاً في توازن القوى في القارة الأوروبية. وتغيرت كذلك طبيعتها. فقد اكتسبت لأول مرة باستيلائها على استانبول مدينة شعوبية مختلطة السكان من جميع الأجناس في العالم؛ ولم يعد المجتمع الذي تحكمه هذه الدولة مقتصراً على الوديان بين التلال والجبال وعلى القصبات أو البلدان المركزية؛ واحتاج بسبب ذلك كله إلى إدارة من نوع أكثر تشعباً وتعقداً من ذي قبل. ثم إن هذه الدولة باستيلائها على استانبول وبلاد البلقان قد احتوت على عدد كبير من السكان غير المسلمين، كالمسيحيين واليهود، وهذا بدوره أيضاً أسفر عن معضلات إدارية جديدة.

والحادث الثاني أقل شهرة من الحادث الأول ولكنه لا يقل عنه أهمية. ففي ١٥١٦ – ١٥١٧ اتجهت وجهة العثمانيين إلى الجنوب واحتلوا بلاد الدولة الكبيرة الأخرى في النصف الغربي من العالم الإسلامي، وهي دولة المماليك في مصر وإقليم سوريا. وتلا ذلك إحتلال إقليم الحجاز في غرب الجزيرة العربية، وفي ضمن ذلك مدينتا مكة المكرمة والمدينة المنورة؛ ثم احتلوا العراق، وكان ينازعهم عليه مدة من الزمان ملوك الدولة الصفوية في إيران إلى أن توطد إحتلالهم له في ١٦٣٨؛ واحتلوا شمال إفريقية حتى الجزائر ولكن دون المغرب، واستعانوا على ذلك بقواتهم البحرية، لكي يحولوا دون أن يمدّ الكاثوليك بعد استعادتهم إسبانيا من العرب ايديهم إلى إفريقية.

فهذا التوسع في داخل البلاد العربية جعل من

العثمانيين أعظم الحكام في العالم الإسلامي إلى الغرب من إيران، ومكنهم من حيازة قوة بحرية تكون لهم في البحر الهندي كما في البحر الأبيض المتوسط. وأهم من ذلك بعد أن هذا التوسع قد جعل الحكومة العثمانية في تماس وثيق واحتكاك وشيك بأقدم حضارة إسلامية، عن طريق مدارس العلم العظيمة في القاهرة ودمشق وحلب، وبالمنبع الأصلي لعلوم أصول الدين وعلوم الشريعة، وبطبقة من طبقات المجتمع المدني تضيف إلى الدولة الإسلامية الجامعة ما لها من تقاليد خاصة بها في ميدان الزعامة الإجتماعية وفي إحداث توازن بين الحكومة من جهة والقوى الإجتماعية في الأمة من جهة أخرى. ولكن الأهم من هذا كله أن العثمانيين أصبحوا منذ ذلك الزمن فصاعداً حكام المدن المقدسة مثل القدس والمدن الشيعية الشريفة في العراق كالنجف وكربلاء والكاظمين ومكة المكرمة والمدينة المنورة وطرق الحج الكبرى المؤدية إلى هذه المدن جميعها. وكان الحجاج في كل سنة من مصر ومن شمال إفريقية يجتمعون في القاهرة، وكانوا من تركيا والقفقاس وسوريا والعراق وإيران يجتمعون في دمشق، ثم بعد ذلك يسيرون بقيادة المسؤولين في طريقهم إلى مكة المكرمة تحت الحماية. وكانت المدن المقدسة وسكانها في حاجة إلى الحماية والقوت، لا بد من توفيرهما لها، كما كان لا بد من المحافظة على سلامة الدين القويم الذي كان الحج شعاراً من شعائره.

طبيعة الحكم:

وكانت الدولة العثمانية من هذا الحين حتى نهايتها تتميز بصفة لها مركبة من عوامل مختلفة. فهي أولاً كانت دولة من اسرة واحدة، يتركز الولاء فيها على أسرة آل عثمان، وليس على فرد معين من أفرادها، حيث تكون السيادة مطلوبة من الأسرة بأجمعها. وكانت ثانياً دولة تركية من بعض الجهات ولو لم تكن من جهات أخرى. فالأسرة الحاكمة أسرة تركية تدعي الإنتماء في الأصل (ولو بدون مبرر كبير) إلى قبيلة أوغوز التي تحدر منها السلجوقيون أيضاً من قبل. وقد تتشبث بهذه الوحدة العرقية لتستهوي بها رجال القبائل الأتراك. وكانت في جميع أدوارها التاريخية تستعمل بعض الرموز والأساليب المستمدة من أصول قبلية تركية، كأذناب الخيل التي كانت علامة على الرتبة في الحكومة. وكانت لغة البلاط ولغة القيادة في الجيش ودوائر الحكومة اللغة التركية. (ولكن هذا لا يعني أنها تركية من حيث الإقتصار على عرق معين. فإن الشعور بالفروق بين العرب والفرس والأتراك الذين كانت شعوبهم تقوم بالعبء الأكبر في الحضارة الإسلامية كان شعوراً متفشياً في جميع التاريخ الإسلامي. ولكن هذه الفروق لم تكن تحدث تمييزاً عميقاً بحيث لا يبقى أثر للعامل المشترك الذي يجمع بين هذه الشعوب الثلاثة من ناحية إسلامية؛ ولذلك فإن التمييز في حاصل الأمر لم يكن إلا تمييزاً من حيث اللغة والثقافة أكثر من أن يكون من حيث العرق والجنس. فالموظف في خدمة السلطان العثماني لم يكن يعد نفسه بحكم الضرورة تركياً في أصله ولو أنه كان يستعمل اللغة التركية، والرعية من رعايا السلطان إذا لم يتكلم اللغة التركية لم يكن يعد نفسه حتى إلى أواخر سني الإمبراطورية العثمانية بأنه كان محجوباً عن جسم الدولة السياسي ومنفصلا عنه).

وكانت ثالثاً دولة إسلامية. وهذا لا يعني أن السلطان كان يرى نفسه أنه خليفة المسلمين، ولو أن العثمانيين كانوا في بعض الأحايين يستعملون لقب الخليفة؛ فإنهم كانوا يستعملونه بدون أن يقرنوا به معنى من المعنى التاريخي المعروف، وإنما إستعملوه بمعناه العام المتأخر لإطلاقه على أي سلطان يكون في مقدوره المحافظة على أوامر الدين وشرائعه. واستعملوا اللقب في بعض الأحيان رمزاً للإحترام والثناء في كلامهم عن الحكام المسلمين الآخرين، وحذفوه في بعض الأحيان الأخرى من ألقابهم الخاصة بهم. وإليكم على سبيل المثال جدولاً بالألقاب التى ورد ذكرها في مجموعة من المراسلات الدبلوماسية العثمانية:

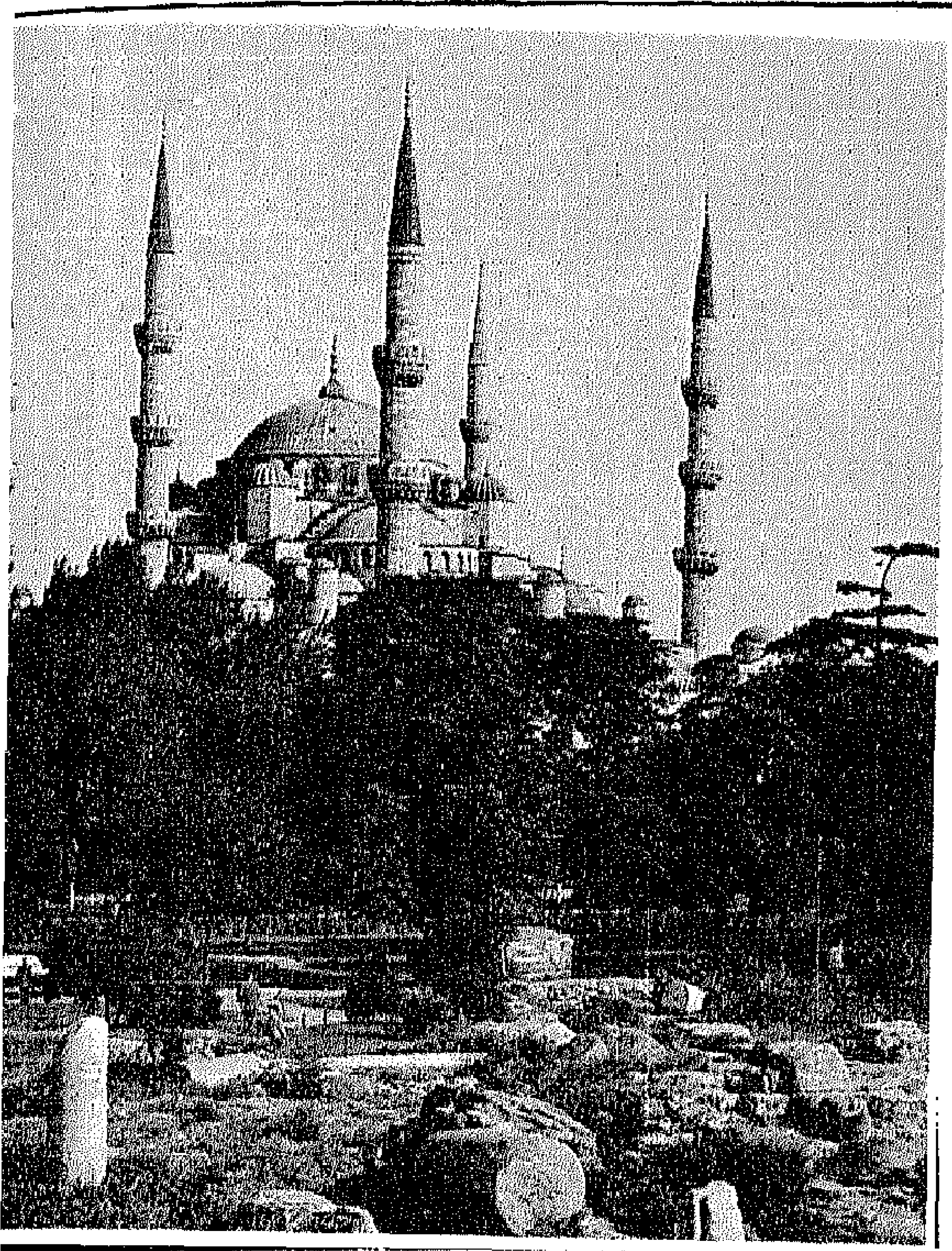
البادشاه الذي مجده في العلاء يباري السماء، ملك الملوك الذين هم نجومه، تاج رأس الملك، ظل المعطي؛ ذروة الملك؛ خلاصة كتاب حسن الحظ؛ حظ العدل المستوى؛ كمال المدّ الأعلى للجلالة؛ بحر الأحسان والإنسانية؛ معدن جواهر الكرم؛ منبع مآثر البسالة؛ كاتب العدالة على صحائف الزمان؛ سلطان البرين والبحرين، وخاقان المشرقين والمغربين وخادم الحرمين الشريفين(٦).

ونرى من هنا أن لقب الخليفة غير وارد في هذا



السلطان في ثياب احتفالية بمناسبة عيد الأضحى.

الذكر؛ بل إن السلطان العثماني لم يبدأ فعلاً إلا في القرن التاسع عشر في الإدعاء جدياً بالخلافة على جميع المسلمين، ليتخذ ذلك وسيلة يجتمع بها المسلمون في داخل الإمبراطورية وخارجها على تقديم العون والمساعدة وينذر بها الدول الأوروبية من عاقبة التجارؤ والتجاوز عليه بشدة فوق الحدّ المعقول. وكان المنوال الذي جرت عليه الدولة حتى ذلك الزمن هو المنوال الذي سبق أن وصفته وصفاً إجمالياً: كانت السلطنة دولة تحكم في نطاق الشريعة الإسلامية وتعكف على تحقيق أغراض الإسلام الكبرى. وكانت سنية المذهب عن شعور زاده حدة طول الصدام مع الدولة الصفوية التي كانت شيعية. وبفضل ما كان للأتراك من قريحة وحبّ للترتيب والوضوح، قامت الدولة العثمانية بتنظيم العلماء على شكل سلسلة من المراتب بدرجات معينة معلومة وبوظائف رسمية لها مرتبات تجري عليهم بانتظام. وكان رؤساء هذه المراتب الدينية، وهم شيوخ الإسلام وكبار شيوخ القضاء والإفتاء، يستشارون في شؤون الدولة العليا، وكان القضاة في الأقاليم السبيل الأكبر الذي كان يجري عن طريقه الاتصال والترابط بين الحكومة المركزية والرأي العام لمسلمي المدن الكبرى. وأولت الحكومة رعايتها وحمايتها للمدارس الإسلامية في المدن العربية وقامت هي من قبلها بتأسيس مدارس جديدة في استانبول لتخريج رجال الدين وملئ المراكز العليا في الإدارات والمصالح الدينية. ومدّت الدولة أيضاً يد العون المالي إلى بعض الطرق الصوفية، أو على الأقل إلى الطرق الصوفية القويمة المذهب، وأحظتها بتفضيلها لها. ولكن الإمبراطورية العثمانية رابعاً كانت لا تزال دولة من نوع آخر، أي إمبراطورية عالمية جامعة متماسكة في إطار موحدّ من النظام والإدارة وبولاءٍ مفرد لأسرة حاكمة واحدة في مناطق مختلفة عديدة - البلقان وآسيا الصغرى وبلاد آسيا الغربية ومصر وساحل شمال إفريقية - وجماعات من أعراق متباينة - اليونان والصرب والبلغار والرومان والترك والعرب والكرد والأرمن - وطوائف دينية متغايرة - الروم الأرثوذكس والأرمن والأقباط والموارنة وغيرهم من المسيحيين واليهود من فرق غير واحدة - وأنظمة إجتماعية متفرقة - بين سكان المدن والفلاحين في السهول والوديان والقرويين في الجبال (كالألبانيين والأناضوليين الشرقيين والأكراد واللبنانيين) ورجال القبائل البدوية في السهب والصحراء. وفي معاملات

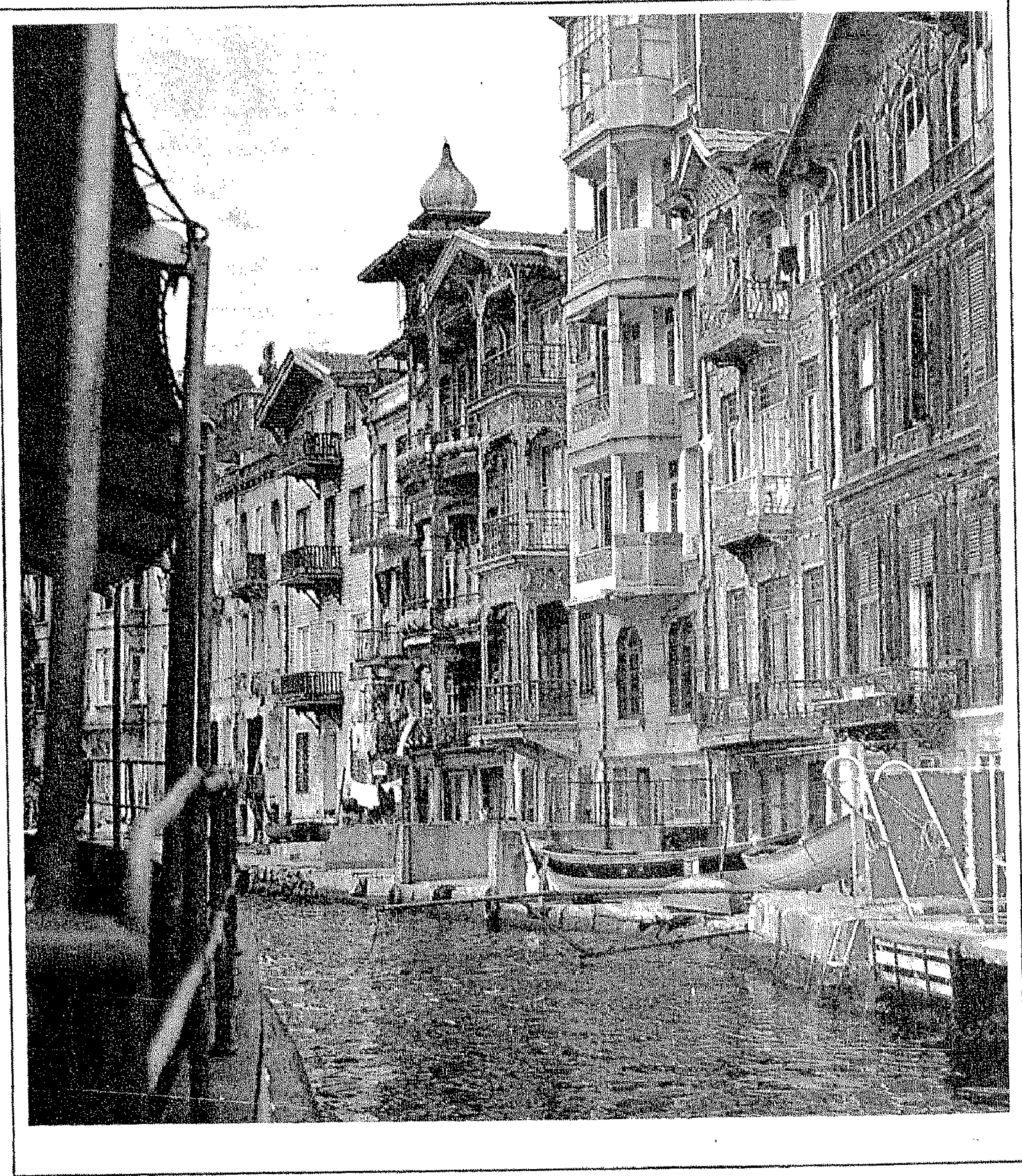


جامع السلطان أحمد في استانبول.

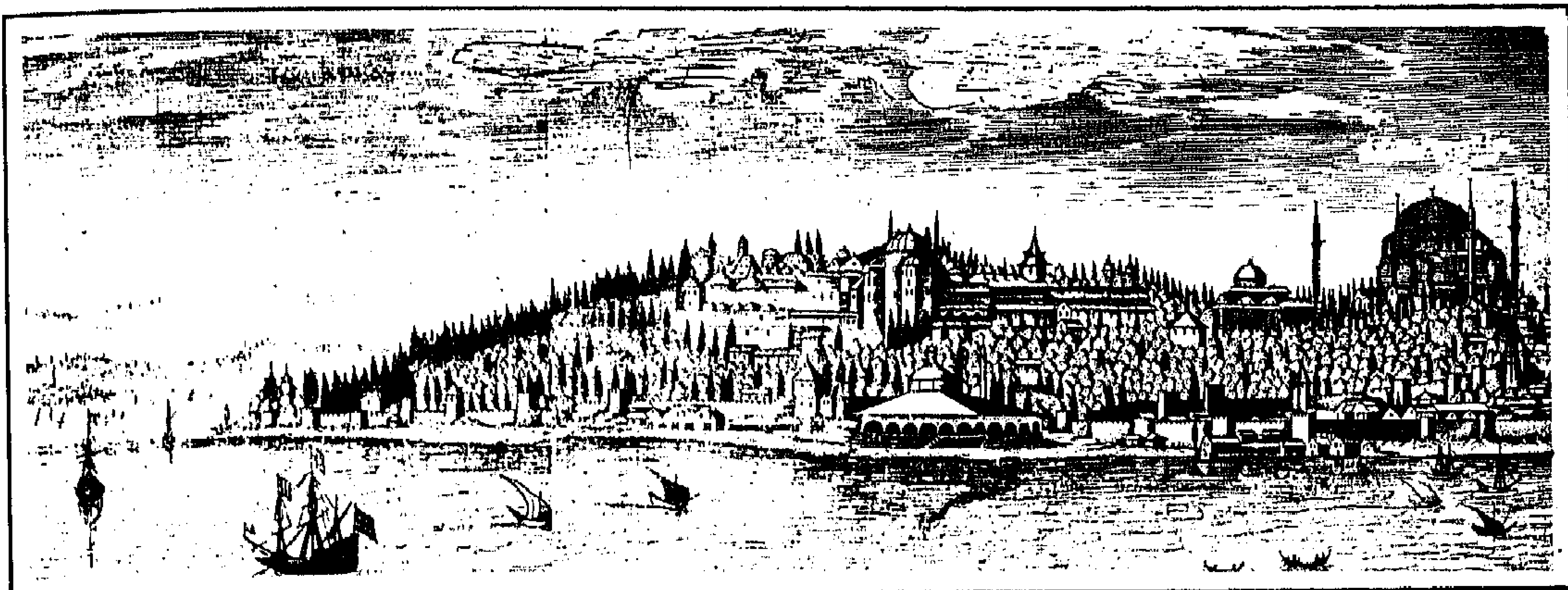
هذه الدولة مع هذه الجماعات والطوائف نراها تقترب من مثال للحكم كان شائعاً في العهد المتأخر من التاريخ الإسلامي، وهو مستمد من بعض الوجوه من رأي فارسي قديم عن الملكية، ومستمد من الوجوه الأخرى من فكرة أفلاطون (في كتابه القوانين وليس في كتاب الجمهورية) وهي المثال الأكمل للحاكم المستبد الذي يكون في معزل عن المجتمع المحكوم له ويكون غير مسؤول إلا أمام الله وأمام نفسه الخاصة به في أسمى حالاتها، وينظم طبقات ذلك المجتمع المختلفة بهدي من مبادئ العدالة حتى تتمكن كل طبقة منها من أن تسير بحسب طبيعتها الخاصة بها وأن تعيش في وفاق مع غيرها وأن تسهم بنصيبها من أجل الخير العام.

بحسب هذا المثال كانت السلطة النهائية المطلقة في يد السلطان، يعيش منعزلاً منزوياً في جوف بلاطه الملكي (الذي كان أكثر من قصر أو بلاط، بل كان مجموعة من البنايات المسورة أو مدينة داخلية)، يحيط به من أهل القصر جماعة متشعبة المراتب معقدة

التركيب ويحوطه جيش مدرب منظم وإدارة حكومية على جانب عظيم من حسن التنظيم والتأليف لتنفيذ إرادته. وكان في أوائل عهد الامبراطورية على الأقل تمييز واضح مأخوذ به؛ يفرق بين العسكر والرعية، أي بين أرباب السلطة ورعاياهم؛ ولم يكن الجيش وحده يختار أفراده من النصارى وليس من الأتراك أو المسلمين الآخرين، بل إن رجال القصر وموظفيه وكثيراً من كبار رجال الدولة كانوا يختارون على هذه الصورة، من البلقانيين أو القفقاسيين مثلاً، وكانوا يؤخذون أو يجندون وهم دون العشرين من العمر، ويدربون في المدارس العسكرية أو في القصر ويرسلون بعد ذلك للإنضمام إلى الجيش أو إلى القصر أو الحكومة. كان هؤلاء من المماليك بالمعنى الإسلامي للكلمة الذي لا يحوي بين طياته أي إشعار بالمهانة؛ وكانوا من الموالي الذين كانوا يتخلون عن كيانهم الشخصي ويدمجونه بكيان مولاهم، ولا يدينون بولاء



منظر سراية السلطان من جلاطا، استانبول.



إلى أحد إلا إليه، وبذلك يصبحون أعجز من أن يتبنوا لأنفسهم سلطة مستقلة تهدده بالخطر، وأموالهم عند موتهم تؤول إليه بالمصادرة.

وبحسب هذا المثال أيضاً حافظت الحكومة العثمانية على قوانين الملك المختلفة ومصطلحاتها العرفية وأولتها حماية الدولة ومساندتها. وفي المجموعات الخاصة بالقوانين الإدارية جرت هذه الحكومة على وضع نصوص للمصطلحات العرفية وإصلاح هذه المصطلحات في الأقاليم المختلفة من حيث الضريبة ومن حيث تملك الأراضي والتصرف بها. وعلى ذلك فإن الأمراء المحليين في وديان المناطق الجبلية كلبنان وكردستان انسجموا بحكم هذه القوانين مع النظام الإداري وأصبحوا بعد انسجامهم يعرفون بالحكام أو بأمراء الإقطاع أو بملتزمي جمع الضرائب في مقاطعاتهم الخاصة بهم. وما داموا مواظبين على تسليم الضرائب والإمتناع عن كل ما يحدث إضطراباً في سلامة الطرق التجارية فإن الاعتراف بحكمهم المحلي يكون مأموناً. وشبيه بهؤلاء شيوخ القبائل البدوية، كشيوخ قبائل الموالي في صحراء الشام؛ فقد كان هؤلاء ينصبون في مشيختهم وتدفع لهم الاعانات المالية بانتظام ما داموا يبقون الطرق التجارية مفتوحة في الصحراء.

ولكن السكان من غير المسلمين كانت لهم مشكلة أصعب من ذلك. فقد كان هؤلاء يؤلفون جزءاً كبيراً من سكان الإمبراطورية وكانوا يملكون جانباً كبيراً من الثروة فيها. وهنا يتبدى لنا مرة أخرى استعمال العثمانيين لمقدرتهم الموروثة في التنظيم وفي وضع العادات المتعارفة من زمن بعيد في الدول الإسلامية في قالب منطقي رسمي. فبعد احتلال القسطنطينية صار بطريرك الروم الأرثوذكس في المدينة معترفاً به رسمياً بأنه رئيس جميع النصارى الروم الشرقيين في الإمبراطورية وصار للأرمن الأرثوذكس بطريرك أرمني، وصار لليهود حاخام أكبر. ولم يكن هؤلاء مجرد رؤساء روحيين بل كانوا رؤوساء مدنيين أيضاً. وكانت أحكام هؤلاء تلقى تأييد السلطة الحكومية؛ وكانوا مسؤولين أمام الحكومة عن حسن سلوك رعاياهم وطاعتهم للدولة، وعن جمع **الجزية** التي كانت مفروضة على غير المسلمين؛ وكانت لهذه الملل في مقابل ذلك حرية العبادة وقدر كبير من التسامح والرعاية. (ولا يزال هذا النوع من الجمع بين السلطة الدينية والمدنية موجوداً في أماكن كان يحكمها الأتراك، مثل قبرص حيث رئيس أساقفة الروم هو رئيس الملة أو الأمة، ولذلك بحكم مركزه هذا أصبح زعيم الحركة الوطنية أولاً ثم رئيس الجمهورية ثانياً).

المراجع

1 — J.J. Rousseau, Du contrat social, Book IV, chapter 8.
2 — (J.H. Newman), Lectures on the History of the Turks (Dublin, 1854), P. 105.
3 — B. Lewis, The Arabs in History (revised edition, London 1958) P. 147
4 — R.M. Adams, Land behind Baghdad (Chicago, 1965).
5 — B. Lewis, "The Mongols, the Turks and the Muslim Polity" in Transactions of the Royal Historical Society, 5th series, Vol. 18(1968), P. 64
6 — T.W. Arnold, The Caliphate (new edition, London, 1965), P. 203.

التطوير التوثيقي

أهداف مراكز التوثيق ووسائل تحقيقها

بقلم الدكتور عمر مسيكه

نكتفي هنا بالقسم الأول من نص محاضرة ألقاها الدكتور مسيكة في كلية الأعلام والتوثيق اللبنانية) بتاريخ ١٠/٥/٧٩.

● من الأمور التي لم تعد تقبل الكثير من الجدل ان الاعلام، بمفهومه الواسع، أضحى في عصرنا الحاضر وسيلة من الوسائل المباشرة التي تهيء للمجتمع أسباب النجاح والتقدم وذلك في جميع مراحل تطوره وإزدهاره. وهذا ما حدا المؤتمر العام لمنظمة الأونسكو، في دورته الثامنة عشرة في خريف عام ١٩٧٤، على اتخاذ قرار يدعو بموجبه الدول الأعضاء إلى اتخاذ التدابير الملائمة لانشاء نظام وطني للاعلام تراعى فيه الحاجات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية لكل بلد والسعي الدائب لتطوير هذا النظام والبنيات الأساسية التي يتألف منها، وأبرزها مراكز التوثيق وأجهزة المحفوظات والمكتبات بالاضافة إلى مختلف وسائل الأعلام المعروفة.

وقد أكد القرار ضرورة لحظ خطة تنمية النظام الوطني للاعلام في خطط التنمية العامة لكل بلد باعتبارها جزءاً أساسياً من الخطة العامة وبدونها لا تكتمل أية خطة للتنمية. وقد لاحظ المؤتمر العام للأونسكو ان كثيراً من الدول والمجتمعات لا تستثمر المعلومات الثمينة المتوافرة لديها بالشكل الأفضل وانما تتركها مخزنة في مستودعاتها دونما استعمال مفيد وأحياناً تهمل حفظها أو تحفظها بطريقة بدائية لا توفر لها امكانية البقاء أو الاستعمال والاستثمار. وغالباً ما يعود السبب في ذلك إلى جهل المسؤولين عن هذا القطاع لأهمية المصادر الوثائقية في تحقيق أهداف التنمية أو لعدم معرفتهم بالخدمات التي يمكنهم الحصول عليها من هذه المصادر. وليس غريباً أن نسمع، بعد أقل من شهرين من صدور هذا القرار، ما أعلنه الرئيس ليوبولد سنغور، رئيس جمهورية السنغال، في الرسالة التي وجهها إلى المؤتمر الدولي لتطوير محفوظات دول العالم الثالث الذي انعقد في مدينة داكار في ٢٩ كانون الثاني (يناير) ١٩٧٥، ان «التنظيم والأسلوب العلمي هما عنصران أساسيان للاستفادة من التراث الحضاري، وان المصادر الوثائقية تصبح، متى جرى تنظيمها بصورة علمية صحيحة، اداة ثمينة بيد الدولة للاستفادة منها في جميع المجالات وخاصة في مجال التنمية». وقد أكّد الرئيس سنغور في نهاية رسالته أن الواجب يقضي «بعد أن تحررنا من نير الاستعمار، وبحكم مستلزمات التنمية، أن نأخذ بعين الاعتبار أهمية الدور الذي يمكن أن تحققه المحفوظات والوثائق في عملية انماء مجتمعاتنا


آلات حديثة لتنظيم وسائل الاعلام وتسهيل نقل المعلومات

* من مواليد طرابلس (لبنان) ١٩٣٥ دكتور دولة في الحقوق. استاذ محاضر في الحقوق (الجامعة اليسوعية)، أستاذ التوثيق في كلية الاعلام والتوثيق (الجامعة اللبنانية). أمين عام مجلس الوزراء، حالياً، وممثل الدولة في مجلس البحوث العلمية.

ودولنا» ولا ننسى، في هذا المجال، أن نشير إلى ما أكّده العالم برنال سنة ١٩٤٥ عندما قال بثقة وإيمان: «لقد بلغ العلم درجة من وحدة الأهداف وتعقيد الأساليب ما جعل من أجهزة التوثيق والمعلومات مفتاح العبور إلى أي تطور في جبهة المعرفة».

وإذا كانت الدولة المتقدمة قد وعت هذه الحقيقة منذ أواخر القرن الثامن عشر، فان الدولة النامية، منذ حصولها على استقلالها وتحسسها بمسؤولياتها الأساسية في حقل الانماء والعمران، بدأت تدرك شيئاً فشيئاً، وان بدرجات متفاوتة، أهمية الدور الذي يجب أن تعطيه لأجهزة الاعلام والتوثيق. فالتقدم السريع للمعارف العلمية والتقنية وطرق استعمالها واستثمارها بالاضافة إلى التداخل والترابط بين العلم والتكنولوجيا، يدعو في عصرنا الحاضر، إلى الاعتقاد بأنه ما من بلد في العالم الحديث يستطيع الاستغناء، من أجل تقدمه وازدهاره، عن وضع خطط شاملة ومتكاملة للتنمية، وانطلاقاً من هذه القناعة اعتمدت معظم الدول المتقدمة، ان لم نقل جميعها، أجهزة أو هيئات متخصصة لوضع الخطط الاجمالية والتفصيلية للانماء الكامل والشامل في جميع الميادين والمرافق. وقد قامت هذه الأجهزة والهيئات بالمهام الموكولة إليها انطلاقاً من مبدأ أساسي يقول بأن التخطيط لا يمكن أن يوضع بصورة علمية إلا إذا استند إلى معلومات صادقة ودقيقة تصبح مرتكزاً لتحديد الحاجات الآنية والمستقبلية، ولمسح الامكانات والطاقات والموارد المتوافرة أو التي يمكن توفيرها لتلبية هذه الحاجات، ولإقرار أساليب العمل الممكن اعتمادها في ضوء التجارب التي قامت بها دول أخرى والنتائج التي توصلت إليها. وعلى هذا يمكننا القول بأن كل بحث حول تخطيط التنمية في أي بلد كان يبقى عقيماً أو ناقصاً إذا لم يسبقه أو لم يرافقه، على الأقل، تخطيط متوازن لتنمية الأجهزة والمراكز المتخصصة التي يفترض فيها تقديم المعلومات اللازمة لوضع خطط التنمية الشاملة. ومن الشروط الأولية التي يجب مراعاتها، عند انشاء أجهزة المعلومات، ان تنظم هذه الأجهزة تنظيماً علمياً يجعلها ممكنة الاستعمال بأفضل الشروط. ومن هنا يبدأ حديثنا عن التطوير التوثيقي أو تطوير مراكز التوثيق ووسائل عملها. ولا بد، من أجل معالجة هذا الموضوع، من التطرق إلى بحثين متكاملين: البحث الأول يتناول تحديد الأهداف والمهام التي يطلب من مراكز التوثيق ان تحققها، والبحث الثاني يتناول الخطط والوسائل التي يمكن اعتمادها لتطوير المراكز التوثيقية وتمكينها من تحقيق أهدافها والقيام بمهامها.

البحث الأول:

أهداف مراكز التوثيق ومهامها:

إن المجتمع الدولي يسعى جاهداً إلى اعتماد الوسائل التي تزيد من تقارب الشعوب والأمم وتبادل المعلومات والنتاج الفكري واختراق الحواجز الجغرافية والمسافات. وليس أدل على ذلك من انتشار وسائل الاعلام المختلفة وتطورها المستمر السريع بحيث يمكن القول بأن هناك «صناعة للاعلام» ترتكز على تقنيات حديثة لنقل المعارف ونشرها بأسهل السبل وبأسرع الوسائل وبأقل التكاليف. وإذا كانت هذه الصناعة ترمي، من جهة، إلى نشر المعرفة أفقياً بالسرعة الممكنة وبالطريقة التي تصل إلى جمهرة من الناس في المنزل أو الفندق أو المكتب أو الشارع أو المعمل أو المقهى، وذلك عن طريق الاذاعة والتلفزيون والصحف ووسائل الاتصالات السلكية واللاسلكية، فانها ترمي، من جهة أخرى، إلى نقل المعرفة عمودياً وفي العمق إلى النخبة من الباحثين والعلماء وأصحاب الاختصاص من أجل أهداف واضحة ومحددة تعتمد على البحث والتحليل والاستنباط. ويقوم بهذا الدور مراكز البحث وأجهزة التوثيق التي يمكنها، أن أحسن تخطيطها وتنظيم عملها، ان تحقق أهدافاً عديدة أبرزها الثنان: التخطيط لتكوين مجتمع مطلع، وتنمية الوعي العام لادراك أهمية التوثيق.

الهدف الأول:

التخطيط لتكوين مجتمع مطلع:

قد يكون من أبرز المهام التي يرتجى تحقيقها من مراكز التوثيق المساهمة في التخطيط الهادف إلى تكوين مجتمع مطلع يعرف ماضيه وحاضره، ويدرك حاجاته ومشكلاته وأفضل الحلول لها، ويعد لتأمين مستقبل يحافظ فيه على تراثه ويضيف إليه ما يمكن أن ينميه ويطوره، من أجل ذلك تسعى مراكز التوثيق إلى ايصال المعلومات والمعارف إلى المؤسسات والهيئات

والأفراد التي يتألف منها المجتمع كل وفقاً لما يحتاجه منها كمّاً ونوعاً. ويبرز دور مراكز التوثيق، بصورة خاصة، في الفائدة التي يمكن أن تقدمها للادارة والمؤسسات، العامة منها والخاصة، في تحقيق أهدافها المختلفة ولا سيما في وضع خطط التنمية الاقتصادية منها والاجتماعية والثقافية والعلمية.

١ – التوثيق والادارة :

الادارة هي الادارة الرئيسية للاختيارات السياسية وعليها أن توفر للسلطة السياسية المعلومات اللازمة التي تمكنها من اتخاذ أفضل القرارات.

ولكي تتمكن الادارة من الاضطلاع بهذه الوظيفة لا بد لها من جمع المعلومات الكاملة عن سير عملية الأجهزة الحكومية وعن علاقات الادارة بالمواطنين وعن الحاجات الحاضرة والمستقبلية وعن الوسائل الكفيلة بتلبية هذه الحاجات. ولا يجوز للادارة أن تحتفظ بالمعلومات التي تجمعها في السجلات أو الملفات أو الجوارير، بل عليها أن تضعها، بعد جمعها وتنسيقها وتحليلها، بتصرف المسؤولين وأصحاب السلطة في اتخاذ القرارات. ويذهب بعض المجتهدين إلى القول بأنه يتوجب على الادارة أيضاً أن تضع هذه المعلومات بتصرف المواطنين حتى يكونوا على علم بالأوضاع وحتى تترسخ العلاقة بين الدولة والمواطنين وحتى يزيد التفاهم والتعاون بين الحاكم والمحكوم. وفي الواقع غالباً ما تكون السلطة السياسية منهمكة بالأحداث الجارية، فينبغي على الادارة، وهي التي تشكل بطبيعتها ذاكرة المجتمع، أن تقوم بتأمين الصلة بين الماضي والحاضر والمستقبل، وفي حين كان دور الادارة، في الماضي، يقتصر على تسيير الشؤون اليومية وتصريفها وعلى حل المشكلات التي تواجهها بصورة عفوية ووفقاً للتوجيهات العامة التي تتلقاها من السلطة السياسية، أصبح هذا الدور يتعاظم يوماً بعد يوم مع تطور المفهوم الحديث للادارة. وقد أدّى تنوع وتشابك المشكلات المطروحة على الادارة، وخاصة في البلدان النامية، إلى تجسيد فكرة التخطيط العلمي المبني على قواعد البحث والترقب والتبصر.

والأدارة، بالنظر لدور الوسيط الذي أصبحت تقوم به لدى السلطة السياسية في اختيار قراراتها، يجب أن يكون لديها الأطر المتخصصة بالتوثيق حتى تستطيع تقديم المعلومات والمعارف اللازمة لاتخاذ القرارات السياسية، وقد يصل الدور الذي يمكن للادارة أن تقوم به، استناداً إلى المعلومات التي تتوافر لديها، إلى واجب أخذ المبادرة في حث السلطة السياسية على اتخاذ القرارات أو تعديلها وفقاً لتطور الحاجات وتلبيتها.

٢ – التوثيق والتنمية :

ان التطور الكبير الذي سجله العالم في حقول العلم والصناعة، وخاصة منذ القرن التاسع عشر، يعود إلى حد كبير، إلى تبادل المعلومات العلمية والمعارف التقنية بين المجتمعات العلمية والصناعية. ولقد أدى هذا التبادل إلى تحقيق المزيد من الاكتشافات والنظريات وإلى نقل المعرفة وأساليب العمل من مجتمع إلى آخر، وإلى نقد النتائج العلمية من قبل العلماء وإلى التحضير التدريجي لنظريات جديدة. ومما لا شك فيه أن تقدم المعرفة هو ثمرة تبادل المعلومات بين العلماء والباحثين من مختلف الجنسيات واللغات والحضارات. وقد أدى انتشار أسلوب البحث والتوثيق إلى تحقيق وسائل التنمية في الدول المتقدمة وهو ما يجب أن تستوحيه الدول النامية وان تعمل بموجبه بما يتناسب مع حاجاتها وأوضاعها.

ولقد أصبح من الأمور البديهية، اليوم، ان الصناعي والتاجر والمزارع وكل عامل في حقل الانتاج لا يمكنه أن يستمر في نجاحه وتقدمه ان لم يظل بصورة مستمرة على علم بأوضاع عمله ومستجداته وعلى صلة وثيقة بالأساليب والوسائل الحديثة التي يمكن إدخالها في نشاط عمله. وعندما يقرر، أي واحد من هؤلاء، أن يطور عمله وانتاجه لا بد له من الاطلاع على المعلومات المتعلقة بالاختبارات والتجارب التي أجريت حول النشاطات المشابهة لنوع عمله، سواء على الصعيد الوطني أم على الصعيد الدولي، والاستفادة قدر الامكان من نتائج هذه الأختبارات، سلبية كانت أم إيجابية. والعالم يشهد، اليوم، في معظم الدول المتقدمة، اهتماماً متزايداً بمراكز التوثيق المتخصصة، في المعامل والمصانع والشركات والمؤسسات، التي تقدم للباحثين والعاملين جميع ما يحتاجون إليه من دراسات وتقارير واحصاءات ومعلومات تساعدهم على حل مشاكلهم وتطوير

أساليب عملهم، وتمكنهم من الأعداد لخطط انمائية شاملة وتفصيلية.

٣ – التوثيق والبحث التاريخي:

البحث التاريخي قابل للتوسع بوسائل مختلفة. ومن البديهي أن أبرز هذه الوسائل مراكز المعرفة والتوثيق التي تمكن الباحث من الاطلاع على شتى مصادر البحث التي تغذي تحقيقاته بالتوجيهات الأولية وبالمعلومات اللازمة عن الدراسات والمؤلفات المتعلقة بالموضوع الذي يبحث فيه. ومراكز التوثيق لا تهدف، فقط، إلى تقديم المساعدة للباحث، وإنما تقوم بنشر المنجزات التاريخية ساعية من وراء ذلك إلى خلق جو من التعاطف الانساني وإلى تقوية الرغبة في مزيد من المعرفة لدى مختلف طبقات المجتمع لتعيش بكاملها ماضيها الوطني.

وقد اعترف العالم، اليوم، بالدور الكبير الذي تلعبه المحفوظات الوطنية وامناؤها كمخبرين ومرشدين في مختلف فروع البحث أو الاعلام التاريخي. ففي فرنسا انشئت عام ١٨١٢ مصلحة خاصة في الدار الوطنية للمحفوظات تعرف بمصلحة الاستعلامات وهي عبارة عن مكتب للاستقبال ومركز للبحوث الاعلامية. وقد استطاعت هذه المصلحة أن تؤمن منذ انشائها حتى سنة ١٩٥٢ المعلومات اللازمة لوضع حوالي ٥٨٣٠٠ بحثاً مختلفاً. وقد أصبح المعدل السنوي للأبحاث، التي توضع بفضل تسهيلات هذه المصلحة، حوالي/٥٠٠٠/بحث، أما في الولايات المتحدة الأميركية فان ادارة المحفوظات الوطنية التي انشئت عام ١٩٣٥ زودت، منذ البداية، بادارة للاستعلامات مهمتها إرشاد الباحثين والادارات وتزويدهم بالمعلومات المطلوبة. وقد نجح هذا المركز نجاحاً عظيماً منذ السنوات الأولى لانشائه، وقد سجل في سنة واحدة (عام ١٩٥١) ٧٨٠٠٠/طلب معلومات.

وتجربة الاتحاد السوفياتي، في هذا المجال، لا تقل أهمية عن التجارب التي ذكرنا، فمحفوظات الاتحاد السوفياتي مزودة بتوثيق مهم. وهي تحوي جدولاً عاماً بالوثائق المودعة لدى مختلف دور محفوظات الاتحاد. وحتى مطلع عام ١٩٥٢ انجزت ادارة المحفوظات السوفياتية وضع دليل بأكثر من ٨٨٪ من المحفوظات ويشمل هذا الدليل حوالي ٩٦ مليون موضوع.

أما لبنان فان الوثائق المتعلقة بتاريخه وحياته السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية موجودة ومتوافرة، غير انها مجمعة أو مبعثرة هنا وهناك في محفوظات الادارة العامة تارة وفي المحفوظات الخاصة أو محفوظات الدول الأجنبية تارة أخرى. ولا بد من جهد كبير وخطة عمل شاملة من أجل رصد هذه الوثائق وجمعها وترميمها وتصنيفها ونشرها.

الهدف الثاني:

تنمية الوعي العام لادراك أهمية التوثيق:

إن حفظ المصادر الوثائقية ليس غاية في حد ذاته وانما هو وسيلة يقصد باستعمالها حسن الاستفادة من المعلومات التي توفرها هذه المصادر عن طريق المراجعة والتحليل والاستثمار. أما إذا بقيت المصادر الوثائقية في المستودعات دون استعمال فانها تصبح مادة جامدة لا فائدة منها وتتعطل نتيجة لذلك الغاية من كل تشريع أو تنظيم لها.

ولكي يعتاد المجتمع على حب الاطلاع والمراجعة والتحليل لا بد من إنماء هذه الملكة في نفوس المواطنين وذلك إما بتعليم حسن استعمال المصادر الوثائقية بدءاً بمرحلة التعليم الأولى حتى المرحلة الجامعية، وإما بتشجيع عادة المطالعة وحب البحث بشتى الوسائل الممكنة.

ولا بد هنا من أن نشير إلى أن المؤسسات التعليمية في الدول المتقدمة اتخذت، منذ مطلع القرن الحالي، التدابير اللازمة لكي تدخل في مناهجها التعليمية مادة التعليم المنتظم لكيفية استعمال المصادر الوثائقية وذلك بالرجوع إلى المكتبات ودور المحفوظات ومراكز التوثيق. أما على الصعيد الجامعي فان المناهج تلحظ دروساً اختبارية وتجريبية أو تطبيقية بالاضافة إلى الدروس النظرية، فتفرض على الطالب مراجعة الكتب والمؤلفات ومختلف المصادر الوثائقية حتى يزداد تعمقاً في فهم مادة اختصاصه. ولا يمكن لذلك أن يتحقق بالطبع إلا إذا توفر للجامعات والكليات مكتبات متخصصة كاملة الأعداد والتنظيم. وبالاضافة



الكمبيوتر، لاختصار وتجميع وتنظيم عطاء المعلومات في الدول المتحضرة.

إلى ذلك أصبحت هناك كليات متخصصة لتدريس علوم المحفوظات والوثائق والمكتبات وتخريج الاختصاصيين في هذه الفروع لاستلام وادارة المكتبات وادارة المحفوظات ومراكز التوثيق.

البحث الثاني:
التخطيط اللازم لتحقيق التطور التوثيقي

خلال النصف الثاني من القرن الحالي، أصبح من المتفق عليه أن الأعلام، بمفهومه العام ووسائله المختلفة، يشكل عنصراً أساسياً من مواردنا الطبيعية وان ولوج باب المعرفة هو حق أساسي من حقوق الانسان. ومن هذا المنطلق قامت منظمة الأونسكو، خلال السنوات الأخيرة، بتنظيم سلسلة من اجتماعات الخبراء عقدت في كل من أميركا الجنوبية (في كيتو – اكوادور من ٧ إلى ١٤ شباط – فبراير ١٩٦٦) وآسيا (كولومبو – سريلانكا من ١١ إلى ١٩ كانون الأول – ديسمبر ١٩٦٧) وأفريقيا (كمبالا – أوغندا من ٧ إلى ١٥ كانون الأول – ديسمبر ١٩٧٠) والبلدان العربية (القاهرة من ١١ إلى ١٧ شباط – فبراير ١٩٧٤) وباريس (من ٤ إلى ٦ كانون الأول – ديسمبر ١٩٧٢، ومن ٢٨ إلى ٣٠ أيار – مايو ١٩٧٣) لبحث تخطيط البنيات الأساسية للاعلام وخاصة المكتبات وأجهزة التوثيق والمحفوظات. ونتيجة لهذه الدراسات اعتبرت منظمـــة الأونسكو ان أجهزة التوثيق والمحفوظات والمكتبات هي أجهزة تقوم بأدوار متكاملة وهي تشكل بمجموعها «جزءاً لا يتجزأ من البنيات الأساسية الوطنية للتواصل من أجل التنمية». ولهذه الغاية اتخذ المؤتمر العام للأونسكو في دورة ١٩٧٢ قراراً كلف بموجبه المدير العام للمنظمة «عقد مؤتمر حكومي حول التخطيط الشامل للبنيات الأساسية لأجهزة التوثيق والمحفوظات والمكتبات»، يسهم فيه كل من الاتحاد الدولي للتوثيق (FID) والاتحاد الدولي لجمعيات أمناء المكتبات (FIAB) والمجلس الدولي للمحفوظات (CIA) مهمته صياغة المفاهيم العامة المنبثقة عن الاجتماعات الأقليمية للخبراء، الوارد ذكرها أعلاه، ووضع التوجيهات التي تساعد على تطوير أجهزة التوثيق والمحفوظات والمكتبات

ووضع خطط وطنية للأعلام. وقد عقد المؤتمر المذكور في مقر الأونسكو في باريس من ٢٣ إلى ٢٧ أيلول (سبتمبر) ١٩٧٤، وتمثل فيه لبنان. وقد كان من أبرز ما بحث في هذا المؤتمر المواضيع التالية: التخطيط المتكامل للبنيات الأساسية الوطنية في مجال التوثيق والمكتبات والمحفوظات، تنظيم تطبيق التكنولوجيا على أجهزة التوثيق والمكتبات والمحفوظات، وضع نظام عالمي للببيليوغرافيا، وتحديد دور منظمة الأونسكو في هذه النشاطات. وخلال الاجتماعات التي عقدها المؤتمر جرى الاقرار بأن تسهيل إطراد التنمية بصورة عامة يستلزم تخطيطاً أساسياً لانماء موارد المعرفة وأن أجهزة التوثيق والمكتبات والمحفوظات لا يجوز اعتبارها، وهي مصدر رئيسي للمعرفة، وحدات مستقلة تعمل الواحدة منها بمعزل عن الأخرى، وإنما يجب البحث في تطويرها على أساس أنها عناصر متعددة لمجموعة من النشاطات الغاية منها تسهيل الوصول إلى المعرفة وتأمين التواصل الاعلامي.

ولعل أهم ما أقره المؤتمر يعود إلى التوصية المتعلقة بدعوة الدول إلى اقامة نظام وطني للاعلام وتطوير هذا النظام، بصورة مستمرة، بما يتناسب مع الحاجات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية لكل بلد. وهذا ما أقره المؤتمر العام لمنظمة الأونسكو في دورته الثامنة عشرة في خريف ١٩٧٤ بعد أن ثبت لديه «انه في مناطق عديدة من العالم هناك عدم توازن في توزيع الموارد التي تمهد لبلوغ التواصل الإعلامي في جميع مجالات المعرفة». وقد ركز المؤتمر على لفت نظر جميع الدول الأعضاء والمنظمات الحكومية وغير الحكومية إلى أهمية الاعلام «هذا الأساس لرقي الحضارات والمجتمعات والذي بفضله يمكن تحسين التفهم والتعاون بين الشعوب».

من هذا المنطلق نعتبر أن البحث في التخطيط من أجل التطور التوثيقي لا يمكن أن يكون كاملاً إذا لم يتناول، في آن، أجهزة التوثيق والمحفوظات والمكتبات، باعتبارها من البنيات الأساسية لأي نظام وطني للاعلام قد يعتمد. وهذا ما يستدعي بالضرورة أن نضع أمام أعيننا اعتبارين أساسيين لوضع خطة تنمية وتطوير هذه البنيات:

– الاعتبار الأول هو أن هذه الخطة يجب أن تتناسب مع المهام والأهداف التي يطلب من أجهزة التوثيق والمحفوظات والمكتبات أن تقوم بها.

– والاعتبار الثاني هو أن تخطيط البنيات الأساسية للنظام الوطني للاعلام يفترض وضع خطط التنمية العائدة لكل من هذه البنيات الأساسية في ضوء خطة شاملة متناسقة تهدف إلى تحقيق أغراض النظام الوطني للاعلام بحيث تقوم كل واحدة من البنيات الأساسية بدور هام قد يبدو لأول وهلة بأنه مستقل وخاص ولكنه في الواقع دور متمم لأدوار البنيات الأخرى ومتكامل معها بالتعاون والتفاعل.

ولبلوغ هذه الغاية لا بد لعملية التخطيط من أن تتناول الأمور التالية:

١ – وضع خطط تفصيلية لتنمية كل من البنيات الأساسية للنظام الوطني للاعلام بما في ذلك أجهزة التوثيق والمكتبات والمحفوظات.

٢ – تنسيق الخطط التفصيلية في إطار الخطة الانمائية العامة للنظام الوطني للاعلام.

٣ – إدخال الخطة الانمائية العامة والخطط التفصيلية في الخطة الشاملة والقطاعية للانماء العام.

٤ – مراعاة الأهداف الدولية للنظم الاعلامية العالمية حتى يتأمن التنسيق المتكامل بين النظام الوطني للاعلام والأنظمة الدولية الاعلامية.

وضمن هذا الاطار العام ومع مراعاة القواعد الأساسية للتخطيط، لا بد لنا في لبنان، البلد النامي وملتقى الحضارات، من أن نبادر إلى وضع خطة لتنمية وتطوير مختلف البيئات الأساسية للاعلام في ضوء خطة شاملة للتنمية، تراعي المبادئ التالية:

١ – يجب أن تكون بنية النظام على أكبر قدر ممكن من المرونة، حتى يسهل في المستقبل تعديلها أو تطويرها في ضوء تطور الحاجات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

٢ – يجب أن تستثمر الموارد الطبيعية إلى أقصى حد وأن يتأمن أكبر قدر ممكن من التنسيق والتعاون بين مختلف أجهزة الاعلام.

وأما بالنسبة إلى مراكز التوثيق، على وجه التحديد، فان الخطة تستوجب التركيز، بصورة خاصة، على تنمية وتطوير أجهزة التوثيق القائمة حالياً وعلى انشاء مراكز توثيق جديدة تقتضيها حاجة الانماء والتطور العام في البلاد ●

هيمنة البابوية على غرب أوروبا في القرون الوسطى

الدكتور محمد مخزوم*

مشهد يتوسّل فيه «الهراطقة» بعدم احراق زعيمهم في عهد فيليب اوغست ملك فرنسا.



● تميزت عملية انتشار التعاليم المسيحية في المجتمع الأوروبي ببطئها الشديد ومع ذلك فقد احدثت ثورة حقيقية داخل المجتمع الوثني. وبرز التباين أكثر حدة بينها وبين النظم والتقاليد التي كانت سائدة في الامبراطورية الرومانية. فالدعوة إلى المحبة والسلم ونبذ عبادة الأوثان وعدم الاعتراف بتأليه الامبراطور ورفض الخدمة في الجيش شكلت تهديداً مباشراً لأسس الدولة والطبقة الممتازة الحاكمة، وخطراً عظيماً على الجهاز العسكري.

ورغم الاضطهاد الشديد الذي مارسه الاباطرة والحكام على المسيحيين الأوائل فقد استمرت الدعوة في الانتشار بل زادها الاضطهاد اندفاعاً لكون الشهادة بنظر المسيحيين طريقاً يوصل إلى دنيا الخلود.

وهكذا استطاع المسيحيون، بفعل الإيمان الديني، بعد مرور قرنين وربع القرن من النضال العنيد المستميت، انتزاع صك الاعتراف بهم، من قبل الاباطرة، كقوة ضمن الامبراطورية الرومانية، لا يمكن تجاهلها.

ولهذا فإن الجهاز السياسي في الامبراطورية الرومانية المتمثل بسلطة الامبراطور قد أقام بعد

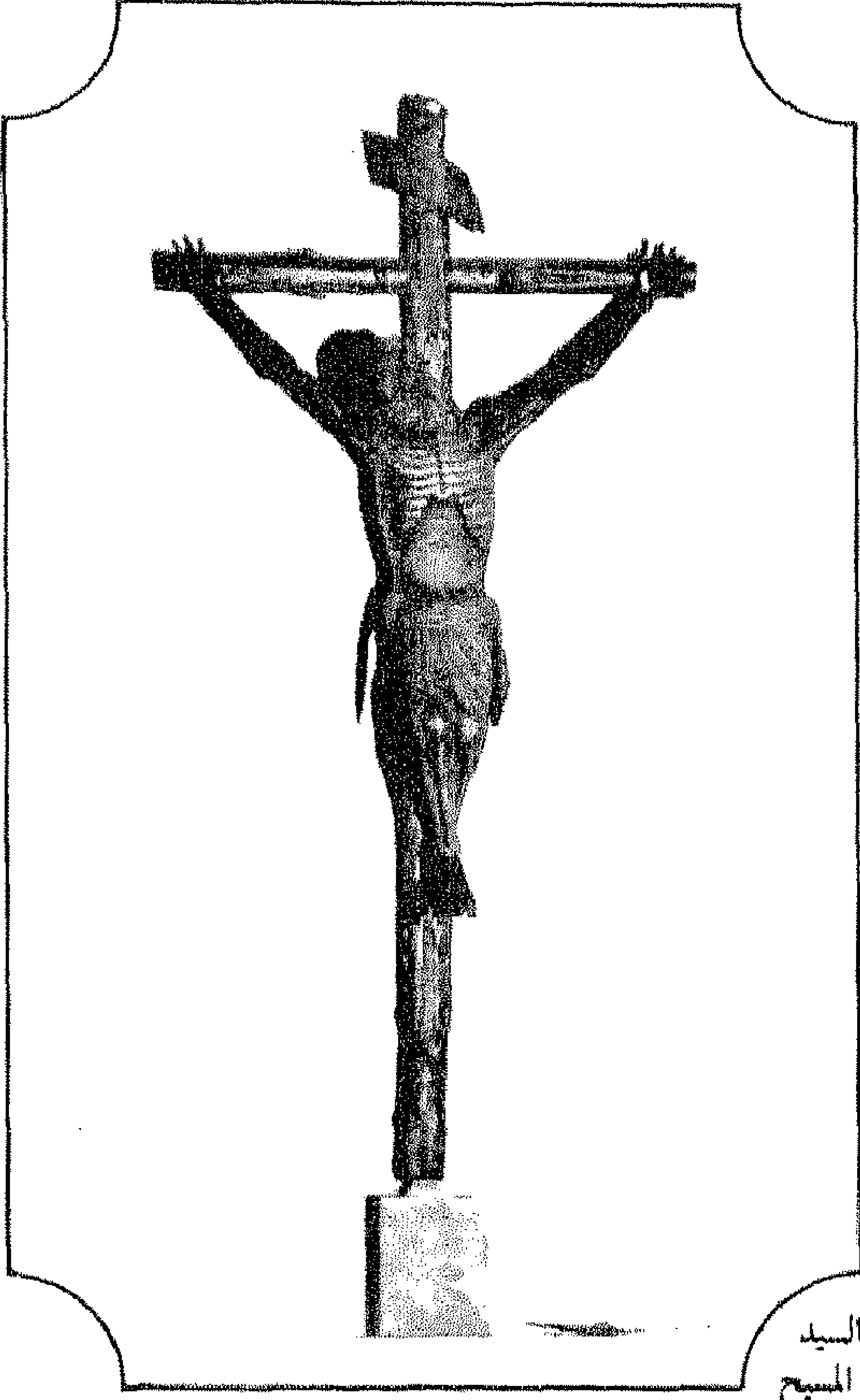
* د. محمد مخزوم: استاذ التاريخ الأوروبي في كلية الاداب والعلوم الانسانية - الجامعة اللبنانية.

الاعتراف توازناً اجتماعياً ملموساً بين القوتين الوثنية المنقسمة والجهاز الكنسي المتماسك وقد خفف في نفس الوقت من مشاكل كل المسيحيين الثائرين ضد مؤسسات الحكم القائمة. وبهذا فقد أخذت الكنيسة منذ تاريخ الاعتراف بها تنمو في احضان السلطة الزمنية حتى القرن التاسع الميلادي عندما اصبحت قوة أكثر تماسكاً في غرب أوروبا من اية مؤسسة أخرى من بينها الامبراطورية نفسها. وكان ضعف البابوية في الغرب في أوائل العصور الوسطى ناتجاً عن كون القوة السياسية الفعلية كانت بيد البرابرة الذين اشعلوا الحروب الاهلية واوجدوا نوعاً من عدم الاستقرار السياسي في جميع الانحاء. كما انغمس رجال الدين في النزاع القائم حتى بات صوت الكنيسة غير مسموع بين قعقعة السلاح. بالاضافة إلى أن الامبراطور البيزنطي كان ينظر إلى ازدياد قوة البابوات بقلق شديد، لذلك استمر في مراقبتهم من خلال ارسال المندوبين إلى روما والحملات العسكرية إذا اقتضى الأمر.

وأمام ازدياد خطر القبائل اللمباردية على املاك البابوية في ايطاليا، في القرن الثامن، سارعت البابوية عندها إلى الاستغاثة بملك الفرنجة، شارل مارتل، واعلان خضوعها التام له رغم انه لم يتوان عن تقليص نفوذها في دولته. وبقضاء بيبن (PEPIN) على دولة اللمبارديين ازدادت قبضة الدولة على الكنيسة مما مهد إلى ظهور النظرية المعروفة بالقيصرية البابوية[1] في الغرب Cesaropapisme. أما عن علاقة الكنيسة البابوية بالدولة في العهد الكارولنجي فقد تمثلت بازدياد سطوة الدولة في عهد شارلمان الذي استغل نفوذه القوي وامتلك صلاحية تعيين الأساقفة والدعوة إلى عقد المجامع الدينية وتولي رئاستها وتحديد حقوق رجال الدين وواجباتهم في دولته بل انه اعتبرهم اتباعاً دون تمييز عن الكونتات.

في الشرق: السلطة الزمنية كانت أقوى

أما في القسم الشرقي من الامبراطورية البيزنطية فقد كانت سلطة الاباطرة قانوناً وعرفاً أقوى من سلطة الكنيسة الممثلة برجال الدين. لهذا اعتبر الاباطرة الشرقيون الكنيسة مؤسسة من مؤسسات الحكم يمارسون عليها نفوذهم كما يمارسونه على الجهاز الاداري في تعيين البطاركة وعزلهم. وظهرت القيصرية البابوية في أوضح معانيها في قول اسقف جستنيان



السيد المسيح

«يجب الا يحدث شيء في الكنيسة ضد رغبة الامبراطور» وكذلك في رسالة ليو الثالث الايسوري التي بعث بها إلى البابا غريغوار الثاني بأنه «امبراطور وقس». فبلغت سطوة الاباطرة على الكنيسة بأن اخذوا يحددون عقائد الكنيسة بمنشورات امبراطورية بل انهم اعتبروا المجامع الكنسية بمثابة برلمانهم الديني. وذهب بعضهم إلى وضع الاناشيد والترانيم الكنسية وفرض الطقوس والقاء تهمة الهرطقة على كل معارض لسياسته الدينية أو الزمنية. وكان استمرار سيطرة المؤسسة الامبراطورية في الشرق على الكنيسة طيلة العصور الوسطى يعود إلى الانقسامات المذهبية التي شهدتها على الولايات الشرقية (سورية وفلسطين ومصر) وولاية شمال افريقيا حيث تتواجد اجناس كان لها من قابلية الانقسام فيما بعد اثر بعيد على كيان الدولة البيزنطية. ومما ساهم أيضاً في شدة قبضة الاباطرة على الكنيسة في الشرق: الاقتصاد النقدي المتين الذي عرفته الامبراطورية البيزنطية وهيأ لها حكماً بيروقراطياً مركزياً متماسكاً بواسطة جيش من الموظفين

والجند الذين هيأوا للدولة بدورهم الامن والاستقرار وسبل الدفاع عنها.

وهكـذا سقطت كـل المحاولات المساندة لاستقلالية السلطة الروحية عن سيطرة الاباطرة أمام تمسك هؤلاء بهذه السلطة. وكان من أهم دعاة حزب الكنيسة البطريرك فوتيوس الذي نادى بعدم وجوب تدخل الامبراطور في الشؤون الدينية. ولكن اشهرهم يوحنا الدمشقي الذي أعلن قائلاً: «نحن نطيع الامبراطور فيما يتعلق بحياتنا اليومية، أي في الولاء والضريبة وما يحق له علينا من الجبايات. أما في الحكومة الكنسية فلنا القسيسون والمبشرون بالكتاب المقدس وشارحوا القوانين الكنسية. فالتنظيم السياسي من اختصاص الامبراطور، أما التنظيم الكنسي فهو من اختصاص القسيسين والمعلمين، وليس تجريدهم منه الا من قبيل اللصوصية».

مقوّمات تفوّق السلطة الروحية:

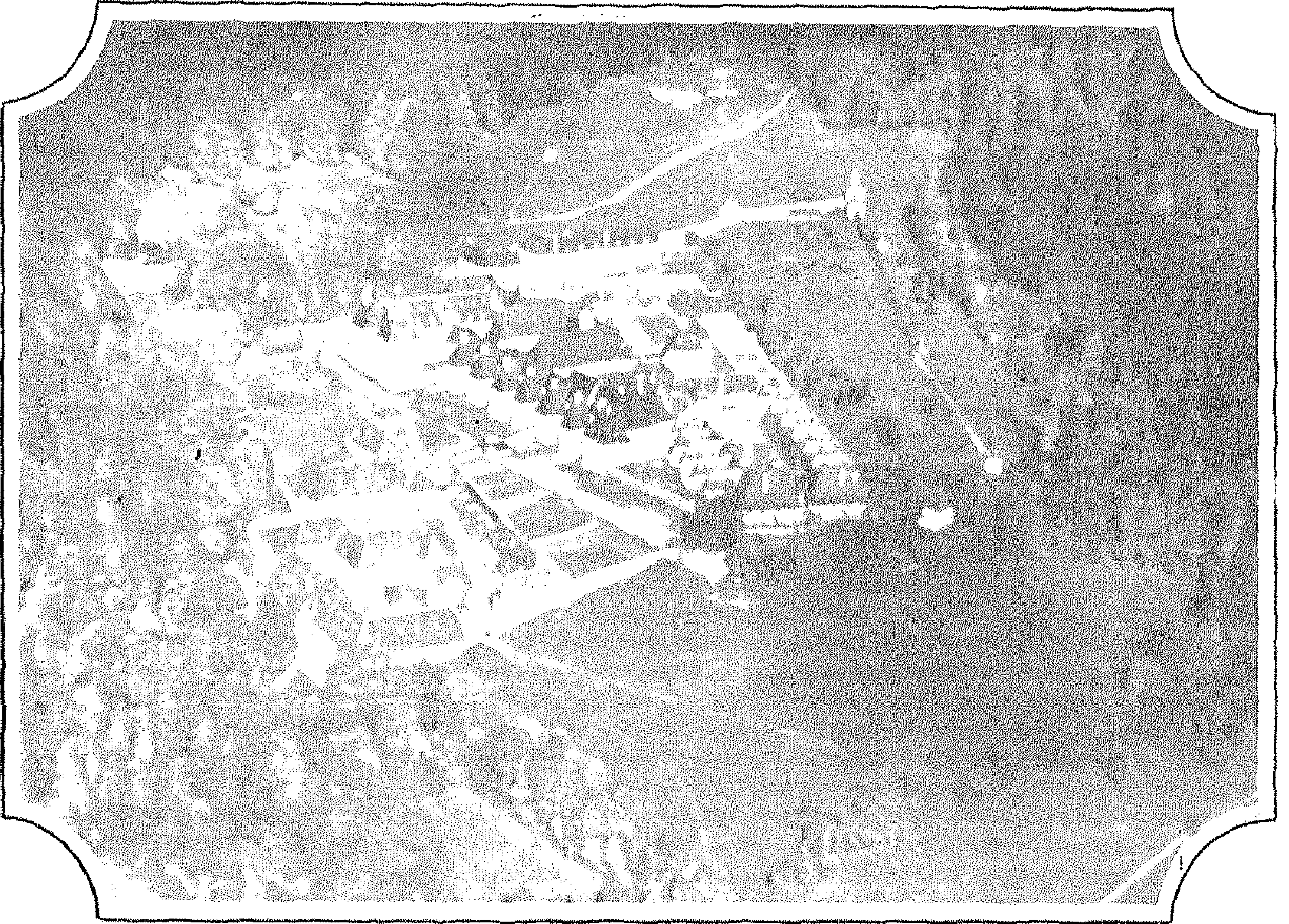
وعندما بدأت أحوال الكنيسة تستقر في الغرب بعد القرن التاسع بما حصلت عليه من هبات[٢] وما أكتسبته من نظريات التفوق[٣] وما جنته من أعمال التبشير بالمسيحية تحت جناح البابوية، بين القبائل التي اخذت منذ هذا القرن تجنح نحو الاستقرار والتمركز النهائي وتتخلى عن سلوكها العشائري في ظل النظام الاقطاعي الذي بدأت تظهر معالمه الأساسية بوضوح، ظهرت مشكلة تحديد مصالح الطرفين: البابوية وما تمثله من سلطة روحية والامبراطورية وما تمثله من مؤسسات زمنية.

فمنذ حركة الاصلاح الداخلي التي قامت بها البابوية أوائل القرن الحادي عشر متمثلة باصلاح السلك الكهنوتي بمنع السيمونية[٤] وزواج رجال الدين ووجوب حصر انتخاب البابوات بالكرادلة فقط ورفض قبول تعيينهم من قبل الاباطرة، وبعد أن اصدر البابا غريغوار السابع (١٠٧٣ — ١٠٨٥) ما عرف بـ «الارادة البابوية»[٥] أخذ الاباطرة يتخوفون من هذا المنحى الاصلاحي. فوقع الخلاف الذي تطور إلى صراع مسلح بين السلطتين انقسمت أوروبا على اثره إلى حزبين لكل منهما دعاته وفلاسفته وحججه.

كان انتصار البابوية العسكري على الجهاز الامبراطوري في الحروب التي قامت بينهما، منذ القرن الحادي عشر حتى القرن الرابع عشر، يزيد من هيمنة الكنيسة على المجتمع الوسيط. فباتت سيادتها السياسية أوطد رسوخاً من سيادة السلطات الزمنية في كل غرب أوروبا وامتلكت ثروة عقارية هائلة، عن طريق الحروب الصليبية وصكوك الغفران، والنذور ثم الهبات التي يقدمها الحكام ساهمت في اقامة (مصرف) نقدي يضاهي تقريباً ما حوته جميع خزائن ملوك أوروبا من أموال: فكان البابا يستغل هذه الثروة الاقتصادية العظيمة ويوزعها على الكهنة والمستشفيات والاديرة والفقراء. وبهذا مثلت البابوية على الصعيدين المادي والمعنوي، القوة الرادعة للاباطرة طيلة أواخر العصور الوسطى.

ومنذ القرن العاشر وعلى أثر تفسخ السلطة السياسية بوفاة شارلمان أخذ الملوك يمنحون الاقطاعات الواسعة للأسقفيات لينالوا تأييد رجال الدين لهم ضد النبلاء كما أخذت الكنيسة تمتنع عن دفع الضرائب واكتفت بتقديم بعض المساعدات المحدودة للحكام.

والتنظيم الكنسي الاقطاعي في تراتبيته كان مشابهاً لمثيله السياسي بل يفوقه قوة ومتانة، إذ كانت ديمومته تثير حسد النبلاء وخوف الملوك فبينما كانت الأرض المقطعة تنتقل من تابع إلى آخر بحكم الوفاة أو تحلل النبيل من العقد كانت ملكية الكنيسة لها مستمرة حتى شبهت بـ «اليد التي لا تموت». وهكذا برزت الكنيسة الاقطاع وامتلكت حوالي ثلث الأرض بمن فيها من اقنان. وكانت ضريبة العشور من أثقل الضرائب التي تمتد إلى جميع الفئات الشعبية. كما أصبحت الهبات التي كانت العامة تقدمها إلى رجال الدين باختيارهم، ملزمة. وكان للكنيسة اقطاعياتها ومحاكمها الخاصة التي يخضع لها اتباعها. ولما كانت الحروب الاقطاعية المتعارضة مع جوهر الدين تثقل كاهل الكنيسة لما تتطلبه حياة الجندية واقتناء الفرسان من مصروفات ضخمة فقد أوجدت «السلام الأهلي» ثم «الهدنة الربانية» التي حرمّت الحرب أيام الأعياد والصوم.



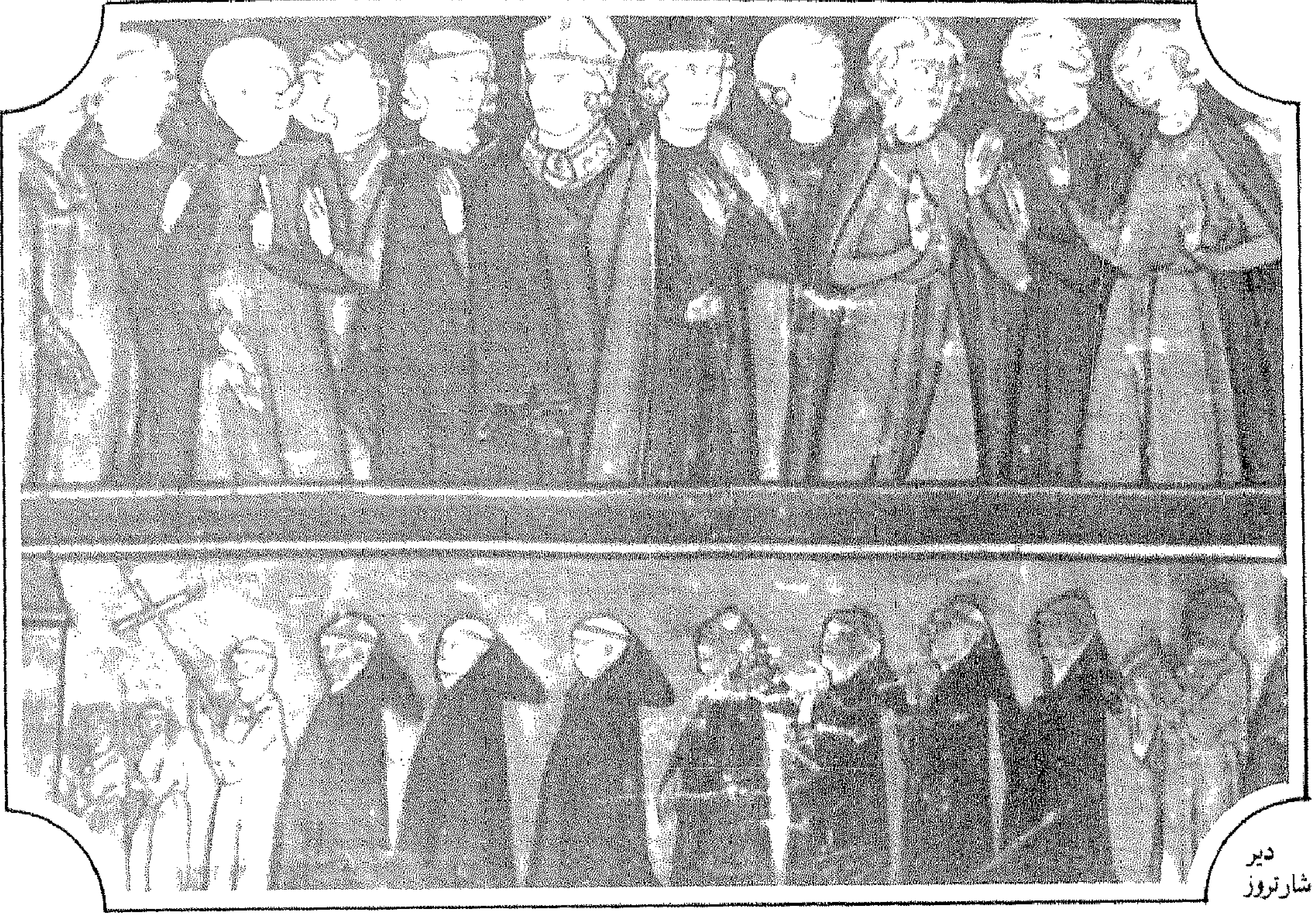
تأسيس احد الأديرة باشراف الرهبان.

الحروب الصليبية تؤكد وتمد نفوذ البابوية :

كانت دعوة البابوية إلى الحروب الصليبية ذات وجهين أساسيين : أولهما كوسيلة لمد سيطرتها ونفوذها على الكنيسة الشرقية بعد أن وصلت العلاقة بينهما إلى حد القطيعة الكبرى سنة ١٠٥٤ ، وثانيهما استغلال النزعة الحربية التي سادت المجتمع الاقطاعي في توجيهها وتحت اشرافها نحو خدمة الغرض الديني الذي يؤدي بالتالي إلى تأكيد زعامتها العالمية. ومع ذلك فإن دفة الحرب الصليبية خرجت فيما بعد من يد البابوية لأن غالبية الامراء الصليبيين الذين اشتركوا في هذه الحرب كانوا ينشدون تحقيق مكاسب مادية لهم في الشرق. كما أن اكثر ملوك أوروبا (باستثناء لويس التاسع) لم يخرجوا في حملاتهم الا تحت اشتداد ضغط البابوية عليهم. أما الأقنان فقد اندفعوا نحو الشرق أملاً في وجود حياة أهنأ وأفضل لهم أو هرباً من الانظمة الاقطاعية الجائرة المتمثلة بالالتزامات والخدمات والاحتكارات المتنوعة.

ومع أن البابوية قد علت زعامتها في أوروبا على كل الزعامات الزمنية في اشعال نار الصليبية وتبنيها، الا أنها فشلت في إعادة الوئام بين الكنيستين. لأن هذه الحرب جسدت الكراهية بين المسيحيين الاغريق والمسيحيين اللاتين بسبب ما أتت عليه الحملة الشعبية الأولى من أعمال السلب والنهب في الأراضي التي اجتاحتها، وهي في طريقها إلى القسطنطينية، لم ما كان من احتلال الصليبيين للقسطنطينية في الحملة الرابعة ما يزيد على نصف قرن من الزمن. مما جعل المؤرخ أوسبنسكي يقول بهذا الصدد : «كانت معاملة الأتراك لسكان القسطنطينية أرحم من معاملة الصليبيين لهم خلال احتلالها عام ١٢٠٤» كما ذكر فازيليف عن أحد معاصري سقوط القسطنطينية قوله : «انه لخير لنا أن نرى العمامة التركية في مدينتنا من أن نرى فيها تاج البابوية».

وما ينسب إلى البابوية من انتصارات في حركة الاسترداد القوية التي بدأت في شمال اسبانيا لا يعود في الحقيقة إلى العامل الديني فحسب بل إلى ظهور النزعة القومية ورغبة الامراء في التوسع وزيادة الاقطاعات من جهة وضعف الخلافة الاسلامية في قرطبة من جهة ثانية.



دير
شارتروز

دور الأديرة والعلم في استمرارية هذا النفوذ :

اعتبرت الاديرة من أهم المؤسسات الدينية التي اعتمدت عليها البابوية في تركيز نضالها ضد السلطة السياسية. كما اعتبرت معينها الذي لا ينضب من الدعم المادي، لما تملكه من الضياع والأراضي الواسعة، لمواجهة مصروفاتها الضخمة، وللحفاظ على رهبة الدين في قلوب العامة. ويشير المؤرخ فيشر إلى أهمية الاديرة بقوله : «إن الاديرة – فضلاً عن ايوائها أهل التقوى والنسك والهدوء من عواصف الحياة القاسية في العصور الوسطى – أدت من الخدمات للمجتمع في تلك العصور ما أضحى المجتمع الحاضر مستغنياً عنه، أو قادراً على الوصول اليه من مصادر أخرى. فالدير كان في كثير من الأحوال مركزاً لاعمال التبشير بالمسيحية في بلاد وثنية، ومصرفاً لإيداع الاموال، ومنزلاً لراحة أصحاب الاسفار، ومالكاً للاراضي المفتقرة إلى الاصلاح والزراعة، ومقراً للتعليم والتوفر على العلم، ومجمعاً للفنون والحرف والصناعات التي تتطلبها مؤسسة كبيرة مستقلة بشؤونها وحاجاتها الكثيرة. والدير كان فضلاً عن ذلك كله ملتقى الاخبار وسجلها، ومخزن المخطوطات النادرة وحافظها وهو كذلك مودع المسائل السياسية الخارجية منها والداخلية، واداة استصلاح الأراضي البور، وسبيل ايصال المدنية إلى قفار الهمجية والوثنية».

أما العلم فكان من أهم الركائز التي اعتمدت عليها الكنيسة البابوية في القرون الوسطى. فالنشاط الفكري والثقافي بقي مقتصراً أو حكراً على رجال الدين، حتى أوائل العصور الحديثة، وأن كان متفاوتاً بين بلد وآخر. فالتشريع كان يقوم على نفس الأسس التي تطبق في اللاهوت كما كانت حركة التاريخ مقتصرة على الصراع بين قوى الملائكة مع قوى الشيطان وهو بالتالي تاريخ اخبار الكنيسة والقديسين وما ينسب اليهم من أعمال المعجزات وأن كل ما ينزله المضطهدون بالمضهدين من عقاب أو ظلم انما هو امتحان لمدى احتمال هؤلاء أو تكفير عن خطيئه ارتكبوها. وفي كلا الحالتين لا تملك الكنيسة تجاههم سوى الابتهال والتضرع لله. كما أن الكنيسة البابوية احاطت نظرياتها الفلسفية «بهالة من التكريس الالهي»، ولم تسمح لها بتخطي حدود الايمان «إن لم تؤمن لن تتعقل» وما عدا ذلك من نتاج اجتماعي

يكون لمصلحة الاقنان ضد الاقطاعيين فقد اشير اليه بالهرطقة.

ومن جانب آخر قام رجال الدين (البابويون) بوظيفة التعليم خير قيام خاصة بعد أن تعرضت امبراطورية شارلمان إلى الانحلال بعد وفاته حيث زالت كل الصروح التعليمية التي اقامها في امبراطوريته بعد أن لمست الكنيسة فائدة التعليم في تمكين سيطرتها على فئة المتعلمين. واخذت المدارس الاسقفية والديرية في الانتشار وأظهر الرهبان الذين امتهنوا التعليم الديني في الضياع والمدن حماساً فائقاً على العلم والتدريس.

كما ساهمت الاديرة في اقتناء الكتب وحفظ التراث الكلاسيكي مما ترتب عليه قيام عصر النهضة الأوروبية فيما بعد.

أما المجامع الدينية التي عقدتها الكنيسة فقد كانت سلاحاً حاداً بيد البابوية توجهه ضد التجاوزات التي تحصل بنظرها ضد الدين. فيرمي المخالفون بتهمة الهرطقة والحرم الكنسي. وأما ان تستغل في اصدار القررات البابوية التي تختص بتنظيم الكنيسة أو التي تؤكد على سمو مرتبة البابا والسلطة الروحية التي يمثلها.

المراجع

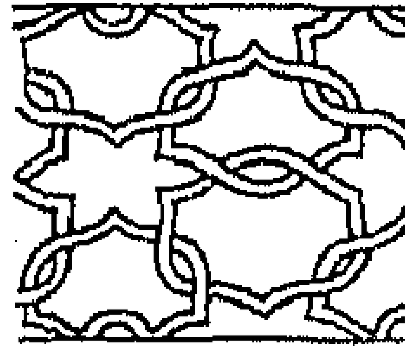
(١) اصطلاح ظهر عند المؤرخين في النصف النهائي من القرن التاسع عشر للدلالة عما اكتسبه الأمبراطور – القيصر – صاحب السلطة الزمنية من وظائف روحية تعود أصلاً إلى رئيس الكنيسة المسيحية – البابا –.

(٢) تعتبر هبة قسطنطين التي ظهرت في القرن السابع أضخم عملية تزوير بين الوثائق التاريخية. اكتشفها لورنزو فالا في القرن الخامس عشر على أثر انتشار المدارس التاريخية النقدية، وتزعم هذه الوثيقة أن الامبراطور قسطنطين الكبير اعترافاً منه بجميل البابا سلفستر الأول (٣١٤ – ٣٣٥) الذي شفاه من المرض، قد منحه حكم العالمين الزمني والروحي في الغرب بأن قدم له شارات الحكم بما فيها التاج الذي رفضه البابا. وما كان يبغيه واضع هذه الوثيقة هو الاشارة إلى أن رفض البابا للتاج انما يدل على تفوق سلطته الروحية على سلطة الاباطرة الزمنية. لهذا فيحق الآن لخلفاء البابا استرجاع هذه السلطة التي تعتبر من حقهم. وهكذا منح بيبن هبته للبابوية في حكم ايطاليا الزمني إلى جانب سيطرتها الروحية فظهرت وكأنها اقرار بصحة هبة قسطنطين التي روج لها واعترف بها في هذا القرن بالذات لتكون حافزاً لبيبن (PEPIN) لتقديم هذه المنحة إلى البابوية.

(٣) واهمها نظرية السيفين التي روجتها البابوية في أوروبا للتدليل على امتلاكها سيف الروح الذي ورثه اسقف روما عن القديس بطرس امير الرسل وهو يفوق ولا شك سيف الجسد الذي تنازل عنه الامبراطور قسطنطين للبابا سلفستر الأول.

(٤) وتعني الاتجار بالقدسيات والمراكز الدينية وتنسب الى سيمون الساحر الذي اراد شراء هبة فعل المعجزات من القديس بطرس.

(٥) تتمسك هذه القرارات بتفوق الكنيسة في العالمين الزمني والروحي تحت زعامة البابوية.



● الحرية هي استقلال الانسان عن أي شيء فيما عدا القانون الخلقي وحده.

كانت

● يا قوم سامحكم الله. لا تظلموا الاقدار وخافوا غيرة المنعم الجبار. ألم يخلقكم احراراً لا يثقلكم غير النور والنسيم فابيتم الاّ أن تحملوا على عواتقكم ظلم الضعفاء وقهر الاقوياء!

عبد الرحمن الكواكبي



التحدي والاستجابة
في دراسة أرنولد توينبي للتاريخ

فؤاد محمد شبل

● تؤدي [illegible] والاستجابة [illegible] رئيسيا في تصوير توينبي [illegible] الشرق [illegible] وفي تفسير أحداث التاريخ واستخلاص نتائجها وعبرها. وهي نفسها التي استند إليها في إلقاء الضوء على العلاقات الدولية، وأخيرا في تبيان وجهة نظره بشأن طابع الحضارة الغربية خاصة، ومستقبل الانسانية بصفة عامة.

ولقد أوحى بالفكرة إلى توينبي مطالعته في العهد القديم (التوراة). وليست التوراة عند توينبي تنزيلا من الله جل شأنه، ولكنها مجموعة مختلفة من الكتب كتبها — وأعاد كتابتها — أيد عديدة على مدار فترة من مئات السنين. بيد أن جميع هذه الكتب المتباينة في التجانس تسيطر عليها — فكرة واحدة مدارها أن التاريخ هو مجموعة من الأفعال يبرز فيها الله تجليا للبشر أفرادا وجماعات.

ولم يطلق توينبي الفكرة — كما قد يتبادر للذهن للوهلة الأولى — تطبيقا دينيا بحتا على غرار ما فعله كتاب اللاهوت، لكنه اقتبسها وراح يستخدمها في بحث الشئون البشرية، مادية وروحية على السواء.

إذ يؤمن توينبي بأن المادة وحدها لا تكفي على الإطلاق لتفسير أحداث التاريخ ذلك لأن الانسان — كما يرى توينبي — يتمتع بحرية منحها الله تعالى له، ولكنها حرية جزئية. وبفضل حرية الانسان — مع الله تعالى — يتحقق للانسانية التقدم والارتقاء.

ولم يكن توينبي الوحيد في مجال [illegible]

التحدي والاستجابة في الدراسات العلمية. فلقد اقتنص هيغل الفكرة كذلك، وأنشأ منها نظريته في منطق الجدل. وهي عماد الجدلية المادية التاريخية.

كما استخدم مالتوس الاقتصادي الانجليزي فكرة التحدي والاستجابة في تشييد نظريته عن «التناحر على البقاء». وعن طريق نظرية مالتوس، كشف داروين نظريته عن التطور.

ولا تقتصر فكرة التحدي والاستجابة على الكتاب الغربيين. فلقد عرفت من قديم في المأثورات الصينية. إذ كان يطلق على السكون لفظ «ين» وعلى الحركة لفظ «يانج». واعتنق القوم فكرة مدارها أن السكون يتحول إلى حركة دافعة بفضل تداخل عامل من العوامل وبالتالي ينقلب الشيء إلى نقيضه في ظل ظروف خاصة. وهذه الفكرة هي الآن جماع الآراء الاشتراكية الصينية، مما لا محل له في بحثنا هنا.

ويعترف توينبي للفلاسفة الصينيين بالفضل في هذا المقام، فتراه يؤثر استخدام الاصطلاحين الصينيين لايضاح فكرته عن التحدي والاستجابة.

فالانسان وفقاً لمنطق توينبي، مسير ومخير معاً. فاذا كان المنطق المادي مثلاً قد أوجب تألق الحضارة في ذلك القسم من وادي النيل الأدنى، فأن توافر البيئة نفسها لم يبعث إلى الوجود حضارة مشابهة في وديان أنهار: الاردن وريوغراندي وكلورادو ومع أن بيئاتها الطبيعية تشبه بيئة وادي النيل الأدنى.

وإذا كان توافر صفات معينة في البيئة لا يقود وحده إلى انبعاث الحضارة، فهل العنصر البشري هو العامل الأساسي في انبعاثها في منطقة بذاتها.

أو بالأحرى، هل يرتبط التفوق الروحي والذهني بالنقص النسبي في صبغة البشرة، أو هو على اتصال وثيق بها، كما يدعى المتطرفون من معتنقي نظرية التفوق العنصري؟.

ويرد على ذلك بأن الحضارة المصرية وهي أطول الحضارات عمراً، أنجبها جنس أسمر. وأنجب الحضارة الصينية جنس أصفر. وأنجب حضارات أميركا الوسطى جنس أحمر. كما أن كثيراً من الشعوب البيضاء بريئة من تقديم أية مساهمة لأية حضارة.

وصفوة القول:

ليست الحضارة نتيجة العوامل البيولوجية ولا هي نتاج البيئة الجغرافية: كل يعمل بمفرده، لكنها حصيلة نوع ما من التفاعل بينها جميعاً.. وبعبارة أخرى. ليس عامل الحضارة شيئاً مفرداً. لكنه متعدد.. انه ليس وحدة، ولكنه علاقة.. هو التقاء –وقد يكون تصادماً– بين العوامل..

لكن من ذا الذي يرتب هذا اللقاء أو التصادم. أو التحدي والاستجابة؟.

هنا تتبدى رسالة القوة الروحية.

وعلى هدى فكرة التحدي والاستجابة. يمضي توينبي في تفسير أحداث التاريخ واستقرائها واستخلاص دلالتها:



توينبي

التحدي والاستجابة في المجال الروحاني:

الالتقاء بين شخصين فوق مستوى البشر، هو مدار طائفة من المآسي العظمى التي تصورتها المخيلة البشرية، فالالتقاء بين يهود والحية، هو حبكة قصة سقوط الانسان في سفر التكوين. كذلك الالتقاء بين الرب والشيطان هو موضوع سفر أيوب. والالتقاء بين الرب ومفيستوفيليس، هو مدار قصة فاوست لغوته. ويحفل سجل البشرية بالأساطير التي تدور جميعها حول

التحدي والاستجابة للتحدي. والنتيجة إما تأثير مثمر أو تجئ الاستجابة نتيجة مدمرة.

ويفسر توينبي القصص الديني على أساس فكرة التحدي والاستجابة:

١ - كان آدم وحواء يعيشان في الجنة عيشة راضية. أي يعيشان بالتالي في حالة سكون (أو بالتعبير الصيني في حالة الين). وهي مرحلة الانسان البدائي في المرحلة الاقتصادية القائمة على التقاط الطعام. فيرمز السقوط من الجنة نتيجة للاغراء بالاكل من شجرة الخير والشر، إلى قبول تحد يهدف إلى ترك هذا التكامل التام، والشروع في عملية تفاضل جديدة، قد تسفر أو لا تسفر عن تكامل جديد.

٢ - الطرد من الجنة إلى عالم غير صديق، يفرض فيه على المرأة ان تلد وعلى الرجل أن يأكل


داروين

خبزه بعرق جبينه، أنما هو تجربة ترتبت على قبول تحدي الشيطان ممثلا في صورة الحية، وما المعاشرة الجنسية بين آدم وحواء، إلا فعل الخلق الاجتماعي، أثمرت ثمرتها في انجاب ابنين يمثلان مولد حضارتين: هابيل راعي الغنم، وقابيل زارع الأرض.

٣ - أسفر التحدي بين هابيل وقابيل عن قتل الأخير لأخيه. فكان هذا إيذانا بتغلب الحضارة الزراعية - ويمثلها قابيل - على الحضارة الراعية - ويمثلها هابيل.

فعندما تكتمل حالة السكون، تصبح مهيأة للانتقال إلى حالة الحركة والانطلاق. لكن، ما هو الدافع إلى هذا الانتقال؟.

السبب دافع أو باعث يفد من الخارج يبعث العقل على التفكير بواسطة اثارة الشكوك أو يدفع القلب الى الاحساس بمشاعر السخط أو الخوف أو النفور وهذا هو دور الحية في قصة التكوين، ودور الشيطان في قصة أيوب ودور العشاق الأرباب في أساطير العذارى.

مناط وظيفة العامل الدخيل هي استثارة الانسان ليستجيب لتحدي القوي التي عكرت صفو سكونه ورضائه. فاذا نجحت الاستثارة في بعث الاستجابة المنشودة، انقلبت حالة الانسان من السكون إلى الحركة. وهنا تنطلق قوى الابداع من مكامنها فتطفو على سطح النفس الانسانية، فتحقق التغييرات المبدعة.

فالانتقال من حالة السكون إلى حالة الانطلاق، يتم بفعل قوة دافعة. ويقوم بعملية الانتقال مخلوق الله تحت رعايته تعالى وفي ظل ارشاده الكريم. لكن يجب دفع ثمن هذا الارتقاء، وهذا الثمن لن يدفعه الله، بل يؤديه عبده. ولا يقتصر دور البطل البشري على تنفيذ الارادة الالهية فحسب، لكنه يخدم كذلك زملاءه من الرجال عن طريق رسم معالم الطريق الذي يتعين عليهم اتباعه.

التحدي والاستجابة في الوسط المادي:

تنطوي عملية الارتقاء على تناقض مبناه أنه إذا كانت الحاجة أم الاختراع، فان أباه هو العناد. أي أن تصمم على الاستمرار في العيش في ظل ظروف معاكسة وتفضلها على التوجه حيث سبل العيش أسهل. ولم يكن من المصادفة - اذن - أن تنبعث الحضارة في هذا الخضم من المد والجزر في المناخ والنبات والحيوان، أي حيث استجاب الانسان لتحدي الطبيعة.

ولقد أورد توينبي طائفة من الأمثلة توضح فكرته من انبعاث الحضارة من خلال الاستجابة للتحدي، أو كما ذكرنا سابقاً. انطلاق الانسان من مرحلة السكون إلى مرحلة الحركة.. واقتصر هنا على ايراد المثال المتصل بانبعاث الحضارة المصرية؟.

بينما كان الثلج يغطي أوروبا الشمالية حتى جبال الهارز (أقصى سلاسل جبال المانيا الشمالية) وكانت الثلوج تتوج جبال الالب والبرانس، عمل الضغط العالي للقطب الشمالي على إمالة الزوابع المطرية تجاه الجنوب. وكانت الاعاصير التي تخترق أوروبا الوسطى، تمر في ذلك الوقت فوق البحر الأبيض المتوسط، وشمال الصحراء الكبرى وتستمر في طريقها - دون أن تعتصرها جبال لبنان - مارة عبر العراق وبلاد العرب إلى فارس والهند. فكانت الصحراء الجدباء الحالية تنعم في ذلك العهد بهطول الامطار بانتظام. هذا وكانت الأمطار الأبعد من ذلك شرقاً، أعظم غزارة عما هي عليه الآن. بل وموزعة على مدار السنة كلها، ولا يقتصر سقوطها على فترة الشتاء كما هو الحال في الوقت الحاضر. فكان أن أزدهرت - تبعاً لذلك - الأحراش والغابات في شمال افريقيا وبلاد العرب وفارس ووادي السند، على غرار ازدهارها اليوم في شمال البحر المتوسط. وكانت تلك المناطق كثيفة السكان مثل سهول أوروبا الحالية. وفي ظل هذه البيئة المواتية الحافزة، أحرز انسان تلك المناطق - وهي اليوم صحراويات - تقدماً أعظم بكثير مما أحرزه الانسان الاوروبي المحصور بين الثلوج.

بيد أن المنطقة الافريقية الآسيوية، أخذت عقب نهاية عصر الجليد، تكابد تغييرات جسيمة في أحوالها الطبيعية، ومبناه، اتجاهها نحو الجفاف بسبب تحول الامطار إلى الشمال. وتقلصت جبال أوروبا الثلجية متجهة شمالاً صوب المنطقة القطبية، وإلى الجنوب صوب افريقيا الوسطى. وهكذا أصبح على سكان تلك المنطقة بعد ميلها إلى الاجداب، أن يختاروا بين أحد الأمور التالية:

١ - التحرك نحو الشمال أو الجنوب مع صيدهم متتبعين المنطقة المناخية التي الفوها. ونجد بقاياهم ممثلة في قبائل الدنكا والنوير والشيلوك ومن اليهم من القبائل النيلية. وتعيش هذه القبائل - بصفة أساسية - معيشة الأسلاف الابعدين. وتتصل هذه القبائل بالمصريين القدماء من حيث المظهر والقد ونسب الجمجمة واللغة والملبس، ويحكم هذه الشعوب سحرة صانعو أمطار أو ملوك يؤلهون. وفي الحق، يبدو كما لو أن التطور الاجتماعي بين أفراد هذه القبائل المقيمين على ضفاف أعالي النيل قد توقف عند المرحلة التي عبرها المصريون القدماء بيد أنهم يواجهون في الوقت الحاضر تحدياً بشري الطابع، قد تكون له في المستقبل النتائج نفسها التي حدثت لأبناء عمومتهم - قدماء المصريين - الذين استجابوا للتحدي المادي في سالف الأيام، فانطلقت طاقات عبقريتهم من عقالها فشيدوا تلك الحضارة الزاهرة.

٢ - البقاء في موضعهم بما يحمله ذلك بين ثناياه من تقبل الحياة التعسة والاكتفاء بما يصطادونه من الحيوانات التي قد تقاوم الجفاف. وهؤلاء هم بدو السهول الآسيوية الافريقية.

٣ - الاستجابة لتحدي الجفاف بتغيير الموطن وطريقة المعيشة معاً. واقتضى هذا، بذل الجهود الخارقة التي انبعثت عنها الحضارة المصرية في وادي النيل: لقد خاض رواد هذه الحضارة الأبطال - بوحي الجرأة والبأس - مستنقعات الأدغال الموجودة في قرارة الوادي والتي لم يسبق لبشر التوغل فيها. وأحالها عملهم ذو القوة الدافعة إلى أرض مصر موطن الحضارة. وحسبي القول أن أرض وادي النيل قبل ان ينزل اليها هؤلاء الرواد المغامرون كانت أشبه ما تكون ببلاد النيل الاعلى عند بحر الجبل في المديرية الاستوائية، وأن الدلتا نفسها كانت تشابه المنطقة التي حول بحيرة نو حيث تمتزج مياه بحر الغزال ببحر الجبل.

ومن ثم ينبذ توينبي الافتراض الشائع بان الحضارات تظهر وقتما تهيء البيئات ظروفاً للحياة فيها، سهولة غير مألوفة، بل أن السهولة عدو الحضارة والتقدم. وفيما يلي طائفة من الامثلة:

١ - قام بالعمل الابداعي المتصل بتوحيد الوجهين القبلي والبحري، قادة من جنوب مصر حيث الأرض أقل خصوبة والحياة أشد قسوة.

٢ - انبعثت الحضارة الصينية على النهر الأصفر، حيث لم يكن النهر صالحاً للملاحة في أي فصل. وكان ذوبان الثلوج في الربيع يحدث فيضانات مدمرة تغير باستمرار خط سير النهر عن طريق نحت مسالك جديدة له، بينما تستحيل المسالك القديمة إلى مستنقعات تغطيها الأدغال. ولم تنبعث الحضارة على ضفاف نهر اليانغتسي، وهو صالح للملاحة في جميع

الفصول وفيضاناته أقل تكراراً من فيضانات النهر الأصفر، كما أن فصول الشتاء في وادي اليانغتسي أقل عنفاً.

٣ – استجاب الأثينيون لتحدي فقر بلادهم. بابتكار أعمال غدت علماً عليهم هي زراعة الزيتون واستغلال باطن الأرض. وجاب الأثينيون أرجاء العالم القديم تجاراً يقايضون محصولاتهم بالقمح. فكان أن انبعثت الحضارة الهلينية ثقافة وفناً وسياسة، وغدت أثينا الفقيرة معلمة اليونان بأسرها ثم العالم الأوروبي الحديث.

٤ – لم تزدهر الحضارة في مناطق سوريا الخصيبة، بل في مناطقها الجرداء أو الشبيهة بالجرداء. فالتجار السوريون من سكان جبال لبنان، هم الذين مخروا عباب البحر المتوسط بطوله. وهؤلاء الفينيقيون، هم بقايا الكنعانيين «وهم من العرب القدماء» الذين سكنوا المنطقة قبل وصول الفلسطينيين والعبرانيين. وقد امتد سلطان الفينيقيين من بلادهم الجبلية، فأنشأوا وطنا ثانياً يعبر عن منحاهم الخاص في الحضارة السورية على السواحل الافريقية والاسبانية في غرب البحر المتوسط. فكانت قرطاجنة، هي المدينة العالمية لهذا الوطن الفينيقي عبر البحار.

٥ – تكونت العظمة الألمانية في منطقة براندنبرغ وبوميرانيا وبروسيا الشرقية الشهيرة بغابات الصنوبر الهزيلة والحقول الرملية، ولم تتكون في اراضي الراين حيث الحياة أكثر يسراً وأحلى منظراً. ولايقتصر فعل البروسيين الابداعي على الناحية الحربية التي قادت إلى توحيد المانيا، فقد امكنهم بفضل العمل الدائب والفكر أن يجعلوا الرمل ينتج غلالا عن طريق زيادة خصوبته بالأسمدة الكيمائية. ورفع البروسيون مستوى حياة جميع سكان بروسيا إلى درجة من الكفاية الاجتماعية لم يسبق لها مثيل. باستخدام نظام تعليم اجباري، وإلى درجة من الضمان الاجتماعي لا نظير لها قبلهم باستخدام نظام تأمين اجباري ضد المرض والبطالة.

٦ – اسكتلندا الجبلية، هي التي أنجبت عظماء انجلترا في السياسة والثقافة والاقتصاد. ويشغل الاسكتلنديون–حتى الآن وعلى قلة عددهم النسبي–حصيلة ضخمة من المراكز المسؤولة في الحكومة والشركات البريطانية.

٧ – ازدهر التقدم الحضاري في اليابان الفقيرة، ولم يزدهر في بلاد جنوب شرقي آسيا الغنية بالمواد. كما أن شمال الصين الفقير أعظم تقدماً من جنوبها الخصب.

التحديات من البيئة البشرية:

انتقل توينبي بعد بحث البيئات الطبيعية –كعامل حافز– إلى استعراض ميدان البيئة البشرية من هذه الناحية. وقد فرق بين:

أولاً–البيئات البشرية التي تقع جغرافياً خارج نطاق الجماعات التي تؤثر فيها. وتشغل تلك الفئة، تأثير المجتمعات أو الدول على جيرانها.

ثانياً–البيئات البشرية التي تختلط بالوسط البشري الذي تؤثر فيه. ويتضمن ذلك، تأثير «طبقة» اجتماعية في أخرى، عندما تشترك الطبقتان في الاقامة في منطقة معينة. وبالأحرى تقوم الصلة بين الطبقتين على أساس داخلي أو «عائلي» باعتبار المشاركة في الانتماء إلى مجتمع واحد.

فالمجتمع البشري يجابه.

١ – صدمات تحل عليه من خارجه.

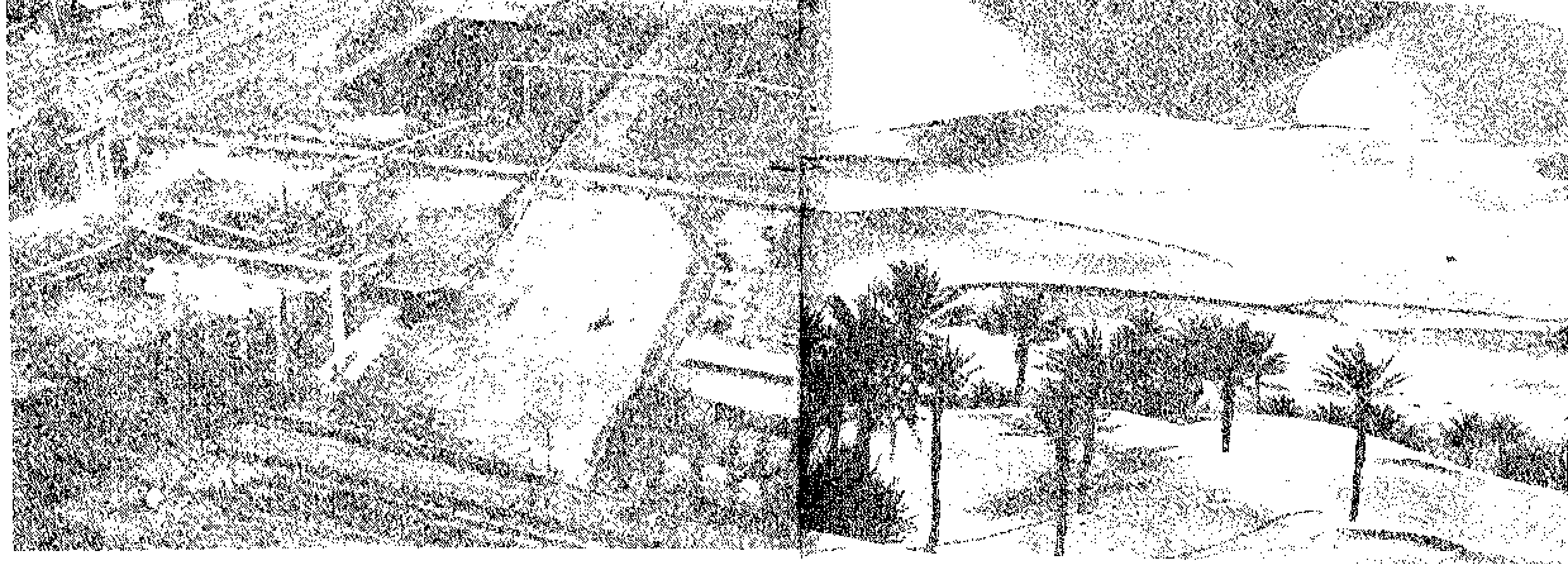
٢ – تأثيرات تتسرب اليه من خارجه.

٣ – تفاعلات اجتماعية داخلية.

في مقدمة أمثلة الصدمات الخارجية، صدمة الاحتلال الاجنبي والهزائم الحربية.. فانها تمثل تحدياً قاسياً، فان استجابت له الأمة أو المجتمع، استثارت طاقاته الابداعية الكامنة.. ومن قبيل المثال:

أ – غزو الهكسوس لمصر، استثار طاقات الابداع المصرية، فامكنها بعد قرن ونصف القرن من احتلال الهكسوس لشمال البلاد، من طردهم ثم انشاء الامبراطورية المصرية الكبرى في عهد تحتمس الثالث. وفوق هذا كله تزويد الحضارة المصرية بطاقة هائلة مكنتها من الحياة فترة لم تبلغها حياة أية حضارة على الأرض، وظلت تقاوم الردى إلى أن خبأ ضياؤها في القرن السادس الميلادي.





لولا الصعاب التي تتحدّى الانسان لما كانت الحضارة.

(ب) استثارت هزيمة العثمانيين أمام تيمورلنك استجابة مكنتهم بعد مرور نصف قرن على هزيمتهم، من الاستيلاء على القسطنطينية والقضاء على الامبراطورية البيزنطية قضاء تاماً.

(ج) استثارت الشروط القاسية التي أملاها نابليون على بروسيا في صلح تيلسيت، إلى زيادة أثر العامل الحافز الذي نشأ في بداية الأمر مع هزيمة البروسيين أمام الفرنسيين في موقعة يينا، فلم تقتصر نتيجة الاستثارة على تجديد الجيش البروسي، بل تجاوزه إلى تجديد النظم الادارية والتعليمية البروسية. وكان أن هزمت المانيا فرنسا عام ١٨٧٠ وتكونت الامبراطورية الألمانية. واستثارت هزيمتها عام ١٩١٤-١٨ كامن الطاقات الألمانية، فانبعثت في عهد هتلر قوة هائلة.

وأما بالنسبة للتحديات التي تفد من الخارج، فتستثير الطاقات الابداعية في المجتمع، فقد بينها توينبي في بضعة أمثلة ابرزها مثالاً الاسلام:

فقد تعرض مجتمع الشرق الأوسط - ويدعوه بالمجتمع السوري - لتأثيرات حضارية تتنافى مع طبيعته وتتمثل تلك التأثيرات في خضوعه لاشعاعات الثقافة اليونانية بفعل الاحتلال اليوناني ثم الروماني. ولضعف ثقافة بلاد الشرق الأوسط بفعل تدهورها وتحللها؛ فتهاوت من ثم أمام الثقافة اليونانية. فكان أن فرض اليونانيون على مجتمع الشرق الأوسط نظماً وتقاليد وثقافة، «بل حاولوا فيما بعد أن يفرضوا مذهبهم الديني» لم يستطع ضمها لمجافاتها طبيعته. فلما وفد الاسلام، استجاب سكان المنطقة لمبادئه فاعتنقوها عن طواعية ليتخلصوا من تأثيرات الحضارة الهلينية - ثقافية وسياسية - وليزيحوا عن كواهلهم الاحتلال الروماني. وكان أن اندفع المسلمون بقيادة العرب إلى استرداد مجد بلادهم الذاوي، وانبنى على انتصار الاسلام استرداد الشرق الأوسط شخصيته التي أهدرها العدوان الثقافي الهليني أجيالاً طويلة، فأصبحت المدن الاسلامية مراكز الحضارة الاسلامية الزاهرة.

ومن الناحية الأخرى. استثار الاندفاع العربي، الطاقات الكامنة في المجتمع المسيحي الغربي. فأنجهت الاستجابة للتحدي بهزم العرب في موقعة تور عام ٧٣٢، ثم خروج العرب من أسبانيا. وحملت الاستجابة الغربيين عبر المحيط الأطلسي إلى أميركا وعبر المحيط الهادىء إلى الشرق الأقصى. وقبل أن تقتلع الثقافة الاسلامية من أسبانيا، استغلت لمصلحة الغربيين أنفسهم. فلقد ساهم علماء اسبانيا الاسلامية - عن غير قصد كما يقرر توينبي - في تشييد الصرح الفلسفي الذي أقامه فلاسفة المسيحية الغربية إبان العصور الوسطى، كما وصلت بعض مؤلفات أرسطو للعالم الغربي للمرة الأولى عن طريق التراجم العربية. فعلى أساس الصرح الثقافي الاسلامي، شيد الغربيون نهضتهم الثقافية.

وعرض توينبي للاستجابات التي تتم بفعل



تحديات تنشأ داخل المجتمع. فشبه المجتمع في هذه الحالة بالجسم الانساني.. فعندما يبتلى جسم يفقد عضو من اعضائه أو ينكب انسان بخسارة ملكة من ملكاته، تعتبر الخسارة تحدياً يستجيب له الانسان المصاب بالتخصص في استعمال عضو آخر أو ملكة أخرى، حتى يبز اقرانه في ميدان النشاط الجديد هذا. ليعوض قصوره في الميدان القديم..

ففي مكنة العميان مثلاً، تنمية شعور حساسية اللمس لديهم أكثر مما يتاح عادة للمبصرين. وهذا ما نجده بالطريقة نفسها - إلى حد ما - في الكيان الاجتماعي. فان أية جماعة أو طبقة تناولها النقمة اجتماعياً - سواء من جراء فعلها هي نفسها أو بفعل آخرين في المجتمع الذي تعيش فيه - تستطيع الاستجابة للتحدي المقيد حريتها أو الذي يحد من مزاولة طائفة من أوجه النشاط، وذلك بتركيز طاقتها في ميادين أخرى والتفوق فيها.

ولقد تناول توينبي بالبحث طائفة من حالات الاستجابة للتحديات الداخلية نقتبس منها مثال «الرق»:

ما برح الرق من اقسى ضروب النقمة التي لا يفرضها حادث طبيعي. لكنها من تدبير الانسان وهي أكثر النقم شمولاً ووضوحاً؛ أشد أمثلة الرق تأثيراً في تاريخ الانسانية تلك الآلاف المؤلفة من الأرقاء الذين ساقهم الطغاة الرومانيون إلى روما من جميع البلاد المحيطة بالبحر المتوسط. ولقد شاهد هؤلاء الارقاء عالمهم المادي والروحاني بأكمله ينقلب راساً على عقب تحت سمعهم وأبصارهم عندما نهب الرومان مدنهم وساقوهم إلى سوق الرقيق، لكنهم لم يفقدوا مقدرتهم على الشعور بالألم الذي يسببه الرق. وكان الموت في العبودية نصيب معظمهم، لكن طائفة منهم قد استجابت للتحدي فعلاً، بانجاز شيء ما في شكل أو في آخر:

١ - تبلورت استجابة البعض في المجال المادي البحت. إذ ارتفع أفراد هذه الفئة في خدمة سادتهم حتى أصبحوا المديرين المسئولين لأملاك واسعة. ولما اتسعت أملاك قيصر وأصبحت روما دولة عالمية، استمر عتقاء الامبراطور يحكمونها، واشترى آخرون حريتهم بفضل مدخراتهم التي سمح لهم سادتهم بالاحتفاظ بها. وصعدوا في نهاية الأمر الى الثراء والجاه في عالم التجارة والادارة الرومانية.

ب - أما البعض الآخر، فكانت استجابته روحانية. فجلب الارقاء اليونانيون معهم عقائدهم، وجلب الارقاء المصريون عبادة ايزيس. والأرقاء البابليون عبادة النجوم. والارقاء الايرانيون عبادة ميترا. وفوق هذا كله، جلب الارقاء السوريون المسيحية التي استهوت الجماهير، فكان أن قوضت النظام القديم للامبراطورية الرومانية، من أساسه.

وهنا يقارن توينبي بين استجابة الأرقاء السوريين لتحدي الرق الروماني باعتناق المسيحية، وبين استجابة

زنوج أميركا لتحدي البيض لهم. وتتبلور استجابة زنوج أميركا، في كشفهم في المسيحية طائفة من المعاني والقيم الطريفة التي ظلت المسيحية الغربية تجهلها أمدا طويلاً. فان الزنجي قد كشف في الأناجيل - بفضل اعماله الفكر - أن المسيح نبي جاء إلى الدنيا، لا ليعزز مركز الاقوياء، ولكن ليعلي من شأن المتواضعين والمستضعفين. وهنا يقول توينبي ما ترجمته «إذا كان الأرقاء السوريون المهاجرون الذين جلبوا المسيحية إلى ايطاليا الرومانية ذات مرة قد أنجزوا معجزة تشييد ديانة جديدة حية قامت مقام ديانة قديمة كانت قد بانت فعلاً فلعل الزنوج ينجزون معجزة أعظم من ذلك باحياء هذه الديانة من جديد. ولعلهم بعبقريتهم الفطرية في التعبير بفن جميل عن مشاعرهم الدينية الانفعالية، يوفقون في اشعال النار في رماد المسيحية، إلى أن تتأجج النار المقدسة مرة اخرى في القلوب المسيحية».

فان قدر أن يتم ذلك على أيدي كنيسة زنجية امريكية، كان ذلك أعظم مراتب الاستجابة الديناميكية التي قام بها انسان حتى الآن لتحدي النقمة الاجتماعية.

درجات التحدي ومدى الاستجابة

أثبت توينبي أن الحضارات تتوالد في البيئات التي تتسم بالمشقة غير العادية، والتي لا تتسم بسهولة الحياة فيها سهولة غير مألوفة.. وأنه كلما عظم التحدي اشتد الحافز..

ولكن، لو زدنا شدة التحدي إلى ما لا نهاية، فهل نضمن اشتداد الحافز إلى ما لانهاية، وزيادة غير متناهية في الاستجابة، أن جوبه التحدي بنجاح؟.

أفلا تبلغ شدة التحدي نقطة تؤدي بعدها الشدة المتزايدة إلى ابراز مفعول متناقص؟.

وإذا تعدينا هذه النقطة، فهل نصل إلى نقطة ثانية يصبح عندها التحدي من الشدة بحيث يزول كل احتمال في الاستجابة اليه بنجاح؟.

وفي هذه الحالة، هل تغدو صيغة القانون «أعظم التحديات حفزاً يوجد في متوسط بين التفريط والافراط في الشدة»؟.

وهل هناك تحدٍّ زائد عن الحد؟.

هناك حالات تتسم بتطرفها لعملية التحدي والاستجابة. فهناك مدينة البندقية وهي مدينة شيدت على أعمدة غرست في الطين على شواطئ بحيرة ضحلة ملحة. لكنها فاقت في القوة والثراء والمجد جميع المدن التي بنيت على الأرض الصلبة في وادي نهر البو الخصيب. وهناك هولندا وهي بلاد استنقذت من البحر، لكنها امتازت من ذلك في التاريخ إلى أبعد حد عن أية قطعة أرض تماثلها في المساحة في سهول أوروبا الشمالية. والمثل يقال عن سويسرا المحملة بحمل من جبال لا تبشر بالخير. بيد أنه وأن بلغت حالات التحدي الثلاث هذه غاية الشدة، الا أن مداها مقصور على أحد العنصرين اللذين يكونان بيئة أي مجتمع. فانها متعلقة بالأرض الشاقة. إلا أن شدة الموقع الطبيعي، لا تعتبر في ذاتها تحدياً بل نجدة. لأن هذا الموقع هو الذي حفظها من المحن التي تعرض لها جيرانها، ومكنتها منعتها الجغرافية من الارتقاء في ظل الأمن والسكينة. بيد أن هناك تحديات أعجزت الاستجابات، مثال ذلك:

١ - اخفاق ردود الفعل التي أبرزتها شعوب الشرق الأوسط ضد تحدي العالم الهليني، إلى أن وفد الاسلام فنجح نجاحاً ساحقاً في رد عدوان العالم الهليني.

٢ - فشل انسان روما الشمالية في الاستجابة لتحدي الطبيعة. فأخفق في الماضي في انشاء حضارة فلما واتته الظروف أصبحت أوروبا الشمالية منطقة حضارية.

٣ - أقام الرجال الشماليون حضارة في النرويج وايسلندا، لكنهم عجزوا عن اقامتها في غرينلند، وما برحت طبيعتها تستعصي على إقامة أية حضارة.

٤ - إذا كانت أثينا قد استجابت لتحدي الغزو الفارسي بصيرورتها معلمة اليونان، واستجابت بروسيا لتدمير الغزو النابليوني بتطورها إلى الامبراطورية الألمانية، فان الضربة التي وجهتها روما إلى قرطاجنة كانت من العنف والقسوة بحيث لم يثمر التحدي أية استجابة في أية صورة.

التمايز عن طريق الارتقاء

يتحقق الارتقاء وقتما يجيب فرد أو أقلية أو مجتمع بأسره عن تحدٍ ، بابراز استجابة . فلو اقتصر الأمر على أبراز الاستجابة لتحدي معين ، لكان معنى ذلك توقف المجتمع عن الارتقاء وصيرورته إلى تحجر على طول المدى . فالبدوي – مثلا – قد استجاب لتحدي بيئته بتنظيم أسلوب معيشته على النسق المعروف ، لكنه توقف عن الارتقاء وأصبح يعيش اليوم مثلما كان يعيش أقرانه منذ آلاف السنين ، إلى أن بدأت الحضارة الحديثة تغزو الصحراء وتحطم أسلوب حياة البدوي . والمثل يقال عن الاسكيمو .

وبعبارة أوضح ، يجب أن يتواصل تأثير عملية الارتقاء . ويتم ذلك بأن يتعرض المستجيب للتحدي ، لتحد جديد ، يقتضي من جانبه استجابة أخرى ، تبرز بدورها – على طول المدى – تحدياً ، يقتضي بدوره استجابة .. وهكذا دواليك .

فهناك من الجماعات والاشخاص من تتصل استجابته للتحدي تلو التحدي ، فتتواصل عملية ارتقائه ، إلى أن تقيده همته – عن مواصلة الكفاح في الصعود إلى سلم الارتقاء ، فيستسلم للعجز أو الزوال .

وبالأحرى ، يبرز التحدي بعد الآخر ، تمايزاً داخل نطاق المجتمع . وكلما طال أمد سلسلة التحديات ، ازدادت قوة التمايز وضوحاً . وتتبدى لنا في محيط الفن صورة واضحة المعالم . فمن المسلم به أن كل حضارة توجد لنفسها طابعاً فنياً يكون علماً عليها ، وبعبارة أخرى ، تضفي الحضارات المختلفة درجات شتى من الأهمية على ضروب معينة لأوجه النشاط :

١ – تنزع الحضارة الهلينية بشكل ظاهر إلى حياة يغلب عليها طابع الجمال ، بوجه عام .

٢ – الحضارتان السندية والهندية فيهما نزعة ظاهرة تتسم بغلبة الروح الدينية عليها .

٣ – تتسم الحضارة الغربية بالولع بالآلات . ويعني ذلك تركيز الاهتمام والجهد والكفاية على تطبيق استكشافات علم الطبيعة على الأغراض المادية ، عن طريق استخدام العمل الميكانيكي المنظم في تشييد المحركات الاجتماعية مثل الدساتير البرلمانية وأنظمة الدولة الخاصة بالتأمين وجداول مواعيد التعبئة العامة .

بيد أنه مهما يكن من أمر التمايز بين الحضارات ، فان ثمة حقيقة يؤكدها توينبي مدارها ان التنوع الذي يتبدى في الحياة والنظم البشرية ، هو ظاهرة سطحية تحجب خلفها وحدة كامنة للبشرية لا يضيرها هذا التنوع ..

خاتمة المطاف

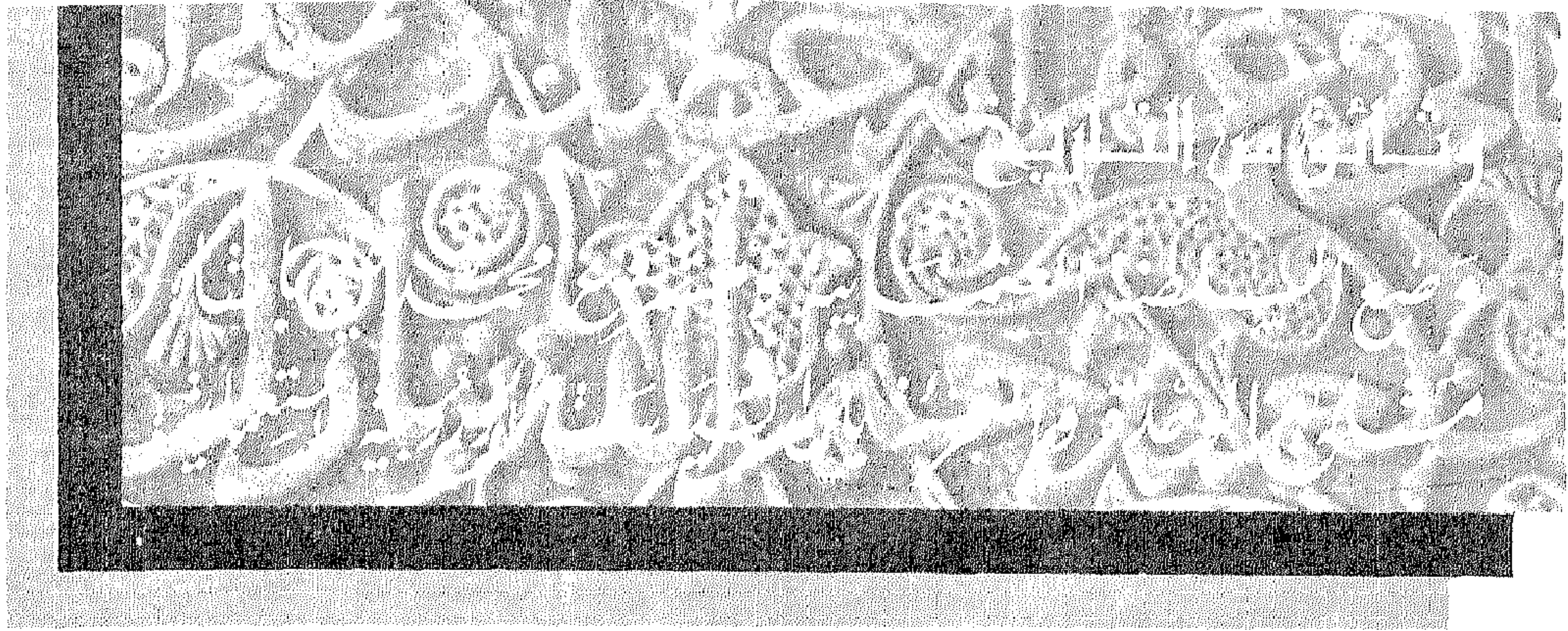
يستعرض توينبي تاريخ البشرية بأسره على أساس فكرة التحدي والاستجابة ، ويستخلص عوامل ارتقاء المجتمعات ويتقصى الدوافع وراء انهيارها . ولا يعتبر توينبي التوسع السياسي والحربي في تحسين الأسلوب التكنولوجي ، قاعدة تكفل قيام الارتقاء الحقيقي للمجتمع . فان التوسع السياسي والحربي هو – عادة – نزعة حربية تعتبر بدورها قرينة على تدهور المجتمع ، لا ارتقائه .

ولا تبدي التحسينات التكنولوجية – سواء أكانت زراعية أو صناعية – الا ارتباطاً قليلاً – أو لا شيء البتة – بينها وبين الارتقاء الصحيح . وحقا فقد يرتقي الأسلوب التكنولوجي وقتما يكون التحضر الحق في مرحلة انحطاط والعكس بالعكس .

أما قوام الارتقاء الحقيقي ، فهو عملية يطلق عليها توينبي كلمة « التسامي » . ويعني بها التغلب على الحواجز المادية . وتعمل عملية « التسامي » على اطلاق طاقات المجتمع من عقالها ، لتستجيب للتحديات التي تبدو داخل النفس أكثر مما تظهر خارجها . وطاقات المجتمع – من ثم – روحانية الطابع أعظم منها مادية .

ويرى توينبي أنه اذا كان العلم قد انتصر على الدين في بعض البلاد التي توصف بالتحضر انتصاراً ساحقاً ، فان هذا الانتصار كارثة على العلم قبل الدين .. فان كلا من الدين والعقل ملكة جوهرية من ملكات الطبيعة البشرية ..

فالحق أن سيطرة الانسان على الطبيعة المادية التي منحها العلم للانسان ، هي أقل أهمية – إلى أقصى الحدود كما يقول توينبي – من أهمية علاقاته بأخوانه البشر وصلته بالله . ●



إعداد الدكتور وجيه كوثراني

تفتح المجلة باباً جديداً من أبوابها في عامها الثاني، هو باب: «وثائق من التاريخ». والمجلة إذ تنطلق من أهمية اعادة نشر بعض الوثائق التي تحمل موضوعات ذات صلة بمجرى التاريخ العربي الحديث والمعاصر، وذات اطلالة على مسائل حاسمة في تاريخ الصراعات التي لا تزال تفعل في تاريخ البلاد العربية والاسلامية، تود بتقديمها نماذج من تلك الوثائق، أن تجعل الوثيقة غير المنشورة، المختارة مباشرة من الارشيف، أو المنشورة في كتب قديمة نافدة ولا تتوفر الا في كبريات المكتبات العامة، ان تجعلها في متناول القارئ العربي، وان تسهل على طلاب البحوث الاطلاع عليها. والمجلة ترجو ممن يهتم بجمع الوثائق واقتنائها وممن يملك ارشيفا عائلياً محلياً، تزويدها بما يكون مناسباً للنشر، خدمة للعلم والتاريخ.

- وضع السلطنة العثمانية ومشروع محمد علي باشا:
- مشاريع الوحدة والتجزئة بين السياسات الأوروبية الاستعمارية:

وثيقة من: مجموعة المحررات السياسية والمفاوضات الدولية عن سوريا ولبنان تعريب فيليب وفريد الخازن – المجلد الأول، ص ٢٦ – ٤٣.

* * *

● تركزت المسألة الشرقية (وهي مسألة تخص الغرب الاستعماري ومشكلاته وصراعاته في مواجهة مقاومة الشرق الاسلامي، فهي مسألة الغرب، لا الشرق)، تركزت على مسألتين مترابطتين: مسألة بناء دولة محمد علي باشا انطلاقاً من مصر، ومسألة استمرارية الدولة العثمانية وعلاقتها بالولايات العربية ولا سيما السورية.

هاتان المسألتان نبعتا في الواقع من طبيعة قوانين المجتمعات الاسلامية الداخلية: نشوء دول «الاطراف» و «دول الدعاة والخوارج على الدولة» وفق تعبير ابن خلدون، ونوعية علاقة مشاريع هذه الدول بـ «المركز». بيد أن هذه القوانين الداخلية للمجتمعات الاسلامية لم تعد

تأخذ مع تدخل الغرب الاستعماري مجراها الطبيعي، أي منطلق الصراع الداخلي الذي يتم في اطار الدولة الاسلامية ومجتمعاتها وقواها، بل أخذ الصراع يتكيّف ويتحور وفق منطق الصراع ما بين الدول الاستعمارية وتدخلاتها في مجريات الاحداث.

وهذا المنطق نلمسه في نص الوثيقة التي ننشرها على الصفحات التالية. وهي عبارة عن رسالة بعثها السيد تيارس، وزير خارجية فرنسا، إلى السيد غيزو السفير الفرنسي في لندن بتاريخ ٣ تشرين الأول ١٨٤٠، يعرض فيها وجهة نظر فرنسا في الصراع ما بين السلطان ومحمد علي باشا، ويكلف سفيره بتبيان «حقيقة الموقف الفرنسي بعد أن عرضه بلمرستون بصورة لا توافق عليها الحكومة الفرنسية».

و. ك.

رسالة المسيو تيارس وزير خارجية فرنسا إلى الميسو غيزو سفير دولته في لندرة بتاريخ ٣ ت ١ سنة ١٨٤٠ و ٦ شعبان سنة ١٢٥٦.

يا حضرة السفير: لقد اوقفتك على منطوق الرسالة التي انفذها اللورد بلمرستون الى الموسيو بولفر (سفير انكلترة في باريس) وفيها يوضح سلوك الحكومة الانكليزية في المفاوضات الخطيرة التي ختمت بابرام معاهدة ١٥ تموز. بيد ان هذه الرسالة التي يحلو لي ان اعترف بلهجتها المعتدلة الادبية تحتوي على تأكيدات وآراء يتعذر على حكومة الملك ان تدعها ترسخ في العقول. أجل أنه لا فضل ترك الماضي في زوايا النسيان وعدم الرجوع إلى مجادلات سبق تكرارها مراراً حباً بتلافي زيادة احراج الحالة عما هي لكنه خلا أنه يحق للورد بلمرستون ان يستاء من عدم الجواب على بلاغه فيجدر بيان حقيقة خطة كل دولة اثناء هذه المفاوضات لا سيما وأنهُ أُبلغ إلى جميع السفارات مطبوعاً وذاع أمره وعليه اصبح من المتحتم الجواب عليه. واني لارجو أن يرضي هذا الجواب الذي ارسله اليك الآن الحكومة الانكليزية ويكشف الغطاء عن المداولات التي تبودلت بين الوزارات ويوليها معناها الحقيقي. فتفضل بتسليم وزير خارجية جلالة ملكة الانكليز صورة عنهُ.

رأي بلمرستون في السياسة الفرنسية:

إذا ما كنت أحسنت فهم مآل رأي اللورد بلمرستون فيمكنني تلخيصه كما يلي:

«إن بريطانيا العظمى وهي منزهة عن كل غاية في المسألة الشرقية لم تسع إلا لغرض واحد. وهو استقلال السلطنة العثمانية وسلامة كيانها وهذا ما اقترحته على جميع الدول فقبلن به أجمع وسعين إلى تحقيقه على السواء وفي عدادهن فرنسا. ولذلك كان من الواجب تخفيف مطالب خديوي مصر وأبعاد حدود املاك هذا التابع الطماع وجيوشه ما امكن عن جبال طوروس وكان الأفضل جعل الصحراء حداً فاصلاً بين السلطان وتابعه الخديوي والاقتصار على اعطاء مصر لمحمد علي وإعادة سوريا إلى السلطان عبد المجيد بحيث تمسي صحراء سوريا حاجزاً بين البلادين فتأمن السلطنة العثمانية وأوروبا المهتمة بخلاصها من اطماع الاسرة المصرية.

«وهذا ما عالنته انكلترة في جميع ادوار المداولات. وكان قد خيل ان فرنسا وافقت الدول على رأيها وصرحت مثلهن باستقلال السلطنة العثمانية في النطاقة الاجماعية الموقعة في الاستانة في ٢٧ تموز سنة ١٨٣٩ وفي نشرتها المنفذة في ١٧ منه إلى جميع الحكومات. بيد انها حباً بصالح الخديوي خالفت هذه القاعدة فيما بعد وطلبت تجزئة السلطنة مما ينافي سلامة كيانها. فالدول الأربع الموقعة نطاقة ١٥ تموز رغبة في الحصول على مساعدة فرنسا الحجن عليها تكراراً لاستمالتها إلى رأيهن حتى إنهن أكثرن من التساهل معها فاضفن إلى مصر الموهوبة إلى سلالة محمد علي باشاوية عكا ما خلا موقعها ثم رضين بالحاقه بالايالتين السابقتين الذكر. فذهبت جميع هذه المساهلات سدى لأن فرنسا أصرت على مخالفة القاعدة التي رأت الدول الخمس أن تعلنها بالاشتراك.

«وعليه لم تتمكن الدول المذكورة من اقتفاء

اثرها. بيد انه مع شدة رغبتهن في الحصول على عضدها اضطررن إلى الافتراق عنها وتوقيع صك يجب الا تستغربه لما انها نُبهت غير مرة إلى أنه إذا لم يحصل اتفاق الجأها الأمر إلى الاقتصار على حل المسألة بواسطة الدول الأربع فقط. ولما كانت الدول الأربع متفقة على مسألة هي على جانب من الخطورة فلم يكن بوسعهن الاستمرار على تضحية رأيهن ونياتهن المنزهة عن كل أرب ذاتي في سبيل دولة خامسة. ولذلك فان اللورد بلمرستون أوضح مراراً عديدة إلى سفير فرنسا ان الاقتراح الذي تضمنه صك اتفاقية ١٥ تموز هو بمثابة انذاره النهائي حتى إذا رفضته فرنسا فلا يعرض غيره. فأضطر في آخر الأمر إلى تركها وشأنها لئلا تفنى السلطنة العثمانية من جراء التسويف والتردد. فلا يمكن والحالة هذه اتهام الدول الأربع بانها ارادت اهانة فرنسا بهذه المناسبة. وخلا ما تقدم فان الدول الأربع قد نهجت هذا النهج وهي تذكر أن فرنسا كانت قد عرضت بلسان سفيرها في لندره في شهر ايلول سنة ١٨٣٩ مشروع تسوية مؤسس بوجه التقريب على ذات دعائم اتفاقية ١٥ تموز وانها لما عاكست فيما بعد مشروع انكلترة اعترفت بافضلية الثاني على غيره إذا ما استثني منه صعوبة تنفيذه وخطر الوسائل المراد استعمالها. ومجمل القول انها اظهرت في كل آن قصدها عدم عرقلة وسائل تنفيذه وعليه كان يحق للدول المشار اليها ان تعتقد انه إذا كانت فرنسا قد رفضت لاسباب خاصة الانضمام اليهن لاكراه محمد علي على الامتثال لارادتهن بالقوة فعلى الأقل لا تعاكس مساعيهن وانما تساعدهن باستعمال نفوذها الأدبي في الاسكندرية. ولا تزال الدول الأربع ترجو أنه متى نفذت اتفاقية ١٥ تموز تنضم فرنسا اليهن مجدداً لضمان بقاء السلطنة العثمانية بطريقة نهائية اهـ».

رد الوزير الفرنسي:

فهذه إذا لم اخطئ خلاصة أقوال اللورد بلمرستون والدول الأربع في المفاوضات التي جرت في المسألة التركية المصرية أوردتها بكل دقة.

فيتضح من قول اللورد بلمرستون المتقدم بيانه ان فرنسا ناقضت ذاتها بذاتها. فقد شاءت حفظ كيان السلطنة العثمانية واستقلالها ثم عدلت عن ذلك. وان الدول الأربع تساهلت معها كثيراً وجارتها في غير واحد من آرائها. وانهن اضطررن أخيراً إلى ابلاغها انذاراً نهائياً مبنياً على اقتراح سابق لسفيرها. وانهن لم يتركن فرنسا إلا بعد رفضها هذا الانذار. وانه يحق لهن ان يبدين تعجبهن من الطريقة التي قابلت بها فرنسا اتفاقية ١٥ تموز لأنه كان ينتظر منها الا تقتصر على الرضا بهذه الاتفاقية بل تمدها بنفوذها الادبي قياماً بوعودها.

بيد أن ايراد المسألة على جليتها سيمزق ما حاكته الرواية السابق الايماء اليها وعليه أقول:

لما اغتر الباب العالي بنصائح مضلة فهاجم الخديوي مجدداً وخسر في الوقت ذاته جيشه واسطوله ثم تلت هذه الخسائر وفاة السلطان محمود لما هو الخوف الذي اعترى فرنسا وانكلترة وكانتا إذ ذاك على أتم وفاق؟ هو أن يريا ابراهيم باشا المنتصر مجتازاً جبال طوروس ومهدداً الاستانة مما يجر إلى دخول الجند الروسي حاضرة السلطنة العثمانية وقد شاركها في هذا القلق جميع أصحاب العقول الراجحة في أوروبا.

فماذا اقترح إذ ذاك اللورد بلمرستون؟ انه اقترح على فرنسا أولاً باسمه الخاص وثانياً باسم حكومته ضم الاسطولين الانكليزي والفرنسوي وتوجيههما إلى شواطئ سوريا وانذار الفريقين المتحاربين بايقاف رحى القتال وتأييد هذا الانذار بالوسائل البحرية ثم استجازة الباب العالي بدخولها الدردنيل أو اجتياز هذا المضيق الشهير عنوة إذا كان القتال بين الخديوي والسلطان قد أوصل الجند الروسي إلى الاستانة.

وبناء على ما تقدم فان الذي كانت تعنيه إذ ذاك انكلترة وجميع الساسة البصيرين بعواقب الأمور «بسلامة كيان السلطنة العثمانية وحفظ استقلالها» هو وقايتها من استئثار الجيوش الروسية بحمايتها ومنع الخديوي من الزحف على الاستانة تلافياً لهذا الخطر.

فاستصوبت فرنسا هذا الرأي واستخدمت نفوذها لدى محمد علي ونجله لايقاف زحف الجيش المصري الظافر فتم لها ذلك ثم انها رغبة في استدراك الخطر الاعظم القائم بدخول الجيوش الروسية الاستانة رأت أنه يخلق قبل الاقدام على اجتياز مضيق الدردنيل عنوة

أن تستحصل من الباب العالي اذناً بدخول الاسطولين فيما لو عبر فيلق من الجنود الروسية البوسفور.

فقبلت انكلترة هذه المقترحات وتعاهدت الحكومتان على السير بموجبها. وهنا يحسن بنا أن نوضح ان الفاظ «استقلال السلطنة العثمانية وسلامة كيانها» لم يكن معناها نزع بعض الانحاء التي احتلها محمد علي من يده بل صدّه عن الزحف على حاضرة السلطنة لئلا يجر وجود الجنود المصرية فيها إلى دخول الجنود الروسية.

ولقد اعترف حضرة وزير خارجية جلالة ملكة الانكليز اثناء محادثته المسيو بوركنه بهذا الشأن في ٢٥ ايار و ٢٠ حزيران بوجود ميل في فرنسا وانكلترة إلى الاسرة المصرية وان هذا الميل في فرنسا أعم منه في انكلترة. وأن على الحكومة الفرنسوية أن تكون من جراء ذلك موالية لحكومة محمد علي أكثر من الحكومة الانكليزية. وأنه لا ينكر أن هذه العقدة من العقد الصعبة الحل لكنها ثانوية إذ يجب اخضاع هذه البواعث لداعٍ أعلى وأعظم أهمية وهو أنقاذ السلطنة العثمانية من استئثار دولة واحدة بتظليلها بحماية قتالة لها عاجلاً أو آجلاً إذا لم تتفق فرنسا وانكلترة.

وكانت فرنسا تشاطر هذه الآراء وهي ترمي بسياستها هذه إلى بلوغ غرضين أحدهما ايقاف الخديوي يوم يحاول ان ينتقل من موقف التابع القوي الخاضع إلى موقف التابع العاصي المهدد عرش متبوعه والآخر ابدال حماية دولة واحدة بحماية الدول العظمى الخمس في أوروبا. ولهذه الغاية وقعت فرنسا بالاشتراك نطاقة ٢٧ تموز المراد بها توسط الدول الخمس بين السلطان المغلوب والخديوي الغالب وانفذت في ١٧ تموز نشرة إلى جميع حكومات أوروبا لحملهن على المجاهرة معها باحترام سلامة كيان السلطنة العثمانية وهي التي فاتحت الدول باشراك النمسا وبروسيا والروسية ذاتها بجميع القرارات التي تتخذ في المسألة التركية المصرية.

لا ريب ان اللورد بلمرستون يذكر انه كان أقل من فرنسا ميلاً إلى إشراك الدول الخمس بالمسألة السابقة البيان. ولذلك إذا قابلت الحكومة الفرنسوية بين الماضي والحاضر لا تتمالك من أن تتذكر بمزيد الاسف ان الحكومة الانكليزية كانت تعتمد إذ ذاك على فرنسا خاصة لانقاذ السلطنة العثمانية.

ولم يكن إذ ذاك أحد يعتقد بأن كيان السلطنة العثمانية قائم بالحد الذي سيفصل أملاك السلطان عن أملاك الخديوي في سوريا وإنما كان الجميع متفقين على إنه متوقف على أمرين أحدهما منع ابراهيم باشا عن الزحف على حاضرة السلطنة والآخر وقايتها من نصرة الجنود الروسية. وكانت فرنسا وسائر الحكومات مجمعات على هذا الرأي وظلت ثابتة عليه.

ثم إن النمسا وبروسيا انصاعتا إلى آراء فرنسا وانكلترة أما الروسية فرفضت الاشتراك في المفاوضات التي كان يراد عقدها في ڤيانًا لاشراك أوروبا في حماية السلطان ولم تكن تستحسن مسارعة دول الغرب إلى التدخل في المسألة الشرقية. وقد كتب الموسيو نيسيلرود وزير خارجية الروسية إلى الموسيو دي ميدم في رسالة بتاريخ ٦ آب سنة ١٨٣٩ أبلغت رسمياً إلى الحكومة الفرنسوية: «أن الامبراطور لا يقنط من خلاص الباب العالي على شرط أن تحترم دول أوروبا راحته وأن لا يبدين حركة غير مواتية تكون نتيجتها زعزعة دعائمة وهي ترغب في توطيدها.». فيظهر مما تقدم ان الحكومة الروسية كانت ترى غير مناسب التوسط بين السلطان والخديوي معتقدة انه يكفي منع هذا الاخير من تهديد الاستانة وتعتبر أن أفضل حل للمسألة هو حصول اتفاق بين المتبوع والتابع مباشرة. وهذا ما قاله الموسيو دي نيسيلرود المشار اليه إلى سفير فرنسا في أوائل آب سنة ١٨٣٩: «ومن ثمة فلا يهمنا اعطاء الخديوي قسماً واسعاً من سوريا أو تقليل حصته فيها إنما شرطنا الوحيد هو أن يكون الباب العالي حراً في القرار الذي يتخذه بهذا الشأن».

وبناء عليه لم تكن في ذلك العهد الدول الأربع اللواتي وقعن فيما بعد معاهدة ١٥ تموز متفقة رأياً كما يراد أن يوهم اليوم ازاء فرنسا المنفردة عنهن والحائلة دون كل اتفاق باصرارها على رفض مشاركتهن.

ومذ أوقف ابراهيم باشا زحفه المحفوف بالنصر ابتعد الخطر وصار الفريقان المتحاربان ازاء بعضهما الخديوي ذو حول وبسطة والسلطان مغلوب خال من

وسائل الدفاع. إنما كان الاثنان لا يبديان حركة بفضل تدخل فرنسا. وفي ذلك التاريخ اقترحت انكلترة أخذ الأسطول العثماني من يد محمد علي عنوة فأبت فرنسا عليها ذلك خشية اضرام نار القتال مجدداً. فبدأ عندئذ الخلاف المشؤوم الذي فرق بين فرنسا وانكلترة والذي يجب أن نأسف له دائماً حباً بالسلم وتمدن المعمور. وكان أن اتقدت جمرة الغضب في صدر الحكومة الانكليزية على خديوي مصر وبدت مظاهر الحنق منه بشدة فسعت فرنسا إلى تلطيفها وتوفقت إلى اقناعها بما في استعمال العنف من الخطر فعدلت عن استرجاع الاسطول العثماني بوسائل الاكراه.

ومن ثمة امسى من الضروري التداول لمعرفة كيفية حل الخلاف على حدود الاملاك بين السلطان والخديوي فانفرجت مسافة الخلاف بين آراء فرنسا وانكلترة وازداد تباينها فصرح اللورد بلمرستون بوجوب اعطاء الخديوي حكم مصر بالتوارث على شرط ان ينجلي حالاً لقاء ذلك عن المدن المقدسة وجزيرة كنديا وولايتي آطنه وسوريا بتمامهما. ثم عدل قليلاً آراءه الأولى ورضي بأن تضاف ايالة عكا خلا موقعها إلى امتلاك مصر بالتوارث.

فلم ترض فرنسا بهذه المقترحات لاعتبارها ان الخديوي يستحق زيادة مراعاة بانتصاره على السلطان في واقعة نزب دون أن يكون معتدياً وبقبوله التوقف عن الزحف في حين كان يستطيع مفاجأة السلطنة واسقاط عرش السلطان. ورأت أنه لا يحسن بالدول – وهي التي حرضته في سنة ١٨٣٣ على القبول بمعاهدة كوتاهيا – أن توجب عليه شروطاً أشد تضييقاً في حين لم يفعل شيئاً من شأنه افقاده فوائد هذه المعاهدة. واعتقدت انه إذا أخذت منه المدن المقدسة وجزيرة كنديا وولاية اطنه – وهي موقع موافق للهجوم يجعل الباب العالي بمأمن من كل طارئ – توجب أن يُضمن له امتلاك مصر وسوريا بالتوارث.

إن انتصاره في واقعة نزب التي فاز بها دون سبق اعتداء هو كاف لاحرازه حق توارث فتوحاته من النيل حتى جبال طوروس بيد أنه لما كانت الدول قد ضربت صفحاً عن انتصاره في نزب وارادت أن تبيعه حق التوارث لقاء التنازل عن قسم من أملاكه الحالية فالعدالة تقضي بأن يكتفى باسترجاع قنديا واطنه والمدن المقدسة منه. وعدا ما تقدم فان فرنسا سألت عن الوسائل التي كانت تريد الدول استعمالها لاكراه محمد علي على الخضوع؟ لا ريب بان الحكومات الأوروبية كانت تقوى عليه لو شاء تهديد الاستانة إذ كان يكفيها ارسال اساطيلها إلى بحر مرمرا لايقاف زحفه. غير أنه ما هي الوسائل المتوفرة لديهن لنزع سوريا منه بالعنف؟ انها لوسائل غير فعالة كحصر الثغور وغير شرعية كالتحريض على الثورة أو كثيرة الاخطار ومخالفة للغاية المقصودة كالاستعانة بالجيش الروسي! ولذلك اقترحت فرنسا في ايلول سنة ١٨٣٩ هبة الخديوي حكم مصر وسوريا بالتوارث. ولم يسبق لفرنسا في آن من الأوان أن اقترحت غير ما تقدم الا حديثاً لمّا أشارت على الخديوي أن يكتفي بامتلاك سوريا مدى حياته فقط. وقد محصت جميع رسائل الوزارة قبل استلامي أزمة الشؤون فلم أر فيها أن قد فوض إلى الجنرال سيباستياني أن يقترح جعل الحد الفاصل بين أملاك السلطان والخديوي التحديد المثبوت في معاهدة ١٥ أيلول ولا أنه استقل بهذا الاقتراح. ولم اكتف بذلك بل سألته عما يذكره في هذا الصدد فاكد لي أنه لم يقترح شيئاً من هذا القبيل. ومجمل الكلام ان فرنسا اقترحت في سنة ١٨٣٩ منح محمد علي حكم مصر وسوريا بالتوارث لكنها لسوء الحظ كانت عامئذ على خلاف تام في الرأي مع انكلترة. ولم يطل الأمر حتى علمت أوروبا باسرها بهذا الخلاف الموجب دوام الاسف وكان من نتيجته أن أزال بسرعة تكاد تكون سحراً الخلافات التي كانت مستحكمة بين الدول الأربع فعقدن فجأة اتفاقاً بينهن ووثقن عراه. وأخذت النمسا تقول انها ستنحاز إلى الدولة التي تمنح السلطان حصة أكثر اتساعاً من حصة الخديوي في الأملاك مع انها كانت في بادي الأمر قد وافقت تمام الموافقة على مقترحاتنا وكانت على وشك ابلاغ ذلك لحكومة لندره ولم تؤجل هذا البلاغ على ما قالت لنا إلا لتفسح لنا في الاجل لنتفق مع انكلترة. بيد انها ظلت تحتج على امكان استعمال القوة ضد محمد علي وسبقت الجميع إلى بيان خطرها. ثم ان بروسيا اتبعت رأي النمسا. وأرسلت الحكومة الروسية إلى لندره الموسيو دي برونوي في شهر

أيلول سنة ١٨٣٩ لعرض اقتراحاتها وكانت عاكست قبلاً فكرة تدخل أوروبا بين السلطان والخديوي بحجة انها غير موافقة ورأت أن أفضل وسيلة اتفاقهما مباشرة. أما اليوم فانقادت إلى جميع التدابير التي يحسن في عين انكلترة اتخاذها بخصوص حدود أملاكهما وطلبت أن يُسمح لها ان تحمي الاستانة بجيشها باسم الدول الخمس فيما لو استؤنف القتال بينا الاسطولان الانكليزي والفرنسوي يحصران ثغور سوريا.

على ان هذه الاقتراحات جاءت محتوية على تدبير كانت تعده انكلترة حتى ذلك الحين من أشد الاخطار على السلطنة العثمانية الا وهو استئثار الجيش الروسي بحماية السلطنة. وهذا الخطر ناجم ليس عن امكان طمع الجيش الروسي باحتلال الاستانة دائماً بل عن أن الروسية باضافتها إلى حادث سنة ١٨٣٣ حادثاً مطابقاً له من جميع الوجوه تكون قد أوجدت لذاتها سابقة تتخذها حجة لها في المستقبل. فلم تقبل هذه المقترحات فغادر الموسيودي برونوي لندره وعاد اليها في شهر كانون الثاني سنة ١٨٤٠ مصحوباً باقتراحات جديدة وهي تختلف عن الأولى من جهة انها تولي كلا من فرنسا وانكلترة حق ادخال ثلاث بوارج إلى قسم محدود من بحر مرمرا اثناء احتلال جيوش الروسية الاستانة فطالت المخابرات عدة أشهر أي من شهر شباط حتى شهر تموز سنة ١٨٤٠. وفي هذه الفترة عهد بادارة الشؤون في فرنسا إلى وزارة جديدة فعينت سفيراً جديداً. وما برحت الوزارة الفرنسوية تكرر انه ليس من العدل قطع سوريا من الاملاك المصرية وانه إذا كان من امكان الخديوي القبول به فلا يسع فرنسا أن تكون أكثر طمعاً منه لذاته. بيد انه إذا وجب نزع سوريا منه بالقوة فحكومة فرنسا ترى أن الوسائل المراد استعمالها لبلوغ هذا الغرض غير كافية بل مخطرة وإذا ألجأ الأمر إلى ذلك فهي تنفرد عن سائر الدول وتنهج نهجاً خاصاً.

وبينما كانت الحكومة الفرنسوية تخاطب حكومة لندره بهذه اللهجة الصادقة ثابتة على عهدها لم يسع سفير فرنسا في الاستانة إلى التوسط بعقد اتفاقية بين السلطان والخديوي مباشرة ولم ينفرد عن سائر السفراء كما أشار إلى ذلك اللورد بلمرستون تلميحاً دون أن يؤكده. ان ممثلنا في الاستانة لم ينهج قط الخطة التي نسبت اليه كما أن الحكومة لم توعز اليه بها مطلقاً. أجل ان فرنسا لم تفتر عن السعي إلى التقريب بين السلطان والخديوي واقناعهما بالتساهل المتبادل تمهيداً لاتمام المهمة الخطيرة التي أخذتها أوروبا على عاتقها. لكننا لم ننفك عن توصية الكونت دي بونتوي والموسيو كوشيله ان يتجنبا بمزيد العناية كل ما يمكن أن يعد محاولة منا للانفصال عن سائر الدول فاتبعا هذه التوصية بدقة ولم يخالفاها.

ثم أن انكلترة أصبحت في موقف تحتم عليها فيه أن تختار بين الروسية المقترحة عليها اهمال الخديوي على شرط القبول بمقترحات الموسيو دي برونوي أي رضا أوروبا بتنفيذ معاهدة انكيار اسكلة سي وبين فرنسا المقتصرة على طلب جريان مفاوضة عادلة معتدلة بين السلطان ومحمد علي من شأنها استدراك نشوب قتال جديد يجر وراءه اخطاراً أشد هولاً على سلامة كيان السلطنة العثمانية الا وهي استئثار دولة واحدة عظيمة ببسط سيادتها المادية توا عليها. ان وزارة لندره لم تعرض علينا الاقتراحات المحكي عنها لاستمالتنا إلى ارائها قبل ان تختار بين الروسية وفرنسا بل قصرت مساعيها على اقتراح واحد. ففي سنة ١٨٣٩ كانت رضيت بمنح الخديوي حكم مصر وايالة عكا الا موقعها مع حق توارثهما. أما في سنة ١٨٤٠ فان اللورد بلمرستون أرتأى منح الخديوي ايالة عكا مع قلعتها دون حق التوارث. لامراء انها انقصت من اقتراحها أكثر مما زادت عليه فلا يمكن والحالة هذه عد هذا الأمر اقتراحاً جديداً واعظم فائدة من الأول.

بيد أن هذا الاقتراح الذي لا يستحق ان يلقب باقتراح جديد لخلوه من فائدة جديدة لم يكن له صفة انذار ولم يرفع الينا على هذه الصورة ولم نكن نتصوره بهذا الشكل لأننا بناء على تلميح صادر من الموسيو دي بيلوف والموسيو دي نومان (سفيري بروسيا والنمسا) علقنا الامال على امكان استحصال حكم سوريا للخديوي مدى حياته مع امتلاك مصر وحق توارثها. ثم أنه لما أكد لنا المشار اليهما انه إذا بسط هذا الاقتراح يكون آخر حدّ لتساهل اللورد بلمرستون أوفدنا الموسيو اوجان برييه إلى الاسكندرية ليعد الخديوي إلى القبول بتسوية خلناها انها آخر ما يمكن الرضا بها. ولم يكن هذا العمل كما قال اللورد بلمرستون بمثابة اخضاع المفاوضات لارادة خديوي مصر بل تمهيد السبيل للتوفيق بين رأيين متعاكسين ابراماً لعقد تسوية حية تستدرك المشهد المحزن المبسوط الآن أمام العالم.

وكان يحق لفرنسا الاعتقاد ان مفاوضات طويلة كهذه لا تختم دون مداولتها وأن المحالفة العظيمة المفيدة التي تربطها بانكلترة منذ عشر سنوات لا تحل عراها دون بذل سعي أخير للتقريب بينهما. ومما أحيا فيها هذا الامل التلميحات التي أبديت لها والمقصود بها حملها على الاعتقاد بامكان اعطاء سوريا للخديوي مدى حياته. على أنه في ١٧ تموز استدعى اللورد بلمرستون سفيرَ فرنسا إلى وزارة الخارجية فجأة وأخبره بأن قد وقعت معاهدة في اليوم الاسبق دون أن يطلعه على نصها. فاستغربت الوزارة الفرنسوية بكل حق هذا التصرف. نعم انها لم تكن تجهل أن دول أوروبا الثلاث انصاعت لآراء انكلترة بحيث أمسى من الممكن ابرام اتفاقية بينهن دون فرنسا إنما كان لها ان تعتقد ان هذه الاتفاقية لا توقع قبل تنبيهها وان انكلترة لا تضحي المحالفة الفرنسوية بهذه السرعة.

ان عرض الخديوي على السلطان في شهر تموز اعادة الاسطول العثماني - وقد عني ان ينتج عنه عقد اتفاق بينهما توا اقترحناه سراً - ثم أن ما ظهر في ذلك الحين من امكان اثارة سوريا هما على ما يبان السببان اللذان دفعا الحكومة الانكليزية إلى اتخاذ هذا القرار الفجائي بعد سبات طويل. فلو كانت الحكومة الانكليزية رضيت بمفاوضتنا مفاوضة نهائية صادقة لتمكنت الحكومة الفرنسوية من أن توضح لها انها لم توعز إلى الخديوي باعادة الاسطول تمهيداً للاتفاق بينه وبين السلطان تواً لانها لم تعلم بما عرضه الأول إلا بعد ان فعل وربما كانت تمكنت أيضاً من اقناعها ان اثارة سوريا لوسيلة غير شريفة لا تفي بالمقصود.

فهذه هي الحوادث التي تؤكد فرنسا صحتها بصدق ونزاهة جديرين بأمة عظيمة. وينتج عنها بكل جلاء:

خلاصة الموقف الفرنسي

أولاً: ان قد فُهم في بدء المفاوضات من عبارة «استقلال السلطنة العثمانية وسلامة كيانها» ما طالما جهرت به فرنسا أي انه ليس المقصود بها ايلاء السلطان أو الخديوي حصة في الاملاك أوسع من الآخر بل ضمانة الدول الخمس عدم زحف محمد علي على حاضرة السلطنة ومنع استئثار دولة واحدة منهن بحماية تركيا.

ثانياً: ان فرنسا لم تبدل قط رأيها في المسألة التركية المصرية ازاء الدول الأربع المتفقة رأياً ونية بل حافظت عليه ولم تحد عنه في حين انها نظرت الدول الأربع المختلفة في بدء الأمر متحدة فيما بعد بقصد تضحية الخديوي وشاهدت انكلترة - وقد أرضتها هذه التضحية - تقترب من الدول الثلاث الباقية وتعقد معها اتحاداً فجائياً ثابتاً في مقاصده لكنه موجب لقلق البال نظراً للقرارات التي يتخذها.

ثالثاً: انه لم يعرض على فرنسا تكراراً مساهلات لاستمالتها إلى مشروع الدول الأربع لانه أكتفي بأن عرض عليها في سنة ١٨٣٩ اضافة ايالة عكا دون موقعها إلى حكومة مصر أنما مع حق توارثها ثم عرض عليها في سنة ١٨٤٠ الحاق الموقع بالايالة إنما بدون توارث.

رابعاً: انها لم تنبه كما قيل إلى أن الدول تنفصل عنها إذا لم توافق على آرائهن. وفيما كانت تنتظر بكل حق أن يعرض عليها اقتراحات جديدة إذ وقعت الدول فجأة - عند شيوع خبر سفر سامي بك (معتمد الخديوي) إلى الاستانة وثورة سوريا - اتفاقية ١٥ تموز دون افادتها ولم تخبرها عنها الا بعد توقيعها ولم تطلع على نصها إلا بعد شهرين.

خامساً وأخيراً: انه ليس للدول ان تعتقد بقبولها تنفيذهن هذه المعاهدة دون ان تبدي حراكاً لانها إذا كانت الحث خاصة في بيان تعذر استعمال وسائل التنفيذ فلم يصدر منها عدم اكتراث في غايتهن وتدابيرهن يجوز أن يتخذ دليلاً على انها لا تتدخل في ما يحدث في كوائن الشرق بكل الأحوال. بل بالعكس صرحت دائماً بأنها تنفصل عن الدول الأربع إذا اتخذن بعض قرارات لانها لم تعهد قط إلى أحد. معتمديها ان يقول كلمة يمكن أن يستنتج منها أن هذا الانفصال يفيد الاعتزال والقعود عن كل عمل لكنها طالما قصدت كما تقصد اليوم الاحتفاظ بحريتها التامة بهذا الشأن.

وكان بود الوزارة الفرنسوية أن تتحاشى العود إلى هذه المجادلات لو لم تضطرها اليها نطاقة اللورد بلمرستون ومع ذلك فهي مستعدة لتناسيها بحثاً في

أساس المسئلة والفاتا لنظر وزير خارجية جلالة ملكة بريطانيا إلى ما في الحالة الحاضرة من الخطر الداهم.

رأي فرنسا في انتزاع سوريا عن نفوذ الخديوي :

إن كيان السلطنة العثمانية في خطر وانكلترة تهتم لذلك فلا غرابة في الأمر بل هي محقة وعلى جميع الدول المحبة السلم ان تهتم بهذه القضية ولكن ما السبيل لتوطيد أركان هذه السلطنة؟ لما عجز سلاطين الاستانة عن إدارة شؤون الولايات الواسعة الخاضعة لهم ورأوا الفلاخ والبغدان وحديثاً اليونان تفلت من يديهم تدريجاً فكيف تصرفت الدول إذ ذاك؟ هل أصدرت قراراً وسعت لاعادة هؤلاء الرعايا إلى حكم السلاطين بواسطة جنود روسية وأساطيل انكليزية؟ كلا. فانهن لم يحاولن اتيان المجال ولم يعدن إلى السلاطين الولايات التي بدأت بالانفصال عن السلطنة بل تركت لهم سيادة أسمية على الفلاخ ونزعت اليونان من يدهم تماماً. هل فعلن ذلك بقصد ظلم تركيا والبغي عليها؟ كلا ثم كلا. بل إن حكم الظروف وهو — أقوى من قرارات الدول — قد حال دون إعادة سيادة الباب العالي المطلقة على الفلاخ والبغدان وسيادته الاسمية على اليونان. ولم يذق الباب العالي طعم الراحة إلا بعد أن بترت منه هذه الاعضاء. فما هي المقاصد التي صدرت عنها الحكومات في قطعها من جسم تركيا؟ هي ايلاؤها استقلالاً بحيث تكون بمأمن من اطماع الدول المجاورة. ولما كان قد تعذر عليهن أحياء دولة كبيرة منها اردن أن تؤلف الأجزاء المنفصلة حكومات مستقلة عن سائر الممالك المجاورة.

وقد جرى منذ بضع سنوات مثل هذا الحادث المتقدم ذكره بشأن مصر وسوريا. هل دانت مصر حقيقية في زمن من الازمان لحكم السلاطين؟ لا أحد يعتقد ذلك كما لا يفكر احد قط اليوم بامكان تسليم شؤونها إلى حكومة الاستانة توا. ولا شك ان الدول الأربع مجمعة على ذلك لانها منحت محمد علي حكم مصر بالتوارث مع الاحتفاظ بسيادة السلطان. وهي تفقه كفرنسا المراد بعبارة «سلامة السلطنة العثمانية» فاقتصرت على أن تحفظ له ما يستطيع ابقاءه تحت سيطرته. وهن يردن بقدر الامكان ربط الاجزاء المنفصلة عن السلطنة برباط التابعية.

وقصارى القول انهن يردن ما تريده فرنسا. إن الدول الأربع مع اعطائها التابع ذي الطالع السعيد الذي احسن ادارة مصر حق تواوث هذه الايالة لسلالته وهبته أيضاً ايالة عكا لكنها بخلت عليه بالايالات الثلاث الباقية وهي دمشق وحلب وطرابلس ودعت هذا العمل «حفظ كيان السلطنة العثمانية» كأن استثناء طرابلس ودمشق وحلب يحفظ السلطنة العثمانية! اننا نجهر علانية انه يتعذر اثبات هذا المذهب جدلاً وبرصانة أمام أوروبا.

ومن الجلي ان لا بد من أسباب عادلة وسياسية لمنح محمد علي هذه الايالات ونزعها منه. ان خديوي مصر قد أسس دولة تابعة بطريقة مطردة وبحذاقة تدل على سمو مداركه ودهائه وعرف ان يدير شؤون مصر وسوريا ذاتها التي عجز السلاطين في كل آن عن بسط حكمهم عليها. فالمسلمون — وقد جرحت عواطفهم وأذلوا طويلاً — يرون فيه أميراً مجيداً يحيي فيهم الشهامة ويشعرهم بقوتهم. فلماذا أضعاف هذا الأمير التابع المفيد الذي سيصير أعظم معاون لمولاه متى فصلت حدود أملاكهما عن بعضها؟ فقد سبق له ان عاون السلطان على اليونان فكيف لا يعضده إذا اشتبك في قتال مع جيران من مذهب مخالف لمذهبه؟ إن مصلحته خير ضامن لاخلاصه وامانته. إذ كلما هددت الاستانة امست الاسكندرية في خطر أيضاً. فمحمد علي يعرف هذا الأمر ويبرهن في كل يوم على انه يفقهه.

إذا أريد حفظ سلامة السلطنة العثمانية من الاستانة حتى الاسكندرية ينبغي ابقاء السلطان والخديوي معاً وربط هذا الاخير بمولاه برباط التابعية. وأحسن حد للفصل بينهما جبال طوروس. انما يراد أخذ مفاتيح هذه الجبال من الخديوي فليكن ولتعد إلى الباب العالي وليسلخ من محمد علي قضاء آطنه. ويراد أيضاً انتزاع مفتاح الارخبيل فلتؤخذ منه قنديا وهو يرضى بالتخلي عنها. ان فرنسا — التي لم تعد بوضع نفوذها الادبي قيد تنفيذ أحكام معاهدة ١٥ أيلول على أنها تبذله حباً بالسلم — قد أشارت على محمد علي بهذه المساهلات فقبل بها وفي الحقيقة ان سلخ ايالتين أو ثلاث من يد الخديوي لتسليمهما ليس للسلطان بل للفوضى وضمان فوز مذهب حفظ سلامة السلطنة العثمانية وقد سلخت عنها اليونان ومصر وايالة عكا واستهداف هذه السلطنة إلى الخطر العظيم الوحيد الذي يهددها — وهو الذي ارتاعت منه انكلترة في السنة المنقضية فعرضت اجتياز الدردنيل بالقوة

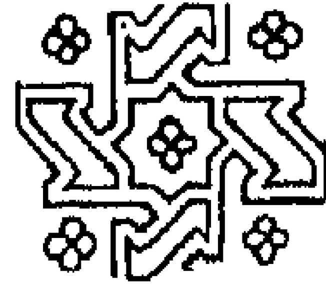
لاستدراك وقوعه - لهي طريقة غريبة في تدبر هذه المصالح الخطيرة. ومع ذلك فلنفرض أن رأي الحكومة الانكليزية أسد من رأي الحكومة الفرنسوية. أليست محالفة فرنسا أفضل لحفظ سلامة السلطنة العثمانية والسلم العام من أي تحديد كان في سوريا؟

وما كانت «سلامة السلطنة العثمانية» لتشغل الأفكار وتقلق البال إلى هذا الحد لو لم يخش من حدوث تبدل عظيم في حدود الممالك أو نشوب حرب تجعل هذا التبدل في حيز الامكان. وعليه فما هي أفضل طريقة لتدارك هذه الأخطار؟ أليس تحالف فرنسا وانكلترة؟ سلوا الشعوب من ثغر قاديس في (اسبانيا) إلى شواطئ نهري أودير والدانوب سلوهم رأيهم في هذا الشأن فيجيبونكم ان هذا التحالف حفظ السلم واستقلال الممالك منذ عشر سنوات دون أن يضر بحرية الأمم.

لقد قيل ان عرى هذه المحالفة لم تحل وانها ستوثق بعد بلوغ الغرض المقصود من معاهدة ١٥ ايلول. فمن الضلال الاعتقاد ان تلفى فرنسا كاظمة غيظها بعيدة عن الحذر والريبة بعد أن تكون انفردت الدول الأربع عنها وسعت ضد ارادتها إلى غاية مضرة - جهرنا بها ولو توهماً - متوسلة إلى ذلك بمحالفة أشبه بالاعتصابات التي أسالت الدماء في أوروبا منذ خمسين سنة فانه لم يسبق لفرنسا ان راضت نفسها للقبول بهذا المظهر الذي تأباه عليها شهامتها الوطنية.

وعليه فقد ضحي مجاناً وفي سبيل نتيجة ثانوية محالفة حفظت استقلال السلطنة العثمانية وسلامتها أكثر مما ضمنته معاهدة ١٥ تموز.

ولرب معترض يقول انه كان على فرنسا ان تفكر هذا الفكر بحيث إذا ما رأت مسألة الحدود في سوريا ثانوية كان في وسعها ان تنقاد إلى آراء انكلترة وتبتاع بهذا التساهل توطيد اركان المحالفة. فالجواب عليه غاية في السهولة فلو كانت فرنسا اتفقت مع حليفاتها على الغرض المقصود لكانت تنازلت لهن ليس عن أمور جوهرية لا تتوجب على دولة تجاه الأخرى بل عن آرائها الخاصة في بعض مسائل تتعلق بالحدود. وقد برهنت على ذلك حديثاً بطلبها إلى الخديوي بعض مساهلات وحصولها عليها. بيد أنه لم يترك لها الخيار في الأمر ولم تخبر عن المحالفة الجديدة إلا بعد ابرامها ومن ذلك الحين لم تحد عن سياستها السلمية فلم تفتر عن نصح خديوي مصر بوجوب الاعتدال التام بمطالبه. ومع كونها تامة أهب القتال وحرة في سلوكها فانها تبذل كل جهدها لتقي العالم من الكوارث وترضى بكل الضحايا خلا التي تمس شرفها حباً بحفظ السلم. وإذا ما كانت اليوم تخاطب الحكومة الانكليزية بهذه اللهجة فليس من قبيل التذمر بل لتبرهن عن صدق سياستها لبريطانيا العظمى وللعالم أجمع اذ لا يوجد دولة اليوم مهما كانت قوية يمكنها الاستخفاف بالرأي العام. ان وزير خارجية ملكة الانكليز قد شاءَ ان يثبت صحة دعواه فترتب على وزير خارجية ملك الفرنسويين أن يبرهن عن صدق السياسة الفرنسوية ونزاهتها في مسألة الشرق الخطيرة وهو واجب مديون به لمليكه ولوطنه. فتفضل الخ. ●



● أصبحنا اليوم نطلب حياة قوية مشرقة ملؤها العزم والشباب ومن يتطلب الحياة فليعبد غده الذي في قلب الحياة. أما من يعبد أمسه وينسى غده، فهو من أبناء الموت وأنصار القبور الساخرة.

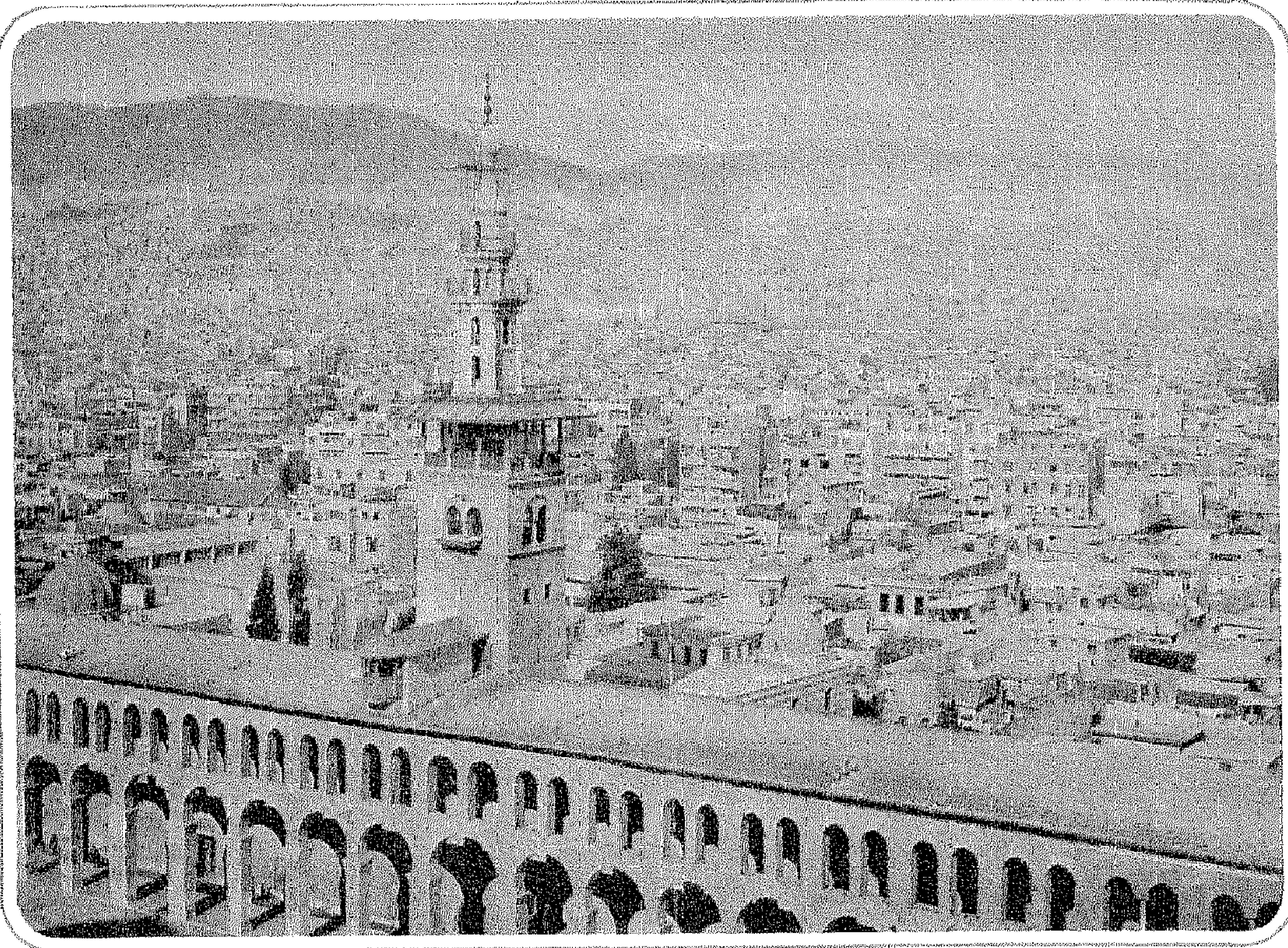
أبو القاسم الشهابي

ملف الوطن العربي

سورية

ساحة المعارك الفاصلة في تاريخ الشرق

اعداد «قسم الابحاث والدراسات»



مقدمة: لماذا تحتل «أرض الشام»[1] مكانة فريدة في العالم وكان لها فضل في رقي العالم من الناحيتين الفكرية والروحية أجلّ شأنا من فضل أي بلد آخر؟[2].

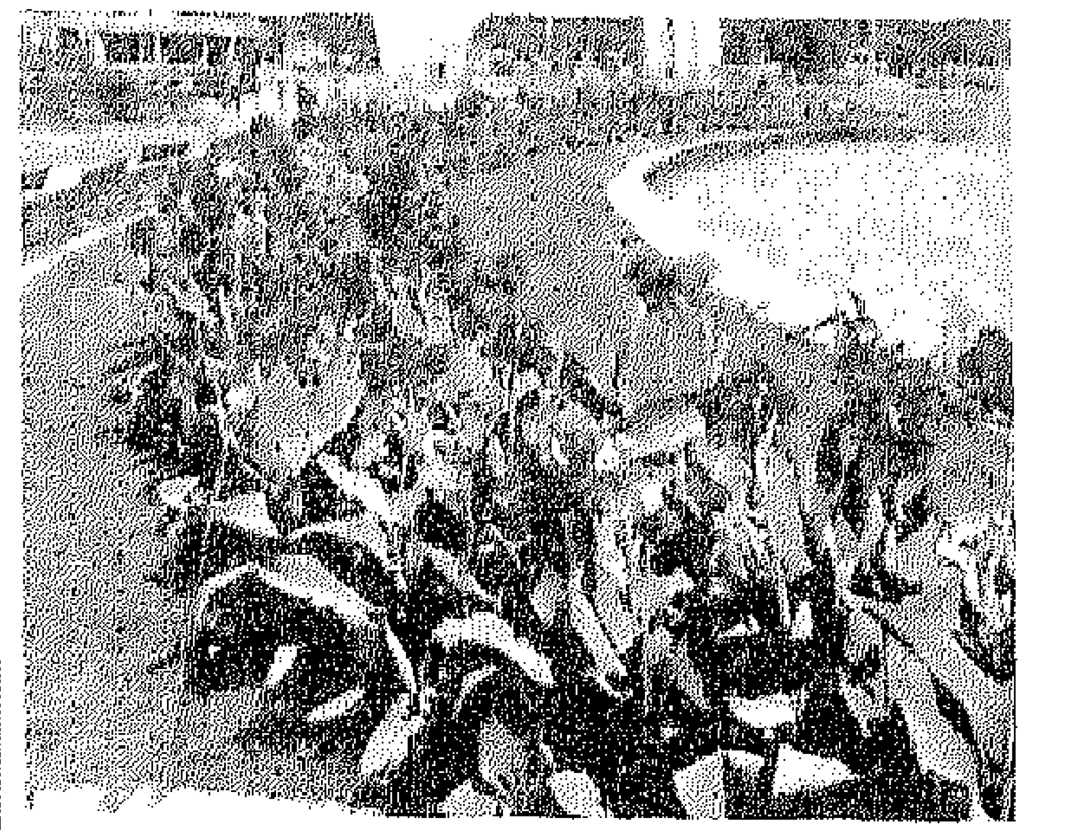
لا شك ان لموقع البلاد الجغرافي دوراً كبيراً في ذلك، إذ ان سورية الطبيعية تقع على مفترق طرق التيارات الحضارية الكبرى في التاريخ وكانت بالفعل محور تاريخ الشرق القديم بكل تراثه وغناه اللذين لم ينفض الغبار عنهما حتى اليوم بالكامل.

* * *

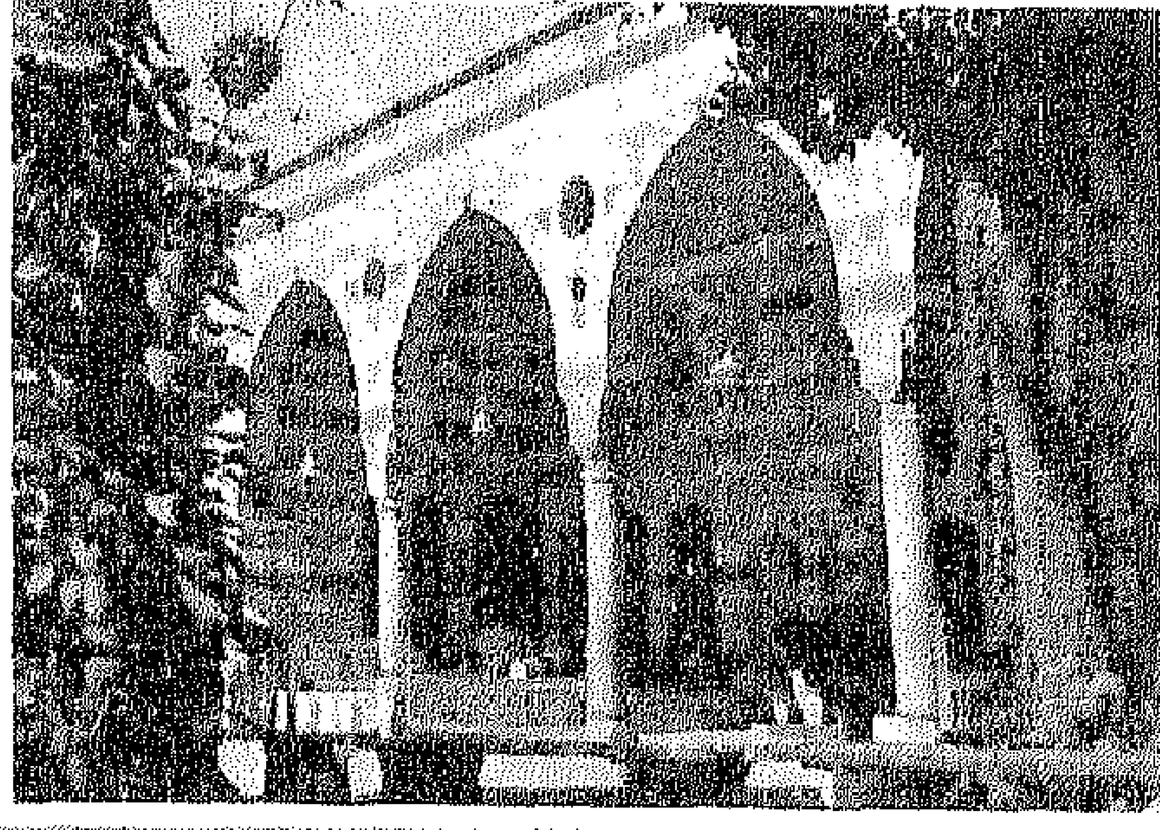
● استناداً إلى أبحاث المؤرخ العربي الكبير نسيب وهيبه الخازن[3] يبدو أن بلاد الشام، بحضاراتها وآثارها، بهرت المؤرخين والرحالة الأجانب، ولا تزال إلى اليوم، إلى حد انهم اطلقوا احكاماً مبرمة يتجنب المتخصصون والبحاثة الخوض في متاهاتها بسبب خصوصية علم التاريخ والعلوم الانسانية والتقنية المتعلقة به في شكل مباشر أو غير مباشر:

● كتب يانوفسكي دافيد، في مجلد العام ١٨٥٢ من سلسلة كتب «لونيفير» (الكون): «ما من بلد حبته الطبيعة بما اغدقته على سورية، وناله من يد

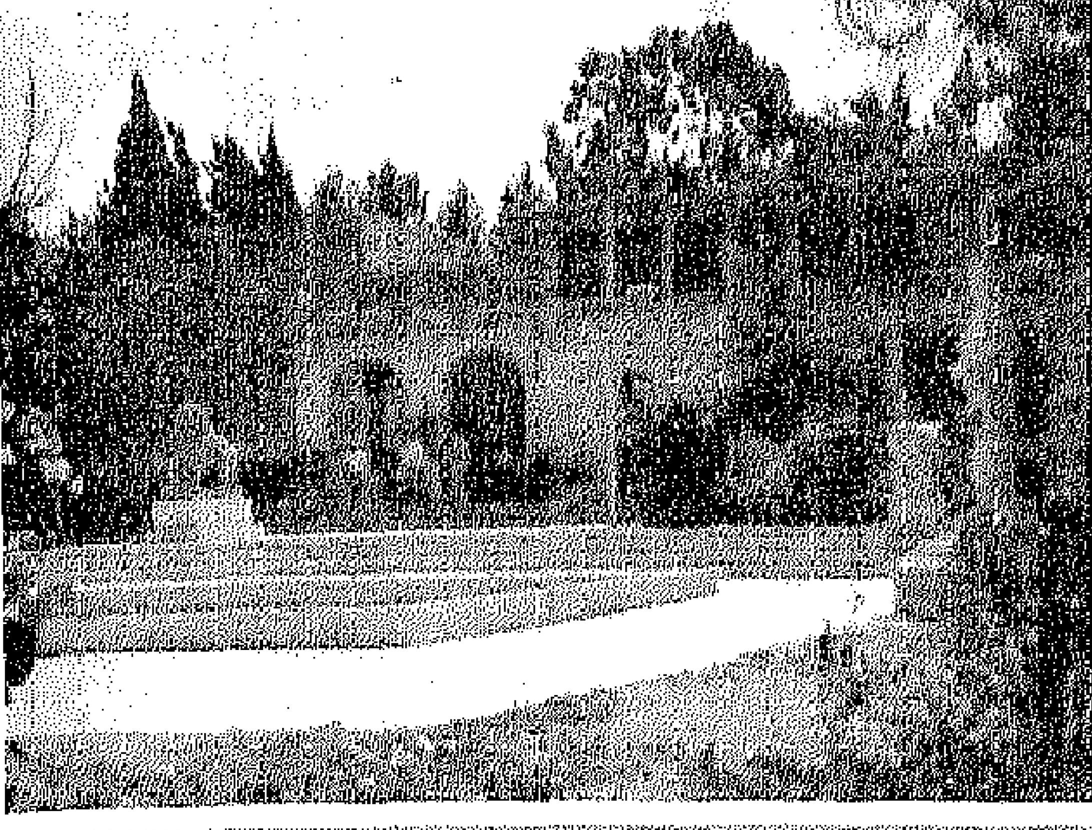
معرض دمشق الدولي



قصر العظم



متحف دمشق



الانسان ما نال سورية من المحن».

● وفي اعوام ١٨٦٥ - ١٨٧٧ ظهرت دراسات ضخمة كشفت عن وجه سوريا البهي في مجلدين للكونت ملكيوردي فوغويه حيث قال: «انني اتردد في اطلاق اسم الخرائب على مدن تجعل الزائر هائم الخيال في ماض ذي حضارة ضائعة. ففي مساحة لا تتعدى الأربعين ميلاً تقوم أكثر من مئة مدينة تكشف عن مدنية كنا نجهلها، وعن حياة ماضية بلغت أوج الرقي بين القرنين الرابع إلى السابع بعد الميلاد: هنا الحياة المسيحية الأولى، لا في الذل والاضطهاد اللذين سادا الغرب بل في يسر وعظمة، وفي جو من التفنن غمر المنازل الفخمة، والحدائق وكروم العنب والزيتون، ومعاصر الخمر والزيت، والمطابخ الأنيقة واسطبلات الخيول المطهمة وساحات تقوم حولها بوابات الحمامات، وكنائس في منتهى الروعة بأعمدتها وبروجها وهندستها ومقابرها ونقوش تعلن الانتصار المسيحي».

● وفي كتاب الفيلسوف الالماني اوزوالد شبنغلر الذي ظهر اوائل هذا القرن يقول الفيلسوف الشهير: «ان سورية بدون امبراطورية وبدون لغة انفردت بها، قد أثرت في تاريخ البشر تأثيراً لم تبلغه أمة من الأمم».

● وقال رحالة انكليزي عن تدمر: «ايتها المدينة الباهرة السناء، لو كتب تاريخك لكان وحده نصف تاريخ البشرية».

عرب «الشام» قبل الإسلام

يمكن تأطير تاريخ «أرض الشام» قبل الاسلام ضمن أربع مراحل تاريخية هي:

● عصور ما قبل التاريخ (الألف الرابع والثالث ق. م. بالنسبة إلى الشرق القديم).

● العصر السامي من عهد الأموريين حوالي العام ٢٥٠٠ ق. م. حتى سقوط الامبراطورية البابلية الجديدة (الكلدانية) العام ٥٣٨ ق. م.

● عصر سيادة الفرس (خصوصاً ابتداء من ٥٥٥ ق. م، عهد قوروش مؤسس فارس حتى ثورة اغريق آسيا الصغرى العام ٤٤٩ ق. م.).

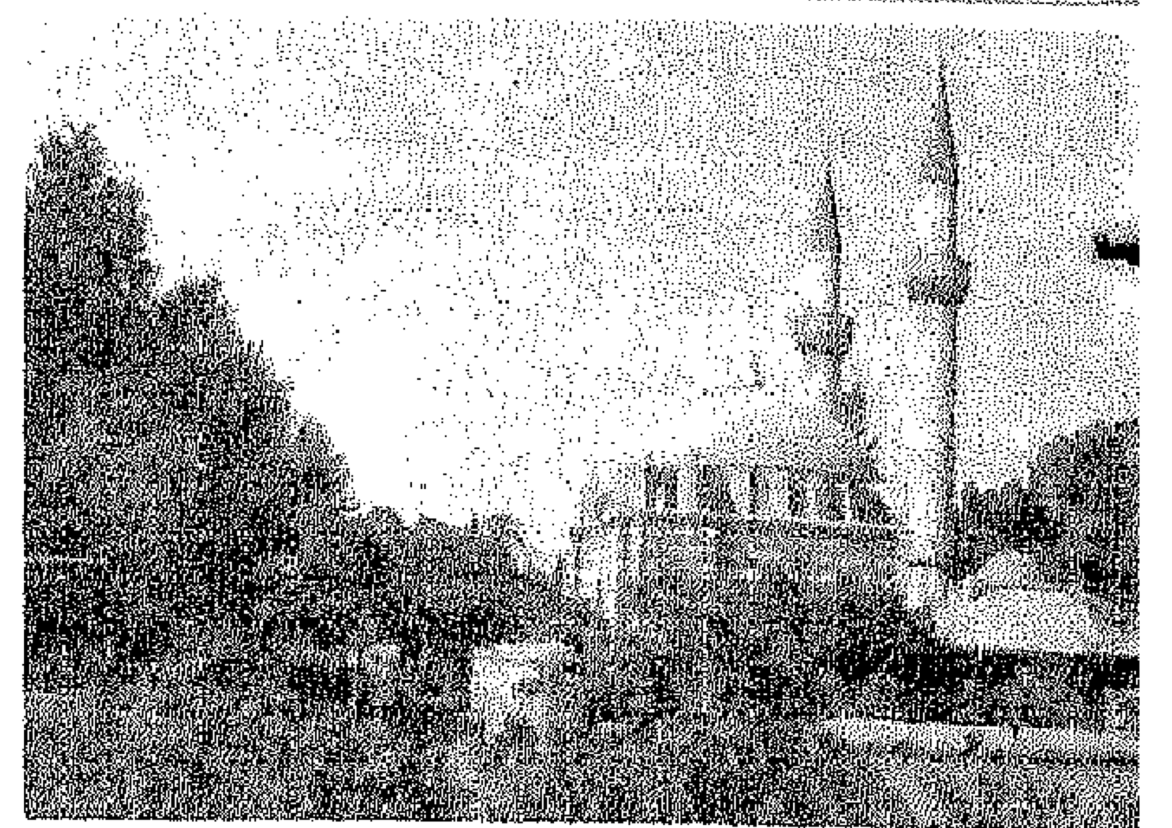
● العصر اليوناني - الروماني من فتوح الاسكندر الكبير العام ٣٣٣ ق. م. - وبالتحديد منذ غزو دمشق العام ٢٣٢ ق. م - حتى الفتح الاسلامي في الاعوام ٦٣٣ - ٦٤٠م، خصوصاً منذ معركة اليرموك في أيلول ٦٣٥م/ ١٤هـ.

ولكن هذه الصورة العامة لا توضح تماماً حقيقة الدور المميز لتاريخ الشعب فوق هذه الأرض: إذ انه في كل العصور السابقة لعهد الفتح الاسلامي كانت «أرض الشام» تتمرد على الامبراطوريات الكبرى الحاكمة في كل فترة من الفترات واستطاعت ان تشكل «دولاً» مستقلة محلية، أو على الأقل ان تحافظ على طابعها المحلي الخاص:

● تحت الاحتلال الروماني ثم البيزنطي كانت بلاد الشام دائماً في تململ من السلطة المركزية. ففي القرن الأول الميلادي اتخذ المسيحيون العرب انطاكية مركزاً روحياً لهم وكانت دمشق نقطة انطلاق رحلة القديس بولس التبشيرية.

● في أواخر القرن الثاني م شكلت قبائل عربية عرفت بـ«الانباط» أول «دولة» عربية مستقلة في جنوب البلاد. كانت حضارة الانباط عربية في لغتها، آرامية في كتابتها، سامية في ديانتها، يونانية

التكية السليمانية



الزجاج: صناعة وفن.



معروضات حرفية



رومانية في فنها وهندستها المعمارية.

● في القرن الثالث م. نشأت في الشمال دولة كبرى هي «امبراطورية تدمر» التي اشتهرت بملكتها «زنوبيا» العربية الأصل. حاربت زنوبيا الفرس وهزمتهم وحررت بلادها من الرومان ثم سيطرت بجيوشها على سورية الطبيعية بكاملها فمصر (٢٧١م). ثم آسيا الصغرى. ولكن طموحها لم يوقفها إلى حد معقول من التوسع الجغرافي والسياسي لنفوذها فتغلب عليها الامبراطور الروماني «أوريليان» (٢٧٢ - ٢٧٣ م). واخذها معه اسيرة إلى روما حيث استشهدت كالنسر المحلق في أوج تحليقه.

● وفي القرن السادس ميلادي تأسست الدولة العربية الثالثة في «أرض الشام»، وهي دولة الغساسنة في حوران.

انطلاقاً من هذا الواقع التاريخي يمكن أن نفهم لماذا التحق عرب الشام، في سهولة أدهشت ولا تزال تدهش بعض المؤرخين الغربيين المعاصرين، بجيوش الفتح الاسلامي، وقاتلوا، بوعي «قومي» جنيني، «اخوانهم في الدين»، البيزنطيين.

تضامن السوريين في العهد الاسلامي - العربي

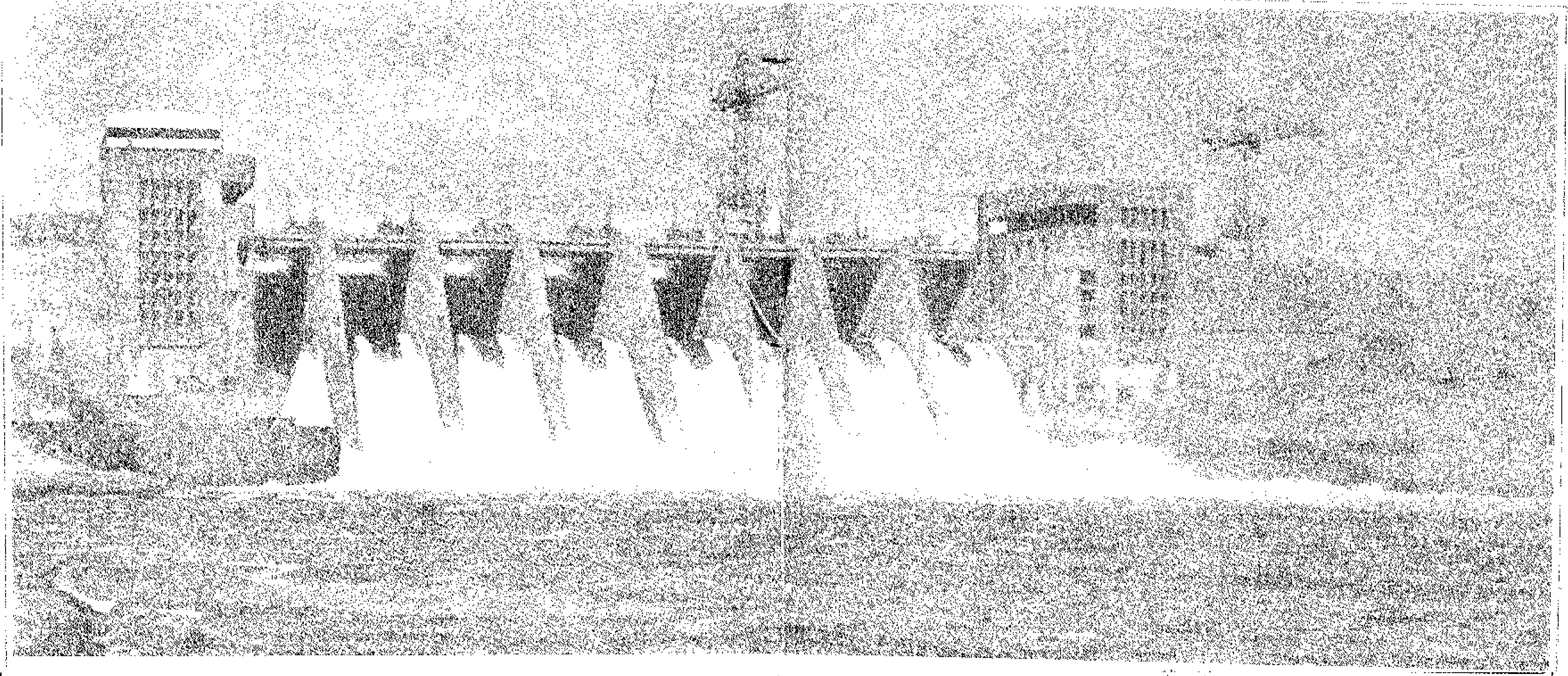
ربما كان الفتح الاسلامي لأرض الشام، بعد معركة «اليرموك» الحاسمة (١٣هـ/٦٣٤م). بقيادة القائد خالد بن الوليد ومساعده الفذ عكرمة بن أبي جهل المخزومي، ونتائجه السياسية والحضارية من أكثر المسائل التاريخية المثيرة للجدل والنقاش في تاريخ سورية الطبيعية قديماً وحديثاً.

من جهتنا نعتقد أن «المؤتمر الدولي الأول لتاريخ بلاد الشام» (القرن السادس م. - القرن السابع عشر) كشف جانباً مهماً من الموضوع سنحاول في ما يلي ابراز أهم معطياته:

في محاضرته «العرب والأرض في بلاد الشام في صدر الاسلام» قال د. عبد العزيز الدوري: «انتشر العرب في سورية قبل الاسلام وكان تغلغلهم من طرفي البادية الجنوبي في اتجاه حوران والبلقاء، ومن طرفها الشمالي في اتجاه حاضر حلب وقنسرين. لكن انتشارهم من خلال الفتوحات الاسلامية شمل بلاد الشام كلها. وكان مجيء القبائل توسعاً استيطانياً منذ الفترة الأولى ولم يكن مجرد غزوات بدوية، لذا لم يؤد إلى ضرر يذكر بالقرى والمزارع، بل ان العرب اكتفوا بالتقدم إلى المدن ولم يتعرضوا لجماعات القرى كما يتبين من عهود الصلح الكثيرة...» (ص ٣٢).

أما د. صالح الحمارنة فيتطرق في محاضرته القيمة: «المسيحية في أرض الشام في أوائل الحكم الاسلامي» إلى أكثر المواضيع حساسية وفي المقابل أقلها تناولاً ودراسة بالمقارنة مع الجوانب الأخرى من تاريخ الفترة الأولى من العهد الاسلامي في سورية الطبيعية، وهو موضوع تسامح الفتح الاسلامي تجاه النصارى، فيقول: «... ان هذه السياسة الحكيمة الكريمة ليست من باب التسامح فحسب بل كان يفرضها ضرورة التعاون والتحالف ما بين الامويين واخوانهم العرب في الشام خاصة الذين سبق لغالبيتهم ان استقروا وتحضروا بأرضي الشام وفيها تنصروا..»، (ص ٥٥٤).

أما حول مظاهر عدم التسامح والتشدد ضدهم فيطرح وجهة نظر جديرة بالتمعن فيها، وهي: «... أما مظاهر عدم التسامح والتشدد ضد المسيحيين وأهل



سدّ الفرات تجسيد لتطلعات الشعب العربي السوري نحو البناء والتقدم.

الذمة عموماً والتي نقرأ عنها عند أبن عساكر («تاريخ دمشق» ج ١، ص ١٧٨) والشعراني («كتاب الميزان» ج ٢ ص ١٦٢) والماوردي («الاحكام السلطانية...» ص ١٤٥..) وغيرهم من الكتاب المبلمين المتأخرين نسبياً، هذه المظاهر جاءت أما عن اجتهادات شخصية للحكام وأما كانت بتأثير من العناصر المسلمة وغير العربية والتي توصلت للسلطة والتي لا يربطها مع العرب المسيحيين رابطة الدم واللغة والتقاليد المشتركة، فجاء هذا التشدد الذي ولا شك فرضته حالات اقتصادية وسياسية معينة ووقتية...» (ص ٥٥٥).

ولكنه يذكر في موضع آخر أن «الاكتشافات الاثرية في الاردن وخاصة في منطقة مادبا كما ذكرها الدكتور «فان الدرن» أن المسيحيين وفي ظل الاسلام قد واصلوا بناء كنائس جدد لهم ودوراً للعبادة تخصهم وبقوا مع اخوانهم العرب في ظل الحكم الاسلامي آمنين على حياتهم وممتلكاتهم ناعمين بحرية التفكير الديني. وقد تمتعوا – خاصة في المدن – بحالة من الرفاهية (ت. ارنولد: «الدعوة إلى الاسلام» ص ٨١...)، بل أكثر من ذلك، فنرى ان المسيحيين كانوا يحتكمون للخليفة في مسائلهم الدينية بل وتمنعهم السلطة الاسلامية من الاعتداء على بعضهم البعض... بل أكثر من ذلك نقرأ في «الاغاني» (للاصفهاني.. ج ٧ ص ١٧١)«أنه كان للمسيحيين الحرية التامة في دخول المساجد الاسلامية»... (ص ٥٥٦ – ٥٥٧).

ويضيف د. الحمارنة: «من جهة أخرى نرى ان تبادل الآراء والمناظرات والمناقشات كانت قائمة بين أصحاب مختلف الاديان فمثلاً منذ الوقت المبكر للاسلام نسمع ان عشرة من اساقفة نجران قدموا على الرسول الكريم وجادلوه (الاصفهاني، «الاغاني» ج ١٠ ص ١٤٨). وكانت عاصمة الامويين، دمشق، مسرحاً قامت عليه كثير من المناقشات الدينية ما بين المسلمين والمسيحيين، ومن أكبر المناظرات التي قامت بين علماء الدينين تلك التي سجلها يوحنا الدمشقي وتيودور أبو قره وهي معروفة، وقد رأى البعض أن المذاهب الأولى الخارجة على السنة في الاسلام نشأت من هذه المناقشات الدينية مثل الارجاء والقدرية (فازيليف، «العرب والروم» ص ١٣). ولهذه الخلافات الدينية أثر بارز في حياة عرب الشام الروحية، فيرى المؤرخ «كيتاني» ان كثرة الخلافات بين المذاهب المسيحية المتعددة قد جعلت كثيراً من العرب المسيحيين ينفرون من دينهم ويقبلون على الدين الجديد – لأكثر من سبب – (ت. أرنولد «الدعوة إلى الاسلام»، ص ٢٩)...

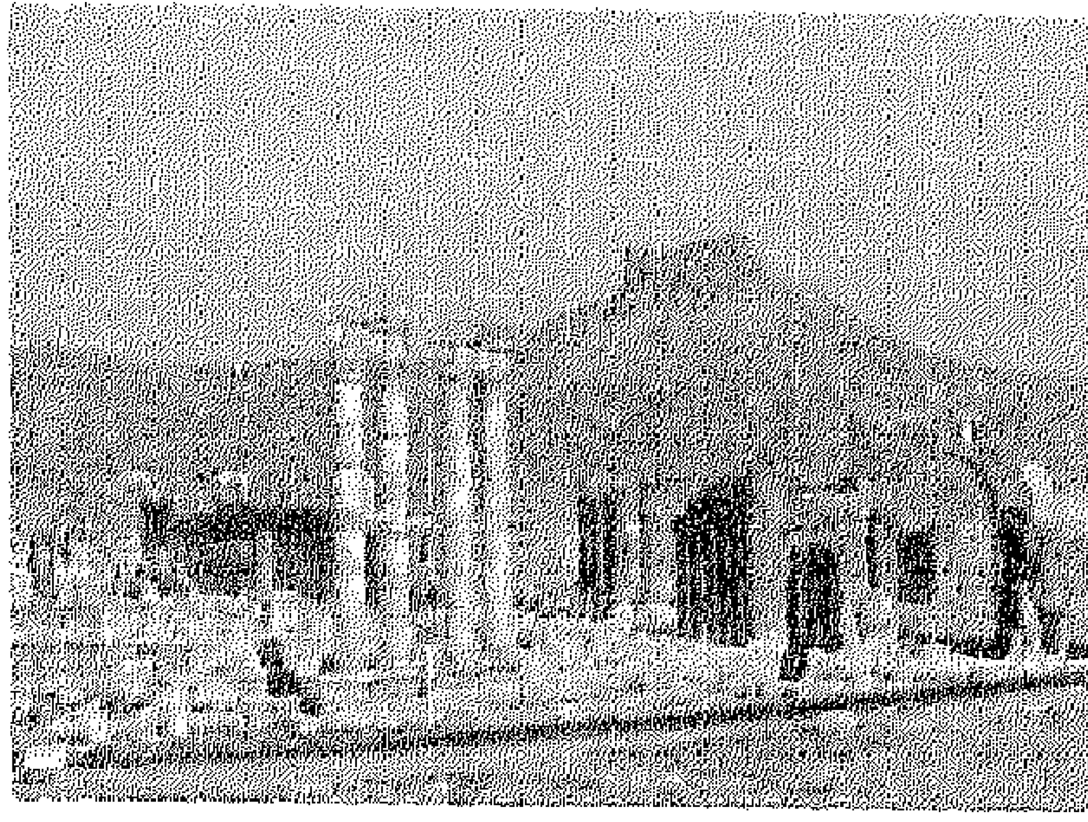
من هنا، هل صدفة ان تصبح دمشق قلب الامبراطورية الاسلامية – العربية أيام الحكم الاموي (٦٦١ – ٧٥٠م./٤١ – ١٣٣هـ)؟.

وهل صدفة أيضاً أن يتابع. السوريون تقاليد

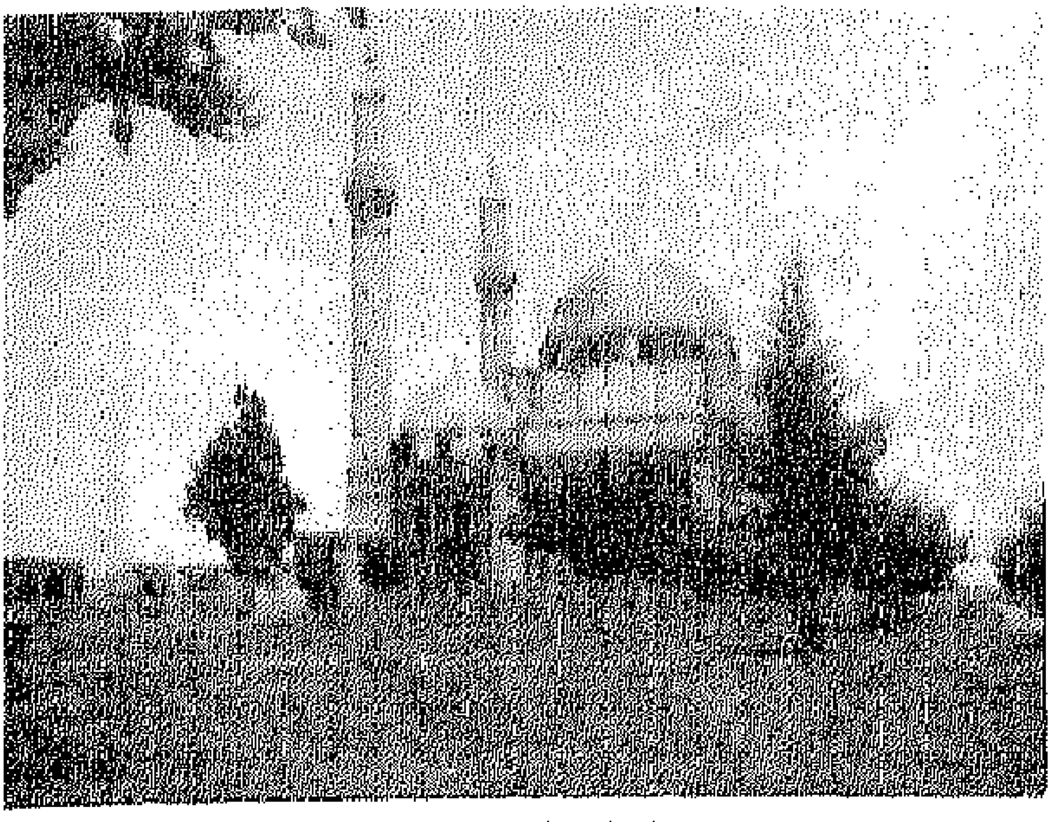
نقوش على رأس عمود



تدمر



حمص : جامع خالد بن الوليد



اجدادهم في التمسك باستقلاليتهم تحت كل الظروف ، أي محافظتهم على حكم انفسهم بأنفسهم على رغم انتقال وهج الخلافة الاسلامية – العربية إلى بغداد منذ العام ٧٥٠م./١٣٣هـ. وحتى العام ١٢٥٨م./٦٥٧هـ؟.

وهم خلال هذه الفترة العباسية استطاعوا تشكيل «حكومات مستقلة» مثل حكم الطولونيين (أواخر القرن التاسع م.) وحكمي «الأخشيديين» والحمدانيين (القرن العاشر م.).

ولكن تضعضع الحكم المركزي الاسلامي فتح شهية الغزاة من كل صوب وكان من الطبيعي أن تكون الأراضي السورية محط الانظار في شكل خاص.

الموقع الخاص للغزوات الصليبية في تاريخ بلاد الشام

منذ ذلك الوقت تعرضت أراضي سورية الطبيعية ، خصوصاً مناطقها الساحلية لسلسلة من الغزوات المتعاقبة والتي كانت بمثابة كارثة حقيقية على مكتسبات الشعب السوري وحضارته : بدءاً من حملات . الفاطميين الزاحفين من القاهرة والاتراك السلاجقة ثم الصليبيين القادمين من أوروبا الاقطاعية (أواخر القرن الحادي عشر – أوائل القرن الثاني عشر م). فالمغول (١٢٦٠م). والتتار بقيادة تيمورلنك (١٣٩٩م). والمماليك المصريين (من أواسط القرن الثالث عشر وحتى القرن الخامس عشر م). الذين طردهم الاتراك العثمانيون بعد معركة مرج دابق (١٥١٦م). وهؤلاء ظلوا يتحكمون برقاب الشعب العربي السوري ، باسم الاسلام كما فعل المماليك قبلهم ، طوال أربعة قرون بلا انقطاع ، مشوهين في ابشع صورة عرفتها المنطقة طبيعة الحكم الاسلامي في عهوده الأولى ، تجاه المسلمين وغير المسلمين على السواء[٤].

ولكن لماذا نعتبر في هذا المجال ان للحملات الصليبية موقعاً خاصاً من بين جميع الغزوات الأخرى؟ لان نتائجها المتوخاة ، أي أساساً استمالة مسيحيي الشرق لسيطرة الغرب الأوروبي الاقطاعي ، لم تثمر الا عكس ما خطط لها ، وذلك يعود في الدرجة الأولى إلى سياسة الحكم الاسلامي السابق تجاه الاقليات الدينية.

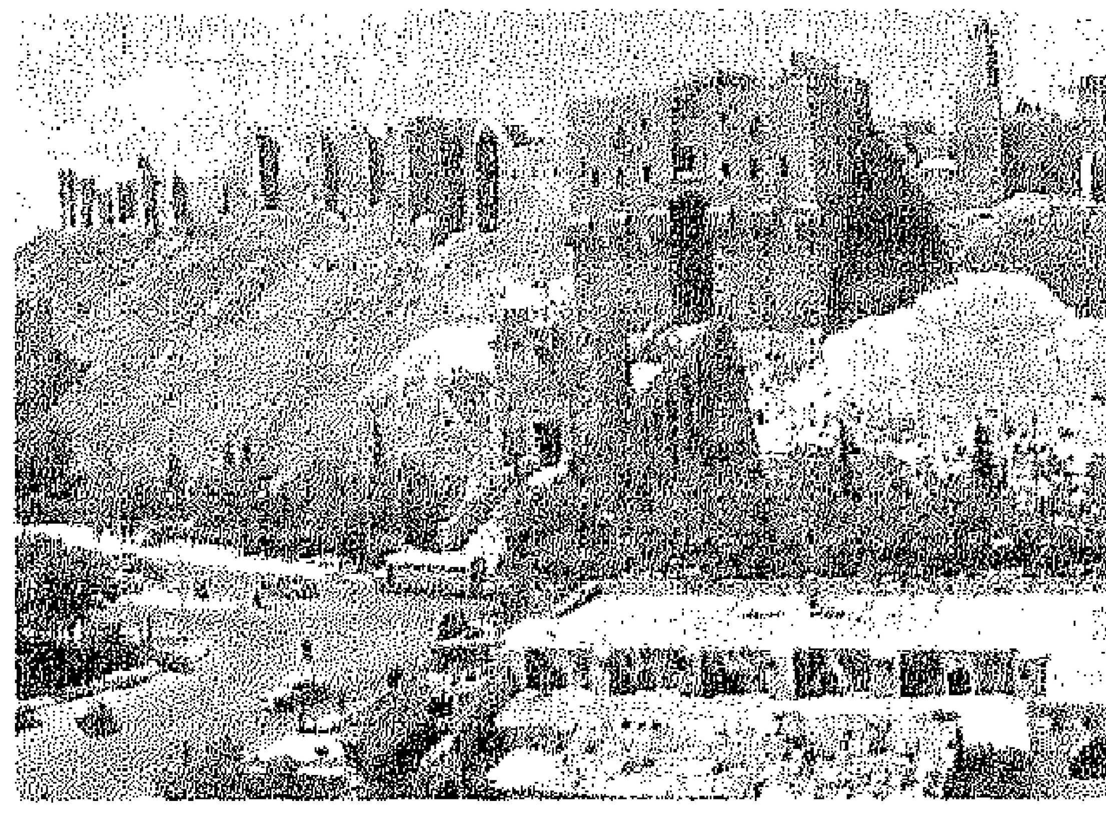
من هنا يمكن ان نفهم الملاحظة المنهجية المهمة التي طرحها د. سعيد عبد الفتاح عاشور في محاضرته إلى المؤتمر الدولي الأول لتاريخ بلاد الشام وكانت حول «المجتمع الاسلامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية». يقول د. عاشور:

«إنصبت عناية الباحثين في تاريخ بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية على الجانبين السياسي والحربي دون أن يحظى الجانب الاجتماعي الا بقدر ضئيل لا يتناسب وأهميته في التاريخ...» (ص ٢١٩). وهذا الجانب غير المطروق في شكل كاف يتناسب ومكانته التاريخية ، يكشف لنا جوانب مهمة من التعايش بين الطوائف المتعددة كما يكشف لنا حقيقة الصدامات التي كانت تحصل وهي في جذورها وجوهرها سياسية وليست كما تتجلى ظاهرياً كصدامات طائفية.

كانت سورية مسرحاً للتصدي للغزوات الصليبية الأوروبية طوال ١٥٠ عاماً تقريباً (١١٢٦ – ١٢٧٢م). على رغم ذلك فشلت هذه الحملات في احتلال وسط البلاد (دمشق وحمص وحلب وحماه).

وهذا يفسر ما ذكره د. عاشور من أنه «...


نواعير حماه


قلعة حلب


مسجد السيدة زينب

رغم ما بدا أحياناً بين المسلمين من ناحية وغير المسلمين من ناحية أخرى من مشاحنات فرضتها طبيعة العصر والظروف التي آلت أحداثه وروحه، الا أن جميع الأطراف عاشت غالباً عيشة آمنة هادئة في ظل الحكم الاسلامي وداخل اسوار المدن الاسلامية ببلاد الشام. فكنائس النصارى واديرتهم ظلت قائمة تمارس نشاطها العادي داخل مدن الشام.. أما اليهود فقد عكفوا على مباشرة نشاطهم – وخاصة الاقتصادي – في هدوء حتى أن أبواب قلعة حلب حملت اسمهم (راجع ابن الشحنة: «الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب»، ص ٤٤ – ٤٥)...» (ص ٢٢٨).

ويضيف د. عاشور منقبا عن حقيقة الحياة الاجتماعية في أرض الشام أيام الغزوات الصليبية:

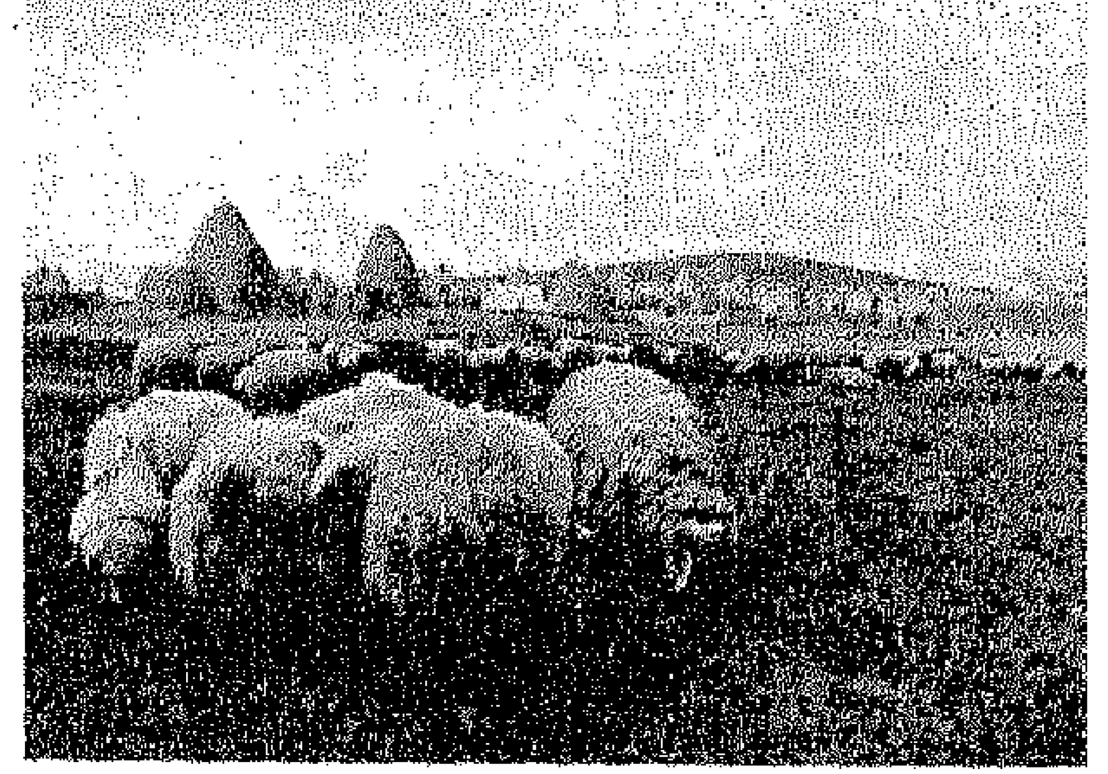
«الواقع انه رغم الحروب التي شهدتها بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، فان الصلات الاجتماعية والروابط الانسانية سادت في كثير من الأحيان العلاقات بين المسلمين والمسيحيين. وثمة اشارات عديدة في بطون المصادر العربية توضح ان الطرفين كانت تغلب عليهما الطبيعة البشرية، بعدما يطول القتال ويشتد بينهما فيتبادلان الفكاهة، وربما «أنس البعض بالبعض بحيث ان الطائفتين كانتا تتحدثان وتتركان القتال. وربما غنى البعض ورقص البعض لطول المعاشرة، ثم يرجعون إلى القتال بعد ساعة» (ابن شداد، «النوادر السلطانية...» ص٣٨٣). ويفهم مما كتبه اسامة بن منقذ أن الصليبيين لم يترددوا في الاستعانة بجيرانهم المسلمين، فأرسلوا اليهم يطلبون أطباء يداوون مرضاهم، وكان المسلمون يلبون طلباتهم بروح انسانية على الفور (أبو شامة: «كتاب الروضتين»... : ٢ ص ٢٠٣).

ولعله لا حاجة بنا إلى التذكير بما فعله صلاح الدين نفسه عندما علم بمرض غريمه ريتشارد قلب الأسد، إذ بادر بارسال ما طلبه من كمثرى وخوخ وغيرها من الفواكه فضلاً عن الثلج والدواء والشراب، حتى شفي خصمه ليستأنف القتال من جديد (رحلة ابن جبير، ص ٢٧٦ – ٢٧٧). ويتعجب ابن جبير من هذه العلاقات الاجتماعية التي لمسها بين المسلمين والمسيحيين في بلاد الشام، فيقول: «ومن العجيب ان النصارى المجاورين لجبل لبنان إذا رأوا أحد المنقطعين من المسلمين، جلبوا لهم القوت واحسنوا اليهم.. ومن اعجب ما يتحدث به أن نيران الفتنة تشتعل بين الفئتين مسلمين ونصارى، وربما يلتقي الجمعان ويقع المصاف بينهم، ورفاق المسلمين والنصارى تختلف بينهم دون اعتراض عليهم.. وتجار النصارى أيضاً لا يمنع احد منهم ولا يعترض...» (رحلة ابن جبير، ص ٢٨٨). كذلك أشار ابن جبير إلى احتفاظ المسلمين بمساجدهم في المدن الاسلامية التي اغتصبها الصليبيون، فقال انه شاهد في صور مساجد متعددة، وأنه نفسه أقام في احد تلك المساجد اثناء زياراته لمدينة صور...» (ص ٢٣٨).

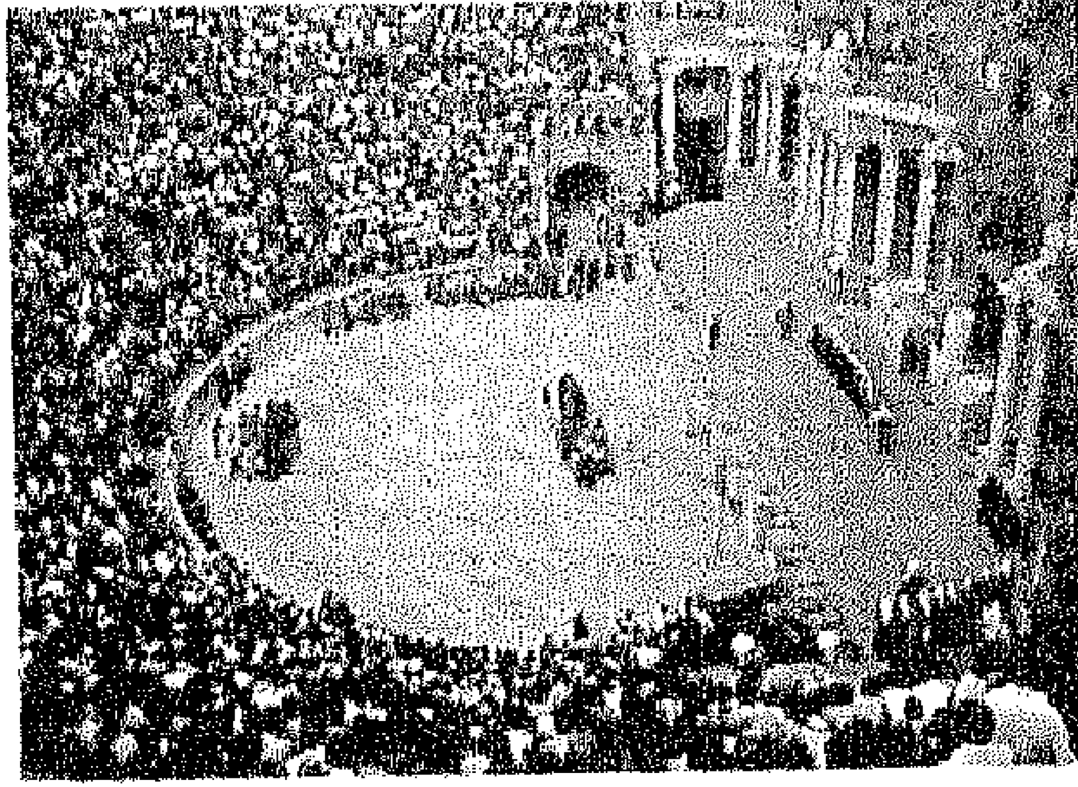
حقائق من تاريخها الحديث

من الخطأ – منهجياً وموضوعياً – التأريخ لسوريا الحديثة من العام ١٩١٨، تاريخ انتهاء السيطرة العثمانية التركية رسمياً على البلاد، وذلك بسبب ما لهذا الأمر من تجاهل للإستمرارية التاريخية والحضارية الحديثة لتاريخ الشعب العربي السوري قبل وبعد الحرب العالمية الأولى.

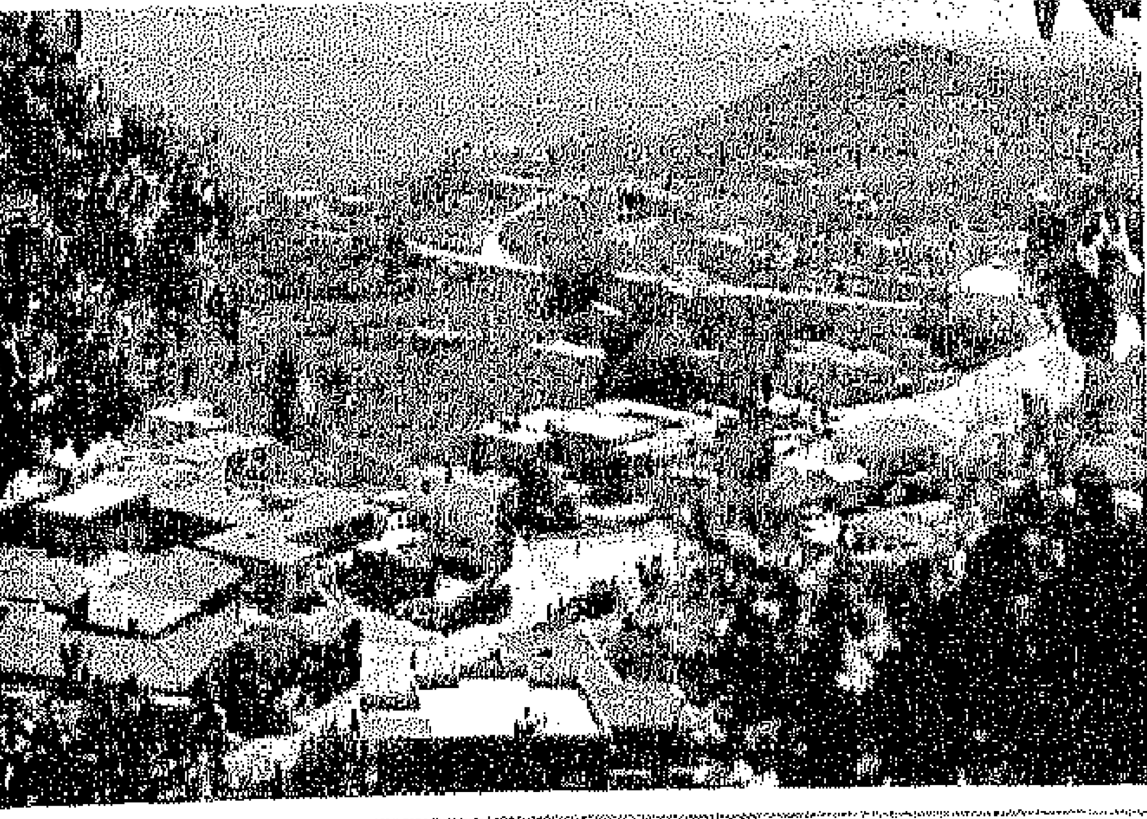
شمال سورية



مسرح بصري



كسب



ان الحقيقة الأساسية في تاريخ سورية الحديث ظهرت منذ أواسط القرن التاسع عشر من خلال ما جسدته معاهدة كوتاهية (١٨٣٣) من بلورة للوعي القومي العربي في سورية وذلك بأن أوجدت هذه المعاهدة أول وحدة بين مصر وسوريا تحت قيادة عربية موحدة منذ جلاء الصليبيين، شملت أراض امتدت من أضنه شمالاً إلى اطراف شبه الجزيرة العربية جنوباً، ومن الخليج العربي شرقاً إلى حدود ليبيا غرباً.

ولم يؤثر «الاحتلال الانتدابي» الفرنسي لأراضيها (١٩١٩ - ١٩٤٥) في اخماد جذوة هذا الوعي القومي العربي التي عبرت عن نفسها أفضل تعبير في اعلان استقلال «سورية الكبرى» (٣/٨ - ١٩٢٠/٧/٢٨). وتحويل هزيمة ميسلون العسكرية إلى كبوة تمهد لثورات ١٩٢٥ - ١٩٢٦ و ١٩٣٦ حتى تحقيق الاستقلال السياسي الناجز العام ١٩٤٦، ولكن بعدما نجح الاستدمار - ولا نقول الاستعمار - الفرنسي بالتعاون مع الاستدمار البريطاني واعوانهما المحليين في اقتطاع اجزاء استراتيجية من أراضي سورية الطبيعية، وخصوصاً لواء الاسكندرون (١٩٣٧/١١/٢٩) وفلسطين الغالية (١٩٤٧ - ١٩٤٨).

سورية المستقبل

بسبب موقع سورية الجغرافي في ملتقى ثلاث قارات: آسيا وافريقيا وأوروبا، تعرضت اراضيها للغزوات الكبرى التي اجتاحت الشرق القديم وشهدت مرور أو استيطان حضارات عديدة، الأمر الذي يفسر وجود تشكيلة متنوعة للغاية من آثار الحثيين والفينيقيين والآراميين والأشوريين والاغريق والفرس والرومان والعرب المسلمين والصليبيين والأيوبيين والمماليك والعثمانيين...

وتنتشر هذه الآثار في كل انحاء سورية حتى وسط الصحراء حيث تشمخ اطلال مملكة زنوبيا في تدمر، مروراً بأقدم عاصمة من عواصم العالم (دمشق) حيث يتعايش فيها أروع ما وصلت اليه عبقرية الفن العربي (المسجد الاموي) مع كنيستي القديس بولس وحنانيا و «الشارع المستقيم» الذي ورد ذكره في الانجيل. كما نجد أضخم قلاع القرون الوسطى في قلعة الحصن (كراك دي شيفالييه)، اضافة إلى الدير الاثري الشهير في معلولا حيث ما زال الأهالي يتكلمون اللغة الآرامية التي كان يتكلمها السيد المسيح، مرورا بقلعتي حلب المشهورتين: القلعة العربية الأثرية التي بنيت على تلة اصطناعية وسط المدينة، والقلعة الاستراتيجية الجبارة القريبة من حلب (سد الفرات).

كانت هذه النخبة المختارة من الآثار التاريخية في سورية فخر البلاد وشهادة لمكانتها الحضارية. ولكن الاكتشافات الأثرية الحديثة في تل مرديخ وراس الشمره وضعت سورية في مصاف قبلة انظار العلماء والمؤرخين على اختلاف اختصاصاتهم.

ان مستقبل سورية الحضاري رهن بالكشف عن آثار مملكة «ايبلا» في تل مرديخ حيث ما زالت أعمال التنقيب عنها جارية منذ العام ١٩٦٤، وعن آثار مملكة «أوغاريت» في رأس الشمره والتي احتفلت سورية رسمياً في شهر تشرين الأول/اكتوبر ١٩٧٩ بالذكرى الخمسينية لاكتشاف أول آثارها العام ١٩٢٩[٥].

وبعكس ما يعتقد البعض من أن آثار هاتين

المملكتين ستسرق الاضواء من الآثار المعروفة في سوريا، الا أن المتخصصين الموضوعيين يجزمون ان آثار ايبلا واوغاريت ستضع تلك الآثار في موقعها التاريخي الحقيقي وستضيء جوانب كانت مجهولة عنها.

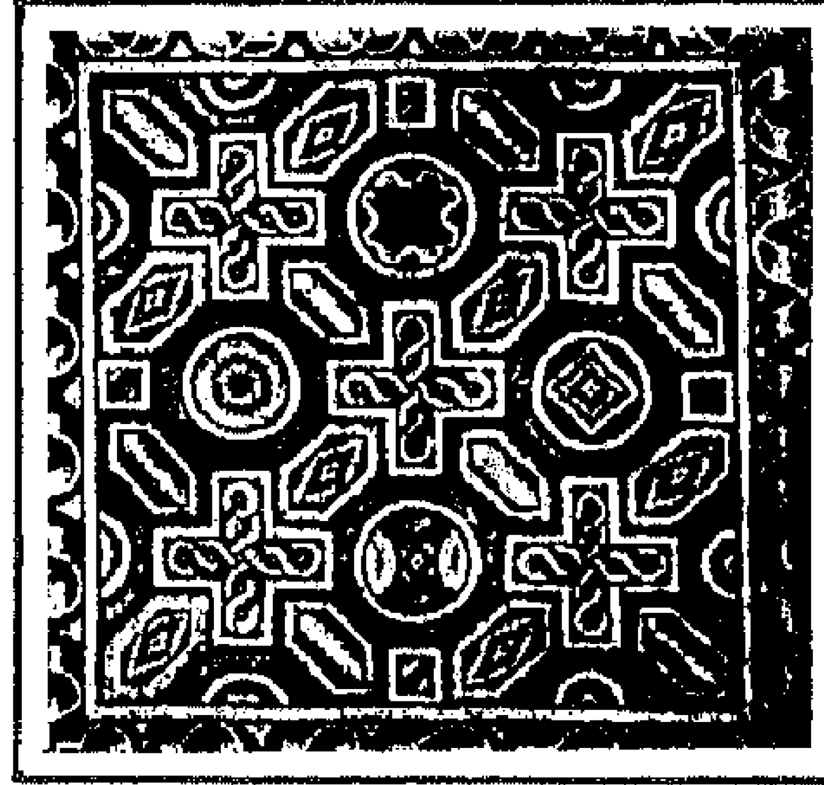
قادة فتح سورية

● القائد العام خالد بن الوليد المخزومي، سيف الله، هازم الفرس في أرض العراق وهازم الروم في أرض الشام. وهو فاتح اليرموك ودمشق وفحل (١٣هـ./٦٣٤م). ومرج الروم وحمص وقنسرين ومرعش وحصن الحدث (١٥م./٦٣٦م).

● أبو عبيدة بن الجراح القرشي الفهري. كان من ابرز قادة الفتح الاسلامي الذي يدخل أكثر مدن أرض الشام بغير قتال.

● عكرمة بن أبي جهل المخزومي، القائد الذي اطلق صرخته الشهيرة في أحرج ساعات معركة اليرموك الحاسمة ضد الروم: «من يبايعني على الموت».

●



هوامش البحث

(١) «أرض الشام» كانت تشمل ما يعرف اليوم بسوريا ولبنان وفلسطين وشرق الأردن. وسوريا الحالية هي في الواقع قلب «أرض الشام» السابقة. ويقول د. نقولا زياده في هذا الصدد أن «أول جغرافي اعتبر ديار الشام وحده بلدانية هو الهمداني إذ عنون الفصل الخاص بها بقوله «القول في الشام». واما الاصطخري فقد اطلق عليها «أرض الشام» فيما استعمل ابن حوقل «الشام» مجردة...» (راجع محاضرته: «جغرافية الشام عند جغرافيي القرن الرابع الهجري» في المؤتمر الدولي الأول لتاريخ بلاد الشام الذي عقد في الجامعة الاردنية بين ٢٠ - ١٩٧٤/٤/٢٥ ونشرت ضمن الكتاب الخاص. بالمؤتمر، الدار المتحدة للنشر - بيروت ١٩٧٤، ص ١٤٧). وسنعمد، بالنسبة إلى محاضرات هذا المؤتمر، إلى ذكر صفحات المرجع كما وردت في الكتاب المذكور.

(٢) وهذا الاستنتاج ورد في كتاب اللواء الركن محمود شيت خطاب. «قادة فتح الشام ومصر» - دار الفكر، بيروت. لا تاريخ - ص ١١.

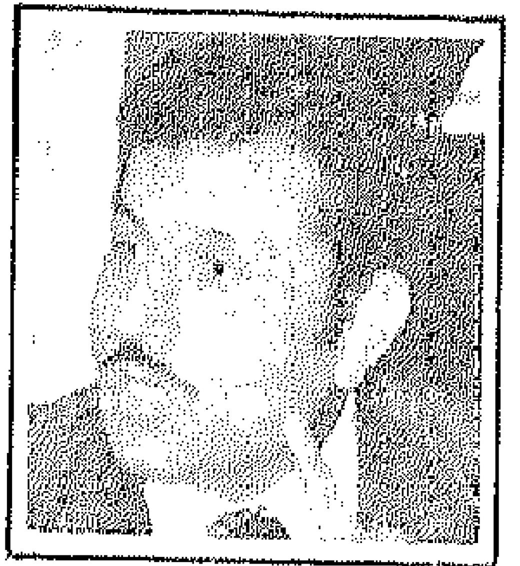
(٣) راجع مقاله في «ملحق النهار» تاريخ ١٩٦٥/٥/٣٠ ص ٩.

(٤) صحيح كما قال د. تاج السر أحمد حران في محاضرته: «بلاد الشام في علاقة المماليك والعثمانيين» إلى المؤتمر الدولي الأول لتاريخ بلاد الشام، أن «العثمانيين استولوا على المدن السورية تباعاً ودونما مقاومة تذكر بسبب ما كان أهالي الشام يلاقونه من ظلم وجور في أواخر حكم المماليك».. الا أنه اضاف «... ولم يستكن الأهالي للفاتح الجديد طويلاً خصوصاً عندما لم يقدم اليهم أي جديد يساعدهم في تطوير مستوى حياتهم... ولم تهدأ الاحوال الا حين نظم السلطان سليمان القانوني بن سليم أمر ادارة سورية ومصر بقوانين جديدة...» (ص ٤٢٦...).

(٥) بمناسبة الذكرى الخمسينية لاكتشاف مملكة اوغاريت في رأس الشمره عقدت في اللاذقية في تشرين الأول/اكتوبر ١٩٧٩ «الندوة العالمية للدراسات الاوغاريتية» بمبادرة ورعاية رسمية. والمثير في الأمر ما كشفه الدكتور هشام الصفدي، استاذ تاريخ الشرق القديم في جامعة دمشق والمدير السابق للتنقيب والبحث الأثري في المديرية العامة، في مقابلة نشرتها جريدة «تشرين» السورية (١٩٧٩/١٠/٢٤)، من أن ندوة أخرى مغلقة عقدت في الولايات المتحدة الاميركية، قبل أيام من ندوة اللاذقية، تحت اشراف «الجمعية الشرقية» الخاضعة لتأثير الصهيونية العالمية، وذلك بهدف واضح وهو محاولة تجيير اكتشافات اوغاريت لصالح التاريخ الصهيوني المفبرك والذين يعملون في دأب يحسدون عليه لإضفاء «الشرعية الحضارية» عليه.

مراجعة كتاب دَوْرُ الجَيش العَراقي في حكومَة الدّفاع الوطني والحرب مع بريطانيا سَنَة ١٩٤١

للدكتور فاضل البراك



بقلم الدكتور خلدون ساطع الحصري

● لحركة ١٩٤١ أهمية كبيرة في التاريخ العربي والعراقي الحديث، لانه من الممكن اعتبارها، كما يقول الدكتور فاضل البراك: «أعظم مثال لاعظم انتفاضة قومية عربية مسلحة في النصف الأول من القرن العشرين». ومن الواضح الآن ان هذه الحركة قد اثرت في كل الانتفاضات والثورات العربية التي تلتها بعد الحرب العالمية الثانية. لقد أثرت، مثلاً، تأثيراً عميقاً في الضباط الذين قاموا بثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ في مصر، كما تكشف عن ذلك كتاباتهم، كما أن عدداً منهم أراد الالتحاق بها. كما ان جماعات من الشبان الفلسطينيين والسوريين قد التحقت فعلاً بهذه الحركة وقاتلت في صفوفها. وفي سوريا كان أول ظهور لحزب البعث العربي الاشتراكي على الصعيد العملي من خلال «لجان نصرة العراق» التي أسسها في ١٩٤١.

أما اذا اخذنا العراق، فنرى الرئيس صدام حسين يقول في مايس /مايو الماضي: «ان ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ هي الوريثة الشرعية والابنة التاريخية للانتفاضة القومية المسلحة المجيدة التي وقعت في العراق فجر اليوم الثاني من شهر مايس سنة ١٩٤١» والرئيس صدام يربط كذلك الحاضر والمستقبل مباشرة بهذه الحركة، فيقول في ١٩٧٧ «لا بد لنا، عندما نتحدث عن حركة مايس ١٩٤١، ان نبرز ابطالها، لا من أجل انصاف التاريخ في اشخاصهم حسب، وانما من أجل اشخاص الحاضر أيضاً.. من أجل ابطال الحاضر غير المرئيين، الذين نريدهم ان يستبسلوا، في الجولان وفي سيناء، وفي الضفة الغربية، وفي الدفاع عن كل شبر من أرض القطر والوطن العربي.. من أجل هؤلاء جميعاً يجب أن



لا ننسى الأبطال والشهداء الذين كان لهم شرف الاستشهاد دفاعاً عن الوطن».

كذلك قام الرئيس صدام حسين مؤخراً بتكريم شخصي لحركة ١٩٤١ عندما زار صبيحة عيد الأضحى الفائت عدداً من عوائل شهداء هذه الحركة (جريدة الثورة البغدادية، ٧٩/١١/١).

وكتاب الدكتور البراك الذي أقوم بمراجعته يؤرخ لبعض جوانب هذه الحركة الهامة، منذ تدخل الجيش العراقي في السياسة تدخلاً مباشراً بانقلاب ١٩٣٦، حتى تشكيل رشيد عالي الكيلاني «لحكومة الدفاع الوطني» في ابريل/نيسان ١٩٤١، فالى القضاء على

هذه الحركة واحتلال الانكليز للعراق في يونيو/حزيران من العام نفسه.

ان كتاب الدكتور فاضل البراك ممتاز ويدعو للاعجاب. ولعل أولى حسناته هو تسجيله للاخطاء التي ارتكبتها هذه الحركة، مع أن تحمس الدكتور البراك وتأييده لها قوى وواضح. فما هي هذه الاخطاء في رأيه؟ انها عدم استثمار قوى الجماهير الشعبية التي كانت مهيأة للعمل ضد الانكليز، وذلك لعدم وجود تنظيم أو حزب سياسي يقوم بتوجيهها وقيادتها. كذلك هي فقدان الوحدة المطلوبة بين القيادتين السياسية والعسكرية. وكذلك كان هناك التنازل عن زمام المبادءة العسكرية إلى العدو، والاكتفاء باتخاذ موقف الدفاع. كما أن التصور الاستراتيجي الواضح والدقيق للوضع في المنطقة والعالم كان غائباً عن قادة الحركة.

هذه الأخطاء في رأى الدكتور البراك قد أدت إلى فشل الحركة. غير أنه يعلق على ذلك الفشل بقوله: «ولكن الفشل الذي أصاب حركة ١٩٤١، لا يقلل من شأنها، ولا ينتقص من قدرها، ولا يضعف من موقعها الفذ الفريد في التاريخ القومي الحديث للعمل الثوري العربي. وكما أن فشل كومونة باريس في سنة ١٨٧١ لم يمنع الثورة الشيوعية العالمية من حبها واحترامها وتحليلها، كذلك فشل حكومة الدفاع الوطني في سن ١٩٤١ فانه لم يمنع الثورة القومية الاشتراكية العربية من حبها واحترامها وتحليلها واستخلاص نتائجها ودروسها وعبرها.. (أن) نظرة الشيوعية العالمية إلى كومونة باريس هي نفسها نظرة الثورة القومية الاشتراكية العربية إلى حكومة الدفاع الوطني، من حيث الخصائص العامة، وان كان القياس مع الفارق في التفاصيل والجزئيات. ولكن التجربتين على حد سواء قد عانتا من اخطاء فادحة وسلبيات متعددة أدت في النهاية، على الرغم من اختلاف واضح في خصائصهما واهدافهما وظروفهما وأسبابهما ونتائجهما، إلى نتيجة مأساوية واحدة، هي الصراع غير المتكافئ والصمود البطولي والفشل الذريع».

ويقوم الدكتور البراك بعد كتابته ما تقدم بالمقارنة بين كومونة باريس وحكومة الدفاع الوطني في العراق، معتمداً في ذلك على كتابات كارل ماركس، وفريدريك انجلز، ولينين، عن كومونة باريس.

ولا بد لنا من أن نشير هنا إلى أن كتاب الدكتور البراك كان بالاصل رسالة بالروسية بعنوان «الجيش والحركة الوطنية في العراق»، نال عليها الدكتوراه من جامعة سوفياتية. ولعل ذلك لم يكن أمراً سهلاً بالنظر إلى الاختلاف العقائدي بينه وبين الأفكار السوفياتية. وكان الدكتور البراك، في حديث أدلى به إلى مجلة «ألف باء» البغدادية (العدد ٢٥٣٧-١٠/١/١٩٧٩) قد اشار إلى هذا عندما قال: «لقد عانيت كثيراً في هذا المجال فالاستاذ المشرف يصر على العامل الواحد في تحليل الأحداث، وهو العامل الاقتصادي بينما كنت استخدم في تحليل الأحداث عوامل متعددة، والعامل الاقتصادي ليس دائماً في مقدمة التحليلات، إذ أن العامل القومي له الأولوية في صنع الحدث السياسي، وهذا الاختلاف أدى إلى تأجيل عدة مواضيع في رسالة الدكتوراه وعدم مناقشتها، الا انني أخذت موافقة من استاذي المشرف لادراجها في الرسالة عند طبعها».

الا أن الكتاب المطبوع لا يشير مع الاسف إلى الاجزاء التي نالت موافقة الاستاذ المشرف على الاطروحة (وهو البروفسور كوتلوف الذي سبق وأن نشر كتاباً عن ثورة العشرين في العراق) وهذه الاجزاء التي لم تحظى بموافقته. ومعرفة هذا قد يكون امراً له أهمية بالنسبة إلى الذين يريدون تتبع اتجاهات الاستشراق السوفياتي orientalsim. (الم يحن الأوان لان يتناول أحد الباحثين دراسة الاستشراق السوفياتي كما درس البروفسور ادوارد سعيد الاستشراق الغربي؟).

ولعل حسنة الكتاب الثانية تتأتى من اجادة الدكتور البراك للغة الروسية واستخدامه للكتابات الروسية. فهذه تمكن القارئ العربي من الاطلاع على الاراء السوفياتية بالنسبة إلى حركة ١٩٤١ في العراق، وبعض المواضيع الأخرى. وهكذا يتبين ان السوفيات الذين كانوا قد اتخذوا في كتاباتهم موقفاً عدائياً من حركة ١٩٤١، وادعوا ان هدفها كان وضع العراق تحت هيمنة المانيا الهتلرية، بدلوا بعد ذلك من هذا الموقف، فاصبحوا ينظرون لها كحركة وطنية تحررية، كان هدفها تحرير العراق من الاستعمار البريطاني، وليس تسليمه للسيطرة الألمانية. وعلى هذا يذكر الكاتب السوفياتي اوغانسيان: «أن ثورة ١٩٤١ في العراق لا يجوز فصلها عن نطاق حركة الشعوب العربية

المعادية للامبريالية.. ولا عن الحركة التحررية الوطنية التي اندلعت بعد الحرب العالمية الأولى. اما محاولة دول المحور للاستفادة من هذه الثورة وهي في حالة حرب ضد بريطانيا، فلا تغير من حيث المبدأ من الصيغة التحررية لحركة ١٩٤١».

وهنا ملاحظة: لا أعرف كيف فات الدكتور البراك ان يذكر بين الكتب السوفياتية التي تبدو فيها النظرة الجديدة لحركة ١٩٤١ كتاب ا. ف. فيد شينكو «صراع العراق من أجل الاستقلال» المطبوع في ١٩٧٠؟.

A. F. FEDCHENKO:
IRAK V BOR'BE NEZAVISIMOST

وكذلك ملاحظة ثانية: يورد الدكتور البراك ترجمة عربية لعناوين المراجع الانكليزية والروسية التي اعتمد عليها. وكان من الأفضل في اعتقادي أن يورد، مع هذه الترجمة، اسماء المؤلفين والمراجع هذه كما هي في الاصل، وبالاحرف اللاتينية، مما يساعد القارئ الراغب على مراجعتها.

من أهم فصول كتاب الدكتور البراك وأطولها الفصل الثالث المعنون بـ «الجيش والسياسة: دراسة تحليلية واستقرائية ونقدية ومقارنة». وفيه يثير المؤلف إلى الدور الهام الذي تلعبه الجيوش في الحياة العامة في دول آسيا وافريقيا وأمريكا اللاتينية، ويقوم بدراسة لهذا الدور في البلدان الرأسمالية والاشتراكية وفي العراق. (ولعل هذا الملحق من الاجزاء التي اضافها إلى اطروحته فيما بعد).

وفي هذا الفصل يقع الدكتور البراك في خطأ كنت أرجو أن يتحاشاه. فهو، عندما يبحث عن التركيب الطبقي للجيش العراقي، يكتب «وبوجه عام، يبدو أن الأغلبية الساحقة من فئة الضباط في الجيش العراقي حينذاك كانت من أبناء الاقطاعيين وأبناء الأرستقراطية الجديدة والبرجوازية الصغيرة». «وحينذاك» هذه تعود إلى مرحلة يحددها المؤلف بتأسيس الجيش العراقي في ١٩٢١، فدخول العراق إلى عصبة الأمم في ١٩٣٢، فالى انقلاب بكر صدقي في ١٩٣٦. وعن المرحلة التالية يكتب المؤلف: «ومع توسع الجيش العراقي، توسع أيضاً كادره من الضباط. وقد أثر هذا التغيير تدريجياً في التركيب الطبقي للجيش».

والواقع أن «التركيب الطبقي للجيش» العراقي لم يتغير، لان «الاغلبية الساحقة» من ضباطه لم تكن في أي مرحلة من المراحل، أو في أي يوم من الأيام، من ابناء الاقطاعيين أو الارستقراطيين. واعتقد أن ذلك كان سيتضح للدكتور البراك لو قام بتنظيم جداول باسماء ضباط الجيش العراقي واضعاً مقابل كل اسم الشريحة أو «الطبقة» الاجتماعية التي كان ينتمي لها والد الضابط. انه لو فعل ذلك لظهر أن العوائل الغنية العائشة من حيازة الأرض أو العقار، أو استثمار ما لديها من رأسمال، لم تكن تدخل أولادها في الجيش. انما العائلات الأفقر، من صغار الموظفين وغيرهم، هذه التي تعيش على الأغلب على «المعاش» أو «الراتب»، هي التي كان أولادها يدخلون المدرسة، أو الكلية العسكرية.

ويلاحظ ان هذا الغلط الذي يرتكبه المؤلف غلط شائع يقع فيه تقريباً كل الذين كتبوا في موضوع الجيش في السياسة العربية. فالذين بحثوا عن مصر، مثلاً، وضعوا عام ١٩٣٦ الذي عقدت فيه المعاهدة المصرية – البريطانية، مقابل عام ١٩٣٢ الذي دخل فيه العراق عصبة الأمم، وذكروا بانه في ذلك العام فتحت أبواب الكلية الحربية المصرية أمام ابناء الطبقات الفقيرة، وكانت قبل ذلك مغلقة امامهم، وان هذا أدى إلى تغيير التركيب الطبقي للجيش المصري. والواقع هو أن تبدلاً في التركيب الطبقي للجيش لم يقع، لا في مصر ولا في العراق، وظل أولاد الطبقات الفقيرة يشكلون الاكثرية الساحقة من ضباطه وكنت أرجو أن لا يتبنى الدكتور البراك هذا الغلط الشائع الناتج عن تطبيق نماذج غربية على الجيوش العربية. ومع ذلك يظل كتاب الدكتور البراك كتاباً ممتازاً.

وهنا كلمة أخيرة، وهي تخص محاضر المحاكمات التي اجريت لقادة حركة ١٩٤١. هذه المحاضر، التي لها أهمية فائقة بالنسبة للكتابة عن حركة ١٩٤١، لا يوجد لها أثر في العراق. وهذا شيء يدعو للاستغراب بوجود مركز لحفظ الوثائق، وجمعية

للمؤرخين، ومجمع علمي، ومراكز ابحاث... الخ. لماذا لا تسعى هذه الهيئات والمؤسسات للعثور على هذه المحاضر ؟

الشيء الذي اعرفه من خلال بحثي شخصياً في وزارة الدفاع ببغداد منذ حوالي ثلاثة أعوام هو أن نسخة المحاضر الموجودة لديها قد فقدت على الارجح نتيجة الأهمال. ولكن هذه ليست النسخة الوحيدة من هذه المحاضر. فأنا اعرف كذلك معرفة أكيدة ان هنالك نسخة ثانية منها بين أوراق مجلس الوزراء. وقد تكون هنالك نسخ أخرى في أماكن أخرى.

أن المسؤولين العراقيين الذين قيموا حركة ١٩٤١ القيمة التي تستحقها يستطيعون بالتأكيد العثور على محاضر محاكمات قادتها. وانني، يشاركني في ذلك على ما اعتقد كل مهتم بتاريخ العراق الحديث، ادعوهم إلى القيام بهذا خدمة لذكرى حركة ١٩٤١، من جهة، وللدراسات التاريخية في الوطن العربي، من جهة أخرى. ●



● الداء مدّ الرقاب للسلاسل والدواء الشموخ عن الذل.

عبد الرحمن الكواكبي

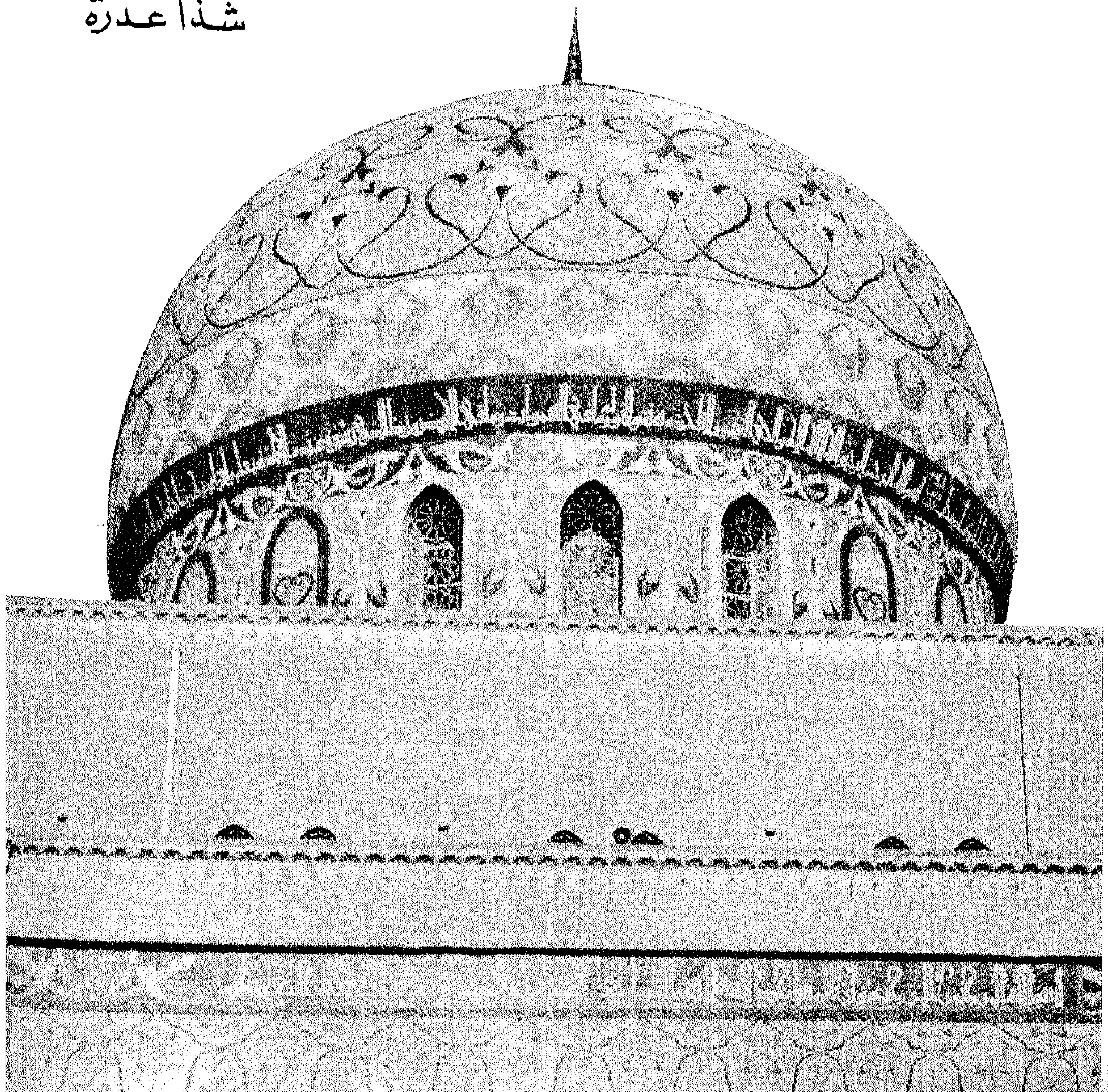


● ان الحكيم وحده هو الحر، والشرير وحده هو العبد.

فيلون – الفيلسوف السكندري

الحياة الاجتماعية والعمرانية خلال العصر الذهبي لبغداد العباسية

ترجمة
شذا عدرة



● نقدم فيما يلي الترجمة الحرفية لمقال جاك س. ريسلر، استاذ المعهد الاسلامي في باريس، بعنوان «كنوز بغداد»، كما نشرته وقدمت له مجلة «ايستوريا» الفرنسية (تشرين الثاني - نوفمبر - ١٩٧٨).

هدفنا من ذلك هو اطلاع القارئ العربي على ناحية مثيرة من نواحي الحياة الاجتماعية عند العرب في العصور الماضية. ومن أجل إتمام هذه المهمة على أكمل وجه ممكن، رأينا أن نمهّد للنص بالملاحظات التالية:

١ - في تقديم المجلة للمقال، كما في المقال نفسه، نلاحظ الخلط الواضح بين تعبيري «العرب» و«الاسلام»، مما يوقع الكاتب في حيرة من أمره لدى استخدامه أحد هذين التعبيرين. وفي نظرنا، فان التعبير العلمي الذي نعتمده لتلك العصور هو تعبير «العرب - المسلمون»، وذلك استناداً إلى الظاهرتين التاريخيتين التاليتين:

- أولاً: ان الذين انتموا حينها إلى هذه الحضارة العربية - الاسلامية كانوا يمثلون أكثر من شعب واحد ومن عنصر واحد. وهم ارتبطوا بالاسلام من حيث هو دين وأيضاً من حيث كونه عنواناً لنظام اجتماعي تاريخي تجسد في التاريخ في دول الخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين.

- ثانياً: إن كل هذه الشعوب جمعتها لغة مشتركة واحدة هي اللغة العربية. وهذه اللغة، خلال بروزها في تعابير فكرية شتى في العالم الآسيوي والافريقي وحتى في العالم الأوروبي (الأندلس...)، حملت في بنيتها الجديدة المتطورة عن لغة العرب الجاهليين، أبعاداً متجددة وموحدة للتاريخ المشترك لمختلف الشعوب التي اندمجت في هذه المسيرة «العربية - الاسلامية».

٢ - بغض النظر عن تضخيم الكاتب الفرنسي لمظاهر البذخ العربي - الاسلامي في عهد العباسيين على حساب النهضة الفكرية والعمرانية والاقتصادية، فاننا حاولنا، في خصوص المراجع والاستشهادات التي أشار إليها الكاتب في مقاله، العودة إلى نصوصها الأصلية في العربية بدل أن نترجمها. واعتمدنا لهذا الهدف المراجع الثلاثة الآتية، حيث نجد صورة أقرب إلى الموضوعية للعصر الذهبي العباسي في بغداد:

* «حضارة العرب» تأليف د. غوستاف لوبون. نقله إلى العربية عادل زعيتر. الطبعة الثالثة، القاهرة ١٩٥٦، خصوصاً الصفحات ١٧١ - ١٨٠ بعنوان «العرب في بغداد».

* «امبراطورية العرب» تأليف الجنرال سير جون باجوت غلوب. تعريب وتعليق خيري حماد. بيروت ١٩٦٦، خصوصاً الصفحات ٥١٣ - ٥٥٠ بعنوان «العصر الذهبي».

* «تاريخ العرب» (مطول) تأليف: د. فيليب حتي ود. أدورد جرجي ود. جبرائيل جبور. الجزء الثاني، الطبعة الثانية، بيروت ١٩٥٩، وخصوصاً الصفحات ٣٦٩ - ٣٩٢ بعنوان «العباسيون في عصرهم الذهبي»، والصفحات ٤٠٩ - ٤٤٣ بعنوان «الحياة الاجتماعية في العصر العباسي».

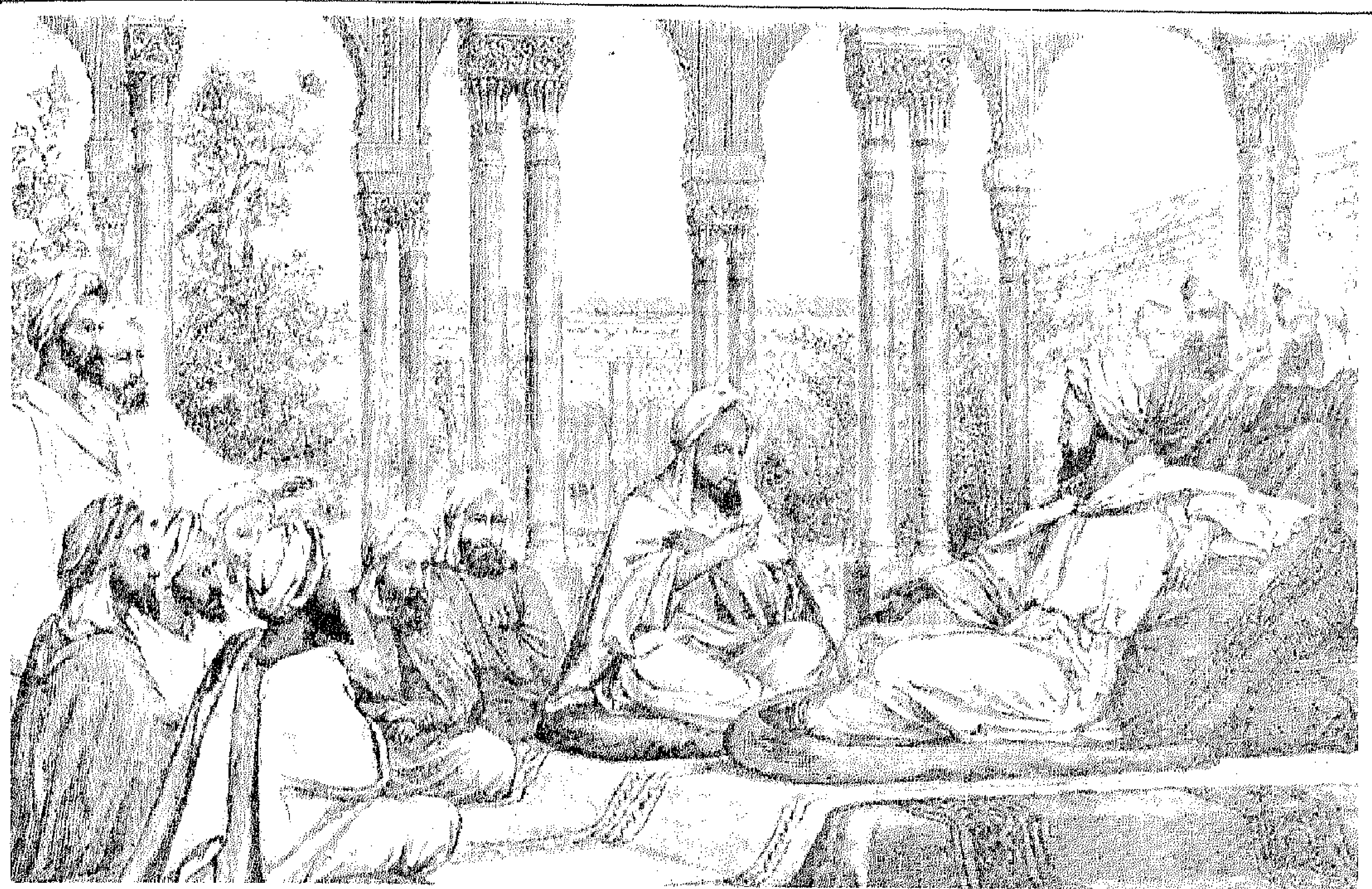
٣ - استناداً إلى هذه المراجع الثلاثة صححنا بعض المعلومات التاريخية التي ذكرها ريسلر في مقاله كما أوضحنا بعض الجوانب التي مرّ عليها المستشرق الفرنسي مرور الكرام مع أنها مهمة للغاية كما سنرى. وذكرنا هذه التصحيحات والاضافات إما في الهوامش أو بين هلالين.

قدمت مجلة «ايستوريا» للمقال بما يأتي:

غالباً ما ننسى اليوم، في الوقت الذي تعتمد فيه دول الشرق الأوسط على ثروتها النفطية، عظمة الحضارة العربية في العصر الوسيط. فخلال فتوحاتهم الرائعة في العالم، لم يجلب العرب معهم، في باديء الأمر، ثقافتهم الخاصة بهم، لكنهم سرعان ما استوعبوا الفنون السليمة، ثم استفادوا من مهارة وتقنية الشعوب التي أخضعوها، واستطاعوا في وقت قصير انتاج فنّهم المميّز.

انتشرت العقيدة الاسلامية في أنحاء العالم بفضل النفوذ السياسي للعرب وقوتهم العسكرية. بعد وفاة النبي محمد (٦٣٢م.) فتح العرب سوريا ومصر وأفريقيا الشمالية واسبانيا وتقدموا في آسيا حتى وصلوا إلى تركستان ومنطقة نهر السند (أو الهندوس).

في العام ٧٥٠م. أطاح العباسيون بسلطة الأمويين في دمشق وأسسوا عاصمتهم في مدينة بغداد حيث اشتهروا بعظمتهم وبشراستهم. كان هارون الرشيد الذي حكم من ٧٨٦ إلى ٨٠٩م. من أبرز الخلفاء



رسم لهارون الرشيد وهو يستقبل طبيبه العربي يوحنا بن ماسوية.

العباسيين، وهو معاصر للملك شارل الأول الكبير (أو شارلمان)[1].

بعد وفاة المأمون (٨٣٣م.) بدأ عهد انحطاط الخلفاء العباسيين وانتهى بسيطرة الغزاة الجدد، الأتراك السلاجقة. وهكذا ظهرت في القرن الحادي عشر الميلادي الامبراطورية التركية على أنقاض الامبراطورية العربية.

يقدم لنا جاء س. ريسلر، وهو مؤلف كتاب «الحضارة العربية» (منشورات بايو، باريس)، صورة عن بغداد في أوج ازدهارها:

في العام ٧٥٠ للميلاد استطاع أبو العباس، وهو أول الخلفاء العباسيين، حكم امبراطورية تمتد من الهندوس إلى المحيط الأطلسي، وذلك بفضل مساعديه الذين كانوا من أصل فارسي. هذا ما يفسر لماذا أخذ بلاط الخليفة يعج بالألقاب الفارسية والنساء والأغاني وأنماط التفكير الفارسية.

كان تأثير الفرس هذا عاملاً في تلطيف خشونة العرب[2]، وفي تعبيد الطريق أمام عهد ثقافي جديد. وبفضل الموقع الجغرافي للعاصمة (بغداد) دخلت التيارات (الفكرية) القادمة في الشرق، وبدا ان الفرس أخذوا يغزون فكرياً مَن (أي العرب) أخضعهم بالقوة لنفوذهم قبل مائة عام. لكن العرب لن يفرطوا اطلاقاً بخاصيتين اثنتين هما: الدين واللغة.

توفي أبو العباس في العام ٧٥٤ م. فخلفه المنصور وهو ما زال في الأربعين من عمره. كان الخليفة المنصور كبيراً، نحيفاً، زاهداً، بارعاً للغاية، غير متزمت، مثقفاً، يعشق الفنون والعلوم. فهو الذي أعاد تنظيم الحكومة والادارة والجيش، وأعطى لكل ذي حق حقه وأشرف على أموال الدولة بدقة وعيّن نائباً أول له (أو وزيراً) —[3]، وهو المنصب الذي شغله الوزير خالد المتحدر من عائلة البرامكة الشهيرة. وتوج الخليفة المنصور اصلاحاته هذه بانشاء مدينة بغداد التي ستبقى مدى التاريخ مدينة اسطورية.

بغداد الاسطورية

بغداد في الأصل مدينة بابلية قديمة تقع على الضفة الغربية من نهر دجلة. وكانت تبعد عن البصرة والكوفة المدينتين اللتين أخذت تنمو فيهما البروليتاريا منذ

ذلك الوقت. وقد وصفها الخليفة ذات يوم بأنها «موقع ممتاز لمعسكر حربي»[٤].

حقاً كان مركزها الاستراتيجي ممتازاً: فمن جهة البر كانت في أمان. ومن جهة الأنهر كانت على اتصال بالفرات ودجلة وبالأقنية. من جهة أولى كانت متصلة بالمدن الكبرى والمناطق الخصبة في الداخل. ومن جهة ثانية كانت على صلة بالخليج الفارسي (العربي) وكل مرافئ العالم. هذا الموقع الرائع لبغداد هو السبب المباشر في ازدهارها.

كانت المدينة محاطة بسور دائري ومحمية بتحصينات مزدوجة وخنادق عميقة. إضافة إلى سور ثالث للدفاع عن مدخل الأحياء المركزية. وكانت تخترق السور الدائري أربعة أبواب ذهبية تؤدي إلى الجهات الأربع للامبراطورية.

في وسط المدينة تم تشييد قصر الخلفاء والباب الذهبي الكبير. بالقرب منه، وفي مقابل كل زاوية من زواياه، شيّدت قصور الأمراء (أي حكام الولايات).

وحول المدينة التي كانت مقسمة كعقارب الساعة[٥]، تم بناء ١٢ قصراً لرؤساء المصالح الكبرى في الدولة. كانت كل هذه القصور تتمحور حول قصر الخليفة على أساس مخطط دائري وضعه مهندس فلكي أراد بذلك أن يشبّه بغداد بشكل السماء كما كان يتصورها حينها.

وخارج أسوار المدينة وعلى ضفة دجلة نفسها، شيد المنصور قصراً صيفياً أعجب به هارون الرشيد كثيراً فيما بعد، إذ انه أمضى فيه القسم الأكبر من حياته. ومن فوق شرفات هذا القصر كان يمكن مشاهدة السفن والمراكب وهي تفرّغ، على أرصفة دجلة، البضائع الواردة من جميع مرافيء العالم المعروفة يومها.

وفي المقابل، على الضفة الفارسية للنهر، شيّد المنصور قصراً لابنه المهدي. وسرعان ما تأسست، حول هذا القصر الجديد، مدينة أصبحت فيما بعد أوسع من بغداد. لكن المدينتين ظلتا على صلة احداهما بالأخرى بواسطة جسري – قوارب.

من الصعب جداً التحدث عن عظمة هذا القصر وعن ترف الخلفاء ببضع كلمات، حتى انه لا يمكن مقارنتها بأبهة البلاطات الفارسية والبيزنطية. لذلك ربما استطاعت الأرقام، على رغم طابعها الجاف، ان تبرز هذه العظمة في شكل أفضل.

قصر الخليفة

استناداً إلى المؤرخ أبو الفداء[٦] احتوى قصر الخليفة على ٢٠ ألف سجادة و٣٨ ألف بساط منها ١٢٥٠٠ بساط من حرير مطرز بالذهب ومعلق على الحيطان. كانت غرفة الاستقبال مذهلة للغاية: فالستائر والوسائد اختيرت من بين أجمل ما أنتجته الصناعة الفارسية.

كانت زوجة هارون الرشيد، زبيدة الجميلة، تنتعل بوابيج مضلعة بالجواهر كباقي زوجات العظماء في كل العصور. وهي لم تكن تقتني إلا الأواني الذهبية أو الفضية والتحف الغالية المرصعة بالماس والأحجار الكريمة

ووصلت روح العظمة هذه إلى درجة انه تم تغليف جذوع النخيل العديدة في الحدائق بمساند من خشب «التيك» المطعم بالذهب.

«... وقد أنفق عند زواج المأمون ببوران (كانت في العاشرة من عمرها يوم خطبها المأمون) سنة ٨٢٥، وهي بنت الوزير الحسن بن سهل، من الأموال والأرزاق، ما لا تزال آثاره حية في الآداب العربية إلى يومنا هذا. وهي تدل على مبلغ الترف والبذخ الذي بلغها ذلك العصر. قيل انه في أثناء العرس وقف العريسان على حصير ذهبي مرصع بالدر والياقوت فنثرت على بوران ألف درة من صينية ذهبية وأوقدت شموع من العنبر، وزن كل واحدة منها مائتا رطل، فانقلبت الظلمة ضياء»[٧].

وفي ما بعد، شيّد المقتدر «قصر الندوات» الذي يمكننا تصور ضخامته إذا ما علمنا ان اسطبلاته كانت تستوعب ٩ آلاف حصان وبغل وجمل.

وفي العام ٩٠٢م، شيّد المكتفي «قصر التاج» الذي غطت مساحته، مع الحدائق والأبراج الملحقة به، نحو عشرين كيلومتراً مربعاً. وكان هذا القصر لا يبعد كثيراً عن «قصر الندوات».

ولدى الاستقبال الفخم الذي أعدّه المقتدر في

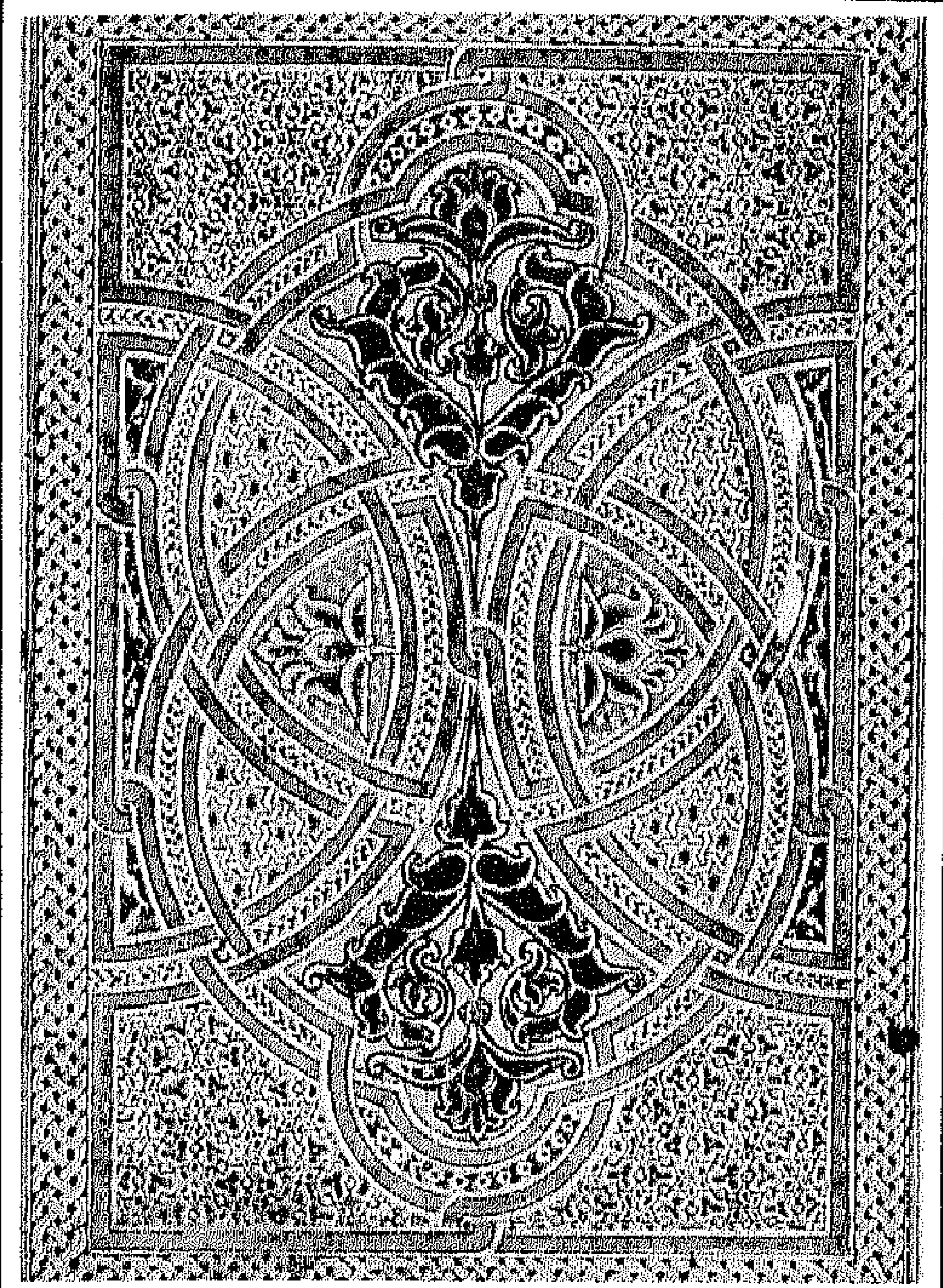
العام ٩١٧م. لسفراء بيزنطية[٨]، انبهر هؤلاء بأروقة قصور بغداد الرخامية وبالفخامة الاسطورية لزخارفها ولمفروشاتها. «... وعبّئت لهم العساكر وصفّت الدار بالأسلحة وأنواع الزينة، وكان العساكر المصفوفون حينئذ مائة ألف وستين ألفا ما بين راكب وواقف، ووقف الغلمان ذوو الزينة الحجرية والمناطق المحلاة، ووقف الخدام الخصيان كذلك، وكانوا سبعة آلاف: أربعة آلاف خادم أبيض وثلاثة آلاف خادم اسود، ووقف الحجاب كذلك، وهم حينئذ سبعمائة حاجب، وألقيت المراكب والزوارق في دجلة بأعظم زينة، وزينت دار الخلافة. فكانت الستور المعلقة عليها ثمانية وثلاثين ألف ستر. منها اثنا عشر ألفا وخمسمائة ستر من الديباج المذهب. وكانت البسط اثنين وعشرين ألفاً، وكان هناك مائة سبع مع مائة سبّاع، وكان في جملة الزينة شجرة من ذهب وفضة تشتمل على ثمانية عشر غصناً، وعلى الأغصان والقضبان الطيور والعصافير من الذهب والفضة. وكذلك أوراق الشجرة من الذهب والفضة، والأغصان تتمايل بحركات موضوعة، والطيور تصفّر بحركات مرتبة، وشاهد الرسل من العظمة ما يطول شرحه...»[٩].

الخليفة الاسطوري

من بين جميع هؤلاء الخلفاء سيبقى هارون الرشيد إلى الأبد رمزاً للخليفة الأسطوري عند المسلمين. فالمؤرخون في عهده يعطون عنه صورة الحاكم المرح والمثقف. وأحياناً صورة الحاكم الصارم، لكنهم يصفونه بأنه كان انسانياً إلى درجة كبيرة. ويروي المؤرخون المسلمون أنه كان دائماً تقياً ومتعلقاً بدينه، يقوم بفريضة الحج إلى مكة المكرمة كل سنتين ويؤدي الصلوات اليومية بكل خشوع. كان مضيافاً، بشوشاً وذواقة بلا إسراف.

تزوج هارون الرشيد من ٧ نساء، وعشق مائتي خليلة ورزق ١١ ابناً و١٧ بنتاً، جميعهم ولدوا من جاريات ما عدا الأمين، ابن زبيدة.

كان مفرط العطاء ويعشق الشعر إلى درجة أنه كان يغمر الشعراء أحياناً بهدايا سخية للغاية. فهو مثلاً قدم للشاعر مروان، الذي مدحه في قصيدة قصيرة، ٥ آلاف قطعة نقد ذهبية وثوباً مبهرجاً و٦ عبيد



لوحة تزيينية لغلاف نسخة من القرآن الكريم (العراق)

أغريقيين يافعين وأحد أحصنته المفضلة.

كانت عظمة الرشيد تجذب إلى العاصمة، كالمغنطيس الذي لا يقاوم، كل الكفاءات والمواهب. فجمع حوله «مجموعة فريدة» من الشعراء والحقوقيين والأطباء واللغويين والخطباء والموسيقيين والفنانين والمبدعين على اختلاف مشاربهم. وقد عرف تقدير مؤلفاتهم وأعمالهم بذوقه المرهف فكافأهم بسخاء، إذ إنه هو نفسه شاعر وعلامة وخطيب نابض العبارة بليغ اللسان.

لم يشهد التاريخ البشري كله وجود مثل هذا البلاط الذي كان يحوي نخبة ممتازة من المفكرين والعلماء.

اعتاد الرشيد على أن يستأنس بعدد من المرافقين للترفيه عنه. وكان لهؤلاء مواهب كبيرة للغاية إلى درجة ان صيت البعض منهم وصل الينا (أي إلى أوروبا). كانوا كلهم ذوي أريحة حية وذاكرة قوية ومواهب متعددة المشارب، وفي الوقت نفسه كانوا كلهم مغنّين وملحنين وشعراء وعلماء. فمثلاً، في المساء، عندما كان «المحرّق» يغني، وهو في مركب فوق دجلة، كان الناس



رسل هارون الرشيد يقدمون هداياه إلى شارلمان وبينها أول ساعة مائية ورقعة شطرنج من العاج.

يتدفقون صوبه من كل اتجاه حاملين المشاعل المتلألئة بالنور: في روعة الليل كان سكان بغداد يعشقون سماعه عن قرب.

ومن أصدقاء الرشيد وعرابيه المرحين نذكر الشاعر الأباحي أبا نواس الذي كان يثير ثائرة الخليفة بسبب اباحيته ووقاحته، لكنه كان دوماً يعرف كيف يهدىء أعصابه بأبيات رقيقة من الشعر.

وصف أبو نواس في كتاب «الأغاني»(١٠) وصفاً رائعاً الحياة الاسطورية والعظيمة لبلاط العظمة والمجد هذا. فهو الذي كتب عن الحفلة العامرة التي نظمها ابن هارون الرشيد، الأمين، نفسه: طوال ليلة بأكملها غنّت ورقصت مئات الجواري الجميلات حتى الفجر على أنغام الآلات الموسيقية. ومن أجل إرضاء هوايته الرياضية على نهر دجلة، أمر الأمين بصنع زوارق فخمة على شكل الدلافين والأسود والنسور. وكلّف الزورق الواحد بضعة ملايين من الدراهم.

طبعاً هناك أمثلة أخرى عن هذا الترف، الذي لا يمحوه النسيان، لمجتمع خلفاء بغداد العباسيين الذين كانوا مفعمين بالرقة والشاعرية.

حياة الناس العاديين

والآن... ولاستكمال صورة بغداد العباسية، لا بد من التعرف على حياة الناس العاديين خارج البلاط.

لم تكن المظاهر الفخمة ممكنة الوجود إلا لأن سكان الامبراطورية كانوا يفيضون نشاطاً في أعمالهم الزراعية والتجارية والحرفية. فالازدهار عمّ وادي دجلة والفرات ووادي النيل وسفوح إيران وسوريا وكذلك مناطق التمركز المهني في المدن الكبرى وأرصفة الموانيء. كان الحرفيون والتجار من كل هذه المناطق يبدعون في ابتكار وانتاج وايجاد البضائع والحاجيات النادرة التي تلبي متطلبات عظمة بلاط الخليفة وفخامته، وحاجات الدولة العظيمة.

كانت الطرق في المدينة ضيقة ومتعرجة، وهي خططت خصيصاً على هذا الشكل لتحمي سالكيها من وهج الشمس. وكانت تنتشر على جانبيها المحلات والمخازن الضخمة المكتظة بالشارين. وكانت هذه الطرق تصل بين المباني الملكية وأحياء الطبقة الميسورة.



المغول في حصارهم لبغداد – من مخطوطة فارسية – باريس.

في المدينة وفي ضواحيها. وعلى طول عدة كيلومترات. كانت تشاد المباني التي تظهر من الخارج بسيطة متواضعة لكنها في الداخل تتميز بالفخامة والثراء.

في الأرياف المجاورة كان الأتباع الأكثر يملكون المنازل الضخمة المبنية وسط حدائق شبيهة بجنات عدن: أحواض ونوافير وجداول وشلالات من المياه الصافية، وأزهار وثمار وأشجار وارفة الظلال.

يروى ان جعفراً، الوزير البرمكي، قام هو أيضاً ببناء قصر له كان من الفخامة إلى درجة انه لفت أنظار الناس. وسرعان ما استثار حسد البعض منهم. وللرد على حملات منتقديه على هذا البذخ حاول جعفر ايهام الناس أنه أهدى هذا القصر للخليفة، لكنه استمر في السكن فيه. فكان مصيره كمصير نيقولا فوكيبه، وزير الملك لويس الرابع عشر. إذ كانت نهايته مأساوية. ولا بأس هنا من ذكر أسباب هذه المأساة:

كان هارون الرشيد يحب جعفراً كثيراً. وهذا ما نستنتجه أفضل استنتاج من خلال هذه الورقة الصغيرة التي وجدت في محفوظاته: «٤٠٠ ألف قطعة نقد ذهبية ثمن ثوب للتشريفات لجعفر. ابن الوزير يحيى». مثل هذه الهبة وغيرها الكثير أدت إلى النميمة. والقضية لم تكن لتستتر طويلاً. فجاء اليوم الذي اغتاظ فيه الخليفة من جعفر وذلك عندما أطلق هذا الأخير سراح أحد المتردين المحكوم عليهم بالاعدام. وتمّ وضع حد لهذه الامتيازات، على رغم أن شقيقة الخليفة، العباسة، كانت متيمة بجعفر للغاية.

إضافة إلى كل الاتهامات التي وجهها الخليفة إلى جعفر، احتج الرشيد بأصل وزيره الفارسي ليرفض زواجه بشقيقته إلا بشرط أن يتقابل العروسان في حضوره فقط. طبعاً كان هذا الشرط صعب التحقيق. فأخذ جعفر وعباسة يجتمعان في السر. وفيما بعد رزقا بطفلين ترعرعا في السر أيضاً. وعندما علم هارون الرشيد بالأمر غضب غضباً شديداً فأمر بإعدام شقيقته وبقطع رأس جعفر. وبعدما تأكد من تنفيذ هذين الأمرين استدعى الطفلين وتحدث إليهما طويلاً وأخذ يداعبهما حتى خنقهما بيديه.

وكان مصير والد جعفر، الوزير والوالي الكبير يحيى، وكذلك شقيقه، الموظف رفيع المستوى، السجن

بعد مصادرة أملاكها الضخمة.

حاول المؤرخون البحث عن أسباب أعمق لهذه النهاية القاسية لحكم البرامكة. فرأى ابن خلدون «السبب الحقيقي... في ادعاء الوزراء السيطرة على كل السلطة، وفي استخدامهم الفردي للمال العام استخداماً فظاً إلى درجة ان هارون الرشيد نفسه كان غالباً ما يطلب مبلغاً صغيراً من المال ولا يستطيع الحصول عليه».

ربما كان الخليفة لا يريد أن تنشأ إلى جانب سلطته سلطة أكبر منها وبلاط آخر مواز لبلاطه. وفي الواقع كان الوزراء يتنافسون بلا أدنى حذر للتشبه بالخلفاء في بلاطهم إلى درجة انهم أخذوا يقلّدون ابهة الخلفاء فيجمعون حولهم الشعراء والمهرجين والفلاسفة وطبيعي أن مثل هذا الوضع كان غير قابل للاستمرار.

الرياضة والألعاب

لكن المجتمع العباسي سرعان ما كان ينسى في غمرة مظاهر الحضارة واللهو: من رحلات الصيد إلى سباق الخيل والبولو[11]، ومن رمي الرمح إلى القوس والنشاب والمبارزة بالسيف وألعاب الكرة والبيْزر[12]، وأيضاً إلى اللقاءات الجماعية في المراعي على ضفاف دجلة حيث يتناول المدعوون الدجاج المحشي بالجوز المقشر، والحليب مع اللوز، والسكريات اللذيذة والشراب المعطر بنكهة البنفسج والورد والفريز.

وهناك عيد واحد كان يلقى في شكل خاص حماسة من الجميع وهو «سهرة ثلاثاء المرفع» (عند مسيحي بغداد): في هذه المناسبة كان الرجال يتنكرون بفساتين نسائية والنساء بثياب رجالية، وكانوا يرقصون ويضحكون ملثمين.

ولا يعني ذلك ان الحفلات المقنّعة نشأت منذ قيام هذا العيد: في الواقع كانت الحفلات جزءاً من برنامج معظم اللقاءات العامة المتضمنة أيضاً تمثيليات إيمائية وفقرات من أخيلة الظل. وكان الرجال والنساء يرتادون مثل هذه الحفلات وهم محللون بالجواهر وبالثياب الفخمة الملونة والمزركشة بالحرير والذهب، ومعطرون بالعنبر الرمادي وبالبخور. ومع ذلك فلا تشترك نساء المجتمع الراقي في حفلات الرجال وانما تستبدل بهن الجواري الحسناوات.

وبموازاة هذه الحفلات كانت النخبة تنظم الاجتماعات الشعرية والمنتديات الفلسفية حيث تحتدم المباريات الأدبية والعلمية في جو راق للغاية. وكانوا أيضاً يعقدون ندوات عامة لتلاوة آيات بيّنات من القرآن الكريم وشرحها.

صحيح ان هذا العصر شهد جواً لاهياً، إلا انه شهد أيضاً تسليات رفيعة المستوى بسبب ما كان فيه للمثقفين من حظوة كبيرة: فالمدارس كثيرة والفنون والعلوم تلقى التشجيع الرصين، والجو العام يعبق بالشعر ويسوده التقدير السامي لكل من يبدع في شكل عام.

تميزت الحياة في بغداد بشيء من الزهو والحماس. في عهد هارون الرشيد لم يكن عمر المدينة يناهز الخمسين سنة بعد، لكنها اعتبرت مع ذلك كمركز عالمي من الدرجة الأولى وكملتقى للطاقات الفكرية. وبما ان بغداد نمت في الوقت نفسه الذي كانت تنمو فيه امبراطورية الخلفاء، فهي سرعان ما أصبحت تنافس بيزنطية.

مليون ونصف مليون رجل

تشير بعض التقديرات إلى ان بغداد ضمّت في القرن الحادي عشر الميلادي على الأقل مليوناً ونصف المليون من الرجال. ونظراً إلى ان النساء لم يكن يؤخذن في الحسبان في أي احصاء يومها، فان هذا الرقم يسمح لنا بتقدير مجموع السكان في بغداد بثلاثة ملايين نسمة.

ويؤكد بعض المؤرخين ان المدينة احتوت على ٦٠ ألف حمام و٣٠ ألف مركب و٢٧ ألف جامع. ربما علينا أن لا ندهش لهذه الأرقام[13]، ففي صدر الاسلام كانت كلمة «جامع» تشمل كل مركز شريف القصد كالمدرسة والنادي وحتى السوق.

وبالنسبة إلى الحمامات فانها لم تكن فقط مكاناً للاغتسال وانما أيضاً مراكز فخمة للتسلية.

عاش في بغداد أناس من كل الديانات: فكان للمسيحيين العديد من الأديرة ولليهود محكمتهم الخاصة وحتى سجنهم الخاص. وبعض الوزراء كانوا من المسيحيين أو من المجوس أو من اليهود. لذلك اعتبرت هذه المدينة الكوسموبوليتية نموذجاً للتسامح وللادارة الحكيمة.



لوحة من كتاب الأغاني، المجلد السابع عشر (استانبول).

في هذا الوقت، كيف كان يعيش الناس العاديون وفقراء المجتمع ؟

كما في كل العصور، كان الشعب هو صانع هذه الحضارة: فعلى متن السفن وعلى الأرصفة وفي الورش والأسواق كان العمال والشغيلة والحرفيون يؤدون واجباتهم القاسية بوجوه صارمة ودون اكتراث بالأناقة المنتشرة تحت أبصارهم. وكانت كل جمعية تملك ورشاتها أو حوانيتها، ومخازنها أو معاملها، وتتجمع داخل الحي نفسه: سوق الحدادين مضاء بشرارات احتكاك المعادن بعضها ببعض، سوق النحاس تدوي فيه ضربات المطارق. المجلخون والحدادون وصانعو الأسلحة ينتشرون في كل زاوية، كل في عمله. سوق الصاغة يشع بالجواهر المعروضة فوق مساند ذهبية أو فضية. داخل محلات الخياطين حركة الشراء وأخذ القياسات ناشطة. صانعو الأحذية يجهّزون البوابيج الأنيقة والقباقيب الفلاحية. صانعو الفخار منكبّون على طاولاتهم يبدعون أشكالاً مختلفة من الأواني بينما بائعو الأمشاط والمسابح يجلسون القرفصاء في انتظار الزبائن. في وسط الشارع تضج قوافل الجمال والحمير والبغال برنين أجراسها الذي يمتزج بصراخ الباعة المتجولين. ووسط هذه الجموع الحاشدة يتناول المارة ما يشتهون من الرقائق والفطائر والشراب وكذلك الباذنجان والكوسا المقلي في المطاعم الشعبية.

هكذا كان المشهد اليومي لبغداد.

كان البناء يغزو بغداد سريعاً: فالنجارون والبناؤون وعمال الحفر والدهانون يشكلون في كل حي نوعاً من بورصات صغيرة للعمل، إذ انهم لا يحددون أسعار المشروع والأجور اليومية لليد العاملة فحسب، وانما أيضاً يتحكّمون في سوق العمل أيام المواسم الراكدة.

من بين كل هذه الجمعيات كانت احداها تنشط

في شكل كبير للغاية على طول الأرصفة، وهي جمعية الحمالين وعمال المرفأ والبحارة. كانت تحصل بعض الاضرابات إما لأسباب سياسية أو لطلب زيادة في الأجور. لذا كانت بغداد، كأية مدينة معاصرة، تفتقر أحياناً إلى الطحين أو التمر أو الزيوت، فتتدخل الشرطة وتهدىء من روع المضربين وتعيد الأمن والنظام.

في شكل عام، كان هذا العالم الصغير من الناس البسطاء المرحين يشهد نشاطاً انتاجياً مبدعاً. وبين الحين والآخر تتوقف الحياة اليومية العادية في الشارع لدى مرور موكب زواج أو مراسم ختان طفل أو مرور دورية للشرطة. وعندما ينتهي الحدث تعود الحياة إلى مجراها الطبيعي.

كان الانسان المسلم العادي الذي يكفي نفسه بنفسه فخوراً بمسجده وبمدينته وبخليفته. وكان يشعر ببعض هذه العظمة تنساب إلى ذاته في شكل أو في آخر ●

الهوامش

(١) منذ بداية القرن التاسع الميلادي كان زعامة السياسة العالمية: شارلمان في الغرب وهارون الرشيد في الشرق ثم الأمويون في الأندلس ودولة بيزنطية. وليس من شك أن هارون الرشيد كان الأقوى والأرفع ثقافة. (راجع «تاريخ العرب...» ص ٣٧٠).

(٢) توضيحاً لهذه النقطة نورد ما جاء في كتاب «تاريخ العرب...»: «... لم يكن للفرس، عدا الفنون والآداب، شيء يذكر مما يستفيد منه العرب. فهم امتازوا بالميل إلى تذوق الجمال وكادت أن تكون هذه الناحية مفقودة في ثقافة العرب الساميين فاقتبسوها من الفرس. اضافة إلى ذلك كان للفرس أثر من الناحية الأدبية لا من نواحي العلم والفلسفة...» (ص ٣٨٢).

(٣) ظهرت الوزارة، وهي منصب فارسي الأصل، للمرة الأولى في الحكومة الاسلامية في عهد الخليفة المنصور.

(٤) النص الأصلي لهذا الوصف جاء في كتاب «تاريخ العرب...» (ص ٣٦٣-٣٦٤)، نقلاً عن الطبري (ج٣ ص ٢٧٢):

«... هذا موضع معسكر صالح، هذه دجلة ليس بيننا وبين الصين شيء يأتينا فيها كل ما في البحر وتأتينا الميرة من الجزيرة وأرمينية وما حول ذلك، وهذا الفرات يجيء فيه كل شيء من الشام والرقة وما حول ذلك...».

(٥) راجع الرسم الواضح لبغداد المدوّرة في كتاب «امبراطورية العرب...»، صفحة ٤٧٥.

(٦) وهو أبو الفداء المعروف بصاحب حماة المتوفى سنة ١٣٣١م. والمشهور بأنه من علماء التاريخ والجغرافيا ومن رجال الحرب معاً. ألّف كتاباً في أخبار البشر ضمّنه كل ما هو خاص بالشرق.

(٧) النص مأخوذ من كتاب «تاريخ العرب...»، صفحة ٣٧٥.

(٨) كان الضيف هو سفير قيصر الروم.

(٩) النص مأخوذ من كتاب (حضارة العرب...» (ص ١٧٥) نقلاً عن المؤرخ العربي أبو الفداء.

(١٠) مؤلف «الأغاني» هو أبو الفرج الاصفهاني (حوالي ٨٩٧-٩٦٧م.) وليس أبو نواس.

(١١) البولو هي لعبة رياضية تمارس على ظهر الخيل بمضارب طويلة وكرة خشبية.

(١٢) البيْزر هي مطرقة خشبية ذات رأسين.

(١٣) في هذا يوضح مؤلفو كتاب «تاريخ العرب...»، استناداً إلى مؤرخي العرب - المسلمين أنه «أحصيت الحمامات في أيام المقتدر فكانت، حسب قول الخطيب البغدادي، ٢٧ ألفاً. وكانت في زمن آخر ٦٠ ألفاً. وهذان الرقمان كسواهما من الأرقام التي نجدها في المصادر العربية مبالغ فيهما: فاليعقوبي يجعل عدد الحمامات، بعد تأسيس المدينة بزمن يسير، ١٠ آلاف. أما الرحالة المغربي ابن بطوطة الذي زار بغداد سنة ١٣٢٧م. فانه رأى في الجانب الغربي منها ١٣ محلة كل محلة فيها حمامان أو ثلاثة من أبدع الحمامات مجهزة بالماء الحار والبارد...» (ص ٤١٥).



فتح القسطنطينية

الحلقة الاولى

ملحمة اسلامية خالدة

ترجمة: "تاريخ العرب والعالم"

● صفحات من المجد الاسلاميّ الخالد، حافلةٌ بالبطولة الخارقة، والرجولة العارمة، تجلّت فيها عظمة السلطان الشاب محمد الفاتح الذي فتح القسطنطينية، وقضى على الامبراطورية الرومانية الشرقية.. انه يوم الفتح عن جدارة واستحقاق...

لأول مرة في التاريخ العربي تنشر هذه الملحمة الخالدة نثراً وبكل تفاصيلها باللغة العربية، وهي لمكانتها العظمى في التاريخ، تعد من أعظم الملاحم العربية والاسلامية. وقد عربناها عن الأنكليزية، بعد درس وامعان وترّو، لئلا تكون ملغومة بالتعصب والانحياز والاثارة المضلّلة، فوجدنا فيها الكثير من النزاهة والصدق والتجرد، على اعتبار انها حدث هام – مِلك للتاريخ، فإذا كانت قد استحقت العناية والرعاية من المؤرخين والمؤلفين الأجانب، فان العرب والمسلمين خليقون بأن يولوها رعايتهم واهتمامهم، ويضعوها في المحل الأول من اعتبارهم وعنايتهم إلى جانب ملاحمهم الكبرى كاليرموك، والقادسية، وعين جالوت، وحطين وغيرها...

وانه لمن المؤسف حقاً ان نرى الشعراء العرب قديماً وحديثاً، يهملون اهمالاً تاماً نظم ملاحم المجد العربي والاسلامي شعراً، وينصرفون إلى نظم مآسي الحب والغرام مضحين بالأهم من أجل نظم المهم من القصص التراجيدية، فمآسي الحب والغرام التي نظمها الشاعر أحمد شوقي وطنطنت بها الأقلام في حينها من أمثال مسرحيات: كليوبترا، وقمبيز، ومجنون ليلى، وعنترة، لا تعبر عن تاريخ العرب والمسلمين الممثّل أحسن تمثيل في حروب الفتح وملاحمه الشهيرة، لذلك جاءت تراجيديات شوقي في مرتبة أدنى كثيراً من روائع الملاحم الكبرى الجديرة بأن تنظم شعراً يُخلّد الناظم والمنظوم..

وقد رأينا الأديب الكبير المرحوم سليمان البستاني يُعنى بنظم ملحمة «الألياذة» للشاعر هوميروس، وهي ملحمة طروادة أو «ارواد» وهذا عمل جدير بالتنويه والتقدير، ولكنه بَعُد كثيراً عن الهدف العربي الأسمى، «فطروادة» كانت قلعة صغيرة حاصرها حفنة من الأغارقة جاؤوا من شتى المدن الأغريقية، وحدثت بين أواخر القرن الثاني عشر والقرن الحادي عشر قبل الميلاد، بينما المعارك العربية والاسلامية تكاد تكون قريبة العهد أو في الزمن المتطور الواقع ما بين سنة ٦٠٠ و ١٥٠٠ ميلادية.

ورأينا العديدين من شعراء العرب على مرّ العصور والأجيال، ينصرفون عن ملاحم الخلود إلى «شعر النّهود»، ومع ان بعضهم ألمّ الماماً سطحياً ببعض المعارك التي جرت في زمانهم. فان بعضاً أخر منهم كرّس جهداً بيّنا في وصف المعارك الطاحنة بين العرب والروم كالمتنبي، وهناك الشعر الجاهلي الذي وردت فيه



لوحة من العاج تمثل رمزاً للقسطنطينية من القرن الخامس الميلادي.

قصائد ومقطوعات تصف أيام العرب، ومعاركهم وغزواتهم وصفاً صادقاً يلمس فيه القارئ روحاً شاعرية وفطرة سليمة ونغماً متفاعلاً. ولكن ذلك كله لم يكن متلاحماً في قصة استطرادية من الشعر. وهناك من الشعراء من تناولوا بالذكر والإشارة معارك حقيقية بارزة، ولكنهم جعلوها مقدمة استهلالية للوصول إلى مدح خليفة أو ملك أوقائد عربي. لذلك عمدنا في هذه المقدمة إلى تنبيه الأذهان وحث الجهود إلى العناية بالملاحم العربية والاسلامية الخالدة، لترجيع ثروتنا الأدبية، واغنائها بالملاحم الشعرية، حتى لا يظل الشعر العربي متهماً بالقصور، ومُقْتَصراً على شعر الغزل والمديح، والهجاء والشعر السياسي، والرمزي، وأمثال ذلك.

الامبراطورية الرومانية

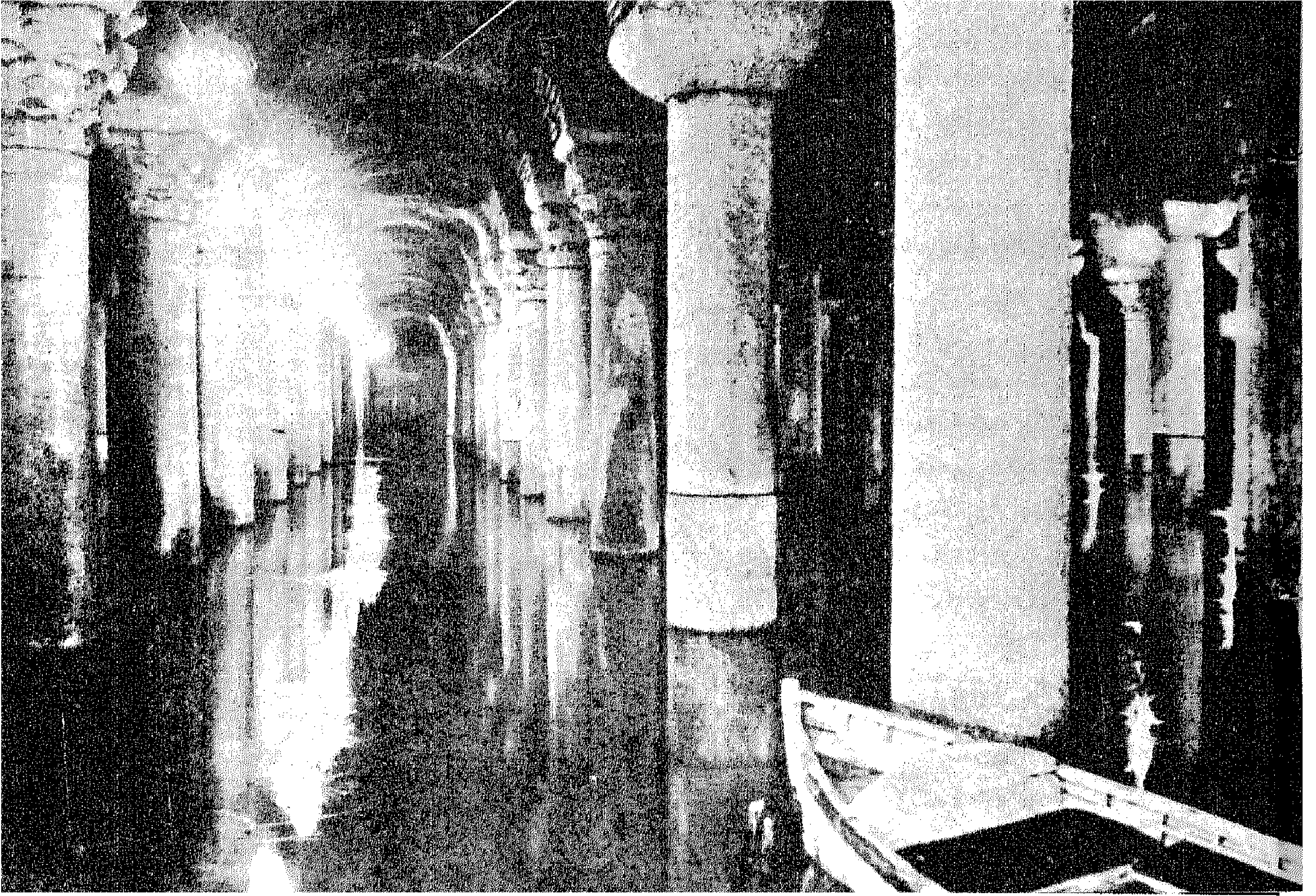
كانت الامبراطورية الرومانية قد مرّت بدورين رئيسيّين في حياتها المديدة المترفة التي طالت إلى حوالي اثني عشر قرناً، هما العهد الجمهوري الذي كان يتولى فيه الحكم القناصل الرومانيون والعهد الامبراطوري الذي كان يتولاه الأباطرة – ذلك عندما كانت روما سيدة العالم. وكان طموح قناصلها وأباطرتها أكبر من حجم ايطاليا نفسها، لذلك انساقوا وراء طموحهم عندما جعلوا «الاسكندر المقدوني» مثلهم الأعلى، فعمدوا على سبيل التقليد والمحاكاة، إلى توسيع الأمبراطورية على حساب جيرانهم والأبعد من جيرانهم – من الممالك والشعوب المستقلة في أوروبا والشمال الأفريقي أو البلاد الرازحة تحت حكم خلفاء الإسكندر المقدوني في الشرق الأدنى ومصر. وبذلك الانسياق الأعمى وراء الطموح حولوا العالم القديم، إلى بحر من الدماء.. التي كانت تنزف من جروح مئات الألوف من المحاربين الشرفاء المدافعين عن أوطانهم أو البلاد التي يستعمرونها في القارات الثلاث.

وكان الأباطرة والقادة والرومان يحاربون على كل الجبهات في آن واحد. فقضوا سنين طويلة وهم يحاربون الشعوب البريطانية، والفرنسية، والجرمانية، والبلقانية، ثم زحفوا على الشرق الأدنى «بونت» في آسيا الصغرى وكيليكيا ومملكة الأنباط وغيرها.

وهكذا استولت روما بالحديد والنار على نصف سكان العالم القديم، وكانت تحتفل بانتصاراتها على شكل رهيب مفزع، مجرد من الانسانية، طبقاً لشرائعها التي كانت تحضّ على استعباد المغلوبين واباحة أقطارهم للسلب والنهب، وجر الأسرى بالألوف من ملوك وشرفاء وقادة وجنود إلى أسواق النخاسة ليباعوا عبيداً، أو إلى الميادين لمصارعة الأسود، أو لينازل أحدهم الآخر بالسيوف القصيرة والرماح والبلطات، على مشهد من الطبقة الأرستقراطية الرومانية التي كانت تستلذ مشاهدة تلك المذابح والمجازر اللاإنسانية. فعمت المذابح الرومانية كل بلد محتل حتى ليقال بأن الرومان صبغوا انهار الكون المحتل بدماء الشعوب المقهورة.

ولم تتنفس أوروبا الصعداء إلا بعد أن غزا تيودريك ملك القوط ايطاليا واستولى عليها كلها ما بين الأعوام ٤٧١ و٥٢٦ ميلادية. فقضى بذلك على نفوذ روما وسيطرتها على أوروبا وعادت الأنهر فيها تجري بالمياه العذبة وبلونها الطبيعي.

ولكن الامبراطورية الشرقية المعروفة بالبيزنطية، والتي ظنت بأنها الوريث الشرعي للامبراطورية الغربية، ظلت مسيطرة على آسيا الصغرى وسوريا وفلسطين



صهاريج القسطنطينية التي كانت تمدها بمياه الشرب في اقبية ناهضة على اعمدة من الرخام الناصع البياض.

والأردن ولبنان ومصر وغيرها حتى الفتح العربي. وحلت القسطنطينية التي أعاد بناءها الامبراطور قسطنطين الأول، على أنقاض مدينة بيزنطة ما بين الأعوام ٣٠٦ و٣٩٥، وسماها القسطنطينية.

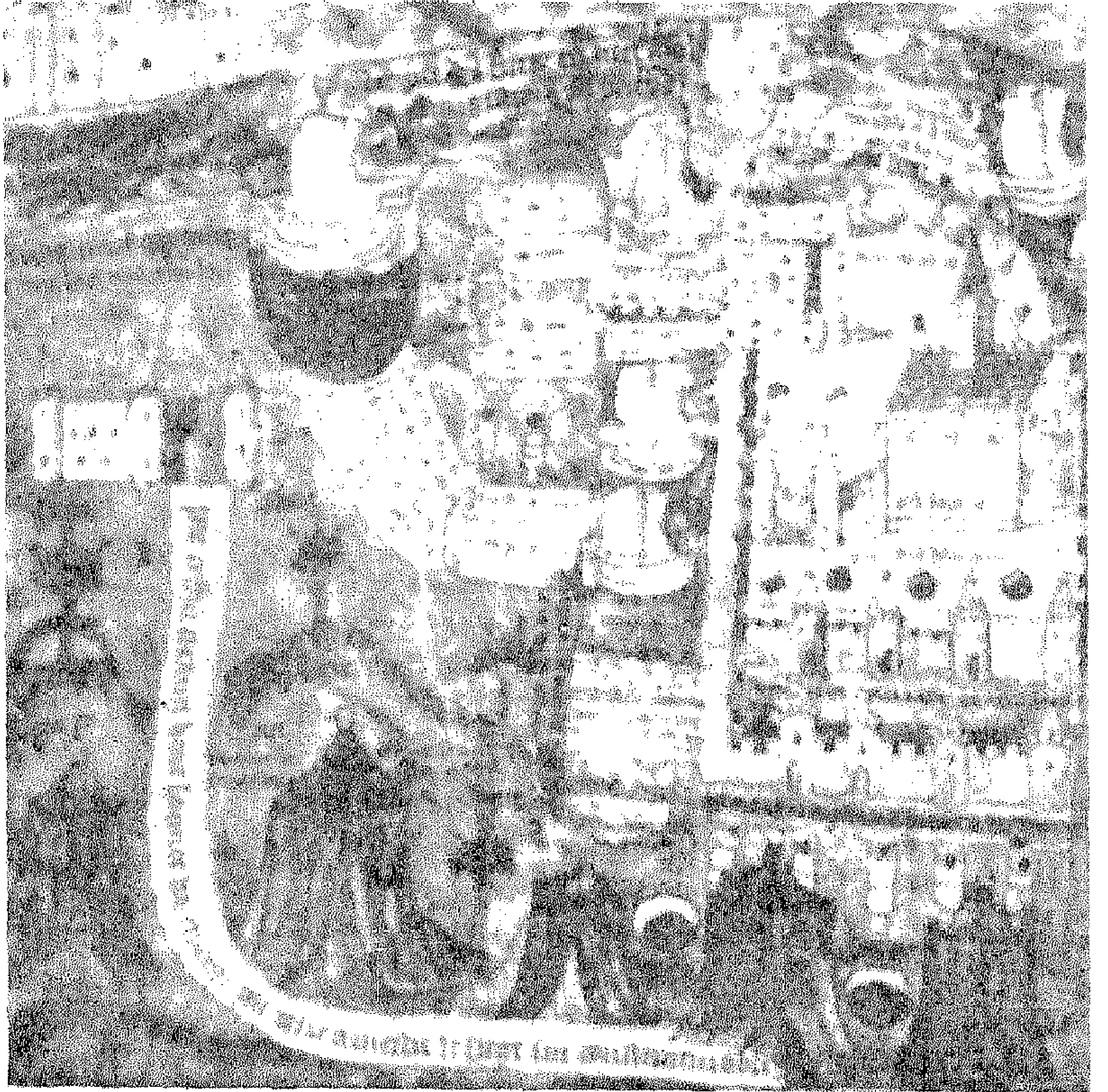
محاولات العرب

ومع ان الفتح العربي كان نعمة وانقاذاً للشعوب السامية والكنعانية في الشرق الأدنى إلا أن القسطنطينية لم تكف عن الغزوات والحروب مع العرب.

وظلت الجيوش العربية من عهد معاوية بن أبي سفيان متيقظة للتحركات الرومانية البيزنطية في الشمال، فدحرت جيوش القسطنطينية مراراً وتكراراً وفرضت عليها الجزية وقيدتها بمعاهدات صلح ومهادنات عديدة، ولكن البيزنطيين كانوا ينقضون تلك العهود، ويعودون من جديد في كل مرة إلى التحرش بالعرب والهجوم على مدنهم وقراهم الواقعة على الحدود.

وقد حاول القائد مسلمة بن عبد الملك الاستيلاء على القسطنطينية، وحاصرها بالفعل ولكنه رُد عن اسوارها «بالنيران اليونانية» الجهنمية، بالاضافة إلى صقيع الشتاء وثلوجه وأعيدت المحاولة في عهد هرون الرشيد ولكنها باءت بالفشل.

ونهد المعتصم بجيش كثيف معظمه من الأتراك لتأديب مدينة «عمورية» التي كان يساق إليها الأسرى والسبايا من العرب عقب بعض الغزوات البيزنطية للعواصم أي للمدن والقرى العربية الواقعة على الحدود.. وصادف ان صاحت احدى المسبيات: وامعتصماه! مستنجدةً بالخليفة المعتصم بن هرون الرشيد، فلبى المعتصم استغاثتها وزحف على «عمورية» واحتلها وأشعل فيها النار، ولكنه عاد ويا للأسف بالجيش إلى بغداد، ولم يحتل الأجزاء التي استولى عليها، وكان قد فعل ذلك من قبل مسلمة بن عبد الملك وهرون الرشيد، وذلك خلافاً للغزوات العربية الأقدم عهداً، حيث كان القادة العرب يحتفظون بالبلاد المحتلة - كأسبانيا والهند وافغانستان



منظر للقسطنطينية واسوارها من مجموعة هارتان سكيدل – ١٤٩٣

وبخاري وطشقند وسمرقند وغيرها. لذلك لم يكن لتلك الحملات الباهظة التكاليف أي أثر خالد في التاريخ العربي، أما قصيدة أبي تمام في فتح عمورية فقد كانت المغالاة فيها أكثر من الحقائق لأن الفتح لا يكون فتحاً إلا إذا استولى الفاتح على المدينة، وضمها إليه، وهذا لم يحصل، كما ان غزوة عمورية لم تكن كما قال أبو تمام «فتح الفتوح» وإلا كانت أعظم من فتوح الشام ومصر والشمال الأفريقي والهند وو..الخ.

وفي القرن الرابع الهجري، كان سيف الدولة الحمداني أميراً على مساحة عظيمة من سوريا تمتد من حمص جنوباً إلى طرسوس في كيليكيا شمالاً ومن الأسكندرونة وانطاكية وحلب غرباً إلى جنوب الأناضول – ديار بكر وماردين وميا فارقين ومنبج وسروج وملاطية وقلعتيْ الحدث ومرعش ومعابد جبال طوروس.

وقد ظلت الحرب بينه وبين البيزنطيين سجالاً.. ولم تخل من مآس وقعت في الجانبين.

وفي أثناء العهد العثماني استطاع السلطان مراد الأول – ١٣٦٠ – ١٣٨٩ أن يوسع الدولة العثمانية في الأناضول والبلقان وانتصر السلطان مراد الثاني ما بين ١٤٢١ و١٤٥١ على القوات الهنغارية في معركة «فارنا» ويبدو انه ترك مهام فتح القسطنطينية وانتزاع شوكتها من خاصرة السلطنة العثمانية، إلى ولده السلطان محمد الثاني – الملقب بالفاتح عن جدارة واستحقاق.. هذا مع العلم ان أباه وأجداده، كانوا جميعاً من الفاتحين العظام وكذلك من جاء بعدهم وفي مقدمتهم السلطان سليمان..

السلطان محمد يحاصر القسطنطينية

ويبدو ان السلطان محمد بقي متذكراً لوصية والده بفتح القسطنطينية، لذلك قرر أن ينتزع شوكتها بأي ثمن.. وكان مولده في عام ١٤٣٢م وتولى الحكم بعد والده في عام ١٤٥١م فتصدى له بالحرب والدفاع عن عاصمة البيزنطيين الامبراطور قسطنطين الحادي عشر ١٤٠٤ – ١٤٥٣، وكان كلاهما شاباً يافعاً تدرب على الحرب والقتال بعد أن تجاوز سني الطفولة، وكان كل منهما يتمتع بارادة كالحديد وبصلابة وعناد يتجاوزان الحد المألوف.

ولما نشبت الحرب بينهما كان من الواضح جداً أن قسطنطين بجيشه الصغير نسبياً لا يستطيع مجابهة جيش محمد الكثيف الذي لا ينضب له معين،

فاحتياطيه من الجنود كان كبيراً جداً. لذلك دخل الامبراطور وجيشه والمرتزقة اليونانيون والجَنَويّون الفينيسيّون إلى داخل القسطنطينية. وانتشروا فوق أسوارها ينتظرون وصول النجدات الآتية من الغرب.. ولكن هل ستأتي.؟ وفرض السلطان محمد حصاراً محكماً على المدينة براً وبحراً.

ومن يوم ليوم كانت عاصمة الامبراطورية البيزنطية – التي يبلغ عمرها ألف سنة تتوقع نهايتها وتعلم في الوقت نفسه بأن معجزة فقط قادرة على أن تنقذها.

وكان السلطان محمد قد عاني من نكستين مريرتين، مُني بهما في الأشهر السابقة إحداهما أمام بوابة رومانوس والأخرى في البحر، ولكنه يستطيع الآن الاعتماد على النجدات والامدادات التي تصله تباعاً.

وكان الصدر الأعظم ضيق الصدر متشائماً، لذلك كان يفضل التخلي عن الحصار والانسحاب، ولكن زاغان باشا قائد الجيش التركي عارضه في ذلك، وهي المعارضة التي كان يتمنى أن يسمعها السلطان محمد.. ومع ذلك فان تحقيق النصر سوف لا يتم إلا من جهة القرن الذهبي، وإذا لم تتمكن الارمادا التركية من اقتحامه، فلا بد من ايجاد وسيلة أخرى، وكان التفكير في الهزيمة يُثير عبقرية السلطان محمد الحربية ويحفزها إلى إبتداع الحل المناسب.

جرّ الأسطول التركي فوق اليابسة، لنقله من البسفور إلى القرن الذهبي

ومنذ الأيام الأولى من الحصار المفروض على المدينة، والمهندسون الأتراك يشقون طريقاً بين البسفور والقرن الذهبي، لذلك قرر السلطان أن ينقل الأسطول من البسفور فوق اليابسة إلى القرن الذهبي، وبذلك يتمكن من تطويق المدينة – التي كانت ما تزال تحتفل بهزيمة الأسطول التركي، لذلك أصدر السلطان أوامره إلى الألوف من العمال باكمال الطريق البالغ طولها خمسة أميال، وفقاً لبرنامج عملي حثيث لا يتوقف.

وفيما كان السلطان محمد مشغولاً بمد الطريق كانت المدفعية التركية قد حولت جزءاً من السور إلى أكوام من الحجارة بالقرب من بوّابة رومانوس. ومما يدعو إلى السخرية ان القادة الأتراك لم ينتبهوا إلى تلك الثغرة التي فتحتها قذائف المدفعية، وإلا لكانوا اغتنموا تلك الفرصة ودفعوا بعشرة آلاف جندي لعبورها والنفاذ منها إلى قلب المدينة المحاصرة واحتلوها.. وكان السلطان محمد مشغولاً بمد الطريق، ولم يكن بوسعه أن يكون في كل مكان، لذلك ضاعت تلك الفرصة الذهبية، ورمّمت الثغرة على الفور.

وما ان انتهى العمال من مد الطريق حتى أمر السلطان بجر المراكب الحربية فوقها من خليج البسفور إلى مياه القرن الذهبي، فكان المركب الواحد يُربط بالحبال القوية من اليمين واليسار، فيبدو وكأنه بين عمودين من الحبال المجدولة، وكانت أطراف الحبال معقودة بأنيار الثيران «جمع نير» أما أرضية الطريق فقد فُرشت بالعوارض الخشبية، ولما كان لا بد من رفع مقدمة المركب فوق مستوى البحر إلى علو ٢٠٠ قدم. فقد كانت الحبال المزيّتة تمر من خلال بكرات لتتم عملية الرفع والجر بسهولة، وما ان يصبح المركب فوق العوارض الخشبية حتى تسْرع الثيران بجره وهي عملية شاقة جداً، ومن وضع بنات أفكار السلطان محمد.

وما ان يستوي المركب فوق العوارض حتى تنحدر الطريق الجديدة انحداراً شديداً إلى أن يبلغ المركب وادي العيون خلف «غالاتا» ثم تصبح الطريق أكثر انحداراً حتى نهايتها وعندئذ، ينزلق المركب إلى أحضان مياه القرن الذهبي. وبما ان السلطان محمد، كان قاموسه لا يحتوي على كلمة «عجز» فقد حقق ذلك العمل الخارق بما يناسبه من جهود خارقة جداً، جعلت الذين كانوا يشكون بعقم المحاولة، يؤمنون بعقله العبقري المخطط، وكان هو نفسه واثقاً من انه سوف يتفوق على أعدائه بالحرب النفسية، فأمر السلطان بنشر قلاع المراكب الحربية واستبدال سواري الاعلام المكسورة بسوار جديدة.

وفي ليلة ٢١ ابريل (نيسان)، بدأ السلطان محاولته الجريئة بجر سفينة حربية صغيرة من طراز «فوستا» فجرتها الثيران فوق العوارض الخشبية وساعد في ذلك احتياطي هائل من العمال والمحاربين، وبهذه البادرة الناجحة تم نقل المزيد من المراكب الحربية تحت أنظار السلطان الجريء.

ولما بلغت العملية ذروتها أسرع المجذفون إلى احتلال أماكنهم وراء المجاذيف، وتسابق البحارة إلى

تسلق السواري ورفع الأعلام، ونشر الأشرعة وعزفت الموسيقى النشيد الحربي.

وما ان انجلى وجه الصباح المشرق حتى شاهد البيزنطيون معجزة خارقة فاستبدت بهم الدهشة وعمهم الذعر– وبمزيد من الهلع شاهدوا الأسطول التركي يمخر مياه القرن الذهبي– وكان الأسطول قبل مغيب شمس اليوم الفائت مجمداً في مياه البسفور، فكيف انتقل؟ وكيف حدثت المعجزة؟ كان الأسطول التركي أمام أعينهم بأشرعته الخفاقة ومجاذيفه المرتفعة في الهواء– بعد انزلاقه مركباً بعد الآخر من فوق الحافة إلى أحضان مياه القرن الذهبي، وأمام أعينهم الآن، يتهاوى فوق مياه الخليج سبعون مركباً حربياً منها المراكب الحربية الضخمة المؤلفة من ثلاثة صفوف من المجاذيف في كل جانب، وتدعى المراكب الثلاثية أو الغلايين جمع غليون ومراكب «البيريم» المؤلفة من صفين من المجاذيف في كل جانب ومراكب «فوستا» الأصغر حجماً ومراكب «براندرايا» وهكذا مرت المراكب الحربية باستعراض مهيب من تحت الأسوار، بين عجب البيزنطيين ودهشتهم.

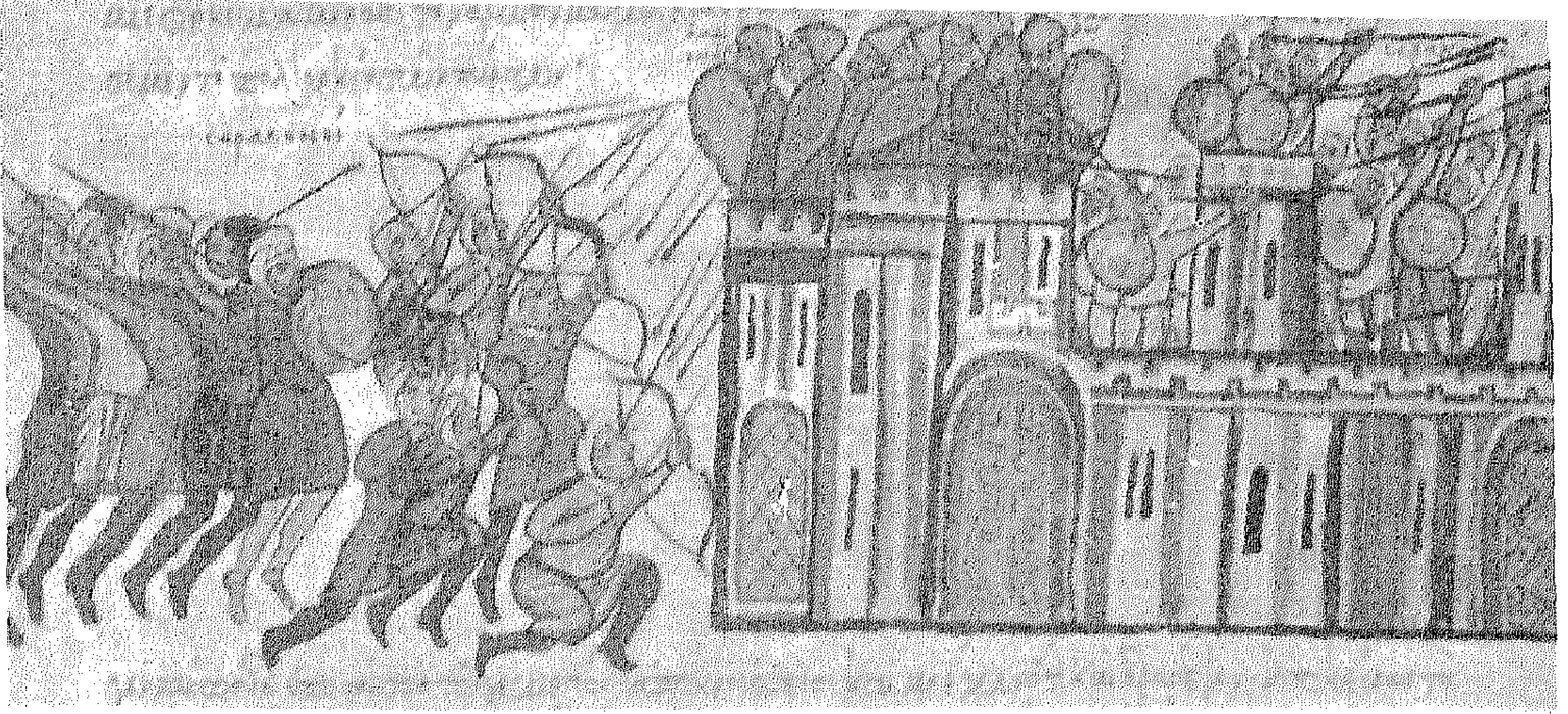
ومن خلال ذلك الاستعراض المهيب راحت المدفعية تقصف العوامات والحواجز الموضوعة في البحر لاعاقة تقدم السفن الحربية. وأصيبت قلعة غالاتا ببعض القذائف على سبيل الانذار. وتحققت مفاجأة السلطان للعدو، وكان لها وقع شديد في نفوسهم، وهكذا ربح محمد الثاني الجولة الكبرى في كفاحه المتواصل من أجل الفوز بالمدينة.

معركة القرن الذهبي البحرية

وعلى أثر ذلك المشهد المثير غير المتوقع ترأس الامبراطور قسطنطين مجلسه الاستشاري للتداول وتبادل الآراء، فاقترح بعضهم مبادرة الأتراك بمعركة بحرية في المرفأ، واقترح آخرون القيام بهجوم كاسح على شواطئ المدفعية التركية، ثم نوقشت الأخطار التي قد تنجم عن القيام بتلك العمليات الحربية، ومن المحتمل أن تكون عواقبها وخيمة، وقبل انفضاض المجلس حضر «الكابتن» جياكومو كوكو قائد الأسطول الفينيسي، المؤلف من سفن «القادس» الحربية، وهي سفن تسير بالأشرعة والمجاذيف. وكان النقيب البحري قادماً من ترابيزون ومعه خطة حربية بحرية، وما عرضها ونوقشت حتى حظيت بتأييد عام– وكان فحوى الخطة القيام بهجوم ليلي على الأسطول التركي، تشنه مراكب مشتعلة بالنيران لاحراق الأسطول التركي وتعهد النقيب البحري كوكو بقيادة المراكب المشتعلة..

وتقرر أن يشن الهجوم في مساء ٢٤ ابريل، ولو أن كوكو باشر الهجوم في وقته المحدد لكتب له النجاح لما فيه من عناصر المفاجأة التي قد تربك الأتراك، ولكن لسوء الحظ، تدخل الجنَويون الذين لم يحضروا الاجتماع، ولكنهم سمعوا بالخطة فيما بعد، فأرجئ تنفيذها، لأنهم أي الجنَويون طالبوا بالاشتراك فيها، وكان الدور الذي لعبه الجنَويّون محاطاً بالشكوك. وكان لهم خمس سفن حربية كبيرة تقوم على حراسة العوامات الطافية أمام الأسوار. ووقفت قلعة غالاتا موقفاً حيادياً، ولكن الامبراطور قسطنطين قرر أن يحقق كل الرغبات المعروضة فأذعن لطلب الجنَويين وارجأ موعد الغارة حتى يتمكن الجنَويّون من الاستعداد لخوض المعركة بالمثل.

وبناء على ذلك تعينت ليلة ٢٨ ابريل (نيسان) موعداً للغارة، وقبل الفجر بساعتين أقلع القائد ترفيسانو من مرساه بمركبين كبيرين، وبصحبته كوكو، يقود ثلاثة من مراكب فوستا الصغيرة، محملة بالمواد المشتعلة، وعندما أصبحت مراكب المغيرين فوق مياه القرن الذهبي العميقة السوداء، فوجئ ترفيسانو برؤية نور وهاج منبعث من برج غالاتا، وكان المغيرون قد اقتربوا من الأسطول التركي الذي بدا راسياً يخيم عليه الهدوء، واندفع القائد كوكو بمراكبه الثلاثة من طراز فوستا نحو الهدف، وعندئذ دبت الحياة في الأسطول التركي، فظهر رجال المدفعيّة واقفين على استعداد وراء مدافعهم، ثم شرعوا يقصفون المغيرين بقذائفهم المسددة باحكام. فأصيب مركب فوستا بين المراكب المحيطة به بشؤبوب من القذائف فاشتعلت فيه النيران وغرق في الحال، ووجد ترفيسانو نفسه مغلوباً على أمره أمام القوى المتفوقة عليه بالعدد، ورأى مراكبه تغرق الواحدة بعد الأخر. وبعد لحظات كان كوكو قائد الفينيسيين ومعظم بحارته جميعاً في مياه الخليج، بعد أن غرقت مراكبهم. فعادوا سباحة إلى رصيف المدينة وبذلك تمكنوا من انقاذ جلودهم. أما الذين قبض عليهم الأتراك فقد قطعت رؤوسهم وقذف بها في



صورة مأخوذة في القرن الثالث عشر وهي تمثل. العرب يهاجمون أسوار القسطنطينية المحاصرة.

البحر. فانتقم البيزنطيون بقتل ٢٦٠ أسيراً تركياً جيئ بهم إلى حافة السور وأعدموا شنقاً.

خلافات وتنبؤات

وخلال حملة الاتهامات التي جرت عقب تلك الكارثة البحرية، اتهم الفينيسيون، زملاءهم الجَنَويين بالخيانة، حتى ان بعضهم ادّعى بأنه رأى مركباً جَنويًّا يتسلل من بين مراكب الأسطول في الساعات المبكرة لانذار قلعة غالاتا بأن هجوماً على الأسطول التركي سيكون وشيكاً. وهكذا دب الخصام بين الفئتين اللاتينيتين المتنافستين، فاضطر الامبراطور قسطنطين إلى التدخل وفض النزاع فوقف بينهما وأنشأ يقول:

أيها الأخوان، «لنكن جميعاً صفاً واحداً متحدين للدفاع عن المدينة، أو ليس لدينا من القتال مع الأتراك ما يكفي.. انه لمن المؤسف حقاً أن نتنازع والعدو يتربص بنا..»

وبقيت الاتهامات ملتصقة بالمتهمين، وظلت قصة الخيانة تدور على الشفاه مؤكدة بأن الجَنَويّين قد خانوا.. وما ارتكبوا تلك الخيانة إلا من أجل المال والتجارة. ومهما يكن من أمر، فقد انتصر السلطان في تلك المعركة البحرية، وثأر من معركة بحرية سابقة هزم فيها أسطوله.

وكان المجتمع البيزنطي في القسطنطينية مؤلفاً من عدة طبقات هرمية، البعض منهم تعاموا عن الحقيقة فهجروا المدينة في عنفوان شدّتها، ومن هؤلاء ممثلو الحكومات الغربية والتجار والصرافون والأساقفة والمطارنة الذين كان يمثلون السيادة الرومانية. حتى لوردانو قائد العمارة الفينيسية الذي كان من المتوقع ان يقلع بأسطوله في ٧ مايو (أيار)، المؤلف من ١٥ «غليوناً» أي سفينة حربية كبيرة للقاء في «تنيدو» لبشكل مع المراكب الحربية الرومانية الموجودة في مياه القرن الذهبي قوة بحرية متحدة لطرد الأسطول التركي من مياه القسطنطينية. ولكن لوردانو القائد العام للأسطول الفينيسي تلقى ارشادات وهو في طريقه إلى تنيدو، بأن يغير وجهة سيره ويقوم بجولة عبر البحر الأبيض المتوسط، ثم يرسو بعد ذلك في مياه جزيرة كودفو ونغروبونت، حتى تصبح حملته بالنسبة للأتراك عديمة الفائدة. وكان أعضاء مجلس الشيوخ الذين وضعوا تصميم الرحلة بتروٍّ، أبوا أن يفهموا بأن القسطنطينية معرضة لضربة مميتة، وانها في النزع الأخير وان الفضل بوجودها حتى الآن، على قيد الحياة انما يعود لمشيئة رجل واحد هو الامبراطور قسطنطين دراغاسس.

أما الأقاويل في القسطنطينية فكانت منتشرة، وقد عادت نبوءة أخرى تتردد بين البيزنطيين تقول: بأن المدينة لن تؤخذ حتى تبحر السفن الحربية فوق اليابسة في طريقها إلى مياه القرن الذهبي. وكانت هذه النبوءة قد ترجمت في السابق انها علامة تُنبئ بأن المدينة ستتلقى من السلطان ضربة موفقة لم تكن متوقعة. ومع ذلك فقد بقي الشعب متشبثاً بأمل وصول المساعدة التي ستأتي من الغرب، وما كان بوسعهم أن يصدقوا بأن القسطنطينية سيتخلى عنها الغرب لتسقط في أيدي الأتراك. لذلك لم ينقطع سيل الاشاعات التي طغت على ألسنة الناس: الفينيسيون قادمون.. والبابا أرسل



الامبراطور قسطنطين دافع عن عاصمته وصرع في سبيلها.

سفناً حربية لنجدة المدينة فإذا خابت كل تلك الأماني فان الله سيتدخل بنفسه، فيرسل ملاكاً مشهراً سيفه ليقف على أهبة الاستعداد لحراسة كنيسة أيا صوفيا.

وكان قصف المدفعية المستمر يمزق الأعصاب، ومع ان الكنيسة القديمة «باسيليفا» قد نسفت فان جعبة الأهوال المخيفة التي يمتلكها السلطان لم تفرغ بعد، وما ما زال لديه المزيد من الأهوال والأشياء المزعجة الصغيرة، ولمّا أدخل مدافعه إلى القرن الذهبي بعد أن نصبت فوق جسر من القوارب العائمة مقابل السور المطل على البحر. اضطر الامبراطور إلى تحويل

رجاله من الجهة البرية إلى الجهة البحرية لمجابهة التهديد الجديد.

وتعرض البيزنطيون إلى مضايقات أخرى، ومنها اصابة صهاريج المياه الضخمة التي كانت تمد المدينة بالمياه العذبة بالقذائف، وكانت هذه الصهاريج قد حفرها وبناها على غرار منجزاته الضخمة الامبراطور جوستنيان، ثم نفذت المؤن، فصار الجنود اليونانيون يغادرون مراكزهم فوق الأسوار عند الظهيرة، للبحث عن الطعام، وعلى غرار المواقف المماثلة الأخرى، فقد انتشرت السوق السوداء، وأولئك الذين كان بوسعهم شراء طعامهم من تلك السوق، ربما أكلوا حتى الشبع..

وفي أوائل مايو (أيار) استعرض الامبراطور الموقف مع أعضاء مجلسه الاستشاري فشكلت لجنة لحل معضلة الطعام، وصارت الأطعمة توزع بالجراية، وانتدب الناس – من غير المشتركين بالأعمال الدفاعية – وكانوا كثيرين، بتقديم الجراية للجنود، وبقي السؤال المحرج قائماً: من أين يلتمسون المساعدة والنجدة؟ ومما يؤثر انه سبق للمدعو جيرولامو مينوتو وهو من مستعمرة الفينيسيين الصغيرة القائمة داخل الأسوار – ان كتب إلى جمهورية فينيسيا متوسلاً لإرسال المساعدة، وكان لا يعلم شيئاً عن الاجراءات البطيئة التي هي من خصائص حكام جمهورية فينيسيا، ولا عن مصير رحلة لوردانو في البحر الأبيض المتوسط. لهذا قرر المجلس الامبراطوري ايفاد سفينة صغيرة ذات ساريتين مع اثني عشر متطوعاً للبحث في مياه الجزر اليونانية عن النجدة الفينيسية البحرية التي يقودها لوردانو في البحر الأبيض المتوسط.

يطلبون من الامبراطور أن يرحل..

وأخيراً جاءت المعضلة الأكثر الحاحاً، ما العمل إذا قرر الأتراك أن يشنوا هجوماً عاماً قبل وصول النجدة البحرية الفينيسية؟ إذ من المحتمل أن تسقط المدينة وكل شيء يضيع.. وكان من بين أعضاء المجلس الاستشاري رجال بارزون من أمثال لوكاس نوتاراس وترفيسانو وجوستنياني وبالمثل فرانتزيس الذي لا يُستغنى عنه، هؤلاء جميعاً راحوا يلحون على الامبراطور لكي يرحل عن المدينة ثم قالوا: فليطلب باسيليوس المساعدة من أخويه توماس وديمتريوس في موريا.

وهنا شكرهم الامبراطور على نصيحتهم، وأجابهم غاضباً بعد أن نهض عن عرشه وراح يحلل لهم الموقف العصيب بفصاحته قائلاً: «إنني أعلم بأنه من المحتمل، ان يكون رحيلي في صالحي، لأنكم تنظرون بوضوح إلى ما يمكن أن يحدث ولكن ذلك مستحيل! إذ كيف يمكن أن أتخلّى عن كنائس الرب ورجال الدين والعرش وشعبي وماذا يقول العالم؟ وإنني لأرجوكم بعدم مخاطبتي في المستقبل بشيء من ذلك وأن تقتصروا في حديثكم على كلمة «سيدي» لا تتركنا! وأؤكد لكم بأني سوف لا أترككم أبداً، فقد صممت على أن أموت هنا معكم».

وعندئذ، اختنق صوت الامبراطور وغادر المجلس في حين كان العديد من المستشارين ينتحبون...

وكان السلطان أيضاً مُصرًّا على الاستمرار في النضال من أجل القسطنطينية، ومع ان قواتهما كانتا غير متعادلتين في الشجاعة والتصميم، إلا أن السلطان محمد كان متفوقاً بعقله الاستراتيجي، أي «ان عقله كان متفوقاً بعلم التخطيط الحربي وفنونه» ولكن قسطنطين استعمل الوسائل الفعّالة في التنظيم، وأمر رجاله الذين يعملون تحت قيادته بالالهام البطولي. فكان يلازم الأسوار ليلاً ونهاراً متنقلاً من مكان مقوض إلى آخر مضحياً براحته ومستجيباً بأقصى سرعة لكل انذار، وكان دائماً يبدو متجسداً روح الأباطرة الغابرين.

وفي شهر مايو (أيار)، وهو شهر الربيع الأخير بالنسبة للقسطنطينية، كانت الورود متفتحة في حدائق القسطنطينية، والبلابل تغرد على الأشجار، والقمر في محاقه يبث الأطمئنان، لأن الهلال كان رمزاً للمدينة في الزمن القديم، وفي هذه الآونة ظهرت نبوءة جديدة تقول: ان المدينة لن تؤخذ في وقت المحاق. وكان صدى الأجراس يتردد في الشوارع، والمواكب الدينية تذرع الطرقات ويبدو من خلالها صورة العذراء – أكثر الأيقونات قداسة – محمولة فوق الرؤوس، وهم يقولون ان العذراء حمت المدينة ٨٠٠ سنة من الغزو العربي، ومع ان البيزنطيين كانوا ينسونها في بعض الأحيان عندما كانوا يرتكبون المجازر ويرهقون الشعوب الضعيفة بهجماتهم الحربية،



جامع آيا صوفيا من الداخل، كما بدا بعد فتح القسطنطينية متألقاً بالبهاء. وقد زينه فرساتي عام ١٨٤٩ بأروع آيات الفن

ولكنهم الآن في وضع آخر لذلك استدار الشعب إلى العذراء يطلب منها الحماية.

وعندما سيطر ثيودوريك الكبير ملك القوط على إيطاليا كلها «٤٧١ – ٥٢٦» تذكرت روما بعض الأمثلة التاريخية التي تقول: «وما من ظالم إلا سيُبلى بأظلم» وعندما انتُزعت منها الأقطار العديدة التي اغتصبتها من حكامها وسكانها، تذكرت المثل الذي يقول: «ما أخذ بالقوة والدم لا يسترد إلاّ بالقوة والدم..».

وشعب القسطنطينية الذي كان يهتف في الماضي عالياً ممجداً انتصارات أباطرته، أصبح الآن، يستغيث في طلب المساعدة ويستعطف الأيقونات في طلب الحماية...

وماذا يفيد كل ذلك، حتى ولو سمع السلطان محمد الأجراس أو استرعى انتباهه مشهد القمر في مُحاقه فان ذلك سوف لا يُعيقه عن تنفيذ مخططاته الحربية التي ستقوده إلى النصر والنجاح. وقد استعمل السلطان محمد كل الوسائل المعروفة في الحروب والحصار، وأضاف إليها ما لم يكن معروفاً من قبل.

الأتراك ينهزمون مرتين..

وفي اليوم السابع من مايو (أيار)، شن الأتراك هجوماً عاما على بوّابة رومانوس، التي هزموا أمامها من قبل، ولكن الهجوم تحطم وأصيب الأتراك بخسائر فادحة في الأرواح وانشطر علم السلطان إلى شطرين، وهذه هي الهزيمة الثانية التي حُفي بها الأتراك على بوابة رومانوس..

وكان البيزنطيون المدافعون عن المدينة إذا خسروا رجلاً ظل مكانه شاغراً لقلة الرجال وانعدام الامدادات، ولكن السلطان محمد لم يكن قلقاً من هذه الناحية، لوفرة ما لديه من الاحتياطي الضخم في الرجال والعتاد والأطعمة والتموينات التي لا تنقطع امداداتها.

وكان المحاربون الأتراك ينقسمون الى قسمين الجيش النظامي وهو جيش «الانكشارية» ومعنى الكلمة «الجيش الجديد» وهو يتميز بشدة الولاء والمتطوعون للجهاد، وكان من السهل تمييز المجاهدين بألبستهم الوطنية العادية من ملابس الانكشارية الرسمية، لذلك كانت أسباب الحماية معدومة بالنسبة للمجاهدين فما من خوذات ودروع وتروس تقيهم رشق السهام المنهالة عليهم من الأسوار، وكان البيزنطيون يتخذون مواقفهم صفوفاً فوق الأسوار، تحميهم الدروع أو الزرد فوق صدورهم والخوذات على رؤوسهم، لأن مصانعهم كانت تمدهم بكل الأسلحة الضرورية. ولكنهم كانوا يفتقرون إلى المدفعية والبارود، بينما كانت الأسوار متهدمة في أعاليها من شدة ما قُصفت بالمدفعية التركية، لذلك استعاض المدافعون عن قلة المدافع بالنيران اليونانية، وهي التي هزمت الحملات الحربية الأموية والعباسية في قديم الزمان، أما الآن فالمدفعية التركية هي سيدة الموقف.

وقام السلطان بتجربة حربية جديدة مبتكرة، فأمر بوضع الألغام التي صنعها له الصربيون الأشاوس، في أسفل الأسوار، وكان لتلك الفكرة قيمتها في ذلك الزمان، وكان زاغان باشا قائد الجيش التركي يستورد مُعدّني الفضة من صربيا. ولكن الامبراطور قسطنطين جابه التحدي بمثله، إذ كان لديه مهندس سكوتلندي يُدعى جوهانز غرانت خبير في الألغام. فأناط به مهمة أبطال عمل الألغام، فتحققت من وراء ذلك الجهد الفني نتائج تستحق التنويه بها. وفي أحد الأيام أسر البيزنطيون ضابطاً تركياً خبيراً في الألغام، فبدأوا باستجوابه ومارسوا عليه التعذيب الشديد فكشف عن سر الألغام الموضوعة في سراديب تحت الأسوار، وكانت على وشك الانفجار، وكان هدف الألغام الأول، تخريب التحصينات البيزنطية، والثاني فتح ممر يمكن الأتراك من اقتحام المدينة. وعندئذ، اختار غرانت الاسكتلندي كتيبة من المتطوعين وتسلل بهم إلى السراديب الملغومة، وهناك أمر الصربيين الذين كانوا ما يزالون يعملون في وضع الالغام، ان يفجروها، فصدعوا للأمر وفجروها.. فبدا وكأن صاعقة انقضت على السراديب وحُفر الألغام فنسفها نسفاً مخيفاً، واهتزت الأرض من فعل الانفجار وتصاعدت دوامة خضراء حملت معها الصربيين وقذفت بهم أشلاء في الهواء، وسقطت الحجارة والأخشاب فوق المدينة وهرب البيزنطيون فوق الأسوار، وولى الجنود الأتراك مبتعدين عنها.

وبعد فشل تجربة الألغام تخلى الأتراك عن استعمالها.

(يتبع)

تاريخ المجوهرات

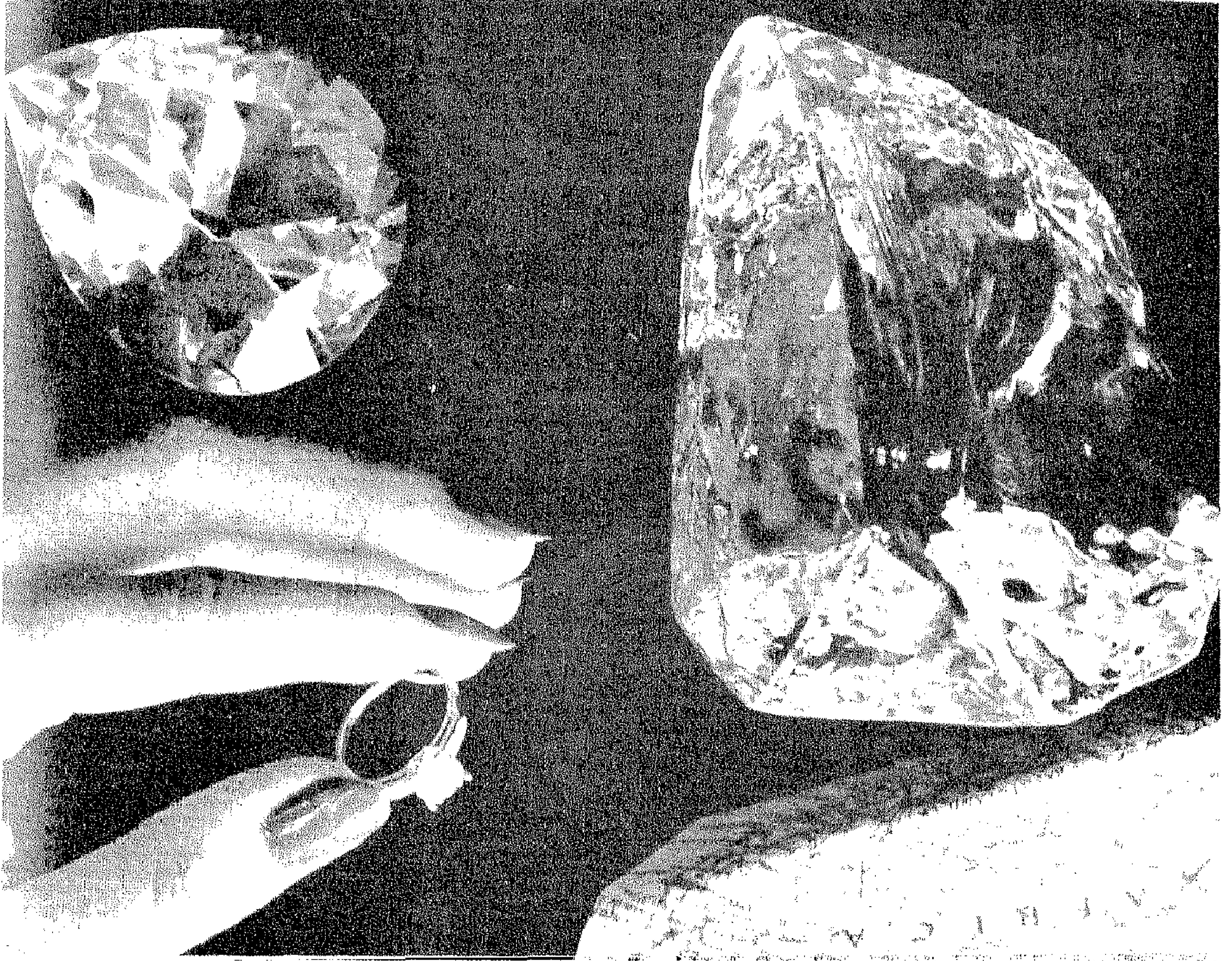
اللؤلؤ والروبي والزفير والزمرّد

متى سمعان بوري*

● اللؤلؤ هو مادة متحجرة تتكون داخل صدفة حيوانية كالقوقعة أو المحار أو الودع، واللؤلؤ الجيد غالباً ما يستخرج من صدفتين ملتصقتين وهذا الصدف هو من فصيلة غير فصيلة الصدف الذي يؤكل حيوانه الداخلي. واللؤلؤ يتكون عندما تدخل قطعة صغيرة من مادة غريبة داخل الصدفة كالدودة الصغيرة أو العلقة أو اليرقة أو أي شيء من طفيليات البحار الحيوانية. وأحياناً تكون حبة رمل صغيرة جداً. تحتضنها الصدفة وتعطيها الحماية والرعاية وتأخذ في افراز كنسيج الحرير الرقيق في الداخل.

وبعدها يحصل تمدد داخلي في الخلايا داخل الصدفة تتكون على اثره اللؤلوة الام، أو ما يسمى خلاصة اللؤلؤ الصدفي الذي يبطن ويحصن الصدفة. ويبدأ عندها انتاج اللؤلؤة الأصلية التي تكون قد اخذت مكانها وهذا كله يحدث بشكل طبيعي لا يتدخل فيه الانسان بأي شكل من

* متى سمعان بوري: من أقدم خبراء المجوهرات في الشرق الأوسط، عضو نقابة الصاغة، إشترك في جميع المعارض الدولية.



نجمة افريقيا واضخم ماسة اكتشفت في التاريخ.

الاشكال. وعند استخراج اللؤلؤ من قعر البحار يجري تصنيفه حسب حجمه وشكله ولونه. وهنا يلعب الحظ دوره مثل حظ صيادي الاسماك عندما يصطادون السمك. فأحياناً يكون حظ الغواص (أي الذي يغوص لينقب عن اللؤلؤ) جيداً فيرزقه الله بلؤلؤة تساوي ألفاً أو الفي دولار وأحياناً يكون سعرها خمس دولارات وهذا يتوقف كما قلنا على الحجم والشكل واللون. فالحجم الأكبر طبعاً هو الافضل ثم الشكل له مواصفات. فكلما كانت اللؤلؤة قريبة إلى الشكل الكروي زاد سعرها وكلما بعد شكلها عن الشكل الكروي نقص سعرها. ثم يأتي اللون فاللون الأبيض على اصفرار هو الاغلى. لكن بشرط



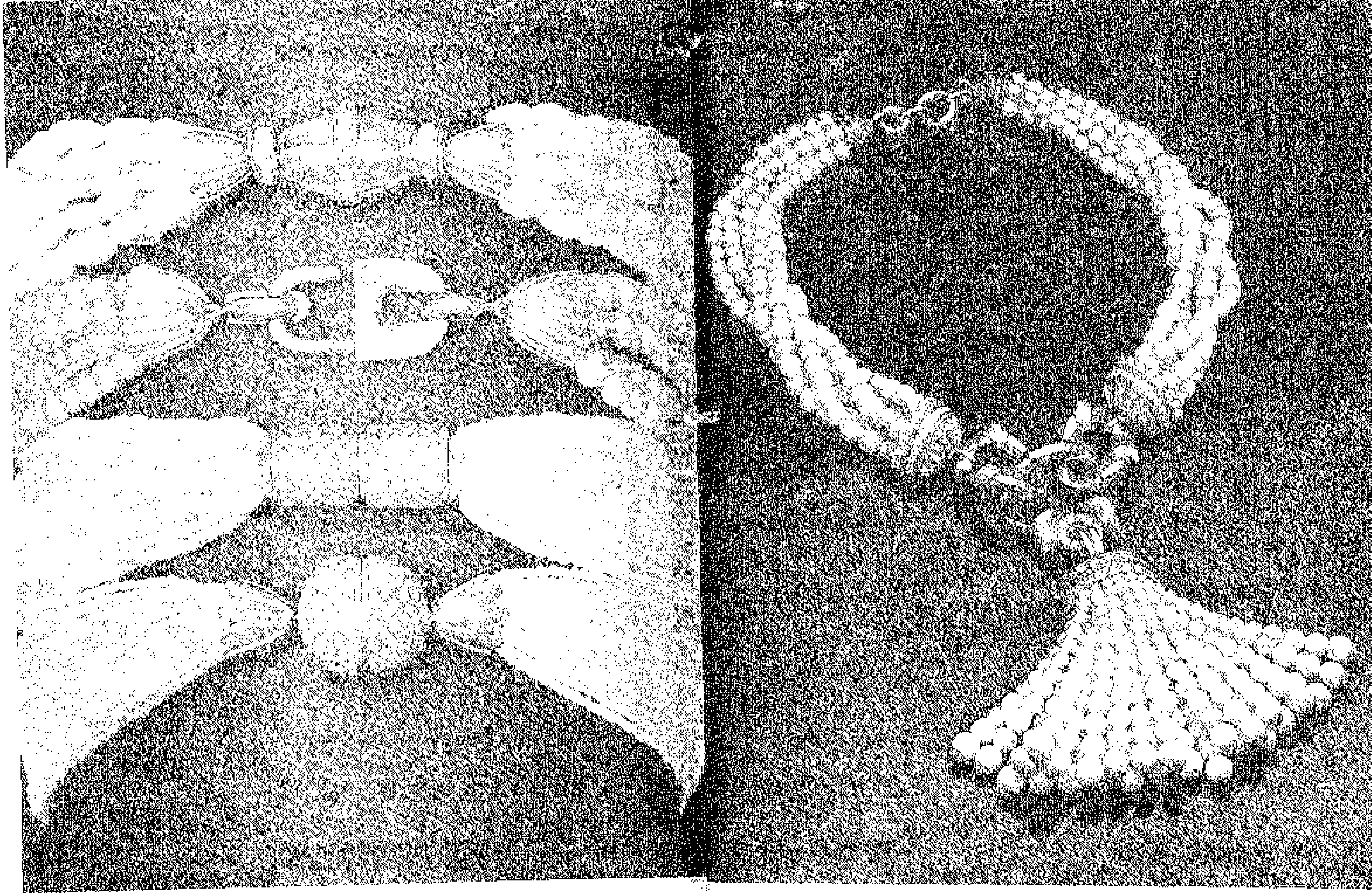
أن تكون اللؤلؤة فيها لمعان. فاللؤلؤة البيضاء التي لا لمعان ولا بريق لها سعرها يكون ارخص من اللماعة بالطبع واللؤلؤ بعد تصنيفه حجماً وشكلاً يثقب منه الصغير والمتوسط حجماً، من الجانبين ويعمل عقوداً كالحبال تلبسها النساء في الرقبة. أما الاحجام الكبيرة فيبقونها بدون ثقب لتعمل كخواتم وتوضع الحبة في وسط الخاتم ومنها ما يوضع في وسط البروش وفي وسط الاقراط أو الاساور وغيرها. أن افضل انواع اللؤلؤ الاصلي ما يسمى باللؤلؤ البحريني وهذا لا يعني بالضرورة أن يكون مستخرجاً من شاطئ البحرين، بل من الخليج كله. وعلى كل فان دول الخليج والبحرين بصورة

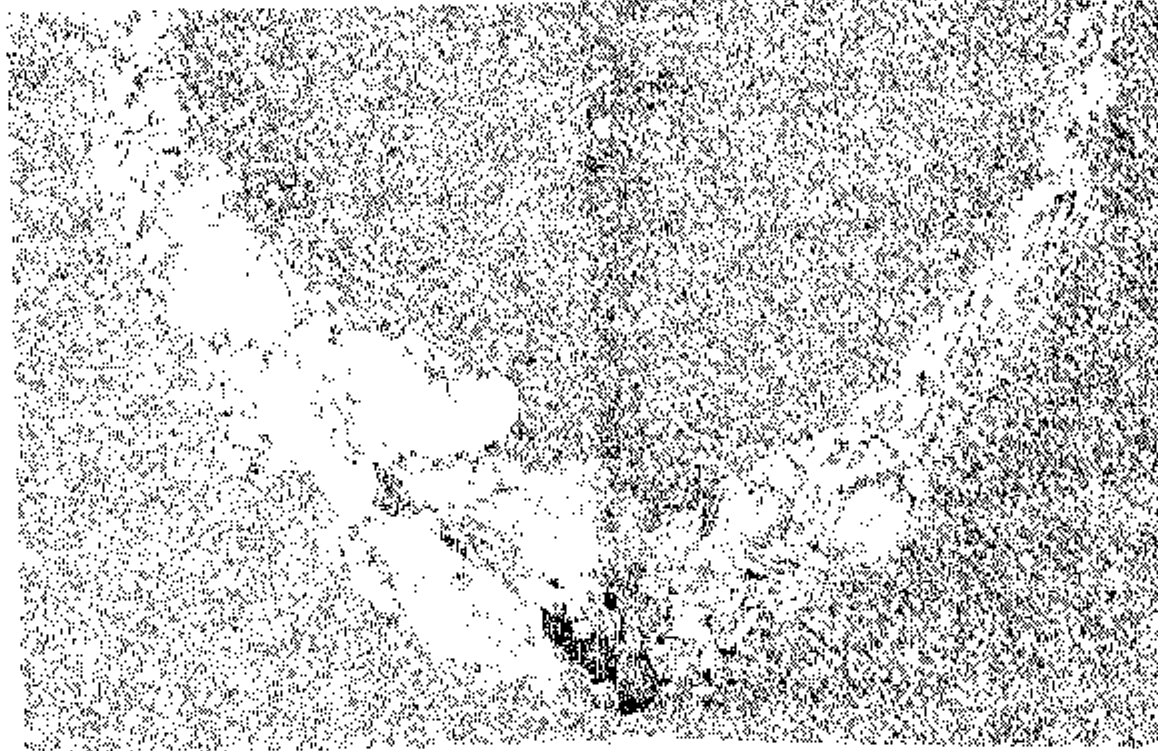
خاصة لم تعد تعبر لا هي ولا الشعب أي اهتمام للغطس والبحث عن اللؤلؤ منذ أن تفجر البترول هناك. لكن دول الخليج العربي ما زالت إلى الآن تعير اهتماماً كبيراً لتجارة اللؤلؤ. وفيها عدد من كبار تجار اللؤلؤ وخبرائه في العالم وقد يستغرب القارئ اذا علم ان بعض احجار اللؤلؤ الاصلي الجيد تساوي الحبة الواحدة منه ما يزيد عن الخمسين الف دولار. واللؤلؤ له زبائنه في العالم وخصوصاً في فرنسا حيث يشترون الأنواع الجيدة منه بأسعار مرتفعة.

ان افضل انواع اللؤلؤ كما قلنا هو البحريني المستخرج من الخليج العربي وذلك لأن لحرارة الشمس والطقس الحار أثراً كبيراً في جودة اللؤلؤ ثم يأتي اللؤلؤ الاوسترالي ثم المستخرج من خليج بنما. وهنالك المستخرج من البحر الأحمر ومن الفيلبين وبورما وسيلان (سريلانكا). أما اللؤلؤ الاسود الممتاز فهو المستخرج من شواطئ كاليفورنيا.

يتفرع عن اللؤلؤ الاصلي الطبيعي لؤلؤ آخر. ولكن للإنسان تدخلاً في ذلك. فاللؤلؤة التي يتكامل نموها طبيعياً في سنوات يمكن اختصار مدة نموها لأشهر معدودة وذلك بجمع الاصداف في بحيرة خاصة وتغذيتها بمواد غذائية تساعد على نموها بسرعة اختصاراً للوقت. واللؤلؤ هذا هو أرخص بكثير من اللؤلؤ الطبيعي. ولكن لا يمكن تسميته اصطناعياً بأي حال. ويظل الطبيعي هو الأفضل والأغلى سعراً.

كذلك فقد ظهرت في اليابان صناعة اللؤلؤ المزروع وهو ما يسمى (Cultured) وقد تطورت هذه الصناعة تطوراً هائلاً وشكلت منافساً خطيراً للؤلؤ الطبيعي الأصلي: يضعون في احواض خاصة اصدافاً بداخل كل منها طفيلية أو مادة صغيرة جداً ثم يطعمون الحيوان بحقن لكي يبدأ الحيوان بتكوين اللؤلؤ، واللؤلؤ المزروع يعرف من شكله. فكله مستدير كالكرة. ومنه انواع متفاوتة في الجودة. ومنه ما هو أغلى ثمناً من اللؤلؤ الطبيعي. وصناعة اللؤلؤ المزروع صناعة مزدهرة جداً في اليابان وله تجار في جميع انحاء العالم. ولكنه مرغوب في البلاد العربية. رغم تفضيلهم عليه اللؤلؤ الطبيعي. له عدة ألوان وعدة





أحجام لمنه الأبيض والأصفر والأسود والزهري.

الروبي

أما الروبي فهو حجر شفاف سعره يقرره لونه ونقاوته. أفضل أنواعه في بورما ثم تايلاندو كارولينا الشمالية ومونتانا. الاغلى هو لون دم الزغلول (Pigeon's blood) الروبي الممتاز ثمنه ثلاثة اضعاف ثمن الالماس البرلنت. نادراً ما توجد احجار روبي جيدة تزيد عن عشرة قراريط للحجر الواحد.

الزفير

هو حجر شفاف لونه ازرق قاتم، يوجد الجيد منه في كشمير وبعدها سيلان والهند والصين والبعض في اوستراليا وولاية مونتانا في اميركا. الافضل هو الكشميري الازرق. أكبر زفير في العالم وزنه ٩١٦ قيراطاً.

الزمرد

الزمرد هو حجر كريم لونه أخضر شفاف وتعتبر الأنواع الجيدة منه مرتفعة الثمن وقيمة حجر الزمرد تقررها عدة عوامل وهي اللون ثم النوعية أي المصدر وبعدها وأخيراً طريقة الصقل. اللون المفضل هو القاتم الشفاف والمصدر المفضل هو كولومبيا. أما النقاوة فهي نادرة. والسعر يرتفع كلما كان صقل الحجر مثالياً، حسب المواصفات الدولية المعتمدة.

أن افضل انواع الزمرد هي المستخرجة من المناجم الكولومبية ثم الهندية وبعدها البرازيلية وانه لمن النادر جداً العثور على احجار زمرد نقية صافية مائة في المائة لان الزمرد يحتوي على عروق واخاديد نتيجة استخراجه من مناطق كلسية قارية. والصافي النقي تبلغ أسعاره ارقاماً خيالية شرط أن يكون لونه قاتماً لامعاً شفافاً. وتصنع منه اشكال متعددة مثل باقي الاحجار الكريمة منها المستدير والبيضي والمربع وشكل الاجاص أما غالبيته فتصنع مستطيلة الشكل. وقد حاول بعض الكيمائيين صنع زمرد اصطناعي مستعملين دقيق الزمرد الاصلي. وقد نجحوا إلى حد ما. ولكن الاصلي يبقى اصلياً. وتجدر الاشارة إلى أن بعض مناجم الزمرد توجد في كارولينا الشمالية في الولايات المتحدة الاميركية. ●

تاريخ الشطرنج

محمد مراد سكّر

الأوتومـــات والكمبيوتـر

● كثر الكلام في الآونة الأخيرة عن الكمبيوتر في الشطرنج، والكومبيوتر الحديث عبارة عن آلة صغيرة تشبه ماكنة الحساب الجديدة اليدوية، انما بحجم أكبر، فيها عوضاً عن الأرقام أسماء القطع وأرقام الخانات، وكلما قام اللاعب بنقلة ضغط على زر الجواب فيأتيه الكومبيوتر بالجواب، أي بالنقلة المقابلة وهكذا يصبح الكومبيوتر الخصم باللعب، تلعب معه فيجيب أحسن جواب بسرعة معتمداً أحسن نقلة ممكنة، من هذه الآلات ما هو أكبر إذ ترتسم الرقعة على لوحة أمامك وتستطيع أن تتابع الجولة بانتظام.

هكذا هو الكومبيوتر الحديث الذي ظهر مؤخراً، أعد معلوماته كبار اللاعبين الأساتذة في الشطرنج، ترى ألم يفكر اللاعبون القدامى بلاعب آلي يلاعبك؟ بل وجد في القديم لاعب آلي ولكن اللعب كان يتم بحيل طريفة وكان يدعى آنذاك الأوتومات أي الرجل الآلي، وإليك التفاصيل:

ظهر أول لاعب آلي (أوتومات) في تاريخ الشطرنج سنة ١٧٧٠، صنعه يومذاك اللورد كمبيلان وقد عمت شهرته أوروبا بأجمعها وحاز اعجاب كل من شاهده أثناء اللعب.

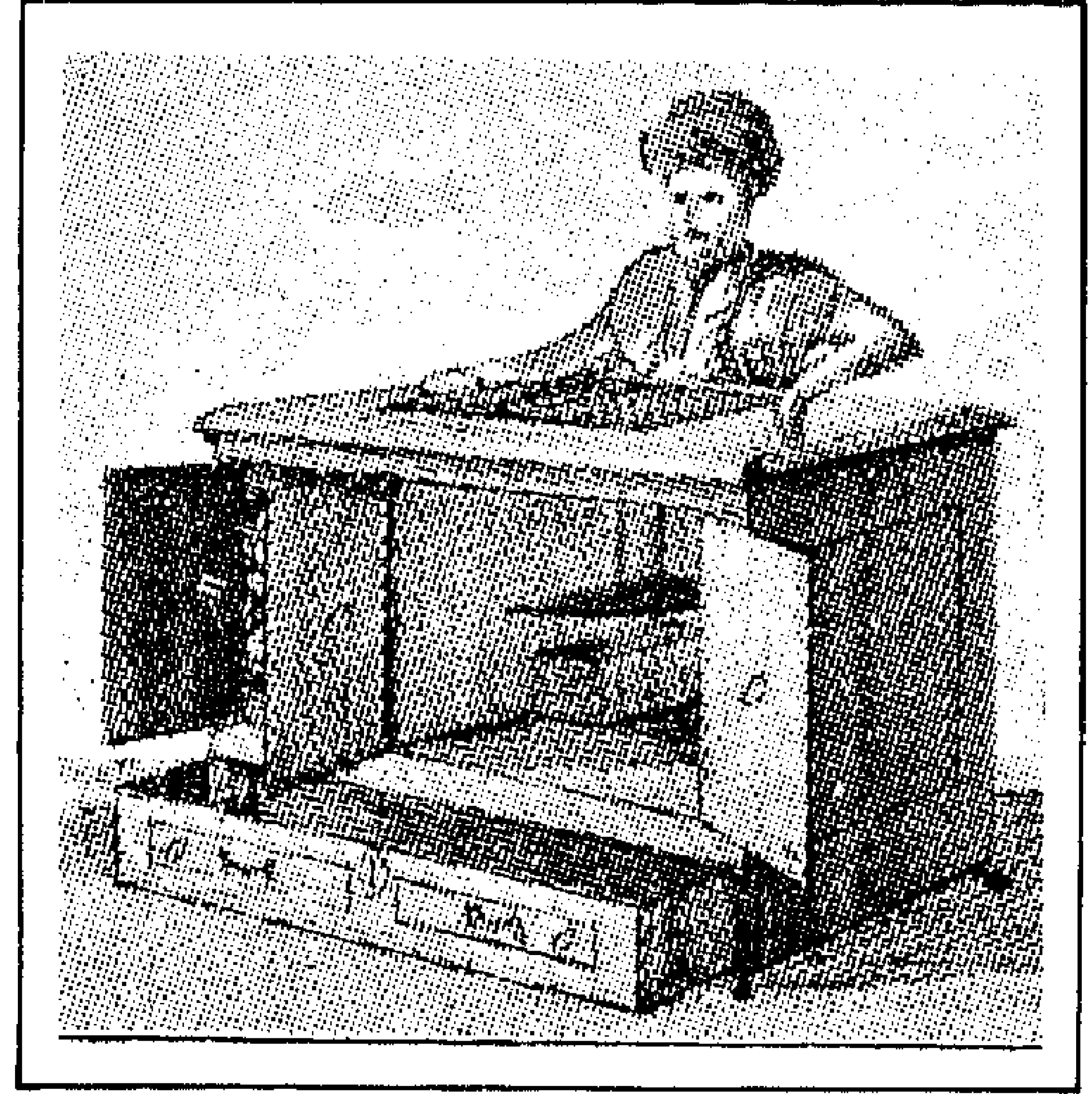
كان اللاعب هذا يلبس على رأسه عمامة تشبه كثيراً ما كان يلبسه سلاطين بني عثمان على رؤوسهم، كما كان يرتدي بذلة السلطان (ربما كان ذلك اشارة إلى المعلمين العرب الذين أدخلوا الشطرنج إلى أوروبا)، وكان هذا الرجل الآلي يجلس خلف رقعة شطرنج مع كامل القطع وقد وضعت فوق طاولة أشبه ما تكون بالمكتب مرتفعة حوالي ثلاثة أقدام بعرض قدمين وبطول أربعة أقدام، تجري هذه الطاولة على عجلات تسيرها في كل أنحاء المسرح (مسرح اللعب الذي تجري فيه المباراة). في هذا المكتب قسمان كلٌّ منهما مؤلف من باب وجرّار. وكان اللورد كمبيلان قبل بدء اللعب يفتح كل باب على حدة ثم يسحب الجرّار فتظهر عندئذ الآلات والدواليب المتداخلة التي تسيِّر اللاعب الآلي والتي يوحي مظهرها باستحالة ادخال أية آلة أو أشخاص فيها.

ما ان يتقدم بطل ليلاعب هذه الدمية الآلية حتى يسحب مقدم اللعبة من جيبه مفتاحاً طويلاً من الحديد ويبدأ بتعبئة الآلة كما تعبأ الساعة أو أية لعبة أطفال انما بطريقة مدروسة تعطي صوتاً عالياً ضخماً يسمعه كافة المشاهدين في الصالة، عندها تنخفض عينا الأوتومات نحو الرقعة، ويقوم مقدم اللعبة باضاءة شمعة على الطاولة، ثم يأخذ الأوتومات وقتاً من التفكير والتأمل قبل أن ترتفع الذراع بهدوء وبتحرك بطيء نحو القطعة المنوي تحريكها ليلتقطها بقوة ثم يضعها في مكانها الجديد.

عندما يريد اللاعب الآلي أن يكش شاه الخصم فانه كان يحرك شفتيه ببطء ليخرج صوتاً شبيهاً بلفظة شاه، أو الشين لوحدها. وكان العمليات والنقلات تمر بشكل لا يثير أية ريبة عند المشاهد بأن الأوتومات هو الذي يلعب، حتى المكتب كان يمكن تسييره من مكان إلى آخر حتى يبعد أية شبهة بأن هناك اتصالاً بين الأرض والطاولة في المكان الذي توضع فيه الطاولة أو بين الطاولة وأي شيء آخر.

كان الفحص الذي كان يجري أمام الجمهور للطاولة قبل البدء باللعب والطريقة التي تتم بها النقلات، تبعد أي شك لدى المتفرجين بامكانية حشر شخص ولو قزم داخل المكتبة هذه. وبقي سر الأوتومات هذا محفوظاً مدة طويلة. كما أن نجاحه المنقطع النظير جعله يجوب المانيا، انكلترا وفرنسا

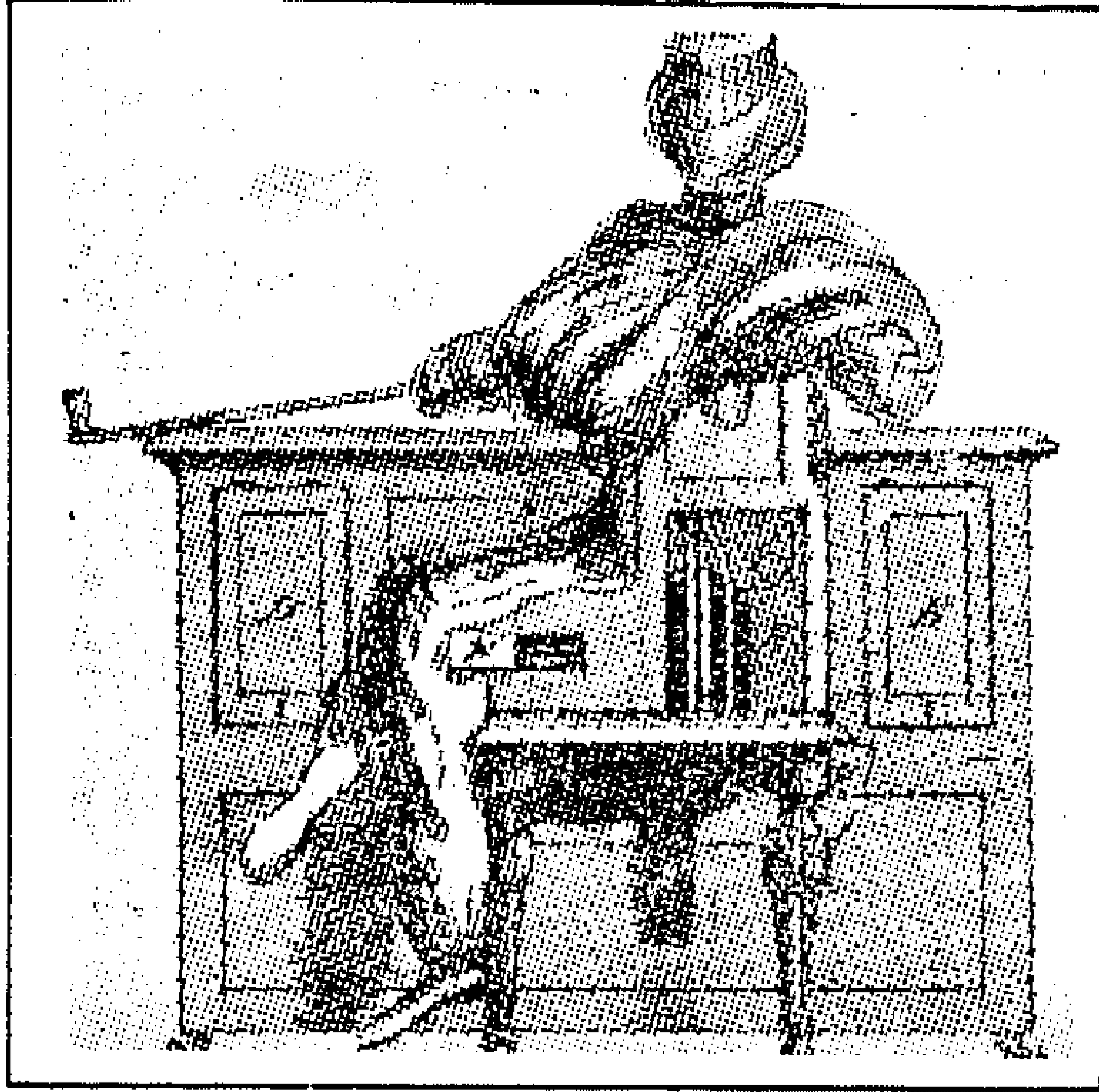
ويدفع بالتالي الملك فريديريك الثاني (ملك بروسيا) لشراء الأوتومات وسره. وما ان فهم سره حتى فكه ووضعه في احدى خزائن قصره حيث بقي ثلاثين سنة حتى نسيه الناس، ولكن وجود نابليون بعد ذلك في برلين أرجع للأوتومات عهده المزدهر فأرسل ثانية إلى لندن وباريس. كتبت مجلة بالاميد عن الأوتومات ما يلي: (البلاميد تكاد تكون أول مجلة اهتمت بالشطرنج بشكل جدي في التاريخ القديم):



اللاعب الآلي وراء طاولة اللعب

بعد أن سبقته شهرة لا توصف، وصل الأوتومات إلى القصر في بافاريا (مقاطعة في المانيا)، وكان تأثيره كبيراً على الناس لدرجة دفعت بالأمير أوجين لمحاولة الحصول على مثله، أو اتقان هذا الفن على الأقل، وتم الاتفاق بينه وبين صاحبه على مبلغ ثلاثين ألف فرنك مقابل الاطلاع على سر الأوتومات. وبالفعل، .ما ان اقترب الأمير من الآلة حتى أبعدت عيون الفضوليين عن الأوتومات وبقي الأمير لوحده، هنا فتحت الأبواب كلها دفعة واحدة ليرى الأمير فراغاً كافياً اختفت منه الدواليب التي كان يراها الجمهور من بعد والتي لم تكن بالحقيقة إلا أوراقاً مصورة ملصقة باتقان على خشبة تسير من مكان إلى الآخر حسب رغبة اللاعب يظنها المشاهد من بعد الات وزمبرك الخ... وضمن الصندوق كان هناك لاعب قصير القامة ممدد بشكل مزعج نوعاً ما ولكنه يستطيع تحريك الأحجار بواسطة ذراع الرجل الآلي دون أن يراه الناس، وكان هذا اللاعب في بدء كل جولة يختبئ يميناً أو شمالاً عندما كان مقدم اللعبة أو الجولة يريد إيهام الجماهير انها فارغة إلا من الآلات، فكان يختبئ في جذع الرجل الآلي عندما يفتح الباب الأسفل، وينطوي على نفسه عندما يفتح الباب الأعلى، كما ترى في الصور المرفقة لهذا المقال، أما كيف يتابع الجولة فكان ذلك بواسطة رقعة صغيرة يحملها تنيرها الشمعة الموضوعة أمام الرجل الآلي، هذه الرقعة كانت مرقمة على شاكلة الترقيم الذي تحمله الرقعة الظاهرة للعيان للجمهور،

منظر اللاعب الآلي من الخلف

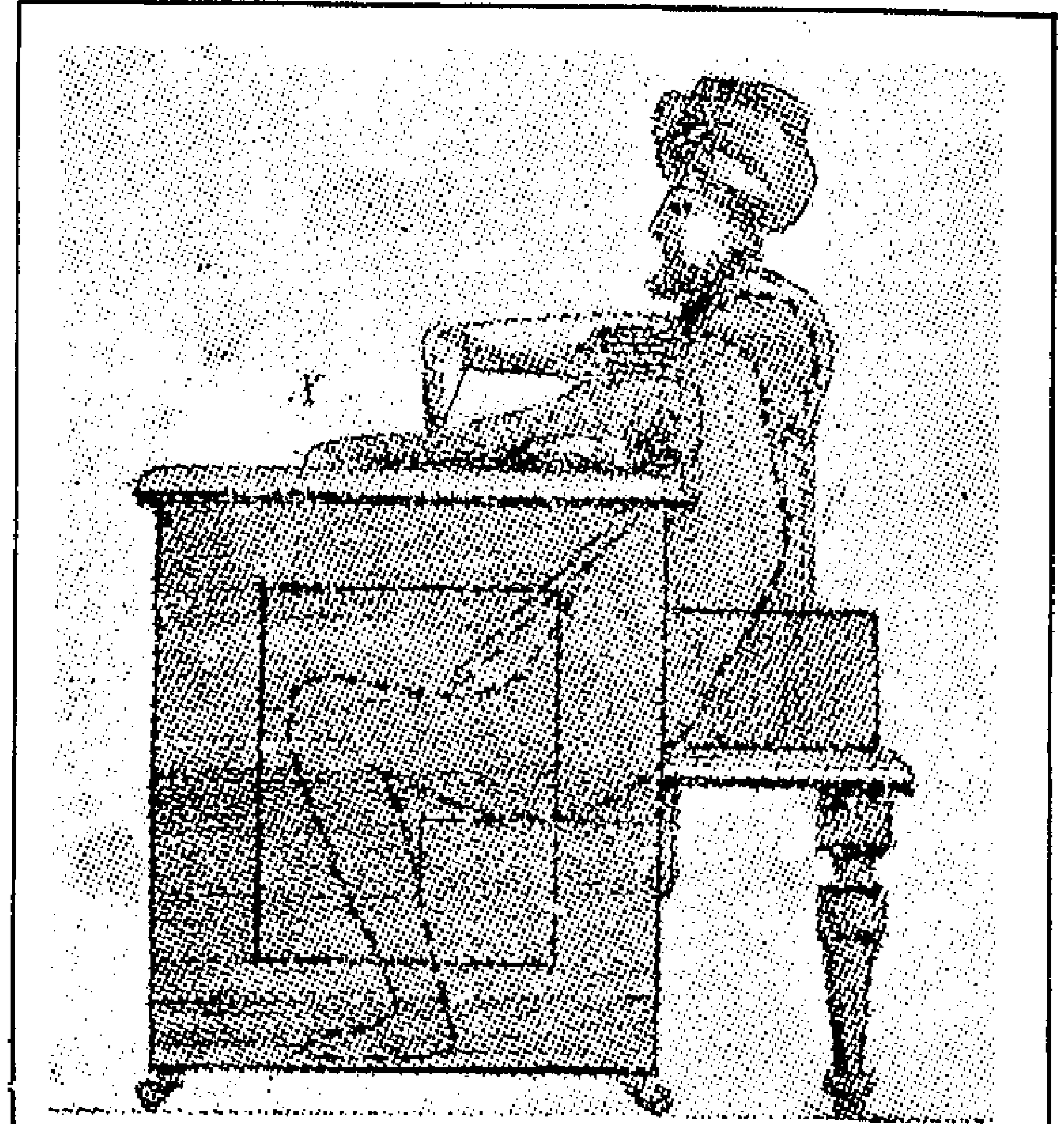


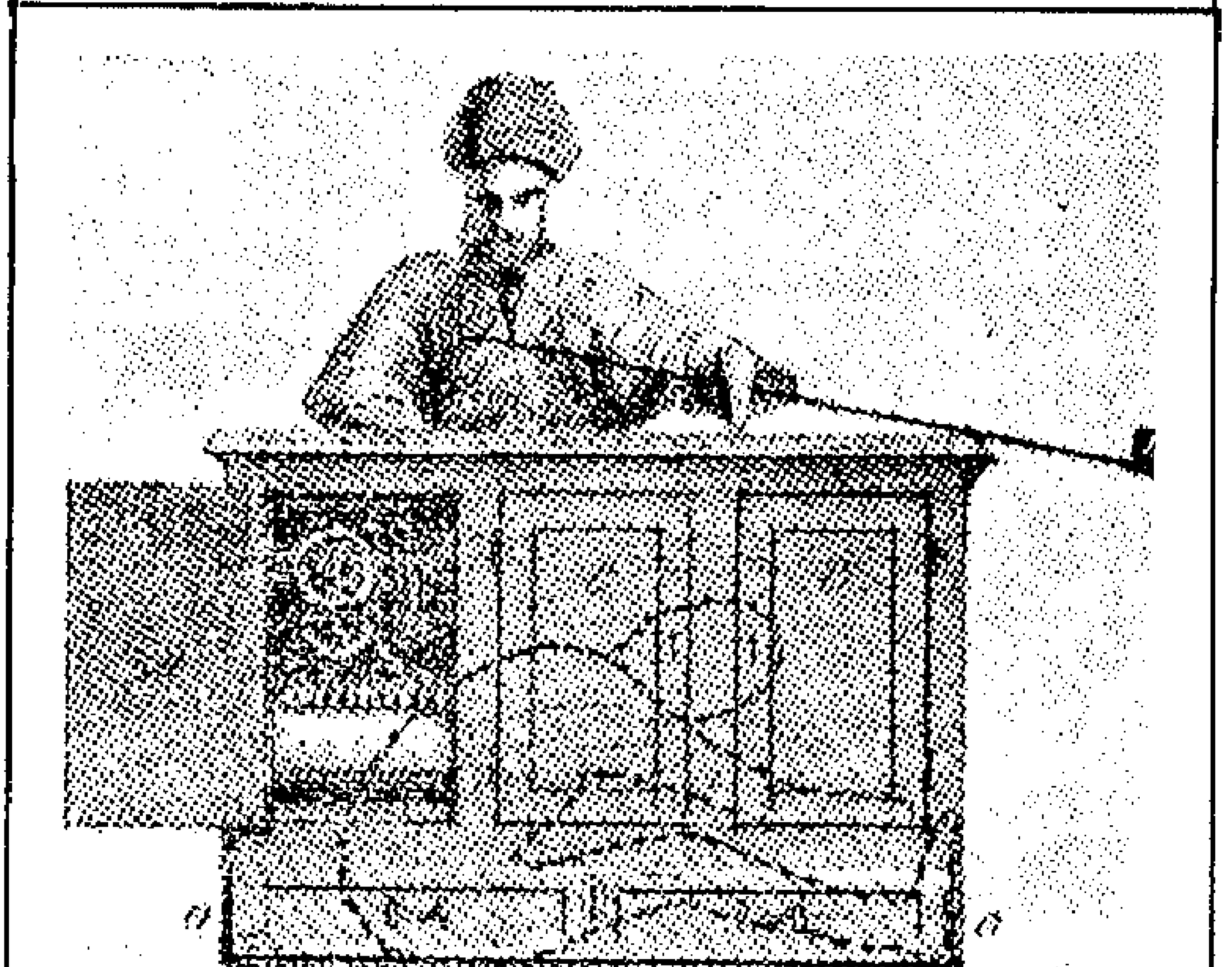


وضع اللاعب البشري داخل الخزانة الكبيرة حين تفتح.

وعندما كان اللاعب الخارجي يحرك حجراً، كان اللاعب في الداخل يتابع الحركة، لأن الرقعة الخارجية كانت شفافة من الداخل ويمكن رؤية تحرك الأحجار بسهولة بالاضافة إلى أن تحت كل خانة نوعاً من ذراع الميزان تهبط وتعلو وقت تحرك كل حجر فيسهل بالتالي على اللاعب الداخلي متابعة النقلات على رقعته ومن ثم تحريك ذراع الأوتومات للاجابة على نقلة الخصم. أما تهديد الشاه فكان يتم بنوع من المنفاخ يسحب باليد فيصدر «الرجل الآلي صوتاً شبيهاً بكلمة شاه أو شين فقط.

وضع اللاعب البشري في جذع اللاعب الآلي

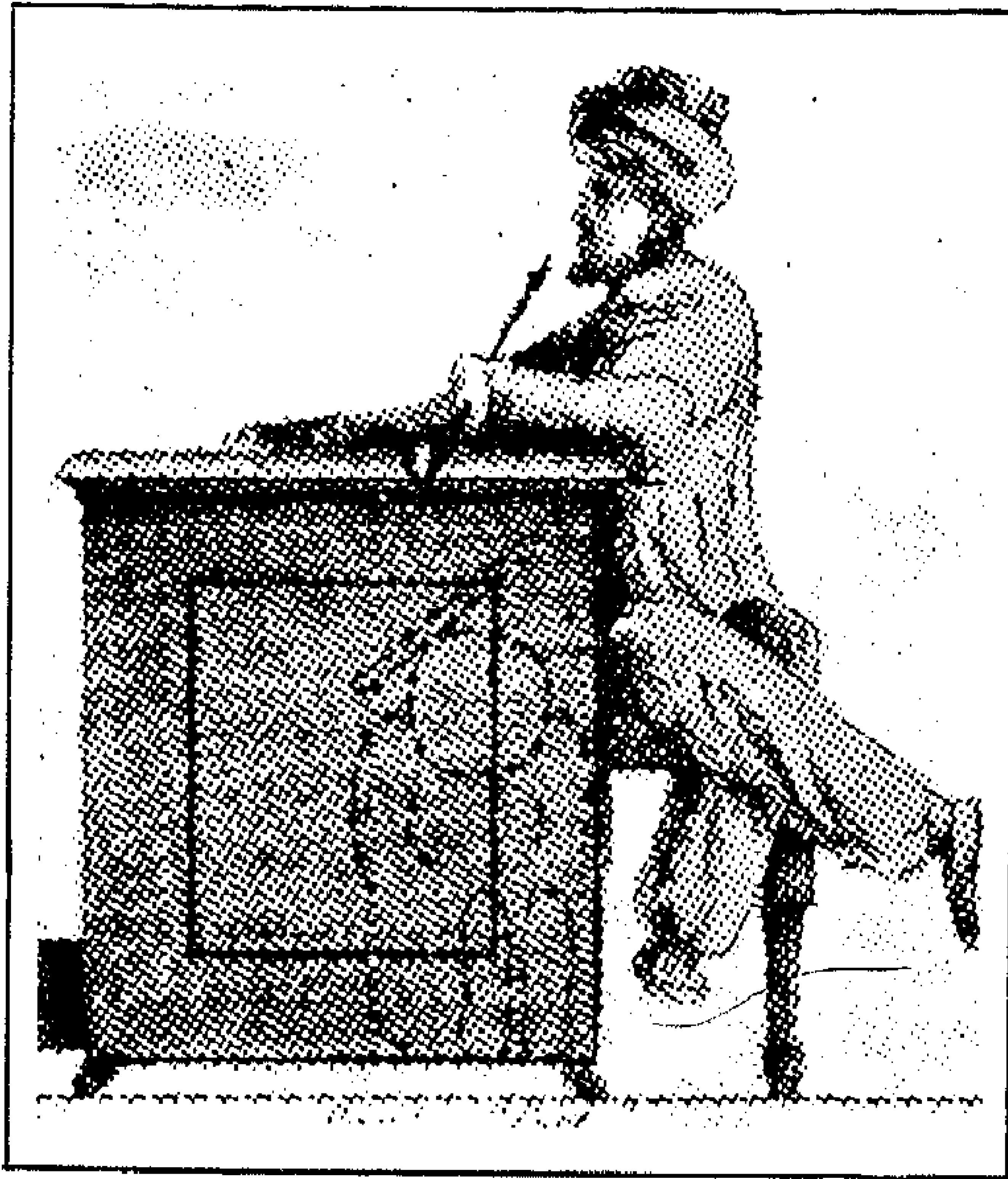




وضعان للاعب البشري حين تفتح الخزانة الصغرى

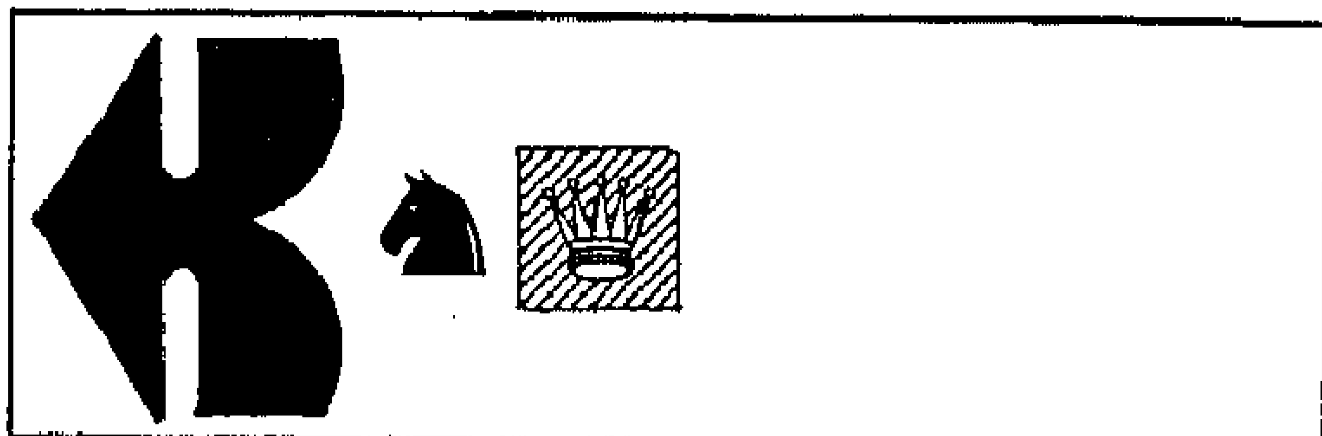
بعد مدة من الزمن، اشترى الرجل الآلي شخص يدعى مالزيل وقام بدورة مظفرة في أوروبا ثم في أميركا، توفي مالزيل سنة ١٨٣٧ فانتقلت ملكية الأوتومات إلى شخص يدعى أوليل ثم إلى الدكتور ميشال، ثم احترق في فيلادلفيا سنة ١٨٥٤ عندما شبت النار في المتحف الصيني حيث كان الأوتومات موضوعاً.

تبع هذا الأوتومات فيما بعد عدة أشكال شبيهة أشهرها كان لكامبل وكان يدعى ميفيستوفليس الذي نال هو الآخر نجاحاً كبيراً في اكواريوم وستمنستر في



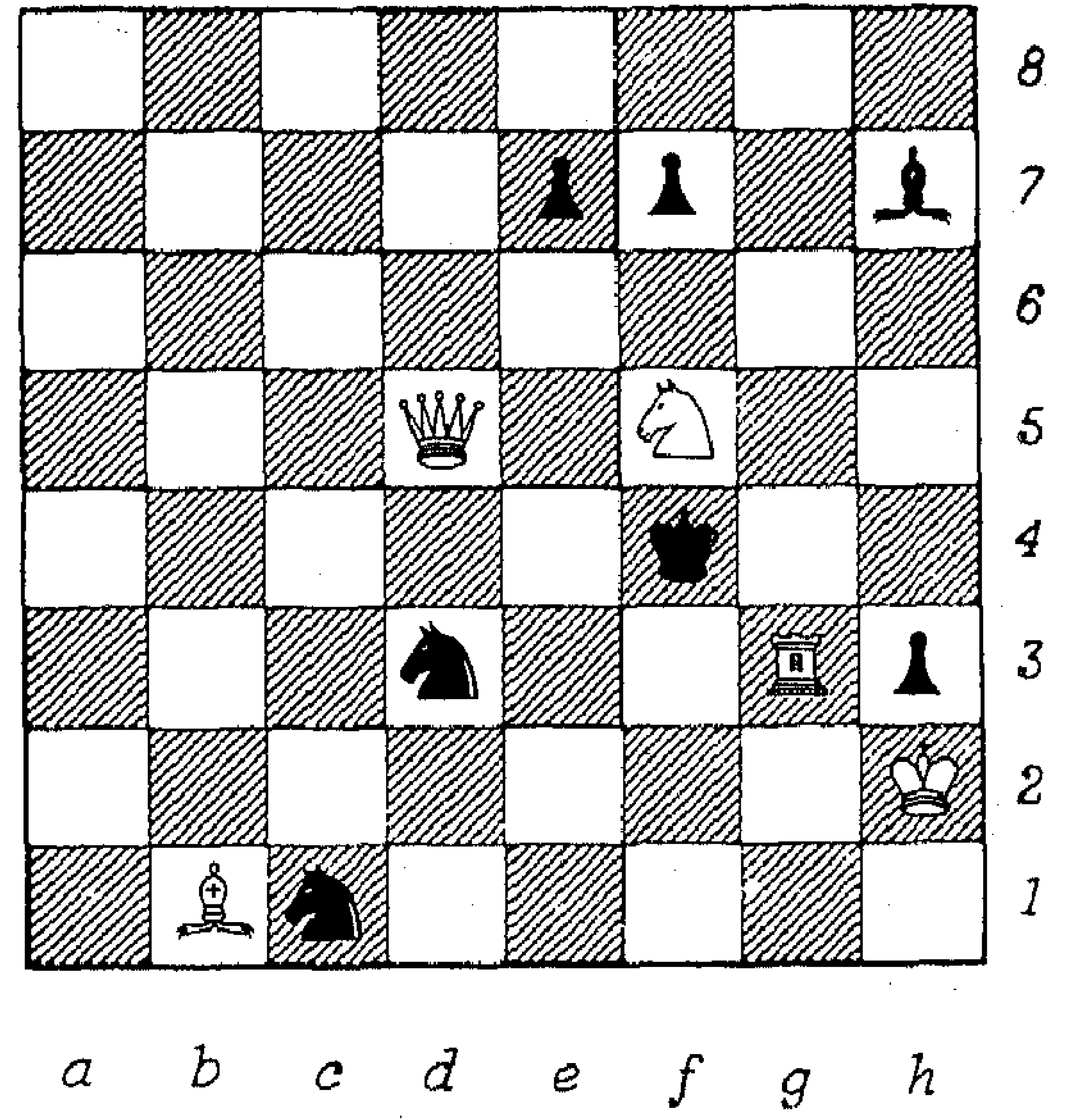
لندن وفي معرض باريس سنة ١٨٧٨، كما ظهر أوتومات آخر في معرض ١٨٨٩، وكان متقناً أكثر من الأول، كان الأخير يلعب على طاولة شطرنج تحتها فارغ تماماً، وكان يديره على الكهرباء من غرفة ثانية لاعب ماهر يحرك آلاته ولا يراه المتفرجون.

اللاعبون الذين تعاقبوا على هذا الأوتومات، أي الذين لعبوا من الداخل، قليلون هم حسب ما قرأناه، موريل، الفابي، وايل، الكسندر، بونكور، لويس، ويليم. ●

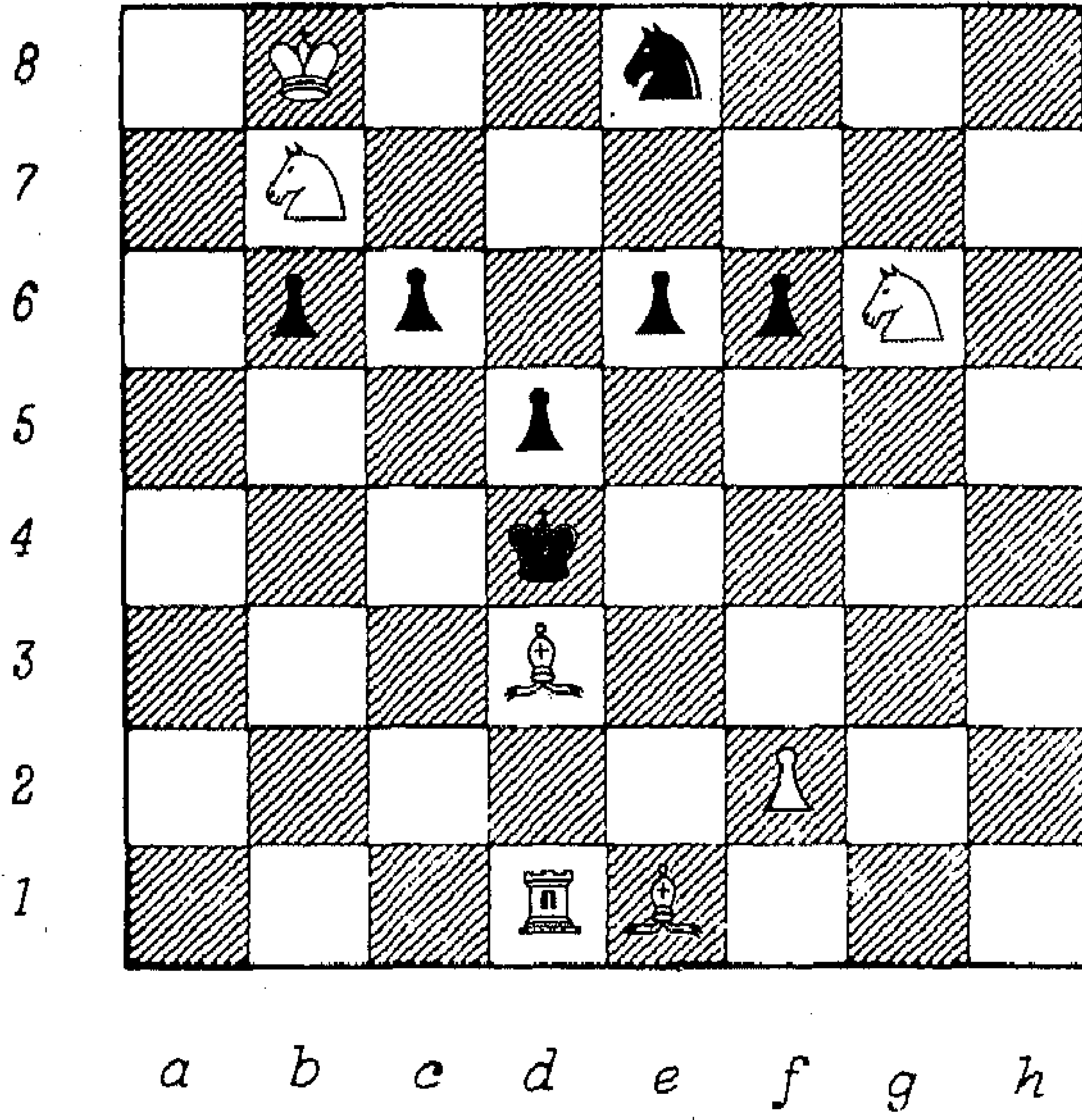


مسابقة العدد

المسألة رقم ٢٧
مات بنقلتين



المسألة رقم ٢٨
مات بثلاث نقلات

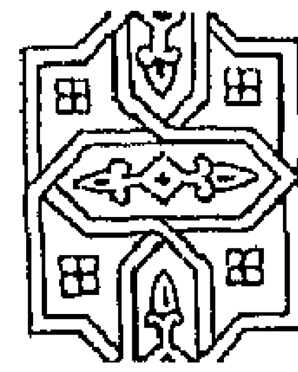


حل المسائل السابقة :

المسألة رقم ٢٥ :
المفتاح : I — Te7

المسألة رقم ٢٦ :
المفتاح : I — Rc6

الأسود يجيب اما (b5) واما (bxa5)
ويرد عليه الأبيض اما (Fd4) واما (Td4)



● متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم امهاتهم احراراً.

عمر بن الخطاب

● أن تنازل انسان عن حريته هو تنازله عن صفته كأنسان.

جان جاك روسو

تاريخ الطوابع

ميشال اسطفان

المملكة المغربية

● تقع في افريقيا الشمالية الغربية، على المحيط الأطلسي والبحر الأبيض المتوسط، مساحتها ٤٥١,٥٠٧ كلم مربع، وعدد سكانها نحو ١٣,٥٠٠,٠٠٠ نسمة، وعاصمتها الرباط.

أهم موانئها: الدار البيضاء، واغادير، وفضالة، وآسفي، وطنجة، والعرائش، والناطور، وأهم مدنها: مراكش، والقصر الكبير، وفاس، ومكناس، وتازة، وتطوان، وقليلة، وسيته، وازمور، والصويرة، ووجدة.

كان البربر يسكنون البلاد قبل المسيح بعدة قرون، وقد أسس الفينيقيون فيها ما بين القرن الحادي عشر والقرن الثالث ق.م. عدة مدن أخصها طنجة والعرائش، ثم احتل الرومان البلاد سنة ٤٢/٤٠م ثم اجلاهم عنها الفندال سنة ٥٣٣م.

كانت البلاد يحكمها قبائل تميز منها ثلاث: بنو المصمودي على السواحل وفي السهول الأطلسية وبعض جبالها. وبنو صنهاج، في الصحراء الغربية ويرتادون بعض سهول الأطلس وأوساطه. وبنو الزّاناتي، رُحّل من المناطق الشرقية.

فتح العرب البلاد سنة ٦٨٣م بقيادة عقبة بن نافع، ودخل الناس في الاسلام، ومنها انطلق موسى بن نصير لفتح الأندلس بقيادة طارق بن زياد سنة ٧١١م.

وفي سنة ٧٣٩م استقل الخارجيون في المنطقة الغربية عن سلطة الخليفة لكنهم لبثوا على الاسلام، وقامت سلالات عدّة تسلّمت السلطة في البلاد وكانت تمتد وتتسع رقعة نفوذ كل منها وفاقاً لما يتوافر لها من المقومات، وأهم هذه السلالات هي: الرستمية (٧٧٦ - ٩٠٨م)، بنو حماد (١٠١٤ - ١١٥٢)، المرابطون (١٠٦١ - ١١٤٧)، الموحدّون (١١٢٥ - ١٢٦٩) الحفصيون (١٢٢٨ - ١٥٧٤)، المرينيون (١٢٤٤ - ١٤٦٥)، الوطاسيون (١٤٢٠ - ١٥٥٤)، السعديون (١٥٥٤ - ١٦٢٦) وأخيراً تسلمت السلالة الشريفية مقاليد الحكم سنة (١٦٦٠ - ١٧٢٧).

بلغت المغرب البربرية في فترة من الزمن ذروة مجدها فكان لها اسطول عظيم يصلها باسبانيا، وكان لها صناعة متقدمة تستجلب تجار بيزا وجنوا والبندقية. الاّ أن سوء الادارة الداخلية من جهة، وتوالي غزوات القراصنة الأوروبيين على سواحلها من جهة أخرى، اضعفها اقتصادياً وسار بها نحو التقهقر، وذلك منذ ما خسر محمد الناصر موقعة لاس نافاس في تولوزا.

وفيما كانت هذه السلالات تتناحر على السلطة فيما بينها كانت سواحلها نهباً للقراصنة، ثم احتل البرتغاليون بعض تلك الشواطئ (سنة ١٤١٥، ارزيلا وطنجة ١٤٧١، سنتا كروز ١٥٠٥، آسفي ١٥٠٨، مزغان ١٥١٤).

لكن هذه الاعتداءات قوبلت بنوع من الحرب الدائمة، يقوم بها أهل البلاد، لكنها لم تكن ذات أثر فعال. إلى أن كانت موقعة القصر الكبير الذي قتل فيها سبستيان الثالث ملك البرتغال (١٩٧٨) فعادت للمغاربة هيبتهم في النفوس، ثم استعادوا طنجة ولاراش ولكن بعد قرن من الزمن كان مليئاً بالقلاقل الداخلية والخارجية.

في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر استتب الأمر نسبياً للسلطان، وكانت قد ارتبطت البلاد بمعاهدات تجارية مع بعض السلطات الأوروبية، الا ان مطامع الأوروبيين بقيت لا ترتوي مما حمل مولاي عبد الرحمن (١٨٢٢-١٨٥٩) ومولاي محمد ابنه (١٨٥٩-١٨٧٣) على خوض حروب عدة ضد فرنسا وضد اسبانيا، لكنها كانت غير موفقة.

من جملة المعاهدات مع أوروبا كان ثمة معاهدة تتعلق بالتشريع والحماية القنصليين موقعة مع فرنسا سنة ١٧٦٧ ثم جرى توضيحها في اتفاق طنجة الدولي سنة ١٨٦٣. وبالنظر إلى رغبة فرنسا الجامحة في السيطرة على البلاد، فانها حصلت على امتياز اقامة سلطة بوليسية على الحدود المغربية الجزائرية لسنة ١٩٠١ و ١٩٠٢، وأخذت تعمل على تقليص نفوذ الدول الأوروبية في البلاد لتحل محلها. وفي حين كان مؤتمر الجزيرة سنة ١٩٠٦ يضع المغرب تحت الاشراف الدولي كانت الجيوش الفرنسية بقيادة ليوتي تحتل أوجد (١٩٠٧) ثم جبال بني سناسن (١٩٠٨)، وفي المغرب الشرقية دخلت في الوقت ذاته كتيبة فرنسية فاحتلت مدينة الدار البيضاء.

واتفق من جهة أخرى أن مولاي حافظ خلع اخاه عن الحكم وحل محلهُ (١٩٠٨) الاّ أن الشعب لم يستمر في مساندته فحاصره الشماليون في فاس فاستنجد بالفرنسيين (١٩١١)، فكانت هذه خير فرصة للفرنسيين لكي يمعنوا في التدخل العسكري. وفي آخر السنة نفسها على أثر اتفاق اغادير بين فرنسا والمانيا (٤ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١١) أصبحت يد فرنسا طليقة في البلاد ففرضت على مولاي حافظ توقيع صك الحماية (٣٠ آذار (مارس) ١٩١٢) وخصت اسبانيا بمنطقتين في البلاد باتفاق (٢٧ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٢). أما طنجة فقد تناولتها اتفاقية باريس (١٩٢٣).

ويبدو أن هذا لم يكن نهاية الخطة المقررة إذ ان فرنسا اعلنت الغاء الحماية وادخال البلاد في الحكم الفرنسي المباشر سنة ١٩٢٥، وبذلك اصبحت سلطة السلطان محصورة في القضايا الدينية وكان يحكم يومئذ مولاي يوسف الذي أكره الفرنسيون أباه مولاي حافظ على التنازل له سنة ١٩١٢.

في سنة ١٩٣٤ قام أول حزب سياسي في البلاد يطالب باعادة نظام الحماية بدلاً من نظام الاستعمار، رأس احد شطري هذا الحزب علال الفاسي، ورأس الشطر الآخر الوزاني.

كانت الظروف السياسية مؤاتية، فتطورت المطالبة بالحماية إلى المطالبة بالاستقلال، وكان قد مهد لذلك مولاي سيدي محمد بن يوسف، الذي كان قد صار على رأس السلطة، باجتماع عقده مع الرئيس روزفلت سنة ١٩٤٣.

ولأول مرة رفض مولاي سيدي محمد بن يوسف، أن يصدق القرارات الصادرة عن الفرنسيين، ثم طالب باستقلال البلاد في خطاب طنجة المشهور (نيسان (ابريل) سنة ١٩٤٤). حاولت السلطة بشتى الوسائل ان تضع حداً لهذه الانتفاضة فلم تفلح، فعزلت مولاي سيدي محمد بن يوسف، ونفته خارج البلاد وعينت محله محمد بن عرفة (آب (اغسطس) ١٩٥٣)، لكنها اضطرت لاعادته إلى الحكم بعد سنتين (آب (اغسطس) ١٩٥٥).

كان من نتيجة هذا العود المظفر لمولاي سيدي محمد بن يوسف، ان التف الشعب حوله، فاضطرت فرنسا للاعتراف به ملكاً على المغرب في ٥ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥٥، ثم اعترفت باستقلال البلاد في ٣ آذار (مارس) ١٩٥٦. وفعلت اسبانيا مثل ذلك في ٧ نيسان (ابريل) ١٩٥٦، وألغي نظام طنجة الدولي في ٢٩ تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٥٦، ودخلت المغرب جمعية الأمم المتحدة في تموز (يوليو) ١٩٥٦، وأعلنت مملكة يرأسها مولاي سيدي محمد بن يوسف باسم محمد الخامس ملك المغرب، وذلك في ١٨ آب (اغسطس) ١٩٥٧.

وفي سنة ١٩٦١ انتقل الملك محمد الخامس إلى جوار ربه، فتولى الحكم ولي عهده الملك الحسن الثاني.

تاريخ الطوابع

تاريخ طوابع المغرب واسع ومعقد جداً، بسبب الانظمة المختلفة التي مرت بها البلاد، وبسبب المناطق المتاخمة والتابعة لها، ثم بسبب مكاتب البريد الاجنبية

الكثيرة التي استعملت الطوابع فيها، نفصلها كالآتي:

١ – المكاتب الاجنبية الاسبانية ١٨٦٠ – ١٩١٠.

٢ – المكاتب في المناطق تحت الحماية الأسبانية ١٩١٤ – ١٩٥٦.

٣ – المكاتب الأجنبية الفرنسية ١٨٦٢ – ١٩١١.

٤ – المكاتب في المناطق تحت الحماية الفرنسية ١٩١٤ – ١٩٥٦.

٥ – المكتب البحري الفرنسي في الدار البيضاء ١٩٤٣ – ١٩٤٥.

٦ – مكاتب المؤسسات الخاصة للبريد الداخلي ١٨٩١ – ١٩٠٩.

٧ – المكتب الشريفي ١٨٩٢ – ١٩١٩.

٨ – المكتب الحربي الفرنسي في ولاية المليلة ١٨٩٣ – ١٨٩٤.

٩ – المكاتب الأجنبية البريطانية ١٨٩٨ – ١٩٥٦.

١٠ – المكاتب الاجنبية الالمانية ١٨٩٩ – ١٩١٩

١١ – المكتب في ولاية افني ١٨٦٠ – ١٩٦٩.

١٢ – المكتب في ولاية رأس جوبي ١٩١٦ – ١٩٥٠.

١٣ – المكتب في ولاية افريقيا الغربية الاسبانية ١٩٤٩ – ١٩٥١.

منطقة طنجة الدولية

١٤ – المكتب الفرنسي ١٩١٨ – ١٩٤٢.

١٥ – المكتب الاسباني ١٩٢١ – ١٩٥٧.

١٦ – المكتب البريطاني ١٩٢٧ – ١٩٥٧.

١٧ – المغرب في عهد الاستقلال ١٩٥٦

---

١ المكاتب الأجنبية الأسبانية ١٨٦٠ – ١٩١٠

استعملت الطوابع الاسبانية في المغرب بدون توشيح، بمكتب للبريد الحربي من سنة ١٨٦٠ إلى سنة ١٩٠٣. ثم بوشر بتوشيح الطوابع الاسبانية لتستعمل في البلاد. ففي سنة ١٩٠٣ اصدرت طابعاً من فئة ١/٤ سنتيموس بعد توشيحه جانبياً بسطرين، (Carreo Espagnol / Marruecos) بحرف صغير، وكان لون الطابع مصفراً وورقه سميكاً. وفي سنة ١٩٠٩ اصدرت طابعاً آخر يماثله من فئة ١/٤ س، لكنَّ ورقه كان عادياً وأبيض. وفي سنة ١٩٠٣/٩ اصدرت مجموعة مؤلفة من ١٢ طابعاً موشحاً مثل التوشيح السابق، ولكن باحرف كبيرة ضعف أحرف التوشيح الأول. وفي سنة ١٩٠٨ اصدرت مجموعتين، الأولى من تسعة طوابع والثانية من ستة طوابع، موشحة باليد بكلمة تطوان بالافرنجي فقط، واصبحت قيمتها اليوم نحواً من ٣٠٠ جنيهاً استرلينياً.

وفي سنة ١٩٠٩/١٠ اصدرت مجموعة من ١٢ طابعاً من ٢ سنتيموس إلى ١٠ بزيتاس، بما فيها الفئات الثلاث ٢٥ س و٤ و١٠ ب، التي لم تستعمل في حينها. وبعد اصدار المجموعة اللاحقة، وكانت المنطقة قد اصبحت تحت الحماية الاسبانية، خصصت هذه المجموعة كاملة مع الفئات الثلاث الآنفة الذكر، لتستعمل فقط في طنجة. وتجدون الشرح عنها في المكان المخصص لطنجة.

---

٢ – المكاتب في المناطق تحت الحماية الاسبانية ١٩١٤ – ١٩٥٦.

باشرت اصدارات هذه المكاتب باول مجموعة من الطوابع الاسبانية بتاريخ ٢٢ تموز/يوليو ١٩١٤، بعد توشيحها بكلمة (Marruecos)، وكانت مؤلفة من ١٣ طابعاً عاديا وطابع واحد للبريد المستعجل. ثم اصدرت سنة ١٩١٥/١٦ مجموعة ثانية عادية من ١٣ طابعاً وطابع واحد للبريد المستعجل، بعد توشيحها بثلاثة اسطر.

(Protectorado. Espagnol En Marruecos). ثم اصدرت مجموعة ثالثة سنة ١٩١٦/٢١ من ١٤ طابعاً للبريد العادي، بعد توشيحها باربعة اسطر.

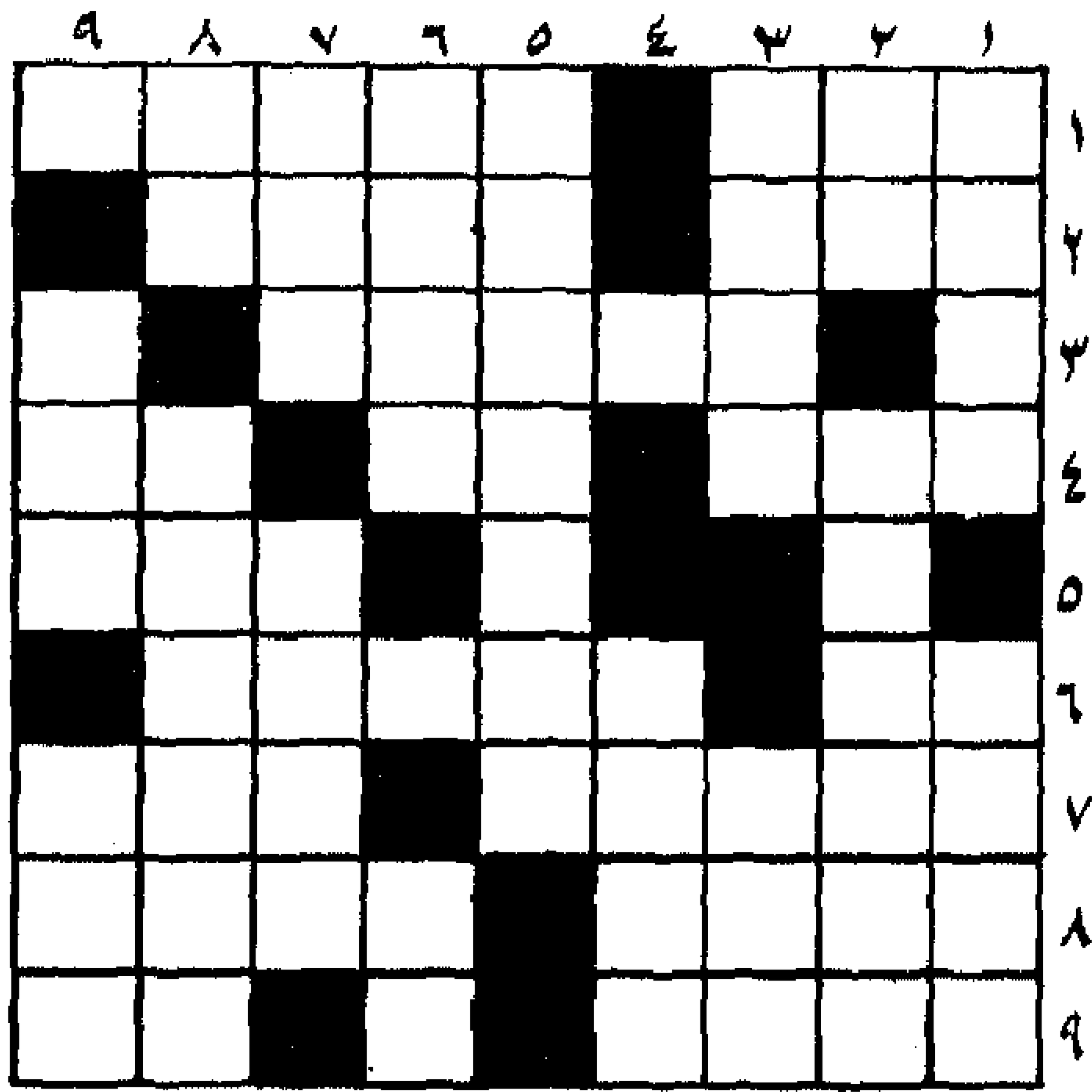
Zona de Protectorado
Espagnol en Marruecos

وبعدها اصبحت تصدر المجموعات العادية والتذكارية والبطاقات، وتوشح الفئات اللازمة بحسب الطلب، وكذلك المجموعات المصورة بمناظر البلاد ومن ضمنها ثلاثة طوابع تحمل صورة الجنرال فرانكو، فئة ١٠ س، وثلاث بطاقات، خصص ريعها لمساعدة الجنود مشوهي الحرب، وأصدرت طابعاً وبطاقة لكل من ١٩٣٧ و ١٩٣٨ و ١٩٣٩. والملاحظ ان كل بطاقة كانت تحمل مربعاً من أربعة طوابع من فئة ١٠ س.

أما مجموع ما اصدرت من طوابع خلال فترة الحماية الاسبانية، فهو ٤٠٩ طوابع وخمس بطاقات، تبلغ بمجملها خمسين مجموعة. ولما اعترفت اسبانيا باستقلال البلاد في نيسان/ابريل ١٩٥٦، انتهى نظام الحماية عن المنطقة الشمالية من المغرب، ما عدا سبتة ومليلة اللتان الحقتا بالحكم الاسباني.

وسيتبع في الاعداد القادمة الشروحات الوافية لاصدارات المكاتب الأخرى. ●

مسابقة العدد



افقياً:

١ – الاسم الأول لأحد الملوك. مواطن الظن.

٢ – فني. الاسم الأول لرئيس عربي (معكوسة).

٣ – الاسم الأول لأحد السلاطين (معكوسة).

٤ – مدينة سورية (معكوسة). فتت (معكوسة). مبسم.

٥ – احد القوارض.

٦ – قرع. الأسم الأول لرئيس عربي.

٧ – نسمات (معكوسة). شجاع (معكوسة).

٨ – ابتغي. الاسم الثاني لرئيس عربي.

٩ – الاسم الأول لرئيس عربي. ضمير متصل.

عمودياً:

١ – الاسم الأول لرئيس عربي. منطقة بترولية في دولة عربية.

٢ – داء وبيل. عقبات (معكوسة).

٣ – الاسم الأول لأحد الملوك (معكوسة). أسأل.

٤ – الاسم الأول لرئيس عربي.

٥ – المتضجر (معكوسة).

٦ – الاسم الأول لرئيس عربي (معكوسة). انحرف عن السنن الصحيح.

٧ – صوت كالغراب. الاسم الأول لأحد الملوك.

٨ – اشتعل. بلد عربي.

٩ – شكر. ظهر.

أنظر الحل في الصفحة ٩٥.

قبل ٢٥ سنة

ايمان نويهض

كانون الأول (ديسمبر) ١٩٥٤

١ كانون الأول (ديسمبر).

● وزراء الخارجية العرب يلتقون في القاهرة لبدء اجتماعات اللجنة السياسية للجامعة العربية.

● جمال عبد الناصر، رئيس الوزراء المصري، يلتقي، كلا على حدة، وزير خارجية سوريا فيضي الأتاسي، وزير خارجية لبنان الفرد نقاش، ووزير خارجية العراق موسى الشابندر.

● وافق بعض زعماء الثوار التونسيين على الهدنة المقترحة من الحكومتين الفرنسية والتونسية مقابل تسليم كامل اسلحتهم.

● اللجنة السياسية للجامعة العربية تحتج على المذكرة الايرانية التي تطالب الطائرات العربية بضرورة طلب الاذن من ايران للهبوط في منطقة البحرين.

● الدكتور شارل مالك، سفير لبنان في الأمم المتحدة، يرئس اجتماعات مجلس الامن الدولي خلال هذا الشهر.

٢ – كانون الأول (ديسمبر):

● نفى فؤاد عمون، المدير العام لوزارة الخارجية اللبنانية، خلال اجتماعات الجامعة العربية ان يكون لبنان قد فكر بالانضمام إلى حلف تركيا – باكستان.

● محادثات طويلة بين عبد الناصر واسماعيل الازهري، رئيس الوزراء السوداني، بالقاهرة.

٣ – كانون الأول (ديسمبر):

● تأجيل زيارة عدنان مندريس، رئيس الوزراء التركي، إلى مصر.

٤ – كانون الأول (ديسمبر):

● محكمة الشعب المصرية تصدر قراراً باعدام سبعة من أعضاء جماعة الاخوان المسلمين (منهم حسن الهضيبي المرشد العام، محمود عبد اللطيف، ويوسف طلعت..) والسجن المؤبد مع الاشغال الشاقة لسبعة آخرين والسجن خمسة عشر سنة لاثنين وبراءة لثلاثة.

● مجلس قيادة الثورة المصري يخفض حكم الاعدام على الشيخ حسن الهضيبي إلى أشغال شاقة مؤبدة.

● فؤاد عمون، المدير العام للخارجية اللبنانية، يحمل رسالة من الرئيس اللبناني كميل شمعون إلى جمال عبد الناصر.

● اقامة علاقات دبلوماسية بين المملكة العربية السعودية والمانيا الغربية.

٥ – كانون الأول (ديسمبر):

● الرئيس اللبناني كميل شمعون يستقبل شاه ايران خلال هبوطه في مطار بيروت في طريقه إلى نيويورك.

٦ – كانون الأول (ديسمبر):

● الحكومة المصرية تقرر اطلاق سراح الباخرة الاسرائيلية «بات غاليم» مع طاقمها.

● مصر وبريطانيا تتبادلان وثائق التصديق على اتفاقية الجلاء ويودعان نسخة منها في سكرتارية هيئة الأمم المتحدة.

٧ – كانون الأول (ديسمبر):

● استسلام حوالي ٣٠٠٠ ثائر تونسي للحصول على العفو العام.

● تنفيذ حكم الاعدام في زعماء الاخوان المسلمين في مصر.

● شكري القوتلي يزور مصر.

● اللجنة السياسية العربية تقرر إدراج قضية الجزائر في الأمم المتحدة.

٩ كانون الأول (ديسمبر):

● اللجنة السياسية التابعة للجمعية العمومية للامم المتحدة تناقش مشكلة مراكش والوفد الفرنسي يتغيّب عن الاجتماع.

● البنك الدولي يتحفظ في تمويل مشروع الليطاني في لبنان في حال إقامة الوحدة الاقتصادية بين سوريا ولبنان.

● مصطفى بن حليم، رئيس الوزراء الليبي، يؤكد ارتياحه للعلاقات مع بريطانيا وللاتفاقية البريطانية الليبية كما يؤكد انشراحه للمساعدات الاميركية للتنمية الداخلية.

١٠ كانون الأول (ديسمبر):

● خلال اجتماعات المجلس الاقتصادي العربي في القاهرة، الوفد اللبناني يقدم اقتراحاً بقيام وحدة اقتصادية عربية شاملة تنفذ على مراحل خلال خمس سنوات.

١١ – كانون الأول (ديسمبر):

● مجلس الجامعة العربية يوافق على توصيات اللجنة السياسية العربية.

– ترشيح لبنان ومصر إلى المجلس التنفيذي لهيئة الثقافة الدولية.

– الاشتراك في مؤتمر جاكارتا باندونيسيا.

– اصلاح مسجد الصخرة الشريف في القدس.

– الاهتمام بقضايا جنوب اليمن.

– تعيين طه حسين رئيساً للجنة الثقافية الدائمة للجامعة العربية.

– تقديم شكوى سورية ضد تحويل مياه نهر الاردن إلى مجلس الامن.

– دعم الحرس الوطني الاردني.

– البحث عن البترول والاورانيوم.

– البحث في المعاملة التي يلقاها العرب داخل اسرائيل.

١٢ – كانون الأول (ديسمبر):

● رفع العلاقات الدبلوماسية بين ليبيا وتركيا إلى مستوى سفارة.

● احكام اعدام جديدة ضد الاخوان المسلمين في مصر.

١٣ – كانون الأول (ديسمبر):

● رغم معارضة الولايات المتحدة نجحت الكتلة الافرو اسيوية على ابقاء المسألة المراكشية مدرجة ضمن أعمال اللجنة السياسية للأمم المتحدة.

١٤ – كانون الأول (ديسمبر):

● احكام اعدام اخرى ضد الاخوان المسلمين في مصر.

● اعضاء مؤتمر جوبا المؤلف من اعضاء حزب الجنوب في السودان يطالبون بجمهورية مستقلة في جنوب السودان تربطها وحدة فيدرالية مع الشمال.

● بدء مؤتمر للدبلوماسيين الاميركيين في الشرق الأوسط في دمشق.

١٥ – كانون الأول (ديسمبر):

● مجلس قيادة الثورة المصري يخفف احكام الاعدام.

١٦ – كانون الأول (ديسمبر) :

● انهاء اجتماعات المجلس الاقتصادي العربي في القاهرة.

● انباء صحفية تسرب استعداد بعض الوزراء العرب لتمتين العلاقة مع الغرب مقابل قواعد جدية لهم.

● تأجيل دراسة مسألتي تونس ومراكش في الأمم المتحدة بانتظار نتائج المفاوضات بين الفرنسيين والحكومتين التونسية والمراكشية.

١٨ – كانون الأول (ديسمبر) :

● وصول الملك حسين، ملك الاردن، يرافقه توفيق ابو الهدى، رئيس الوزراء، إلى لندن.

١٩ – كانون الأول (ديسمبر) :

● تعديل وزاري في الوزارة الليبية.

● وصول موسى الشابندر، وزير خارجية العراق، إلى بيروت.

٢٠ – كانون الأول (ديسمبر) :

● اسماعيل الازهري يتهم ثلاثة وزراء سودانيين بالعمل مع حزب الأمة السوداني ضد سياسة التعاون مع مصر ومجلس الوزراء يقيلهم من مناصبهم بالرغم من انكارهم للتهم الموجهة اليهم.

● وزير الخارجية السوري فيضي الأتاسي يؤكد أمام النواب السوريين ان سوريا لم تعط موافقتها على توصية باقامة حلف عربي للدفاع عن الشرق الأوسط يدعمه الغرب.

٢٣ – كانون الأول (ديسمبر) :

● موسى الشابندر، وزير الخارجية العراقية، يصل دمشق ويقابل فارس الخوري رئيس الوزراء السوري لشرح وجهة نظر العراق ثم يعود إلى بغداد.

٢٤ – كانون الأول (ديسمبر) :

● وافقت سوريا على نقل مصفاة حيفا إلى لبنان.

● تعديل وزاري في السودان يصبح فيه اسماعيل الازهري رئيساً للوزراء ووزيراً للداخلية والدفاع.

٢٧ – كانون الأول (ديسمبر) :

● طالب اسماعيل الازهري باقامة جمهورية سودانية مستقلة عن مصر يربطها بها مجلس اعلى من مجلس الوزراء يجتمع مرة أو مرتين كل عام.

٢٨ – كانون الأول (ديسمبر) :

● انعقاد المؤتمر الأرثوذكسي في لبنان.

● الحكم باعدام خمسة عسكريين في مصر مسؤولين عن الجهاز السرّي في الاخوان المسلمين.

٢٩ – كانون الأول (ديسمبر) :

● وفاة ميشال شيحا واضع الدستور اللبناني.

٣٠ – كانون الأول (ديسمبر) :

● سوريا تلغي تأشيرة الدخول اليها للرعايا العرب.

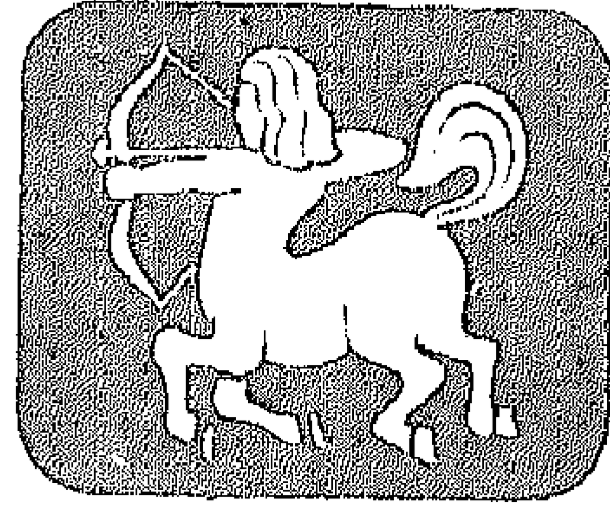
● استقالة روبرت هاو الحاكم العام في السودان وتعيين الكسندر نوكس – هلم مكانه.

● بدء اجتماعات مؤتمر التعليم الالزامي العربي في مصر.

حل المسابقة

	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩
١	ح	س	ن	■	م	ظ	ن	ا	ت
٢	ب	ل	ي	■	ر	ف	ع	ج	■
٣	ي	■	س	و	ب	ا	ق	■	ح
٤	ب	ل	ح	■	ت	ح	■	ف	م
٥	■	ي	■	■	م	■	خ	ل	د
٦	د	ق	■	ا	ل	ي	ا	س	■
٧	م	ا	س	ن	ا	■	ل	ط	ب
٨	ا	ر	ج	و	■	ش	د	ي	د
٩	م	ع	م	ر	■	ذ	■	ن	ا

برج القوس



٢٣ نوفمبر/ تشرين الثاني

٢٢ ديسمبر/ كانون الأول

يرمز عادة إلى برج القوس بصورة الكائن الخرافي المعروف باسم (القنطور) ويصور على شكل نصف إنسان ونصف حيوان، وقد يختلف هذا الحيوان من رسم لآخر: فالفرنسيون يرسمونه على شكل أسد والعرب على شكل حصان أما الفراعنة فعلى شكل بقرة. المهم ان الانسان النصفي هو على نمط واحد إذ يحمل القوس والنشاب في وضع الإنطلاق. وهذا ما يعبر في وضوح عن الصفات التي يتميز بها مواليد هذا البرج. إنهم يتمتعون بصفتين متلازمتين هما: الحيوية والحماس من جهة وبعد النظر من جهة ثانية، وتكسبان صاحبهما روح التسامح والصبر الطويل مما يظهره أمام الناس وكأنه يتسم بالسطحية وعدم الجدية في نظرته إلى الأمور.

أصحاب هذا البرج في حاجة ماسة إلى الحرية الذهنية والجسدية وإلى اكتشاف الجديد في كل شيء. من هنا نفهم رغبتهم العارمة في ممارسة الرياضة خصوصاً أنواع الرياضة التي تتعلق بالأرجل والأوراك.

تكون ردة فعل مواليد هذا البرج تجاه التحديات قوية وهذا ما يساعدهم على تحمل الصدمات والتكيف معها.

إنهم بارعون في مناقشة «المواضيع التي تثير إهتمامهم مع إهتمامهم الزائد بمعرفة أكبر عدد من المواضيع المتفرقة».

عندهم المجال للنجاح في التخطيط لمشاريع كبرى وتدل قراراتهم حولها انها تنم عن نضج وحكمة، ولكنهم يأنفون من الدخول في التفاصيل الصغيرة ولا يستسيغون الرتابة المملة. لذلك هم في حاجة إلى شريك حياة يفهم اندفاعهم ويقدر ميلهم الشديد للحرية. ويفضلون الأصدقاء الذين يقدمون إليهم الجديد في حديثهم وأفكارهم ومشاريعهم.

ويذكر ان عالم الفلك جان رينياك أعلن منذ أواخر ١٩٧٣ عن إكتشافه لبرج جديد يقع بين كوكبي العقرب والقوس واسماه برج الأفعى وهو يتعلق بمواليد ٢٣ تشرين الأول/اكتوبر و ٩ تشرين الثاني/نوفمبر ويبرر اكتشافه هذا استناداً إلى أن الشمس تخترق ثلاثة عشر كوكباً. ولكن يبدو ان الاجماع لم يتم بعد حول هذا الأمر.

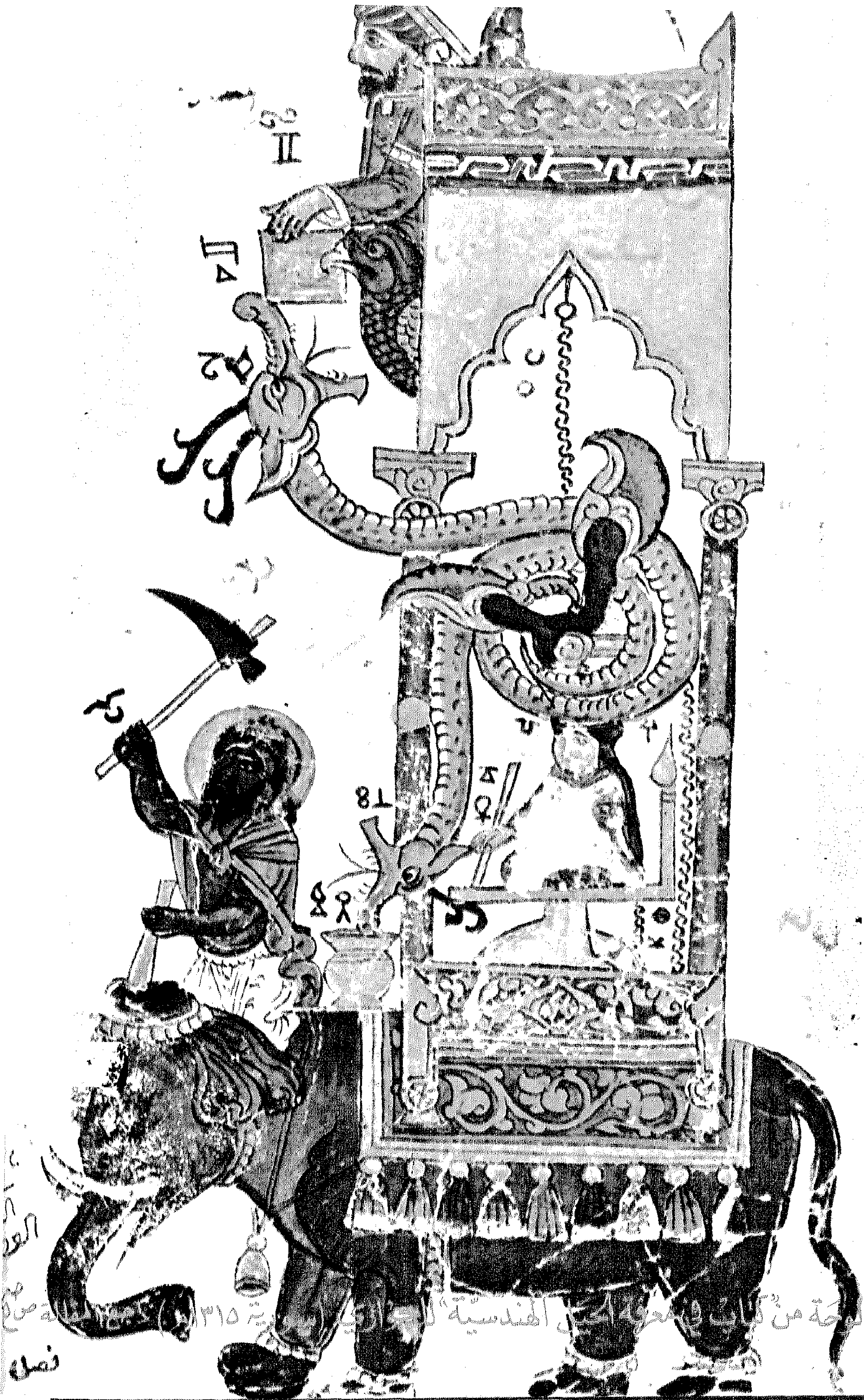
إستناداً إلى ابحاث العلماء فإن برج القوس له تأثير ء اشر في الكبد والفخذ ومفصل الورك.

من الشخصيات العالمية في التاريخ القديم والحديث والمولودة تحت برج القوس نذكر:

الموسيقى الألماني بيتهوفن - ولت ديزني مخترع «ميكي ماوس» - المغني الأميركي فرانك سينترا - الممثل الأميركي كيرك دوغلاس السير ونستون تشرشل - موحد إيطاليا غاريبالدي (١٨٠٧ - ١٨٨٤) - ليونيد بريجينيف. الكاتب الهزلي الأميركي مارك توين.

تاريخ الجوهرات: اللؤلؤ، الروبي، الزفير والزمرد (راجع المقالة ص ٨١)






لوحة من كتاب ... الهندسية ... ٣١٥

معركة سادوفا ١٨٦٦

■ ثلاثة لقاءات مع عبدالناصر ■ ابتهاج قدورة رائدة النهضة النسائية

■ الأسس العثمانية للشرق الأوسط الحديث





(رسم لبرج بابل (راجع ملف الوطن العربي ص ٤٢)

تاريخ العرب والعالم

مجلة شهرية مصورة تبحث في التاريخ العربي

السنة الثانية
العدد الخامس عشر
كانون الثاني (يناير) ١٩٨٠
صفر ١٤٠٠هـ

تصدر عن دار النشر العربية في منتصف كل شهر

رئيس التحرير : فاروق البربير
المستشار : د. أنيس صايغ

المدير المسؤول : محمد مشموشي

ص.ب : ٥٩٠٥ - بيروت ، لبنان
بناية أبو هليل - شقة ١١
شارع السادات - تلفون : ٨٠٠٧٨٣

الإعلانات
تمام : الشركة العربية لإنماء الإعلان
ص.ب : ١١/٦٨٨ - بيروت ، لبنان

الإنتاج :
مطبعة المتوسط ش.م.ل.

التوزيع :
الشركة اللبنانية لتوزيع الصحف والمطبوعات

ثمن النسخة

لبنان :	٤ ل.ل.	سوريا :	٦ ل.س
العراق :	٧٠٠ فلس	ليبيا :	٨٠٠ درهم
السعودية :	٧ ريال	الكويت :	٥٠٠ فلس
الاردن :	٥٠٠ فلس	أبوظبي :	٨ درهم
دبي :	٨ درهم	قطر :	٧ ريال
البحرين :	٧٠٠ فلس	المغرب :	٥ درهم
مسقط :	٨٠٠ بيزة	بريطانيا :	جنيه استرليني

الإشتراكات

في لبنان	٥٠ ل.ل
المؤسسات والدوائر الحكومية	١٥٠ ل.ل
في الدول العربية	٧٥ ل.ل
في أفريقيا وأوروبا	١٠٠ ل.ل
دول العالم الأخرى	١٥٠ ل.ل
المؤسسات والدوائر الحكومية في العالم العربي	٢٠٠ ل.ل

HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD

EDITED BY FARUK BARBIR
A MONTHLY ILLUSTRATED
MAGAZINE PUBLISHED FROM
SADATE ST. ABOU HLEIL
BLG. P.O.B. 5905
Tel.800783
BEIRUT, LEBANON

VOL. 11
No. 15. Jan. 1980
PRICE : 4 L.L.
ANNUAL SUBSCRIPTION :
$ 75 IN NON-ARABIC
SPEAKING COUNTRIES

في هذا العدد

● المقالات الواردة توزَّع حسب التبويب الفني للمجلة. ولا علاقة لذلك بمكانة الكاتب. مع حفظ المكانة الاجتماعية للكتاب. تراعى في الألقاب الصفات العلمية فقط.

الموضوع — الصفحة



معركة سادوفا - ١٨٦٦.
(راجع المقالة صفحة ٥٤).

● المقالات والدراسات تُرسَل باسم رئيس التحرير على عنوان المجلة: ص. ب ٥٩٠٥ في بيروت.

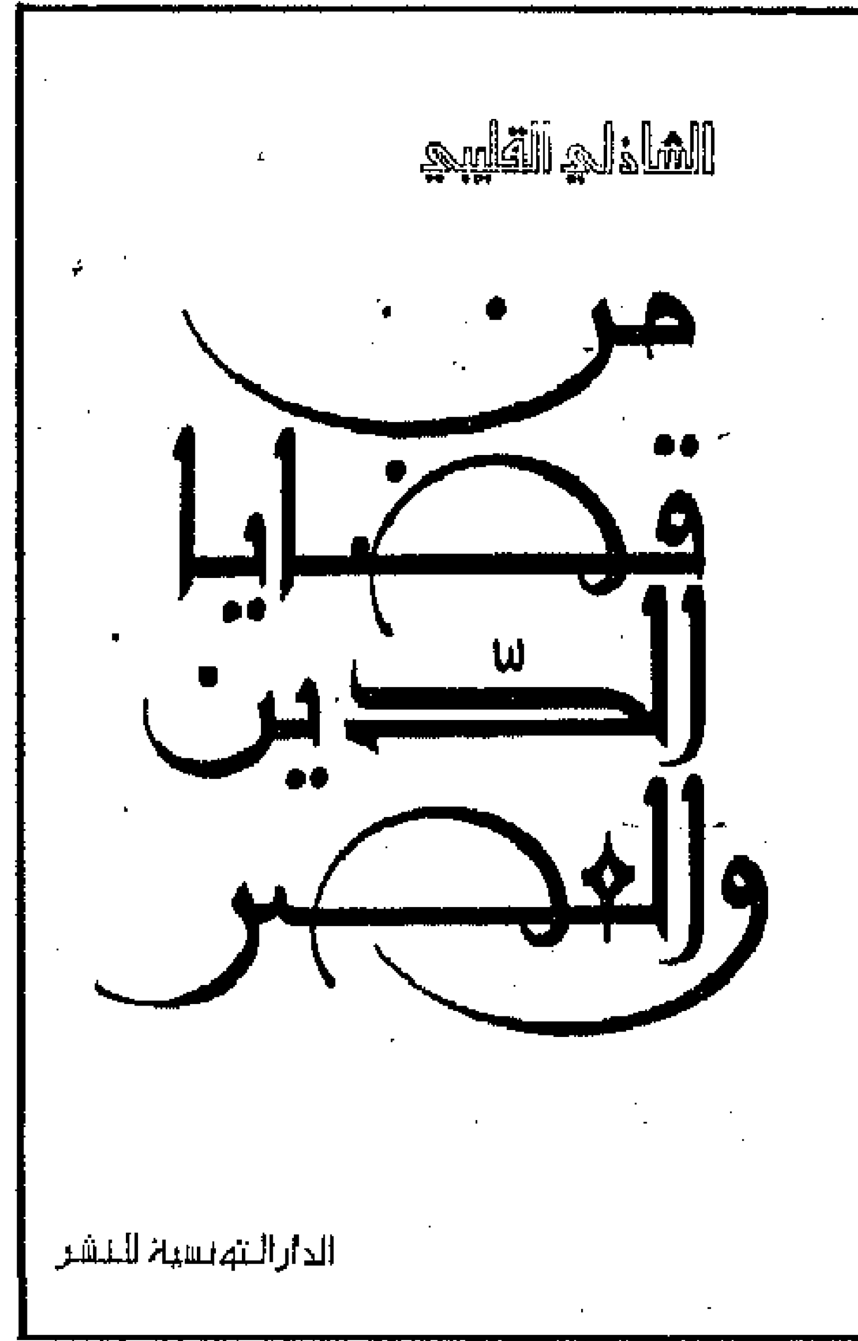
● المقالات والدراسات التي تُنشَر لا تعبِّر بالضرورة عن آراء المجلة.

● المواد الواردة إلى المجلة لا تُردّ إذا لم تُنشَر.

الإصلاح والتطور

الأستاذ الشاذلي القليبي أمين عام جامعة الدول العربية

يكتسب موضوع «الملاءمة بين القيم الاسلامية ومقتضيات العصر» أهمية قصوى في هذه المرحلة من تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، ومساهمة الأستاذ الشاذلي القليبي أمين عام جامعة الدول العربية، هي من المساهمات الحارة في هذا الموضوع. ومجلة تاريخ العرب والعالم إذ وقفت عند أهمية وحرارة هذه المساهمة يسرها أن تعيد نشر «الإصلاح والتطور» التي هي جزء من خطاب الافتتاح للندوة الإسلامية الثالثة التي التأمت بالقيروان بمناسبة الذكرى النبوية الشريفة ٦ ربيع الأول ١٣٩٧، ٢٤ شباط (فيفري) ١٩٧٧. والتي سبق ونشرت في كتاب: «قضايا الدين والعصر». عن الدار التونسية للنشر عام ١٩٧٩.





القضية الرئيسية، اليوم، بالنسبة إلى المجتمع الإسلامي، إنما تتعلق بكيفية الملاءمة بين القيم الإسلامية ومقتضيات العصر.

تلك قضية جوهرية، شاملة لكافة مظاهر حياتنا الإجتماعية، وهي، أيضاً، قضية مصيرية: لا تقتصر على حاضر المجتمع الإسلامي بل تتجه إلى مستقبله، لتستكشف آفاق تطوره، لا إصلاحه، فنحن لا نؤمن بالاصلاح، بل نؤمن بإمكان التطوير، بل بلزوم التطوير في إتجاهات معينة، لتقريب الشقة بين الدين والمجتمع.

وفي نظرنا أن أغلب المشاكل التي نعانيها اليوم ناتجة عن اتساع الفتق بين المجتمع والدين، وتغلب الاعتقاد عند الكثيرين أن في الإمكان إرساء أوضاع إجتماعية صحيحة – أي مستقرة وحية – دون لجوء إلى الدين.

وهنا لا بد من تحرير مسائل ثلاث:

الأولى انه لا يمكن الحديث عن «المجتمع الإسلامي» بالأفراد، بل نحن مضطرون إلى صيغة الجمع، لاختلاف البلدان الإسلامية، من حيث الأوضاع الإجتماعية، والثقافية، والتاريخية. لذلك فسوف نلتزم صيغة الجمع، فنتحدث عن «المجتمعات الإسلامية»، في تعدد أنماطها، وإختلاف مظاهرها.

من مواليد ١٩٢٥، بتونس العاصمة، حائز على اجازة في اللغة العربية من السوربون، درّس في المعاهد الثانوية، ومعهد الدراسات العليا حتى ١٩٥٨ ثم عين مديراً للإذاعة (١٩٥٨) ثم كاتب دولة للشؤون الثقافية والأخبار ثم وزيراً للشؤون الثقافية ووزيراً للاعلام. انتخب اميناً عاماً لجامعة الدول العربية في ٢٨ جوان – جزيران ١٩٧٨. له مؤلفات عدة وهو عضو بمجمع اللغة العربية بالقاهرة.

أما المسألة الثانية ، وهي من الأهمية بمكان ، فتخص مفهوم الإصلاح واعتقادنا أن مفهوم الإصلاح لم يعد يفي بجملة المعاني والعمليات التي نقصدها ، عندما نتحدث عن حاجة المجتمعات الإسلامية إلى تغيير أوضاعها ، والملاءمة بينها وبين تعاليم الدين ، من جهة ، وبينها وبين مقتضيات العصر ، من جهة أخرى ، معاً ودون فصل . لذلك فإن المجتمعات الإسلامية تبدو ، اليوم ، إلى النهوض الشامل والتطور الحثيث الجاد ، أحوج منها إلى الإصلاح ، مهما بلغت مكانة «الإصلاح» عند السلف ، ومهما كان في نفوسنا جميعاً ، وقعه ورنة لفظه .

أما المسألة الثالثة ، وهي الأكثر أهمية ، فهي تتعلق بكيفية اعتبار ماضي الأمة الإسلامية ، وضرورة الميز بين التعاليم الدينية وجملة الأوضاع التي كانت عليها الأمة . فبقدر ما يتحتم الرجوع إلى التعاليم – بالفهم والفقه الصحيح والتدبر – فإن الرجوع إلى الأوضاع السالفة متعذر ، لأن سنة المجتمعات التغير ، وليس من المنطق أن نروم الرجوع إلى أوضاع زالت أسبابها التاريخية وعللها الإجتماعية .

لذلك ، فإن الذي ينبغي أن نقصد اليه ، ليس هو الإصلاح الذي يعني إرادة الرجوع إلى أنماط معينة ونماذج مخصوصة ، بل هو تطوير الأوضاع الحالية ، باحتذاء التعاليم الدينية ، عندما يكون ذلك لازماً ، وبالاستيحاء من جوهر مقاصدها الأخلاقية ، وزكي نفحاتها الروحية ، فيما عدا ذلك .

ومن هذه الوجهة ، فإنه يجدر بنا أن نعتبر بناء المجتمع الإسلامي عملاً متواصلاً ، قوامه الاجتهاد البشري ، بحسب الواقع والظروف ، وطبقاً لروح الاسلام ، كما تؤخذ من سنة الرسول ، عليه الصلاة والسلام ، ومن خلال سلوك خلفائه الذين أسسوا الدولة وسنوا القوانين . بناء المجتمع الإسلامي ، إذن ، عمل مستمر ، لا ينقطع .

وأهم ما اتسم به روح الإسلام أمران : الاجتهاد الذي حرض عليه الرسول تحريضاً ، وجعله من واجبات الحكم ، وجعل فيه للحاكم الأجر ، وإن أخطأ . ومعنى الاجتهاد ، من قبل الحاكم ، يشمل كافة جوانب الحياة الإجتماعية ، بما فيها من تنظيمات ، وتشريعات ، وابتداعات ، من أجل المصلحة العامة .

أما الأمر الثاني ، فطلب العلم ، وهو ، بعد التقوى وفعل الخير ، أفضل ما يقوم به المسلم .

فإن تدبرنا المعنى الحقيقي الذي اليه يدعو الدين ، بحثه على الاجتهاد ودوام طلب العلم ، فإنا ندرك أن سنة المجتمع الإسلامي إنما هي التطور الدائب الذي لا ينقطع ؛ ولا يكون ذلك إلا بدوام اعمال الفكر وطلب المعرفة . وبذلك تأويل القاعدة المأثورة : الدين صالح لكل زمان ومكان . وفي ذلك أيضاً خير مصداق للقول المأثور : «اعمل لدنياك عمل من يعيش أبداً» ..

فإن كنا باتفاق على أن الذي تحتاج اليه المجتمعات الإسلامية إنما هو نهوض شامل بكامل طاقاتها ومختلف أوضاعها ، فإنه يمكن أن ننظر في انطلاقة الأمة الإسلامية في عهد الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، وفي عهد الخلفاء الراشدين ، والمصلحين من أولي الأمر بعدهم ؛ فنستوحي منها أسرار القوة التي بها أصبح المسلمون أمة متماسكة ، وبنوا دولة راشدة ، ومجتمعا مزدهراً .

وأهم ما كانت به قوة المسلمين الأول أن التنظيمات الإجتماعية لم تقم على أسس موضوعية – بلغت ما بلغت من الصحة والمتانة – بل أقيمت على أسس روحية ، وأعد لها في نفوس البشر قواعد ثابتة راسية ، تمكنها من الصمود أمام الأنواء وتقلب الأحوال . وبهذه الأسس الروحية نعني ما أوقده الاسلام في المهج من قيم ومبادئ ، بها كانت مناعة المجتمع الإسلامي .

ونكتفي بالإشارة إلى أهم هذه المبادئ ، وفي مقدمتها روح الكد التي ندب إليها الدين : فقد جعل أول واجبات المسلم الكد في الحصول على الرزق ؛ ونهى عن الاتكال على الغير ، أو الاعتماد على الجاه

أو النسب . ولقد بلغ الإسلام في الإشادة بالكدّ إلى أن فضله على الانقطاع إلى العبادة . وبذلك يكون المجتمع الاسلامي متجهاً بكليته إلى العمل والكد ، في سائر ميادين الحياة . وإنما تغيرت الأمور ، لما أعرض الناس عن هذا المبدأ .

ومن أركان الإسلام العدالة الإجتماعية التي تجعل المسلمين في مأمن من هضم حقوقهم المادية ، وتفرض لكل عمل أجره ، كاملاً وافياً ، فتضمن بذلك التعايش بين مختلف الفئات الإجتماعية ، على قاعدة التكامل ، صدقا وعدلاً ، مشتركة في النهوض بأعباء المجتمع ، كل فئة حسب طاقاتها .

ويزيد في تدعيم صرح هذا المجتمع الإسلامي ما يقوم عليه من تضامن إجتماعي يفرض على المجموعة العناية بضعفاء الحال ، إما بتمكينهم من وجوه طلب الرزق ، وإما بمدّ يد المساعدة ، إلى من ثبت عجزه ، بطرق شرعية ، عجزا طارئاً أو دائماً .

أما الركن الرابع الذي ضمن للإسلام الرفعة والتقدم ، فهو المساواة بين كافة المسلمين ، شعوباً وقبائل وأفراداً ، مع نبذ الفروق القائمة ، لا فقط على النسب ، بل أيضاً على العرق : فلم يفرق بين الأسود والأبيض ، كما انه لم يجعل الناس طبقات باعتبار أنسابهم . فقضى بذلك على سبب هام من أسباب البغضاء بين الأفراد ، والشحناء بين الفئات ، والعداوة بين الشعوب .

وإنما ، بالمساواة والتضامن والعدالة ، تتفادى المجتمعات انتفاضات المستضعفين في الأرض : فتضمن ، بين كافة الطبقات ومختلف الشعوب ، تواصل السعي والكد ، من أجل الرزق ، ومزيد الخير والرفاه للجميع ، دون ميز ولا ظلم .

ولئن اشتهرت هذه المفاهيم ، اليوم ، بانتسابها إلى المذاهب الملقبة بالاشتراكية ، فقد كانت ، في الحقيقة ، ومنذ البدء ، من روح الإسلام ، وعماد فلسفته الإجتماعية . ولكن سرعان ما تنكرت لها مجتمعاتنا ، ولم يعد يؤبه لها ، فتلاشت بين أيدينا ، حتى ظن البعض منا أنها من ابتكار أمم غيرنا .

وأشد ما نخافه على قادة الفكر عندنا أن ينقادوا لما تسرب إلينا ، عن طريق الثقافات الغربية ، من مركبات خفية تجعلهم يعزفون ، باسم المنطق ، عزوفاً لا شعورياً ، وبدون حجة ، عن إحلال الدين المكانة التي هو بها جدير في التنظيمات الإجتماعية .

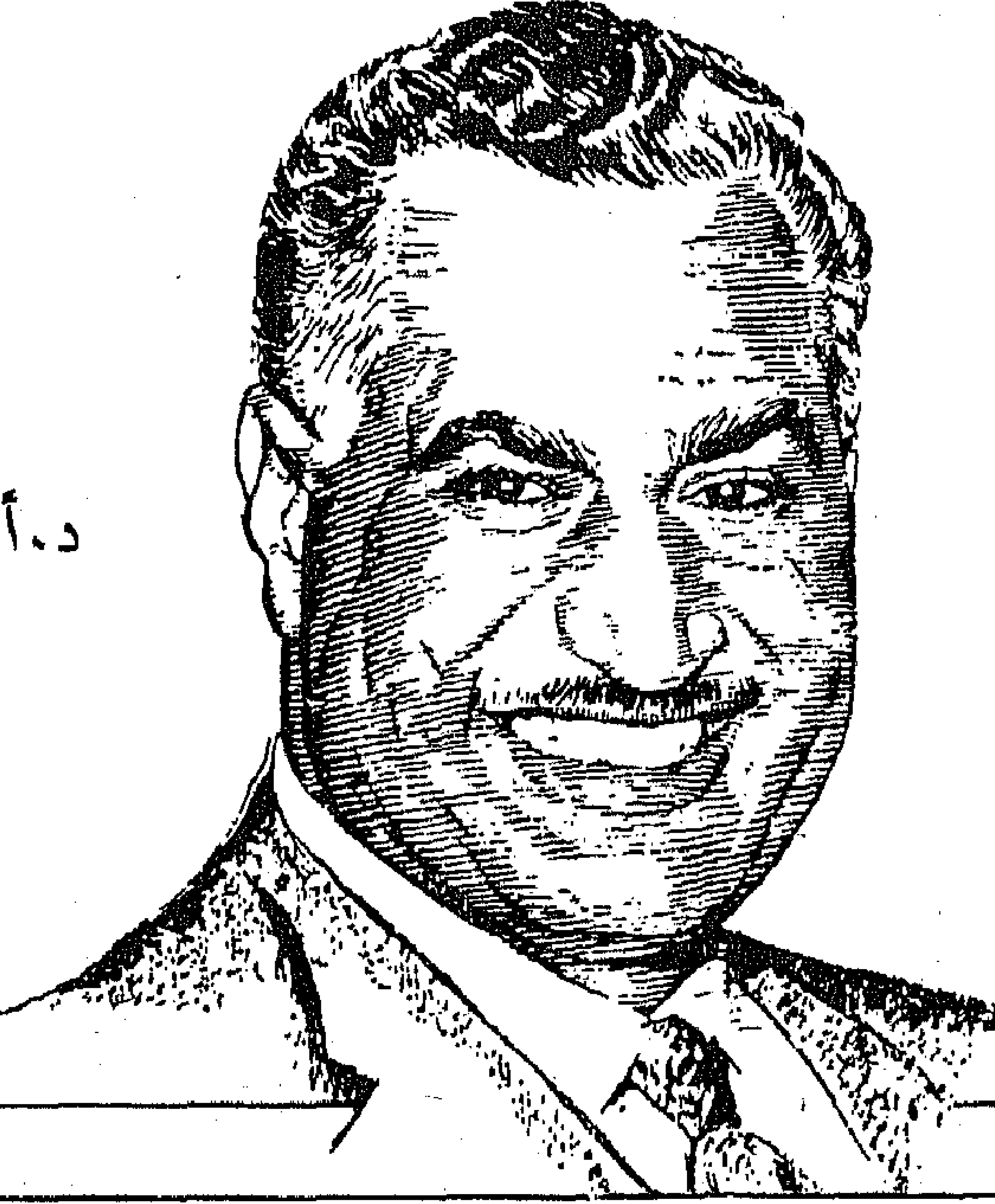
فلننظر فيما عليه البلاد التي ظنت أن لها أن تستغني عن الدين وضوابطه ، ولنتعظ بما تردت فيه من آفات العنف والفتن ، بسبب انتهاك كل الحرمات . ففي ذلك عبرة بأن البشر يفقد من انسانيته ، إذ ما فقد الايمان بسلطان أعلى يتجاوز البشر .

ولعله قد آن الأوان لإعداد العدة لمؤتمر إسلامي ، يضم ، إلى جانب فقهاء الدين ، ثلة من رجال الفكر والسياسة وعلماء الاقتصاد والإجتماع ، وذلك لضبط منوال إسلامي للتنمية : لا يتقيد بالنماذج الغربية أو الشرقية الغالبة اليوم على بلاد العالم الثالث ، بل يستنبط من واقع شعوبنا وتالد روحها مواقف وطرائق يمكن لسائر المجتمعات الإسلامية أن تجتذبها بتصرف واجتهاد ، لتحقيق التطور الإجتماعي والازدهار الاقتصادي ، دون ما طمس لتقاليدها الروحية ، ولا إغضاء من قيمها الأخلاقية ، ولا تنكر للمحيط الثقافي والحضاري الذي يكتنف شعوبنا .

ففي الإسلام ، إن نحن أحسنّا النفاذ إلى حقائقه الجوهرية ، واستجلينا ما يحمله إلى البشر من قيم وتوجيهات ، خير منطلق لمجتمعاتنا ، كي تقوى على معالجة قضايا العصر ، والظفر لها بحلول ملائمة ، بحسب اختلاف الظروف والأوضاع . ■

بمناسبة ذكرى مولد الرئيس جمال عبد الناصر (١٦ك٢ - يناير- ١٩١٨)، هذه المذكريات الخاصة، يسجلها الدكتور أنيس صايغ، لتضيء جوانب في شخصية الرئيس قلّ من يعرفها.

ثلاثة لقاءات مع عبد الناصر



د. أنيس صايغ

الحديث عن جمال عبد الناصر، أي حديث، لا يمكن أن يتحرر من بعض العاطفة تحرراً كاملاً، وخاصة بالنسبة إلى كاتب رأى في عبد الناصر مُعلماً (بضم الميم وفتح العين) ومَعْلماً (بفتح الميم وتسكين العين)، ولم يكن مجرد قائد لمسيرة وزعيم لأمة.

والحديث ذكريات عن ثلاثة لقاءات مع الرجل الكبير، يعود اقدمها إلى ربع قرن من الزمان (١٩٥٤)، وثانيها بعده بتسع سنوات (١٩٦٣) وآخرها بعد ذلك بست سنوات (١٩٦٩).

وكانت كلها لقاءات خاصة وبسيطة وعادية، بين قائد الأمة وبين مواطن لا يمثل إلا نفسه ولا يحمل مسؤولية رسمية في أي قطر عربي، ويدور فيها الحديث عفوياً متحرراً من الرسميات والبرامج، ويتشعب الكلام إلى حيث يشاء صاحباه، ويطول بمقدار رغبة القائد، بحيث بلغ مجموع الجلسات حوالي عشر ساعات، إمتدت بين ساعات الليل المتأخرة وساعات الفجر المبكرة، ولا يحدد موعدها إلا قبل وقت قصير. ولم يقصد لأي حديث منها أن يكون للنشر. ولم يكن فيها محاضر ولا أشرطة ولا تدوين من أي نوع كان.

كان ضيف عبد الناصر في اللقاء الأول كاتباً ناشئاً، حديث التخرج من الجامعة، يعد أول بحث تاريخي له، في العلاقات السورية المصرية عبر التاريخ، يرغب في التعرف على آراء عبد الناصر، الجديد في تحمل مسؤوليات مصر والعرب، في هذه العلاقات، وفي سياسة مصر العربية بوجه عام.

وكان الضيف، في اللقاء الثاني، استاذاً في

إحدى أكبر جامعات العالم (كمبردج) وقد صدرت له عدة دراسات ، أطلع عبد الناصر على بعضها وأبدى الكثير من الملاحظات وعبر عن اهتمامه بها ، وخاصة ما كان يتعلق بالقومية العربية عموماً وبالفكرة العربية في مصر خصوصاً . وقد رغب الكاتب أن يلمس عن كثب أثر الانفصال في تفكير القائد الكبير.

أما في اللقاء الثالث فقد كان الضيف مديراً لمركز أبحاث المقاومة الفلسطينية ، متفرغاً لفكر المقاومة وللجانب البحثي من نشاطاتها وهو عمل اثار اهتمام الرئيس العربي وتابعه عدة سنوات متابعة حميمة ، وكانت له ملاحظات وارشادات ، وتوجيهات وطلبات ، ولا أعلن سراً إذا قلت الآن . وبعد سنوات من التخلي عن تلك المسؤولية ، انه لا يكاد يوجد مسؤول فلسطيني واحد عني بإنتاج المركز عناية جمال عبد الناصر (ربما باستثناءات قليلة في مقدمتها الأخ أبو عمار والأستاذ الشقيري) .

وتشاء الصدف أن يتم كل من تلك اللقاءات في أعقاب صدمة كبيرة للقيادة الناصرية : مشكلة تحديد سياسة الحكم الداخلي في مصر (مع جماعة محمد نجيب) ١٩٥٤ ، ومشكلة الانفصال (١٩٦٠) ونكسة ١٩٦٧ . لكن الصدفة الحقيقية هي أن كل لقاء إنما تم في ظروف عصيبة مرت بها القيادة وشغلت بالها بشكل مباشر. فقد جرى اللقاء الأول بعد ساعات من صدور أوامر الرئيس باعتقال الصحافي إحسان عبد القدوس ، المحسوب حتى ذلك الحين على عبد الناصر ، لنشاطات غير صحافية قام بها ضد القائد . وجرى اللقاء الثاني يوم فشل الحركة العسكرية في سورية وهرب ضباطها الموالين للناصرية إلى مصر (تموز/يوليو ١٩٦٣) وهي حركة اهتم لها الرئيس المصري وتتبع خطواتها لحظة فلحظة . أما اللقاء الثالث فقد جرى ليلة العدوان الاسرائيلي على مطار بيروت في الساعات الأخيرة من العام ١٩٦٩ .

وبالرغم من هذه الخلفية المزعجة كان الرئيس العربي الكبير هادئاً كل الهدوء في الجلسات الثلاث ، وكأن لا مشاكل داخلية ولا عدوانات ولا نكسات . ولعل هذه هي واحدة من أهم صفات الرجل : هدوء الأعصاب ، والثبات أمام المشاكل والأزمات . لقد عرف الغرب أكثر من مسؤول سياسي أو عسكري ، يواجه المشاكل (والانهزامات ، والانكسارات أحياناً)


الرئيس عبد الناصر يحيي الجماهير .

بالالتهاء المؤقت بممارسة هواية بعيدة جداً عن جو السياسة والحرب (لعب التنس، أو العزف على البيانو، أو قيادة السيارات أو اليخوت).

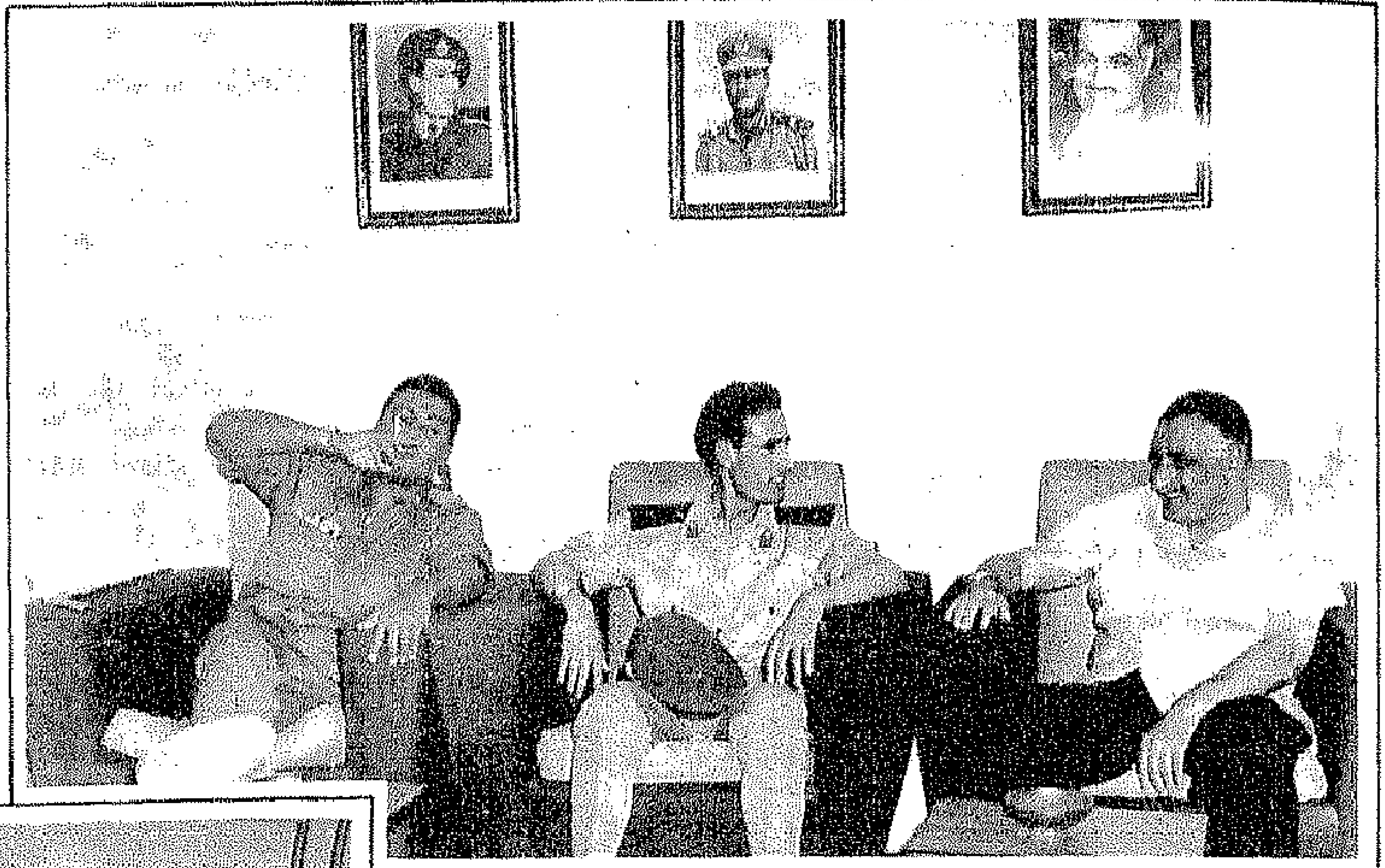
لكننا اعتدنا، في وطننا العربي وفي تاريخنا القديم والحديث، على نوع آخر من تصرفات المسؤولين في مواجهة الأحداث الخطيرة، أقلها وأبسطها التوتر والتشنج والاضطراب وفقدان السيطرة على الاعصاب. إلا جمال عبد الناصر. لقد شهدت بعيني وفي ثلاث مناسبات، الارادة الحديدية والأعصاب الفولاذية والنفس المرتاحة. وكان حديثه في الجلسات الثلاث حديث استاذ الجامعة مع مريديه: يسأل ويجيب، ويعقب ويعلق، وكان لا هم له ولا غرض إلا في حدود الجلسة نفسها بعيداً عن أي أجواء عاصفة خارج قاعة الإجتماع. وكأني به كان يعتبر الحديث الثقافي رياضة يمارسها في الأزمات لتنقية الفكر وإراحة الأعصاب والتهيؤ لمواجهة المصاعب من جديد في اليوم التالي.

اشتهر عن عبد الناصر انه يعرف الكثير. وقد ساهم في هذه المعرفة الشاملة والواسعة خلفية مهنية (كأستاذ سابق في الكلية الحربية) ومكتب خاص يزوده يومياً بالقصاصات والترجمات والتعليقات. لكن الفضل الأساسي انما يعود إلى رغبة الرجل، بل نهمه، في المطالعة: المطالعة المركزة والمبرمجة والهادفة إلى المزيد من الثقافتين النظرية والعملية.

ومن هنا نشأ عنده حب الاستفسار. إنه كالطفل الملحاح الذي يريد أن يعرف كل شيء. يسأل بلا حرج. يسأل عن كل موضوع، ولا يقنع بالجواب بل يواصل التساؤل إلى أن تستفيض في الرد وتشفي غليله. ويخيل اليك أحياناً انه يعرف الجواب ولكنه يريد أن يتأكد من صحة الجواب أو من صحة معرفته للجواب. ويكاد ينسيك انه هو المعلم وانت الدارس، وأن رأيه هو المطلوب وليس رأيك أنت. لكنه لا يجامل. ولا يسكت عن الرأي غير المقنع أو غير الشافي. بل يعارض وينتقد بشدة وبصراحة تصل أحياناً إلى حد التعنيف، أو ما قد يبدو وكأنه تعنيف وهو على أي حال تعنيف «أبوي» ارشادي أشبه بملاحظات الأستاذ لمريديه.

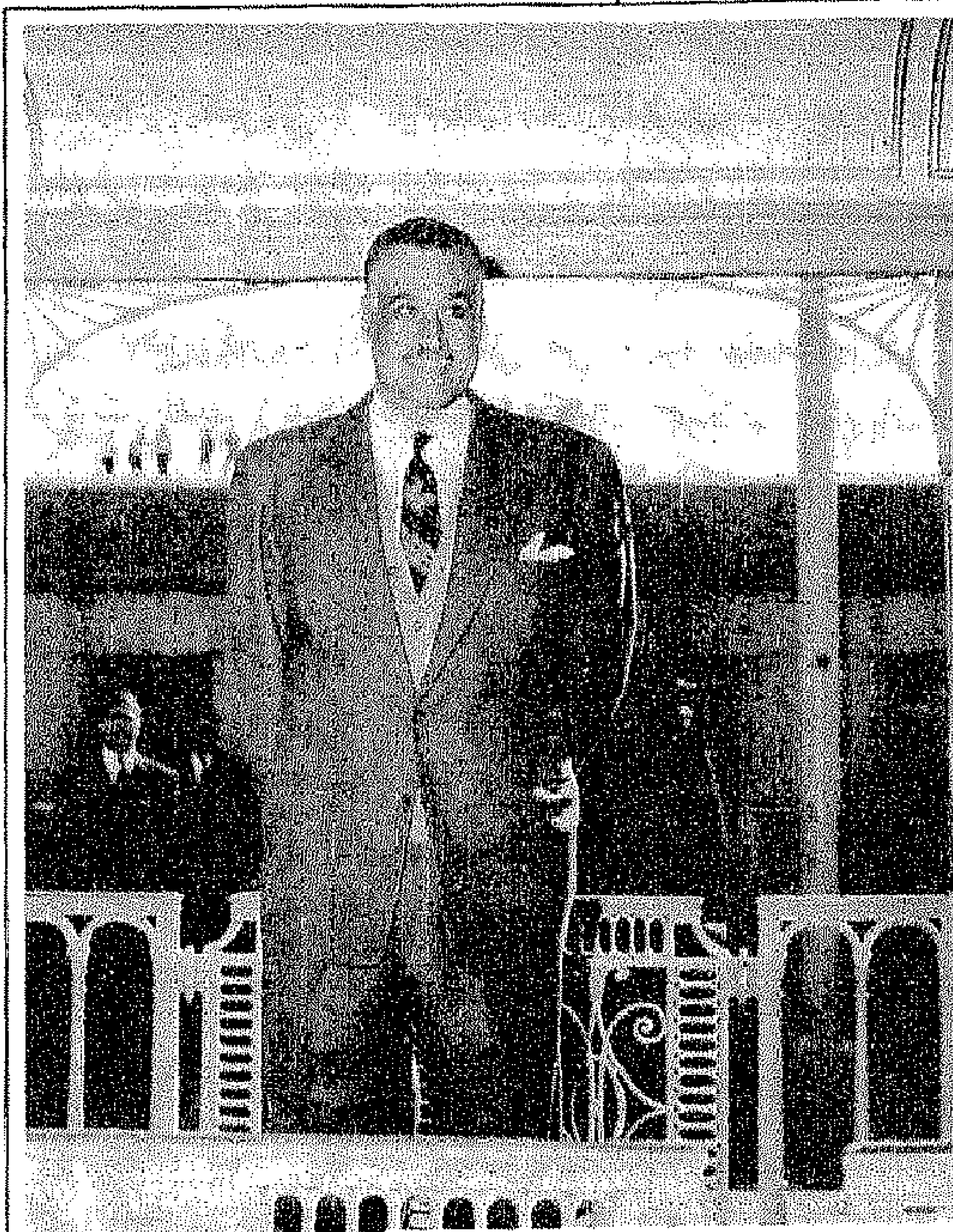
يفاجئك، أول الجلسة، بانه يعرف عنك، وعن خلفياتك السياسية والفكرية (بل والخاصة والعائلية أحياناً). فترتاح بمقدار ما تُشدَه وأنت تسائل نفسك السؤال المزدوج: كيف له أن يعرف كل هذه التفاصيل عنك، وهل أنت مهم عنده إلى هذا الحد حتى يعرف كل التفاصيل، ويزداد تساؤلك إلحاحاً عليك وخدة، وانت تجلس قبالته، إذا كنت أنت (كما كنت أنا) مواطناً عادياً، وليس مسؤولاً في دولة أو حزب، ولا تمثل جماعة رسمية، مجرد رجل فكر يرغب في الاطلاع على أفكار زعيم الأمة.

أنت مؤلف، تدرس العلاقات السياسية والتاريخية بين بعض الأقطار العربية، إذن فهو محدث لبق في التأليف وفي هموم البحث وجمع المعلومات واستخراج النتائج، وفي الروابط المختلفة بين أقطار الوطن العربي، قديمها وحديثها، على مختلف الاصعدة (من اقتصادية وثقافية ونفسية وسياسية وجغرافية). أو أنت استاذ في جامعة أجنبية، تود الاستفسار عن رأي الزعيم بعروبة مصر. اذن فهو حريص على بيان الفوارق بين الجامعات العربية والجامعات الأجنبية، وكيف يمكن للأولى أن تستفيد من تجارب الثانية ونظمها وأساليبها. كما أنه مهتم بمعرفة دور الأساتذة العرب هناك، وكيف يمكن الافادة منهم تربوياً واعلامياً. وفي الوقت نفسه لا يدع لك مجالاً للشك بعمق وشمول ايمانه الكامل والتام بعروبة مصر، ذلك الأيمان الذي لا يمكن أن يزعزعه انفصال ولا يهزه طعن من الخلف. فعروبة مصر عند جمال عبد الناصر حقيقة راسخة وليست مجرد قرار سياسي. وهي واقع وليست مادة للاستفتاء والتأرجح بين القبول والرفض. وهي مصير محتوم وليست وليدة ظروف آنية معينة. أو أنت مسؤول أبحاث وموجه فكري، اذن فهو يتعاطى معك شؤون البحث وشجونه، وكأنكما تعملان في مؤسسة فكرية واحدة. ولا يهمه، مثلما لا يهمك، آنذاك، الانغماس في التفاصيل والعلاقات السياسية والحزبية بين جماعة وأخرى، بقدر ما يهمه، الكلام عن مصادر البحوث، وكيف يمكن تعزيزها، وكيف يمكن الحصول على مواد أكبر للمعلومات عن العدو الاسرائيلي بأسرع وقت، أو كيف يمكن ترجمة الصحف العبرية، أو رصد الاذاعة الاسرائيلية،



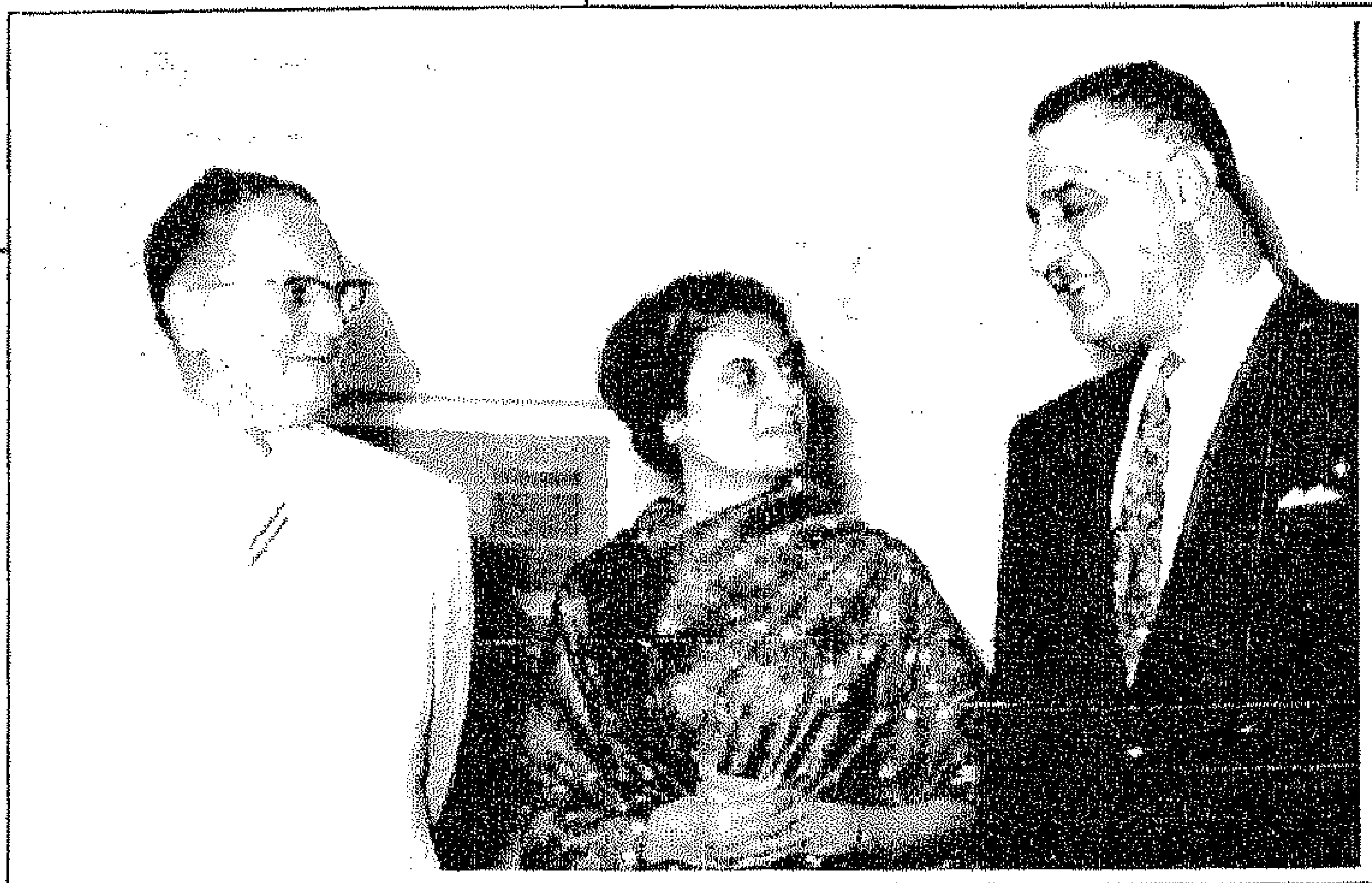
الرئيس عبد الناصر وإلى جانبه الرئيسان قذافي ونميري .

الرئيس عبد الناصر في قطاره الخاص



بأفضل السبل . وحينما يتطرق الحديث إلى موضوع الاعلام العربي ، بحكم عملك واهتماماتك ، تراه خبيراً بالاعلام وكأنه يتعاطاه من مواقع مباشرة ، خبرة أشك أن بين اعلامي جامعة الدول العربية والأقطار العربية كلها من يجاريه فيها .

بعد هذا كله ، لا يهمه ان تعرف انه يعرف . بل يهمه أن يعرف ما أنت تعرف ولا يعرف هو ، أو أن يعرف ما لا يتأكد منه تمام التأكد . لهذا الغرض يجادلك ويناقشك مطولاً ، وتمضي عقارب الساعة ، وينطوي الليل ويطلع الفجر وأنت تجلس أمامه تستمع له ويستمع لك . وتكاد تنسى ، في غمرة الحديث الشجي ، انك تسرق ساعات أكبر مسؤول عربي ، وواحد من أكبر مسؤولي العالم ، وأن الرجل



دلهي الجديدة : ١٩٦٦/١٠/٢١ . في مؤتمر القمة : الرئيس عبد الناصر والسيدة نهرو في حفل استقبال دعا إليه الرئيس تيتو .

الذي «تتفلسف» أمامه إنما هو نفسه الذي يقلق العالم ويخيفه ويشغل بال سياسييه ومفكريه ومخبريه بافعاله وبنواياه وبأفكاره.

وعندما تخرج من عند الرجل، بعد كل واحدة من تلك الجلسات الطوال، تحتار أين تصنف جمال عبد الناصر، في خانة التواضع أو الكبرياء، بينما لا تحتار أبداً في تصنيفه بأي صفة أخرى. فاذا كان الحكم عليه يتعلق بالشجاعة، أو المعرفة، أو الصدق، أو القوة، أو غير ذلك من الصفات، الأمر معروف ومبتوت فيه ولا يحتاج إلى تفكير لاعطاء الجواب.

ذلك أن تواضع العلماء يبدو في جلوسه معك، ونقاشه الطويل، واستقباله اللطيف، ووجهه البشوش، وملاحظاته التشجيعية، وشكره المستمر لك على عملك وإنتاجك وكأنك صاحب فضل عليه.

لكن كبرياء الأسد تطل من عينيه وتلمحها في حركات يديه (يدان طويلتان وكفان سميكان يتناسبان مع قامته) وفي نبرات صوته (وهو أكثر حناناً في الجلسات الخاصة منه في اللقاءات الجماهيرية من وراء المايكروفون). انه معلم وهو يعرف انه كذلك. انه سيد الموقف. انه الزعيم في أي حفل أو مجموعة أو جماعة. لا أتصور جمال عبد الناصر كان يصلح لأن يكون الرجل الثاني، نائب الرئيس، في أي مكان أو عمل أو نظام، لقد خلق ليكون الرجل الأول، بل المسؤول الوحيد. صفاته اعطته هذه الأهلية. وقد عرف هو ذلك واستغله إلى أبعد الحدود. فكان، منذ ربع قرن على الأقل، الرجل الأول والمسؤول الوحيد على المستوى القومي العربي، مثلما كان كذلك وقبل عدة سنوات، على مستوى التنظيم العسكري السري. ولعل في هذا بعض التفسير لخلو المكان بعده، وللفراغ الذي شعرنا ولا نزال نشعر به في أكثر من مجال. وليفهم القارئ كلامي وليتأكد منه ما عليه إلا أن يتأمل ملياً في صورة من مئات الصور التاريخية له وهو يقابل كبار رجالات العالم وعمالقة البشرية في زمانه، في السياسة أو الحرب أو الفكر.

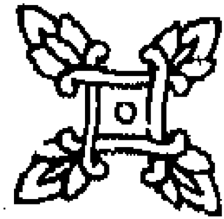
يتغنى الاميركيون، وخاصة علماء السياسة والإجتماع والنفس من أساتذة الجامعات، في وصف وتحديد الصفات المحببة للجماهير التي تجعل انساناً ما زعيماً جماهيرياً محبوباً في بلد ما في زمان ما. وهي ذات قوة مغناطيسية تجذب الناس، كل الناس، إلى رجل معين يدينون له بالولاء والطاعة ويسيرون وراءه باحترام ومحبة ورهبة وقبول. ويسرد لك العلماء اسماء العشرات من هؤلاء الزعماء وجلهم من قادة الدول، الذين وصلوا إلى سدة الحكم بالانتخاب الحر أو بالبطش والعنف.

لكن جمال عبد الناصر تفوق على هؤلاء جميعاً. فهو لم يجذب الجماهير فحسب، ولم يجمع حوله رعاياه في مصر فقط. لقد لفت زعامته الوطن العربي بأسره. وجذبت شخصيته جماهير العالمين الإسلامي والثالث، وفرض احترامه حتى على الشعوب التي يناصبه قادتها العداء.

لقد كانت له القدرة على تحريك مشاعرك، وعلى اقناعك واستمالتك. بشكل عفوي وطبيعي بعيد جداً عن التكلف، أكثر من أي زعيم سياسي أو غير سياسي عرفناه في عصرنا هذا.

ولعل هذه القدرة كانت تتجلى في لقاءاته الخاصة وجلساته الحميمة أكثر منها في الاحتفالات العامة والمهرجانات الواسعة حيث يلعب التخطيط والتصوير والانارة والمايكروفون دوراً اصطناعياً إلى حد ما. والدليل على صحة زعمي هو أن انطباعات رجال الثقافة والعلم والفكر عنه، بعد مقابلاته الهادئة والشخصية لهم، لم تكن بأقل إيجابية من انقياد الجماهير والقواعد الشعبية العريضة في أعقاب مهرجان حافل.

ليس غريباً، بعد هذا، انه ما من رجل واحد حرك العرب، أمة وتاريخاً، مثلما فعل جمال عبد الناصر. ■



– أن الحق بغير قوة ضائع .. وإن أمل السلام بغير إمكانية الدفاع عنه إستسلام ...

«جمال عبد الناصر»

السَيّدة ابتهاج قدّورَة
رائدة النهضة النسائية
في القرن العشرين



د. فائزة علي سعد الدين

لا بـد لمن يؤرخ للنهضة النسائيـة المعـاصرة من أن يرتـدّ إلى حيـاة الرائـدات اللاتي حملن المشاعـل في حالك العصر لينرن بها المسار. ومن أعلام المناضلات صاحبات السبق في بعث يقظة المرأة العربية إلى حقوقها وواجباتها: منجبة، ومنتجة، ومواطنة، الزعيمة الرائدة السيدة «ابتهاج قدورة» التي وإن تحفّى النصف الأول من القرن العشرين بسيدات بعثن وعي المرأة العربية إلى حقوقها وواجباتها لكنها كانت أبعدهن أثراً، وأبقاهن ذكراً في حياة المجتمع النسائي حتى أنها لتعتبر بجدارة ممثلة لتاريخ النهضة النسوية المعاصرة في لبنان، وفي شرقنا العربي، بل عالمياً. وقد قال بحقها فريد جبران:

«ابتهاج مفخرة السيدات ظهرت في طليعة النهضة النسائية فتاة جميلة الخلْق والخُلُق تحمل رسالة سامية»[١]. وأكّد زعامتها اللبنانية والعربية رئيس مجلس الوزراء اللبناني الحاج (حسين العويني) بقوله: «فهي بحق تدعى زعيمة لبنان والبلاد العربية»[٢]. وثنت على ذلك الأديبة السيدة (عنبرة سلام الخالدي) إذ تقول: «أصبحت السيدة ابتهاج قدورة مؤسسة ضخمة علتْ في لبنان فتطلعت إليها أنظار المرأة في جميع الأقطار العربية[٣]». وأقرت فيمن أقروا بعافيتها كل من الأديبة اللبنانية المهجرية المعروفة السيدة «سلمى صايغ»، والسيدة «أمينة السعيد» صاحبة مجلة «حواء»، ورئيسة تحرير «دار الهلال» حالياً، فتقول السيدة سلمى صايغ ما يلي: «إذا ما خطر في بال أحدٍ أن يحصى ستات الستات في الدنيا فالسيدة ابتهاج قدورة دون ريبة إحداهن»[٤]. وتقول السيدة أمينة السعيد «إن السيدة ابتهاج قدورة غنية عن التعريف في العالم العربي بل وفي المجتمع النسائي المستنير»[٥].

ولما كان من يتابع سيرة «ابتهاج قدورة» يجد فيها مؤسسة ضخمة، وسجلاً حافلاً لتاريخ الحركات النسائية وتطوراتها بحيث يعسر تقديرها قدرها في حدود مقالنا هذا دون الوقوع في مخاطر النظرة الجريئة التي تشوه الحقائق عادة، وتحول دون إدراكها على ما هي عليه، لذلك سنقدم للقارئ منظوراً عاماً حول نضال الزعيمة «ابتهاج قدورة» بحصر الحديث في اطار المنهج التالي:

١ – مولد ابتهاج ونشأتها وثقافتها.

٢ – لمحة موجزة حول الجو العام يأتي على الوجه التالي:

(أ) ما قبل «ابتهاج».

(٭) د. فائزة علي سعد الدين (رمضان).
– بكالوريس في التربية (الولايات المتحدة الأميركية) بدرجة تفوق. ماجستير في التربية (جامعة عين شمس) بدرجة تفوق.
– دكتوراه فلسفة في التربية – مناهج وطرق تدريس. – توجه خاص نحو تربية المرأة وتنمية البيئة والبحث العلمي.

(ب) ما حول «ابتهاج».

٣ – لقطات من نضال «ابتهاج» الاجتماعي .

٤ – لقطات من نضال «ابتهاج» السياسي تأتي على الوجه التالي :

(أ) نضالها من أجل نيل المرأة حقوقها السياسية والمدنية كاملة..

(ب) نضالها الوطني.

٥ – وفاتها.

١ – مولدها ونشأتها وثقافتها :

ولدت الزعيمة اللبنانية في بيروت عام ١٨٩٣م[٦] . إبان السيطرة العثمانية ، وتقاسم الفضل في ظهور هذه الزعيمة الرائدة أبوان كريمان : فوالدها البيروتي الدكتور «أديب قدورة» أول طبيب مسلم في مدينة بيروت – في حدود اطلاعنا – ، تخرّج عام ١٨٨١م من الكلية السورية الانجيلية (الجامعة الأميريكية» في وقت كان الطب يعتمد في الغالب على الحلاقين والحجامين ، وحصل عام ١٨٨٢م على معادلة كولوكيوم في هذه الشهادة من كلية الطب في القسطنطينية وفقاً للإجراءات القانونية المتبعة آنذاك[٧] . أما والدتها فسيدة دمشقية من أسرة (الأيبش) والمعدودة من فضليات زمنها[٨] .

والسيدة «ابتهاج» أخت لخمسة أولاد هم: فريدة ، ونادرة التي توفيت في ريعان الصبا ، والصيدلي مصطفى مؤسس صيدلية قدورة المعروفة على (السور) (وهو السور القديم لمدينة بيروت) منذ عام ١٩٠٠م وذلك بعد دراسته في الجامعة اليسوعية ، ثم في استنبول ، والدكتور حليم الذي تخرّج من الجامعة اليسوعية ثم باريس والذي أصبح نائباً في المجلس التمثيلي اللبناني لمدة دورتين ، والدكتور نادر قدورة خريج الجامعة الأميريكية وباريس والمانيا وطبيب الأشعة المعروف في البلاد العربية آنذاك[٩] .

وهكذا يتضح لنا مما سبق ذكره في الفقرتين السابقتين أن فطرة «ابتهاج» ومواهبها الفذة النابهة تغذت في رحاب مدرستها الأولى ، بيتها العامر بالمجد والعلم ، أما مدرستها الثانية فهي مدرسة الأمريكان للبنات التي دخلتها منذ الصف الأول الابتدائي وأتمت جميع صفوفها ، ونالت على طراوة عمرها ورصانة



السيدة ابتهاج قدورة عند تخرجها من كلية الامريكان وهي لم تتجاوز السادسة عشرة من العمر.

سلوكها شهادتها النهائية عام ١٩٠٩م[١٠] بتفوق مرموق أنزلها منزلة شرف فكانت خطيبة حفلة التخرج حيث ألقت كلمتها حول «دور المرأة في الهيئة الاجتماعية» رأى فيها رئيف أبو اللمع افتتاحها لمعركة السير بخطى ثابتة نحو التجديد المتزن في حياة المرأة[١] .

وتشوقت السيدة ابتهاج إلى آفاق أبعد من الكلية الأميريكية فقلبت نظرها فيما يحيط بها ووقفت على مفترق الطرق تفكر في وسيلة تنمي ثقافتها ، وتقيض لها دراسة أعلى لتكون إحدى الفرادى الموهوبات المتسللات إلى الدراسة الجامعية ، لكن الأوضاع العامة آنذاك لم تكن مستعدة لفتح مثل هذا الباب أمامها فعكفت على مكتبة والدها تعلّ منها وتنهل في السرّ والعلن ، وتنشر مقالات في الصحف تحت أسماء مستعارة تودعها ما فاضت قريحتها وأحاسيسها وتطلعاتها. لكن طموحها وتعطشها للمعرفة لم يقفا بها عند هذا الحد بل حملاها على متابعة دراستها في بيتها نهمة ظمأى على يد أخصائيين ، فتفقهت بأمور الدين والدنيا ، وأجادت ثلاث لغات قراءة وكتابة وحديثاً وخطابة وهذه اللغات هي العربية والانكليزية والفرنسية[١٢] خاطبت بها أفذاذ السياسة وجهاً لوجه ، وجرى قلمها الأدبي على مختلف المواضيع والخطب


دولة الرئيس الحاج حسين العويني في حفلة تكريم السيدة ابتهاج قدورة التي اقامتها رابطة الجمعيات النسائية الخيرية الاسلامية لاحياء ببروت عام ١٩٦٤م.

السياسية والقومية والاجتماعية والتربوية والأدبية والاقتصادية كما سيتضح في حديثنا اللاحق ولمن أراد الاستفاضة في ذلك فيمكنه الرجوع إلى مقالاتها في المؤتمرات المختلفة المحلية والعربية والعالمية[١٣].

ومما يجدر ذكره أنه بالرغم مما أعطته الرائدة ابتهاج من قلبها وعاطفتها وصحتها ووقتها للعمل الاجتماعي وللنضال السياسي فقد بقيت سيدة بيت من الطراز الأول تتقن الحديث والاستقبال والخياطة والتطريز، وتنسيق الزهور والعزف على البيانو، وتمثل الذوق الرفيع في المآكل والملبس، كما اتصفت بحضور النكتة وسرعة البديهة وهدوء الطبع ورقة الألفاظ، والتضحيات والعطاء في سبيل أسرتها والسهر بجانب سرير أمها أو أحد أفراد عائلتها[١٤] وفي ذلك تقول الأديبة اللبنانية سلمى صايغ عضو العصبة الأندلسية في المهجر ما يلي:

«وهذه بهجة الساعات والأيام ابتهاج قدورة الصورة الحية لبر البنات بأماتهن، إنها مخطوبة مذ سمعتْ بأسمها أذني إلى سرير أم مريضة، هي ذي تطل بذلك الاطلاع الواسع، والديبلوماسية الفذة، والتهذيب الرفيع، وذلك التحليق العالي الصحيح فوق ما نسميه التعصب الديني، وما يلابسه من حفيظة وضغينة وتدجيل»[١٥].

٢ – الجو العام:

إن الزمن وأحداثه أمران بالغا الأهمية في رسم إطار نضال الزعيمة ابتهاج لذلك سنتعرف على الجو العام بايجازنا لوضع المرأة العربية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وبذكرنا للأحداث الهامة التي عاصرتها الرائدة ابتهاج.

(أ) ماذا كان وراء ابتهاج:

عرف القرن التاسع عشر بعصر انحطاط المرأة ومواتها والحكم عليها بالشلل المصطنع، وقد بدأ تعليم الفتاة في بلاد الشام – بوجه عام – في منتصف القرن التاسع عشر بمباشرة الإرساليات الأجنبية غالباً، الأمر الذي أيقظ وعي السوريين في الساحل والداخل إلى افتتاح مدارس خاصة بالذكور وأخرى خاصة بالإناث، وكان من نتاج ذلك تأسيس جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية عام ١٨٧٨م، ثم توالى بعدها إنشاء المدارس الوطنية والأجنبية التي التحقت بها بنات الصفوة في المجتمع، علماً بأنه لا عبرة بواحدة من

ألف تعلمت، لكن لا مندوحة لنا عن القول أن هذه المدارس كانت سبباً في نهضة نسائية مرموقة في مطلع القرن العشرين كما ساهم في إيقاظ وعي الفئة التي تعلمتْ أقلام العناصر الأدبية والسياسية المناصرة للمرأة سواءً أكانت مجددة أو محافظة[16]، وكذلك جهود النساء العربيات اللاتي خدمن العلم والأدب تأليفاً وترجمة[17]. ورغم كل ذلك كانت المرأة إجمالاً تعيش في عزلة تامة عن العالم ثقافياً واجتماعياً وقانونياً تجهل انسانيتها جهلاً مطبقاً، والنظرة السائدة إليها يمثلها المثل الدارج «المرأة ناقة ولو هددت»[18]. حتى ان الصحافة لم تجرؤ آنذاك وبعد ذاك على كسر طوق التقاليد وذكر جهود المرأة بدليل ما نقرأه من خلال سطور المقتطف التالي للأديب نصير المرأة جرجي نقولا باز حيث يدعو في إحدى الصحف الصادرة في مطلع القرن العشرين الصحافة إلى أخذ دورها الملائم بالنسبة للمرأة في نشر وترديد خطابات الأديبات المعروفات دون ذكر لأسمائهن ومن بينها الزعيمة ابتهاج على ما أعتقد إذ يقول:

«وفي الأمس كانت حفلة جمعية الأمور الخيرية للبنات المسلمات في ناديها المؤسس منذ عامين، وهي ذات مدرسة ابتدائية سيكون لها شأن إن دامت الهمة مبذولة فيها ودام التقدم رائدها والاخلاص والتحرر باعثين عليها فتشرفت آذان مدعويها بأحاديث فتة مستنيرة منها أديبتان معروفتان، ولا أدري من يردد حديثهم من معشر الصحفيين. [19]».

إن مسببات تخلف المرأة كثيرة نسوق مثلاً منها: التخلف الحضاري الذي أصاب المنطقة العربية طوال عهود الاستعمار، ورجعية بعض الأفكار التي احتفظت بنفوذها القوي على الجماعة خاصة في الأرياف والمناطق الزراعية، والانحطاط الفكري الذي ألقى بظلاله على المفاهيم الروحية وأخرجها عن روح المعاني التي وجدت من أجلها[20]، هذا مع العلم أن الدين سبق جميع الحركات الاصلاحية في العالم في تحرير المرأة وتمكينها من اداء وظيفتها في المجتمع دون عوائق، يضاف إلى الأسباب السابقة رضاء جميع الديمقراطيات في العالم عن استئثار الرجل بالسلطة وانفراده بها. [21]

ومهما تكن المسببات فالتوسع في إحداث المدارس، وأقلام أنصار المرأة المجددين منهم والمحافظين، وأقلام الشعراء والسياسيين والأدباء أدت


دولة الرئيس عبد الله اليافي في منزل السيدة ابتهاج قدورة يقلدها وسام الاستحقاق في حفل من السيدات تقديراً لنضالها.

إلى حركة نسائية مرموقة تشبه الطفرة بالقياس إلى ما كان يسود وضع المرأة آنذاك والنظرة إليها، وفيما يتصل بأوضاعها وشؤونها من قوانين أو مواصفات أو أعراف، وقد مهدت هذه الطفرة لرائدتنا وواجهتها ومعاصراتها المناضلات من السيدات بمصاعب نشطن إلى تذليلها.

(ب) وماذا كان حول ابتهاج؟

تأثرت حركة النهضة النسائية في لبنان في ازدهارها وركودها بالأحداث السياسية والاجتماعية المحلية العربية والعالمية، ومن أهم هذه الأحداث التي أخذت مجراها في القرن العشرين، وعاصرتها الزعيمة ابتهاج وتأثرت في نضالها بمدها وجزرها أحداث كالتالية: تأسيس جمعية تركيا الفتاة ولجنتها التنفيذية «الاتحاد والترقي» التي عمدت إلى تتريك العناصر في البلاد عن طريق المرأة بالذات، كما دعت إلى الطورانية، وفوقية العنصر التركي الأمر الذي أذكى الشعور القومي بشكل غير مباشر، وأزّم الحالة السياسية في الداخل وأدى إلى انقلاب النوادي والجمعيات الأدبية المؤسسة قبل إعلان الدستور العثماني عام ١٩٠٨م إلى نوادٍ وجمعيات سياسية علنية وسرية مثل جمعية الفنون والعلوم، العلمية السورية، الجمعية السرية، الجمعية الشرقية، رابطة الوطن

العربي ، كما أدى إلى تأسيس جمعيات ونواد وأحزاب سياسية جديدة في كل من بيروت ودمشق واستنبول وباريس بقيادة خيرة المثقفين من الأحرار ، مثل جمعية الإخاء العربي العثماني ، المنتدى العربي ، حزب اللامركزيـة الاداري العثمـاني ، الجمعيـة القحطانية ، العربية الفتاة ، الاصلاح ، العهد... الخ. وقد أقيمت المؤتمرات العربية التي من أهمها مؤتمر باريس عام ١٩١٣ الذي تماشى مع فكرة وأهداف الجمعيات الآنفة الذكر على اختلاف طوائف واتجاهات مؤسسيها وأعضائها — من حيث الانصهار بفكرة القومية العربية — التي تأثرت بها الزعيمة ابتهاج وتبنتها وأعربت عنها في محاضراتها في المناسبات المختلفة ، ومن حيث المطالبة بإجراء الاصلاحات في البلاد العربية ، وإنشاء لا مركزية عربية في كل ولاية عربية للنظر في حاجاتها ، واعتبار اللغة العربية لغة رسمية ، وحصر الخدمة العسكرية للعرب ضمن الحدود العربية[٢٢] .

يضاف إلى ما سبق ذكره من أحداث بداءة الحرب العالمية الأولى وما رافقها من توجه عربي بعيد عن الدولة العثمانية استخدم حياله جمال باشا السفاح الحاكم العام على سوريا والقائد العام للجيش الرابع المرابط في سوريا ، وأحد غلاة الاتحادين — سياسة التجويع والأفقار ، ومصادرة الخيول والبغال والمحاصيل والمواد الغذائية والكسائية والوقود ومواد البناء وغيرها والقسر في مبادلة العملة الذهبية بالعملة التركية البخسة الثمن ، وفرض الضرائب مما أدى إلى موت مئات من الناس جوعاً بعد أن عزّ عليهم قشر البطيخ والخبز واللحم والخضار ، أو مرضاً بعد انتشار الأوبئة والأمراض السارية كالتيفوس نتيجة لفقدان العناية الصحية والأدوية ، وأضاف جمال باشا إلى قسوة الطبيعة ورهبة السلطان تسليط: سيفه على رقاب الأحرار وأنفسهم فأصابهم بالقتل والنفي والتشريد وعلق مشانقهم دون محاكمة[٢٣] .

ومن الأحداث الأخرى التي عاصرتها ابتهاج معاهدة (سايكس بيكو) الناقضة لاستقلال العرب ، والمجزئة لوحدتهم والموجهة لصالح الصهيونية ، ووعد بلفور بالوطن القومي الصهيوني بفلسطين العربية ، وانتصار الحلفاء ، وانسحاب الأتراك من سوريا ولبنان ، وإقامة فيصل حكومة عربية في دمشق ، ورفع العلم العربي في بيروت ، وعقد المؤتمر السوري العام بدمشق والذي أكّد على وحدة واستقلال سوريا وفلسطين ولبنان ، والمطالبة بالغاء (معاهدة سايكس بيكو) ، وبعثة كرين — كنج لاستطلاع رأي أهل البلاد في حقيقة النقمة على الاستعمار وممثليه وأعوانه ، ومعاهدة (سان ريمو) التي تقاسمت بموجبها فرنسا وانكلترا بلاد المشرق العربي ، واحتلال المرأة الغربية لبعض مناصب الدولة ، وقيام لجنة شؤون المرأة العالمية ، ونهاية الحكم الفرنسي على لبنان وبداية الحكم المشترك ، والمعاهدة اللبنانية الفرنسية ، ومشروع تقسيم فلسطين ، والحرب العالمية الثانية ، والاستقلال اللبناني ، ثم تعليق الدستور اللبناني من قبل الفرنسيين ، واعتقال الشيخ بشارة الخوري وصحبه من أعضاء الحكومة ، وقيام شرعة الأمم المتحدة التي أبرمها البرلمان اللبناني ، ووثيقة اعلان حقوق الانسان ، وجلاء الجيوش الفرنسية عن لبنان ، وإسهام لبنان في الأحداث العربية ، ونكبة فلسطين والاعتراف للمرأة السورية بحق انتخاب ممثلي الشعب في الندوة النيابية ، وثورة جمال عبد الناصر وإستعادة قناة السويس ، والوحدة بين سوريا ومصر ، ثم الانفصال وحرب الأيام الستة التي احتلت اسرائيل بنتيجتها الضفة الغربية لنهر الأردن وسيناء ومرتفعات الجولان .

بعد طوافنا السريع السابق المتعلق بوضع المرأة العام في النصف الثاني في القرن التاسع عشر ، والأحداث التي عاصرتها الرائدة العربية ابتهاج سننتقل بالقارئ إلى لمحة حول نضال الزعيمة الاجتماعي .

٣ — لقطات من نضال ابتهاج الاجتماعي :

سمت خصائص الزعيمة النسائية الكبيرة لكل ما فيه نصرة الانسانية والوطنية لذلك أبت أن تقبع في النعمة والرفاهية والدلال وأن تحلم ، على زهرة العمر والجمال ، بفارس الأمل والشباب ، وحولها أحداث وأوجاع اجتماعية ووطنية وإنمائية هتافة في أعماق نفسها. لقد كان العمل الاجتماعي المتواصل خاطباً لودّها فأتته بكل شبابها وقوتها على النضال لاعتقادها اعتقاداً راسخاً بأهمية العمل الاجتماعي وضرورته لكل فتاة .



فخامة الرئيس بشارة الخوري وعلى يمينه ابتهاج قدورة رئيسة اللجنة النسائية لدار الايتام الاسلامية.

وتحدثك عن ذلك باحساس ملتهب، وفي ذلك تقول:

«إن العمل الاجتماعي واجب كالحقوق تماماً، وكل فتاة ينبغي أن تخصص جزءاً من وقتها لكل ما يتعلق برعاية الطفولة والتمريض في المستشفيات ولكل قضايا بلدها»(٢٤).

ان المتأمل في قول الزعيمة السابقة يرى فيه دعوة صريحة، ونظرة ثاقبة إلى إصلاح مفاهيم التعليم في كافة المراحل التعليمية وضرورة بنائها على دعامة أساسية، من دعائمها وهي الجانب الاجتماعي القائم على الاحتياجات والمشكلات المحلية اللبنانية الملحة وكيفية الوفاء بمواجهتها لها توصلاً إلى التحسين النوعي في المجتمعات التي تخدمها، توصلاً إلى المحبة والسلام اللذين لن يترعرعا إلا في ظل التأكيد العملي الاجرائي على ايجاد الحلول للمشكلات الاجتماعية القائمة في البيئات المحلية اللبنانية المختلفة.

حملت الرائدة الاجتماعية علم العلم، ونادت بوجوب إلزام تعليم الانثى لتصبح زوجة صالحة وأماً حكيمة مستنيرة تستطيع أن تنشئ جيلاً يحمل مسؤولية الحرية والاستقلال، معتقدة ان الاصلاحات الشعبية تبدأ بتعليم وتربية المرأة باعتبارها العنصر الأول المسؤول عن الطفل ديمومة الانسان الأول في إنسان المستقبل، ورمز الخلود في هذا الوجود وعلى رعايته وتوجيهه والاعتناء به وتربيته تربية سليمة يتوقف وجود المواطن الصالح، بالاضافة إلى اعتقادها أن كفاح القلة من أمثالها في مختلف الميادين يبقى ضائعاً أو محدوداً إذا لم يتواصل الجهد، وما لم يتصف بالشمول. لذلك تجدها دأبت على المساهمة البانية في تأسيس الجمعيات النسائية والسهر المستديم عليها والجود بالنفس والمال والكفالة المصرفية لاحتياجات بعضها عندما دعت الحاجة إلى ذلك وقد نما إحساسها الاجتماعي مبكراً بدليل انها بدأت تأسيس جمعية «يقظة الفتاة العربية» في سن لا تجيز لها الحصول على ترخيص لتلك الجمعية فتوجهت هي وصديقاتها المندفعات إلى العمل إلى إحدى كريمات سيدات بيروت السيدة «نجلاء بيهم» وحصلت على الترخيص بتأسيس الجمعية المذكورة باسمها. ومن نشاطاتها الاجتماعية مع طائفة من السيدات اللبنانيات اللاتي عرفن بالوعي والوجاهة وحب الخير والمصلحة العامة تأسيس النشاطات التالية:

- جمعية يقظة الفتاة العربية لتعليم الفتيات اللاتي لا يستطعن إلى ذلك سبيلاً.
- ملاجئ لاحتضان الصغار ضحايا الحرب

العالمية الأولى وتعليمهم العلوم والحرف، وقد بلغ من حدبها عليهم وعنايتها بهم انتقال عدوى التيفوس إليها الذي كاد يودي بحياتها.

– أول ناد ثقافي نسائي أطلق عليه «نادي جمعية الأمور الخيرية للفتيات المسلمات» أقيمت فيه حفلات شهرية حضرها كبار الشخصيات من الرجال والنساء، وتوالى على منبرها الخطباء، وكذلك الخطيبات اللاتي اسمعن أصواتهن من وراء حجاب في البداية، وقد أنشئت في هذا النادي مكتبة للمطالعة، وتعلمت فيه الفتيات الموسيقى والرسم والتصوير، ومثلت عليه خير المسرحيات.

– اللجنة النسائية لدار الأيتام الاسلامية وتسلم عمادتها منذ عام ١٩٣٠ حتى عام ١٩٥٢.

– جمعية النهضة النسائية في بيروت بهدف تنشيط اليد العاملة وتشجيع الصناعة الوطنية وإقامة المعارض تبعاً لذلك، والعناية بالصحة حيث أنشأت مستوصفاً بالمصيطبة وافتتحت مدارس لمحو الأمية عن المرأة في القرى النائية في الجنوب، وانشئ بجانب كل منها مركز لتعليم الخياطة، وسائر الأشغال اليدوية.

– لجنة مخاطبة وزراء المعارف لالتماس إصلاح مناهج التعليم.

– المجلس النسائي اللبناني الذي انضم فيما بعد إلى الاتحاد النسائي العربي، وقد تسلمت أمانة السر، ونيابة رئاسته ورئاسته في فترات مختلفة وقد انتخبت رئيسة للاتحاد النسائي العربي بالتزكية عام ١٩٤٩م بعد وفاة الزعيمة المصرية هدى هانم شعراوي وتناولت رئاستها مدة ثلاث عشرة عاماً في الفترات الواقعة بين: ١٩٤٩ – ١٩٥٧، ١٩٦٢ – ١٩٦٧.

تأسيس جامعة نساء لبنان توحيداً لجهود النسوة اللاتي تظاهرن استنكاراً لاعتقال الشيخ بشارة الخوري ورياض الصلح وعبد الحميد كرامة... والتي أصبحت فيما بعد جزءاً من الجمعيات بعد اتحادها وتسميتها المجلس النسائي اللبناني الذي كانت أول رئيسة له.

– رابطة الجمعيات النسائية الخيرية الاسلامية لأحياء بيروت، والتي ضمت الجمعيات العشر التالية:

ورئيساتها المدرجة أسماؤهن:

● التعاون الاجتماعي لمحلة الطريق الجديدة، السيدة أمينة حلمي فروخ.

● الجمعية الخيرية النسائية لمحلة زقاق البلاط، السيدة جلسم طبارة.

● نصرة البائس لمحلة الأشرفية، السيدة زهراء بيضون.

● إغاثة المريض لمحلة رأس النبع، الآنسة نعمت جارودي.

● الثقافية الخيرية لمحلة البسطة، الحاجة فاطمة قرنفل.

● إقالة العاثر لمحلة المصيطبة وبرج أبي حيدر، السيدة وداد عانوتي.

● الترفيه عن الفقير لمحلة الصنائع، والزيدانية، الحاجة فاطمة القصار.

● الجمعية الخيرية لرأس بيروت العلوي المريسة، السيدة نعمت جنبلاط ملك.

● الجمعية الخيرية لسيدات دار المسّنين وضياء الحق، السيدة حامدة الشيخ الهبري.

● جمعية معونة المحتاج، رمل الظريف، السيدة صفية جبر.

ومما هو جدير بالذكر أن مشروع العيلة كان في إطار كل جمعية من هذه الجمعيات حيث حرصت كل منها على رفع مستوى العائلات الفقيرة صحياً ومادياً واجتماعياً وتربوياً، كما أُتبع بكل منها مشغل لتعليم مهنة الخياطة والتطريز، ودور حضانة وأمومة، وقد ألحقت بالرابطة حضانة وروضة وقسم ابتدائي نموذجي في منطقة الحرش يلتحق بها الطفل من ٣ شهور مساعدة للأم العاملة وللأم المتعبة وهي برعاية بدائل قادرة على تربية الطفل ورعايته، وقد رغبت الأعضاء بتسمية هذه المدرسة النموذجية باسم الرائدة ابتهاج لكنّ تواضعها وجهدها الصامت دفعها إلى الاعتذار عن قبول تلك التسمية، لكن الأعضاء أصروا على تسميتها «ببهجة الأطفال» تيمناً باسم التحبب الذي كانت تنادى به، اعترافاً بما لها من فضل وأيادٍ بيضاء على الرابطة نذكر منها على سبيل الإشارة لا الحصر كفالتها للبيت الذي تم شراؤه للرابطة من أحد البنوك لما يزيد عن ثلاث سنوات وعلى مبلغ ٧٥ ألف ليرة لبنانية.

مكتفيين بهذا القدر من الحديث حول نضال الزعيمة الاجتماعي متناولين وجهة أخرى توجهت إليها

الرائدة ابتهاج يتمثل بها نضالها السياسي.

لقطات من نضال ابتهاج السياسي:

كان صوت الرائدة ابتهاج أول صوت نسائي ارتفع في شرقنا في القرن العشرين مطالباً بحقوق المرأة المدنية والسياسية، التي أعطتها التشريعات والدساتير للرجل الأمي، ومنحتها للسارق والفاسد والمحتال وحرمت منها المرأة أم الرجل وزوجته وأخته، كما أعلنت السيدة ابتهاج رأي المرأة المواطنة في الأحداث السياسية الهامة التي مرت بلبنان والوطن العربي والتي أشرنا إليها في حديثنا السابق في هذا المقال والمتعلق «بالجو العام»، لذلك سنقدم فيما يلي لقطات من نضال ابتهاج السياسي.

(أ) نضال ابتهاج في سبيل نيل المرأة اللبنانية حقوقها السياسية والمدنية:

كان الدأب في النضال لتحرير المرأة ورفع شأنها من مزايا الزعيمة فقد دعمت بكل قواها حق المرأة بإمكانية مجاراتها للرجل في كافة الميادين بالاستناد إلى كفاءتها: كما آمنت أن عليها رسالة ينبغي أن تؤديها إلى جانبه، فتساهم معه في النضال القومي تجنباً لاصابة المجتمع بالشلل النصفي لافتقاره إلى عناصره الأساسية، كما رأت في الجمهورية الديمقراطية أسماً فقط ما لم يتمتع الجنسان وعلى قدم المساواة في الحقوق السياسية، هذا مع مطالبتها للمرأة بكل ما عليها من التكاليف والتبعات تجاه زوجها وأطفالها وبيتها ومجتمعها ووطنها، داعية إلى كل ذلك بالحكمة والموعظة الحسنة، والمتابعة بنفس طويل، وصبر لا ينفد مستندة - في اعتقادنا - في كفاحها ودعوتها إلى الأمور التالية:

- تربيتها الروحية التي أرشدتها إلى أن الدين قد صفّى قضية المرأة تصفية نهائية إذ اعتبر المرأة أو الرجل إنساناً يقف كل منهما مع الآخر على قدم المساواة، ويتمتع في حقوق هذه الانسانية بما يتمتع به الآخر سواء بسواء.

- ممارسات أساليب التنشئة السليمة في أسرتها والقائمة على أساس المساواة في الحقوق والواجبات ودونما تمييز بين ذكر وانثى.

- شرعة الأمم المتحدة التي صدقها البرلمان اللبناني دون أي تحفظ.

- وثيقة إعلان حقوق الانسان.

- القرارات التي أصدرتها لجنة شؤون المرأة في دورتها الثانية والثالثة والتي أيّدها وأقرّها مندوب لبنان لدى المجلس الاقتصادي والاجتماعي وأبرمتها الجمعية العمومية.

- المادة السابعة من الدستور اللبناني والتي تنص على مساواة كل اللبنانيين لدى القانون، وعلى تمتعهم بالحقوق المدنية والسياسية وتحملهم الفرائض والواجبات العامة دونما تفريق بينهم.

وبالرغم من الدعائم السابقة التي قام عليها إيمان ابتهاج بما تفعل من أجل المساواة في الحقوق المدنية والسياسية لا غنى لنا عن القول أن حركة المطالبة بهذه الحقوق منيت بالركود بعد الحربين العالميتين لأسباب كثيرة نرى منها: انصراف الرجال والنساء عن كل اهتمام بالاصلاح إلى الكفاح ضد مفاجآت الاستعمار ومؤامرته السافرة والمستترة، ومحاولاته لانتزاع استقلال البلاد، وإشغالها في المشاغل الداخلية التي تبقيها في حالة تخلف مستديم، وانكماش أولئك الذين يأخذون على الغرب تساهله وتسامحه مع نسائه وتطرفهن في الحرية المعطاة لهن، وخشيتهم ان يكنّ عوناً للأجنبي المحتل على نشر قشور مدنيته التي لا تتلائم مع القيم والعادات اللبنانية العربية، لكن الزعيمة ابتهاج مع ذلك لم تفقد العزم ولم تيأس ولم تهمل قضية المرأة خلال الحربين العالميتين وبعدهما، ومن نشاطاتها تلك، الوثيقة التاريخية التي قدمتها إلى فخامة رئيس الجمهورية عام ١٩٣٦م بوصفها رئيسة للاتحاد النسائي في لبنان بعد اطلاعها على نصّ المعاهدة اللبنانية في الصحف، وعلى المادة ٦ و٦ مكرر تلك الوثيقة التي قدمتها وفاقت في مضمونها كل الوثائق الأخرى التي قدمت بصدد الحقوق السياسية للمرأة، والتي ورد فيها ما يلي:

«قلتم يا فخامة الرئيس: «لي الشرف أن أثبت لفخامة رئيس الجمهورية الفرنسية بأن الحكومة اللبنانية تضمن لجميع تبعيتها بدون تمييز المساواة في الحقوق المدنية والسياسية» وأنا أتساءل هنا: «هل المرأة من أصل لبناني، وهل المولودة والمقيمة في لبنان تدعى تبعية لبنانية أم لا؟ فإذا كانت كذلك فقد نالت

اعترافاً صريحاً من فخامتكم بمساواتها بالرجل في الحقوق المدنية والسياسية، وإلا تكون قد اعتبرت تبعية أجنبية، فأتساءل حينئذٍ إلى أية جنسية تنتمي هذه المرأة؟». [٢٥]

فأجابها الرئيس «إده» على الفور بأن الدستور اللبناني ضمن لها هذا الحق، إلا أن قانون الانتخابات حصر الحقوق السياسية بالذكور دون الإناث[٢٦].

وتصدت عام ١٩٤٣ للرد على حجج معارضي الاعتراف بالحق السياسي الكامل للمرأة، وكانت يومها أيضاً رئيسة للاتحاد النسائي العربي في لبنان، فجاءت بالجواب الراجح التالي:

«إن النيابة ليست وظيفة ولا مهنة، وهي في الحقيقة ليست سوى انتداب، فكما أن النائب لا يتخلى عن أعماله أثناء تمرسه بالنيابة، فالمرأة كذلك لن تتخلى عن عملها في البيت أثناء تمرسها بالنيابة، إن المرأة لا تتنازل عن مركزها في البيت مطلقاً، ولا تتخلى عن واجباتها عندما تحاول أن تخدم بيتها الأكبر اجتماعياً وسياسياً»[٢٧].

وواصلت النضال فأقامت الاجتماعات والندوات، والمؤتمرات مع بعض من زميلاتها ونخبة من الرجال المناصرين والمؤمنين بنيل المرأة لحقوقها، وتزعمت رفع العرائض، ففي عام ١٩٤٣م رفعت مذكرة باسم الاتحاد النسائي طالبت فيه بحقوق اللبنانية السياسية، فتبناها عشرة نواب، قدموا عام ١٩٤٤م اقتراحاً في المجلس يمنح المرأة حقوقها الانتخابية والتمثيلة كاملة، لكن المجلس النيابي رفض هذا الاقتراح، فعاودت الموضوع بإلحاح عام ١٩٤٩م مستثارة العواطف بوثبة المرأة السورية غير المرتقبة في ذلك العام بالذات بالاعتراف بحقها في ان تنتخب ممثلي الشعب في الندوة النيابية، ونتيجة لمثابرة الزعيمة ابتهاج يدعمها الاتحاد النسائي وأصوات النساء في كل مناطق لبنان، اقترحت اللجنة التشريعية في المجلس النيابي الاعتراف التدريجي بحقوق المرأة السياسية، فقوبل هذا الاقتراح بالاحتجاج الشديد، وتوجهت السيدة ابتهاج بمظاهرة كبيرة في آذار - عام ١٩٥١م، ودخلت إلى المجلس النيابي على رأس وفد يمثل الاتحاد النسائي اللبناني، وسلمت مذكرة إلى رئيس المجلس تضمنت احتجاج المرأة على ذلك الاقتراح الأبتر، وتجاوبا من المسؤولين مع ذلك صدّق مجلس الوزراء على مشروع قانون ينص على المساواة الكاملة بين الجنسين في الانتخاب والتمثيل، لكن مشروع القرار بقي غير ساري المفعول، فافتتحت السيدة ابتهاج عام ١٩٥٢ اجتماع الهيئات النسائية الذي رعته عقيلة رئيس الجمهورية، وحضره ممثلون عن الهيئات والكتل والنواب، والقت كلمة بليغة أوضحت فيها أهداف المرأة وحقها المقدس في المساواة بالرجل، وفي عام ١٩٥٣م، وافق المجلس الوزاري على اعطاء عامة حق الانتخاب دون الاجبار فيه. ورداً على ذلك الإقرار الرسمي تشكل وفد نسائي لبناني ممثل لمختلف مناطق لبنان وقام بزيارة القصر الجمهوري حيث القت الزعيمة كلمة جامعة[٢٨] مناسبة.

ومما يجدر ذكره انه في نفس عام اعطاء المرأة حق الانتخاب انتخبت المناضلة ابتهاج وزميلتان لها هما السيدتان لور تابت والين ريحان عضوين في المجلس البلدي فقطفت المرأة أولى ثمرات جهادها بهذه المبادرة الرسمية من الحكومة اللبنانية التي تعترف بمساواة المرأة والرجل في مهمة رسمية[٢٩].

وثمة زاوية أخرى رنت اليها ابتهاج وارتقبتها أيضاً أعين الفتاة الجامعية وهي المساواة في الوظائف حيث وجه اليها اتحاد الجامعيات اللبنانيات في ١٩٦٠/٩/٢٦ - بصفتها رئيسة جامعة الهيئات النسائية - مذكرة ناشدتها فيها دعمها لمساواة المرأة في فرص العمل، فتبنت تلك المذكرة عملاً بالمادة الثانية من الدستور اللبناني التي تنص على أنه لكل لبناني الحق في تولي الوظائف العامة لا ميزة لاحد على الآخر الا من حيث الاستحقاق والجدارة[٣٠].

(ب) نضال ابتهاج الوطني:

ابت ابتهاج المدافعة عن حقوق المرأة المدنية والسياسية وقد رأت احرار الشعب اللبناني العربي وأعلام الرأي والسياسة ثائرين منافحين عن الحمى وقضاياه القومية فشاركت في هذا النضال الوطني بوعي واقتدار وشعور فياض أحلها مكانة مرموقة وقلدها رتباً فخرية عالية[٣١].

تلاقى في ردهات بيتها ونوادي ما ساهمت في تأسيسه من جمعيات، الساسة والكبراء والأدباء والشعراء والأجانب من الرجال والنساء وكانت من بينها تنطلق جذوة مختلف الأحداث السياسية فهي التي تنظم وترتب ما ينبغي القيام به. ثم تعرض بنغمتها الخاصة التي لا تعرف فرض الآراء بل تعرض عرض أولئك الذين وضعت على أكتافهم التبعات فيقومون بها ثم يجيئون وادعين سائلين الرضا والموافقة والاعتراض ليصلحوا الهفوات ولينزلوا عند رأي الجماعة(٣٢).

إنها أول فتاة ناضلت ضد الأتراك بعروبة متفتحة نمت في عروقها زادها ضغط الحكم التركي وتتريكه للعناصر النسائية نمواً وتوقداً ومن مواقفها مثولها أمام جمال باشا اثناء زيارته لملاجئ الأطفال والقاؤها كلمة أمامه باللغة العربية. اثارت دهشته لعدم القائها باللغة التركية أخذاً بسياسة تركيا الفتاة. وكلف احد مرافقيه أن يوجه اليها بعض الأسئلة التي أجابت عليها بجرأة وثبات وحكمة وعزة قومية أقوى من الغطرسة التركية وسياستها التتريكية. وفيما يلي الأسئلة وأجوبتها:

– هل أنت من رعايا الدولة العثمانية؟

نعم.

– هل تعرفين اللغة التركية؟

كلا.

– هل تجيدين لغات أخرى غير العربية؟

نعم الانكليزية والفرنسية.

– لماذا لا تتكلمين التركية وأنت من رعايا ومواطني الدولة العثمانية؟

استأذنت سعادة الباشا بسؤال تطرحه فأذن لها بذلك فقالت.

سعادتك مسلم فلماذا لا تعرف لغة قرآنك ودينك؟

ومرت لحظات رهيبة برفيقاتها وبأعيان الطائفة الاسلامية مرافقي الباشا المعروف بغطرسته وجبروته وروحه التعسفية التي تطبق القانون. لكن بدل رهبة تلك اللحظات رؤيتهم جمال باشا يربّت على كتفها اعجاباً بجرأتها وبسرعة بديهتها وبلاغتها وموضوعيتها قائلاً: سنلتقي في العام القادم وأجدك تتحدثين التركية وتجدينني أتحدث العربية(٣٣).

ومن مواقفها الوطنية تخطيطها لمقابلة لجنة كريف – كنج عام ١٩١٩م رغم ما اتخذه الفرنسيون من تدابير للحيلولة بين الأحرار وبين الوصول إلى اللجنة، واستقبالها للجنة التي زارت المناضلة ابتهاج في النادي النسائي في ٨ تموز ١٩١٩ واستمعت الى تمثيل المرأة المسلمة اللبنانية برئاسة ابتهاج قدورة ومذكرتها التي جاءت تحت عنوان تمنيات المرأة العربية(٣٤) طالبت فيها ببرنامج دمشق الذي يتضمن ما يلي:

«طلب الاستقلال العام لسوريا بحدودها الطبيعية ورفض كل حماية ووصاية، ومنع المهاجرة الصهيونية، وعدم تجزئة سورية، وتأليف حكومة ديمقراطية حرة برئاسة سمو الأمير فيصل، وتنظيم قانون أساسي تراعى فيه حقوق الأقليات، والاحتجاج على المادة ٢٢ من عهد جمعية الأمم القائلة بإدارة الولايات المتحدة المحررة للانتداب، وأنه إذا كان لا بد من إصرار مؤتمر الصلح على انتداب دولة إلى سورية، وبناء على تصريحات الرئيس ويف المتضمنة ان الدولة المنتدبة تكون لنفع الشعب لا لنفسها، ترى اللجنة أن تطلب هذه المساعدة من أمريكا البعيدة عن المطامع الاستعمارية في سوريا وبشروط معينة على أن لا تمس هذه المساعدة الاستقلال السياسي بل تكون عبارة عن مساعدة فنية علمية لمدة عشرين سنة فقط، وإذا رفضت أمريكا ان تقوم بهذه المساعدة فلْتقم انكلترا بنفس الشرط»(٣٥).

ويضيف (هوارد) بأن مذكرة ابتهاج قدورة لم تقتصر على برنامج دمشق بل طالبت بحق سوريا في فرص التنمية والتطوير لتحتل مكانها بين أمم العالم المسؤولة؛ ويعلق أيضاً بأن تلك المذكرة وما جاء فيها تمثل لحظات حاسمة قد تعود بالمرأة اللبنانية إلى الوراء أو تقدم بها إلى الأمام لأنها هذه هي المرة الأولى التي تطرح فيها المرأة اللبنانية العادات والتقاليد الشرقية التي تحول بين المرأة المسلمة وبين مشاركتها في الشؤون العامة(٣٦).

ومما هو حقيق بالذكر إعجاب اللجنة بذكائها وطلاقة لسانها بالانكليزية وحجتها وجرأتها ووقوفها على خفايا السياسة ولما عادت اللجنة إلى بلادها حاملة الرأي والانطباعات حول ما أحسَّت به وشاهدته



السيدة ابتهاج قدورة في لقاء صدفي مع سيادة الرئيس جمال عبد الناصر في التظاهرة النسائية إلى دار الرئيس عبد الناصر بعد المؤتمر الأفروآسيوي عام ١٩٦١م.

بنفسها من مظاهر الثورة والوعي كان اسم ابتهاج قدورة من أبرز الأسماء في خواطرها وأوراقها.

وتناول حسها الوطني الجانب الاقتصادي فساهمت في فكرة البعث الصناعي في لبنان وتنشيط اليد العاملة وإقامة المعارض التي عقدت في الأعوام التالية: ١٩٢٤، ١٩٢٧، ١٩٢٨، كما شاركت مع وفد اللبنانيات الذي سافر إلى دمشق بصفة رسمية مطالباً بدعم الصناعة الوطنية واستبدال أسماء المصانع العربية بالأسماء الأجنبية على حاشية المصنوعات الوطنية وقد نجحت هي وصحبها من المناضلات في تحقيق هذه الدعوة (مسيحيات ودرزيات ومسلمات) وفي تغيير اتجاه المستهلكين السلبي نحو المنتجات الوطنية(٣٧) إلى تغيير ايجابي رافض لكل ما هو أجنبي.

ولم يكن الرجال وحدهم هبة لبنان لتحقيق الوحدة والتآخي والتفاهم وحسن النية نحو بعضهم البعض فقد حرصت ابتهاج حرص أولئك الأحرار العقلاء أصحاب النظرة التربوية الوطنية السليمة على ان مشاهدة النشئ للمرأة وهي نصف المجتمع تدعو إلى الوحدة الوطنية وتشارك عملياً في سبيل تحقيقها تدفعهم ليشاركوا هم أيضاً بإخلاص وبإحساس خالص وتحقيقاً لذلك فقد قامت السيدة خانم حسامي قدورة زوجة أخيها الصيدلي مصطفى قدورة ووالدة الصيدلي أديب قدورة بتوجيه دعوة إليها وإلى رجالات البلاد وأعيانها وقادتها الروحيين والمدنيين عام ١٩٤٣م للالتقاء في بيتها في شارع المكحول - رأس بيروت، حيث نظموا مسيرة شعبية شارك فيها الرجال والنساء.

وتوجه الشيخ منها إلى الكنيسة والمطران إلى الجامع حيث جرى تبادل الكلمات الداعية إلى الاخاء في الله والوطن، ثم اتجهت المسيرة نحو السراي الصغيرة التي كانت قائمة في ساحة البرج يتقدمها رجال الدين من مسيحين ومسلمين والأعلام اللبنانية تخفق بها الأيدي تحت وهج الشمس وجميعهم ينشدون الأناشيد الوطنية فقابلوا رئيس الوزارة الذي تأثر لهذا المشهد الوطني الرائع وللدور الوطني الذي تلعبه المرأة اللبنانية في الحياة السياسية عن كفاءة تامة ونضال جريء(٣٨).

ومن الوجهات الأخرى التي اتجه اليها نضال ابتهاج الوطن اهتمامها البالغ بالقضية الفلسطينية وتلبيتها للاستغاثات المؤثرة للمرأة الفلسطينية، ومن مآثرها مما يتعلق بذلك رفعها بتاريخ ٢٦ ايار/١٩٣٨ باسم

الاتحاد النسائي الذي كانت ترأسه، احتجاجاً شديد اللهجة إلى الحكومة البريطانية بواسطة قنصل بريطانيا في بيروت(٣٩).

ووجهت في ٧ تموز ١٩٣٨ بصفتها رئيسة للاتحاد النسائي اللبناني كتاباً جامعاً باسم سيدات العراق ولبنان وفلسطين إلى السيدة هدى شعراوي رئيسة الاتحاد النسائي العربي المصري فوضتها فيه باسم هذه الأقطار الدفاع عن قضية فلسطين لدى الهيئات الدولية، والمطالبة بحقوقها أمام لجان الانتداب، والمؤتمرات النسائية الدولية، أو أية هيئة يمكنها أن تنصر القضية الفلسطينية وتؤمن لها الحل العادل(٤٠)، واضعة بذلك أسس مكاتب الدعاية في سبيل فلسطين في كل مكان.

وعند نزوح الفلسطينيين عام ١٩٣٨م ارتأت بعض السيدات الفلسطينيات أن تسمع السيدة اللبنانية صوت المرأة العربية بشأن قضية فلسطين في مؤتمر عاجل، ولكن رأت سياسة ابتهاج الحكيمة أن مؤتمراً ابن ساعته يعقد في دمشق أو بيروت لا يأتي بالأكل الطيب في استفزاز الرجل تجاه كارثة تستنفره إليها المرأة ما لم يسبقه دعاية منظمة، وما لم يحضره مراسلو الصحف، وأصحاب الرأي من الرجال، واقترحت بناء على ذلك عقده في القاهرة، فأجمع الاعضاء على رأيها ووجهت حينها كتاباً بذلك إلى السيدة هدى شعراوي التي استجابت لرغبة ابتهاج وكأنهما على موعد، وعقد أول مؤتمر نسائي في القاهرة في ١١ تشرين الأول عام ١٩٤٤م لكن مرض ابتهاج المفاجئ اقعدها آسفة عن حضور المؤتمر لكن مثلتها والقت كلمتها بالنيابة ابنة أخيها الصيدلي مصطفى السيدة زاهية قدورة التي كانت آنذاك تعد لنيل درجة الدكتوراه في جامعة القاهرة(٤١).

تناول المؤتمر بشكل خاص القضية الفلسطينية، واتخذت في نهايته مقررات كان لها صدى عالمي، كما انبثق عن هذا المؤتمر اتحاد جمعيات كل قطر عربي في هيئة واحدة ثم في هيئة عربية عليا جمعت في حناياها الصفوف النسائية في كل أرض عربية، وعرفت هذه الهيئة باسم «الاتحاد النسائي العربي العام»، الذي أصبح يتكلم باسم المرأة العربية وقضاياها السياسة والخاصة، كما أبرز هذا المؤتمر حسب رأي المناضلة ابتهاج تفوق المرأة في النضال السياسي على الرجل بدليل اندهاش الجماهير العربية من أول حركة نسائية عربية منظمة ومتحدة للدفاع عن قضية فلسطين(٤٢).

وفي عام ١٩٦١م ترأست وفد لبنان النسائي للمؤتمر الأسيوي الافريقي الذي عقد في القاهرة للبحث في قضيتي الجزائر وفلسطين، والقت كلمة عبرت فيها عن وجهة نظر المرأة اللبنانية واستمرار نضالها حتى ينال القطران استقلالهما وحتى يجلو عنهما الاستعمار بأشكاله المختلفة، ثم توجهت بعدها هي ورئيسات الاتحادات النسائية الافرو اسيوية لزيارة الرئيس عبد الناصر الذي استقبلهن على غير موعد وبكل ترحاب مثنياً على جهودهن، مشجعاً لهن على الاستمرار في النضال حتى تتوصل الجزائر الى استقلالها وحتى تعود الأرض السليبة إلى أصحابها(٤٣).

وواصلت ابتهاج دعوتها للمرأة العربية لكي تعمل كل ما في وسعها من أجل قضية فلسطين حتى أن آخر اجتماع عقد في بيتها كان يوم الثلاثاء قبل وفاتها بأربعة أيام، لاستعراض ما ينبغي عمله لمساعدة الفلسطيني بعد حرب الأيام الستة عام ١٩٦٧م(٤٤).

٥ - وفاتها:

توفيت الزعيمة الرائدة ابتهاج والقائدة الأم لشابات العصر الحديث عام ١٩٦٧م مفعمة القلب بالأسى والحزن لنكسة حزيران عن ٧٤ عاماً قضتها في البذل والعطاء المستديم دون التفكير في جزاء، ومما يعزّينا أنها قطفت ثمرة جهادها الطويل في حياتها فرأت المرأة العربية معلمة تربي الجيل، وطبيبة تمارس الطب على مختلف فروعه واختصاصاته، وصحافية ومهندسة، وباحثة في علوم الذرة، وعضواً في المجالس النيابية ووزيرة تحمل مسؤولية الحكم في أهم مراتبها، لكن مما يؤسفنا أنها لم تجمع مذكراتها وسيرتها الضخمة بنفسها رغم تمنيات الاتحاد النسائي العربي العام عليها أن تفعل ذلك حفظاً للتاريخ وتعبيراً عن الوفاء لما قامت به وما توصلت إليه(٤٥).

بعض من تقدير:

قلدتها الحكومة اللبنانية في حياتها وسام تقدير برتبة فارس، وآخر برتبة قومندان(٤٦)، وانتخبت رئيسة

عاملة للمجلس النسائي اللبناني لدورات عديدة منذ الثلاثينات، ورئيسة عاملة بالتزكية. للاتحاد النسائي العربي العام لمدة ثلاثة عشر عاماً عاماً بعد وفاة الزعيمة هدى شعراوي(٤٧).

وفي سنة وفاتها قابلت لجنة من المجلس النسائي برئاسة السيدة «لور تابت»، رئيس بلدية بيروت، وحملت إليه رغبة المجلس النسائي بتسمية شارع من شوارع بيروت باسمها(٤٨)، كما اقترح اطلاق اسمها على مدرسة من مدارس لبنان الرسمية(٤٩).

وأجريت دورة للممرضات خريجات الصليب الأحمر في ١٩٧٠/٦/٢٩ سميت دورة «ابتهاج قدورة»، وأهيب بالخريجات أن يتخذن من الرائدة ابتهاج قدورة مثلاً أعلى في التضحية وخدمة الآخرين(٥٠).

وافتتحت السيدة اللبنانية الأولى «ايريس فرنجية» في ٦ آذار ١٩٧٤م قاعة في المجلس النسائي باسم الزعيمة «ابتهاج قدورة»(٥١).

ونختتم الحديث على غير شعور بالوفاء التام لهذه الرائدة الزعيمة، ويكفيها وفاء وسامها الدائم الذي يحمل ذكر جهادها لا في تاريخ تطور الحركات النسائية في لبنان والوطن العربي وعالمياً فقط، بل وفي التاريخ السياسي المعاصر للمنطقة العربية.

فسلام على ابتهاج قدورة في الرائدات الخالدات/وسلام عليها كلما تلفتت المرأة إلى مدرستها الفكرية الباقية على الزمان

■

المراجع

(١) مقابلة السيدة سلوى صبح نويري عضو لجنة سيدات مبرة محمد رمضان لليتيمات المسلمات، وعضو المكتب التنفيذي للمجلس النسائي اللبناني، وامينة صندوق رابطة الجمعيات النسائية الخيرية، منزلها - الاثنين ١٧ ايلول ٥ ب. ظ.

(٢) الحاج حسين العويني: ذكرى حفلة تكريم الانسة ابتهاج قدورة (بيروت: رابطة الجمعيات الخيرية الاسلامية لأحياء بيروت، ٩ آذار ١٩٦٤م).

(٣) عنبرة سلام الخالدي، المرجع السابق نفسه.

(٤) سلمى صايغ صور وذكريات (سان باولو: دار الطباعة والنشر العربية، ١٩٤٦م)، ص: ١٦٣.

(٥) أمينة السعيد: سبق ذكره، ذكرى حفلة تكريم الآنسة ابتهاج قدورة.

(٦) مجلة كل شيء، ٢٤ حزيران ١٩٦٧، وناديا ونواف كرامي: تاريخ ورجال (صيدا: المطبعة المخلصية، ١٩٥٦م)، ص: ٥٥ - ٥٦.

(٧) مجلة «الفجر الصادق»، أعمال السنة الأولى ١٢٩٧هـ، ويوسف ابراهيم يزبك: أوراق لبنانية جـ ٢ (١٩٥٦م) ص: ٢٤٢، ومجلة «ثمرات الفنون» ١٨٨١م عدد ٣٤٢: ص٣، Alumni directory" (1870 — 1952) April 1953 P: 195»، وعلي محمد حولي: تطور التعليم في مدارس المقاصد الخيرية الاسلامية في بيروت، رسالة لنيل الماجستر في التاريخ - الجامعة اللبنانية - كلية الآداب والعلوم الانسانية ١٩٧٩.

(٨) مقابلة الدكتورة زاهية قدورة، منزلها، رأس بيروت (٢٠ تموز ١٩٧٩، ١٠ ق. ظ)

(٩) زاهية قدورة: تاريخ العرب الحديث. (بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٧٥م) ص ٣٠٩ ومقابلة: دكتورة زاهية قدورة، سبق ذكرها.

(١٠) حنيفة الخطيب: تاريخ تطور الحركة النسائية في لبنان في القرنين التاسع عشر والعشرين، رسالة لنيل شهادة دبلوم دراسات عليا في التاريخ - الجامعة اللبنانية - كلية الآداب، ١٩٧٥، ص: ١٢٥.

(١١) رئيف أبو اللمع: سبق ذكره، ذكرى تكريم الآنسة ابتهاج قدورة.

(١٢) مجلة كل شيء، سبق ذكره، وحنيفة الخطيب، سبق ذكره، تاريخ تطور الحركة النسائية في لبنان في القرنين التاسع عشر والعشرين، وعنبرة سلام الخالدي، سبق ذكره، ذكرى تكريم الانسة ابتهاج قدورة.

(١٣) انظر ماري عجمي صاحبة مجلة العروس «ابتهاج قدورة»، ومجلة منيرفا العدد الأول نيسان ١٩٢٨، وأدهم الجندي أعلام الأدب والفن، ملفات مؤتمرات واجتماعات مجلس النسائي اللبناني هو الاتحاد النسائي العربي، والجمعيات المختلفة التي ساهمت في تأسيسها.

(١٤) عنبرة سلام الخالدي، سبق ذكره حفلة تكريم الانسة ابتهاج قدورة، حنيفة الخطيب سبق ذكره، تاريخ تطور الحركة النسائية في لبنان في القرنين التاسع عشر والعشرين.

(١٥) سلمى صايغ، سبق ذكره، صور وذكريات، ص: ١٤٩.

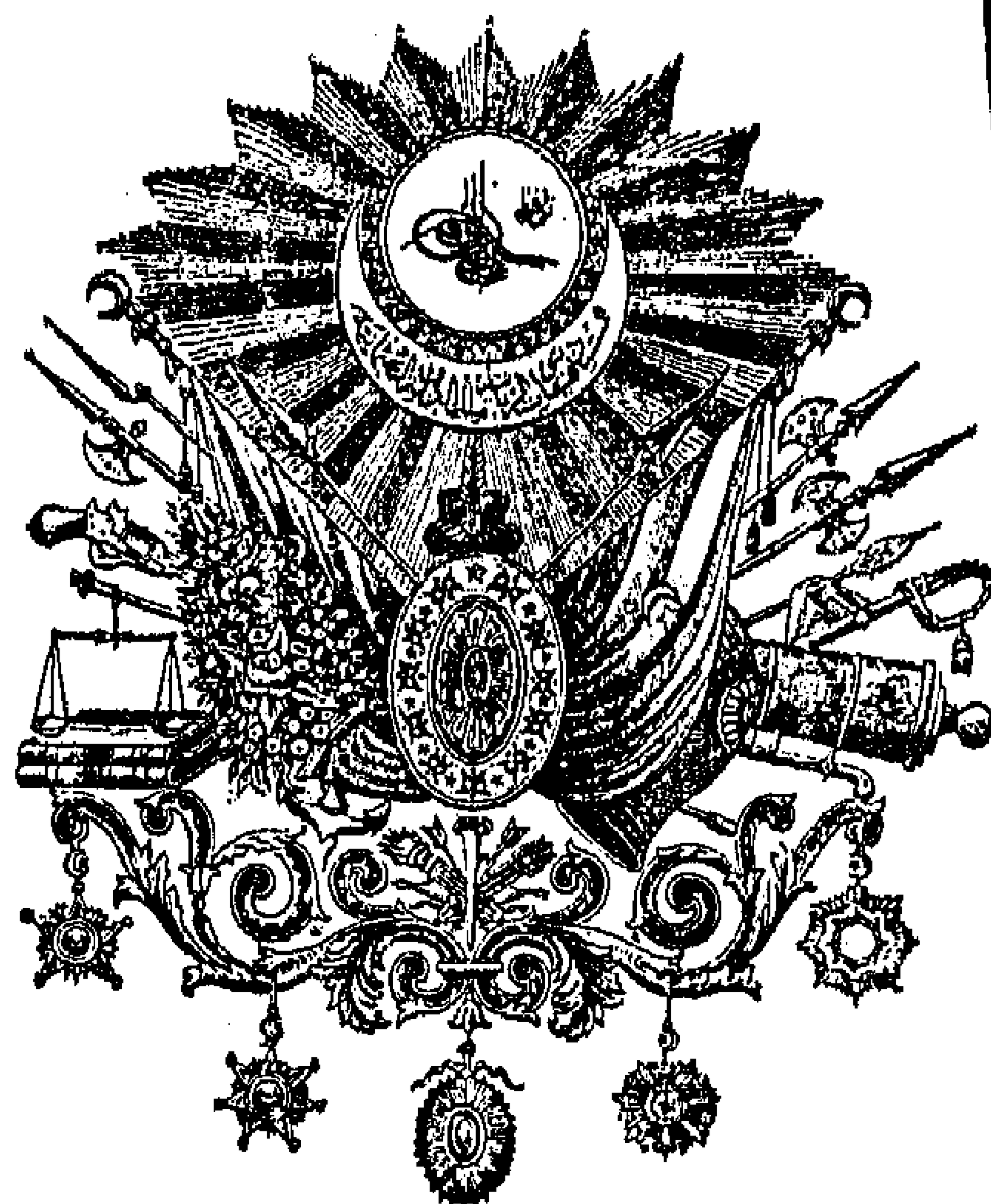
(١٦) جميل بيهم: فتاة الشرق في حضارة الغرب (بيروت: ١٩٥٦م)، ص: ٣.

(١٧) ابتهاج قدورة: اللغة والقومية «المؤتمر النسائي في بيروت ١٩٢٨م» (بيروت مطبعة صادر)
(١٨) يوسف يزبك: نصير المرأة جرجي نقولا باز (المجلة الشرقية، العدد ١٩، آب/اغسطس ١٩٧٥م)، ص ٢٨ – ٣٠
(١٩) جرجي نقولا باز: نسائيات حديثها أو حديث معها، جريدة الحقيقة بيروت العدد ١١٤٤، ٣١ تموز ١٩١٩، ص ٣.
(٢٠) أمينة السعيد: «النخبة في لبنان تبحث عن المواطن المسؤول، مجلة اللواء، الجمعة ١٦ كانون الأول ١٩٦٦.
(٢١) منيرة ثابت: ثورة في البرج العاجي (القاهرة: دار المعارف للطباعة والنشر لات).
(٢٢) أنظر: أنور الرفاعي، وشاكر مصطفى: العالم الحديث (دمشق: مكتبة العلوم والاداب للطباعة والنشر، ١٩٥٠). جميل بيهم: فتاة الشرق في حضارة الغرب/سبق ذكره.
(٢٣) المرجع السابق نفسه، وخيرية قاسمية: الحكومة العربية في دمشق بين ١٩١٨ – ١٩٢٠م (القاهرة: دار المعارف، ١٩٧١)، وزاهية قدورة: تاريخ العرب الحديث، (بيروت دار النهضة العربية، ١٩٧٥).
(٢٤) سميرة عزت: الحركة النسائية داخل ثلاث مجتمعات عربية/المجلة الشرقية/بيروت/العدد السابع والاربعون يونيو ١٩٧٨م)، ص : ٩٦.
(٢٥) إملي فارس ابراهيم: الحركة النسائية اللبنانية (بيروت دار الثقافة) ص ٩٨.
(٢٦) المرجع السابق نفسه.
(٢٧) سبق ذكره، جميل بيهم، فتاة الشرق في حضارة الغرب
(٢٨) أنظر: إملي فارس ابراهيم، الحركة النسائية اللبنانية، سبق ذكره، وجميل بيهم/فتاة الشرق في حضارة الغرب، سبق ذكره، وحنيفة الخطيب، تاريخ تطور الحركة النسائية في لبنان في القرنين التاسع عشر والعشرين، سبق ذكره.
(٢٩) المرجع السابق نفسه.
(٣٠) المرجع السابق نفسه.
(٣١) نواف ناديا كرامي، سبق ذكره.
(٣٢) أنظر: حنيفة الخطيب، تاريخ تطور الحركة النسائية في لبنان في القرنين التاسع عشر والعشرين، سبق ذكره ومجلة الحسناء عام ١٩٦٧، العدد ٣/وسلمى صايغ، صور وذكريات، سبق ذكره.
(٣٣) المراجع السابق نفسها.
(٣٤) خيرية قاسمية، الحكومة العربية في دمشق بين ١٩١٨/١٩٢٠م سبق ذكره، ص ١١ وسعيد مراد: الحركة الوحدوية في لبنان من خلال مؤتمرات الساحل، رسالة أعدت لنيل الماجستر في التاريخ. بيروت، الجامعة اللبنانية كلية الآداب، ص ٧٥.
Howard M: the Crane — King Commission (An American inquiry in the Middle East, Beirut: Khayat, 1963) P 122 — 130.
(٣٥) برنامج دمشق: المقطم ١٧ يونيو/تموز ١٩١٩، العدد ٩٢٢٢، ص ٣.
(٣٦) Idem Ibid See also: Lyber and King Diaries July, 1919
Signed by Ibtihage Kadourah July 8, 1919, the Desiderata of the Societies of Moslem Women in Beirut Submitted to the Honorable American Section of the Commission on Mandates for Turkey. This credentials Delegate in a king statments
(٣٧) مقابلة السيدة خانم حسامي قدورة، منزلها/شارع المكحول رأس بيروت ٢٠ تموز، ١٩٧٩ ١٢ ظ. وسلمى صايغ، صور وذكريات، سبق ذكره.
(٣٨) حنيفة خطيب، تاريخ تطور الحركات النسائية في لبنان في القرنين التاسع عشر والعشرين سبق ذكره ص: ٥١ – ٤٩.
(٣٩) المرجع السابق نفسه.
(٤٠) المكان نفسه، وزاهية قدورة: تاريخ العرب الحديث سبق ذكره، ص: ٥٨، ٥٧٩ – ٥٨٠
(٤١) حنيفة خطيب/تاريخ تطور الحركات النسائية في لبنان في القرنين التاسع عشر والعشرين، سبق ذكره، ص: ٥٨ – ٥٩، وسميرة عزت، الحركة النسائية داخل ثلاث مجتمعات عربية، المجلة الشرقية، سبق ذكره.
(٤٢) المرجع السابق نفسه.
(٤٣) مقابلة السيدة وديعة خرطبيل، منزلها رأس بيروت، ١٩٧٩/٩/٢٩ ٣ ب ظ.
(٤٤) حتى آخر لحظة من حياتها ظلت تفكر في فلسطين، مجلة كل شيء، سبق ذكرها.
(٤٥) الأجتماع السنوي للمكتب الدائم للاتحاد النسائي العربي العام المنعقد في بيروت عام ١٩٦٥م.
(٤٦) نواف وناديا كرامي، تاريخ ورجال، سبق ذكره.
(٤٧) نشأت الخطيب/تطور الحركة النسائية في مصر في العصر الحديث، سبق ذكره.
(٤٨) مجلة حضانة الطفل/العدد ١١٦، ١٩٦٧/٨/١٥.
(٤٩) حنيفة الخطيب، تاريخ تطور الحركات النسائية في لبنان في القرنين التاسع عشر والعشرين سبق ذكره.
(٥٠) مجلة الصليب الأحمر، تموز آب، ١٩٧٠.
(٥١) سبق ذكره، حنيفة الخطيب، تاريخ تطور الحركات النسائية في لبنان في القرنين التاسع عشر والعشرين.

الأسس العثمانية للشرق الأوسط الحديث

البروفسور ألبرت حوراني

(الحلقة الثانية)

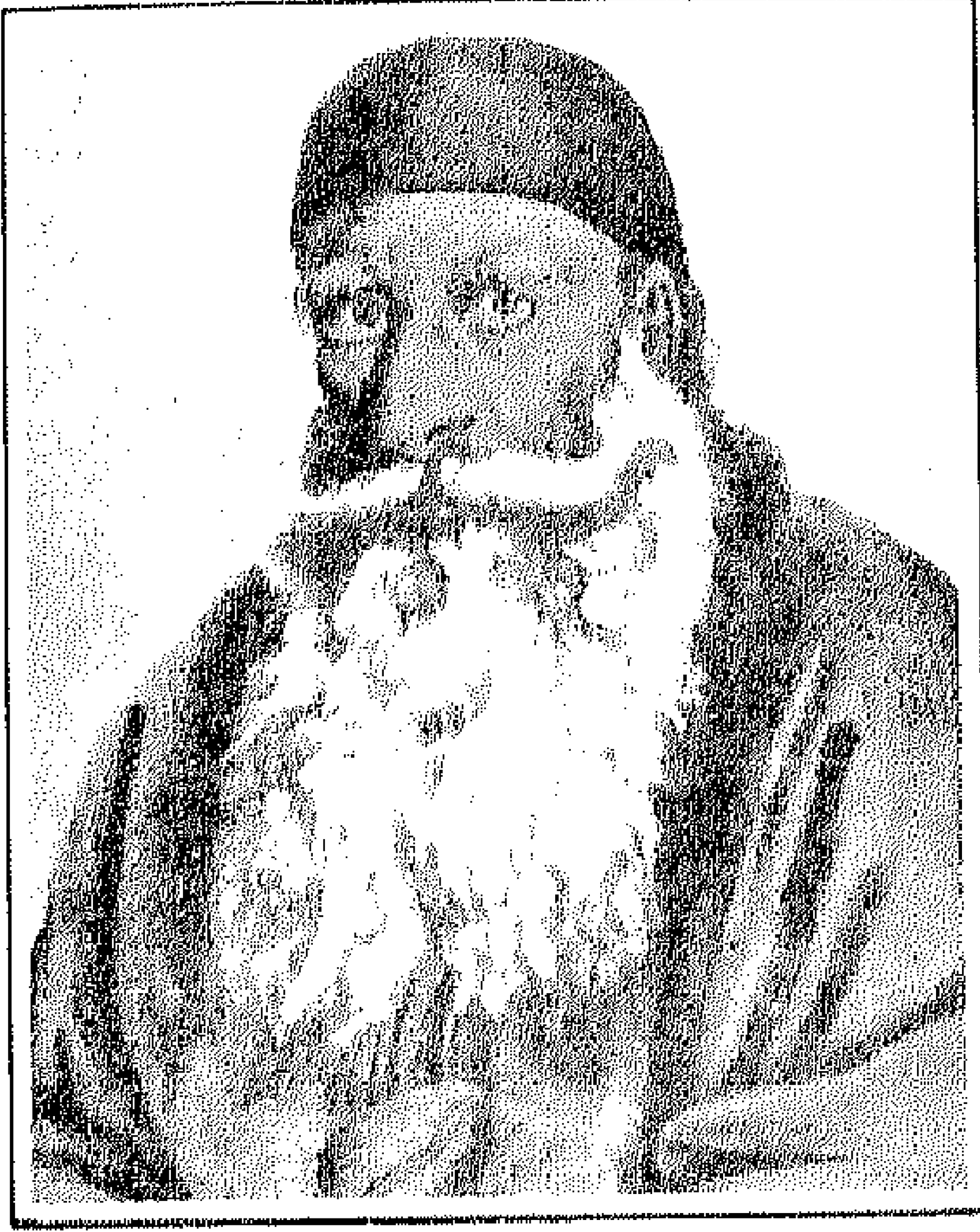


تضمنت الحلقة السابقة من مقالة الأستاذ البرت حوراني ، معالجة لدور الأتراك في بناء السلطنات الاسلامية التي أقرها الفقهاء المسلمون بعد أن تفككت الخلافة ، كذلك تحليلاً لطبيعة الدولة العثمانية كاحدى السلطنات الإسلامية التي برزت من خلال الامبراطورية السلجوقية التي وحّدت خلال فترة طويلة من الزمن العالم الإسلامي. وفيما يلي يتابع الأستاذ حوراني تحليل بنية الدولة العثمانية وموقع العرب فيها ، وصولاً إلى مسألة الاصلاحات والتدخل الأوروبي وتفكك الدولة العثمانية ونشوء النزعات القومية فيها..

وإذا نظرنا إلى الدولة العثمانية من وجهات النظر المختلفة، باعتبارها دولة إسلامية وتركية وعمومية وجدنا أنه لم يكن فيها حواجز وحدود معينة تحجب العرب وتقصيهم عن الأنخراط في هذه الدولة (أو تحجب وتقصي على الأقل الأغلبية العظمى من الشعوب المسلمة الناطقة باللغة العربية). وقد سبق لي أن ذكرت ان الجماعة الحاكمة في هذه الدولة تركية، ولكن تركيتها هذه لم تكن على أساس الجنس أو العرق؛ وكانت الوظائف العليا في الدولة مباحة لجميع المسلمين، ولو أن الذين ملأوا هذه الوظائف كما يظهر وكانوا من أصل عربي كانوا قلة ضئيلة. ويستثنى من ذلك بعض الحالات، ومنها على سبيل المثال ابن فخر الدين حاكم لبنان الشهير في القرن السابع عشر، فقد دخل هذا في خدمة القصر العثماني بعد مقتل أبيه في أعقاب عصيانه على الدولة وأصبح موظفاً مشهوراً بين موظفي البلاط وسفيراً للسلطان لدى إمبراطور المغول في الهند. ومن ذلك أيضاً ما سمعناه عن بضع ولاة من أصل محلي في الأقاليم، كأسرة الجليلي التي حكمت في الموصل مدة استغرقت معظم القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر، وهي في الأصل اسرة مسيحية من شمال العراق ثم اعتنقت الديانة الإسلامية. ومع ذلك، فإن العرب بصورة عامة لم يكن لهم سلطة سياسية مباشرة في إدارة الحكم في الدولة العثمانية.

العرب ووظائف الدولة:

ولكن العرب وجدوا مجالاً أوسع لهم في سلك الوظائف الدينية، وكانت مراتب هذا السلك وسيلة للتنقل والعمل في المجتمع لأن لغة علوم الدين والشريعة كانت العربية، وكان العلم والتمسك بالدين من حيث المبدأ الواسطتين الوحيدتين اللتين يحتاج إليهما للوصول إلى الوظائف الدينية، هذا مع العلم بأن حقيقة الأمر لم تكن على هذا القدر من البساطة، ويدلنا على ذلك أن المراكز العليا في سلك الوظائف الدينية كانت أقرب تناولاً لخريجي المدارس السلطانية في استانبول ولأفراد الأسر التي لها عهد قديم مأثور في خدمة الدولة. حتى إن القضاة في الأقاليم كانوا يختارون من هذه الطبقة المفضلة ويرسلون من استانبول للعمل هناك لمدة محدودة، وفي هذا يتبين لنا مرة أخرى أن العثمانيين بحكم الغريزة كانوا يمنعون الفرد من رعاياهم أن تكون له سلطة أكثر مما يجب أو أن تكون له مدة أطول مما يجب. ويأتي بعد القضاة في عواصم الأقاليم موظفون آخرون كنواب القضاة والمفاتي للمذاهب المختلفة ونقباء الأشراف الحافظين لأنساب الأشراف من سلالة النبي، وهم طبقة الارستقراطيين الوحيدين من حيث النسب. وكان هؤلاء جميعاً من سكان الأقاليم المحليين، وكانوا في المدن العربية في أغلبهم من الأسر العربية العريقة الشريفة التي اشتهر عنها العلم والسيادة والزعامة، وكانت أقرب ما تكون إلى الأشراف أصحاب الطيالسة في أوروبا، وهي أسر ينتهي النسب ببعضها إلى ما قبل زمن العثمانيين وكان



الأمير بشير الثاني الكبير.

لها دور في المقدمة حتى الأزمنة الحديثة -كآل البكري في القاهرة وآل الخالدي والعلمي في القدس وآل الجابري في حلب وآل الكيلاني في بغداد. وكان هؤلاء الأشراف في عهد العثمانيين وقبله يقومون بدور الوسيط بين أصحاب السيف والسكان المحليين من عامة الناس. وكانوا في أهم الأمور موالين للسلطان مخلصين له، مع كونهم في الوقت نفسه الزعماء في مدنهم وورثة الحضارة المدنية الإسلامية. وقد حاول هؤلاء في بعض المرار أن يحدوا من جماح السلطة العثمانية أو نفوذها، وكانت الوسائط لهذا العمل متاحة لهم، لأنهم كانوا يستطيعون تعبئة الرأى العام وتجنيده عن طريق إستخدامهم للوعاظ ومشائخ الحارات وزعماء المنظمات الشعبية، بالإضافة إلى ما كان لهم من تأثير ونفوذ عن طريق الروابط المتصلة بينهم وبين أصحاب الوظائف الدينية على إختلاف درجاتهم في جميع أنحاء

الإمبراطورية وعلى رأسهم الرؤساء الدينيون في استانبول. والذي استطاعه هؤلاء في المدن كان زعماء العشائر وشيوخ الجماعات العرب يستطيعونه في الريف والصحراء – ومن هؤلاء شيوخ القبائل البدوية وزعماء الجماعات الجبلية وأصحاب القلاع والحصون كالذين منهم تولوا على قلاع الصليبيين في سوريا وأخذوها منهم من بعدهم وفرضوا من هذه القلاع سلطتهم على ما جاورها من البلاد. وكانوا، كما كان زعماء المدن وأشرافها، في وضع مبهم يقومون فيه بدور مثنوي: فكانوا يعترفون بالحكومة العثمانية في صورة من الصور وينسجمون مع الإدارة والنظام المالي، ولا يحاولون عادة الخروج عن طاعة الدولة، ولكنهم كانوا في الوقت نفسه يبذلون مقاومتهم للحدّ من زيادة التدخل من الدولة في مقاطعاتهم أو في حكمها. وهنا أيضاً ترد علينا أسماء لا تزال مألوفة لدينا – مثل آل شهاب وآل جنبلاط في لبنان وآل عبد الهادي وطوقان في نابلس، ومثلهم الأشراف في مكة الذين يتصل نسبهم بالنبي والذين كانت لهم سلطة محلية في الحجاز اعترفت بها بعض الإعتراف الحكومة العثمانية في استانبول، وهؤلاء هم أجداد الأسرة الهاشمية.

سرعة نشوء الدول:

والذين يذكرون الحرب العالمية الثانية منا وقد عاشوا حتى أدركوها يجدون أنه يسهل عليهم أكثر مما كان يسهل على رجال البحث من جيل سابق أن يفهموا كيف أن الدول الإسلامية كانت تقوم سريعاً وتزول سريعاً – على شكل جيوش كانت تغير من مدينة إلى أخرى من بين سلسلة المدن التي لم تكن تعتمد إلا على اقاليم واهية تحيط بها، والتي انتشرت متفرقة على الطرق التجارية يفصل بعضها عن بعض السهوب والصحاري. وليس العجب أن هذه التكوينات السياسية السريعة النشوء زالت من الوجود في معظمها ذلك الزوال العاجل، ولكنّ العجب أن بعضها كالدولة العثمانية بقيت في الوجود طول هذه المدة. ولكنّ الذي كان يجري عادة عاجلاً أو آجلاً هو أن الدافع الذي بفضله تم الحصول على إمبراطورية ما والابقاء عليها كان يأخذ في الوهن والتراخي، فيتلو ذلك التفكك والإنحلال في جسم الدولة، وكان هذا عادة يكون على سبيلين: الأول تبضع داخلي يصيب جهاز الحكومة، فتنقطع سلطة الحاكم عن حكم جيشه أو حكومته، وتفقد الحكومة المركزية سلطتها على الأقاليم؛ والثاني انتقاض القوى الإجتماعية وتمردها على التنظيم الذي سنته الحكومة، وانقلاب أعوان النظام إلى زعماء الانتقاض والثورة، وقيام زعماء الجبال وشيوخ السهوب والصحاري بالتولي شيئاً فشيئاً على أحواز المدن من الريف. ولما كانت الحياة الاستقرارية في الشرق الأوسط وفي شمال إفريقية لا تستند إلى قوام متين فإن هذه العملية التطورية كانت تسير نحو التحلل الإجتماعي: فكانت القبائل البدوية تدفع إلى الوراء النطاق الزراعي وتقصر من مداه فلا تعود الأرياف قادرة على إنتاج فائض يكفي للمحافظة على حياة حضارية معقدة ولا على حكومة حضارية ذات شوكة. ومع ذلك فإن هذه العملية التطورية الانحلالية كانت تحمل علاجها معها. كما بين ذلك ابن خلدون، وهو أن هذه المجموعات البدوية عاجزة عن إيجاد الحضارة؛ ولكن لو إستطاعت أسرة من الأسر ذوات الشوكة والحكم ان تسخر طاقات هذه المجموعات البدوية وتوجهها في سبيل كسب السلطة لأمكن إيجاد نظام سياسي جديد يستطيع متى وجد أن ينضم بما له من شأن وخطر إلى جانب الحياة الإستقرارية. لدعمها وتقويتها ضد المجموعات البدوية أنفسها.

وتتضح هذه العملية التطورية الانحلالية في الإمبراطورية العثمانية ابتداءً على الأقل من القرن

مدحت باشا _

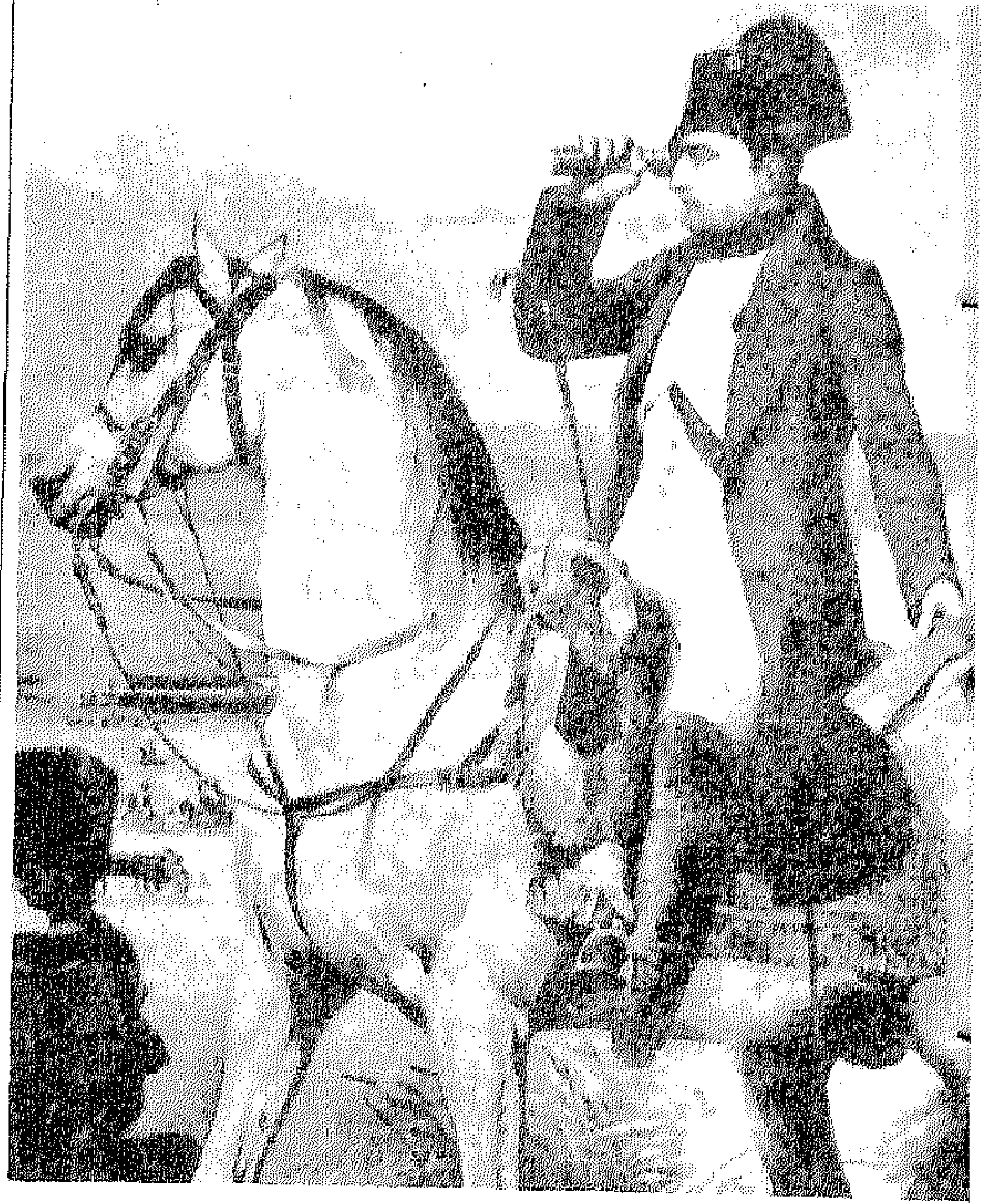


السابع عشر فصاعداً. ففي المركز ضعفت سلطة السلطان وقام صراع بين الفئات المختلفة في البلاط وفي الحكومة، ثم تلا ذلك شيء من الانتعاش بتحول السلطة نوعاً ما إلى الصدر الأعظم (رئيس الوزراء) وإلى كبار الموظفين في الإدارات الحكومية، ولو أنه كان تحولاً جزئياً واهياً. وجرت في الأقاليم حركة اللامركزية التي كانت ترمي إلى الإستقلال عن الحكومة المركزية شيئاً فشيئاً —ومن هذا القبيل بعض حكام الأقاليم ولا سيما في شمال إفريقية كطرابلس وتونس والجزائر، فقد أصبح هؤلاء مستقلين بالفعل ما كانوا يدينون لاستانبول إلا بقليل من الطاعة الاسمية. أما في غيرها من الأقاليم فكان يوجد شيء من التوازن القائم بين الحكومة المركزية والحكومة المحلية. وبعض الحكومات المحلية، كما في القاهرة وبغداد مثلاً، كانت في أيدي فئات من المماليك تتألف من الطبقة العليا في الجيش التي كانت حريصة على استدامة سلطتها؛ وكانت بعض الحكومات الأخرى في أيدي أسر عريقة محلية استطاعت أن تديم الحكم في أيدي أفرادها بالوراثة كآل الجليلي في الموصل أو كأمراء الوديان (دره بيكلر) في آسيا الصغرى. أما في المدن فإن عساكر الإنكشارية التي كانت فيما مضى تحافظ على النظام أصبحت على شكل منظمة سياسية تنطوي في بعض الأحيان على خطر على النظام. وفي الجبال تمكن أمراء الأقطاع في لبنان من أن يمدوا رقعة حكمهم حتى شملت سهل البقاع بين لبنان ودمشق، وانحدر الأمراء الأكراد إلى الجنوب نحو الفرات. وفي الصحراء قامت عشائر بدوية كبيرة (كعشائر عنزة وشمر وبني صخر) وتحركت نحو الشمال، وانتزعت صحراء الشام من العشائر الأخرى وأخذت تهدد سلامة الطرق التجارية، حتى إن قوافل الحجاج في سنة ١٧٥٧ من دمشق سلبتها عشائر بني صخر. ونشأت في قلب الجزيرة العربية حركة من تلك الحركات التي كانت تتكرر من زمن إلى آخر في التاريخ الإسلامي، وتكون نتيجة لتحالف بين مصلح ديني وأسرة حاكمة، وغرضهما خلق دولة إسلامية تقوم على التقوى والصلاح. وقامت الدولة الجديدة وهي الدولة الوهابية باحتلال المدن المقدسة، ورفضت السيادة العثمانية عليها ورفضت أيضاً أشياء كثيرة من الدين كما كان العثمانيون يدينون به. وبانهيار النظام المدني اقتحم رجال القبائل البدوية المناطق الحضرية فتقلصت رقعة الأراضي الزراعية لا في سوريا والعراق وحدهما بل حتى في مصر التي كانت أكثر البلاد استقراراً من حيث السكان. وقد بلغ من تفاقم هذه العملية التطورية الإنحلالية بانتهاء القرن الثامن عشر أن تعرضت الحضارة المدنية إلى خطر حقيقي في العراق لم تتعرض له بعد سوريا ومصر، لأن القاهرة ودمشق وحلب في القرن الثامن عشر كانت لا تزال مدناً باهية معمورة حسنة البنيان.

وكانت هذه العملية من وجه من الوجوه عملية طبيعية من نوع كان قد تكرر مرة بعد مرة في تاريخ البحر الأبيض المتوسط الشرقي والغربي، ولكنها كانت محبوكة بعملية جديدة أخرى، وهي عملية نمو الدول الأوروبية الكبرى وتعاظم سلطتها ونفوذها. وأول شيء في هذا كله القوة العسكرية. وكانت آخر الفتوحات العثمانية الكبرى فتح جزيرة كريت في سنة ١٦٦٩. وتلا ذلك حرب طويلة استمرت مع مجموعة من الدول الأوروبية وانتهت بصلح في سنة ١٦٩٩ لم يكن من مصلحة الدولة العثمانية. ثم جرى بعد ذلك في الستينات من القرن الثامن عشر حرب مع روسيا أظهرت عجز الأتراك عن التصدي لدولة أوروبية كبرى والثبات في وجهها، وقام اسطول روسي يوناني وجاس خلال البحر الأبيض المتوسط الشرقي وأنزل جنوداً في اليونان وفي بيروت. وبعد جيل من ذلك وفي سنة ١٧٩٨ احتل نابوليون بونابرت مصر مدة وجيزة. ورافق التبدل في ميزان القوى نمو في نفوذ أوروبا واضطرت الحكومة العثمانية إلى التحالف مع بريطانيا وروسيا لطرد الفرنسيين من مصر، وعلى أثر ذلك بدأ السفراء الأوروبيون يلعبون دوراً في سياسة الدولة في استانبول.

نمو النفوذ الأوروبي والاصلاحات:

ويتلخص تاريخ الإمبراطورية العثمانية في آخر طور لها في أنه كان نسيجاً من تشابك هاتين العمليتين. وأول ذلك أن نمو النفوذ الأوروبي ساعد على إيقاف الإنحلال والتفكك. فالخوف من أوروبا والضغط من أوروبا أيضاً دفعا الحكومة العثمانية إلى أن تصلح من شأنها؛ واستمدت أدوات الإصلاح ووسائطه من الأساليب العسكرية والإدارية الجديدة. وكانت مدة


نابليون بونابرت

الخمسين سنة تقريباً ابتداء من عشرينات القرن التاسع عشر مدة تغير سريع، كان يعرف بالتنظيمات أو بالتشكيلات الجديدة. وكان حدوث هذه التنظيمات نتيجة للعمل المشترك بين سلطان يرغب في الإصلاح وجماعة من كبار الموظفين كان لهم علم وخبرة مباشرة بأوروبا، وغرض ذلك كله أولاً إيجاد جيش حديث عصري وثانياً استخدامه في إعادة شوكة الحكومة المركزية وسلطتها على الأقاليم وكذلك خلق هيكل جديد من الإدارة والقوانين المدنية المركزية. ويأتي من وراء هذه الأهداف إلى حدّ ما إحياء الفكرة المثالية للملكية فيكون الحاكم حاكماً لا بحسب الأهواء والميول الخاصة ولكن بناء على العدالة الطبيعية المنصوص عليها في القوانين بحيث تكون هذه العدالة وهذه القوانين مقيدة بنظام إداري بيروقراطي. وكان يمازج ذلك أفكار مثالية جديدة كفكرة الرعوية التي معناها ان يكون لجميع أفراد الرعية التابعين للسلطان حقوق مضمونة ومتساوية وعلاقة مباشرة مع الحكومة؛ وفكرة «المدنية» التي معناها معيشة عصرية خاضعة لأحكام العقل ونشيطة وتقدمية وحرة بذاتها وهي المعيشة التي أوجدتها أوروبا الغربية ولكنها صارت مباحة لجميع العالم.

وينبغي أن لا نستهين بالنجاح الذي احرزته هذه الإصلاحات. لأننا لو قايسنا بين الإمبراطورية في ١٨٧٠ وما كانت عليه في ١٨٢٠ لوجدنا ولا شك أن المستوى الذي كانت عليه الإدارة والعدالة قد ارتفع؛ وأصبح السكان من غير المسلمين يتمتعون بحرية أكبر من ذي قبل، وأصبحت الأقاليم البعيدة مثل الحجاز وطرابلس الغرب في إفريقية محكومة من استانبول حكماً أوثق وأضبط؛ وجرت إصلاحات في إدارة الولايات والأقاليم واتسعت رقعة الأراضي المزروعة، وانتشرت فكرة مفهومة عن القومية العثمانية؛ وشمل التحسين مرافق العيش في المدن والموانئ الكبرى على الأقل؛ وصارت الأمة العثمانية تجر نفسها بخطوات ثقيلة مترددة نحو الحياة العصرية. وبدت علائم ذلك، ليس في حالتها التافهة كما كانت في مكاتب الحكومة، بل إن البزة الرسمية الغربية والطربوش حلت محل الأثواب الفضفاضة والعمائم، وانتقل النبلاء والأشراف من بيوتهم في أحياء المدن القديمة وسكنوا منازل حديثة على الطراز الإيطالي على خليج البسفور، وفي أحياء جديدة تمتد من القاهرة القديمة إلى ازمير وبيروت؛ حتى إن السلطان نفسه كان قد انتقل من السرايا القديمة إلى قصر على شط البحر، مزين جميعه بالثريات والمرايا المذهبة والأثاث الوثير، ولم يعد يظهر بمظهر الطاغية الشرقي، بل أخذ يظهر بمظهر حاكم مستبد عادل وعلى كتفيه رمانات من الوشي والقصب للزينة وعلى صدره النياشين بلحية مهندمة، من جملة سلسلة من الحكام المستبدين العادلين ممتدة من بطرسبورغ إلى فينا وباريس ومن دون بدرو في البرازيل إلى الإمبراطور مكسمليان في المكسيك والملك كاميهاميا في هوايي.

ولكن عملية الإصلاح هذه كانت تنطوي على مواطن للضعف وأماكن للتناقض أدت بكيان الدولة المتحلل والمتفكك إلى نهايته المنطقية المحتومة. فإن عوامل الإصلاح مجتمعة نفسها كانت واهية وعرضة للإنهيار والعطب، وذلك ان السلطان كان يريد سلطة استبدادية مطلقة في حين أن البيروقراطية الإدارية كانت تريد السلطة المقيدة بالمبادئ والمحدودة بالقوانين، وهاتان الإرادتان لم يمكن التوفيق بينهما في النهاية، وأدى الأمر إلى انشقاق بينهما في زمن السلطان عبد الحميد عند نهاية القرن التاسع عشر. والعلماء الذين قبل البعض منهم بالإصلاحات الأولى وأقروها، تنكروا لهذه الإصلاحات ووقفوا منها موقف العداء لما تمادت

واصبحت تهدد كيان الشريعة الإسلامية ؛ وقام بعض الموظفين بفكرة تدعو إلى الحكم الدستوري ؛ ومنح الدستور فعلاً لبضع سنوات في السبعينات من القرن التاسع عشر. وكان في الأقاليم حكام محليون أقوياء تمكنوا من إجراء إصلاحات وتنظيمات على الشكل الذي يرغبونه. واحرزوا بذلك نجاحاً أكثر مما أحرزه غيرهم وذلك لأن المناطق التي كانوا يعملون فيها كانت أصغر حجماً وأكثر انضماماً وتماسكاً. وأصبحت تونس تحت حكم البـاي ومصر تحت حكم محمد علي بحكم المستقلتين استقلالاً تاماً.

وكان ينطوي تحت هذه التغييرات في شكل الحكم تغييران مهمان في النظام الإجتماعي، ظلت نتائج كل منهما مستمرة حتى بعد زوال الإمبراطورية. وأولهما التغيير الإقتصادي في بعض الأقاليم على الأقل:

التغيير الاقتصادي والانشقاقات القومية:

فالشرق الأوسط مثلاً أصبح مربوطاً بالنظام التجاري الغربي على أساس كونه مزرعة اقتصادية لإنتاج المواد الخام للصناعة الأوروبية وإنتاج السلع الصناعية المهمة. وعلى الخصوص مصر التي كانت اقتصادياتها جميعها مكيفة على أساس إنتاج القطن من النوعية الجيدة في أراضي السقي من أجل مصانع النسيج في لانكشير في بريطانيا. وكانت النتيجة حدوث تغيير في نسبة القوة والرخاء عند الطبقات الإجتماعية المختلفة، وانحطت بذلك طبقة التجار المسلمين القدماء وانحطت معها طبقة الصناع اليدويين بسبب ما لاقوا من المزاحمة من البضائع المصنوعة بالآلات ؛ وهذا ما جرى للبدو من السكان الذين كانوا في اقتصادياتهم يعتمدون على الإبل للنقل، فتضعضعت هذه الإقتصاديات بمجيء وسائل النقل والسفر الحديثة. ثم إن طبقة جديدة من أصحاب الأراضي ظهرت في البلاد. بفضل المنح المالية من الحكام أو بسبب تسجيل أراضي الدولة بأسمائهم، أو عن طريق إقراض الأموال للمزارعين، أو إعمار أراضي جديدة وفلاحتها ؛ وظهر أيضاً نوع جديد من التجار يعيش على تجارة الوارد والصادر مع أوروبا – ومعظم هؤلاء في المراتب العليا من التجار الأوروبيين. أو في المراتب الدنيا من التجار المسيحيين واليهود الشرقيين.

وثانيهما التغيير الفكري عن طريق المدارس الجديدة ودخول الطباعة والجرائد وترجمة الكتب من الإنكليزية أو الفرنسية والرحلات والعيش في عالم تسيطر عليه أوروبا والمدنية الأوروبية. وانتشرت بين الموظفين وضباط الجيش والمعلمين والتجار أفكار جديدة تتعلق بالمجتمع وبكيفية تنظيمه، ولا سيما فكرة تنظيم المجتمع على أساس وطني يقوم على عاطفة الولاء القومي والوحدة القومية وينضم تحت لوائها أفراد الطوائف الدينية المختلفة أو الفئات الاجتماعية المختلفة – وهي وطنية علمانية صريحة ولها مع ذلك كما لكل شيء في الشرق الأوسط عنصر ديني خفي. ولعل السبب في أن فكرة الأمة العثمانية كانت أوهى من أن تقوى على مقاومة الأفكار القومية التي كانت أمتن منها وإن كانت أقصر مدى: فبدأ العرب واليونان أولاً بإيجاد دولة قومية خاصة بهم، ثم تبعهم في ذلك الرومان والبلغار، وسرت هذه الفكرة إلى الأرمن ثم إلى الأتراك أنفسهم، وإلى الشعوب المسلمة الأخرى من بعدهم وهم العرب والألبانيون والأكراد.

وفي عملية التفلق والانشقاق هذه أيضاً نرى أن اتساع النفوذ الأوروبي كان عاملاً يزيد من تعقيد الموقف. فقد توطد للأوروبيين حكمهم المباشر لبعض الأقاليم النائية من الإمبراطورية العثمانية، كحكم الفرنسيين للجزائر ابتداءً من ١٨٣٠ ولتونس إبتداء من ١٨٨١، وحكم البريطانيين لمصر ابتداء من ١٨٨٢ وحكم الإيطاليين لليبيا ابتداءً من ١٩١٢ ؛ حتى إن أجزاء الإمبراطورية التي بقيت عثمانية إلى النهاية كان فيها نفوذ أوروبي شامل. فالبنوك الأوروبية والتجار الأوروبيون وضعوا سيطرتهم على القطاع الاقتصادي المتزايد في النمو، وتولت الشركات الأوروبية صاحبات الإمتيازات بناء المرافق العامة. وكان المسيحيون واليهود الشرقيون في الغالب يتمتعون بحماية الدول الأجنبية، وكانت الملل بأجمعها على صلات بهذه الدولة أو تلك من هذه الدول الاجنبية – فالكاثوليك كانت صلتهم بفرنسا والأرثوذكس بروسيا. وكان المسلمون والمسيحيون واليهود على السواء يرسلون أبناءهم وبناتهم إلى المدارس التبشيرية ولم تكن السفارات في استانبول وحدها مراكز


السلطان عبد الحميد
خان الثاني

للتماسك والترابط الإجتماعي وللحياة السياسية بل كانت القنصليات أيضاً مراكز لذلك في عواصم الولايات والأقاليم. وفي بعض الأجزاء من الدولة كانت مناطق النفوذ قد تحددت بحلول سنة ١٩١٤: فكان للفرنسيين نفوذهم في ساحل سوريا وكان للإنكليز نفوذهم في جنوب العراق. ولما تجزأت الإمبراطورية بعد ١٩١٨، كان تجزؤها على منوال كانت قد تبينت خطوطه من قبل.

ولا أريد أن أتتبع بالتفصيل عملية الإنهيار، ولكني استسمحكم في ذكر نقطة أخيرة، وهي أن كثيراً من الأمور المشتركة بين بلاد الشرق الأوسط يمكن تعليلها بأن هذه البلاد كانت واقعة مدة طويلة تحت حكم العثمانيين، وأن كثيراً من الأمور التي تباين بلداً منها عن الآخر يمكن تعليلها بأن هذه البلاد اختلفت فيها الكيفية التي خرج فيها كل بلد منها من حكم الإمبراطورية العثمانية. فالإتصال بين العثمانيين من جهة وتونس والجزائر من جهة أخرى كان قد أصبح بعيداً وضعيفاً قبل مجيء الفرنسيين، وكان من الأثر البالغ الشديد الذي أحدثه الإستعمار في البناء الإجتماعي أن ما بقي من الطابع العثماني على البلاد لم يكن إلا قليلاً. وحدث الفتح الإيطالي في طرابلس الغرب في آونة تقوت فيها الصلات والروابط مع استانبول بفضل المواصلات المحسنة وبفضل إحياء الدستور في ١٩٠٨: ولبث في طرابلس الغرب في العقود الأولى من الحكم الإيطالي شيء من الشعور الموالي للعثمانيين. أما الوضع في مصر فكان أكثر تعقيداً، وذلك أن محمد علي كان من ناحية ما حاكماً إقليمياً على الأسلوب التقليدي العثماني، وقد جمع في يديه جميع السلطة وأحاط نفسه بعدد من الضباط والموظفين في القصر كان أكثرهم من الأتراك، وجعل من السلطة السياسية سلطة إجتماعية باستيلائه على الأراضي. وكثير من هذه الأراضي فيما بعد أصبح ملكاً لطبقة جديدة من كبار أصحاب الأراضي، وكثير منهم كانوا من المصريين الأتراك. وكانت سلطتهم الإجتماعية تعارضها في الجانب الآخر سلطة التجار الأوروبيين والمشرقيين وأصحاب الأعمال

المصرفية. وجاء الإحتلال البريطاني في ١٨٨٢ من بعض النواحي نصراً لهؤلاء التجار وأصحاب الأعمال المصرفية، وإن لم يكن نصراً شاملاً كلياً، لأن البريطانيين في حكمهم للبلاد كانوا على على تحالف غير مستقر مع القصر والبلاط الذين كانا لا يزالان تركيين في غالبيتهما؛ وكانت الحركة القومية المصرية، مع اتجاهها المعادي في الغالب للوجود البريطاني، تنطوي على تيارات خفية مع العداء للحكام وأصحاب الاراضي الأتراك وظل الصراع المثلث الجوانب بين البريطانيين والقصر والحركة القومية مستمراً في أشكال مختلفة حتى ١٩٥٢، وكان القصر حتى ذلك الوقت بؤرة لنفوذ المصريين الأتراك وسيطرتهم على الدوام.

والدولة القومية لتركيا نفسها نشأت من خرائب الإمبراطورية ومن رفض متعمد للماضي العثماني. واعتقد الوطنيون أن الشعب التركي كان قد بدد قوته في محاولة إخضاع الإمبراطورية، وأن استبداد السلاطين كان قد حال دون أي تقدم. ولكن هذا التخلي عن الماضي لم يكن عميقاً كما كان يبدو. فإن الدولة التركية الجديدة بنيت حول جهاز الإدارة العثمانية والجيش العثماني، ولعل هذا هو السبب في أن تركيا استطاعت ان تبقى مستقلة عن الوصاية الأوروبية. وكثير من الزعماء الأول (دون **أتاتورك** نفسه) كانوا ينتمون إلى أسر من أرباب الوظائف الإدارية والعسكرية الذين كانوا في المراكز الحساسة في

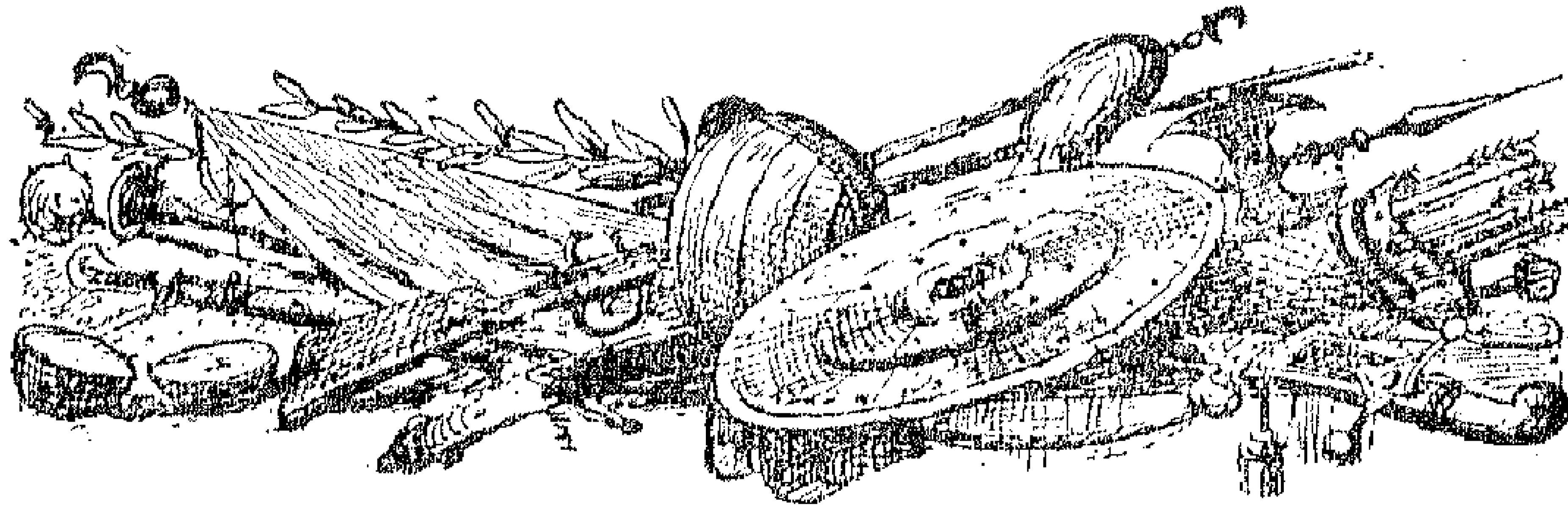


جندي متطوع
في الجيش العثماني.

الحكومة العثمانية وفي الحركات الإصلاحية. وخلق الإمبراطورية العثمانية والمحافظة عليها عمل عظيم جليل أنجزه الأتراك وليس في مستطاع الفكر التاريخي إذا تصور إنجاز هذه الأمور العظيمة التي تعتمد عليها الدول القومية ان يتنصل طويلاً من هذا العمل العظيم الجليل ويرفضه.

ولعلّ وضع العرب في سوريا والعراق وما أحاط بهما من المناطق كان أشد الأوضاع تعقيداً. فإن الزعماء الطبيعيين للأقاليم العربية، وهم أفراد الأسر النبيلة في كبريات المدن، كانوا قد اندمجوا اندماجاً وثيقاً في الجهاز النظامي العثماني في أواخر القرن التاسع عشر، وكان أبناؤهم يدخلون الخدمة العسكرية والمدنية في الإمبراطورية بعد تخرجهم من المدارس المهنية؛ وقام هؤلاء الزعماء بعد إعادة الدستور في ١٩٠٨ بدور مهم في السياسة العثمانية – لأنه لما ذهبت مقاطعات البلقان أصبحت الإمبراطورية في الغالب دولة تركية عربية. ثم إن هؤلاء الزعماء لم يستطيعوا أن يتجاهلوا دعوى السلطان بأنه آخر شيء تتجسد فيه عظمة الإسلام. ولكن تعاظم العنصر القومي التركي في الحكومة العثمانية نفر هؤلاء الزعماء منها، وأصبحت القومية العربية فكرة أتاحت لهم سبيلاً جديداً للإعراب عن سخطهم. واتفق ان الحرب العالمية الأولى قامت في زمن كانت العلاقات فيه بين الأتراك والعرب العثمانيين على أشد ما تكون من التوتر، ومن هنا حدثت الثورة العربية ضد الحكم التركي؛ ولكن معظم العرب الذين انضموا إلى الثورة كان إنضمامهم إليها مشوباً ببعض المخاوف والريب الناشئة عن تجزئة الدولة وتفريق وحدتها ووحدة الشعوب الإسلامية، وكثير من هؤلاء ندموا فيما بعد على عملهم الثوري هذا، حتى إن التراث العثماني ظل باقياً ولو بعد الإنفصال النهائي بين الشعبين. وكانت الحركة القومية العربية في الجيل الأول يقودها أفراد من الأسر النبيلة أنفسها وموظفون وضباط من موظفي السلطان وضباطه، وجلبوا إلى الحركة أسلوباً معيناً من الإجراء السياسي، وذكريات من الوحدة العثمانية. وفي الإجتماعات التي نشأت عنها الجامعة العربية في ١٩٤٤ – ١٩٤٥، لاحظ كثير من المراقبين ولا بد بدهشة شديدة مبلغ الصلات العثمانية والعربية بين المتكلمين عن الدول العربية المختلفة إلى الشرق من مصر؛ فقد كان هؤلاء معاً في المدارس في استانبول، وكانوا في جيش واحد أو خدموا حكومة واحدة؛ وكانت نظرتهم إلى العالم نظرة مشتركة؛ وكان من وراء الصورة الذهنية للوحدة العربية ذكريات عن عظمة إمبراطورية أصبحت مفقودة.

■



● في الحياة غرضان جديران بالعناية، أن تظفر بما تبغي وأن تتمتع به بعد ذلك. واحكم الحكماء هو الذي يدرك الغرض الثاني.

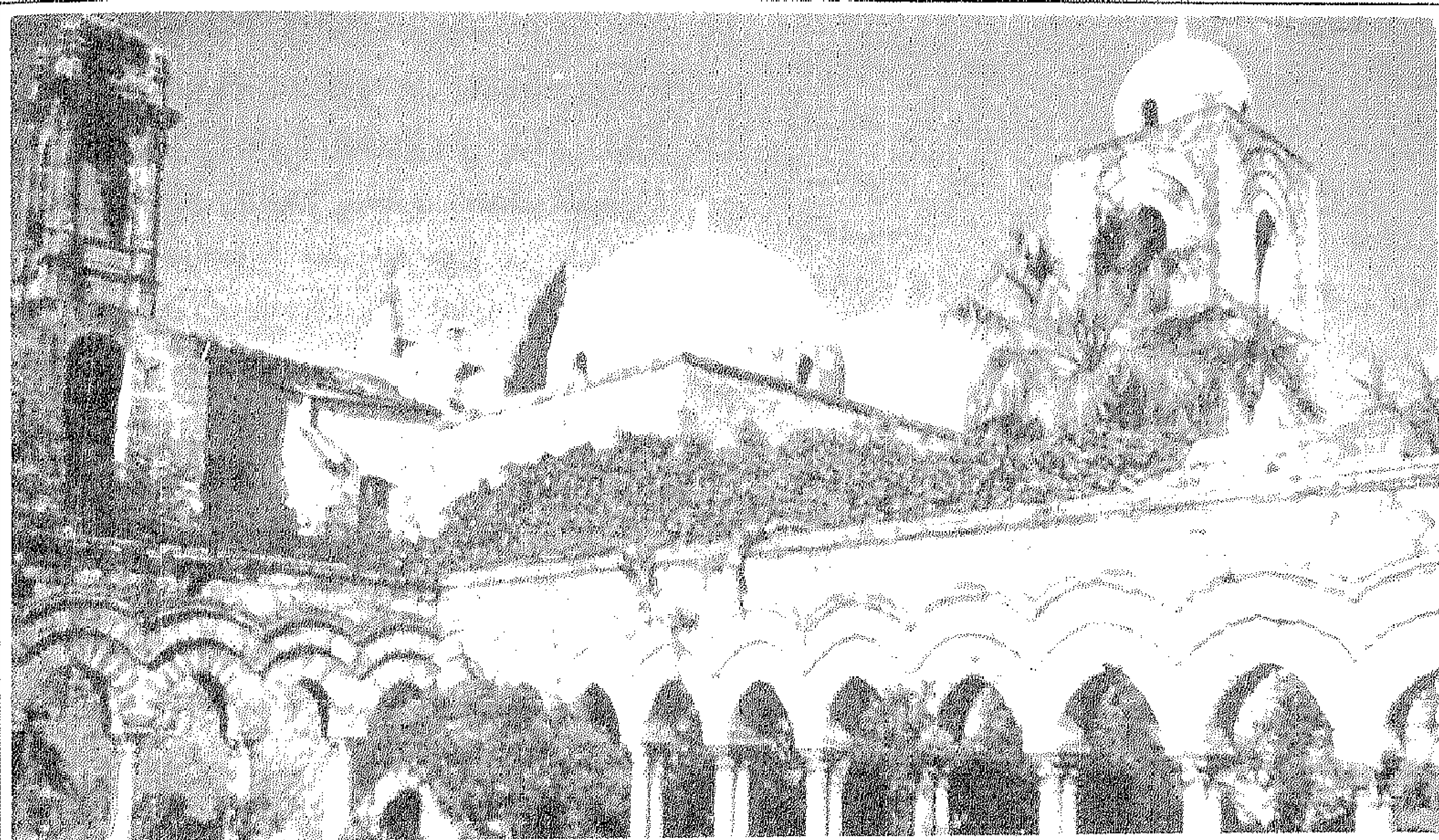
بيرسل سميث

● يستطيع كل حاكم أن يقيم لنفسه عرشاً من السيوف والحراب ولكنه لا يستطيع أن يجلس عليه.

القسيس أنج

منابع الحضارة الأوروبيّة الحديثة

د. محمد مخزوم



Diapo كنيسة القديس حنا في صقلية (بالرم) شيدها روجر الثاني ١١٣٢ ويبدو التأثير العربي فيها واضحاً.

مثلت الحضارة العربية احدى المنابع الرئيسية التي استقت منها أوروبا حضارتها. وما يشار إليه بعصر النهضة الأوروبية، في القرن الخامس عشر، انما يدين في الحقيقة بجذوره الأولى إلى الحضارة العربية التي بلغت عصرها الذهبي بين القرنين التاسع والحادي عشر. وقد مثل العرب في هذه المرحلة دور المحافظ على التراث الكلاسيكي من جهة، ودور المبدع الخلاق في جميع الميادين الحضارية من جهة ثانية. ومع ان أوروبا عرفت النهضة الكارولنجية إلا انها لم تكن نهضة شاملة كما انها اقتصرت على مناطق جغرافية محددة تقطنها شعوب مستقرة نجت من براثن القبائل الغازية البدائية. بينما امتازت الحضارة العربية في هذا الوقت بشموليتها وعالميتها. إذ تطعمت بحضارة اليونان والفرس والهند، واشتملت على جميع الميادين العلمية، وساهم بها مفكرون وعلماء من عناصر مختلفة، كما امتازت بانسانيتها حيث أفادت منها شعوب الامبراطورية الاسلامية المترامية الأرجاء كما أفادت منها شعوب الامبراطورية البيزنطية وغرب أوروبا.

وهكذا تمت عملية تطعيم حضارة أوروبا القروسطية بالحضارة العربية أواخر العصور الوسطى عبر ثلاثة ميادين أو منابع رئيسية لكل منها أهميته وميزته الخاصة وعناصره الحضارية المختلفة:

أولاً : الاندلس وشمالي افريقيا :

شكلت هذه المنطقة المتجانسة حضارياً إلى حد بعيد، الأهمية الأولى في عملية التمازج الحضاري بين الثقافة الإسلامية الشرقية والثقافة الأوروبية. فاسبانيا كانت ملتقى شعوب مختلفة حدثت فيها عملية امتزاج إجتماعي واسعة النطاق. كما كانت ملتقى اللغتين العربية واللاتينية. وقام عرب أسبانيا بدور عظيم في جميع المجالات الثقافية والعلمية والأدبية وكان من نوابغهم ابن باجة وأبن رشد وأبن طفيل وأبن عربي والبكري والأدريسي وأبن جبير ثم أبن زهر وغيرهم من الذين بلغت غلومهم من الدقة بحيث أقبل على مؤلفاتهم طلاب العلم من كل أنحاء أوروبا. «فالشيء الذي لا يمكن نكرانه هو أن عرب اسبانيا خلقوا مدنية زاهرة واتقنوا تنظيم الحياة الاقتصادية في الوقت الذي كانت تنوء أغلب اصقاع أوروبا تحت نير الشقاء والاغلال مادية كانت أم روحية. أجل فقد لعب عرب اسبانيا دوراً خطيراً [عظيماً] في تقدم الفن والفلسفة والشعر حتى ارتفع تأثيرها إلى أعلى قنن الفكر المسيحي في القرن الثالث عشر بظهور توما الاكويني ودانتي» (جون ترايد : تراث الاسلام).

اشتهرت المدن الإسبانية الثلاث طليطلة وقرطبة واشبيليه، بعد سقوطها بيد الأوروبيين، بازدهار حركة الترجمة من العربية إلى اللاتينية فيها. وقد تم للأوروبيين فعلاً ترجمة الجزء الأكبر من تراث العرب في القرن الثالث عشر بواسطة مدارس الترجمة التي أقامها حكام واسافقة هذه المدن. وقد نسب إلى جيرار الكريموني من مدينة طليطلة ترجمة ثمانين مؤلفاً في جميع حقول العلم والمعرفة. وهكذا تكون استفادة الغرب الحضارية من سقوط طليطلة قد فاقت استفادتهم منها كموقع جغرافي أو كمكسب حربي وسياسي. «ومن طليطلة انتشر التيار العظيم من مراكز الفكر العربي من جنوب فرنسا، ووصل إلى دير كلوني وعن طريقه وصل إلى اقليم اللورين، والمانيا وانجلترا وكل أوروبا الغربية، وكان العرب قد اضافوا إلى التقدم الإنساني أهم اسهام في العصر الوسيط» (ريسلر: الحضارة العربية).

ثانيا : صقلية :

تعتبر صقلية الميدان الثاني بعد اسبانيا الذي تم عبره انتقال الحضارة العربية الإسلامية إلى غرب أوروبا. فالعرب حكموا هذه الجزيرة مدة قرنين ونصف القرن، ومعهم انتقلت حضارتهم اليها حيث كان المسلمون والمسيحيون يعيشون جنباً إلى جنب.

فقام حكام صقلية بالدور الأول لتثبيت دعائم حضارة العرب فيها. بل انهم جعلوها مركزاً من مراكز الأشعاع للثقافة العربية. وأقاموا الاكاديميات والمدارس للترجمة ونقل العلوم إلى الغرب. واشتهر من هؤلاء الحكام روجر الثاني الذي كان بلاطه يزخر بالعلماء والادباء والمترجمين. ثم الامبراطور فريدريك الثاني الذي نشأ في صقلية وتأثر فيها بالثقافة العربية الإسلامية تأثراً بالغاً. كما انه اكتسب عاداته الشرقية أثناء حملته الصليبية المسالمة إلى الشرق. فجعل بلاطه مشابهاً لبلاط الخلفاء المسلمين وجمع فيه عدداً كبيراً من العلماء والأدباء من مختلف الأديان والجنسيات. وأنشأ في نابولي أكاديمية لتدريس وترجمة علوم العرب إلى اللاتينية. وهكذا لم يكن تقاعس فريدريك الثاني عند القيام بحملته الصليبية رغم تشدد البابوية ازاء هذا الأمر، إلا لكونه قد فضل إقامة علاقات سلمية مع من كان يعتبرهم حملة مشعل الحضارة العالمية. ولهذا فقد كانت النهضة العلمية التي اقامها فريدريك الثاني في صقلية سلاحاً قوياً لمواجهة الحرم الكنسي الذي رمته به البابوية مرتين.

كما أن شارل دانجو لم يكن أقل تمشرقاً من فريدريك الثاني رغم كونه قد شارك في حملة لويس التاسع إلى مصر. فجمع في بلاطه أيضاً المترجمين والعلماء والادباء حيث سادت فيه العادات والتقاليد الشرقية الخالصة.

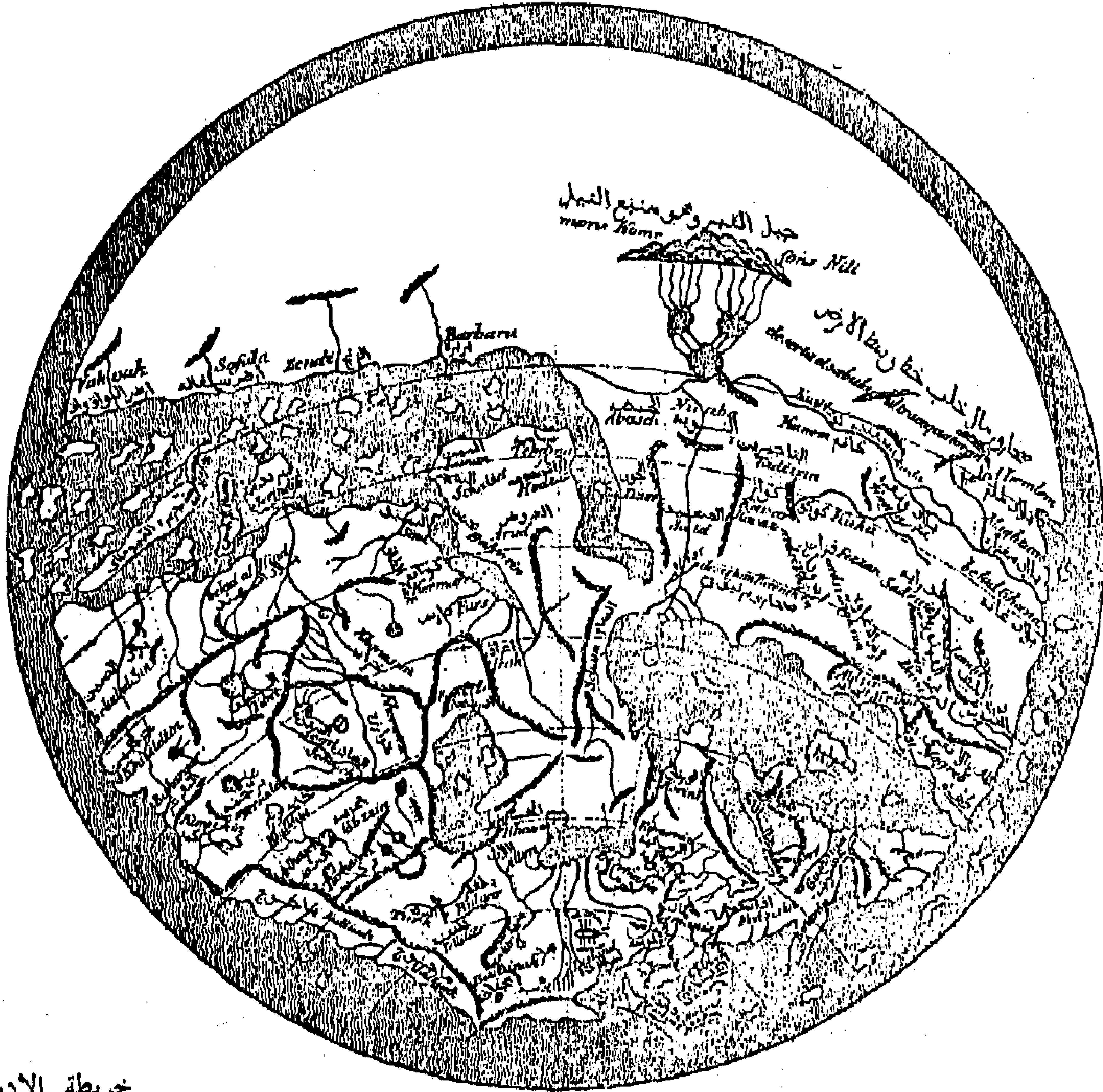
ثالثاً : الحروب الصليبية :

يؤكد أكثر المؤرخين الذين كتبوا في الحروب الصليبية أن الحضارة العربية قد انتقلت إلى الغرب عبر اسبانيا وصقلية فقط وأن الصليبيين كانوا عاجزين عن فهم هذه الحضارة مستندين بذلك على استمرارية العلاقات الحربية بين الطرفين وعلى أن الحضارة في الشرق كانت قد بدأت بالأفول في وقت أصبح فيه المجتمع العربي مجتمعاً حربياً غير متجانس يسوده

الاضطراب والتفكك والنزاعات المحلية على السلطة .

صحيح أن الصليبيين لم يهتموا كسكان الاندلس وصقلية بنقل علوم العرب إلى الغرب عن طريق ترجمتها أو تدريسها . ولكنهم خبروا هذه العلوم عن قرب أكثر بفضل الاحتكاك المباشر اليومي الذي كان يتم عبر العلاقات الاقتصادية التي تزدهر أوقات السلم . وبفضل هذا الأختبار والفائدة من الأعمال الطبية والحسابية والفلكية والجغرافية ازداد اقبال علماء أوروبا وأساتذتها على علوم العرب في جهات الاندلس وصقلية لكون جماعات الصليبيين العائدين إلى بلادهم بعد أن فشلوا في الحصول على مكسب مادي في الأراضي المقدسة كانوا يتحدثون عن حضارة العرب في الشرق بين ذويهم وفي مجتمعاتهم . ومما يؤكد ذلك ما قام به شارل دانجو عندما تولى العرش الصقلي بعد فشل حملته على الشرق . كما أن غالبية الأسياد من الفرنجة في الامارات اللاتينية قد اتقنوا اللغة العربية خاصة في عهد لويس التاسع وفريدريك الثاني .

يذكر Foucher de chartre أحد مؤرخي الحروب الصليبية المعاصرين بما معناه أن الغربيين قد تحولوا إلى سكان شرقيين . فالفرنسيون والايطاليون ليسوا الآن سوى مواطنين فلسطينيين وأن ابن مدينة الريمس أو مدينة شارتر قد تحول إلى صوري أو انطاكي . لقد نسي الفرنجة أصلهم حيث أصبح الواحد منهم يمتلك بيتاً وعائلة ويتكلم لغة البلاد . ومن كان هناك فقيراً أصبح هنا يتمتع في بحبوحة العيش ومن لم يكن يملك في أوروبا حتى ضيعة صغيرة أصبح هنا سيداً لمدينة بأكملها . لماذا نرجع اذن إلى الغرب طالما الشرق يحقق رغباتنا . أما ابن جبير الذي زار مدينة عكا في هذه الفترة ، فإنه يخبرنا بوجود بناء يجتمع فيه المسلمون والمسيحيون لاداء صلاتهم فيه وكل واحد يؤدي صلاته بإتجاه الوجهة التي يفرضها ايمانه : « في شرقي بلدة عكا مسجد بقي محرابه على حاله ، ووضع الأفرنج في شرقيه محراباً لهم . فالمسلم (والكافر) يجتمعان فيه ، يستقبل هذا مصلاه وهذا



خريطة الادريسي للعالم



ابريق نحاسي مكفّت بالفضة

مصلاه وهو في أيدي النصارى معظمٌ محفوظ ، وأبقى الله فيه موضع الصلاة للمسلمين » . كما يذكر أيضاً مشيراً إلى قيام علاقات ودية وسلمية بين الطرفين المتنازعين « ومن العجب أن النصارى المجاورين لجبل لبنان إذا رأوا به بعض المنقطعين من المسلمين جلبوا لهم القوت واحسنوا اليهم ويقولون : هؤلاء ممّن انقطع إلى الله عز وجل فتجب مشاركتهم » .

أتاحت العلاقات التجارية أيضاً التي قامت بين الشرق والغرب أثناء الحروب الصليبية فرصة كبيرة للتعرف على أحوال العرب وحضارتهم . وساهمت هذه العلاقات إلى حد بعيد في نقل الثقافة العربية إلى الغرب على أيدي التجار الأوروبيين الذين كانوا يفدون إلى الأراضي المقدسة . واكتسبت اللغات الثلاث الفرنسية والايطالية والانكليزية عن العربية معاني ومفردات لغوية متعدّدة خاصة فيما يتعلق بأمور البحرية . كما أطلق التجار الأوروبيون نفس المفردات اللغوية التي وضعها العرب على كثير من التوابل والبهارات والأقمشة والعطور ويظهر ذلك جلياً في قواميس هذه اللغات الثلاث .

وهكذا فإن الحروب الصليبية التي استمرّت مدة قرنين من الزمن ، وما تخللها من علاقات سلمية وحربية وتجارية أدت بطبيعة الحال إلى تعرف الغرب على حضارة العرب عن كثب وإلى الأخذ بمقومات هذه الحضارة نتيجة الفائدة العظيمة التي اكتسبها الأوروبيون من ممارستهم لها في جميع مجالات العلم والمعرفة . ولا يسعنا إلا أن نذكر بهذا الصدد بأن الأوروبيين بعد أن هضموا علوم الشرق واستوعبوها أقبلوا على ترجمتها ودراستها في القرن الثالث عشر حتى سمي هذا العصر بعصر الترجمة من العربية إلى اللاتينية . وهو ما يفسر عدم أخذ الأوروبيين بهذه الحضارة قبل ذلك . مع انه كان قد مضى على وجود المسلمين في اسبانيا وصقلية زهاء الخمسة قرون ومع أن حضارة القرنين التاسع والعاشر الميلاديين أيام هارون الرشيد والمأمون قد وصلت إلى عصرها الذهبي وفاقت حضارات العالم في ذلك الوقت .

شواهد من تراث العرب والمسلمين العلمي :

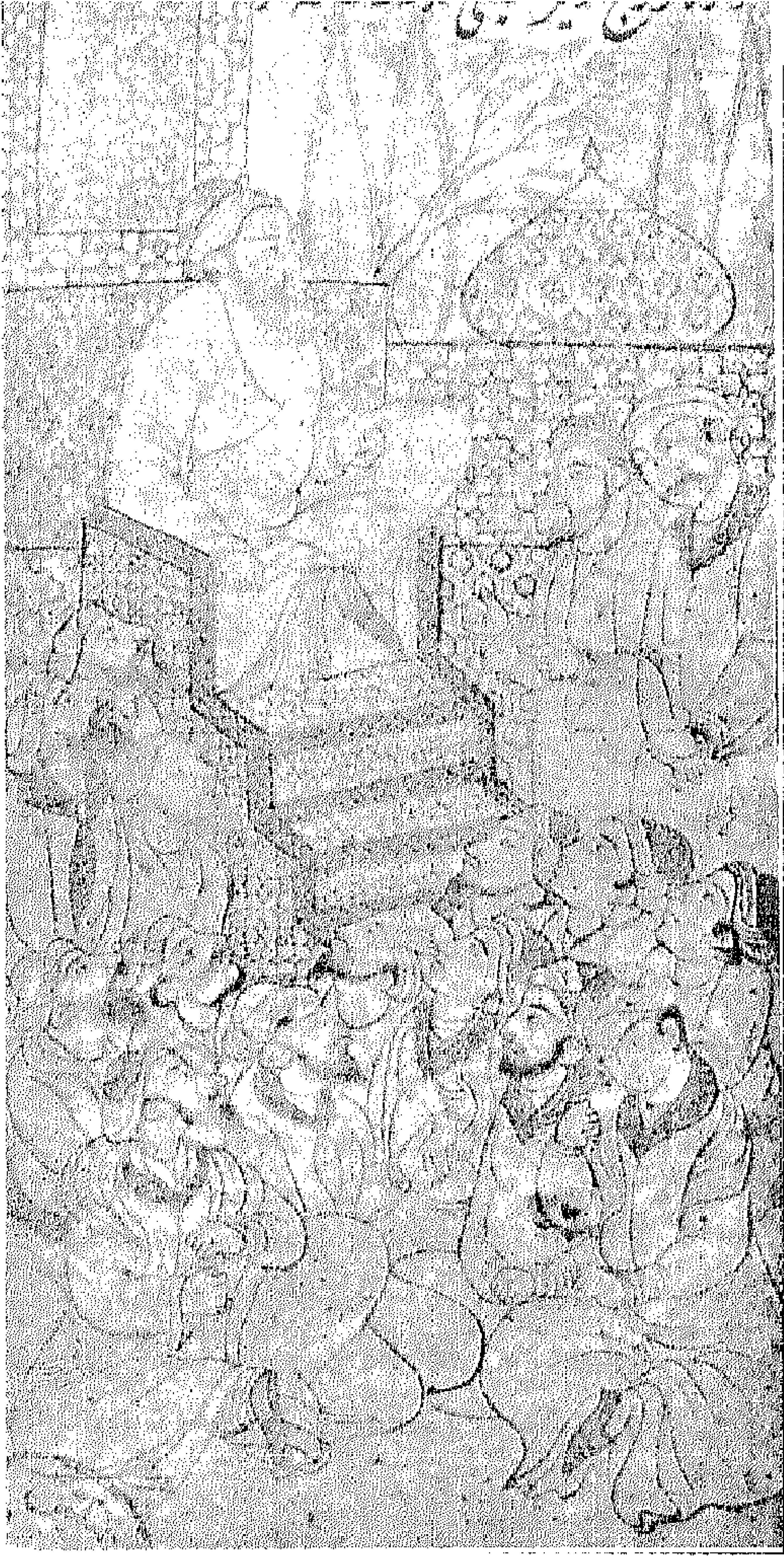
شملت المعارف الاسلامية والعربية التي تزود بها الغرب الأوروبي وكانت أساساً للنهضة الأوروبية جميع الميادين الحضارية ، فالطب عند العرب والمسلمين ارتقى إلى أعلى مكانته في العصور الوسطى ، بعد أن استوعبوا طب اليونان وعلومهم . وكانت تأليفات الرازي حول الجدري والحصبة وكتاباه الشهيران والمعروفان بالمنصوري والحاوي يعدان من أحسن ما كتب في هذا الميدان . وقد ترجم الكتاب الأول جيرار الكريموني إلى اللاتينية بينما ترجم الكتاب الثاني فرج بن سالم للملك شارل دانجو وطبع لأول مرة سنة ١٤٨٦ واستمرت طباعته تتجدد حتى القرن الثامن عشر نظراً لرواج تدريسه في جامعات أوروبا . أما ابن سينا اشهر أطباء عصره فقد كتب « القانون » في الطب وللدلالة على أهميته نشير هنا إلى قول ما يرهوف « إنما هو تركيز لتراث المعارف الطبية اليونانية مضافاً اليها الزيادات العربية . فكان تأثيره على الطب عاماً وشاملاً . وهذا الكتاب يعتبر العمل الفريد وقمة المجد في تكوين المذاهب العربية . ترجمة جيرار الكريموني في القرن الثاني عشر إلى اللاتينية وتوجد منه نسخ خطية لا حصر لها . ولقد طبع في الثلاثين سنة الأخيرة من القرن الخامس عشر ست عشرة طبعة . وهذه الطبعات لا تشتمل على ما طبع من اجزائه طبعات متفرقة أو ما ألف في شرحه باللاتينية والعبرية واللغات الدارجة (الناشئة عن اللاتينية) فإنها سواء منسوخة أو مطبوعة لا يحصيها العد . واستمر العالم الأوروبي في طبع

الكتاب وتدريسه حتى نهاية القرن التاسع عشر. وربما لم يدرس كتاب في الطب على مر العصور كما درس هذا الكتاب. ولقد بلغ الطب الاسلامي عن طريق أبن سينا عميد الأطباء وأميرهم أوج عظمته».

ومن الأطباء العرب الذين نبغوا في الاندلس واقتصرت دراساتهم على هذه المهنة فقط ابن زهر وأهم كتبه «التيسير في المداواة والتدبير». كما يعتبر علي بن عيسى من أطباء العيون الشهيرين الذين بقيت كتبهم رائجة في أوروبا حتى القرن الثامن عشر.

ولم يقتصر نبوغ العرب والمسلمين في المجال الطبي على هذه الشواهد من الأطباء النابغين فقط. إذ أن تطور صناعة الطب المختلفة ارتبطت بازدهار علم الصيدلة وإقامة المؤسسات الطبية المجانية كما ارتبطت أيضاً بتنظيم هذه المهنة بوجوب الحصول على ترخيص من الدولة. وهكذا ساهم العرب والمسلمون في أحياء علم الطب وتطويره ورفعه فوق مستوى الشعوذة والخرافات وتسخيره في خدمة الإنسانية. فكانت مساهمة عظيمة في حضارة العصور الوسطى وشمعة مضيئة في تراثهم الحضاري «ويرجع أكبر الفضل في بقاء الطب العلمي في بلاد الغرب أثناء العصور (المظلمة) إلى الأطباء اليهود الذين نشروا المعلومات الطبية اليونانية - العربية في بلاد العالم المسيحي، وذلك عن طريق الثقافة البيزنطية التي انتشرت في جنوبي ايطالية وترجمة الرسائل الطبية اليونانية والعربية إلى اللغة اللاتينية». (ديورانت: قصة الحضارة).

هذا ولم يكن نبوغ العرب والمسلمين في مجال العلوم يقل أهمية عما ابتدعوه في صناعة الطب. وقد تجلت مآثرهم العلمية في اختراعاتهم واكتشافاتهم وأبحاثهم التي وضعوها في الحساب والجبر والهندسة والفلك وعلم البصريات التي اثبت العلم الحديث مدى صحتها. فكان استعمال الصفر والكسر العشري والأرقام الهندية في العمليات الحسابية بمثابة ثورة حقيقية في تاريخ الحضارة العلمية. فالخوارزمي يعد من أبرز الشخصيات العلمية في العصور الوسطى الذين اشتغلوا في علم المثلثات والجبر. كما اشتهر كل من ثابت بن قرة ونصير الدين الطوسي والفرغاني بمؤلفاتهم الفلكية والبتاني بعلم حساب المثلثات إذ كان خطأه في



ابن سينا يلقي درساً في التشريح

طول السنة الشمسية لا يتعدى الدقيقتين. أما البيروني شيخ علماء عصره فلم يترك علماً من العلوم إلا وكتب فيه. فتجلت بحوثه في الفلك والتنجيم والأرقام الهندية والاسطرلاب والكثافة النوعية. ويعتبر الحسن بن الهيثم من أعظم علماء الطبيعة الذين وضعوا أسس علم البصريات حيث «أرسى قواعد الفكرة في أن الضوء هو العامل أو المؤثر الخارجي الذي يحدث منه إحساس البصر، وهي فكرة لم تكن مقررة ولا معتمدة» (جلال مظهر: أثر العرب في الحضارة الأوروبية). ومما هو ثابت أيضاً أن العرب والمسلمين يعتبرون من واضعي أسس علم الكيمياء لما أدخلوه على هذا العلم من الدقة والملاحظة والتجارب. «ويكاد المسلمون يكونون هـم الذين ابتدعوا الكيمياء بوصفها علماً من العلوم، ذلك أن المسلمين ادخلوا الملاحظة الدقيقة، والتجارب العلمية، والعناية برصد نتائجها في الميدان

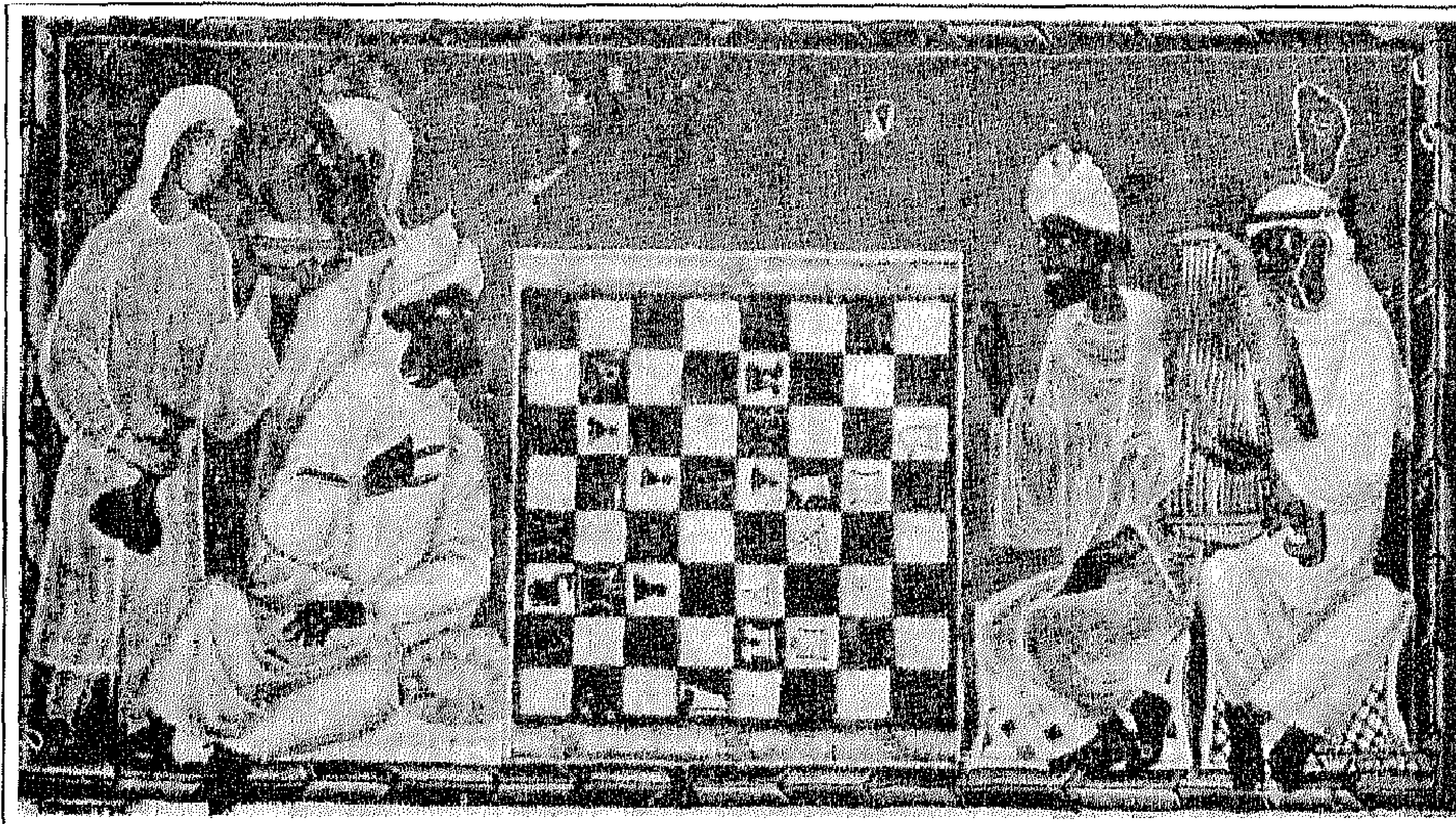
الذي اقتصر فيه اليونان – على ما نعلم – على الخبرة الصناعية والفروض الغامضة فقد اخترعوا الأنبيق وسموه بهذا الأسم ، وحللوا عدداً لا يحصى من المواد تحليلاً كيميائياً ، ووضعوا مؤلفات في الحجارة . وميزوا بين القلويات والأحماض ، وفحصوا عن المواد التي تميل اليها ، ودرسوا مئات من العقاقير الطبية ، وركبوا مئات منها » . (ديورانت : قصة الحضارة) .

كانت مساهمة العرب في تطوير علم الجغرافيا تسير جنباً إلى جنب مع بقية العلوم . فكانت الجغرافية الوصفيّة أهم منجزاتهم في هذا الحقل . فنبغ منهم المسعودي في «مروج الذهب» وياقوت في «معجم البلدان» والأدريسي في «نزهة المشتاق» ومما ينسب إليهم كذلك تصحيحاتهم للأخطاء التي وردت في كتاب بطليموس الجغرافي ووضعهم لخطوط الطول والعرض . ويذكر أبو الفدا في تقويم البلدان أن السفر حول الأرض بإتجاه الغرب ينقص يوماً وفي إتجاه الشرق يزيد يوماً مما يدل على إيمانهم العميق بكروية الأرض التي كان يرمي قائلها في أوروبا بالهرطقة ومخالفة نصوص الدين .

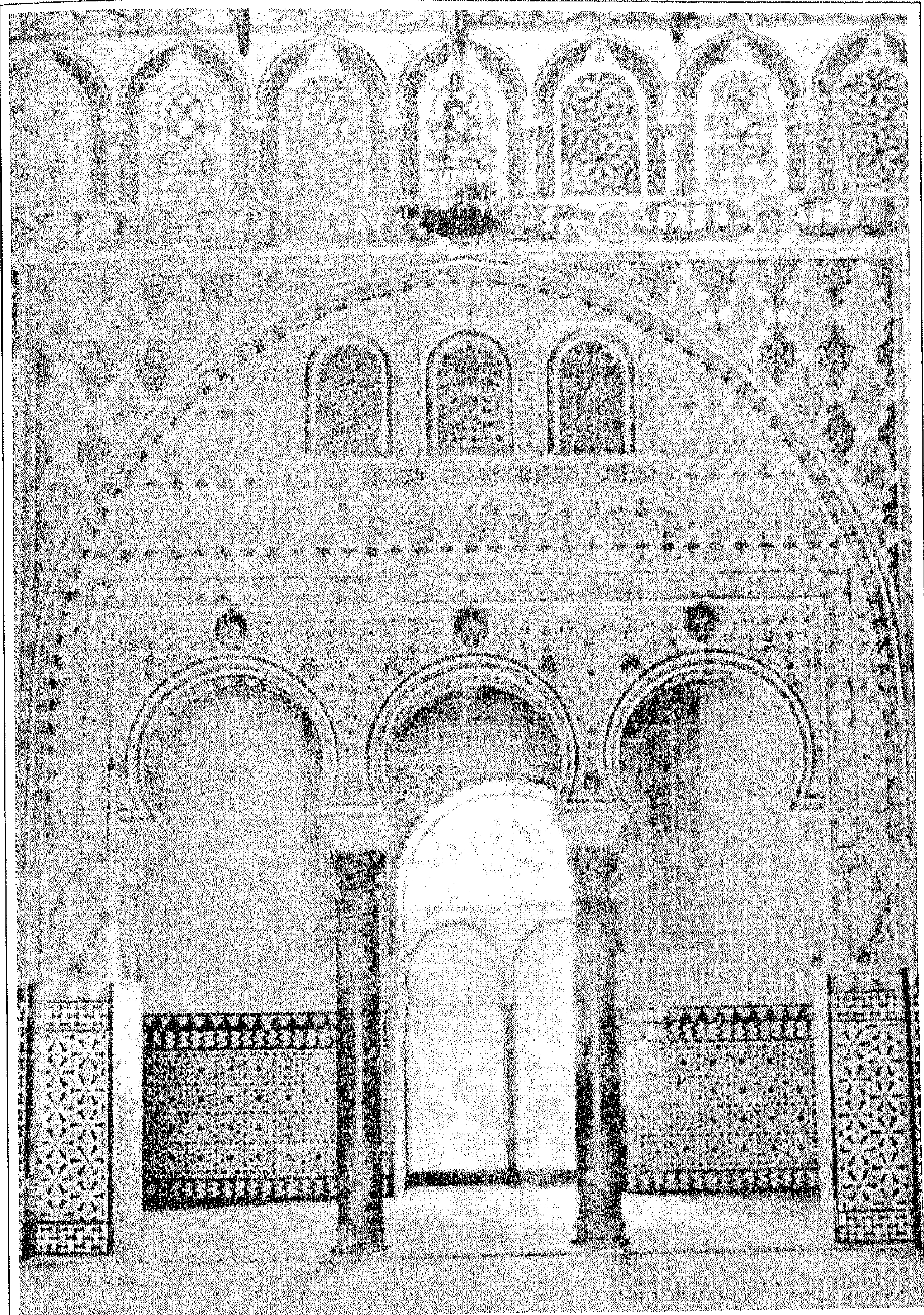
شواهد من تراث العرب والمسلمين الفلسفي والأدبي

أدى استقرار المسلمين وترفهم المادي إلى انصرافهم للتفتيش عن أسلحة عقلية تدعيماً لمذاهبهم السياسية المتصارعة على حلبة الدين . ولما كانت الفلسفة من أمضى الأسلحة فقد اقبلوا على النهل منها . فنشطت الترجمة إلى العربية وساد التسامح الديني أنحاء العالم الإسلامي مما سمح بهجرة علمية واسعة استقرت في بلاد الإسلام وبالتحديد في كنف بعض الخلفاء الذين افتتنوا بالفلسفة اليونانية وبسطوا حمايتهم الواسعة على الفلاسفة البيزنطيين اليونان والمترجمين من أهل الذمة . بل انهم سمحوا لهم بأن يتقلدوا مناصب عليا في الدولة الإسلامية . وهكذا جمع المسلمون مادة فلسفية غزيرة نتيجة للتفاعل الحضاري العظيم الذي نشأ عن امتزاج بين الحضارات اليونانية والفارسية والهندية والمسيحية ثم العربية . وكانت هذه المادة علمية خالصة . فالفلاسفة المسلمون كانوا في نفس الوقت علماء وأطباء حاولوا مساندة الدين بالفلسفة كابن سينا والكندي والرازي . وتشير آراء المعتزلة إلى أن القرآن إذا ما تعارض مع العقل فمن الواجب ان يفسر تفسيراً مجازياً وليس حرفياً . كما حاول ابن سينا أن يوفق بين فلسفته وعقائد العامة مستنداً على العقل وحده .

والفلاسفة المسلمون كشفوا عن الفلسفة اليونانية وأبدعوا في شروحاتهم لها . كما أضافوا عليها إضافات كثيرة وجعلوها وسيلة لخدمة الغرض الديني . وعندما عبرت فلسفتهم حدود الدولة الإسلامية إلى الغرب أخذت تحدث داخل الكنيسة المسيحية الهزة العظيمة



مسألة شطرنجية من مخطوط الفونسو الحكيم



القاشاني الملون في إسبانيا

التي عرفت بعد نضجها بحركة الاصلاح البروتستانتي . ولهذا فإن البابوية تخوفت أول الأمر من اقبال الأوروبيين على الفلسفة والشروحات العربية المترجمة إلى اللاتينية . فلجأت إلى سياسة التوفيق بينها وبين اللاهوت كما حاولت وضع اللاهوت في خدمة الدين . وعندما حاول سيجر البرابنتي في القرن الثالث عشر التوفيق بين العقل والإيمان ، كما فعل ابن رشد ، حرمت البابوية تعاليمه . وهكذا فإن الغرب الأوروبي في العصور الوسطى مدين إلى العرب بمعرفة فلسفة اليونان وخاصة فلسفة أرسطو على ضوء شروحات ابن رشد لها حتى باتت تعرف باسم الرشدية اللاتينية . ويذكر ريسلر أن توما الأكويني الف كتاب «الخلاصة» لكي يناهض فكر ابن رشد . ولكنه لم يستطع غير أن ينهج نهجه في شروحه المتنوعة . «ظلت فلسفة ابن رشد عاملاً حياً في الفكر الأوروبي حتى ميلاد العلم التجريبي الحديث . وقد حفظ اللسان اللاتيني أكثر من تأليف واحد لأبن رشد فقدت أصوله العربية وكان لفلسفته في الغرب خلال فترة من الزمن أن تفخر باجتذابها إهتمام أعظم مفكري العصر» . (الفردغيوم : تراث الإسلام) .

أما عن أثر العرب الأدبي في النهضة الأوروبية فيتضح في الكوميديا الالهية لدانتي التي استمدها من قصة الاسراء والمعراج . ولعل دانتي قد اطلع على القصص الإسلامية الدينية التي تناولت هذا الموضوع من خلال علاقة الايطاليين التجارية مع العرب . أو عن طريق صقلية المعبر الثاني للثقافة العربية إلى أوروبا . وقد كشف الايطالي ميشال آسين بالايتوس في دراسته «الكوميديا الالهية والإسلام» أن الاصول الاسلامية كانت الأساس الذي بنيت عليه الكوميديا الالهية . أما بوكاشيو فقد حذا في القرن الرابع عشر في كتابته «الأيام العشرة» حذو ألف ليلة وليلة وكليلة ودمنة وذلك لما نلمسه من مشابهة تامة بين قصصه وهذه . ومع أن الباحثين قد اختلفت آراؤهم حول أثر العرب في اشعار التروبادور والشعر الاسباني إلا انه لا يمكننا أن ننكر ما كان للغة العربية والشعر العربي الحماسي في القرون الوسطى من أثر بالغ على اداب الغربيين. «ولم تضارع حضارة من الحضارات ولم يضارع عصر من العصور - لا نستثني من هذا التعميم حضارة الصين في أيام لي يو ، ودوفو ، ولا حضارة ڤيمار - حين كان فيها مائة مواطن وعشرة آلاف شاعر - الحضارة الاسلامية في عهد الدولة العباسية في عدد شعرائها وتراثهم» . (ديورانت : قصة الحضارة) .

وهكذا كان أثر الحضارة الاسلامية عظيماً على العالم ، وإن هذا الأثر يعود إلى العرب أكثر مما يعود إلى بقية العناصر الذين أخذوا بهذه الحضارة . واستطاع العرب على حد تعبير لو بون أن يكبحوا بسلطتهم جماح العناصر البربرية التي حطمت حضارة الامبراطورية الرومانية . كما إنهم قدموا لأوروبا العلوم والاداب والفلسفة : فكانوا بذلك محضرينا ومعلمينا طيلة ستة قرون .

■

كوب عربي قديم من الزجاج



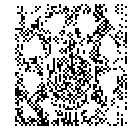
ملف الوطن العربي

العراق

بلاد الرافدين مهد حضارات عريقة حيّة تكيّفت مع الحضارة العربيّة الإسلاميّة

إعداد قسم الأبحاث والدراسات





من بين البلاد العربية القليلة التي شهدت فوق أرضها الطبيعية تواصل كبريات الحضارات العريقة في التاريخ واستمرارها في صورة أو في أخرى حتى عصرنا الحاضر، يبرز عراق ما بين النهرين (دجلة والفرات) كنموذج فريد من نوعه في الشرق العربي، لا يضاهيه، ربما في جانب واحد فقط من جوانب هذه المسألة، إلا مصر–النيل الخالد. فكما أن مصر هبة النيل كذلك العراق هبة الفرات ودجلة المتحابين على مر الزمن.

من هنا نفهم كل العمق والغنى الكبيرين لاستنتاج أرنولد توينبي الآتي:

«... نحن نعرف في كل من مصر والعراق القديم بداية الحضارة وبداية الزمن الذي احتل فيه الإنسان حوض النهر بصورة فعّالة. وفي الحالتين نجد نظاماً سياسياً قوياً ضخماً نسبياً بمقارنته بأي شكل من أشكال الحكم التي كانت قائمة في الواحات المحيطة في العصر الحجري الجديد السابق. وفي الوقت نفسه فإن الأوضاع السياسية القديمة في العالم السومري في العراق وفي العالم المصري القديم عند بدء الحضارة، يختلف بعضها عن البعض الآخر اختلافاً شديداً بناء على ما استطعنا أن نحققه في ردهما إلى اصولهما.



«وحينما يرتفع الستار عن السومريين في العراق، نجد أن العراق تألف من دويلات مستقلة صغيرة تتكون كل منها من مدينة واحدة ومن المناطق المحيطة بها. وحينما نرفع الستار عن التاريخ المصري نجد أن أول عمل كان توحيد مصر السفلى مع مصر العليا في مملكة متحدة تتكون منهما معاً. وهي التي استمرت في الواقع كوحدة سياسية وقومية واحدة حتى يومنا هذا.

«وبينما نجد أن التاريخ السومري في العراق بدأ بالدويلات المحلية المتعددة المستقلة عن بعضها البعض، نجد أن التاريخ المصري بدأ بالدولة العالمية لأن مصر، من وجهة نظر المصريين، كانت كل العالم. وفي الوقت الذي كانت العلاقات بين مصر وسوميريا (العراق القديم) نادرة وصعبة، كانت كل من الدولتين – من وجهتها – تمثل العالم المتحضر كله...

«وهكذا، فمنذ فجر الحضارة، نرى أن النمطين الرئيسيين للتنظيم السياسي وجدا. وهما اللذان ظلا في تنافس مستمر حتى وقتنا هذا وفي عالمنا المتحضر»[1].

الحضارات الأولى :

على رغم الاكتشافات الأثرية العديدة لحضارات بلاد ما بين النهرين القديمة والتي امتدت عمليات التنقيب عنها حتى مناطق الخليج العربي ، لا تزال الخلافات قائمة بين المؤرخين وعلماء الآثار حول أكثر من جانب أو فترة من هذه الحضارات ولكن ما يتفق حوله هؤلاء البحاثة هو أن العراق كان وطناً للإنسان منذ أقدم العصور الحجرية ، أي انسان « النياندرتال » .

وإنتشر هذا الإنسان في العصر الحجري الحديث في سهول المنطقة الجبلية من بلاد ما بين النهرين ، واستنبط فن الزراعة البدائية . والمثير انه عثر في قرية « جرمو » القريبة من مدينة « جمجمال » على أقدم القرى الزراعية في العالم (أي في حدود ٦٠٠٠ سنة ق . م .) .

وكانت القبائل الأولى في التاريخ القديم التي بنت أشهر حضارات بلاد الرافدين – وهي قبائل السومريين – انحدرت من الاقوام التي استوطنت البلاد بأراضيها الخصبة ، أي الهجرات القادمة من منطقة شبه الجزيرة العربية والخليج العربي[٢] .

وخلال أكثر من ثلاثة آلاف سنة تعاقبت على المناطق المحيطة بدجلة والفرات أربع حضارات عريقة لا تزال إشعاعاتها تنتشر وتؤثر في إنسان القرن العشرين :

● الحضارة السومرية في الجنوب (حوالي – ٣٠٠٠ – ٢٤٠٠ ق . م .) وهي أم هذه الحضارات الأربعة وأقدمها . ويرجع للسومريين الفضل الأكبر والأول في اختراع الكتابة في العالم . وفي عهدهم الذهبي كتبت ملحمة جلجميش التي سبقت إلياذة هوميروس بروعتها الأدبية وموضوعها الملحمي الاسطوري .

تم اكتشاف آثار هذه الملحمة في العام ١٨٣٩ على يد الباحث الانكليزي لايارد وكانت سطور الملحمة محفورة على ١٢ لوحة من الاجر وعثر عليها في مكتبة أشور بانيبال في مدينة نينوى .

● الحضارة البابلية في الوسط (حوالي ٢٤٠٠ – ١٢٤٧ ق . م) . التي خلفت الحضارة السومرية بكل كنوزها الحضارية وأضافت اليها اثاراً لا تقل غنى وهي شريعة حمورابي (حوالي العام ١٧٥٠ ق . م .) التي عثر عليها العام ١٩٠٢ .

وتعتبر هذه الشريعة أعظم قانون عرفه العالم القديم من حيث الشمول والكمال . وحفرت مواده على مسلّه من حجر البزلت موجودة اليوم في متحف اللوفر في باريس .

● الحضارة الأشورية في الشمال (حوالي ١٢٤٧ – ٦١٢ ق . م) التي كان مركزها في نينوى ولكن انتشرت سيطرتها على جميع مناطق سورية الطبيعية ومصر وآسيا الصغرى وقبرص .

● الحضارة الكلدانية التي سميت بـ « البابلية الجديدة » بسبب إعادة الكلدانيين بناء مدنية بابل التي كان الاشوريون دمروها . ودامت هذه الحضارة ردحا قصيراً من الزمن بالقياس مع سابقاتها (٦١٢ – ٥٣٩ ق . م) أبرز انجازات امبراطور الكلدانيين ، الملك نبوخذ نصر ، تجسدت في بناء « الجنائن المعلقة » في بابل التي تعتبر إحدى العجائب السبع في العالم . وكانت عمليات التنقيب عنها بدأت في العام ١٨٥٢ على يد علماء جيولوجيين فرنسيين وتابعها منذ العام ١٨٩٩ فريق الماني والذي توصل حوالي العام ١٩١٧ إلى العثور على معظم الرسوم والخرائط المتعلقة ببابل وبرجها العجيب في بنائه .

وفي عهد نبوخذ نصر انطلقت أول حملة في التاريخ إلى فلسطين (٥٨٦ ق . م) أدت إلى إخضاع مملكة يهوذا المقامة على جزء من أرض فلسطين وإحتلال عاصمتها (أورشليم) القريبة من مدينة القدس الحالية .

وعلى أثر وفاة نبوخذ نصر تزعزعت أركان الامبراطورية مما سهل سيطرة الغرب عليها . وبسقوط الدولة الكلدانية زالت هيمنة الشعوب السامية على الحياة السياسية والحضارية ليس في بلاد الرافدين فحسب بل في جميع بلدان آسيا الغربية أيضاً طوال الف سنة تقريباً .

المرحلة الانتقالية :

لا جدال في أن الفترة التاريخية التي أعقبت الحضارات العريقة الأربعة وسبقت الفتح العربي – الإسلامي هي حقبة يمكن تسميتها بـ





بابل
من جدرانياتها

«الانتقالية» لسبب بسيط هو كون الغزوات والسلالات الأجنبية التي تعاقبت على حكم بلاد الرافدين من الحثيين والفرس الاخميديين والأغريق السلاجقة والبارثيين والرومان والفرس الساسانيين دمرت أكثر مما بنت واقتبست أكثر من اعطت ، على أكثر من صعيد وفي أكثر من مجال .

ومما يدل أكثر على هشاشة ما قدمته هذه الغزوات ، طبعاً من غير الحديث عن ما دمرته ، هو أن أهم الآثار التاريخية على الاطلاق في العراق اليوم هي آثار الحضارات السومرية والبابلية والأشورية والكلدانية والعربية – الإسلامية .

وللصدف التاريخية – التي لها صفة موضوعية أن مرحلة انتقالية ثانية ستشهدها بلاد ما بين النهرين ، وهي الحقبة التي تلت سقوط عاصمة العباسيين بيد التتر (١٢٥٨م/٦٥٧هـ) . وإنتهت بثورة الجمهوريين في تموز/يوليو ١٩٥٨ ، التي شكلت نقطة التحول في تاريخ العراق الحديث .

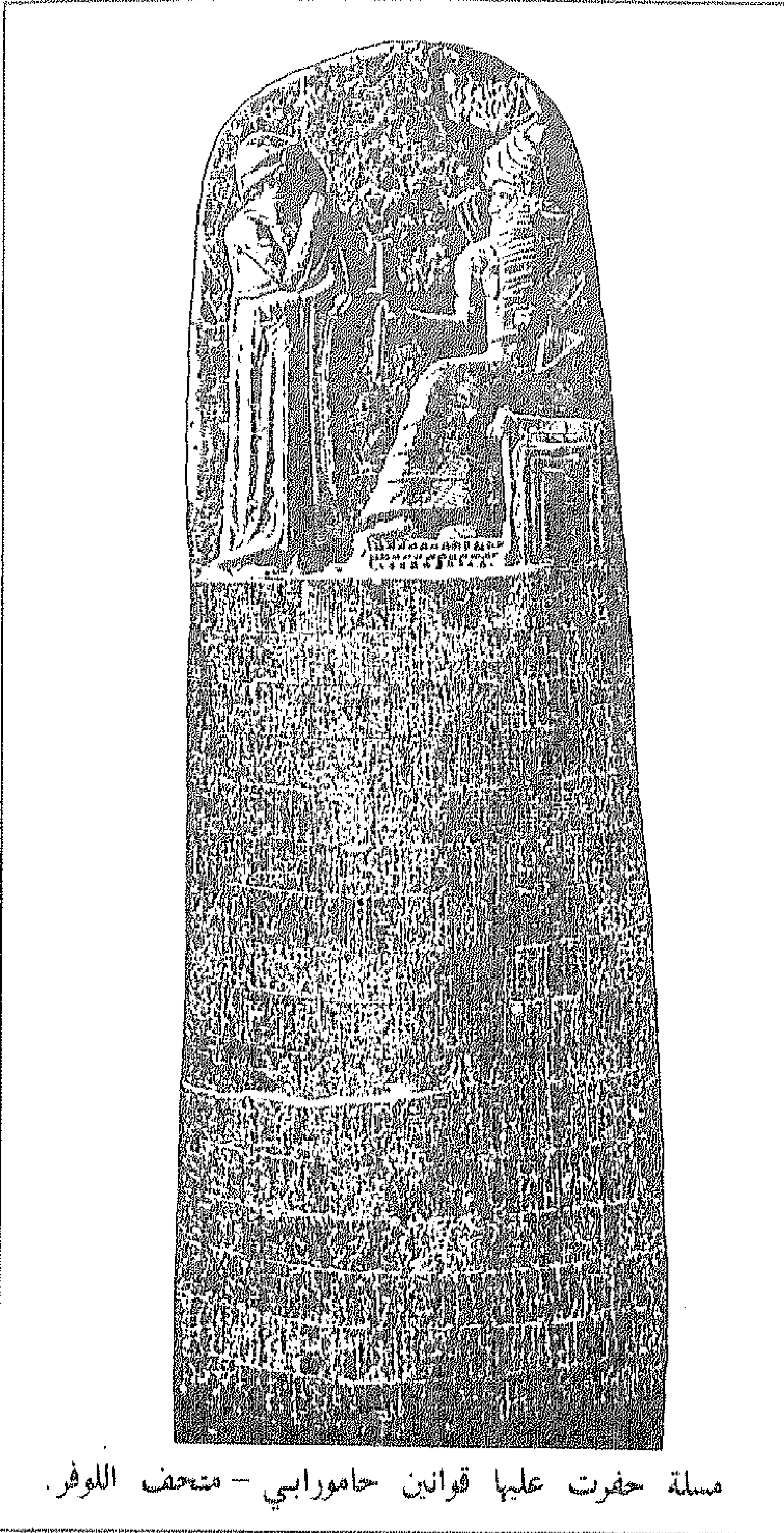
ومن خلال عملية حسابية صغيرة والتي ليست لها إلا صفة استدلالية هنا ، نلاحظ ان المرحلة الانتقالية الأولى استمرت أكثر من الف سنة بعد تواصل اشعاع حضاري دام أكثر من ٢٥٠٠ سنة . بينما تميزت المرحلة الانتقالية الثانية بكونها استمرت حوالي ٧٠٠ سنة بعد الاشعاع الحضاري العربي – الإسلامي في المنطقة أكثر من ٦٠٠ سنة ، كان من نصيب العباسيين فيها أكثر من ٥٠٠ سنة .

القادسية والفتح العربي – الإسلامي

هل كان الفتح العربي – الإسلامي للعراق مجرد خطوة كمية جديدة للفتوحات السابقة أم كانت نقلة نوعية لم تستوف بعد حتى اليوم حقها من البحث والدراسة ؟

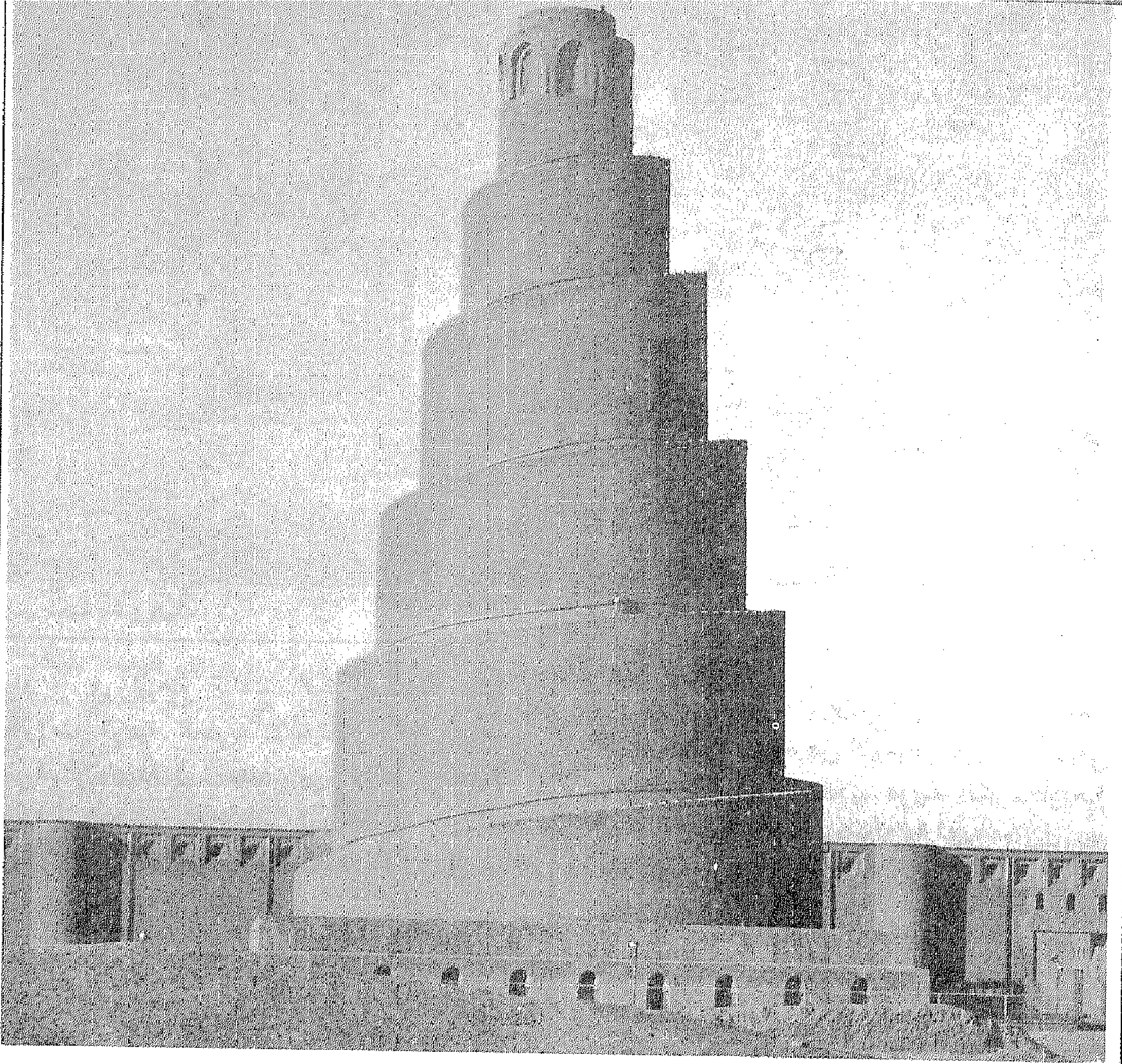
ما هي القيمة التاريخية الفعلية لمعركة القادسية (٦٣٦م/١٥هـ) ؟ .

أفضل من أوجز جوهر المغزى الحقيقي لهذه المعركة الاستراتيجية المهمة في التاريخ العسكري العالمي[٣] هو الباحث أحمد عادل كمال في كتابه «القادسية»[٤] الذي قال :


مسلة حفرت عليها قوانين حامورابي – متحف اللوفر.

«لا شك ان القادسية – وتقاربها اليرموك – تقع على قمة قائمة المعارك الحاسمة في تاريخ العالم ، فهي التي انفتحت على أثرها أبواب العراق ، ومن وراء العراق فارس كلها ، وهي التي من عندها استطرد نصر المسلمين فاستطرد معه السقوط الساساني من الناحيتين الحربية والسياسية ، والسقوط المجوسي من الناحية الدينية العقائدية . ومن هنا انساح دين الإسلام شرقاً وغرباً ، ولولا ذلك لظل محصوراً في جزيرة العرب لا يتعدى القبائل الضاربة في صحاريها وحواضرها القليلة ...» (صفحة ١٠) .

هذا على الصعيد العسكري . أما على الصعيد الفكري فكان للعراق دور لا يقل أهمية خصوصاً وانه تحمل مسؤولية حوالي خمسة اسداس فترة الاشعاع الحضاري العربي – الإسلامي .


مئذنة «الملوية» في سامراء إلى جانب آثار «المسجد الجامع» الذي بناه المعتصم.

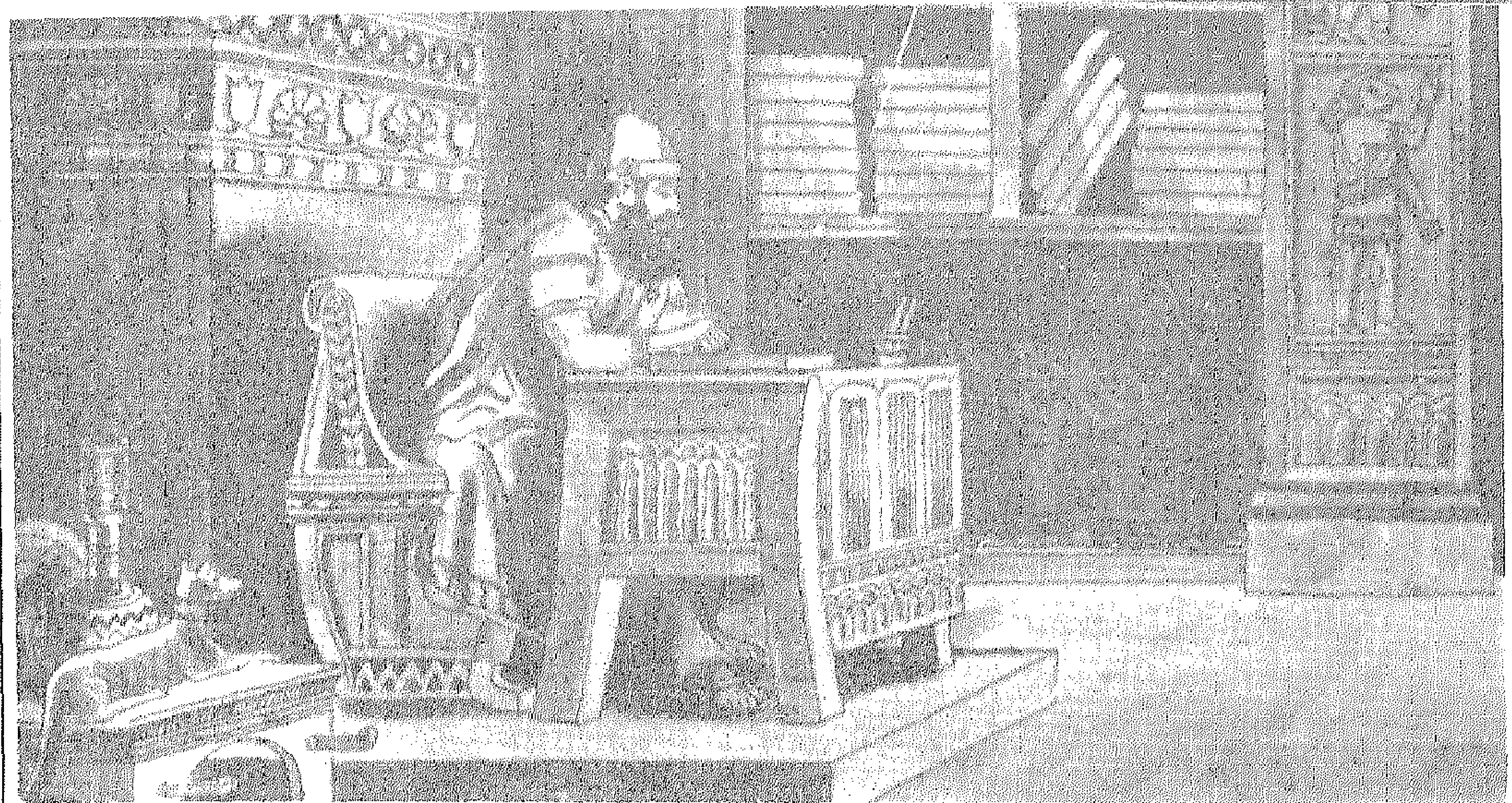
ففي صدر الإسلام تعايشت في مناطق ما بين النهري ثلاثة تيارات ثقافية أساسية كوّنت قاعدتها الفكرية وهي: الثقافتان الفارسية والاغريقية - الشرقية (أو الهيللينية) والتيار الناشئ العربي - الإسلامي. ولكن لم تلبث أن خمدت الثقافتان الأوليان وأفسحتا المجال للفكر الجديد القادم مع العرب - المسلمين. ليتفاعل معهما في بوتقة توليفية واحدة.

وفي العهد العباسي (٢٢هـ/٧٥٠م - ٦٥٧هـ/١٢٥٨م). أبدع العرب والمسلمون في كل مجالات الفكر والثقافة والعلوم وكادت الحضارة العربية - الإسلامية ان تسود قارات آسيا وأفريقيا وأوروبا لولا احتلال التتر لبغداد العام ١٢٥٨م/٦٥٧هـ. وذلك بعد تضعضع أوضاع الامبراطورية العربية - الإسلامية في عهدها العباسي الأخير. فهل صدفة أن تكون نهاية العهد العباسي هي بالذات نهاية الاشعاع العربي - الإسلامي؟ وما مدى ما اسماه د. الياس فرح بـ «اغتيال الحضارة العربية ضد سقوط بغداد العام ١٢٥٨م»(٥).

المهم ان عصر الظلام ساد في عراق العباسيين حتى الحرب العالمية الأولى، عندما بدأ الشعب يستعيد مكانته تدريجياً، مما دفع بالسلطة الاستدمارية البريطانية إلى التراجع شكلاً عن «انتدابها» الذي دام من ١٩٢١ إلى ١٩٣١، واعلان استقلال ملكي هش ما لبث أن اسقطته ثورة ١٩٥٨ الجمهورية.

أول تجربة من نوعها لاسترداد الآثار

يكتسب الحديث عن الآثار التاريخية في



رسم لمكتبة أشور بانيبال.

العراق[٦]. في المرحلة الراهنة أهمية استثنائية بسبب المحاولات الرسمية الجارية لاسترداد الآثار العراقية المسروقة والموجودة في العديد من متاحف العالم، خصوصاً المتحف البريطاني في لندن ومتحف المتروبوليتان في نيويورك ومتحف اللوفر في باريس ومتاحف استانبول وشكياغو وفيلادلفيا. وتستند هذه المحاولة، وهي أول تجربة من نوعها، على الصعيد الرسمي العربي، إلى توصية اصدرتها الجمعية العامة للأمم المتحدة العام ١٩٧٥ والتي مفادها أن التحف والآثار الأخرى على أنواعها يجب اعادتها إلى بلدان المنشأ[٧].

ولكن الأمر الذي نرى انه يجب توجيه الأنظار اليه هو محاولة العديد من الأوساط الغربية التي تتخفى وراء ستار «العلم» لاستغلال دراسة الآثار التاريخية القديمة لحضارات السومريين والبابليين والاشوريين والكلدانيين بهدف توظيفها لأهداف سياسية مباشرة، إضافة إلى محاولة ابرازها في شكل يعزلها عن آثار الحضارة العربية - الإسلامية التي تتعايش ثقافياً وحتى تتجاوز في أكثر من موقع مع مثيلاتها الباقية من الحضارات السابقة.

ان ما لم يستوعبه بعض علماء التاريخ والآثار

كبار قادة فتح العراق أيام أبي بكر الصديق

- المثنى بن حارثة الشيباني. القائد الذي جرّأ العرب - المسلمين على مهاجمة الامبراطورية الساسانية ومهّد لفتح العراق في معركة نهر «البويب».
- خالد بن الوليد المخزومي. سيف من سيوف الله، هازم الفرس في أرض العراق قبل أن ينتقل إلى أرض الشام (١٣ هـ/٦٣٤ م).
- أبو عبيد بن مسعود الثقفي. فاتح منطقة الفرات الأوسط وشهيد معركة عبور الفرات.
- سعد بن أبي وقاص الزهري. فاتح العراق (في معركة القادسية) وتحريره لأكثرية بلاد فارس واذربيجان والجزيرة وبعض أرمينية، أي بلغة الجغرافيا المعاصرة: العراق وأكثرية مناطق إيران بحدودها الحالية والقسم الجنوبي من تركيا الحديثة.

المصدر: «قادة فتح العراق والجزيرة»، بقلم اللواء الركن محمود شيت خطّاب. إصدار دار الفكر، بيروت. طبعة ثالثة ١٩٧٧

والحضارات القديمة وحتى علماء الإناسة (الانتروبولوجيا) والعراقة (الاثنوغرافيا) في الداخل والخارج، هو كون الميزة التاريخية والحضارية لشعوب بلاد ما بين النهرين قديماً وحديثاً، تتمثل في واقع اندماج تراث الحضارات العريقة بعضها ببعض وتواصلها عبر الزمن وتكيفها مع الحضارات الجديدة الوافدة من غير أن تنفي بعضها البعض. وما صمود هذه الحضارات العريقة، وخصوصاً الحضارة العربية - الإسلامية، في وجه كل الموجات التدميرية إلا برهاناً على ذلك.

من هنا يمكن ان نقيس مدى التفاعل الواسع الذي جرى ويجري في بلاد ما بين النهرين بعكس ما تم مثلاً على الأرض الأميركية حيث دمرت الحضارة الجديدة الوافدة من أوروبا، في شكل لا مثيل له في عنصريته إلاّ على يد الصهاينة، مكتسبات تراث الهنود الحمر والازتيك والمايا. ■

هوامش البحث

(١) راجع مقال أرنولد توينبي: «تاريخ الشرق الأوسط من العصر الجليدي إلى الدولة السومرية»، مجلة «تاريخ العرب والعالم» العدد الأول، تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٧٨ ص ٧٥ - ٧٦.

(٢) منذ العام ١٩٧١ بدأت مديرية الآثار العامة في العراق بإرسال البعثات العلمية للتنقيب عن آثار تؤكد هذه الفرضية. وتكللت جهود هذه البعثات بالنجاح في أكثر من موقع (أبو ظبي والفجيرة خصوصاً) إذ هي ألقت الضوء على المستوطنين القدامى وأصل السومريين، مما يبدد العديد من الآراء السابقة حول هجرات السومريين.

(٣) تم إنجاز مشروع «بانوراما بغداد» في نهاية العام ١٩٧٩ الذي يصور بالتفصيل وقائع معركة القادسية ويضم متحفاً عسكرياً للأسلحة التي استخدمت فيها وشاشة دائرية تبلغ مساحتها ١٦٠٠ متر مربع صورت عليها تفاصيل المعركة. ويعتبر هذا المشروع رابع مشروع من نوعه في العالم بعد البانوراما البلجيكي الذي يصور وقائع معركة واتيزلو، وبانوراما موسكو الذي يصور انكسار نابليون لدى غزوه لروسيا القيصرية والأحداث البانورامية التي انشئت في عاصمة كوريا الديمقراطية العام ١٩٧٢.

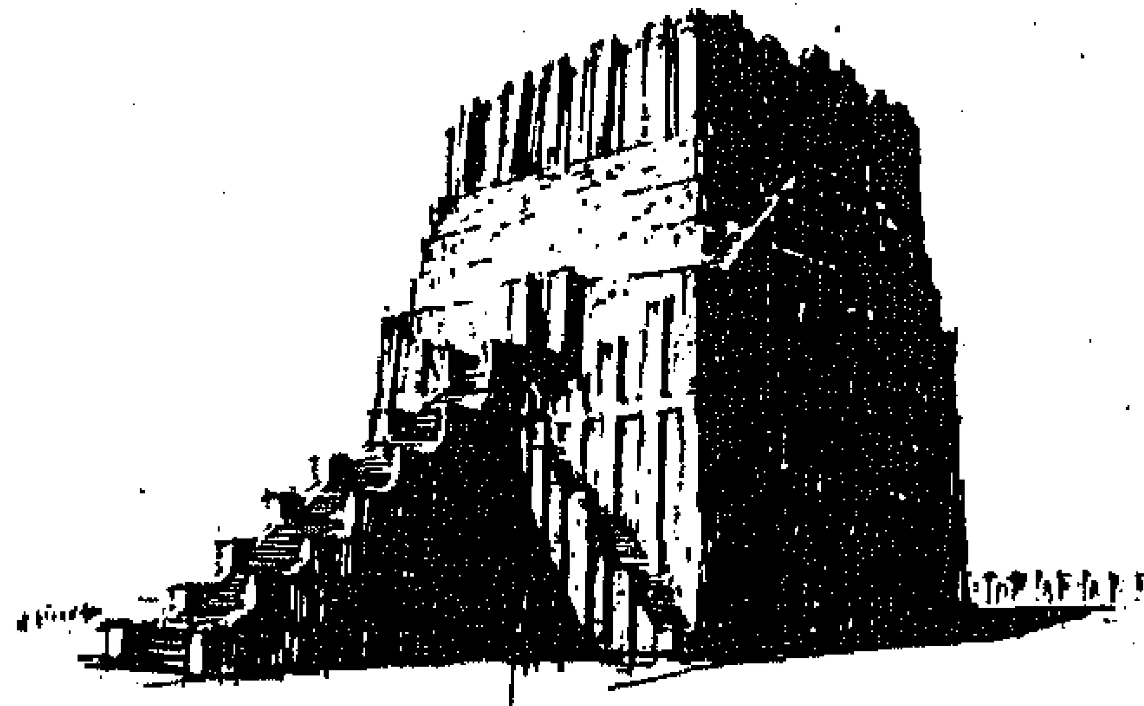
(٤) أحمد عادل كمال: «القادسية»، إصدار دار النفائس، بيروت الطبعة الثانية ١٩٧٧، من سلسلة «استراتيجية الفتوحات الاسلامية»، راجع أيضاً مقال د. رضوان السيد «حرب القادسية: بداية صفحة جديدة في العلاقات العربية الفارسية» في مجلة «تاريخ العرب والعالم» العدد ١٢/ص ١٦.

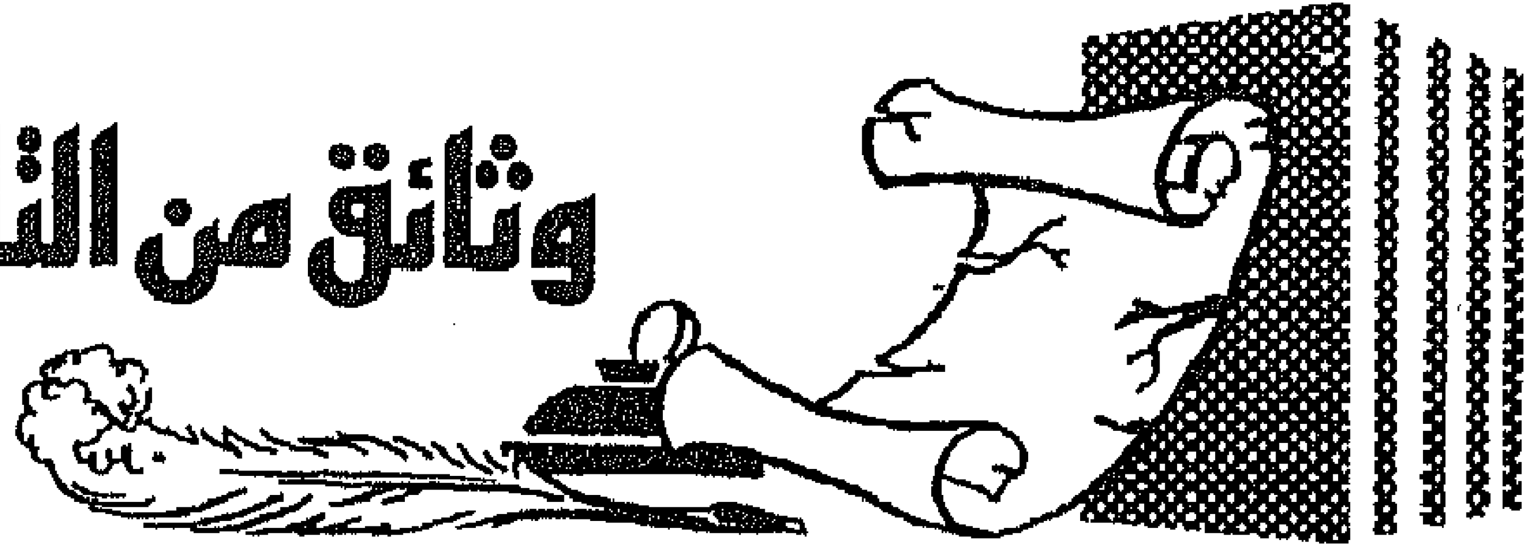
(٥) راجع مقال د. الياس فرح: «دور الوطن العربي في ميزان القوى العالمية» في مجلة «آفاق عربية» الصادرة في بغداد، تموز/يوليو ١٩٧٩ ص ٤.

(٦) يمكن العودة في هذا المجال إلى مقال د. ديمتري برامكي: «الآثار العراقية من أقدم الأزمنة حتى العهد الكلداني»، مجلة «تاريخ العرب والعالم» العدد ٤/ص ٣٨. - اضافة إلى مقال: «بقايا العصر العباسي أو قصر المأمون في بغداد» من اعداد «قسم الدراسات» في مجلة «تاريخ العرب والعالم» العدد الأول صفحة ٤٠.

وأيضاً مقال جعفر الخليلي: «معالم الحضارة العربية الاسلامية في العراق» مجلة «قافلة الزيت» الصادرة في السعودية، مارس/آذار - ابريل/نيسان ١٩٧٢ ص ٤١.

(٧) في حديث مهم نشرته صحيفة «الشرق الأوسط» الصادرة في لندن (١٩٧٩/١١/٩) نقلاً عن وكالة «رويتر» قال الدكتور مؤيد الدامرجي رئيس مؤسسة الآثار والتراث التابعة لمديرية الآثار: «ان متحف اشموليان في أوكسفور مثال صارخ على السلوك الاستبدادي. لقد استعاروا عدداً كبيراً من القطع الأثرية منا منذ أوائل الخمسينات لأغراض الدراسة. وباتوا الآن يقولون ان هذه القطع ملك لهم لأنهم أدخلوها في قوائم موجودات المتحف. وهم يقولون بالاضافة إلى ذلك ان المسألة تقع تحت قانون مرور الزمن. وليس هناك سوى كلمة واحدة لكل هذا السرقة...».





ثلاث وثائق تاريخية حول:
الصّراع الدّرزي - المارُوني على «إمارة الجبل» عام ١٨٤١

اعـداد: د. وجيه كوثراني

تفتح المجلة باباً جديداً من أبوابها في عامها الثاني، هو باب: «وثائق من التاريخ». والمجلة إذ تنطلق من أهمية اعادة نشر بعض الوثائق التي تحمل موضوعات ذات صلة بمجرى التاريخ العربي الحديث والمعاصر، وذات اطلالة على مسائل حاسمة في تاريخ الصراعات التي لا تزال تفعل في تاريخ البلاد العربية والاسلامية، تود بتقديمها نماذج من تلك الوثائق، أن تجعل الوثيقة غير المنشورة، المختارة مباشرة من الارشيف، أو المنشورة في كتب قديمة نافدة ولا تتوفر الا في كبريات المكتبات العامة، ان تجعلها في متناول القارئ العربي، وان تسهل على طلاب البحوث الاطلاع عليها. والمجلة ترجو ممن يهتم بجمع الوثائق واقتنائها وممن يملك ارشيفا عائلياً محلياً، تزويدها بما يكون مناسباً للنشر، خدمة للعلم والتاريخ.

فيما يلي ثلاث وثائق تعرض لأشكال من الصراع الدرزي – الماروني في الجبل عام ١٨٤١. وتشير إلى الحدث الأساسي الذي فجّره: وهو تعيين الأمير بشير الثالث أميراً على الجبل، بحيث اعتبر هذا التعيين من جانب الدروز عنصرُ اخلال قاطع بالتوازن بينهم وبين الموارنة. ثمة موقف تعبر عنه عريضة الدروز إلى الباب العالي وهو ان سلطة الامارة قد تحوّلت عنهم بعد أن كانت في الماضي بيدهم، وهم يستعيدون كمثل صارخ عن هذا التحول في الامارة الشهابية، موقع الشيخ بشير جنبلاط في صراعه مع الأمير بشير الثاني، ويطالبون السلطان بتعيين رئيس منهم «كما كان الحال في عهد الشيخ بشير جنبلاط» على حد تعبير العريضة.

واللافت للنظر أنه في حين يعتبر الدروز ان الامارة قد أصبحت بيد المسيحيين وقد خسروها نهائياً على يد الشهابيين، كانت الدولة العثمانية وبفعل التقليد الذي استمر والذي يعتبر امارة «الجبل» «إمارة للدروز» لا تزال تعتبر الأمير الشهابي «أميراً درزياً» و «أميراً على الدروز» كما يثبت ذلك الفرمان السلطاني إلى الأمير بشير قاسم: «... ان بابنا العالي على ثقة من انك إذا عينت أميراً على الدروز فلا تحجم عن اتيان وسائل خضوع جديدة لأوامرنا وتزداد صفات الأمانة والاخلاص والنشاط الغريزية فيه نماءً ولهذا نعلمك خلعنا الأمير بشيراً ونسميك مكانه أميراً لعشائر الدروز».

بيد أن هذا التعيين إلى جانب عوامل أخرى أساسية أخل نهائياً بعلاقة التوازن حول السلطة وكان مفجراً للهجوم الدرزي على دير القمر. هذا الهجوم الذي تشير إليه وثيقة مسيحيي دير القمر إلى قناصل الدول مطالبة اياهم بالتدخل للحماية والضغط على الوالي العثماني لتأمين الحماية للأمير وللمسيحيين.

١ - عريضة الدروز إلى الباب العالي بتاريخ آخر حزيران سنة ١٨٤١.

لمَّا كانت الطائفة الدرزيَّة تدين بالاسلامية منذ عدة قرون ظلَّ أجدادنا خاضعين لأوامر الباب العالي ولبثنا ناهجين نهجهم باخلاص وأمانة حتى سنة ١٢٤١ للهجرة وفي ذلك التاريخ كان يتولى أمورنا ثلاثة مشايخ جُدُّدِهم الشيخ بشير جنبلاط وعلي عمر والسيد حسين أحمد فهذان الأخيران كانا حاميي ذمار عشيرتنا وممثلينا في كل شؤوننا التي كانت قيد مداولاتهما في منتدياتهما. واستمررنا حتى ذلك العهد ننعم في بحبوحة السعادة والأمن العام على ان هذه الحالة تبدَّلت في عهد حكومة عبد الله باشا والي صيدا إذ أمر بفصل الشيخين المشار إليهما ووكل إدارة شؤوننا إلى رئيس الأمة المسيحية الأمير بشير حاكم الجبل سابقاً الموجود اليوم في المنفى.

فهذا الأمير نشأ مسلماً ثم اعتنق الديانة المسيحية إنما كان يجتهد بأن يظهر أمامنا بمظهر مسلم ولكنه بدون ريب كان مسيحيًّا. وخلا ما تقدم فقد كان يعاملنا برعاية متناهية تفضل معاملته للمسيحيين وبقي مثابراً على نهجه حتى يوم نفيه.

أما اليوم فإن الأمير الكبير الذي يحكم الجبل فلكونه مسيحياً ينزل بنا ضروب الاحتقار ساعياً لاذلالنا حملاً لنا على اعتناق ديانته بل انه يكرهنا عليها فلا يسعنا ان نحتمل اضطهادات هذا الأمير والأمة المسيحية ولا استبدادهما بنا فهما يحاولان اخراجنا من دائرة الطاعة الواجبة علينا للباب العالي وادخالنا في طاعة غير المؤمنين مما لا يمكنَّنا قبوله لأننا لن نرضى أبداً بالمروق عن طاقة الباب العالي الذي أظلنا في كل آن بحمايته واننا لنجاهر تكراراً بأننا لن نلوذ أبداً بكنف حماية الأجانب ولو كان في ذلك ابادتنا جميعاً نحن ونساؤنا وأولادنا.

لقد طالما كنَّا أوفر وجاهة من المسيحيين محترمي الجانب فكيف نطيق أن نكون تحت سيطرتهم اذلاء مهانين؟ لامراء ان هذه الحالة لا تلائمنا وحكومة جلالة السلطان لا ترضى بها. ان أجدادنا ما فتئوا منذ عهد عهيد خدمة الباب العالي الأمناء ونحن نستمرُّ على مثالهم معلنين تمسكنا بأهداب الاسلامية. وحتى الآن ليس في طاقة أحد أن يتهمنا بالتقاعد عن القيام بواجبات الخضوع لحكومة الباب العالي. وعليه فمن المحال أن نقبل بالبقاء تحت سيطرة حكومة مسيحية والخضوع لها ولأوامرها.

فنسترحم من جلالة سلطاننا العظيم الرؤوف نصر الله اعلامه أن يتنازل فيرعانا بعين عنايته ويعين علينا رئيساً كما كان الحال في عهد الشيخ بشير جنبلاط وتصدر أوامره الشاهانية فيعهد إليه بادارة شؤوننا بموجب فرمان سامٍ يقلده هذا المنصب لخير بلادنا وشرفها. واننا نلتمس ذلك من بحر مكارم سلطاننا الأعظم متعهدين بالخضوع لجميع أحكام خط كلخانه الشريف فيما يتعلق بالضرائب التي تجبى عن املاكنا وأموالنا.

أما العريضة المرفوعة من الأمراء والمشايخ طلباً لاعادة الضرائب على ما كانت عليه في حكومة عبد الله باشا وقد وقَّعناها بأختامنا ونقلت عدة صور عنها فنبطلها. لقد اضطررنا إلى توقيعها إذ ذاك قصد وضع حدٍّ للمنازعات والاختلافات. فنحن مسلمون وقد كنَّا كذلك منذ البدء، وعليه لا يمكننا أن نمرق من الطاعة الواجبة علينا لحكم الباب العالي. أجل ان المسيحيين هم أوفر عدداً منا إنما بعون الله وعضد الباب العالي سنكون دائماً ظافرين في كل المواقع التي ستدور رحاها. ومن ثمة لما كنَّا نرغب اجتناب القتال نجرأ على الأمل بأن جلالة السلطان الأعظم يتنازل إلى تحرير استرحامنا فيشملنا بآلائه وعدالته الشاهانية التي امتازت بها حكومته أيدها الله.

٢ - الفرمان السلطاني إلى الأمير بشير قاسم بتاريخ ٣ أيلول ١٨٤٠. (١)

نوجه أمرنا هذا السلطاني الواجب القبول والاتباع في جميع البلدان البعيدة والقريبة إلى نسيب الأمير بشير الذي نعينه منذ الآن أميراً لجبل الدروز أريد به الأمير العظيم المكرَّم بشير قاسم زيد مجده وإلى مشايخ عشائر الدروز وعين أعيان الجبل زادهم الله طاعة.

لدى وصول أمرنا هذا ليكن معلوماً: إنه كان من المتوجب على الأمير بشير ان يأتمر بالأوامر التي صدرت إليه ويظهر دائماً بمظهر التابع المخلص خاضعاً

لجلالتنا الشاهانية المحسنة إليه ويطيع أوامرنا ويبذل جهده في عمل كل ما يطابق رغائبنا ويجتهد في حماية الأهالي والعشائر التي وكلنا إليه أمر رعايتها ويوجه كل عنايته وحكمته مستعملاً كل الوسائل التي لديه لحمايتهم ووقايتهم من كل أذى ومظلمة وفقاً لما توجبهُ عليه تابعيته، بيد إنه اتصل بنا ان الأمير بشيراً لم يقم بهذه الشروط الأساسية وانه لا يزال مصراً على اتباع مقاصد محمد علي باشا ومأموريه والجري وفقاً لنصائحهم وتعليماتهم سالكاً مسلكاً مخالفاً لما كنا ننتظره منه. أما أنت أيها الأمير فبانتهاجك منهج الأمانة وحسن الفطنة والدراية المفطور عليها قد برهنت على اخلاصك لذاتنا الشاهانية اخلاصاً يستحق المكافأة وأثبت طاعتك وأنت تعرف واجبات التابعية ولذلك فان بابنا العالي على ثقة من أنك إذا عُينت أميراً للدروز فلا تحجم عن اتيان دلائل خضوع جديدة لأوامرنا وتزداد صفات الأمانة والاخلاص والنشاط الغريزية فيك نماء ولهذا نعلمك خلعنا الأمير بشيراً ونسميك مكانه أميراً لعشائر الدروز وعليه صدر أمرنا السلطاني هذا من ديواننا الهمايوني. فعليك فور وصول فرمان العالي الشأن أن تتلوه على مسامع من يلزم ثم تقوم بواجبات منصبك هذا بامانتك المعتادة وتدير الشؤون التي من اختصاصك بحكمة وعدالة وفقاً لرغائب جلالتنا السلطانية ومصالحها. وفي عدد الواجبات المفروضة عليك حماية الأهالي وعشائر الدروز الذين ما فتئنا نسهر عليهم ونلحظهم بعين الرعاية ثم تحذيرهم من مقاومة تنفيذ حقوقنا على الأمة والسلطنة ومن كل ما يناقض فروض الطاعة والاخلاص المتوجبة عليهم للباب العالي ومنعهم من أن يشايعوا محمد علي وأعوانه.

وقصارى القول يجب عليك أن تبذل كل ما في طاقتك وتسهر ليل نهار على إتمام ما ينتظره الباب العالي من فطنتك وأمانتك بحيث تستحق مواصلة استمرار النعمة التي منحناك اياها. وأنتم يا مشايخ الدروز متى علمتم اننا عيَّنا الأمير بشير قاسم أميراً للدروز يقتضي عليكم كما هو الواجب أن تتحدوا معه قلباً وروحاً لاتمام إرادتنا وأن تمتثلوا إلى منطوق فرماننا هذا محافظين على حقوقنا الشرعية فاحترسوا من أن يشاهد منكم أدنى مخالفة لإرادتنا السلطانية من شأنها الاجحاف بسلطتنا في ممالكنا الموروثة.

٣ – عريضة مسيحيي دير القمر إلى قناصل الدول في بيروت بتاريخ ٥ تشرين الثاني سنة ١٨٤١.

يا حضرات القناصل:

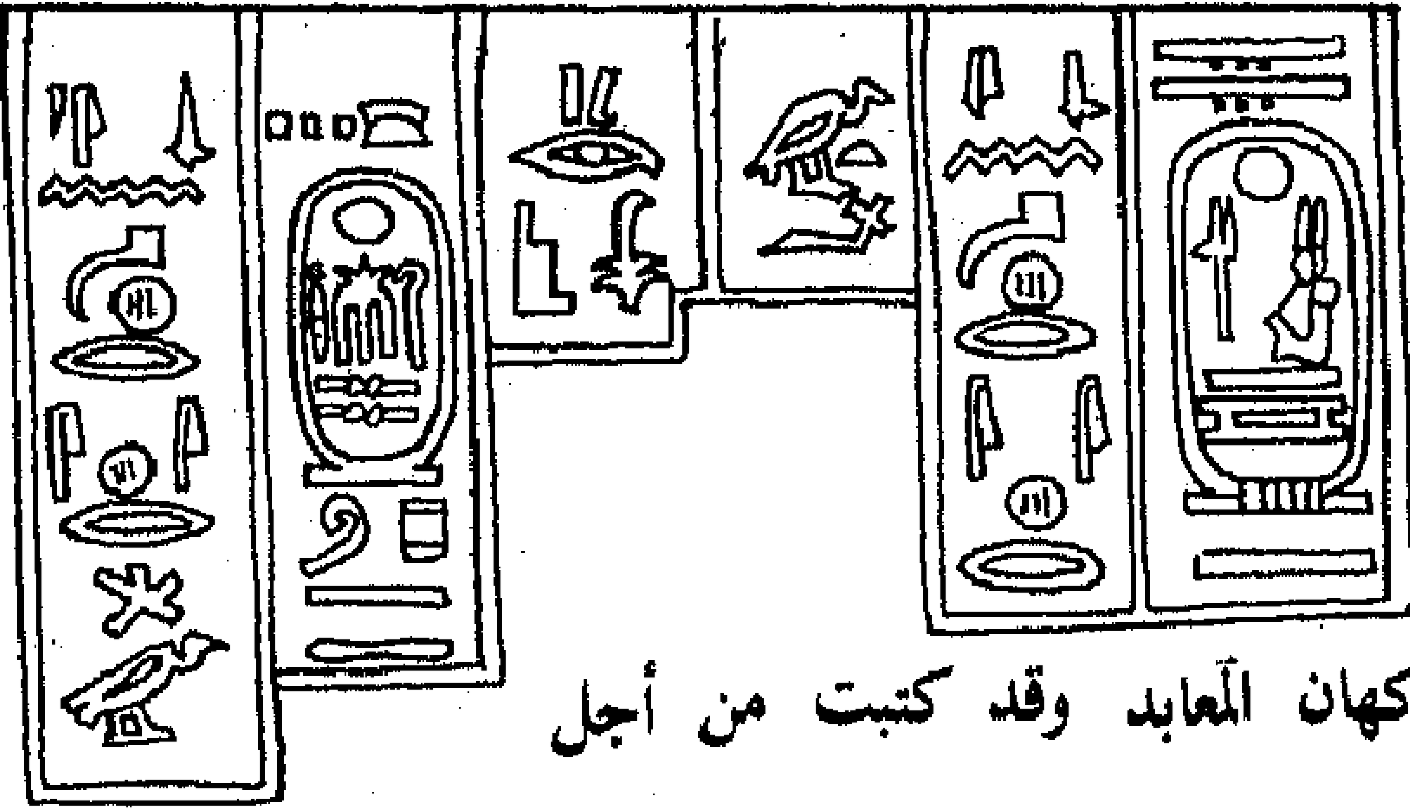
انكم تعلمون كل البلايا التي انقضت علينا من جراء سلوك الدروز المشين فانهم نهبوا بيوتنا وحرقوها وتركونا بلا قوت ولا لباس ولا مأوى ولما أرسل صاحب الدولة سليم باشا كلاً من سليم بك ومحصل آغا لازالة الخلاف وحملنا على تسليم أسلحتنا وعدانا بصيانة حياتنا وحياة عيالنا وأعراضنا ووقاية الأملاك التي سلمت من الاعتداء، فنحن الموقعون أسماءنا أدناه امتثلنا أوامر مندوبي دولته وسلمنا إليهما أسلحتنا دون تردد ثقة بوعودهما أما الدروز فاستمروا على مهاجمة المسيحيين والاعتداء عليهم خارج المدينة. فما كاد سعادة الأمير الكبير يغادر دير القمر مصحوباً ببعض المسيحيين حتى انقض الدروز على حاشيته القليلة العدد فسلبوها أشياءها وأساءوا معاملة أفرادها ومنعوهم من اللحاق بسعادته ولم يسلم هو من اعتدائهم مع أنه يحمل الوسامات المنعم عليه بها من الحضرة السلطانية. وعندما رأى الموقعون أدناه أن سلوك الدروز مخالف للوعود تيقنوا أنهم قد خالفوا أوامر صاحب الدولة سليم باشا الراغب في استتباب الراحة والسكينة الآنف من خفر ذمة العهود المعطاة.

وتحقق إذ ذاك للموقعين أدناه ان الدروز سيدخلون بدون ريب دير القمر لذبح المسيحيين الذين أمسوا عاجزين عن المقاومة لسبق تسليم أسلحتهم فأقروا رأياً على رفع عريضة إلى صاحب الدولة سليم باشا يلتمسون فيها أن يأمر بإرسال الجنود التركية لانقاذ المسيحيين الموجودين في دير القمر وتولي خفارتهم حتى

(١) ان الانكليز استصحبوا هذا الفرمان دون تاريخ لكنهم أذاهوه في ١٠ ت ٢ من السنة المذكورة وأرخوه في ٣ أيلول انتقاماً من الأمير بشير عمر على نشرته الصادرة بالتاريخ ذاته وارهاباً للأهالي بأن هم السلطان المطلق.

بيروت بما ان بيوتهم حرقت وأمسوا بلا مال ولا قوت ولم يبق مسيحي في المدينة يملك شروى نقير حتى إذا بلغوا بيروت يأملون الحصول على بعض مساعدات بمفعول حماية دولة سليم باشا الذي شاء انفاذ أوامره إلى دير القمر بالسهر على المسيحيين ومنع الاعتداء عليهم واساءة معاملتهم وهو مستعد لارسال والٍ بأسمه إلى دير القمر لاعادة مياه الراحة إلى مجاريها. (...) وعليه فالموقعون أدناه يتجرأون على أن يعرضوا ان المندوب الذي يريد دولة سليم باشا ايفاده إلى دير القمر ليس فيه الكفاءة لحماية المسيحيين واطمئنانهم ودليلنا ان وجود سليم بك ومحصل آغا وكيلي دولته لم يمنع الدروز من الاعتداء على الأمير الكبير وسلبه أشياءه وتهديده دون احترام الوسامات المنعم عليه بها (...). وعليه فالموقعون أدناه قد تجرأوا على رفع هذه العريضة إليكم مسترحمين انزال التماسهم محل الاعتبار واستعمال كل الوسائل التي ترونها مناسبة متنازلين إلى الشفاعة بهم لدى صاحب الدولة سليم باشا. ■

الهيروغليفية



إن كلمة « هيروغليف » تعني النقوش المقدسة ، وهي ، في الحقيقة ، تسمية أطلقها اليونان على الكتابة المصرية القديمة ، وكانوا أول من اطلع عليها ، واعتبروها صنيع كهان المعابد وقد كتبت من أجل أهداف دينية.

والحقيقة هي ، أن الهيروغليفية تعتبر أقدم نموذج كتابي عرفه الإنسان . إن بعض الكتابات ترجع إلى حوالي ٣٠٠٠ عام قبل الميلاد ، ولكن الهيروغليفية ، وهي كتابة لغوية لمصر القديمة تعود إلى ما قبل ذلك التاريخ.

والهيروغليفية هي صور مبسطة تعبر كل صورة منها عن موضوع طبيعي محدد ، فمثلاً ، الشمس كان يرمز لها بصورة قرص ، والقمر يرمز له بصورة هلال ، والماء يرمز لها بخطوط متماوجة ، والإنسان يرمز له بصورة رجل وهكذا ...

ولكن هذه « الطريقة الصورية » لم يكن بمقدورها تمثيل الأشياء التي لا تستطيع العين مشاهدتها ، مثل ، الأفكار المجردة ، والضوء ، والنهار وغيرها ...

. ومع مرور الزمن أصبحت الأشكال الهيروغليفية تستعمل كرموز لأفكار بالإضافة إلى كونها صوراً لمواضيع منظورة . فالقرص الذي يعني الشمس يمكن أن يعني أيضاً اليوم.

والخطوة التي تلت في تطور الهيروغليفية هي استخدام التخيل لتمثيل الأصوات عوضاً عن أشكال الصور الطبيعية فمثلاً في كلمة « يدغم » العربية التي تتألف من مقطعين المقطع الأول وهو يد « يد » لا يمكن أن يعني فقط عضو جسم الانسان ، بل المقطع « يد » ، والمقطع الثاني « غم » لا يعني « غم » فقط بل المقطع « غم » بوضع المقطعين جنباً إلى جنب يمكن أن يعنيا كلمة « يدمج ».

وهكذا استعملت الهيروغليفية الاشارات الصوتية ، وعرفت هذه الطريقة بـ « الطريقة الصوتية ».

والآن بعد هذا التطور الكبير يستطيع المصريون كتابة أية كلمة ، سواء تعني الكلمة موضوعاً منظوراً أو غير ذلك . ومن خلال الطريقة الصوتية تطورت قوائم من الاشارات تمثل كل إشارة منها حرفاً واحداً فقط.

استخدم المصريون فقط الحروف الصوتية دون حروف العلة فهم مثلاً كتبوا كلمة « بوق » « بق » وكلمة « باب » « بب » — طبعاً هم كانوا يستعملون الكلمات المصرية القديمة

معركة سادوفا - ١٨٦٦

المعركة التي وحّدت المانيا وغيّرت خريطة أوروبا

تلخيص واعداد: شذا عدرة



● يتوقف الكثيرون ، لدى تناولهم لمعركة سادوفا (١٨٦٦/٧/٣) بين الجيشين البروسي والنمساوي ، عند النتائج العسكرية التي تمخضت عنها (انتصار الجيش البروسي) . مع أن أهمية هذه المعركة التي لا يعيرها المؤرخون الأوروبيون الاهتمام الذي تستحق ، تكمن أولاً في كيفية تهيئة الأجواء السياسية والديبلوماسية لها (ونشأت منها مدرسة في فن السياسة) ، وثانياً في النتائج البعيدة المدى التي نتجت عنها وهي تكوين « الرايخ » الثاني (١٨٧١ - ١٩١٨) والتي مهّدت تاريخياً للرايخ الثالث الهتلري (١٩٣٣ - ١٩٤٥) .

والدور الرئيسي في ذلك يعود حتماً لبيسمارك ، الملهم غير المعلن لهتلر .

دخل يوم الثالث من تموز (يوليو) ١٨٦٦ التاريخ الأوروبي ولكن ليس فقط من الناحية العسكرية، على أهميتها، وإنما أيضاً من الناحيتين السياسية والديبلوماسية. ففي هذا اليوم، من الفجر وحتى العصر، جرت المعركة الحاسمة في منطقة «سادوفا» بين الجيشين الشقيقين البروسي والنمساوي وهزم الأول الثاني في جولة عسكرية صعبة كانت محسومة النتائج سياسياً وديبلوماسياً قبل البدء في الخوض فيها.

وكان مهندس المعركة المستشار الحذق بيسمارك الذي خطط لها منذ البداية وحتى النهاية في مهارة سياسية غدت اليوم عنواناً للدهاء والمراوغة في العلاقات بين الدول والحكومات على حساب كل المبادئ والقوانين المتفق حولها علنياً على الأقل.

أسباب الحرب:

كان السبب الرئيسي لحرب سادوفا غير معلن، إذ انه تمحور في الواقع حول مسألة الهيمنة على زعامة الامبراطورية الالمانية بمقاطعاتها ودويلاتها العديدة الملحقة بها. ونشأ هذا الصراع منذ أواسط القرن الثامن عشر، واتخذ أيضاً شكلاً مسلحاً إلى جانب الأشكال السياسية الأخرى.

لكن هذه المرة كانت النمسا أقوى سياسياً وديبلوماسياً إلى درجة أنها استطاعت أن تهزم بروسيا في أكثر من محفل سياسي دولي. وكان رد بروسيا على سلسلة هزائمها هذه، الاستعداد حثيثاً للحرب كسلاح أخير من أجل إخضاع جارتها المنافسة لها على زعامة الأمة الالمانية. ومما ساعدها على ذلك اقتصادها القوي وجيشها المنظم والمدرب تدريباً صارماً.

وفي الواقع ان بروسيا التي نتكلم عنها هنا لم تكن بروسيا - الملك غيّوم الأول، وانما بروسيا - بيسمارك، وزير الملك والمخطط الفعلي والمنفذ الصارم لسياسة بروسيا الخارجية. ان مجد بروسيا يعود لبيسمارك ولحنكته في جعل النمسا تقع في فخ سادوفا.

خطوات بيسمارك:

أثناء التحضير لمعركة سادوفا (وهي منطقة تقع اليوم في تشيكوسلوفاكيا) نجح بيسمارك في ديبلوماسيته



ملك بروسيا، غيوم الأول.

الجهنمية من خلال تذليل العقبات خطوة - خطوة، وصولاً إلى العقبة الأساسية، وهي إخضاع النمسا، التي لن تحسمها إلا الخطوة العسكرية في النهاية. كان عليه أولاً إقناع فرنسا بالحياد حيال أي «نزاع محتمل» بين بروسيا والنمسا. ومن أجل إقناع الامبراطور نابوليون الثالث بذلك سافر بيسمارك إلى فرنسا في الثلاثين من أيلول (سبتمبر) ١٨٦٥، معلناً انه سيمضي إجازة قصيرة فيها و«ربما» التقى خلالها ببعض الوزراء الفرنسيين في باريس ثم «ربما» يعرّج على «بياريتز» حيث كان نابوليون الثالث يستجم، ليستعيد معه ذكريات اللقاء السابق في سان كلو (١٨٦٤). تحت هذا العنوان السياحي البريء لجولته كان المستشار البروسي يقوم بأخطر جولاته السياسية.

في بادئ الأمر لم يكن امبراطور فرنسا متحمساً لمشروع بيسمارك بسبب تهربه من الالتزام بأي شيء صريح ومحدد. وفي هذا الصدد يشير مؤرخو سيرة بيسمارك، وخصوصاً هنري ڤالوتون في كتابه «بيسمارك» (منشورات فايار، باريس ١٩٦١) وفيرنير ريختر في كتابه «بيسمارك» (منشورات بلون، باريس ١٩٦٢)، إلى ان الديبلوماسي البروسي لم يحصل على موافقة نابوليون الثالث حول الحياد في النزاع البروسي النمساوي إلا بعد وعود وإغراءات يبدو

أنها نالت رضى الامبراطور. وحتى اليوم ما زالت محادثات بيسمارك – نابوليون الثالث في تشرين الأول (أكتوبر) ١٨٦٥ سراً دفيناً يخضع لتفسيرات المؤرخين واستنتاجاتهم: كيف استطاع بيسمارك ارضاء نابوليون الثالث؟ ماذا قدم له من عروض؟ هل وعده ببلجيكا أو بمقاطعات الضفة اليسرى من نهر الراين أم باللوكسمبورغ؟

غادر بيسمارك فرنسا ليعود إليها في الثاني من تشرين الثاني (نوفمبر) ويجتمع بالامبراطور في سان كلو مرة أخرى، وذلك لأخذ موافقته النهائية على حياد فرنسا.

والآن جاء دور الخطوة الثانية وهي إقناع إيطاليا بحشد قواتها على الحدود مع النمسا لكي تضطر هذه الأخيرة إلى توزيع قواتها على جبهتين رئيسيتين. وكانت الأجواء السياسية الرسمية في إيطاليا مهيئة للموافقة على أي شيء مع بروسيا بسبب فتور العلاقات الإيطالية – النمساوية يومها.

بعد اتصالات تمهيدية بين الجانبين الايطالي والبروسي وصل في ٢٤ آذار (مارس) ١٨٦٦ الجنرال الايطالي غافوني إلى برلين في «مهمة خاصة». وفي الثامن من نيسان (ابريل) وقع مع بيسمارك على معاهدة سرية صالحة لثلاثة أشهر (حتى الثامن من تموز – يوليو). يومها قال غافوني لبيسمارك: «اطمئن. إن الحرب واقعة لا محال، وسألتزم أشد الالتزام بأثاره أكبر فوضى ممكنة للقوات النمساوية على حدودنا». عندها أبلغ بيسمارك حليفه الفرنسي المؤقت بأمر هذه المعاهدة، فوافق عليها.

في ٢٧ نيسان (ابريل) أعلنت إيطاليا التعبئة العامة وحركت قواتها العسكرية إلى الحدود الدولية مع النمسا. فاضطرت هذه الأخيرة إلى الاستعداد العسكري وتحريك جزء من قواتها نحو الجنوب. فاستغل بيسمارك هذه الاجراءات، التي مهد لها هو بنفسه، ليتهم النمسا بالاستعداد للحرب ضد بروسيا ويستنفر بالتالي الرأي العام ضدها. وبالطبع صدق الملك غيّوم الأول إدعاءات مستشاره، فأعلن في الثالث من أيار (مايو) استنفار خمس وحدات من الجيش البروسي، على رغم معارضة الشعب والفعاليات الاقتصادية وبقية المقاطعات الألمانية للحرب بين الأشقاء.

وتفاقمت النقمة ضد بيسمارك داخل بروسيا إلى حد أن أحد الطلاب حاول في السابع من أيار (مايو) اغتياله بمسدس إلا أنه أخطأه.

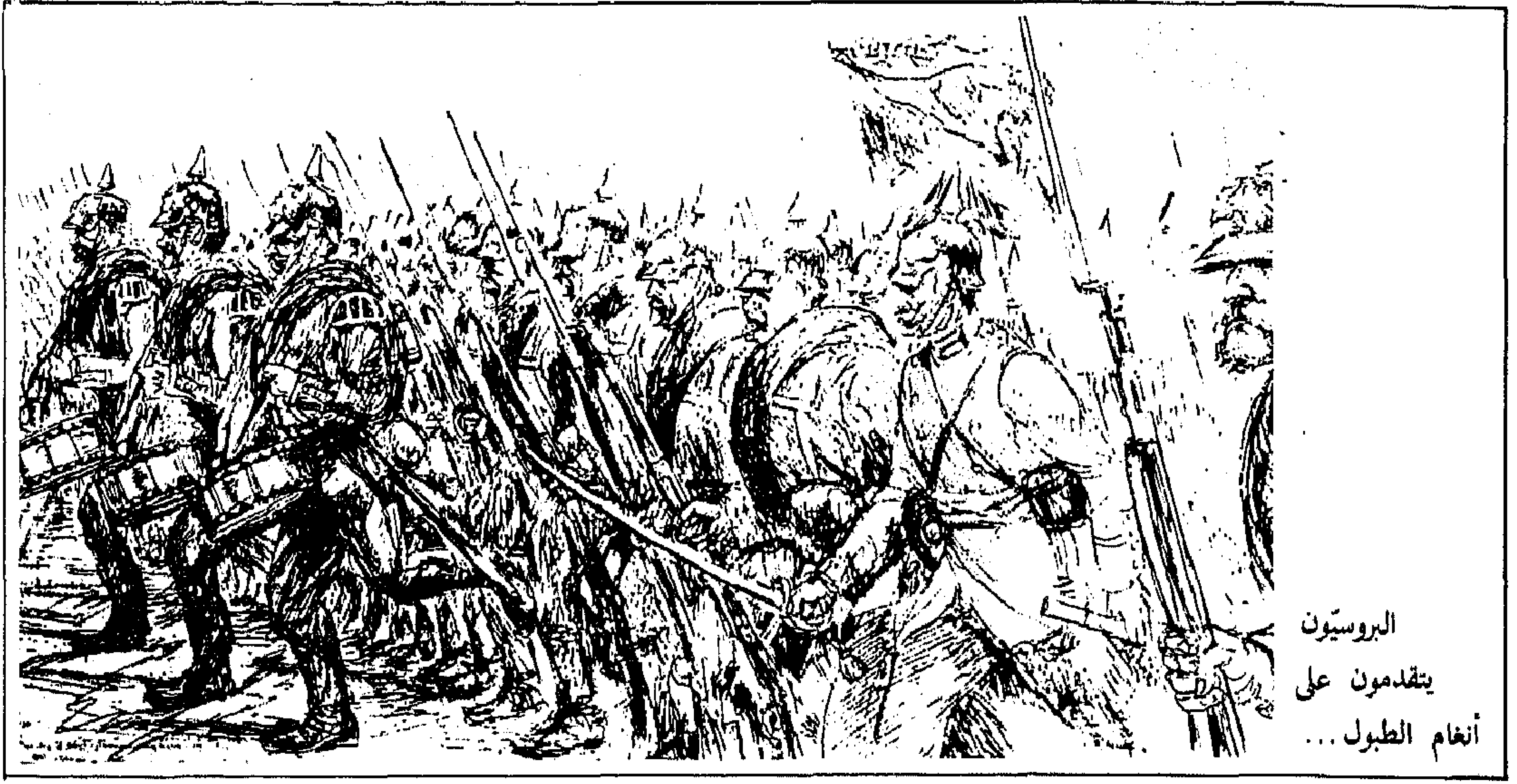
عند هذا الحد وجد بيسمارك أن الجو العام في الداخل والخارج لم يكن معبأ تماماً ضد النمسا. فجاءت دعوة نابوليون الثالث لعقد مؤتمر أوروبي في باريس في ١٢ حزيران (يونيو) لتوفر الفرص الذهبية له لعزل النمسا، قبل محاولة اخضاعها بالقوة. فوراً أعلن بيسمارك ترحيبه بالدعوة وأكد انه سيحضر المؤتمر شخصياً وبلا قيد أو شرط. وهنا توهمت النمسا أنها في موقع القوة، فأخذت تضع شروطاً لحضورها المؤتمر، مما أدى إلى إجهاض اللقاء. فوقعت النمسا في الفخ من غير أن تدري. وتابع بيسمارك لعبته الديبلوماسية فصرّح، تعليقاً على فشل انعقاد المؤتمر: «... والآن هل من دليل آخر على نية النمسا في الحرب»؟

ميزان القوى:

في العام ١٨٦٦ كان سكان بروسيا لا يتجاوزون الـ ١٩ مليون نسمة بينما عدد سكان النمسا يفوق الـ ٣٧ مليون. لكن المعروف يومها ان البروسيين كانوا أكثر تجانساً من سكان النمسا، مما ساعدهم على تأمين جبهة داخلية متراصة أثناء الحرب. على الصعيد العسكري استطاعت بروسيا تعبئة ٦٠٠ ألف رجل تحت السلاح أي حوالي ٣ في المائة من السكان. لذلك كانت لا تستطيع إطالة أمد الحرب وإلا انهار اقتصادها. أما النمسا فحشدت ٦٢٠ ألف رجل من بينهم ٢٧٠ ألفاً من قوات الاحتياط. وعلى رغم ذلك كان ميزان القوى العسكري لصالح بروسيا بسبب اضطرار النمسا إلى حشد جزء من هذه القوات على حدودها الجنوبية في مواجهة القوات الايطالية.

من ناحية الأسلحة المستخدمة يومها، كان المشاة البروسيون مزودين ببنادق ذات قادح تطلق ٤ مرات أسرع من البندقية النمساوية ذات السيخ. ولم يكن النمساويون يتفوقون على أعدائهم إلا بمدفعيتهم الثقيلة.

وعلى حال تجهيز القوات فمما لا شك فيه ان القوات البروسية كانت أكثر غنى، تمويناً وتجهيزاً،



البروسيّون يتقدمون على أنغام الطبول...

من القوات النمساوية. ومعنويات الأولى كانت بالتالي أرفع من الثانية. وكان الجنود البروسيون يعتمرون الخوذات ذات الحربة ويلبسون بذلات قاتمة محكمة الخياطة بعكس الجنود النمساويين الذين كانوا في ثياب أبعد ما تكون عن كونها بذلات قتال.

خارطة المعركة:

بعد نجاح كل الخطوات السياسية والديبلوماسية الآيلة لعزل النمسا بفضل ماكيافلية بيسمارك، جاء الآن دور المخططين العسكريين البروسيين، وكان على رأسهم الماريشال الكونت هيلموت فون مولتكه الذي قاد معارك بلاده ضد الدانمارك (١٨٦٤) والذي سيقود أيضاً العمليات العسكرية ضد فرنسا - نابوليون الثالث (١٨٧٠ - ١٨٧١). وكانت معركة سادوفا بالنسبة إليه فرصة ليطور استراتيجيته العسكرية التي اختبرها في عملياته الهجومية في العام ١٨٦٤ تمهيداً لبلورتها أكثر في عملياته الدفاعية اللاحقة ضد فرنسا (١٨٧٠).

كيف كانت خارطة المعركة؟

تمحورت خطوط القتال الرئيسية في المنطقة الواقعة بين برلين وفيينا بعمق حوالى ٦٠٠ كلم وبعرض حوالى ٢٤٠ كلم. وضمت يومها مناطق سيليزيا وساكسونيا وبوهيميا ومورافيا. وكانت جغرافية هذه المناطق مسطحة الشكل في معظمها وتحيط بها الجبال العالية من جهة بوهيميا وجنوب سيليزيا، اضافة إلى الأنهر ووجود العديد من خطوط المواصلات (طرق وسكك الحديد).

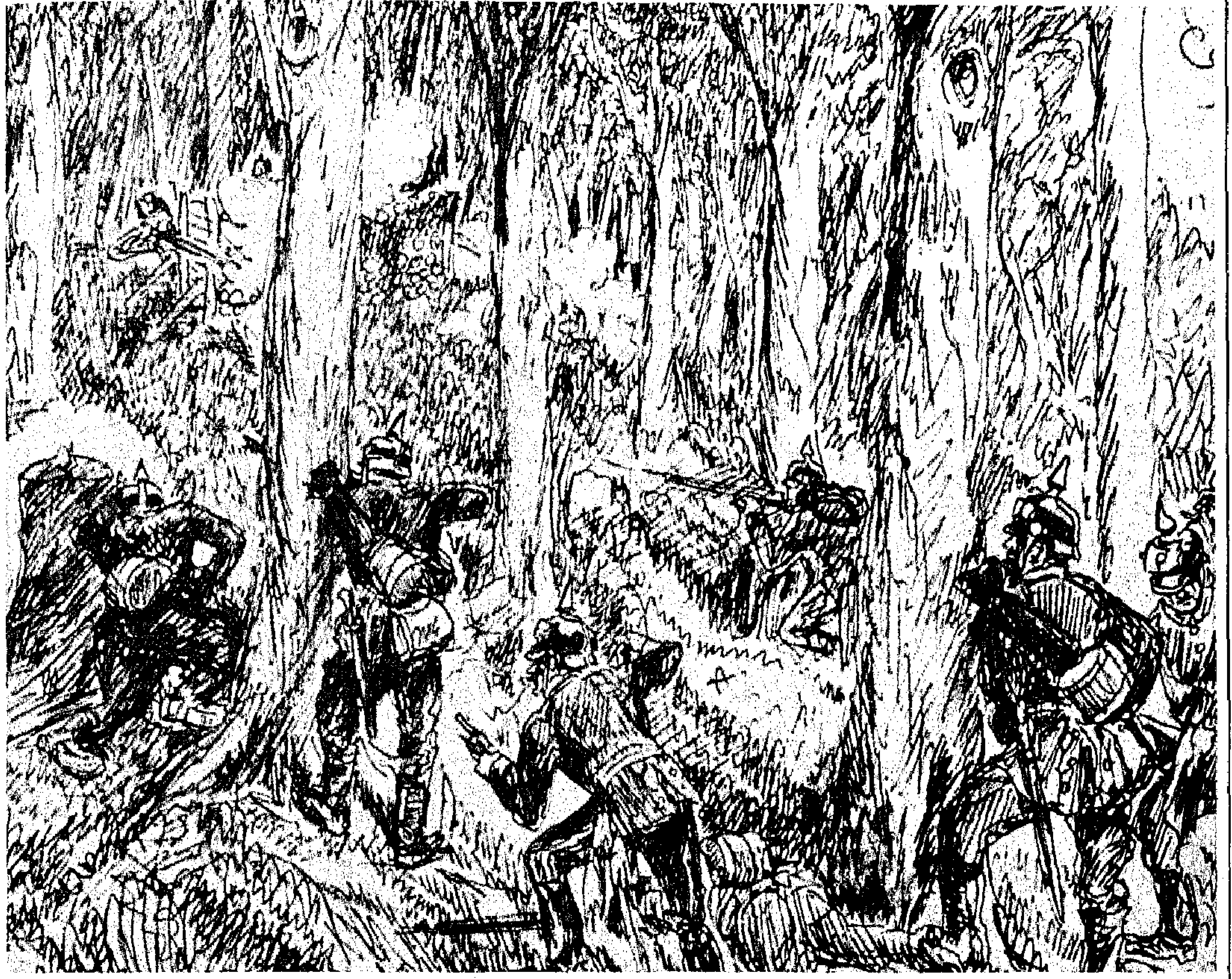
في البدء كان على الجيش البروسي أن يمهد الطريق للوصول إلى قلب النمسا قبل أن يخوض المعركة الحاسمة فيها: فبادر منذ السابع من أيار (مايو) إلى احتلال مقاطعة هولشتاين - المعزولة في الشمال - ومرفئها الاستراتيجي: كيل.

ثم في ١٥ حزيران (يونيو) وجّه بيسمارك انذاراً إلى قوات الدويلات الالمانية الوسطى لتسليم سلاحها خلال ٢٤ ساعة. فرفضت. لما كان على الجيش البروسي إلا أن يتقدم بالقوة: فمنها من استسلم بلا مقاومة (هيسة) ومنها من سحب جيشه إلى بوهيميا لينضم إلى القوات النمساوية (سكسونيا) ومنها من قاوم ثم استسلم (هانوفر).

وهكذا أصبحت القوات البروسية وجهاً لوجه أمام القوات النمساوية.

خطة مولتكه:

كان على رأس القوات النمساوية العاملة في هذه الجبهة الماريشال الهنغاري بينيديك الذي كان يعتبر من صفوة المخططين العسكريين يومها، ولكن من غير أن تسنح له الظروف لتطبيق خططه النظرية في معارك ميدانية حقيقية. إضافة إلى أنه نقل إلى الجبهة النمساوية - البروسية في ٢١ أيار (مايو) آتياً من الجبهة النمساوية - الايطالية. لذلك لم يكن يعرف في دقة


الاشتباكات في غابة ماسلوفيد، رسم لدوريو.

طبيعة المنطقة التي سيشرف عليها كما انه لم يكن هناك متسع من الوقت للتعرف بالتفصيل عليها. أما لماذا نقل فجاة وعشية المعركة من جبهة عايشها إلى جبهة يجهلها، فهذا ما لم نجد له جواباً لدى المؤرخين حتى اليوم. المهم ان الإرتباكات العديدة في صفوف الجيش النمساوي نتجت عن هذا القرار المفاجئ: إذ بينما كان الجيش البروسي يقضم الدويلات المحيطة بالنمسا قطعة قطعة، كان الجيش النمساوي في موقف الانتظار والاستعداد البطيء لا يقوى على المبادرة إلى ضرب حشودات البروسيين المكشوفة له في أكثر من موقع. كان الجيش النمساوي يحشد قواته في المكان والزمان المناسبين لعدوه بدل العمل على فرض توقيته هو.

وبالفعل كانت خطة مولتكه مكشوفة: وضع طليعة الجيش النمساوي ضمن كماشة قوات الجنرال فون بيتنفالد الزاحفة من سكسونيا وقوات الجيش الثاني بقيادة فريدريك غيّوم الزاحفة من سيليزيا، إضافة إلى قوات الجيش الأول بقيادة فريدريك شارل الزاحفة من المنطقة الواقعة بين سكسونيا وسيليزيا. وكان على الجيوش الثلاثة ان تلتقي في سادوفا، تاركة للقوات النمساوية مجال الانسحاب، في حال حصارها، في اتجاه الجنوب (كونيغراتس).

كيف واجه بينيديك هذه الخطة؟

كانت قواته تتقدم ببطء آتية من كونيغراتس ومن منطقة يوزيفشتاد الجبلية نحو... فخ سادوفا. ومن ينظر إلى خارطة المعركة يجد الخطأ المميت الذي وقع فيه القائد العسكري النمساوي: إذ، لو حث الخطى أكثر، لأستطاع اصطياد قوات الجيش الثاني البروسي الآتية من وديان سيليزيا الجنوبية الغربية. ثم ان قوات الجنرال فون بيتنفالد الزاحفة من الساكس دخلت الحدود النمساوية في ٢٣ حزيران (يونيو) من غير أن

تواجه أية ردة فعل فورية من قبل الجيش النمساوي. كما ان قوات الجيش الأول دخلت بوهيميا في السادس والعشرين من الشهر نفسه من غير أن تجد أي أثر للجيش النمساوي. عوضاً عن ذلك حشد بينيديك قواته حول سادوفا، واعياً تماماً صعوبة وضع جيشه. لذا أرسل في الأول من تموز (يوليو) إلى الامبراطور فرانسوا – جوزيف برقية مستعجلة جاء فيها: «أرجو جلالتكم في الحاح عقد معاهدة سلام وإلا فالكارثة حتمية». فأرسل الامبراطور النمساوي مبعوثاً خاصا (هو الجنرال بيك) إلى الجبهة لاستطلاع الوضع عن كثب. فكان تقرير الجنرال بيك موجزاً: «الهدنة أو السلام. ان قلبي مجروح ولكن عليّ أن أصارح جلالتكم بهذه الحقيقة».

وكان رد الامبراطور القابع في قصره في فيينا: «من المستحيل عقد معاهدة سلام. إذا كان الأمر ملحاً فأنني آمركم بالانسحاب المنظم. هل بدأتم المعركة؟». طبعاً المعركة الحاسمة لم تكن بدأت بعد، رغم المناوشات العديدة في هذه الناحية أو تلك. في هذه الساعات الحرجة كانت القوات الرئيسية للجيش النمساوي تنتظر حول سادوفا. ووجد بينيديك الوقت لكتابة رسالة إلى زوجته جاء فيها:

«... ربما كانت هذه هي المرة الأخيرة التي أكتب فيها إليك. لا شك انه بعد ساعات من الآن هناك معركة كبيرة في انتظارنا. يمكن أن لا أراك بعد اليوم. الأفضل لي أن ألاقي مصرعي هنا... إنني في كامل اتزاني. أبعث لك بحبي الكبير. أقبلك في حزن عميق...».

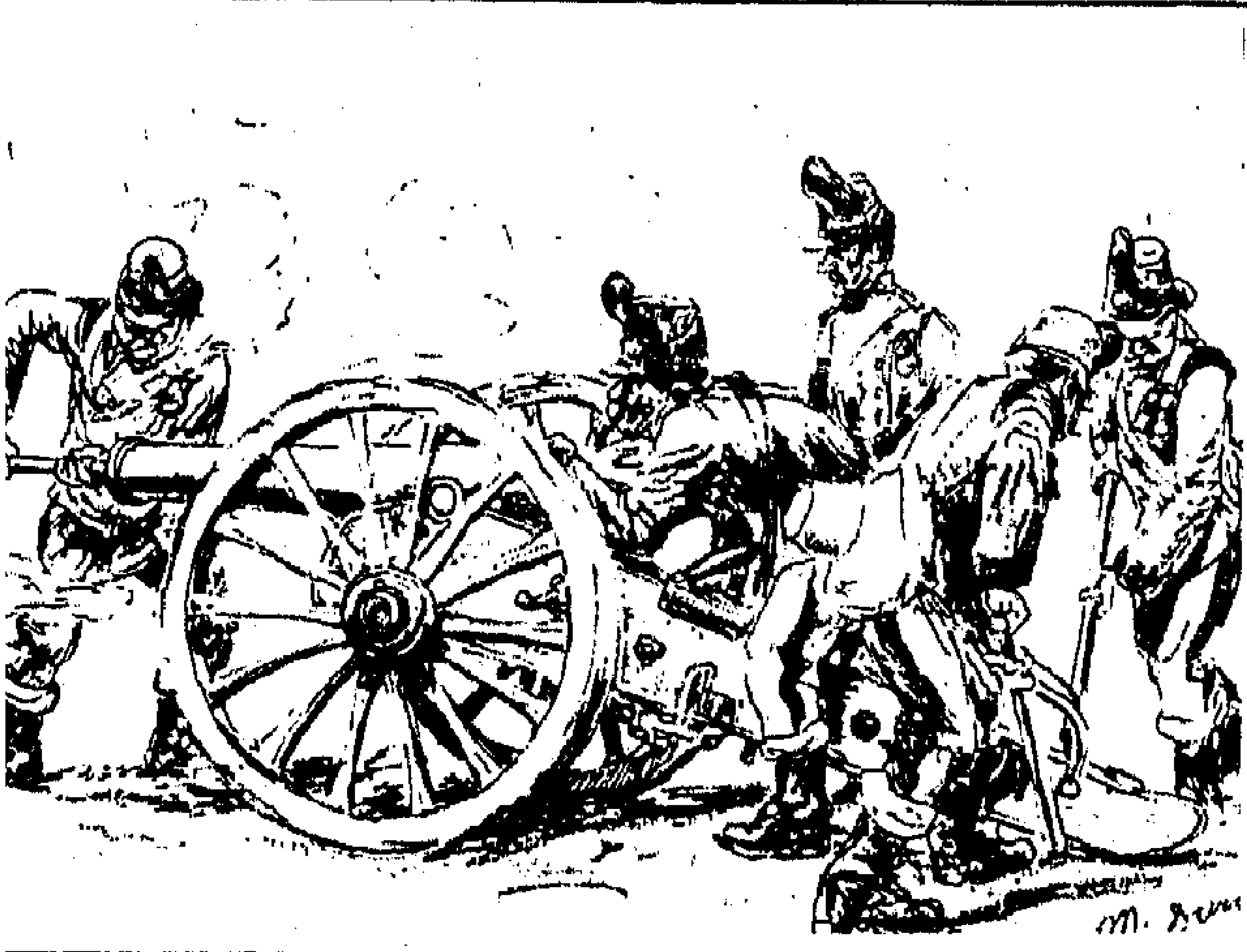
... وبدأ الهجوم:

٣ تموز (يوليو) ١٨٦٦. الساعة الثانية فجراً. المطر يزخ في كثافة. الغيوم الكثيفة تحجب الرؤية عن قرب. في هذه الظروف الطبيعية القاسية بدأ الجيش البروسي زحفه من المحاور الثلاثة السابقة الذكر في اتجاه نقطة التجمع الأخيرة في سادوفا.

بين الثامنة والحادية عشرة صباحاً قام الجيش البروسي الأول بالهجوم الرئيسي على سادوفا من جهة نهر بيستريتس، الذي كان محاطاً بالغابات وبالتلال الصغيرة. قاوم الجنود النمساويون مقاومة ضارية،



جنود نمساويون يجهزون مدفعاً.



لكنهم فوجئوا برصاص القنص الكثيف الذي انهال عليهم من كل صوب. كانوا ينتظرون مواجهة كلاسيكية مع الجنود البروسيين. إلا أن تكتيك الأخيرين كان أكثر مرونة. على رغم ذلك استمر الكر والفر لمدة ساعتين حتى انحصرت ساحة القتال في الغابة الشهيرة المعروفة باسم «ماسلوفيد» (طولها ١٦٠٠ متر وعرضها ١٠٠٠ متر). وهنا تدخلت المدفعية النمساوية القوية وأخذت تدك مواقع البروسيين دكاً إلى أن أجبرتهم على التراجع غير المنظم.

كانت فرصة ذهبية بالنسبة إلى المدافعين النمساويين للانتقال إلى الهجوم المضاد. لكنهم ظلوا في مواقعهم الدفاعية.



هجوم بروسي على رجال المدفعية النمساوية . رسم لدوريو.

في هذه الأثناء كان الملك غيّوم الأول برفقة بيسمارك ومولتكه فوق تلة قريبة من ساحة القتال قلقين على مصير الهجوم الرئيسي هذا. فاقترح الملك وقف القتال مؤقتاً لأعادة تنظيم القوات المتقهقرة. لكن مولتكه أجابه في حدة غير معهودة : «فليسمح لي جلالتكم. لن نتراجع هنا. ان مستقبل بروسيا يتقرر في هذه اللحظات». وكان على حق.

أما بيسمارك فكان يدخن في هدوء وفي صمت.

أصبح الوقت في غير صالح البروسيين : فالمدفعية النمساوية ما زالت تلاحق فلول الجيش البروسي الأول المتقهقر. عندها خرج بيسمارك من هدوئه وأخذ يحشو مسدسيه. ألم يقل قبل أيام من المعركة لأحد المقربين له : «ستكون المعركة قاسية. إذا هزمنا فسأموت في خط الهجوم الأخير. لن نموت إلا مرة واحدة. وعندما نهزم، الأفضل لنا أن نموت.».

ولكن... أين الجيشان البروسيان الآخران؟

ينظر بيسمارك بمنظاره نحو الشمال : لا أحد. يظل يحدق بمنظاره بين الحين والآخر في الوقت الذي أحس فيه بثقل المسؤولية وبتعب الأشهر الطويلة التي أمضاها في التخطيط لعزل النمسا ولضعضعة قواتها على أكثر من جبهة.

أصبح الوقت ظهراً. نظرة أخرى في الأفق... وانفرجت أساريره : الجيش البروسي الثاني يزحف بجحافله وسط النيران الكثيفة للمدفعية النمساوية. وبعد قليل سيتقدم جيش فون بيتنفالد من المحور الأيسر ليحكم الطوق على القوات النمساوية، في الوقت الذي كان فيه عشرات الألوف من الجنود النمساويين يخوضون حرباً غير ذات فائدة على الجبهة الايطالية.

عندها قال مولتكه للملك : «اليوم، لم يربح جلالتكم المعركة فحسب بل ربح الحرب».

في الوقت نفسه تقدم أحد ضباط الأركان من بيسمارك وقال له : «سعادة المستشار، أنت الآن رجل عظيم...»، ولم ينتظر بيسمارك محاوره ليكمل : «... لكن لو تأخر فريدريك غيّوم بعض الوقت لأصبحت من أحقر الرجال»، ثم انسحب من مركز القيادة... لينام في مكان هادئ... ■

لأنّ الشّكل ضاق بزخم المضمون ...

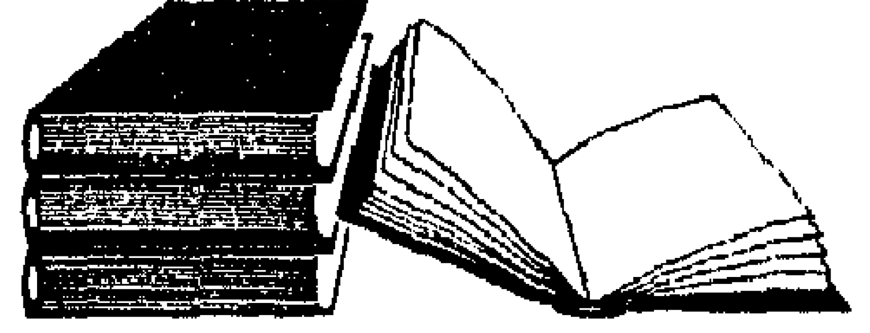


إقرأ الأحداث بين الاسطر ... انظر الى ما وراء الكلمة ... لاتقبل بما يقال ... بل إبحث لماذا ..؟ أو لمن قيل..؟ مع من ..؟ ولمن..؟ ولماذا..؟
النهار العربي والدولي أصبحت في وقت قصير مجلة النخبة في كل بلد عربي ، والمرجع لوكالات الأنباء العالمية .. وبعد أن توصلت النهار العربي والدولي إلى هذا المستوى الفريد ، قررت أن تطور مظهرها، وأن تصدر بحجم جديد وبإخراج وتبويب يليق بمحتواها.

النهار العربي والدولي

كاتب بلا قيد
قارئ بلا قيد

مجلة ابتداء من ٢٢ تشرين الاول "اكتوبر" ١٩٧٩



من صلاح الدين إلى المغول

ايوبيو دمشق ١١٩٣-١٢٦٠م . د(ستيفن همفريز)

إعداد:
عايده
نعمان

From
Saladin
to the
Mongols

R. Stephen Humphreys

State University of New York Press

يقول مؤلف الكتاب وهو أستاذ مادة التاريخ في جامعة شيكاغو انه بالرغم من الشهرة الواسعة لصلاح الدين في انتصاراته العسكرية، يبقى على الباحث أن يشير إلى انه لم يضف جديداً على البنية السياسية أو الادارية للدولة انما تمثل سنوات حكمه تتويجاً لممارسات سياسية وادارية تعود إلى نصف قرن سابق له.

الغليان السياسي والعسكري ابّان حكم الايوبيين الذين ورثوا صلاح الدين يشكل قوة تحول بارزة في تاريخ المنطقة وخاصة في علاقات وادي النيل بالهلال الخصيب. ويرفض الكاتب ان ينظر الى الفترة التي تلت حكم الأيوبيين باستيلاء المماليك على السلطة إلاّ كفترة منفصلة ومستقلة عن الخط التاريخي الذي انبثقت منه، وهي التي افرزت الحكم السياسي المركزي في مصر والمسيطر سيطرة تامة على بلاد الشام. ويجد في حكم المماليك ثلاثة اتجاهات بارزة تشكل انعطافاً بل شبه طلاق من القرن الثاني عشر الذي سبقه الا وهي:

١ – ابتعاد النخبة من مدنيين ومتدينين عن مراكز النفوذ وبالتالي عن قدرتهم على توجيه القرار السياسي.

٢ – تسلم المماليك ومن تحدر من عائلات كانت من الأرقاء، جميع القيادات العسكرية.

٣ – لم يعد الجيش أداة للحكم وإنما الحكم نفسه. ولم يعد ولاؤه لأية سلطة سياسية أو سلالة حاكمة.

ان التراث الذي أورثه صلاح الدين لم يكن بالدولة الموحدة المتماسكة بقدر ما كان نظامه السياسي مؤلفاً من بنية متداخلة من الحقوق والواجبات والتوقعات يحاول كل أمير من خلالها ممارسة السلطة والنفوذ. وهذه البنية نشأت واتخذت شكلها من شخصية صلاح الدين وتوجهاته السياسية. لذا انتفى وجود الدولة بمعناها المتماسك واجهزتها الموحدة. وكان الاقطاع الوسيلة الوحيدة لادارة شؤون الدولة ولتمويل قطاعات الجيش وبناء وحداته. ويبدو جلياً ان هذه الاقطاعات لم تكن ذات حدود واضحة أو راسخة وانما كان صلاح الدين يقطع ثم يغير ويبدل في



صلاح الدين: وحد مصر وسورية والعراق ليحرر فلسطين.

ملكية الاقطاعات تبعاً لحاجته العسكرية أو الاقتصادية أو مكافأة لأحد اقربائه أو امرائه. التغيير والتبديل كانا السمة البارزة وما يعطيه صلاح الدين يمكن ان يأخذه فيما بعد. ويتساءل المؤلف كيف تمكن صلاح الدين من ابقاء دولته على شيء من التماسك مع المرونة التامة دون تململ أو تمرد يذكر؟ ويجيب بنفسه بأن هناك سببين رئيسيين هما:

أولاً: ارتباط الجميع بالايديولوجية الدينية التي كان يمثلها صلاح الدين في جهاده ضد الفرنج. وقد كان هو رمز هذا الجهاد المقدس وقائده.

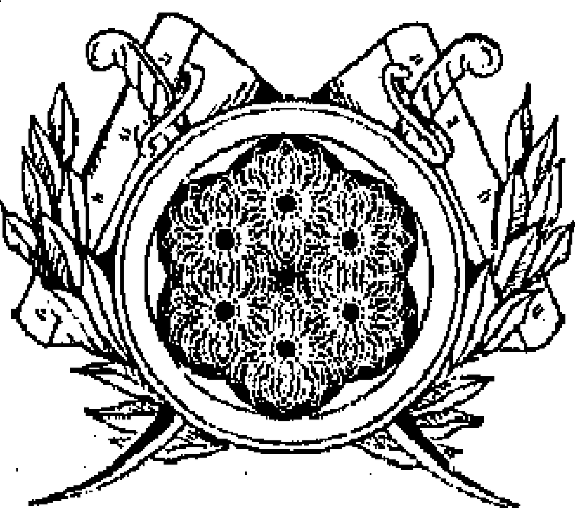
ثانياً: ربط حكمه بشبكة من الاقطاعات التي اقطعها جميعاً لافراد عائلته أو خاصته وحاشيته. وبذلك يكون قد اقام حكماً كونفدرالياً متميزاً بالسيادة الجماعية المرتبطة بالأوامر العائلية. وكان على صلاح الدين بالذات التحرك من ضمن هذه التركيبة العائلية وحفظ التوازن بينها طوال مدة حكمه.

بعد غياب صلاح الدين بدأت الايديولوجية الجهادية بالتقلص والعصبية العائلية بدأت تغلي بالحساسيات والنزعات الفردية لدى افراد العائلة الواحدة. عدا انشغال الايوبيين برد الهجمات الصليبية المتتابعة فقد شغلوا بحروب أهلية مضنية. وفي حين نجح صلاح الدين في إبقاء التوازن بين قطبي دولته أي مصر وسوريا. ولكن بغيابه عاد الصراع التاريخي ليطبع حكم الايوبيين ولينتهي بانتفاضة المماليك في ١٢٥٠م.

اتسمت البيروقراطية الايوبية باعتمادها على النخبة المؤلفة من طبقتين متساويتين: النخبة السياسية المؤلفة من الامراء والاقطاعيين (وهما في غالب الاحيان متوحدتان) وذوي الكفاءة العالية لتولي بيت المال وديوان الانشاء. والطبقة الثانية كانت العلماء أو رجال الدين والفقه. يؤكد المؤلف ان دور كل طبقة كان مستقلاً ومكملاً للطبقة الأخرى. وقلما كان الانتقال سهلاً من الواحدة للأخرى إلاّ في حالات قلة عندما تولى «القاضي الفاضل»، وكان رجل فقه، ديوان الانشاء لكفاءة متميزة فيه. وكان من أهداف هذه النخبة وبشكل خاص، احياء السنّة وتوجيهها في نضال سوري مصري لمحاربة الفرنج وما تبقى من النفوذ الفاطمي في مصر. وغني عن القول ان هذه النخبة التي شكلت البنية السياسية والادارية والفكرية للدولة الايوبية اقتلعت اقتلاعاً حين تكوين دولة المماليك لتحل مكانها جميعاً الآلة العسكرية المتمثلة بالجيش.

كتاب ستيفن همفريز لا يتميز بكونه تاريخاً لفترة زمنية لم تستوف حقها من الباحثين ولا بتفصيله للحروب والنزاعات والتقلبات المضنية ابّان العصر الأيوبي، بقدر كونه تحليلاً وافياً للتركيبة الادارية والسياسية للدولة الايوبية بخلفياتها وتطورها ثم بانفصامها التام الى دولة المماليك الشديدة الاختلاف عنها والتعارض معها.

ميزة أخرى للكتاب ايراده جداول انساب الايوبيين وخرائط ملحقة مع قوائم موسعة بمصادر البحث حول هذه الفترة الانتقالية الهامة في تاريخ هذه المنطقة ■



فتح القسطنطينية

الحلقة الثانية

ملحمة اسلامية خالدة

ترجمة: "تاريخ العرب والعالم"

في الحلقة الأولى من تاريخ «فتح القسطنطينية» وضع السلطان محمد الثاني قيادة الجيش والأسطول التركي تحت إمرته، بعد أن تبين له ان القيادة الناجحة تحتاج إلى وضع استراتيجية جديدة، واشراف كلي على المعارك الدائرة، وهذه أمور لم تكن متوافرة للصدر الأعظم، الذي كان معارضاً للحصار جملة وتفصيلاً، وساغان باشا قائد الجيش الذي لم يكن خبيراً بأساليب الحصار، واستنباط الخطط والخدع الحربية، الضرورية، لانهاك العدو وتحطيم معنوياته، لذلك عمد السلطان إلى أساليب الحرب النفسية، فنقل الأسطول التركي جراً على اليابسة من مياه البسفور إلى مياه القرن الذهبي عبر طريق وعرة ومرتفعة كان قد أمر بشقها وقد نجح بذلك نجاحاً باهراً.

وفيما يلي الحلقة الثانية من تلك الحرب المليئة بالعجائب والغرائب..



وفي إحدى الليالي. تسللت من تحت سدول الظلام سرية تركية تسوق أمامها برجاً خشبياً عالياً يسير بالعجلات. نحو الأسوار. وكان داخل البرج ٥ سلالم خشبية يصعد عليها تؤدي إلى أفريز لكي يقف عليه الرماة بالأقواس. وكان الغرض من البرج حماية العمال الذين كلفوا بردم القناة المائية الواقعة أمام الأسوار عبر وادي ليكوس أي وادي الذئب» وفيما كان العمال الأتراك يقومون بواجبهم تحت حماية رماة البرج. ظهر غرانت الاسكتلندي مرة أخرى. فقام مع رجاله باشعال النيران في الأدغال والأعشاب المحيطة بالقناة. فاندلعت فيها الحرائق وارتفع اللهيب إلى ان نشب بالبرج فاشتعلت فيه النار واحترق.. وفي خلال نصف ساعة ظهرت مكيدة جديدة للسلطان ولكنها أيضاً تحولت إلى رماد. عندئذ. أقسم السلطان بذقن النبي بأنه لم يكن يتصور أن يكون لدى الأعداء من يجابه خططه ويفشلها.. وتمنى لو كان له مثل أولئك الرجال...

وكانت تلك الألعاب التي أغدقتها أريحية السلطان على المحاصرين آخر فصل في قصة الحصار الاستطرادية - ففي ٢٣ مايو عادت السفينة ذات الساريتين وانزلقت إلى داخل المرفأ لتعلن انها بعد ٢٠



السلطان محمد يمتطي جواد «النصر» الأبيض عند دخوله فاتحاً منتصراً مدينة القسطنطينية.

يوماً قضتها في البحث عن أسطول الفينيسيين. فانها لم تعثر له على أثر فغمغم الامبراطور قائلاً: ترى لماذا عادوا؟. وأجاب أحد رجال البعثة قائلاً: لقد بحثنا الأمر يا سنيور. وقررنا جميعاً ما عدا واحداً منا - أن نعود لنخبر الامبراطور بأننا لم نعثر على أسطول الفينيسيين. فتأثر الامبراطور من تضحيتهم من أجل انقاذ مدينة القسطنطينية المحكوم عليها أن تنطفئ فجأة مثل مصابيح المذبح في كنيسة أيا صوفيا.

السلطان محمد يطلب من قسطنطين الرحيل..

وأرسل السلطان محمد وفداً إلى الامبراطور قسطنطين بقيادة الأمير إسماعيل حمزة حاكم سينوب للمفاوضة. ومعه مفرزة من حرس الشرف في كتيبة الفرسان الخاصة بالسلطان. وكانوا جميعاً يرتدون بزاتهم الرسمية المؤلفة من اللون الأخضر الغامق والقرمز. معمّمين بعمامات بيض متوجة ذرواتها بالحرير الأرجواني. ويتقلدون سيوفاً محدودبة وحيدة الحد. مرصعة مقابضها بالأحجار الكريمة.

وكان الأمير إسماعيل مألوفاً ومعروفاً لدى الامبراطور قسطنطين. وله معارف واتصالات في المدينة. ولما سُمح للوفد بالدخول إلى المدينة اقتيد رأساً إلى مركز قيادة الامبراطور. وهناك قال له الأمير إسماعيل: «إنني أحمل إليك رسالة من السلطان محمد يا سيدي. وهو يودّ أن تعلم بأنه ما زال بوسعك أن ترحل عائداً إلى موربا ومعك كل مَن يرغب في الرحيل».

فأجاب قسطنطين بثبات: «إنني لن أرحل أيها الأمير»، فقال الأمير اسماعيل: يا صديقي. إن موقفك ميؤوس منه.. فالأسوار مهدّمة، ومياه القرن الذهبي محتلّة.. ومعظم ما لديك من الأطعمة قد نَفَد.. ولم يعد لك أي اختيار».

فأجاب الامبراطور قائلاً: «كل ما ذكرت هو صحيح، ولكنني صمّمت على البقاء وإليك جوابي فانقله إلى السلطان: «إنني أحمد الله إذا أردت أن تحيا معنا بسلام كما فعل أجدادك. إن كل من يثير حرباً ضدّ المدينة لن يكتب له النجاح، استبق الأقاليم التي احتليتها دون حق.. وقرر الجزية التي تريدها.. ولسوف نبذل أقصى جهدنا لدفعها.. ثم اذهب بسلام... أما تسليم المدينة فليس ذلك بوسعي ولا بقدرة أحد، إننا مستعدون جميعاً للموت ولسوف نفعل ذلك بلا ندم».

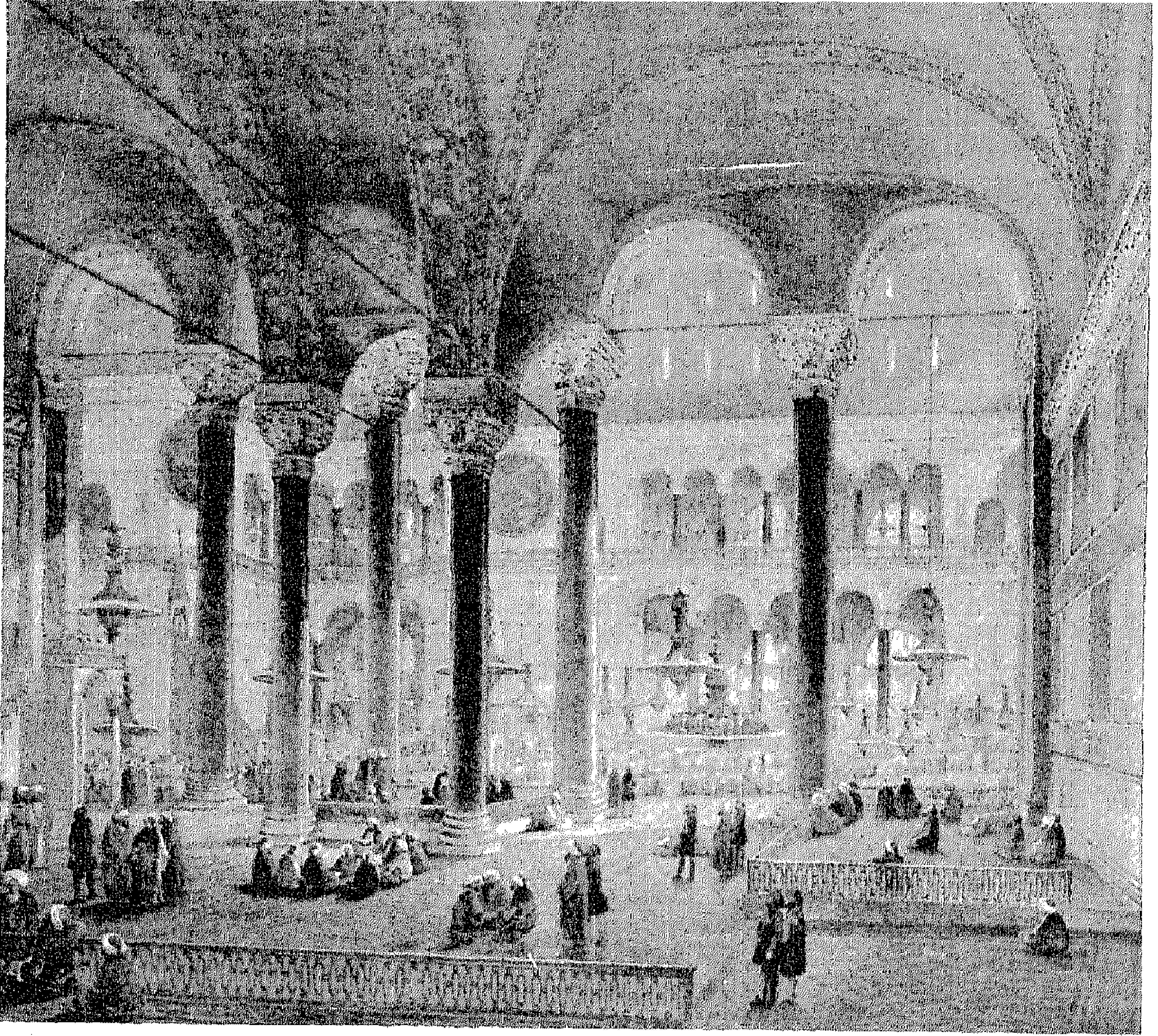
وما أن تلقّى السلطان جواب الامبراطور، حتى أصدر أمراً سامياً بإقامة وليمة كبرى لمدة ثلاثة أيام قبل القيام بالهجوم الكبير. فعمّت الزينات أرجاء المعسكر التركي، وأُضيء كل موكب حربي بصفين من الأضواء، وراحت الأبواق تعزف والصنوج النحاسية تدق ويتردد صدى كل ذلك في الأجواء الواسعة.

أما في داخل المدينة فقد لاح ضوء غريب حول قبة كنيسة أيا صوفيا ثم تصاعد منه لهب أو بريق نحو الصليب المذهّب والمثبّت في قمة القبة، وبدا وكأن اللهب يتطاير حول القبة العظيمة، وسواء كانت تلك الظاهرة منبعثة من نار سانت ايلمو أو انعكاساً من التوهج المنبعث من نيران المعسكر التركي، فقد أثارت الظاهرة الغريبة الفزع بين البيزنطيين «لقد تخلّى الله عن المدينة» قال ذلك وفد من رجال الدين للامبراطور. ولدى سماعه هذا التفسير أغمي على الامبراطور الشاب. فأُنعش بماء الورد، والدموع تنهمر فوق وجنتيه، فآلى على نفسه أن يلتمس العون من «العذراء المباركة».

وفيما كان موكب من رجال الدين يسير في شوارع القسطنطينية. وإذا بعاصفة هوجاء تثور فجأة. وكان يتقدم الموكب صورة للعذراء مثبتة فوق قاعدة ثقيلة وفي أثناء الارتباك الذي حدث عند هبوب العاصفة سقطت صورة العذراء على الأرض وانفصلت عن قاعدتها. وكان اعادة تثبيتها يتطلب جهوداً مضنية. ولكن سقوط الصورة في وسط ذلك الجو العابس بالطيرة والتشاؤم أحدث تأثيراً كبيراً في المدينة ولغطاً شديداً.

السلطان يعقد مجلساً حربياً...

وفي يوم الأحد. الموافق ٢٧ مايو. عقد السلطان مجلساً حربياً جرت فيه مناقشة الوضع. فوقف الصدر الأعظم موقفاً مناهضاً لأماني السلطان. وطالب برفع الحصار عن القسطنطينية وقال: لقد طال هذا الحصار ومر عليه حتى الآن سبعة أسابيع والمقاومة تتحدى كل «التكتيكات» العسكرية وكل خدعة معروفة في الحرب. وتنبأ الصدر الأعظم بأن كل هجوم آخر يشن على الأسوار سينتهي بالفشل. وسيؤدي إلى مهانة لا تحتمل. وأضاف قائلاً: ومع



الجانب الآخر من جامع أيا صوفيا.

ذلك فان المساعدة قادمة من الغرب لنجدة المحاصرين. وأدرك السلطان محمد بأن الهجوم موجه ضده فكظم غيظه ولكنه أسر ذلك في نفسه. وتكلم بعد الصدر الأعظم ساغان باشا قائد الجيش. فقلّل من قيمة الخطر المزعوم. وأصر على وجوب احتلال المدينة.

ثم تكلم السلطان واستشهد «ببطله المفضل» الاسكندر المقدوني قائلاً: «لقد تمكن الاسكندر الكبير من التغلب على نصف العالم القديم بجيش أقل كثيراً من الجيش التركي» وكان السلطان يتكلم وهو محتدم غيظاً. واستتبع قائلاً: «ان أحد الدراويش في المعسكر شاهد في المنام روح الصحابي أبو أيوب خالد. وكان قد استشهد في الهجوم الكبير الذي شنه العرب عام ٦٦٨. وقد أنبأ أبو أيوب. ذلك الدرويش. بأن محمد بن مراد سوف يستولي على «التفاحة القرمزية» مشيراً بذلك إلى القسطنطينية. لذلك عقد نيته على ان يشن هجوماً نهائياً على المدينة فإذا فشل الهجوم فانه سيأمر برفع الحصار على الفور.

الاستعدادات للهجوم العام

وفي وقت متأخر من ذلك اليوم. تأدّى إلى اسماع المدافعين فوق الأسوار هتافات مدوية. وأصوات تنبئ عن فرح وابتهاج دامت طويلاً. صادرة عن معسكر الأتراك. وكان السلطان محمد يستعرض جنوده في ذلك الوقت. ويعدهم بقطف ثمار النصر. عندما تؤخذ القسطنطينية غلاباً. وأعلن في المنشور الذي أذاعه: «بأن العديد من الرجال سيستشهدون في الهجوم الوشيك. ولكن تذكروا ان كل من يستشهد في سبيل العقيدة الاسلامية سيدخل الجنة. وإذا أخذت المدينة فاني سأبيحكم إياها مدة ثلاثة أيام. وكل ما في المدينة من ثروات وفضة وذهب وحرير وذخائر ثمينة سيكون لكم. ما عدا المباني لأنها

ستكون من ممتلكات الدولة» وجاء في المرسوم العالي الذي أذيع : «بأن الأيام القادمة يجب أن تكرس للغفران والصلاة والصيام استعداداً للتضحيات المتوقعة» وعند منتصف الليل أطفئت أنوار المعسكر فساد فيه السكون والصمت المطبق.

وقضى السلطان يوم الاثنين في ٢٨ مايو يطوف في أرجاء المعسكر. فقام بحملة تفتيش زار خلالها كل قطاع من قطاعات الجيش. وفي أثناء هذه الجولة أعطى أوامره النهائية : «عندما يُشن الهجوم على الجبهة البرية فان على السفن الحربية من ذوات الصَّفين أن تنتشر أمام حاجز الملاحة «وهو عادة مؤلف من سلسلة حديدية أو مجموعة أخشاب وعوّامات طافية يراد بها اعتراض سبيل السفن المهاجمة» وحول شاطئ بحر مرمرة. لازعاج المدافعين إلى أقصى الحدود» وأنذر الجَنَويّين في برج غالاتا بأن أي عمل عدائي يقومون به لمساعدة المدينة المحاصرة سيكون عقابه شديداً وسريعاً.

واستدعى السلطان وزراءه وقادة الجيش إلى خيمته وبشّرهم بقوله : «**أقدّم إليكم اليوم مدينة عظيمة — عاصمة الرومان القديمة — المتربعة على قمة السناء والعظمة، أقدمها إليكم لتستولوا على كنوزها وكل شيء فيها، ومن الآن فصاعداً ستحيون سعداء وستتركون ثروة عظيمة لأطفالكم**».

وعلمت المدينة بأن الساعة آتية لا ريب فيها. فقرع فيها جرس الخطر بصورة متواصلة فتوترت أعصاب كل أمرئ ثم نشب نزاع مرير بين الفينيسيين واليونانيين. وذلك أن الفينيسيين طلبوا من اليونانيين ألا يباشروا القتال قبل أن يحضروا أخشاباً لاقامة حواجز على الشاطئ لوقاية الأسوار. فرفض اليونانيون الاستجابة للطلب إلا إذا قبضوا أتعابهم سلفاً — لأنهم بأمس الحاجة للنقود لشراء الأطعمة. ولكن الفينيسيين لم يرقهم وضع اليونانيين المهددين لفقدان كل شيء بما في ذلك عائلاتهم «في المستعمرة اليونانية الموجودة داخل الأسوار» والمدافعون عن الأسوار انخفض عددهم إلى ٤٠٠٠ مقاتل من الجياع والمرهقين والبائسين. والمتنازعين دائماً على أيٍّ من القطاعات ذات الأسبقية. وطلب جوستنياني من لوكاس نوتراس ان يرسل رجالاً من المدافعين عن الجهة البحرية إلى الأسوار المقابلة للجهة البرية. فرفض نوتراس وقال وهو يكاد يتميز من الغيظ : «من المحتمل أن أقطع حلقك أيها الخنزير!» فاستشاط جوستنياني غضباً وقال : «ان



في ٢٩ مايو سنة ١٤٥٣ دخل السلطان محمد الفاتح القسطنطينية فاتحاً، ويبدو في الصورة متوجهاً إلى ميدان سباق الخيل.

الأمبراطور الذي ندين جميعاً له بالاحترام. هو القادر على فض النزاعات كلها».

الامبراطور يصلي الصلاة الأخيرة..

وانطلق موكب ديني من كنيسة أيا صوفيا يشق شوارع المدينة في وقت كانت فيه المدينة غارقة في الضباب الأخضر. وكانوا يرتدون الحلل الشعائرية من الديباج المذهب ويحملون صلباناً مرصعة بالحجارة الكريمة، ومطعمة بشظايا من الصليب الحقيقي «الذي صلب عليه المسيح» يُرتلون كيريالايسون وهي صلاة مطلعها «يا رب ارحمنا» ويرفعون بأيديهم أيقونات السيدة العذراء والقديسة آن. وكان ذلك يوم القديسة تيودوسيا. وقد ظهرت ايقونتها محمولة أيضاً، ومشى الناس وراء الموكب وهم ينتحبون ويتضرعون إلى السماء. وكلما وقفوا أمام مركز من مراكز المدافعين عن المدينة. رتلوا صلاة من أجل انقاذ المدينة وباركوا المدافعين.

وما لبث أن انضم الامبراطور للموكب عند مرحلته الأخيرة وهنا ألقى كلمة موجزة قال فيها: «يجب أن يكون اليوناني مستعداً للتضحية من أجل هذه الواجبات الأربعة: إيمانه. ووطنه وملكه وعائلته. وفي القسطنطينية الآن. يجب على شعبي أن يكون مستعداً للموت من أجل الواجبات الأربعة المذكورة. وتذكروا أسلافكم اليونانيين والرومان في العهود الغابرة. فكونوا - اليوم - جديرين بهم» وأقسم الامبراطور بأنه لن يموت إلا في كتيبتهم من دون سائر الكتائب الأخرى. ثم استدار إلى الفينيسيين والجنويين والغالاتيين واستحضر إلى الأذهان التقاليد الوطنية في تاريخ المدينة الطويل وقال: «عندما رحبنا بكم وجعلناكم جزءاً منا كان ذلك من أجل منفعتنا العامة وفي هذه الساعة المهيبة فلنعمل جميعاً بيد واحدة كأخوان».

فتدفقت الجموع من كل حدب وصوب متجهة نحو كنيسة أيا صوفيا. وفي هذا الوقت الذي كان فيه الفزع يسود المدينة استداروا مرة أخرى نحو كنيسة «الحكمة المقدسة» أي كنيسة جوستنيان الكبرى «أيا صوفيا» وكان في المعبد عرشان - عرش الامبراطور الذهبي وعرش البطريرك الفضي. فاعتلى قسطنطين عرشه وبقي عرش البطريرك غريغوري الاتحادي شاغراً. لأنه كان قد هرب من المدينة منذ سنوات. وفي ذلك المساء. وهو الأخير. شرع البيزنطيون يرتلون أمام فسيفساء «العذراء والطفل» وكانت مرتدية ثوباً لازوردياً مذهباً. ثم غادر الامبراطور عرشه ومشى بين جموع المصلين. وقال: «وداعاً» وطلب الصفح ممن كان قد أساء إليهم فبكى العديد من المصلين.

واقترب الامبراطور من المذبح المذهب القائم تحت مظلته المثبتة بأربعة أعمدة من الفضة وانبطح على وجهه أمام أيقونة العذراء بين ترتيل المرتلين وأدعية الداعين من القسس والشعب. ثم اشترك الامبراطور في الصلاة الجماعية وانسجم مع التجاوب الروحي. ثم مشى مخترقاً جموع شعبه وخرج من الكاتدرائية للمرة الأخيرة - وإلى الأبد.

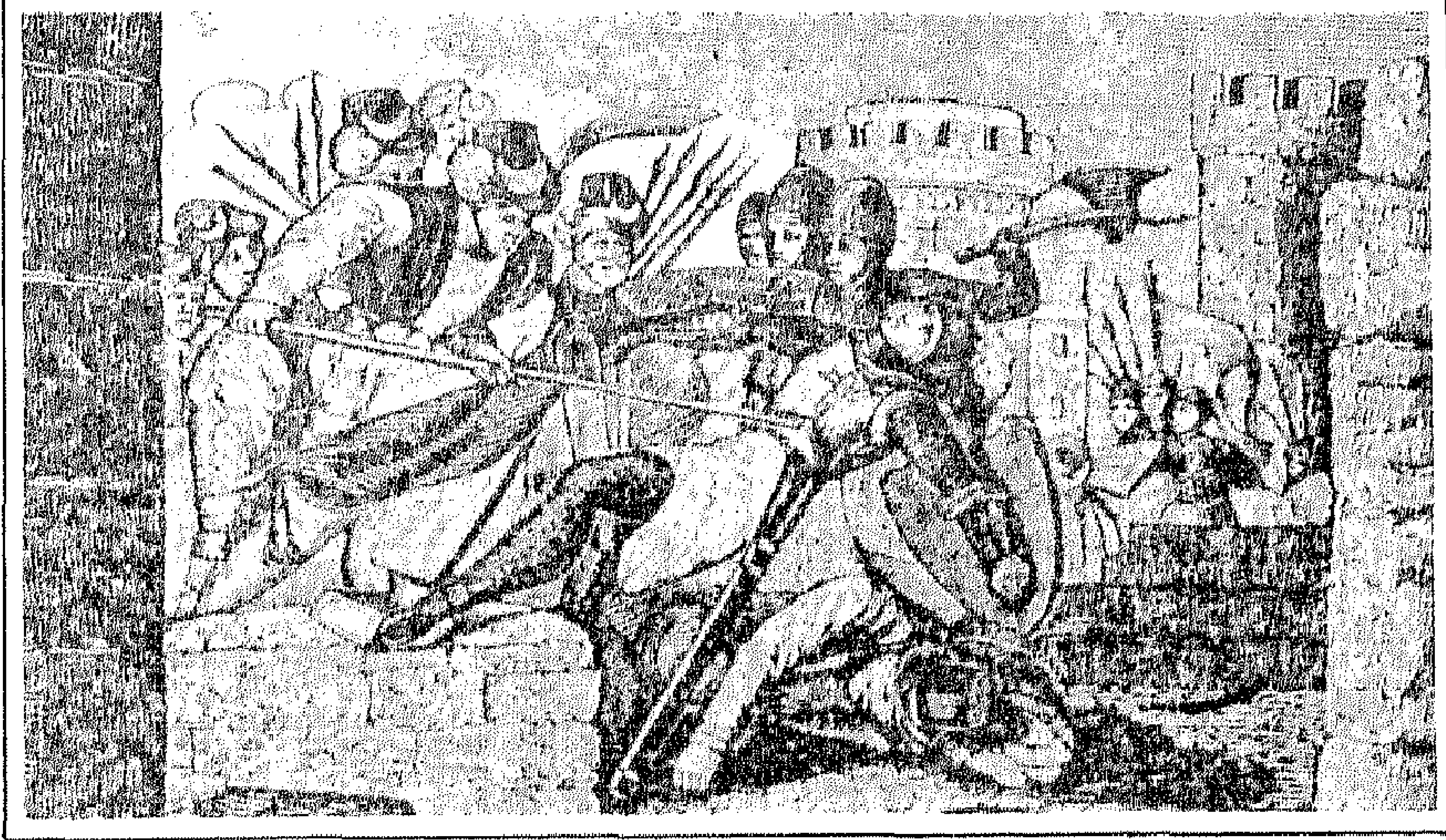
وانطلق مصطحباً معه حاشيته من المخلصين إلى البرج العالي التابع لقصر «بلاكيرناي» وشرع يلقي نظرات ثابتة من شرفة البرج على القسطنطينية. في وقت كانت فيه الغيوم تبدو وكأنها معلقة في سماء المدينة. وكانت الأضواء تخفق فوق مياه القرن الذهبي. وهناك كانت ترسو بوارج الأتراك الحربية على أهبة القتال. أما الجهة البرية فكان يسودها السكون والظلام.

وكان عالم الغرب يبدو على مدى الأبصار من خلفهم. ولكن البيزنطيين كانوا قد انتظروا طويلاً وصول الامدادات ولكنها لم تصل..

وفي أول ساعة من ساعات الصباح احتضن الامبراطور سكرتيره ثم نزل من البرج متوجهاً رأساً إلى الأسوار. يمتع الجنود المخلصون أنظارهم للمرة الأخيرة برؤية سيدهم وصديقهم الذي خدموه في السنين الماضية.

وعزّز الامبراطور التحصينات والأسوار بما تبقى لديه من الاحتياطي في حين كان الأتراك يأخذون مواقفهم تحت تغطية من الغيوم المتلبدة في تلك الليلة الظلماء غير المعتمرة. أما المدافعون عن الأسوار فلم يكن خلفهم مجال للتراجع بعد غلق الأبواب الداخلية التي تفصل الأسوار عن المدينة. وبعد أن أعطيت مفاتيحها للامبراطور. فاحتل كل مدافع مركزه وهو شاكي السلاح محاولاً أن يخترق بعينيه حجب السحب المظلمة التي تكفّن المدينة.

ووزع السلطان مدفعيته من أجل الهجوم الأخير. فنقل خمسة مدافع من الاثنتي عشر مدفعاً هائلاً التي يملكها وركزها مقابل قطاع قصر بلاكيرناي وهو بقيادة مينوتو. ونقل أربعة مدافع ووضعها مقابل قطاع بوابة رومانوس وهي بقيادة الامبراطور قسطنطين ومعه اليونانيون والجنويون بقيادة جوستنيافي. وثبت ثلاثة مدافع نحو البوابة الحربية الثالثة الواقعة في منتصف الطريق بين بوابة رومانوس والبوابة الذهبية التي يدافع عنها أقرباء الامبراطور المخلصون من أمثال شيوفيلوس بالايولوجوس. وكانت كل بطارية مدفعية ثقيلة محاطة بمدافع أصغر منها حجماً مركزة فوق جسر قائم على القوارب عبر القرن الذهبي. وهي مستعدة للانضمام للمعركة حالما تبدأ بالقصف المدافع في السفن الحربية الراسية في بحر مرمرة. وكانت بقيادة الأمير أورهان ومعه الغالاتيون. وجمع السلطان محمد ٢٠٠٠ سُلّم



جنود «الباشي بوزوك» يقتحمون أسوار القسطنطينية بشجاعة خارقة.

لارتقاء الأسوار عند بدء الهجوم العام على قطاع الثيودوسيين المدافعين عن المدينة.

الهجـوم الكبير

وأزفت اللحظة الحاسمة!

وأعطيت الاشارة للمدفعية بالقصف في الساعة الثانية قبل الفجر. فانقضّت قذائفها المدوية كالصواعق على الأسوار. ومزقت شآبيبها المدمرة سكون الليل وظلامه الدامس فارتجت الأرض واحتشدت كتائب الباشي بوزوك - وهي كتائب عثمانية اشتهر محاربوها بالقوة والعنف» في مواجهة الحواجز المائية وهم يزعقون زعيقاً مخيفاً: الله أكبر وكان السلطان قد وضع في مؤخرتهم الشرطة العسكرية لحفظ النظام أثناء هجومهم. فأمطرهم المدافعون عن الأسوار بالنيران اليونانية وردوهم على أعقابهم وكانت تلك النيران على مقدار عظيم من القوة جعلت الشرطة العسكرية يرتدون أيضاً.

وكان الدور بالهجوم الآن. لكتائب الأناضولية المنظمة بقيادة ايشاك باشا حاكم الأناضول. وأحد وزراء السلطان مراد الثاني والد السلطان محمد.. فزحف أولئك النظاميون ورؤوسهم محمية بالخوذات. وصدورهم منيعة بالدروع. فاحتشدوا في الوادي أمام حاجز جوستنيان المؤلف من قضبان مغروسة على نحو متلاصق. وسرعان ما وجدوا أنفسهم محصورين مشلولي الحركة. في جبهة ضيقة لا تزيد مساحتها على ١٢٠٠ ياردة ومقيدين بالاستحكامات الخارجية والحجارة تنهال على رؤوسهم من الأسوار والقذائف من المدافع الصغيرة المركزة فوق الحصون. وكانوا كلما نصبوا سلماً على جدار السور وتسلقه المتسلقون إلى أن يبلغوا حافة السور مد المدافعون عصياً ينتهي كل منها بشعبتين ردّوا بها السلالم إلى الخلف فتتساقط بمن عليها من الرجال على الأرض. بينما كان الرماة بالأقواس من البيزنطيين يرمون عنها سهامهم ببرودتهم المشهورة من مسافة لا تزيد على الخمسين خطوة.

وقبل الفجر بقليل انقضت قذيفة مدفع موفقة من طراز باسيليقي فقوضت قطاعاً كبيراً من حواجز القضبان المتلاصقة. وعندئذ أنصب المثاب من الجنود الأتراك من خلال تلك الثغرة الكبيرة. ولكن أحيط بهم على الفور. فانقطعوا عن بقية زملائهم. فهلك معظمهم في الحفر والأخاديد. وهكذا ارتدت موجة الكتائب الأناضولية بفضل ثبات المدافعين اليائسين.

وتمكن رجال قسطنطين بعد ذلك الارتداد من التقاط أنفاسهم بعد تلك المعركة التي استغرقت أربع ساعات - قاموا أثناءها بانجازات رائعة. أبقت علم النسر والأسد شعار القديس مارك عالياً يخفق فوق الأسوار.

ولكن السلطان لم يكن قد تدخل بعد في المعركة. وكان السلطان قد وعد جنوده بهدايا قيّمة ينالها كل جريء يتمكن من اختراق التحصينات. وفجأة انفجرت الموسيقى الحربية بعزفها المدوي بنشيد



صورة مأخوذة من كتاب الانجازات يظهر فيها الأتراك وهم يهاجمون أسوار المدينة قريباً من بوابة أدرنة.

الحرب. وكان ذلك دعوة للجيش الانكشاري النظامي بالهجوم. أما كتائب الحرس الامبراطوري فقد أرجيء هجومه لوقت آخر.

معركــة الأنكشاريين

واندفعت كتائب الانكشاريين بعنف وقوة نحو التحصينات واحتدم القتال وكان كلما سقط جندي انكشاري أسرع رفاقه إلى سد مكانه الشاغر. أمام التحصينات والحفر والأخاديد. لذلك احتفظ الانكشاريون بصفوفهم متراصة. وكان الجنود كلما سمعوا موسيقى الأبواق تلعلع والطبول تُدبدب تحثّهم على الهجوم أقدموا غير هيّابين يرمون أرواحهم على النيران المستعرّة ببسالة خارقة. ليسدوا الثغرات الفاغرة الأشداق بأجسادهم غير مبالين بالحجارة المنهالة على رؤوسهم والنيران التي تحرق وتشوي أجسامهم.

وأقبل السلطان محمد وهو ملتهب حماسة واقترب من التحصينات والجسور والأرصفة وراح صوته يلعلع محرضاً كتائبه على الهجوم والمثابرة مهما كان الثمن

وعندئذ. ترنح اللاتينيون واليونانيون في مراكزهم من شدة الاعياء والارهاق. وراحوا يتساقطون تحت ثقل القصف والقذائف المنهمرة على مراكزهم. ولم يبق منهم إلا القليل. عندئذ تحول القتال إلى الاشتباك بالأيدي. والمصارعة بالزنود. عبر التحصينات فغرقوا جميعاً في بحر الدماء. وزهقت أرواحهم من روائح الأجساد المحترقة.

وفجأة صاح المنادي بأن علم النبي صلى الله عليه وسلم. قد ارتفع فوق برج كركوبورتا في قطاع قصر بلاكيرناي فهتف الجنود الأتراك بأعلى أصواتهم: الله أكبر..

وكان في أسفل برج كركوبورتا بوابة داخل الأسوار تؤدي إلى قصر فيروجنتوس. الذي شيده الامبراطور قسطنطين السابع – ومن هذه البوابة تدفق الجنود الأتراك. واتسع أمامهم مجال الكر على قطاع قصر بلاكيرناي بالذات..

وكان الضغط على الامبراطور قسطنطين شديداً. حيث كان من المدافعين عن بوابة رومانوس، فلم

يتمكن من إرسال نجدة إلى جنوده في قطاع بلاكيرناي.

وفي تلك اللحظة المميتة أصيب جوستنياني قائد الجنويين في صدره المدرع. بقذيفة مدفع قديم. فتفجرت الدماء من صدره، وعندئذ أصر على التراجع. وكان يُعتبر صخرة دفاعية لا تقهر.. فتوسل إلى الامبراطور ان يأمر بفتح البوابة الداخلية المؤدية إلى المدينة. وتضرع الامبراطور بدوره إلى جوستنياني الجريح أن يثبت في مكانه. ولكن أعصابه انهارت لاصابته بجرح مميت. فأمر الامبراطور بفتح البوابة فحمل الجنويون قائدهم وعبروا من البوابة وعندئذ، عم الذعر بقية الجنود وقبل أن تغلق البوابة كانوا قد تسللوا جميعاً عبرها وراء قائدهم الجريح.

وهناك أمام التحصينات المنهارة رأى السلطان بعينيه الثاقبتين ما كان يجري فوق الأسوار. وشاهد الهلع المنتشر فوقها فشرع يجلجل بصوته: الله أكبر.. المدينة لنا، ثم راح يستنهض الهمم لبذل أقصى الجهود. ودعا الانكشارية إلى الهجوم فهب العملاق حسن وألقى بثقله على تحصينات القضبان المحطمة، ونفذ منها وتبعه الانكشاريون - وهناك استشهد حسن بعد أن أدى واجبه - وفاز الانكشاريون بتلك التحصينات فاقتحموها فاضطر الجنود اليونانيون إلى التراجع والارتداد. إلى خندق صغير. واقع أمام الأسوار الداخلية. وهناك قُتل العديد منهم. وتمكن الامبراطور مع أنصاره نيوفيلوس بلاليولوجوس. وابن عمه فرانسسكو أميرتوليدو. وجون دالماتا. من الاحتفاظ ببوابة رومانوس. ولكن لبضع دقائق فقط. وانتشر الأتراك في كل مكان. والمدافعون حوصروا بين الأسوار عاجزين عن المرور من البوابات المغلقة المؤدية إلى المدينة.

مصرع الامبراطور قسطنطين

وأدرك قسطنطين ان النهاية قد دنت.. فانتزع أشرطته وشعاراته الامبراطورية الدالة عليه. ليتجنب الوقوع في الأسر. وصاح بصوته الجهوري: من كان يفضل الموت على العبودية فليتبعني! ثم صاح: أتوخذ المدينة وأنا على قيد الحياة؟ وحمل بسيفه على الأعداء ولكنه ما لبث أن أصيب فسقط على الأرض. فوقاه الجنود بأرواحهم وسقطوا فوقه واختفى تحت كومة من جنوده الأبطال.

وهكذا خاض الامبراطور قسطنطين المعركة.. ولم يشاهد بعدها... ولكن عثر فيما بعد على جثة مقطوعة الرأس. تعرف عليها بعضهم بأنها جثة الامبراطور التعيس. من شعار النسر المطبوع بالذهب فوق حذائيه.

واندفع المنتصرون الأتراك كالعاصفة إلى ساحات المدينة. وفي الساعات الأولى من احتلالها قضت السيوف المحدودبة على ٢٠٠٠ من المدافعين عنها وأسر الباقون.. وتمكن مندوب البابا الكاردينال أسيدور من النجاة. بعد أن استبدل لباسه الكهنوتي بملابس أحد المتسولين البالية. ثم اشترى حريته بعد ذلك بمبلغ من المال.

وحدث ان بحّارة الأسطول التركي تخلّوا عن مراكزهم في البحر. فهرعوا إلى المدينة. وبذلك تمكن أسطول الفينيسيين الراسي في المرفأ من الهرب بعد أن تمكن من انقاذ القليل من سكان المدينة.

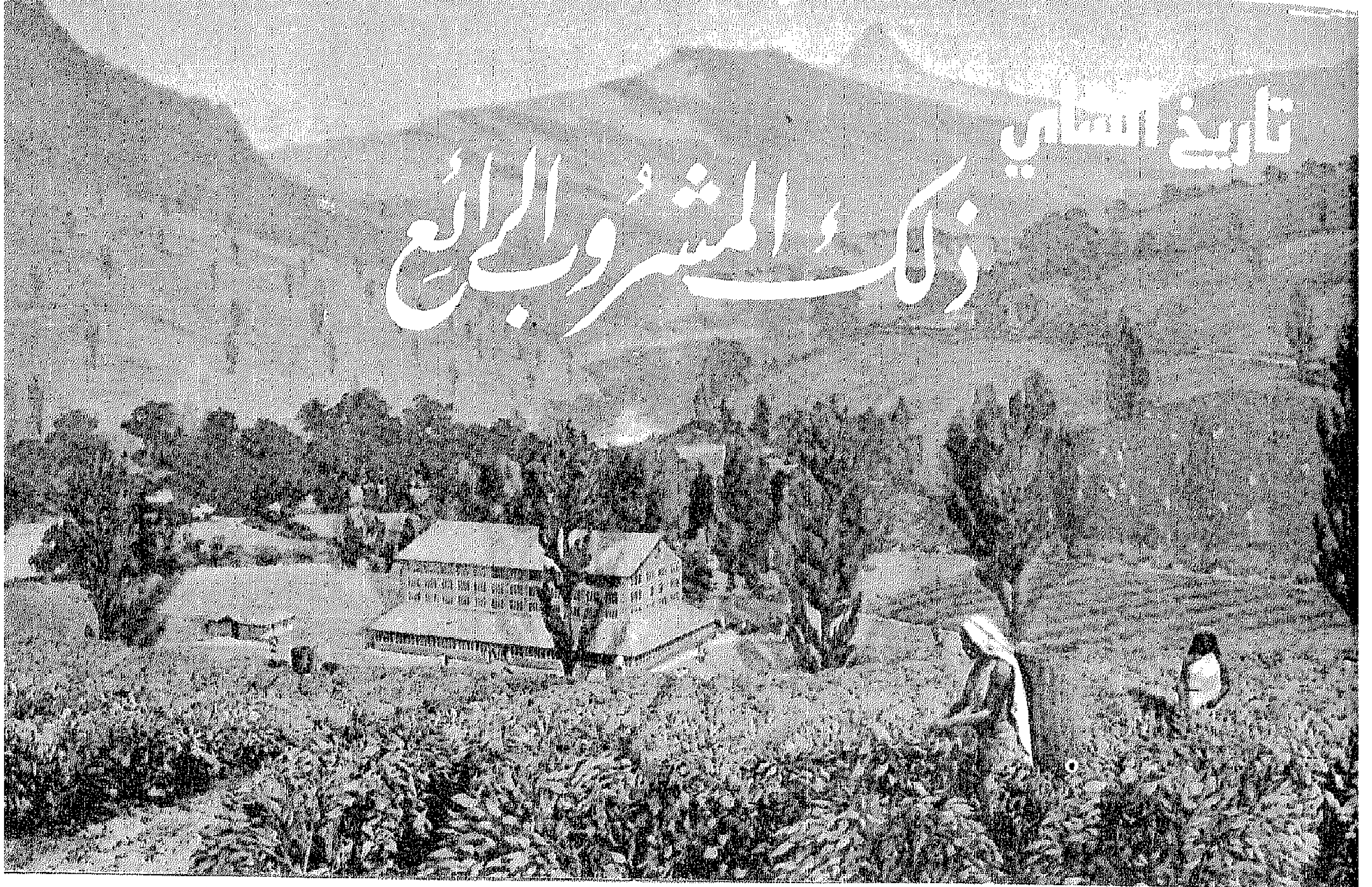
محمد الفاتح يدخل القسطنطينية منتصراً..

وبعد الظهر، دخل السلطان محمد الفاتح - السادس في سلسلة سلاطين آل عثمان السابقين - مدينة القسطنطينية عبر القصر الامبراطوري القديم المعروف باسم بوسليون «فم الأسد» المشرف على بحر مرمرة - وهو الآن مهجور. وكان السلطان في الثالثة والعشرين من عمره عندما فتح المدينة العظيمة فراح يتمشى بين القاعات المهدمة المهجورة وهو يغمغم متمثلاً بأبيات لشاعر فارسي تقول:

«لقد نسج العنكبوت خيوطه على القصر الامبراطوري. ونعقت البوم تنعي مجد الفرس فوق برج أفراسياب».

وهكذا فتحت القسطنطينية التي أعاد بناءها قسطنطين الأول على أنقاض مدينة بيزنطة ٣٠٦ - ٣٣٧ وافتتحت في عهد قسطنطين الحادي عشر آخر الأباطرة البيزنطيين ١٤٤٩ - ١٤٥٣ وصرع في ميدان المعركة.

بعد ذلك الانتصار العظيم صارت القسطنطينية تدعى الأستانة. وهو اسم ظل محاطاً بالجلال والهيبة أكثر من ٥٠٠ عام. وصلت الدولة العثمانية خلالها الى أوج عظمتها. فاحتلت معظم دول البلقان. بالاضافة الى دول الشرق الأوسط ومصر وايران. ■



زراعة الشاي في سيلان.

تاريخ الشاي ذلك المشروب الرائع

إعداد: طلال مجذوب

> – يمنح الشاي لشاربه الدفء في أصقاع سيبيريا، والانتعاش في صحراء العرب!
> – الحكيم الصيني تيين يي هنغ قال «يشرب الانسان الشاي لينسى ضجيج العالم»!

موطنه وشجرته

أصبح الشاي المشروب الأكثر رواجاً في العالم، بعد الماء القراح، ويزيد عدد من يشربونه في العالم اليوم عن ملياري إنسان، ولذلك يعتبر الشاي المشروب العالمي الأول، رغم أن الانجليز يحاولون أن يصفوه بأنه مشروبهم القومي، وعلامة أصالتهم الانجليزية.

الشاي كالبن نبتة شرقية، ويعتقد ان موطنه الأصلي هو الصين، ومنها انتقل إلى جنوب آسيا. أفخر أنواعه ما زرع في الصين، تليها سيلان (سري لانكا) والهند. وقد بدأ الصينيون بزارعته قبل ألفي عام، بعد أن تعـرفوا إلى خواصه الجيدة، ويزرع اليوم بالاضافة للصين والهند وسري لانكا، في الملايو واندونيسيا وباكستان وايران، كما أن أنواعاً أقل جودة منه تزرع في تركيا وبعض بلدان أفريقيا، وبين البلدان الأميركية تشتهر باراغواي بالشاي الذي تنتجه.

نبتة الشاي شجرة تصل بارتفاعها إلى تسعة أمتار، لكنها تشحل بشكل دائم حتى لا يتجاوز ارتفاعها مترين، وهي تعيش ما يقرب من مئة عام، وتمتاز بأوراق رمحية الشكل، دائمة الاخضرار، ولها ازهار بيضاء ممزوجة بلون أصفر، وذات رائحة عطرة. وتحتاج إلى تربة خفيفة، وطقس حار، وهواء رطب، كما انها تحتاج إلى مطر سنوي لا يقل عن ١٢٥٠ مليمترا، ويجب أن تظل جذورها رطبة خصوصاً في الصيف.

لفظة الشاي تطلق على الشجرة وأوراقها وعلى المشروب المصنوع منها، والشاي سريع التأقلم، ويمكن زراعته في أقاليم مختلفة.

تجارته وإنتاجه

لا يزرع الانجليز شجر الشاي في بلادهم ، ومع ذلك فهم يعتبرون أكثر شعوب العالم استهلاكاً للشاي ، كما انهم يكادون يحتكرون تجارته ، خصوصاً الأنواع الفاخرة منه ، وهم وحدهم يستهلكون نصف إنتاج العالم .

يصنّع الانجليز ، منذ القرن التاسع عشر ، أفخر أنواع الشاي خصوصاً السيلاني منه ، وأقدم مصانعهم في هذا المجال مصنع شاي توينتج TWAINING الذي بدأ إنتاجه سنة ١٧٠٦ ، وشاي ريدواي (RIDGWAYS) الذي بدأ إنتاجه سنة ١٨٣٦ ، ومنذ سنة ١٨٨٦ أصبح المصدر الرئيسي للشاي في البلاط الملكي في عهد الملكة فكتوريا ، وكذلك شاي لبتون (LIPTON) الذي اسسه السير توماس ليبتون قبل خمسين عاماً ، وأصبح يستهلك في ١٥٦ دولة في العالم .

تركيبه وأثره

ما يشرب من الشاي هو منقوع أوراقه ، وتقطف الأوراق وتجفف مباشرة في قاعات جيدة التهوية ، بوضعها على أرفف فوق بعضها ، وكان يجري في السابق تجزئتها ، بعد جفافها ، إلى عيدان صغيرة باليد ، أما اليوم فيتم ذلك آليا ، وبعد ذلك تخمر أو تبخر .

أما التخمير فيستغرق ستا وثلاثين ساعة ويعطينا الشاي الأسود وهو شائع في الهند وبلدان أخرى ، وأما التبخير فيتم في أربع وعشرين ساعة وينتج الشاي الأخضر ، وهذه الطريقة شائعة في الصين واليابان وبلدان أخرى .

يحتوي الشاي على الكافيين (CAFFEINE) «والتايين» (THEIN) والزيت الطيار وهناك كميات قليلة من الفلورايد وفيتامينات «ب» .

أما تأثير الكافيين فهو يبدو في تنشيط المخ وزيادة ادرار البول وكذلك افرازات العراق . وتأثير التايين انه قابض لانه يمس الأغشية الجلدية والمخاطية فيساعد على تقبضها ، ولذلك يستخدم طبياً ، بعد استخلاصه



قديماً ، كان تحضير الشاي فناً أكثر منه علماً . يُعل ويوزن ثم يذوقه الخبراء...

كمادة بيضاء ناعمة ، في تجميد الدم في الفم والمعدة وفي بعض أعضاء الجسم الداخلية ، ويزداد تأثيرها في مشروب الشاي كلما ازداد غليه . وفائدة الزيت الطيار انه هو الذي يعطي الشاي نكهته ورائحته الطيبة .

أن خواص الشاي كمشروب مدهشة حقاً ، فهو منعش ومرطب ، وهو يصح للجو الحار وللجو البارد معاً . ولذلك يفضل البدو كوباً من الشاي على أي مشروب آخر ، لانه يمنحهم انتعاشاً وابترادا ، كما أن العاملين في اصقاع سيبيريا يشربونه ليمنحهم الدفء في جو تتجاوز برودته الصفر بكثير ، نزولاً . ويحتوي كوب الشاي العادي على أربع سعرات حرارية .

تعددت اسماؤه شرقاً وغرباً

« الشاي » لفظة صينية من لهجة أهل كانتون التي كانت لها علاقات تجارية جيدة مع العرب ، وعن طرق هؤلاء عرف الشرق الشاي .

أما لفظة تي « TEA » فهي صينية الأصل أيضاً ، ولكنها من لغة صينية أكثر شمولاً ، وإذا كان معظم العرب يسمونه شاياً ، فإن بعضهم يلفظه بطريقة مختلفة ، ففي بلدان الجزيرة العربية يسمونه شاهي ، وفي الغرب اتاي ، أما في العراق وايران وتركيا فيشتركون بنفس اللفظ وهو جاي ، ويكتب بالتركية هكذا (CAY) . والروس يسمونه شاي

والهنود والباكستانيون شاهي، بينما يسميه الانجليز (TEA.) والفرنسيون (THE) والبولونيون هرباطة (HERBATA).

تنوعت أساليب شربه

كان الصينيون ولا يزالون يشربون الشاي الأسود والأخضر، ويضيفون له زهر الياسمين أو بعض النباتات العطرة، والشاي الأخضر يخلطون ازهاره بأوراقه ليكتسب طعماً ونكهة عطرة أما أهل التبت فيميلون إلى مضغ أوراقه المحفوظة بعد مزجها ببعض الدهون. وعندما انتقل الشاي إلى هولندا في القرن السابع عشر، كانت الهولنديات يضفن اليه ورق الزعفران أو الدراق لاعطائه نكهة لاذعة، وفي الجزيرة العربية يشربون الشاي ممزوجاً بالنعناع، وكذلك يفعلون في مصر بعد غليه جيداً ليشتد سواده ويسمونه «الشاي الثقيل»، وفي المغرب يشربون الشاي الأخضر بعد إضافة النعناع له، أما الهنود فيضيفون للشاي، أحياناً، القرنفل اليابس ليعطيه لذعة يحبونها!

أما الأوروبيون فيشربون الشاي وحده، أو ممزوجاً بالحليب، أو يضعون معه قطعة ليمون تخفف من أثر التايين فيه.

كل الشرقيين يشربون الشاي ساخناً، لكن في بعض بلاد أوروبا يميلون للشاي البارد أو المثلج، خصوصاً الانجليز منهم.

وأول من ابتكر الشاي المثلج انجليزي يدعى ريتشارد بلتشيندن إذ أحجم الناس عن شراء مشروب الشاي الساخن منه في المعرض الصيفي في سانت لويس، فابتكر الشاي المثلج فراج بين الناس وأقبلوا عليه فرحين.

كما كان أول من ابتكر وضع الشاي في أكياس صغيرة (BAGS) تاجر من نيويورك يدعى توماس ساليفان، وتمكن بهذه الطريقة من بيع بضاعته كلها.

في معظم أنحاء العالم يصنع مشروب الشاي بابريق ويقدم بفناجين أو أكواب من زجاج أو غير زجاج، أما في الاتحاد السوفياتي وفي بلاد الاناضول من تركيا وبعض انحاء ايران فانه يصنع بالسماور،



موسم الشاي على الحدود الصينية – السوفياتية (المستقبل العدد ١٤٠).



درس حول تحضير وتقديم الشاي وتبدو نماذج من الساموفار (المستقبل ١٤٠).

وهو ابريق كبير يوجد في الجزء الاسفل منه فتحة يوضع فيها الفحم المشتعل وله صنبور يصب منه الماء الغالي، أما الشاي فيوضع في ابريق صغير يوضع في أعلى السماور بدل الغطاء، لينحل الشراب بتأثير البخار.

إنتشار زراعته واستهلاكه

عرف الشاي في الصين قبل أكثر من ألفي عام تقريباً، ومنذ القرن السادس انتقلت زراعته إلى اليابان.

للهولنديين فضل تعريف الأوروبيين به، إذ قام تجار شركة الهند الشرقية الهولندية باحضار أوراقه من جاوه إلى امستردام، وقد بيع فيها بالصيدليات على انه من التوابل. وكان ذلك سنة ١٦١٠، وبعد ذلك أخذ استعماله ينتشر في سائر أنحاء أوروبا، فعرفه الانجليز سنة ١٦٦٠، وظلت شركة الهند الشرقية الانجليزية تحتكر تجارته حتى سنة ١٨٣٤، وكان يباع في انجلترا بثمن باهظ جداً بحيث لم يكن قادراً على شرائه إلا الاثرياء.

نقله الانجليز إلى مستعمراتهم في امريكا سنة ١٦٨٠، وكان عند بدء انتشاره في امريكا يباع النصف كيلو غرام منه بحوالي ستين دولاراً، لذلك كانت الاميركيات يغلين الشاي عدة مرات كما كن يأكلن أوراقه ممزوجة بالزبدة والملح!

لشرب الشاي آداب واصول

كان شرب الشاي كيفا، وصار، في كثير من بلاد العالم، عادة اجتماعية لها نظامها وآدابها.

يشرب الشاي في معظم أنحاء العالم في أي وقت من الليل والنهار وفي شرق افريقيا عندما يرحبون بالضيف قائلين «سفاكيدي كاريبو» أي مرحبا بك يضيفون «كاريبو تشاي» أي مرحبا بك لشرب الشاي باعتباره مشروب الضيافة عندهم.

أما الانجليز فمولعون باحترام آدابه واصوله، إذ يقيمون حفلات تدعى حفلة شاي (**TEA PARTY**) يكون هذا المشروب مادة الضيافة الرئيسية فيها. ويعتبر شرب الشاي الساعة الخامسة من عصر كل يوم موعداً

مهماً لا يهمله أي انجليزي عريق ، وقد بدأت هذه العادة سنة ١٨٤٠ عندما احست دوقة بدفورد بالكآبة ذات يوم ، فدعت اصدقاءها لتناول الشاي وشيء من الحلوى في تلك الساعة ، ولما رأت انها تخلع عنها سأمها درجت على اقامتها كل يوم في نفس الموعد وإنتشرت بعد ذلك بين الانجليز وعرفوها بشاي الساعة الخامسة .

وفي ايران يصبون الشاي من الاكواب في أطباق صغيرة ويرتشفونه ، بعد أن يضعون في افواههم قطعاً من السكر (قند) أما في افغانستان فإن المضيف الذي ينهي ارتشاف الشاي من كوبه ولا يريد أن يملأه ثانية عليه أن يقلبه فيفهم المضيف انه لا يرغب بالمزيد منه !

واليابانيون يعتبرون حفلات شرب الشاي من الامور المقدسة التي لا يجوز المساس بها أو تغييرها . وتشتهر مؤسسة يورانسكي بتقديم الشاي الأخضر طبقاً للتقاليد المتوارثة منذ أربعمائة سنة أو تزيد ، ويرئس هذه المؤسسة اليوم «شوسيتسو سان» سليل سان ريكيو الكبير ، وتقضي هذه الاصول برشف الشاي مرتين بصمت ، وفي المرة الثالثة يرتشف بصوت عال دلالة التلذذ بطعمه ، ويقدم معه قطع سكر ملونة ، وفنجانه من البلور الشفاف بدون اذن ويمسك باليدين كلتيهما .

وكان امره يسراً

بخلاف مشروبات أخرى ، فإن الشاي لم يلق مقاومة أو تحريماً ، بل على العكس ، فانه لاقى تحبيذاً واستحساناً ، ولذلك انتشر هذا الإنتشار الواسع في أنحاء العالم ، لكن بلداً واحد حوله من المشروب الأول إلى مشروب يحتل الدرجة الثانية وكان ذلك البلد هو المستعمرات الانجليزية في امريكا التي أصبحت فيما بعد الولايات المتحدة الامريكية .

وتفصيل ذلك أن الانجليز فرضوا ضريبة باهظة على استيراده سنة ١٧٧٣ فاستاء الاميركيون من هذا الأمر ، وقام بضعة شبان بالقاء ٣٤٢ صندوقاً من الشاي في مياه البحر كانت تحملها ثلاث سفن تابعة لشركة الهند الشرقية الانجليزية ، وكانت ترسو في ميناء بوسطن الاميركي ، وتعرف هذه الحادثة في التاريخ الاميركي بحفلة الشاي في بوسطن ، وكانت إحدى العوامل الممهدة لقيام الثورة الامريكية فيما بعد ، وقد نتج عن ذلك أن أضرب الاميركيون عن استهلاكه وأحلوا محلّه القهوة .

وقد مدحه الحكيم الصيني تين لي هنغ بقوله «يشرب الإنسان الشاي لينسى ضجيج العالم» ، كما أن ميرزا علي محمد الشيرازي المعروف بالباب نصح اتباعه بشرب الشاي لأن في ذلك ثواباً عظيماً .

وفي القرن التاسع عشر كان السياسي البريطاني ويليام غلادستون يقول «إذا أحسست بالبرد فالشاي يمنحك الدفء ، وأن شعرت بالحرارة منحك البرودة ، وأن كنت كئيباً فهو يفرحك ، وأن كنت ثائراً هدّأك» .

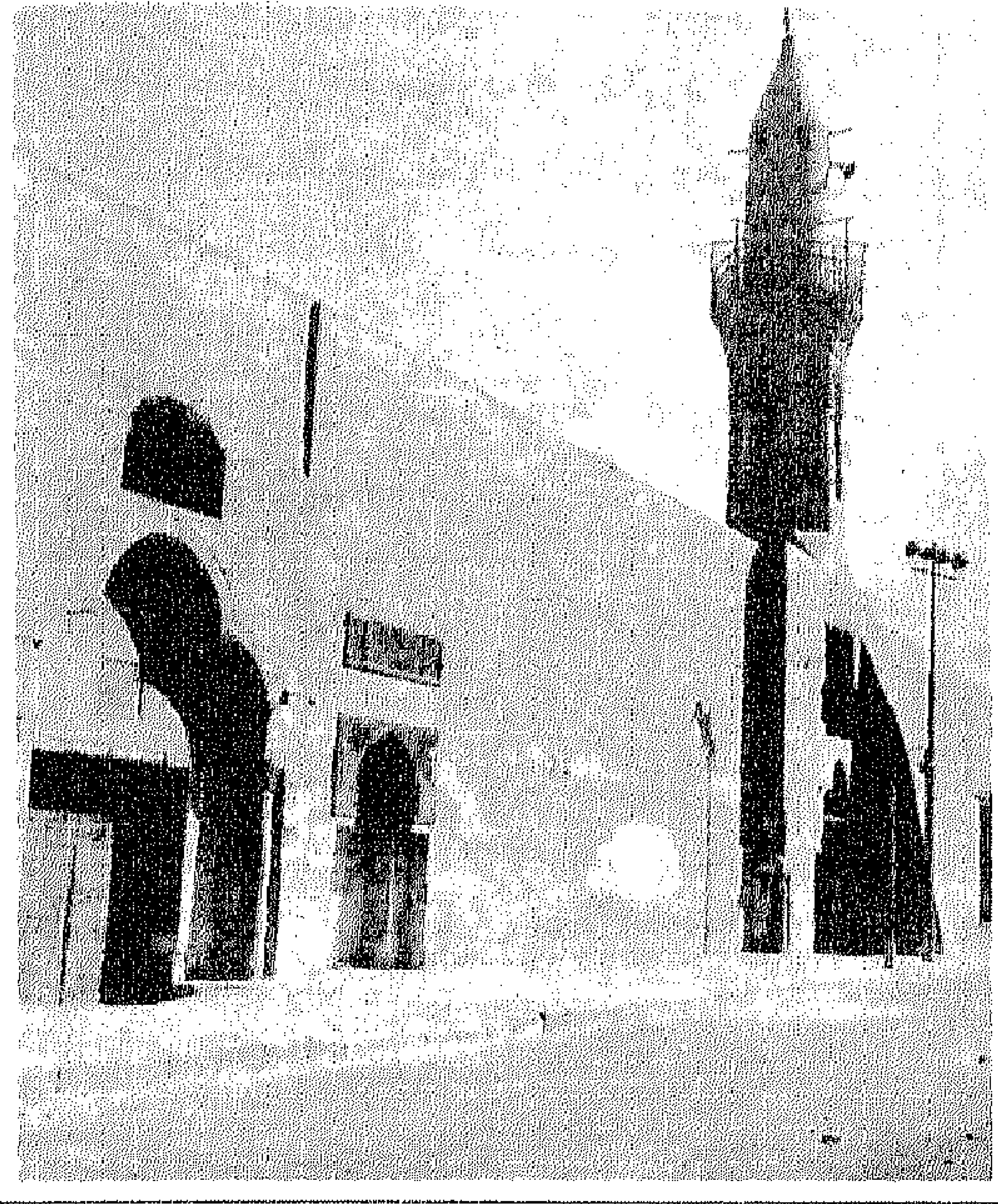
وكان مقهى «ريدجواي» في لندن في القرن السابع عشر يعلن أن شرب الشاي فيه يقضي على أوجاع الرأس والحصى ، ويفيد في معالجة انقباض المعدة .

ومنذ شيوع شرابه ، أخذ الملوك والأمراء يتنافسون بامتلاك أغلى ادواته ، ويوجد في متحف طوب قابو في اسطنبول اليوم أفخم مجموعة من أطقم الشاي من الصيني كانت في قصور السلاطين من بني عثمان كما أن المتحف البريطاني يضم أوسع مجموعة من نوعها في العالم . ■

مصادر البحث :

١ - دائرة المعارف البريطانية.
٢ - الموسوعة العربية الميسرة.
٣ - الشاي صناعته وتجارته - إصدار دار الشاي السيلاني - لندن.

المسابقة



تاريخ وأسماء ومعالم القرى والأحياء في الوطن العربي

إلى القراء الاعزاء :

ترغب مجلة «تاريخ العرب والعالم» أن تفتح باباً خاصاً للقراء ، لا سيما للطلاب في الثانويات والجامعات ، تدعو فيه إلى الكتابة المختصرة في موضوع : «تاريخ واسماء ومعالم القرى والأحياء في الوطن العربي» . والمجلة إذ تفتح باب هذا الموضوع تخصص مكافأة قدرها ١٠٠ ليرة لبنانية ، أو ما يعادلها للفائز الأول ، واشتراكاً سنوياً في المجلة للفائز الثاني ، على أن تتضمن المساهمة المقدمة معلومات جديدة وشيقة عن القرية أو الحي أو المعْلم وعن تاريخه واسمه وظروفه ، أو ما يحتوي من آثار عمرانية قديمة أو مظاهر حضارية ، وإذا أمكن صورة فوتوغرافية مأخوذة للحي أو القرية أو لأي مظهر عمراني أو اثري فيها ، كذلك على أن لا تتجاوز المساهمة الـ ٢٠٠ كلمة .

هذا ، وإذ تشدد المجلة على جدّة المعلومات الواردة ، تطلب من الكتاب الاعزاء ان يتقيدوا بأصول الكتابة العلمية وأن يشيروا إلى مصدر الاقتباس ، وتترك لهيئة التحرير حقها في اختيار المساهمات الصالحة للنشر ، وكذلك اختيار المساهمات الفائزة ؛ إذ من حصيلة ما يصل الينا ستختار هيئة التحرير ثلاث مساهمات للنشر في كل عدد بينها المساهمتان الأولى والثانية الفائزتان بالمكافأة .

* * *

نرجو من المشترك أن يكتب اسمه وعنوانه بخط واضح في نهاية مقاله وأن يرسله الينا بالبريد على العنوان التالي :

مجلة «تاريخ العرب والعالم» بيروت ص . ب . ٥٩٠٥

«مسابقة القرى والأحياء في الوطن العربي» .

* * *

تعتبر المواد المرسلة ملكاً للمجلة ، إذا نشرت أو لم تنشر .

وهذان مثلان أرسلهما صديقان للمجلة أتمنى أن يتمثل بهما من يريد أن يشترك في المسابقة.

صحار :

● مرفأ على ساحل عمان، تقع على خط عرض ٢٤ درجة ٢٢ شمالاً وخط طول ٥٦ درجة ٤٥ شرقاً. وكانت تقوم في مكانها مستعمرة قديمة جداً يمكن أن نرد تاريخها إلى الجاهلية.

لقد ظهر إسم صحار في التاريخ الاسلامي سنة ٨ هـ/٦٣٠م عندما سلم عمرو بن العاص السهمي وأبو زيد الأنصاري مبعوثا النبي كتابه إلى أيدي عمان جعفر وعباد الجلندي. وقد قبلا ما عرضه الرسول (صلى الله عليه وسلم) عليهما وأسلما. ولكن ظلت صحار كبقية عمان لا تتصل بالدولة الإسلامية إلا اتصالاً واهناً. ثم تغير الموقف عندما غزا عمان الوالي الأموي الحجاج بن يوسف. وفي سنة ٧٥١ م عادت عمان فاستقلت عن الدولة الاسلامية تحت الراية الأباضية (فرقة من الخوارج) واختارت الجلندي بن مسعود الأزدي أول امام أباضي لعمان وكانت عاصمته نزوة. في القرن العاشر الميلادي كانت صحار قد ارتقت رقياً كبيراً وعدت أهم بلدة في عمان وأجمل البلدان على الخليج الفارسي. كانت مزدهرة لكونها مركزاً للتجارة مع الشرق وخصوصاً للسلع الواردة من الصين وكان لها أيضاً شأن في تجارة اليمن. ولمرفأ صحار أهمية بالغة لكونه محطة لتزويد السفن المتجه إلى الشرق بمؤونتها.

ولكن هذا الازدهار لم يدم طويلاً فقد شهدت صحار عدة هجمات احتلال أخرت من مكانتها الاقتصادية. ففي سنة ٣٦٢ هـ (٩٧٣م) اضطر أهل صحار إلى الفرار والهجرة خارج عمان من هجمات أي حرب قائد عضد الدولة. وفي سنة ٤٣٣ هـ (١٠٤٢ م) استولى على صحار القائد البويهي ايدكايجار وأصبحت تحت الحكم البويهي وبعده السلجوقي. وفي القرن الثاني عشر توقفت تجارة صحار مع الشرق الأقصى. وتحولت التجارة إلى عدن.

في القرن السادس عشر احتل أسطول برتغالي صحار وتمكن البرتغاليون من جعلها مركزاً لتجارتهم. ومن الضربات التي وجهت إلى صحار غارات القراصنة التي أوقفها الأسطول الانكليزي سنة ١٨١٩.

فقد تمكن محمود بن عزان زعيم القراصنة من أن يستولي على صحار مدة من الزمن برغم معارضة الامام سعيد الذي حاول بمعاونة الوهابيين طرد محمود من صحار فلم ينجح. إلا انه سنة ١٨٤٢ تمكن من القبض عليه بموافقة الانكليز. وبهذا عادت صحار تؤلف جزءاً من أمامه عمان وفي الوقت الحاضر قلت أهمية صحار بالمقارنة بعاصمة البلاد مسقط.

جغبوب :

● زاوية للسنوسي في واحة فردعه على الحدود بين طرابلس الغرب ومصر. وهي على مسيرة خمسة عشر يوماً إلى الجنوب الشرقي من بنغازي ويومين إلى الجنوب الغربي من واحة سيوه. وكانت هذه البقعة خالية من السكان عندما قرر الاستقرار فيها الشيخ محمد بن علي السنوسي لعدم قدرته على الرجوع إلى بلاده الجزائر بسبب الاحتلال الفرنسي وذلك سنة ١٨٥٥. وابتنى هناك زاوية على صخرة ناتئة تشرف على الواحة. وحفر في الصخر نبعاً وغرس الحدائق وأشجار النخيل. وكان لموقع جغبوب أهمية لتطور وانتشار الطريقة السنوسية بين قبائل البدو التي شكلت العنصر الأساسي في بناء السنوسية. ولقد توفي الشيخ محمد بن علي في جغبوب ودفن فيها عام ١٨٥٦. ويرقد إلى جانبه الشيخ محمد شريف أحد أولاده الذي توفي في سنة ١٨٩٦.

والظاهر ان نمو هذه الزاوية كان بطيئاً بعض الشيء في أول الأمر ولم يكن عام ١٨٧٤ سوى قليل من الطلاب الذين يدرسون في جامعتها. ولكن سرعان ما نمت بعد ذلك ويقول دو فيرييه انه كان فيها عام ١٨٨١ حوالى ٧٥٠ طالباً وكان فيها إلى جانب الأبنية الدينية دور صناعات ودار للأسلحة. ومن ثم أصبحت هذه الزاوية مركز دعوة إلى هذه الطريقة ومنها أخذ الدعاة في نشر العقائد السنوسية في وسط أفريقيا وخاصة في واداي.

انتقل الشيخ عام ١٨٩٠ من جغبوب إلى بلاد الجنوب بواحة الكفرة ليكون أقرب إلى واداي ولكي يبتعد في الوقت نفسه هو وأتباعه عن دائرة النفود الأوروبي. وظلت جغبوب مع ذلك أهم زاوية للسنوسية يحج إليها المسلمون ومركزاً ثقافياً لها. ■

بقلم ميشال اسطفان

المملكة المغربية

تتمة ما نشرنا في العدد السابق، نواصل شرح اصدارات طوابع تلك البلاد.

- المكاتب الأجنبية الفرنسية ١٨٦٢ - ١٩١١

أول مكتب فرنسي افتتح اعماله في طنجة سنة ١٨٦٢ واستعمل طوابع فرنسا الموجودة في البريد وقتئذ، وكانت تمهر بالاختام المعروفة بالأرقام، وقد كان ختم طنجة يحمل رقم « 5106 ». ثم افتتحت فرنسا مكاتب أخرى في الدار البيضاء والقصر الكبير ولاراش ومزغان وموغادور والرباط. وبسبب تدهور العملة الاسبانية جعلت توشيح الطوابع الفرنسية بالسنتيموس والبزيتاس، وأصدرت أول مجموعة في أول كانون الثاني/يناير ١٨٩١/١٩٠٠، مؤلفة من ١١ طابعاً موشحاً من ٥س إلى ٢ بزيتاس على طوابع فرنسا. ثم مجموعة من طابعين، أصدرت في ٥ شباط/فبراير ١٨٩٣ موشحة باليد « Timbre Poste » من فئة ٥ و ١٠ س على طوابع فرنسية للاجور المستحقة، لكنها استعملت للبريد العادي وأصبحت قيمتها اليوم نحواً من ٧٥٠ جنيهاً استرلينياً. وأخيراً اصدرت في سنة ١٨٩٦ مجموعة للأجور المستحقة من خمسة طوابع موشحة بالسنتيموس والبزيتاس على طوابع فرنسية للأجور المستحقة من ٥ س إلى « ١ » ب، قيمتها اليوم نحواً من ٦٥ جنيهاً استرلينياً.

وفي تشرين الأول/اكتوبر ١٩٠٢ أصدرت طوابع طبعت خصيصاً على نمط الطوابع الفرنسية (صورة ١، ٢، ٣)، تحمل اسم (Maroc) ووشحت أيضاً بالعملة الاسبانية وكانت مؤلفة من ١٢ طابعاً من « ١ » س إلى ٢ ب، أصبحت قيمتها اليوم نحواً من ٦٥ جنيهاً استرلينياً. وفي ١٠ تشرين الأول/اكتوبر ١٩٠٣، وشحت باليد في طنجة، طابعين من طوابع الاجور المستحقة الفرنسية اصدار ١٨٩٦ : (P.P.)، أي اجور مدفوعة، واستعملت للبريد العادي، ولم تعطل بأي ختم كالعادة لكي لا تغطي التوشيح اليدوي، وأصبحت قيمتها اليوم تزيد على ٦٠٠ جنيهٍ استرلينيٍّ.

وبعدها أصدرت سنة ١٩٠٩، مجموعة للاجور المستحقة من أربعة طوابع موشحة على طوابع فرنسية (صورة ٤)، من «١» سنتيم إلى ٥٠ سنتيم. وفي سنة ١٩١١/١٩١٧ أصدرت مجموعة عادية من ١٢ طابعاً، من الطوابع الخاصة بالمغرب (صورة ١، ٢، ٣)، بعد أن وشحتها من « ١ » سنتيم إلى « ١ » بسيطة، (صورة التوشيح ٥ و ٦).

وفي سنة ١٩١١ صدرت مجموعتان للأجور المستحقة، الأولى من ثلاثة طوابع موشحة بالتوشيح السابق بفئة ٥ و ١٠ و ٥٠ س. والثانية من أربعة طوابع موشحة على طوابع للاجور المستحقة الفرنسية بالتوشيح السابق أيضاً بفئة ١ و ١٠ و ٣٠ و ٥٠ س.



٣



٢



١

المكاتب في المناطق تحت الحماية الفرنسية ١٩١٤ - ١٩٥٦

في أول آب/اغسطس ١٩١٤ أصدرت المجموعة الأولى من ١٧ طابعاً من المجموعة الخاصة بالمغرب (صورة ١ و ٢ و ٣)، موشحة بسطرين (Protectorat Francais) بأحرف صغيرة جداً، من «١» سنتيم إلى ٥ بسيطة، على الطوابع من الفئات الصغيرة، وبسطر واحد على الفئات الكبيرة المستطيلة. ثم تبعتها أربع مجموعات،

منها مجموعتان تذكاريتان للصليب الأحمر مؤلفتان من تسعة طوابع ، ومجموعتان للاجور المستحقة من عشرة

1 بسيطة

٦

1 سنتيم

٥



٤

طوابع ، موشحة على طوابع فرنسية صدرت ما بين سنة ١٩١٤ و ١٩١٥ .

في أول أيلول/سبتمبر ١٩١٧ ، صدرت أول مجموعة مصورة تمثل مناظر ستة بلدان، مؤلفة من ١٧ طابعاً ، وهكذا درجت الاصدارات المختلفة ، منها العادية والتذكارية وللاجور المستحقة ، والموشحة بالفئات المطلوبة أحياناً ، وبالمناسبات التذكارية أحياناً أخرى ، جمعت حوالي ٤٣٦ طابعاً وأربع بطاقات تذكارية ، آخرها صدر بتاريخ ١٠ آب/اغسطس ١٩٥٥ .

٥ - البريد البحري الفرنسي في الدار البيضاء ١٩٤٣ - ١٩٤٥

في سنة ١٩٤٣ منحت السلطات الاميركية في أفريقيا الشمالية ، للبريد البحري الفرنسي في الدار البيضاء ، حق استعمال الطابع الجوي الأمريكي من فئة ٦ سنت - (صورة ٧) ، بعد توشيحه بأحرف (R.F) أي الجمهورية الفرنسية ، وذلك للتخليص على المراسلات الجوية ، لبحارة القوات البحرية الفرنسية ، الموجهة إلى الولايات المتحدة وكندا . وكان التوشيح على مرتين ، ففي المرة الأولى كان قياس الأحرف عمودياً ٥ مليمترات و ٤ مليمترات في المرة الثانية ، وقد حدثت أخطاء عدة في كلتا الطبعتين ، منها ما جاء توشيحه معكوساً ومنها ما جاء مكرراً ، وقد بلغت قيمة الطوابع هذه نحو الخمسين دولاراً امريكياً لكل منها .



٧

٦ - مكاتب المؤسسات الخاصة للبريد الداخلي ١٨٩١ - ١٩٠٩

كان البريد الداخلي في المغرب ، ما بين سنة ١٨٩١ وسنة ١٩٠٩ يديره مؤسسات خاصة ، فرنسية والمانية ، واسبانية ، وقنصلية بريطانية وايطالية ، أصدرت طوابع خاصة تستعمل بين مدينة وأخرى ، في داخل البلاد فقط ، وكان الطابع يحمل اسمي مدينتي المصدر والمورد .

اصدارات مكاتب المؤسسات الفرنسية ١٨٩١ - ١٩٠٧

الوجهة : مزغان ومراكش

في سنة ١٨٩١ أصدرت مؤسسة « Brudo » طابعاً من فئة ٢٥ سنتيماً لونه أحمر أو أحمر قانٍ ، مخرماً من قياس ١١ ، وآخر بدون تخريم ، (صورة ٨) ، قيمتها اليوم نحو ١٠ جنيهات استرلينية . وفي سنة ١٨٩٢ ، وشحت باليد ، الطابع نفسه بفئة ١٠ س ، مرة بلون أسود ومرة أخرى بلون أزرق ، صدر مرة مخرماً ومرة بدون تخريم .

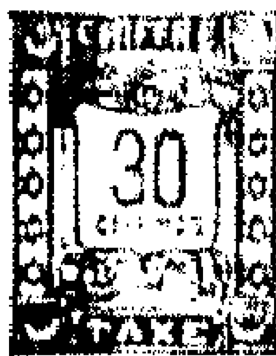


٩





١٠



١١

وفي سنة ٩٥/١٨٩٣ . أصدرت مجموعة من ستة طوابع ، من - ٥ س إلى « ١ » ب . بألوان مختلفة (صورة ٩) .

وفي سنة ١٨٩٤ ، وشحت طابعاً من فئة ٥ س من المجموعة السابقة ، بفئة ٢٠ س .

وفي سنة ١٨٩٩ ، أصدرت مجموعة من سبعة طوابع ، من ٥ س إلى «١» بزيتا ، الرسم الداخلي بالأسود والإطار الخارجي بالوان مختلفة ، (صورة ١٠) ، وفي السنة ذاتها ، أصدرت مجموعة للاجور المستحقة ، من سبعة طوابع ، من ٥ س إلى «١» ب ، رسم الفئات في الوسط بالاسود ، والاطار الخارجي بألوان مختلفة ، (صورة ١١) .



٢



١٣



١٤

الوجهة : موغادور ومر...س

في سنة ١٨٩٢ ، أصدرت طابعاً من فئة ٢٠ س ، لونه أحمر ، مخرم قياس ١/٢ ١١ ، وآخر بدون تخريم ، (صورة ١٢) .

الوجهة : القصر الكبير ووزان

في سنة ١٨٩٦ ، أصدرت مجموعة من سبعة طوابع ، من فئة ٥ س إلى فرنك واحد ، بألوان مختلفة ، (صورة ١٣) .

الوجهة : تطوان وشيشوان

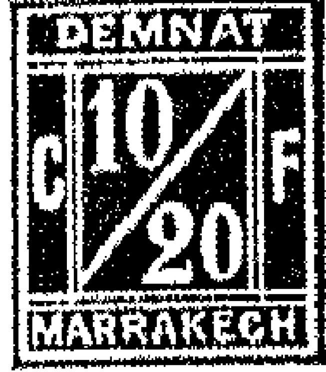
في سنة ١٨٩٦ ، أصدرت مجموعة من سبعة طوابع ، من فئة ٥ س إلى فرنك واحد ، بألوان مختلفة ، (صورة ١٤) ، قيمتها اليوم نحواً من ٣٢ جنيهاً استرلينياً .

الوجهة : آسفي ومراكش

في سنة ١٨٩٩ ، وشحت مؤسسة (Brudo) ، مجموعة من أربعة طوابع ، أصدار ٩٥/١٨٩٣ ، بكلمة (Saffi) ، قيمتها اليوم نحواً من ٣٥ جنيهاً استرلينياً .

الوجهة : دمناط ومراكش

في سنة ١٩٠٦ ، أصدرت مؤسسة باسم : (Charles Firbach) ، طابعاً من فئة ١٠/٢٠ س ، بلون خمري ، (صورة ١٥) ، ويلاحظ حرفاً (F.C) على جانبي الطابع ، قيمته اليوم تزيد على ٤٠ جنيهاً استرلينياً . وفي سنة ١٩٠٧ ، أعادت طباعته بلون أحمر برتقالي وبالفئة ذاتها ، ولكن قيمته لم تتعدَّ شلناً واحداً .



١٥



١٦



١٧

اصدارات مكـــاتب المؤسسات الالمانيـــة ١٨٩٢ – ١٩٠٠

الوجهة : طنجة وفاس

في السنة ١٨٩٢ ، أصدرت مجموعة من سبعة طوابع ، من فئة ٥ س إلى ٥ فرنك ، بألوان مختلفة ، (صورة ١٦) .

الوجهة : موغادور ومراكش

في السنة ١٨٩٥ ، أصدرت مجموعة من سبعة

طوابع بألوان مختلفة ، خمس منها من فئة ٥ س إلى «١» ب ، مخرمة بقياس ١/٢ ١٢×١٣ ، وطابعين من فئة ٥ و ١٠ س مخرمة بقياس ١/٢ ١١ ، (صورة ١٧).

وفي سنة ١٨٩٦ ، وشحت خمسة طوابع من المجموعة السابقة بفئة ١٠ س لكل منها ، ولكن بتوشيح مختلف في القياس واللون ، وأصبحت قيمتها اليوو نحو ٢٥٠ جنيهاً استرلينياً .

وفي سنة ١٨٩٨ ، وشحت ثلاثة طوابع من المجموعة ذاتها ، أصدار ١٨٩٥ ، بفئة ١٠ س على ثلاث فئات مختلفة ، أصبحت قيمتها اليوم نحو ٣٥٠ جنيهاً استرلينياً ..

وفي السنة ذاتها ، أصدرت مجموعة من خمسة طوابع بألوان مختلفة ، من ٥ س إلى ٥٠ س ، (صورة ١٨).



١٨

١٩

5 centimes

٢٠

5*centimes



٢١

١٩٠ ، وشحت أربعة طوابع من المجموعة السابقة ، بفئة ٥ س ، على طابع من فئة ١٠ س ، مرة باللون الأسود ، ومرة أخرى باللون البنفسجي بالتوشيح ١٩ ، (صورة ١٩) ، ومرة ثالثة باللون الأسود، ثم مرة رابعة باللون البنفسجي بالتوشيح ٢٠ ، (صورة ٢٠).

الوجهة : طنجة وارزيلا

في سنة ١٨٩٦ ، أصدرت مجموعة من ثمانية طوابع ، من ٥ س إلى ٢٥ س ، بحجم عادي ، مخرمة بقياس ١٣ ، بألوان مختلفة ، ومجموعة أخرى مثلها بحجم أكبر قليلاً ولكن من ستة طوابع مخرمة بقياس ١٤ (صورة ٢١) قيمتها اليوم نحو ٧٥ جنيهاً استرلينياً .

الوجهة : طنجة وتطوان

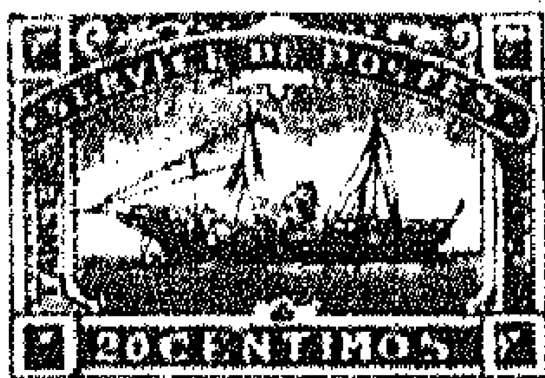
في سنة ١٨٩٦ ، أصدرت مجموعة من خمسة طوابع من ٥ س إلى ٢٥ س ، بألوان مختلفة (صورة ٢٢) .



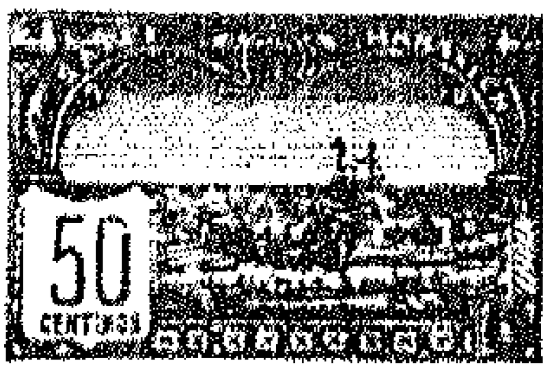
٢٢



٢٣



٢٤



٢٥

الوجهة : طنجة ولاراش

في سنة ١٨٩٨ ، أصدرت مجموعة من سبعة طوابع ، بألوان مختلفة ، من ٥ س إلى «١» ب . (صورة ٢٣) .

الوجهة : طنجة والقصر الكبير

في سنة ١٨٩٨ ، أصدرت مجموعة من ثمانية طوابع ، من ٥ س إلى ٢ ب ، بألوان مختلفة ، (صورة ٢٤) .

الوجهة : آسفي ومراكش

في سنة ١٨٩٩ ، أصدرت مجموعة من سبعة طوابع ، من ٥ س إلى «١» ب . مخرمة قياس ١٣ ، ثم اعادت طباعتها بأرقام أعرض ، ومخرمة بقياس ١/٢ ١١ ، بألوان مختلفة ، (صورة ٢٥) .

إصدارات مكاتب المؤسسات الاسبانية
١٨٩٤ – ١٩٠٠

الوجهة : فاس وسفرو

في سنة ١٨٩٤ ، أصدرت مجموعة من ١١ طابعاً بألوان مختلفة ، خمسة منها مخرمة بقياس ١٣ ، وثلاثة بقياس ١/٢ ١١ ، والثلاثة الأخيرة بقياس ١٤×١/٢ ١٤ ، بفئات متشابهة ، (صورة ٢٦) ، قيمتها اليوم نحو ٦٠ جنيهاً استرلينياً .

الوجهة : القصر الكبير ووزان

في سنة ١٨٩٦ ، أصدرت مجموعة من ثمانية طوابع ، من ٥ س إلى ٢ ب ، بألوان مختلفة ، (صورة تشابه رقم ٢٩) ، أصبحت قيمتها اليوم نحو ٢٢٠٠ جنيهٍ استرليني .


٢٧


٢٦


٢٨


٢٩

الوجهة : فاس ومكناس

في سنة ١٨٩٧ ، أصدرت مجموعة من ثمانية طوابع من ٥ س إلى فرنك واحد ، بالوان مزدوجة ومختلفة ، مرة مخرمة بقياس ١/٢ ١١ ، ومرة أخرى بقياس ١٤ ، (صورة ٢٧) ، ومجموعة أخرى للاجور المستحقة ، من ثمانية طوابع ، من ٥ س إلى فرنك واحد ، (صورة ٢٨) .

الوجهة : تطوان وشيشوان

في سنة ١٨٩٧ ، أصدرت مجموعة من ثمانية طوابع ، من ٥ س إلى ٢ ب ، بالوان مختلفة ، (صورة ٢٩) ، قيمتها اليوم تزيد على ١٧٠٠ جنيهٍ استرليني .

الوجهة : تطوان والقصر الكبير

في سنة ١٨٩٧ ، اصدرت مجموعة من سبعة طوابع ، من ٥ س إلى ٢ ب ، بالوان مختلفة ، (صورة ٣٠) ، قيمتها اليوم نحو ٦٠ جنيهاً استرلينياً .



٣٠


٣١


٣٢


٣٣

الوجهة : مزغان وازمور ومراكش

في سنة ١٨٩٧ ، اصدرت مجموعة من ١٢ طابعاً ، سبعة منها من ٥ س إلى «١» ب ، مخرمة بقياس ١/٢ ١٣ ، وخمسة طوابع مخرمة بقياس ١١ ، من ١٠ س إلى «١» ب ، بألوان مختلفة ، ولكن رقم

الفئة باللون الاسود ، (صورة ٣١) ، قيمتها اليوم تزيد على ٦٠٠ جنيهٍ استرليني .

الوجهة : موغادور وأغادير

في سنة ١٩٠٠ ، أصدرت مجموعة من سبعة طوابع ، من ٥ س إلى «١» ب ، أطرها الخارجية بألوان مختلفة ، والعلم مع رقم الفئة باللون الأحمر ، (صورة ٣٢) ، قيمتها اليوم نحو ٦٠ جنيهاً استرلينياً .

اصدارات المكاتب القنصلية البريطانية والايطالية
١٨٩٧ - ١٨٩٨
الوجهة : مزغان ومراكش

في سنة ١٨٩٧ ، أصدرت مجموعة من ستة طوابع بالوان مختلفة ، بعضها مخرم بقياس ١٤ وبعضها بدون تخريم ، والملاحظ أن العملة مكتوبة باللغة الايطالية ، (صورة ٣٣) ، قيمتها اليوم نحو ١٥ جنيهاً استرلينياً .

وفي سنة ١٨٩٨ ، وشحت ثلاثة طوابع من المجموعة السابقة ، بفئات ٨ و ١٠ و ٢٠ س ، مرة باللون البنفسجي ، وأخرى باللون الاسود ، قيمتها اليوم نحو ٤٥ جنيهاً استرالينياً .

وهناك مجموعة اعانة صدرت سنة ١٩٠٧ ، مؤلفة من خمسة طوابع مستطيلة افقياً ، الاطار بالوان مختلفة والوسط بمناظر مختلفة أيضاً ، من فئة ٥ س إلى ٥٠ س ، طبعت مرتين بالوان شتى ، ثم وشحت بفئة ٥ س مع صليب أحمر ، على فئة ١٠ و ٢٠ و ٢٠ لون آخر و ٣٠ و ٥٠ س ، قيمتها اليوم تساوي نحواً من ٧٠ جنيهاً استرلينياً .

ويلاحظ أن العملة المستعملة في جميع المكاتب ، هي الفرنسية والاسبانية فقط ، وذلك نسبة للعملة المستعملة في المناطق التابعة لها . وسنتبع في العدد القادم شروحات اصدارات المكاتب الأجنبية الأخرى بحسب الجدول .

كلمات متقاطعة

٩	٨	٧	٦	٥	٤	٣	٢	١	
			■						١
					■				٢
			■				■	■	٣
					■				٤
■	■	■				■			٥
							■		٦
				■					٧
			■						٨
					■				٩

أفقياً :

(١) ملك عربي . خمرة العسل .
(٢) ضمير منفصل . بلدة في صحراء المغرب .
(٣) مدينة مغربية . يهزُّ (معكوسة) .
(٤) ضمير منفصل . مدينة مغربية .
(٥) حب الماش . نهب .
(٦) أكلوا .
(٧) ثغر مغربي . ثغر مغربي .
(٨) مدينة مغربية . أحرف العلة .
(٩) ما ترعاه الماشية . ثغر مغربي (معكوسة) .

عمودياً :

(١) متشابهان ، الضبع .
(٢) اداة نصب . فقد عقله (معكوسة) . ذهب لا يدري إلى أين يذهب .
(٣) اسم فاكهة (معكوسة) . ثغر مغربي .
(٤) ري .
(٥) مدينة مغربية (معكوسة) . شرع .
(٦) عاصمة دولة عربية .
(٧) اختبر (معكوسة) . بيت نار يخبز فيه .
(٨) مُفارق . ذو وجاهة .
(٩) مكان في مصر . طاوع (معكوسة) .

(حل الشبكة صفحة ٩١) .

معاهدة سان جرمان
(١٠ أيلول ١٩١٩)

هناك في قلب القارة الأوروبية دولة صغيرة تحدها من الجنوب يوغسلافيا وايطاليا ومن الشرق سويسرا وامارة ليشتنشتاين ومن الشمال المانيا الاتحادية وتشيكوسلوفاكيا ومن الشرق هنغاريا أو المجر إنها النمسا نعم النمسا بلد شتراوس وهتلر. إنها النمسا التي كان لها دور كامل في رسم تاريخ القارة الأوروبية. فقد كانت قبل حوالي ألفي عام مقاطعة رومانية.

وفي اواخر القرن الثامن ومطلع القرن لتاسع قام شارلمان بتأسيس تحصينات على نهر الدانوب لصد غزوات المعتدين. حكمت هذه المنطقة في القرن العاشر أسرة Babenberger ثم انتقل الحكم إلى آل هابسبورغ الذين ظلوا يحكمون النمسا حتى نهاية الحرب العالمية الأولى.

لقد كان للنمسا وقتها نفوذ وقوة يحسب لها الساسة الأوروبيون ألف حساب حتى قيل عنها أنها من الامبراطوريات التي لا تغيب عنها الشمس فبالإضافة إلى اتحادها مع مملكة المجر لتؤلف الأمبراطورية الثنائية النمساوية – الهنغارية Austro Hyngary كانت تعيش على أراضي تلك الأمبراطورية قوميات متعددة كالايطاليين والتشيكيين والسلوفاكيين والصربيين والكرواتيين والبولنديين والرمان وحجر. أما النمساويون فكانوا المانا، لذلك كانت النمسا في ذلك الحين شبه قارة لما تحتويه من شعوب متعددة ولغات مختلفة وأراضي شاسعة.

أما ڤينا عاصمة تلك الأمبراطورية الكبيرة فقد كانت إحدى محاور السياسة والثقافة والإقتصاد إذ عقد فيها مؤتمر أوروبي ضخم كان الأول من نوعه عام ١٨١٥. وقد وصف أحد المؤرخين ڤينا وقتها قائلاً: «أنها باريس أوروبا الوسطى»، (Its the Paris of Central Europe) لما الذي حدث وقلب الأمور رأساً على عقب وحول تلك الأمبراطورية الواسعة إلى دولة صغيرة محايدة تعتاش من السياحة والخدمات العامة؟ للإجابة على هذا السؤال نعود ـ ٦١ عاماً إلى الوراء وبالتحديد إلى العاشر من أيلول ١٩١٩ حين وقعت النمسا معاهدة سان جرمان مع الخلفاء المنتصرين بالحرب العالمية الأولى. تلك المعاهدة التي قسمت النمسا وقلصت حجمها والتي تعتبر نقطة تحول هامة بالنسبة للنمساويين إذ لم يتمكنوا بعدها من التوسع الإقليمي. وقبل أن توقع المعاهدة قام الحلفاء بالخطوة التالية: حل الامبراطورية – الهنغارية وإنشاء دول مستقلة عليها وفصل قسميها الرئيسيين النمسا والمجر (هنغاريا) وجعل كلٍ منهما دولة مستقلة. ثم عقدوا مع النمسا معاهدة سان جرمان ومع المجر معاهدة تريانون.

أهم بنود معاهدة سان جرمان:

١- سلخ منطقة غاليشيا واعطائها إلى بولندة.

٢ – ضم منطقتي مورافيا وبوهيميا إلى تشيكوسلوفاكيا بعد أن كانتا تحت السيطرة النمساوية.

٣ – سلخ منطقتي البترول الجنوبي وتريستا وضمهما إلى إيطاليا.

٤ – إعطاء يوغسلافيا مناطق البوسنة والهرسك و الشاطئ الدلجاشي التي كانت بحوزة النمسا.

٥ – عدم انضمام النمسا إلى المانيا بأية حالٍ من الأحوال.

٦ – يسمح للنمسا بالاحتفاظ بجيش من ثلاثين ألف رجل وبإمتلاك ثلاثة زوارق بوليسية على نهر الدانوب.

٧ – على النمسا أن تدفع غرامة للتعويضات.

كانت هذه المعاهدة ضربة قاسية للنمسا إذ خسرت من جرائها ٣/٤ من مساحتها ولم يبق لها إلا ٣٢٠٠٠ ميل مربع من أصل ١١٦٠٠٠ ميل مربع كما خسرت ٤/٥ من عدد سكانها. ولم تستطع النمسا بعد ذلك تعويض خسارتها الإقليمية لا كلياً ولا جزئياً إذ تبنت السياسة الأوروبية هذه الحدود ورسختها حتى بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية. ■

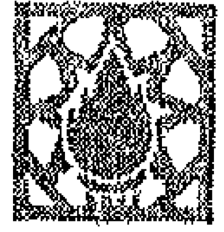
المراجع

النمسا: حقائق وأرقام. السفارة النمساوية في بيروت.

كيميائي العرب الأول
جابر بن حيان

حسين زعرور
الجامعة العربية
كلية الهندسة المعمارية





هو أبو موسى جابر بن حيّان ولد عام ٧٣٧ م (١٢٠ هـ) من أب يسمّى حيّان في مدينة تسمى طوس ببلاد فارس.

عندما سقطت الدولة الأموية. وقامت الدولة العباسية عام ٧٤٩ م أي ١٣٢ هـ جاء جابر إلى الكوفة وتتلمذ على يد الإمام جعفر الصادق وتلقّى عنه أصول علم الكيمياء.

وقد جعل جابر بغداد مقرا له وزاد نفوذه على مر الأيام وأصبحت له منزلة كبيرة في قصر الخليفة وعاش في ظل الازدهار والرخاء والتقدم يحظى بتقدير الجميع وبمكانة خاصة عند الخليفة هارون الرشيد يتدفق انتاجه وتتلاحق تجاربه ويحظى بثقة أمامه وسيده الإمام الصادق وكان الإمام يلجأ إلى جابر في المسائل التي يطمح لتحقيقها فطلب من جابر أن ينسخ كتاب «الضيم» الذي ألفه الإمام على ورق لا يتأثر بالنار فنجح جابر في ذلك وحقق رغبة استاذه. وعلى مر الأيام توطدت علاقة جابر بالبرامكة واكتسب ثقتهم وهم المصرّفون للدولة وشؤونها في عهد الخليفة الرشيد.

تنوع دراسته للعلوم:

رغم عظمة الانجازات التي قام بها جابر بن حيان في ميدان علم الكيمياء فإليه يرجع الفضل في تثبيت دعائم الكيمياء كعلم مكتمل العناصر واضح الحدود... رغم هذا كله فقد كان لجابر العديد من مؤلفات الطب والرياضة والفلسفة وكان له الفضل في ارساء الاسلوب العلمي وترسيخ الاخلاق العلمية الأمر الذي استفاد منه كل الفائدة من جاء بعده من علماء العرب.

وقد اعتبر جورج سارتون جابر بن حيان العربي من أكبر مؤرخي العلوم ولقد اطلق سارتون على المدة التي تقع بين عام ٧٥٠م. و ٨٠٠م فيما يتعلق بالعلم والفلسفة في الشرق والغرب اسم عصر جابر بن حيان. ويظهر اعتزاز «جابر» بالعلم وثقته في الجهد العلمي، من قوله: «كيف يظن العجز بالعلم دون الوصول إلى الطبيعة وأسرارها.. ألم يكن في مستطاع العلم أن يجاوز الطبيعة إلى ما ورائها.. فهل يعجز عن استخراج كوامن الطبيعة؟اننا لا نطالب من لا علم له

بالتصدي للكيمياء بل نطلب ذلك من ذوي العلم الذين استوفوا أركان البحث » .

ويرى جابر أن التجربة العلمية وحدها لا تؤتي ثمارها ان لم تساندها القراءة ، ويدعمها الاطلاع . فهو يشترط على تلاميذه قراءة كتبه ثلاث مرات متتالية لكل قراءة منها هدف خاص : أما القراءة الأولى فللتأكد من صحة الالفاظ في النص ، ومن معاني تلك الألفاظ ، أما القراءة الثانية فلدراسة النص لا من حيث معانيه المباشرة ، بل بغية الوصول إلى مدلولاته البعيدة الخفية لما أكثر ما يكشف تحليل النص عن معان ما كانت لتظهر لو وقف الدارس عند ظاهر اللفظ وحده ، دون الغوص إلى ما هو منطو في تضاعيفه وثناياه ، أما القراءة الثالثة فهي لتبويب المعاني وتصنيفها لعلنا نجمع الشبيه إلى شبيهه ، أو نوازن بين المتباين منها ، مما يبلغ بنا الغاية المنشودة من موضوع الدراسة .

ويجمل جابر رأيه في العلاقة بين الاستاذ والتلميذ قائلاً : « أن سبيل الأستاذ والتلميذ ، أن يكونا متعاطفين بعضهما على بعض تعاطف قبول ، وأن يكون التلميذ كالمادة والاستاذ كالصورة » .

ويؤكد جابر انه لا نجاح في عمل علمي إلا إذا كان مسبوقاً بالدراسة فالتحصيل النظري أولاً ثم التجربة والتطبيق ثانياً . ورغم أن هذا التحصيل الكامل قد يقتضي جهداً ووقتاً لكن لا مناص من ذلك إذا كان الدارس يريد أن يصل إلى الحقيقة فيقول جابر « اتعب أولاً تعباً واحداً ، واجمع ، وأنظر ، واعلم ، ثم اعمل ، فإنك لا تصل أولاً ، ثم تصل إلى ما تريد » .

إنجازاته

يعتبر جابر بن حيان ، بحق ، أول رجل ظهر في العالم جدير بأن يطلق عليه لقب «كيميائي» . غير انه لم يكن كيميائياً فحسب ، بل كان كذلك فيلسوفاً ، وعالماً في التاريخ الطبيعي ، وطبيباً ، وقد نبغ في هذا كله ، بالرغم من أن اسمه قد ارتبط في تاريخ العلم أساساً بما أنجزه من اكتشافات في علم الكيمياء .

(أ) في الكيمياء : كان جابر شغوفاً بالكيمياء ، وعالماً فيها بالمعنى الصحيح ، فقد درسها دراسة وافية . وقد كان أساس مجده هو تغيير أوضاع علم الكيمياء وإقامته على التجربة والملاحظة والاستنتاج .

وابتكر جابر شيئاً جديداً في الكيمياء فادخل ما اسماه بعلم الموازين ، والمقصود به معادلة ما في المعادن من خصائص . وكان جابر أول من استحضر حامض الكبريتيك بتقطيره من الشبه واسماه زيت الزاج وهو عمل عظيم في تاريخ تقدم الكيمياء والصناعة ، ودرس خصائص مركبات الزئبق واستحضرها وقطّر الخل للحصول على حامض الخليك المركّز وقد أدرك جابر أن درجة الغليان في حامض الخليك أدنى من درجة غليان الماء وتوصل إلى نتيجة أن للسوائل المختلفة درجة غليان مختلفة . وقد عرف استخدام ثاني أوكسيد المنغنيز في صناعة الزجاج لازالة اللون الأزرق أو الأخضر كما عرف تحضير الزرنيخ وقد اهتم أيضاً بتنقية المعادن من الشوائب المختلطة بها .

وكان جابر بن حيان خبيراً في العمليات الكيميائية الشائعة ، كالاذابة والتبلر والتقطير والتكليس والاختزال وغير ذلك وكثيراً ما كان يصفها ويبين الغرض منها والتغييرات التي تحدث فيها ويشرح أفضل الطرق لاجرائها وفقاً لنتائج تجاربه . ولجابر بحث في السموم تحت اسم «السموم ودفع مضارها» .

(ب) في باقي العلوم : كان جابر بن حيان يؤمن بقيمة الفلسفة فيضع اصولاً للتفكير الفلسفي ويناقش الوجود . متعرضاً لأفكار الزمان والفعل والانفعال والتناهي والإتصال والإنفصال إلى غير ذلك من الأفكار الفلسفية ولجابر بن حيان نظرية تكوين الكون بكل ما فيه .

وقد بقي جابر في الكوفة ، يواصل بحثه العلمي ، وتجاربه المثمرة ، ويسجل تجاربه وأفكاره في كتب أفادت العلم لسنوات طوال ، حتي توفي وهو في التسعين من عمره . بعد أن ترك آثاراً علمية خالدة ، واشعل سراجاً لم تخمد جذوته ، بل ظل محمولاً على سواعد متينة تعمل على تذكيته ونشر ضوئه ، وجاء من بعد جابر بن حيان ، غير قليل من العلماء الذين استفادوا بجهوده ، وثمرات تأليفه ، وزادوا عليها من نتائج تجاربهم وتفكيرهم وبحوثهم وهكذا استحق جابر بن حيان ذلك التقدير الذي عبر عنه مؤرخ العلم الغربي برتيلو ، عندما قال : « لجابر ابن حيان في الكيمياء ، ما لأرسطو في المنطق » . ■

الشطرنج عند العرب

بقلم محمد مراد سكر

الشطرنج عند العرب اسم كبير يتطلب لايفائه حقه مجلداً وليس مقالاً موجزاً، كما نحاول في هذا العدد من «تاريخ العرب والعالم».

ولقد ذكرنا في مقالاتنا السابقة ما للعرب من فضل في نشر الشطرنج في العالم أجمع، كما ذكرنا انهم كانوا السباقين إلى التأليف في هذا المضمار. ترى هل عرف العرب الشطرنج قبل العصر الإسلامي؟ من الصعب تأكيد ذلك. فليس للشطرنج أي ذكر في الشعر الجاهلي بينما ذكره كثير من الشعراء في العصر الاسلامي. غير ان أحد أصدقائنا ذكر لنا ان أمرأ القيس تصدى للشطرنج في قصيدته التي مطلعها :

لمن طلل بين الجدية والجبل
فحل قديم العهد طالت به الطبل

والتي يصف بها حبيبته فيقول :

حجازية العينين مكية الحشا
عراقية الأطراف رومية الكفل
تهامية الأبدان عبسية اللمى
خزاعية الأسنان درية القبل

إلى أن يقول :

ولاعبتها الشطرنج خيلي ترادفت
ورخي عليها دار بالشاه بالعجل
فقالت وما هذا شطارة لاعب
ولكن قتل الشاه بالفيل هو الأجل
فناحيتها منصوب بالفيل عاجلاً
من اثنين في تسع يسرع فلم أمل
وقد كان لعبي كل دست بقبلة
أقبل ثغراً كالهلال إذا أفل

إلى آخر القصيدة وعدد أبياتها ٥٥ بيتاً.

أما صحة هذه القصيدة أو نسب هذه الأبيات الشطرنجية على الأقل، فلست أملك ما يؤكد لي صحتها ونسبها وأترك ذلك للمتعمقين في الشعر الجاهلي.

أما في العصر الإسلامي فقد أتى ذكر الشطرنج على لسان كثير من الشعراء، ولكن هل عرف الشطرنج أيام الرسول عليه السلام أم بعده وبعد الفتوحات الاسلامية؟ فليس لدينا أي تأكيد يحدد لنا ذلك. وتدل الأسماء التي أطلقها العرب على قطع الشطرنج انهم أخذوها عن الفرس مثل شاه، فرز (أي وزير) وكانت في الأصل (بيل)، رخ، بيدق، الخ... والمعروف ان العرب افتتحوا فارس سنة ٦٤٢م. ومن الطبيعي أن يكونوا قد تعلموا هذه اللعبة أثناء فتوحاتهم.

روى الامام الشافعي ان سعيد بن خبير الذي عاش مدة في أصفهان (حوالي سنة ٧١٠م) كان يلعب الشطرنج حاضراً ومستدبراً (أي مولياً ظهره للرقعة) كما روي عن أبي هريرة الصحابي أنه كان يجيد الشطرنج حاضراً ومستدبراً، والمعلوم ان أبا هريرة توفي سنة ٥٧ للهجرة. كما ذكروا ان الخليفة عمر بن الخطاب المتوفي سنة ٢٣ للهجرة كان يمر على لاعبي الشطرنج فيسلم عليهم ولا ينهاهم. وقد قرأت في أحد الكتب الأجنبية ان الخليفة عمر بن الخطاب مر على أناس كانوا يلعبون الشطرنج، وما ان رأوه من بعد حتى غطوا الرقعة برداء، فلما اقترب منهم سألهم ماذا تحت الرداء فشرحوا له قصة غوا وطالخاند وان هذه اللعبة ليست إلا اعادة لهذه القصة انما بالعاب مختلفة، فأجابهم لست أرى ما يمنع ذلك في الدين.

ويروي ابن أبي حجلة المغربي التلمساني في كتابه «نموذج القتال في نقل العوال» ان النبي (صلعم) كثيراً ما كان يقف متفرجاً على أتباعه من المسلمين الأوائل وهم يلعبون الشطرنج (بكل تحفظ)، ولو صدق هذا القول الأخير، فهذا يعني ان العرب كانوا يعرفون الشطرنج في العصر الجاهلي، على الأقل في أواخره.

بعد دخول الشاطورنجا إلى فارس أيام كسرى أنو شروان سنة ٥٣١ – ٥٧٩م. طرأ عليها بعض التعديل وأصبح يلعبها اثنان بينما كان يلعبها في السابق أربعة، كل لاعب له زاوية من الرقعة يضع عليها أحجاره، وقد أطلق الفرس عليها إسم خطورنج الذي نقله العرب وأصبح شطرنج. ويرجع الفضل إلى العرب في تحسين هذه اللعبة والتفنن فيها والدفع بها خطوات واسعة إلى الأمام. فقد برع العرب كثيراً في هذه اللعبة لدرجة انهم كانوا يعتبرون النقلات الأولى غير ذات بال فيضعون حاجزاً يقسم الرقعة قسمين ويرتب كل لاعب أحجاره كما يريد بعد أن يكون قد اتفق مسبقاً مع خصمه على عدد النقلات الأولى التي سيقوم بها كل منهما منفرداً خلف الحاجز، ثم يرفع الحاجز ويبدأ اللعب. وكانت هذه تدعى «الطبيقة»، ومن يلعب الشطرنج يعرف الصعوبة التي تعتري اللاعب لمتابعة جولة كهذه.

وقد قسم العرب اللاعبين إلى خمسة أقسام، العليّة (أو العالية) وهم أساطين الشطرنج الذين يصعب التغلب عليهم، ويأتي بعدهم من يستطيع أن يربح جولتين أو ثلاثاً من أصل عشرة مع هؤلاء الأساطين أو الأساتذة كما نسميهم اليوم، ثم الذين يستطيعون أن يلاعبوهم بدون فرز أو بدون حصان أو بدون رخ وهؤلاء الفئة الخامسة.

وهذا يدل على براعة العرب في الشطرنج، إذ حتى يستطيع أحد اللاعبين أن يتغلب على آخر بدون قطعة مهمة كالفرز أو الحصان يجب أن يكون من الفطاحل الذين لا يشق لهم غبار.

وقد ذكرت الكتب العربية كثيراً من الأوضاع في الشطرنج، كانت تدعى المناصب (جمع منصوبة) وهو ما يعرف اليوم بالمسائل والدراسات الشطرنجية، وقد نقل الغربيون كثيراً من هذه الدراسات وتأثروا بها حتى انه لم يبرع أحد منهم لم يطلع عليها.

كان القرن العاشر عهد ازدهار للشطرنج عند العرب إذ برز منهم كثيرون مثل: الصولي، العدلي، العاري، ابن دندن، علاء الدين الملقب بعلي الشطرنجي التبريزي، المسيس، الرازي الشطرنجي (غير الرازي الطبيب) وغيرهم. وكان أشهرهم العدلي الذي حافظ على شهرته كأحسن لاعب خمس سنين، ولعله أول بطل في الشطرنج. كما ان الخليفة هارون الرشيد كان من أحسن اللاعبين، وإليه يرجع الفضل في انتشار الشطرنج في مملكته. كما كان المعتصم بالله، الابن الثالث لهارون الرشيد، من أبرع اللاعبين، وقد ترك المعتصم بالله المتوفى سنة ٨٤٣م. عدة مسائل في الشطرنج نقلها الغربيون واسترشدوا بها.

والمعلوم ان أغلب الخلفاء كانوا يلعبون الشطرنج ويشجعونه مثل المنصور والأمين والمأمون وغيرهم. وكان الأمراء والوزراء والندماء والعبيد يلعبونه أيضاً، مثل الأميرة العباسة (أخت الرشيد) وجعفر البرمكي ومحمد البيدق (سمي هكذا لقصر قامته). كما ذكروا ان الخليفة يزيد بن عبد الملك (المتوفي سنة ١٠٥هـ) كان يلعب الشطرنج مع أحد جواريه المسماة «حبابة» التي كانت تجيد اللعب. وذكروا ان أبا حنيفة (٨٠ – ١٥٠هـ) كان ممن يقولون ان الشطرنج مكروه ليس حراماً. ولسنا نريد أن نخوض كثيراً في هذا الموضوع بل نتركه لرجال الدين. ونحن في مقالنا هذا نتوخى التاريخ، والتاريخ فحسب.

يقول حسن توفيق فايق في كتابه «كنانة الشطرنج العصري» لجبرائيل نصرة بك المهندس سنة ١٩٢٧، ص ٤٠٠ و ٤٠١ ما يلي:

ازدهر الشطرنج في العصر الاسلامي مبكراً. فقد وجد في القرن الأول الهجري من كان يلعبه باتقان في الحجاز، إذ روي عن أبي هريرة الصحابي المتوفي سنة (٥٧هـ) وعن سعيد بن جبير التابعي المتوفي سنة (٩٥هـ) انهما كانا يلعبان الشطرنج باجادة، حاضراً واستدباراً (ربما لم يلعب قبلهما استدباراً). وفي القرن الثاني انتشر الشطرنج في باقي الأقطار العربية فوصل العراق ومصر واشتهر به في بغداد أبو حفص الشاعر بين ١٨٠ و ٢٠٠هـ. رغم انه كان أعمى. وفي مصر كان الامام الشافعي المتوفي سنة ٢٠٤هـ. يلعب بإجادة حاضراً ومستدبراً.

وفي غضون القرنين الثالث والرابع بلغ الشطرنج أوجه بالعراق حيث نبغ أساطين الفن وجهابذة المؤلفين، وكان أولهم أبو العباس أحمد العدلي ببغداد بين (٢٣٠ و ٢٥٠ هـ) وهو أول من ألّف كتاباً عن الشطرنج، ثم تلاه الرازي الشطرنجي (بين ٢٥٠ و ٢٩٠ هـ) ثم محمد بن أحمد الماوردي (٢٨٠ - ٣٠٠ هـ) ثم أخيراً واسطة عقدهم وفخر الشطرنجيين جميعاً الأديب الكبير أبو بكر محمد ابن يحيى الصولي المتوفي سنة ٣٣٥ هـ. وقد نادم ثلاثة من الخلفاء العباسيين وألّف كتابين عن الشطرنج.

ويوجد بدار الكتب الملكية بمصر مخطوط لمؤلف مجهول عنوانه «كتاب الشطرنج مما ألّفه العدلي والصولي». وظهر بخراسان أبو الفرج محمد بن عبيد الله اللجلاج، إذ كان موجوداً بشيراز (٣٤٠ - ٣٦٠ هـ) وألّف رسالة عن الشطرنج، وكان اللعب قد ذاع وانتشر حتى وصل الأندلس واليمن فاشتهر بالأندلس أبو زيد أبو بكر محمد بن عمار الشاعر المتوفي (٤٧٧ هـ)، وهو الذي لاعب الأدفنس (الفونس) ملك قشتالة وغلبه. واشتهر باليمن أبو الطامي جياش بن نجاح أمير تهامة (المتوفى ٤٩٨ هـ). وفي القرن السادس اشتهر بالأندلس أبو زيد أبو بكر بن زهر الحفيد المتوفي ٥٩٦ هـ. وكان يجيد اللعب مستدبراً. وفي القرن السابع ظهر أبو رزيقة المغربي، وكان من مجيدي اللعب بالاستدبار وانتقل إلى صقليا ثم إلى ايطاليا فكان أول من لعب باستدبار في أوروبا حيث فعل ذلك بفلورنسا ٦٦٤ هـ. فأثار دهشة العالم الأوروبي.

أما القرن الثامن فكان غنياً بمشاهير اللاعبين في جميع الأصقاع. مثلاً بدمشق وجد شخص يدعى النظام العجمي كان يمكنه أن يلاعب ثلاثة أشخاص في آن واحد (٢ مستدبراً وواحداً حاضراً) حوالي ٧٣٠ هـ، وبمصر علاء الدين بن قيران الأعمى (٧٥٠ هـ) وبتركستان تيمورلنك الأعرج أمير المغول (المتوفى ٨٠٧ هـ) وكان بحاشيته من يدعى علاء الدين التبريزي وعلت همتهما عن اللعب بالشطرنج العادي فاستنبطا الشطرنج الكبير ١٠ × ١٠ بزيادة قطعتين هما الدبابة والجمل، غير ان اللعب بطريقتهما الجديدة لم يدم بعدهما. وفي القرن العاشر اشتهر بمصر محمد ابن الورد والشهابي أحمد الاسكندراني وقد اتفق لهما أن سافرا إلى الأستانة لملاعبة مشاهير لاعبيها، ثم عادا لمصر. وفي القرن الحادي عشر نبغ بالشام شخص يدعى ابن السمان الدمشقي ووصل صيته إلى الأستانة، فاستدعاه السلطان محمد ورتبه نديماً له ضمن حاشيته وتوفي بالأستانة (١٠٨٨ هـ).

وفي القرن الثاني عشر حضر إلى مصر الأديب خليل أفندي البغدادي وكان لاعباً ماهراً في الشطرنج وتعرّف بمراد بك (من المماليك) وتلاعبا (١١٨٠ - ١٢٠٠ هـ) ولم أعثر في مباحثي على أسماء خاصة أذكرها بعد هذا التاريخ فوقفت إلى هذا الحد. (انتهى كلام حسن توفيق فايق). ويقول زكي فاضل في كتابه «لمحات في الشطرنج»:

«استهوت لعبة الشطرنج في العصر الاسلامي كثيراً من الملوك والوزراء والعلماء والأدباء فافتتنوا بها، وسنذكر بعضاً منهم على سبيل المثال لا الحصر: فمن الخلفاء والملوك يزيد بن عبد الملك وأخوه هشام من الأمويين وهارون الرشيد وولداه الأمين والمأمون والواثق والمهدي من العباسيين والملك محمود الغزنوي من الغزنويين بالأفغانستان والمستنصر بالله من الفاطميين، ويوسف صلاح الدين من الأيوبيين، وتيمورلنك من ملوك المغول بالتركستان، والملك جلال الدين محمد الأكبر من ملوك الهند، والملك أبو الطامي جياش ابن نجاح من ملوك اليمن والسلطان سليم والسلطان عبد الحميد من آل عثمان، ومراد بك محمد من أمراء المماليك...

حل الكلمات المتقاطعة

	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩
١	ا	ل	ح	س	ن		ب	ت	ع
٢	ا	ن	ا		ا	د	ر	ا	ر
٣			ف	ا	س		ج	ر	ي
٤	ا	ن	ت		م	ر	ا	ك	ش
٥	م	ج		س	ل	ب			
٦	ع		ا	ق	ت	ا	ت	و	ا
٧	ا	س	ف	ي		ط	ن	ج	ه
٨	م	ك	ن	ا	س		و	ي	ا
٩	ر	ج	ي		ن	ا	ر	ه	و

دوريات جديدة


الأرض

الأرض

نشرة تحليلية نصف شهرية تصدر عن مؤسسة «الأرض» للدراسات الفلسطينية في دمشق.

صاحبها ورئيس تحريرها المسؤول: حبيب قهوجي.

تقع النشرة في ٥٦ صفحة ويحتوي العدد الخامس منها الذي صدر في ١٩٧٩/١١/٢١ (السنة السابعة) على المواضيع التالية:

- أزمة حكم في الكيان الصهيوني.
- أزمة الحركة الصهيونية.
- الصناعة الصهيونية (١٩٦٥ - ١٩٧٨) الجزء الثاني.

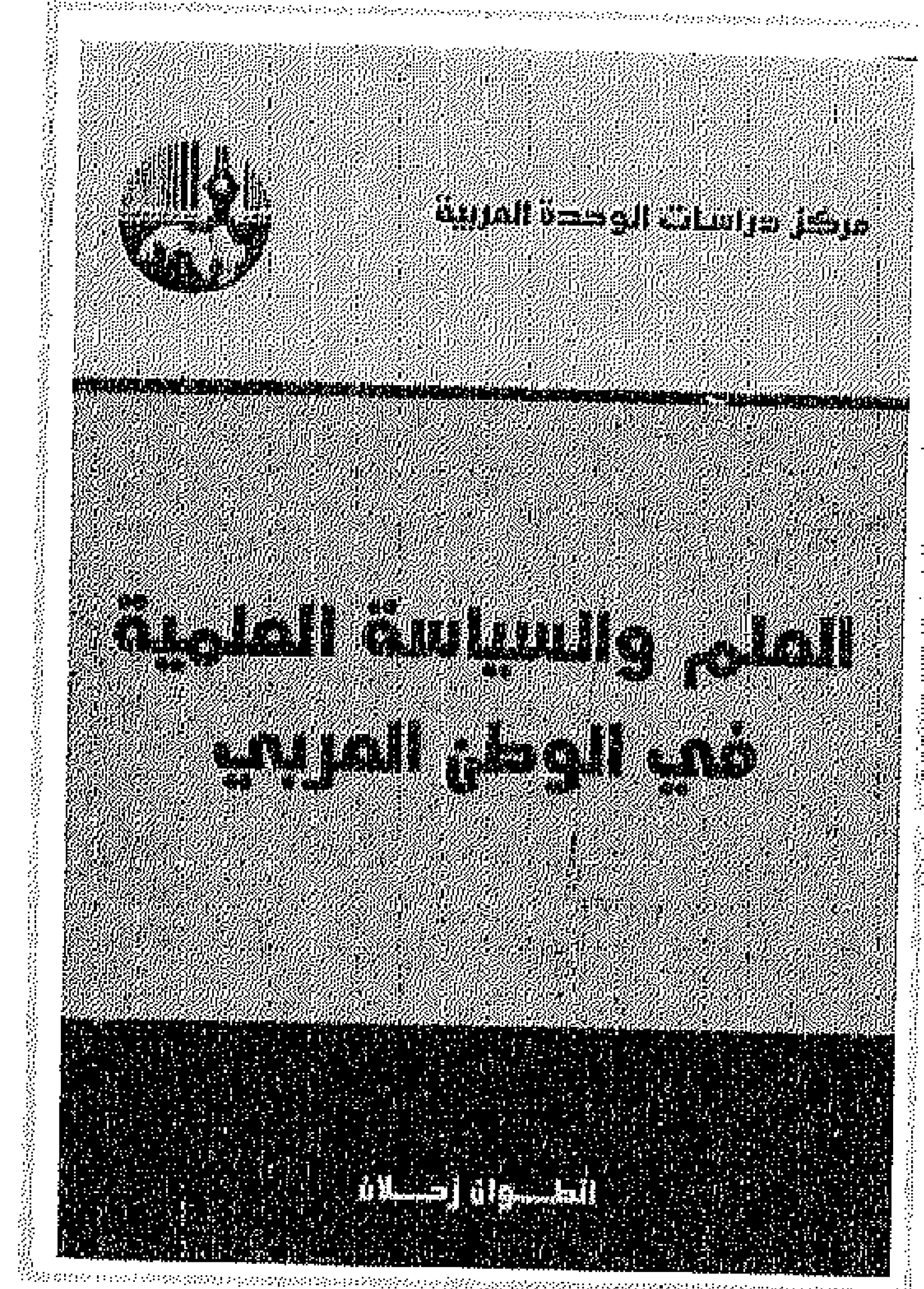
كما يحتوي الملحق على المقالات التالية المترجمة من الصحف العبرية:

- أمن اسرائيل في الثمانينات (دافار).
- ولد واحد من خمسة أولاد في اسرائيل موجود تحت خطر الفقر (بديعوت احرونوت).
- مبدأ عدم الإنسحاب (دافار).
- النيل: حل نموذجي لضائقة المياه الإسرائيلية (يديعوت احروندت).

والباب الأخير يحتوي أهم أخبار الكيان الصهيوني خلال اسبوعين.

هدفها خدمة ذوي الشأن والاختصاص والاسهام بجهد متواضع في مساعدة الاعلام العربي على تثقيف الرأي العام الثقافة الصحيحة بالشؤون الاسرائيلية والصهيونية.

وهيئة التحرير تعتمد المصادر الاسرائيلية بالذات، تدرسها وتحللها بأقصى قدر من الموضوعية مستفيدة من معرفة أعضائها وخبرتهم بشؤون التجمع الاستيطاني الاسرائيلي ولغته وتركيبه. ■



العلم والسياسة العلمية في الوطن العربي

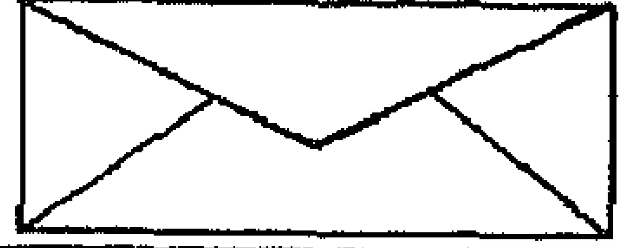
صدر عن مركز دراسات الوحدة العربية مؤخراً كتاب «العلم والسياسة العلمية في الوطن العربي» للدكتور انطوان زحلان.

ويجيء هذا الكتاب نتيجة جهود متلاحقة قام بها المؤلف على مدى عشرين عاماً في تجميع المعلومات والبيانات - التي لم ينشر معظمها من قبل - وعلى أساسها يقدم تحليلاً منهجياً للتجربة العربية في مجال تطوير العلم والمؤسسات العلمية منذ عام ١٩٤٥. وقد شهدت العقود الثلاثة الماضية زيادة هائلة في عدد المواطنين العرب الذين تابعوا دراساتهم العلمية وكذلك في عدد الجامعات ومراكز البحث العربية. ومن ثم فقد تراكمت تجربة غنية تقتضي اجراء دراسة نقدية لتوجيه النشاط العلمي في المستقبل.

ويتضمن الكتاب تحليلاً مفصلاً لنطاق العلم ومداه وتمويله. ويتبين منه أن الجانب الأكبر من النشاط العلمي في الوطن العربي يتركز في الطب والزراعة، وأن البحث في ميدان العلوم الأساسية ما زال محدود النطاق. وفضلاً عن ذلك، يتناول الكتاب بالبحث القوى البشرية العلمية في الوطن العربي من حيث انتاجيتها وتوفرها. وعلى الرغم من السياسات التعليمية للدول لعربية التي أدت إلى نمو سريع في عدد العلماء والتكنولوجيين، فانه يبدو أن تطور المرافق الأساسية والهياكل التنظيمية وظروف العمل المتواضعة في الجامعات والمؤسسات العربية هي السبب وراء هجرة الكفاءات المستمرة.

ويناقش الكتاب باسهاب الجهود الكبيرة الاقليمية والدولية التي تدعم تطوير العلم العربي. ويتضح من الدراسة أن الهيئات الوطنية لتقرير السياسة العلمية هي نتاج مبادرات محلية ودولية. ويتناول الكتاب السياسات والبرامج المطبقة في اطار الخطط الإجتماعية والاقتصادية. ويتبين أن السياسات الرسمية للعلم تخالف واقع التنمية سواء على صعيد العدد الهائل من الصناعات والأشغال المدنية الجديدة، أو على صعيد الاحتياجات الأساسية للإنسان.

ويستند الكتاب إلى مجموعة منوّعة وواسعة من المعلومات والبيانات غير المنشورة والتي قام المؤلف بتجميعها على مدى عشرين عاماً. ■



بريد القراء

● حسين زعرور – الجامعة العربية – بيروت – لبنان .

■ الموضوع الذي ارسلتموه عن «جابر بن حيان» محاولة طيبة شكراً لمساهمتكم وسننشر رسالتكم في أقرب فرصة ممكنة .

● جاك لحود – بجدر فل – البترون – لبنان .

يقول : «اتقدم منكم شاكراً للجهود التي تبذلونها في كافة الميادين في مجلتكم «تاريخ العرب والعالم» . نظراً لما تقدموه من فائدة . ومعرفة كانت تنقص المكتبة العربية وإننا لكم لمساندون في كل ما تنشرونه» .

● المهندس نزار عرنوق – طرطوس – سورية .

يقدم تمنياته الصادقة بدوام النجاح لمجلة «تاريخ العرب والعالم» ويؤكد بأن المجلة قد شقت طريقها في عالم الصحافة الصعب وعلى مستوى رفيع ..

■ نشكر الأخ الدكتور نزار عرنوق على شعوره النبيل تجاه المجلة راجين أن نوفق في خدمة امتنا العربية .

● ادي يبرودي – الجديدة – مركز الهاتف – لبنان .

اقترح تجليد اعداد المجلة كل سنة . وأبدى اعجابه بمواضيعها التاريخية .

■ نشكر الأخ أدي على اقتراحه ونؤكد له بأن اقتراحه هو الآن قيد التنفيذ . وشكراً لعواطفك الطيبة .

● عبد الحكيم محمد كشاد . طرابلس – ليبيا .

يقول : «إلى النافذة العظيمة مجلة تاريخ العرب والعالم» والتي تعتبر حقيقة ثابتة . نافذة على حقيقة تاريخنا العريق والحديث وتاريخ العالم . ونحن نفتخر بأن تكون لنا هذه المجلة الرائعة المزدهرة بالمواضيع والدراسات التي يحتاج اليها القارئ العربي . فالتحية لكل عامليها ومخرجيها . تحية محبة وتقدير على جهودهم الكبيرة في تقديم ما يفيد القارئ العربي . هذه المجلة الجيدة والتي نتمنى لهم ولها عمراً طويلاً» .

■ نشكر الأخ عبد الحكيم على عواطفه الطيبة ونؤكد له بأننا مستمرون في تأدية رسالتنا المتواضعة ما دام لنا أصدقاء ومشجعون مثله .

● **خالد عبد الله البرواري التنجي – نينوي – العراق .**

يشكر جهود جميع المحررين والكتاب في المجلة ، كما يرسل تهانيه الحارة بمناسبة الأعياد ويدعو للمجلة بدوام التقدم والإستمرار سنة بعد سنة وقرناً بعد قرن !

■ **ونحن بدورنا نشكر للأخ خالد عواطفه الطيبة النبيلة ونؤكد له بأننا سنستمر في جهودنا لخدمة القارئ العربي في جميع أنحاء الوطن .**

● **جرجيس عبد الله سليم – نينوي – العراق .**

تهنئة أخرى من الأخ جرجيس بمناسبة الأعياد ورأس السنة وتمنياته الطيبة للمجلة وللعاملين فيها .

■ **شكراً مرة أخرى يا أخ جرجيس على تمنياتك الطيبة ونأمل أن نكون دائماً في مستوى المهمة الصعبة التي نحمل اعباءها .**

● **محمد أسامة حلباوي – دمشق – سورية .**

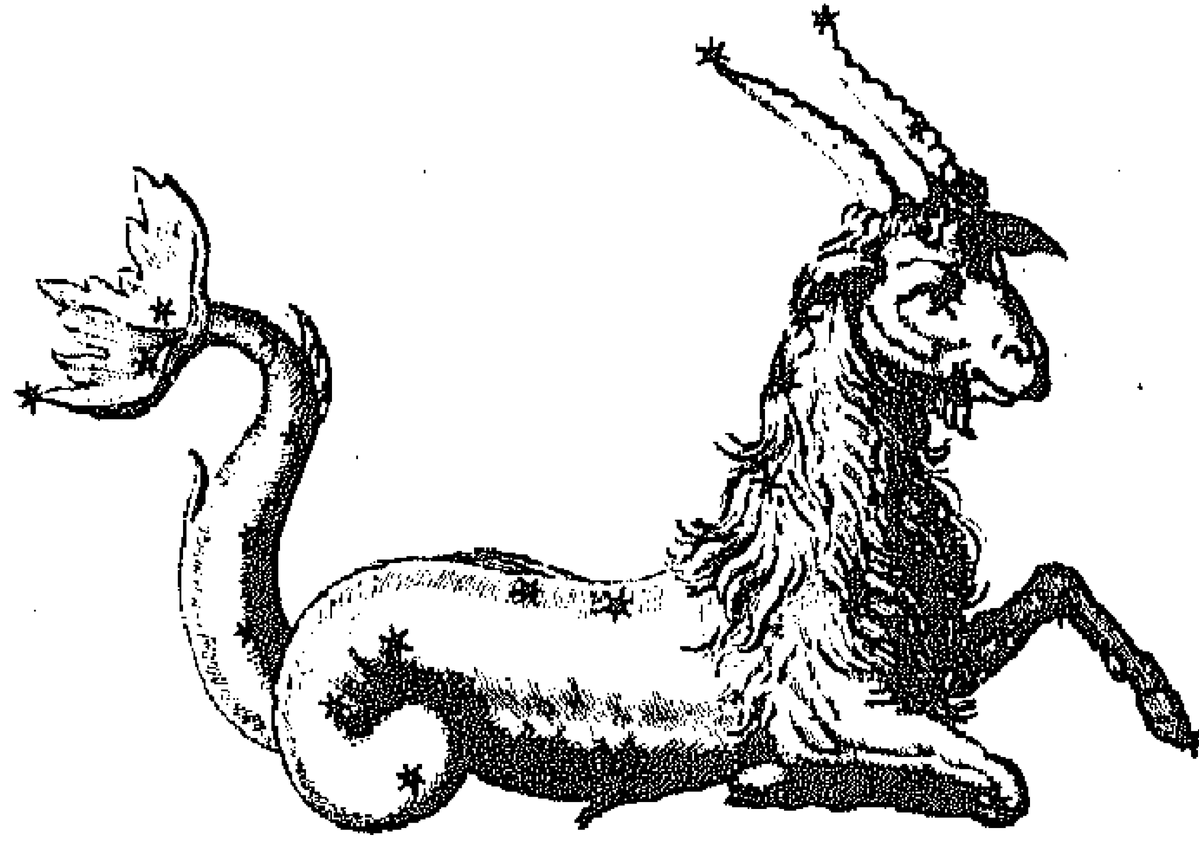
يهنئ أسرة المجلة على جهودهم لاخراج المجلة بهذه الحلة الجذابة ويطلب ارسال اعداد تنقصه . نشكر لكم عواطفكم ، أما بصدد ما ينقصكم من أعداد فنرجو ارسال ثمنها ، كما هو على الغلاف ، فنرسل لكم ما تطلبونه لاكمال مجموعتكم .

تاريخ البروج

منى تنير

برج الجدي

٢٣ ديسمبر/ كانون الأول - ١٩ يناير / كانون الثاني



يرمز إلى برج الجدي بصورة الجدي ولكن نصفه الأسفل هو على شكل ذنب السمكة . وهذا هو الرسم الحقيقي للنجوم التي تكون برج الجدي .

يعرف هذا البرج في أساطير الشرق القديم بأنه «باب الآلهة» من حيث تدخل أرواح الرجال لتنتقل إلى السماء وهو البرج المقابل لبرج السرطان الذي يعرف بأنه «باب الرجال» .

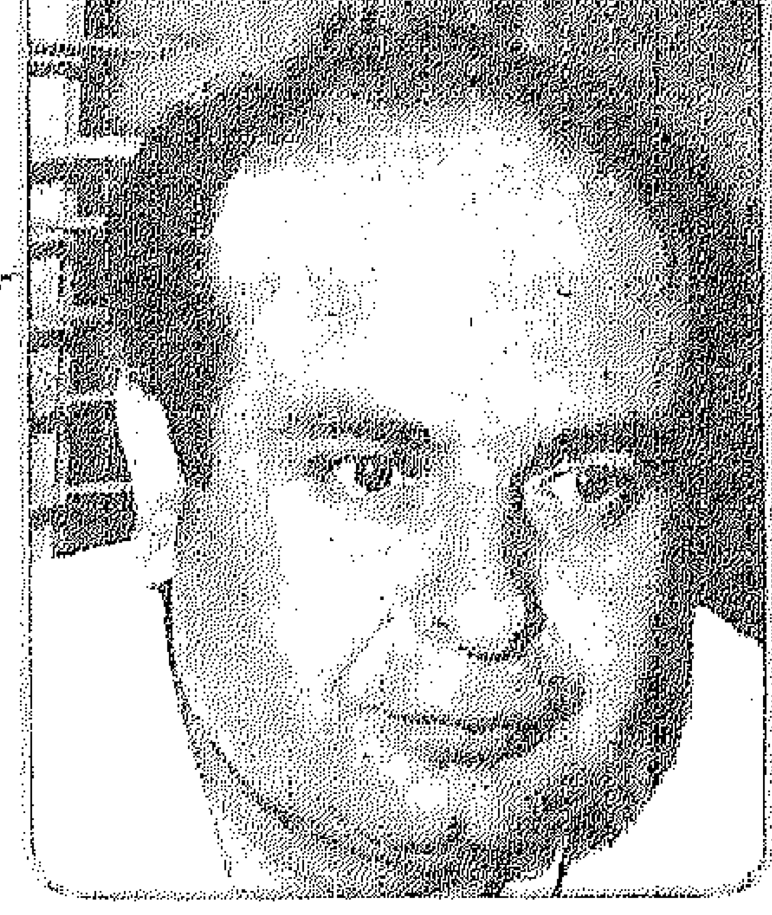
مواليد هذا البرج متناقضون في حياتهم وعملهم عموماً من غير أن يعني ذلك أنهم فاشلون أو مترددون . فهم يتحلون بالمسؤولية والإنضباط وأحياناً كثيرة يميلون إلى النشاط البراغماتي العملي غير المدروس من جميع جوانبه . طموحهم الوصول إلى أعلى منصب في سلم الوظائف . فهاجسهم التقدم في مجالي العمل والحياة بأي ثم ولكن بصبر وبتؤده وبعد التفكير والتدقيق بكل خطوة ينوون القيام بها على المدى القريب . وهذا ما يمنعهم من الوصول بسرعة إلى تحقيق طموحاتهم التي يحلمون بها ليلاً نهاراً . يبحثون عن الإستقرار في مجال أعمالهم وهو ما يتناقض مع طبيعة هذه الأعمال . لذلك يمر مواليد هذا البرج بفترات عصبية حادة نتيجة هذا التناقض .

من الناحية العاطفية ينجح مواليد هذا البرج عادة في حياتهم الزوجية والإجتماعية لأنهم يتصفون في معظم الأحيان بالهدوء والروية على الصعيد العاطفي . حتى إزاء أكثر المواقف تعقيداً وحدّة . وهم إجمالاً لا يخلصون لشريك حياتهم تحت كل الظروف .

إستناداً إلى أبحاث العلماء فإن برج الجدي له تأثير مباشر في الجلد والعظام .

من الشخصيات العالمية المشهورة في التاريخ القديم والحديث والمولودة تحت برج الجدي نذكر :

عالم الكهرباء الأميركي بنجامين فرانكلين - الممثلة الأميركية/آفا غاردنر - القديسة البطلة الفرنسية جان دارك - ماوتسي تونغ - عالم الفيزياء الانكليزي نيوتخا - عالم البيولوجيا الفرنسي لويس باستور - الممثل الأميركي غاري غرانت - الأديب الأميركي ادغار ألن بو - الرئيس الأميركي الـ ٢٨ وودرو ويلسون (١٩١٣ - ١٩٢١) - محمد علي كلاي - ألفيس برسلي - ريتشارد نيكسون - ستالين - آل كابوني وأنور السادات .



رأي حر

الدكتور أنيس صايغ

الفكرة لرئيس التحرير، واحدة من مشاريعه الكثيرة لتطوير «تاريخ العرب والعالم» بعد أن طوت سنتها الأولى. وكالعادة، يلبي الأصدقاء والزملاء دعوته لهم بأن تُخصَّص صفحة يتناوبون فيها على تسجيل خواطرهم، سريعة ومقتضبة، ككتّاب لهم تجاربهم وأفكارهم وآراؤهم في علم التاريخ، تدريساً أو تأليفاً.

لكن رئيس التحرير يريدها الصفحة الأولى من المجلة، وهم يريدونها الصفحة الأخيرة. وبين الأولى والأخيرة، في العدد الواحد، مسافة طويلة، تتعدّى التسعين أو المئة صفحة التي يحتويها العدد.

هو يريدها الصفحة الأولى أحتراماً منه لكتّابه المختارين وتكريماً، وهم يريدونها الصفحة الأخيرة تواضعاً واعترافاً به رباناً لباخرةٍ يلازم المقدمة في كل الأحوال.

أو لعل هناك أسباباً أخرى، له ولهم؟!

ألا يعني استيلاء الكتّاب على مقدمة المجلة – هم يقولون بخبث – إراحة رئيس التحرير من مهمة كتابة الافتتاحية؟ وكتابة الافتتاحية همٌّ يحمله أي رئيس تحرير طيلة الشهر في صحوه ومنامه. إذ عليه أن يقول أكثر ما يجب أن يقوله من كلام في أقصر مسافة ممكنة. وعليه أن يقول كل شيء وبالتالي يجب ألا يخصّ بكلامه موضوعاً واحداً. وعليه أن يحيط بحديثه مقالات العدد كلها دون أن يحابي مقالاً أو يتجاهل مقالاً. بعبارة أخرى، تفوق صعوبة كتابة صفحة الافتتاحية أحياناً إعداد العدد بكامله.

ويرد رئيس تحريرنا – بخبث مماثل لهم: ألا يعني تأخير خواطر مؤرخيه وأساتذته الكبار إلى آخر المجلة إتاحة لهم للتأخير في تقديم هذه الخواطر إلى أطول وقت ممكن؟ فهو يعلم – الخبرة علّمته ذلك جيداً – أن الكاتب – كل كاتب – يريد من المحرر أن يماطله إلى آخر لحظة. بل أن الكاتب – كل كاتب – يريد من محرر المجلة – أية مجلة – أن يستنبط محاولة توفّق بين نقيضين: يريد الكاتب ان يقدّم مقاله، زمنياً، بعد زملائه، ومن جهة أخرى يريد لمقاله عناية قبل زملائه. وبكلام آخر: يريد الكاتب من المحرر محاولة خاصة، أو قل وضعاً خاصاً مميزاً مثل تلك الأوضاع التي حدثنا التاريخ أن الدول كانت تطالب بها لرعاياها وللطوائف المحسوبة عليها أيام الامبراطورية العثمانية. فكيف يصحّ، بل وكيف يمكن، للمحرر أن يمنح هذا الوضع الخاص لكاتب ما وهو يعلم أن كل كاتب يطالب به؟!

إذن أين نكتب هذه الخواطر المقترحة والتي تأمل مجلة «تاريخ العرب والعالم» إن تكون واحدة من تقدماتها الجديدة إلى قارئها في عامها الثاني؟

كان اقتراحي المتواضع، حلاً لهذا الإشكال، وبصفتي مستشاراً للمجلة [المشورة الجيدة يعود ثوابها إلى رئيس التحرير الذي يعمل بها، والمشورة السيئة يعود الطعن بها عليّ لأني أنا الذي أسديتها!] أن نلغي هذا الاقتراح: أن نسدّ الباب قبل أن نفتحه. لكن يبدو أن لا رئيس التحرير ولا كتّابه أعجبهم اقتراحي. وأريد الفهم كلهم اتفقوا أن أكون أنا البادئ.

شيءٌ وحيد أودّ أن أعد به القارئ وأؤكد عليه: مهما كانت المشورة التي أقدمها للمجلة ولرئيس تحريرها، فإنني أجزم بأن «تاريخ العرب والعالم» ماضية في تلبية رغبات قرائها وحاجاتهم ضمن تخصصها والتزامها وإمكاناتها، وأنها تسير بخطى ثابتة نحو الأفضل. لكن شرط نجاحها في ذلك مرهون بمدى تقبلّ القارئ لها واتصاله بها. فكلما لاحقها القارئ، وطالبها، أصبحت هي أكثر قدرة على أداء مهمتّها.

لا ننسى، أخيراً، أن للقارئ في هذه المجلة الفتية أكثر مما لفاروق البربير. فالقارئ هو الذي يملكها. أما فاروق البربير فهو الذي يديرها ويحررها، فقط. ■





السنة الثانية ـ العدد السادس عشر ـ شباط (فبراير) ١٩٨٠

مجلة شهرية مصورة تبحث في التا

الكويت



فرسان شارلمان في المعركة

تاريخ العرب والعالم

مجلة شهرية مصورة تبحث في التاريخ العربي

السنة الثانية
العدد السادس عشر
شباط (فبراير) ١٩٨٠م.
ربيع الأول ١٤٠٠هـ.

تصدر عن دار النشر العربية في منتصف كل شهر

رئيس التحرير: فاروق البربير
المستشار: د. أنيس صايغ

المدير المسؤول: محمد مشموشي

ص. ب: ٥٩٠٥ - بيروت، لبنان
بناية أبو هليل - شقة ١١
شارع السادات - تلفون: ٨٠٠٧٨٣

الإعلانات
تتم: الشركة العربية لإنماء الإعلان
ص. ب: ١١/٦٨٨ - بيروت، لبنان

الإنتاج:
مطبعة المتوسط ش.م.ل.

التوزيع:
الشركة اللبنانية لتوزيع الصحف والمطبوعات

ثمن النسخة

لبنان:	٤ ل.ل.	سوريا:	٦ ل.س
العراق:	٧٠٠ فلس	ليبيا:	٨٠٠ درهم
السعودية:	٧ ريال	الكويت:	٥٠٠ فلس
الاردن:	٥٠٠ فلس	أبوظبي:	٨ درهم
دبي:	٨ درهم	قطر:	٧ ريال
البحرين:	٧٠٠ فلس	المغرب:	٥ درهم
مسقط:	٨٠٠ بيزة	بريطانيا:	جنيه استرليني

الإشتراكات

في لبنان	٥٠ ل.ل
المؤسسات والدوائر الحكومية	١٥٠ ل.ل
في الدول العربية	٧٥ ل.ل
في أفريقيا وأوروبا	١٠٠ ل.ل
دول العالم الأخرى	١٥٠ ل.ل
المؤسسات والدوائر الحكومية في العالم العربي	٢٠٠ ل.ل

HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD

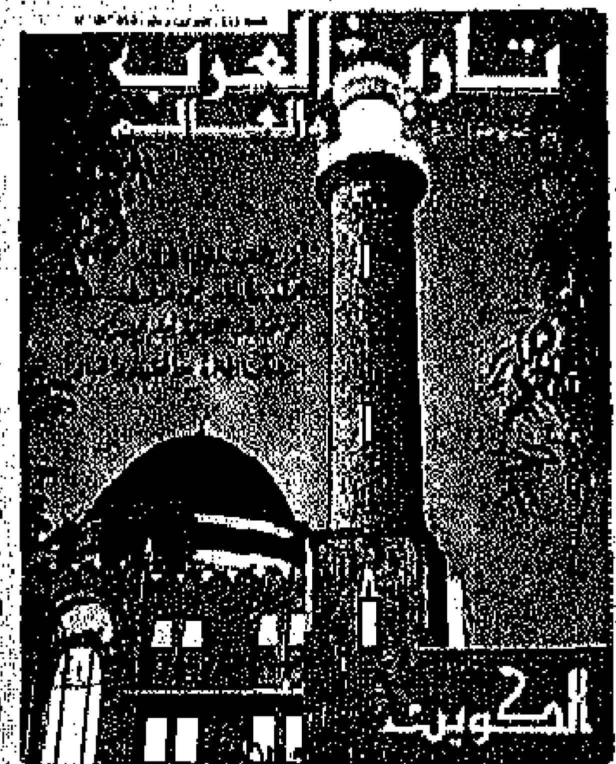
EDITED BY FARUK BARBIR
A MONTHLY ILLUSTRATED
MAGAZINE PUBLISHED FROM
SADATE ST. ABOU HLEIL
BLG. P.O.B. 5905
Tel.800783
BEIRUT, LEBANON

VOL. 11
No. 16, Feb 1980
PRICE : 4 L.L.
ANNUAL SUBSCRIPTION
$ 75 IN NON-ARABIC
SPEAKING COUNTRIES

في هذا العدد

● المقالات الواردة توزّع حسب التبويب الفني للمجلة. ولا علاقة لذلك بمكانة الكاتب. مع حفظ المكانة الاجتماعية للكتاب. تراعى في الألقاب الصفات العلمية فقط.

الموضوع — الصفحة



جامع الأحمدي.
من روائع الكويت الحضارية.
(راجع المقالة ص ٤٤).

● المقالات والدراسات تُرسَل باسم رئيس التحرير على عنوان المجلة: ص.ب ٥٩٠٥ في بيروت.

● المقالات والدراسات التي تُنشَر لا تعبّر بالضرورة عن آراء المجلة.

● المواد الواردة إلى المجلة لا تُردّ إذا لم تنشر.

بواكير الصليبيات الغربية

في حملة شارلمان على سرقسطة

د. ابراهيم بيضون



النقلة الخطيرة في تاريخ الاندلس :

اتخذت العلاقات العربية — الفرنجية في أوروبا بعد موت هشام بن عبد الملك مساراً جديداً ، يختلف في مجمل نواحيه عن الحقبة السابقة ذات البعد التوسعي الواضح . فهذا الخليفة مثّل آخر الكبار الذين عرفتهم دولة الأمويين وارتبطت بهم شخصيتها السياسية والعسكرية إلى حد كبير. وكانت لهشام جهوده المخلصة في محاولة انقاذ الدولة وترميم مؤسساتها المنهارة ، واطفاء نار الخلافات الحزبية المستعرة في مختلف الأقاليم . غير أن ذلك لم يؤد إلى أكثر من تجميد الأوضاع وتأخير عملية السقوط المرتقبة لبضعة أعوام فقط .

ولقد نالت الولاية العربية في اسبانيا نصيبها من اهتمام هذا الخليفة ، سواء في معالجة النزاعات الداخلية ، أم في احياء خطة الفتح في أوروبا . ولكن حال اسبانيا كان عائقاً في وجه أية فكرة توسعية ، فهي تشبه إلى حدّ كبير آنذاك الولاية الشرقية النائية خراسان التي كانت أيضاً مسرحاً لمشاحنات حزبية خطيرة ، ومركزاً لنشاط الدعاة الذين يبثون أفكارهم المعادية للدولة في السرّ والجهر. ولم تكن اسبانيا بعيدة عن هذا المناخ السياسي ، مع فارق واحد هو أن خلافاتها كانت محلية ومحدودة الآفاق ، بينما كان تقويض الخلافة في خراسان الهدف الرئيسي للتحركات الحزبية هناك .

وهنا يظهر العامل الجغرافي ليلعب دوراً خاصاً في أحداث الولايتين ، حيث كان لبعدهما عن مركز الحكم أثر كبير في أضعاف سلطة الدولة ومراقبتها ، بل

وغيابها تماماً في بعض الأحيان.

وبعد موت هشام (١٢٥/٧٤٣) ساءت الأحوال كثيراً بعد أن تسلّم الحكم في دمشق خلفاء غير اكفياء، انعكست ممارساتهم اللامسؤولة على مجريات الأمور في الدولة، والتي وصلت إلى حد دخولهم اطرافاً في المشاحنات الحزبية القائمة، وكانت الاندلس ربما أكثر من غيرها عرضة لهذا الواقع المرير. لقد هوت في خضم التنازع القبلي والحزبي على نحو صرفها تماماً عن الاهتمام بغير ذلك. فكلما غاب أمير وجاء آخر، كان شبح الحرب الأهلية حاضراً بصورة دائمة على المسرح السياسي. وليس أدلّ على ما وصلت اليه هيبة الحكم من تعثر وانهيار، من ذلك التجزيء لمنصب الامارة، حيث صار يتقاسمها اثنان بعد موت هشام، أحدهما له السلطة الفعلية والآخر يمتلك منها الاسم والجاه فقط[1].

وليست الغاية هنا الدخول في سرد التفصيلات التي جرت في تلك الفترة ورافقت سقوط دولة الأمويين. وإنما هي محاولة للاجتياز إلى تلك النقلة الخطيرة في تاريخ الاندلس التي اسفرت عن ظهور شخصيتها الحضارية المميزة في العالم الوسيط. فالدولة الأموية صاحبة السيادة على الاندلس زالت نهائياً من الوجود (٧٥٠م) بعد نجاح ثورة العباسيين، التي انطلقت من خراسان تحت شعار تصحيح الأوضاع السائدة والمساواة وانصاف المظلومين. غير ان هذه الشعارات ظلت رموزاً فارغة من أي محتوى، واقتصرت الثورة الجديدة على اسقاط اسرة والاتيان بأسرة ثانية لا تختلف عن سابقتها إلا من حيث الطابع الاسلامي العام والنظرة المختلفة في التعامل مع الفئات غير العربية التي نفذت لأول مرة إلى واجهة السلطة.

وكان للعامل الجغرافي اثره مرة أخرى في بقاء الأندلس خارج اطار الدولة العباسية التي ورثت كل ممتلكات الدولة السابقة بإستثناء هذا الاقليم الذي قدر له أن يخرج من دائرة النفوذ العباسي في قبضة الأمويين.

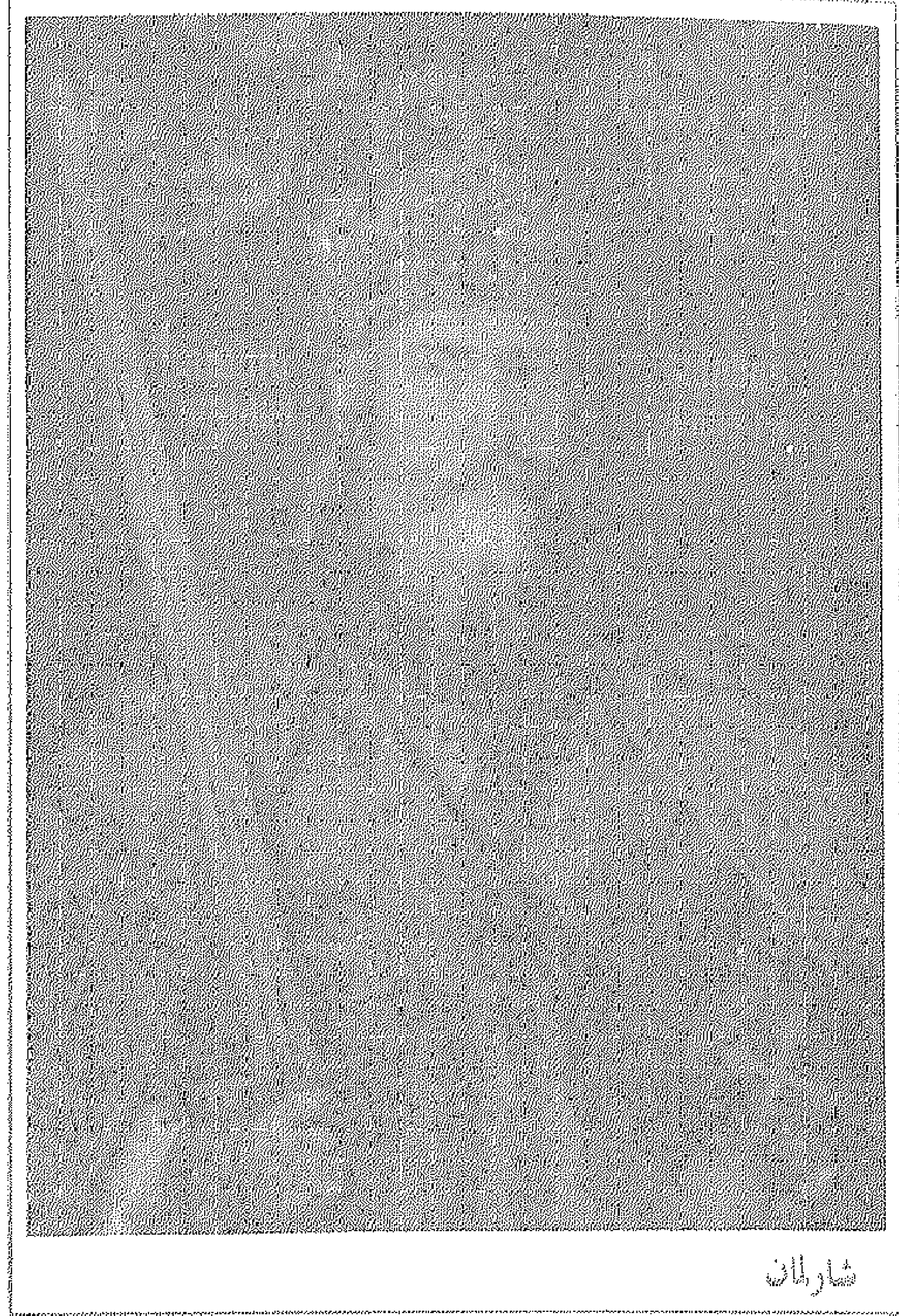
وفي تلك الأثناء كان الحزب الأموي وانصاره يتعرضون لهجمة انتقامية شرسة على يد العباسيين الذين أرادوا اجتثاث الأسرة الأموية من الوجود. فكانت تلك المجزرة الشهيرة عند (أبي فطرس)[2] التي توجت احقادهم. فقضت على ما تبقى من هذه الأسرة من الناجين من معركة الزاب الفاصلة. ولكن واحداً كان على موعد مع الحظ، استطاع أن ينجو بنفسه ومعه ابنه الصغير وخادم أمين (بدر)، متخذاً طريق الشمال الأفريقي حيث وصل بعد مطاردة صعبة من جانب العباسيين، واستراح هناك بين اقاربه واخواله من البربر، ملتقطاً أنفاسه إلى حين ليقرر بعدها أي طريق يفضي إليه.

كان ذلك هو عبد الرحمن بن معاوية. حفيد الخليفة الأسبق هشام. وكان في الحادية والعشرين من العمر، مشعاً بالذكاء والفطنة، ممتلئاً بالحماسة والشجاعة والطموح، وتلك صفات تؤهل حاملها للحكم والسلطان. وهذا ما حصل فعلاً، لأن هذا الرجل الذي نجا من الموت باعجوبة، لم يفرّ من أجل السلامة والإستقرار كأي رجل عادي، وإنما تحركت فيه احلام السلطة وعلو الشأن. وما كانت افريقية على بعدها عن مركز الحكم العباسي تملأ طموحه الكبير.. وحتى لو اراد ذلك لحالت دون ارادته صعوبات وعراقيل، لأن هذه الولاية التي نالت شيئاً من الاستقلال في ذلك الحين لم تكن مؤهلة للقبول بهذا المغامر الشاب ليكون حاكماً عليها. لذلك كان عليه أن يأتي بتفكيره إلى مكان آخر غير افريقية.

وكانت الأندلس تمزقها الحرب الأهلية في ذلك الوقت كما اسلفنا، وكان من العسير جداً الاتفاق على زعيم هناك، فتوجه بطموحه إلى هذا الاقليم — وكانت اخباره المثيرة تصل إليه تباعاً — وأرسل مساعده للإتصال بزعماء الحزب الشامي الموالين للبيت الأموي. ولم تلبث الأنباء السارة أن جاءته وهو على الطرف الآخر من المضيق، فأبحر مع عدد من مؤيديه إلى البرّ الاسباني (٧٥٥م). وفي مدى عام واحد فقط كان عبد الرحمن الذي سيعرف بـ (الداخل) الحاكم المطلق في اسبانيا. وكان «دخوله» المفاجئ قد أذهل الناس الذين أخذوا بجرأته ووجدوا في شخصيته طرازاً جديداً في الزعامة السياسية سيطبع الأندلس بسمات جديدة وسيتيح للأمويين أن لا يغيبوا عن الحكم لمدة ثلاثة قرون لاحقة.

بين شارلمان والداخل:

من المصادفات المثيرة في تاريخ العلاقات بين اسبانيا العربية ومملكة الفرنجة ان يتقلد الحكم في كل منها وبصورة متكررة تقريباً، رجلان تجمع بينهما كل



شارلمان

مواصفات الزعامة السياسية والعسكرية .. وذلك الحماس الملتهب في الدفاع عن الوجود .. وعن العقيدة. فكما أحبط (مارتل) مشاريع الغافقي في أوروبا ووقف كالجدار الحديدي أمام اكتساح العرب لفرنسا ، قدر لعبد الرحمن الداخل مناجزة شارلمان – حفيد شارل مارتل وأعظم شخصيات الأسرة الكارولنجية ، فقد تولى هذا الملك الحكم بعد والده (بيان) وورث عنه تلك العلاقة الودية مع الكنيسة ، التي قدرت بإعجاب مواقف الكارولنجيين في انقاذ المسيحية من خطر الاسلام ، وفي التبشير لها بين القبائل الوثنية الأوروبية بحد السيف . وقد أفادت هذه العلاقة شارلمان كثيراً ، فاستغلها لتحقيق طموحاته في السيطرة على أوروبا ومحاولة بعث الامبراطورية الرومانية القديمة من جديد في اطار المسيحية ، ومن هنا كانت تحركاته العسكرية في ايطاليا وقضاؤه على اللمبارديين . وعلاقات العداوة التي اشهرها ضد العرب في اسبانيا والعمل على طردهم منها . وهي جهود وظفها أخيراً في سبيل بلوغ الهدف الذي تطلع إليه ، بأنه حامي البابوية في روما التي اعترفت به أمبراطوراً رومانياً مقدساً في وقت لاحق.

ولا بد من الاعتراف أن دولة الفرنجة في عهد شارلمان أصبحت القوة الرئيسية للمسيحية آنذاك وكان في وسعها الأدعاء بأنها وريثة الرومان وحامية المسيحية خصوصاً بعد تردي العلاقة بين البابوية وبين الدولة البيزنطية التي ابتعدت كثيراً في ذلك الحين عن الخط البابوي . وهذا الموقع الذي اكسبه شارلمان لدولته اقترن بإلتزامات كان لا بد أن يؤديها للبابوية التي كان أشدّ ما يثيرها نمو القوة الإسلامية في الأندلس ونجاح عبد الرحمن الداخل في توطيد حكمه ، بعد أن تخلص من كافة الخصوم والمنافسين من زعماء القبائل هناك ، باستثناء جيوب ظلت تقاوم الشكل الجديد والموحد للاندلس الذي فرضه عبد الرحمن .

واتيحت الفرصة لشارلمان للاستفادة من تمرد هذه الجيوب ، لشن هجوم على العرب المسلمين وطردهم من اسبانيا ، وهو قرار لم يغب عن زعماء العرب هناك ، ولكنهم شغلوا بخلافاتهم عن مواجهة هذا الخطر الذي تجسد بصورة خاصة في عهد شارلمان . حتى أن الأمر ، وصل ببعض الذين تمردوا على الأمير الأموي إلى الاتصال بالملك الفرنجي ودعوته إلى دخول البلاد لطرد الأمير المغتصب للحكم على حد تعبيرهم .

فبعد عام واحد من سيطرة عبد الرحمن على السلطة في الاندلس خاض ثورة في الشمال على يد زعيمي برشلونه وسرقسطة[٣] ضد الأمير الأموي المنهمك حينذاك في اخماد ثورة أخرى في الجنوب[٤] . فأرسل أحد قواده لاخضاع ثورة الشمال ولكنه هزم أمام حاكم برشلونة . فأدى ذلك إلى تعقيد الأمور خاصة وأن المتمردين قد وصلوا إلى نقطة اللارجوع في مخاصمتهم لعبد الرحمن ، وكانوا على معرفة تامة بشخصيته التي لا تغفر مثل هذه المواقف مهما طال الزمن . وليقينهم ان هذا الأخير سيقضي عليهم عند أقرب فرصة ، سارعوا إلى الاتصال بشارلمان وطلب المساعدة منه . ومن المرجح ان حاكم سرقسطة (Zaragoza) هو الذي وجّه هذه الدعوة[٥] حيث كان على اتصال قديم مع الفرنجة بحكم الموقع الجغرافي لولايته ، ولا ريب ان نوازع الاستقلال والسلطة وربما العصبية اليمنية دفعت إلى التهافت أمام الفرنجة وارتكاب هذا الموقف الخياني.

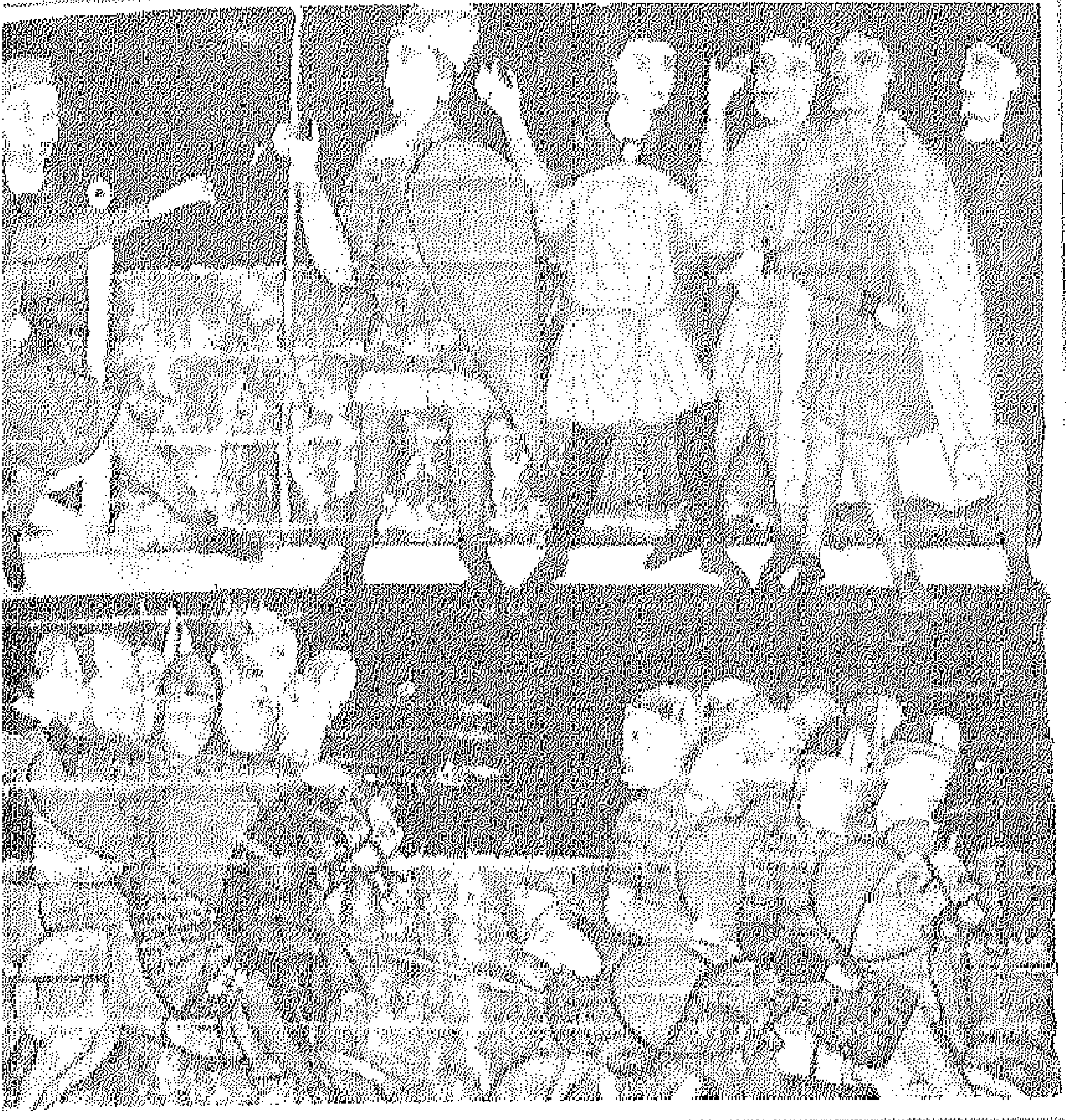
وهذا ما كان ينتظره شارلمان فعلاً ويخطط له ،

وهو جرّ الأندلس إلى الحال الذي كانت عليه قبل مجيء (الداخل) ومن ثم الانقضاض عليها . ولم يلبث أن قام بهجومه المرتقب مجتازاً (البيرينيه) في صيف (٧٧٨م)[٦] ، وفي اعتقاده أن المدن الثائرة ستبادر إلى فتح أبوابها أمام جيوشه . ولكن شيئاً من هذا لم يتم ، فسرعان ما تطورت الأحداث بشكل مفاجئ ورفض المتآمرون المضي بعيداً في هذا الدور الخياني واعتصموا داخل المدن رافضين التخلي عنها . ومن بينهم ابنا الحاكم المتواطئ . ورغم التزام هذا الأخير بموقفه التآمري مع شارلمان إلا انه لم يستطع تقديم أي شيء يذكر له . وانتهى الأمر بتراجع الملك الفرنجي في اعقاب هجوم مضاد عن اسوار سرقسطة ، ولم يجد أمامه سوى الأمير الخائن (سليمان ابن يقظان) فألقى القبض عليه[٧] .

وساعدت الظروف الأمير الأموي عبد الرحمن للتخلص من هذه المحنة بدون خسائر تذكر ، ذلك أن شارلمان اضطر إلى الإنسحاب نهائياً من اسبانيا بعد ابلاغه عن تمرد القبائل السكسونية وسيطرتهم على (كولون) ، وبعد أن أذهله ما رآه من تحول في مواقف المدن الثائرة على نحو لم يكن يتوقعه . فعاد أدراجه يحمل الفشل ويصب غضبه على مدينة (بنبلونه) عاصمة البشكنس[٨] فيدمرها شرّ تدمير[٩] . ولعله أراد من وراء ذلك كشف ممر الرونسيسفال Roncesvalles وتجريده من قوته الدفاعية تمهيداً للعودة من جديد إلى اسبانيا . وتشاء هذه الحادثة أن تلقي عليه فشلاً آخر على يد هؤلاء البشكنس الذين اعدوا له كميناً عند ممر الرونسيسفال في الطرف الغربي من (البيرينيه). وهو من الممرات القديمة في هذه الجبال التي يعود استعمالها إلى أيام الرومان .

انشودة رولان :

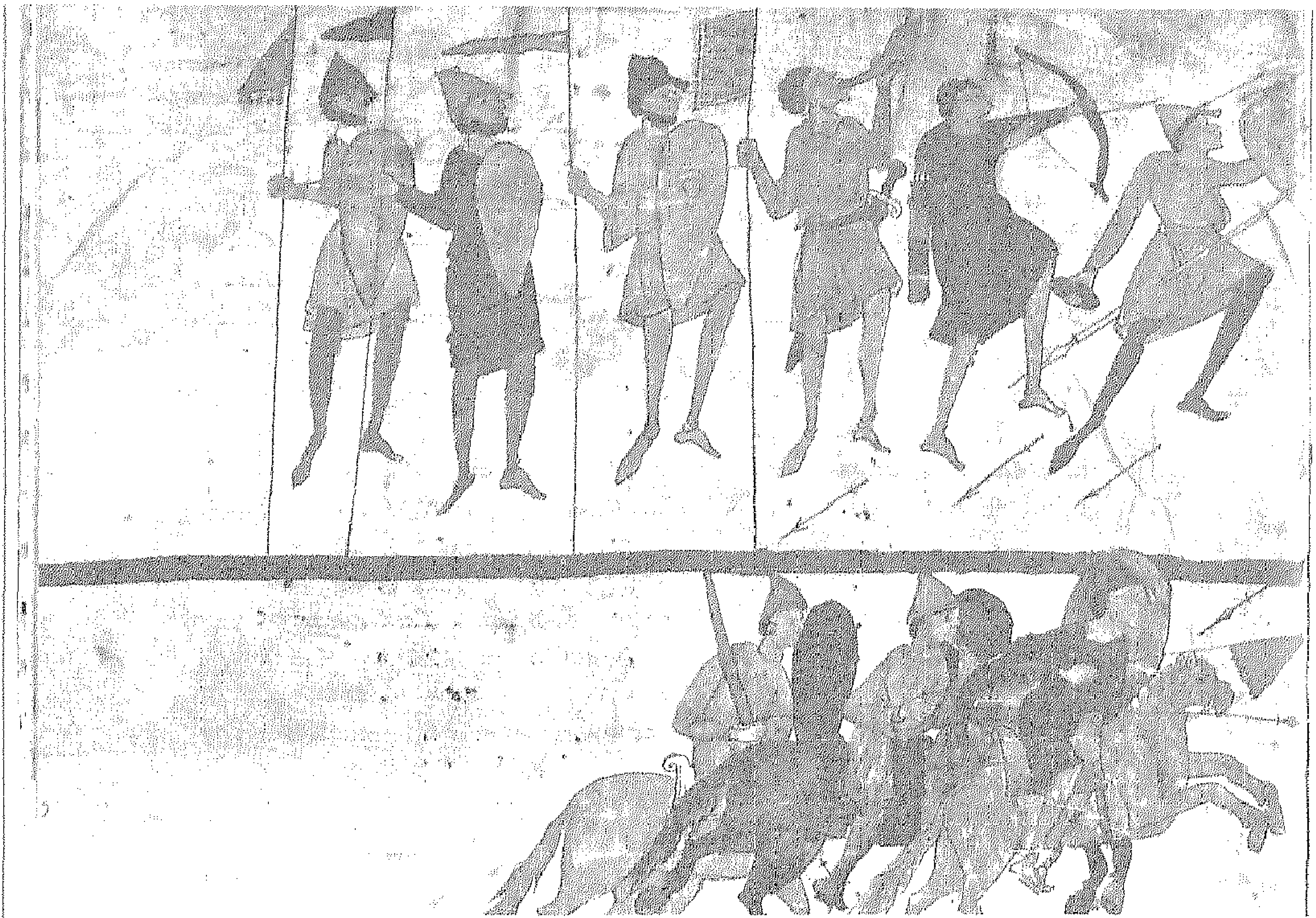
وفي أثناء اجتياز شارلمان مع جنده الشعاب الضيقة ، شنّ البشكنس هجوماً مفاجئاً على مؤخرة الجيش ، وكانت تسير ببطء ملحوظ بسبب طبيعة الأرض الوعرة ، فقضوا عليها تماماً بحيث لم يكد يفلت منها أحد . على أن هنالك من يشكك في انفراد قبائل البشكنس المسيحية بهذا العمل الحربي ، ويعتقد أن وراءه تدبيراً عربياً اعده الأمير الأموي ، معتمدين بذلك على إيحاءات انشودة رولان الشهيرة ، التي المحت إلى الدور العربي البارز في هذا



«سيد» فرنسي يصدر أوامره إلى قائد مجموعة عسكرية .

الهجوم[١٠] ، والذي أدى إلى مصرع أحد أفضل قواد الحملة الشارلمانية . وقد راجت هذه الفكرة خلال القرون التالية ، حيث ظهرت الانشودة لاعطاء مصرع رولان خلفية صليبية وتعبئة الأوروبيين ضد العرب والحث على طردهم من اسبانيا . وسواء كانت للعرب الأندلسيين يد في كمين الرونسيسفال ، أم أن البشكنس وحدهم الذين دبروه بدافع الإنتقام والعداوة التقليدية ضد الفرنجة ، فقد كان ذلك ضربة اليمة على شارلمان وكان أشدها إيلاماً انها أول هزيمة عسكرية في حياته ، ولم يكن مستطاعاً محو آثارها بالسهولة الممكنة .

وبعبارة أخرى فإن هذه الحادثة أصابت كبرياءه العسكري بطعنة قوية واضرت كثيراً بمشاريعه الامبراطورية التي كان يعمل لها بكل تصميم ، وكانت أقصر الطرق اليها بنظره عبر اسبانيا ، فإنصرف منذ ذلك الحين إلى الاكتفاء بإقامة شريط دفاعي ومراكز محصّنة على الحدود لمراقبة تحركات العرب المسلمين . وبذلك انطوى حلمه التوسعي نحو الغرب بصورة نهائية . ذلك ان شارلمان وجد نفسه غارقاً في تسوية مشاكله مع السكسون ومضطراً إلى موادعة الأمير الأموي . ونسمع في هذا المجال عن اتصالات بين الملك والأمير ربما وصلت إلى حد المصاهرة[١١] إلا انها غير مؤكدة . ومن الثابت أن الرجلين شعرا بالحاجة



جنود فرنسيون مع اسلحتهم.



موت رولان
(متحف كوندة - شانتللي)



بقايا جنود شارلمان

للإنصراف عن الحرب إلى أمور داخلية .. فكما تمردت القبائل السكسونية على شارلمان وأجبرته على التراجع عن اسوار سرقسطة لإنقاذ عرشه . كذلك تعرض عبد الرحمن الداخل لمؤمرات من جانب اقاربه من البيت الأموي استهدفت امارته في قرطبة(١٢) . وكان هذا في مصلحة الحكم العربي في اسبانيا الذي قدّر له أن يستمر مطمئناً نحو ثلاثة قرون من الزمن(١٣)

وبهذا المصير الذي آلت اليه حملة شارلمان . تكون أول محاولة منظمة لطرد العرب من اسبانيا قد كتب عليها الفشل . دون أن تحدث أي نوع من التغيير في خارطة المنطقة وبأقل تكاليف من جانب النظام الأموي هناك . ولكن هذه الحملة استغلت فيما بعد لتحريك الشعور الصليبي الأوروبي على أوسع نطاق . مجسداً في انشودة رولان (La chanson de Roland) القائد الذي سقط في الرونسيفسال فأصبحت على كل لسان يتغني بها الشعراء الجوّالون ويضيفون إليها أخباراً تدخل في عالم الأساطير. ومع الزمن ظهر رولان للأوروبيين كأحد الرموز المقدسة في تاريخ العلاقات بين الفرنجة والعرب تتمثل فيها بنظرهم أسمى مراحل التضحية والاستشهاد من أجل العقيدة .

المراجع

(١) د . ماجد : العلاقات بين الشرق — والعرب .
(٢) نهر قرب الرملة في فلسطين .
(٣) تحالف سليمان بن يقظان الكلبي والحسين بن يحيى الانصاري ضد عبد الرحمن الداخل .
(٤) قامت هذه الثورة بزعامة رجل من البربر سمى نفسه بالفاطمي وكان مركزها (Santa Maria) .
(٥) ستانلي لين بول : العرب في اسبانيا صفحة ٢٩ .
(٦) Levi — provencal : Histoire de l'Espagne Musulmane I/118
(٧) وايفز : شارلمان ص ١٠١ .
(٨) الباسك
(٩) عنان : دولة الإسلام في الأندلس ١/١٧٦ .
(١٠) أخبار مجموعة ١٩٣
(١١) نفح الطيب ١/١٢٥ .
(١٢) عنان : م س .
(١٣) ستانلي لين بول : م . س .

أسرة بني أبي عقيل في مدينة صور خلال القرن ٥ هـ = ١١م.

د. عمر عبد السلام تدمري



شهد لبنان في تاريخه الوسيط قيام بعض الأسرات الحاكمة في عددٍ من مدنه ، منها أسرة بني عمّار في طرابلس ، وأسرة ابن الشيخ في صيدا ، وأسرة بني أبي عقيل في صور ، وأسرة بني مرداس التي حكمت بعلبك لفترة من الوقت..

وفي هذه الدراسة نؤرّخ لأسرة بني أبي عقيل التي تولّى أبناؤها منصب القضاء في مدينة صور من قِبَل الخليفة الفاطمي ، في العشرينات من القرن الخامس الهجري ، وبالتقريب حول سنة ٤٢٥ هـ ./١٠٣٤ م . إن لم يكن قبل ذلك . ثم استقلّوا بحكمها عن الدولة الفاطمية سنة ٤٥٥ هـ . ، وأقاموا بها إمارة كان نفوذها يشمل ، في بعض الأحيان ، مدينة صيدا في الشمال . أما في الشرق والجنوب فنجهل حدود نفوذها ، إذ أن المصادر التاريخية التي بين أيدينا لم تسعفنا بشيءٍ من ذلك . وامتدّ حكم بني أبي عقيل ، المستقل ، ما ينيف على ربع قرن ، حتى سقط في سنة ٤٨٢ هـ ./١٠٨٩ م . وعادت صور إلى الدولة الفاطمية من جديد .

* * *



إن أقدم تاريخ محدّد لوجود أبناء هذه الأسرة في قضاء صور هو سنة ٤٢٩ هـ ./١٠٣٨ م . فقد جاء في « تاريخ دمشق » (المخطوط) لابن عساكر ، إن أبا مسعود صالح بن أحمد الميانجي قاضي صيدا ، توفي في ١٩ من شهر ربيع الأول سنة ٤٢٩ هـ . فسار القاضي « أبو محمد عبدالله بن علي بن عياض بن أبي عقيل » قاضي صور وأهلها إلى صيدا للصلاة عليه[1] .

ولكن وجود أبناء أبي عقيل في لبنان ، على وجه العموم ، يرقى إلى نحو منتصف القرن الرابع الهجري (حول ٣٥٠ هـ .) ، لأن أبا محمد عبد الله ابن علي أخذ الحديث عن شيخ المحدّثين في مدينة صيدا ومُسْنِدِها الكبير أبي الحسين محمد بن أحمد ابن جُمَيع الصيداوي المتوفي سنة ٤٠٢ هـ[2] .

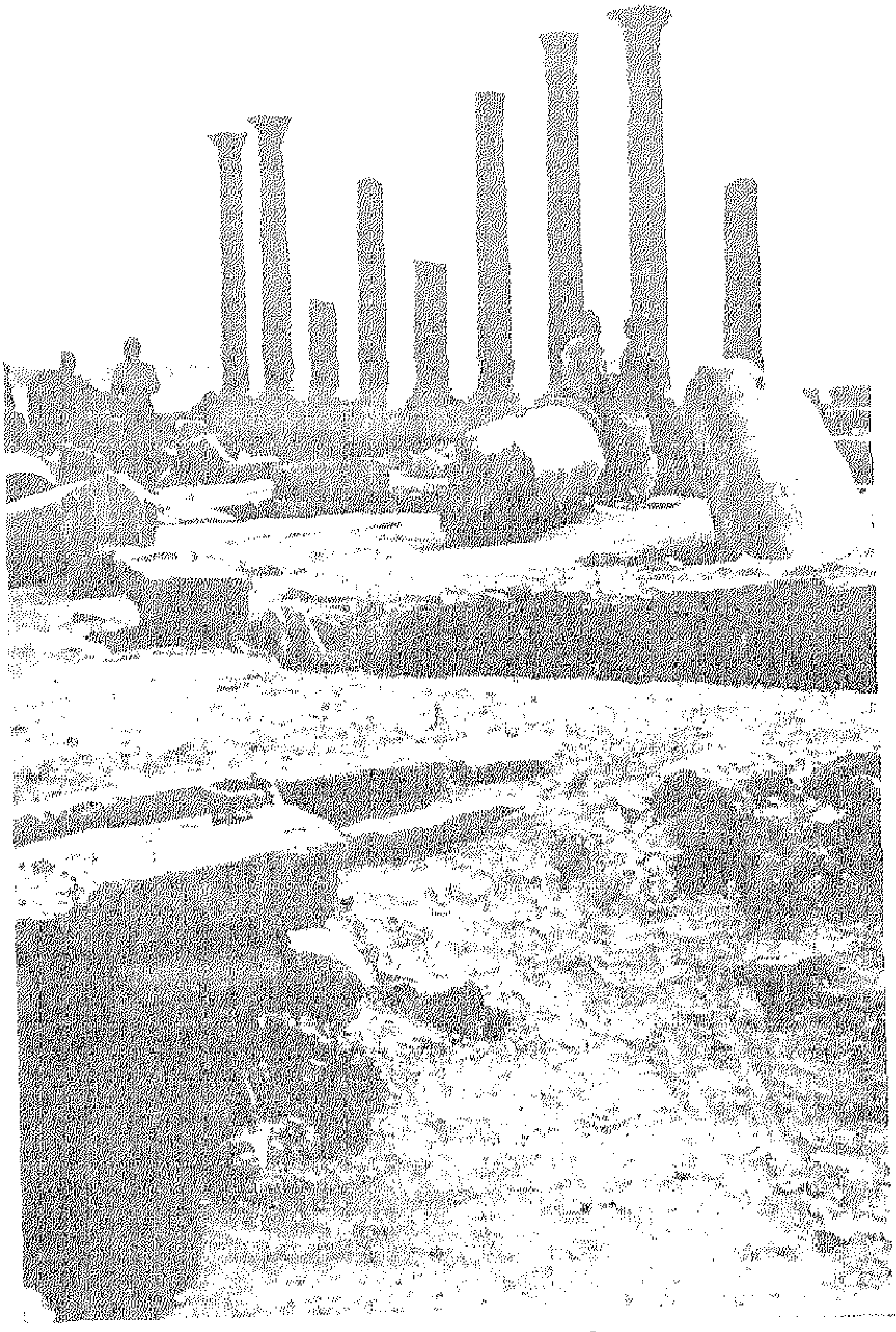
فعلى افتراض أن ابن أبي عقيل أخذ الحديث في السنة التي توفّى فيها ابن جُمَيع ، فإن عمره – على

الأقل – كان بحدود العشر سنوات ، وهو سنّ الطلب المتوسط ، إن لم يكن أكثر من ذلك . وبهذا يمكننا أن نُرجع ولادة عبدالله إلى العشر الأخير من القرن الرابع الهجري . فإذا عرفنا أنه توفي سنة ٤٥٠ هـ . فإنه يكون قد ناهز الستين سنة . وهو على الأرجح من مواليد صور ، وأغلب الظن أن والده علياً – حاكم صور وقاضيها – وُلد فيها أيضاً ، لأنه يروى عن « أحمد بن عطاء الروذباري » الصوفي نزيل صور والمتوفي بها أواخر سنة ٣٦٩ هـ . ولكن من غير المعروف لدينا تاريخ تولّيه قضاء صور وحكمها . فالذي نعرفه من وُلاة صور قبل بني أبي عقيل هو « الحسين ابن ناصر الدولة بن حمدان » الذي تولى عليها وأقام بها سنة ٣٨٧ هـ .(٣) .

● أما النص التاريخي الثاني الذي أفادنا عن وجود بني أبي عقيل في صور ، فهو النص الفارسي الذي ذكره « ناصر خسرو » في رحلته إلى ساحل لبنان سنة ٤٣٨ هـ ./١٠٤٧ م . حيث يذكر أن قاضي صور كان رجلاً سُنّياً « اسمه ابن أبي عقيل ، وهو رجل طيب وثري .. » .

ولا بأس في ذكر النص كاملاً لأنه يساعد في توضيح الصورة التي كانت عليها مدينة صور في عهد بني أبي عقيل ، وفي القرن الخامس الهجري = الحادي عشر الميلادي :

« .. بلغنا مدينة صور ، وهي ساحلية أيضاً . وقد بُنيت على صخرة امتدّت في الماء ، بحيث أن الجزء الواقع على اليابس من قلعتها لا يزيد على مائة ذراع ، والباقي في ماء البحر . والقلعة مبنيّة بالحجر المنحوت الذي سُدّت فجواته بالقار حتى لا يدخل الماء من خلله . وقد قدّرت المدينة بألف ذراع مربّع . وأربطتها من خمس أو ست طبقات ، وكلها متلاصقة ، وفي كثير منها نافورات . وأسواقها جميلة كثيرة الخيرات . وتُعرف مدينة صور ، بين مدن ساحل الشام ، بالثراء . ومعظم سكانها شيعة . والقاضي هناك رجل سنّي اسمه ابن أبي عقيل ، وهو رجل طيب ثري . وقد بُني على باب المدينة مشهد به كثير من السجاجيد والحصير والقناديل والثريّات المذهّبة والمفضّضة . وصور مشيّدة على مرتفع ، وتأتيها المياه من الجبل . وقد شيد على بابها عقود حجرية ، يُمرُّ



آثار من مدينة صور : أعمدة غرانيتية .

من فوقها إلى المدينة . وفي الجبل وادٍ مقابل لها ، إذا سار السائر فيه ثمانية عشر فرسخاً ناحية المشرق بلغ دمشق »(٤) .

وكما هو واضح فإن ناصرخسرو لم يفصح عن إسم القاضي بل قال إن اسمه « ابن أبي عقيل » . وفي أثناء رحلته كان بصور القاضيان : « علي بن عياض » وابنه « عبدالله بن علي » فأيّهما حاكم المدينة الذي عناه ناصر خسرو ؟

– الأرجح أن حاكم صور هو القاضي : « علي بن عياض بن أحمد بن أيوب ابن أبي عقيل » ، فقد ورد ذكره في حوادث سنة ٤٤٢ هـ ./١٠٥٠ م . وهو يسعى في الصفح عن « ثمال بن صالح بن مرداس » صاحب حلب لدى الخليفة القاطمي المستنصر بالله الذي أنعم عليه بلقب « عين الدولة » مكافأة له على ما بذله في خدمة الخلافة(٥) . ونراه يخلص في النُصح للمؤيّد في الدين ، داعي الدعاة ، « هبة الله بن موسى الشيرازي » الذي كان يقصد قتال « ثمال » ومؤآزرة « ارسلان البساسيري » التركي ، حيث أقنعه بالعدول عن

ذلك[٦]. غير أن «اليازوري» وزير مصر كان يرى ضرورة التخلص من «ثَمَال بن صالح»، ولذلك لجأ إلى «عين الدولة علي بن عياض» قاضي صور، في تنفيذ هذا الأمر.

ولما كان يعزّ على القاضي عين الدولة أن يغدر بصاحبه، فقد نجح في إيجاد حلّ وسطٍ، أخرج به «ثَمَال» من حلب سالماً، ليسير إلى القاهرة، ويقيم هناك في سنة ٤٤٩ هـ./١٠٥٧ م.، وتسلّم حلب والٍ من قِبَل الخليفة المستنصر. وفي ذلك يقول «المقريزي» إن اليازوري «رأى أن الحيلة أبلغ فيما يُؤثره، لأنه إن رام صرفه لم يُطق ذلك، وإن نابذه ألزِم كُلَفاً كثيرة. فاستعمل السياسة والتدبير الخفي، وندب لذلك رجلاً من أهل صور، له بها رئاسة ووجاهة، يقال به: عين الدولة علي ابن عياض، قاضي صور، فساس الأمر، وأحكم التدبير فيما قرّره مع كاتب ثَمَال بن صالح وما وعده به، حتى نزل من قلعة حلب وسلّمها إلى مكين الدولة الحسن بن علي بن ملهم، والي الخليفة المستنصر. وسار من حلب يريد مصر للقاء الحضرة، فلما بلغ رفح اتصل بـه خبر القبض على اليـازوري، فقال: والله إني أموت بحسرة ونظرة إلى مَن استلبني من ذلك المُلك وأخرجني بلا رغبة ولا رهبة إلاّ بحسن السياسة، وإنْ رام ذلك مني فليس يتعذّر عليه»[٧].

* * *

ومما سبق يمكن أن نقرر ما يلي: —

١ — إن عين الدولة علي بن عياض كان الحاكم والقاضي على صور للدولة الفاطمية رغم سنّيته ومخالفته لمذهب الخليفة. وهذه ملحوظة يجدر التوقف عندها، ولها أهمّيتها لدى الباحثين ومؤرّخي الفِرق الدينية.

٢ — إن عبدالله بن علي كان قاضياً ومحدّثاً، وكان يخلفه على الحكم في القضاء أبو محمد عطية الله ابن الحسين الصوري الخطيب المتوفي سنة ٤٤٥ هـ[٨].

٣ — إن علي بن عياض كان على علاقة طيبة مع الخلافة الفاطمية، كما كان شخصية مرموقة ومسموعة الكلمة لدى أمراء الشام.

٤ — إن أسرة بني أبي عقيل كانت أسرة علم وحديث، مُدح أفرادها من شعراء عصرهم.

٥ — إن بين بني أبي عقيل، وبني عمّار في طرابلس عدة قواسم مشتركة تتشابه بها وتتفق معها، سوى أن قُضاة صور كانوا سُنّة، بينما كان قضاة طرابلس شيعة.

● وقد حدث أن تعرّضت طرابلس لحملة بحرية قام بها أسطول بيزنطي مكوّن من ٨٠ قطعة في سنة ٤٤٨ هـ/١٠٥٦ م. وكان جُنْد طرابلس قد خرجوا لقتال البيزنطيين في نواحي أنطاكية، ولم يبق في المدينة سوى عدد قليل من المقاتلة وأهلها، مما دعاهم إلى الاستنجاد بإخوانهم في صور، فأنجدهم قاضيها بإرسال قوات كثيرة، براً وبحراً، أجبرت البيزنطيين على الانسحاب من مياه طرابلس دون تحقيق أهدافهم[٩].

وينفرد «سبط ابن الجوزي» بذكر هذه الحملة، وهو يسمّي قاضي صور «محمد بن عقيل»! وهو — فيما يُحتمل — يقصد «أبا الحسن محمد بن عبد الله بن علي بن أبي عقيل». ولكن هذا لا يتفق مع رواية «المقريزي» السابقة، التي تسمّي «عين الدولة علي بن عياض» رئيساً لصور في سنة ٤٤٩ هـ. أي في السنة التالية للحملة البيزنطية. وهذا قاسم مشترك، آخر، يجمع بين أسرة بني أبي عقيل وبني عمار، في اضطراب وتشويش المصادر التاريخية حول تسلسل أفراد الأسرتين. (أنظر شجرة أنساب بني أبي عقيل).

ومن المصادر التاريخية التي وصلتنا نجد أن عين الدولة علي بن عياض ينتهي ذكره في حوادث سنة ٤٤٩ هـ. فلا نعرف عنه شيئاً بعد ذلك.

أما ابنه، عبد الله، فقد توفي فجأة في الزيب بين عكا وصور في شهر شوال سنة ٤٥٠ هـ. وكان صَدوقاً ثقةً، يلقّب أيضاً عين الدولة. إتصل به المؤرخ الخطيب البغدادي صاحب تاريخ بغداد، وخرّج له فوائد في أربعة أجزاء، وقرأها عليه بصور. وقيل إنه وضع مصنّفاتٍ أخذها الخطيب وادّعاها لنفسه[١٠].

وخلّف عبد الله ولدين هما:

١ — أبو الفرج أحمد، ويعرف بالقاضي. تتلمذ على المؤرّخ الخطيب البغدادي في جامع صور سنة ٤٥٩ هـ[١١].

٢ — أبو الحسن محمد الملقّب أيضاً بـ «عين الدولة». تولّى قضاء صور وحكمها بعد وفاة أبيه سنة ٤٥٠ هـ. واستقل بها عن الدولة الفاطمية في سنة

٤٥٥ هـ.[١٢] وامتدّ نفوذه إلى مدينة صيدا حيث أناب على قضائها «ابن أبي العيش الجمحي الأطرابلسي» المتوفي سنة ٤٦٠ هـ.[١٣] وصفه «ابن الفوطي» بـ: «الأمير صاحب الساحل. كان له الحكم المطاع في جميع بلاد الساحل، وقد خدمه كل رئيس فاضل، وأديب كامل. أنشد في اغتنام الشباب:

أما الشبيبة والنعم فإنني
لم ادر أيهما ألـذّ وأقصر
حتى انقضي عمر الشباب فبان لي
أن الشباب هو النعيم الأكبر
لا تُخدَعَنّ عنه، فبائع ساعةٍ
منه بدنياه جميعاً يخسر

وذكر «ابن النجار» في تاريخه أن عين الدولة أنشد يوماً بيتي أبي إسحاق ابراهيم بن علي الشيرازي، اللذين يقول فيهما:

فاشرب على وجه الحبيب..

ثم قال لغلامه: أحضِرْ هذا الشأن، يعني الشراب، فقد أفتانا به الإمام أبو اسحاق. ولما بلغ ذلك الإمام أبا إسحاق بكى ودعا على نفسه، وقال: ليتني لم أقل هذين البيتين قط»[١٤].

وذكر «المقريزي» ألقابه على هذا النحو: «صمصام الدولة، القاضي الأعزّ الأجلّ، سند الحكّام، جلال الدولة وعمادها، ذو المعالي، صفي أمير المؤمنين، القاضي الناصح، ثقة الثقات، عين الدولة، أبو الحسن..»[١٥]. وهو الذي مدحه «ابن السرّاج أبو محمد جعفر بن أحمد» في «مصارع العشاق» بقصيدة مطلعها:

عرّج بنا عن الحمى يمينا
فقد تولى الحيرة الغادونا[١٦]

وهو الذي اشتكى إليه الشاعر المعروف بـ «ابن حيّوس» في ديوانه، وعاتبه على تصرّف أحد سماسرة دار الوكالة في صور من وقوف بعض تجارته، فقال من قصيدة:

تعمّدني بالجَوْر كي يستفزّني
فلا كان ما يرجو لديّ ولا اشتفا
وسوّفني حيفاً إلى أنْ شكوته
على رأنني لم ألق إلاّ مسوِّفا[١٧]

وقال له في مطلع قصيدة أخرى:

ظلامة مَن أعدَّك للّيالي
ومَن أثنى بفضلك غير آلِ
أيا ثقة الثقات أصِخْ فُواقاً
لتسمع ما يشقُّ على المعالي[١٨]

* * *

كان استقلال محمد بن أبي عقيل في حكم صور سنة ٤٥٥ هـ. فاتحة حركات استقلالية وانفصالية أخرى عن الدولة الفاطمية، فقد استولى القاضي أمين الدولة ابن عمار على طرابلس واستقل بها بُعَيْد سنة ٤٥٧ هـ.[١٩]. وفي سنة ٤٦١ هـ. ثار أهل دمشق على واليها الفاطمي «بدر الجمالي» فأخرج أهله الى صيدا، ثم لحق بهم، وقام بمحاصرة صور أياماً حتى قصده «حيدرة بن منزو الكتامي»، وما أن اقترب منه حتى سار «بدر» الى عكا، وما لبث ابن منزو أن مات وهو عند صور[٢٠].

وتقلبت دمشق في تلك السنة بين «بدر الجمالي» وخصومه عدة مرات، حتى استولى عليها «القفّي مختص بن أبي الجنّ» في سنة ٤٦٢ هـ. وطرد منها نائب أمير الجيوش «بدر الجمالي»، ثم خرج «ناصر الدولة الحسن بن حمدان» في جماعة من قوّاد الأتراك وأمراء مصر على «المستنصر بالله»، وملك الرملة وساحل فلسطين في السنة نفسها. ولم يبق لأمير الجيوش في الشام وفلسطين غير عكا صيدا[٢١].

وإزاء هذا الخطر المحدق بالنفوذ الفاطمي في الشام، قام «بدر الجمالي» على رأس الجيش الفاطمي القادم من مصر بمحاصرة مدينة صور ومضايقتها حتى أضر بأهلها، مما دفع قاضيها أبا الحسن محمد الى مكاتبة الأمير «قرلو» مقدّم الأتراك الواردين من العراق، والمقيمين في بعض نواحي الشام، مستصرخاً له ومستنجداً به، فأجابه الى طلبه، وسار في ستة آلاف فارس – حسب رواية ابن القلانسي – واثني عشر الف فارس – حسب رواية ابن الأثير – فضرب الحصار على مدينة صيدا التابعة لنفوذ «بدر الجمالي» حتى ضيّق على أهلها، ويظهر أن الأتراك نجحوا في دخولها ووضعوا عليها والياً تركياً من قبلهم. وترامت الأخبار الى «بدر الجمالي» وهو لا يزال منازلاً لصور، فخاف أن يحيط به الأتراك، ولذا رفع حصاره ورحل عن صور، بعد أن كان على

قاب قوسين من الأستيلاء عليها ، إذا كان قد نجح في تأليب الكثير من أهلها وعساكرها ، وقويت شوكته بهم ، فقد كان «هرون بن خان التركماني» يقيم في صور ، في ذلك الوقت ، ويعيش في كنف صاحبها عين الدولة محمد بن عبد الله ، الذي أحسن اليه ووصله وأعطى أصحابه الأتراك الغُزّ ، بعد أن تخلّى عنه «محمود المرداسي» صاحب حلب . ولكن ، عندما جاء «بدر الجمالي» يحاصر صور خرج اليه «ابن خان» منحازاً اليه ، ونافق على القاضي عين الدولة ، ولم يحفظ له صنيعه واستضافته عنده ، مما جعل القاضي يُغري اثنين من «الغُزّ» بالمال لقتله ، فقتلاه وحملا رأسه اليه ، فطيف به في أسواق صور في تلك السنة (٤٦٢ هـ) . ونتيجة لهذا الموقف المضطرب ، فارق جماعة من «الغُزّ» مدينة صور ، بعد أن كانوا بخدمة قاضيها ، ولحقوا بـ «بدر الجمالي» .

وما أن انسحب «بدر» من أمام صور ، حتى رحل أصحاب «قرلو» عن صيدا الى داخل الشام ، فعاد «بدر» ونازل صور من جديد وحاصرها براً وبحراً ، وضايقها سنة كاملة ، حتى اشترى اهلها رطل الخبز بنصف دينار ، ورغم ذلك لم يظفر بالاستيلاء عليها[٢٢] . إذ وقع الخلاف بين العناصر التركية في الشام ، فخسر «بدر» حلفاءه «الغُزّ» لانفضاضهم من حوله .

وهكذا انحسر النفوذ الفاطمي عن ساحل لبنان كله لبضع سنين . واستطاع عين الدولة محمد أن يحتفظ بإمارته في صور ، وأن يحافظ على استقلالها عن الدولة الفاطمية ، الى أن توفي بها سنة ٤٦٥ هـ[٢٣] . مخلفاً ثلاثة أبناء وصلتنا أسماؤهم ، وهم :

١ — الحسن

٢ — ابو البركات عبد الرحمن ، المعروف بالقاضي ، وهو الذي صلّى على محمد بن عتيق الصقلّي المقرئ المالكي المتوفي في مستهل رجب ٤٦٨ هـ . ودفن بجوار الجامع المعروف بـ «عتيق» في صور(٢٤) نسبة اليه ، كما نرجح .

٣ — النفيس . وهو الذي استولى على حكم صور بعد وفاة أبيه ، وتصرف في شؤونها مع أخويه . وقد مدحه «ابن السراج» بقصيدة مطلعها :

يـــا هنـــد هـــل وصْلٌ فيُرتقب
إن كـــان يحفظ في الهوى سبب

ومنها :

فوردت بغـــداد وطـــال بهـــا
عهـــدي وحَرك نحوهـــا سبب
وطلبت مثلك يـــا «نفيس» بهـــا
رجلاً ، فـــأعيا عبـــدك الطلب[٢٥]

* * *

وفي عهد «النفيس» تعرّضت صور لحملة قام بها «أتسز بن أوق الخوارزمي التركماني» أحد أمراء السلطان «ملكشاه» السلجوقي ، وكان قد ملك الرملة والقدس ، وحاصر يافا ، فهرب صاحبها «رزين الدولة» ومن كان فيها من أهلها الى صور ، فهدم سورها . (٢٦) وحاصر دمشق في سنة ٤٦٣ هـ . ثم دخلها في أواخر سنة ٤٦٨ هـ . وقطع الخطبة للمستنصر بأمر الله[٢٧] . وبعد أن استقر له الأمر بدمشق خرج منها في جمع عظيم قاصداً الساحل ، فنازل طرابلس في أوائل سنة ٤٦٩ هـ . ولكن صاحبها جلال الملك ابن عمار صدّه عنها ، فتحول الى صور ونازلها ، ولما لم يتمكن من دخولها عقد مع صاحبها «النفيس» هدنة مشروطة بأن يُسمح للغُزّ بدخول صور فيبيعون ويشترون ، ولا يقيمون فيها . (٢٨) وجاء هذا الشرط الذي ينظم العلاقة بين قاضي صور والغُزّ بسبب ما ظهر من خيانتهم في عهد أبيه عين الدولة محمد .

ومن المعتقد أن «أتسز» ركزّ هجومه على طرابلس وصور بالذات مستغلاً قطع العلاقات بين المدينتين ومصر للتضييق عليهما دون عكا التي كانت تتبع لبدر الجمالي وزير مصر مباشرة ، فهو مطمئن إلى أن صاحبي طرابلس وصور لن يتلقيّا مساعدة من مصر أثناء منازلتهما .

ولا شك أن «أتسز» حققّ بعض أهدافه بأن أخذ من طرابلس وصور خفارة ، فاشتريتا منه بالمال بمنح الغُزّ ميزات تجارية حيث تم له فتح أبوابهما للتجارة مع الداخل ، «فكانت الخطبة المصرية بهما لم تتغير ، والغُزّ يدخلون الى صور فيبيعون ويشترون ولا يقيمون فيها . وعلى هذا كانت الهدنة» . (٢٩)

ويرجع عهد دخول الأتراك الغُزّ صور إلى سنة ٤٥٠ هـ . فقد التقى المؤيد هبة الله الشيرازي بكتيبة منهم هناك قادمة من بغداد ، مقاطعة للبساسيري ، وهي بقصد التوجه الى مصر ، في عدة تشتمل على



طرابلس.

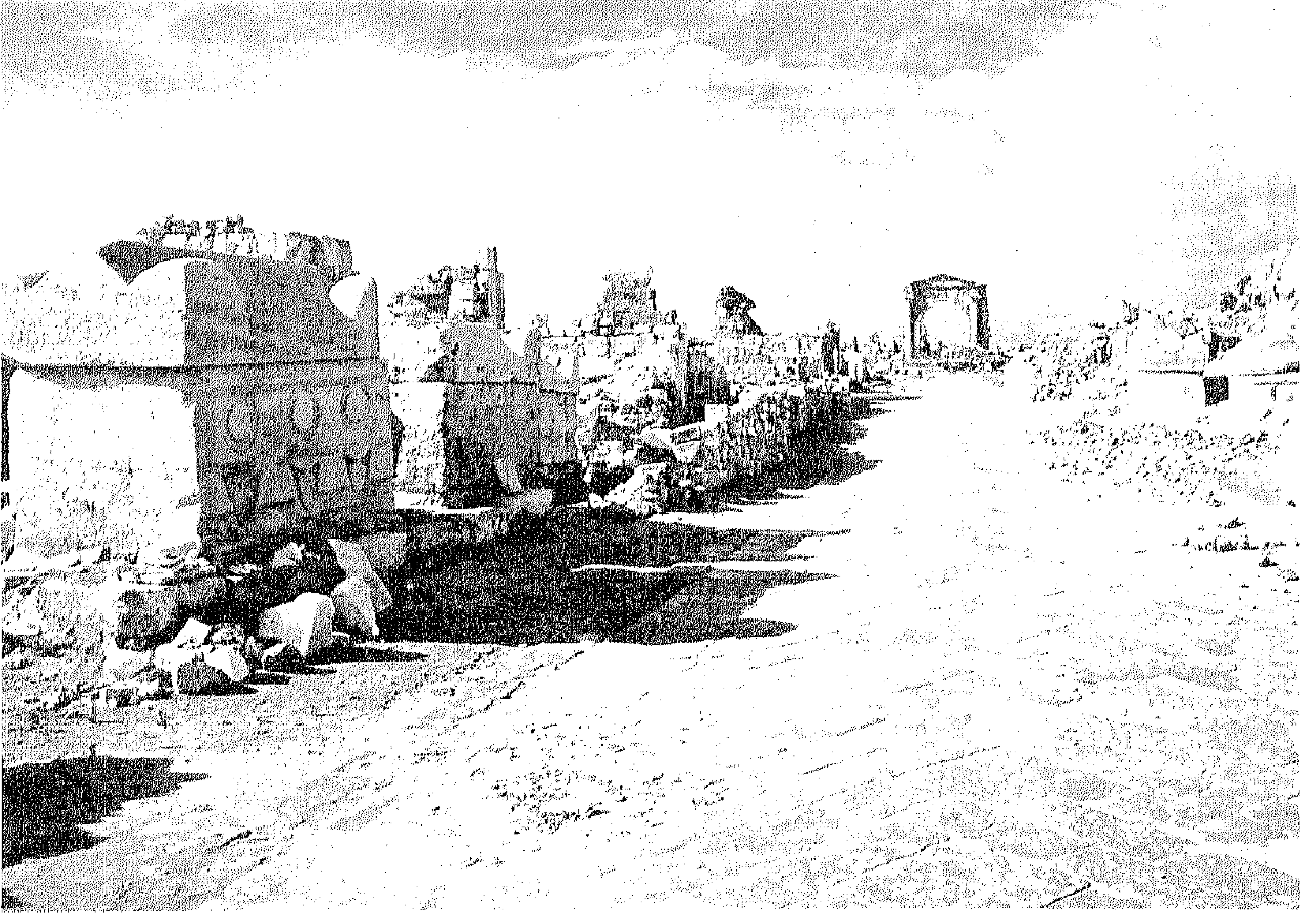
١٣٠ غلاماً، وكان بصحبة المؤيد رجل محتشم من الأتراك أرسله البساسيري رسولاً إلى الخليفة الفاطمي، فبذل المؤيد جهده مع الكتيبة حتى أقنعها بالعودة الى حلب حتى لا يكون أفرادها كَلاً على الخلافة في مصر. (٣٠)

وكان على قاضيي صور وطرابلس أن يتقربا بين الحين والآخر من الأتراك السلاجقة، بعد استفحال خطرهم في بلاد الشام، وليتخذا منهم خلفاء ينصرونهما إذا تعرّضا للحملات الفاطمية، فعمدا إلى مصانعتهم بالهدايا والملاطفات. (٣١) وآتى هذا التقرّب ثماره حيث حافظ القاضيان على استقلال امارتيهما، ونجحا في حماية عاصمتيهما عندما جاء «نصر الدولة الجيوشي» في سنة ٤٧١ هـ. فحاصر دمشق واستولى على أعمالها وأعمال فلسطين، ثم قصد الساحل فامتنعت عليه طرابلس وصور.

وفي سنة ٤٧٥ هـ. قام «شرف الدولة مسلم بن قريش» أحد أمراء السلطان السلجوقي «ملكشاه» بمناورة عند صور أظهر فيها أنه يريد حصارها، ولم يكن ذلك الا ليصرف عنه «تاج الدولة تتش بن ألب أرسلان» أخو ملكشاه، الذي خرج يريد الإيقاع به لأمرٍ بدا منه. ولكنه لم يلحق به عندما علم أنه يريد صور. فلما رجع «تتش» الى دمشق عاد «ابن قريش» الى حمص[٣٢]». وكان من الواضح أن صور لم تغب عن أطماع السلاجقة الأتراك، رغم العلاقات الودية التي كانت تربطهم بقضاتها بني أبي عقيل.

ولبثت صور في يد بني أبي عقيل الى سنة ٤٨٢ هـ. حيث خرج العسكر الفاطمي من مصر مع عدد من المقدّمين، وقصد ساحل لبنان ففتح ثغور صيدا وجبيل، وفي ذلك يقول «ابن القلانسي»:

«وفيها (٤٨٢ هـ. ١٠٨٩ م.) خرج عسكر مصر منها مع مقدميه وقصد الساحل وفتح ثغري صور وصيدا، وكان في صور أولاد القاضي عين الدولة ابن أبي عقيل بعد موته، ولم يكن قوة لهم تدفع ولا هيبة تمنع، فسلموها، وكذلك صيدا، وقرّروا أمرهما، ثم رحل العسكر عنهما ونزل على ثغري جبيل وعكا فافتتحهما»[٣٣]. كما دخل العسكر المصري بعلبك. (٣٤)



على طريق رومانية .. في صور القديمة.

وكان بصور عند فتح الفاطميين لها الوزير «سديد الملك الحسين بن الماسكي» وهو مقيم بها منذ سنين طويلة، فحمل في جملة من حُمل الى مصر وأُوكل إليه مشارفة الاسكندرية[٣٥]. ووضعوا على صور والياً يُعرف بالأمير منير الدولة الجيوشي[٣٦].

وكانت جبيل حين فتحها الفاطميون تابعة لبني عمار أمراء طرابلس، أما صيدا فكان واليها يدعى «ثقة الملك ابن الطهماني» وكان عليها من قبل الأتراك، حيث يقول «ابن أيبك» ان المصريين تسلموا صيدا من الأتراك[٣٧]. وقد هرب «ثقة الملك» منها في البحر الى طرابلس مستجيراً بصاحبها «جلال الملك ابن عمار» ومات فيها.

ولابن الخياط الدمشقي الشاعر قصيدة يرثيه فيها ويعزي بها «جلال الملك»، ومنها:

أبى ثقة الملك إلا حماك
حمى والزمان به طائح
طوى البحر ينشد بحر السماح
الى العذب يقتحم المالح
فبادرت تخسأ عنه الخطوب
دفاعاً كما يُخسأ النابح[٣٨].

* * *

وتنقطع أخبار «النفيس» وأخويه: الحسن، وعبد الرحمن، منذ فتح الفاطميين صور، ويبدو أن بعضهم مات إبان الفتح أو بعد ذلك بقليل، ولذا نرى «ابن السراج» المتوفى سنة ٥٠٠ هـ يقول في «مصارع العشاق»: «ولي من ابتداء قصيدة نظمتها بالشام في بني أبي عقيل، رحمهم الله»:

ألا هل لمن أضناه حبك إفراق
وهل للديغ البين عندك درياق
وهل لأسير سامه قتل نفسه
هواك وقد زمّت ركابك اطلاق
أيا جارة الحيّ الذين ترحّلوا
فللعيس وخد بالحمول واعتناق
أما تخافي الله في قتل عاشق
هجرته حتى في الكرى وهو مشتاق
فقالت وروعات النوى تستحثها

ودمع مـــآقيهـــا على النحر مهراق :

هو البين فـــالبس جنـــة أو فمت

بداء الهوى قد مات قبلك عشاق[٣٩]

ويخبرنا الأمير «أسامة بن منقذ» المتوفي سنة ٥٨٤ هـ.١١٢٤ م . فنزل في دار محمد ابن أبي عقيل ، فرآها وقد تهدمت وتغيرت زخرفتها ، فكتب على لوح من رخام هذه الأبيات :

إحـــــذر مـــن الـــــدنيــــــا ، ولا

تغترّ بــــــــــــــالعمر القصير

عمروا وشادوا مـــــــــــــا ترا

ه مـــن المنــــــــــــازل والقصور

وتحـــولـوا من بعــــــــــد سُكْـ

ــنـــاهـــا الى سُكنى القبور[٤٠]

وكتب أيضاً :

دار سكنت بهـا كُرهاً وما سَكَنَتْ

نفسي الى سكن فيهـــا ولا شجن

والقبر أرفق لي منهـا وأجمـل بـي

إن صدّني الدهر عن عودٍ الى وطني[٤١]

* * *

وقد وصلنا اسم اثنين من بني أبي عقيل خرجا سالمين من صور هما :

١ – أبو المكارم أحمد

٢ – البهجة ابو طالب علي

والاثنان من أبناء «أبي البركات عبد الرحمن بن محمد» شقيق النفيس . وقد وصل الأمر بأولهما «أحمد» إلى ولاية منصب قاضي القضاة في القاهرة في سنة ٥٣١ هـ . بعد وفاة «سناء الملك ابن ميسر» المؤرخ صاحب «تاريخ مصر» . وكتب إليه القاضي الحسن ابن علي بن صمدون الصوري – وكان قاضياً بصور قبـل سقوطهـا بيد الصليبيين ، ثم ولي قضاء الاسكندرية ، وبها توفي – :

يـا من أمنت بــه الـذي أتخوف

وغـدوت في أنعـامــه أتصرف[٤٢] .

واستمر أبي عقيل في منصبه حتى توفي في شعبان سنة ٥٣٣ هـ . فأقام الناس في القاهرة بلا قاضٍ ثلاثة أشهر من بعده . وكان يعرف بـ «الأغر ، قاضي القضاة أبو المكارم أحمد بن عبد الرحمن بن أبي عقيل » (٤٣)

أما ثانيهما : « البهجة أبو طالب علي » فقد انتقل الى دمشق وسكنها وعقد بها مجالس الحديث واشتهر هناك بثقته في الرواية ، وقصده الأعلام من رجال الحديث والمؤرخين ، فسمعوا روايته وحدثوا عنه ، ومن أولئك الأعلام :

١ – السمعاني ، صاحب كتاب « الأنساب » وغيره من المصنفات ، والمتوفي سنة ٥٦٢ هـ . الذي قال : «أخبرنا أبو طالب علي بن عبد الرحمن بن عياض القاضي من أهل صور .. بقراءتي عليه في منزله (بدمشق) » .[٤٤] «وبيت أبي عقيل بيت الفضل والقضاء والتقدم . لقيته بدمشق وكتبت عنه ، وقرأت عليه عدة كتب » .[٤٥]

٢ – ابن عساكر الدمشقي ، المؤرخ الكبير صاحب «تاريخ دمشق» وغيره من المصنفات ، والمتوفي سنة ٥٧١ هـ . وروى عنه في تاريخه .[٤٦] وكذلك ابنه الامام الحافظ علي المعروف بابن عساكر أيضاً ، والمتوفي سنة ٦٠٠ هـ .[٤٧]

٣ – أبو طاهر السلفي الحافظ ، صاحب «معجم السفر» ، المتوفي سنة ٥٧٦ هـ . وقد قال عنه : « أبو طالب هذا ثقة في الرواية ، وبيتهم من أجلّ بيت الشام رياسة وعلماً وإكراماً لمن ينزل بهم من العملاء . وهو : علي بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن علي بن عياض بن احمد بن أيوب بن أبي عقيل . سمع الخُلعي بمصر ، وابن أبي داود » .[٤٨]

٤ – زمرد الخاتون . أخت الملك «دقاق» ، وزوج «تاج الملوك بوري بن طغتكين» صاحب دمشق ، وأم الملك اسماعيل . ثم صارت زوجة الأتابك «قسيم الدولة آقسنقر» . وكانت قد استحصت الكتب ، وسمعت الحديث من القاضي الفقيه البهجة أبي طالب . وتوفيت سنة ٥٥٧ هـ .[٤٩]

٥ – سرايا بن هبة الله الحرّاني ، وهو تاجر مشهور جوّال ، دخل بلاد الشام ، ومصر ، واليمن ، والهند ، وخراسان ، وسكن دمياط ، وكان راغباً في العلم وسماع الحديث ، سمع القاضي أبا طالب بدمشق ، وكان قد ولد سنة ٤٦٤ هـ . وتوفي بعيد سنة ٥٤٤ هـ .[٥٠]

٦ – الشيخ الصالح محمد بن سيدهم المعروف بابن الهراس المتوفي سنة ٥٩٣ هـ .[٥١]

٧ – ابو نصر عبد الصمد بن ظفر الحلبي. كان يحضر مع السمعاني عند القاضي أبي طالب. وكان لا يزال حياً بدمشق سنة ٥٣٦ هـ. (٥٢)

٨ – ابن الخصيب أبو المفضل القرشي المتوفي سنة ٦٠١ هـ. (٥٣)

٩ – ابراهيم بن نصر النهاوندي. (٥٤)

وكانت وفاة القاضي أبي طالب بن أبي عقيل بدمشق سنة ٥٣٧ هـ. ومقبرته في مقبرة ابن المصيصي التي دفن فيها «خلف بن تميم الدارمي» الذي نزل جبيل والتقى بها «ابراهيم بن أدهم». (٥٥)

■

شجرة أنساب بني أبي عقيل
قضاة صور

أبو عقيل
|
أيوب
|
أحمد
|
عياض
|
عين الدولة أبو الحسن علي

- الحسن
- عين الدولة أبو محمد عبد الله (توفي ٤٥٠ هـ)
  - عين الدولة أبو الحسن محمد (توفي ٤٦٥ هـ.)
    - الحسن
    - ابو البركات عبد الرحمن
      - الأعز أبو المكارم أحمد (توفي ٥٣٣ هـ.)
      - البهجة أبو طالب علي (توفي ٥٣٧ هـ.)
    - النفيس
  - أبو الفرج أحمد

المصادر والحواشي

(١) تاريخ دمشق (المخطوط) – ابن عساكر – ج ٣٤٧/١٧

(٢) ابن عساكر ٤٠٠/٣٦ وانظر مقالة لنا عن «ابن جميع الصيداوي» في مجلة «الفكر الإسلامي» – بيروت – العدد ٥ – سنة ١٩٧٩ – ص ١٨–٢٥.

(٣) ذيل تاريخ دمشق – ابن القلانسي – ص ٥١.

(٤) سفر نامه – ناصر خسرو – ص ٥٠.

(٥) إتعاظ الحنفاء .. – المقريزي – ج ٢١٣/٢.

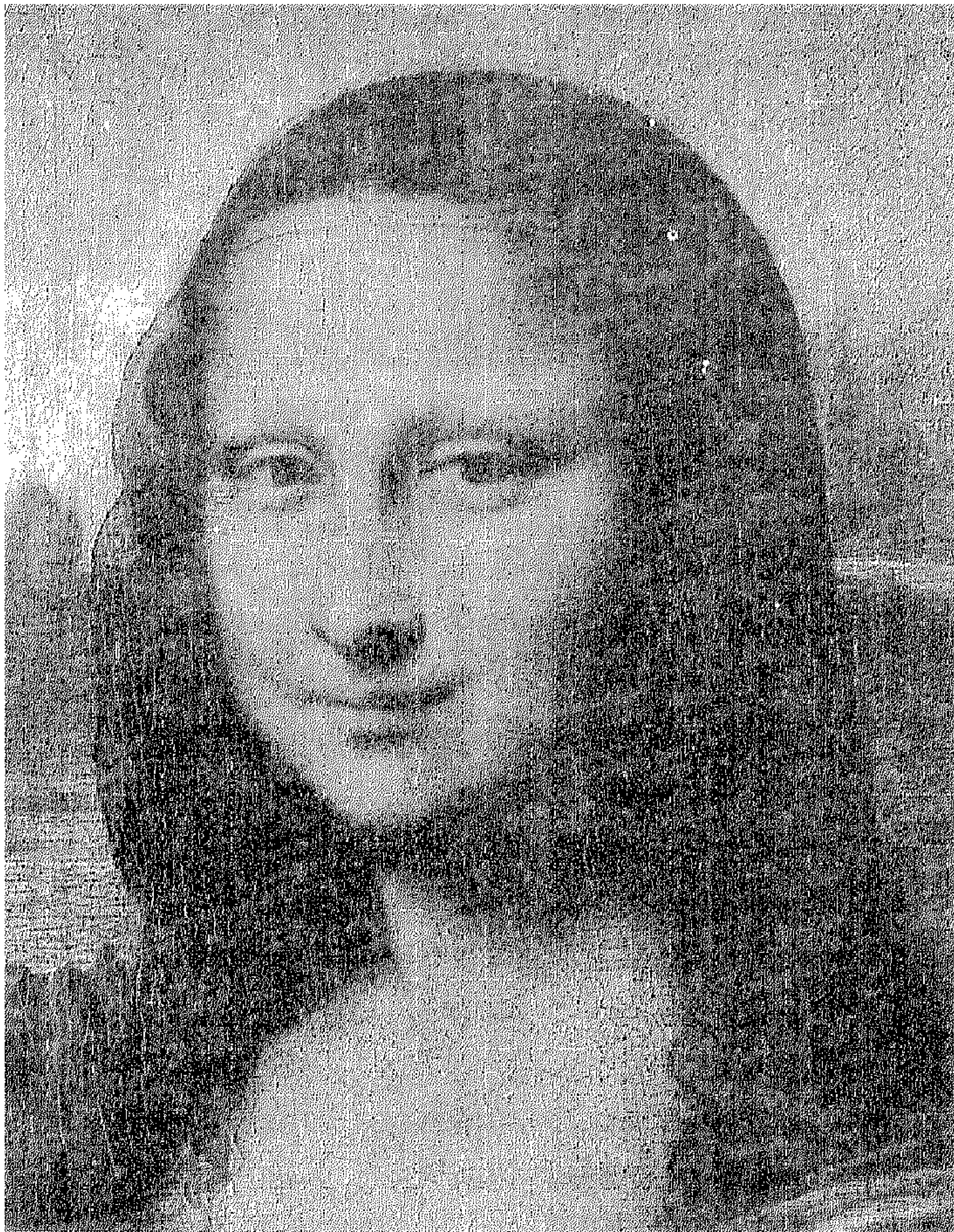
(٦) السيرة المؤيدية – الشيرازي – ص ١٠٠

(٧) إتعاظ الحنفاء .. – ج ٢٣٥/٢ و٢٥٩.

(٨) إبن عساكر ١١١/٢٨.

(٩) مرآة الزمان – سبط ابن الجوزي – (المخطوط) – ج ١٢ ق/١٦، تاريخ طرابلس السياسي والحضاري – د. عمر تدمري – ج ٢٣٢/١.
(١٠) موضح أوهام الجمع والتفريق – الخطيب البغدادي ١٩١/١، تاريخ بغداد – الخطيب البغدادي – ج ٤٤٤/٣ معجم الآداب .. – ابن الفوطي – ج٤ ق ١١٢٧/٢، معجم السفر – السلفي – (المصور) ق /٢٠٣. النجوم الزاهرة.. – ابن تغري بردي ٦٣/٥.
(١١) الفقيه والمتفقه – الخطيب البغدادي ٣٩/١ وما بعدها.
(١٢) الأعلاق الخطيرة .. ابن شداد – ١٦٥/٢.
(١٣) ابن عساكر ١١/٣٩، ملخص تاريخ الاسلام – الذهبي ٥٤/٧أ (المخطوط).
(١٤) ابن الفوطي – ج٤ ق ١٤٤/٢، ديوان ابن حيوس (بالحاشية) ٣٩٦/٢.
(١٥) إتعاظ الحنفاء ٤٧/٢.
(١٦) مصارع العشاق – ابن السراج ٣٤٨.
(١٧) ديوان ابن حيوس ٣٩٦/٢.
(١٨) المصدر نفسه ٤٦٥/٢.
(١٩) تاريخ طرابلس ٢٤٨/١.
(٢٠) ابن القلانسي، نقلاً عن سبط ابن الجوزي – ج١٢ ق ١٢/١٢، ابن القلانسي ٩٥ – ٩٨.
(٢٢) ابن القلانسي ٩٨. الكامل في التاريخ – ابن الأثير ٦٠/١٠، دول الاسلام – الذهبي ٢٧٠/١، إتعاظ الحنفاء ٢٠٣/٢
(٢٣) كتاب الروضتين ... – أبو شامة – ج ١ ق ٣١٨/١.
(٢٤) انظر مقالة لنا بعنوان «المساجد القديمة في تاريخ لبنان» بمجلة الفكر الإسلامي – العدد ٢ – سنة ١٩٧٩ ص ٢٥ – ٣٦ ابن عساكر ٤٣٠/٣٨.
(٢٥) ابن عساكر ٣٥٨/٤٠.
(٢٦) ابن القلانسي ١٩١.
(٢٧) ابن القلانسي ١٠٨ و ١٠٩. ابن الأثير ٦٨/١٠ و ١٠٠.
(٢٨) سبط ابن الجوزي – ج ١٢ ق ١٦٠/٢ب.
(٢٩) المصدر نفسه. دخول الترك الغز الى الشام – د. شاكر مصطفى (المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام) – ص ٣٦٩.
(٣٠) السيرة المؤيدية ١٧٦.
(٣١) ابن القلانسي ١١٢.
(٣٢) سبط ابن الجوزي. ابن القلانسي ١١٦
(٣٣) ابن القلانسي ١٢٠ تاريخ مصر – ابن ميسر ٢٨/٢، ابن الأثير ١٧٦/١٠، ابن شداد ١٦٥/٢، دول الإسلام ١١/٢، إتعاظ الحنفاء ٣٢٦/٢.
(٣٤) إتعاظ الحنفاء ٣٢٦/٢.
(٣٥) الإشارة الى من نال الوزارة – ابن منجب الصيرفي، إتعاظ الحنفاء ٢٠٩/٢ و ١٣/٣، اللباب – ابن الأثير ٨٣/٤، الدرة المضية... ابن أيبك ٤٣٨/٦.
(٣٦) ابن القلانسي ١٢٤، ابن الأثير ٢٢٣/١٠، ابن أيبك ٤٣٨/٦.
(٣٧) ابن أيبك ٤٣٥/٦.
(٣٨) ديوان ابن الخياط ٥٢.
(٣٩) مصارع العشاق ١٣٥.
(٤٠) ديوان أسامة بن منقذ ٢٨١. الروضتين ٣١٧. خطط الشام – محمد كرد علي ٢٧٣/٥.
(٤١) المنازل والديار – أسامة بن منقذ ٢٣٦.
(٤٢) السلفي (المصور) ق ٣٣٩/٢.
(٤٣) اخبار الدول المنقطعة – ابن ظافر ١٠١، إتعاظ الحنفاء ١٦٣/٣ و١٧٢.
(٤٤) أدب الإملاء والإستملاء – السمعاني ٥٢.
(٤٥) الأنساب – السمعاني ٣٥٧أ (المصورة)
(٤٦) ابن عساكر ٣٤٢/٤٠.
(٤٧) التكملة لوفيات النقلة – المنذري ٦/٣.
(٤٨) السلفي ق ٢٠٣/١ و٢٠٤.
(٤٩) ابن عساكر ٢٣٨/٤٨.
(٥٠) بغية الطلب في تاريخ حلب – ابن العديم – (المصور) ٢٢٤/٧ و٢٢٥ و٢٢٦.
(٥١) المنذري ١٠٧/٢، المسجد المسبوك – الجزرجي ١٠١.
(٥٢) الأنساب ٤٤١أ.
(٥٣) تاريخ الاسلام – الذهبي ٧٨١/٨، سير أعلام النبلاء – الذهبي (المخطوط) ١١/١٣، المنذري ٧٧/٣، النجوم الزاهرة ١٨٨/٦، شذرات الذهب – ابن العماد الحنبلي ٦/٥، العبر في خبر من غبر – الذهبي ٢/٥.
(٥٤) ابن عساكر ٥٥٦/٣١.
(٥٥) ابن عساكر ٥٢٨/١٢.





عصر النهضة في أوروبا

د. محمد مخزوم

يمثل عصر النهضة الأوروبية في عملية التطور الانساني امتداداً طبيعياً لما سبقه من تيارات فلسفية واقتصادية وعلمية وأدبية عرفتها أوروبا في العصور الوسطى. فمن الناحية الزمنية يبدأ عصر النهضة بتراجع مؤسسات القرون الوسطى وانحلالها منذ القرن الرابع عشر ليمتد حتى يشمل القرن السادس عشر. وقد تفاوتت النهضة بين دول أوروبا باختلاف مقوماتها الأساسية. فحيث عرفت بعض دول ومدن غرب أوروبا النهضة منذ القرن الرابع عشر، كإيطاليا مثلاً، فإن مجتمعات أخرى في شمال وشرق أوروبا ظهرت فيها النهضة متأخرة عن هذه الفترة بمدة طويلة. ولما كان التعريف السائد لقيام نهضة معينة في عصر ما يقتصر على وضع مؤلفات علمية وأدبية وفلسفية وما يحيط بهذا العمل من نشاط اجتماعي، أفقي، يقتصر على فئة معينة تشتمل على حاشية البلاط وفئة المتعلمين؛ فقد أطلق بعضهم اسم «نهضة» على ما قام به شارلمان من نشاط ثقافي لم يتعد فئة قليلة من الناس بهدف تحقيق مآربه السياسية والدينية. ان النهضة الأوروبية التي بدأت في القرن الرابع عشر، أو قبل هذا التاريخ بزمن قصير أو بعيد لم تؤت ثمارها الحقيقية إلا بعد القرن السادس عشر عندما بدأت تتحطم الحواجز الثقافية والعلمية بين طبقات المجتمع الأوروبي. وقد تجلت هذه الاستفادة عبر الثورات الدينية، والمصالح القومية، وفي الثورات التي قامت ضد استبدادية الملوك والأمراء وضد التفاوت الاجتماعي. لهذا تعتبر الثورة الفرنسية اعلاناً عن خاتمة عصر النهضة أكثر مما تعتبر اعلاناً عن بداية عصر جديد. ونجد المؤرخ الانكليزي فيشر[1] يذكر بهذا الصدد قائلاً: «قد لا يوجد بلد في أوروبا كان أكثر اطراحاً للعصور الوسطى من بريطانيا، ومع ذلك فقد بقيت نظم العصور الوسطى في المدن الانجليزية دون أي تغيير حتى عام ١٨٣٥ بما تحمله من مثالب بهيجة خلابة، لتفسح المجال للنموذج الديمقراطي المألوف الذي يتمشى والانقلاب الصناعي والتسوية بين الناس». إذن فالنهضة التي ولدت في أحضان البورجوازية وبفضلها، لم تمتد إلى جميع الطبقات

الاجتماعية فقد اقتصرت على بطانة الأمراء والملوك وعلى الأرستقراطيين والمثقفين وهم قلة. أما الانسان العادي فاستمر يقوم بالأعمال الزراعية واعباء العيش المرهق بعيداً عن مظاهر النهضة، تسيطر عليه أوهام العصور الوسطى وخرافاتها حتى ما بعد القرن السابع عشر.

استقلالية الفكر الاقتصادي

على الصعيد الاقتصادي شهدت النهضة تحولاً وتبدلاً جذرياً بين ما كان سائداً في أوروبا في العصور الوسطى من اقتصاد «عيني» إلى اقتصاد «نقدي» الأمر الذي ساعد على انهيار الاقطاعية التي كان يتعارض وجودها مع تشكل البورجوازية النامية. ونتيجة للثراء الفاحش الذي أصاب طبقة البورجوازية التجارية المرابطة في المدن، فقد أخذ الفكر الاقتصادي يشهد استقلالاً عن المفاهيم الدينية التي كانت سائدة قبلاً. فأقيمت المصارف وظهر الرأسمال الربوي وانتشر التعامل بالصكوك والعقود المكتوبة ووضعت قوانين اقتصادية تحدد علاقة المواطن بالدولة، وتتوافق مع متطلبات الطبقة الوسطى. وأضحت التحالفات والمنازعات الدولية تقوم على أساس المصلحة الاقتصادية دون مراعاة للمذهب الديني كما حدث في حروب الثلاثين عاماً الدينية عندما وقفت «فرنسا الكاثوليكية» إلى جانب التحالف البروتستانتي. أما الكشوف الجغرافية فقد ساهمت في تنشيط الحركة التجارية الاستعمارية، بعد أن شلها التوسع العثماني، بإقامة محطات ثابتة في الأماكن المكتشفة كما حدث في الشرق الأوسط أثناء الحركة الصليبية. كما ساهمت حركة الكشوف هذه في عملية التوسع التجاري ففتحت أمام الأوروبيين أسواقاً جديدة تدفقت منها الأموال على أوروبا فامتلكت بفضلها دول أوروبا كميات وافرة من الذهب والفضة مما كان له أثر كبير على نمو البورجوازية التي كان لها الفضل الأول في قيام النهضة.

ولما كان الانتاج الحرفي في العهد الاقطاعي ملازماً لأعمال الفلاحة فقد شهد عصر النهضة تطوراً عظيماً للحرفة على أثر تزايد الحاجة إلى الانتاج السلعي. فازدهر نظام المشاغل Manufacture بعد أن انفصلت الحرفة عن العمل الزراعي وظهرت ورشات العمل الكبيرة التي قامت البورجوازية بدفعها وتنظيمها بتقديم الرأسمال مقابل العمل الذي يقوم به العامل. وهكذا ساعد ظهور المشاغل في تسريع عملية التوسع الصناعي وازدهاره. فظهرت صناعة الكتب، وازدهرت صناعة التعدين وازداد الاعتماد على القوى المائية. فانتشر استعمال المحراث الحديدي المتطور في الأعمال الزراعية ونشطت الدول في استثمار مناجم الفحم الحجري والفضة وحجر الشب كما تطورت صناعة المنسوجات بمختلف أنواعها.

النهضة تساعد على خلق تبدلات فكرية

أما على الصعيد الفكري فقد ظهرت في عصر النهضة تبدلات فكرية تختلف عن مفاهيم العصور الوسطى. وإن هذه التبدلات قامت أساساً على أنقاض المفاهيم الاقطاعية التي كانت سائدة. فامتلك الفرد شخصية مستقلة مشكلاً الخليّة الأساسية في المجتمع بعد ان كانت الضيعة أو القومون أو النقابة هي التي تمثل أساس تكوين وبناء المجتمعات. كما تمتع انسان النهضة بالفردية والجرأة الفكرية واحتقار الضعف والوهن والاعراف والتقاليد والخرافات كما تميز بالتحلل من سيطرة رجال الدين وديكتاتورية الكنيسة الروحية، وبتوجيه النقد للباباوات أنفسهم حتى شهد القرن الرابع عشر هبوطاً للسلطة الروحية وامتاز القرن السادس عشر بقيام حركة الإصلاح الديني وقيام الكنائس القومية الموجهة ضد السلطة البابوية والقوى الاقطاعية المتحالفة معها.

وشهد عصر النهضة أيضاً قيام الحكومات المركزية ونمو الاتجاهات القومية للأمة الأمر الذي ساعد على تقوية الحكومات الملكية ورسوخ الاعتقاد الشائع بسلطة الملوك المستمدة من الحق الالهي. ولما كانت البورجوازية وما زالت في عصر النهضة في نضال مستمر مع الأرستقراطية فقد وقفت إلى جانب الملوك في فرض سيطرة الدولة على جميع طبقات المجتمع وبالأخص على النبلاء والأكليروس. فوجدت الحدود القومية للدولة ونظمت الواردات والضرائب ووُحّدت التشريعات القضائية والقوانين وزاد في توطيد سلطة الملكية واستبداديتها خاصة في فرنسا واسبانيا الحروب التي أشعلها الملوك داخل أوروبا وخارجها بسبب التنافس على المستعمرات عبر المحيطات في الهند وفي القارة الأميركية.

البورجوازيون يتصدّرون النضال الشعبي ويوجهون العملية الاقتصادية

لقد كانت البورجوازية أكثر الفئات استفادة من



كنيسة القديس بطرس في روما.

تبدل الأوضاع الاقتصادية التي حصلت في عصر النهضة. فازدادات ثرواتها الاقتصادية مع الزمن حتى تمّ لها منذ القرن السادس عشر السيطرة التامة على الطبقة الثالثة التي تنتمي إليها عرفاً وقانوناً. فاستغلت تمثيل هذه الطبقة لمصلحتها إلى أبعد الحدود ضد امتيازات النبلاء في مساندة الثورات الدينية وضد استبدادية الملوك بعد القرن السابع عشر في إعلان ثوراتها السياسية التي تتوافق ومصالحها. وهكذا تمّ للبورجوازية خلال عصر النهضة القضاء على امتيازات النبلاء والأكليروس بتقوية ومساندة السلطة الملكية من جهة وتشييد الكنيسة القومية من جهة ثانية. كما تم لها أيضاً تحطيم الاستبداد الملكي المرتكز على نظرية الحق الالهي للملوك في الحكم بواسطة الفئات الشعبية حتى أصبحت أواخر القرن التاسع عشر سيدة الموقف في جميع دول أوروبا دون استثناء.

أما الغنى والثراء الفاحش الذي تمتعت به البورجوازية خلال عصر النهضة فقد أدى إلى الاسهام في عملية الانفاق المادي التي تمثلت في الاقبال على مباهج الحياة. فصرفت الأموال الطائلة على تشجيع الفنون واقامة المدارس والأكاديميات واقتناء المخطوطات والمكتبات وتشييد القصور والكنائس الضخمة واقامة الجنائن والتماثيل واغواء الشعراء والأدباء والعلماء والفنانين للإقامة في بلاطات الأمراء ليضفي هؤلاء على حكمهم الصفة الشرعية بعد ان ساهمت النهضة في إحلال الالجاركيات التجارية والدكتاتوريات العسكرية – خاصة في إيطالية – محل حكومات المدن الجمهورية المستقلة[٢]. ففي فلورنسا مثلاً ازدهرت حركة النهضة حول أسرة مدتشي التي كانت تسيطر على الاقتصاد وتوجهه. وفي البندقية تمركزت حول الطبقة التجارية وفي ميلانو عند أدواق آل سفورزا وفيسكونتي وفي فيرونا نمت النهضة برعاية أسرة سكاليجر وفي بدوا قامت بتشجيع آل كراريسي وفي روما قامت النهضة أيضاً في بلاطات بابوات عصر النهضة الـذين اشتهر منهم نقولا الخـامس (١٤٤٧–١٤٥٥) وليو العاشر (١٥١٣–١٥٢١). أما في فرنسا وانكلترا فقد نمت النهضة في المدارس والكاتدرائيات والجامعات. وهكذا قامت النهضة الأوروبية بمساعدة سكان الحواضر من الطبقة البورجوازية وازدهرت بتشجيع الملوك والأمراء

والأذواق حتى عمت فيما بعد جميع طبقات المجتمع الأوروبي.

الاتجاهات السياسية الجديدة

على الرغم من نمو الشعور القومي الذي ساد أوروبا في عصر النهضة. فقد واجهت إيطاليا تفككاً سياسياً نتيجة لظهور قوة الامارات التي أسسها الأمراء ورجال الدين ثم للتنافس الاستعماري الذي نشأ بين اسبانيا وفرنسا وأدى إلى قيام الحروب الايطالية. كما أدت النهضة أيضاً إلى ظهور عدة نظريات سياسية واتجاهات في الحكم كان لها أثر بعيد في الحياة السياسية التي عرفتها أوروبا في العصور الحديثة. وقد ظهرت هذه النظريات في كتاب «الأمير» لمكيافللي الذي أباح للحاكم جميع الوسائل لتحقيق أهدافه في فرض سيطرته وفي كتاب «رجل البلاط» لكاستليوني الذي رسم فيه انموذجاً لرجل البلاط وما عليه أن يتمتع به من الثقافة والأدب والالمام بجميع الفنون. ثم في كتاب «عالم الكمال» للسياسي الانجليزي توماس مور الذي يبين فيه أهداف الحكومة المثالية وأنظمتها السياسية والاجتماعية والاقتصادية وهي حكومة تخيلها المؤلف لتقوم في جمهورية حرة ديموقراطية.

وهكذا طبعت النهضة المجتمع الأوروبي الذي قامت فيه بطابع خاص ومميز. قادت إلى خلق مجتمع جديد انصرف أفراده إلى الانغماس في حياة المجون والتمتع بملذات الحياة وتقديس الجمال واباحة المحرمات. فتحطمت قيود الأخلاق والتقاليد والاعراف. وأقبل انسان النهضة على التلذذ بالأطعمة الشهية المختلفة واقتناء الألبسة الفاخرة، ولازمه حب جارف نحو سماع الموسيقى وقراءة الشعر والأدب الرفيع والاطلاع على مجادلات الفلاسفة وأعمال النحاتين والمصورين والمهندسين. هذه الرغبة الزاخرة بحب الحياة ميزت انسان النهضة عن انسان العصول الوسطى المتزمت الزاهد المتمسك بالفضيلة والمكبل بأغلال الكنيسة والعادات والتقاليد المختلفة. وأخيراً فالنهضة الأوروبية حسب تعبير ديورانت[3]: «قامت من الناحية المادية على الاستغلال الاقتصادي للكثرة الساذجة على أيدي القلة البارعة. ذلك ان ثروة روما البابوية قد جاءت من النقود الصغيرة التي تبعث بها آلاف الآلاف من بيوت الصالحين الأتقياء في أوروبا.



قيصر بورجيا

وان بهاء فلورنس كان مصدره عرق الدهماء المغمورين الذين كانوا يكدحون الساعات الطوال، وليس لهم حقوق سياسية، ولم يكونوا يمتازون عن رقيق الأرض في العصور الوسطى إلا باشتراكهم في زهو وخيلاء في مجد الفن المدني ولألائه، وفي حياة المدنية الثائرة وما فيها من دوافع ومغريات».

النهضة الايطالية

شهدت المدن الايطالية أواخر العصور الوسطى بزوغ نهضة شاملة في جميع الميادين الأدبية والفنية والعلمية والاجتماعية لم يشهدها العالم منذ قيام الحضارة الكلاسيكية في أثينا. ومن هذه المدن انتقلت النهضة إلى أوروبا الغربية (فرنسا – انكلترا – اسبانيا – المانيا) أما دول أوروبا الشرقية فقد بقيت حتى وقت متأخر تعاني من الضغط العثماني على حدودها مما أدى إلى تأخر قيام النهضة بين ربوعها.

ومما ساعد على قيام هذه النهضة في إيطاليا قبل غيرها من دول أوروبا ان شبه الجزيرة هذه كانت

ما تزال تزخر بتراث الرومان العمراني المتمثل في المباني العظيمة والتماثيل والنقوش والقنوات والسدود المائية كما كانت تزخر بالمخطوطات المتعددة التي حفظت تراثهم القانوني والأدبي والعلمي والسياسي على الرغم من كون إيطاليا قد تعرضت خلال العصور الوسطى لهجمات القبائل البربرية المتعددة وتدميرهم الشديد. كما ان الرخاء الاقتصادي الذي تمتعت به بعض المدن الايطالية نتيجة لازدهار تجارتها واحتكارها للتجارة بين الشرق والغرب منذ القرن الحادي عشر الميلادي قد أدى بدوره إلى استقرار ملموس في هذه المدن التي خضعت لحكومات مستبدة ومستنيرة مما أدى إلى احتدام التنافس بينها على تشجيع الآداب والفنون وانشاء المكتبات الزاخرة بالكتب والمجلدات والمخطوطات واستهواء العلماء والأدباء والفنانين وتشجيعهم على التأليف والخلق والابداع. كما ان الأسر الحاكمة في هذه المدن أقامت الأكاديميات التي ساهمت بدورها في نشر الدراسات القديمة في الفلسفة والآداب والفنون. فقامت في فلورنسا الأكاديمية الأفلاطونية، وفي روما أكاديمية اهتمت بالدراسات التاريخية والآثار وفي نابولي أكاديمية لدراسات الآداب وفي البندقية أكاديمية للدراسات الاغريقية.

وعلى الرغم مما اتسمت به البابوية خلال العصور الوسطى من التزمّت والجمود وتقييد حرية الفكر، فانها ما لبثت ان أخذت تهتم منذ أواخر العصور الوسطى بتشجيع العلماء ورعاية الفنون والآداب. وغدا البلاط البابوي في هذا الوقت مشابهاً لبلاطات الأمراء العلمانيين يعج بالدسائس وحياة المجون. فتهافت إليه العلماء والأدباء يبغون الشهرة والاستقرار والكسب المادي. ولم يكن موقف البابوية هذا نابعاً من الظروف السياسية التي أحاطت بإيطالية في تلك الحقبة فقط، بل لتخوفها من اتجاه النزعة الانسانية نحو وثنية جديدة تتعارض ومفاهيم المسيحية. فحاولت احتضانها والتوفيق بينها وبين المسيحية حتى لا تخسر الفئات المثقفة التي عظم شأنها في هذه الفترة. وهكذا برز بعض البابوات أطلق عليهم «بابوات النهضة» عملوا على نشر العلم والمعرفة وانشاء المكتبات واقتناء المخطوطات واقامة الاكاديميات للتوفيق بين الكنيسة والنهضة. فكان منهم نقولا الخامس (١٤٤٧ – ١٤٥٥) الذي كان يتمتع بثقافة عالية ومن مؤيدي النزعة الانسانية. فأرسل البعثات العلمية إلى أثينا والقسطنطينية لجمع المخطوطات التي بلغت ٨٢٤ مخطوطاً لاتينياً و٣٥٢ مخطوطاً يونانياً. ومما ينسب إلى هذا البابا ولعه الشديد باقتناء الكتب حيث احتوت الفاتيكان في عهده على أكثر من اثني عشر ألف مجلد. وكذلك سار البابا بيوس الثاني (١٤٥٨ – ١٤٦٤) على خطى نقولا الخامس. فكان مولعاً بحبه للأدب وكتابة القصص والشعر والمقالات. أما ليو العاشر (١٥١٣ – ١٥٢١) فقد مثل بحق عصر النهضة وكان بلاطه نموذجاً لبلاطات الأمراء بما ضم من العلماء والأدباء والموظفين. كما انه أسس جامعة روما وضم إليها معهداً لتعليم اللغات السامية وانشأ مجمعاً لدراسة العلوم اليونانية. كما أقر في بولونيا تدريس اللغتين السريانية والكلدانية. ولكن نفقات البلاط الباهظة وأعطيات الأقارب والأصدقاء وما تطلبته الحروب التي خاضها لضم بعض الولايات من أموال قد أفقرت الخزانة البابوية وجعلته يلجأ إلى تشجيع بيع صكوك الغفران مما فجّر الصراع داخل الكنيسة وأدى إلى ظهور الحركة البروتستانتية.

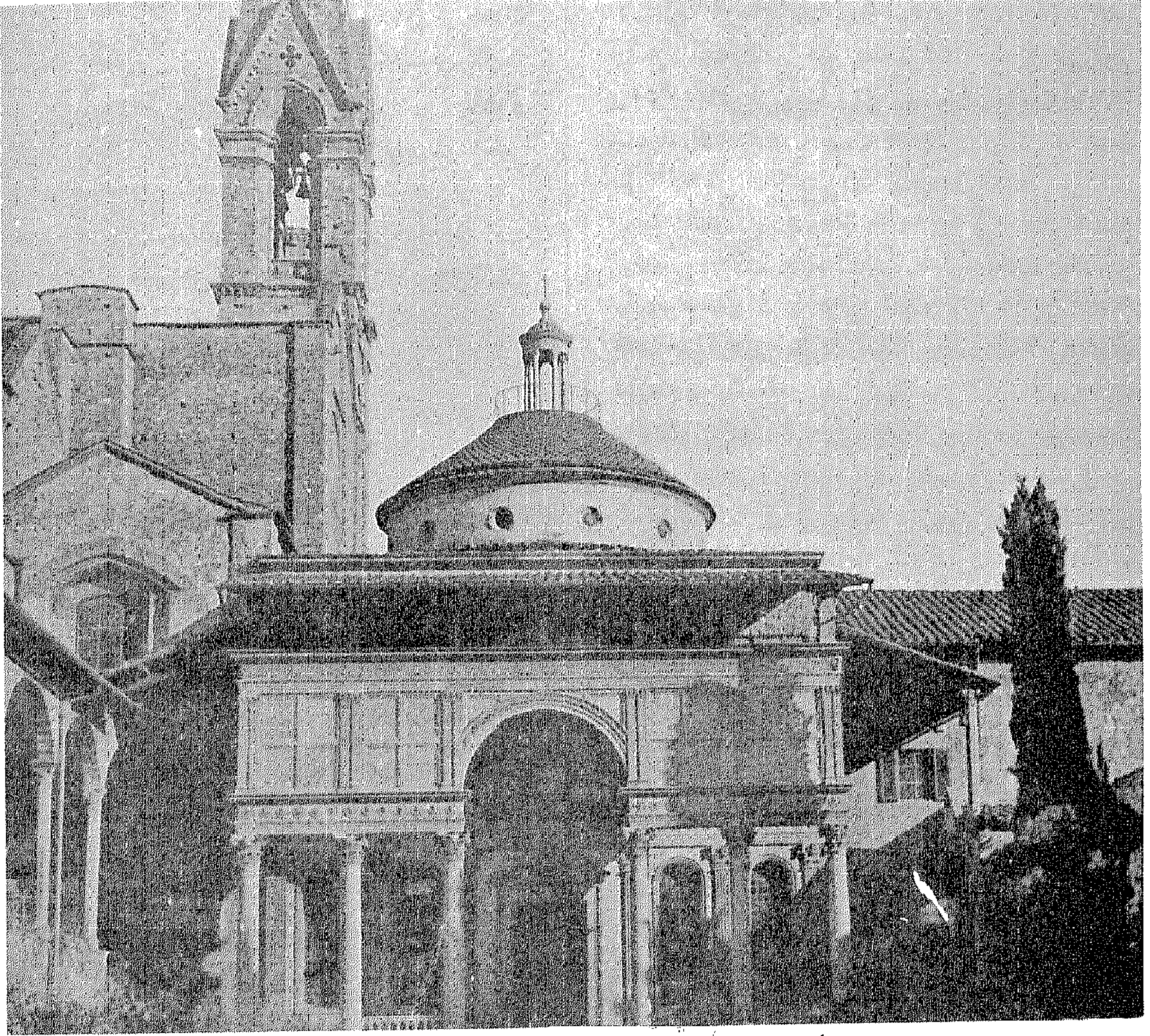
وأخيراً فان ايطاليا قد تمتعت في العصور الوسطى بموقع جغرافي مهم على حوض البحر المتوسط، مهد الحضارات القديمة. ففي وقت كان فيه المتوسط يعتبر مركزاً مهماً للنشاط التجاري كونت المدن الايطالية حلقة الاتصال بين أسواق شرقي الحوض وغربه من جهة وبين موانئ الشرق الأوسط نفسها، أغنى الأسواق بالمنتوجات والسلع، من جهة ثانية. فهيأ لها هذا الدور رخاء اقتصادياً واطلاعاً واسعاً على حضارات الشرق وعلى الأخص الاسلامية والبيزنطية.

وأبرز الاتجاهات التي اشتملت عليها النهضة الايطالية كانت النهضة الأدبية والنهضة الفنية.

(أ) النهضة الأدبية

كان من أولى مظاهر النهضة الأدبية في ايطاليا بعث الدراسات الاغريقية واللاتينية أو ما يسمى بحركة احياء الدراسات الكلاسيكية أو الحركة الانسانية. (**L'Humanisme**).

قامت هذه الحركة بتشجيع الأسر الحاكمة في المدن الايطالية على دراسة المخطوطات التي كانت تحويها الأديرة والكنائس والكاتدرائيات ومكتبات الأمراء[٤]. وقد تمت دراسة المخطوطات الاغريقية



كنيسة سانتا ماريا في فلورنسا (من أعمال برونلسكو)

عن طريق الاتصال الثقافي الذي نشأ بين إيطاليا والقسطنطينية منذ أوائل القرن الخامس عشر. مما مهد إلى هجرة علمائها إلى إيطاليا بعد احتلال الأتراك العثمانيين لها. وقد نبغ من الانسانيين الذين اهتموا بإدخال الاغريقية إلى إيطاليا: بوكاشيو (١٣١٣ - ١٣٧٥) الذي ذهب إلى القسطنطينية للتعمق في دراسة الاغريقية. وقد أحرز بوكاشيو شهرة واسعة في المائة قصة التي كتبها والتي تعرف باسم «الأيام العشرة» وهي مستوحاة من المصادر اليونانية والرومانية القديمة وقصص الشرق والخرافات الفرنسية والأقاصيص الشعبية المنتشرة في إيطاليا نفسها. وتقوم أفكارها الرئيسية على احتقار خرافات العصور الوسطى والتهجم على مفاسد رجال الدين وتهتك بعضهم.

أما اللاتينية التي يعتبرها الايطاليون لغة الحضارة الرومانية والآداب الرفيعة. فقد اهتم بدراستها العالم الشهير بترارك (١٣٠٤ - ١٣٧٤) وأجاد كتابتها على النمط القديم. وقد عمل على نشر الدراسات الانسانية حتى جمع ما يقرب من مائتي مخطوطة. وبترارك في كتاباته يمثل طليعة عصر يختلف في مفاهيمه عن العصر الوسيط إذ لقبه النقاد «بأبي النهضة» وأول النقاد المحدثين، وأجمعوا على انه أول الكتّاب الانسانيين. وبترارك في تفكيره السياسي الذي ظهر في ملحمته التي سماها أفريقيا يظهر أسفه الشديد للانقسامات السياسية بين الامارات الايطالية المختلفة داعياً إلى قيام وحدة سياسية تجمع شبه الجزيرة الايطالية بأجمعها.

والانسانيون اهتموا بدراسة الانسان وما يتمتع به



البابا ليو العاشر (من أعمال رافاييل)

من قوة ومشاعر وجمال جسماني. وتأثروا كثيراً وهم ينقلون أو يترجمون ما كتبه اليونان، بما تمتع به هؤلاء من حرية في مناقشة الأمور الدينية والسياسية، فأخذوا يدعون لها. فحرروا العلم من سيطرة الدين بدعوتهم لبطولة العصور الوسطى وشجاعتها وفروسيتها وملاحمها الغنائية. ومع ذلك فالحركة الانسانية اتسمت بطابع خاص مميز بدعوتها إلى إباحة الملذات والتمتع بالحياة الدنيوية والتحلل من القيود الخلقية واحتقار الضعف والوهن وتحري العرف والتقليد. لهذا انطلقت الحركة الانسانية من خارج الجامعات التي استحوذ عليها حتى هذا العصر تزمت العصور الوسطى.

وهكذا فالنهضة التي ظهرت آخر العصور الوسطى قد اتسمت بالرجعة إلى العالم القديم وأكدت على وحدة الثقافة البشرية ويذكر نور الدين حاطوم[٥] بأن الانسانيين: «كانوا رسل العالم القديم، ويزعمون احياءه، ويحاولون أن يبعثوه كعلماء ومؤرخين، ويفهمونه بذاته، ويتذوقوا جمال الاغريقي. وينفذوا منه إلى أسباب وجوده. لقد كان القديم وسيلة بالنسبة إلى هؤلاء الانسانيين، لأنهم يريدون حياة أخرى غير حياة العصر الوسيط. يشعرون بها، وتغلي في عروقهم».

ومما يؤخذ على الانسانيين شغفهم باللاتينية إلى حد انهم كتبوا معظم أدبهم وفلسفتهم وشعرهم وقصصهم بها مما جعل العامة تفقد اتصالها بهذه



(من أعمال رافاييل).

الحركة لتقتصر فقط على طبقة الأرستقراطية والمثقفين البورجوازيين[٦]. ومع ذلك فقد ظهرت مؤلفات كتبت باللغات المحلية وان كانت أقل قيمة عما كتب باللاتينية. فمع ازدياد ونمو الشعور القومي أخذت اللهجات المحلية المختلفة تحل شيئاً فشيئاً محل اللغة اللاتينية. فدانتي منذ القرن الثالث عشر كان قد كتب الكوميديا الالهية باللغة الايطالية ومن بعده سيبروني. وفي فرنسا ظهر دوبلليـــــه (Du Bellay) (١٥٢٢ - ١٥٦٠) ومونتين (Mantaigne) (١٥٣٣ - ١٥٩٢) الذي كتب رسائله «المحاولات» في الفلسفة والأخلاق باللغة الفرنسية. أما في اسبانيا فقد نشر سرفنتس Cervantes (١٥٥٧ - ١٦١٦) قصته دون كيشوت باللغة الاسبانية وفي انكلترا صاغ كل من لنغلاند Langland (١٣٣٢ - ١٤٠٠) وشوسر chaucer (١٣٤٠ - ١٤٠٠) أفكاره باللغة الانكليزية. أما اللغة الالمانية فقد بلغت كمالها مع لوثير في ترجمته للانجيل إلى اللغة الالمانية. وفي بوهيميا أخذت اللغة التشيكية تعالج أصعب الموضوعات في القانون والطب والفلسفة واللاهوت حتى أصبحت لغة المصلحين والوعاظ والدعاة ضد محاربيها من الألمان. ويعبر أحدهم عن ذلك بقوله «ان محبة الرب للتشيكية لا تقل عن محبته للاتينية»[٧].

والانسانيون أظهروا أيضاً اهتماماً بالغاً بالنقد التاريخي منذ أواخر القرن الخامس عشر وكان من أبرز

اعلام هذه الحركة لورنزفالا (١٤٠٥ - ١٤٥٧) الذي انتقد صحة «هبة قسطنطين» مستنداً على قواعد تثبت ان قسطنطين لم يمنح هذه الهبة وقد وجد بحثه هذا تقديراً عند البابا نقولا الخامس الذي عينه سكرتيراً في حكومته. كما قامت في فلورنسا مدرسة تاريخية اعتمدت في بحث موضوعاتها على الواقعية والبعد عن قيود وخرافات العصور الوسطى بجرأة فائقة وكان من أهم اعلامها مكيافللي (١٤٦٩ - ١٥٤٢) الذي كتب تاريخ فلورنسا وكتاباً آخر عن الاستبداد سماه «الأمير».

(ب) النهضة الفنيــة

عرفت المدن الايطالية منذ القرن الخامس عشر نهضة فنية رائعة، ساعد على قيامها ما كانت تزخر به ايطاليا حتى هذا العصر من الأعمال الفنية المختلفة سواء على الطراز الكلاسيكي أم على الطراز القوطي. فعاش الفن وترعرع جنباً إلى جنب مع بعض الدراسات الكلاسيكية بتشجيع الأسر الحاكمة التي تنافست فيما بينها على الاقبال على مباهج الحياة وتزيين قصورها وبلاطاتها وعواصمها بأعمال فنية ما زالت حتى اليوم تمثل أروع ما ابتدعه الانسان في هذا المجال.

وتركزت الفنون الايطالية على الانسان الذي اتخذته موضوعها الأساسي واعتبرته أعظم المخلوقات. فاهتمت بابراز قوته وأشكاله الجسمانية أكثر مما اهتمت بمعانيه الروحية وذلك لارتباطها بالفنون اليونانية والرومانية التي اعتبرت أهم مصدر لها[٨]. ولهذا ابتعدت حركة الفن عن الروح الدينية وموضوعات العصور الوسطى وجاءت علمانية متحررة وممتزجة بتراث حياتهم اليومية[٩]. وقد تمتع فنان النهضة

أصبحت معروفة في عصره[١٠]. فكان انجلو مهندساً معمارياً ونحاتاً ورساماً في نفس الوقت كما كان رفاييل رساماً ومهندساً معمارياً أيضاً ودافنشي مهندساً معمارياً ورساماً ونحاتاً وموسيقياً وملماً بعلم التشريح.

وامتاز فن التصوير عند الايطاليين بالابداع والتحرر من قيود العرف والدين. وقد زاد من روعته استخدام المصورين للاصباغ الزيتية ومعرفتهم لجميع الوسائل العلمية لا سيما الأبعاد الخطية واللونية أي علم المنظور. وكانت موضوعاته جسد الانسان وجمال الطبيعة والتعبير عن المشاعر والغرائز الكامنة في الحب والألم واللذة على أوسع نطاق.

ووصل فن التصوير إلى قمته على يد رافاييل Raphael (١٤٨٣ - ١٥٢٠) الذي مثلت أعماله الفنية ذروة الفن الايطالي في عصر النهضة. ومن أهم أعماله جدرانيات الفاتيكان ذات المواضيع المتعددة التي تدل على تاريخ اللاهوت والفلسفة وما ترمز إليه من القوة والعدالة والحكمة الانسانية والالهية وما تتصف به من السهولة والاتزان والمثالية. أما في صورته للبابا جول الثاني فقد امتازت بالعمق وغنى الألوان.

أما أعمال ليونار دافنشي Leonard de Vinci) (١٤٥٢ - ١٥١٩) الفنية، فقد تجسدت في لوحته «العذراء بين الصخور» التي أظهر فيها أهمية النور والظل وفي «العشاء الأخير» التي أظهر فيها الهدوء والاتزان والصفاء الرائع وأحاسيس النفس البشرية التي تظهر في أوضاعهم المختلفة. ثم الجوكندا أو الموناليزا التي تجسدت فيها مشاعر النفس الانسانية عميقة تفيض بالحياة.

أما فن النحت فقد اتصف بمحاكاة الأقدمين أكثر من أي فن آخر، وذلك لأن تماثيل ومنحوتات اليونان والرومان ما زالت متبقية كنماذج حية أمام فناني النهضة الايطاليين. ومن أشهر الذين أبدعوا في فن النحت جيبرتي Ghiberti (١٣٧٨ - ١٤٥٥) الذي جاءت منحوتاته أشبه باللوحات الزيتية. ثم دوناتللو Donatello (١٣٨٦ - ١٤٦٦) الذي يتميز فنه بالواقعية والقوة التعبيرية حيث أظهر معرفة دقيقة لجسم الانسان وعلم التشريح ومن أبرز منحوتاته «القديس جورج» و «النبي داوود». أما ميشال أنج فيعد بحق من ابرز نحاتي إيطاليا إذ استطاع أن يجعل من تماثيله كائنات تكاد تكون حية باهتمامه اظهار مفاتن جسم الانسان. ومن أهم أعماله تمثال «داوود» ثم «العذراء والطفل» و «قبر البابا جول الثاني» وضريحي «جوليان رلوران دي مدتشي» في كنيسة سان لوران في فلورنسا.

أما فن العمارة فقد شهد في ايطاليا تقدماً عظيماً في عصر النهضة لكونه نجا من الدمار والاندثار خلال العصور الوسطى. ومع ان فن العمارة في عصر النهضة تفوق على فن العمارة القوطي في تفاصيله إلا انه

لم يكن يجاريه في العظمة. لهذا جاءت عمارة النهضة أفقية تمتد في السعة أكثر مما تعلو في السماء باستثناء بعض الأبنية الضخمة في حين جاء الطراز القوطي عمودياً يبعث في النفس النشوة ويعقد الآمال على السماء ومسكن الأرباب[11]. فامتازت الكنائس والكاتدرائيات التي شيدت على الطراز القوطي بالأقبية العالية والدعائم المعلقة نتيجة للحماسة الدينية التي أظهرتها الشعوب الجرمانية. ومع ان ايطاليا قد أخذت بالطراز القوطي منذ أواخر القرن الثالث عشر فانها لم تتخل تماماً عن الطابع الكلاسيكي في هذا الميدان. وأبرز فنون **العمارة** في ايطاليا ظهرت في كاتدرائية فلورنسا التي أنشأها برونلسكو (**Brunellesco**) ثم كنيسة القديس بطرس في روما التي وضع تصميمها برامانت **Bramante** ثم في القصور والمباني العظيمة التي شيدت في أنحاء مدن ايطاليا.

هوامش البحث

١ – فيشر: أصول التاريخ الأوروبي الحديث. ص ٨. ترجمة عصمت راشد. دار المعرفة بمصر ١٩٦٥

٢ – ديورانت: قصة الحضارة. الجزء الرابع من المجلد الخامس ص ٣٥٧ ترجمة محمد بدران جامعة الدول العربية الطبعة الثانية.

٣ – نفس المكان.

٤ – درسدن «الحركة الانسانية والنهضة ص ١٣ ترجمة عمر شخاشيرو. دمشق ١٩٧٢.

٥ – نور الدين حاطوم: تاريخ عصر النهضة الأوروبية ص ٧٩ دار الفكر ١٩٦٨.

٦ – Garine: Moyen age Renaissance P. 98 Gallimar 1969

٧ – Perroy. E': Histoire generale des civilisationsT III P. 412. 1ere edition.

٨ – Delumeau: La civilisation de laRenaissanceP. 123 Arthaud 1973.

٩ – Argan. G: Histoire generale de la peinture, Renaissance P. 11. 1968. Flammarion Paris.

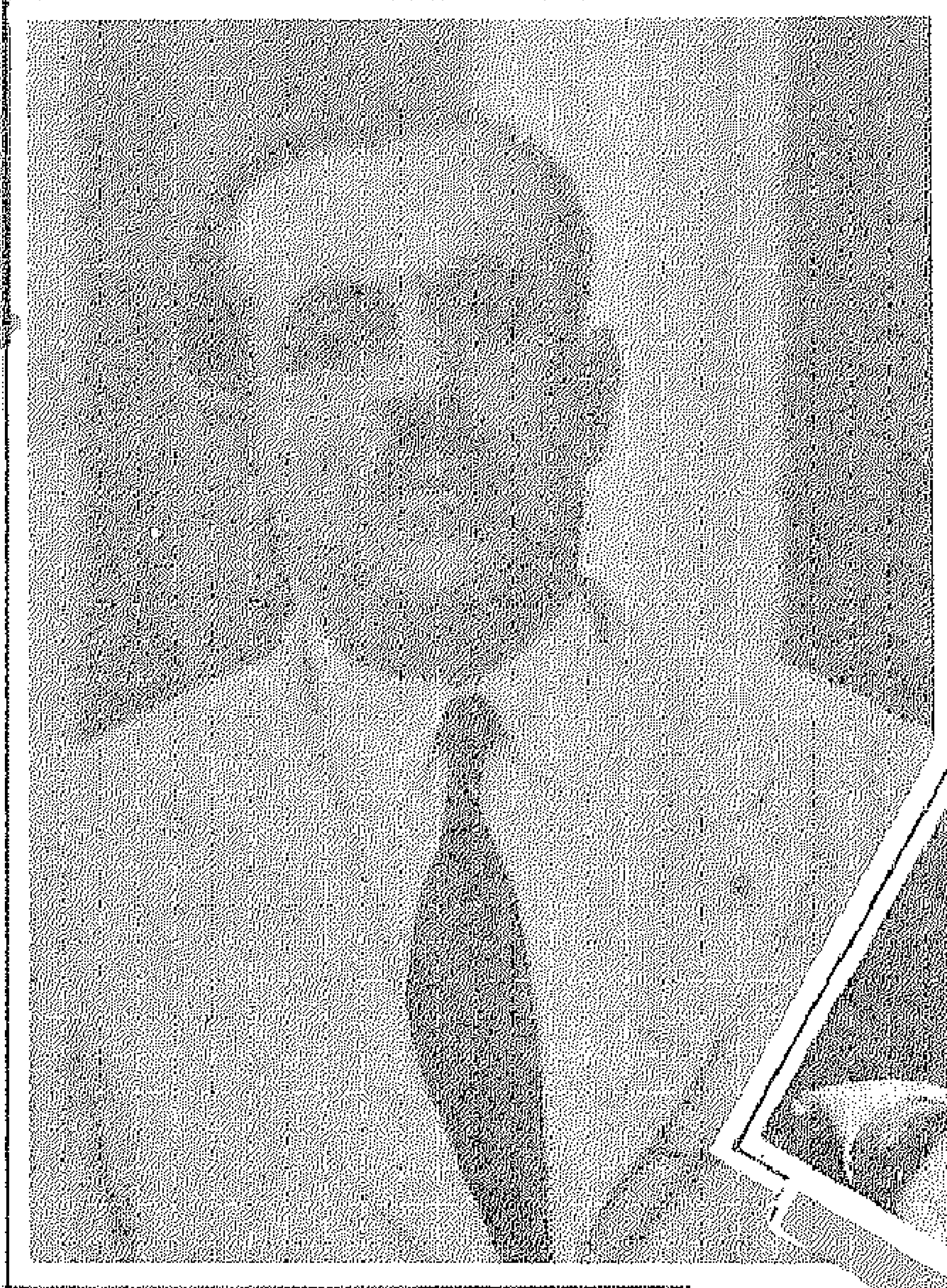
١٠ – Delumeau: Ops. cit. P. 176.

(١١) ديورانت: المرجع المذكور – الجزء الرابع من المجلد الخامس ص ٣٦٢.

اسم «القاهرة»

● أما سبب تسمية المدينة «بالقاهرة» فإن القائد «جوهر» من جيش الخليفة الفاطمي المعز لدين الله لما أراد بناءها احتفر الأساس وأمر البنائين أن يكونوا متأهبين لوضع الحجارة عند أول إشارة بيديها لهم وجعل حول الأساس حبلاً علق فيه اجراساً حتى إذا أراد أن يبدأ بالبناء يهز الحبل فتدق الأجراس فيشرعون في البناء. وجلس ليلته يرصد الكواكب ليرى طالعاً سعيداً يبنى المدينة فيه، وفيما هو كذلك والبناؤون حول السور في إنتظار دق الأجراس إذ وقف على الحبل غراب ثم طار فاهتز الحبل فدقت الأجراس فرمى البناؤون الأحجار فشق ذلك على جوهر إلا أنه نظر إلى القبة الزرقاء فإذا بالنجم الذي كان متسلطاً يدعى القاهر باصطلاحهم فقال اتموا البناء على خيرة الله ودعاها القاهرة وتم بناؤها سنة ٣٦٢هـ.

جان سرور


اميل اده


بشارة الخوري

الانتخابات اللبنانية أيام الانتداب الفرنسي

الكتلتان البرلمانيتان :



عرف لبنان في عهد الانتداب الفرنسي حزبين محليين هما حزب إميل إده ، والذي أصبح في ما بعد يدعي بالكتلة الوطنية ، وحزب بشارة الخوري والذي أصبح يدعى فيما بعد بالحزب الدستوري. وهذان «الحزبان» لم يكوّنا حزبين بالمعنى الصحيح للكلمة ، إذ كانا بالفعل كتلتين تضم كل منهما جماعة من وجهاء المناطق تلتف حول كلتي الشخصيتين المذكورتين. كما ان سياستهما العامة لم تكن لتتجاوز الشؤون الداخلية وما يسمح به الانتداب من ممارسات ، ولا تتعدى الأمور الادارية المحلية.

وعندما نقول ان لبنان عرف هذين الحزبين في ذلك الوقت ، لا نعني انه لم يكن في البلد أحزاب أخرى ، فقد كان هناك أحزاب وتكتلات بين أوساط الشباب المتطلع إلى الحرية والاستقلال تعمل من أجلهما بتكتم ودراية لأن رجال الانتداب لم يكونوا ليسمحوا لأية فئة أن تقوم بأي نشاط من شأنه أن يعكّر عليهم صفو تحكمهم بسياسة لبنان ، داخلية كانت أم خارجية.

وأعود الآن إلى التحدث عن الحزبين اللذين كانا في الواجهة ذلك الحين لأقول ان التنافس بينهما كان على أشده لا سيما في ظروف الانتخابات التي كان المسيطر فيها بصورة دائمة المستشار الفرنسي وأكثر ما كان يخشاه أي من الحزبين أو المستشار أن يسلك إلى المجلس النيابي أشخاص من ذوي الآراء الحرة الذين يتسببون في اهتزاز الوضع القائم.

ومن أجل تحاشي مزاحمة الدخلاء كان الحزبان في غالب الأحيان يتحالفان على خوض معركة انتخابات موحدة تؤمن لهما فوز من يرغبون به من الانصار وكان هذا التحالف يجري بمباركة المفوضية العليا بطبيعة الحال. وفي انتخابات ١٩٣٧، تألفت اللوائح من المرشحين المرغوب فيهم وسدوا الطريق على كل مرشح آخر وجرى الانتخاب فتكشف عن أمور أثارت الرأي العام فكانت الأسماء تقرأ عند الفرز مغلوطة ويحل بكر محل عمر ويوسف محل نجيب الخ...

أصوات معارضة: ملصقات ومناشير

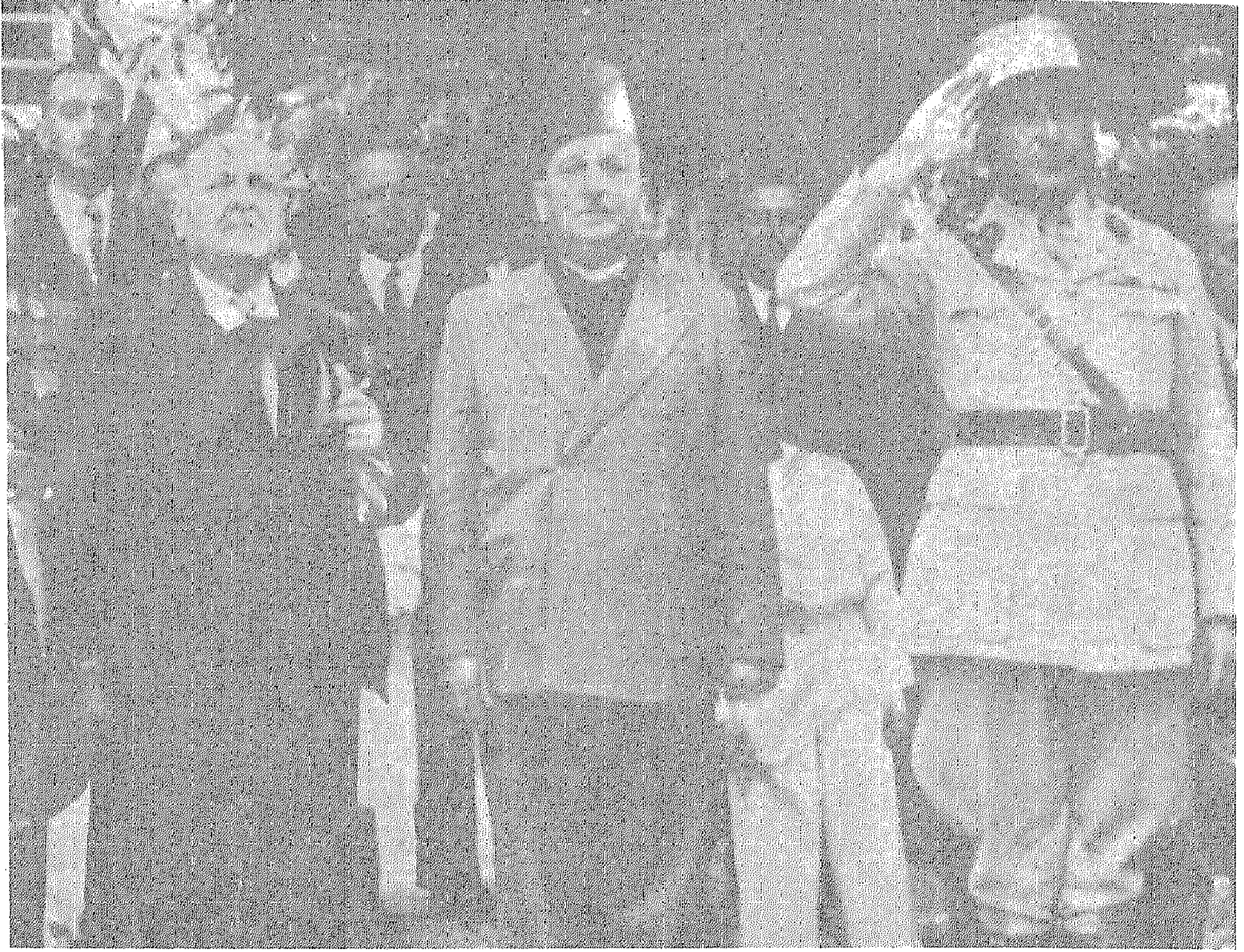
هذه الانتخابات الفذة دفعت بفئة من ذوي النفوس الأبية أمثال السيدة افلين بسترس رئيسة جامعة نساء لبنان ونائبة رئيسة الاتحاد النسائي العربي العام إلى تأليف لجنة للطعن بالانتخابات، ومعارضتها بكل ما تملك من وسائل. والسيدة افلين بسترس أديبة كبيرة لها مؤلفات باللغة الفرنسية أحدها قصة مستوحاة من التاريخ العربي عنوانها «يد الله» والسيدة افلين كانت من سيدات المجتمع الراقي وكان قصرها (قصر بسترس الذي تحتله اليوم وزارة الخارجية) يؤمه الزوار من كبار أهل الأدب والسياسة، وتعقد فيه المجالس والندوات المتعددة الألوان من سياسية وأدبية واقتصادية وثقافية وفنية. وقد ترأست جامعة أدباء لبنان التي كانت تضم معظم أهل الأدب اللبنانيين. وكان من أعمال اللجنة التي ألفتها السيدة بسترس، طبع نشرات كبيرة تلصق على الجدران في شوارع بيروت تندد بالأساليب التي اتبعت. وقد تولت هي بنفسها كتابة المنشورات باللغة الفرنسية إلى جانب المكتوبة بالعربية. وقمت برفقة الصديق عماد الصلح بطبعها في دمشق بسرية تامة وكانت هذه النشرات بحجم جريدة وبأحرف اعلان كبيرة، وأخذنا لهذه النشرات صوراً أرسلناها من دمشق إلى جرائد فرنسا وأحزابها بغية اطلاع الرأي العام الحر على ما يجري في لبنان على أيدي عمال الانتداب.



تقي الدين الصلح.

وعند رجوعنا إلى بيروت قام بإلصاق الاعلانات على جدران المدينة مجموعات أو لجان سرية تبلغ نحو العشرين فرقة توزعت احياء العاصمة لالصاق تلك المنشورات سراً تحت جنح الظلام. وقد اشتركت السيدة بسترس شخصياً بهذه العملية مع شخصيات كبيرة أذكر منها الرئيس تقي الدين الصلح وحسين سجعان وكامل مروة صاحب جريدة الحياة والوزير جورج كفوري وعقيلته والقاضي نجيب الكفوري والشيخ منير تقي الدين والشيخ فؤاد حبيش والنقيب زهير عسيران وعماد الصلح وغيرهم كثيرين... وقد حافظوا جميعاً على منتهى السرية لنجاح العمل.

ولعل أطرف ما في الأمر ان السرية كانت منفذة إلى حد ان السيدة بسترس كانت تكتم الأمر حتى عن زوجها الوجيه والثري الكبير جبران بسترس وابنها المرحوم فادي بسترس وباقي أفراد عائلتها وليس مثل هذا الكتمان سهلاً في مثل قصرها المليء بالحاشية والعمال رجالاً ونساء. وكان نصيبي أن أرافق الفريق المؤلف من: السيدة افلين بسترس والسيدة نجلا كفوري رئيسة جمعية النهضة النسائية والأستاذ جورج الكفوري والفتى نجيب الكفوري في سيارة واحدة.



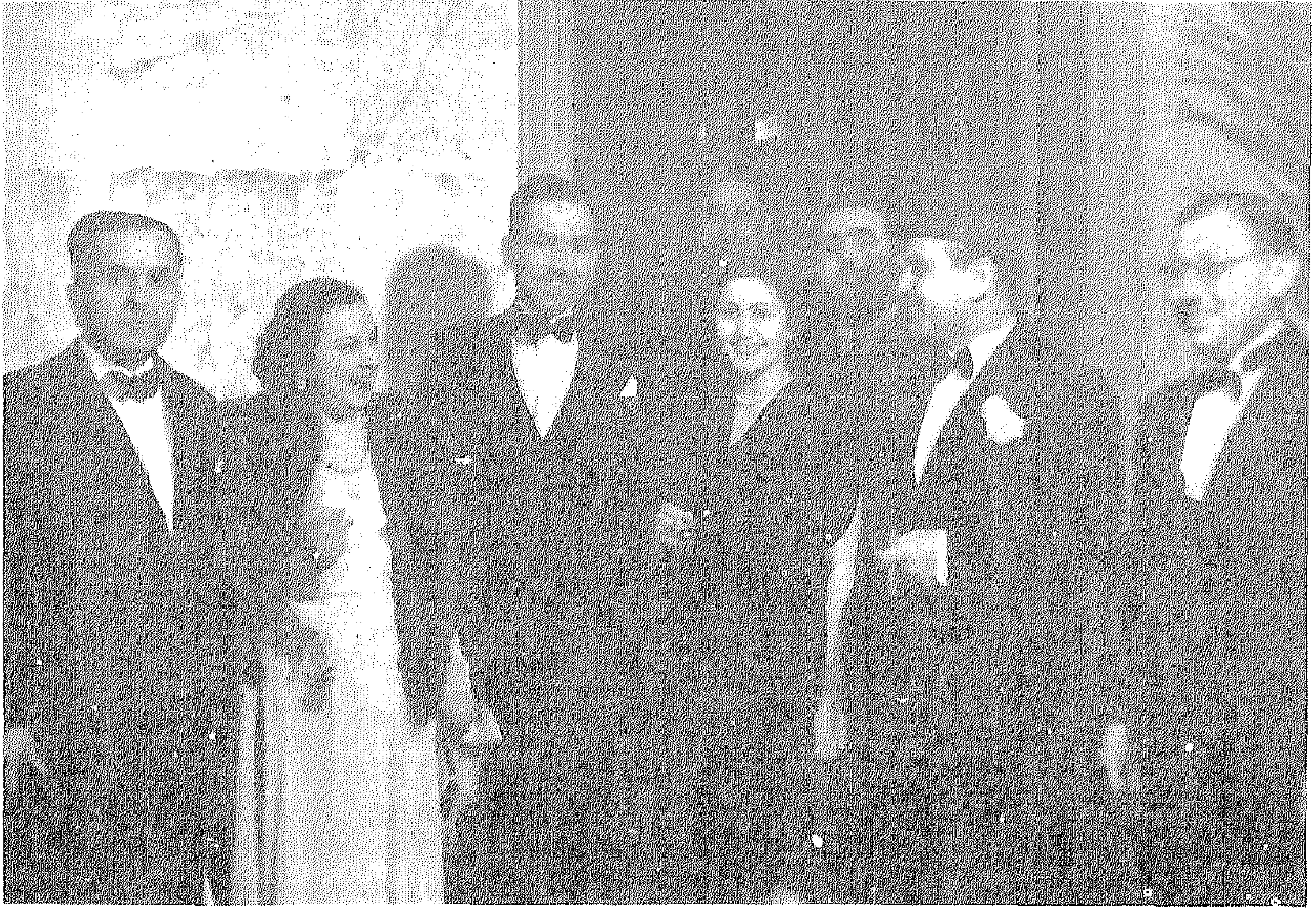
الشيخ بشارة الخوري وإلى يساره سامي الصلح ثم الجنرال فؤاد شهاب قائد الجيش

وبعد ان انتهينا حوالي الساعة الثالثة صباحاً إلتقينا جميعاً في قصر السيدة بسترس نروي لبعضنا البعض عن مغامرة الليل غير ان حظ هذه النشرات لم يكن سعيداً إذ صدف ان اكتشف أمرها النائب جورج خباز وهو أحد صاحبي جريدة الأوريان وصديق عزيز لرئيس الجمهورية اميل اده اكتشفها عندما كان يدخل إلى نادي الطيران في ساعة متقدمة من الصباح فثارت ثائرته واتصل فوراً بصديقه الرئيس وأبلغه الخبر، واتصل الرئيس بدوره بمدير الشرطة وبعث هذا برجاله يطوفون شوارع المدينة لنزع الملصقات عن الجدران، لكن هؤلاء غفلوا عن عدد كبير منها فشاهدها الناس في الصباح على مداخل بعض المؤسسات الكبرى: منها البرلمان والسراي التي كانت قائمة على الجانب الشمالي من ساحة الشهداء، وتناقل الناس ما ورد فيها بارتياح وتشفي.

وأتبعت الهيئة منشوراتها هذه بقصاصات ورق صغيرة تتضمن نفس المعنى نثرت بغزارة فوق رؤوس الجماهير التي كانت تتجمع في ساحة الشهداء أثناء قدوم البطريرك الماروني الى بيروت لتهنئة المفوض السامي بالوصول بعد غيبة قضاها في فرنسا.

وكالعادة المألوفة في هذه الحالات كان يندس بين الجماهير عدد من رجال الشرطة السرية فشاهدوا القصاصات تنثر على هذا النحو فتنبهوا للأمر، وبعد مراقبة دقيقة وقعت أنظارهم على أحد الصبية وهو يلقي كمية منها من على شرفة أحد المقاهي فسارعوا للقبض عليه وكان اسمه فيصل درويش وسلموه إلى المحقق المعروف رضا التامر الذي قام باستجوابه لمعرفة من أعطاه هذه القصاصات. وكان الاهتمام منصباً للوصول إلى التقاط أي خبر عن الضالعين بهذه المعارضة، فأنكر الولد معرفة أي منهم وتشدد المحقق في التحقيق طيلة أيام ثلاثة حتى لجأ إلى استعمال أساليب الاغراء التي أوقعت به، فأخبر أخيراً بأني الشخص الذي سلمه اياها، فارتاح المحقق إلى هذا الاقرار وانشرح صدره إلى الصيد الثمين فنقل الخبر فوراً إلى من كان يترقب بلهفة نتائج التحقيق ثم أوعز إلى شرطة المباحث بضرورة احضاري إليه بأسرع ما يمكن من الوقت.

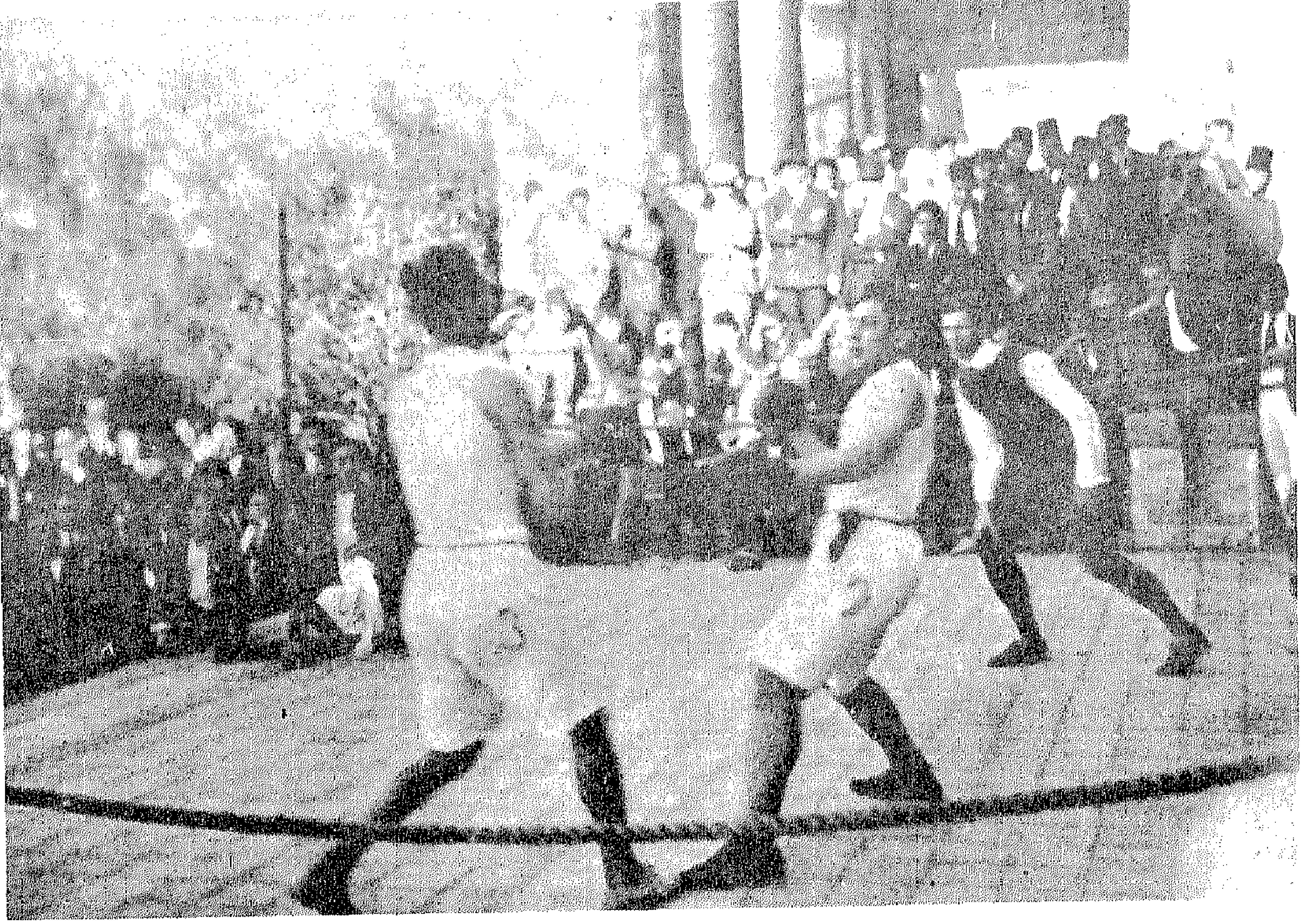
كنت في مساء ذاك اليوم حسب عادتي في



من اليسار إلى اليمين: جورج كفوري. نجلا كفوري. عبد الجليل الراوي سفير العراق. السيدة تميمة صائب سلام. صائب سلام. مالك سلام.

مكتب جريدة المساء لصاحبها الصديق عارف الغريب حين أقبل المفوض اميل خير الله وطلب إلي مرافقته إلى قصر العدل لمقابلة المحقق فصحبته بدون تردد، وأثناء سيرنا سألت المفوض عن سبب هذه الدعوة فقال: المحقق يريد أن يسألك ما هي معلوماتك بشأن المناشير التي صودرت من الصبي. وعند المحقق امتنعت عن الرد على أسئلته فقال لي: إذا كنت لا تجاوب فهذا يعني انك تحمل وحدك المسؤولية وكأنك تقبل أن تصدر بحقك مذكرة توقيف؟ قلت إني صممت على رفض طريقتكم بالتحقيق فافعلوا بي ما تشاؤون... ولما أيقن ان لا فائدة من اقناعي بالجواب على أي سؤال... صدرت بحقي مذكرة توقيف تقضي بوضعي في زنزانة عارية من أي مقعد أو سرير والريح تنساب إليها من شباك عالٍ ومفتوح، غير ان رجال الدرك ما لبثوا أن جاؤوني بفراش وغطاء وبقهوة ودخان وسألت عن الدافع لهذا العطف من حراس ما تعودوا إلا استقبال المتهمين بشتى الجرائم وأبشعها. فقيل لي ان مدير السجن أمر بالعناية بك. وعلمت فيما بعد ان الصديق عارف الغريب الذي تبعني إلى قصر العدل للوقوف على أخباري وعندما عرف بنقلي إلى السجن اتصل فوراً بصديقه الكومندان الياس المدور يعلمه بدخولي السجن ويطلب إليه الايعاز لمديره بالاعتناء بي لأني لم أعتد خشونة الحبس واتصل القائد بالمدير الذي هو تحت أمرته وأوصاه بي، ومع هذا لم يغمض لي جفن طيلة الليل.

وعرف الرئيس سامي الصلح بأمري فذهب لتوه وقابل رئيس الجمهورية اميل اده وقال له ان سجن الشاب لا يحد من نقمة الجماهير الشاجبة للانتخاب المزيفة، بل يزيدها ثورة وحقداً. وسيتقدم المحامون الذين لم يفوزوا في الانتخاب بالتطوع للدفاع عنه فتكون المحاكمة فرصة سانحة للطعن بالانتخابات المزورة والمسؤولين عنها وبدا ان الرئيس اده اقتنع بهذه الملاحظة فأوعز إلى النيابة العامة بالعمل على طي الشكوى كما نقل الأمر إلى السجن بالتحقيق عني تدريجياً تمهيداً لاطلاق سراحي، فنقلت من الزنزانة إلى القاووش الذي يضم عشرات السجناء الذين



صورة طريفة تجمع حسين سجعان وصائب سلام



من اليسار إلى اليمين: ايفلين بسترس ونجلاء كفوري.

يزدحمون في قاعة تعبق بأجواء رائحة الأجسام ودخان السجائر فهالني الأمر وطلبت مقابلة المدير وسألته عن سبب نقلي إلى القاووش فقال انه أمر من النيابة العامة بغية التحقيق عنك، قلت اني لا أستطيع البقاء هنا ساعة واحدة وأرغب بالرجوع إلى حيث كنت فتفضل وراجع من أعطاك الأمر وقل له ان التحقيق الذي يزعمه قد يتسبب بموتي اختناقاً.

واستجاب النائب العام للطلب وأعادوني إلى سجني الأول الذي لم يطل بقائي فيه إذ صدر الأمر باطلاق سراحي في اليوم الثالث مقابل سند اقامة فخرجت من السجن دون متابعة التحقيق ثم دعيت إلى جلسة محاكمة بعد سنة كاملة فإذا بالمحكمة تجد في ملفي توصية بشطب الدعوى فلم تجد بداً من احالتها للحفظ. وحفظت بدوري هذا الحادث بين ذكريات شبابي المتعددة.

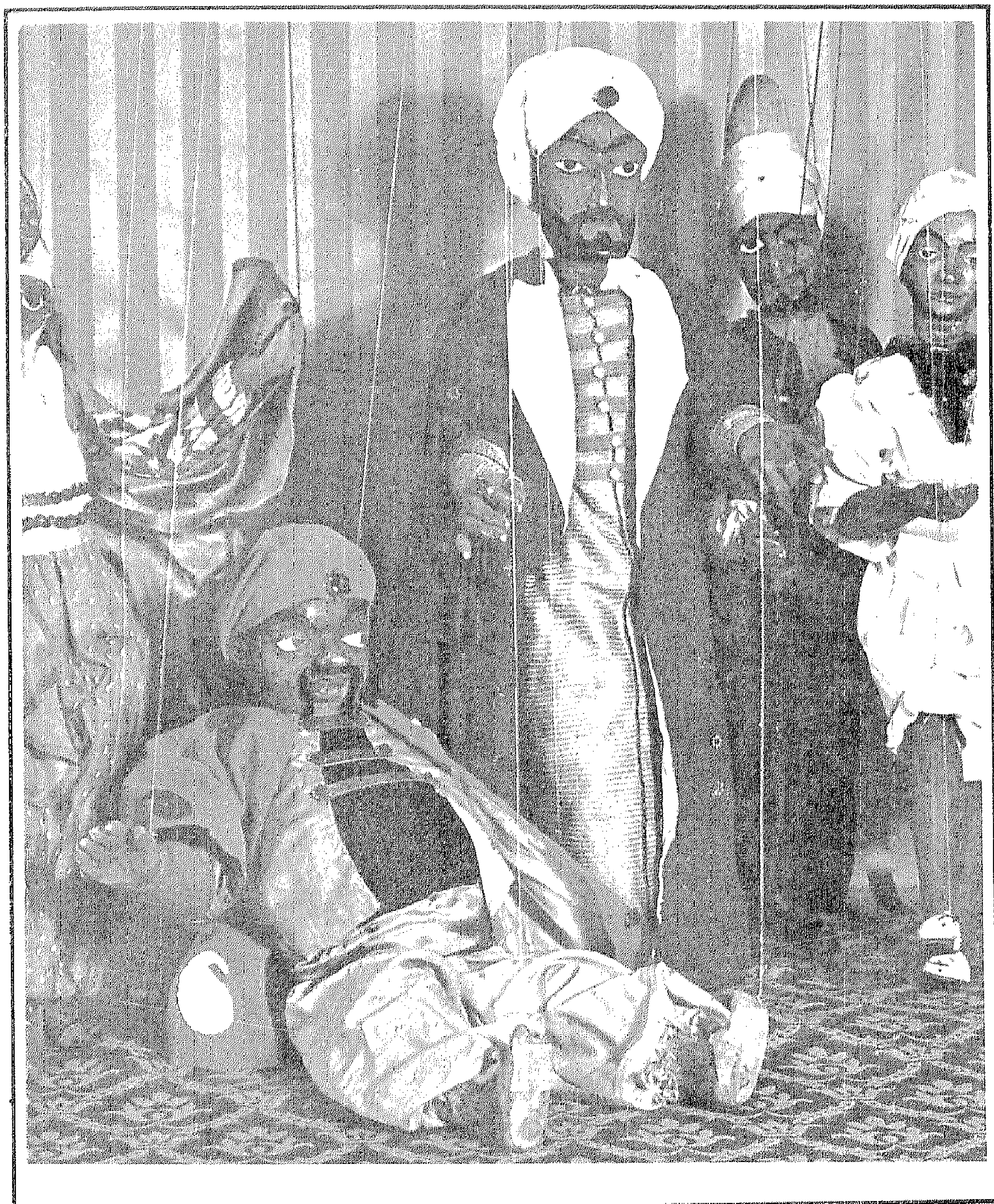
■

أراجيز عربية قديمة لترقيص الأطفال

الحلقة الأولى

بقلم : فيبكة فالتر

ترجمة : محمد علي حشيشو



نشرت هذه المقالة بالالمانية ثم ترجمت إلى العربية و نشرت في مجلة فكر وفن العدد ١٨.

«فن الأراجيز العربية لترقيص الأطفال» عرفه تاريخ العرب مبثوثاً في كتب اللغة والأدب والأسفار والتاريخ ، وهو ، إلى جانب أهميته كتعبير فني خاص له مكانة في الأغنية والايقاع العربيين ، يعبر عن مضمون إجتماعي نفسي لمفهوم الطفولة في التاريخ العربي ، ويعكس مضامين اجتماعية معينة في العلاقات الأسرية العربية . فهو بهذا المعنى مصدر مهم لدراسة تاريخ الطفولة والعائلة . ومن هنا تختار مجلة «تاريخ العرب والعالم» هذه المقالة التي كتبها المستشرق الألماني «فيبكه فالتر» وتنشرها كمقالة تاريخية في موضوع خاص ، وكمصدر لدراسة موضوعات علم النفس الاجتماعي في التاريخ العربي .



وردت في شتى مواضع الأدب العربي القديم ، وبخاصة في طبقات الأدباء ، وفي المعاجم وأسفار اللغة والتاريخ ، نصوص أبيات مقفّاة كانت ترقص عليها الأطفال ، وهي تتباين من مقام إلى مقام[١] . ويقال في مثل هذه المواضع إن أعرابياً أو أعرابية جعلت طفلها أو جعل طفله ، وهو في الغالب ابن ، وقلما يكون ابنة ، يرقص بينما يردد على ايقاع رقصه الأرجوزة الشعرية التالية ؛ وعلى سبيل المثال : الإبشيهي ، المستطرف ٢ ، صفحة ١٠ ، ١٤ : «وكانت أعرابية ترقص ولدها وتقول»... وكانت هذه قصائد صغيرة يخاطب فيها الكبار صغارهم ، وتشبه في وظائفها ما يرتله الألمان عند ركوب أطفالهم على ركب للمداعبة كـ«Hopp Mariannchen, Hoppe hoppe Reiter» أو ما يدعى بالإنجليزية «Nursery rhymes» . ومن الكلمات المستعملة إلى جانب «رقص» و«أرقص» ، «زفن» و«زف» .

وقد أدرج عدد كبير من أشعار رقص الأطفال هذه كما يبدو في «كتاب الترقيص» أو «المرقصات والمطربات» لأبي عبد الله محمد بن الأزدي وهو من تلامذة اللغوي ابن دريد (المتوفى في ٩٣٤/٣٢١)[٢] . وعلى أية حال فإن «الإصابة» و«السمط» للبكري يشيران إلى ذلك بذكر عنوان الكتاب واستشهاد واحد منه في كل منهما . وتشير الاقتباسات المذكورة في تاريخ الأدب العربي لبروكلمان (GAL) ، في المكان المذكور ، إلى أن المؤلف ، كما هي العادة في كتب الأدب ، لم يقتصر على موضوع واحد ، وإنما كان متعدد المحتويات ، وقد أخذ أغلب هذه الاقتباسات من كتاب السيوطي «المزهر» وتحتوي في الغالب على معلومات تتعلق باللغة والأنساب .

وسنقدم فيما يلي مجموعة صغيرة من مثل هذه الأبيات الشعرية القديمة الخاصة برقص الأطفال[٣] . والقسم الأصغر من هذه الأبيات مجهول الشاعر ، كما هو الحال في الأدب الشعبي بوجه عام ، أما في القسم الأكبر من هذه الأبيات فقد ذكر أنها تليت على شخصية معروفة في التاريخ العربي أو الإسلامي ، من أبيه أو أمه أو جدته أو أحد أقربائه ، وفي الغالب من شخصية تاريخية معروفة .

وعند مزيد من الفحص فإن عدداً من هذه الأبيات غير مجهولة القائل يبدو مبتكراً في فترة لاحقة ، إما لأسباب دعائية في عهد حياة المعني بالأمر ، وإما لتزيين الروايات اللاحقة عنه ولإعطائها مزيداً من اللون والتفصيل . ويشهد على ذلك أيضاً أن محتويات هذه الأبيات في الغالب أقل تواضعاً من الأشعار المجهولة القائل . ولكن حقيقة تحول هذه الأبيات مع الزمن إلى روايات أهجية يشهد كذلك على سعة انتشار وحب هذا النوع من الأدب . ومن العسير إعطاء تاريخ دقيق لهذه الأبيات ، ولكن المعتقد أن الجزء الأكبر منها يعود إلى القرنين الأولين للعهد الإسلامي ، كما أن هناك بضعة منها قد تعود إلى أصل جاهلي .

إن جميع الأبيات المذكورة هنا من بحر الرجز ، الذي اعتبر ، على ما يبدو ، أفضل ما يناسب قفز الطفل أو رقصه ، كما كانت أبيات الرجز تستعمل

كذلك لمصاحبة الحركات الجسمية الأخرى (كالعمل، وسير الجمال)[4]. والقصائد الصغيرة ذات الأوزان الثلاثية التفعيلات أكثر بكثير من الثنائية التفعيلات (بنسبة ٢٥ إلى ٨)، وبين الثلاثية تغلب الناقصة التفعيلات (وتبلغ ١٦) وتبلغ ذات التفعيلات الكاملة (٨)، أما بين الثنائية التفعيلات فتغلب الكاملة (وعددها ٥) على الناقصة التفعيلات (وعددها ٣). وهناك قصيدة قصيرة واحدة ثلاثية ذات تفعيل قصير.

ونذكر في بادئ الأمر الأبيات المجهولة القائل وتلك التي يمكن اعتبارها حقيقية أصيلة بكثير من الاحتمال. ويظهر أغلب هذه القصائد القصيرة بأشكال مختلفة باختلاف النصوص. وغالباً ما تتعلق بالأبناء وتنطق بحب الطفل والفخار به، كهذه الأبيات التي رقص أب ابنه بها (الإبشيهي، المستطرف، المجلد ٢، ١٠، ١٧):

أحبه حب شحيح ماله
قد ذاق طعم الفقر ثم ناله
إذا أراد بذله بدا له.

وفي «العقد»، المجلد ٢، صفحة ٤٣٩، ١١ - ١٢ تظهر الأبيات نفسها مع فارق بسيط في نص البيتين الأخيرين:

قد كان ذاق الفقر ثم ناله
إذا يريد بذله بدا له

وتنطق الأبيات التالية (الإبشيهي. المستطرف، م ٢. صفحة ١٠. ١٥) بالشعور السائد بين كثير من الأمهات بأنهن لم يلدن طفلاً عادياً وإنما صبياً متميزاً:

يا حبذا ريح الولد
ريح الخزامى بالبلد
أهكذا كل ولد
ألم يلد مثلي أحد.

وذكر البيهقي («المحاسن». صفحة ٥٨٥) الأبيات نفسها مع اختلاف بسيط في البداية:

كأنما ريح الولد.

وفي البيت الأخير أورد كلمة «قبلي» بدلاً من «مثلي». ويتناسب مع البيتين الأولين من حيث المعنى حديثان مرفوعان يزعم أنهما نقلا عن الرسول محمد: «ريح الولد من ريح الجنة» و«الأولاد من ريحان الله». (العقد. م ٢. صفحة ٤٣٨. س ٤. وكـــــذلك الإبشيهي، المستطرف. م ٢. صفحة ٩٠).

ويعبر البيت التالي عن الاعتزاز بالابن الصغير وقد رقص أب ابنه به:

أعرف منه قلة النعاس
وخفة في رأسه من رأسي

وقد ورد الشطر الثاني في بعض المخطوطات على الوجه التالي: وخفة من رأسه في رأسي.

ومن الأمثلة النموذجية على التفاخر العربي القديم هذان البيتان اللذان يعربان عن الرغبة في أن يثبت مركز الطفل في مجتمع القبيلة. وأن تحميه القبيلة ابتداء من قبيلة خولان في الجنوب حتى جميع آل قحطان. أي جميع عرب جنوبي الجزيرة. والاتجاه أخيراً. وهذا ما يبدو غريباً نظراً للخلافات بين عرب الشمال وعرب الجنوب. نحو عرب الشمال. أهل عدنان الأكرمين. (شرح العيني. م ٤. صفحة ٩١):

فداك حي خولان
جميعهم وحمدان
وكل آل قحطان
والأكرمون عدنان

وبالأبيات التالية رقصت أم ابنها. وهو رضيع. بعد أن قضى أبوه من آل طي نحبه. وكان قاطعاً للطرق (العقد، م ٢. صفحة ٤٣٩. ١٧ - ١٨):

يا ليته قد قطع الطريقا
ولم يرد في أمره رفيقاً
وقد أخاف الفج والمضيقا
فقل أن كان به شفيقاً.

وبما أن استعمال «ليت» مع الماضي قد يكون له معنى الاستقبال وكذلك الماضي وبما أن النص يخلو من أية إشارة أخرى. فإنه ليس من الواضح فيما إذا كانت الأبيات تعبيراً عن الأسف لتصرفات الأب أم رغبة أو نصيحة للابن. ولكن يبدو لي من الموقف أن الاحتمال الأول هو الأقرب للحقيقة.

وفي القطعتين التاليتين يذكر اسما تدليل لرجلين. لعلهما اسما التدليل الوحيدان اللذان انحدرا الينا من



امومة (اسماعيل شموط)

بواكر عهد الإسلام . إذا غضضنا الطرف عن أسماء التصغير . ويروى أن هنداً بنت أبي سفيان تلت لابنها عبد الله بن الحارث . وهو هاشمي . كان والياً على البصرة مدة قصيرة في عهد عبد الله بن الزبير[٥] . تلت له في طفولته أرجوزة رقص منتشرة في نصوص مختلفة . وهي تخاطبه في هذه القطعة باسم له . وهو اسم يجعلنا نعتقد أنه يعود إلى فترة محاولة النطق الأولى للطفل بحيث أصبحت هذه الكلمة اسم التدليل الـــذي أطلق عليـــه (لسان العرب . تحت : ب - ب - ب . ابن يعيش . صفحـــــة ٣٦ . س ١٨ - ١٩) :

لأنكحن به
جارية خدبه
مكرمة محبه
تجب أهل الكعبة .

وفي كتـــاب «نقـــائض جرير والفرزدق» ، صفحة ١١٣ ، ١ - ٢ توجد القطعة نفسها باختلاف في الشطر الثاني : «جارية كالقبة» ؛ وعند ابن دريد ، «كتاب الاشتقاق» ، صفحة ٤٤ ، ٨ حذف الشطر الثالث .

ومما يدل على أن عبد الله بن الحارث احتفظ بهذا الإسم منذ عهد الطفولة وكان ينادي به بعد أن كبر بشيء من الهزء أيضاً ، الاقتباس الذي ورد عند الطبري التاريخ م ٢ ، صفحة ٤٥١ ، ١٢ والذي مفاده أن أحد خصومه في البصرة غير من الأبيات المذكورة وأوردها على الشكل التالي :

لأنكحن به
جارية في قبه
تمشط رأس لعبة .

ويوجد في الكتاب معلومات أخرى عن المواضع التي ترد فيها هذه القطعة مع الإختلافات المذكورة أعلاه . ويقال إن والد المحدث عمر بن شبة قد احتفظ بلقبه «شبة» - واسمه في الحقيقة زيد - وذلك لأن أمه رقصته على القطعة التالية (السيوطي ، بغية ، صفحة ٣٦١ ، ١٠) :

يا با أبي يا شبا
وعاش حتى دبا
شيخاً كبيراً حبا

ويلاحظ أن استعمال (با أبي) بدلاً من (يأبي) قد اضطر إليه الشاعر لأسباب تتعلق بالوزن في الشطر الأول . وهناك قطعة لها نفس البداية قيل ان عبد المطلب رقص بها ابنه الحارث أو الزبير (ابن دريد ، الاشتقاق ، صفحة ٧٥ ، ٩) :

يا بيبي يا بيبي يا بيبي
كأنه في العز قيس بن عدي

وقيس ابن عدي الذي يقارن به الطفل هنا ، كان ، كما جاء في كتاب ابن دريد ، في المكان نفسه ، أحد زعماء قريش في زمنه . ويتضح أنه من استحسان استخدام عبارة (يا أبي) - وهنا تحولت الهمزة إلى ياء - أو مصاحبتها لرقص أو قفز الطفل ، قد خلقت فعلاً ما يشتق من هذه العبارة وهو بأبأ بمعنى : «أرقص طفلاً أو هزه بين الذارعين» .

ويقال أن مربية أبي بحر بن قيس ، وهو من أشراف تميم ، كان يعرف بكنيته «الأحنف» ، وكان يلعب دوراً لا يستهان به في الحياة السياسية والعسكرية في أوائل الإسلام ، ويتمتع في الأدب العربي باعتبار لا بأس به ، قيل إن مربيته ارقصته على القطعة التالية :

والله لولا حنف برجله
ما كان في صبيانكم كمثله .

منافسة بين زوجتين لرجل واحد :

وهناك قطعتان وردتا في مكانين مختلفين ومع اختلاف في النص وتشيران إلى موقف كان يتكرر عند الأسر التي كانت تتعدد فيها الزوجات في ذلك العهد ، وهو أن تلد زوجتان لرجل واحد في الوقت نفسه ، الواحدة ابناً والأخرى بنتاً . وتعلن أم الابن ، فخورة ، انتصارها الذي تحمد الله عليه ، وتعيب على منـــافستها بـــذم البنـــات (البيهقي ، المحـــاسن ، صفحة ٦٠٠ ، ٥ - ٦) :

عفاني اليوم من الجواري
من كل سوداء كشن بالي
لا تدفع الضيم عن العيال

وتوجد القطعة التالية التي تختلف عن الأولى في (مستطرف الإبشيهي ، م ٢ ، صفحـــــة ١٠ ، ١٩ - ٢٠) :

الحمد لله الحميد العالي
انقدني العام من الجوالي
من كل شوهاء كشن بالي
لا تدفع الضيم عن العيال .

ثم تحاول أم البنت تبرير وضعها . فتؤكد أن للبنت كذلك حسناتها فترقص ابنتها بالأبيات التالية (البيهقي . المحاسن . صفحة ٦٠٠ . ٨ - ١١) :

وما عليّ أن تكون جارية
تحفظ بيتي وترد العارية
تمشط رأسي وتكون الغالية
وتحمل الفاضل من خماريه
حتى إذا بلغت ثمانية
وزينت بنقبة يمانية
زوّجتها مروان أو معاوية
أزواج صدق بمهور غالية .

وكما يظهر الاسمان في البيت ما قبل الأخير فإن القطعة تعود إلى العصر الأموي . وقد أورد الإبشيهي (المستطرف ، م ٢ صفحة ١٠ ، ١٩ - ٢٠) القطعة التالية وفيها اختلاف بسيط في النص :

وما علي أن تكون جارية
تغسل رأسي وتكون الغالية
وترفع الساقط من خماريه
حتى إذا ما بلغت ثمانية
أزرتها بنقبة يمانية
انكحتها مروان أو معاوية
أصهار صدق ومهور غالية .

ونجد هنا إضافة من اختراع الراوي بكل تأكيد وهي أن مروان سمع هذا وأنه تزوج بالفتاة وقدم لها مهراً قيمته مائة ألف مثقال ليجعل أمها على حق ولئلا يخيب أملها . وتقول الرواية إن معاوية قال على إثر ذلك إنه لو لم يسبقه مروان إلى ذلك لدفع ضعف ذلك المهر ، وبما أن الهدايا ليست ممنوعة . فقد بعث إليها بمائتي ألف درهم ؛ «والله أعلم» على ذمة الراوي . وقد أورد الجواليقي ، صفحة ١٢٣ ، ٧ - ٨ هذه القطعة بصيغة مختصرة .

ولادة البنت :

ويتبين المرء من عدة قطع شعرية لرقص البنات الصغيرات مدى قلة تقدير ولادة البنات . فنجد الرواية الصغيرة التالية عند الجاحظ ، البيان ، م ١ ، صفحة ٧٧ : غادر أبو حمزة الضبي خيمة زوجته بعد أن كانت قد ولدت له عدة بنات . وبات عند جيرانه . وبعد أن ولدت زوجته بنتاً أخرى ، مرّ ذات يوم بخيمتها وسمعها وهي ترقص البنت الصغيرة وتقول ، (السطر ٨ - ١٠) :

ما لأبي حمزة لا يأتينا
يظل في البيت الذي يلينا
غضبان ألا نلد البنينا
تا لله ما ذلك في أيدينا
وإنما نأخذ ما أعطينا
ونحن كالأرض للزارعينا
ننبت ما قد زرعوه فينا .

ويقال إن أبا حمزة أسرع على أثر ذلك ودخل خيمة زوجته وقبلها مع ابنته . وكما جاء في القطعة التي تخاطب فيها زوجة قاطع الطرق ابنها ، فان الأم هنا لا تتجه نحو طفلتها وإنما نحو الأب لتلومه على تصرفاته .

وقد هنأ الأديب ابن المقفع بشيء من المكر أحد هؤلاء الآباء الحانقين على ولادة بنت له وذلك بالأبيات التالية (البيهقي ، المحاسن . صفحة ٥٩٩) :

سخطت بنية عما قليل
تسربها عيون الناظرات
فبارك في فطيمة رب موسى
وأنبتها بنات الصالحات
وزادك عاجلاً أخرى سواها
لسخطك إذ سخطت على البنات .

ولا نستطيع فهم القطعة التالية التي ظهرت في «إرشاد الأديب» لياقوت إلا من خلال أوضاع ذلك العصر . وقد قدم ياقوت للقطعة بما يلي : روى علي ابن عبد العزيز بن المرزباني في مسجد الحرم في مكة أنه كان عند معلمه الذي كان يعلمه الخط عندما أدخلت عليه إحدى بناته الصغيرات وهي ترتدي ثوباً حريرياً . وأجلس البنت - وكان اسمها وسناء - في حجره وراح ينشد (ارشاد ، م ٥ ، صفحة ٢٤٨ وما تلاها) :

وما الوسناء إلا شبه در
ولا سيما إذا لبست حريراً
فأحسن زيِّها[6] ثوب نظيف
تكفن فيه ثم أرى سريراً
تهادي بين أربعة عجال
إلى قبر فتملؤنا سروراً

وخلافاً للقطع المذكورة سابقاً – بإستثناء الأخيرة – فإن هذه القطعة ليست شعر رقص ، وكذلك البحر ليس بالرجز . وقد يبدو المحتوى قاسياً رهيباً ويذكر بأن البدو كانوا في العصر الجاهلي يئدون بناتهم أحياء بعض الأحيان في الرمال ، لتخفيف العبء عن القبيلة التي لم تكن قوتها تضمن إلا بعدد أفرادها من الرجال . وقد منع الإسلام هذه العادة إلا أنه لم يستطع على ما يبدو أن ينهي الاستياء من ولادة البنات في عالم يسوده الرجال . وقد أدى الجزع الشديد على مستقبل البنات الصغيرات اللواتي كن لا عون لهن دون حماية الرجال ، أدى هذا الجزع بالدرجة الأولى إلى التغني بأبيات يتمنى الآباء فيها الموت السريع لبناتهم كأفضل مصير لهن ، كما هو الحال فيما يلي (الإبشيهي ، المستطرف ، م ٢ ، صفحة ٩ وما بعدها ؛ وكذلك البيهقي ، المحاسن ، صفحة ٦٠٢ وما بعدها) :

أحب بنيتي ووددت أني
دفنت بنيتي في قاع لحدي
سألت الله يأخذها قريباً
ولو كانت أحب الناس عندي .

وكردّ على هذا الرأي فقد وردت أحاديث عند البيهقي . (صفحة ٥٩٩ وما تلاها) وكذلك عند الإبشيهي . تقول بأن البنات أفضل من الأبناء . فهن من يصبح أمهات وأخوات وعمات وخالات وأنهن قد يترعرعن لما فيه فائدة العائلة وسعادتها في كثير من الوجوه . ويضع البيهقي هذه الأحاديث مقيماً إياها تحت عنوان : «قصص طيبة عن البنات» بينما يقدم القطع الشعرية والروايات التالية تحت عنوان «قصص قبيحة عن الاستياء من البنات» .

ولكن الهلع المليء بالحب على مستقبل البنات الصغيرات في عصر كانت لا تزال مفاهيم التخطيط العائلي وتحديد النسل بعيدة جداً فيه ، وجد تعبيراً آخر كما ندرك ذلك من قطعة أنشدها المعلى الطائي (العقد ، م ٢ صفحة ٤٣٨ ، ١٢ – ١٦) :

لولا بنيات كزغب القطا
حططن من بعد إلى بعد
لكان لي مضطرب واسع
في الأرض ذات الطول والعرض
وإنما أولادنا بيننا
أكبادنا تمشي على الأرض
إن هبت الريح على بعضهم
لم تشبع العين من الغمض .

وقد أخذت هذه الأبيات من قصيدة طويلة ذكرت مع بعض الاختلافات في «الأمالي» . للقالي ، م ٢ ، صفحة ١٨٩ وما تلاها ، وكذلك في «الحماسة» ، م ١ ، صفحة ١٤١[7] . وتظهر الشطرات الأربع الأخيرة أو الاثنتان الأخيرتان منها فقط مراراً ، كما ذكر البيهقي . في «المحاسن» ، صفحة ٥٨٥ ، ٥ .

وفي هذا الخصوص فإن للقصة التالية من كتاب الأغاني ، ١٨ ، صفحة ١٤٧ علاقة بالأمر أيضاً : فقد تزوج رجل اسمه أبو نهيلة من امرأة من عشيرته . وعندما ولدت له ابنة طلقها لفرط غيظه بسبب ذلك . ولكنه ندم على ذلك فيما بعد وأعادها إليه . وعندما كان ذات يوم في بيته سمع صوت ابنته . بينما كانت أمها تلاعبها . ولمس ذلك أوتار قلبه . فذهب إليها واخذها بين يديه ورقصها على الأبيات التالية :

يا بنت من لم يك يهوى بنتاً
ما كنت إلا خمسة أو ستا
حتى هلكت في الحشى وحتى
فتتت في القلب جوى فانفتا
لأنت خير من غلام أنتا
يصبح مخموراً ويمسي سبتا .

ومما يدهش استخدام هذه القطعة كأرجوزة للرقص ، حتى وإن كانت بعض أبياتها من بحر الرجز . إذ أنها في الحقيقة أغنية رثاء للشاعر بشار بن برد بمناسبة وفاة بنت صغيرة له وهي تظهر على هذا الأساس مع بعض الإختلافات في كتاب الأغاني .

٣ (١٩٢٩)، صفحة ٢٢٩، ٥١ وما تلاه[٨]. ومع ذلك فقد اهتم الأب هنا على ما يبدو بالدرجة الأولى بمحتوى المصراع الأول والمصراعين الأخيرين.

وهناك قطعة وردت في «الأمالي» للقالي، م ٢، صفحة ١٩٧ وما تلاها، وتدل على أن هناك من كان يظهر الاستياء من الأبناء أيضاً وهي أبيات انطلقت من أب مغتاظ في سورة غضب وتبدأ كالتالي:

«إن بنيَّ كلهم كالكلب».

وقد توجد أبيات رقص لطيفة لا غبار عليها للبنات الصغيرات أيضاً كالبيتين التاليين مثلاً، وقد قالهما زبير بن عبد المطلب لابنته أم الحكم عندما كانت طفلة. (القالي، الأمالي، م ٢، صفحة ١١٦، ١ – ٢):

يا حبذا أم الحكم
كأنها ريم أحم
يا بعلها ماذا يشم
ساهم فيها فسهم.

ويذكر البكري في سمط اللآلي وهو تعليق وشرح لكتاب الأمالي، م ٢، صفحة ٧٤٤، قطعة تختلف في الشطر الثالث: يا بعلها حزت الكرم. ويتضح فيها أن زوج البنت الصغيرة المقبل يخاطب في صيغة المخاطب خلافاً لصيغة الغائب في الشطر الأخير.

ويقال إن جعفر بن الزبير أرقص ابنته الصغيرة أم عروة على البيت التالي (الأغاني، ١٣، صفحة ١٠٢، ١٠):

يا حبذا عروة في الدمالج
أحب كل داخل وخارج.

والشيء الملفت للإنتباه هنا، أن المخاطبة بعروة لا تعني البنت الصغيرة وإنما اسم الرجل الذي تحتويه كنيتها، أي ابنها المقبل. ويشبه الشطران أغاني الأطفال المألوفة بالألمانية وذلك بصف الشطرين الواحد بعد الآخر بحكم الوزن والقافية دون علاقة في المضمون.

وفيما يلي بيتان يوجدان في اختلافات كثيرة ولا صلة بينهما من حيث المضمون. ويقال إن أعرابية أرقصت ولدها عليهما:

يا قوم مالي لا أحب حشوده
وكل خنزير يحب ولده

ويستطيع المرء أن يفترض هنا أن هذين البيتين قالهما شعوبي لينهكم فيهما على العرب. إذ لم أجد أي مرجع آخر في هذا العصر لاسم حشوده كأسم علم. ويذكر تابع العروس تحت فعل ع – ن – ج – د أبياتاً مماثلة مع اختلاف أقل فظاظة:

يا قوم مالي لا أحب عنجده
وكل إنسان يحب ولده
حب الحباري ويذب عنده

وفي الأبيات التي ذكرها لين (Lane) تحت كلمة حباري وقد استقاها من المغرب للمطرزي والصحاح للجوهري، ينقص البيت الأول بحيث يصبح المعنى معقولاً:

وكل شيء قد يحب ولده
حتى الحباري وتطير عنده

وتذكر الحباري هنا على ما يبدو بسبب بساطتها.

(نهاية الحلقة الأولى)

■

الهوامش

(١) قدم اغناتز غولدتسيهر J. Godziher أول مجموعة من هذه الأشعار.
(٢) راجع كارل بروكلمان. تاريخ الأدب العربي (C. Brockelmann). صفحة 174، رقم 25a
(٣) اني ادين بالشكر للأستاذ W. Fuch على قسم كبير من المراجع.
(٤) راجع (Vers u. Sprache: A. Bloch.) صفحة ١٤.
(٥) راجع ابن سعد. كتاب الطبقات الكبير. المجلد (VII²). ص ٧١
(٦) هذا هو التشكيل الصحيح وليس زبها. كما جاء في المتن.
(٧) ذكر اسم المؤلف هنا وهو حطان بن المعلي.
(٨) استشهد بهذه الأرجوزة باللغة الالمانية في كتاب (Die Renaissance des Islams).

مختارات من المراجع

أبو زيد، كتاب النوادر في اللغة. بيروت ١٨٩٤.
أبو الفرج الاصبهاني: كتاب الأغاني. ج (٣) القاهرة ١٩٢٩/١٣٤٧. ج ١٣ و ١٨ نشر أحمد الشنقيطي. القاهرة بدون تأريخ.
العيني: شرح الشواهد الكبرى. ج ٢. بولاق ١٢٩٩.
البيهقي: كتاب المحاسن والمساوئ. نشر شفالي عام ١٩٠٢.
البكري: سمط اللآلي. ج ٢. القاهرة ١٩٣٧/١٣٥٦.
البلاذري: أنساب الأشراف. الجزء ٥. القدس ١٩٣٦.
ابن سعد: كتاب الطبقات الكبير. تحقيق زاخاو لايدن ١٩٠٥ - ١٩٤٠.
إبن إياس: شرح المفصل. نشر يان لايبزغ ٨٨٢ - ١٨٨٦د.
الإبشيهي: كتاب المستطرف في كل فن مستظرف. ج ٢. مصر ١٩٠٢/٣٢٠.
ابن عبد ربه: كتاب العقد الفريد. ج ٢. القاهرة ١٩٥٦/١٣٧٥.
محمد بن مكرم بن منظور: لسان العرب ١ - ٢٠ بولاق. ١٣٠٠ - ١٣٠٧.
البغدادي: خزانة الادب. ج ٤. بولاق ١٢٩٩.
ابن دريد: كتاب الاشتقاق. نشر ف. فوستنفلد.
ابن الفقيه: مختصر كتاب البلدان. نشر م. ي. دي
القالي: كتاب الأمالي في لغة العرب. ج ٢. القاهرة ١٩٢٦/١٣٤٤.
السهيلي: كتاب الروض العنف. مصر ١٩١٤/١٣٣٢.
السيوطي: كتاب بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة. مصر ١٩٠٨/١٣٢٦.
الطبري: تاريخ الطبري. نشر (11. Ser. M.J. de Goeje). لايدن ١٨٨٣/١٨٨١.
الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس. ١ - ٢٠. مصر ١٣٠٦ - ١٣٠٧.
ياقوت: إرشاد الأديب إلى معرفة الأديب. نشر (D.S. Margoliouth.) ج ٥.
لايدن، لندن ١٩١١. GMS VI, 5.



طعام المصريين

● كان المصريون يأكلون السمك نيئاً مجففاً بالشمس أو منقوعاً في الماء الملح ويتعاطون كثيراً من اللحوم نيئة كالسلوى والبط وبعض أنواع الطيور بعد تمليحها وبعضهم كانوا يأكلون السمك مجففاً بحرارة الشمس فقط.

وكانوا يتناولون طعامهم على انغام الموسيقى ويجعلون على موائدهم تماثيل صغيرة تمثل أجساماً محنطة كأنهم يريدون بذلك كبح جماح الشهوات بتذكير أصحاب المائدة ان نعيم الدنيا زائل. وقد يطوفون بتمثال جثة محنطة حول المنزل يغنون الأغاني ويقولون: كل واشرب وتمتع بملاذ الدنيا قبل أن يدركك الموت. وكانوا يبسطون موائدهم على الطرق ذكر ذلك هيرودوتس، وقال انهم يحتجون عن ذلك بأن الأمور المعيبة إذا كان لا بد من عملها فلتعمل سراً أما غير المعيبة فجهاراً.

الكاتب الفلسطيني

مجلة الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين

تصدر مرة كل شهرين ، مؤقتا ·

ـ تناقش قضايا الثورة الفلسطينية ومختلف القضايا العربية ·
ـ وتتابع الفكر والادب التقدميين في الوطن العربي والعالم ·

ـ قيمة الاشتراك السنوي :

٣٠ ل.ل	في لبنان وسورية
٦٠ ل.ل	في بقية الاقطار العربية
١٠٠ ل.ل	في اقطار العالم
١٥٠ ل.ل	للمؤسسات ·

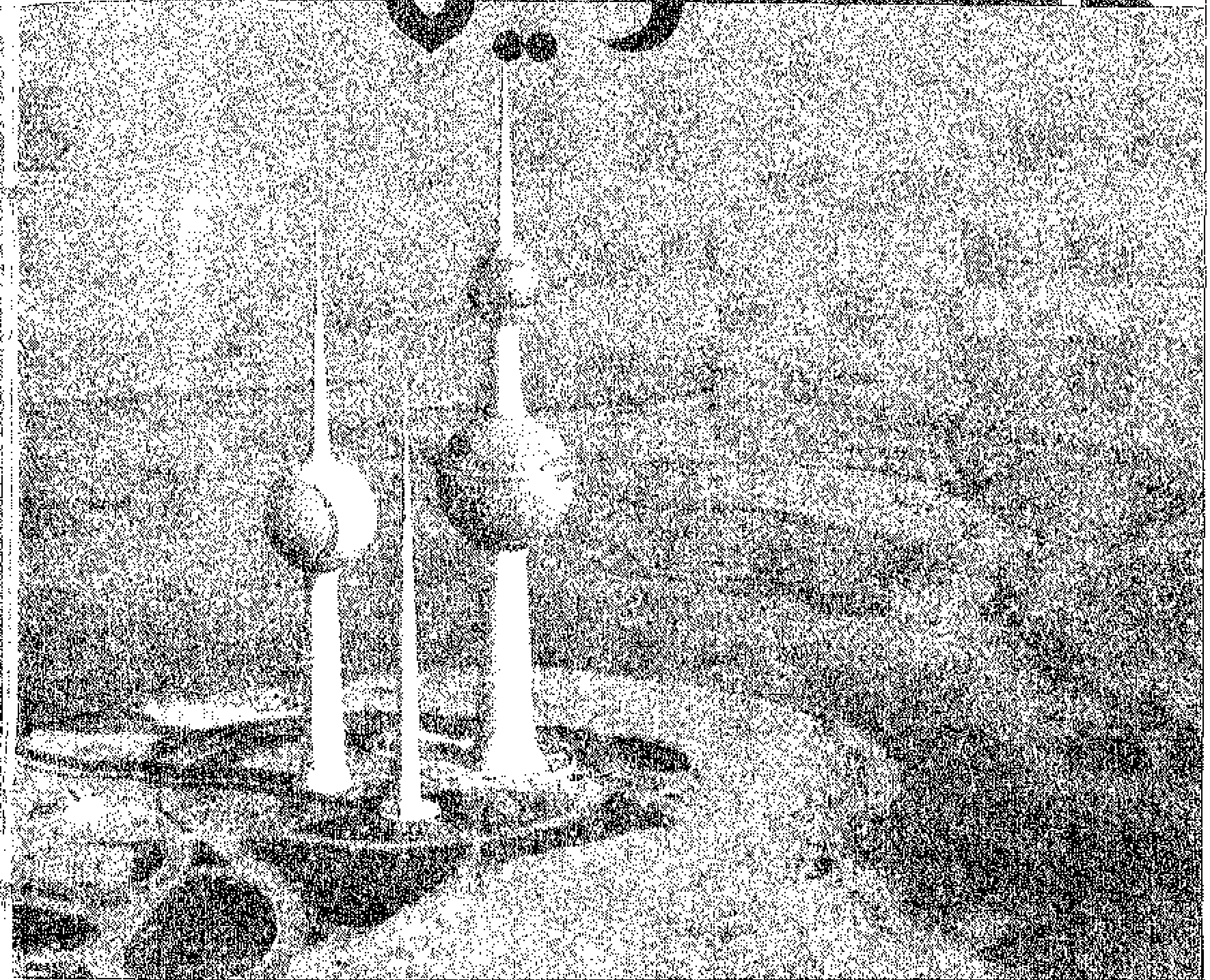
ـ العنوان : بيروت ، لبنان ، ص · ب ٢٠٧٥ ·

ملف الوطن العربي

الكويت

الحلقات المفقودة في تاريخها القديم والحديث

إعداد: «قسم الأبحاث والدراسات»




خزانات المياه العذبة التي بنيت لتراعي الهندسة المعمارية العربية والحديثة.

تعتبر الكويت نموذجاً لدولة تأسست حديثاً ولم تُعرف في التاريخ إلا منذ أقل من ثلاثمائة عام، ولكنها تبحث عن جذورها الحضارية الأولى من خلال الآثار الغنية المطمورة في جوف أرضها الصحراوية والساحلية، والتي أفادت الاكتشافات الأثرية الحديثة إلى انها تعود الى العصر الحجري القديم وتمتد حتى العصور الهيللينية.

وما ينبغي التركيز عليه هو ان الكويت ليست مجرد جزء من منطقة الخليج العربي الكبرى - إذ هي تقع في زاويته الشمالية الغربية - بل هي أيضاً منطقة مجاورة لوادي الرافدين، مهد الحضارة البشرية الأولى.

من هنا يتميّز تاريخ الكويت في كونه، في آن، محصلة للتاريخ البحري لبلدان الخليج العربي وللتاريخ القاري لبلاد ما بين النهرين.

قبل الفتح العربي الاسلامي:

تعتبر هذه الفترة المديدة من تاريخ منطقة الكويت الساحلية شبه مجهولة حتى اليوم. ولعل الحفريات والاكتشافات الاثرية الجارية منذ عدة سنوات على قدم وساق في أنحاء عديدة من الكويت ولا سيما في جزيرة «فيلكا» الصغيرة الواقعة على مدخل خليج الكويت، هي الأمل الوحيد لإعادة كتابة تاريخ المنطقة منذ أقدم العصور[1].

ومما أعطى لهذه الجزيرة موقعها المميز كون شواطئها محطة أساسية للسفن المارة في الجوار للتزود بالماء والطعام أو لتتقي الأنواء البحرية العاصفة.

وفي إنتظار نفض الغبار عن أكبر عدد متوفر من آثار فيلكا[2] يمكن في سهولة دمج تاريخ الكويت القديم بتاريخ الخليج العربي من جهة وتاريخ بلاد الرافدين من جهة أخرى. خصوصاً تاريخ ساحل الخليج الذي كان يطلق عليه إسم «البحرين» ويعتبر في نظر المؤرخين ومن بينهم هيرودوت موطن الفينيقيين الأصلي.

إن البحث في أصل اسم «كويت» يمكن أن يساعدنا كثيراً في استجلاء ما خفي من تاريخ البلاد القديم ففي رأس الأب انستاس ماري الكرملي[3] ان «الكويت تصغير كوت، وهو في لغة أسفل العراق ما داناه من بلاد العرب والعجم، البيت المبني بهيئة القلعة أو دونه تحصيناً، يتخذ ملجأ عند الحاجة وحوله بيوت عديدة راجعة إلى البيت الأب، ولا يطلق عليه هذا الاسم إلا إذا كان قريباً من الماء، سواء كان نهراً أو بحراً أو مستنقعاً أو غيره... والظاهر إن هذه اللفظة قديمة الاستعمال في هذه الربوع، وهي ترتقي إلى عهد الكلدانيين والأشوريين والبابليين».

وفي حال أثبتت الاكتشافات الأثرية الجارية حالياً هذه الفرضية التي وضعها الأب أنستاس فإن الكثير من المسلمات والمعطيات السابقة تستوجب اعادة النظر فيها.

الكويت العربية الاسلامية:

يتفق المؤرخون العرب على أن بلدة «الكاظمة»[4] الواقعة على مقربة من الشاطئ الشمالي لخليج الكويت والتي تبعد عن قرية الجهراء المشهورة حوالي خمسة أميال وتشرف عليها جبال «غضى» المعروفة بهذا الاسم منذ التاريخ الهجري الأول،



جانب من اثار جزيرة فيلكا

شكلت مدخل العرب - المسلمين إلى كامل المنطقة المسماة اليوم بـ «الكويت» وجوارها. فهي كانت مسرحاً للمعركة الشهيرة التي عرفت بمعركة السلاسل وجرت بين جيوش الفتح الاسلامي بقيادة خالد ابن الوليد المخزومي، سيف الله، والفرس بقيادة أحد أبرز رجالاتهم وهو هرمز، العام ١٢ هـ/٦٣٣ م.

ومن المناطق الأخرى المهمة في الكويت والتي عرفت عند العرب - المسلمين، إن في آدابهم أو في معاركهم، نذكر:

● جبل أوراة الذي اشتهر أيام الجاهلية بسبب الحروب التي دارت حوله بين القبائل والعشائر العربية المتناحرة، حتى أنهم قالوا مثلاً، للدلالة على أهمية هذا الموقع، «يوم أوراة الأول» و«يوم أوراة الثاني». ومن المفيد الاشارة في هذا المجال إلى ان هناك جبلاً قرب مدينة الأحمدي الحديثة (تبعد عن العاصمة حوالي ٣٦ كلم) ومعروف اليوم باسم «وارة». ولم نتأكد تماماً من كونه هو نفسه جبل أوراة.

● جبل «غضى» الذي هو عبارة عن سلسلة تلال ممتدة من ساحل الكويت بين كاظمة والصبية حتى نهاية منطقة الجهراء.

● منطقة «الرحا» وهي عبارة عن تل غربي الجهراء وتبعد عن العاصمة حوالي ٣٢ كلم تعرف اليوم باسم «الرحية».

وحول موقع الكويت في التاريخ العربي - الاسلامي يقول الدكتور عزة النص: «... لو رجعنا إلى مصنّفات جغرافيي العرب الأول ومؤرخيهم لما وقعنا على ذكر لهذا البلد الفتي. ذلك ان الكويت، وهي مشتقة عن الكوت - أي الحصن - قد ولدت على شاطئ الخليج في القرن الثامن عشر، عند موقع من الأرض يعرفه القدماء باسم «كاظمة». يقول جغرافينا الحموي ياقوت: «كاظمة جوّ على سيف البحر في طريق البحرين من البصرة، بينها وبين البصرة مرحلتان». وتتحدر غالبية السكان من قبائل نجد... وينتمي أمراء الأسرة الحاكمة - آل الصباح - أصلاً إلى قبيلة عنزة التي ينتمي إليها أيضاً آل سعود في نجد وآل خليفة في البحرين. وقد تأسس البيت الحاكم عام ١٧٥٦ على يد الشيخ عبد الله الصباح...»(٥).

أهم المحطات في التاريخ الحديث

برزت أهمية موقع الكويت ضمن منطقة الخليج العربي منذ أوائل القرن السادس عشر. وكما أوضح الصحفي الفرنسي المتخصص في الشؤون العربية بيار روندو[٦] فإن «... البرتغاليين هم أول من لاحظ أهمية الموقع ونوعيته. وبينما اتخذوا جزيرة هرمز، على مدخل الخليج، كمستودع رئيسي غربي الهند وكمركز ضخم لتخزين الأسلحة، بنوا في الكويت موقعاً متقدماً لهم حافظوا عليه طوال أكثر من مئة سنة».

ولا نشك ان الصراع على هذا الموقع المتقدم بين البرتغاليين والاسبان ثم بينهم وبين الأتراك العثمانيين والبريطانيين، لم يستند فقط إلى كون الكويت مجرد نافذة بحرية مهمة في المنطقة ولكن أيضاً بسبب كونها تحتل موقعاً استراتيجياً في جنوبي منطقة الرافدين يشكّل مدخلاً مميزاً وممراً فريداً إلى داخلها.

من هنا نفهم، في صورة أفضل، المنطق الحقيقي لتسلسل الأحداث منذ القرن السابع عشر، عندما تأسست مدينة الكويت، وحتى العام ١٩٦١، تاريخ اعلان الاستقلال السياسي للإمارة. فالبريطانيون أنشأوا أوّل مركز تجاري لهم في الكويت العام ١٧٩٣ تمهيداً لضمها بالكامل إلى مستعمراتها التي لا تغيب عنها الشمس. ولم تفلح في بادئ الأمر سوى في السيطرة الفعلية، غير العلنية، على جزيرة فيلكا منذ العام ١٨٢١.

وفي رأي الدكتور عزة النص (مصدر مذكور سابقاً، ص ١٢٠): «... صمّمت بريطانيا على إجتياز الإمارة الكويتية عندما سمحت تركيا للإلمان بمدّ خط حديد برلين - بغداد الذي كان مقرراً له أن ينتهي في الكويت. ولما اشتد على شيخ الكويت ضغط الأتراك وحلفائهم رضي ان يوقّع مع البريطانيين معاهدة عام ١٨٩٩ والتي تعهّد فيها لقاء حماية صاحب الجلالة ان لا تكون له أية صلة مع دولة أجنبية غير بريطانيا، وأن لا يتصرّف بشبر واحد من أرض إمارته لمنفعة دولة أخرى دون موافقة الدولة الحامية. وأول معتمد بريطاني للكويت جاءها عام ١٩٠٤. وباتفاقات عامي ١٩١١ و١٩١٣ رُبط التنقيب عن النفط في

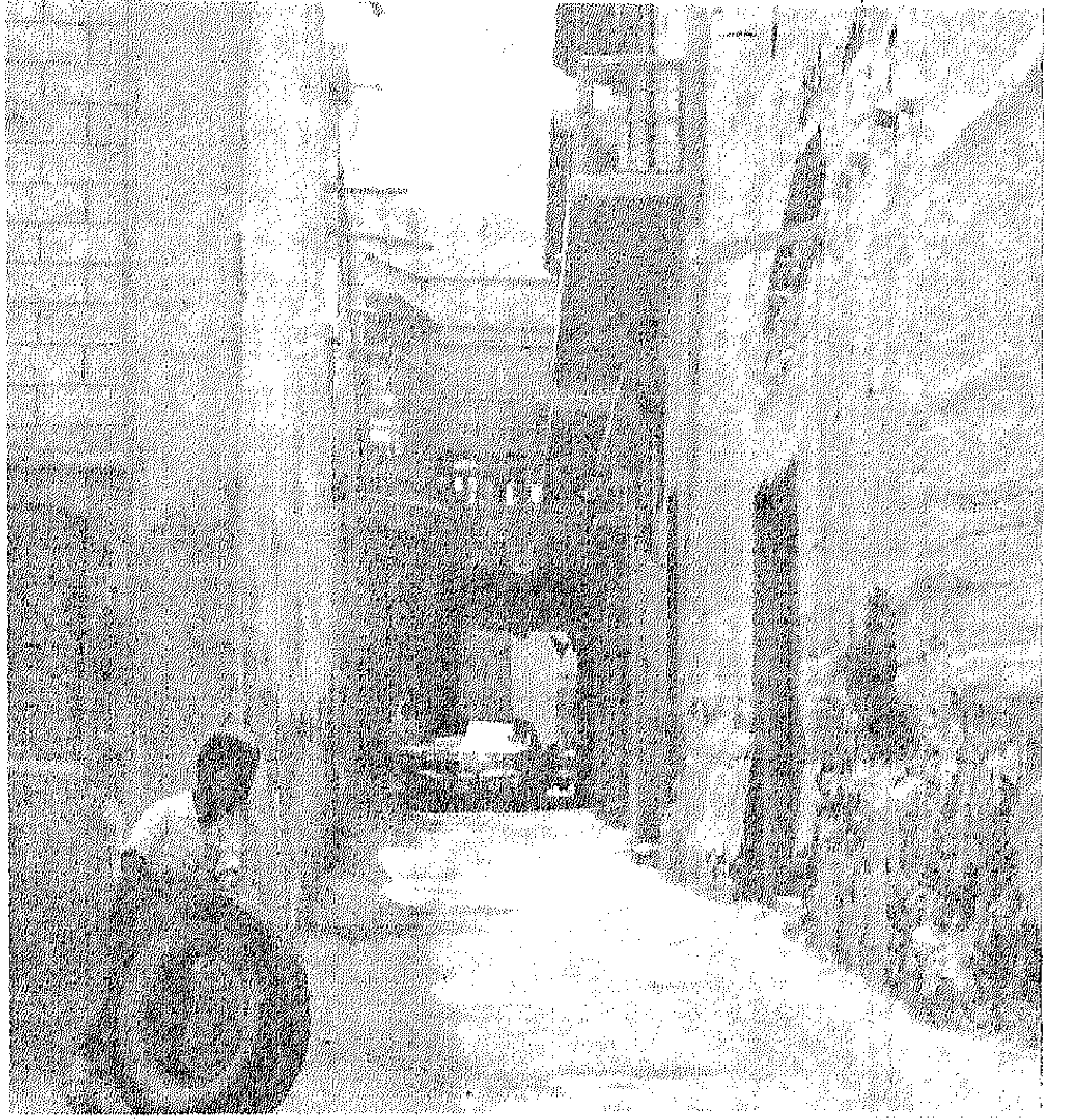


الامارة بمشيئة بريطانيا أيضاً، واعترفت تركيا عام ١٩١٣ باستقلال الكويت تحت الحماية البريطانية وتحت نطاق السيادة العثمانية. وأعيد النظر في العلاقات الكويتية - البريطانية مرة أخرى عام ١٩١٤ ووُضع لها اتفاق شامل نصّ فيه على استقلال حكومة الكويت في إطار بنود الحماية (حتى العام ١٩٦١)...».

ومنذ الاستقلال السياسي للبلاد، دخلت الكويت طوراً جديداً من تاريخها المعاصر يحتل فيه النفط دور المحرك الرئيسي لأحداثه.

الحياة الاجتماعية والمهنية:

من غريب الأمور لدى مقاربتنا لتاريخ الكويت الحديث ان نجد أنفسنا أمام غنى كبير للحياة الاجتماعية والمهنية لسكانها بينما لا نجد أية اشارة تذكر عنها في العديد من المصنفات التاريخية العربية إلا ما يكتب في شكل متناثر هنا وهناك وهنالك، مما يؤكد ان تاريخ هذه الدولة الحديثة يتطلب نبشاً جدياً للمخطوطات المنتشرة في أكثر من مكتبة ومتحف.



الكويت القديمة محافظة على الطابع العربي التقليدي

أول ما يصطدمنا في هذا المجال هو كثرة المساجد والجوامع في هذه البقعة الصحراوية الصغيرة نسبياً. فغداة الاستقلال السياسي كان عددها يناهز الـ ٧٣ أما اليوم فيتعدى الـ ١٦٠. كيف نفسر هذه الظاهرة الاجتماعية والدينية المهمة؟

يقول الدكتور شاكر مصطفى، رئيس دائرة التاريخ في كلية الآداب في جامعة الكويت(٧) ان «... وجود هذا العدد الواسع من الجوامع ينبئ عن وجود حياة حضرية طويلة الاستقرار قبل ذلك».

ان لهذا الاستنتاج التاريخي المهم مغزى علمياً يمكن أن يغيّر الكثير من المسلمات المتعلقة بتاريخ شعب الخليج العربي بأسره الذي يوصف في مصنّفات المؤرخين والباحثين الغربيين خصوصاً، وينقل عنهم بعض كتّابنا العرب، بالشعب - البدو الدائم التجوال والباحث عن رزقه ومستقبله من خلال الغارات الأهلية المتواصلة في ما بين مختلف القبائل التي تشكّله.

إن استنتاج د. مصطفى هذا استند إلى «مخطوط منسي» يرجع للعام ١٧٧٢م. وكتبه المؤرخ العراقي عبد الرحمن بن عبد الله السويدي البغدادي ضمن رسالة تحدث فيها عن الحوادث التي شهدها في بغداد والبصرة ومنها الطاعون الذي ضرب العراق في هذا العام مما دفع بالأهالي إلى الهرب إلى الكويت، حيث توزعوا الجوامع الـ ١٤ فيها، وهذا ما حدا بالدكتور مصطفى إلى القول انه «... من المحتمل جداً أن تكون تلك الجوامع من المساجد موزعة حسب مناطق سكنى الأسر الكبيرة التي كانت تشكل قاعدة الكويت السكانية. فهي إذن حوالي ١٤ أسرة كبيرة. ولكل أسرة جامعها الذي بنته في موقع سكناها. ولعل كثرة هذه الجوامع انما نجمت عن تنافس هذه الأسر في التدين ورغبتها في التوازي لا سيما وأن ثرواتها نابعة جميعاً من منبعين مشتركين هما البحر (صيد وتجارة) والبر (نقل ووساطة وحماية)».

الظاهرة الثانية الجديرة بالاشارة إليها هي عراقة صناعة الحرف وغناها وتعددها، وهي كما قال الأستاذ ابراهيم البغلي، مدير إدارة الآثار والمتاحف في وزارة الاعلام(٨) «... جزء من تاريخنا وتراثنا الذي نعتز به ونفتخر... ولا يخفى ان مفهوم هذه الحرف اختلف. فقد كانت مصنوعاتها للاستعمال اليومي أما الآن فان معظم هذه المصنوعات تستخدم تحفاً أو قطعاً من الزينات نجمّل بها محلاتنا وبيوتنا...».

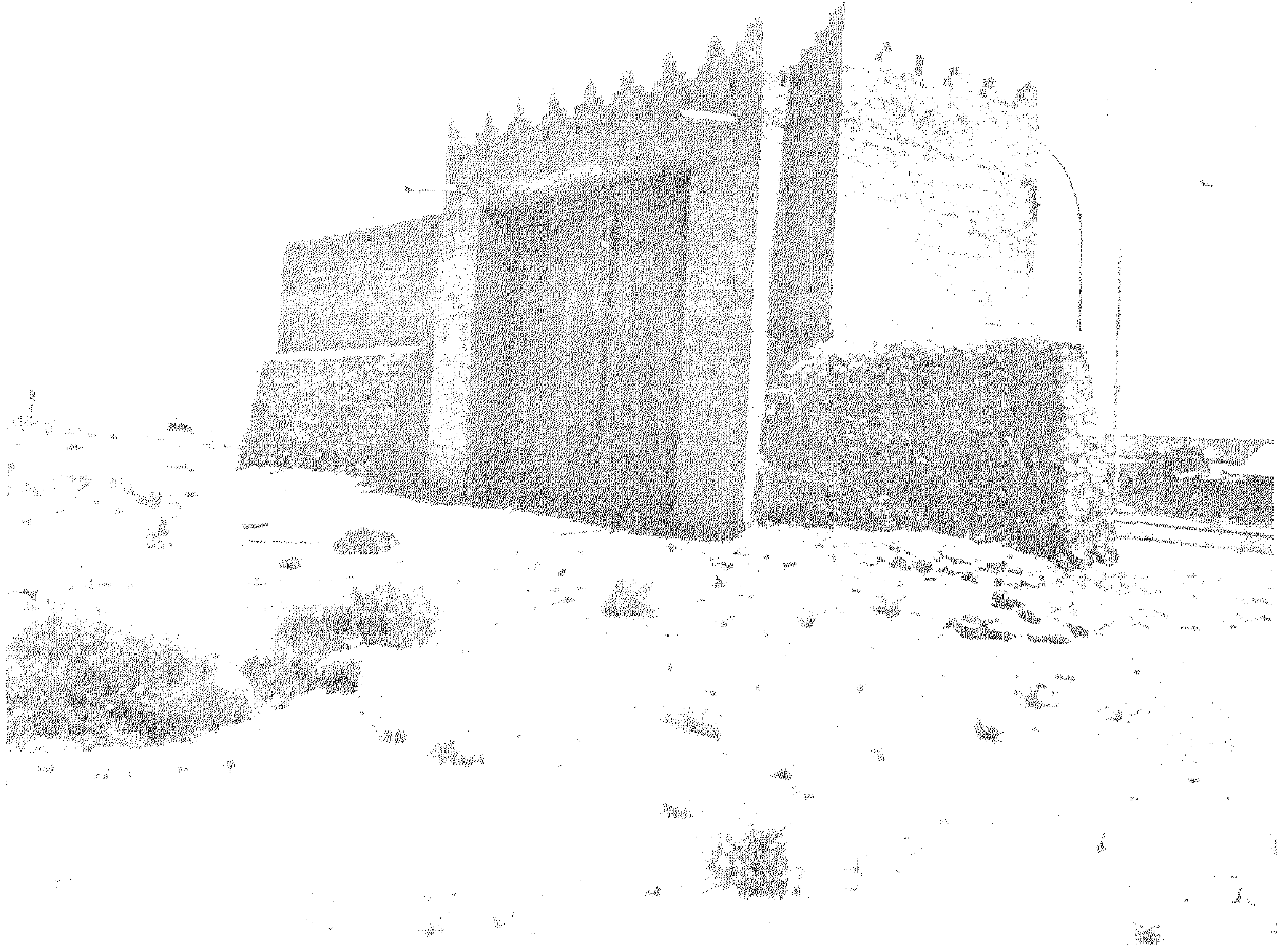
من أشهر هذه الصناعات الحرفية:

● صناعة السفن والأعمال المرتبطة بها كالنجارة، ونسيج الشباك وتفصيل الأشرعة وصناعة أدوات الغوص واللوازم التي تحتاجها عملية الصيد مثل الشباك والفرافير.

● صناعة «البشوت» (جمع «بشت» أي عباءة الرجل) و«الثوب» الخاص بالمرأة الكويتية والتي تلبسه فوق ملابسها في كل المناسبات.

● حياكة الصوف المعروفة عند بدو الكويت ب «السدو».

الظاهرة الثالثة المهمة في التاريخ الاجتماعي للكويت هي «الأسواق» المتخصصة التي لا نجد مثيلاً لها في بقية العالم العربي. إذ بينما تتميز الأسواق العربية الأخرى بطابعها العام (كسوق سرسق في لبنان قبل ١٩٧٥، وسوق الحميدية في سوريا، وسوق خان



إحدى بوابات الكويت القديمة

الخليلي وسوق الموسكي في مصر، ودرب السلطان في الدار البيضاء في المغرب ...) ، كنا نجد في الكويت أسواقاً لكل صنف أو مجموعة أصناف استهلاكية وغيرها[9] :

● سوق الحراج حيث تباع مواد البناء والأدوات والمواد التي يستخدمها النجار والحداد[10] .

● سوق «البشوت» الذي أقيم وسط سوق «الزّل» (السجاد) وهذا الأخير أقدم من السوق الأول.

● سوق المقاصيص للثريات وأدوات الزينة والزخرفة للمنازل وأدوات الطهو.

● سوق الطيور حيث تباع كل أنواع الدواجن والحمام وعصافير الزينة.

● سوق السلاح حيث تباع اليوم فقط أجربة البنادق وأغمدة السيوف والخناجر.

● سوق الصناديق والحقائب على أنواعها.

● سوق «ساحة الصفاة» الذي يعتبر أقدم

أسواق الكويت، حيث كان البدو من أهل الكويت يبيعون أغنامهم وألبانهم وزبدهم ومحاصيلهم من أخشاب الوقود ونباتات الصحراء كالكمأة (الكماية).

طبعاً اضافة إلى هذه الأسواق المتخصصة التي كانت تشكل نوعاً من التجمعات والنوادي الشعبية حيث يلتقي القوم ويتناقشون، نجد الأسواق التقليدية الكبرى مثل «سوق الدعيج» الذي أنشأه التاجر محمد الدعيج حوالي العام ١٨٨٥م، و«سوق الغربلّي» على اسم التاجر سيد هاشم الغربلّي، وهذا السوق الأخير أصبح اليوم يحمل اسم «شارع فلسطين».

والسؤال المطروح بإلحاح: هل نفي تاريخ الكويت حقه إذا تجاهلنا دور الجوامع والمساجد وصناعة الحرف والأسواق المتخصصة والتقليدية في تسطير حقائقه وواقعه؟.

■

هوامش البحث

(١) راجع نشرة «كويتي دايجست» الفصلية الصادرة باللغة الانكليزية عن شركة نفط الكويت، عدد أيلول/سبتمبر ١٩٧٣، ص ٣١ - ٣٣.

(٢) منذ العام ١٩٦٠ استطاعت البعثة الدانماركية للتنقيب عن الآثار، بعد الحفريات العديدة التي قامت بها، لا سيما في هذه الجزيرة، من العثور على آثار عديدة، تربط هذه البلاد بالعالم الخارجي ربطاً محكماً عن طريق البحر. مثلاً تم العثور من الآثار اليونانية على قوالب لتماثيل صغيرة منها رأس الاسكندر وآلهة النصر وآلهة الجمال، وعلى نقوش وأعمدة من الطراز اليوناني وقطعة من الحجر نقشت عليها كتابة يونانية واضحة، وهي تقدمة من الربان اليوناني ستسوليس، وبحارته إلى بوسيدون إله البحر، وارتميس حامي البحارة لأنهما القذاهم من الغرق، وستوليس هذا هو أحد الربابنة الذين عملوا تحت أمرة نياركسوس أمير البحر الذي كان يقود اسطول الاسكندر الأكبر. وأيدت هذه الآثار الروايات التاريخية التي ذهبت إلى ان أسطول الاسكندر الذي انطلق إلى المحيط الهندي بحثاً عن الاكتشافات الجغرافية في منابع الشمس، عاد من الهند إلى العراق في ٣٢٦ - ٣٢٥ ق.م، عن طريق الخليج العربي لسبرغور مياهه راكتشاف مصب الفرات، وان الاسكندر الذي كان يطمح إلى أن يحمل لقب ملك العالم، راودته فكرة إفتتاح بلدان الخليج للسيطرة على سواحله، وتشييد الموانئ والمدن عليه.

(٣) راجع مقاله في مجلة «المشرق»، العدد العاشر، السنة السابعة، ١٩٠٤، نقلاً عن دراسة لرياض نجيب الريس بعنوان: «حكاية حكم من العشائرية إلى الديمقراطية» (نشرت في عدد «النهار» الخاص عن الكويت، أيلول/سبتمبر ١٩٦٩، ص ٢٠).

(٤) وتعرف أيضاً باسم «الكواظم» كما أشار إلى ذلك اللواء الركن محمود شيت خطّاب استناداً إلى «معجم البلدان» (ج ٧/ص ٢٠٨) لياقوت الحموي، طبعة القاهرة، ١٣٢٣ هـ.. وهي كما قال: «جو على سيف البحر في طريق البحرين من البصرة، بينها وبين البصرة مرحلتان». (اللواء خطّاب: «قادة فتح العراق والجزيرة» دار الفكر/بيروت الطبعة الثالثة ١٩٧٧، ص ١٢٢/هامش ٣).

(٥) راجع كتاب د. عزة النص: «الوطن العربي: الاتجاه السياسي والملامح الاقتصادية» وهو من سلسلة «دراسات عربية»، اصدار دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر، دمشق ١٩٥٩، ص ١١٨ - ١١٩.

(٦) راجع مقال بيار روندو بعنوان: «على رغم الاطماع الأجنبية نجحت سلالة آل الصباح في تأمين استقلال الدولة»، الملحق الخاص عن الكويت الذي أصدرته «الموند ديبلوماتيك» الفرنسية الشهرية (عدد كانون الأول/ديسمبر ١٩٦٩، ص ٢٧).

(٧) راجع مقاله بعنوان «حول تاريخ الكويت: خبر جديد» (مجلة «العربي» الكويتية، العدد ٢٤٨ شعبان ١٣٩٩ هـ - يوليو/تموز ١٩٧٩م. ص ٣٦ - ٣٩). إستند شاكر مصطفى في معلوماته هنا إلى المخطوط الذي نشره الدكتور عماد عبد السلام رؤوف وقدم له بمقدمة مع تحقيقه، وهو صدر عن وزارة الثقافة والفنون في بغداد العام ١٩٧٨ بعنوان: «تاريخ حوادث بغداد والبصرة من سنة ١١٨٦ هـ./١٧٧٢ - ١٧٧٨م».

(٨) راجع التحقيق المصور الذي نشر في مجلة «العربي» الكويتية (العدد ٢٣٩ شوال ١٣٩٨ - اكتوبر/تشرين الأول ١٩٧٨، ص ٩٢ - ٩٩) بعنوان: «صناعات وحرف تقاوم الإندثار».

(٩) راجع الاستطلاع حول «أسواق الكويت بين الأمس واليوم: صفحات من التاريخ باقية وصور من الحاضر حيّة زاهية». نشر في مجلة «العربي» الكويتية، العدد ١٣٣، شوال ١٣٨٩ - ديسمبر/كانون الأول ١٩٦٩، ص ٤٤ - ٥٢.

(١٠) تعني كلمة «الحراج» في اللغة العربية، كما جاء في الاستطلاع المذكور، وقوف البضاعة مع الدلال عند ثمن لا مزيد عليه. وسوق الحراج هو سوق الدلالة.

منذ ١٩ عاماً

هكذا فشلت عملية خليج الخنازير

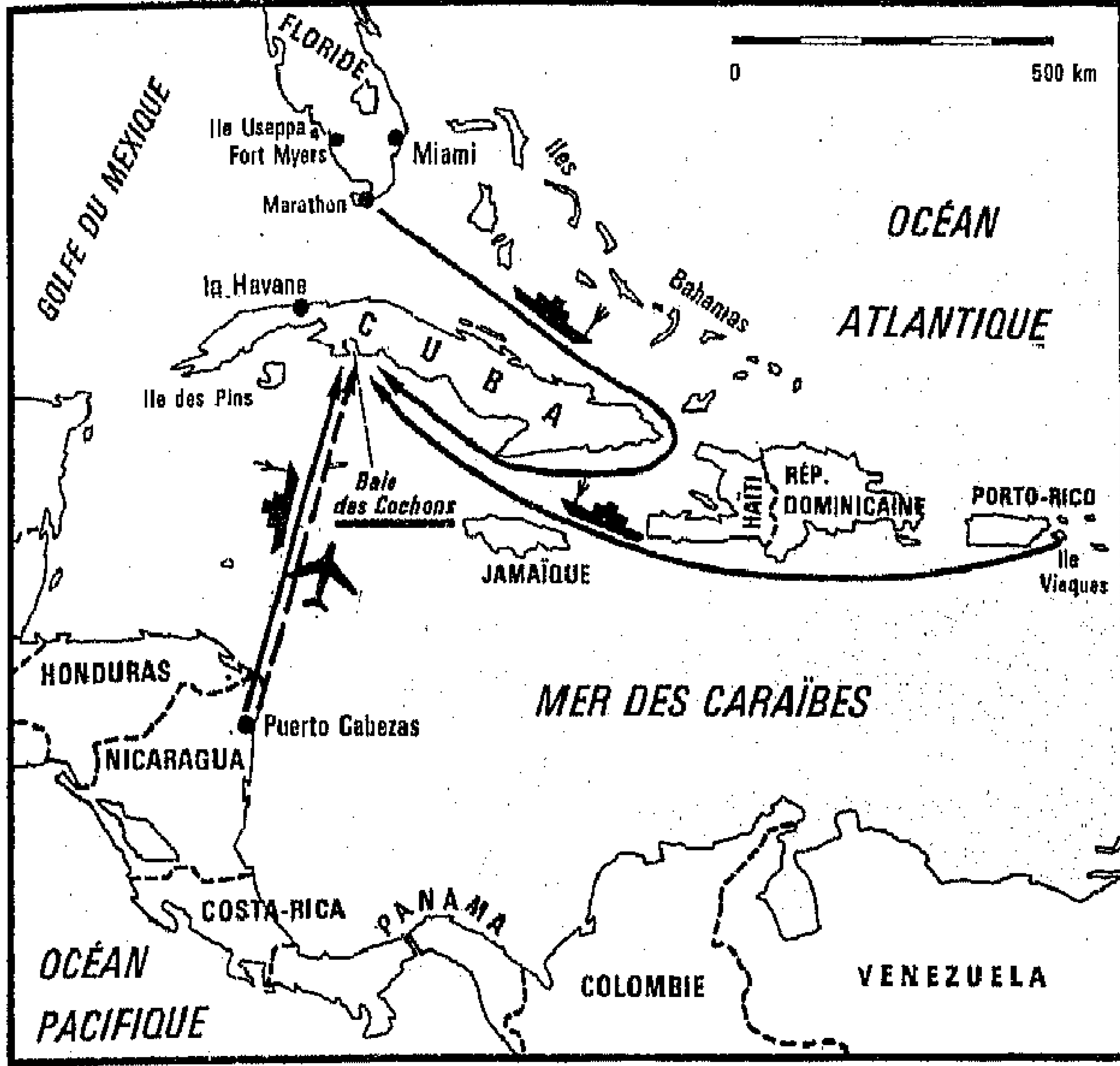
بقلم : برنار بورنج

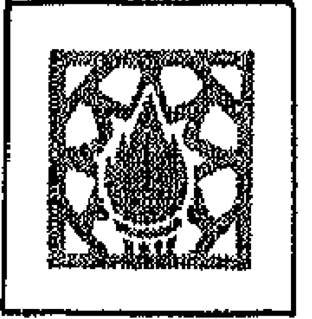
تلخيص واعداد : شذا عدرة

مجلة ايستوريا رقم ٢٣٣ نيسان (ابريل) ١٩٦٦ .



خريطة تبين خطة غزو كوبا كما وضعتها الاستخبارات الأميركية للمرتزقة في نيسان ١٩٦١.





في ليلةٍ ظلماء والبحر الكاريبي يتموج ببطء. كان هناك خمسة رجال ضفادع يرتدون ثياب الغطس السوداء ويستعدون للنزول من الباخرة «لو بلاجار» إلى زورقين مطاطين إتجهوا بهما صوب الشمال. وما لبث ان لاح لهم الشاطئ الأوسط لجزيرة كوبا. فأدركوا أنهم قد أصبحوا قبالة شاطئ «جيرون» وعلى مقربة من خليج الخنازير الذي أصبح على يسارهم.

إستطاع هؤلاء الخمسة الوصول إلى الشاطئ بعد صعوبات شاقة نظراً للشُعب المرجانية القاطعة التي أحاطت بهم من كل جانب. وعند وصولهم سارعوا إلى وضع فانوس لإرشاد رفاقهم الذين كانوا ينتظرون على متن بقية البواخر. وما لبث أن أضيئ الشاطئ فجأة وسلطت أنوارٌ ساطعة على البحر، ووقفت سيارة جيب على جانب الطريق المجاور تتبعها شاحنة مكتظة برجال الميليشيا.

سارع الرجال القادمون إلى تثبيت بنادقهم الرشاشة وإطلاق النيران في كل إتجاه مما أضاع عليهم كل أمل في احراز مفاجأة تكتيكية.

وفي وسط هذه المعمعة الحربية أخذ بقية الرجال المعادين لكاسترو ورجال الضفادع ينزلون إلى الشاطئ ضمن مجموعات صغيرة بقيادة زعيمهم «بيب سان رومان» الذي كان أمامه مهمات جسام. فالأميركيون كانوا قد أكدوا بأن شاطئ جيرون، موبوء ومليئ بالمستنقعات وخالٍ من السكان، وها هو يرى أمامه منازل عديدة قد شيدت حديثاً. ولكن بالرغم من ذلك، فقد أمر بإرسال فرقة لإحتلال مطار جيرون.

على بعد عدَّة أميال إلى الغرب من جيرون، إصطدمت مجموعات أخرى من المنفيين الكوبيين لدى نزولهم إلى الشاطئ في عمق خليج الخنازير، برجال الميليشيا الذين كانوا بإنتظارهم فعَلَتْ أصوات القذائف والرصاص.

وعلى متن الباخرة هوستن كان «أولفا» النائب الثاني لزعيم المنفيين واقفاً يشاهد الخطر المحدق برجاله، فقرر النزول إلى أرض المعركة وتنشيط العمليات العسكرية. إلاّ أنَّه ما أن وطئ أرض الجزيرة حتى وجد هوائياً لمحطة إرسال ذات موجاتٍ قصيرة وكانت خالية تماماً من رجال كاسترو الذين من المؤكد بأنهم قد أخطروا هافانا بأمر الغزو.

طائرات كاسترو تتدخل :

عند بزوغ فجر اليوم التالي ، وبينما عمليات الإنزال كانت تتوالى دون إنقطاع . إذا بطائرات حربية تابعة لكاسترو تقصف المتمردين والسفن الراسية على الشاطئ .

وإلى الشرق قليلاً ، تجاه جيرون ، أصابت طائرات كاسترو القاذفة ، السفينة «ريو اسكند يدو» المحملة بالذخائر وبالقسم الأكبر من أجهزة الإرسال وفجرتها فكانت هذه بمثابة كارثة بالنسبة للغزاة، وأمام هذا الواقع ، إنسحبت بقية السفن إلى عرض البحر وبدأ قادة المتمردين يشعرون بالقلق . وهنا برز تساؤل رئيسي : هل سيستطيع الأميركيون مواصلة المساعدة لهم ؟ أم انهم سينفضون يدهم من هذه العملية بعد أن رأوا بدايتها الفاشلة ؟ .

الرقم ٢٥٠٠ :

وبالرغم من أنَّ واشنطن كانت تنفي رسمياً علاقتها بعملية الغزو ، إلاَّ أنَّ الواقع كان يدحض ذلك ! فالاستخبارات الأميركية (سي . آي . إي) كانت قبل سنة قد وعدت جبهة الثوريين الكوبيين (المنفيين) بالمساعدة ، فأقامت لهم مخيمات تدريب في «غواتيمالا» وذلك مع قبول وإستحسان الرئيس إيزنهاور .

وعلى إثر ذلك ، تزايدت أعداد المنشقين بسرعة ، وأعطي كل رجل منهم رقماً وهمياً ، فالأول مثلاً كان يحمل رقم ٢٥٠٠ ، وذلك لإخافة كاسترو عندما يعلم بأمر تلك المجموعة .

ومن جهة ثانية ، قامت الإستخبارات الأميركية بالإتصال برجال المقاومة المعادين لنظام كاسترو داخل الجزيرة نفسها .

وبعد إنتخاب جون كنيدي لرئاسة الولايات المتحدة ، إنتقلت الفرقة ٢٥٠٦ إلى بويرتو كابيزاس في نيكاراغوا ، ونزلت في منطقة تسمى الوادي السعيد .

وقد ألحق بهذه الفرقة أسطول بحري وقوات جوية ضخمة مؤلفة من طائرات أميركية قديمة وضعت جميعها بتصرف الكوبيين المنفيين الذين كانوا يواصلون تدريباتهم إستعداداً لغزو الجزيرة .

وعلى الرغم من موافقة واشنطن على مد يد



خروتشيف .

المساعدة للمتمردين ، إلاَّ أنَّ حكومتها قررت أن تتجاهل رسمياً إستعدادات الإنزال البحري .

وقام رجال الإستخبارات الأميركية بعقد إجتماعات متواصلة مع قادة المنفيين من أجل تحديد نقاط الهجوم على الجزيرة . وأخيراً تمَّ اعتماد نقطتين على الساحل الجنوبي وجدتا بأنهما مناسبتان لذلك الأمر . الأولى كانت نقطة بلايا لارجا في عمق خليج الخنازير ، والثانية هي بلايا جيرون .

كان الأميركيون يتوخون الاعتماد على عنصر المفاجأة ، إذ إعتقدوا أنه يستحيل على كاسترو توجيه ضربة قوية ضد عملية الانزال والهجوم على الجزيرة ، وذلك لأن فرقة العسكرية تبعد كثيراً عن نقاط الإنزال المختارة . واتفق على أن يقيم «بيب سان رومان» مركز قيادته العامة في جيرون .

وساد تفاؤل بأن معاضدة الشعب «لجبهة التحرير» ستكون سريعة دون أدنى شك .

أما العقبة الرئيسية أمام عملية الغزو . فكانت تكمن في تدخل الطيران الكوبي ، لذلك ومن أجل شلّ قدرته ، قامت في صباح ١٥ نيسان (إبريل) طائرات تحمل إشارات سلاح الجو الكوبي للتمويه وقصفت مطارات لوس بانوس . قرب هافانا ، وسانتياغو دو كوبا ، ومخيم ليبرتاد ، في ضاحية هافانا . ودمرت من جراء ذلك اعداداً كبيرة من



فيدبل كاسترو وهو يلقي خطاباً.

طائرات كاسترو.

ومن ثمَّ عاد الطيارون إلى قواعدهم في نيكاراغوا مسرورين بما حققوه. ولكنهم لم يعلموا بأن كاسترو. كان قد شكَّ بعملية من هذا النوع. فوضع أفضل طائراته النفاثة المقاتلة من نوع ت - ٣٣ في الملاجئ. وأبقى الطائرات المعطلة في المطارات الحربية.. وقد كانت هذه خدعة فعّالة من كاسترو.

قام كاسترو بعد إغارة طائرات المتمردين على المطارات الكوبية. يتهم الأميركيين بأنهم وراء تلك العملية. إلاَّ أنَّ المخابرات الأميركية كانت قد إستعدَّت لذلك من قبل ووضعت مخرجاً لهذا الموضوع إذ أعلنت بأن الطائرات المذكورة كان يقودها ضباط كوبيون معادون لنظام كاسترو وانهم قاموا بقصف المطارات الكوبية قبل إلتجائهم إلى الولايات المتحدة الأميركية.

في الأمم المتحدة:

عقدت الجمعية العامة جلسة طارئة لبحث موضوع الغارات على الأراضي الكوبية في ذات اليوم أي ١٥ نيسان (ابريل). واتهم مندوب كوبا «راووك روا» أميركا بالإعتداء على الأراضي الكوبية. وطلب المندوب السوفياتي «زورين» عقد جلسة طارئة للجنة السياسية للأمم المتحدة. في حين قامت في شوارع نيويورك تظاهرات نظمها مؤيدو كاسترو. رفعوا خلالها لافتات كتب على البعض منها «الأميركيون القتلة».

وعندما ردَّ المندوب الأميركي «ادلاي ستيفنسون» على اتهامات المندوب الكوبي أبرز صوراً للقاذفات العائدة من ضرب المطارات الكوبية. وقد ظهر عليها بوضوح إشارة نجمة كوبا مع الأحرف الأولى لإسم «القوات الجوية الثورية الكوبية».

قام كاسترو في تلك الأثناء يستنفر الشعب في كوبا ضد الحكومة الأميركية، وقدم الإتحاد السوفياتي من جهته. احتجاجاً شديد اللهجة بواسطة مندوبه على ما يتعرض له النظام الجديد في الجزيرة الكوبية.

وقد ظهرت نتيجةً لهذه الحملة الإعلامية العدائية بوادر حاسمة. ففي صباح الأحد ١٦ نيسان (ابريل) تلقى مدير المخابرات الأميركية المساعد «ريتشارد بيسيل» أمراً من الرئيس كنيدي بإلغاء الهجوم الجوي الثاني. والذي كان مقرراً صبيحة يوم الإنزال البحري على الجزيرة. إذ كان من المستحيل اقناع الرأي العام العالمي مرة ثانية بأن مجموعة أخرى من الطيارين الكوبيين قد تمردت.

وهذا التراجع من الرئيس كنيدي. ستكون له عواقب وخيمة على عملية الغزاة المنفين إذ انهم بمجرد أن يطأوا الشاطئ الكوبي سيعلمون بأن طائرات كاسترو المقاتلة وخاصة طائرات ت ٣٣ لا تزال في وضع جيد، وهي التي ستلحق بهم خسائر جسيمة. إلى جانب هذا التراجع. هناك خطأ جسيم آخر ارتكبته الإستخبارات الأميركية (سي. آي. إي) بحق المنفيين الكوبيين، وهو انها لم تُخطر رجال المقاومة المعارضين لحكم كاسترو في الداخل، بموعد الغزو. مما أتاح المجال أمام كاسترو للقبض على الآلاف منهم وإعدام زعيمهم. ومن ثمَّ أمر بإعلان حالة الطوارئ في البلاد. وبوضع لافتات كبيرة على جميع الطرقات الرئيسية. كتب عليها «الموت للمعتدي».

شاحنات صغيرة وسيارات إسعاف:

في صبيحة اليوم الموعود. ١٧ - نيسان (ابريل). لم تجد كتيبة الغزو نفسها في وضع ميؤوس منه بالرغم من صعوبة الموقف. فبإعتمادها على طائرات ب ٢٦ المقاتلة. لم تجد عناءً كبيراً في التخلص من رجال الميليشيا الأوائل الذين تصدوا لها.

إلاَّ أن صعوبة التمييز بين الأعداء والأصدقاء

خلال المعارك التي كانت تجري بين السكان المدنيين. أضفى طابع الفوضى والغموض على جوها.

ومثال على ذلك ان المتمردين قد شاهدوا سيارتي إسعاف تابعتين للصليب الأحمر. لسحب جرحى الميليشيا من أرض المعركة. فتركها «ماكسيمو كروز» قائد إحدى مجموعات الغزو تقترب. إلى أن رأى خلفها مجموعة من الشاحنات الصغيرة المحملة بالجنود. فأمطرها عندئذٍ بوابل من الرصاص إخترق جميع جوانب سيارتي الإسعاف. وقد تمكنَّ رجال كاسترو من إلتقاط صورٍ لتلك الحادثة. قدموها فيما بعد إلى الرأي العام العالمي للدلالة على مدى همجية الغزاة وعدم إنسانيتهم.

وخلال تلك المعارك. كان راديو الغزاة يبث الأناشيد الحماسية ويعد الكوبيين بنصر قريب.. «لقد اتى جيش التحرير.. أيها الكوبيون إنَّ النصر لقريب»..

كل ذلك لم يكن سوى إغراقاً في التفاؤل، إذ أنه مع بداية اليوم التالي، تحول ميزان القوى لصالح ميليشيات كاسترو التي انزلت عدداً كبيراً من الشاحنات الناقلة للجنود، تدعمها دبابات ستالين، وصفوف طويلة من فرق المشاة فإضطر «أوليفا» إلى ادخال مجنزراته لدعم موقف قواته الا أن ذلك لم يجد نفعاً، إذ إستمر وضع المتمردين في تدهور مستمر خاصة وان البحر كان يحاصرهم من الخلف.

وهكذا تحول خليج الخنازير إلى كتلة ملتهبة من النار والحديد واصبح وضع الغزاة ميؤوس منه فلم يعودوا قادرين على التراجع وعلم أنه قد قتل منهم ٣٧٠ رجلاً.

وفي الوقت الذي كانت فيه الهزائم تتوالى على المتمردين، كان كاسترو لا يزال يرسل قواتٍ نظامية أخرى. عند ذلك لم يجدْ أوليفا بُدّاً من الإنسحاب نحو جيرون للإنضمام إلى «سان رومان» الذي لم يكن وضعه بأفضل من وضع نائبه.

وعلى أثر وصول تلك الأنباء إلى واشنطن، عقد الرئيس كنيدي إجتماعاً طارئاً مع مستشاريه الذين أبلغوه بأن عملية كوبا تسير نحو الفشل الذريع. وقد أصرَّت بالمقابل أجهزة الإستخبارات الأميركية على ضرورة توفير المساعدات للمتمردين الذين يقاتلون على أرض الجزيرة.



أحد الكوبيين المرتزقة بعد اعتقاله.

أما بالنسبة للرئيس الأميركي، فقد كانت المشكلة مقلقة: فخروتشيف اتهم صراحة واشنطن بدعم المتمردين، وتيتو طلب من الأمم المتحدة وقف العدوان وعبد الناصر وقف إلى جانب كاسترو في صراعه ضد الأميركين.

كثرة الأخطاء:

وافق الرئيس كنيدي بعد تردد، على عقد إجتماع لرؤوساء الإستخبارات الأميركية، اتفق فيه على أن تقوم الطائرات النفاثة المنطلقة من حاملة الطائرات إيسكس (Essex) بالتحليق فوق الشواطئ الكوبية لدعم طائرات المتمردين التي تكون في حالة المواجهة مع طائرات كاسترو المقاتلة. وذلك لمدة ساعة فقط على أن تخفي الطائرات الأميركية إشاراتها للتمويه.

وحدد موعداً لتلك العملية وهو فجر الأربعاء ١٩ نيسان (ابريل)، وهو الوقت الذي ستكون فيه الطائرات الآتية من نيكارغوا تحلق فوق الشواطئ الكوبية. ولكن... حدث ما لم يكن متوقعاً، إذ أن الطائرات الأميركية لم تصل إلى سماء المعركة في الموعد المحدد. وتبيَّن فيما بعد أن ذلك كان نتيجة خطأ في التوقيت.. ولم يُعطِ الأميركيون أية تفاصيل حول أسباب هذا الخطأ.. الفادح..



جون كنيدي

روبرت كنيدي

دخلت المعارك يومها الثالث ، الذي بدأ سيئاً للغاية بالنسبة للمتمردين . ففي شمالي جيرون حيث كان المظليون التابعون للغزاة يقاتلون ضد قوات كاسترو المتفوقة بشكل ملحوظ ، قد أخذوا يتراجعون أمام الدبابات الروسية ، واخذ سان رومان يبعث برسائل الإستغاثة إلى نيكارغوا ، «هل تأخذون بعين الاعتبار أن وضعنا ميؤوس منه ؟»... «أين الحماية الجوية التي وعدتمونا بها ؟».. «اني بحاجة لدعم جوي سريع». لكن هذه النداءات لم تلق آذاناً صاغية ، في حين كان القتال الدموي مستمراً .

الفشل الذريع :

أدرك أخيراً كل من سان رومان ونائبه أوليفا ، ان الوضع قد أخذ يزداد حراجة دقيقة بعد دقيقة ، وقد حاول زعيم المتمردين الدفاع عن جيرون ولكن دون جدوى ، وبدأت الذخيرة تنفذ ...

أما في واشنطن فقد كان كنيدي يتلقى الأنباء الواردة من كوبا بقلق بالغ وأدرك في النهاية بأن الوضع قد إنتهى ، فأعطى أوامره ... بأن تتوجه مدمرّتان إلى الشواطئ الكوبية لإجلاء من بقي حياً من كتيبة الغزاة على أن تقوم طائرات بالتحليق فوقها من أجل الحماية .

انتهت عملية الغزو بفشل ذريع : المتمردون أضناهم التعب والإرهاق وأصبحوا في وضع لا يحسدون عليه . وسان رومان اعطى أوامره بالتفرق . وهكذا إنتهى كل شيء والذين لا يستطيعون الإبحار سوف ينتشرون في المستنقعات وبين الأدغال .

شاحنة الموت :

بالنسبة للتعساء الذين عجزوا عن مغادرة الجزيرة ، لم تكن هذه سوى البداية ، إذ تاهوا أياماً عديدة في مناطق مخيفة كانت ملأى بالمستنقعات وبالحميات والحيوانات السامة . أو في مناطق هضبية جافة ملأى بالصخور .

ومع مرور الأيام ، كان وضعهم يزداد مأساوية . فهم كانوا يدركون ، بأنهم لو أسروا سيعدمون رمياً بالرصاص . ولكنهم كانوا يعلمون جيداً أيضاً ، بأنهم إذا بقوا مختبئين سيموتون جوعاً وعطشاً .

اصدر كاسترو أوامره بعدم إطلاق النار على الأسرى ، بغية القاء القبض عليهم وعلى قادتهم أحياء ولم يدم انتظاره طويلاً . إذ ما لبث أوليفا أن وقع بأيدي رجال الميليشيا الذين وجدوه في حالة إعياء شديد وعلى شفير الموت . واقتيد إلى هافانا حيا حيث وجهت إليه تهمة خيانة وطنه .

وبعد يومين من إعتقال أوليفا ، استطاع رجال الميليشيا أن يأسروا سان رومان بينما كان متوجهاً ليروي ظمأه من أحد الينابيع .

أما الزعيم الثالث لفرقة الغزو المدعو آرتيم فقد قبض عليه بعد اسبوعين قضاهما تائهاً في المستنقعات ، وقد أصبح هزيلاً لدرجة أنّ الذين قبضوا عليه لم يستطيعوا التعرف عليه في الحال .

عرض مغرٍ :

لم تنته عملية الغزو الفاشلة عند هذا الحدّ فقط ، إذ نجد كاسترو ، بعد اسابيع من انتصاره يتقدم إلى الأميركيين بعرضٍ فيه الكثير من الغرابة ، وهو ارسال ٥٠٠ جرّار زراعي مقابل إطلاق سراح جميع الأسرى . وليؤكد على صحة نواياه ، أطلق سراح عشرة من الأسرى وسمح لهم بمغادرة كوبا إلى الولايات المتحدة الأميركية .

وعندما علم المناوئون لكاسترو في القارة الأميركية بهذا العرض ، الفوا لجنة دعوها « لجنة الجرارات مقابل الحرية » كانت مهمتها دراسة شروط كاسترو لإطلاق سراح الأسرى .

وفي الواقع ، لم يكن ذلك بالأمر السهل ، فالعلاقات الديبلوماسية كانت مقطوعة بين كوبا وواشنطن ، وبالتالي فإدارة البيت الأبيض لا تستطيع القيام بأيٍّ مسعى في هذا الإتجاه ، على الرغم من أن كنيدي كان مهتماً بهذه المبادرة ، غير أنّ خصومه السياسيين انتهزوا هذه الفرصة لإحراج موقف حكومته ورفضوا فكرة خضوعها لإبتزاز الدكتاتور الكوبي .

لم تتم عملية التبادل . مما أزعج كاسترو الذي كان يرغب في جرّ الولايات المتحدة إلى الإعتراف بمسؤوليتها عن المتمردين وتحمّل التعويض عن الخسائر التي الحقتها بالأمة الكوبية .

أما في واشنطن ، فقد شرح كنيدي وجهة نظره بصدد المبادلة ، وأكد على أن الحكومة الأميركية لا يمكنها القيام بأي عمل بشأن مفاوضات التبادل ولكنه حث الشعب الأميركي على التبرع مادياً من أجل اتمام صفقة التبادل ودفع « فديتها الغريبة » وأعلن بأنه سيعفي جميع الأموال المدفوعة لهذا الغرض من الضريبة .

وأخيراً ، تلقى كاسترو ردّ واشنطن بانها سترسل له مقابل الأسرى ٥٠٠ جرار زراعي خفيف .

فإحتج على ذلك إحتجاجاً شديداً ، وذكّر بأنه طلب بولدوزرات من النوع الثقيل وليس جرارات خفيفة . ولكن في النهاية قبل الجرارات المذكورة على شرط أن يكوم ثمنها مساوياً لثمن خمسمائة جرار ثقيل عندئذٍ عادت المفاوضات لتتعثر من جديد .

المحاكمة :

ومضت الشهور ، ولم تبدُ في الأفق تباشير أيّ حل ، .. وحلّت في الولايات المتحدة جمعية « الجرارات من أجل الحرية » .

أما في كوبا ، فقد نقل الأسرى إلى سجن « قصر الأمير » قرب العاصمة وقد إزداد تشاؤمهم حول المصير الذي ينتظرهم .

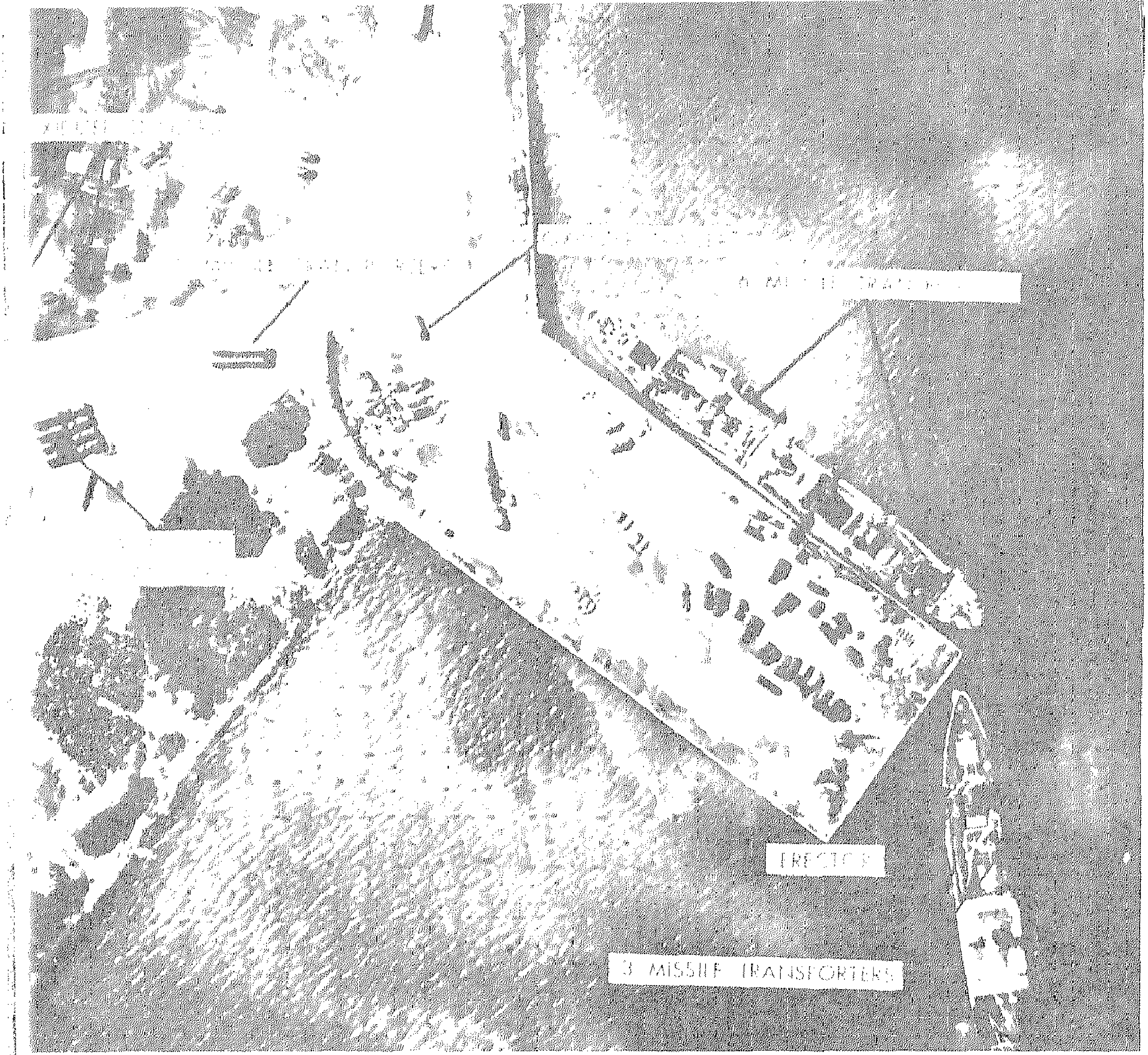
وفي اذار من عام ١٩٦٢ ، أعلنت الحكومة الكوبية ، بأنه نتيجة عدم التوصل لأي حل ، مما ينبئ على أن حكومة الولايات المتحدة لم تُعرْ إهتماماً للعرض الذي قدمته كوبا بشأن تحرير الأسرى ، فإن هؤلاء سوف يقدمون للمحاكمة بصفتهم مرتزقة خونة لوطنهم ومجرمي حرب .

وبالفعل بدأت في ٢٩ اذار (مارس) محاكمة ١١٨٠ أسيراً . وقد جرت المحاكمة على مدى اسبوع كامل ، وفي يوم السبت ٧ نيسان (ابريل) حضر كاسترو بنفسه إلى حيث تقام الجلسات لإعلان الحكم .

أدين الجميع بجرمهم ، وحكم عليهم بالسجن مدة ثلاثين عاماً . ولكن أتيحت لهم فرصة التحرر في حال دفعهم لفدية مقدارها ٦٢ مليون دولار . وقدرت فدية كل واحد من الزعماء بـ ٥٠٠ ألف دولار ، أما الباقون فتتراوح فدية كلٍّ منهم بين ٢٥ و ١٠٠ ألف دولار .

وصل الخبر سريعاً إلى الولايات المتحدة . وفي يوم ١٩ نيسان (إبريل) ذكرى مرور سنة على الغزو الفاشل لكوبا ، بدأت حملة واسعة لجمع المال لدفع ما سموه بالتعويض . بينما كان كاسترو يحتفل في كوبا بذكرى انتصاره ، فأقام عرضاً عسكرياً رائعاً وسمح بـإطلاق سراح ٦٠ أسيراً من الجرحى والمرضى وإرسالهم إلى الولايات المتحدة .

وقد تمَّ أيضاً فك أسر بعض السجناء ممن كانت فديتهم لا تتسم بالضخامة ، وعن طريق بعض المبادرات الشخصية .. أما الباقون فقد كان عليهم الانتظار .



صورة من الجو تظهر عملية انزال الصواريخ البروسية في مرفأ ماريل وانشاءات اطلاقها داخل الجزيرة.

وقد نقل في تلك الأثناء كل من أوليفا وسان رومان وعدد من رفاقهم إلى قلعة ضخمة في «جزيرة الصنوبر».

وقد كان هؤلاء الأسرى يجهلون أنّ قضيتهم قد انتقلت إلى يد أحد المحامين البارعين المدعو جيمس دونافان الذي كان معروفاً لدى الجمهور الأميركي على إثر اشتراكه في محاكمات نورمبورغ.

ابتدا دونافان مفاوضاته مع كاسترو شخصياً. وقد نجح في اقناعه بفكرة أن تكون فدية الأسرى عبارة عن مواد غذائية وأدوية. ولكن عادت فنشأت صعوبات أخرى جديدة. تمثلت في كيفية نقل هذه المواد، إذ كان يفترض ان تنقلها أعداد كبيرة من السفن، ولكن واشنطن رفضت أن تدخل في عملية من هذا النوع. ولذا كان يجب التفتيش عن حلّ آخر لهذه العقدة. وجدير ذكره، أنّ كاسترو كان قد فضل الأدوية والمعدات الطبيّة على المواد الغذائية.

ومما زاد الأمور تعقيداً، هو ظهور أزمة جديدة بين كوبا وواشنطن، كانت أشد وأعنف من سابقاتها. وسببها قواعد الصواريخ الروسية في كوبا.

وعلى أثر تأزم الأحوال بين البلدين. أبلغ سجناء جزيرة الصنوبر، بأنه إذا ما وطئت الجيوش الأميركية أرض كوبا فإنهم سيقتلون في الحال.

إنتهت قضية الصواريخ بسلام، واستؤنفت المفاوضات بشأن الأسرى وفديتهم، وتسلّم روبرت كنيدي هذه المرة، زمام المبادرة واهتم كثيراً بقضية الأسرى، مما أثلج صدور الكوبيين في الخارج.

وأخيراً وصلت في أوائل شهر كانون الأول (ديسمبر) أول دفعة من المواد الطبيّة إلى كوبا بإشراف الصليب الأحمر، وبدأ تسلم الأسرى تباعاً.

وفي الثاني والعشرين من الشهر نفسه، أخرج

زعماء عملية الغزو الفاشلة من أقبيتهم في جزيرة الصنوبر وسمح لهم بالإغتسال وأرسلوا في اليوم التالي إلى هافانا حيث التقوا رفاقهم أسرى – قصر الأمير – ليغادروا كوبا على دفعات إلى الولايات المتحدة .

ونزولاً عند تمنيات المحامي دونافان . قبل كاسترو بخروج عائلات الأسرى المحررين من الجزيرة . وكان في الحقيقة يعتبر خصومه السياسيين هؤلاء انهم «أفواه لا فائدة منها» يأكلون خبز المواطنين الصالحين .

وقبل مغادرة دونافان الجزيرة ، جرى بينه وبين كاسترو الحوار التالي :

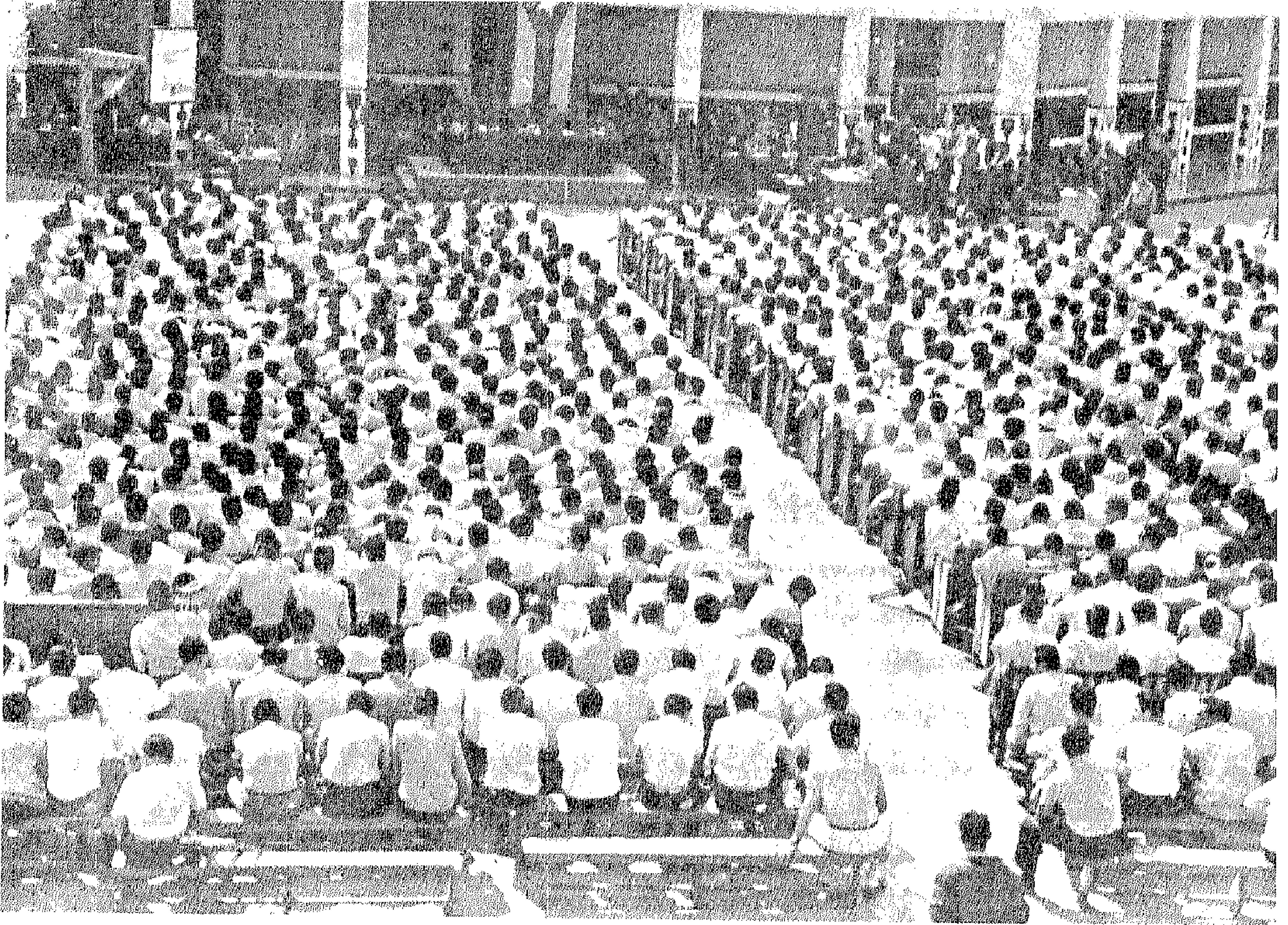
– سيدي رئيس الوزراء ، لقد فكرت كثيراً بما فعلته أنا للشعب الكوبي منذ أسابيع ، لقد خلّصتك من الأشخاص الذين كانوا يشكلون عليك عبئاً ثقيلاً . وقمت بمساعدة أطفال كوبا الصغار وفقرائها وعجائزها . لذا أعتقد بأنني سأترشح ضدّك في الإنتخابات القادمة ، ولي املٌ كبير في الفوز .

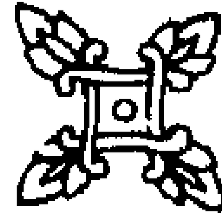
وفكر كاسترو قليلاً ثم أجابه :

– سيدي ، انك على حق ، ولذلك لن تجري الإنتخابات أبداً . وضحك الرجلان ...

■

محاكمة ١١٧٩ من أسرى الغزو الفاشل لكوبا





● نعم نحن لسنا باوصياء على الأمة بل وكلاء عنها ، ولكن و كلاء أمناء ، فيجب علينا أن نؤدي لأمتنا الأمانة كما أخذناها منها .

سعد زغلول



وثيقتان بريطانيتان سرّيتان

د. فايز صايغ

ننشر في هذا الباب تعليقاً للدكتور فايز صايغ على وثيقتين جديدتين صدرتا عن وزارة الخارجية البريطانية بشأن قضية فلسطين كانت قد نشرته مجلة حوار ، العدد الثاني ك ٢ – شباط (يناير – فبراير) ١٩٦٤ . ونظراً لأهمية هاتين الوثيقتين تعيد مجلة تاريخ العرب والعالم نشرهما في باب «وثائق من التاريخ» ، وتسمح لنفسها حذف ما يتعلق بالتذكير بالحوار العربي – البريطاني فيما يتعلق بفلسطين في مراسلات حسين – مكماهون نظراً لأن القارىء يجد نصوص هذه المراسلات في العديد من الكتب .

– في أهمية الوثيقتين

أتاحت لي ظروف خاصة ، منذ زمن ليس ببعيد ، أن أطلع على عدد من الوثائق الرسمية ، الصادرة عن وزارة الخارجية البريطانية منذ أربعة وأربعين عاماً ، والتي لما يزل امر وجودها محاطاً حتى اليوم بجدار كثيف من السرية والكتمان .

وهذه الوثائق – التي يزاح الستار عن وجودها ومحتواها في هذا المقال للمرة الأولى منذ صدورها ، والتي سترى بعض فقراتها نور العلانية لأول مرة ، في اية لغة ، على هذه الصفحات – ليست بالوثائق الميتة ، التي طمست السنون اهميتها ، وانما هي تتصل اتصالاً مباشراً بقضية حية نابضة ، لا زالت الى اليوم في طليعة القضايا التي تثير الوجدان العربي ، اعني بها قضية فلسطين .

تحفظ هذه الوثائق اليوم في مكتبة امريكية خاصة ، تابعة لـ «معهد هوفر للحرب والثورة والسلام» ، الذي يقوم في مبنى ضخم في مدينة ستانفورد الواقعة جنوبي سان فرانسيسكو (بولاية كاليفورنيا الامريكية) ، ويرتفع برجه من وسط اراضي جامعة ستانفورد المنبسطة على ساحل الخليج ليزاحم الهضاب الساحلية المحيطة به على مناطحة السحب .

وقد انشىء المعهد ، بادىء ذي بدء ، لايواء الوثائق والاوراق العامة والخاصة التي اودعها فيه هربرت هوفر ، احد رؤساء المعاهد الامريكية التي انشأت فروعاً خاصة بالمراجع المتعلقة بالشرق الأوسط ؛ وقد يكون فرع الشرق الأوسط فيه من اغنى المجموعات المماثلة في امريكا .

ويحتوي «فرع الشرق الأوسط» في «معهد هوفر» على نيف وتسعة آلاف مجلد ، من كتاب ونشرة ومخطوطة ، وعلى مجموعتين مستقلتين ، تحمل احداهما اسم «مجموعة وسترمان» نسبة الى البروفسور وليم لين وسترمان الذي كان استاذاً للتاريخ في جامعة كولومبيا ثم انتدب عضواً في البعثة الأمريكية الرسمية

الى مؤتمر الصلح الذي عقد في باريس في اعقاب الحرب العالمية الأولى.

وجميع الوثائق التي تضمها «مجموعة وسترمان» هذه، وثائق حكومية رسمية صادرة عن وزارة الخارجية البريطانية، حصل عليها صاحب المجموعة – بطريقة أو بأخرى – من احد اعضاء الوفد البريطاني لدى مؤتمر الصلح، واحتفظ بها ثم اودعها في «معهد هوفر»، مشترطاً المحافظة على سريتها ما دام هو على قيد الحياة.

وقد جاء في كتاب نشرته جامعة ستانفورد في كانون الثاني (يناير) ١٩٦٣ عن «معهد هوفر» وصف موجز لمحتويات «مجموعة وسترمان»، ورد فيه أن هذه المجموعة تضم «بيانات حول السياسة البريطانية، وتقارير صادرة عن الاستخبارات البريطانية، اعدت وجمعت لتكون في متناول الوفد البريطاني الى مؤتمر الصلح بباريس»؛ وان كل ما في المجموعة من وثائق «لم تصرح الحكومة البريطانية بنشره حتى الآن» (ص ٤٢ من كتاب «معهد هوفر»).

ويطيب لي ان أعبر هنا عن شكري للدكتور غلين كامبل مدير «معهد هوفر» الذي أذن لي (في خطاب بتاريخ ١٧ تموز يوليو ١٩٦٣) بنشر بعض المقتطفات الوثائق «ما دام الخطر قد زال بوفاة البروفسور وسترمان».

في وصف الوثيقتين

بين الوثائق التي تضمها «مجموعة وسترمان»، اثنتان تعنياننا مباشرة في هذا المقال.

الوثيقة الأولى تقع في عشرين صفحة، مطبوعة، على ورق بحجم الفولسكاب. وعلى رأس صفحتها الأولى بيان يقول: «ان هذه الوثيقة هي ملك حكومة صاحب الجلالة البريطانية». وتحت هذا، وعلى الجانب الأيسر، عبارة «سري»؛ وعلى الجانب الأيمن، اسم الجهة التي صدرت الوثيقة عنها، وهي: «ادارة الاستخبارات السياسية: وزارة الخارجية» ثم رقم الوثيقة: «خاص – ٣». ويأتي بعد ذلك عنوان الوثيقة الرسمي، وهو: «مذكرة حول الالتزامات البريطانية نحو الملك حسين». وسنشير الى هذه الوثيقة، في هذا المقال، بكلمة «المذكرة».

وتقسم المذكرة الى ثمانية فصول، تحمل العناوين الآتي بيانها:

١ – «ضمانات عامة حول عدم عودة الوضع الراهن» (صفحة ١ – ٢).

٢ – «ضمانات بشأن الأماكن الاسلامية المقدسة» (صفحة ٢ – ٣).

٣ – «تخوم الاستقلال العربي» (صفحة ٣ – ٧).

٤ – «الإدارة الأجنبية في العراق وسوريا وفلسطين» (صفحة ٧ – ٩).

٥ – «علاقة الشريف حسين ببريطانيا العظمى» (صفحة ٩ – ١١).

٦ – «لقب الشريف حسين» (صفحة ١١ – ١٤).

٧ – «الإتفاقيات والمعاهدات بين حكومة صاحب الجلالة والحكام العرب الآخرين في المنطقة المستقلة» (صفحة ١٥ – ١٧).

٨ – «الخلافة» (صفحة ١٧ – ٢٠).

وتستعرض المذكرة، في كل من هذه الفصول، الالتزامات والتعهدات المتعاقبة التي ارتبطت بها الحكومة البريطانية تجاه الملك حسين بشأن موضوع ذلك الفصل، على التوالي؛ ثم تبحث، في ختام كل فصل، بمدى الانسجام او التضارب بين تلك الإرتباطات، من جهة، والمصالح او المآرب البريطانية، من جهة اخرى.

واما الوثيقة الثانية فتقع في ١٢ صفحة مطبوعة، وتحمل على رأس صفحتها الأولى البيان الذي تحمله المذكرة، والقائل بانها ملك للحكومة البريطانية، ثم يلي ذلك عنوانها كالآتي: «ملحق حول الالتزامات السابقة لحكومة صاحب الجلالة في الشرق الأوسط». وسنشير اليها في هذا المقال بعبارة «الملحق».

ويقسم متن الملحق الى فقرات، مرقمة بالتسلسل من ١ الى ٦١.

والفارق بين المذكرة والملحق فارق مزدوج. فالمذكرة تقتصر على التعهدات المعطاة للحسين، في حين ان الملحق يستعرض جميع الوعود التي قطعتها بريطانيا على نفسها تجاه جميع الدول والفرقاء. وثانياً: فيما تقتصر المذكرة على المنطقة العربية،

يتناول الملحق جميع المناطق التي كانت خاضعة للامبراطورية العثمانية .

هاتان هما الوثيقتان البريطانيتان الرسميتان – «السريتان» حتى هذه الساعة – اللتان نخص بهما هذا المقال . وهما معاً (شأنهما في ذلك شأن الوثائق التي تضمها «مجموعة وسترمان» ، كما ذكرنا) اعدتا خصيصاً لاطلاع الوفد البريطاني الى مؤتمر الصلح بباريس ، كيما يكون اعضاؤه على بينة من امرهم اثناء المناقشات ، وملمين الماما تاماً عند المفاوضات بجميع التعهدات التي قدمتها حكومتهم اثناء الحرب لمختلف الفرقاء .

فالوثيقتان اذاً ، لم توضعا بقصد النشر أو التعميم . ولم يحسب واضعوهما ، لدن اعدادهما ، حساباً لامكانية اطلاع اي كان عليهما ، فيما عدا اعضاء الوفد البريطاني . ولذلك فان الوثيقتين كانتا صريحتين كل الصراحة ، خاليتين من اي اثر من آثار المواربة والتضليل .

ثم انهما كانتا بريئتين من عناصر التبرير او التعليل ، او الأعتذار او الدفاع – حتى عندما يتضح جلياً فيهما وجود تناقض صريح بين تعهد وتعهد ، او بين وعد ووعد . فكأني بالموظفين الذين أعدوا هاتين الوثيقتين كانوا اشبه بالمستخدم في مخزن ، يكلفه ولي امره بأن يقدم كشفاً بالموجودات فيه . فيقوم بعملية الجرد والتدوين دون ان يحاول أن يعلل او يبرر أو يدافع ، شاعراً انه ليس عليه الا أن يكون دقيقاً في تعداد كل صنف من أصناف الموجودات ، أميناً في تسجيل كل المعلومات اللازمة او المطلوبة بشأن كل مادة أو فئة من المواد . فالوثيقتان ، اذاً ، تختلفان من هذه الناحية اختلافاً ملحوظاً عن البيانات العامة او التصريحات السياسية التي صدرت عن الحكومة البريطانية في صدد اي من الالتزامات التي تحصيها وتسجلها تانك الوثيقتان : اذ أن البيانات والتصريحات العامة كان غرضها تفسير كل التزام تفسيراً يتوافق ومصلحة الحكومة البريطانية في الظروف التي صدرت فيها ، او تبرير الالتزام امام الرأي العام (البريطاني او العالمي) ، أو اظهار الإنسجام (أو الإنسجام المزعوم) بينه وبين الالتزامات الأخرى – في حين ان الوثيقتين المشار اليهما كانتا خاليتين من جميع هذه العناصر ، لأن مهمتهما كانت «تقريرية» خالصة ، ولأن طبيعتهما كانت سرية ، ولأنهما كانتا موجهتين الى المفاوض البريطاني (واليه وحده) بقصد اطلاعه على الحقائق ، جميع الحقائق .

ويلاحظ القارىء ، لدى مطالعته هاتين الوثيقتين ، ملاحظة اخرى – هي خلوهما خلواً تاماً من العنصر «الذاتي» في العرض والتحليل . فانت لا تعلم ، وأنت تقرأ المذكرة او الملحق ، ما اذا كان الموظف الذي اعد اياً من تينك الوثيقتين مؤيداً للاتجاه السياسي الذي انبثق عنه هذا الالتزام ، ام اذا كان يؤيد الاتجاه المعاكس الذي فرض نفسه في وقت آخر فصدر عن الحكومة بسببه التزام معاكس . فهو (أي الموظف) يسجل الالتزامات ، لا الدوافع ؛ وهو يسجلها كما اعطيت ، لا كما يرغب هو ؛ بل هو يسجلها في تجرد تام ، كأن لا شأن له بها على الإطلاق . فهو لم يكن بطلاً من أبطال الرواية السياسية التي يؤرخ لها ، ولم يكن له دور ما في حوارها : ما هو سوى مسجل للحوار ، شأنه في ذلك شأن مدوني المحاضر في المؤتمرات ، يدونون ما يقال في النقاش ، أو ما يتفق عليه في المقررات ، دون تحزب لوجهة نظر أو لأخرى . وينجم عن ذلك ، ان السجل الذي تنطوي عليه الوثيقتان اصدق ، بالنسبة الى كل التزام او تعهد ، من التحليل الذي يصدر عن السياسي الذي حث عليه ودعا اليه وطالب به ، أو السياسي الذي عارضه واعترض عليه – وما أكثر التيارات والتيارات المعاكسة التي لعبت دورها وراء الستار في الأوساط البريطانية اثناء الحرب ، وكانت السبب الدافع الى الكثير من الارتباطات المتناقضة التي ارتبطت بها الحكومة البريطانية في تلك الفترة .

اخلص من هذا الحديث عن الصفات التي تتميز ، وتمتاز ، بها هاتان الوثيقتان ، الى التأكيد بان ما تدونانه من تعهدات بريطانية ، وما تؤكدانه بشأن محتوى الالتزامات البريطانية ومداها ، هو أصدق وأدقّ مما ورد حول تلك التعهدات والالتزامات في البيانات الحكومية أو في تصريحات رجال السياسة ومذكراتهم . فالوعود البريطانية العديدة التي تستعرضها هاتان الوثيقتان تظهر فيهما بوجهها الصحيح ، كما اعطيت حين أعطيت ، دونما تبريج ودونما تقنيع ودونما تزييف !

وقد ورد في كل من المذكرة والملحق عرض للارتباطات التي قبلت بها بريطانيا اثناء الحرب بشأن

فلسطين ، ابتداء من مراسلات مكماهون والحسين ، حتى انتهاء الحرب .

لما ورد فيهما بهذا الشأن ، اذاً ، هو القول الحاسم في موضوع بات ، منذ نهاية الحرب العالمية الأولى ، موضوع حوار عنيف بين العرب وبريطانيا -حوار دار على الصعيد السياسي بين الحكومات والوفود الرسمية ، وعلى الصعيد الشعبي والصحفي ، وعلى الصعيد العلمي والتاريخي ؛ وانتهى على الصعيد الأوّلي عندما نفضت بريطانيا يديها من قضية فلسطين ، ولكنه لما ينته على الصعيدين الآخرين .

فبماذا تجزم هاتان الوثيقتان فيما يختص بهذا الموضوع ؟

الوثيقتان تكذبان الحكومة البريطانية :

هل كان مكماهون حقاً يقصد . عندما خط رسالته الى الشريف حسين . أن يستثني فلسطين من منطقة الاستقلال العربي -كما ادعى في رسالته الى « التايمز » اللندنية ؟

هل كانت الحكومة البريطانية دائماً تعتبر فلسطين خارج تلك المنطقة -كما زعم تشرشل ، باسم حكومته ، عام ١٩٢٢ ، وكما ظلت الحكومة البريطانية تردد في مناسبات عديدة منذ ذلك التاريخ ؟

هل كل ما في الأمر هو « غموض » بريء ، و« التباس » غير مقصود ، و« سوء تفاهم » مؤسف -كما يتوهم بعض المؤرخين والباحثين ، « المستقلين» و« المحايدين » ؟

أم هل الأمر حقاً خداع ، ومكر ، تبعهما غدر اكيد ، حاولت الحكومة البريطانية تغطيته بالكذب والنفاق -كما يشعر العربي اذ يستعرض مراحل قضية فلسطين منذ نشأتها ؟

لنترك للحكومة البريطانية نفسها أمر البت في هذه الأسئلة -في الوثيقتين الرسميتين السريتين ، اللتين اعدتهما للتوزيع الداخلي في صفوف وفدها الى مؤتمر الصلح .

لنترك الحكومة البريطانية تحادث نفسها ، في تينك الوثيقتين ، وهي واثقة مطمئنة الى أنه ليس ثمة إذن غريبة تصغي الى المحادثة ، وليس من عين غريبة تشاهد عملية « التعري » .

ولنبدأ بالمذكرة .

تقول المذكرة ، في الفصل الرابع ، الصفحة التاسعة ، الأسطر ٩ -٣ ، ما يلي :

« فيما يتعلق بفلسطين ، ان حكومة صاحب الجلالة ملتزمة ، بموجب كتاب السير هـ . مكماهون الى الشريف في الرابع والعشرين من تشرين الأول (اكتوبر) ١٩١٥ ، بتضمينها في حدود الاستقلال العربي » .

يا لبلاغة الإيجاز !

هكذا ! بكل بساطة ، وبكل وضوح ، وبكل تأكيد . لا تحفظات ولا استثناءات فيما يتعلق بفلسطين ، بل التزام واضح صريح . ليس من شك في الأمر يخامر الحكومة البريطانية ، وليس من غموض او ابهام يحجب رؤياها ، فيما هي تحادث نفسها بنفسها ، ويبوح طرف منها للطرف الآخر بما تعهدت به الحكومة ككل !

وما تقوله المذكرة بايجاز وبساطة وجزم ، يقوله الملحق أيضاً ، بالبساطة عينها ، بالإيجاز عينه ، بالجزم عينه -بل وبتأكيد اقوى وأوضح . اذ جاء في الملحق ، الفقرة الخامسة والخمسين ، الصفحة الحادية عشرة ، الأسطر ١٤ -١٧ ، ما يلي :

« ان فلسطين بكاملها ، ضمن الحدود المعينة في متن المذكرة ، تقع ضمن الحدود التي قطعت حكومة صاحب الجلالة عهداً على نفسها ، الى الشريف حسين ، بالاعتراف باستقلال العرب ضمنها ، وبتدعيمه » .

تعهد صريح واعتراف كامل -وكل حديث عن « التحفظات » و« الإستثناءات » بشأن فلسطين بهتان مفضوح : هذه هي شهادة الوثيقتين البريطانيتين على الإدعاءات البريطانية .

نعم ان المذكرة تسجل ان الحكومة البريطانية اوفدت مبعوثاً اسمه هوغارت في ٤ كانون الثاني (يناير) ١٩١٨ الى الشريف حسين ليبلغه بياناً سياسياً جديداً بشأن فلسطين . والملحق أيضاً يسجل ذلك (كما يسجل معاهدة سايكس بيكو ووعد بلفور) . الا أن هذه مسألة مستقلة عن التعاقد البريطاني المتضمن في مفاوضات حسين ومكماهون ومراسلاتهما . فبعثة هوغارت كانت مهمتها نقل بلاغ صادر عن الحكومة المحتلة في فلسطين الى ملك الحجاز ، في حين ان مراسلات حسين ومكماهون ، ولئن كانت تدور بين ممثل الحكومة نفسها والرجل نفسه ، كانت تحمل صفة المفاوضة بين جانبين ، وكان غرضها الوصول الى اتفاق

وتعاقد يرضى عنه الجانبان ، وكان الحسين فيها يفاوض بالأصالة عن نفسه وبالنيابة عن حركات شعبية في البلدان المعنية بالأمر بما فيها فلسطين . البلاغ البريطاني الذي نقله هوغارت لم يكن جزءاً من عملية المفاوضة او مرحلة من مراحلها - فتلك عملية انتهت بانتهاء المراسلات بين الشريف حسين ومكماهون ، وباكتمال الإتفاق العربي البريطاني ، وبقيام الثورة العربية تنفيذاً اميناً للتعاقد من قبل العرب ، وكل هذا كان قد تم قبل زيارة هوغارت بعامين اثنين . فبلاغ هوغارت ، والحالة هذه ، لم يكن استمراراً لعملية التفتيش عن قاعدة اتفاق - فتلك القاعدة كانت قد وجدت وتم التعاهد على احترامها - بل كان نقضاً من احد الفريقين للتعاقد الذي كان الجانبان قد أقراه والذي كان الفريق الآخر (أي العربي) قد نفذ تعهداته بمقتضاه تنفيذاً كاملاً . البلاغ الذي حمله هوغارت الى الشريف حسين ، اذا ، لم يكن «تحفظاً» بريطانياً صادراً في اطار عملية مفاوضة ما زالت يوم صدوره مستمرة ، بل كان ايذاناً من قبل الجانب البريطاني باعتزامه على نقض تعهده والنكث بوعده والغدر بحليفه .

خاتمة : ملاحظات :

ان نصوص الوثيقتين البريطانيتين «السريتين» تلقيان نوراً ساطعاً على النقطة الجوهرية في الحوار البريطاني العربي - ذلك الحوار الذي حرصت الحكومة البريطانية ، طوال اربعة واربعين عاماً ، على جعله يدور في حلقات مفرغة . فلقد سعت الحكومة البريطانية لحصر الحوار ، على المستوى الرسمي ، في اطار من الادعاءات المتناقضة التي لا يمكن التوفيق بينها . كما سعت لجعل الحوار يدور ، على الصعيد العلمي والتاريخي ، في اطار من الابهام والغموض المزعومين ، يفرض على الباحث او المؤرخ ان يتوقف آخر الأمر عن السعي لتوضيح الأمر توضيحاً اكيداً ، يائساً من امكانية اللبس او الابهام .

تلك هي التغطية المزدوجة التي حاولت الحكومة البريطانية طوال هذه الأعوام ان تجد فيها مهرباً من مواجهة الحقيقة - حقيقة الخداع الذي قامت به ، والغدر الذي اقترفته ، والذي سعت الى التخلص من نتائجه الأدبية والسياسية بالنفاق والتضليل . وهل التضليل والنفاق ، في نكران الجرم الأصلي ، اقل اجراماً من الخداع والغدر المرتكبين في البدء ؟

لقد استعملت تعابير «الخداع» و«الغدر» و«النفاق» و«التضليل» متعمداً - وأنا أقصد بكل منها كل ما فيه من معان يحددها القاموس ويعينها العرف اللغوي . وهي ليست تعابير عاطفية اطلقها عن انفعال - رغم أن الإنفعال يقوم في النفس حتماً كلما تأمل المرء تلك الفترة المؤلمة من التاريخ الحديث الحي - وإنما هي تعابير وصفية ، اطلقها بكل ما استطيعه من دقة وتحديد ، لأصف بها زوايا الفعل البريطاني الذي تحدثت عنه في هذا المقال . وحبذا لو كان في اللغة تعابير اخرى تؤدي هذه المعاني عينها ، اذاً لاستعملتها بدلاً من تلك الكلمات الأربع التي ابتذلت ويا للأسف من كثرة الإستعمال حتى لقد خفت وطأتها وفقدت الكثير من عنفها الأصيل .

ان العثور على الوثائق الرسمية التي حرصت الحكومة البريطانية على احاطتها بسياج كثيف من السرية والكتمان ليهدينا الى الحلقة المفقودة في سلسلة العلاقات البريطانية العربية التي قامت ضمن اطارها نكبة فلسطين ، وليعطي لمؤرخ تلك النكبة وللباحث في اصولها وتطورها المستمسكات التي كان تأريخ القضية حتى الآن يفتقر اليها ، والتي كان البحث في منشأ القضية يعوض عن فقدانها بالإجتهاد والتحليل والتكهن واللجوء الى استقراء القرائن في غياب النصوص .

على أن «القيمة العلمية» المتأتية عن اكتشاف هذه الوثائق (أي استكمال الحقيقة التاريخية التي كان بعض اجزائها مفقوداً) ، و«القيمة الجدلية والدعاوية» التي تتبع تلك (أي الحصول على المستمسكات التي تدين الجانب البريطاني) يجب أن توضعا في اطارهما الصحيح . وهذا ما يحدو بي الى التأكيد ، في ختام هذا المقال ، على نقطتين هامتين :

١ - في مجال الصراع العملي لاسترجاع فلسطين ، ليس لهذه الوثائق - أو لأية وثائق - كبير أهمية . فالعرب لم يفقدوا فلسطين لضآلة الوثائق التي تثبت حقهم فيها ، والصهيونيون لم يبنوا اسرائيل على أكداس الوثائق . بمقدار ما استطاع الصهيونيون أن يكسبوا لقضيتهم انصاراً عن طريق الجدل ، وبمقدار ما استطاعوا أن يحصلوا من هؤلاء الأنصار على العون المالي او السياسي او العسكري ، بذلك المقدار (وبه فقط) تقاس أهمية اكتشاف اية حجة جديدة تضاف الى مجموعة الحجج المستعملة في النقاش او تفيد في تحطم حجج الخصم المعاكسة . الا أن هذا المقدار من

الأهمية ضئيل ، اذا قورن بالعوامل الأخرى التي ادت الى ظفر الصهيونيين حتي الآن في معركة فلسطين – من وحدة في الصفوف والأهداف ، الى تعبئة للطاقات ، الى التفاني في خدمة قضيتهم ، والى سوى هذه من الأسباب التي عملت على تمكينهم من احتلال فلسطين العربية حتى هذه الساعة .

٢ – وكما أن هذه الوثائق ، وكل الوثائق ، ليس لها الأثر الحاسم في النضال الفعلي ، وفي تقرير مصيره ، فكذلك ليس لهذه الوثائق ، أو لأية وثائق ، أثر حاسم في تقرير حق العرب في فلسطين. فإن هذه الوثائق لا تثبت أكثر من أن بريطانيا اعترفت ، عـــام ١٩١٥ ، بحق العرب بـــالاستقلال في فلسطين – ولكن ذلك الحق لم يستمده العرب من اعتراف الآخرين به ، ولا يفقدونه بزوال ذلك الاعتراف .



مخترع عيدان الكبريت

إن النار من أهم ما يحتاج إليه الإنسان في أحوال حياته لاننا بدونها لا نقدر على عمل ومع ذلك فقد قل من بحث عن أصل اختراعها أو عن مخترعها ، على أن الذين بحثوا في ذلك لم يستطيعوا الوقوف على خبر الاختراع ، ولكنهم علموا ان الإنسان توصل إلى إشعال النار أولاً بواسطة الفرك ، إذ علم بالاختبار البسيط أن الفرك يولد الحرارة فما زال يتدرج حتى توصل إلى إيقاد النار به ، وما يزال بعض الأمم المتوحشة يولدون النار بالفرك إلى الآن . ثم توصل الإنسان إلى توليد الشرر بالزناد بضرب الفولاذ على الصوان فيتولد من تلك الصدمة شرارة تشعل بعض المواد السريعة الاشتعال كالصوفان أو نحوه . والزناد مستعمل عند أهل البادية إلى اليوم . وقد اتخذ الإنسان أساليب أخرى من هذا القبيل ترجع إلى مبدأ واحد .

عيدان الكبريت حديثة العهد اخترعها رجل اسمه «ووكر» من أهل ستوكتن في انكلترا سنة ١٨٢٩ ولكنها لم تستعمل إلا سنة ١٨٣٤ ، وأول معمل تأسس لاصطناعها أسسه روبين بارتودج سنة ١٨٤٢ في انكلترا . وفي سنة ١٨٤٥ تأسس معمل آخر في فينا (النمسا) . وطريقة اصطناع هذه العيدان في غاية البساطة لأنها مقصورة على تقطيع الخشب إلى عيدان رفيعة وغمس أطرافها في سائل من مواد قابلة للاشتعال بالفرك القليل أهمها الفصفور . ومعامل هذه الصناعة كثيرة في أوروبا يشتغل بها الأحداث بأجور قليلة ولذلك فهي تباع بأثمان بخسة .



- بعض النّاس يصدقون اي شيء يقال لهم .... ما دام همساً .
- الأحمق شخص يحرمك من الوحدة دون ان يمتعك بالصحبة .

الأطباق الطائرة

بين الحقيقة والخيال



عن مجلة «قافلة الزيت». ابريل/مايو ١٩٧٠

كَثيراً ما نَرَى الإنسَانَ يتنكَّبُ عن الطَريق الصَّحيح في تفسِير الحقَائِق العِلميّة، ويَبْتَعِدُ عَن الطَّرِيق العِلميّ الواضِح في تَفَهُّم ظواهِر الطَبيعَة. وَمِن أبرَز ما يُثْبِتُ هَذا، تَمسُّك البَعْضِ باسْتِطْلاعِ الحَظِّ عَن طَريق نجوُمٍ وَأبْراجٍ، وَكَانَ الأحْرَى بِهِمْ أن يَنظرُوا إلى جوْهَرهَا وَجرمهَا وَمَكَانِها وَسِرِّ تحرُّكَاتِها، مِمّا يَدُلّ على عَظمة المُبْدعِ الخَالِق. وَالعِلمُ - كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ - لا يُسَلّم بحُصُولِ ظَاهِرَةٍ أو حَدَثٍ كحقيقةٍ عِلميّةٍ، إلاّ عنْدَمَا يَتَكرّر ذلِكَ بصُورَةٍ نِظامِيّة، عَلَى مَرأىً مِنْ جمَاعةٍ يَتحَلَّوْنَ بِسلاَمَةِ العَقْلِ والجِسْمِ وَبصفاتِ الأمَانَةِ العِلْميَّة.



يتردد هذا السؤال كثيراً في أيامنا هذه، وقلما تخلو صحيفة أو مجلة من ذكر هذه الظاهرة الغريبة بين وقت وآخر ويقال بأنها ظهرت لأول مرة في سماء المكسيك، ثم في اسبانيا وايران في عام ١٩٥٤. وبعد ظهورها في المكسيك، عادت إلى الظهور ثانية في القسم الجنوبي من تلك البلاد، حيث شاهدها بعض السكان بالعين المجرّدة بأعداد كبيرة، وكانت على شكل أطباق فضية تتنقل في الجو بسرعة عظيمة وقد دامت هذه الظاهرة مدة ساعتين ثم اختفت عن الأنظار متجهة نحو

الشمال الغربي. وفي أحد الأيام تكررت هذه الظاهرة في سائر المدن المتتابعة من الشمال إلى الجنوب، مما يدل على انها كانت تتبع طريقاً منتظماً.

وقد نشرت الصحيفة الاسبانية في شهر مارس من العام نفسه، نبأ مفاده ان صحوناً طائرة شوهدت في أماكن عديدة من البلاد الاسبانية كما انه ظهر، لأول مرة عدد من هذه الصحون في ساحل البرتغال الشمالي. وفي أحد الأماكن، بقي الصحن محلقاً نحو ثلاث ساعات، ينفث دخاناً أبيض على شكل حلقات بسرعة فائقة. وشوهد صحن آخر متجهاً نحو الشرق تاركاً وراءه شعاعاً أحمر. وفي سماء إحدى المدن شاهد عدد كبير من السكان صحوناً طائرة، تدور حول نفسها، وتحلق على علو كبير جداً.

وبعد ذلك جاءت الصحف في يوغسلافيا، تروي أخباراً من مراسليها في المدن المختلفة، عن ظهور أجسام من أنواع مختلفة، تحلق على ارتفاعات كبيرة وبسرعات عظيمة، وأحياناً بتجمعات متنوعة، بعضها على شكل بيضوي متوهج، والبعض الآخر على شكل كريات من نار أو مجامر تنبعث منها ألسنة نارية، كانت هذه أول مرة تحتل فيها الأطباق الطائرة أعمدة طويلة في الصحف اليوغوسلافية، بعدما كانت تضفي عليها سابقاً طابع الشك وعدم المبالاة. وكان طبيعياً أن تظهر آراء مختلفة حول تفسير هذه الظاهرة الغريبة.

وفي نوفمبر عام ١٩٥٤، نشرت صحف النمسا أخباراً تفيد ان ألوف الأشخاص شاهدوا أجساماً غريبة تحلق في سماء فينّا وغيرها من المدن الواقعة شرقي النمسا. وأكدت محطة الأرصاد الجوية في العاصمة النمساوية آنذاك ان الطبق الذي ظهر في جو تلك المدينة، لم يكن منطاداً للاستكشاف، بل كان جسماً تنبعث منه خطوط نارية متعددة، ويسير بسرعة هائلة من الغرب إلى الشرق دون احداث صوت أو ضجيج على الاطلاق. كما ظهر فوق احدى المدن طبق على شكل كرة ينحصر لونها بين الخضرة والزرقة، وفي مؤخرتها مسمار مسنن، وكان يسير على علو أربعة آلاف متر تقريباً. وفي أماكن أخرى، كانت الأطباق تظهر على شكل كرة زرقاء تارة، وحمراء تارة أخرى، تحلق أفقياً وفي اتجاه معين دون أن تحدث صوتاً أو ضجيجاً.

وفي ٦ نوفمبر من العام نفسه، بدأ ظهور الأطباق يخف في فرنسا، ويكثر في اسبانيا. وقد روى سائق سيارة انه توقف مكرهاً في طريقه، عندما شاهد على بعد ١٥٠ متراً صحناً كبيراً براقاً، وبعد قليل حلق ذلك الصحن في الجو على أثر صوت انفجار خفيف، واختفى بسرعة فائقة. وهنا تملك السائق الخوف والذعر، فأقفل أبواب السيارة وجلس في داخلها وهو



مجموعة من الأطباق الطائرة التي شوهدت تحلق في سماء البرازيل.

صورة لجسم غريب طائر ظهر في سماء شبكانس عام ١٩٥٤.

يتمتم ببعض الدعوات.

كذلك ايطاليا، فقد كانت أيضاً من بين البلدان التي ظهرت في أجوائها الأطباق الطائرة. وقد جاء في أخبار مدينة فلورنسا، ان قروية التقت باثنين من سكان المريخ، عندما كانت في طريقها إلى القرية وكانت تحمل بعض الأزهار. وجاء في الافادة التي أدلت بها تلك المرأة إلى رجال البوليس، ان طول الواحد منهما كان يبلغ نحو المتر، لكنها لم تتمكن من تعيين صفاتهما، لأنهما كان يلبسان قبعتين من الجلد تغطيان وجهيهما، وكانا يتحدثان بلغة لم تتمكن من فهمها، وفجأة انتزع أحدهما الأزهار التي كانت تحملها في يدها، واتجه الاثنان بسرعة نحو طبق يبلغ علوه نحو ٣ أمتار في حقل مجاور. ولما وصل رجال البوليس، لم يكن هنالك أثر لذلك الطبق، سوى علامة على الأرض تشير إلى آلة مستديرة.

ولا بد من الاشارة هنا إلى أن هذه الظاهرة، لم تكتب لها الحياة في بلادنا العربية أو افريقيا أو بلدان عديدة أخرى، مما يبين ان لها علاقة بنفسية بعض الشعوب التي كان لها اتصالات ثقافية واجتماعية متشابهة، وقد ظهرت هذه الأطباق للمرة الأولى في الهند في شهر نوفمبر من عام ١٩٥٤، وأكد أحد المشاهدين وجود كائنات بشرية على سطح المركبة.

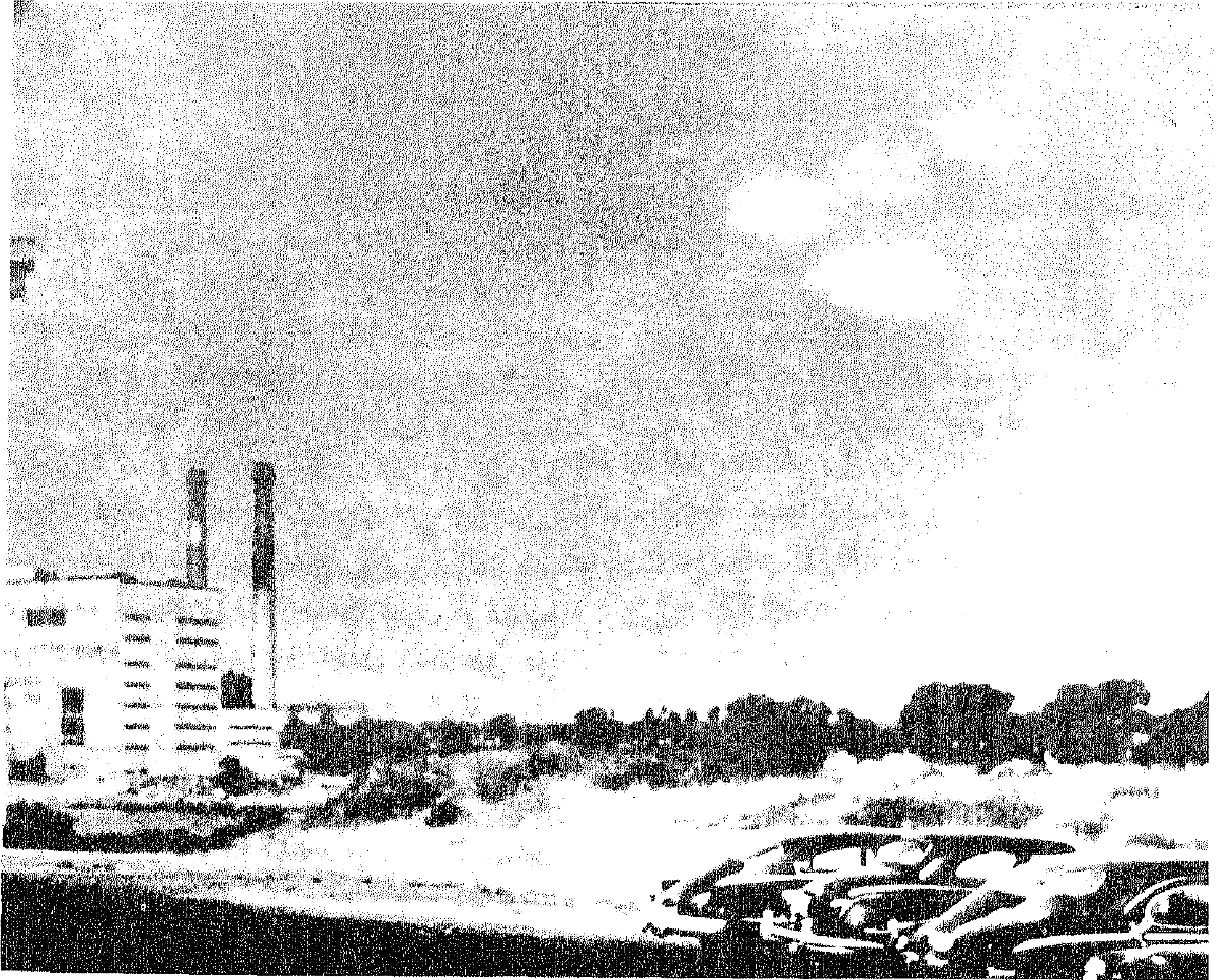
أنواع هذه الأطباق وأشكالها

يتبين لنا مما تقدم، ان هذه الأطباق ليست من نوع واحد، فمنها ما يكون على شكل كرة قاتمة، أو طائرة بلا أجنحة. ومنها ما يتخذ شكل قرص أو صحن يدور حول نفسه، أما منفرداً أو مع كتلة من أمثاله. وتحلق هذه الأطباق ليلاً ونهاراً متخذة ممراً متعرجاً بشكل فجائي، مما يدل على انها ليست كباقي الأجسام المعروفة في عالم الطيران الحديث. والغريب في أمر هذه الأطباق الطائرة صمتها التام، وكذلك سرعتها الفائقة، التي حملت الكثيرين على اعتبارها مركبات تنطلق من الفضاء إلى الأرض. ذلك لأن ما هو معروف لدينا بالنسبة إلى ما توصل إليه الانسان في حقل الفضاء انه لا يمكن لأية مركبة تنطلق في الجو بسرعة عدة آلاف من الأميال في الساعة دون أن تذوب بتأثير الحرارة الناجمة عن الاحتكاك، ودون أن تحدث صوتاً أو حركة.

وهناك طبق طائر مستطيل الشكل، شاهده بعض سكان الهند، في اكتوبر عام ١٩٥٤ فوق مدينة تبعد نحو ٣٢٠ كيلومتراً إلى الشمال الشرقي من كلكتا، تاركاً وراءه سيلاً طويلاً من الشرر الناري. وقد دام المشهد نحو ١٥ دقيقة، اختفى بعدها الطبق الطائر.

وبالاضافة إلى الأشكال الآنفة الذكر، حلقت في سماء فرنسا في صيف عام ١٩٥٤، مجموعة من

صورة تمثل أربعة من الأجسام المضيئة الشبيهة بالأطباق الطائرة التقطت أثناء تحليقها في سماء ولاية ماستشوستس ١٩٥٢.



الأطباق الطائرة كانت تدور حول نفسها إلى جانب مجموعة أخرى مؤلفة من أجسام تشبه لفائف التبغ، والتيجان، والمذنبات، والفطر المجنح. وعند وصول هذه الأطباق إلى الأرض، خرج منها بشر ذوو ألوان مختلفة، وكان أحدهم مخططاً، كحمار الوحش. وكانوا يتكلمون اللغات الانكليزية والفرنسية، واللاتينية. وعند مغادرتهم للأرض تركوا وراءهم آثاراً بين الأعشاب تشبه آثار الزحافات، وخدوشاً واضحة على بعض قضبان السكك الحديدية.

دور العلماء في تفسير هذه الظاهرة

كانت هذه الروايات الغريبة المختلفة الصادرة، سبباً كافياً لاقتحام العلماء هذا المضمار، لتقرير مقدار الصحة التي ترافق هذه الظاهرة، والأسباب التي تؤدي إلى حدوثها. وبالرغم من أن البعض قد نعتوا الرواة بصفة السخافة، وهذا فيه شيء من الصحة، فان هناك دلائل تشير ان هذه الظاهرة ليست كلها من باب الوهم والخيال. فقد قال الدكتور دونالد منزل Donald Menzel أستاذ فيزياء الفلك في جامعة هارفرد الأمريكية، ان في هذه الظاهرة من الحقيقة بقدر ما في ظاهرة قوس قزح منها، وانه قد شاهد هذه الأطباق، ولا يرى شيئاً من الغرابة في هذا الأمر. ولكنه أراد أن يبين ان مشاهدة هذه الظاهرة شيء، واعتبار الصحون الطائرة مراكب جوية يسيرها سكان الكواكب السيارة شيء آخر، هو وليد الخيال، وما تبقى في ذهن الانسان ما هو إلا نتيجة الأساطير التي يسمعها.

ولا شك في أن قسماً كبيراً من هذه الروايات لا يعدو عن كونه مجرد وهم وخيال.. بيد أن بعضها ناتج عن مناطيد جوية، وطائرات، أو قصاصة من الورق عبثت بها الرياح، وحملتها إلى أعالي الجو، فكانت تعكس نور الشمس وتظهر براقة، كجسم متلألئ يسير في طبقات الجو العليا. وكان بعض الذين شاهدوا هذه الظاهرة متأكدين من رؤيتهم لها، مما يحول دون التهرب من إيجاد تفسيرات لها على ضوء ما هو معروف من نواميس الطبيعة وظواهرها المختلفة.

ولما كان اعتبار هذه الأطباق الطائرة مراكب مادية من صنع سكان الكواكب السيارة أمراً يجانف الحقيقة والواقع، فانه يسهل تفسير خواصها الغريبة.. فهناك أشياء غير مادية لا تخضع للنواميس التي تتحكم بالأجسام المادية، وهي تشبه الأوصاف التي أطلقها



صورة لاحد الأطباق الطائرة التي ظهرت في سماء كاليفورنيا.

الناس على الأطباق الطائرة، وتسير بسرعة فائقة وبصمت مطبق، متبعة طريقاً متعرجة منها: بقعة النور. وعلى سبيل المثال فإنه بالامكان توجيه حزمة من الضوء بواسطة النور الكشاف نحو طبقات السحب العالية وجعلها تظهر وكأنها تسير بسرعة عدة آلاف من الأميال في الساعة، متبعة بذلك طريقاً متعرجة دون أن تحدث صوتاً ومغيرة اتجاهها بصورة فجائية.

الاستعانة بالرادار والسراب

بالرغم من أن الأفراد الذين شاهدوا الأطباق الطائرة أناس موثوق بهم وبأهليتهم، فانه لم يكن بالامكان تفسير رؤيتهم هذه على أساس كونها بقعاً ضوئية، لكن هذه الفكرة أوحت إلى الدكتور «منزل» بأن يوجه أفكاره نحو مصدر آخر غير مادي ليثبت لبعض المشاهدين انه في الامكان رؤية أجسام مادية تندفع في الجو بسرعة تفوق ما هو معروف لدينا على سطح الأرض. ففي أثناء الحرب العالمية الثانية، التحق الدكتور «منزل» باللجنة المختصة بالأبحاث الرادارية، وكان من ضمن الأعمال التي أنيطت به درس تأثير تطورات الهواء على الأمواج الرادارية، لأن طبقة من الهواء الحار كثيراً ما تجعل هذه الأمواج تضل سبيلها وتشذ عن خط سيرها محدثة بذلك أشباحاً مضللة على لوحة الرادار. وكثيراً ما كانت الطائرات تلقي قنابلها في المحيط بصورة عفوية بسبب هذه الأشباح المضللة. وقد استنتج «منزل» من هذه الدراسات، ان هذا الشذوذ في سير خطوط الأمواج الرادارية يحتمل أن يحدث أشباحاً ضوئية تشبه إلى حد بعيد الأطباق الطائرة.

ولنا في السراب دليل آخر على ان الأشباح الضوئية هي أمر عادي يكثر وقوعه في مناسبات

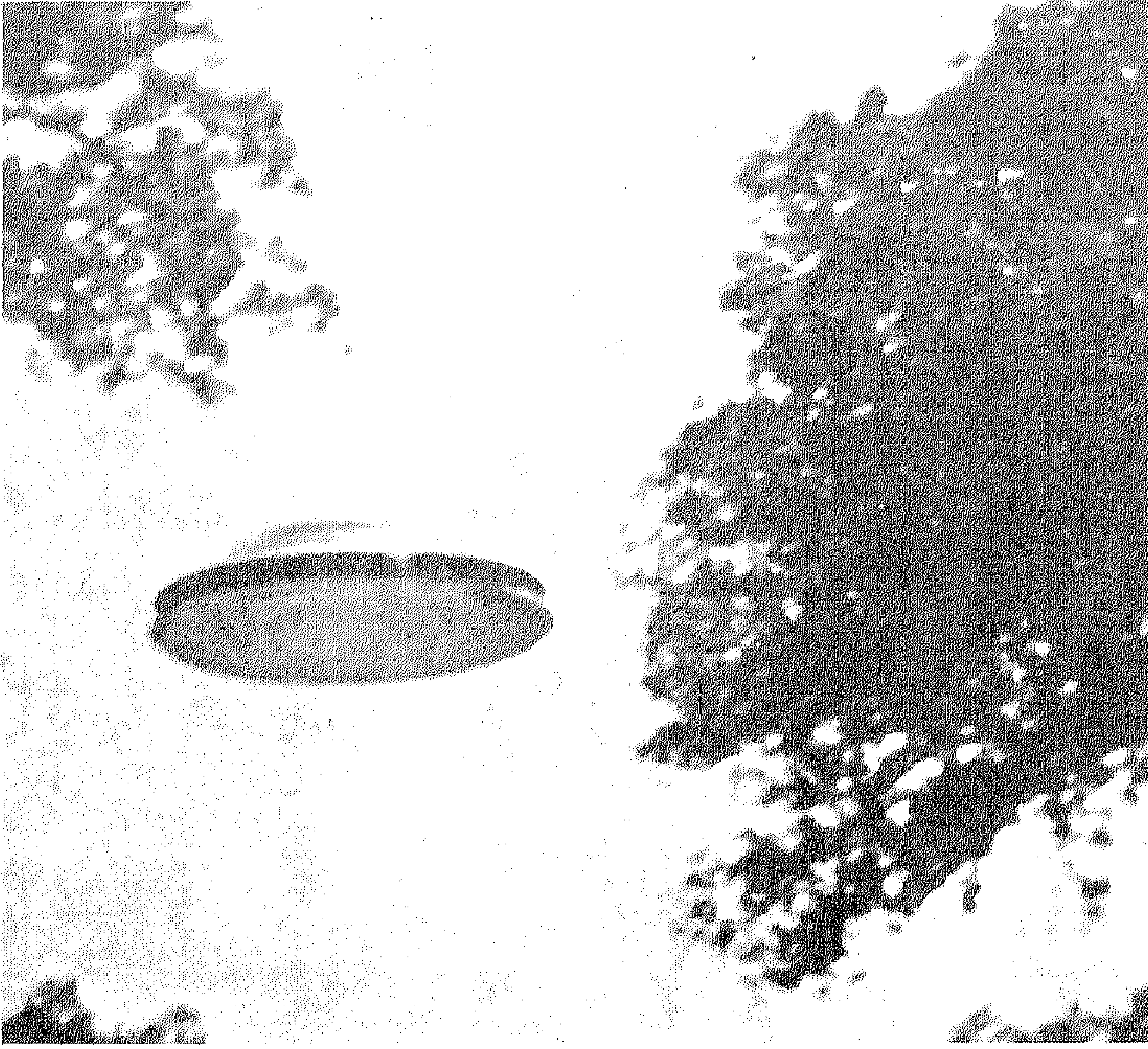


صورة طبق آخر في سماء كاليفورنيا سنة ١٩٥٢.

عديدة، ويرافق ظاهرة السراب أمور طريفة، كالبحيرات الوهمية في الصحراء وأشباح أشجار النخيل فيها، فيصعب على الانسان أن يكذب نفسه عندما يعتبرها بحيرات حقيقية. وتبدو الظاهرة نفسها في الطرقات أحياناً، فيشاهد المسافرون ماء في الطريق على مسافة بعيدة سرعان ما يتبين لهم بأن هذا الماء ليس سوى مجرد منظر ناجم عن انكسار أشعة الشمس.

ويذهب الدكتور «منزل» إلى القول، بأن حالات نادرة من ظاهرة السراب تكفل شرح أسباب، أو تفسير حدوث ظاهرة الأطباق الطائرة، مستنداً بذلك إلى ظاهرة شاهدها بنفسه عندما كان يجتاز بقعة من الأرض في ولاية نيومكسيكو، إذ كان الجو صافياً

ما المقصود من نشر صور تجسّد الأطباق الطائرة وكأنها حقيقة واقعية ؟



والهواء بارداً والقمر بدراً ، فشاهد قرب القمر جسمين لامعين ، ظنهما لأول وهلة نجمين لكنه تذكر ان هذين النجمين لا يظهران في ذلك الفصل ، ففتح نافذة السيارة ليتمكن من رؤيتهما بدون حاجز ، فوجد أنهما قد تحولا إلى قرصين متنافرين كل منهما بحجم ربع القمر ، يسيران مع القمر بالنسبة للأجرام المجاورة وعندما طلب من السائق أن يقف بعد مسيرة خمسة أميال ، لم يبق للقرصين أي أثر. وهناك ظاهرة تحدث في ولاية تكساس ، تتألف من بقع براقة على شكل الرقم «٧» ، تخيلها البعض مركبات تنطلق من الفضاء إلى كوكب الأرض ، وهي ليست سوى صور لسلسلة من الأنوار البعيدة ، أو صورة مكررة لنور واحد مردها إلى ظاهرة السراب المعروفة.

العلماء يدحضون فكرة وجود الأطباق الطائرة

قامت هيئة من علماء جامعة «كولورادو» الأميركية ، يرأسها الفيزيائي «أدوارد كوندن» بدراسات لظاهرة الأطباق الطائرة. وقد جاءت هذه الدراسات على شكل تقرير شامل وضعته الهيئة المذكورة بعد تمحيص الأمور مدة تقرب من السنتين ، وقد بلغت نفقات ذلك المشروع ٥٠٠٠٠٠ دولار. وبعد اجراء تدقيق مسهب من قبل مجمع العلوم الوطني ، تبين انه لا صحة لما أشيع عن نزول بعض سكان الكواكب السيارة ، أو عن وجود مركبات فضائية تنطلق من اجرام أخرى غير الأرض نحوها.

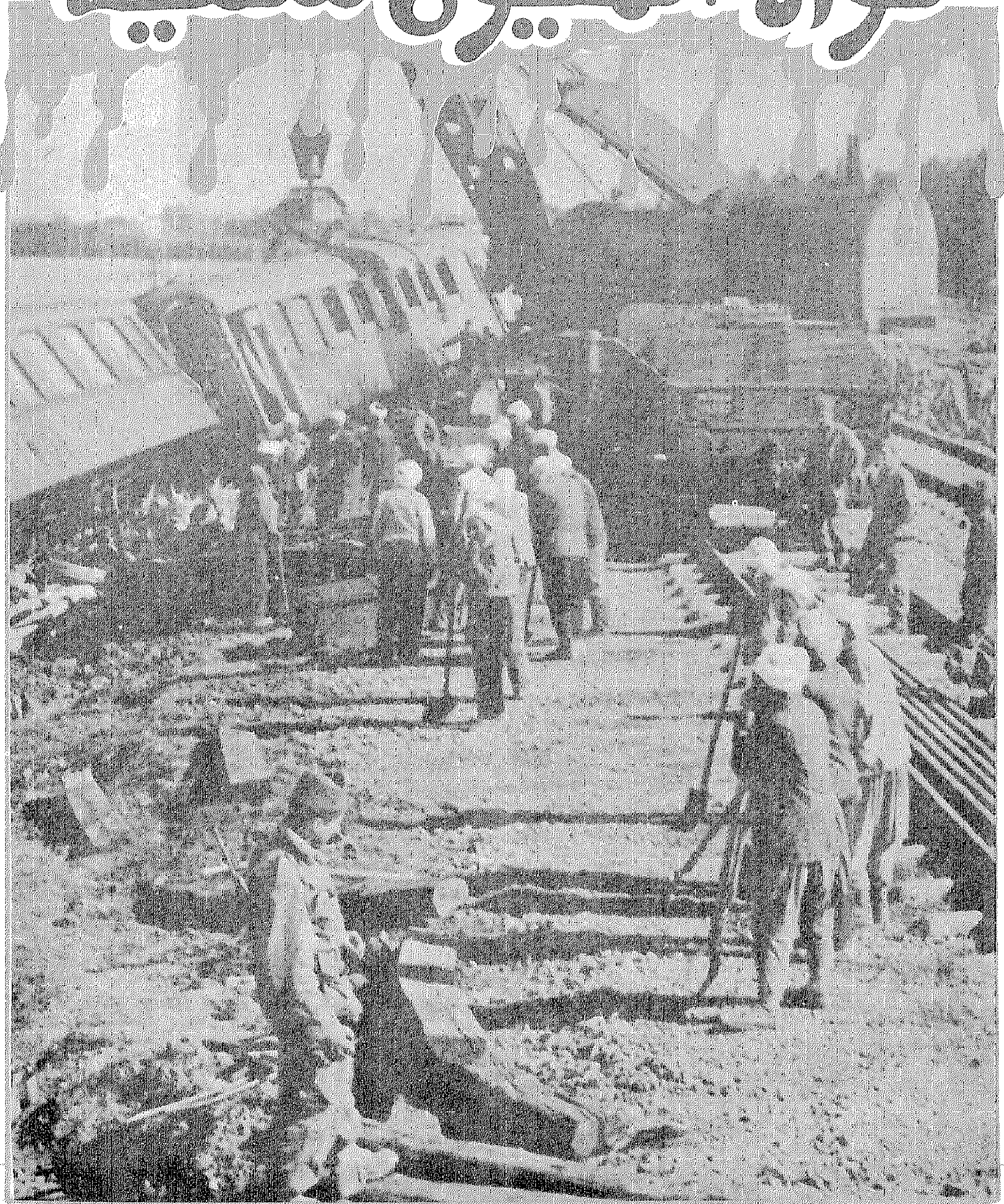
وبالرغم من أن تدقيقاً جرى في معظم الأحداث التي تفيد برؤية الأطباق الطائرة ولم يسفر عن ثبوت صحتها ، إلا ان هناك فئة من أنصار الأطباق الطائرة ، تنحي باللائمة على الهيئة العلمية التي قامت بالدراسات الآنفة الذكر ، وتنسب إليها التقصير في تقصي الحقيقة ، ومن هؤلاء الأنصار «لجنة تحري الظواهر الهوائية» في واشنطن..

صور من التاريخ

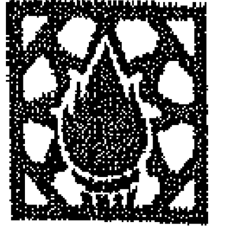
من خلفيات

ثورة المليون شهيد

اعداد : (قسم الأبحاث والدراسات)



الصورة مأخوذة من مجلة «[illegible]» الفرنسية الأسبوعية ، العدد [illegible]



منذ صيف ١٨٣٠ ، تاريخ احتلال قوات الاستدمار الفرنسي للجزائر العاصمة ، وحتى صيف ١٩٦٢ ، تاريخ الاستقلال السياسي الناجز للشعب الجزائري وفشل محاولات السلطة الفرنسية المستدمرة في ضم البلاد إلى ممتلكاتها في ما وراء البحار ، قاوم الجزائريون بكل ما توفر لديهم من امكانات وطاقات ، من غير أن **تخدعهم الوعود أو أن يستسلموا للعملاء والمتعاونين أو يرضخوا للأمر الواقع إثر الانتكاسات والهزائم المؤقتة.**

ومنذ انتفاضة الأمير عبد القادر الجزائري (١٨٣٠) التي دامت حوالي ١٧ عاماً تعلّم الجزائريون درساً تاريخياً ثميناً : لا مساومة مع الاحتلال مهما تكن امكانات التصدي له ضئيلة.

هذا الدرس هو الذي مكن الشعب من الانتصار في أروع وأقصر حرب تحرير في التاريخ العربي الحديث (١٩٥٤ - ١٩٦١) كلّفت البلاد حوالي المليون ونصف المليون شهيد.

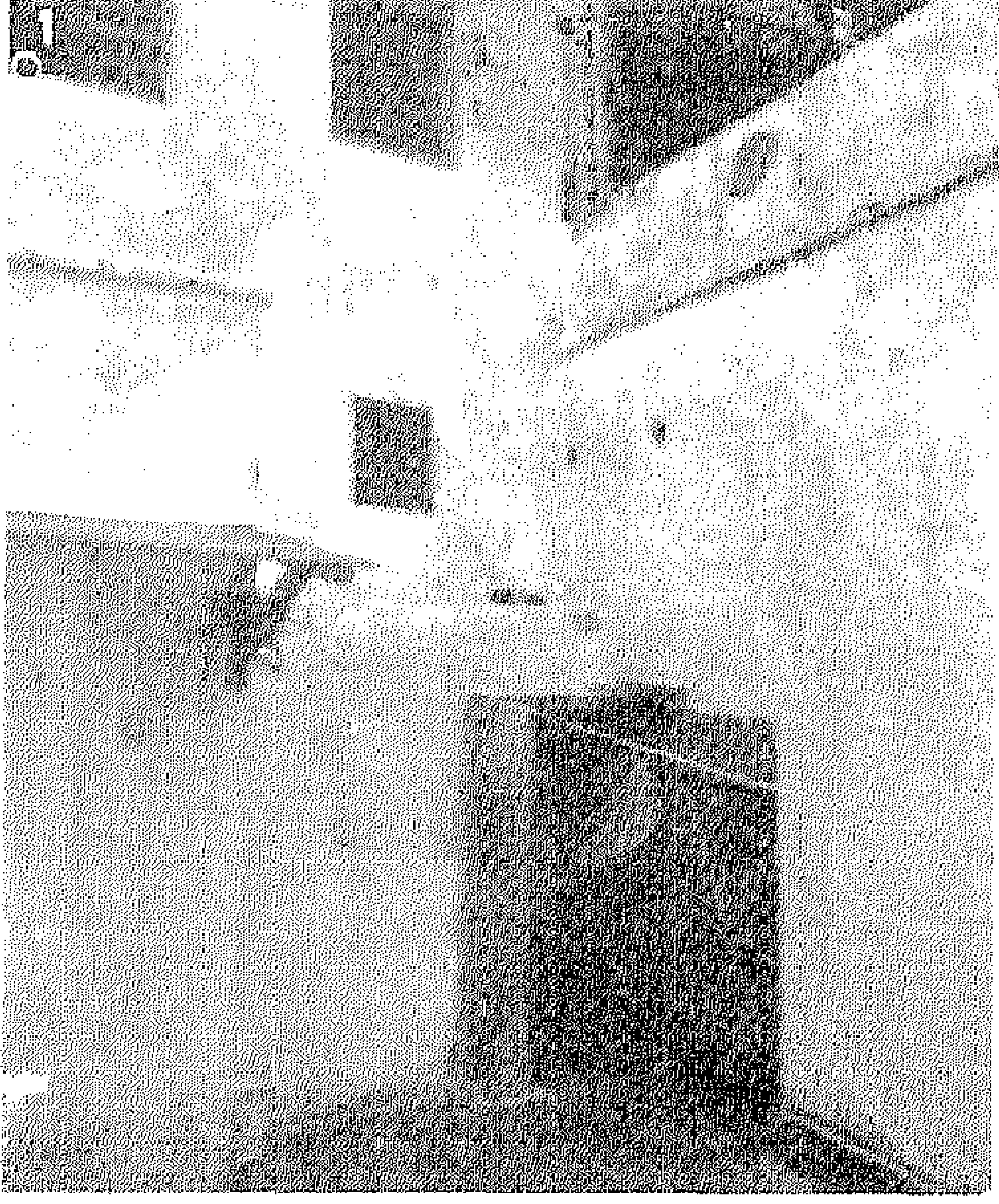
تفجرت الثورة المسلحة في الأول من تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٥٤ وسط ذهول الـ ٤٠٠ ألف جندي وضابط فرنسي. **لم تأخذ السلطات** الفرنسية **الإنفجارات** الأولى للثورة على محمل الجد إعتبرتها مجرد تمرد قبلي كتحركات الإحتجاج السابقة.

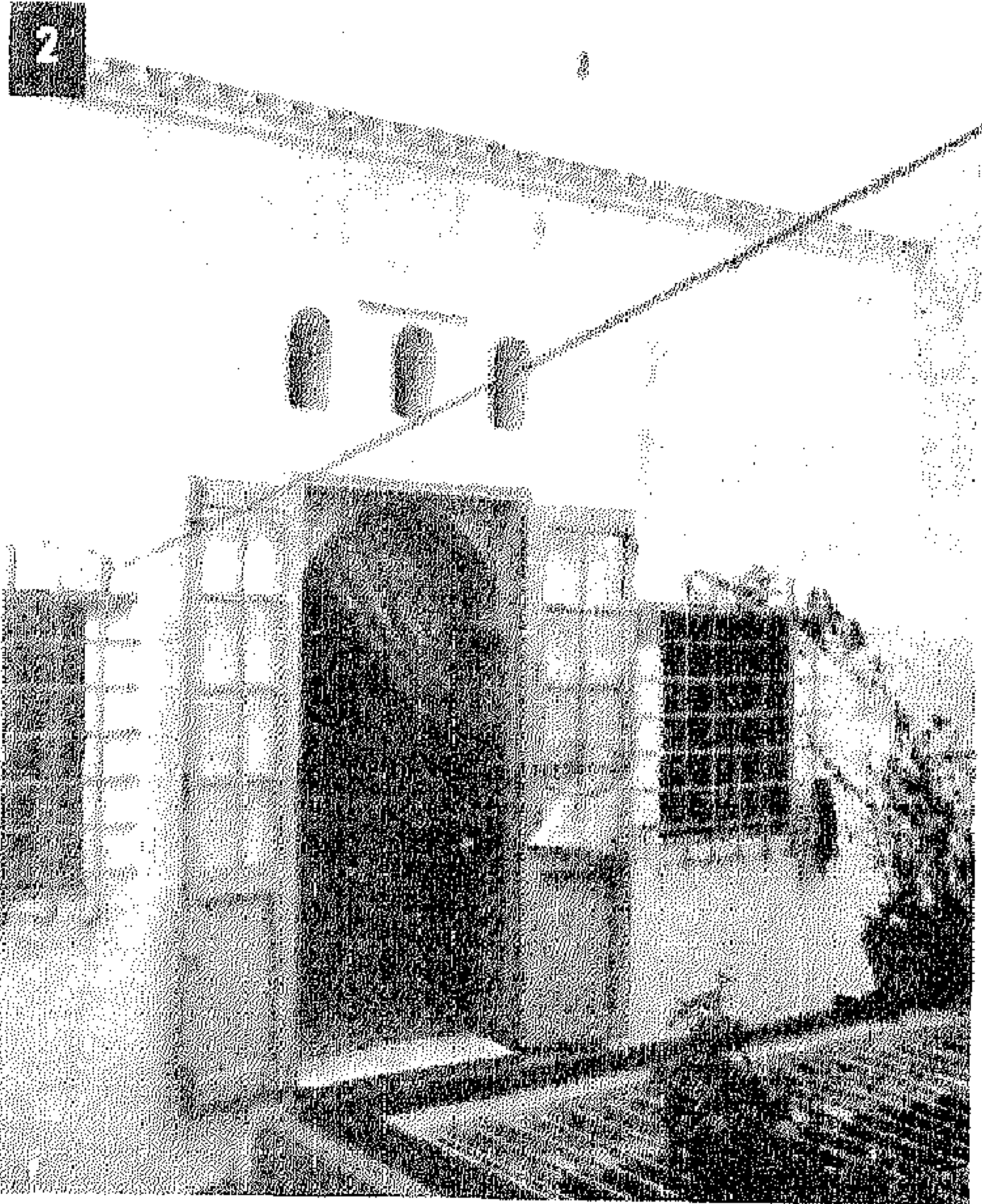
لم تمض أسابيع قليلة الا وأدركت قوات الاحتلال ان المسألة جدية وخطيرة ، وهي التي اعتبرت ان الـ ١٢٤ عاماً الماضية من احتلالها للجزائر كادت تنسي الشعب جذوره وهويته العربية الإسلامية.

٦ سنوات من «عمليات تثبيت النظام والأمن» في الجزائر العاصمة وضواحيها لم تنجح في **أخماد** شعلة الانتفاضة الشعبية العارمة :

● شوارع الكاسباه الداخلية حيث انتظم العمل السري وانطلق العنف الثوري ، تحول إلى معقل للثوار والمجاهدين وإلى جحيم للمحتلين الفرنسيين واعوانهم : كانت كل نافذة من نوافذ البيوت الحجرية والطينية منارة للثوار ومقبرة للغزاة.

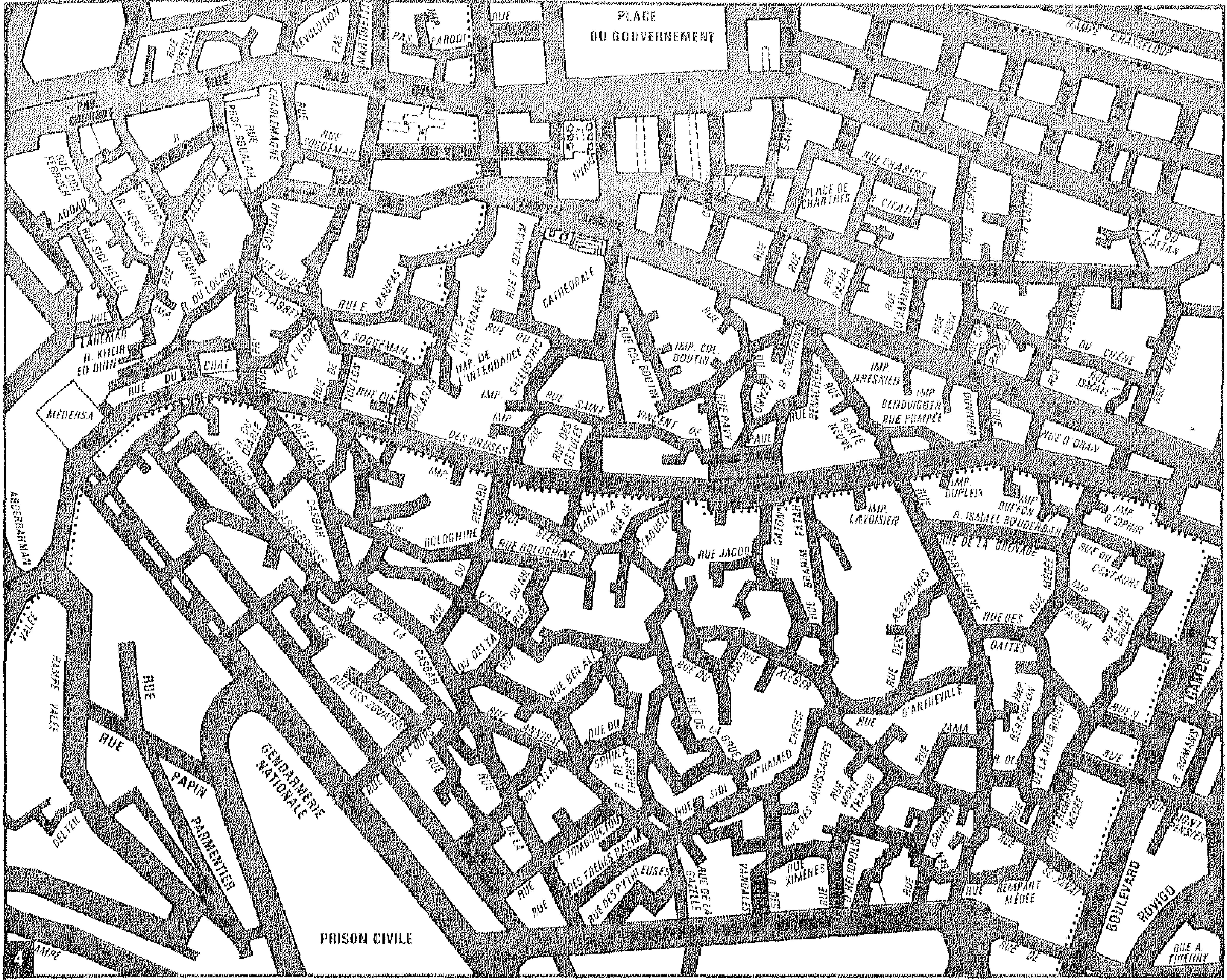
تحولت البيوت الصغيرة إلى سراديب ودهاليز. فأصبح للباب بابان وللشباك شباكان وللسقف سقفان وللأرض طبقتان.





جانبان من منزل «فتحية» ، عمة جميلة بوحيرد ، حيث كانت تصنع القنابل وحيث كانت تجتمع فرق «حاملات القنابل»

● كل الكبت الشعبي الجامح انفجر في ليلة واحدة (١٩٥٤/١١/١) وامتدت اثاره تدريجياً إلى أنحاء البلاد حتى عمت المدن (أواخر ١٩٥٥) ووصلت إلى وسط العاصمة (اذار/مارس ١٩٥٦). كان شعار المعركة : الجميع يداً واحدة وكل شيء في خدمة الثورة. النساء والشيوخ والأطفال كانوا أفضل



خريطة شوارع الكاسباه التي دوخت الجنود الفرنسيين.

[illegible] للشباب والرجال المجاهدين في عمليات الاستطلاع ونقل المتفجرات وتوزيع المنشورات السرية التي كانت تعطي دفعاً جباراً للعمل المسلح المنظم. القنابل المحرقة والمدمرة كانت تصنع من كل ما يتوفر في المنازل: علب التيرموس وعلب الحليب المجفف وكل أنواع المعلبات، إلى درجة ان كل صنف معلب يزداد مبيعه في سرعة بمجرد أن تثبت علبته الحديدية فعاليتها في إهارب الارهابيين والمحتلين.

● في السجن كان المعتقلون أسعد الناس لانهم كانوا يواجهون قوات الاحتلال وجهاً لوجه وهم عزل من كل شيء إلا من إيمانهم بالنصر الأكيد. كانت اتصالاتهم اليومية مؤمنة في صورة أكيدة بواسطة أنواع مبتكرة من الحيل تتطلب مجلدات لتفصيلها وعرضها بالكامل. اقسى ما كانوا يتمنوه حصلوا عليه بعد اضرابات واعتصامات عديدة، وهو العلم الجزائري. من الصعب أن يحس الإنسان بقيمة



قنابل محلية الصنع: معلبات وتيرموس.



أربع مجاهدات خلدهن التاريخ ، من اليسار : سامية الاخضري وجميلة بوحيرد وحسيبة بنت بوالي وزهرة دريف .

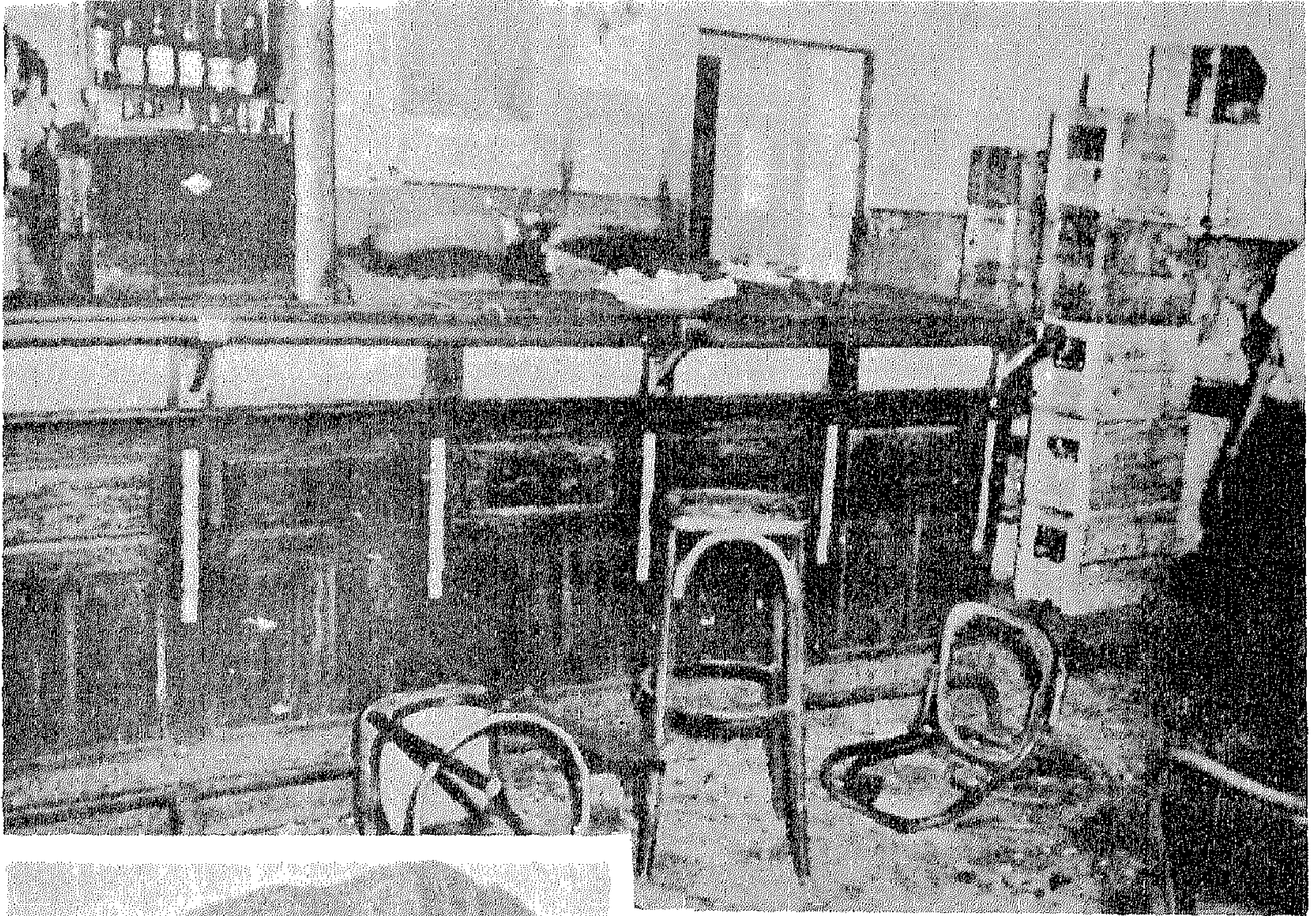
الاحتفاظ بعلم بلاده وهو خارج السجن . وكان كلما تصاعد النضال المسلح في الخارج تصاعدت مطالب المعتقلين في الداخل إلى حدّ انهم استطاعوا انتزاع حقهم في الاحتفاظ بالترانزستور ، وهو مطلب قلما حصل عليه سجناء سياسيون في العالم حتى اليوم .

● في الريف كانت عمليات المقاومة تتلاحق على نطاق واسع ولا شك ان الجنود الفرنسيين الذين خدموا في هذه المناطق خلال تلك الفترة يتذكرون جيداً مدى الارهاق الكبير الذي لحق بهم من جراء «معركة خطوط السكك الحديدية» . والمهم في الموضوع ان عمليات نسف خطوط السكك الحديدية لم تكن تتم في شكل عشوائي أبداً . التوقيت مهم وموضع النسف مهم ، والأهم ليس عدد العمليات كمياً ولكن نوعيتها . وقليلة هي الثورات التي اشتهرت بمثل هذه المعارك كما اشتهرت بها الثورة الجزائرية المسلحة .

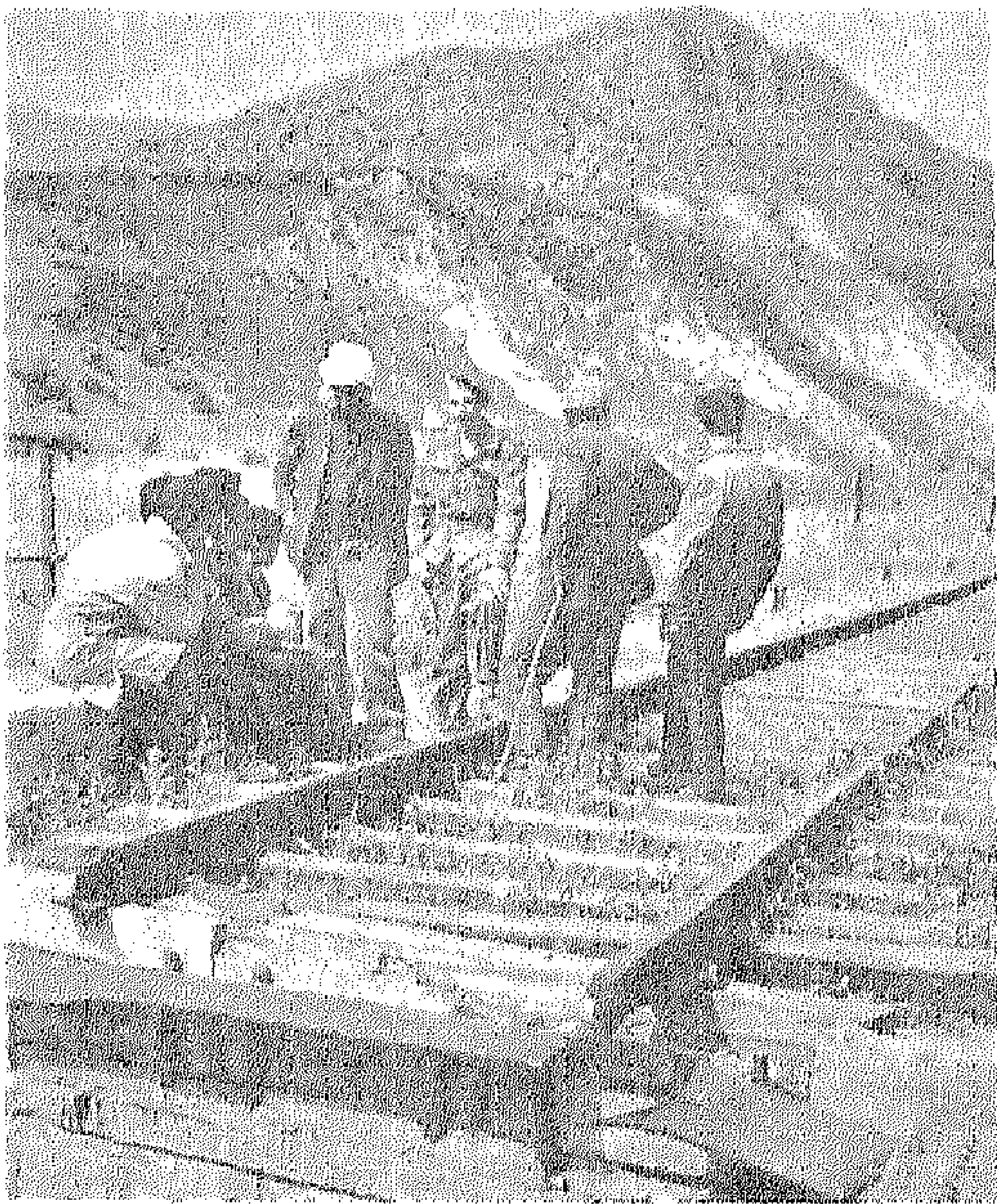
هكذا بدأت تلوح بشائر الفرج الكبير للشعب



المعتقلون السياسيون بعد انتزاعهم مطلب الاحتفاظ بالعلم الوطني وبراديو الترانزستور .



لاحقت المتفجرات الجنود الفرنسيين حتى في أماكن لهوهم.



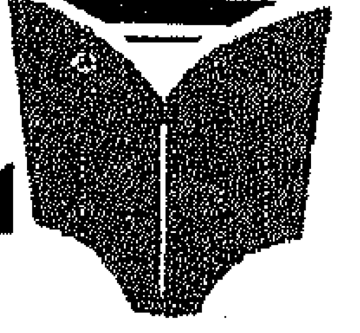
من «معركة خطوط السكك الحديدة» التي أرهقت المحتلين.

الجزائري الذي استحق في جدارة كل مساعدة أتته من الشعوب العربية الأخرى وحكوماتها الوطنية. ولم تمض ثلاث سنوات على بدء انتفاضته المسلحة حتى استطاع خوض «معركة الجزائر» (١٩٥٧) التي كانت، بشهادة المؤرخين قبل غيرهم، أروع مرحلة من مراحل الكفاح المسلح في الجزائر.

وعلى أثر هذه المعركة التي امتدت طوال العام ١٩٥٧، بعكس ما تذكر المصادر التاريخية الفرنسية التي تشير إلى انها دامت حوالي الشهرين فقط، تحولت المعاركة والانتفاضات وكافة أشكال المقاومة الأخرى إلى حرب تحرير شعبية في كل معنى الكلمة وشملت الريف الجزائري وكل المدن الكبرى.

وكان المجاهدون والمجاهدات، على اثر معركة ١٩٥٧، ينتظرون فجر الانتصار يومياً، بإيمان كبير لا يتزعزع. ولم يطل انتظارهم: فمنذ أوائل ١٩٦١ شعرت السلطة الفرنسية المركزية بضرورة وضع حد للشرارة الجزائرية التي بدأت تمتد خارج الحدود. فاضطرت إلى اجراء مفاوضات رسمية علنية مع الثوار في مدينة «ايفيان» (أيار/مايو ١٩٦١ - اذار/مارس ١٩٦٢) مهدت لاستقلال الجزائر السياسي في تموز/يوليو ١٩٦٢.

وكان النصر الكبير الذي ما زال يستمد منه ثوار فلسطين وغيرهم من ثوار العالم. الدروس تلو الدروس. ■



مراجعة كتاب

روبرت سلية

رابين .. سيرة حياة

اعداد وعرض:
عايدة نعمان

يقول مؤلف الكتاب وهو كاتب وصحفي أميركي كان مراسلاً للنيوزويك في القدس انه رغم تلازم اسم رابين بولادة إسرائيل وتطورها ورغم انغماسه في قضايا إسرائيل الداخلية والكثير في القضايا الدولية فقد بقيت شخصيته لغزاً مثيراً للجدل. لذا اعتمد على لقاءات ومقابلات شخصية مع رابين ومع أفراد عائلته وزملائه وأصدقائه حتى وأعدائه لكشف بعض ملامح شخصيته الحيية وغير المنفتحة على الآخرين. ولكن رغم الاستعمال المكثف للمراجع الأولية حول حياة رابين والكثير من الوثائق لإعطاء الكتاب الصفة الموضوعية يبقى الكتاب تعبيراً ضمنياً عن اعجاب مؤلفه برابين بإنجازاته لدولة إسرائيل.

اسحاق رابين أول رئيس للوزارة الاسرائيلية مولود في اسرائيل وليس في بلاد الشتات اليهودي. ينحدر والده من أصل روسي ومن بيئة بالغة الفقر والتخلف. هاجر والده إلى الولايات المتحدة طلباً للعيش وللحرية. أما امه روزا. وهي الأكثر والأعمق أثراً في حياة رابين، فقد هاجرت مع والدها الحاخام من روسيا وإلى فلسطين مباشرة. ومن المفارقات الغريبة أن جد رابين لوالدته الحاخام اسحاق كوهين كان من الد اعداء الصهيونية واثق الايمان أن على اليهود انتظار المسيح المخلص بدل استعمال العنف لتحقيق وعد التوراة. وقد شاركت روزا والدة رابين اباها أول الأمر في مناوأة الصهيونية ثم اعتنقتها والتزمت النضال لها طوال حياتها.

ولد رابين في مارس ١٩٢٢ في الفترة التي كانت امه قد أصبحت منغمسة في دعم الأهداف الصهيونية حتى انها أصبحت في الثلاثينات عضوة القيادة العليا للهاجانا. أما والده فكان في تلك الفترة ذا ميول اشتراكية ملتزمة بالقضايا العمالية. أحب منذ صغره التخصص بالأمور الزراعية ولا سيما بالهندسة المائية يقول في أول شبابه: «ان هدفي في الحياة هو خدمة بلادي واني أؤمن أن أفضل وسيلة لخدمتها هو ان أعد نفسي لأصبح مزارعاً»، لذا ألتحق بأحدى الكيبوتزات بعد تخرّجه من كلية زراعية ليكتشفه فيما بعد إيغال آلون ويكتشف ان باستطاعته تحويل رابين من مزارع إلى عسكري فذ، ومما يذكر ان أولى مهمات رابين العسكرية كانت في الجنوب اللبناني عام ١٩٤١، وبقيادة موشي دايان، هذه المهمة التي أهلته فيما بعد ليصبح قائداً للبالماخ وهو الجناح العسكري الضارب للهاجانا.

كان رابين يقرأ كثيراً عن الحرب العالمية الثانية ولم تكن تهمه المواقع الحربية أو التحركات العسكرية التقليدية وانما كان يركّز على المقاومات السرية حيث اكتسب منها تكتيك القيام بالهجمات المباغتة والهجوم



رابين (الثاني إلى اليسار) مع قادة البالما العسكريين سنة ١٩٤٨ ويبدو إيغال آلون (الخامس إلى اليسار).

من الجهة غير المتوقعة والضربات القوية والقصيرة النفس.

في محادثات رودس التي تبعت الحرب العربية الإسرائيلية لعام ١٩٤٨ كتب رابين إلى آلون «لولاي ولولا إيغال يادين لقام المندوبون الإسرائيليون بتنازلات كثيرة فقط للتوصل إلى اتفاق ما مع المصريين» وطلب من آلون استبداله بمفاوض آخر لأنه «تعب من السياسة والدبلوماسية».

في أواسط الستينات كان رابين يخالف الكثيرين من زعماء إسرائيل في نظرتهم إلى التسليح المضخم للجيش المصري. كان يرى في ذلك نذير حرب قادمة يتفوق فيها العرب على إسرائيل. ولكن ما كان يطمئنه إلى حد ما هو ماردده لجريدة يديعوت احرونوت في ١٤ أيار ١٩٦٧ إذ قال «ما لم يكن هناك تنسيق سياسي بين العرب ينبغي على المرء الاّ يخشى من تنسيق عسكري معادٍ لإسرائيل». ولكن خشيته المبيتة كانت من أي تنسيق مصري سوري.

في الأيام السابقة لحرب الأيام الستة اصيب رابين بإنهيار عصبي عزاه اطباؤه لشدة الاعياء والارهاق. ولكن يخيل لقارئ سيرته ان انهياره تأتّى من خشيته أن يخسر الحرب إذ استدعى وايزمان وقال له: «لقد ارتكبت الكثير من الاخطاء بحق إسرائيل وبما أن هذه الحرب لا تحتمل المزيد من الأخطاء خاصة على صعيد العمليات الجويه. لذا اطلب منك تولّي قيادة الأركان وأنا سوف اتنحى» في اليوم التالي زاره الجنرال في الاحتياط افراهام يوف وهو في الوقت ذاته صهر رابين وحثه على العودة إلى العمل وتوجيه ضربة مباغتة ضد عبد الناصر. ويبدو أن رابين اقتنع بنظرية صهره وفي اليوم التالي غادر الفراش والتحق بمكتبه.

في السنوات التي تلت حرب حزيران عمل رابين كسفير لإسرائيل في الولايات المتحدة وهو منصب كثيراً ما حلم به. ولكن نجاحه كدبلوماسي كان مثار الشك ويبدو ان كيسنجر كان كثير الانتقاد له على تلك الفترة. ولكن رابين استغل وجوده في واشنطن ليوسع دائرة العلاقات الإسرائيلية الاميركية وليضغط من أجل المزيد من التسليح والتمويل.

وحين وقعت الحرب الإسرائيليـــة العربيـــة

سنة ۱۹۷۳ كانت خيبة رابين كبيرة ليس فقط من نتائجها العسكرية ولكن لسقوط مقولته التي جاهد لتعزيزها في الدوائر الاميركية وهي أن وجود إسرائيل قوية عسكرياً كافٍ لوحده ليمنع وقوع الحرب في الشرق الأوسط . وحين امدت أميركا إسرائيل بجسر جوي لتمنع المزيد من الانهيار العسكري كانت خشية رابين في أن تطلب أميركا ثمناً لانقاذ إسرائيل تنازلات اقليمية لإحلال سلام دائم في الشرق الأوسط .

تميزت حياة رابين السياسية بالصراعات الصامتة أحياناً والعدائية أحياناً أخرى بينه وبين مختلف القيادات السياسية والعسكرية ، انما هذه الصراعات الحادة تذوي حدتها حالما تتعرض إسرائيل لأي خطر حقيقي وتصبح أكثر بروزاً أثناء فترات الهدوء السياسي والعسكري . أما تنحي رابين الأخير عن مسرح السياسة فإنه يثير التساؤل حول الدوافع الحقيقية له . هل حقاً أن رابين تنحى تضامناً مع زوجته التي اتهمت انها تملك حساباً في احد البنوك الأميركية أو ان تلك الحادثة كانت مخرجاً له من المسرح السياسي لأنه لم يكن يريد أن يتحمل مسؤولية أية تنازلات إسرائيلية في الوقت الذي يدرك فيه ان أية محادثات للسلام لا بد أن تطرح بل تحتم تنازلات إسرائيلية إذ ما قيض لها النجاح .؟؟

إنها مجرد تساؤلات ربما تمكن قارئ سيرة رابين من الإجابة عليها ! !





«دعوة لأصحاب رسائل الماجستير والدكتوراه»

يسر مجلة «تاريخ العرب والعالم» أن تدعو أصحاب رسائل الدكتوراه والماجستير في التاريخ في الجامعات العربية للتعريف برسائلهم على صفحاتها وذلك في مقالة تتراوح ما بين الألف كلمة والألف والخمسمائة كلمة وتشمل على لمحة موجزة عن الموضوع المعالج ، مع الاشارة إلى مكان وزمان تقديمها وإسم الأستاذ المشرف عليها .

وإذ تفتح المجلة هذا الباب أمام أصحاب الرسائل في علم التاريخ ، تتوخى أن تحقق بعضاً من الأهداف والتي أهمها :

- أولاً – التعريف بانجازات الباحثين والطلاب العرب في ميدان علم التاريخ .
- ثانياً – التعرف على توجهات الجامعات العربية في نوعية الموضوعات المطروحة ومناهج البحث المتبعة .
- ثالثاً – توفير جانب من البيبليوغرافيا التاريخية في موضوعات الرسائل التي قدمت ونوقشت في الجامعات العربية .

شخصيات وراء الأحداث

أنديرا غاندي

ايمان نويهض



أثبتت السيدة أنديرا غاندي التي عادت إلى واجهة السلطة في الهند بأكثّرية تزيد عن عن ثلثي مقاعد البرلمان الهندي (٥٤٠)، أثبتت ايمانها العميق بالديمقراطية وبشعبها، الذي خذلها في آذار ١٩٧٧ عندما منيت بهزيمة ساحقة في الانتخابات البرلمانية.

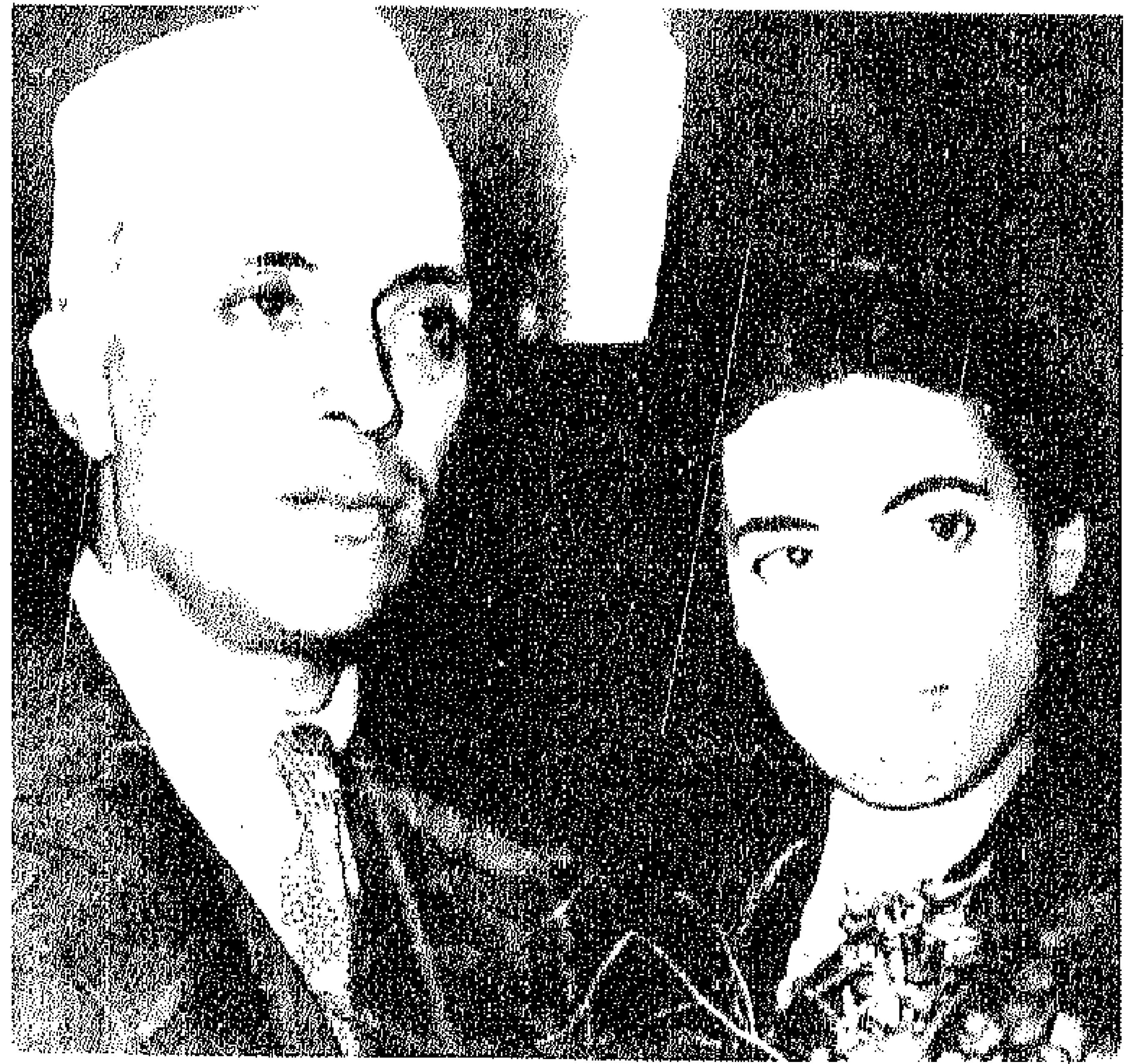
فمن هي هذه السيدة التي ارتبط اسمها بالهند الحديثة وحازت على وسام الأمومة من الولايات المتحدة ووسام إيزابيلا من إيطاليا وجائزة هاولاند التذكارية من جامعة بيل واعتبرت أكبر شخصية تنال اعجاب العالم؟



ابنة جواهر لآل نهرو رئيس وزراء الهند لمدة ١٧ سنة. ولدت بالطبع في بيت سياسي حارب البريطانيين في الهند وطالب دوماً باستقلالها. ولدت أنديرا غاندي في ١٩ ت ٢/١٩١٧ في منطقة الأهاباد وتأثرت بجو والديها كثيراً كما تأثرت دراستها التي لم تكن منتظمة.

درست أنديرا غاندي في بونا وسانتنيكيتان في البنغال بالرغم من اعتقال والديها وقد درست أيضاً


السيدة غاندي، رئيسة الوزراء، وحولها راقصات في ثيابهن الفولكلورية.


السيدة أنديرا غاندي ووالدها جواهر لآل نهرو.

على رسائل والدها من السجن والتي نشرت فيما بعد. تابعت أنديرا غاندي دراستها في كلية سومرفيل (أوكسفورد).

التزمت بحركة الاستقلال منذ طفولتها وأصبحت عضوة في حزب المؤتمر الهندي سنة ١٩٣٨.. وتزوجت سنة ١٩٤٢ من فروز غاندي (الذي لا يمتّ بقرابة إلى المهاتاما غاندي) وهو صحافي وعضو في حزب المؤتمر.

اعتقلت انديرا غاندي وزوجها لمدة أكثر من سنة بسبب انخراطهما في حركة «اتركوا الهند» الاستقلالية والمعادية للبريطانيين.

انتمت انديرا غاندي إلى العديد من الجمعيات والحركات الاجتماعية خاصة تلك التي عملت على تحسين وضع النساء والأطفال الهنود. وسنة ١٩٥٩ انتخبت رئيسة لحزب المؤتمر لمدة سنة. وكانت قد أصبحت شخصية دولية ومرموقة بعد مرافقتها لوالدها جواهر لآل نهرو في كثير من زياراته.

توفي زوجها سنة ١٩٦٠ بعد انفصالهما لعدة سنوات تاركاً لها ولدين فقط.

لعبت أنديرا غاندي أيضاً دوراً داخل بلادها خلال حرب الحدود الصينية - الهندية سنة ١٩٦٢. ودخلت الحكومة كوزيرة للاعلام بعد وفاة والدها سنة ١٩٦٤. ثم تبوأت رئاسة حزب المؤتمر واللجنة البرلمانية لحزب المؤتمر ورئاسة الحكومة بعد وفاة رئيس الحكومة لآل بهادور شاصتري وذلك سنة ١٩٦٦.

اتخذت حكومة أنديرا غاندي اتجاهاً يسارياً إلى حد ما واستمرت هي على رئاسة الحكومة حتى آذار ١٩٧٧ عندما واجهت أنديرا غاندي وحزب المؤتمر أكبر هزيمة لهما في وجه المعارضة المتمثلة في حزب جاناتا وذلك بعد إجراءات قاسية اتخذتها انديرا غاندي في سنتي ١٩٧٥ و ١٩٧٦ ضد حرية الصحافة والاضراب واعلانها حالة الطوارئ وزج الكثيرين من المعارضين في السجن.

واجهت أنديرا غاندي اتهامات كثيرة بسوء إستخدام السلطة وبالرغم من عودتها إلى البرلمان الهندي عبر انتخابات فرعية في ت ١٩٧٨/٢ (كممثلة عن حزب المؤتمر المنشق بقيادتها من جديد) ولكن المحكمة العليا ولجنة برلمانية خاصة قررت طردها من البرلمان في ١٩ ك ١ وأدخلت السجن لمدة أسبوع ثم أفرج عنها تحت الضغط الشعبي لجماهيرها.

وجاءت الانتخابات الأخيرة، لتثبت لأنديرا غاندي، مرة أخرى، دهاءها السياسي، وشعبيتها الجارفة، عندما استطاعت أن تفوز على جميع الأحزاب والشخصيات السياسية مجتمعة بأكثرية تزيد على الثلاثين!

■

الشطرنج عند العرب

بقلم محمد مراد سكر

ليس من السهل إيفاء دراسة "الشطرنج عند العرب" حقّه في مقال موجز، وقد أوردنا في العدد السابق تاريخ الشطرنج عند العرب وأشهر من لعبه... وتوقفنا على أهم الكتب التي كتبها العرب فيه، وهذه تتمته:



ونورد فيما يلي أشهر الكتب التي ألفها العرب في الشطرنج في التاريخ القديم:

١ - كتاب الشطرنج من تأليف العدلي (٨٤٧ - ٨٦٢م)، وهو شطرنجي عاصر المتوكل العباسي، قال ابن النديم عنه انه أول كتاب عمل في الشطرنج.

٢ - كتاب الشطرنج من تأليف الصولي (٩٠٢ - ٩٠٨م).

٣ - تضحية بيوت الشطرنج من تأليف المسيس (القرن العاشر).

٤ - اللطيف في الشطرنج من تأليف الرازي الشطرنجي (٨٤٧ - ٨٦٢م).

٥ - كتاب في الشطرنج العلية من تأليف الطيب توفي سنة ٨٩٨م.

٦ - كتاب منصوبة الشطرنج من تأليف أبو الفرج محمد بن عبد الله اللجلاج (وهو من خراسان).

٧ - منتخبات من كتابي الشطرنج للصولي والعدلي، اختيار أبي زكريا بن ابراهيم الحكيم.

٨ - كتاب في الشطرنج ومنصوباته وملحه، لمؤلف مجهول. المخطوطة محفوظة بالمتحف البريطاني وقد جاء في آخر المخطوطة: تم الكتاب بعون الله ومنته ولطفه بتاريخ اليوم السادس عشر من جمادى الآخرة من سنة خمس وخمسين وستماية هجرية.

٩ - الشطرنج المصور للحكيم المضفر لأبي زكريا يحيى ابراهيم الأصبحي المعروف بالخزوج القرن السابع الهجري.

١٠ - كتاب استواء النهج في تحريم اللعب بالشطرنج لأبي بكر محمد بن علي الفخار الجذامي الأندلسي الفقيه المالكي المتوفي سنة ٧٢٣هـ. وذكر اسم الكتاب هذا تحت عنوان كتاب تحريم الشطرنج.

١١ - كتاب إيقاظ المصيب فيما في الشطرنج من المناصيب للشيخ تاج الدين علي بن محمد بن عبد العزيز الشافعي الموصلي المتوفي سنة ٧٦٢هـ.

١٢ - تحريم النرد والشطرنج والملاهي لابن بكر محمد بن الحسين البغدادي الآجري الفقيه المحدث الاخباري المتوفي سنة ٣٦٠هـ.

١٣ - كتاب لعب الشطرنج الهندي لأبي الفرج محمد بن عبيد الله بن سعد الشطرنجي المعروف

باللجلاج المتوفي سنة نيف وثمانين وثلاثماية هجرية.

١٤ - رسالة في بيان لعب الشطرنج لأبي الفرج اللجلاج.

١٥ - مجموع في منصوبات الشطرنج لأبي اسحق ابراهيم بن يعقوب محمد بن يعقوب الرازي المعروف بابن الأقليدسي (القرن الرابع الهجري).

١٦ - كتاب النرد والشطرنج لابن عثمان عمرو ابن بحر الجاحظ المتوفي سنة ٣٢٢هـ.

١٧ - كتاب الشطرنج لأبي زيد أحمد بن سهل البلخي المتوفي سنة ٣٢٢هـ.

١٨ - كتاب الشطرنج لأبي العباس أحمد بن محمد السرخسي المتوفي سنة ٢٨٦هـ.

١٩ - كتاب في منصوبات الشطرنج لأبي اسحق بن محمد بن صالح البغدادي الشطرنجي المعروف بابن الأقليدس المتوفي قريباً سنة ٣٣٠هـ.

٢٠ - كتاب نموذج القتال في لعب الشطرنج لأبي العباس أحمد بن يحيى التلمساني المعروف بابن أبي حجلة المتوفي سنة ٧٧٦هـ.

٢١ - جزء من الشطرنج والنرد لكمال الدين محمد بن عيسى الدميري مؤلف «حياة الحيوان» والمتوفي بالقاهرة سنة ٨٠٨هـ.

٢٢ - رسالة في حكم اللعب بالنرد والشطرنج لمصلح الدين مصطفى بن زكريا بن الرغشمي الفرماني المتوفي سنة ٨٠٩هـ.

٢٣ - كتاب النصيحة للحر والعبد باجتذاب الشطرنج والنرد لزين الدين عبد الرحمن بن خليل الدمشقي المتوفي سنة ٨٦٩هـ.

٢٤ - عمدة المحتج في علم الشطرنج، لأبي الخير محمد بن عبد الرحمن السخاوي الملقب شمس الدين المتوفي بالقاهرة سنة ٩٠٢هـ.

بعض الطرائف

تحدث الصفدي في الغيث المنسجم:

«رأيت غير مرة أيضاً بدمشق سنة احدى وثلاثين وسبعماية شخصاً يعرف بالنظام العجمي، وهو يلعب الشطرنج غائباً في مجلس الصاحب شمس الدين، وأول ما رأيته لعب مع الشيخ أمين الدين سليمان رئيس الأطباء، وكان طبقة عالية. فغلبه مستدبراً، ولم يشعر به حتى ضربه شاه مات بالفيل، ولم يره حتى التفت إلينا وقال مات، وحكى لي انه كان يلعب غائباً على رقعتين، وحكي لي عنه صاحبنا بدر الدين حسن القزي انه رآه يلعب على رقعتين غائباً، وقدامه رقعة يلعب فيها حاضراً، وغلب في الثلاث والعهدة في ذلك عليه. وكان الصاحب شمس الدين يدعه في وسط الدست ويقول له: عد لنا قطعك وقطع غريمك، فيسردها جميعاً كأنه يراها بين يديه.

وأنشأ فيه المولى جمال الدين محمد بن نباتة مقامة بديعة افتتحها بقوله:

لله في الشطرنج فكرة لاعب
ان غاب أو حضر اجتنيت حداننا
شكرته نفس اللعب أو نفس النهى
هاتيك صامتة وهذه ناطقة»

حدث الثعالبي في تتمة اليتيمة قال:

«وحدثني أبو الحسن الدلفي المصيص الشاعر، وهو ممن لقيته قديماً وحديثاً في مدة ثلاثين سنة، قال: لقيت بمعرة النعمان عجباً من العجب، رأيت أعمى شاعراً ظريفاً يلعب بالشطرنج والنرد، ويدخل في كل فن من الجد والهزل، يكنى أبا العلاء، وسمعته يقول: أنا أحمد الله على العمى كما يحمده غيري على البصر، فقد صنع لي وأحسن بي إذ كفاني رؤية الثقلاء والبغضاء».

قال الصفدي في كتابه نكت الهميان في نكت العميان: وأما أنا فرأيت في الديار المصرية انساناً يعرف بعلاء الدين ابن قيران أعمى، وهو عاليه في الشطرنج، يلعب ويتحدث، وينشد الشعر، ويتوجه إلى بيت الخلاء ويعود إلى اللعب ولا يتغير عليه نقل شيء من القطع وهذا معروف يعرفه أصحابنا في القاهرة».

كان الخليفة الأمين يلاعب مولاه كوثراً بالشطرنج والقائد طاهر إذ ذاك يحاصر بغداد وقد اشتد القتال فقال له بعض خواصه يا أمير المؤمنين ما هذا وقت اللعب، قم وأنظر في أمرك، فقال: «دعني فقد لاح لي على كوثر شاه مات» (تاريخ المسلمين

للشيخ المكني جرجس بن العميد، ص ١٢٩ طبع سنة ١٦٢٥م).

وجاء في تاريخ الطبري (طبع المطبعة الحسينية ١٣٢٦هـ): أتى الخليفة المعتز برأس الخليفة المستعين بينما كان يلعب بالشطرنج، فقيل: هذا رأس المخلوع فقال: ضعوه هنالك ثم فرغ من لعبه ودعا به فنظر إليه ثم أمر بدفنه.

دعي النظام العجمي إلى اللعب مع علاء الدين ابن قيران الأعمى فقال: هذا أعمى (عاليه) وأنا بصير (عاليه). فان غلبته ما يشكرني أحد فانهم يقولون غلب أعمى، وان غلبني فمصيبة كبرى.

بين اللاعبين بالاستدبار في القرن الهجري الثالث من يدعى أبو القاسم التوزي وقد جاء اسمه في ديوان ابن الرومي ١٣٣٥هـ. (شرح الشيخ محمد شريف سليم)، قال في الصفحة ٢١ من الديوان مخاطباً التوزي:

تقتل الشاه حيث شئت من الرقعة طبا بالقتلة النكراء
غير ناظر بعينيك في الدست ولا مقبل على الرسلاء
بل تراها وأنت مستدبر الظهر بقلب مصور من ذكا
ماأرأينا سواك قرنا يولي وهو يردي فوارس الهيجاء
رب قوم رأوك ربعوا فقالوا هل تكون العيون في الاقفاء

إلى أن يقول:

غلط الناس لست تلعب بالشطرنج لكن بأنفس اللعباء
ربما هالني وحير عقلي أخذك اللاّعبين بالبأساء
ورضاهم هناك بالنصف والربع وأدنى رضاك في الأرباء
واحتراس الدهاة منك واعصامك بالاقوياء والضعفاء

والمعلوم ان ابن الرومي نفسه كان يلعب الشطرنج بدون اجادة رغم اجتهاده في تحسين لعبه ولما فشل في هذا التحسين صار يهجو اللعبة بعد مدحه اياها فيقول:

تفرست في الشطرنج حتى عرفتها
فان صح رأيي فهي بالوعة العقل

وقال ابن المعتز:

يا عائب الشطرنج من جهله
وليس في الشطرنج من باس
في فهمها علم وفي لعبها
تشغل عن الغيبة للناس
وتشغل الهائم عن حزنه
وصاحب الكاس عن الكاس
وصاحب الحرب بتدبيرها
يزداد في الشدة والباس
وأهلها في حسن آدابهم
من خير أصحاب وجلاس

ولعل أحسن ما نختتم به هذا المقال ما ينصح به الصولي اللاعبين، فيقول:

«ان تتجنب لعب الطمع ولا يحملك اللجاج إذا غلبت على معاودة اللعب. وتتجنب الشح وتحذر عاقبته فانه ربما أدى إلى ذهاب أكثر ما تشح به، وربما كان في بعض البذل الظفر والغلبة، فحق لاعب الشطرنج أن يؤدي كل شيء منها في وقته. لا الشح ولا التسمح ولا الاقدام ولا الاحجام ولا المناجزة والمعاجلة ولا التربص ولا المطاولة له فيها محموده، بل كل ذلك إذا استعمل في موضعه على ما ينبغي كان فيه الصواب. انما يصل الانسان إلى ذلك بحسن ادامة النظر في عواقب ما يقدم ويؤخر والصبر على ذلك حتى ينال المقصود ان شاء الله» (نموذج القتال في نقل العوال لابن أبي حجلة المغربي التلمساني).

وقال الصولي في مكان آخر:

«تفقد دوابك ودواب خصمك عقب كل نقلة، واحرص على تبديد شمل بيادق خصمك وجمع شمل بيادقك ولا تدخل بدابة من دوابك إلى بيت تعود منه عوداً على بدء بلا فائدة».

ومن أقواله أيضاً:

«ان حصرت شاه الخصم وتحققت غلبه باطعامه بعض دوابك فلا تبخل عليه بها لتصل إلى مقصدك» (كلمة اطعام تعني تضحية).

ومن أقواله: «ان الشاه يجل عن القيمة وهو منها بمنزلة الرئيس. إذا كان رخ رسيلك محبوساً ففرسك خير منه لا تأخذ رخاً محبوساً بفرس مطلق» (الرسيل يعني به الخصم).

نصائح لو تبعها اللاعبون ما غلبوا أبداً.

الختام:

نقل العرب أثناء فتوحاتهم كثيراً من علومهم وفنونهم ومن جملة ذلك الشطرنج، ويدلنا على ذلك

بعض الكلمات التي يستعملها الأوروبيون مثل شاه مات، فيل الذي أصبح (   ) الخ... كما أطلقت كلمة شاه على اللعبة نفسها في بعض اللغات الأجنبية وهي أهم قطعة في الشطرنج. وقد كان للعرب الفضل الأكبر في انتشار هذه اللعبة في أوروبا. ولعل أبرز دليل على ذلك ان الكتاب الأول عن الشطرنج في أوروبا ظهر في اسبانيا في القرن التاسع وكان مؤلفه يدعى يحيى. ونكتفي بهذا المقدار اليوم على أن نعود لتفاصيل أخرى فيما بعد. ■



العمل وطول العمر

● من أهم ما يبحث عنه العلماء والحكماء الأسباب المؤدية إلى طول الحياة بل هي أهم بحوثهم وقد خاض هذا العباب الفلاسفة والاطباء من قديم الزمان وارتأوا لذلك آراء متنوعة متضاربة. وقد اهتمت بعض الجرائد الطبية في أميركا مؤخراً بالنظر في ذلك فتوصلت إلى نتائج ذكرتها وأشارت باتخاذها. ومن الغريب انها أسهل الطرق وأقلها نفقة ويجمعها قولك «العمل» قال السير اندرو كلارك وهو من نخبة علماء الانكليز: «العمل قوام الحياة وخصوصاً لنحفاء الإجسام حتى المرضى فإن العمل أحسن لهم من البطالة على شرط أن يكون على قدر الطاقة وفي دائرة الامكان». قال ان «العمل» قوام الحياة ولم يقل «التعب أو المشقة» فإن تحميل الاعضاء عملا فوق طاقتها موجب لانحطاطها وتشويش وظائفها، وقد يتخذ بعضهم المقويات أو المنبهات لتساعده على زيادة العمل فلا يشعر بالتعب، ولكن ذلك ليس طبيعياً ولا يحسب من قبيل العمل المعتدل. فالعمل الذي قلنا انه قوام الحياة انما هو ما يقوم به العضو في حالته الطبيعية بغير تنبيه ولا استحثاث مع الأعتدال في كل شيء من حاجات العيش وملاذ الحياة جسدياً وعقلياً.

معاهدات — سعيد كريدية

معاهدة الصلح مع ايطاليا ١٩٤٧

في عام ١٩٢٢ استلم الدوتشي بنيتو موسوليني زعيم الحزب الفاشستي الحكم في ايطاليا. وقد وضع نصب عينيه طموحات كثيرة منها تحويل البحر الابيض المتوسط الى بحيرة ايطالية واعادة أمجاد روما القديمة. عندما اندلعت الحرب العالمية الثانية ظن موسوليني ان الفرصة اصبحت مؤاتية لتحقيق هذا الحلم. وكانت ايطاليا قد احتلت عام ١٩٣٥ الحبشة بالاضافة الى ارتيريا والصومال الايطالي في القرن الافريقي.

بدأ موسوليني بتنفيذ حلمه باحتلال اليونان. فدخلها من ألبانيا بعد ان أخضع الأخيرة وضمها الى ممتلكاته سنة ١٩٣٩. لكنه وجد مقاومة عنيفة من جانب اليونانيين جعلته يستنجد بألمانيا النازية وقام معها باخضاع اليونان عام ١٩٤١.

وكانت ايطاليا وألمانيا واليابان قد أقامت حلفاً سمي بالمحور. وقد ساعد المحور ايطاليا بتحقيق حلمها بانشاء الامبراطورية الرومانية. فقد سيطرت المانيا وايطاليا على جنوب حوض البحر المتوسط بالاضافة الى سواحل فرنسا وايطاليا ويوغوسلافيا وألبانيا واليونان وشمال افريقيا.

لكن هجوم المانيا على الاتحاد السوفياتي وهزيمتها على أبواب موسكو ادى الى كسر شوكة المحور. وبدأت الدول الحليفة المعادية للمحور تدق ناقوس الهزيمة له. إذ قامت بريطانيا وحلفاؤها بالهجوم على شمال افريقيا من مصر اعوام ١٩٤١ و١٩٤٢.

وفي ١٠ تموز ١٩٤٣ نزل الحلفاء في جزيرة صقلية بعد ان أخضعوا تونس وما لبثوا ان احتلوا الجزيرة.

وبينما كانت المعارك تدور على أشدها في جزيرة صقلية حدث انقلاب في ايطاليا أطاح بموسوليني والفت حكومة جديدة مؤيدة للحلفاء. وبذلك تكون ايطاليا قد انتقلت من جانب الصديق لألمانيا الى جانب العدو.

وبعد صقلية نزل الحلفاء من شبه الجزيرة الايطالية. فسقطت باري وبرنديزي ونابولي ووصلوا الى قمة جبل كاسينو الذي كان حصناً منيعاً بالنسبة للألمان الذين احتلوا ايطاليا على أثر حدوث الانقلاب فيها. وفي ١٢ أيار ١٩٤٤ سقط جبل كاسينو وفتحت طريق روما. وحفاظا على معالم المدينة الأثرية أعلن هتلر روما مدينة مفتوحة ودخلها الحلفاء عام ١٩٤٤. وفي عام ١٩٤٥ احتل الحلفاء كامل التراب الايطالي وطردوا الألمان من ايطاليا.

عامل الحلفاء ايطاليا معاملة دولة محاربة في صفهم وذلك مكافأة على خلع زعيمها الفاشستي موسوليني وعلى انقلابها على حليفتيها المانيا واليابان ثم اعلانها الحرب عليهما.

وبعد اجتماعات عديدة تم وضع نصوص معاهدة الصلح مع ايطاليا التي وقعها في ١٠ شباط ١٩٤٧ بالاضافة الى ايطاليا مندوبو احدى وعشرين دولة كانت قد اعلنت الحرب عليها

وبموجب هذه المعاهدة تم ما يلي:

١ – اعطاء قسم من منطقة السفوا لفرنسا.

٢ – اعطاء مدينة فيوم وجوارها ليوغوسلافيا.

٣ – جعل مدينة تريستا والمنطقة المجاورة لها منطقة حرة تحت اشراف الامم المتحدة.

٤ – تنازل ايطاليا عن جزر الدوديكانز في بحر ايجه لليونان.

٥ – تنازل ايطاليا عن الحبشة والبانيا واعترافها باستقلالهما.

٦ – تنازل ايطاليا عن مستعمراتها السابقة في القرن الافريقي اي ارتيريا والصومال. كما اعطيت ليبيا لبريطانيا.

وبذلك اعيدت حدود ايطاليا الى ما كانت عليه عام ١٩٣٨ مع بعض تعديلات طفيفة.

وفي عام ١٩٤٦ اجري استفتاء شعبي كان من نتيجته ان اعلنت ايطاليا جمهورية بعد حكم ملكي دام ٨٥ سنة.

وهكذا تسبب موسوليني بخراب بلاده عوضاً عن إعادة امجاد الامبراطورية الرومانية.

المراجع

(١) جحا، شفيق. تاريخ العالم المعاصر.
2 Salvatorelli, Luigi. **Aconcise History of Italy.**

المملكة المغربية

الحلقة الثالثة

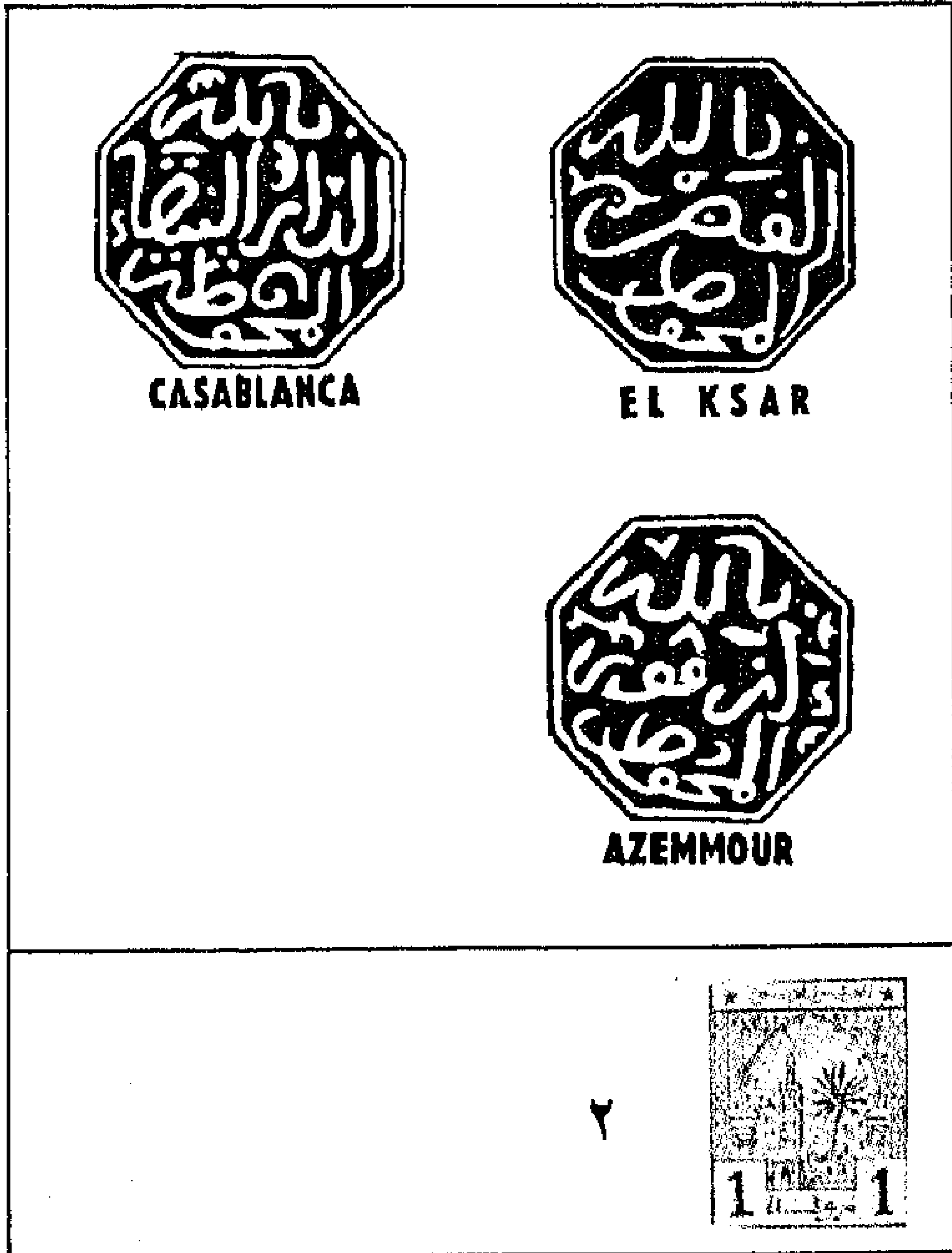
إلحاقاً بما كتبنا في العددين السابقين عن مكاتب البريد الأجنبية في المغرب، التي قدمنا بها بياناً في العدد الأول، يسرُّنا أن نستأنف فيما يلي تقديم إيضاحات عن المكاتب الأجنبية الباقية.

٧ - المكتب الشريفي ١٨٩٤ - ١٩١٩:

افتتح أعماله سنة ١٨٩٢ وكان يستعمل الأختام المثمنة لبلدان مختلفة، (صورة ١)، ولكن بدون طوابع، وذلك لغاية سنة ١٩١٥، وفي طنجة لغاية ١٩١٩. وهناك أيضاً ١٣ ختماً آخر مستديراً، وكانت كلها تستعمل بالألوان التالية: البنفسجي والأسود والأزرق والأخضر والأحمر أو البرتقالي. وفي سنة ١٩١٢ صدرت مجموعة من ستة طوابع من فئة ١ و٢ و٥ و١٠ و٢٥ و٥٠ موسوناً (٤٠٠ موسوناً تساوي ريالاً واحداً)، تحمل صورة مسجد أيوسواس في طنجة، (صورة ٢)، طُبعت على ورق أبيض وكانت الحواشي ضيقة. وفي سنة ١٩١٣ صدرت المجموعة نفسها ولكن على ورق ملوَّن والحواشي عريضة. ثم صدر في السنة نفسها طابعان فقط بالتوشيح على الطوابع السابق من فئة ٠٥ م على طابع ٥٠ م، و١٠ م، على ٥٠ م بالافرنجي، قيمتها اليوم نحو ٥٠٠ جنيه استرليني، ولم يشاهدا مستعملين بالبريد.

٨ - المكتب في مُلَيلة ١٨٩٣ - ١٨٩٤:

طوابع التخليص الحربي - في آخر سنة ١٨٩٣، نظمت الحكومة الاسبانية حملة عسكرية لكي تضع حداً لتحركات القبائل المحيطة بأراضي



١

٢

مُليلة، التي احتلتها سنة ١٤٩٧، ثم اتبعتها إلى سلطة التاج الاسباني سنة ١٥٢٥.

لم تشتمِل الحملة الاستطلاعية على أقل من ستِ فصائل من المشاة، واثنتين من الفرسان، مع ما يتبع ذلك من ملاكات مُلحقة، يساند الحملة أسطول بحري مؤلف من سبع بوارج حربية. وفي ٥ كانون الأول/ديسمبر ١٨٩٣، أصدر قائد الحملة قراراً باعادة تنظيم مكتب البريد الحربي، وحدد الطوابع التي يجب أن تُستعمل هناك، ابتداءً من أول كانون الثاني/يناير ١٨٩٤، وكان البريد حتى ذلك التاريخ يستعمل الطوابع الاسبانية بدون توشيح.

ان نموذج الطوابع الوحيد الذي كان مقرراً منذ البدء، حلَّت محلَّهُ نماذج أخرى خاصة لكل كتيبة،

وكان يحمل كل طابع اسم الكتيبة أو المصلحة.

أما تفاصيل الاصدارات فهي:

في سنة ١٨٩٣ صدرت مجموعة من ستة طوابع طُبع اطارها باللون الأسود أو الأزرق، ثلاثة منها مخرّمة، وثلاثة بدون تخريم، ولا تحمل أي فئة من العملة، رُسم عليها شعار اسبانيا الرسمي، (صورة ٣).

وفي سنة ١٨٩٤ صدرت خمس مجموعات، الأولى خصصت لأركان الحرب والخدمات الخاصة، مؤلفة من ستة طوابع، بدون أي فئة، وبلون مختلف لكل طابع، (صورة ٤) والثانية خصصت للبحرية، من ستة طوابع أيضاً، رُسم عليها بارجة حربية، وكل طابع يحمل إسم الوحدة العسكرية، وجميعها بلون أزرق أو أزرق فاتح، (صورة ٥). وخصصت الثالثة للفرسان، من عشرة طوابع وبألوان بعضها متشابه والآخر مختلف، رُسم عليها الشعار العسكري الاسباني، وكل طابع يحمل اسم الوحدة العسكرية في أسفل الصورة وبدون أي فئة، (صورة ٦). وأما المجموعة الرابعة، فكانت للمشاة بالرسم ذاته، أي مثل المجموعة السابقة، وخصصت لثلاث فرق تتألف كل من الأولى والثانية من ٨ فصائل يحمل الطابع اسم كل منها، وتتألف الثالثة من ست فصائل ويحمل الطابع اسم كل منها أيضاً. وكان طابع الفرقة الأولى أحمر، والفرقة الثانية أزرق، والفرقة الثالثة بنيًّا، دون ذكر الفئة على أي من هذه الطوابع. والمجموعة الخامسة والأخيرة، خصصت للمشاة في القلاع، برسمين مختلفين، وكل منها مؤلف من خمسة طوابع بلون بنّي، وبدون فئة أيضاً، واسم القلعة يظهر على كل طابع (صورة ٧ و٨).

٩ - المكاتب الأجنبية البريطانية ١٨٩٨ - ١٩٥٦:

افتتح مكتب البريد البريطاني أعماله بادارة بريد جبل طارق في بادئ الأمر من سنة ١٨٩٨ حتى سنة ١٩٠٧، واستعمل أربع مجموعات من طوابع جبل طارق، بعضها عليه صورة الملكة فكتوريا (اصدار ١٨٨٩)، وبعضها عليه صورة الملك ادوار السابع (اصدار ١٩٠٣)، (صورة ٩ و١٠)، بعد ان وشحها: (Morocco Agencies) وكانت جميعها بالعملة الاسبانية الدارجة هناك بالسنتيموس والبزيتا، وبقيت حتى سنة ١٩٠٦.

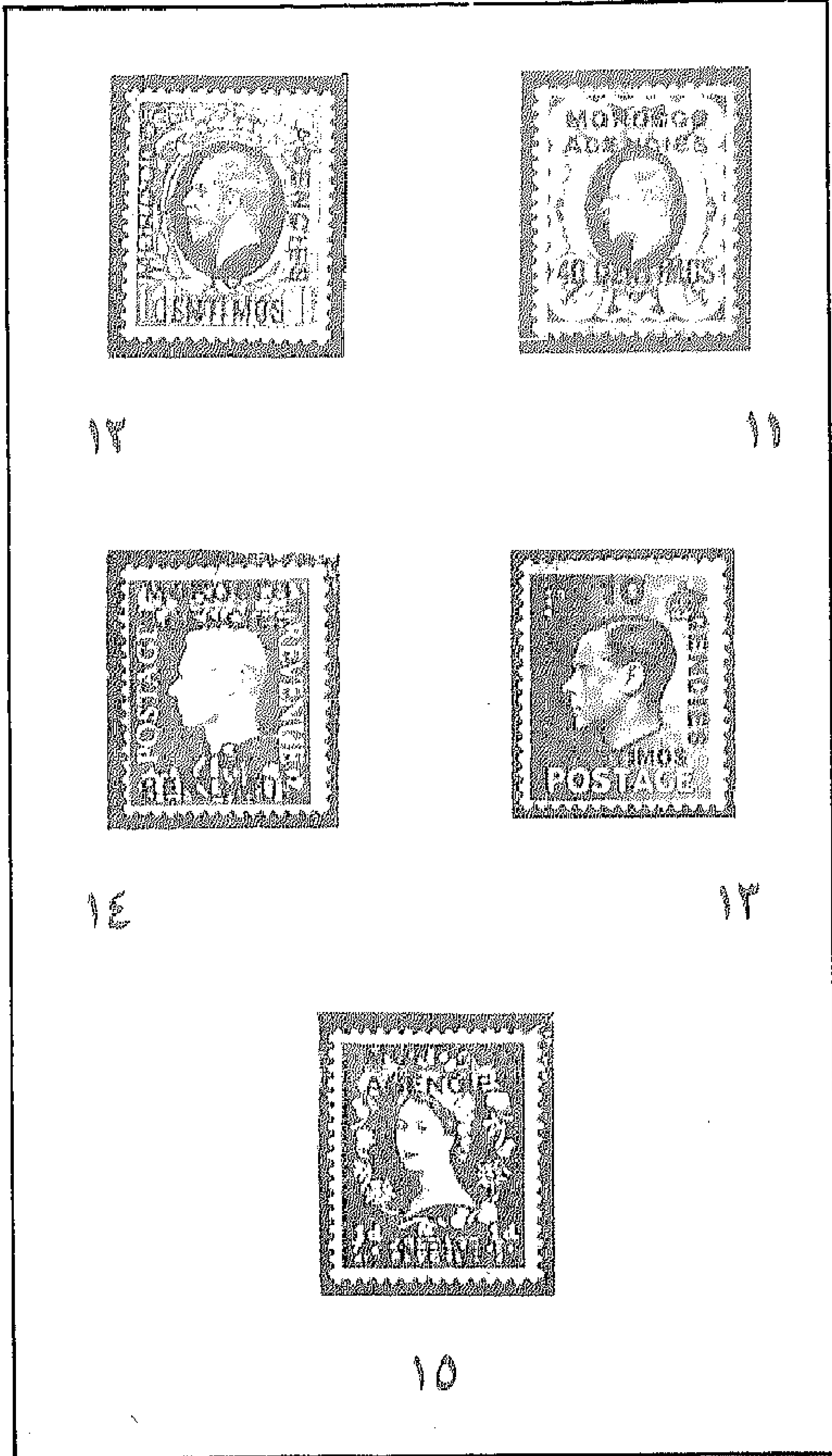
وفي سنة ١٩٠٧ الحق مكتب البريد بالإدارة البريدية البريطانية، ودام ذلك حتى سنة ١٩٥٦، واستعملت خلالها عشرة مجموعات، منها مجموعة تذكارية واحدة لمناسبة اليوبيل الفضي للملك جورج الخامس، صدرت في ٨ أيار/مايو ١٩٣٥، وهذه المجموعات هي: مجموعة واحدة للملك ادوار السابع

(١٩٠٧)، وأربع مجموعات للملك جورج الخامس (١٩١٤/٣٥)، ومجموعة واحدة للملك ادوار الثامن (١٩٣٦)، ومجموعتان للملك جورج السادس (١٩٤٩/٥١)، ومجموعتــان للملكـة اليزابيت (١٩٥٢/٥٦)، توشحت جميعها (Morocco Agencies بأحرف تاجيَّة، وكانت بالعملة الانكليزية، وأعدَّت لتستعمل مبدئياً لتخليص الطرود البريدية فقط، لكنها استعملت بعدئذ للبريد الجوي في جميع المكاتب البريطانية في البلاد، بما في ذلك منطقة طنجة، حتى سنة ١٩٣٧، وهذا تناول المجموعات الست الأولى بما فيها مجموعة ادوار الثامن سنة ١٩٣٦، وذلك عندما نفذت جميع الطوابع الموشحة.

ومنذ سنة ١٩٣٧ حتى ١٩٤٩ أخذت الطوابع الانكليزية محل الموشحة واستعملت بدون توشيح.

وفي سنة ١٩٤٩، ظهرت الطوابع الموشحة من جديد وكان التوشيح على المجموعات البريطانية الأربع الأخيرة، أي جورج السادس واليزابيت، واستعملت في تطوان فقط، في المكتب البريدي البريطاني الوحيد الباقي في المنطقة الاسبانية، ما عدا مكتب طنجة.

وبتاريخ ٣١ كانون الأول/ديسمبر ١٩٥٦ سحبت من الاستعمال جميع الطوابع الموشحة ( )، وحلّت محلها الطوابع التالية خمس عشرة مجموعة من طوابع الملك ادوار السابع (صورة ١١) وجورج الخامس (صورة ١٢) وادوار الثامن (صورة ١٣) وجورج السادس (صورة ١٤) والملكة الزابيت (صورة ١٥) موشحة بثلاثـة أسطر: ١ - (Morocco)، ٢ - (Agencies)، ٣ - Centimos أو (Pesetas)، بالعملة الاسبانية، من ٥ إلى ٥٠ س ومن بزيتا واحدة إلى ١٢ ب، منها المجموعات التذكارية: اليوبيل الفضي (١٩٣٥)، التتويج (١٩٣٧)، ذكرى مئة عام لظهور أول طابع في العالم (١٩٤٠)، اليوبيل الفضي للزواج الملكي (١٩٤٨)، الالعاب الأولمبية (١٩٤٨)، وجميع هذه الطوابع استعملت في مكاتب البريد البريطاني في المغرب كلها، ابتداء من سنة ١٩٠٧ إلى أن انشئت المنطقة الفرنسية (١٩١٤) ومنطقة طنجة الدولية (١٩١٨)، ما عدا المنطقة الاسبانية التي بقيت هذه الطوابع مستعملة فيها إلى أن سحبت في ٣١ كانون الاول/ديسمبر ١٩٥٦.



١١ ١٢ ١٣ ١٤ ١٥

وهناك مجموعات أخرى وشحت بالعملة الفرنسية واستعملت في مكاتب البريد البريطاني أيضاً، ضمن المناطق الفرنسية فقط. التوشيح كان بثلاثة أسطر:

١ - (Morocco).
٢ - (Agencies).
٣ - (CENTIMES أو Franc)، وكانت تسع مجموعاتٌ صدرت ما بين ١٩١٧ وحزيران/يونيو ١٩٣٧، على طوابع الملك جورج الخامس، وادوار الثامن وجورج السادس فقط، منها التذكارية لليوبيل الفضي (١٩٣٥)، والتتويج (١٩٣٧)، وسحبت من الاستعمال في ٨ كانون الثاني/يناير ١٩٣٨.

١٠ - المكـــاتب الأجنبيـــة الالمانيـــة ١٨٩٩ - ١٩١٩:

افتتح أعماله في أواخر سنة ١٨٩٩ في طنجة، ثم في ازمور، والدار البيضاء، وفاس، ومراكش، ومزغان، ومكناس وموغادرو، والرباط، وصافي،

التي أصبحت فيما بعد تحت الحماية الفرنسية. وفي القصر الكبير، وأرشيلا، ولاراش، وتطوان التابعة للمنطقة الاسبانية.

أما الطوابع فكانت المانية اصدار سنة ١٨٨٩ وما بعدها، موشحة بالسنتيموس والبزتيا مع كلمة «Marocco» يضاف اليها الفئة وكلمة Centimos أو «Peseta»، وفي كل مرة بأحرف مزخرفة مختلفة عن الأخرى، صدرت ما بين سنة ١٨٩٩ و ١٩٠٦، وآخر مجموعة صدرت سنة ١٩١١ وتحمل التوشيح «Marokko». كانت بمجملها سبع مجموعات فقط للبريد العادي، وعددها ٦٣ طابعاً، وأصبحت قيمة المجموعة الواحدة اليوم ما بين ٢٥ إلى ١٨٠ جنيهاً استرلينياً.

وفي ٣ آب/اغسطس ١٩١٤، اغلقت المكاتب الالمانية في المنطقة الفرنسية، وفي ١٦ حزيران/يونيو ١٩١٩ أغلقت في المنطقة الاسبانية.

١١ – المكتب في إفني ١٨٦٠ – ١٩٦٩ :

أراضي إفني الواقعة على الساحل الاطلنتي جنوب المغرب، تحولت إلى اسبانيا في ٢٦ نيسان/ابريل ١٨٦٠. وقبل ظهور الطوابع البريدية، كانت المراسلات تختم بخاتم من مطاط، يُضاف إليه توقيع الموظف الرسمي المسؤول.

وفي سنة ١٩٤١/٤٢، أصدرت اسبانيا طوابع خاصة بإفني، بالتوشيح على مجموعة من الطوابع الاسبانية السارية المفعول بسطرين: (١) «Territorio» (٢) «De IFNI»، وكانت مؤلفة من ١٥ طابعاً، قيمتها اليوم نحو ٢٠٠ جنيه استرليني.

ومنذ سنة ١٩٤٣ إلى ٢٣ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٦٨، أصدرت ٥٥ مجموعة مختلفة، عادية وجوية وللبريد المستعجل وتذكارية لمناسبات عالمية واسبانية، جميلة المظهر للهواة والمبتدئين تمثل طيوراً وأزهاراً وأسماكاً وحيوانات الخ.. تخللها خمس مجموعات عادية وجوية وتذكارية، وتوشحت بكلمة IFNI » على أحدها و (كلام غير واضح) وبتوشيح بأحرف مزخرفة على ثلاثة منها، وبتوشيح مماثل ولكن بأحرف عادية على الخامسة. وأصبح مجموع ما صدر في هذه المدة ٢٧٣ طابعاً. وبتاريخ ٣٠ حزيران/يونيو ١٩٦٩، ألحق المنطقة بالمغرب.

١٢ – المكتب في رأس جوبي ١٩١٦ – ١٩٥٠ :

في ١٦ حزيران/يونيو ١٩١٦ احتلت القوات الاسبانية رأس جوبي الواقع في أقصى جنوب المغرب، فأخذت تستعمل هناك مجموعة نهر الذهب التي سُمِّيت فيما بعد بالصحراء الغربية، اصدار ١٩١٤، بعد توشيحها « Cabo JubI » مع تغيير الفئة بالسنتيموس، وكانت أربعة طوابع من فئة ٥ و ١٠ و ١٥ و ٤٠س، ارتفعت قيمتها اليوم إلى ٥٥ جنيهاً استرلينياً.

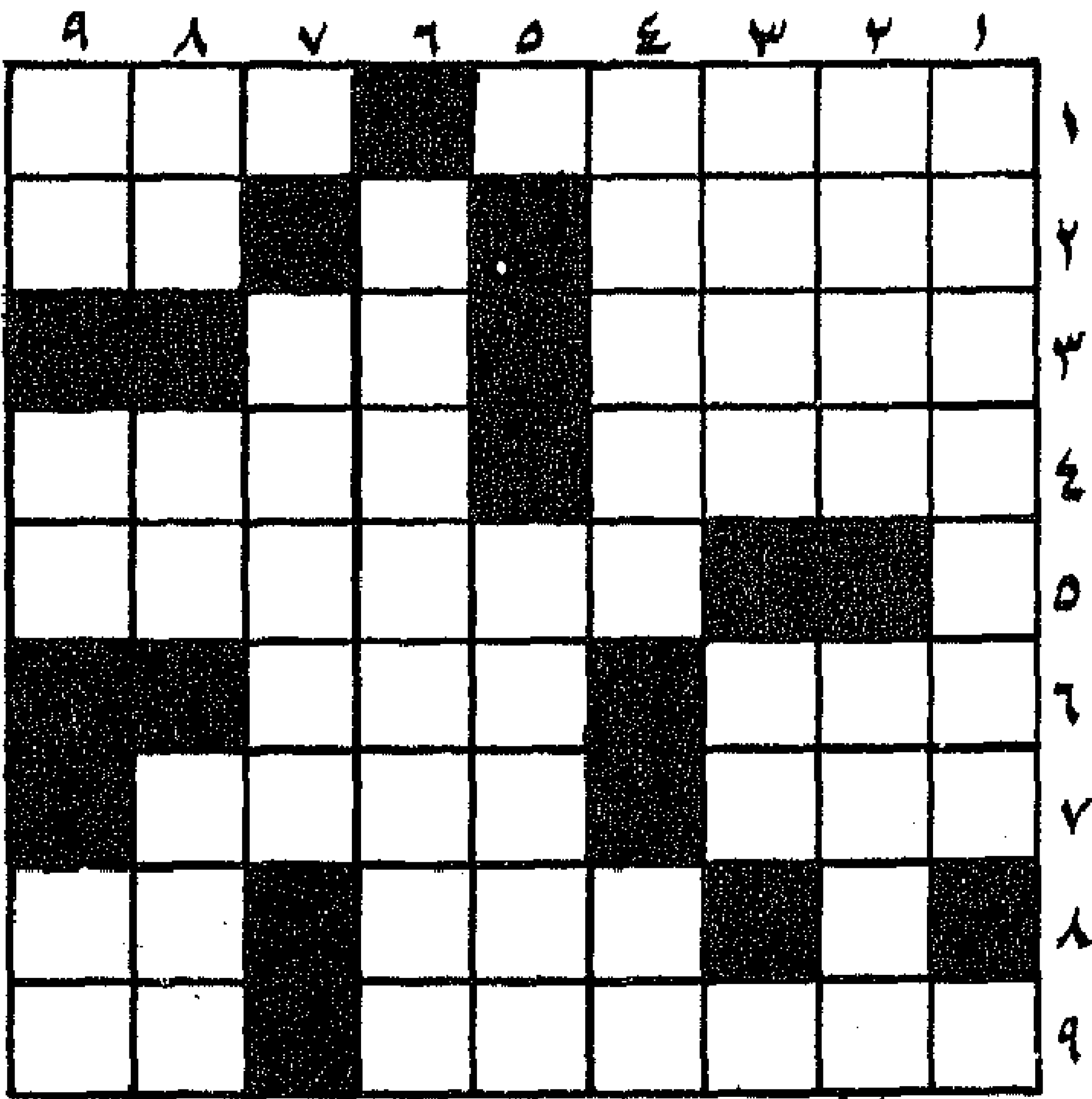
ومن سنة ١٩١٧ إلى سنة ١٩١٩ استعملت طوابع نهر الذهب ومراكش في المنطقة الاسبانية بدون أدنى توشيح، ثم بوشر بتوشيح طوابع اسبانيا السارية المفعول في حينه، وأصدرت سنة ١٩١٩ مجموعة من ١٣ طابعاً عادياً وطابعاً واحداً للبريد المستعجل بتوشيح « Cabo Juby » بحرف منحنٍ، وأصبحت قيمتها اليوم نحو ٦٠ جنيهاً استرلينياً.

وبالتوشيح ذاته، صدرت بتاريخ ١٩٢٢ مجموعة من ثلاثة طوابع من فئة ١ و ٢٠ س ارتفعت قيمتها اليوم إلى ١٠٠ جنيه استرليني، وأخرى من أربعة طوابع من فئة ٢ و ٥ و ١٠ و ٢٠س، قيمتها اليوم ٤٥ جنيهاً استرلينياً.

ثم توالت الإصدارات فيما بعد، موشحة بالتوشيح ذاته ولكن بأحرف صغيرة جداً ومعتدلة مختلفة في كل مرة وبخمسة أشكال، منها المجموعات العادية والجوية والتذكارية الخ، وجمعت بأكملها ١٧١ طابعاً تشكل ١٨ مجموعة، صدرت آخرها في أول كانون الثاني/يناير ١٩٤٨، ثم انضمّت المنطقة إلى الصحراء الاسبانية سنة ١٩٥٠، ثم الحقت بالمغرب سنة ١٩٥٨.

له تابع

الكلمات المتقاطعة



أفقياً :

١ – نعقد خيطاً في اصبعنا لكي لا ننسى أمراً . ضجر .

٢ – فرجة بين شيئين (معكوسة) . للتأفف .

٣ – سنعبر (معكوسة) متشابهان .

٤ – جبال في أفريقيا الشمالية (معكوسة) . مدينة في المغرب الأقصى كانت قديماً قاعدة المرينيين .

٥ – راهب دومينيكي من مشاهير الرسامين في القرن الخامس عشر .

٦ – نبيذ العسل . مرفأ تونسي كان اسمه قديماً هدروميتوم .

٧ – مأرب . جدّ سلالة بربرية تنسب إليه قضى على نفوذها الموحدون .

٨ – مرفأ مغربي على الأطلسي (معكوسة) . حظ .

٩ – عاصمة دولة عربية . من الأقارب .

عمودياً :

١ – نهر في المغرب .

٢ – قائد الماني انتحر بايعاز من هتلر .. قبيلة بربرية في المغرب (معكوسة) .

٣ – مدينة مغربية (معكوسة) .. إله مصري (معكوسة) .

٤ – أمتأسفة ؟ (معكوسة) والد .

٥ – ملك عربي (معكوسة) .

٦ – قبيلتان قديمتان من العمالقة أفنت احداهما الأخرى (معكوسة) .

٧ – إنهي (معكوسة) .

٨ – للنهي . جهد (معكوسة) . سواد وكبر مستحسنان في العينيين .

٩ – تلم (معكوسة) . متشابهان . نجيع .

حل الشبكة ص ٩٣

حركة البيع والشراء

نشكر المؤسسة العامة للبريد في الجمهورية العربية السورية التي أرسلت الينا بنماذج عن الإصدارات السورية الأخيرة ، فنقدم فيما يلي بيانها :

١ – طابع فئة ٧٥ قرشاً لذكرى مرور ٩٠٠ عام على وفاة المؤرخ العربي الحافظ ابن عساكر .

٢ – طابعان من فئة ١٠ و ١٥ قرشاً للسنة الدولية للطفل .

٣ – طابعان من فئة ٥٠ و ٧٥ لأول ايار ١٩٧٩ .

٤ – طابع فئة ٣٥ قرشاً للذكرى ٣٣ للجلاء .

٥ – طابع فئة ٣٥ قرشاً للمؤتمر الدولي لطب الأسنان في الشرق الأوسط .

٦ – ثلاثة طوابع من فئة ٥٠ و ٧٥ و ١٠٠ قرش للذكرى الخامسة والسبعين لأول رحلة طيران بمحرك .

●

مركز دراسات الخليج العربي في جامعة البصرة

تأسس مركز دراسات الخليج العربي عام ١٩٧٤ ويعتبر من المراكز العلمية المهمة في جامعة البصرة التي بدأت اهتماماً «كبيراً» بطبيعة التغيرات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي جرت وتجري الآن في منطقة الخليج العربي، ومن أجل القيام بهذه المهمة فلقد أسس في المركز عدد من الشعب العلمية يشرف عليها أساتذة متخصصون في الدراسات الانسانية والعلمية وذلك بهدف إعداد بحوث عن منطقة الخليج العربي تتمتع بالرصانة والموضوعية العلمية بهدف الوصول إلى نتائج علمية عن طبيعة هذا الجزء المهم من المنطقة العربية وبغية تحقيق ذلك فقد اتبع المركز وسائل متعددة منها عقد الندوات العلمية «التي تعقد مرة واحدة كل عامين» وتبادل الزيارات وتشجيع البحوث المشتركة. وقد كانت آخر ندوة عقدها المركز في ٢٩ - ٣١/آذار الماضي تحت شعار «الانسان والمجتمع في الخليج العربي» وقد حضرها ممثلون عن كافة المراكز العلمية في الخليج العربي والأقطار العربية والدول الأجنبية. وقد قدمت فيها بحوث علمية بحثت فيها مشاكل التوافق بين التغيرات والواقع الذي يعيشه الانسان في المجتمع الخليجي الآن.

يضم مركز دراسات الخليج العربي خمس شعب هي:

١ - شعبة دراسات العلوم الاجتماعية: يتولى الاشراف على هذه الشعبة عضو هيئة تدريس مختص ويقوم بالتعاون مع المختصين بإجراء البحوث والدراسات التي تتعلق بتاريخ الخليج العربي السياسي والاجتماعي، وجغرافيته اضافة إلى نشاطات أخرى تحددها أهداف الخطة الخمسية.

٢ - شعبة الدراسات الاستراتيجية والسياسية: يتولى الاشراف على هذه الشعبة عضو هيئة تدريس مختص ويقوم بالتنسيق مع المختصين باجراء البحوث والدراسات السياسية والاستراتيجية. اضافة إلى نشاطات علمية متعددة تقوم بها هذه الشعبة.

٣ - شعبة الدراسات الاقتصادية: يتولى الاشراف على هذه الشعبة عضو هيئة تدريس مختص ويقوم بالتنسيق مع المختصين في الأقسام العلمية باجراء البحوث والدراسات الاقتصادية اضافة إلى نشاطات أخرى تقوم بها هذه الشعبة.

٤ - شعبة الدراسات اللغوية والادبية: يتولى الاشراف على هذه الشعبة عضو هيئة تدريس مختص ويقوم بالتنسيق مع الجهات المعنية من ذوي الاختصاص لاجراء البحوث والدراسات المتعلقة بالأدب العربي واللغة العربية في اقطار الخليج العربي اضافة إلى نشاطات أخرى تقوم بها هذه الشعبة.

٥ - شعبة الدراسات الفارسية: يشرف على هذه الشعبة أحد المختصين باللغة الفارسية من ذوي الشهادات العليا وتقوم هذه الشعبة باجراء الدراسات والابحاث المستندة إلى ما يصدر باللغة الفارسية والمتعلقة بأقطار الخليج العربي وايران، كما تعمل على ترجمة الدراسات والمقالات الصادرة باللغة الفارسية الى اللغة العربية بالاضافة إلى اصدار نشرات دورية.

كما يضم المركز قسم المكتبة:

ويضم هذا القسم الشعب الآتية:

(أ) شعبة الخدمات المكتبية يوجد بالمركز مكتبة علمية تضم مجموعة من الكتب والوثائق والدوريات القيمة العربية والأجنبية التي تحتوي معلومات على جانب كبير من الأهمية حول اقطار الخليج العربي والجزيرة العربية وقد تم فهرسة وتصنيف محتويات المكتبة.

(ب) شعبة المتابعات الفنية: وتقسم هذه الشعبة إلى الوحدات الآتية:

١ – وحدة المايكروفيلم والافلام والخرائط.
٢ – وحدة الدوريات.

وتضم هذه الوحدة عدداً «من الدوريات التي تصدر بصفة يومية أو اسبوعية أو دورية ويتم فهرسة وتوثيق هذه الدوريات على الأسس العلمية فور وصولها للمركز اولاً بأول لغرض خدمة الباحثين وتقديم كافة المعلومات عن الدوريات الموجودة في المركز. كما هناك أيضاً في المركز:

شعبة التزويد والاستلام: تختص هذه الشعبة بشراء الكتب بصورة مباشرة من المكاتب العامة وغير مباشرة عن طريق طلبها من دار الكتب كما تقوم بمتابعة توزيع اعداد مجلة الخليج العربي طبقاً للجهات التي ترسل إليها ومتابعة قضايا تبادل المنشورات مع كافة المراكز والجامعات والمؤسسات المختلفة بالاضافة إلى متابعة التبادل والاهداءات.

كما يضم المركز كذلك شعبة النشر:

تقوم هذه الشعبة باستلام البحوث وارسالها إلى مقيمين اثنين واستحصال آرائهم بالنسبة للقيمة العلمية للبحث وصلاحيته ثم صرف مكافأة المقيمين وارسال البحث بعد تقييمه إلى الباحث لاجراء التعديلات عليه واستكمال البحوث من جميع النواحي وجمعها لاصدارها ضمن العدد المقرر نشرها فيه كما تقوم هذه الشعبة بالتنسيق والتعاون مع الشعب العلمية في المركز بالاشراف على اصدار مجلة الخليج العربي ومتابعة استكمال أبواب المجلة وارسالها إلى المطبعة والاشراف على تدقيق المسودات بعد طبعها بشكلها الأولي وتزويد الباحثين بنسخ من المجلة أو من بحوثهم بعد ان يتم طبعها كما وتقوم أيضاً «بتحرير كتب المكافآت الخاصة بالبحوث وتتبع نفس الخطوات بالنسبة لنشر الكتب بعد عرض الكتاب على مجلس الادارة لاستحصال الموافقة على نشره من الدوائر المختصة وتقوم الشعبة بتحرير محاضر جلسات مجلس إدارة مركز دراسات الخليج العربي وتنفيذ فقراته والقيام بفتح ملفات خاصة للمراسلات التي تهم المجلة وكذلك ملفات البحوث والمنشورات، والبحوث المترجمة وترتيبها حسب تسلسلها الزمني.

أمل الناصري

حل المسابقة

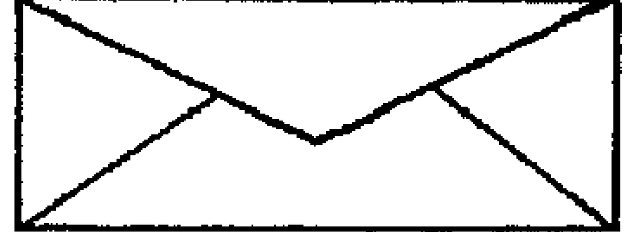
ا	[illegible]	[illegible]	[illegible]	ا	[illegible]	■	[illegible]	[illegible]
■	[illegible]	■	ا	[illegible]	[illegible]	■	[illegible]	[illegible]
[illegible]	[illegible]	[illegible]	■	[illegible]	[illegible]	ا	[illegible]	■
[illegible]	[illegible]	[illegible]	■	[illegible]	[illegible]	[illegible]	■	■
[illegible]	■	■	ا	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
[illegible]	[illegible]	[illegible]	ا	■	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	■	[illegible]	[illegible]	■	■
[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	■	[illegible]	■	ا	[illegible]
[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	■	[illegible]	[illegible]	[illegible]

● لا بأس بصوت الشعب، لولا أنه يحتاج الى بعض الأبواق.

دبلن ابونيون

● حين يتحرّج الموقف لا يطلب الناس أمهر السياسيين بل أقواهم.

لتزاروس



● فيصل مأمون مندورة – مكة المكرمة – المملكة العربية السعودية.

اني من المعجبين بمجلة «تاريخ العرب والعالم» لما تحتويه من مواضيع شيقة ومفيدة، كتعريف للقارئ العربي خاصة والمسلم عامة بتاريخ وتراث العرب والعالم الإسلامي وغيره. وكذلك حازت المجلة على إعجاب الطلبة في المدرسة الثانوية حيث أعمل، لما فيها من مواضيع يتضمنها منهاج الدراسة في «تاريخ الحضارة الإسلامية».

● شكراً لتمنياتك الطيبة ونعدك بمواصلة المسيرة. بالنسبة للإشتراك فلقد أرسلنا لك رسالة خاصة بهذا الخصوص.

الشركة اللبنانية لتوزيع الصحف والمطبوعات هي شركة «توزيع» فقط ولا تستطيع مساعدتك بموضوع الكتب، نقترح عليك الاتصال بدور النشر المختلفة.

● إبراهيم عبد الباقي رحمة الله التركستاني – جدة – المملكة العربية السعودية.

إني شاكر جداً لإخراج هذه المجلة بهذا الشكل العظيم متضمنة مختلف المواضيع التاريخية العظيمة.. كما اني أشكر كل إنسان شارك في إخراج هذه المجلة بهذه الصيغة من مسؤولين وعاملين وكتّاب. بصراحة ان هذه المجلة عظيمة وجميلة لما فيها من مواضيع تاريخية قيّمة.. بحق أنها إسم على مسمى.. «تاريخ العرب والعالم».

● نشكر للأخ إبراهيم شعوره النبيل تجاه المجلة وتجاه جميع العاملين فيها راجين أن نوفق في مهمتنا الصعبة. بالنسبة للإشتراك فلقد أرسلنا لكم رسالة خاصة بهذا الخصوص.

● وليد إبراهيم الأسود – دمشق – الجمهورية العربية السورية.

بحق انني عاجز عن شكركم لما أقضيه من وقت مفيد وممتع مع مقالات مجلتكم، هذه المجلة العريقة التي لا يمكن أن تثمّن بقيمة مادية. فهي مجلة انتظرها الكثيرون وأنا واحد من هؤلاء الذين يعملون على اقتناء أي شيء تصدره هذه المجلة التاريخية العربية. كما أهدي تحياتي إلى جميع العاملين في المجلة بدون إستثناء.

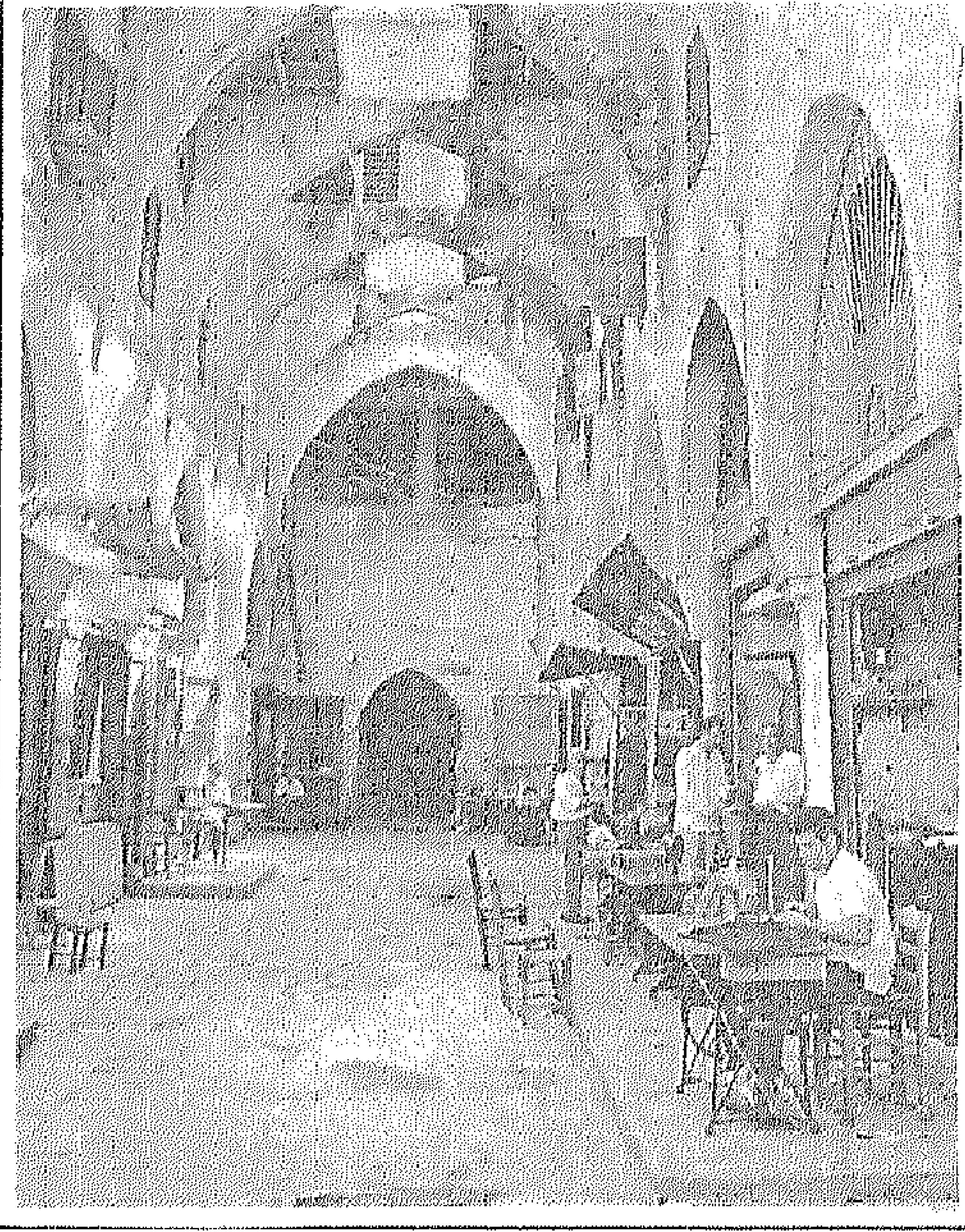
● نشكر الأخ وليد على عواطفه الطيبة ونؤكد له بأننا سنستمر في جهودنا لخدمة القارئ العربي من الخليج إلى المحيط. بالنسبة لاقتراحك نشر معلومات أو موضوعات عن الأماكن الأثرية المنتشرة في العالم العربي نؤكد للأخ وليد بأن اهتمامنا بهذا الموضوع لا يقل عن اهتمامه، فلقد نشرنا «١٤ موضوعاً» عن الآثار في الوطن العربي في السنة الأولى ما عدا المواضيع التي تبحث في آثار فلسطين والأراضي العربية المحتلة (سيناء – الضفة الغربية والجولان). كما اننا بصدد نشر سلسلة «ملف الوطن العربي» في الوقت الحاضر والذي يشمل في جملة ما يشمل أهم الآثار الموجودة.

برج الميزان لم ينشر في وقته لأسباب فنية بحتة ونأسف لهذا التقصير. سنحاول نشره في أقرب

● وليد السمان – برج البراجنة – بيروت – لبنان.

أهنئكم على هذه المجلة الرائعة وأتمنى لكم التوفيق وأقترح عليكم نشر ريبورتاجات مصورة عن أشهر المنازل الأثرية في لبنان.

● اقتراحك نحيله للآنسة سامية المحمد التي وعدتنا بتنفيذ هذا الاقتراح بأسرع وقت ممكن!



تاريخ وأسماء ومعالم القرى والأحياء في الوطن العربي

إلى القراء الاعزاء :

ترغب مجلة «تاريخ العرب والعالم» أن تفتح باباً خاصاً للقراء ، لا سيما للطلاب في الثانويات والجامعات ، تدعو فيه إلى الكتابة المختصرة في موضوع : «تاريخ واسماء ومعالم القرى والأحياء في الوطن العربي» . والمجلة إذ تفتح باب هذا الموضوع تخصص مكافأة قدرها ١٠٠ ليرة لبنانية ، أو ما يعادلها للفائز الأول ، واشتراكاً سنوياً في المجلة للفائز الثاني ، على أن تتضمن المساهمة المقدمة معلومات جديدة وشيقة عن القرية أو الحي أو المعْلم وعن تاريخه واسمه وظروفه ، أو ما يحتوي من آثار عمرانية قديمة أو مظاهر حضارية ، وإذا أمكن صورة فوتوغرافية مأخوذة للحي أو القرية أو لأي مظهر عمراني أو اثري فيها ، كذلك على أن لا تتجاوز المساهمة الـ ٢٠٠ كلمة .

هذا ، وإذ تشدد المجلة على جدّة المعلومات الواردة ، تطلب من الكتاب الاعزاء ان يتقيدوا بأصول الكتابة العلمية وأن يشيروا إلى مصدر الاقتباس ، وتترك لهيئة التحرير حقها في اختيار المساهمات الصالحة للنشر ، وكذلك اختيار المساهمات الفائزة ؛ إذ من حصيلة ما يصل الينا ستختار هيئة التحرير ثلاث مساهمات للنشر في كل عدد بينها المساهمتان الأولى والثانية الفائزتان بالمكافأة .

* * *

نرجو من المشترك أن يكتب اسمه وعنوانه بخط واضح في نهاية مقاله وأن يرسله الينا بالبريد على العنوان التالي :

مجلة «تاريخ العرب والعالم» بيروت ص . ب . ٥٩٠٥

«مسابقة القرى والاحياء في الوطن العربي» .

* * *

تعتبر المواد المرسلة ملكاً للمجلة ، إذا نشرت أو لم تنشر .



رأي حر

فاروق البربير

في بداية الخمسينات، أصدرت المطابع كتاباً مثيراً صدر تحت رعاية ج. س. سكواير تضمن سلسلة من الدراسات التي قام بها مؤرخون بارزون وأدباء ذائعو الصيت كما كان يمكن أن تكون عليه بعض الأحداث الهامة في التاريخ. ونعني به كتاب «لو في التاريخ - أو التاريخ مكتوباً من جديد». ولقد كانت الفكرة من وراء الكتاب فكرة بارعة حريّة بأن تكشف للنظر الكثير من خفايا الديناميكية للعملية التاريخية لو ان أصحابها أحسنوا تنفيذها. وكان من بين تلك الدراسات، دراسة يتنبأ فيها المؤرخ غيديلا عمّا كان خليقاً بأن يحدث لو ان العرب انتصروا في معركة الأندلس الأخيرة، ودراسة أخرى للمؤرخ هـ. أ. ل. فيشر بعنوان «لو ان نابليون هرب إلى أميركا» ودراسة للأديب ج. ك. تشيسترون عما كان سيحدث لو ان الأمير جون النمسوي تزوج من ماري ملكة اسكتلندا، ودراسة نيكلسون عما كان سيحدث لو نجح لورد بايرون وأصبح ملكاً على اليونان، ودراسة لبيلوك عما كان حريًّا بالحدوث لو ان الملك لويس السادس عشر نجح في الهرب من ثوار باريس، ودراسة للمؤرخ فان لون عمّا كان خليقاً بأن يحدث لو استمر الهولنديون في حكم نيوامستردام (إسم نيويورك الأصلي) ودراسة لوينستون تشرشل عما كان خليقاً بأن يتمخض من نتائج لو ان الجنرال لي قائد الجنوبيين قد انتصر في معركة غينسبورغ الفاصلة في الحرب الأميركية!

لقد قال عدد من فلاسفة التاريخ، لا علماء التاريخ، إن شكل الأحداث التاريخية هو تقاطع متشابك لما يدعى فنياً بتعبير الحوادث «المترابطة داخلياً» والمعلوم إن حادثين، يكونان حادثين مترابطين داخلياً إذا كان وقوع الأول يفرض ويتطلب وقوع الآخر والعكس بالعكس. وبناء عليه أي تغير في حادث من الحادثين سيترتب عليه بالضرورة تغير في الحادث الآخر.

إذا كان هذا التفسير سليماً من الناحية الفلسفية فهل هو بالفعل صحيح من الناحية العملية؟

* * *

ليس هناك قضية محل اتفاق الجميع مثل قضية الوحدة العربية. كذلك فإنه ليست هناك قضية تثير الخلافات، بكل أسف، بين الجميع مثل قضية الوحدة العربية..

إن الوحدة ليست مجرد أمل يراود المواطن العربي ولكنها أصبحت حاجة ماسة ومصيرية للمواطن ولا يمكن لشعب تجمعه أواصر اللغة والتاريخ والتقاليد ووحدة المصلحة والمصير ان يبقى أقاليم متفرقة ضعيفة.

إن الوحدة قوة للعرب ما في ذلك من شك، واسرائيل والدول الكبرى جميعها، بدون استثناء، لا تخشى شيئاً سوى تحقيق الوحدة.

ويروي انتوني ناتينيغ في هذا المجال في كتابه «شاهدت بعيني» ص-٩٣ «بأن زعماء وزارة الخارجية الاسرائيلية قالوا لي: ان حكومتهم ستلجأ إلى كل وسيلة ممكنة من أجل إبقاء جيرانها العرب ممزقين».

إذا كان هذا السرد سليماً ومنطقياً فلماذا يبقى العرب ممزقين وضعفاء؟!

وماذا «لو» استطاعوا تحطيم قاعدة المؤرخين الفلاسفة التي تقول بأن لكل فعل ردة فعل.. واستطاعوا توحيد أقاليمهم في دولة عربية واحدة قوية!

«لو» فعلوا هذا... لتغير حتماً مجرى التاريخ..



"العذراء بين الصخور" من أعمال ليونار دافنشي (راجع ص: ٣٠)

بیاراست دانا یکی رزمگاه / به قلب اندرون ساخته جای شاه
هشیوار دستور بر دست شاه / به رزم و به رزمش نماینده راه
چپ و راست صف را بر کشیده سوار / پیاده سلیح ...
مبارز که اسب افکند بر دو روی / بدست چپش پیل پرخاشجوی
وز او برتر اسپان جنگی بپای / میان ال کی آمده بالای جای
هیون زرد چهر آن سپه را براه / ...



همانا اندر ایران یکی مرد هشیار بخت / ...
شگفتی ایران برد جادو بماند / دلش را بدان پیشه اندر نشاند
جهان گشت کسری و بوزرجمهر / که گفتی بدو بخت بنمود چهر
بشد مرد دانا به آرام خویش / یکی تخت ... پیش
دو مهره بفرمود کردن ز عاج / همه پیکر عاج ... ساج

اندر ساختن بوزرجمهر نرد را

به هر جای گرد دو سر لشکر شاه / کز این دو شاه اندر آن رزمگاه
... / بر شاه شد ...
دل شاه ایران از آن خرم بماند / خرد را بدان پیشه اندر نشاند
... / ...
فرستاده را پیش خود خواند / ...
دگر گفت با موبد شاه هند / ...

بردن بوزرجمهر نرد را بهندوستان

نهادم برجای شطرنج نرد / بدان تا ببادی که آید بنرد
شنو ... / بپیمان ... قنوج ...
ابا باره و نامه و تخت ... / دلش ...

که او بخت شطرنج ... / ...
یکی نام ... / ...
بشطرنج و اندیشه ... / ...
یکی رزمگه ساخت شطرنج وار / ...
بگسترد لشکر ... / ...
... / ...
همی ... / ...
از آن ... شاه ... / ...
همی گفت کای ... / ...
ز گنج شهنشاه ... / ...
یکی نامه ... / ...
فرستاده ... / ...
... / ...
... / ...
... / ...
همی ... / ...

شدند آن دو شاه و سپاه / ...
بگسترد ... / ...
دل شاه ایران ... / ...
شنیدم ... هر گونه راه / ...
برفت از در شاه بوزرجمهر / ...

مجلة شهرية مصورة تبحث في التاريخ العربي

السنة الثانية - العدد السابع عشر - آذار (مارس) ١٩٨٠ الموافق ربيع الثاني ١٤٠٠





تاريخ العرب والعالم

مجلة شهرية مصورة تبحث في التاريخ العربي

السنة الثانية
العدد السابع عشر
١٥ آذار (مارس) ١٩٨٠م.
ربيع الثاني ١٤٠٠هـ.

تصدر عن دار النشر العربية في منتصف كل شهر

رئيس التحرير: فاروق البربير

المستشار: د. أنيس صايغ

المدير المسؤول: محمد مشموشي

ص.ب: ٥٩٠٥ - بيروت، لبنان
بناية أبو هليل - شقة ١١
شارع السادات - تلفون: ٨٠٠٧٨٣

الإنتاج:
مطبعة المتوسط ش.م.ل.

الإعلانات
تهام: الشركة العربية لإنماء الإعلان
ص.ب: ١١/٦٨٨ - بيروت. لبنان

التوزيع:
الشركة اللبنانية لتوزيع الصحف والمطبوعات

ثمن النسخة

لبنان:	٤ ل.ل.	سوريا:	٦ ل.س
العراق:	٧٠٠ فلس	ليبيا:	٨٠٠ درهم
السعودية:	٧ ريال	الكويت:	٥٠٠ فلس
الأردن:	٥٠٠ فلس	أبوظبي:	٨ درهم
دبي:	٨ درهم	قطر:	٧ ريال
البحرين:	٧٠٠ فلس	المغرب:	٥ درهم
مسقط:	٨٠٠ بيزة	بريطانيا:	جنيه استرليني

الإشتراكات

في لبنان	٥٠ ل.ل
المؤسسات والدوائر الحكومية	١٥٠ ل.ل
في الدول العربية	٧٥ ل.ل
في أفريقيا وأوروبا	١٠٠ ل.ل
دول العالم الأخرى	١٥٠ ل.ل
المؤسسات والدوائر الحكومية في العالم العربي	٢٠٠ ل.ل

HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD

EDITED BY FARUK BARBIR
A MONTHLY ILLUSTRATED
MAGAZINE PUBLISHED FROM
SADATE ST. ABOU HLEIL
BLG. P.O.B. 5905
Tel.800783
BEIRUT, LEBANON

VOL. 11
No. 17. March. 1980
PRICE : 4 L.L.
ANNUAL SUBSCRIPTION :
$ 75 IN NON-ARABIC
SPEAKING COUNTRIES

في هذا العدد

● المقالات الواردة توزّع حسب التبويب الفني للمجلة. ولا علاقة لذلك بمكانة الكاتب. مع حفظ المكانة الاجتماعية للكتاب. تراعى في الألقاب الصفات العلمية فقط.

الموضوع | الصفحة



(راجع المقالة ص ٥٥)

● المقالات والدراسات تُرسَل باسم رئيس التحرير على عنوان المجلة: ص. ب ٥٩٠٥ في بيروت.

● المقالات والدراسات التي تنشر لا تعبّر بالضرورة عن آراء المجلة.

● المواد الواردة إلى المجلة لا تُردّ إذا لم تُنشر.



الدولة العثمانية بين الإسلام والقومية

ندوة جرت بمشاركة :
- الدكتور معن زيادة
- الدكتور وجيه كوثراني
- الدكتور رشيد خالدي

حرر الندوة وساهم في وضع الأسئلة الأستاذ علي حرب



إن ندوة « تاريخ العرب والعالم » حول « الدولة العثمانية بين الاسلام والقومية » لم تنته عند هذا الحد الذي تضمن آراء ثلاثة من المفكرين العرب .

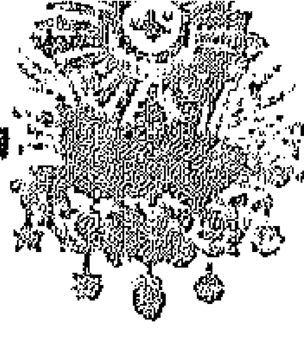
ذلك أن المجلة تطمح لأن تكون هذه الآراء مادة غنية للنقاش والحوار الهادئين والبناءين لدى جمهرة المفكرين في مختلف أقطارنا العربية ، بحيث يكون الحديث الذي سجلناه ونقلناه بأمانة في الصفحات التالية ، مجرد الحلقة الأولى من ندوة مفتوحة ومستمرة في الاعداد القادمة ، يشارك فيها من شاء من أصحاب الاختصاص في الموضوع ، وخاصة من مؤرخينا ودارسي الفكر السياسي الحديث في وطننا .

وإن كان الدكاترة الثلاثة الذين شاركوا بالثورة قد التقوا في نقاط كثيرة (ولعلهم التقوا في نقاط وعلى أمور أكثر مما كنا نتوقع !) فلا شك أن هناك أساتذة آخرين يخالفونهم الرأي في الكثير من القضايا التي طرحت حول الدولة العثمانية والاسلام والقومية .

لهؤلاء نوجه دعوتنا ، بشكل خاص ، لنسمع رأيهم ، وليسمع هذا الرأي آلاف القراء .

أسرة التحرير

الحوار عنصر لا غنى عنه بالنسبة لكل تطور ثقافي، وذلك بالمقدار الذي يتيح فيه للأفكار أن تتبلور وتتمايز، وللمواقف المختلفة أن تتلاقى وتتفاعل وللفرضيات المتباينة أن تتجابه وتمتحن. ومجلة «تاريخ العرب والعالم»، اقتناعاً منها بأهمية الدور الذي يمكن أن تلعبه المحاورة في استنهاض الفكر وتنميته، ارتأت أن تفرد من الآن وصاعداً باباً تخصصه لندوات فكرية تعالج موضوعات مختلفة يقوم بها أهل الاختصاص والدراية ، كل في مجاله . على أن تطل هذه الموضوعات في النهاية على التوجه الأساسي للمجلة : التاريخ، وعلى أن يكون الغرض منها ليس التكرار



الرتيب لموضوعات طرقت أو مماشاة التقليد، أو مجرد إتاحة الفرصة لآراء تعرض كيفما كان، وإنما تهدف قبل كل شيء إلى اختيار قضايا فكرية حيوية هي مثار للجدل والنقاش أو أنها ترمي بالاستناد إلى الوثائق والتحليل إلى اعادة النظر بالمسلمات التي تبنى عليها نظريات ومواقف شاعت وتكرست، أو نفض الغبار عن أحداث ووقائع طمست أو شوهت..

والمجلة تبدأ سلسلة ندواتها هذه بموضوع الدولة كر« الدولة العثمانية بين الاسلام والقومية ». وقد افتتح الاستاذ فاروق البربير، رئيس التحرير، الندوة مرحباً بالاخوة الذين ساهموا فيها وهم الدكتور معن زيادة رئيس قسم الفلسفة في الجامعة اللبنانية والدكتور وجيه كوثراني استاذ التاريخ فيها والدكتور رشيد الخالدي أستاذ التاريخ في الجامعة الأميركية، وأخيراً عرض رئيس التحرير المحاور الرئيسية التي يجب ان يتركز عليها البحث: —

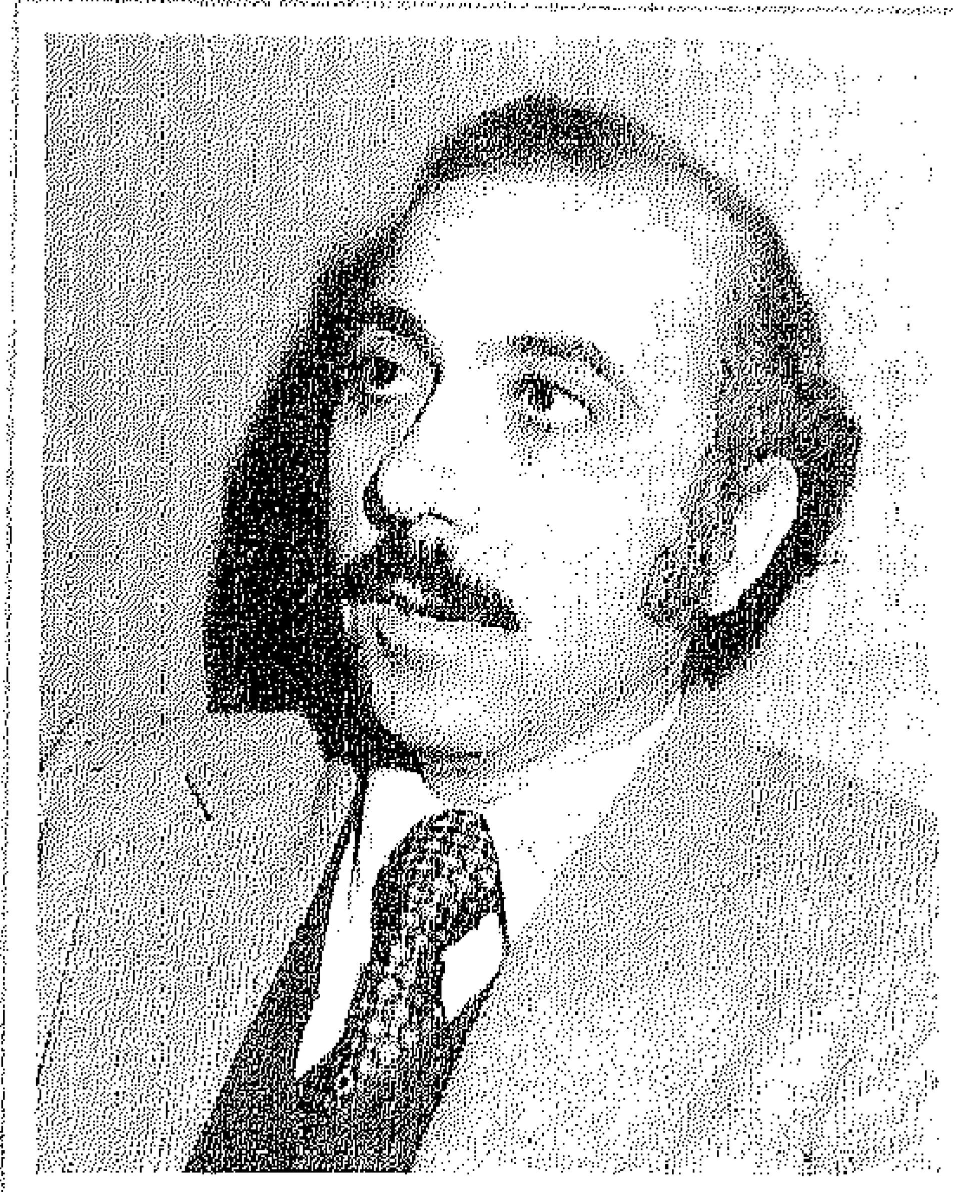
١ — طبيعة الدولة العثمانية وعلاقتها بخط الاستمرار التاريخي للدولة الاسلامية عموماً.

٢ — طبيعة الحكم العثماني من حيث تركيبه الاجتماعي وعلاقة الدولة المركزية بالأطراف (الولايات).

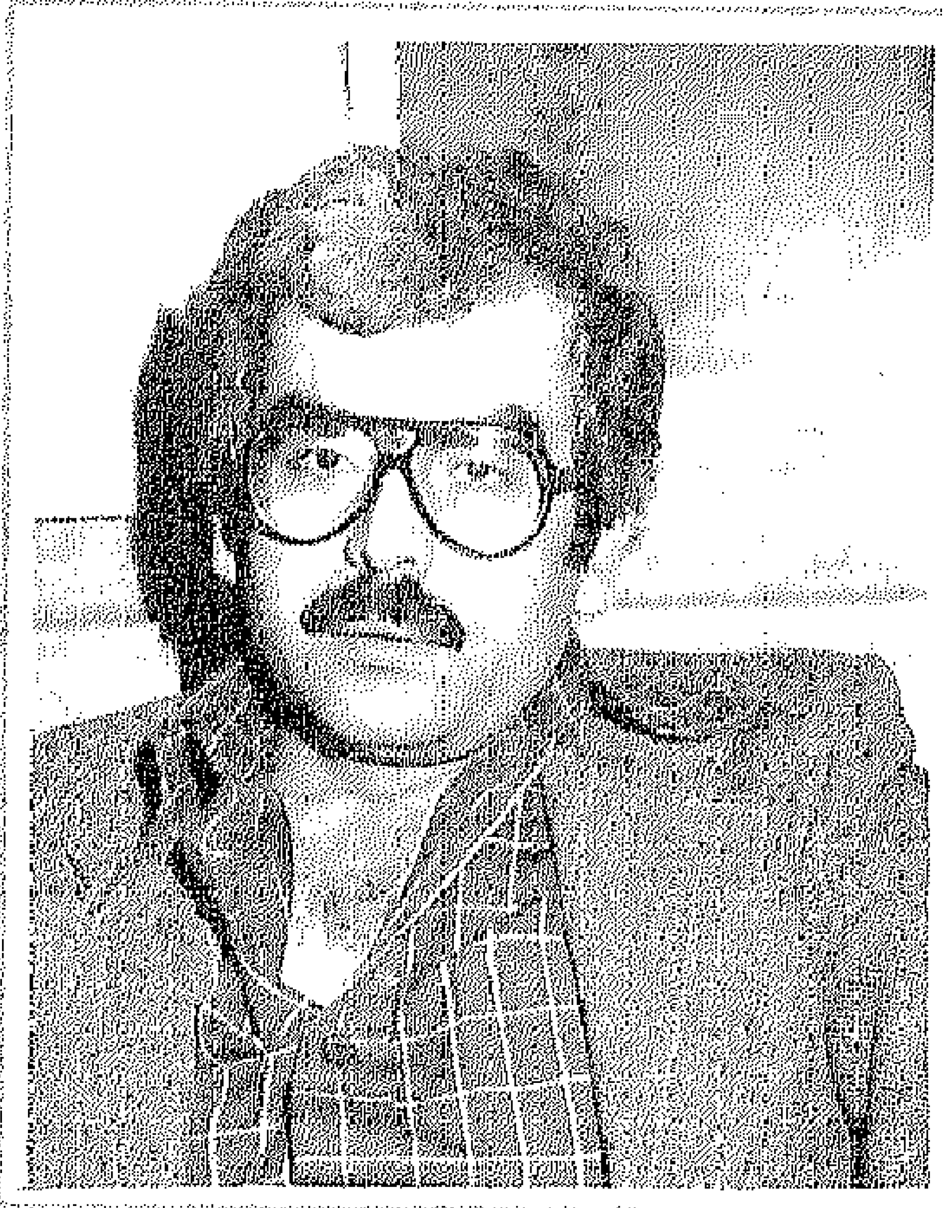
٣ — العلاقات العربية التركية وموقف العرب من نشأة الدولة العثمانية وفتوحاتها وإلحاقها للعالم العربي بمركز الحكم.

٤ — كيفية تفسير نشوء الأيديولوجيات القومية والطائفية وعلاقة ذلك بالتطور الذي مرت به الدولة العثمانية في علاقتها مع الغرب.

٥ — تقييم الانفصال بين العرب والاتراك، والاحتمال التاريخي البديل. وكيف تعقل الوحدة اليوم؟



د . معن زيادة



د . وجيه كوثراني

● من الملاحظ أن فترة العهد العثماني ليست مدروسة بامعان وموضوعية عند العرب. ربما لأنها اعتبرت مرحلة انحطاط وركود. واعتقد أن الضرورة تقتضي إذا أردنا أن نفهم حقيقة واقعنا الراهن بعد مضي فترة طويلة على انفكاك الوضع العربي عن السلطنة أن نعود إلى قراءة تاريخنا في بداية الحقبة الحديثة التي نعيش، وخاصة أن مفاهيم الوعي والنهضة والوحدة والقومية... بمقدار ما تولدت عن الاحتكاك بالغرب حسبما لاحظ العروي، فقد ارتبطت من جهة ثانية بالانفصال بين العرب والأتراك، إذا أردنا أن لا نقول تحرر العرب من السيطرة العثمانية. إذا أردنا أن نعود إلى هذه البداية كيف نفهم نظرة العرب لنشوء الدولة العثمانية، هل اعتبرت يومها استمرارا



للدولة الاسلامية التـي بدأت مع ظهـور الاسلام ؟

■ د . كوثراني : في الواقع يطل السـؤال على موضوعات واسعـة سأحـاول قدر الامـكان اختصارها :

إذا أردنا أن نفهم طبيعة الدولة العثمانية وهل هي شكل من أشكال استمرارية الدولة الاسلامية ، ينبغي العودة قليلا إلى الوراء ، إلى بداية تشكل الدولة الاسلامية والقواعد التي قام عليها هذا التشكل . ونحن إذا عدنا إلى مصادر معرفتنا (تاريخ معلومات ونظريات فقهية) وإذا استنجدنا بالماوردي وابن خلدون نلاحظ أن الدولة الاسلامية قامت في نظر الفقهاء على عصبية ترتكز إلى شريعة (تمثيل ديني) ، وأي سلطة بمعزل عن انتمائها الاتني أو القومي تستطيع أن تشكل عصبية غالبة وتمثل الشريعة يمكنها ، أن تقوم بمهمة الخليفة فتعتبر سلطة شرعية في نظر الاسلام . وقد شرع الماوردي للدولة السلجوقية « إمارة الاستيلاء » . فأمـير


د . رشيد الخالدي

الاستيلاء يقوم بمهمات الشرع الاسلامي ويكون أميراً شرعياً .

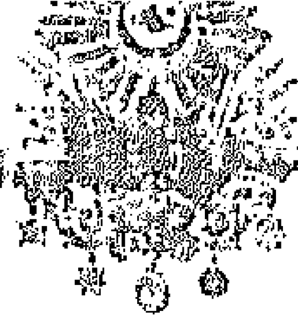
● **هل انتقال الخلافة إلى العثمانيين ، الذين ينتمون إلى إثنية جديدة هو استمرار أم انقطاع ؟**

■ **د . كوثراني :**

ليست الخلافة هي التي انتقلت ، وإنما السلطة . ذلك أن ثمة توزيعاً للسلطات في إطار الخلافة . وإمارة الاستيلاء أو السلطنة هي شكل من أشكال توزيع السلطة . لقد أصبح الخليفة في النهاية رمزاً ، ممثلا شرعياً ، يفوض (حسب الماوردي) هذه السلطات التي تبرر القيـام بمهمات السلطة والدولـة . ويعتبـر الأتـراك العثمانيون ضمن هذا الخط امتداداً للسلاجقة الذين هم من الأتراك أيضاً . وتدلنا المعلومات التاريخية العيانية على أن الاتراك كانوا يعملون لدى السلاجقة في وقت تلاشت فيه عصبية هؤلاء وصعدت عصبية الأتراك العثمانيين ملتفة حول بيت عثمان . وقد قامت هذه العصبية على قاعدة شرع لها الاسلام ، قاعدة الفتح وحماية الثغـور ... وعثمـان كان من أهـم الغـزاة المجاهدين الذين كانـوا على ثغـور الدولـة البيزنطية .. وهكذا فالدولة العثمانية نشأت من صميم الفقه الاسلامي الشرعي ، خاصة وأن الاسلام ليس ديناً قومياً أو اثنياً وهناك أحاديث وآيات كثيرة تؤكد على شموليته ، والواقع أن


الأستاذ
علي حرب

الاسلام عرف فترة وجيزة حكم من من خلالها العرب (العهد الأموي) وفيما بعد احتوى أقواماً وشعوباً غير عربية شاركت في السلطة في اطار صيغة فقهية وقانونية . وباختصـار فان الدولة العثمانية هي استمرار للدولة الاسلامية بعصبية غير عربية (بالمعنى الخلدوني) أي مشروع سلطة قائم على قوى اجتماعية معينة تتغلب على قوى أخـرى وتستتبعهـا . وأذكر



بالمناسبة نصاً لابن خلدون كتبه من وحي الدولة السلجوقية يعتبر فيه الأتراك من بناة الدول، في كتابه «تاريخ العرب والعجم والبربر...»

● **إن السؤال نفسه يوجه إلى الدكتور معن زيادة مع امكان توضيح عما اذا كان ثمة عنصر جديد قد دخل على دولة بني عثمان بعد انتقال الخلافة اليهم.**

■ **د. زيادة:**

قبل ان اجيب عن هذا السؤال أبدأ بنوع من المقدمة تتناول القضايا التي طرحت في البداية:

في الواقع عندما يتحدث العرب اليوم عن الدولة العثمانية فانهم في الغالب يتحدثون عنها لكنهم لم يعرفوها في نهايتها، اي في زمن عبد الحميد وجمال باشا. وهي الفترة التي ازداد فيها نقد العرب للأتراك. وحتى هذه الفترة الممتدة من بداية ولاية عبد الحميد ١٨٧٦ حتى نهاية الدولة العثمانية ١٩٢٢ فهي معروفة بشكل متقطع ومشوه اذا جاز التعبير. فالعرب وخصوصا المثقفون العرب، يعرفون الاحتدام الذي وقع بين عرب وترك ولكنهم لا يعرفون أن الدولة العثمانية كان لها أنصار حتى عام ١٩٠٨ وبعد ١٩٠٨ ويمكن ان نقدم بعض الأمثلة: مصطفى كامل زعيم الحزب الوطني المصري، كان من انصار بقاء الدولة العثمانية ومن مؤيدي موقف السلطان عبد الحميد مع البلقان، وله كراس في ذلك نشره في الفيغارو الفرنسية عام ١٩٠٣ بعنوان معبر هو: «اوروبا والاسلام». إذ الاسلام عند مصطفى كامل كما يبدو من مقاله هذا تمثله الدولة العثمانية. من هنا فانه اعتبر أن دعم هذه الدولة هو موقف مناسب للوقوف في وجه مطامع اوروبا. ويمكن ان نتحدث عن موقف سليمان البستاني الذي نشره في كتابه «عبرة وذكرى» (صدر عن دار الطليعة مؤخراً). وموقفه معبر لأنه يعني أن المارونية بجزء منها على الاقل كانت إلى جانب بقاء الدولة العثمانية. والشيء نفسه يقال عن أديب اسحق وغيرهما.

ويمكننا أن نستنتج من خلال كتاب عبد المسيح الانطاكي الشيء الكثير. فقد جمع الانطاكي في كتابه «نيل الأماني في الانقلاب العثماني» (١٩٠٨) جملة كبيرة من مقالات وكتابات المفكرين والكتاب العرب وفيها جميعها تأييد الانقلاب العثماني، حيث اعتقد العرب حسبما يستنتج من الكتاب وكذلك الترك أن ثورة تشبه الثورة الفرنسية قد جرت في اسطمبول فاستبشروا خيراً في اصلاح السلطنة. وما نستنتجه من جملة هذه المواقف أن المفكرين العرب حتى عام ١٩٠٨ كانوا مدافعين عن الدولة العثمانية وعن السلطان عبد الحميد - باستثناء نجيب العازوري بسبب اتصاله بالغرب والكواكبي بسبب العسف الذي لحق له - أما الذين قالوا ما قالوه فبعد ذهاب السلطان عبد الحميد وبتأييد أفكار الانقلابيين الذين تأثروا بأوروبا. طبعاً لا يهمنا هنا الدفاع عن عبد الحميد كشخص. غير أنه أمر له مغزاه بالنسبة لنا أن ينهي خير الدين التونسي حياته كوزير لعبد الحميد وكذلك أن ينهي الافغاني حياته في قصر السلطان العثماني. إذ أن الفكرة القومية كانت لا تزال ضعيفة عند مطلع القرن. ولكن تأييد الدولة العثمانية عند انصار الجماعة الاسلامية أو أنصار استمرار الخلافة لم يكن بالضرورة مناقضاً للدعوة القومية أو للعروبة بمعنى عام. لأن المسألة آنذاك لم تكن مطروحة على هذا المستوى. كما يمكن أن نقول اليوم أن الحماس للاسلام وللاسلامية لا يعني بالضرورة تناقضاً مع العروبة.

بعد هذا أعود للسؤال فأقول بأن الدولة العثمانية مثلت دولة الاسلام حتى القرن العشرين. ولفهم ذلك علينا الوقوف على مفهوم الدولة في الاسلام كما آل إليه في العصور المتأخرة أي القرون ١٦ و ١٧ و ١٨. وليس إلى عصر الراشدين كما تتم العودة إليه اليوم بكل سهولة وذلك بالقفز فوق التاريخ تاريخ خمسة عشر قرنا. لا شك بأن أبرز مفاهيم الدولة، كانت مفاهيم الماوردي الذي أشار إليه الزميل الدكتور وجيه وغيره، حيث يمكننا أن نقول بلغتنا المعاصرة: القبول بالأمر الواقع، وسلطان غشوم خير من فتنة تدوم. لكن السلطان العثماني عموما لم يكن غشوماً على الدوام إلا بمقدار ما كان استخدام السلطة في عصره يسمح له بذلك كما كان يسمح لأي ملك أوروبي بذلك. والواقع أن السلطان كان عملياً راعي الحرمين. إلا أن اهتمام السلاطين بذلك



كان ضئيلا ولم يتصاعد إلا عندما اشتد الصراع بين السلاطين واوروبا المسيحية. ولم يكن السلاطين من قبل بحاجة للتشديد على أمر مفروغ منه. وينبغي أن نشدد على دور العثمانيين الاسلامي لجهة أمور مجهولة إلى حد بعيد. فمن ناحية انتشر الاسلام مع العثمانيين في اوروبا وكذلك فانهم حموا لفترة طويلة الاسلام في الشمال الأفريقي. وقد اعتبروا أنفسهم حماة للاسلام قبل تبلور القومية التركية أو القومية العربية.، في وقت لم يكن قد نشأ فيه صراع بين عرب وترك. كما ينبغي أن نتذكر جيداً بأن العثمانيين لم يأخذوا السلطة من أيدي العرب بل أخذوها من المماليك. والذي حارب السلطان سليم عام ١٥١٦ هو قانصوه الغوري وليس أي أمير عربي. ولكن السلطان سليم ومن أتى بعده لم يعتبروا العرب محتلين ولم يعتبر العرب الأتراك جيش احتلال. بل على عكس من ذلك، فالشيء الثابت تاريخيا هو أن السلطان سليم وغيره أرادوا التعريب الأمر الذي يذكرنا بعبد الملك بن مروان الأموي، ولكنه لم يتم بسبب ضعف الجهاز الاداري. ويمكننا أن نخمن التبدلات التي كان يمكن أن تطرأ على مجرى التاريخ لو أن التعريب قد تم بالفعل. ويمكننا أن نضرب بعض الأمثلة: كاتب جلبي صنف ٢٢ مؤلفا كتب ٦ منها فقط في التركية وأشهر كتبه كشف الظنون كتبه بالعربية؛ منجم باشي، وهو أبرز المؤرخين الأتراك، توفي عام ١٧٠٢ وكتب تاريخه باللغة العربية وترجم إلى التركية في مطلع القرن العشرين.

والشيء الذي ينبغي التركيز عليه أن العرب لم يتناقضوا مع العثمانيين وإنما مع تركيا أتاتورك الذي اعتبر نفسه عدواً للعثمانيين أولا بأول قبل العرب. وخلاصة القول هنا أن العرب في بحثهم عن هويتهم قفزوا فوق التاريخ وأرجعوا تاريخهم إلى بني أمية وبني العباس وأهملوا فترة طويلة من تاريخهم على امتداد العهود السلجوقية والمملوكية والعثمانية. وهذا ما يجعل التاريخ العربي ناقصا حتى الآن. ولهذا نقول بأن العرب لم يعرفوا العثمانيين لأنهم لم يعتبروهم جزءاً من تاريخهم ولأن التاريخ العربي ما زال يكتب ايديولوجيا حتى الآن.

● **حسبما يفهم من عرض الدكتور معن أنه يوافق الدكتور وجيه على اعتبار الدولة العثمانية استمراراً للدولة الاسلامية. ولكن ثمة سؤال. لماذا هذا القفز فوق التاريخ المملوكي والعثماني، ولماذا يصر العرب على العودة للعهود السالفة. كيف نفسر ذلك وعن أية نظرة ينم هذا الموقف؟**

■ **د. خالدي:**

أظن أن السبب يرجع لأن التاريخ يكتب دائما في ضوء الحاضر الايديولوجي وفي ضوء الايديولوجيات القائمة. بالطبع إننا نعيش منذ ٦٠ أو ٧٠ سنة في العالم العربي في أجواء القومية العربية وأظن بكل وضوح أن هذا من أهم الأسباب. فالقومية كايديولوجية تحول الماضي! تغير الماضي وتعيد تفسيره وتحليله. وأظن أن سبب العملية التي تحدث عنها الدكتور معن هو سيطرة القومية العربية كايديولوجية على التاريخ العربي. طبعا هناك أسباب أخرى، ولكن أحد الأسباب نجده في الفترة الأخيرة من العهد العثماني وهي فترة عصيبة انتهت عام ١٩١٥ - ١٩١٦، بمشانق بيروت ودمشق. ولهذا السبب أيضا كان يكتب التاريخ العربي وكأنه هذه الفترة السوداء من تاريخنا وكأنه لا يمكن اعتباره من أمجاد العرب. طبعا لو كنا نكتب عام ١٩٠٠ لما تحدثنا عن أمجاد العرب بل أمجاد الاسلام. ولكن من الطبيعي حاليا أن نتكلم بهذا الشكل.

● **يجب أن نتحدث عن فترة الانقطاع أو الانفصال هذه. ماهي الأسباب التي جعلت العرب يفكرون بشكل متمايز ومغاير، ولماذا بدأوا «يعون» واقعهم القومي؟ وإلى أي مدى ارتبط ذلك بمحاولة التحرر من السيطرة التركية؟**

■ **د. كوثراني:**

في الحقيقة إني اتحفظ حول صيغة السؤال ذلك أن الحديث عن «تحرر من سيطرة تركية» إنما منطلق من مفاهيم لا تزال الايديولوجيا راسخة فيها. وهي صيغة ايديولوجية ارتبطت بمقاومة الأتراك. وينبغي برأيي النظر في مفاهيم عصر النهضة: هل كانت فعلا مرتبطة بمعاداة الأتراك أو النضال ضدهم؟ إن



البحث التاريخي الجاد الذي يدخل في التفاصيل ونبش المهمل يرينا العكس او يرينا صورة مشوهة عن التاريخ.

لقد اشار الدكتور معن الى بعض نماذج من عصر النهضة، البستاني، أديب اسحق، وهذه النماذج حاده فهي لم تعارض الدولة العثمانية مع أنها تنتمي إلى أقليات. وإذا أردنا أن نأخذ أمثلة من بين المسلمين تكون أكثر دلالة نرى أن النهضة لم ترتبط أبداً بالنضال ضد الأتراك نبدأ بالأفغاني الذي كان مجال عمله العالم العربي الاسلامي وإن لم يكن من أصل عربي، ثم محمد عبده ورشيد رضا وشكيب إرسلان .. صحيح أن كثيراً من المفكرين العرب تخلوا عن الدولة العثمانية في مرحلة التتريك. ولكن يجب أن لا تسحب هذه المرحلة على كل تاريخ الدولة العثمانية فهي تمتد من ١٩٠٩ – ١٩١٥ فقط. وبالتالي فان رموز النهضة الفعلية والمفاهيم التي انتجت قبل ذلك ارتبطت بمعاداة الغرب وليس بمعاداة الدولة العثمانية. وهنا تكمن الاشكالية أي حقل العلاقة بالغرب: هل نلتحق بالغرب أم نقاومه اذا ما أردنا أن نصل الى النهضة القومية بمعناها العام أي بمعناها الحضاري وليس بمعناها الضيق.

إن الذين مثلوا هذه النهضة الحضارية الثقافية والذين ينبغي أن يدرسوا من جديد وأن يرى خط التواصل بيننا وبينهم هم الأفغاني ورشيد رضا وشكيب أرسلان. ودراسة هؤلاء ترينا أن المسألة كانت مطروحة وإن بشكل متفاوت بهذه الصورة: كيف نقاوم الغرب؟ وكيف نحافظ على الاصالة؟ وهذا الخط المعادي للغرب والذي حاول أن يختار الأصالة في عملية الاستنهاض طمس وضرب. لماذا؟ لأن الدولة العثمانية كان قد اخترقها الغرب اختراقاً كاملا، فتفككت وتمزقت بفعل العوامل التي أتت بها الرأسمالية الغربية. فالاقطاع كان قد تقهقر واصبح اقطاعات أي أجزاء مفككة ومبعثرة، تنحو نحو الاقطاعات الانفصالية الغربية. والثقافة لم تعد موحدة ونظام الملل الذي كان متوازناً استقطبته بفعل الارساليات والامتيازات والوكالات والخانات الأجنبية ... فئات اجتماعية غير اسلامية أصبحت تقوم بدور وكلاء للغرب وأصبحت الملة تعني أمة (Nation) بلغة الاستشراق والدبلوماسية الغربية. وهكذا تفككت الدولة العثمانية بفعل التوسع الرأسمالي الى ايديولوجيات لا أقول قومية وانما قومية وطوائفية تتمثل الايديولوجية الغربية وتلبس القومية الاوروبية على واقعها. ومن الامثلة على ذلك المارونية السياسية الي حد كبير وغيرها من الأقليات غير الاسلامية التي بدأت تتعرف على واقعها كأقليات من خلال الايديولوجيا القومية. من هنا ينبغي اعادة النظر بنشوء القوميات.

● **إذا كان نشوء القومية يرد بشكل أساسي إلى الشرخ الذي أحدثه التوسع الأوروبي في جسم الدولة العثمانية، فهل معنى ذلك أنه لم يكن ثمة تناقض بين عرب وأتراك؟ أو أن العرب هم المسؤولون عن الانفصال؟**

■ **د. زيادة:**

أحب أن أعود إلى السؤال الذي طرح على الدكتور وجيه ومن ثم أعود إلى الاجابة عن السؤال المطروح أعلاه.

في الواقع إن المرحلة التي تحدث عنها الدكتور وجيه هي مرحلة مهملة بسبب طغيان الصورة التي قدمها الغرب عن السلاطين وخصوصاً السلطان عبد الحميد. وهذا ما جعل العرب لا يعرفون الدولة العثمانية ولا يعتبرونها جزءاً من تاريخهم كما ذكرت سابقاً. وإذا كان العرب عندما بدأوا الاتصال بأوروبا حاولوا أن يصروا على أن أسباب قرون الظلام مسؤول عنها الأتراك، فالواقع أن الأتراك لم يكونوا أكثر تخلفاً من العرب. إن ابن خلدون كمفسر لأسباب التدهور قد وجد من يهتم به من الأتراك حين نساه العرب في القرنين ١٧ و ١٨، وقد ترجمه إلى التركية بيري زادة (المتوفى عام ١٧٤٥) في مطلع القرن الثامن عشر قبل مئة سنة من اكتشاف الطهطاوي لابن خلدون عن طريق باريس وطبعه في بولاق للمقدمة في منتصف القرن التاسع عشر. وهنا يمكن الاشارة إلى أنه إذا كان اتصال العرب بأوروبا مظهراً من مظاهر التقدم، فقد تم هذا الاتصال عند العثمانيين قبل مئة سنة من اتصال العرب، وبالتالي فأن فكر الاصلاح كان سابقاً عند الأتراك. وهذه الأسباب هي التي أدت إلى تأثر العثمانيين بالنزعات القومية الأوروبية قبل تأثر العرب. نذكر ذلك لنقول أن نشوء الفكر القومي



على أنقاض الدولة العثمانية ليس واقعياً أو حقيقياً. بل على العكس إن فكرة القومية العربية قد نشأت في تناقض مع «تركيا الفتاة» بمساهمة العرب. وعداوة العرب في حينه كانت للذين قوضوا الدولة العثمانية. إذا كان التناقض بين العروبة والتركية وليس بين العروبة والعثمانية. بالتأكيد فان تفكيك الدولة العثمانية أثر إيجابياً في دعم فكرة العروبة. ذلك أنه إذا كان الأتراك قد اختاروا هم الانفصال فليس على العرب إلا القبول به والاستفادة منه. لكن هذا الأمر لم يتبلور إلا بعد نهاية الحرب الأولى. وقبل الحرب بقليل (١٩١١) كان العرب يخوضون حرب جهاد في ليبيا. هذه الحرب رفع رايتها السلطان وليس الشريف حسين. وعلى كل حال فان ليبيا لم تكن داخلة في خريطة الشريف حسين بعد الحرب الأولى. ولكن عندما أصبح التقسيم أمراً واقعاً فان أحداً لم يعد يطالب بعودة الدولة العثمانية وخاصة أن الأتراك عجلوا في نهايتها. ولكن المرحلة التالية كانت إلى حد بعيد مرحلة تخبط: دعوة سورية ومصرية ولبنانية، غير أن الدعوة العربية كانت تملك أساساً أقوى على أية حال بسبب عامل اللغة بشكل خاص.

● **إذا كان التوسع الأوروبي أو التتريك الذي هو أحد نتائجه، قد ساهم بنشوء الفكر القومي لدى العرب، فانه يجب أن تعود من جهة أخرى إلى بنية السلطنة العثمانية التي لم تكن قوية بما فيه الكفاية لكي تقاوم ذلك الحدث الهائل. لذا لا بد من التساؤل حيناً: كيف كانت العلاقات بين الأقليات والملل داخل الدولة العثمانية؟ ألم تشكل هذه العلاقات تربة خصبة لنشوء الايديولوجيات القومية والطائفية؟**

■ **د. خالدي:**

إنني أوافق الزميلين على رأييهما بأن الفترة الأخيرة من العهد العثماني كانت فترة مختلفة بصورة جذرية عما سبقها. صحيح أن هناك جذوراً لنشوء ايديولوجيا قومية (بنية الدولة العثمانية وتركيبها) ولكن اذا حللنا ٤٠٠ سنة من التاريخ العثماني نرى أنه قبل أواخر القرن ١٩ حدث تفكك في الدولة العثمانية من ناحية أوروبا (البلقان) وحدثت تمردات وثورات الأطراف العربية وحدث توسع واحتلالات (الجزائر، مصر، الخليج) قبل احتلال منطقتنا طبعاً، ولكن فترة عبد الحميد أو فترة تركيا الفتاة هي فترة قصيرة جداً بالنسبة للتاريخ العثماني بمجمله. وهذه الفترة شهدت تطورات يجب البحث عن جذورها في الفترة نفسها. صحيح هناك جذور للقومية العربية في أوائل القرن التاسع عشر، إلا أن أساس القومية العربية نجده في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. وإنني شخصياً لا أرى فيما يسمى النهضة جذوراً للقومية العربية لا اجتماعية ولا اقتصادية ولا ثقافية..

■ **د. زيادة:**

إلا من ناحية واحدة: إحياء عام للغة والثقافة في مواجهة الثقافة الغربية. بهذا المعنى يمكن الحديث عن جذور للقومية العربية ولكنها كايديولوجيةلم تظهر إلا في القرن العشرين.

● **كيف تفسر حركة محمد علي باشا في هذا السياق؟**

■ **د. خالدي:**

لا يمكن تفسيرها على أساس قومي إطلاقاً.

■ **د. زيادة:**

ثمة محاولات لاسقاط مقولات راهنة على تجربة محمد علي. وقد ساهمت هذه التجربة في ذلك لأنها حدثت المجتمع المصري ووضعت المجتمع العربي ككل على أبواب العصر الحديث، الأمر الذي مهد بصورة غير مباشرة لقبول العرب الايديولوجية القومية الآتية من الغرب، لكنه لم يكن يتصرف على أساس قومي لا هو ولا ابنه إبراهيم باشا كما يتخيل البعض، وبهذا المعنى يمكن القول بأن جذور الفكر القومي بدأت في القرن التاسع عشر، وتجدر الاشارة هنا إلى اللمحات الخفيفة التي نجدها عند الكواكبي.

■ **د. خالدي:**

صحيح أن محمد علي مهد لنشوء القومية ولكن بشكل سلبي. والواقع أن النتيجة النهائية لتجربته هي إدخال اوروبا بشكل أقوى وأضخم إلى المجتمعات العربية، طبعاً حدث هذا على رغم عنه. إن هدفه كان مختلفاً تماماً. فهو لم



يكن يريد إنشاء دولة عربية أو المساهمة في التدخل الأوروبي، بل على العكس من ذلك، كان يحاول مقاومة التدخل الأوروبي.

● **ما كانت لغة محمد علي إذاً؟**

■ **د. خالدي:** – كان ألبانيا.

– **المقصود لغته السياسية.**

■ **د. خالدي:**

إذا شئنا يمكن القول أن ابنه ابراهيم استغل بعض الأفكار القومية بشكل انتهازي. أظن أنه يجب الربط بين نشوء القومية العربية في أواخر القرن التاسع عشر بمعاداة التتريك، وطبعاً بظهور الأفكار الاوروبية في المجتمع العربي. ولكن هناك عملية كانت تتم داخل المجتمع العربي، وهي تطوير هذا المجتمع بطريقة أدت إلى ظهور شرائح وطبقات اجتماعية جديدة، ولن يظهر شيء مثل القومية قبل أن يتحول المجتمع ويتطور بهذا الشكل، ذلك أنه لا يمكن نشوء قومية بالمعنى الاوروبي في مجتمع تقليدي، إذا إردنا أن لا نقول إقطاعياً.

■ **د. كوثراني:**

شبه اقطاعي بالمعنى الوارد لدى الماوردي

■ **د. زيادة:**

شبه اقطاع لأنه عندما نقول: اقطاع يتبادر إلى الذهن المعنى الأوروبي.

■ **د. خالدي:**

والذي حصل قبل هذا المجتمع التقليدي لا يمكن اعتباره بداية نشوء القومية العربية. إن ظهور بعض الأفكار القومية وإحياء اللغة العربية وظهور أول بذور للقومية لدى بعض الفئات المتطورة بمعنى الفئات المتداخلة مع الغرب هو شيء وظهور القومية العربية في منتصف القرن التاسع عشر شيء آخر لا يمكن التكلم عنه.

■ **د. كوثراني:**

سأحاول طرح الموضوع من زاوية نظرية ابن خلدون في الدولة المركزية ودول الأطراف. وهو يفسر هنا كيف ينشأ الانفصال، أي كيف تنشأ الدول البديلة في الدولة الاسلامية.

إن نظرية ابن خلدون تقول بامكان نشوء دولة أطراف ودولة دعاة وخوارج، أي خوارج عن الدولة المركزية: فعصبية دولة الاطراف تكون متواضعة. فهي لا تطالب بسلطة المركز، وإنما تطالب بأن يعترف بها بمعنى أن صاحب هذه العصبية يطالب بأن يقر على ولايته أو مقاطعته شرط أن يعترف بالسلطان. ولكن قد تكون هذه العصبية قوية تحمل دعوة دينية تطرح شرعية السلطة المركزية، أي تطرح نفسها بديلا لها، إن هذه النظرية تكشف لنا عن أوالية الصراعات ونشوء الدول وظهورها وزوالها في تاريخ الدولة العربية الاسلامية وفي تاريخ الدولة العثمانية. لذلك نميز انطلاقاً من هذه النظرية بين نوعين من الحركات التي كانت معادية لاسطمبول:

– الحركات التي تتحكم بها قوانين الداخل في العصبية والشريعة.

– الحركات التي تتحكم بها قوانين الخارج: الغرب وأثره.

ومعظم حركات الولاة والأمراء التي كانت تنحو نحو نشوء دويلات أطراف تتحكم فيها قوانين الداخل. وتركيبة الدولة العثمانية تسمح ببروز السلطات المحلية..

■ **د. خالدي:**

كالولايات العربية.

■ **د. كوثراني:**

تماماً، لأن السلطة المركزة منتشرة عبر العنصر الحاكم الذي كان يتعامل مع السلطات المحلية كما كانت تقدم نفسها، أي عبر الأمراء والباشوات المحليين، فيجرى نوع من العقد الاستتباعي بين سلطة الأطراف وسلطة المركز. وهذا العقد يخضع للمد والجزر. قد يقوى وقد يضعف. هذا وضع معظم الامارات التي كانت تصطدم بالمركز بمن يمثله. لكن هناك دعوات تحمل مشروع سلطة بديلة، كالحركة الوهابية التي هي معادية للأتراك ولا علاقة لها بالغرب، فكيف نفهم هذه الحركة؟ نفهمها على أساس عصبية قبلية (المعنى الخلدوني) حاملة ايديولوجية استصلاح الدين، باعتبار أن الأتراك انحرفوا عن الاسلام ولم يعودوا يمثلون الشريعة. فالحركة الوهابية هي مشروع سلطة اسلامية بديلة للسلطة العثمانية قائمة على عصبية عربية، وكذلك حركة محمد علي باشا، التي ليست مشروع سلطة عربية وإنما قامت في بلد عربي هو مصر، بل هي مشروع قائم على عصبية عسكرية (ألبان، شراكسة).



وعبر هذه النواة قام محمد علي بتوسعه وجند القبائل والأطراف وطرح مشروعاً بديلا لدولة اسلامية. وحملة ابراهيم التي وصلت الى داخل الأناضول كانت تهدف إلى اسقاط اسطمبول ولو تم ذلك لتحولت السلطنة من عثمانية الى علوية مركزها القاهرة.

لكن الدول الأوروبية تدخلت فأحبطت المحاولة لأن مصالحها كانت تقضي باقامة نوع من توازن ضعيف في العالم الذي تسيطر عليه الدولة العثمانية. وقيام دولة قوية كالدولة التي كان بصدد تأسيسها محمد علي تصدع التوازن بين الدول الاوروبية وتحمل على إعادة النظر بكل أشكال التوسع الأوروبي في مناطق الدولة العثمانية. لذلك اجمعت الدول الأوروبية كلها على تحجيم محمد علي باشا (نشرت وثيقة بهذا الخصوص في مجلة «تاريخ العرب والعالم»، عدد ١٤). وما ينبغي ذكره هنا أن كلمة «مملكة عربية» وردت لأول مرة على لسان الدبلوماسية الغربية (النمساوية بالتخصيص) ولم ترد أبداً على لسان التوجه السياسي لمحمد علي. لذا فان ثمة ايديولوجية عربية استعادت كلام الدبلوماسية الغربية حول المملكة العربية والامبراطورية العربية. اذن ليس كل مطلب في السلطة المركزية وإن صدر عن عربي هو مطلب قومي، ذلك أن الصراع ما بين الأقوام في الاسلام هو صراع قديم تتحكم به قوانين الداخل قوانين المجتمع القائم والصراعات بين الملل والحرف وغيرها من المؤسسات والتنظيمات التي لم تدرس دراسة علمية. لكن من الذي يتحكم في النهاية في سيرورة التاريخ قوانين الداخل أم الخارج؟ قبل تمكن الغزو الاوروبي بكل جوانبه كانت قوانين الداخل هي التي تتحكم. وبمجرد دخول الرأسمالية تمفصلت على النماذج التقليدية وبدأ الصراع ينحو نحواً لا تتحكم به قوانين الداخل، بل القوى الاستعمارية.

■ **د. زيادة:**

أحب أن أعود إلى نظرية ابن خلدون، فأعلق على قضية واحدة خلاصتها أن الوهابية عندما كانت تدعو إلى دولة اسلامية كان هناك قضية وهي العودة بالعرب إلى رأس السلطة. وبالنسبة لابن خلدون فانه لم يتطرق لمحاولة من هذا النوع أعني استرداد مركز الصدارة. إن نظرية ابن خلدون صحيحة بالنسبة لتفسير الحضارات: الحضارة مظلة على رأسها دولة مركزية حولها أطراف ذات انتماءات عصبية مختلفة. ومن جهة أخرى فان الأمر يختلف بالنسبة لمحمد علي لأنه على عكس الوهابية لم يكن يسعى لاسترداد السلطة، بل كان طرفاً يسعى لأن يكون هو مركز الرئاسة والسلطة.

● **من المعلوم أن نظرية ابن خلدون تتناول العلاقات بين عصبيات وليس بين اثنيات وجماعات قومية؛ فكيف يمكن تطبيق هذه النظرية على مراحل لاحقة؟**

■ **د. كوثراني:**

لا تقتصر العصبية على المجال القبلي وإنما يمكن توسيع لتشمل مفهومها مجالات اجتماعية أخرى. فالجند يشكلون عصبية، ولابن خلدون رأي في ذلك ورد في المقدمة عندما يتحدث عن عصبية الجند والموالي. إن ابن خلدون يطلق تعبير العصبية على اللحمة التي تنشأ بين تجمع بشري، عند نشوء مشروع وصول للسلطة. وهنا اختلف قليلا عن الدكتور زيادة. لقد تحدث ابن خلدون أيضاً عن عصبيات ناشئة جديدة لا تطالب باسترداد حق، وإنما ينشأ لديها حق باستلام السلطة بسبب شعورها بأن لديها من القوة واللحمة ما يؤهلها لأن تطالب بالسلطة.

■ **د. زيادة:**

الوهابية لم تكن سلطة ناشئة بمعنى الكلمة. فالوهابيون عندما تحدثوا عن الموضوع: (العودة إلى الأصول والسلف) فانهم قصدوا في ذلك عودة السلطة إلى مركزها القديم. أنا لا أنفي القول بامكانية نشوء عصبيات جديدة وإنما أريد القول أن الوهابية هي محاولة لاسترجاع عصبية قديمة.

■ **د. كوثراني:**

هذا صحيح على مستوى تبرير الحق، أي على المستوى الايديولوجي، وهذا ينطبق على محمد علي باشا. ونقطة الضعف عند محمد علي أنه ما حمل ايديولوجية دينية، بينما حملت الوهابية تبريراً شرعياً هو العودة الى الشريعة.

● **لقد حللنا العوامل (داخلية وخارجية) التي ساهمت بتفكيك السلطنة العثمانية بما هي رمز لوحدة اسلامية،**



ورأينا أن الايديولوجية القومية نشأت في هذا السياق. والآن كيف نقيم الانفصال الذي حصل من منظار الوحدة والتجزئة؟ وما هي حقيقة الفكرة القومية؟ وكيف نعقل الوحدة اليوم؟

■ **د. خالدي:**

في الواقع هذا سؤال واسع، وسائد في هذه المرحلة مع أنه لا يرتبط بالضرورة بموضوعنا، فهو سؤال مستقبلي أكثر من تاريخي. واذا بحثنا في تاريخ هذه الفترة بالذات عن بعض الأفكار والأدلة للجواب على السؤال رأينا أن القومية العربية والقومية التركية والقوميات الأخرى في الدولة العثمانية نشأت بسبب دوافع داخلية وخارجية: تفكك المجتمع العثماني بسبب تناقضاته الداخلية وبسبب تدخل قوى اقتصادية وسياسية وايديولوجية من الغرب، ورأينا أيضاً أن أساس هذه القوميات هو فرز عناصر اجتماعية جديدة لدى الأتراك والعرب. صحيح أن العرب قبل ١٩٠٨ كانوا مؤيدين للسلطنة العثمانية كما قال د. زيادة. ولكن من الملاحظ أن أهم عناصر المعارضة في البرلمان التركي ١٨٧٧ - ١٨٧٨ كانوا من النواب العرب الذين انتقم منهم عبد الحميد بحل البرلمان. ولكن ما حصل بعد ١٩٠٨ وبشكل خاص بعد حرب التتريك والذي يمكن اعتباره نوعا من تكوين دولة جديدة تمثل مصالح اجتماعية جديدة لدى الأتراك، هو تطور حركة سياسية عربية كممثل سياسي لفئات ممثلة في المجتمع العربي. وما حصل ويحصل منذ هذه الفترة حتى الآن هو استمرار لتطوير هذه الفئات الاجتماعية الجديدة صاحبة الأفكار القومية في المجتمعات العربية وكذلك لدى الأتراك.

وبالنسبة لمسألة الوحدة أظن أنها تتوقف أولا على استكمال هذه العملية. وحتى الآن فهي لم تستكمل طرازاً جديداً للمجتمع العربي. إننا في مرحلة انتقالية استمرت أكثر من ستين سنة.

■ **د. زيادة:**

ألم نتقدم؟!

■ **د. خالدي:**

بلى تقدمنا كثيراً. وليس معنى ذلك أنه لم يتغير شيء منذ ١٩١٦. طبعا نأتي هنا لمسألة ايران. ولكن ما أظنه أن القومية كانت ايديولوجية فترة هيمنة فئة معينة على المجتمع العربي. وقد أصبحنا على وشك الانتهاء من هذه الفترة. وهذا ليس تنبؤاً وإنما هو نوع من تحليل للواقع. ونحن نرى من حولنا ما يدل على ذلك. ونرى أيضا عدم تطوير للايديولوجية القومية، وهذا شيء لم يحصل في الفترة الأولى من حياتنا. اذا نظرنا إلى ما قبل الحرب الأولى نرى أن هذه الايديولوجية كانت تتطور سنة بعد أخرى، من ١٩١٠ - ١٩١٤ في خطابات النواب العرب في «مجلس المبعوثان» وفي الصحف والمجلات والكتابات في القاهرة (رشيد رضا). وقد استمرت الفكرة القومية تتحدث وتتطور حتى الخمسينات باعتبار أنها الفكرة التي حملتها فئات اجتماعية جديدة. أما الآن فاننا على وشك الانتهاء من هذه الدورة وصولا إلى الثبات. طبعا تأتي هنا مسألة الارادة.

■ **د. زيادة:**

إن الحقبة التي نعيش فيها هي حقبة القوميات. ظهرت القوميات في اوروبا أولا ثم في العالم الثالث. فمع صعود البرجوازية حصلت معركة واضحة لتثبيت القوميات والحريات. فالثورة الفرنسية عندما كانت تخوض معركة الحريات فانها كانت تخوض معركة الوجود القومي وتأكيد الذات. هذا في مرحلة أولى. أما في مرحلة ثانية فان القوميات الاوروبية تحولت إلى قوميات مستعمرة بعد أن كانت تناضل في سبيل تقرير الشعوب لمصيرها. وما أريد قوله أن القومية ليست أمراً قديماً أعيد اكتشافه. وبالنسبة للقومية العربية فانها لم تكن موجودة في التاريخ، ولا يمكن القول بأن العرب كانوا أمة واحدة قبل الاسلام وبأن الاسلام أتى ليؤكد هذه الواقعة، إن القومية العربية ظاهرة جديدة لا يمكن اسقاطها على الماضي. واذا كانت القومية الاوروبية تحولت الى قومية مستعمرة مع نهوض البورجوازية، فان ظهور القومية في العالم الثالث يختلف لأنه تأكيد الذات في مواجهة الغير كان الوجود القومي يتحقق من خلال المواجهة بين العالم النامي والغرب، بين الشمال والجنوب. والأتراك سبقوا العرب في



هذا المضمار. وهم الذين أنهوا وجود الدولة العثمانية قبل العرب، لأن دخولهم في الحقبة التاريخية الحديثة كان قبل دخول العرب. والواقع أننا ما زلنا بحاجة لتحديد طبيعة القومية في العالم الثالث. ومنها القومية العربية، وهذه قضية تحتاج إلى الكثير من البحث.

● **ما نريد ايضاحه هنا، الى أي مدى اكتسبت القومية العربية تاريخيتها؟**

■ **د. زيادة:**

اذا استعنا بمقولات غربية استخدمنا كلمة أمة ليس بالمعنى الذي نجده عند ساطع الحصري والذي أصبح متعارفاً عليه وهو أن:

«الأمة هي وجود متميز لمجموعة من الناس»، أقول اذا استخدمنا المقولات الأوروبية نجد أن الأمة ليست هذا الوجود المتميز. وأنما هي سلطة الدولة القومية، السلطة السياسية الواحدة. وبهذا المعنى لا وجود لأمة عربية لأن سلطة القومية غير موجودة (مع اصراري على ضرورة أن القومية عندنا متميزة عن القومية الاوروبية في وقتنا الحالي)، وانما ما زالت الأمة في طور التكون. وهذه الأمة تصنع عبر الارادة المشتركة والمصلحة المشتركة فنحن لنا مصلحة مشتركة في هذا الوجود الواحد. هناك عوامل لا تكفي وحدها لتكوين الأمة، كاللغة مثلا وما شابهها. إذا أردنا أن لا نقع في الفخ الذي وقع فيه الباحثون القوميون عندما قالوا: الامة العربية موجودة ولكن الوحدة العربية غير موجودة. ينبغي أن نستخدم المصطلحات بمعنى جديد. فالأمة العربية ما زالت في طور التكون كما قلنا، وهي تحتاج لكي تتحقق الى تركيبات وبنى تحتية ملائمة، فما زالت الايديولوجية القومية مقصورة على البنى الفوقية دون التحتية. وهنا يكمن سبب فشل تجربة الوحدة.

● **اذا كانت الجماهير لا تزال تعقل الوحدة من خلال المفهوم الاسلامي، وهو ما يبدو أنكم متفقون حوله، فما هو الأفق التاريخي أمام القومية؟ وما هو الاحتمال البديل؟**

□ **د. زيادة:**

القومية العربية لم تصل بعد إلى مرحلة التكامل. فالانتماءات السابقة من طائفة وقبيلة وعشيرة ودولة اسلامية تستمد شرعيتها أما من الشريعة أو من الولاءات المختلفة التي أشرت إليها. وفقط في القرن العشرين دخلنا في دول ذات شرعية جديدة: الرغبة في العيش المشترك المبني على عوامل أو ما يسمى المقومات القومية التي تحتاج إلى دراسة. لقد خدمت الفكرة القومية ولكنها لم تصبح حقيقة نهائية. إن فترة ٥٠ سنة غير كافية لتكون القومية. هذه آراء قد تبدو مستغربة عند القوميين العرب، رغم أنها في مصلحة القومية والفكر القومي.

■ **د. كوثراني:**

سأنطلق في الاجابة على السؤال مما وصل إليه الزميلان: إن الايديولوجيا تنتج. فما هي القوى الاجتماعية التيانتجت القومية

وانطلاقا من تحديد موقع هذه القوى الاجتماعية في المجتمع نرى عما اذا كانت هذه الايديولوجيا قوية ومعبئة وحاسمة أو ضيقة وفئوية ومحلية واعتقد بصراحة أنه في مرحلة الهجمة الاستعمارية على الدولة العثمانية كانت الايديولوجيا القومية من نتاج قوى اجتماعية التحقت بالغرب ثقافيا واقتصادياً وسياسياً.. وما انتج على يد مثقفين علمانيين انبهروا بالغرب انبهاراً كاملا من مقولات وأفكار - عن قصد أو غير قصد - إنما كان يعبر عن اتجاه عام يصب في النهاية في موقف سياسي حملته قوى اجتماعية ارتبطت بأعيان المدن وتجار المدن وانخرطت بشبكة التبادل مع الغرب. وهذا الموقف كان يصب في عملية تفكيك الدولة العثمانية لتجزئتها الى ممالك اقليمية وإمارات طائفية، ومن هنا ساهمت الايديولوجية القومية قبل الاحتلالات المباشرة في تسهيل القبضة الغربية على الشرق الاسلامي، ولو نشأت كرد على محاولات التتريك.

وبعد التجزئة الاقليمية والطوائفية بدأت تنتج عبر قوى اجتماعية مختلفة أو من بقايا القوى الاجتماعية السابقة، ايديولوجية قومية تصارع الاستعمار حول الارضية نفسها التي أوجدها هذا الاستعمار في مرحلة التتريك

لقد انتجت ايديولوجيا قومية معادية للاستعمار، ولكن ضمن حدود ما أسميه بناء السلطة الداخلية، الادارة المحلية، بناء الدولة وفقا للنموذج الغربي وضمن حدود التجزئة



النسبية .

وحتى نحاكم الدور التاريخي للفئات التي انتجت الايديولوجيا القومية يجب أن نرى إلى حد كانت قادرة غبر مصالحها وطموحاتها على أن توحد مجموعة واسعة ضمن اطار امة . وما حصل أن هذه القوى الاجتماعية خاضت نضالا ضد الاستعمار ولكنه محدود بحدود مصالحها الفئوية وبطموحاتها المحدودة . ولم تتحول إلى ايديولوجيا شعبية كما أشار الدكتور معن .

● **ماذا تمثل الناصرية بهذا الصدد ؟**

■ **د . كوثراني :**

تمثل الناصرية جانباً من معركة شعوب المنطقة ضد السيطرة الاستعمارية المباشرة . وبالتالي فان أي مشروع يناهض الغرب ويقاوم العدو القاهر والمستبد والمشوه للشخصية ، تقف الجماهير الى جانبه . فالجماهير كانت مع عبد الناصر ليس لأنه قدم شعار العروبة (ظل شعار العروبة في فلسفة الثورة غائماً حيث يبدو عبد الناصر اسلامياً أكثر منه عربياً) ، ولم تتبلور مفاهيم القومية عنده حتى عام ١٩٦١ وانما لأنه قرر مواجهة الغرب الاستعماري وخاض معارك حادة معه .

والواقع أن مفهوم الأمة عند الشعب لم يكن منظراً له : إن شعار من المحيط إلى الخليج كان شعاراً صاغه مثقفون والأمة (بالمعنى الذي يتصوره الجماهير) هي وحدة شعوب تؤمن بنفس العقيدة والأفكار والقيم . وهي التي حطمها الغرب وشوهها . وأي معركة مع الغرب تستعاد عبرها الشخصية الوطنية الذاتية الحضارية هي المعركة التي تلتف حولها الجماهير وتؤيدها .

من هنا ننطلق لنقول بأن الايديولوجيا القومية ليست حقيقة ثابتة وقائمة بذاتها ولها أسسها النظرية ؛ إنها تمثل لقوى اجتماعية . والقوى التي حكمت باسم القومية أصبحت قوى اقليمية وتستخدم الايديولوجيا القومية لتثبيت المواقع الاقليمية . ومن هنا ينبغي اعطاء مفهوم آخر للقومية . فأنا أرى أن القومية هي تعرف على الذات الحضارية من خلال رفض التشويه ومصدر التشويه . وبمعنى آخر إني أعطي القومية معنى شمولياً لدرجة اعتبر معها أن الثورة الايرانية هي رد قومي بالمعنى الشرقي للكلمة ، أي الشرق الذي هزمه الغرب وشوه حضارته وثقافته ونفاه ، وكأنه لانموذج حضارياً الا النموذج الغربي . فأي ثورة تصدر عن هذا العالم المنفي – بالنسبة للغرب – أجد فيها نموذجاً للتعرف على الذات . وهنا يدخل عنصر الاسلام بشكل مهم وأساسي وموحد وفاعل في عملية التعرف على الشخصية القومية (عربية كانت أو تركية أو ايرانية) التي يؤطرها بوحدة ثقافية شاملة . ينبغي الآن البحث عن الأشكال الثقافية في عملية التصدي للعدو الأساسي وأي معطى (لغة ، عبادات ، دين ...) يجب أن يوظف في إطار خوض المعركة مع هذا العدو الذي جزأ الشخصية وفككها وقهرها . ■



● إذا لم تنجح أول مرة فحاول ثم حاول ثانية . ثم تخل عن محاولاتك نهائيا .. فلا فائدة من أن تصبح غبيا بعد هذا كله .

(و.س. فيلدز)

● إنكم لا تشرعون القوانين ، ولكنكم تتعهدونها بالرعاية .

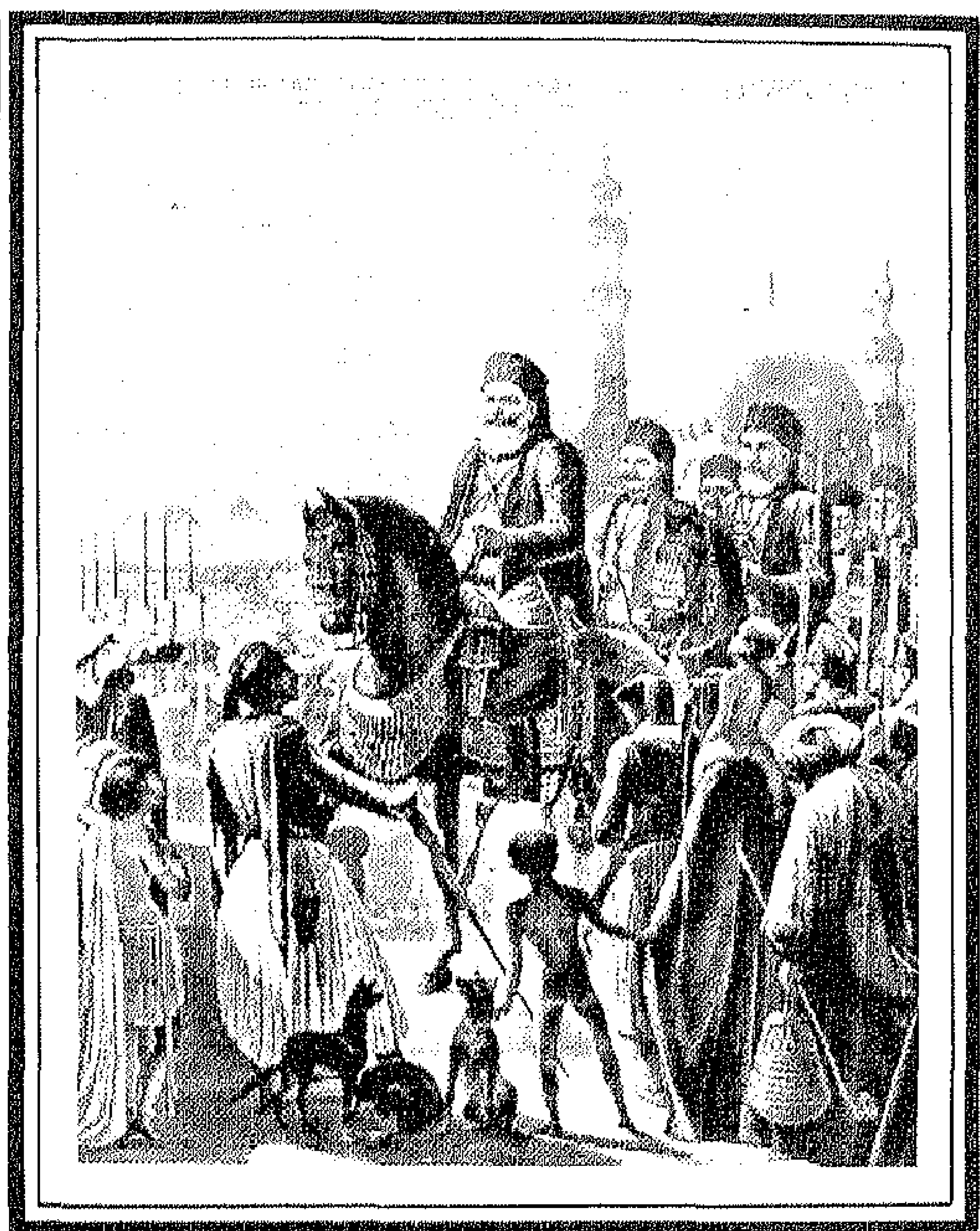
(فنسنت مكدونالد)

● الأحمق شخص يحرمك من الوحدة دون أن يمتعك بالصحبة .

(جيان فنسنزو جراميتا)



سياسة مصر واستراتيجيتها في البحر الأحمر على عهد الحملة الفرنسية ومحمد علي


محمد علي باشا (للفنان هيمل)

أ. د. أحمد عزت عبد الكريم



لم تكن ظروف العصر العثماني مهيأة لقيام نشاط كبير في البحر الأحمر ذلك أن الدولة العثمانية بعد أن أوقفت حركة التوسع والفتوحات التي قامت بها في القرن السادس عشر - استطاعت على نحو ما أن تؤمن البحر الأحمر من التوغل البرتغالي، وان كانت لم تستطع أن تحطم المشروعات البرتغالية في البحار الشرقية الرامية الى مطاردة تجارة المسلمين واحتكارها للبرتغاليين، وتركت هذه المهمة لدول أوروبية أخرى. بعد هذا رأت الدولة العثمانية - تأمينا لسلامة البحر الأحمر من التوغل الأوروبي، أن تأخذ بسياسة قفل المنافذ، بالعمل على منع السفن الأوروبية من اختراق البحر الأحمر وفي الوقت نفسه تمنع حكام البلاد الواقعة تحت نفوذها من أن يدخلوا في علاقات مع دول خارجية وان يمنعوا - بصفة عامة - التجارة والتجار الأوروبيين من استخدام هذا الطريق الحيوي الهام.

وبذلك ران على البحر الأحمر نوع من الركود واطمأنت الدولة العثمانية لذلك، اعتقاداً منها أن هذه هي خير طريقة لتأمين سلامة

* مدير جامعة عين شمس سابقا ومن كبار المؤرخين العرب المعاصرين.

البحر الأحمر. وفي أحد الفرمانات التي أصدرها السلطان العثماني لأحد بكوات المماليك في مصر جاءت هذه العبارة وتكاد تكون بالنص: انظروا الى ما فعله الانجليز في الهند حين نزلوا فيها في أول الأمر كتجار، ثم ما لبثوا أن تحولوا الى مستعمرين وحكام بالاضافة الى أن اضطراب الأمن في هذه البلاد كان يحول دون أن يقدم التجار على التوغل بسفنهم في البحر الأحمر أو نقل متاجرهم عن هذا الطريق حتى ميناء السويس، فظلوا يبحرون حتى مخا ثغر اليمن، او جده ثغر الحجاز. وظل الوضع على هذا النحو رغم المحاولات التي جرت في النصف الثاني من القرن الثامن عشر اذ عقد بعض أمراء المماليك معاهدات مع شركة الهند الشرقية أشهرها معاهدة هيستنجز - أبو الذهب لتشجيع السفن التجارية الآتية من الهند للوصول حتى موانى البحر الأحمر: القصير أو السويس، ولكن لم تفلح هذه المشروعات - بصفة عامة - لفتح هذا الطريق بسبب معارضة الدولة العثمانية واضطراب الأمن، واعتماد الانجليز - بصفة خاصة - على الطريق البحري المباشر بين الشرق والغرب، وهو طريق رأس الرجاء الصالح.

مشاريع فرنسا في مصر:

غير أن فرنسا لم تقطع الأمل: ففي اكتوبر ١٧٩٥ أوفدت الى القاهرة (Dubois - Thanville) ليسعى لدى الأمراء المماليك للاستئذان بقيام تجارة منتظمة بين الهند والسويس. وقيل أن الفرنسيين كانوا يفكرون كذلك في أن يطلبوا الترخيص بمرور جيش فرنسي في مصر الى الهند لمساعدة تنبو صاحب سلطان ميسور، الثائر على الحكم البريطاني. وبعد ثلاث سنوات من هذه البعثة، اتيح لفرنسا أن تشرف بنفسها على تحقيق أغراضها.

ففي جميع المشروعات التي قدمت الى الحكومة الفرنسية لفتح مصر، تظهر أهمية البحر الأحمر كطريق هام للتجارة الشرقية، يستطيع أن ينافس طريق الرأس الذي تحتكره انجلترا منافسة ناجحة، وكطريق تستطيع فرنسا أن تنفذ منه الى الهند فتديل من الحكم البريطاني وتبسط نفوذ فرنسا في الشرق. ثم يعمل - الفرنسيون - حين يصبح البحر



نابليون

الأحمر تحت سيادتهم - على تيسير النقل فيه، بتنفيذ المشروع الذي طالما استهوى الباب المستغلين بمسائل التجارة الشرقية والاستعمار في الشرق: وهو مشروع شق قناة بين البحرين الأحمر والمتوسط. وقد حشد له بونابرت الجهود، فكون لجنة على رأسها المهندس «لوبير» (Lepere) وعهد اليها بدراسة المشروع، وانفذها عدة مرات الى سواحل البحرين وما بينهما من برزخ. وقد وجد بونابرت - على كثرة مشاغله - من وقته متسعا ليصحب اللجنة في بعض جولاتها. واستغرقت أعمال البحث عام ١٧٩٩ ما عدا بضعة أشهر منه. وقد وضع «لوبير» تصميما لحفر ترعة من السويس الى البحيرات المرة، ثم يعاد حفر الخليج القديم المعروف بخليج أمير المؤمنين الى أن يلتقي ببحر مويس بقرب تل بسطة من أعمال الشرقية، ومن بحر مويس تمتد الترعة حتى فرع دمياط ومنه الى فرع رشيد ثم الى الاسكندرية بواسطة ترعة الاسكندرية.

كما أن «لوبير» وضع مشروعا آخر يعد جديداً لأنه يختلف عن الترع القديمة التي كانت تربط البحرين بواسطة فرع النيل الشرقي: وهو مشروع وصل البحرين رأسا، وذلك بحفر ترعة تخترق برزخ السويس فيما بين بيلوز (مكان بورسعيد الحالية) على البحر المتوسط، والسويس على البحر الأحمر. غير أن تقديراته انتهت به الى تأييد فكرة خاطئة، وهي ان البحر الأحمر يعلو على سطح البحر المتوسط بنحو تسعة أمتار (٣٢,٥ قدما) لهذا خيف اذا حفرت القناة أن تغرق مياه البحر الأحمر أرض الدلتا والحق أن الوقت لم يتسع

للفرنسيين في مصر لاصلاح هذا التقدير الذي ظل مسلماً به حتى أصلحه المهندسون في عهد محمد علي .

ولقد كان طبيعياً أن يحتل البحر الأحمر جانباً كبيراً من اهتمام الفرنسيين ، وخاصة بعد أن فرض عليهم الانجليز حصاراً من جهة البحر المتوسط ليحولوا بينهم وبين الاتصال بالوطن الأم فلم يكن أمامهم بذلك لمحاولة الانطلاق من مصر سوى طريقين : طريق الشام في اتجاه القسطنطينية ، وطريق البحر الأحمر في اتجاه الهند . واذا كان الجيش الفرنسي الزاحف الى بلاد الشام قد استعصى عليه فتح عكا ثم ارتد الى مصر ، فكذلك كان طريق البحر الأحمر : ارسل بونابرت عدة رسائل الى بعض أمراء العرب في الحجاز ومسقط وغيرهما للتبشير بنفوذ فرنسا والتمهيد لما قيل عن استعداد حملة فرنسية كبيرة للخروج لغزو الهند .

ولكن هذا كله لم يفلح إلا في اثارة اهتمام البحرية الانجليزية الهندية بالبحار الشرقية وسعيها الى الاستيلاء على المنافذ الجنوبية للبحر الأحمر لقفل الطريق أمام أي محاولة فرنسية كما أنهم عقدوا معاهدة صداقة وتجارة مع أمير لحج ليسبقوا الفرنسيين الى بسط نفوذهم في هذه المناطق العربية .

أما الانجليز فلم يحفلوا كثيراً بالأثر الذي قد يكون لوجود الفرنسيين بمصر على تجارة الشرق طالما بقي في أيديهم طريق الرأس وتحولت متاجرهم القليلة التي كانت تتردد من وقت الى آخر على السويس الى الطريق البري الآخر عبر سوريا وأرض الجزيرة ثم الخليج العربي والهند ولكن الانجليز – مع هذا – ادركوا الخطر من محاولة الفرنسيين الاتصال بالهند فتراهم يعملون ليحولوا دون وصول قوة حربية فرنسية الى الهند عن طريق البحر الاحمر ، باحتلال بريم وعدن عند مدخل البحر الاحمر كما انهم يرسلون من الهند الى البحر الاحمر والقصير قوة بحرية وبرية للاشتراك مع القوات البريطانية التي نزلت من البحر المتوسط لاخراج الفرنسيين من مصر .

وعلى الرغم من أن (قوة) البحر الأحمر لم تشترك فعلا في القتال ، الا أن ارسالها من الهند عن هذا الطريق أمر له دلالته ، اذ يظهر الارتباط الذي بدأ يوجد بين مصر والممتلكات البريطانية في الشرق عن طريق البحر الأحمر .

وظل هذا الارتباط من القواعد الجوهرية في سياسة بريطانيا في الشرق وقد زاده قوة شق قناة السويس .

سياسة محمد علي الانفتاحية

ولأجل أن نفهم سياسة مصر واستراتيجيتها في البحر الأحمر في عصر محمد علي ، يجب أن نربط بين هذه السياسة وسياسة محمد على العامة في وصل ما بين مصر والعالم الخارجي ، فقد كانت سياسة محمد علي مخالفة مخالفة تماماً لسياسة الدولة العثمانية في القرن الثامن عشر ، فرأى أن خير ما فعله لتنمية مصر ووضعها في مركزها اللائق بها في المنطقة وفي البحر المتوسط وفي العالم ، أن يفتح الطرق والمسالك ما بينها وبين العالم الخارجي ، ليس فقط في الأمور الاقتصادية ، وإنما – أيضاً – في الشئون الثقافية وغيرها . لهذا كون البحر الأحمر جانباً كبيراً وهاماً من سياسة مصر الانفتاحية في عصر محمد علي . واعتقد أن محمد علي اطلع على المعاهدات التي كانت قد عقدت بين بعض الأمراء المصريين – في أواخر القرن الثامن عشر – وبين بعض الحكام الانجليز في الهند وهي المعاهدات التي شجعت على ارسال سفن الى السويس وموانئ البحر الأحمر ، وعلم بما كان من أمر بعض هذه السفن التي حال اضطراب الأمن والسياسة الانعزالية للدولة العثمانية دون ارتيادها هذا الطريق .

ولكن في عصر محمد علي وقد عم الأمن من ناحية ، وتبدلت سياسة الدولة من ناحية أخرى ، فقد كان من المنتظر أن يفتح هذا الطريق . وبالفعل عمل محمد علي على تشجيع استخدام طريق البحر الأحمر لتجارة الشرق والغرب فعقد اتفاقات مع شركة الهند الشرقية ، وشجعهم على ارسال البضائع والمسافرين الى السويس .

ومما ساعد على رواج هذا المشروع الكبير أن البخار كان قد بدأ يستخدم في تسيير السفن في السنوات الأولى من القرن الماضي ، وبذلك أمكن بناء سفن ضخمة ونشطت حركة النقل . وكان طبيعيا أن يتجه الجهد أولا الى استخدام السفن البخارية في الطريق (البريطاني) طريق الرأس . ففي ١٦ اغسطس ١٨٢٥ أقلعت الباخرة (Enterprize) من انجلترا فوصلت كلكتا بعد ١١٣ يوماً ، وعلى الرغم من طول



محمد علي باشا والصناعة الحربية (صورة فرنسية)

الرحلة ومشقتها فقد أصرت شركة الهند الشرقية على استخدام هذا الطريق. ولكن حكومة بومباي كانت ترى المستقبل لطريق البحر الأحمر، فعملت على إقامة مخازن في موانيه: عدن وجدة والقصير والسويس، لتتزود منها السفن التجارية بحاجتها من الوقود. وكانت مخاطر الرحلة في مصر قد زالت بفضل محمد علي الذي ضرب على أيدي العابثين بالأمن من البدو وغيرهم، وشجع على أن تأتي الى الموانيء المصرية تجارة الشرق فيصيب منها الايراد ويكسب تقدير الدوائر البريطانية.

ولم يثبط من عزيمة حكومة بومباي اخفاق أول سفينة بخارية في اكمال الرحلة الى السويس، فبنت سفينة جديدة دعتها (Hugh Lindsay) وأقلعت من بومباي في ٢٠ مارس ١٨٣٠ فوصلت السويس بسلام في ٢٢ أبريل، فكانت بذلك أول سفينة بخارية تجتاز البحر الأحمر. وشجع نجاح الرحلة على الرغم من تكاليفها الباهظة - حكومة الهند على أن تواصل ارسال سفن بخارية الى السويس في فترات متقطعة، وأدخلت تحسينات عدة. وبذل توماس وجهورن التاجر البريطاني الذي أقام مدة طويلة بالقاهرة - جهده في انجلترا والهند لانشاء خط منتظم للملاحة البخارية بين انجلترا والهند عن طريق البحر الأحمر. وأثمرت هذه الجهود ثمرها، فأرسلت البعثات لبحث سواحل البحر الأحمر والكشف عما كان مجهولا منها، ووضعت خرائط مفصلة لها، واقيمت المخازن للفحم، ودخل الانجليز في مفاوضات مع الامراء الوطنيين على سواحل بلاد العرب، واحتلوا سقطرة في عام ١٨٣٥، ثم عدن في يناير ١٨٣٩، ونظمت رحلات شهرية بين الهند والسويس.

وفي مصر، نظم وجهورن قوافل من الابل للخدمة بانتظام بين السويس والقاهرة. وقد صادف في القاهرة منافسين له من بني جلدته هما: (Ravin & Hill) اللذين أقاما في القاهرة وبنيا فيها فندقا لنزول المسافرين، وتعهدا بنقل الركاب ومتاعهم بين القاهرة والسويس في عربات خاصة بالمسافرين وأخرى بالبضائع، وشرعا في انشاء فندق بالسويس، وساهمت معهما لجنة للملاحة البخارية في بومباي في إقامة خمسة منازل للمسافرين في الصحراء احدها كبير في وسط الطريق به فندق ومحلات للخدم واسطبل.. الخ[1]. وقدر أن يقطع المسافر الطريق من السويس الى القاهرة في أربع وعشرين ساعة منها عشرون ساعة في السفر. وتوالت التحسينات فمد خط للتلغراف في

الصحراء، تم حفر ترعة المحمودية لتسير فيها سفن شراعية وبخارية، وتكونت شركة (Peninsular & Oriental Steam Navigation Co.) ومنحت في عام ١٨٤١ حق استخدام سفنها في النيل والمحمودية. وتضافر تقدم الالات البخارية وفن بناء السفن على تحسين وسائل الراحة للمسافرين وتقصير الشقة عليهم. وقد اريد أن تتوج هذه التسهيلات بانشاء خط حديدي من الاسكندرية الى السويس ماراً بالقاهرة. وعرض المشروع على محمد علي فعهد بدراسته الى مهندس انجليزي في خدمته يدعى جالوي بك (Galloway) وأراد محمد علي أن يطمئن الى أن هذا المشروع لن يتخذ يوماً ما ضد مصر، كما أنه أراد أن يستوثق من إيراده قبل الشروع في انشائه. وانقضت عشرون سنة قبل أن يتاح للمشروع أن يتحقق.

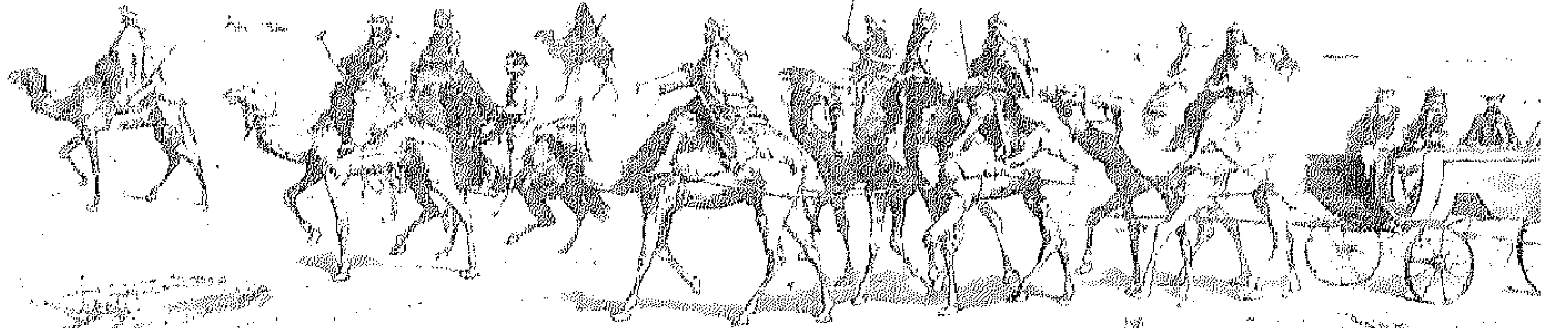
قلق محمد علي لترك هذا النشاط التجاري في داخل بلاده لهيئات أجنبية تحتكر الربح من ناحية وقد تستخدم وجودها لخدمة أغراض أخرى لا تمت الى التجارة والنقل من ناحية أخرى فعمل - تحقيقاً لخطته العامة في إشراف الدولة على جميع مرافق البلاد - على أن تشرف الحكومة المصرية على هذا النشاط، وقد تم هذا على مراحل: بدأ بتكوين شركة النقل المصرية (Egyptian Transit Co.) وعلى رأسها انجليزيان، وقد اشترت شركة هل وشركاه في سنة ١٨٤٣، وبعد ثلاث سنوات صفيت أعمال هذه الشركة بدورها وأصبحت مسائل النقل في داخل البلاد من اختصاص الحكومة فانشيء لها «مصلحة المرور» أو «الامرارية».

أما محمد علي، فقد عمل على تبديد مخاوف الانجليز بشأن قفل الطريق البري المصري وكسب ودهم في العراك السياسي القائم، فظل يشجع النقل فيه. وبينما كان الاسطول الانجليزي يضرب عكا، كان محمد علي يحادث ممثلي شركة (P & O. S. N. Co.) ويعدهم بكل التسهيلات في مصر. وكان من أثر هذه الرعاية أن اضطرد نجاح الطريق: ففي السنة الأولى لافتتاحه بصفة منتظمة (في سنة ١٨٣٩) اجتازه ٢٧٥ مسافراً زادوا الى ٢١٠٠ في سنة ١٨٤٥ ثم الى اكثر من ٣٠٠٠ في سنة ١٨٤٥ واشاد المسافرون بما يلقونه في مصر من رعاية وأمن حتى آثر كثيرون منهم أن يتخلفوا بمصر للسياحة في نيلها ومشاهدة آثارها. وقد قدر الانجليز لمحمد علي موقفه في رعاية التجارة الانجليزية في سنى الحرب، وعبروا عن تقديرهم في ميدالية باسمه ورسمه أهدوها اليه.

محاولات محمد علي للتقرب من انكلترا

والواقع أن محمد علي كان يعمل باستمرار على إقناع انجلترا بأنه عامل حضاري في هذه المنطقة من العالم، وأنها يحسن بها أن تعتمد عليه لا أن تحاربه، ولكن الحكومة البريطانية لم تشأ أن تساير محمد علي في هذه الفكرة، ففضلت أن تعتمد على وسائلها الخاصة على أن تعتمد على حكام شرقيين من نوع محمد علي لأنها تعتقد أن مثل هؤلاء الحكام - مهما طال بهم الزمن - فأمرهم الى زوال، فضلا عن أن الحكومة البريطانية لم تكن ترى في (اصلاحات) محمد علي في مصر إلا ارهاقاً وتضييعاً لمصالح الشعب المصري، هذا الى أن مشروعاته في انشاء الصناعة الحديثة في مصر كان يخشى أن تتطور الى منافسة الصادرات البريطانية الى مصر وسائر أملاك محمد علي، ويمكن أن يقال هذا أيضاً عن مشروعات محمد على السياسية التي حاول أن يقنع انجلترا باستعداده لوضعها في خدمة السياسة البريطانية. وكان دائماً يقول: إن السياسة البريطانية لو وضعت يدها في يده لفعلا الأعاجيب. ولكن انجلترا - كما قلنا - تفضل استخدام وسائلها وقوتها الخاصة، حتى لا تضطر الى أن تتنزل لمحمد على عن شيء. وعلى العكس قاومت انجلترا سياسة محمد علي التوسعية كما قاومت سياسته (الاحتكارية) متحالفة مع الدولة العثمانية وبروسيا وروسيا والنمسا حتى استطاعت في معاهدة لندن ١٨٤٠ أن تحصر قوته وتحددها - في داخل مصر نفسها. كما عقدت معاهدة تجارية دولية (معاهدة بالطة ليمان) مهدت بها للقضاء على سياسة الاحتكار التي اتبعها محمد علي في مصر وسائر ممتلكاته.

واتماماً لمشروعات محمد علي في إحياء تجارة البحر الأحمر كان لا بد له أن يعمل في سبيل تنفيذ هذا المشروع القديم الحديث معاً، مشروع وصل ما بين البحرين البحرين المتوسط والأحمر كان وصلا مباشراً عبر برزخ السويس



دى ليسبس يدرس، ميدانيا، خريطة القناة

أو وصلا غير مباشر عن طريق النيل وترعه حتى الاسكندرية .

وعرض على محمد علي مشروع قدمه إليه في سنة ١٨٢٥ جالوي بك ويتلخص في حفر قناة تصل النيل بالبحر لأحمر فتخترق بذلك شرقي الدلتا وقد وجد جالوي من محمد علي ميلا الى قبول الفكرة ، ولكنه أخفق في تكوين شركة لتنفيذها ، ومن المشروعات التي قدمت لمحمد علي مشروع انشاء الخط الحديدي وبقيت هذه المشروعات معلقة حتى تمت تسوية ١٨٤٠ - ١٨٤١ ، واتيح لمحمد علي أن ينصرف الى ما كانت تصرفه عنه مشاغل الحرب والسياسة ، ونشطت الجهود لحمل الباشا على الموافقة على مشروع حفر القناة بين البحرين ، ولكن الحكومة الانجليزية عارضت هذا المشروع معارضة قوية ، لما قد يؤدي وقوعها في أيدي دولة أوروبية أخرى من الأضرار بتجارتها ونفوذها في الشرق ، فيحملها هذا على القيام بعمل لم تكن اذ ذاك مستعدة لتقوم به وهو احتلال مصر . وكانت المعارضة الانجليزية مما يحسب له محمد علي الحساب ، فقد خبر مدى قوة انجلترا وتفوقها البحري . وخشي محمد علي ما قد يجره تنفيذ المشروع من مشكلات سياسية ، ومن أن تصبح مصر طريقا للدول ومحلا لاطماعها . ومع هذا فانه لم يقطع برأي حتى يستبين الأمر من الناحية الفنية ، ففي سنة ١٨٤٧ عينت لجنة دولية شبه رسمية لفحص المشروع ومن الجدير بالذكر أن بعض المهندسين المصريين ممن درسوا في المدارس التي انشأها محمد علي في مصر وأتموا دراستهم في أوروبا ، وكان لهم باع طويل في هذا المجال ، اشتركوا في اللجنة ، وقد اتفق الأعضاء على اصلاح تقرير مهندس الحملة الفرنسية وأن مسألة ارتفاع مستوى أحد البحرين عن الآخر غير صحيحة ، ولكنهم اختلفوا على امكان حفرها لاسباب أخرى فنية وكان حامل لواء المعارضة المهندس الانجليزي روبرت ستيفنسن صاحب مشروع الخط الحديدي .

نفوذ مصر يقوى حول البحر الأحمر

هذا من الناحية التجارية ، أما من ناحية التوسع وناحية التأمين فاننا لا ننسى أن عصر محمد علي كان عصر التوسع الأوروبي ، وكان عصر محمد علي هو العصر الذي بدأت فيه مصر تعمل على مدافعة الاستعمار الأوروبي عن هذه المناطق ، وقد شاهد البحر الأحمر نشاطاً حربياً مصرياً بدأ في سنة ١٨١١ ، حين أبحر طومسون على ظهر السفن التي صنعت أجزاؤها في بولاق ونقلت مفككة على ظهور الابل الى السويس واستولى المصريون على ساحل البحر الأحمر الشرقي وما يليه من أرض الحجاز ونجد حتى الخليج العربي وكذلك استولوا على أكثر أجزاء اليمن ثم استولوا على الشام وجزء من أرض الجزيرة ، وبذلك أصبح محمد علي متحكماً في كلا الطريقين البريين الى الشرق . وقد اثار هذا التوسع ارتباكات سياسية دولية ، وشرع الانجليز يقاومون التوسع المصري وأنذروا المصريين بالابتعاد عن مناطق الخليج العربي وإلغاء المعاهدة التي عقدوها مع شيخ البحرين وكذلك إيقاف التوسع المصري على ساحل البحر الأحمر الشرقي باحتلال عدن وتحصينها سنة ١٨٣٩ . وهكذا أصبح الأمر في الخليج وجنوب البحر الأحمر نوعاً من السباق بين القوتين المصرية والانجليزية ، فازت فيه القوة الانجليزية معتمدة - قبل كل شيء على بحريتها في تلك الانحاء . وذهبت سدى صرخات الأهالي العرب في أطراف الجزيرة العربية الى محمد علي يناشدونه الاسراع في انقاذهم من الخطر البريطاني .

هذا في الوقت الذي كانت فيه مصر قد استولت على الساحل الغربي للبحر الأحمر

(ساحل السودان) ودخلت موانىء السودان الهامة في حوزة مصر، وأهمها سواكن ومصوع.

وهكذا ورثت مصر النفوذ العثماني القديم الذي حاولت الدولة العثمانية أن تبسطه في تلك الانحاء وتحولت ولاية الحبش العثمانية الى حكم مصري قوي قائم في البحر الاحمر، سواء على شاطئه الاسيوي أو شاطئه الأفريقي، انطلاقاً الى مد النفوذ المصري حتى مداخل البحر الأحمر، وما يليه من شرق أفريقيا ذلك التوسع الذي تم في عصر الخديوي اسماعيل. وكلها مناطق لم يكن اختيارها اعتباطاً لمجرد التوسع، وأنما كانت ترمي الى تنفيذ سياسة كبيرة، وهي سياسة سبق الاستعمار الأوروبي الى هذه المناطق وتأميناً ضده.

ولكن مصر كانت ترى انجلترا أمامها في كل مكان، فقد أنذرتها انجلترا بالابتعاد عن الحبشة أنكرت مصر أنها تكن أية نيات عدوانية نحو تلك المملكة العريقة، وأنذرت مصر - كما رأينا - بالابتعاد عن ساحل اليمن والخليج العربي: كما أنذرتها بالابتعاد عن فتح العراق بعد استيلاء مصر على بلاد الشام والجزيرة ووقوع هذا الجزء البري الهام من طريق الخليج في أيدي المصريين وبذلك يتاح لمصر محمد علي السيطرة على كلا الطريقين بين الشرق والغرب طريق مصر والبحر الأحمر، وطريق الشام - العراق والخليج العربي.

ومهما يكن من شيء فقد استطاعت مصر - رغم أن الظروف الدولية لم تكن مواتية لها في النصف الأول من القرن التاسع عشر - أن تحيل النفوذ العثماني في البحر الأحمر من واقع اسمي الى واقع حقيقي، وإن تدخل تحت السيطرة المصرية الجانب الأكبر من البحر الأحمر، واستطاعت أيضاً أن تفتح هذه الآفاق للتجارة العالمية وأن تعيد لمصر مركزها كدولة بحر أحمر ودولة بحر متوسط مرة أخرى وأن تعيد الى التجارة الشرقية أهميتها بالاضافة الى أن محمد علي لم يعتن فقط باستعادة مركز مصر في هذا الطريق وإنما أعاد أهمية مصر كقاعدة اقتصادية بالتوسع في زراعة المحاصيل التي تدر على البلاد النقد الاجنبي وخاصة القطن وبذلك ربط ما بين الاقتصاد المصري والاقتصاد العالمي كجزء من عملية الانفتاح الاقتصادي، وبذلك اصبحت مصر جزءاً هاماً وأساسيا من الاقتصاد العالمي لا غنى عنه.

وبذلك نرى أن مصر في النصف الأول من القرن التاسع عشر قد لعبت الدور الأول في سياسة البحر الأحمر وفي استراتيجيته، وأعادت هذه الاهمية التي لم تقف عند حد بل زادت بعد ذلك هذه الأهمية حتى وقتنا الحاضر. ■

هامش

(١) ومن أشهر الفنادق التي انشئت في القاهرة في ذلك الوقت، مرتبطة باستخدام الطريق الجديد، الفندق الذي أقامه المواطن الانجليزي شبرد وعرف باسمه، وكان في الأصل قصراً لمحمد بك الالفي يقع أمام بركة الأزبكية، ثم توالت عليه تعديلات كثيرة، والتهمه حريق القاهرة في ٢٦ يناير ١٩٥٢، ثم أقيم الفندق الجديد بالاسم القديم أمام النيل.

صور القناة مأخوذة من كتاب (Suez Story) لمؤلفه (William Longgood) نيويورك.

اجتياز البحيرة الكبرى المرة قبل شق قناة السويس



تطوّر الفكر السياسي في أوروبا



جون لوك

د . محمد مخزوم

تجلى عصر النهضة الأوروبية بظهور عدة تيارات فكرية دعت الى تحرير الفكر الانساني من مخلفات الاقطاع والكنيسة واعراف وتقاليد العصور الوسطى. وقد ظهر اثر البورجوازية واضحاً في هذه التطورات التي ارادت حصر السلطة بيد الملوك على حساب الارستقراطية الاقطاعية ورجال الدين. فقدمت دعمها المادي وتأييدها السياسي لهم. كما نجح الملوك في استغلال الشعور القومي عند شعوبهم الى أبعد الحدود باشعالهم الحروب التوسعية تدعيماً لسلطة الدولة وسيادتها. فأقاموا سلطتهم الاستبدادية على أساس «الحق الالهي» في الحكم والسيادة. وظلوا يمارسون هذه السلطة حتى سقطت تحت ضربات الثورة الفرنسية اواخر القرن الثامن عشر وما تبعها من ثورات في انحاء اوروبا خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر.

عرفت قرون النهضة في اوروبا عدة اشكال للحكم. فبينما كان الحكم في كل من فرنسا واسبانيا نموذجاً للملكية المعتدلة سادت المدن الايطالية الحكومات البورجوازية المستبدة. فالملك الفرنسي حاكم مطلق يجمع بيده جميع السلطات بلا حدود. وهو مصدر كل عدل وكل تشريع، يدير سياسة الدولة ويشرف على تعيين الموظفين. وهو قائد الجيش ومصدر الحرب والسلام، ولذا فهو غير مسؤول الا أمام الله وليس امام اية هيئة مهمتها تنفيذ القانون. هذه السلطة ورثها لويس الخامس عشر فيما بعد باعلانه امام البرلمان «في شخصي وحده تستقر السلطة والي وحدي تعود السلطة التشريعية دون ارتباط ولا مشاركة وعني يصدر النظام العام. وحقوق الأمة ومصالحها هي بالضرورة متحدة مع حقوقي ومصالحي ولا تستريح الا بين يدي»(١). ومع ذلك فان الملك لم يكن ينفرد في حكم البلاد. فقد كان يساعده عدد من الوزراء والمجالس الاستشارية. وعند الأزمات كان يستعين بممثلين عن الشعب. اما النظام الاداري للحكم الملكي، فكان مزيجاً من المركزية واللامركزية. فالمركزية تأتت من سيطرة الملك واصداره القوانين التي من الواجب تطبيقها وفرضها على جميع الرعايا. بينما اللامركزية تأتت من الأحكام والقوانين الاقطاعية المحلية التي التي ما لبث الاقطاعيون يزاولونها في مقاطعاتهم بحكم ما كانوا يتمتعون به من القوة والسيطرة. ومع ذلك نرى ان الملكية بعد القرن السادس عشر استطاعت ان تهدم مفاهيم الحكم الدستوري للاقطاع ودول المدن التي سادت

انظمتها العصور الوسطى كما هدم تطور اوروبا الاقتصادي فيما بعد «شرعية الأسر المالكة».

ومهما تعددت مناهج المفكرين السياسيين في عصر النهضة فقد جاءت جميعها معبرة عن متطلبات العصر في وجوب تركيز السلطة بيد «الأمير» لتحقيق وحدة الأمة والدفاع عن حدودها السياسية، رافضة بذلك ازدواجية السلطة التي كان يمارسها كل من البابا والامبراطور أو أسياد الأرض خلال العصور الوسطى. ومثل مكيافيلي وجان بودان الاتجاه الواقعي في افكارهما التي تتمثل في دولة الأمير المطلق الصلاحيات.

١ – مكيافلي (١٤٦٩ – ١٥٢٧)

ولد مكيافلي في فلورنسا، من أسرة بورجوازية، وقضى فيها اكثر حياته. واذا لم يكن يعتبر مكيافلي في ثقافته التي اكتسبها من أكبر علماء عصره فانه ولا شك نموذج حقيقي لرجل النهضة الايطالية. ترعرع بين رجال السياسة واكتسب من رحلاته الدبلوماسية التي قام بها الى فرنسا والمانيا وروما خبرة واسعة اهلته فيما بعد لأن يضع كتاباً في علم السياسة سماه «الأمير».

استوحى مكيافلي افكاره التي تضمنها كتاب الامير من الحالة السياسية التي كانت تمر بها ايطاليا في تلك الفترة. ففلورنسا في عهد اسرة مدتشي كانت في حالة حرب دائمة مع بيزا، كما انها تعرضت لغزو فرنسي سنة ١٤٩٢ نتيجة للفوضى والاضطراب اللذين وقعت بهما خلال حكم هذه الأسرة. كما ان بقية المدن الايطالية كانت في ذلك الوقت ميداناً لحروب فرنسوا الأول وشارل الخامس حيث حل فيها الخراب والفوضى والانقسام. بالاضافة الى الحروب التي شنها سيزار بورجيا محاولا مد نفوذ البابوية على حساب بقية الولايات.

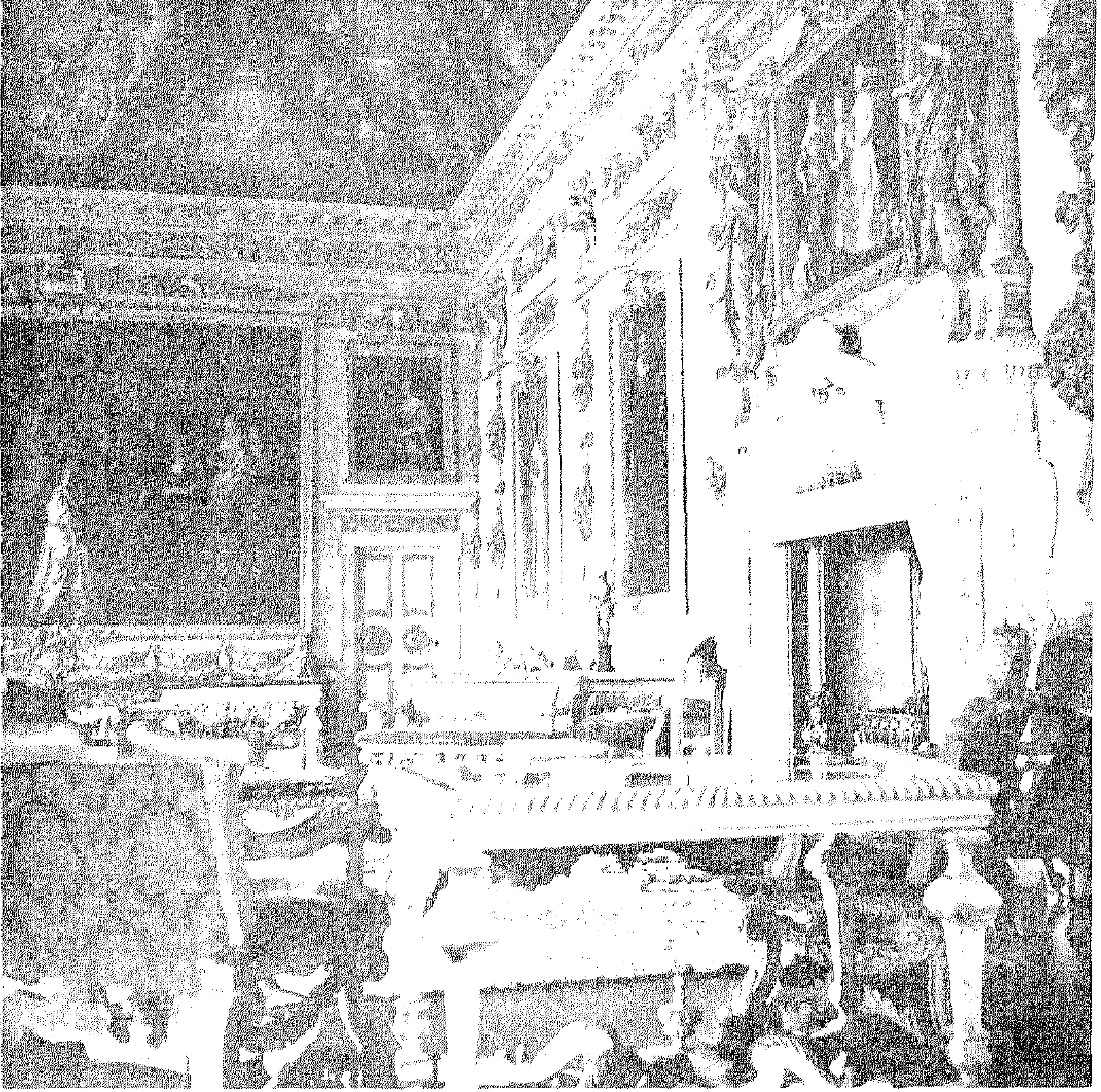
ان اكثر ما كان يؤلم مكيافلي هو الاعتماد على المرتزقة الذين لا يعملون الا على استمرارية الحروب. فلا يعرفون النظام ولا حفظ العهود والمواثيق. فدعا الى انشاء جيش وطني «ميليشيا» يتولى الدفاع عن المدينة «ان السبب الوحيد لأنهيار ايطاليا هو اعتمادها على الجيوش المرتزقة» وكان يرى ان خروج ايطاليا من محنتها هذه لا يتم الا بتحقيق الوحدة والقوة اللذين لا بد منهما لنيل حريتها الجماعية. وهو ينكر على الكنيسة سلطانها الزمن الذي اكتسبته والذي عمل على ابقاء ايطاليا منقسمة لكي لا يفقد البابوات سلطتهم في الشؤون السياسية. «كان مكيافلي، شأنه في ذلك شأن، غاريبلدي، الذي جاء بعد عدة قرون، يرى في وجود دولة دينية في قلب ايطاليا، عقبة كأداء في طريق وحدتها السياسية»(٢) ويذكر مكيافلي في «الخطب» قائلا: «نحن الايطاليين مدينون اذن لكنيسة رومة ولقساوستها بأننا اصبحنا غير متدينين واشراراً، ولكنا ندين لها بدين أكبر، وسوف يكون سبب خرابنا، الا وهو ان الكنيسة ابقت ولا تزال تبقي على انقسام بلدنا. من المؤكد انه لا يمكن لبلد ان يصبح بلداً موحداً وسعيداً الا اذا اطاع تماما حكومة واحدة، سواء أكانت جمهورية ام ملكية، كما هي الحال في فرنسا وفي اسبانيا، والكنيسة هي السبب في ان ايطاليا ليست في الحالة نفسها، ولا تحكمها جمهورية واحدة او يحكمها ملك واحد ... اذن فالكنيسة للسيطرة على ايطاليا، ولا تسمح لأية قوة اخرى بأن تفعل هذا، كانت السبب في ان ايطاليا لم تتمكن من الاتحاد في ظل رئيس واحد، ولكن ظلت دائماً يحكمها عدد من الامراء والسادة، مما سبب لها الكثير من الشقاقات والكثير من الضعف بحيث اصبحت فريسة لا للبرابرة الاقوياء فحسب، ولكن لكل من اختار ان يهاجمها»(٣).

ومكيافلي في منهجه يعترف بابتعاده في وصف الأمير عن الجانب الخيالي ليبحث في جوانبه الواقعية، مستمداً فكره السياسي من الحوادث التاريخية. ولكنه في تفكيره يتمتع بالجرأة والاستقلال. ومع ذلك فقد أهمل دور الجماعة واعطى الأولوية في صنع الدولة للأبطال، ولم ير في الأفراد الا اداة لخدمتها.

وكتب مكيافلي كتاباً يعرف بـ «المواعظ» ضمنه قسماً كبيراً من ارائه السياسية. كما كتب «فن الحرب» و«تاريخ فلورنسا» الذي قدمه الى البابا كلمنت السابع. ولكن كتاب «الأمير» يعد من أحسن انتاجه لما ضمنه من دراسة مستفيضة عن اصول الحكم وفن السياسة

كتاب الأمير

يحاول مكيافلي في كتاب الأمير ان يبين ما



داخل احد القصور الانكليزية

ينبغي ان يكون عليه مسلك الأمير ازاء رعيته وحاشيته واصدقائـه واعدائـه من الداخـل والخارج للمحافظة على دولته «على الأمير الذي يجد نفسه مرغماً على تعلم طريقة الحيوان ان يقلد الثعلب والاسد معاً، اذ ان الاسد لا يستطيع حماية نفسه من الاشراك، والثعلب لا يتمكن من الدفاع عن نفسه امام الذئاب. ولذا يتحتم عليه ان يكون ثعلباً ليميز الفخاخ واسداً ليرهب الذئاب»(٤). هذه الازدواجية في المواقف التي اعتنقها مكيافللي في محاباته احياناً للنظام الجمهوري واحياناً اخرى لعائلة مدتشي تبرز تعاليمه ونصائحه التي يقدمها لأميره: التمتع بالبخل والسخاء والخير والشر والرأفة والقسوة والكذب والصفات الحسنة. ولكن عندما سيكون الامير مجبرا على الاختيار فلا بد له من ان يختار اكثر الحلول صرامة فيفضل عندها البخل على التبذير، والرجل المسلـح على الاعـزل، والشرير على الطيب جدا (٥).

يقدم مكيافللي تعاليمه ونصائحه السلبية والايجابية لأميره لتكون وسيلة لديه لتحقيق غايته في اقامة دولة ايطاليه الموحدة وتخليصها من براثن الأعداء والمحيطين بها والمتنازعين على مقدراتها «وها هي ايطاليا تبتهل الى الله في كل يوم ان يبعث اليها بمن ينقذهـا من هذه

الفظاظة البربرية والحمق الأعمى. انها على استعداد، وتواقة الى اللحاق بكل راية، شريطة ان يكون هناك من يحملها ويرفعها»(٦). وفلسفة مكيافللي تكمن في النتائج التي يصل اليها الانسان وليس في الوسائل التي ما تلبث عند تحقيق النصر من ان تصبح وسائل شريفة حتى ولو انها استندت الى الرذائل: «وهكذا فمن الخير ان تتظاهر بالرحمة وحفظ الوعود والشعور الانساني في النبل والاخلاص والتدين، وان تكون فعلا متصفاً بها، ولكن عليك ان تعد نفسك، عندما تقتضي الضرورة، لتكون متصفا بعكسها. ويجب ان يفهم، ان الامير، ولا سيما الأمير الجديد، لا يستطيع ان يتمسك بجميع هذه الأمور التي تبدو خيرة في الناس، اذ انه سيجد نفسه مضطراً للحفاظ على دولته، لأن يعمل خلافاً للاخلاص للعهود وللرأفة والانسانية والدين»(٧)

ومع ذلك نستنتج ان مكيافللي كان يتمنى لأميره ان لا يضطر الى سلوك الرذيلة او الكذب والخداع لتحقيق مصالح الدولة العليا «على الأمير ان يتحلى بالفضائل ويكون كريماً وفياً بالعهد وشجاعاً وعلى الأمير ان يظهر نفسه دائماً ميالا الى ذوي الكفاءة والجدارة وان يفضل المقتدرين ويكرم النابغين في كل فن وعليه ان يشجع مواطنيه على المضي في اعمالهم وعليه ان يقدم لهم مثلا على انسانية وجوده محتفظاً دائماً بجلال منصبه ووقار مكانته»(٨) ويقول ايضاً: «ان على الأمير ان يتجنب كل ما يؤدي الى تعرضه للاحتقار والكراهية. وعندما يتحاشى الأمير الاعتداء على املاك عامة الناس واعراضهم، فانهم يعيشون راضين قانعين، ولا يتعرض الا لمكافحة مطامع القلة من الناس الذين في وسعه ان يكبح جماحهم بمختلف السبل، والوسائل»(٩).

وهكذا حقق مكيافللي في كتابه «الأمير» الفصل التام بين السياسة كعلم وبين الأخلاق. فجعل بذلك فن السياسة علما قائما بذاته يستند الى الملاحظة والتاريخ. واذا كان روسو قد اعتمد منهج الملاحظة في علم السياسة فان مكيافللي اوجد المنهج الموضوعي المستقل عن الأخلاق استقلالا تاما(١٠). فالكذب والغش والوحشية وسائل قد تكون نافعة في امور السياسة على الرغم من انه كان يراها رذائل من حيث المبدأ وان العبرة ليست في الوسيلة التي



كرمويل

توصل الى الغاية. كما ان ضروب الخداع التي يلجأ اليها الأمير في سبيل الاحتفاظ بدولته كلها «غش شريف، وجرائم مجيدة، لهذا اصبحت لفظة المكيافلليه (Le Mechiavelisme) مرادفة لمعنى الغدر والدهاء والسمعة السيئة بل رديفا لأبليس نفسه. «يعتبر مكيافللي بان ما يحرم، عن حق، على صعيد الأخلاق الشخصية - كالعنف والباطل والكذب ونكث العهود والاتفاقات.. - يصبح، أحيانا، على صعيد الأخلاق السياسية، مسموحاً به، لا بل واجبا لبلوغ الهدف»(١١).

واخيراً فان مكيافللي في كتابه «الأمير» قد جسد افكار عصر جديد يختلف عن العصر الوسيط بمفاهيمه السياسية واخلاقيته المسيحية وذلك باخضاعه جميع المقومات التي كانت تعتبر انسانية (تعاليم دينية - اخلاق مثالية) لمصلحة الحاكم ومصلحة الدولة معتبراً ان بناء الدولة لا يتم الا بدعامتين اثنتين فقط السياسة والجيش دون الاخذ بعين الاعتبار البناء الاقتصادي او اي عامل آخر.

تعددت مواقف الباحثين من كتاب «الأمير» وافكاره السياسية التي تضمنها. فالبابوية هاجمته ووضعته على قائمة الكتب الممنوعة. كما ان محاكم التفتيش باقرار مجمع ترانت احرقت جميع كتبه. وكتب اسقف كانتربري ديبول قائلا: «كتاب انشأته يد الشيطان، واذا كان الشيطان يطلق عليه في انكلترا (Old Nick) اي

نيقولا العجوز، أفليس ذلك اشارة الى نيقولا مكيافللي؟ ...»(١٢)

كما هاجمه البروتستانت وبدت مذبحة سان برتلمي سنة ١٥٧٢ في نظرهم خدمة للكاثوليك قدمها كتاب «الأمير». كما ان شكسبير نفسه تساءل في مسرحيته «زوجات وندسور» على لسان احدى شخصياته قائلا: «ماذا، أأنا مخادع... أأنا مكيافللي؟».

وهكذا ساهمت مواقف الملوك المستبدين والطغاة في تجسيد ما علق في اذهان الناس من ان كتاب «الأمير» كان انجيلهم في الحكم. اذ سار على نهجه فريدريك الأكبر ملك بروسيا، وأوصى ريشيليو وزير لويس الثالث عشر الذي كان معجباً بمكيافللي، ان يكتب دفاعاً عنه وعن كتابه. كما كان وليم اورانج يضعه تحت وسادته. اما لويس الرابع عشر فقد اتهم انه نشأ على مذهب مكيافللي. واعتبر نابليون انه اقدر امير مكيافللي. ويذكر فكتور هيجو ان نابليون الثالث عندما يغضب كان يقرأ كتاب «الأمير». أما موسوليني فقد كتب سنة ١٩٢٤ معلقاً على كتاب «الأمير» الذي كان موضوع رسالته لنيل الدكتوراه بوصفه له «ملازم رجل الحكم» وأن «مذهب مكيافللي تدب فيه الحياة اليوم اكثر مما كانت تدب فيه منذ اربعة قرون»(١٣). اما هتلر فلم يكن في سياسته يقل تمسكاً عن موسوليني في تطبيق سياسة «الأمير» التي وصفها مكيافللي.

اما الذين دافعوا عن مكيافللي او بالاحرى الذين اعطوا تفسيرات مغايرة للتفسيرات التي اعطاها الملوك والحكام المستبدين لكتاب «الأمير» فقد وجدوه كتاباً للديموقراطيين اراد منه مكيافللي ان يكشف للناس عن سياسة المستبدين وأساليبهم في الحكم ليكونوا منها على حذر شديد خاصة ان مكيافللي لم يكن يعرف الخداع والغش بل كان صادقاً امينا مستقيما. وان مسلك الطغاة الذين جاؤوا بعد مكيافللي تجاه رعيتهم لا يقل عن مسلك امثالهم قسوة ووحشية وخداعاً قبل مكيافللي بعهد طويل. ولهذا اتخذ مونتين (Montaigne) موقفاً محايداً من كتاب الأمير، بينما اعتبر بيكون ان مكيافللي قد وصف الحكام كما هم وليس كما يجب أن يكونوا. في حين برر هيجل تصرفات الامير التي وصفها مكيافللي لاقامة دولة ايطالية الموحدة. بينما اعجب الموسوعيون بجرأته فاعتبره روسو في «العقد الاجتماعي» رسول الديموقراطيين بقوله «كان مكيافللي يتظاهر بتقديم الدروس للملوك بينما يكون قد القى على الشعوب دروساً عظيمة. ان كتاب «الأمير» لمكيافللي هو كتاب الجمهوريين»(١٤) كما ينسب الى روسو قوله «كان مكيافللي رجلا مستقيماً ومواطناً صالحاً. لكنه لتعلقه بآل مدتشي كان مضطراً في ظروف قهر وطنه الى اخفاء حبه للحرية. فان اختياره لبطله المقوت وحده يظهر بما يكفي قصده الخفي، ولعل مقارنة المبادئ الأساسية في كتابه «الأمير» بمبادئه في مقالاته عن تيت ليف (tite-Live) وتاريخه عن فلورنسا تبرهن على ان هذا السياسي العميق لم يحظ حتى الآن الا بقراء سطحيين او فاسدين. لقد حرمت المحكمة تداول كتابه تحريماً قاطعاً، ولست اعجب من ذلك فان اوضح تصوير لفسادها كان تصويره هو.»(١٥) اما اليعاقبة فقد اعتبروا ان كتاب «الأمير» قد وضع ليكشف للناس عن اساليب الحكام وحيلهم. ونرى غرامسكي ايضا في دعوته ضد المرتزقة يدعو لتأسيس ميليشيا شعبية تشبه الجيش اليعقوبي «لا وجود للأمير الحديث، للأمير الاسطورة. انه لا يمكن ان يكون فرداً بل تنظيماً فقط.. ولقد رأينا امثلة على هذا التنظيم خلال تطور التاريخ انه الحزب السياسي.»(١٦).

واخيرا فان مكيافللي قد استطاع ان يصور الوضع في ايطاليا كما هو في اوائل القرن السادس عشر. وان الوضوح في رؤياه انما هو ناتج عن تحليله الصحيح لهذا الوضع. ولهذا استمرت اعتباراته في اذهان الايطاليين الذين جعلوا ذكرى مولده عام ١٨٦٩ عيداً قومياً تجسدت فيه ايطاليا الموحدة. فاقامت مدينته فلورنسا على ضريحه نصباً تذكارياً كتبت عليه عبارة «لن يكون اي اطراء كافياً لوفاء مثل هذا الاسم العظيم حقه»(١٧).

٢ – بودان BODIN (١٥٣٠ – ١٥٩٦)

حفل القرن السادس عشر بالمنازعات الدينية التي جعلت المجتمع الأوروبي معسكرين متنافرين. وكان اثر الانقسام الذي يحصل ضمن الدولة الواحدة اشد خطورة منه بين دولتين اثنتين. فبينما انسحاب انكلترة من المعسكر الكاثوليكي البابوي يكاد لا يؤثر على

هيئة الملكية الانكليزية اذا ما استثنينا اضطرابات القرن السابع عشر التي حصلت باسم الدين، نجد خطر الانقسام في فرنسا يهز الحكم المطلق الذي تتنازعه الأسر الأرستقراطية تحت ستار الخلاف الديني. وهكذا تعرضت فرنسا في هذه الفترة لحرب اهلية غير متكافئة ادت الى تدبير مذبحة سان برتلمي ١٥٧٢ التي ذهب ضحيتها اكثر من عشرين الف قتيل.

استمد جان بودان افكاره السياسية من هذا الواقع الذي كانت تجتازه فرنسا. ووضع كتابه «الجمهورية» (La Republique) سنة ١٥٧٦ الذي ضمنه جميع ارائه ونظرياته في السياسة والقانون والاقتصاد. وترجع اهمية هذا الكتاب الى اعتماد مؤلفه على اسلوب جديد في التحليل اخذ به هوبز بعد ذلك، وعلى نظريات تعتمد على ملاحظة الواقع والبحث التاريخي

احد قصور اسرة تيودور التي حكمت انكلترا



المقارن الذي اخذ به مونتسكيو في روح الشرائع فيما بعد[١٨].

كان جان بودان يؤمن بالحكم الملكي المطلق على حساب الاقطاعية. وانه لا سبيل الى انقاذ فرنسا من الانقسام الا بتقوية السلطة الملكية. اذ ان الحكومات الديموقراطية بنظره تكون اكثر تعرضا للثورات بينما الحكومات الارستقراطية اكثرها تعرضا للانقسام.

والدولة عند بودان هي حكومة شرعية تضم عدداً من الأسر ومن فوقها سيادة عليا. لذلك فهي تقوم على ثلاث دعائم: الأسرة والحكومة الشرعية والسيادة. فالحكومة الشرعية ضرورية لكل مجتمع اذ لا وجود للدولة بدونها. اما السيادة فهي القلب النابض بل هي سر حياة الدولة. وهي سلطة دائمة ومطلقة وغير مقيدة ولا مجزأة ولا يمكن التصرف بها. فلا تعلو عليها اية سلطة «سلطة اعلان الحرب وعقد معاهدات السلام. وتعيين كبار الموظفين والقيام بدور محكمة اخر درجة. ومنح الاعفاءات، وسك العملة، وفرض الضرائب.»[١٩]. وهكذا فان السيادة بنظر بودان «هي سلطة عمل القوانين بالنسبة للشعب عامة بل وبالنسبة لكل فرد منه على حدة، وذلك من غير حاجة الى ان يحصل الامير على رضا اي غيره. لأن الأمير اذا كان لا يستطيع سن القوانين الا بعد الحصول على موافقة من هو اعلى منه لما عد اميراً، وانما يكون تابعا من الرعية. واذا اقتضاه الأمر الحصول على موافقة ند او انداد له لعمل القانون لكان له شركاء في السلطة ثم ما كان صاحب سيادة. وكذلك الحال اذا اقتضى الأمر رضا الرعية. ان الأمير لا يعد اميراً ذا سيادة الا اذا كان عمل القانون متوقفاً على ارادته هو يصدره ويلغيه وفق رغبته. فلا يتوقف على موافقة اي اعلى منه او ند له او على رضا اي دونه»[٢٠].

ويعتبر بودان بنظر اكثر المحدثين انه من اكبر فلاسفة علم السياسة وواضع اسس الحكم المطلق. ففي تفكيره افلاطوني وفي منهجه العلمي ارسطوطاليسي. شارك مكيافللي في اعتماده على الواقع والمشاهدة والتاريخ والاستنتاج[٢١]، كما شاركه في وجوب تخطي السلطة للحرية الفردية والعقد الجماعي مع انه ضد الطغيان الذي يتنافى مع قوانين الحرب والطبيعة.

وكما ادان انصار الديموقراطية والحرية مذهب مكيافللي، فانهم هاجموا اراء بودان السياسية المرتكزة على الحكم المطلق. اذ ان ملوك فرنسا بعد القرن السادس عشر وجدوا في تعاليمه ايضاً ما يسند رغبتهم في التسلط والاستبداد. فاقاموا لهم حكومات مطلقة ذات سيادة الهية على غرار المفاهيم التي وضعها.

لوك LOCKE (١٦٣٢ – ١٧٠٤)

حاول ملوك آل ستيورات بعد عودة الملكية الى انكلترا سنة ١٦٦٠ التمسك بسلطتهم المطلقة الا ان البرلمان ما لبث ان اطاح من جديد بجيمس الثاني سنة ١٦٨٨ عندما تحداه باصدار قوانين التسامح الديني التي الغت القوانين الصادرة من قبل ضد الكاثوليك. ونصب البرلمان مكانه على عرش انكلترا ابنته ماري البروتستانتية وزوجها وليم اورانج (ملك هولندا).

وهكذا استطاع البرلمان في انكلترا في عهد ماري ووليم اورانج من اصدار قانون اشترط فيه على الملكين الجديدين عدم اصدار أو الغاء اي قانون الا بموافقته. كما اصدر فيما بعد عدة قوانين اعتبرت تقييداً للملكية كان منها قانون التسامح الديني للمتطرفين من البروتستانت وقانون التسوية الذي حصر حق العرش بالبروتستانت دون الكاثوليك استبعادا لأسرة جيمس الثاني وقانون الوحدة الذي اصبحت بموجبه انجلترا واسكتلندا مملكة واحدة سنة ١٧٠٧.

كان جون لوك في تفكيره يكره الاستبداد والحكم المطلق. فقد عاش منفيا في هولندا منذ سنة ١٦٨٣ حتى قيام الثورة المجيدة ضد جيمس الثاني. ولما عاد الى انكلترا وضع كتابه «رسالتان في الحكم المدني» سنة ١٦٩٠ استلهم افكاره فيه من الاحداث السياسية التي وقعت في انكلترا خلال القرن السابع عشر. كما وضع بعدها خطابه عن التسامح وابحاثا في التربية والاقتصاد والصحافة والدين.

لقد حاول لوك في رسالتيه عن الحكم المدني ان ينفي الصفة الالهية للملوك في الحكم. كما حاول ان يبرهن ان الشرعية في الحكم لا يمكن ان تتحقق بوجود الحكام والطغاة اذ لا يعقل ان يركن الناس الى حكومة تقوم على الاستبداد.

وهو بذلك يريد تبرير ثورة ١٦٨٨ ضد (شرعية) ملوك ستيوارت. فيذكر في المقدمة انه يرجو «ان يترسخ عرش ملكنا المعاد العظيم، وليم، وان يصبح لقبه صالحاً باسناده الى موافقة الشعب»(٢٢).

تقوم فلسفة لوك السياسية على وجوب احترام الدولة للحرية الفردية والعمل على حمايتها وان اجدى الوسائل بنظره للمحافظة على حرية الأفراد هي بفصل السلطات، لأن الجمع بينها يغري بلا شك بالتحكم كما ينزلق الى الاستبداد. ويطالب لوك ايضاً بالحرية الفردية نتيجة لاحتكار الاقطاعيين للسلطة ومحاولاتهم التمسك بها. وهو يقسم الدولة الى سلطتين: تشريعية مهمتها سن القوانين وتعتبر اعلى سلطة في الدولة لا تعلو عليها سوى سلطة الشعب: «لا يمكن ان يوجد في دولة مستقرة ترتكز على دعائم ثابتة وتعمل، بحسب طبيعتها، على حماية الأمة سوى سلطة عليا واحدة، هي السلطة التشريعية التي تخضع لها سائر السلطات كما ينبغي لها ان تخضع. ومع ذلك وبما ان السلطة التشريعية ليست سوى سلطة ائتمانية تعمل لأغراض معينة، فالشعب يحتفظ بسلطة عليا تمكنه من خلع الهيئة التشريعية او تغييرها، كلما تبين له انها تتصرف خلافاً للأمانة التي عهد بها اليها.»(٢٣) اما السلطة الثانية فهي السلطة التنفيذية للمحافظة على تنفيذ القوانين. وهي تتضمن السلطة القضائية ولا تخضع للسلطة التشريعية: «... ولما كانت (القوانين) تفتقر الى التنفيذ باستمرار او السهر عليه، فقد اقتضى ان يكون ثمة سلطة دائمة تسهر على تنفيذ القوانين الموضوعة وتبقى آمرة. من هنا كانت السلطة التشريعية والسلطة التنفيذية منفصلتين في الكثير من الأحوال»(٢٤). كما ان لوك أوجد سلطة ثالثة في الدولة هي السلطة الاتحادية (Federative) أو الدولية وهي التي تقوم باعلان الحرب وتقرير السلم وابرام المعاهدات وما يتعلق بالشؤون الخارجية للدولة «وهذه السلطة تشتمل اذن على سلطة اعلان الحرب واقرار السلام والانضمام الى الاحلاف وتوقيع المعاهدات وتنظيم سائر العلاقات مع كل الأفراد والجماعات الخارجة عن الدولة، لذلك يمكن دعوتها بالسلطة الاتحادية او الدولية»(٢٥).

ويتميز الفصل بين السلطات عند لوك بمرونة تكفل تحقيق مصالح الأفراد. فالسلطة التشريعية على الرغم من كونها السلطة العليا في نظره انما يجب ان تبقى متضامنة ومتفاهمة مع السلطة التنفيذية التي يمكنها الاعتراض على القوانين التي لا تروق لها.(٢٦).

تعتبر نزعة كل من هوبز ولوك السياسية على طرفي نقيض. فبينما نرى الأفراد عند هوبز يتخلون عن حقوقهم ليعهدوا بها الى فرد واحد يحقق لهم السلام فان لوك يدعو الى فصل السلطات وعدم وضعها بيد حاكم واحد، حتى لا يجنح الى الاستبداد. اذ ان العقد عنده قد ابرم بين الأفراد باجماع كل الآراء لأقامة حياة سياسية ويتعين على الأفراد بعدها ان يخضعوا للأغلبية فلا يمكنهم التحلل منه او الرجوع لحالة الطبيعة. كما ان هؤلاء الأفراد الذين ارتضوا العقد قد تنازلوا عن بعض حقوقهم وليس كلها. ولهذا يبرر لوك الثورة ويعتبرها حقاً مقدساً عندما يفقد الفرد الثقة التي منحها للسلطة القائمة: «اذا تناولت الأحكام الجائرة عامة الشعب او وقع الأذى والظلم على البعض فقط، ولكن بحيث تهدد سوابقها او عواقبها، سائر الشعب، واستقر في روعهم ان قوانينهم وحرياتهم وحياتهم معرضة للخطر وكذلك دينهم ايضاً، فلست ادري كيف يحال بينهم وبين الثورة على القوة الغاشمة التي تستخدم ضدهم؟»(٢٧) اما طغيان الحكام فيبدأ عند لوك حيث تنتهي سلطة القانون وينزل الضرر بالمواطنين «ولما كان يتصرف (الحاكم) من دون تفويض شرعي جاز الخروج عليه ومقاومته، كما يقاوم كل امرئ اخر يسطو على حق الآخرين بالقوة»(٢٨).

والحرية السياسية التي ينشدها لوك لأفراد المجتمع لا تكتمل الا بالتسامح الديني. فالصلة بين الانسان والاله يجب ان تكون باطنية تتم برضى الفرد. وبهذا فقد نزع عن رجل الدين سلطته الروحية على رعاياه كما نزع عن الكنيسة احقيتها بانزال العقاب الذي يحق للدولة ان تنزله بالمذنبين معتبراً الكنيسة مجتمعاً اختيارياً. وهو يرى بهذا ارتباطاً وثيقاً بين الاضطهادات الدينية التي تقوم في انحاء اوروبا وبين الاضطراب السياسي الذي يكون اما وليداً أو نتيجة لها.

وثمة شرط اخر عند لوك لاكتمال حرية الفرد السياسية وهو حق الملكية المقدس الذي

يقرنه بالعمل الذي يعتبره اساسا لكل تملك وانتفاع . فبنظره ان الله قد وهب الأرض للكادح لكي يستثمرها ، وجعل العمل اساس حقه بامتلاكها . كما انه يشترط مقدار الملكية بحاجة الفرد لها ومدى ما يستطيع ان يقدم من عمل لها «وقد حددت الطبيعة مقدار الملكية تحديداً عادلا اذ جعلته منوطا بمدى عمل الانسان ومطالب حياته »(٢٩) .

امتازت نظرية لوك في الحكم بانها تركت اثرا دائما وبالغا على الوعي السياسي في اوروبا الغربية واميركا . ومع كونها لم تتميز بالفضائل الفلسفية التي تمتاز بالوضوح والتناسق والاصالة الا انها على حد تعبير بترز كانت «خيوطا جمعها من مصادر متنوعة ، وحاكها حول مجموعة من المطالب السياسية التي كانت تتفاقم في وجه نوازع آل ستيوارت الاوتوقراطية . واكتسبت نظرياته هذه تلك الشهرة الواسعة ، لا لعمقها الفلسفي وسعة افقها ، بل لكونها عبرت بشكل نظري عن مشاعر الناس في كل مكان بوجوب لجم السلطة المطلقة »(٣٠) .

وهكذا كان لوك احد المصادر الاساسية لفلسفة الانوار الفرنسية التي قامت في القرن الثامن عشر ضد المؤسسات الاقطاعية ، ولوك باعتماد الفكر عنده على التجربة بل واعتباره الشرط الاساسي في مجال المعرفة يكون قد طعن علم اللاهوت والميتافيزياء القروسطية طعنة كبيرة فمهد امام مونتسكيو لوضع نظريته عن فصل السلطات وتطويرها . كما مهد امام روسو لوضع اسس «العقد الاجتماعي» .

■

هوامش البحث

١ – سوبول : تاريخ الثورة الفرنسية ص ٦٧ (ترجمة جورج كوسى . منشورات عويدات . الطبعة الاولى ١٩٧٠)

٢ – مكيافللي : الأمير . مقدمة للكاتب كريستيان غاوس ص ٢٤ (تعريب خيري حماد – المكتب التجاري الطبعة الثالثة ١٩٨٠)

٣ – سباين : تطور الفكر السياسي ص ٤٧٢ (ترجمة راشد البراوي الجزء الثالث – دار المعارف بمصر ١٩٧١)

٤ – مكيافللي : الأمير ص ١٤٨ .

٥ – ڤيدرين : مكيافللي ص ٧٩ (ترجمة اميرة الزين – المؤسسة العربية ١٩٧٤) .

٦ – مكيافللي : الأمير ص ١٩٧ .

٧ – المرجع السابق ص ١٥٠ .

٨ – المرجع السابق ص ١٧٩ .

٩ – المرجع السابق ص ١٥٢ .

١٠ – DUVERGER. M: Introduction α la Politique, P.93 (Gallimard — Paris)

١١ – كرانستون : اعلام الفكر السياسي ص ٤٦ (مقالة لارنستو لاندي – دار النهار للنشر ١٩٧٠)

١٢ – محمد طه بدوي : اصول علوم السياسة ص ٢٣٥ (المكتب المصري الحديث للطباعة والنشر ١٩٦٥)

١٣ – مكيافللي : الأمير تعليق موسوليني على كتاب الامير ص ٦ .

١٤ – روسو : العقد الاجتماعي ص ١٢٥ (ترجمة ذوقان قرقوط ١٩٧٣ – دار القلم بيروت)

١٥ – المرجع السابق ص ١٢٦ .

١٦ – فيدرين : الأمير ص ٩٣ .

١٧ – مكيافللي : الأمير ص ٣٢ .

١٨ – مكيافللي : الامير ص ٢٥٣ من مقالة لفاروق سعد .

١٩ – سباين : نفس المرجع ص ٥٥٦ .

٢٠ – محمد طه بدوي : المرجع نفسه ص ٢٤٦ .

٢١ – نور الدين حاطوم : تاريخ عصر النهضة الاوروبية ص ١٣٨ (دار الفكر – ١٩٦٨)

٢٢ – كراستون : المرجع نفسه ص ٥٩ من مقالة لريتشارد بترز .

٢٣ – لوك : مقالتان في الحكم المدني فقرة ١٤٩ (ترجمة ماجد فخري – اللجنة الدولية لترجمة الروائع – بيروت ١٩٥٩)

٢٤ – المرجع السابق فقرة ١٤٤ .

٢٥ – المرجع السابق فقرة ١٤٦ .

٢٦ – انظر محمد الشنيطي : جون لوك ص ١٨٨ (دار الطلبة العرب – بيروت ١٩٦٩)

٢٧ – لوك : المرجع نفسه فقرة ٢٠٩ .

٢٨ – المرجع السابق فقرة ٢٠٢ .

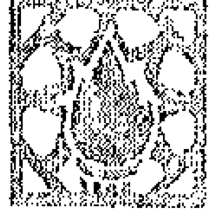
٢٩ – المرجع السابق فقرة ٣٥ .

٣٠ – كرانستون : المرجع نفسه مقال ريتشارد بترز ص ٥٨ .



وثائق سرّية حول ما أشيع عن انشقاق جمال باشا عن حكومة "الاتحاديين"

إعداد: د. وجيه كوثراني



بين ٢٦ تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩١٥ و ١٣ آذار (مارس) ١٩١٦، تبادلت وزارة الخارجية الروسية مع سفرائها في باريس ولندن مراسلات سرية حملت أخباراً عن قيام خلاف بين جمال باشا من جهة وحكومة استامبول من جهة ثانية.

هذه الأخبار التي تلقتها وزارة الخارجية الروسية من الدوائر الأرمنية في استامبول أشارت الى فكرة مشروع انشقاقي لدى جمال باشا يقضي باقامة اتحاد لسلطنة تضم سورية، فلسطين، العراق، عربستان، كيليكية، ارمينية، كردستان وبأن يكون على رأس السلطنة جمال باشا نفسه.. وقد بنت الدبلوماسية الروسية أحلاماً عذبة على هذه الأخبار، فعرضت فكرة القيام بالاتصال بجمال باشا على وزارتي الخارجية الفرنسية والانكليزية. بيد ان فرنسا وبريطانيا كان لهما تحفظاتهما على المشروع: فرنسا بسبب مطامعها المباشرة في سورية، وبريطانيالأنها كانت قد دخلت على حده في مشروع محادثات حسين - مكماهون.... والأرجح ان روسيا التي كانت تأمل بالسيطرة على المضائق كانت تقترح البدء بالاتصال بجمال باشا والدخول معه في مفاوضات مباشرة اعتماداً على أخبار لم تتحقق تماماً من صحتها. ولا تشير الوثائق الى المصادر التي اعتمدتها الدوائر الأرمنية في جمعها لتلك الاخبار وطريقة رصدها وفهمها لطبيعة الخلاف بين جمال ورفاقه في استامبول. والواقع ان المراسلات حول هذا المشروع توقفت، ولا يكفي ان نفسر توقفها بتحفظ فرنسا وبريطانيا او عدم موافقتهما على الاتصال بجمال باشا. فليس ثمة ما يشير حتى الآن انطلاقاً من المصادر الوثائقية العثمانية الى صحة الأخبار التي تناقلتها الدوائر الأرمنية عن جمال باشا أو الى مساعي هذا الأخير لعرض «مشروعه» على الحلفاء.

لقد عثر البلاشفة في سجلات وزارة الخارجية الروسية اثر ثورتهم الكبرى عام ١٩١٧ على وثائق سرية هامة، كان من بينها اتفاقية سايكس - بيكو. وتلك المراسلات التي تتحدث عن اخبار جمال باشا. واستكمالا للصورة، ننشر الى جانب هذه الوثائق تعليقاً لساطع الحصري (وهو من المؤرخين والشخصيات المعاصرة التي رافقت الحركة العربية في بداية نشأتها)، تعليقاً يشك فيه بالرواية الأرمنية ويورد شهادة «لحسين جاهد يالجين» صاحب جريدة طنين التركية، ينفي فيها هذا الأخير ما نسب لجمال، ليستنتج «ان الرواية عارية من الصحة، وكانت وليدة الاوهام والتمنيات».

هل كان جمال باشا ينوي حقاً الثورة على الدولة العثمانية؟
وثائق سرية هامة يذيعها البلاشفة عام ١٩١٧(١)

وزارة الخارجية الروسية.

بطرسبورغ في ٢٦ تشرين الثاني سنة ١٩١٥ شيفرة رقم ٦٣٩

الى سفارتي باريس وروما.

ان الأخبار الواردة الينا من الدوائر الأرمنية في استمبول تفيد أن جمال باشا يرغب في القيام بحركة عداء لحكومة استمبول اذا حققت شروطه التالية:

أولا - ان تتعهد الدول المتحالفة بالاعتراف بسيادة الدولة العثمانية برئاسة السلطان على اتحاد السلطنة المؤلف من دول سورية، فلسطين، العراق، عربستان، كيليكية، ارمينية، كردستان.

ثانيا - ان يتولى السلطنة احمد جمال باشا وان يتولى السلطنة من بعده اولاده واحفاده.

ثالثا - يتعهد أحمد جمال باشا ان ينادي بان السلطان الحالي وحكومته اسرى بيد الألمان ويعلن الحرب عليهم.

رابعا - في حال اعلان جمال باشا ثورته هذه وزحفه لمقاتلة الحكومة يتعهد الحلفاء بتقديم السلاح والغذاء والعتاد الحربي اللازم لجيوشه.

خامسا - ان تقدم الدول الى جمال باشا المساعدات المالية اللازمة الى نهاية الحرب.

سادسا - يرضى جمال باشا بترك المضايق واستمبول للحلفاء.

سابعا - يتعهد جمال باشا بان يترك الطريق حرة لمساعدة الأرمن.

ان اقل ثورة داخلية في تركية تضعف قوات هذه الدولة وتساعدنا كثيراً فبناء على ذلك من الضروري الدخول بمفاوضات مع جمال باشا والأرمن المخلصين لنا فاذا تمكن جمال باشا من طرد الألمان وقلب حكومة استمبول كانت لنا فائدة عظيمة ولهذا نرجو الجواب على برقيتنا سريعا وسراً.

سازانوف

- ٢ -

بخارست في ١١ كانون الاول سنة ١٩١٥، رقم ٧٧٨.

الرجاء حل الشيفرة من قبل المرسل اليه مسيو. ك. ن كولكاونتش مستشار الشعبة الثانية في وزارة الخارجية ببطرسبورغ.

ان الأخبار الواردة تدل على ظهور خلاف بين جمال باشا ورجال الحكومة المركزية فاذا وجد من يساعد جمال باشا على حصر حكم تركية في آسية فقط فمن الممكن استمالة جمال باشا الينا وحمله على العمل ضد حكومة استمبول.

الرجاء افادتي عن وجهة نظر الحكومة في هذا الامر سيما وفي الامكان ان نستفيد من الأرمن الموجودين هنا وفي تركية فائدة كبرى.

السفير. س. أ. بوكولوفسكي

- ٣ -

بطرسبورغ في ١٢ كانون الأول سنة ١٩١٥ رقم ٦١٣٠

بوكولوفسكي سفير روسية في بخارست.

وصلت برقيتكم الشيفرة رقم ٧٧٨ ان كل تفرقة يمكن ايجادها في تركية وعلى الأخص بين اركان الحكومة تجد منا المعاضدة والمساعدة التامتين وفي الامكان تقديم أي وعد بما يقترحه جمال باشا؛ واذا اقتضى الأمر ففي مقدورنا الحصول على وعود من الحلفاء بتحقيق ما يريده والى ان يحين الاوان يجب ان تظل هذه القضية سرية.

الامضاء: كوليكوفتش

(١) عن كتاب - الوثائق والمعاهدات في بلاد العرب، اصدار جريدة «الأيسام» السورية، بدون تاريخ، ص ١٧ - ٢٥.

– ٤ –

بخارست في ٢٥ كانون الاول سنة ١٩١٥ رقم ٨١٥

تلقيت برقيتكم رقم ٦١٥٠

يعتقد زخاروف انه اذا جرت المفاوضات مع أحمد جمال باشا بواسطة مندوب الخارجية القيصرية مباشرة فقد تأتي بالفائدة المطلوبة وفي إمكان الأرمن ان يقدموا ما يلزم من مساعدات محلية. ومع هذا فان الأرمن يتعهدون بفتح ابواب المفاوضات التي يتممها مندوبوكم وهم على استعداد ليوفدوا مندوبين من قبلهم الى مصر يتصلان من هناك بجمال باشا ولهذا يطلبون من الخارجية ما يلي.

أولا – ان تعطيهما اوراق مرور الى مصر وعدم ارهاقهما بطلب الكفالة لدخول مصر.

ثانيا – اعطاء التعليمات الى الموظفين على حدود سويسرة لتسهيل مرورهما.

ثالثا – ارسال التعليمات اللازمة الى سفيرنا في لندن وباريس لتسهيل سياحتهما براً وبحراً حين ذهابهما الى مصر.

رابعا – اعطاء التعليمات اللازمة الى الموظفين المحليين في مصر لعدم معارضتهما في الوجهة التي يذهبان اليها.

خامسا – ارسال التبليغات اللازمة الى ممثلنا في مصر لحماية هذين المندوبين والدفاع عنهما بقدر استطاعته ماديا وفعليا.

سادسا – تسهيل السبل لهما لمخابرة باسيل زخاروف من أي بلد كان وان تظل الطريق حرة امامهما.

ان المهمة الموكلة اليهما هي ايجاد الطرق اللازمة للدخول بمفاوضات مع احمد جمال باشا ومعرفة شروطه ومطالبه ودعوته الى الشروع بالمفاوضات حتى اذا نجحا في الوصول الى هذا الهدف تركا المجال واسعا امام المندوبين الذين ستوفدهما وزارة خارجية صاحب الجلالة القيصرية لوضع الاتفاق النهائي بينهما وبين احمد جمال باشا.

ان الفوز الذي احرزته القوات البلغارية والالمانية في جهاتها وقيام الانكليز باخلاء قسم من شبه جزيرة غاليبولي قد ادخل الشك في نفوس الأرمن بامكان الفوز نهائيا.

ان الارمنيين اللذين سننتدبهما لمفاوضة احمد جمال باشا احدهما روسي التبعة والآخر بريطاني التبعة.

الرجاء ارسال التعليمات سيدي

الامضاء: بوكولوفسكي

– ٥ –

رومه في ٢٨ كانون الاول سنة ١٩١٥ رقم ٨٥٧

تلقيت برقيتكم رقم ٦٣٩١

اذا كان هناك احتمال بالفوز في المساعي التي اشرتم اليها في تقريركم فان السنيور سونينو يراها موافقة جداً. ويرى ضرورة العمل بها لاننا في هذه الحالة ننقذ الموقف بسرعة.

السفير. م. ن. كريس

– ٦ –

باريس في ٢٧ كانون الأول سنة ١٩١٥ رقم ٧٥١

اخذنا برقيتكم رقم ٦٣٩١

ابلغت نسخة من محتوياتها للمسيو بريان فاظهر اهتماماً كبيراً بهذه الأخبار وصرح انه سيعرضها غداً على مجلس الوزراء قبل ان يفوت الوقت وقد قال لي في هذه المناسبة ان هذه الشروط وان كانت موافقة لنا الا انها على كل حال لا تتفق مع مطامع الانكليز الذين قد لا يقبلون بها.

السفير آ. ب. ايزوفولسكي

– ٧ –

باريس في ٢٩ كانون الاول سنة ١٩١٥ رقم ٨٥٤

ذيلا للبرقية رقم ٥٨١

بعد الانقلاب الوزاري الذي حصل في فرنسة اجتمعت بالمسيو بريان وباحثته في امر البرقية فافادني انه مرتاح الى الخطة التي وضعتموها للاجتماع بجمال ومفاوضته.

الا ان هذا المشروع يلاقي معارضة جدية فعلية من قبل الدوائر الفرنسية فالخطة التي وضعتموها وان كانت حسنة في الظاهر الا ان الفرنسيين يرونها محققة لرغبة روسية وحدها

بالاستيلاء على المضايق واستنبول في حين انها تحرمهم من البلاد التي وعدوا بها كفلسطين وسورية وقسم من مقاطعة كيليكية وكما ان الشعب الروسي لا يمكنه ان يحيد قط عن فكرة الاستيلاء على استنبول والمضايق فان الرأي العام الفرنسي ايضا لا يمكنه قط ان يتخلى عن البلاد الموعود بهـا كسوريـة وفلسطـين وكيليكية وعداها يجب علينا ان لا ننسى ايضاً ان الحكومة البريطانية تفكر في ايجاد حكومة عربية مستقلة وفي نهاية الامر افادني مسيو بريان بصراحة تامة انه يشك في امكان فوز جمال باشا بثورته وهو يحكم قطعة صغيرة من السلطنة العثمانية وانا اعتقد ان الخطة التي وضعتموها انتم لهذه المفاوضات كانت قائمة على تحقيق المصالح الروسيـة وحدهـا مع عدم الاضرار بالمصالح الافرنسية او الانكليزية وقد اوضحت هذه الامور الى مسيو بريان وايدت له نيتكم الحسنة واضفت اليها ان رغبتكم الاكيدة لا تقتصر على هذا الهدف وحده بل تعتقدون ان الثورة الداخلية التي قد تقع في تركية تهدم تماماً سياسة المانية في الشرق وبذلك يستفيد الحلفاء فائدة كبرى. وقد استصوب بريـان الفكرة الاخيرة ووجدها موافقة تماما وقال لي: اذن ما دامت هذه هي الغاية فانا اوافق عليها تمام الموافقة واعلنكم موافقتي على مشروعكم الا انني ارجو ان لا تخل هذه المفاوضات التي ستجرونها بحقوق فرنسة في الشرق.

السفير آ. ب. ايزوفولسكي

— ٨ —

باريس في ٢٩ كانون الاول سنة ١٩١٥ رقم ٨٥٥

ملحقا ببرقيتي رقم ٨٥٤ المرسلة بتاريخ اليوم

خصوصي — لا اكتمكم انني لاحظت من جواب مسيو بريان على اقتراحكم اشياء ان لم يكن من الجائز وصفها بالحدة الا انها في الوقت نفسه تدل على عدم الرضا عن هذا الاقتراح، انكم تعلمون جيداً ان اتفاق الحلفاء على تسليم المضايق واستمبول الى روسية امر غير مرغوب فيه في الاندية الفرنسية البرلمانية والانكليزية. وقد كان هذا الاتفاق سببا في حملة عنيفة اثارها النـواب وبعض الـوزراء على مسيـو دلكاسه.

فالذي علمتـه ان الـوزراء الافرنسيـين عارضوا هذا الاتفاق بكل شدة حتى انهم لم يحجموا عن المجاهرة بمعارضتهم هذه والحقيقة هي انه وان كان لم يعارض احد هذا الاتفاق علناً الا ان المؤكد هو ان الاتفاق لم يكن مرغوبا فيه وليس من الجائز في وجه من الوجوه ان نعتمد على مؤازرة الافرنسيين لنا في امر تنفيذه مؤازرة صادقة.

والمؤكد هو ان الافرنسيين هنا يقدرون بعض اقتراحاتكم وليسوا في حالة يجهلون معها اهمية احداث ثورة في السلطنة العثمانية. كلا بل هم يعتقدون ان هذه الثورة مفيدة جداً لهم في الحرب العالميـة، الا انهـم لا يرون في الاقتراحات المقدمة لمفاوضة جمال باشـا الا تحقيقا لامانيكم في الاستيلاء على استمبول والمضايق دون اقل ضمان للسيادة الافرنسية المقررة على الشرق.

فالذي اعتقده تحقيقا لهذه الفكرة ان يبدل هذا الاتفاق بصورة تحفظ للافرنسيين حقوقهم المقررة على سورية وفلسطين وكيليكية وفي هذه الحالة يمكن استئناف المفاوضات مع جمـال باشا.

السفير: ايزوفولسكي

— ٩ —

الى سفير روسية في باريس

بطرسبورغ في ١٧ كانون الثانـي سنـة ١٩١٦

شيفرة رقم ٦٣٣

جوابا على القضايا المتعلقة ببرقيتي رقم ٦٥١٨ وبرقية سفيرنا في لندن رقم ٩٠٦

اؤيد فكرة السر ادوارد غراي بوجوب قيام الافرنسيين انفسهم بمفاوضـة جمـال باشـا ووسطائه في القاهرة.

لهذا ارجو مفاوضة بريان في هذا الامر وتقديم الضمانات اللازمة له بشأن سوريـة والعمل بكل قواكم لحمل الافرنسيين على القبول بهذه المفاوضات التي نراها جد ضرورية في

سبيل تحقيق رغائبنا ورغائب الافرنسيين معاً .

وزير الخارجية : سازانوف

— ١٠ —

الى سفير روسية في باريس
الى سفير روسية في لندن
برقية شيفره
بطرسبورغ في ١٩ كانون الثاني سنة ١٩١٦ رقم ٨٤
ذيل برقيتي رقم ٦٥١٨

يقول الوسطاء ان البطء في بدء المفاوضات يحول دون تأمين الفوز المنتظر فاذا كانت الحكومات التي تمثلونها لديها تعتقد ان مجرد نشوب ثورة داخلية في تركية موافق لمصالح الحلفاء عرفونا فوراً لنرسل الوسطاء الى مصر عن طريق لندن وباريس مع اجراء التسهيلات اللازمة لهم لمقابلة اركان الخارجيتين حين وصولهم اليكم .

وزير الخارجية : سازانوف

— ١١ —

الى وزير الخارجية الروسية في بطرسبورغ
لندن في ٢٧ كانون الثاني سنة ١٩١٦ ، رقم ١٧
شيفرة — نسخة لباريس
تلقيت برقيتكم رقم ٨٥

اجابني نيكولسون ان الحكومة البريطانية بعد فحصها القضية من جديد وتقليبها على سائر وجوهها ترى من الضروري عدم اشتراكها في هذه المفاوضات والتنازل عنها بصورة نهائية لأن المفاوضات التي تدور مع العرب تدور بجو صاف وبصورة ملائمة للعرب والانكليز معاً .

ثم سألته عما اذا كانت الحكومة البريطانية تجد مانعاً في ان تتولى الحكومتان الروسية والافرنسية هذه المفاوضات بصورة افرادية فاجاب ان الحكومة الانكليزية لا تعارض في ذلك قط الا انها لا تؤيدها بوجه من الوجوه .

والذي لاحظته ان الحكومة الانكليزية تعتمد في الدرجة الاولى على العرب وحدهم مستفيدة من شعورهم العدائي للاتراك وجمال باشا الذي اعدم رجالهم .

السفير : بنكندورف

— ١٢ —

الى وزير الخارجية الروسية في بطرسبورغ
باريس في ٢٨ كانون الثاني سنة ١٩١٦
جوابا على برقيتكم رقم ٨٠

وافقت الحكومة الافرنسية على الاقتراح المقدم من قبلكم ولم تجد فيه ما يمس الاتحاد الموجود بين الحلفاء

وقد علمت ان مسيو بريان وحكومته غير راضين تمام الرضى عن المفاوضات السرية التي يقوم بها الانكليز مع العرب لان الانكليز انصرفوا الى خدمة انفسهم دون حلفائهم في هذه القضية .

السفير : ايزوفولسكي

— ١٣ —

باريس في ١٣ مارس سنة ١٩١٦
شيفرة رقم ١٩٦
نسخة الى لندن

وصل منذ مدة الى هنا ظافارياف وعملا باشعاركم السابق سهلت له طرق المخابرات والاجتماع بالمسيو بريان .

ابلغ ظافارياف مسيو بريان المشروع الذي وضعه لاجراء مفاوضات في مصر مع جمال باشا مع بيان باسماء الرجال وطرق مخابراتهم مع الباشا ولئن كان المسيو بريان استقبل ظافارياف استقبالا حسناً واظهر له كل عطف الا انه لم يعده وعداً ثابتاً بل لاحظنا من اجوبته انه يحاول التخلص من وعد قطعي باحثاً عن موقف احمد جمال باشا غير الثابت وعن الدور المولج به ظافارياف ، مع هذا اتمنى له الفوز في مهمته وقد سافر ومعه احد الضباط الافرنسيين لاتمام هذه المفاوضات في مصر .

تعليق ساطع الحصري على : رواية استعداد جمال باشا للعصيان على الدولة(٢)

كانت المحافل (الأرمنية) تؤكد : ان جمال باشا في خلاف مستمر مع الحكومة المركزية ، وانه مستعد للعصيان عليها اذا ساعده الحلفاء مساعدة فعلية . انه يترك للحلفاء المضايق والولايات الاوروبية ، ويحول السلطنة العثمانية

الى حلف يتألف من دول سوريا وفلسطين والعراق وعربستان وكيليكيا وأرمنستان وكردستان، ثم يعلن نفسه سلطاناً على هذا الحلف.

هذه الأخبار التي روتها المحافل الأرمنية في روسيا هل كانت صحيحة؟ هل كان جمال باشا مستعداً - حقيقة - على العصيان، وعلى ترك المضايق مع الولايات الاوروبية الى الدول المتحالفة؟

اني كنت اشك في ذلك شكاً قوياً. صحيح ان جمال باشا كان شديد الطموح. ولكن طموحه هذا كان يستهدف السير في الصف الاول مع العاملين على تقوية السلطنة. فما كان من المعقول ان يقدم على تمزيق السلطنة بالشكل المسرود في الرواية، وان يترك للحلفاء المضايق وما وراء المضايق.

ومع ذلك لم أر لزوماً لبيان رأيي الشخصي في هذا الأمر، واكتفيت بذكر الرواية التي صارت موضوع مخابرات بين الحلفاء، دون أن اقول شيئاً عن صحتها او عدم صحتها.

ولكن، بعد ذلك، عندما رأيت ان اطلع على ما كتبه المحررون والمؤرخون الاتراك عن ايام الحرب العالمية، بحثت عما جاء في المؤلفات التركية عن الرواية المذكورة ايضاً، فعلمت انها لم تعرها اي اهتمام.

وقبل نحو ستة اعوام التقيت - صدفة - في احد مقاهي مدينة جنيف، ب «حسين جاهد يالجين» الذي كان جاء للاستشفاء في «افيان» انه كان صاحب جريدة «طنين» المشهورة، وكان معروفاً بصلاته الوثيقة مع صناديد جمعية الاتحاد والترقي. وتحدثت معه في مختلف الشؤون التاريخية وخلال ذلك سألته ما يعرفه عن تلك الرواية

وقال: اننا كنا اطلعنا عليها في حينها، وضحكنا عليها كثيراً، حتى ان انور باشا نفسه، عندما سمعها ضحك وقال: الجماعة لم يفهموا جمال.

* * *

وبناء على كل ما سبق، استطيع ان اقول الآن ان الرواية المذكورة كانت عارية من الصحة، وكانت وليدة الاوهام والتمنيات.

---

(٢) من يوم ميسلون، ص ٤٤١ - ٤٤٢.



لكي تكون سعيداً
طالع هذه الحكم بترو وامعان

● كثيراً ما يبحث المرء عن سعادته كما يبحث عن نظارته ... حين تكون معلقة على أنفه.

جوستاف دروز

● هذه غايتي من الحياة - أن أعيش هنيئاً بوسائل قليلة، أن أطلب الجمال لا البذخ، أن أكون لطيفاً رقيق الاحساس مع قلة الاختلاط بالناس أن تصان كرامتي لا كبريائي، أن أحوز الراحة لا الثروة، أن أعرف كيف أصغي للنجوم والطيور وللاولاد والشيوخ فافتح للجميع قلبي على الدوام، أن أدرس كثيراً وأفكر بهدوء واعمل بصراحة واتكلم بترو، أن أرقب الأحوال الملائمة لأعمالي فلا اتسرع قط في شيء منها، وبكلمة واحدة أن غايتي من الوجود أن تغمر الاعتبارات الروحانية السامية كل الأمور والشواغل الدنيوية - في ذلك سعادتي واغتباطي.

تشاننج

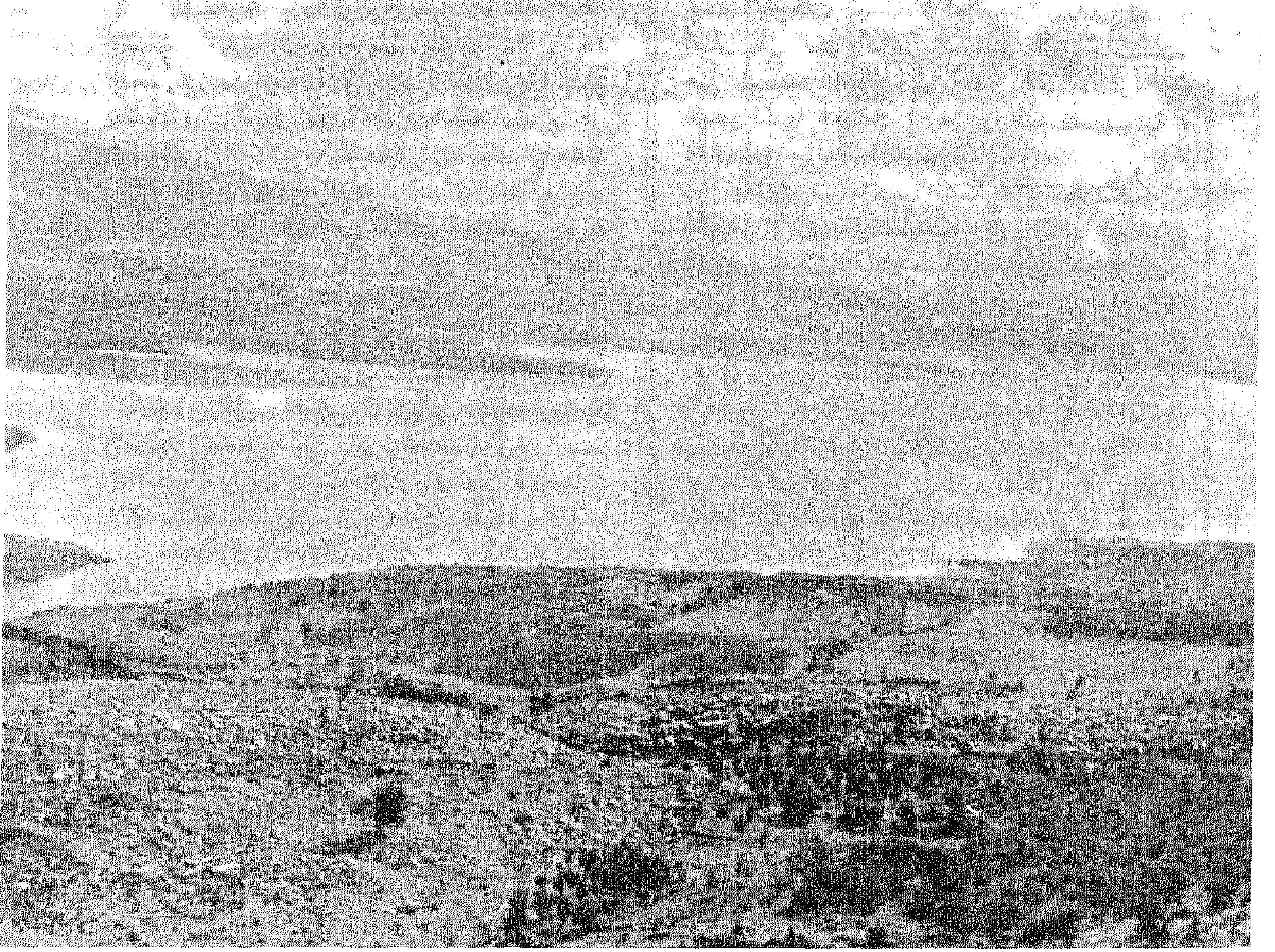
● الرجل الذي لا يرضيه القليل لا يرضيه شيء.

ابيقورس

هذا التحليل للخطر الصهيوني على جنوب لبنان الذي قدمه المرحوم موريس الجميل في صيغة مؤتمر صحفي عقده بتاريخ ١٩٦٠/١٢/٢٩ وبصفته وزيراً للتجهيز والانماء آنذاك، اكتسب مع الأحداث الراهنة أهمية خاصة، لا سيما وأنه صادر عن شخصية ربما كان لبنان بأحوج ما يكون إليها في هذه المرحلة بالذات.

حول مؤامرة الصهيونية على مياه لبنان

موريس الجميل



إن أخطر ما تعرض له وما يتعرض له، لبنان مؤامرة الصهيونية على أرضه ومياهه.

وتاريخ المؤامرة يعود الى ما قبل الحرب الكونية الأولى فان الصهاينة أدركوا منذ البداية أن حياة الدولة التي يصممون منوطة، الى حد بعيد، بالمياه ... بل أن المياه بالنسبة لهذه الدولة ستكون قضية حياة أو موت.

ومن الطبيعي أن تتجه أنظار الصهاينة الى منطقة غنية بالمياه تسد هذا العجز، فكانت تلك المنطقة: لبنان الجنوبي.

الخلاف الانكليزي - الفرنسي على الحدود :



الواقع ما أن نال الصهاينة وعداً من الحلفاء، في أثناء الحرب الكونية الثانية، بانشاء وطن قومي لليهود حتى رسموا مخطط حدود دولتهم المزمع انشاؤها، وجعلوا حدود هذه الدولة نهر الدامور. وهذا الواقع ثابت في وثيقة قاطعة هي إحدى الروزنامات التي كان يوزعها الصهاينة، فان غلافها لم يكن سوى خريطة «اسرائيل المستقبل».

ولما حاولت بريطانيا وفرنسا اقتسام المنطقة المنسلخة عن الامبراطورية العثمانية عقب الحرب الكونية الأولى (عملا باتفاق سايكس - بيكو) بدأ الضغط الصهيوني على الانكليز والفرنسيين لتحقيق مخطط الحدود لدولة «اسرائيل المستقبل».

وتبين الاسانيد أن خلافا نشب بين الفرنسيين والانكليز حول حدود المنطقة الواقعة تحت السيطرة البريطانية. فقد كان ملحوظا أن يكون نهر الدامور حدود المنطقة لتصبح الأراضي الجنوبية اللبنانية ومياهها ملكا لاسرائيل المستقبل، لكن واضعي الحدود، لجهلهم حقيقة الوضع، خلطوا بين نهر الدامور وبين نهر القاسمية، ورمزوا لهذا الأخير (أي للقاسمية) لأن مخطط الحدود يصبح معه مستقيما.

وجهل اللجنة العسكرية الفرنسية - البريطانية المشتركة أتاح في النهاية لألبير نقاش (مدير الأشغال عهدئذ، المكلف بمرافقة اللجنة بصفة خبير وطني) أن ينقذ المياه اللبنانية من مؤامرة الصهيونية التي تدبر لها في الخفاء. فقد استطاع أن يلهي اللجنة العسكرية سياحيا وأن يجعلها تتكل عليه باجراء العمل الشاق المادي فكان أن نقل الحدود المرسومة وراء الكواليس الى رأس الناقورة وبهذا انقذ مصب الليطاني من أن يكون مشتركا بين لبنان وبين القطاع الفلسطيني الذي تحول اليوم الى اسرائيل.

وفوجىء واضعو الخطط وطابخو المؤامرة بالواقع المرير. ولتدارك هذه الفاجعة تحركت الصهيونية العالمية وراحت تسعى لدى السلطات البريطانية والفرنسية لتحوير الحدود اللبنانية الفلسطينية تحت ستار تقويم الحدود أي جعلها خطاً مستقيماً.

وعندما يئست الصهيونية من سعي استمر أكثر من أربعة عشر عاماً، لجأت الى مناورة جديدة هي محاولة الحصول على مياه لبنان الجنوبي دون مس الحدود.

وتفصيل المؤامرة أن شركات صهيونية مستترة راحت تقدم العروض الخلابة الى السلطات الفرنسية - اللبنانية مثل اقامة معامل كهربائية - مائية ضخمة على مياه الجنوب واعطاء حصة كبيرة من الكهرباء، بغير مقابل تقريبا، لحكومة لبنان، لقاء ترك المياه تذهب الى فلسطين بعد توليد الكهرباء. وكانت هذه الشركات تستخدم جميع الوسائل لاقناع لبنان بأن الكهرباء هي العنصر الغني وأن المياه هي العنصر الفقير بل أنها ذاهبة هدراً الى البحر لكنها اخفقت (ومن ورائها الصهيونية) في تحقيق مؤامرتها الجهنمية.

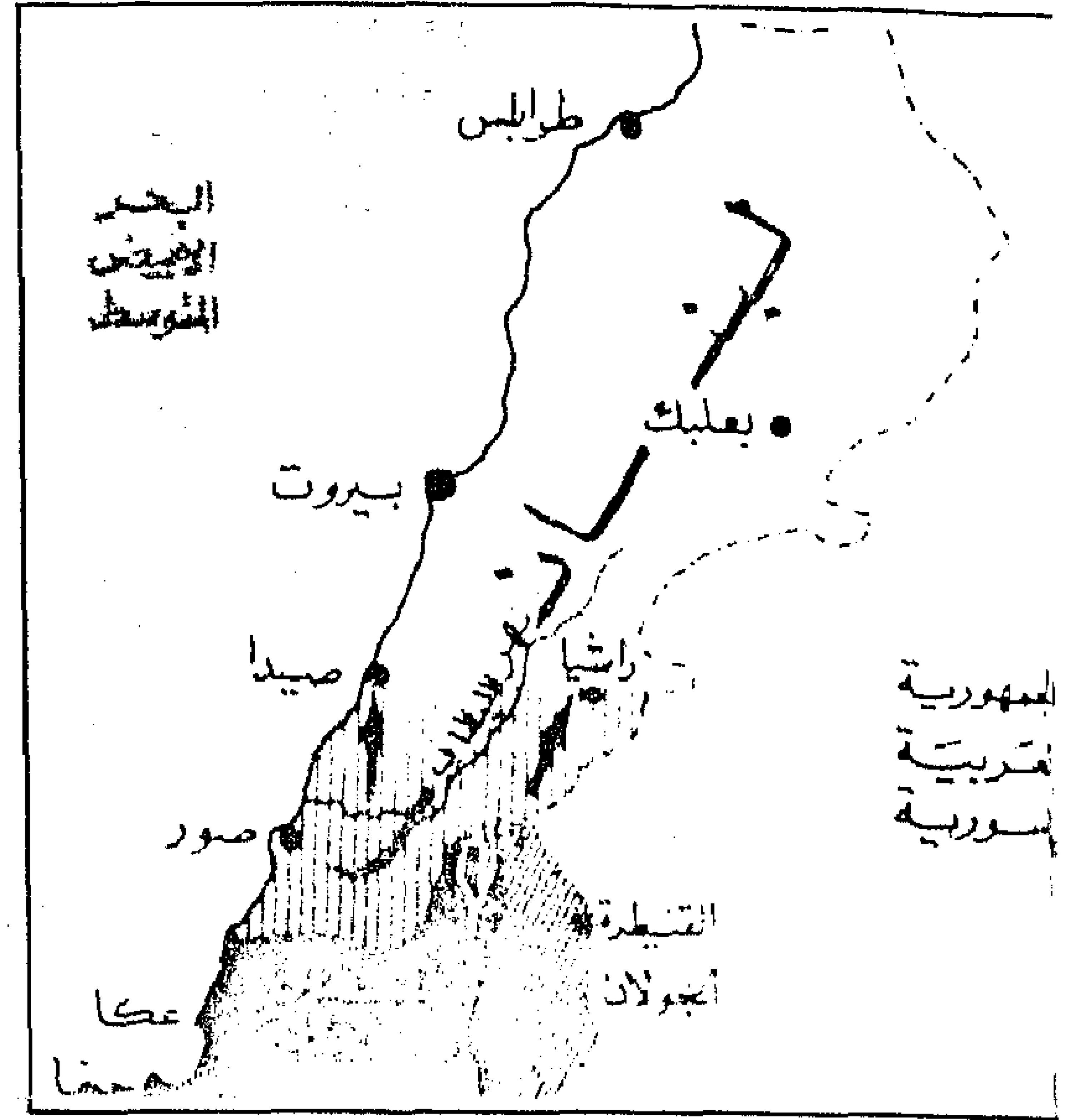
والمؤامرة الوحيدة التي استطاعت أن تنفذها في عهد الانتداب هي اقناع اللبنانيين الذين يملكون أراضي مستنقعية في الجنوب أن أراضيهم لا تساوي شيئاً وأنهم يعملون صفقة عظيمة ببيعها لاوروبيين «مساطيل» يطمعون في شرائها. والحقيقة أن هؤلاء الأوروبيين، بشرائهم المستنقعات قد اشتروا «لاسرائيل المستقبل» خزانات مياه لا تقدر بثمن.

الخطر الاسرائيلي في عهد الاستقلال :

وفي عهد الاستقلال - استقلال لبنان - وبعد انشاء اسرائيل أصبحت مياه لبنان الموضوع الرئيسي الذي يشغل اسرائيل.. وأصبح خطر اسرائيل على لبنان حقيقة واقعة.

ففي العهد الاستقلالي، عهد التحرر من الاجنبي، وبالتالي عهد التحرر من القيود الكثيرة المختلفة التي لعبت الدور الأول في افقارنا وتفسيخنا، كان أمامنا طريق واحد لانقاذ لبنان من مؤامرة الافقار، وتأمين الرفاهية القصوى للشعب اللبناني، وتحقيق انسانية الانسان في لبنان. وهذا الطريق هو استثمار الموارد الهائلة المهملة التي منشأها المياه وبالتالي كان علينا لنفيد من هذه المياه في عهد الاستقلال، أن نقطع الطريق على المؤامرة الصهيونية.

وفي الواقع، خوفاً من تمكن الصهيونية العالمية من التوصل الى الاستيلاء على المياه اللبنانية التي تملكها الدولة وبالتالي يجوز لها



التصرف بها كما تشاء، بل خوفاً من أن ينخدع رجال الدولة ويتصرفوا تصرفاً قد يؤدي بالمياه اللبنانية الى غير المصلحة اللبنانية، انشأنا على هذه الأملاك حقوقاً خاصة (منبثقة من طلب امتياز على هذه المياه) تمنع الدولة من إجراء أي اتفاق أو معاهدة.

كان ذلك عام ١٩٤٦ يوم تقدمت باسم المرحوم البير نقاش بطلب الى السلطات اللبنانية يسمح لنا باستثمار جميع المياه بشكل لا يدع نقطة واحدة تذهب هدراً الى البحر.

وكان أن انشئت اسرائيل. وهنا شعرنا بالخطر الداهم لمعرفتنا التامة بنواياها العدوانية ومطامعها بالمياه اللبنانية. فالصهاينة الذين برروا احتلالهم الأراضي الفلسطينية العربية بأن العرب يهملون هذه الأراضي (وأن اسرائيل بحاجة الى هذه الأراضي وتستطيع استغلالها بالطرق العلمية المثمرة) لن يعدموا وسيلة يطالبون بها باستغلال هذه المياه طالما أن اسرائيل لن تحرمنا منها لأنها تذهب هدراً الى البحر ولا نفيد منها.

وهنا كان علينا أن نتدارك الأمر فنسعى الى استباق اسرائيل والاسراع في استخدام مياهنا استخداماً علمياً تقنياً شاملاً يصون مصلحة البلاد العليا. ولم يكن أمامنا سوى تحقيق التصميم الشامل للمياه اللبنانية - هذا التصميم الذي يعد المياه اللبنانية وحدة لا تتجزأ (وحدة تمكننا من الانتفاع من المواهب الطبيعية الموجودة في لبنان انتفاعاً شاملاً ينسجم مع التخزين الأفضل، على أعلى ارتفاع ممكن).

ومن الدراسة الجيولوجية اتضح لنا أن جنوبي لبنان، بنوع خاص، يضم الأراضي التي تسمح بتخزين كمية كبيرة من المياه، فضلاً عن الصفة الخاصة المتميزة بها هذه الأراضي أي وجودها على ارتفاع موافق وتكونها من مرتفعات متدرجة العلو.

فحسب التصميم الشامل، تخزن في الجنوب مياه الليطاني - الحاصباني - الباروك - الصفا، في فصل الشتاء الى أقصى حدود التخزين الممكنة وفقاً للدروس الجيولوجية.

وهذه المياه بالذات، التي تشكل ثروة لبنان الكبرى، هي التي تطمع بها اسرائيل. وكان أن وقع ما تخوفنا منه. فبدلاً من أن تحقق الدولة مشروع التصميم الشامل للمياه اللبنانية لانقاذ لبنان من مؤامرة الافقار، وانقاذ المياه اللبنانية من مؤامرة اسرائيل، اهملت المشروع، وتركت النقطة الرابعة تطلع علينا بمشروع الليطاني، وهو مشروع ظاهره الخير للبنان وحقيقته دمار لبنان وخدمة مصالح العدو.

وفي الواقع كان هذا المشروع سيقضي على التصميم الشامل للمياه اللبنانية (وبالتالي سيسهم في عملية افقار لبنان المزمنة) وكان سيترك قسماً كبيراً من المياه الجنوبية دون استثمار، الأمر الذي يفسح المجال أمام العدو لوضع يده على هذا الفائض من المياه فالمشروع في حقيقته، كان يستهدف توليد الطاقة الكهربائية من مياه الليطاني، مستبعداً قضية استخدام هذه المياه في أعمال الري، وبالتالي فهو يفيد أحد المشاريع الصهيونية.

وكان أن حذرنا الدولة من الوقوع في الفخ الذي نصبته الصهيونية، وشددنا على وجوب تحقيق مشروع التصميم الشامل للمياه اللبنانية. وقبل الانقلاب الأبيض عام ١٩٥٢ اضطرت الدولة أن تنظر الى المشروع نظرة جدية، وكادت الموافقة الرسمية على هذا المشروع أن تعطى لكن الانقلاب حال دون تحقيق هذه الأمنية الكبيرة(١)

وعند قيام العهد، الذي عقب عهد الشيخ بشارة الخوري، جددنا المسعى وكانت النتيجة أننا حصلنا على موافقته المبدئية، لكن العهد

الجديد سرعان ما عاد عن موافقته ورفض تنفيذ المشروع، بتأثير من الهيئات الأجنبية ورجال السياسة التقليديين الذين التقت جهودهم بجهود المؤسسات الصهيونية.

فبدلا من تنفيذ هذا المشروع الكبير ظهر مشروع الليطاني بشكله الجزئي (مشروع النقطة الرابعة نفسه، مع تعديل طفيف). وهنا كان لا بد من تحذير السلطة، مرة ثانية، وانذارها بأن انجاز هذا المشروع، بمعزل عن نهر الحاصباني بنوع خاص، وعن التصميم الشامل بنوع عام، سيفقدنا كل حق أمام السلطات الدولية والمحاكم العالمية، لأن القانون الدولي يلحظ أن المياه التي لا تستثمر في بلد ما، وتذهب هدرا، يحق للبلدان المجاورة استخدامها، ولا يحق للبلد الذي تنبع منه هذه المياه أن يمنعها من ذلك، وفقا لقاعدة «اساءة استعمال الحقوق». لكن هذا الانذار ذهب في الريح.

وتوضيح قضية مياه الحاصباني ضرورية لتبيان هول المؤامرة التي دبرت على مياهنا عندما أثير موضوع تحويل الحاصباني تحت ستار الرد على محاولة اسرائيل تحوير مجرى الأردن

فالحقيقة أن الحاصباني، بحد ذاته، ليس سوى نبع بسيط في وادي حاصبيا، يكاد لا يكفي لارواء جزء من الأراضي الكائنة على ضفته، وتكاد مياهه الرئيسية لا تصل الى الحدود اللبنانية الفلسطينية، وبالتالي عندما يصرح الصهاينة ومن يؤيدهم: «أن تحويل الحاصباني الى الليطاني يشكل خرقا لحقوق مكتسبة في فلسطين» فانهم يفترون ويدجلون.

الحقيقة، مرة اخرى، هي أن مياه الحاصباني، كنهر، لم تصل في يوم من الأيام الى الحدود الفلسطينية. وكل ما في الأمر أن مياها غزيرة ناتجة عن سقوط الأمطار تتجمع في الأحواض المجاورة للحاصباني (أحواض بعيدة جدا عن الحدود) ثم تصب فيه وتسير، لتغذي بعض مستنقعات الحولة، في فصل الشتاء.

وضجة الصهيونية حول الحاصباني تعود الى أن إسرائيل التي كانت تعتقد أن الجيوب المائية الجوفية الفلسطينية تغذى بكميات كافية من المياه المتسربة جوفيا من لبنان (وبالتالي بنت برنامجها الزراعي للبيارات، وجهزت هذه البيارات بالآبار الارتوازية) ظهر لها بعد ئذ أن اعتقادها كان خاطئا، والسبب أن ما يستخرج من هذه الآبار لتموين البيارات يفوق الكميات التي تأتي الى هذه الجيوب من لبنان، وبالتالي فان هذه الجيوب الجوفية مقضى عليها بالنضوب.

من هنا لم يبق أمام اسرائيل، لانقاذ نفسها من الخراب المحقق، الا أن تعمد الى وضع مشاريع مختلفة لنسف مشروع التصميم الشامل للمياه اللبنانية، أملا بوضع يدها يوما على مياهنا الجنوبية.

ولا بد في هذا المجال من الاشارة الى واقع هو أن وصول من ينادون بالتصميم الشامل للمياه اللبنانية الى الحكم جعل اسرائيل تضيع رأسها وتجد نفسها أمام خطر الحرمان من مياه سيولنا التي اتخذت مجرى الحاصباني منفذا لها.

وهنا، للمرة الثالثة، نشدد على أن المياه الاساسية التي تكون الحاصباني في فصل الشتاء تأتي من جبل حرمون بشكل سيول جارفة. وهذه المياه بالذات هي التي تصل الى فلسطين عن طريق جريانها في مجرى الحاصباني. وقد سجلت احدى محطات القياس في اسرائيل مرور ٣٧ مليون متر مكعب من هذه المياه في فترة ثلاثة أيام فقط.

والتصميم الشامل للمياه اللبنانية يوقف جريان هذه السيول في مجرى الحاصباني، في المنطقة الجنوبية، أثناء فترة السيول، وهذا الأمر لا يعرض الحكومة اللبنانية للمقاضاة أمام المحاكم الدولية، لأن هذه السيول تسبب أضرارا في الأراضي اللبنانية والفلسطينية على السواء.

وللقضاء على هذا المشروع الحيوي لجأت اسرائيل الى مؤامرة جديدة يظهر معها مشروع التصميم الشامل للمياه اللبنانية (مشروع ميزنا فيه بين جميع المياه التي تستخدم مجرى الحاصباني لعدم مس القانون الدولي) كمشروع يقع تحت طائلة القانون.

وفي الواقع أن من طرح قضية تحويل الحاصباني بالشكل الذي طرح به (أي تحويل مياهه في أقصى نقطة من الجنوب) لم يكن يخدم سوى اسرائيل.

فالتحويل كما اقترح يسيء أولا الى التصميم الشامل للمياه اللبنانية الذي ينص على وصل مياه الحاصباني الاعلى – لا الجنوبي –

بالليطاني، وبالتالي الافادة من سيول حرمون هذه السيول التي تخرب الأرض ولا تفيد، وتغذي اسرائيل في النهاية عن طريق سيرها في مجرى الحاصباني. ومعنى هذا أن من طرح قضية التحويل كما طرحت، تحت ستار الرد على محاولة اسرائيل تحوير مجرى الأردن، كان يسهم في عملية، أو مؤامرة افقار لبنان.

والتحوير كما اقترح يظهر لبنان ثانيا بصورة الخارج على القانون، أي بالمعتدي على حقوق مكتسبة مزعومة لاسرائيل.

هذه، في سطور تفاصيل مؤامرة اسرائيل على لبنان في عهد الاستقلال. فاسرائيل تريد القضاء على مشروع التصميم الشامل للمياه اللبنانية لتنفيذ مؤامرة الافقار المزمنة.. وتريد وضع يدها على مياهنا الجنوبية لتنقذ نفسها من الموت.

ومن الوثائق التي تبين أن الصهيونية ما زالت تطمع بأرضنا ومياهنا: هدية اسرائيل الى «المكتب الدولي للعمل في جينيف. فان اسرائيل، بعد أن ظهرت الى الوجود قدمت الى هذه المؤسسة الدولية «الشمعدان الاسرائيلي» وعلى قاعدته خريطة اسرائيل بحدودها «المتوخاة» أي نهر الدامور

بل أخطر وثيقة صهيونية تكشف نوايا اسرائيل وطمعها بأرضنا الجنوبية ومياهنا خطاب بن غوريون، رئيس وزراء اسرائيل أمام المؤتمر الصهيوني الخامس والعشرين المنعقد في القدس بتاريخ ٢٨ كانون الأول ١٩٦٠ - وفيه أن الحدود الاسرائيلية - اللبنانية هي المنطقة التي اختارتها اسرائيل لتوطين «المعمرين» الجدد من يهود العالم، وإن هذه الحدود هي نقطة الضعف الكبرى السياسية والعسكرية في اسرائيل.

وهذا كلام واضح، يعني ما يعني، أن اسرائيل ستلجأ الى القوة لتنفيذ مخططها السياسي الذي يهدف الى وضع يدها على أرضنا الجنوبية ومياهها.

وهكذا يكون عدم تحقيق مشروع التصميم الشامل للمياه اللبنانية، بعد سبعة عشر عاماً من الاستقلال، جريمة في حق الاستقلال. هذا لعدم القول أنه يخدم مشاريع الصهيونية مؤامرة اسرائيل.

---

(١) راجع تقرير المرحوم ابراهيم عبد العال، رئيس اللجنة الفنية المنبثقة عن اللجنة الحكومية المكلفة بدراسة التصميم الشامل للمياه اللبنانية بتاريخ ١٥ ايلول عام ١٩٥٢ فان عبد العال الذي تفهم خفايا الأمور وارتفع من مهمته المائية الى المستوى السياسي العالي قال: لا ينقذ لبنان الا التصميم الشامل للمياه اللبنانية.

كلمات شابة

◆ يميل الأمريكيون إلى التعلق بالأرقام كثيراً. وإني لأذكر هذه القصة المحزنة للرجل الذي غرق في نهر عمقه لا يزيد «في المتوسط» على قدمين.

(هنري تايلور)

◆ يحتاج الأطفال إلى نماذج للعمل أكثر من حاجتهم إلى ال العقل.

(جوزيف جوبرت)

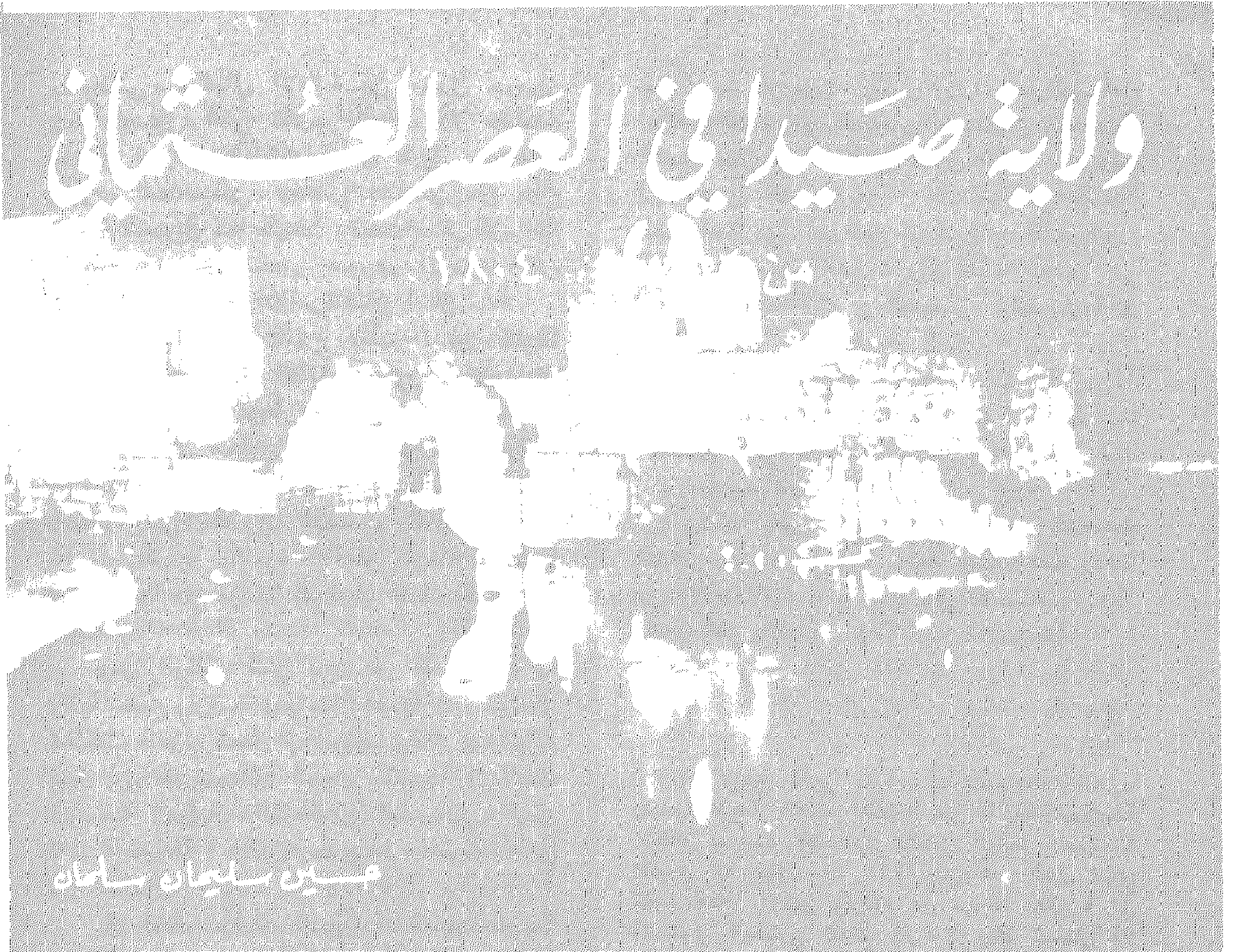
◆ هناك دائماً حل لكل مشكلة انسانية .. حل منمق، مرض وإن كان خاطئاً.

◆ من يخرج من دعائه وقد ازداد صلاحاً، فقد أجيبت دعواته.

(جورج ميريديث)

◆ انني أمقت النفاق الذي يبذل دون عناية .. ذلك اللون من المديح الذي تضيق به وأنت تحاول تصديقه.

(ويلسون ميتزنز)



لم يكن لبنان بحدوده الحالية يشكل مجتمعاً سياسياً واحداً خلال العصر العثماني، بل كان يتميز ببعض الخصائص السائدة فيه. وهذه الخصائص تعود الى زمن ابعد من القرن السابع عشر. فقد عاش سكان لبنان منذ قرون في اقاليم جغرافية منفصلة، دون ان تقيم علاقات فيما بينها الا في حالات الخصام. وكانت هذه الأقاليم تتوزع ضمن ثلاث ولايات عثمانية وهي: طرابلس وصيدا ودمشق ويحكم كلا منها وال عثماني يساعده عدد من الموظفين والجند.

وقد سلخت ولاية صيدا في الأصل عن ولاية دمشق بموجب فرمان صادر في ٢٨ محرم عام ١٠٢٣هـ/ (١٠ آذار - مارس عام ١٦١٤م). وهي تضم سناجق صيدا وبيروت وصفد، وعين بيلربك[١] ليحكم هذه الولاية الجديدة.

ويبدو على الأرجح ان السلطات العثمانية قد اتخذت هذا التدبير، لتتمكن من مراقبة الدروز عن كثب، بعد هزيمة الامير فخر الدين المعني عام ١٦١٣ وفراره الى توسكانة. وفي عام ١٦١٥ احال والي دمشق حكم سناجق بيروت وصيدا وصفد الى الأمير يونس معن مقابل مبلغ من المال، ثم فوض الأخير مقاليد الولاية لابن أخيه الامير علي.

وبعد عودة الامير فخر الدين من منفاه عام ١٦١٨، وتبوئه السلطة بعد ذلك بوقت قصير، منحه والي دمشق على الأغلب حكم سنجق صفد. ونظراً الى ان باشا دمشق لا صيدا هو الذي اعاد الأمراء المعنيين الى حكم هذه السناجق، فان هذا الامر يجعلنا نظن ان ولاية صيدا قد الغيت، بعد سنة من تاريخ انشائها، وان سناجقها قد ضمت الى ولاية دمشق، ذلك ان انقياد امراء آل معن للسلطنة العثمانية بعد فرار فخر الدين المعني، ادى الى جعل استمرار ولاية صيدا غير ضروري.

ثم ان ولاة دمشق وجدوا في الأغلب في

استمرار الولاية الجديدة، ما يحد من نفوذهم ومن مداخيلهم. ولذلك ضغطوا من اجل اعادتها الى حكمهم.

ولاية من جديد:

وفي عام ١٦٦٠ اعاد الباب العالي محمد باشا قبورللي انشاء ولاية صيدا، وجعل عليها حاكماً علي آغا الدفتردار[٢]. ومنذ ذلك الحين لم يعد آل معن يشكلون اي خطر حربي على السلطات العثمانية، وعلى الأخص بعد انتشار الحزبية بين الدروز وتقسيمها لصفوفهم.

وربما كان تشكيل ولاية صيدا بمثابة صمام امان بالنسبة للسلطات العثمانية. والارجح ان هناك وقائع اخرى قد ادت الى هذه النتيجة، منها:

١ – مكافأة علي باشا الدفتردار الذي قاد جنود القابقول[٣] من استامبول، وقضى على مؤامرة السرعسكر حسن باشا والي حلب وانكشارية دمشق.

٢ – الحد من سلطة ولاة الشام خوفا من اتساع نفوذهم.

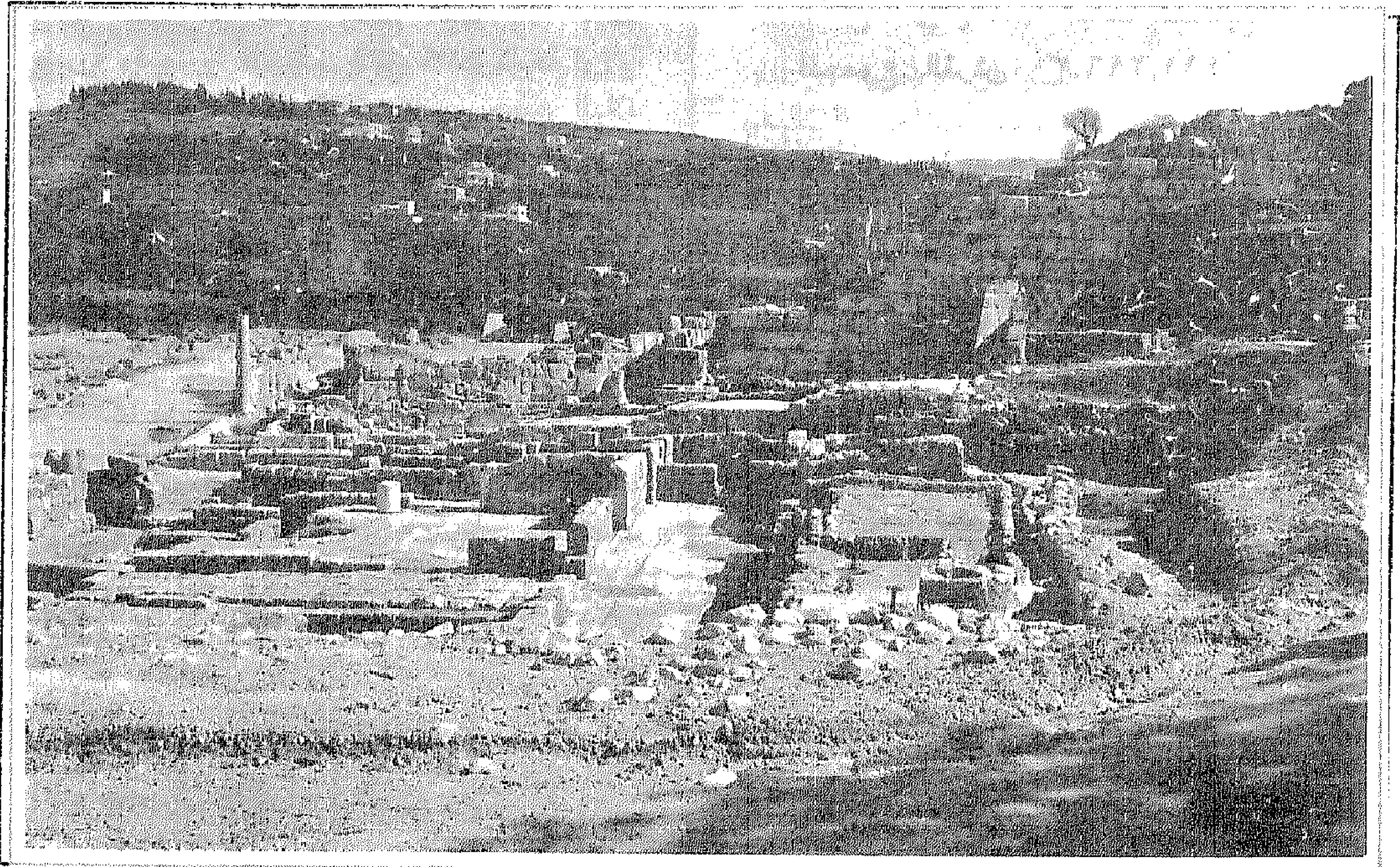
٣ – تطور احداث دمشق اقتضى زيادة اهتمام الولاة بشؤونها الداخلية وتقليص مطامعهم عن طريق تحديد مداخيلهم.

٤ – حرص الدولة على مراقبة امراء جبل الدروز عن كثب بعد ثورة فخر الدين.

وتقع ولاية صيدا الى الجنوب من ولاية طرابلس، وعلى طول الساحل ذاته ومركزها مدينة صيدا وكانت تمتد من نهر الكلب حتى جبل الكرمل، وتضم جانباً كبيراً من مدن بلاد الشام البحرية بيروت وصيدا وصور وعكا وحيفا، الى جانب المقاطعات الخاضعة لأمير جبل الدروز، ومقاطعات جبل عامل وبلاد صفد والجليل وقيصرية في الوسط.

وجرت العادة على ان يعهد بولاية صيدا الى باشا بذيلين واحياناً بثلاثة اذيال[٤]، وكان يمارس سلطته المباشرة على مدن الساحل وضواحيها، عن طريق اقامة متسلمين عليها من قبله. في حين كانت سلطته اسمية في مقاطعات البلاد الداخلية ولا سيما العالية منها، التي عهد بادارتها الى اقطاعيين اقوياء، لا يدفعون له الضريبة المتوجبة الا حين يرغب، وبالطريقة التي تناسبه، وهؤلاء الاقطاعيون هم الدروز والمتاولة.

قلعة اشمون (قرب نهر الاولي – صيدا)



بنية اقطاعية :

وكان على كل مقاطعة امير او شيخ اقطاعي من عائلة ارستقراطية، ذو سطوة ونفوذ على سكان مقاطعته الذين يقفون الى جانبه، عند حاجته اليهم ولا يخالفونه بشيء. ويتبع هؤلاء المقاطعجية الامير الحاكم الذي التزم هذه المقاطعات على سبيل المالكانة من الباشا. ولا يسمح المقاطعجية للباشا بالتدخل في شؤونهم الداخلية والا تمردوا عليه، في حصونهم وجبالهم التي كانوا يعيشون فيها بحرية في ظل قوانين اقطاعية. وكان مقاطعجية بلاد الشوف وملحقاتها يرجعون بأمورهم الى الأمير الحاكم من آل معن ثم من آل شهاب بعد ذلك، وهم اعوانه من دروز ونصارى، ومقاطعجية جبل عامل الى شيخ مشايخ المتاولة، ومقاطعجية بلاد صفد والجليل الى ملتزم تلك البلاد.

ومنذ النصف الثاني من القرن الثامن عشر اخذت تتضاءل سلطة الوالي على حدود ولايته، بقدر ما كانت تنمو وتتسع سلطة الشيخ ظاهر العمر الزيداني واعوانه مشايخ جبل عامل، وتمكنوا من جعل سلطة الوالي لا تتجاوز حدود مدينة صيدا، ثم لم يلبث ان طردوه منها في النهاية وبعد القضاء على الشيخ الزيداني تمكنت الولاية من استعادة حدودها السابقة، واسناد حكمها الى احمد باشا الجزار الذي نقل مركز ادارته منها الى عكا، وضم اليها بلاد صفد وطبرية وقيصرية فلسطين التي كانت تابعة لولاية دمشق. وصارت هذه الولاية تضم جميع البلاد الواقعة ما بين نهر الكلب وقيصرية فلسطين جنوبا والبحر المتوسط غربا والجانب الاعلى من نهر الأردن شرقا، وتعد هذه الولاية سوقا لدمشق وسائر سوريا بفضل موقعها على الساحل وكثرة خلجانها.

وترجمتها بالارقام :

والوالي حاكم مطلق السلطة يلتزم البلاد لمدة سنة واحدة، يمكن تجديدها، بعد ذلك مقابل سبعمائة وخمسين كيسا يقدمها سنويا للباب العالي، وكانت الولاية تدر على الباشا مداخيل وفيرة وذلك مقابل :

١ – مال التزام جبل الدروز وجبل عامل وبلاد صفد من الامراء والمشايخ الملتزمين. وهذا بيان تفصيلي بها :

أ – عن بلاد الدروز

جبل الدروز ٦٦٩٢٧,٣٠

مدينة بيروت ٥٨٧٨٦,٢٠

ب – عن البلاد الخاضعة لسلطة الشيخ ظاهر العمر :

عن بلاد صفد ومدينة عكا ٨٥٣٢٢,٣٠

عن ارياف عكا ٢٦١٨٤,٢٠

من سكان جبال عكا ٢١٦٠٨,٢٠

من سكان الناصرة ٤١٧٩,٢٠

جـ – عن بلاد المتاولة (جبل عامل)

من الشيخ ناصيف النصار المقيم في قلعة تبنين في بلاد بشارة ٨١٨٥٨

من الشيخ قبلان المقيم في قلعة هونين من بلاد بشارة ١٨١٥٨

من الشيخ احمد عباس المقيم في صور وقلعة مارون ١٨١٥٨

من الشيخ عباس علي المقيم في قلعة ميس من اقليم شومر ٩٧٧٠

من الشيخ علي فارس المقيم في قلعة شقيف من اقليم شومر ١١٧٤٧

الشيخ حسن منصور المقيم في قلعة جباع ٧١٩٦

الشيخ حمزة منصور المقيم في اقليم التفاح ٧١٩٦

د – عن مدينة صيدا :

التزام مدينة صيدا ٥٠٠٠٠

الخلع التي يمنحها الباشا للمشايخ ٧٠٠٠

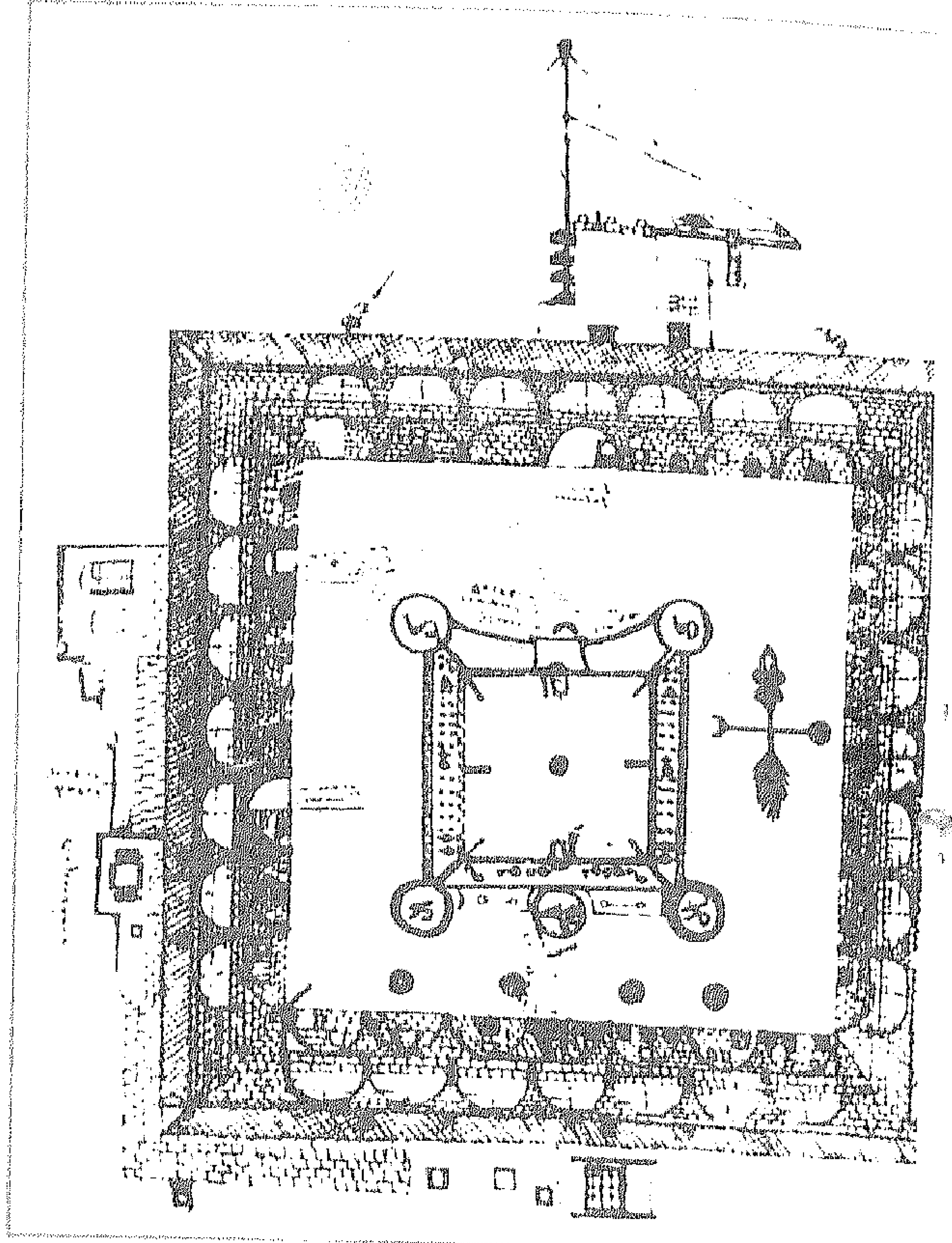
المجموع بالقرش ٤١١,٣٩٦,٣٠

النفقات :

ويتوجب على والي صيدا تمويل قافلة الحج الشامي، بما تحتاج اليه من ارز وشعير وقمح، اي ما يقارب سبعين الف قرش، وان يدفع رواتب جند الولاية، ومبلغا مقداره ٢٦٢١٦,٢٠ قرشا للسلطات و٢٦١٩٤ قرشا للباب العالي و٥٨٤٣ قرشا لدفتردار الامبراطورية في استانبول.

نقل الولاية الى عكا :

وقد تميزت ولاية صيدا عن بقية الولايات العثمانية، بأنه لم يكن فيها جند محلي من أهل البلاد، وذلك لسبب عدم اهميتها وقلة ثقة الوالي بالسكان. وكان عسكر الولاية مؤلفا من خيالة ارناؤوط واكراد وتركمان من اهل العراق، وخمسمائة مشاة من المغاربة من اهل تونس



الخان الفرنسي في القرن السابع عشر.

والجزائر وطرابلس والسودان ومصر. واعتاد الباشا تخفيض عدد الجند ليخفف التكاليف التي يتطلبها وجودهم، ولكن حين تولى الجزار مقاليد هذه الولاية، رفع عدد الجند الى تسعة آلاف فارس الى جانب الألف المغربي الذين كانوا معه. كما نقل الولاية الى عكا لاسباب سياسية وامنية، وضحى بمركز مزدهر وهواء نقي واصبحت المدينة مهجورة، وفقدت ازدهارها السابق ونشاطها الاقتصادي. وانتقلت القنصلية الفرنسية الى العاصمة الجديدة، للولاية. ولم يعد يوجد في المدينة سوى نائب قنصل.

وكانت مدينة صيدا تمتد على مساحة من الأرض طولها ستمائة قدم وعرضها مائة وخمسون، ويحيط بها من البر سور ضعيف دون ابراج او أية تحصينات يفصلها عن الجوار الغني بمختلف انواع الأشجار المثمرة التي تسقى من الجبال المجاورة، في حين كانت تخلو من الاسوار من ناحية البحر. وكان الماء يصل الى المدينة بقنوات مكشوفة من نهر الاولي. وكانت تضم ثلاثة ابواب وهي: باب المدينة في الشرق (المدينة المنورة) والثاني يسمى باب القبب والثالث يدعى باب القيامة.

وكانت تضم مجموعة من الأبنية السيئة البناء، ومتاجر بلا ذوق ولا ثراء، وطرقات متعرجة، وكان ابرز معالم المدينة سراي الباشا والخان الفرنسي والبازار والقلعتان.

وكان الخان الفرنسي مركز تجمع الفرنسيين، وكان مكونا من عشرة منازل ويحرسه حاجبان وانكشاريان، معينان من قبل الباب العالي لمنع التعديات التي قد تحصل من اهالي البلاد على التجار وممتلكاتهم، كان يتكون ايضاً من طابقين يضم الأسفل مخازن التجار، في حين كان يضم الطابق العلوي غرف التجار والوكالات.

اما القلعتان فكانتا مخصصتين للدفاع، واحداهما بحرية كانت تخيف الدروز والاعراب وتقع في الجانب الشمالي الغربي من المدينة، وتبعد عن البر ثمانين قدما وتتصل به بأقواس، والى جانبها الغربي صخرة بارزة فوق الماء طولها مائتا قدم. وترسو السفن في المسافة التي تقع بين الصخرة والقلعة وهذا هو المرفأ، لكنه لم يكن صالحاً لحماية السفن من الرياح اذا هبت العواصف او ثارت. وكانت ترسو فيه السفن في الفترة الواقعة بين عيد الفصح وعيد جميع القديسين فتشحن عليها البضائع الى مرسيليا. في حين كانت ترسو في الفترة الواقعة بين عيد جميع القديسين وعيد الفصح في مرفأ صور حيث تجد الأمان في فصل الشتاء. ولو ازيل الردم الذي احدثه الامير فخر الدين في الحوض الواقع على الشاطىء الموازي للمدينة، لاستوعب ميناؤها خمسة وعشرين مركباً.

تجارة الفرنسيين:

أما القلعة البرية سانت لويس، فكانت مخربة، ومنصوب على برجها المتهدم جزئيا بعض المدافع القديمة التي لا قواعد لها. وكان لا يعرف احد هناك طريقة استعمالها.

وكان البازار بمثابة السوق. ويفتح يومي الاثنين والثلاثاء، وتحضر اليه النسوة من المدينة والقرى المجاورة وتحمل كل منهن رطلا او رطلين من خيوط القطن الرطبة التي تحوي



اشمون
ملك صيدا –
متحف اللوفر
– باريس

بعض السقط ، وبعد ثلاث ساعات او اربع يقفل السوق. ويشتري التجار الفرنسيون القطن الذي بيع في البازار، ولا يجرؤ بقية التجار الاوروبيون على منافستهم نظراً لعدم وجود اموال نقدية معهم.

ولم يكن لخيوط القطن سعر ثابت. بل كان يرتفع ويهبط حسب الحاجة والطلب عليه في مرسيليا التي كان يصدر اليها ثلثا انتاج البلاد، في حين كان يصنع الثلث الباقي في مصانع النسيج القطنية المحلية، الى أنسجة اشتهر اهالي صيدا بصناعته وكان يطلق عليها اسم «دمياطي».

كما كان هؤلاء التجار يشترون الحرير الأبيض الذي يسمى «صيداني» في اوقات الانتاج الوفير، بسعر يتراوح بين ١٠ و١١ قرشا للرطل الواحد، ونظراً لأنه كان من الصنف الخشن، فلم يكن يأتي بأسعار عالية.

وكان التجار الفرنسيون في صيدا يشترون الحرير من فلاحي القرى في وقت الجني، وذلك عن طريق الانتقال الى مناطق الانتاج في الجبل، بسبب خشية فلاحي البلاد الحضور الى المدينة خوفاً من ان يسئ الأتراك معاملتهم. وقد اشاع فيهم الفرنسيون هذه العادة مع الوقت، فكان هؤلاء يعهدون الى حوذيين بنقلهم على ظهور البغال، ومعهم الدراهم اللازمة يتجولون في القرى دون سلاح او حرس، ويدفعون الى الفلاحين افضل الاسعار ثم يأتون بالاحمال الى مدينة صيدا فتوضع في المخازن

الخاصة بهم. وبذلك كانوا يتخلصون من دفع الضرائب عند الشراء، وقد تنبهت السلطات العثمانية الى ذلك، وامرت الباشا والقاضي بتحصيل ذلك الرسم.

وكانت مدينة صيدا بمثابة مستودع لبضائع الساحل التي يؤتي بها اليها، فتجتمع فيها ثم تحزم في بالات وتحمل على المراكب الراسية لتنقل الى اوروبا، وتصدر الى البلاد الداخلية او الى دمشق التي كانت بمثابة السوق الأولى للمبادلات التجارية وكانوا ينقلون الى صيدا البضائع التي تأتيهم من فرنسا عن طريق عكا، وذلك نظراً للمصالح الاقتصادية التي تربط بين تجار هذين الميناءين.

وكان يسكن المدينة ما يقارب الخمسة آلاف نسمة يعمل معظمهم في غزل القطن. وقد ادى ظلم الباشا الذي كثيرا ما كان يجبر السكان على شراء وبيع أقمشة وحرائر بالاسعار التي تناسبه والتي كثيرا ما تكون اغلى او ارخص من سعرها الحقيقي وذلك وفقاً لأطماعه، ادى الى تحويل جميع السكان بأستثناء شخصيات معدودة الى درجة تعيسة. ■

الهوامش:

(١) بيلربك: اي أمير الأمراء.
(٢) الدفتردار: أي المسؤول عن الشؤون المالية.
(٣) تحريف التركية قيو قولي ومعناها عبيد السلطان او حرمه.
(٤) جزء من شعر الحصان، يؤخذ من ذيله، يرفع على الراية علامة التكريم، وهي رتبة الوزارة او الولاية. ويرجع هذا التقليد الى عصور الأتراك الاولى عندما كانت حياة الرجل مرتبطة بحصان.

المصادر والمراجع:

- ابو شقرا، يوسف خطار: الحركات في لبنان الى عهد المتصرفية، بيروت (لات).
- جودت اسماعيل: تاريخ جودت. تر. عبد القادر الدنا. بيروت ١٣٠٨هـ.
- حقي اسماعيل: لبنان مباحث علمية واجتماعية: جزءان، بيروت ١٩٦٩.
- رافق، عبد الكريم: بلاد الشام ومصر منذ الفتح العثماني الى حملة نابوليون بونابرت، دمشق سنة ١٩٥٦.
- رستلهوبر رينيه: التقاليد الفرنسية في لبنان، حريصا سنة ١٩٢١.
- سليمان، حسين سلمان: لبنان في فترة الصراع الداخلي (١٧٥٣ - ١٧٩٠). رسالة غير منشورة لنيل درجة الماجستير في التاريخ الحديث من جامعة القاهرة سنة ١٩٧٨.
- الشدياق طنوس: اخبار الاعيان في جبل لبنان جزءان، بيروت ١٩٧٠.
- الصليبي كمال: تاريخ لبنان الحديث، بيروت سنة ١٩٦٧.
- الصباغ ميخائيل: تاريخ الشيخ ظاهر العمر حاكم عكا وبلاد صفد (لات).
- غيز هنري: بيروت ولبنان منذ قرن ونصف قرن. تر. مارون عبود، جزءان سنة ١٩٥٠.
- لكروي ادوارد: احمد باشا الجزار واعماله في سوريا ولبنان وفلسطين في القرن الثامن عشر. تر. جورج مسرة ساو بولو البرازيل ١٩٢٤.

وثائق منتقاة من:

Archives Nationales de Paris:
Serie AEB1 Seyde. No du registre 1017, 1019, 1020, 1024, 1035, 1036.
Serie A et B1, St yean Acre No du registre 979.

وثائق منشورة

Ismail (A): Documents diplomatiques et Consulaires vol I. Beyrouth 1975.

رحلات ومذكرات ودراسات معاصرة.

Arvieux Laurant: Memoires du chevalier d'Arvieuse 5 vols. paris 1735.
Churchill (Ch): Mount Lebanon a ten years residence (1942 - 1852) 2nd edition. 3 vols london 1853.
Olivier (G.A.): Voyage dans l'empire ottoman, L'Egypte et la Syrie par ordre du gouvernement. 4 vols Paris 1804.
Rafek (A.K.): The province of Damascus (1723 - 1783) Beirut 1966.
Charles-Rouse Francois: Les echelles de Syrie et de Palestine au XVIII siecle Paris 1927.

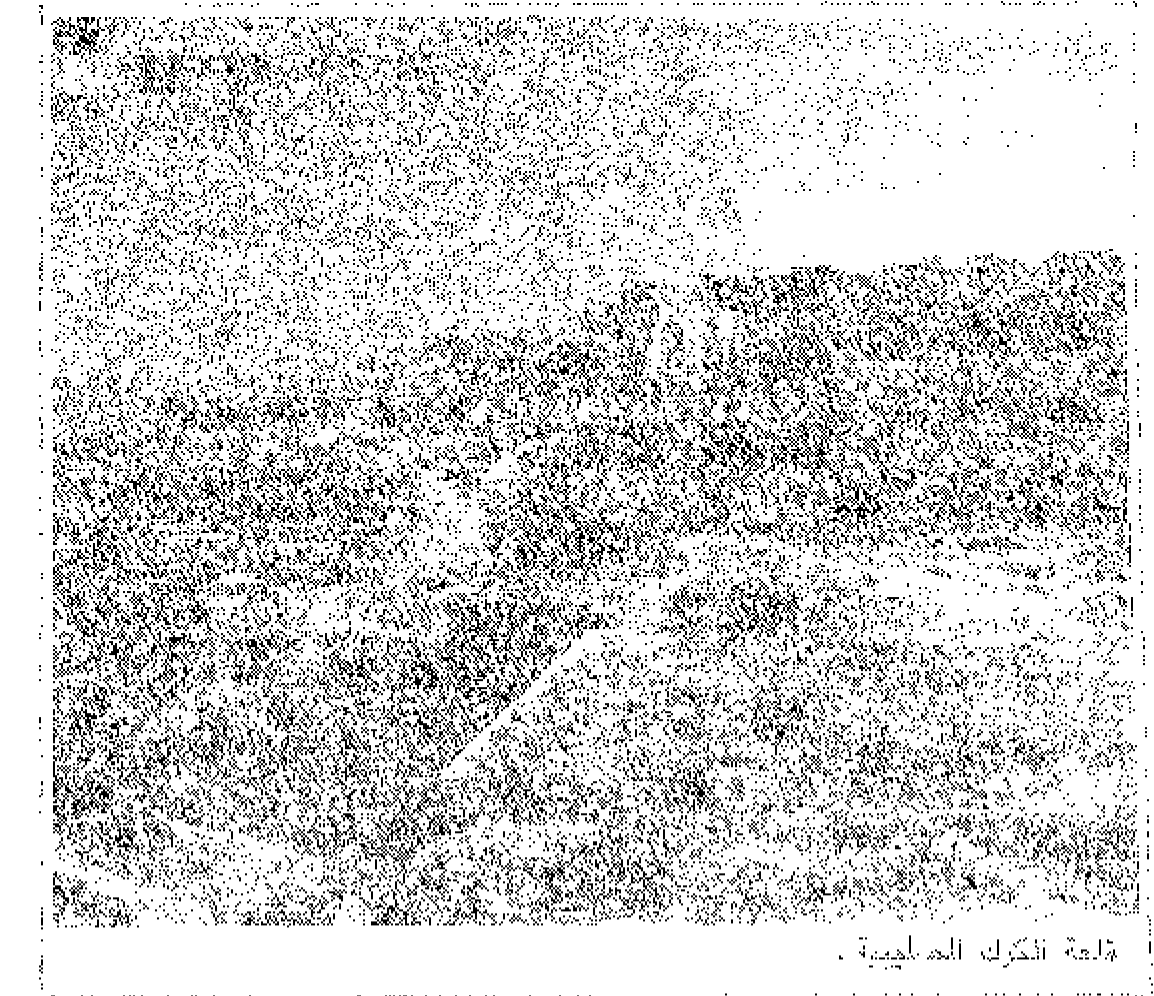
ملف الوطن العربي

اعداد قسم "الأبحاث والدراسات"

الأردن

عبر التاريخ

هذا ملف بلد عربي آخر نضعه بين أيدي القراء لعله يكون لبنة جديدة في بناء جسر اللقاء والتعارف والتفاهم بين أبناء الأمة العربية الواحدة. ملف المملكة الأردنية الهاشمية.



قلعة الكرك الصليبية.



الأردن جغرافيا وتاريخيا :

تعتبر المملكة الأردنية الهاشمية جغرافيا جزءاً لا يتجزأ من سوريا الطبيعية التي تمتد من جبال طوروس شمالا حتى خليج العقبة جنوبا ومن حدود العراق شرقا الى البحر المتوسط غرباً. وكانت هذه البلاد تشكل وحدة طبيعية وتاريخية منذ الفتح الاسلامي وكانت تشمل كلا من لبنان سوريا الأردن وفلسطين. وقد عرفت منذ القدم ببلاد الشام ثم بسوريا الطبيعية.

وقد ارتبط تاريخ الأردن بتاريخ تلك البلاد ارتباطاً وثيقاً عبر العصور والأزمنة وهو يشكل ملتقى للطرق المتجهة غرباً الى البحر المتوسط ومصر وشمال افريقيا، وجنوبا الى شبه الجزيرة الفراتية وآسيا الصغرى.

وبحكم هذا الموقع، احتل الأردن منذ أقدم العصور مكانة مرموقة في الحضارة الانسانية فأثر فيها وتأثر بها. وكان بسبب موقعه الجغرافي الحساس ممراً للغزاة وجسراً للقوافل التجارية ومعبراً للأمم والشعوب المختلفة وملتقى لمدنياتها وحضاراتها.

تبلغ مساحة الاردن ما يقارب ٩٦,٠٠٠ كيلو متر مربع، ويبلغ عدد سكانه ٢,٧٥٠,٠٠٠ نسمة ينتمون الى مجتمعين رئيسين: مجتمع البدو ومجتمع خليط من عدة عناصر.

أما الأول، فيسمي أصحابه البدو أنفسهم بالعرب أو العربان(١) وهم يعيشون حياة بسيطة شاقة ولكنها على العموم سعيدة.

وأما الجزء الثاني من سكان الأردن فهو مزيج من عدة عناصر، هناك الفلاحون والمزارعون وهؤلاء من الممكن أن يكونوا أحفاد الادوميين والمؤابيين والأموريين والعمونيين الذين عاشوا في البلاد وأتت على ذكرهم التوارة.

وهناك أيضاً فئات مواطنة ولكنها قليلة من الشركس والشيشان والارمن والايرانيين والاكراد واليونان.

الأردن والفتح الاسلامي :

وقد شهد الاردن حكم شعوب مختلفة كالمصريين والبابليين والاشوريين والكلدان والفرس على التوالي، ثم استولى عليه بعد ذلك

اليونانيون فأدخلوا اليه شيئا من لغتهم وحضارتهم، ومن ثم عقبهم الرومان فالبيزنطيون الذين اذاقوا الأهالي الشيء الكثير من بطشهم وجور حكمهم، والذين بقوا حتى أوائل القرن السابع للميلاد، حيث جاء العرب المسلمون فخاضوا أول معركة لهم ضد البيزنطيين في موقعة مؤتة (عام ٦٢٩) والتي استشهد فيها ثلاثة من صحابة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم وهم زيد بن حارثة وجعفر بن ابي طالب وعبد الله بن رواحة.

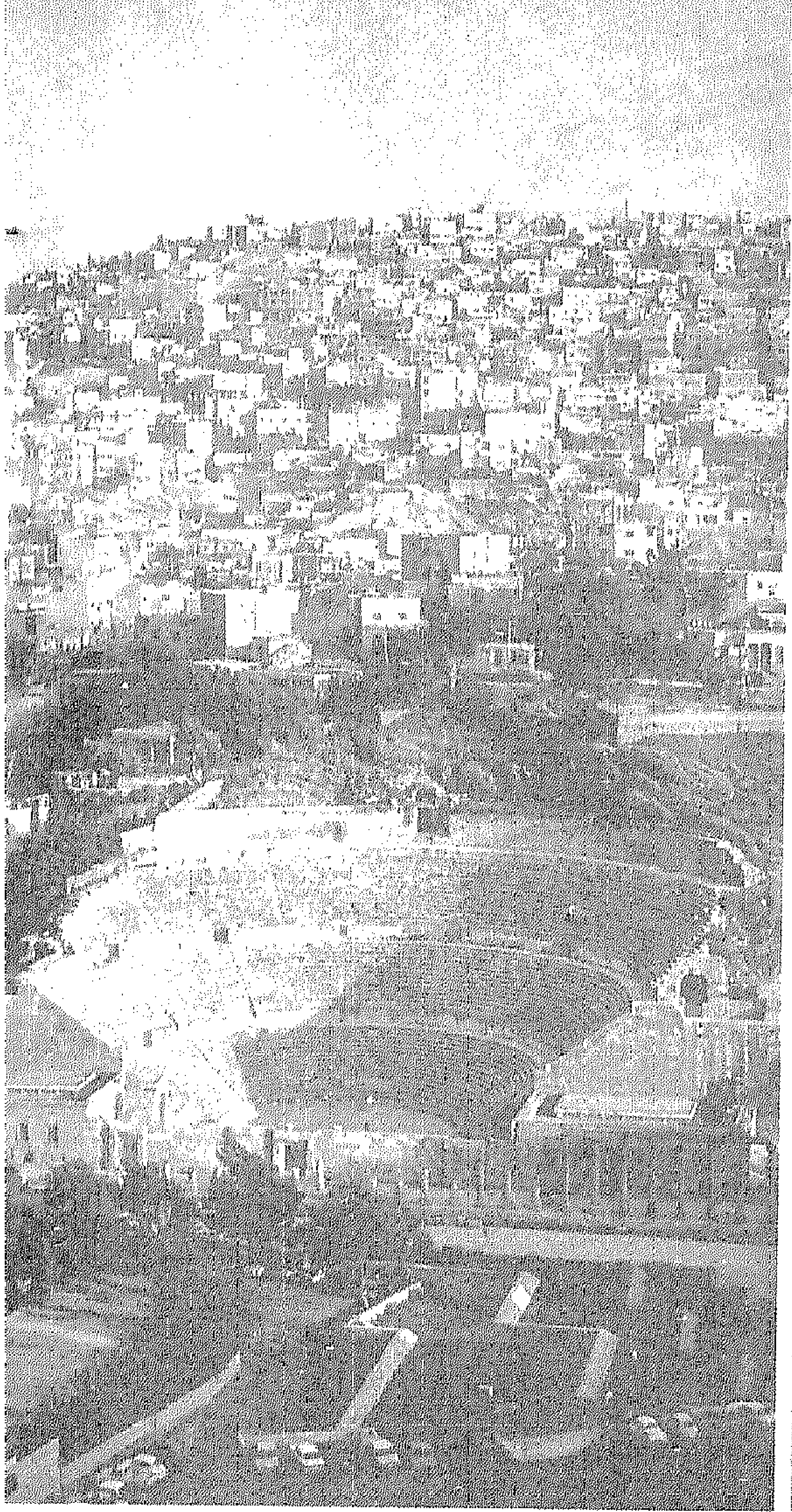
ولم يطل الوقت حتى توغلت الجيوش العربية الاسلامية في الأراضي الأردنية بقيادة شرحبيل بن حسنة.

وفي معركة اليرموك والتي دارت رحاها عام ٦٣٦م، وضع حد للنفوذ البيزنطي في تلك البلاد وانزلت بقواتهم هزيمة منكرة، وأصبح الأردن كسائر بلاد الشام جزءاً من الدولة العربية الاسلامية.

وعندما اتخذ الأمويون دمشق عاصمة لهم زادت أهمية الأردن السياسية والاجتماعية، وقد تميز عصر هؤلاء الخلفاء وخاصة الأوائل منهم بالبناء والعمران حتى أن بعضهم - وهم من البدو بحكم الفطرة والنشأة - كانوا ما يزالون يشتاقون لحياة الصحراء، فابتنوا لأنفسهم قصوراً جميلة ومرابع للصيد تزين الصحراء في شرقي الأردن. كقصر الطوبة وقصر الحرانة وقصر عميرة وقصر هشام بن عبد الملك (خربة المفجر) الأثري في أريحا. هذا بالاضافة الى اعتنائهم في البناء داخل البلاد حيث شيدوا أجمل الأبنية الفنية الباقية الى الآن كمسجد الصخرة والأقصى الشريفين في القدس واللذين بناهما الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان.

وما أن آل القرن التاسع ميلادي حتى انتقلت السلطة من أيدي الأمويين الى أيدي العباسيين الذين نقلوا مركز الخلافة من دمشق الى بغداد فأخذت مكانة الأردن تتقهقر وأخذت أهميته تضمحل حتى كادت أن تصبح في مطاوي النسيان لولا طريق الحج الشامي الذي يمر عبره ولولا أهميته كمحج للزائرين المسيحيين الذين يفدون اليه لزيارة القدس.

ولكن على الرغم من جمود دوره الحضاري في تلك الفترة، إلا أن بريق قدسه ظل يجذب اليه أنظار الغزاة الفرنجة كالصليبيين الذين استطاعوا في القرن الثاني عشر احتلال أجزاء



المدرج الروماني الضخم الذي يعود الى القرن الثاني ميلادي. وهو لا يزال يستخدم في المهرجانات الشعبية.

منه كالكرك التي أقاموا فيها إمارة صليبية وأخذوا يبنون القلاع والحصون فكان أهمها قلعتي الشوبك والكرك.

اخذ القائد صلاح الدين الأيوبي على عاتقه تحرير بلاد القدس من الاحتلال الصليبي. فأخذ يعد العدة لذلك، فشيد القلاع الضخمة في الأزرق وعجلون والسلط، ولم تعد تنقطع مناوءاته لهم حتى انتصر عليهم نهائيا في معركة حطين الحاسمة سنة ٥٨٣هـ - الموافق ١١٨٧م.

ومن ثم تابع سيره نحو القدس لانقاذها من أيديهم، فكان له ما أراد وأعاد المسجد الأقصى وقبة الصخرة الى سابق عهدهما.

أما عهد المماليك الذي امتد من عام ١٢٥٠ الى ١٥١٧م لم يكن له علامة مميزة في تاريخ الأردن، الى أن دخلت البلاد في مطلع القرن السادس عشر حظيرة الدولة العثمانية وأصبح سنجقا عجلون والكرك تابعين لولاية سوريا. وقد انحصر اهتمام العثمانيين بتأمين حماية قوافل الحج فجددوا بناء القلاع القديمة وبنوا قلاعا جديدة مثل قلاع القطرانة ومعان والعقبة.

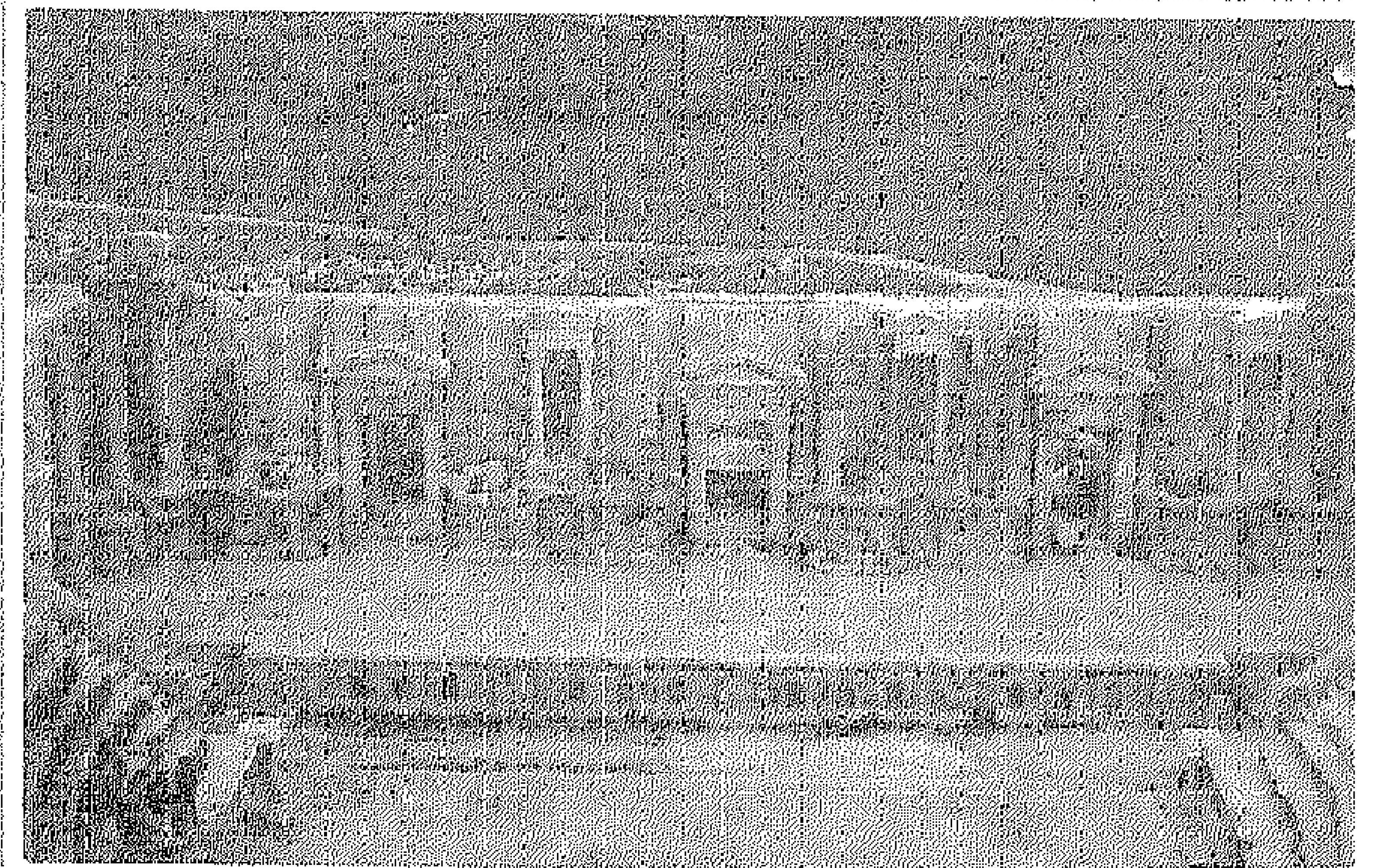
وقد لا يكون هناك من الآثار العمرانية السلمية العثمانية سوى الخط الحديدي الحجازي الذي أنشأه الأتراك لتحسين المواصلات بين سوريا والجزيرة العربية كي يتمكنوا من السيطرة عليها والدفاع عنها.

وعلى العموم، فقد اتصف عهد العثمانيين الذي امتد أربعة قرون، بالجهل وسوء الادارة مما سبب في تردي أوضاع البلاد العربية وجرها الى حالة من التفكك والضعف الذي كان سببا من أسباب نجاح الصهيونية بعد هزيمة الأتراك في الحرب العالمية الأولى.

الأردن والثورة العربية:

بدأ العرب منذ مطلع هذا القرن يتطلعون الى الحصول على استقلال بلادهم، خاصة بعد ما شهدوا في القرن السابق الحركات التحررية التي ظهرت في أوروبا ولمسوا بأنفسهم مدى التأخر الذي وصلوا اليه نتيجة الحؤول دونهم

مسرح جرش: الذي يتسع لخمسة الاف متفرج.



ودون الاحتكاك بالعالم الخارجي مما نتج عنه عدم استطاعتهم المساهمة في النهضة العلمية والصناعية التي نشأت في أوروبا وأميركا. لهذا عقدوا العزم على التخلص من نير الاتراك، فتنادت الجمعيات العربية السرية ووجهت الدعوة الى الشريف الحسين بن علي شريف مكة لقيادة ثورتها من أجل الحرية والاستقلال.

لبى شريف مكة الدعوة، ودخل في مفاوضات مع الحكومة البريطانية التي تعهدت له بالاعتراف بقيام دولة عربية مستقلة في آسيا. فأعلن في العاشر من حزيران عام ١٩١٦ م قيام الثورة العربية من مكة. وكانت ثورة قومية انخرط فيها مقاتلون من مختلف الدول العربية من مسلمين ومسيحيين بهدف إنشاء تلك الدولة.

وكان خاتمة الكفاح العربي أن طهرت البلاد من الأتراك، ولكن لتدخل في صراع جديد ضد الحلفاء. وقد قامت على أثر ذلك دولة عربية في الحجاز توج عليها الحسين بن علي ملكا، ودولة عربية أخرى في سوريا – تتبع الأولى حكما – توج عليها فيصل بن الحسين ملكا.

أما صراع العرب الجديد ضد الحلفاء، فقد نشأ من جراء تنكر بريطانيا للوعود التي قطعتها للشريف الحسين، وابرام الحلفاء معاهدة سايكس – بيكو عام ١٩١٦م، والتي تقاسموا بموجبها بلاد الشام والعراق بينهم ومن ثم الحقوها بوعد بلفور الذي أصدرته بريطانيا عام ١٩١٧م. والتزمت فيه إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين.

ومن ثم تآمر الحلفاء على تقويض استقلال سوريا وتجزئتها. وجاءوا بالانتداب البريطاني يفرضونه على فلسطين والاردن والعراق، وبالانتداب الفرنسي على سوريا ولبنان. وبقي الأردن خاضعا للنفوذ البريطاني حتى عام ١٩٤٦، حيث حصل على استقلاله، وأعلن شرقي الأردن دولة مستقلة ذات سيادة، ونودي بالأمير عبد الله بن الحسين ملكا دستوريا على البلاد التي أصبحت تحمل اسم «المملكة الأردنية الهاشمية».

وفي عام ١٩٥٠م، انضم عرب الضفة الغربية في فلسطين الى الضفة الشرقية على اثر تخلي بريطانيا عام ١٩٤٨م عن انتدابها على فلسطين وما أعقبه من قتال بين العرب واليهود. وأصبح كلا الطرفين الضفة الشرقية والضفة



قصر عميرة : أحد مرابع الصيد التي بناها الأمويون في البادية .

الغربية يكونان « المملكة الأردنية الهاشمية » .

[illegible] والآثار في الأردن :

بعد هذا الموجز الجغرافي والتاريخي عن بلاد الأردن ، تتضح لنا معالم الحضارات المختلفة التي تعاقبت عليه والتي لعبت أدواراً رئيسية في التطور الانساني عبر العصور فخلفت في ربوعه آثارها وثقافتها وأكسبته على مر الأجيال طابعاً سياحياً مهماً . لذا فهو يعتبر متحفاً كبيراً يضم بين جنباته العديد من المدن والمراكز الأثرية الهامة . وأهم من هذا كله بأنه يحوي معظم المقدسات الاسلامية والمسيحية مثل القدس الشريف وبيت لحم مهد المسيح وخليل الرحمن ، الكهف الرحيب الذي آوى اليه الفتية ثلاثمائة عام .

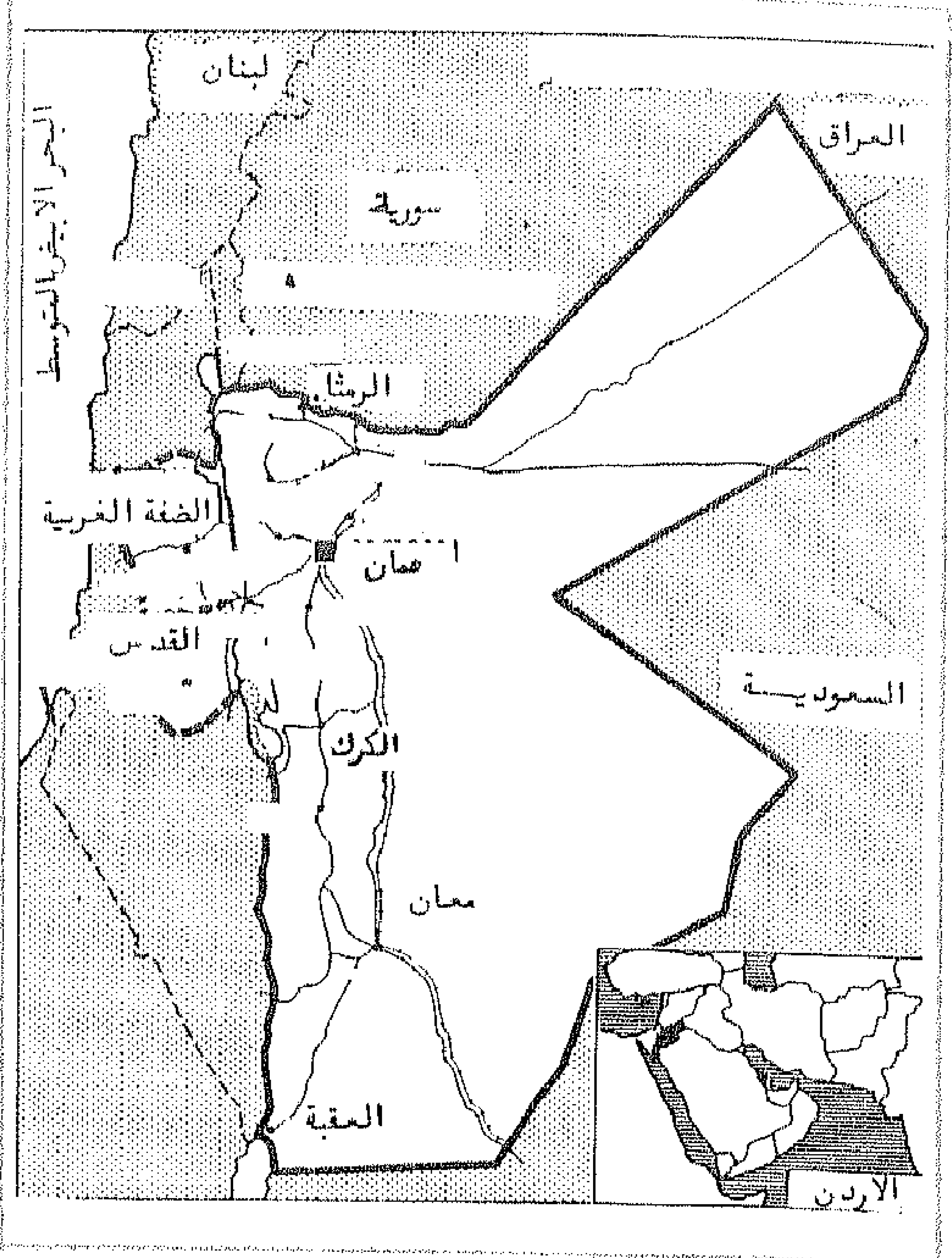
ونحن لا نستطيع أن نفرق بين المدن الرئيسية وأهم المراكز الأثرية في الأردن ، لسبب بسيط ، وهو أن معظم المدن الرئيسية هي في حد ذاتها مراكز اثرية هامة .

العاصمة ، « وقد سميت عمان قديماً عاصمة العمونيين وتدعى ربة بني عمون . وسماها الاغريق فيلادلفيا نسبة الى بطليموس فيلادلفوس حاكم مصر ما بين ٢٨٥ و٢٤٧ ق.م .

وفي عام ٢١٨ ق.م استولى عليها حاكم سوريا انطيوخس الثالث وأصبحت احدى مدن سوريا البقاعية الى أن أخضعها العرب الأنباط الذين استوطنوا جنوب الأردن واتخذوا البتراء عاصمة لهم . وظلت فيلادلفيا مدينة نبطية حتى استولى عليها الرومان عام ٦٣ ق.م. فدخلت حلف المدن العشر... وعام ١٠٦ بعد الميلاد قضى الرومان على مملكة الأنباط وأنشأوا مكانها مقاطعة رومانية سميت بالمقاطعة العربية ، ومن بينها عمان ...

وقد ازدهرت فيلادلفيا لزمن طويل في القرن الثاني ، وبنيت عمان الحديثة فوق فيلادلفيا القديمة ، ...وكان لهذا التاريخ العريق دور رئيسي في اقبال السواح الأجانب نحو احدى أقدم مدن العالم ... »(٢) .

« إن تخليص ثالث الحرمين من الروم يستحق أن يسير من أجله الفاروق شهراً وشهراً ... » هذا ما قاله الخليفة عمر بن الخطاب لعدد من الصحابة عندما وصله كتاب الروم يطلبون فيه الصلح على أن يتولى ذلك أمير



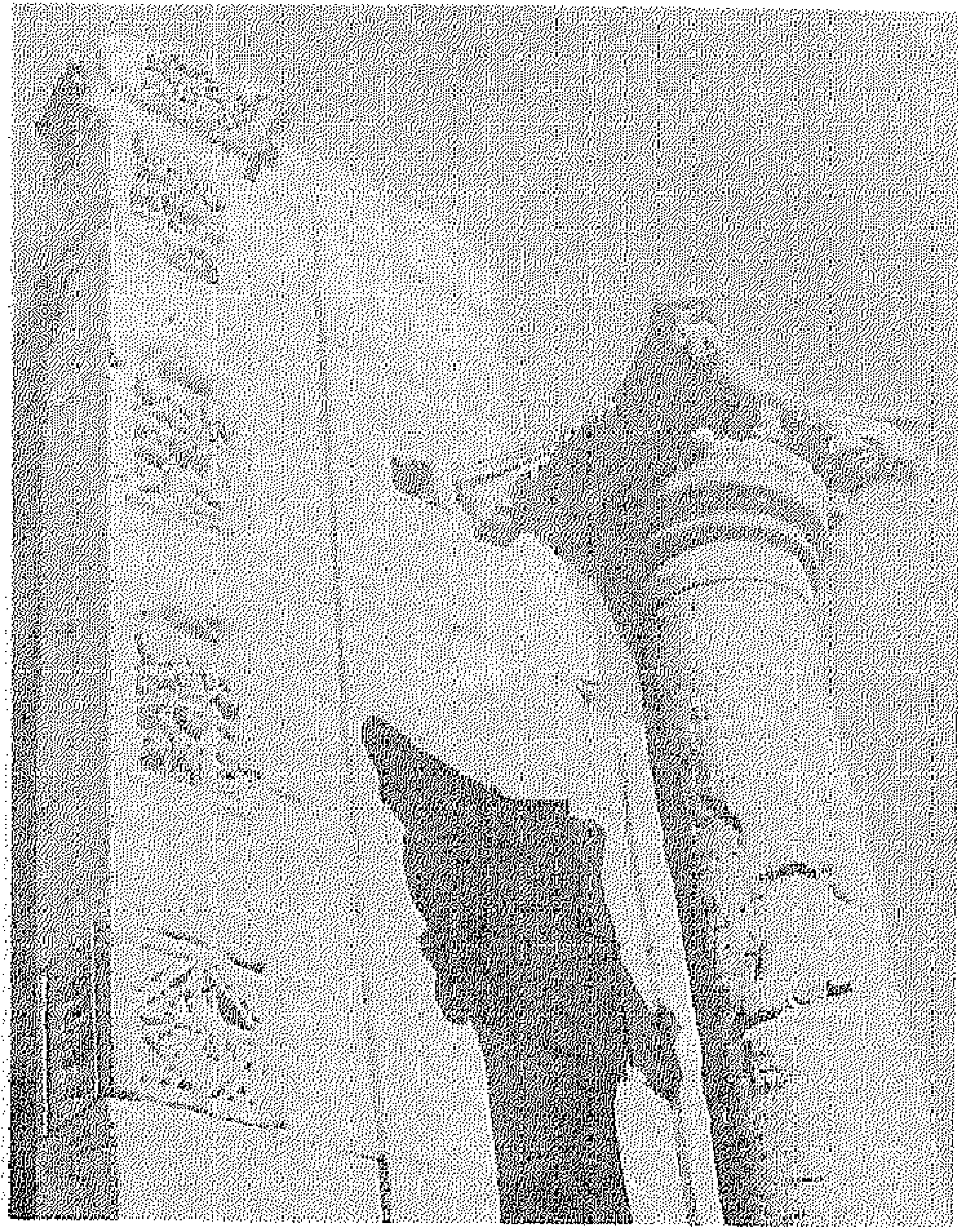
المؤمنين نفسه. وهذا القول إن دل على شيء فانما يدل على ما لتلك المدينة المقدسة من قدر واهمية لدى المسلمين وغيرهم من شعوب العالم منذ أقدم العصور.

وهي مدينة دينية مقدسة وأسوارها شاهقة، قلاعها قوية فيها الآثار المسيحية والاسلامية المقدسة ككنيسة القيامة وطريق الآلام ومسجد الصخرة والأقصى[٣].

البتراء:

تعتبر البتراء تحفة نادرة من الجمال والروعة، والعالم المتمدن بأجمعه لا يجهل اسم هذا الموقع القديم الذي يعتقد بأن موسى ضرب بعصاه الصخر فيه فتفجر منه الماء[٤] وتجمع روابط تاريخية متينة بين الأنباط والبتراء. لأنهم – وهم قبيلة عربية كبيرة – هم أول من اتخذ من البتراء موطناً وعاصمة لهم.

وعندما يقترب المرء من البتراء، فان أول ما يطالعه هو عين النبي موسى التي تتفجر مياهها في الصخور. وقد نحتت المدينة في الصخر الوردي الجميل، وهي أعظم كنز سياحي أثري في الأردن لأنها تمثل احدى الروائع الفنية التي ابتدعتها اليد البشرية. ففيها التقى المجهود الانساني بالطبيعة الجبارة الساحرة.


نقوش البتراء: تدل على عظمتها.

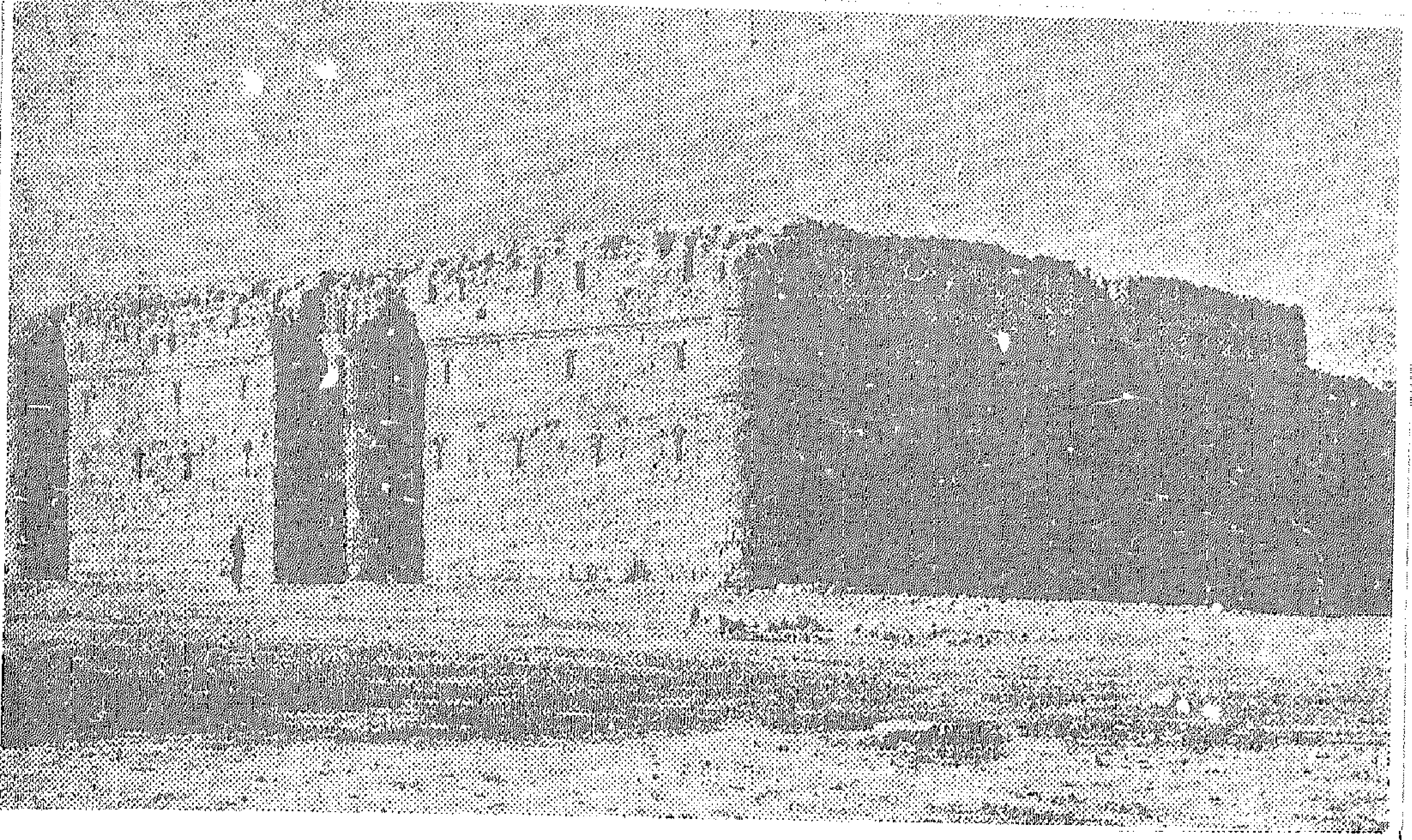
يدخلها المرء عبر ممر ضيق يسمى «السبق» حفر بين هضاب صخرية ضيقة شاهقة. وهذا الممر والحصون الصخرية الطبيعية التي تحتضن البتراء، وهبتها مناعة ضد الغزاة وحمتها من عبث العابثين.

والخزنة أجمل آثارها على الاطلاق، أما المحكمة والدير فأعجوبتان لا تقلان جلالا وعظمة عن الخزنة، وبها كثير من الاضرحة والمعابد والبيوت والمقابر والمخازن والمستودعات والحمامات ومجاري المياه وجميعها منحوتة في الصخر بشكل بديع وبقوة ومتانة.

جرش:

«توجد في الشرق الأوسط ثلاث مدن عظيمة من مدن العصور الكلاسيكية وهي: تدمر وجرش والبتراء. أما تدمر فتوجد في سوريا، بينما توجد جرش والبتراء في الأردن. وتمتاز كل مدينة من هذه المدن بمعالمها الأثرية وتاريخها وهندستها المعمارية، ولكل منها طابعها المتميز لاجتذاب الزائر...

وتنفرد جرش وحدها بين المدن الثلاث بأنها مدينة رومانية تقليدية، وربما كانت أفضل مثال في الشرق الأوسط لمدينة رومانية من هذا الطراز! احتفظت بمنشآتها قائمة اكثر من سواها حتى اليوم...»[٥]



قصر الحرانة : القلعة الأموية الحصينة .

وهناك اعتقاد بأن الكنعانيين هم الذين بنوها في الأصل وأطلقوا عليها اسم جراسة . ويواجه الزائر المقبل على أطلال جرش قوس النصر الكبير الذي أقيم احتفاء بزيارة أدريانوس للمدينة عام ١٢٩م . وتليه حلبة سباق للخيل ، ثم أجزاء باقية في سور المدينة ، ومن أبرز الآثار القائمة وراء مدخل المدينة معبد زيوس والمسرح الكبير الذي يتسع لخمسة آلاف متفرج وساحة السوق المرصوفة بالبلاط الحجري . وشارع جرش الرئيسي المعروف بطريق الأعمدة الذي يخترق المدينة منتهياً الى الباب الشمالي منها

ثم تأتي الى بناء من أضخم الأبنية في جرش وأكثرها جلالا ، ألا وهو هيكل أرتميس ، نسبة للآلهة التي كانت ترعى المدينة لذلك جاء معبدها أكثر فخامة وعظمة من سواه .

وهناك أيضاً مدن ومراكز أثرية هامة أخرى كاربد ومادبا والكرك المشهورة بقلعتها الصليبية التي بناها القائد الصليبي «بايم» سنة ١١٣١م وسماها (جوهرة الصحراء) ■

الهوامش

١ – ريقول عالم الآثار «لانكستر هاردنج» في كتابه «آثار الأردن» تعريب «سليمان موسى» والذي نشرته وزارة السياحة والآثار الأردنية ، يقول في هذا الصدد ص ١٩ :

«... هذه التسمية صحيحة كليا لأن البدو هم العرب الخلص ، ولا تجمعهم بالفلاحين والقرويين سوى روابط قليلة من ناحية الجنس ... والفوارق الطبيعية تبدو واضحة لكل ذي عين متبصرة : البدوي بوجهه الدقيق النحيل وعينيه الامعتين وجسمه الخفيف والفلاح بوجهه المستدير وجسمه الممتلىء» .

(٢) للتوسع انظر المقالة المنشورة في مجلة «رجال الأعمال» العدد ٢٣ آب/ أغسطس/ ١٩٧٧ ص ٦٦ – ٧١

(٣) راجع ملف الوطن العربي ، مجلة "تاريخ العرب والعالم" العدد الحادي عشر/أيلول – سبتمبر ١٩٧٩ ص ٤٣ – ٤٤ .

(٤) لانكستر هاردنج – آثار الأردن . ص ١٣٣ تعريب سليمان موسى – منشورات وزارة السياحة والآثار – الأردن .

(٥) المصدر السابق . ص ٨٧ .



البناية رقم ٨ برنيز البرتش ستراس هي احدى البنايات الرسمية الضخمة في برلين ما قبل الحرب، يقوم بحراستها عدد كبير من الحراس. هذه البناية هي مركز القيادة التابعة لهنريتش هملر قائد الكتيبة النخبة المتقدمة – أو: إس إس.

في آذار ١٩٣٩، توقفت سيارة فخمة امام البناية وترجل منها رجل في الأربعين من العمر وطلب مقابلة هملر شخصيا. فأدخل الرجل بمرافقة ملازم وصعدا الى احد الطوابق حيث كان هملر في انتظارهما.

– اني اشكرك. لقد سمعت كثيراً عنك ربما في امكانك تخفيف الآلام في معدتي، فهي تمنعني من السير والجلوس. لقد فشل كل أطباء برلين، ولكن أكدوا لي انك تنجح حيث يفشل الآخرون. هل في استطاعتك مساعدتي؟ نظر الطبيب كرستن الى هملر: هذا هو الرجل الذي ينشر الخوف في ألمانيا هذا هو الرأس المدبر للقتل الجماعي، ومعسكرات التجميع والتجنيد الاجباري.

أخضع هملر لفحص دقيق. فأغمض الطبيب عينيه وبدأت يده تمر على جسد هملر، ضاغطة على بعض الأعصاب. فجأة صرخ هملر عندما ضغط الطبيب على احد الأعصاب في معدته. فسأله الطبيب:

– هل تشعر بألم قوي؟

– قوي جداً.

فوضع الطبيب يده على العصب وراح يدلكه لعدة دقائق.

– اشعر بتحسن، استطيع ان اسير وأن أجلس. لقد ذهب الألم من غير دواء اومخدر. أيها الطبيب اريدك أن تبقى بالقرب مني. ستسجل في فرقتي برتبة كولونيل.

- لي الشرف ان أكون بالقرب منك. ولكن من سوء حظي ألا أستطيع أن أقبل هذا العرض.

أجابه كرستن، ثم شرح له الطبيب انه يعيش في هولندا حيث له منزل وعائلة هناك وعدد كبير من المرضى لا يستطيع التخلي عنهم وتابع:

- عندما تكون بحاجة الي، استدعني. وسأعود الى برلين بعد اسبوعين لرؤية مرضاي هنا.

- اذاً اعتبرني واحداً منهم.

وأمر هملر حراسه بالسماح لكرستن بالدخول كلما اتى لزيارته.

عالج كرستن هملر لمدة اسبوعين. ولم يرفض هذه المهمة لأن احد أصدقائه القدماء اوغست داين طلب منه ذلك. كان في البدء قد رفض التعامل مع العهد النازي رفضاً باتاً. لكنه خضع للأمر عند الحاح صديقه. فلم يقبل به الا من أجل المصلحة العامة. فهو يعلم جيداً انه يستطيع ان يؤثر على مرضاه اذا خفف آلامهم وشفاهم.

من هو كرستن؟

فليكس كرستن ليس طبيباً بالمعنى الحقيقي. انه دلاك، لقد اعطى القدر يديه قوة تفوق طاقة البشر. ولد عام ١٨٩٨ في ايستونيا، ولكن بعد الحرب العالمية الأولى اصبح مواطناً فنلنديا، وبدأ دراسة فن التدليك في هلسنكي.

في ١٩٢١ حاز كرستن على شهادة تؤهله ممارسة عمله. بعد سنتين وفي احدى الحفلات التقى الطبيب كو الذي أشرف على تدريبه لمدة ٣ سنوات. بدأ عمله عام ١٩٢٥، واتسعت شهرته. في ١٩٢٨ دعي لمعالجة الأمير هاندريك، زوج الملكة ويلهلمينا، ملكة النزرلند فأحب هذا البلد وعاش في الهايغ فعمل فيها وفي برلين وروما. لم يتعاط السياسة منذ ولادته، لكن كيف الآن وبعد معالجة هملر؟

كان كرستن يتوقف عن التدليك كل خمس دقائق لاعطاء العصب مهلة للاستراحة، عندما يبدأ هملر في الكلام. في البدء اخذ يتكلم عن نسه ومرضه، ثم انتقل الى تفوق الألمان والأس أس.

اما الحديث عن هتلر فلا يتوقف. فهتلر بالنسبة له عبقري وعلى الشعب الألماني اتباعه



الملكة ولهلمينا والأمير بيرنارد

لكي يصل الى قمة التاريخ.

في آذار ١٩٤٠ اصبح وضع كرستن محرجاً. احتلت قوات هتلر هولندا حيث يقيم وحاول النازيون التخلص منه وهو كان يود الانتقال الى فنلندا ولكن السلطات الفنلندية العليا امرته بالبقاء في برلين لامدادها بالمعلومات. وهناك وضع تحت الاقامة الجبرية. في اواسط آذار، امر بمرافقة هملر الى الحدود في قطاره الخاص.

ماذا في قطار هملر الخاص؟

شعر كرستن بالخوف والمطاردة والعذاب في هذا القطار. اذ تحول الى مركز لقيادة العمليات فالتجأ في مكتبة هملر. وفوجئ بمحتوياتها. كل الكتب تتكلم عن الأديان بما فيها الكتب الدينية: الفيداس، الانجيل، القرآن، مقالات دينية ونقد لها، كتب تعاليم الكنيسة والحقوق فسأله كرستن في احد الأيام:

- ألم تقل لي ان النازي الحقيقي لا يتبع اي ديانة؟

- «طبعاً» أجابه هملر ضاحكاً.

- ما هذه الكتب اذاً؟

- لست مؤمناً. انني بحاجة لهذه الكتب. لقد فوضني هتلر وضع الكتاب المقدس للديانة النازية الجديدة.

- لا افهم ما تقول.

- بعد انتصار الرايخ الثالث سيلغي هتلر

الديانة المسيحية، ويؤسس الديانة النازية فكرة الله ستبقى ولكن غامضة. هتلر هو المسيح في الديانة الجديدة. عند الصلاة، سيلفظ الناس كلمة هتلر. لذلك فأنا بحاجة الى هذه الكتب والوثائق لتأسيس الديانة الجديدة .

بعد سقوط فرنسا، عاد هملر الى برلين وانتقل كرستن الى حياته العادية. فعاد الى عائلته واصدقائه في أواخر ايلول، شعر هملر بآلام حادة في معدته. فاستدعى كرستن وعند انتهاء الجلسة قال له هملر:

– عزيزي كرستن، ماذا افعل من دونك؟ لا اعلم كيف استطيع ان اشكرك. وضميري يوبخني لانني لم ادفع لك شيئاً – .

فأدرك كرستن انه اذا وافق على راتب ما، فمعنى ذلك انه سيصبح موظفاً عادياً لا يدين له هملر بشيء فهو يعلم جيدا ان راتب هملر لا يجاوز الألفي مارك.

ابتزاز هملر

فجأة تذكر كرستن ان احد مرضاه القدماء اوغبست روسترغ جاء اليه طالبا خدمة. وبالرغم من كون روسترغ رجل اعمال شهير في المانيا ومحب للسلام، وشريف، فقد وضع في احد معسكرات التجميع. وبما ان جريمته هي انه من الحزب الديموقراطي الاشتراكي، فقد طلب من كرستن ان يستعمل نفوذه لاطلاق سراحه. ففكر الطبيب قليلا ثم اطلع من جيبه ورقة وقال له:

– هذا ما اطلبه. اريد اطلاق سراح هذا الرجل .

– اوافق على ذلك لأنك أنت طلبته.

فنادى موظفه الخاص براندت وامره باطلاق سراح روسترغ حالا «لأن طبيبنا العزيز يريد ذلك» عندئذ اكتشف الطبيب مدى تأثيره على هملر والوسيلة التي يجب اتباعها لتنفيذ مآربه. عندما يكون مرض هملر في اشده ولا يستطيع احد اسعافه سوى يديه، في استطاعته ان يطلب الغفران او الرحمة لأحد المعتقلين، او تسريح احدهم أو الغاء الحكم.

عندما يستعيد هملر قواه، يفقد كرستن كل نفوذه. كان هملر يقول للطبيب: «عزيزي كرستن، أنت صديقي الوحيد الذي يفهمني ويساعدني». فيأمر براندت بوضع لائحة بأسماء الأشخاص الذين ذكرهم الطبيب، ثم يمضي


برانديت

مرسوما باطلاق سراحهم – اصبح عدد الذين اطلق سراحهم يشكل خطراً كبيراً. لم يفهم رؤوساء الغستابو – المحققون والجلادون – ما الذي دفع بهملر الى العفو عن هؤلاء الأشخاص لقد طلب في البدء انزال اشد العقوبات بهم. ولكن ما سبب هذا التغير؟

في كانون الثاني ١٩٤١، قدم رجلان من الغستابو الى منزل كرستن في برلين.

– «نود ان نتكلم معك» قال له احد الرجلين. بدأ كرستن يتساءل. هل خانه احد اصدقائه في هولندا؟

سأله احدهما:

– هل عندك مرضى يهود؟

– طبعا.

– ألا تعلم انه لا يسمح لطبيب الماني معالجة يهودي؟ .

– لست طبيبا المانيا، انا فنلندي .

– أعطاهم جواز سفره. فاعتذرا منه وغادرا المنزل. ما الذي دفعهم الى المجيء الى هنا؟ هل يظنونني المانيا. الغستابو يعلم كل شيء وخاصة انه ليس المانيا. اذا لم يصدقوه فليذهبوا الى السفارة الفنلندية لكن ما هدف هذه الزيارة؟ هل هو نوع من التهديد؟

أعلم هملر بما حدث له. فغضب هملر واتصل بالقيادة قائلا: «لا اسمح لأحد بالتعرض للطبيب كرستن لأي غرض كان. هذا امر. وأنا مسؤول عنه».

بعــد مدة، حذر براندت الطبيب من هيدريك، رئيس الغستابو. فهو يشك به ويتهمه بأنه عميل للعدو او على الأقل، فهو يستعمل نفوذه على هملر لمصلحة اعداء المانيا. وقد قرر هيدريك متابعة تحقيقه حتى يثبت له ذلك.

في شباط ١٩٤١، وبعد معالجـة هملـر صادف الطبيب في طريقه هيدريك. فاتفقا على ان يلتقيا في مركز الغستابو في المساء فقال هيدريك للطبيب بطريقة غير مباشرة ان الغستابو على علم بتحركاته واتصالاتـه المكثفـة مع هولندا وفنلندا، ويود الاطلاع على أسماء الذين يتصل بهم.

جنون هتلر؟

في احد ايام شتاء ١٩٤٢، فاجأ هملر طبيبه بقوله:

— هل في استطاعتك ان تعالج رجلا يعاني من آلام قوية في رأسه، ومصابا بالدوار والأرق؟.

— يجب ان اراه اولا لكي احدد مصدر هذه الآلام؟ وتابع

— ثم ان عدم الافصاح عن طبيعـة الأمراض هي احد القوانين المتبعة في الطبابة.

فمد اليه هملر تقريراً طبياً كتب على مغلفه «سري جداً». لماذا اعطاه المغلف لقراءته؟

هل بدأ هتلر يفقد بعض قواه العقلية؟ هل زاد جنونه عندما بدأت المانيا تخسر؟

يحتوي التقرير على ٢٦ صفحة تحـوي الوقائع التالية: اصيب هتلر في صغره بالمرض الزهري. فأدخل الى احدى المستشفيات حيث عولج. في عام ١٩٣٧ ظهرت العوارض نفسها مما يدل انه لم يشف من المرض. في اوائل عام ١٩٤٢، اشتدت هذه العوارض وبدأ هتلر يفقد صوابه في ساعات معينة، — «ماذا يمـكن عمله؟» سأله هملر.

— لا استطيع شيئا. لست متخصصا بالامراض العقلية. هل هناك من يهتم به؟

— طبعا الطبيب موريل، طبيبه الخاص. يؤكد له الطبيب ان الحقن تساعد على عدم امتداد المرض وتحفظ له قوته العقلية.

— ما الذي يضمن ذلك؟ ليس هناك علاج للمرض الزهري.

— ليس هتلر رجلا عاديا ولا يمـكن معالجته في مستشفى للأمراض العقلية. اذا



هتلر

علمت استخبارات الحلفاء بالامر، فستنشره. هذه كارثة.

بعد مغادرة مكتب هملر، توجه كرستن الى مكتب براندت وسأله عن صحة هذا التقرير

قال له براندت: الا تعلم انك في خطر الآن؟ انت غريب وتعلـم كل اسرار الدولـة الألمانية. لا تبحث مع هملر في هذا الموضوع. حاول ان تنساه.

فاتبع كرستن نصيحة براندت. وتجاهـل الموضوع الى ان سأله هملر في احد الأيام:

هل من وسيلة جديدة، لانقاذ هتلر؟

فأجابـه الطبيـب بكل صراحـة. المرض سيصيب قوة هتلر العقلية، بمعنى آخر، قد يفقد هتلر عقله. كل العوارض، آلام في الرأس، أرق، ارتجاف اليدين، تعثر في الكلام، شلل الأطرافي، ستزداد مع الأيام، فما الذي يثبت ان هتلر قد اتخذ قراراته في ساعات صفاء عقله او ساعات جنونه اذ ان مصير الملايين متصل بقرارته. يحق لرجل يتمتع بكامل قواه العقلية والجسدية ان يحكم وبما ان هتلر لا يتمتع بكل قواه، فلا يحق لهملر ان يعترف بهتلر قائداً له.

— لقد فكرت بكل ذلك، ولكن لا يمكن ان اغير نظرتي اليه. ليس في استطاعتي اتخاذ اي

LE TEMPS PROBABLE

50 C^mes

LE FIGARO

BAROMÈTRE BOURSIER

SAMEDI 2 SEPTEMBRE 1939

N° 245

114^e Année

L'ALLEMAGNE ATTAQUE LA POLOGNE SANS DÉCLARATION DE GUERRE

Les hostilités ont commencé sur toutes les frontières

LA FRANCE ET LA GRANDE-BRETAGNE décrètent la mobilisation générale

LE CRIME

Wladimir d'Ormesson

REPONSE POSITIVE DE LA FRANCE A DES PROPOSITIONS ITALIENNES

1^er Septembre 1939...

La responsabilité de la guerre incombe à un seul homme : le chancelier allemand qui a plongé le monde dans la misère afin de servir son ambition insensée,
a dit aux Communes M. Chamberlain

(Suite page 3, colonnes 1, 2 et 3)

Le Livre Blanc britannique

(Lire le texte en page 3)

M. Coulondre et sir Nevile Henderson à la Wilhelmstrasse

La Bourse a conservé le plus grand sang-froid

Les opérations militaires

L'état de siège est proclamé en France et en Algérie

LE PARLEMENT SE REUNIT CET APRÉS-MIDI A 15 HEURES

CHRONIQUE

DE QUOI S'AGIT-IL ?

PAR ANDRÉ MAUROIS

... من أرشيف «تاريخ العرب والعالم»



هتلر وأركان حربه
ويبدو هملر
في أقصى اليسار

خطوة ضد هتلر. انا قائد الاس اس وشعاري «الشرف هو الاخلاص» كيف يمكنني اذاً ان اقوم بعمل كهذا؟

– اذاً، ستسمح لهتلر بان يتصرف كما يريد.

هل تقبل ان يكون مصير الشعب الالماني في يد رجل يعاني من مرض عقلي؟

– لا استطيع القيام باي عمل حتى الآن، وتابع:

ولكن عندما يحين وقت المجازفة، فسأتصرف كما اريد

هملر يتمرد لصالح اليهود

منذ اشهر لم يطلب كرستن اية خدمة من هملر لكن عندما كانت تسنح له الفرصة، كان يحاول اقناع هملر ان الهولنديين والدانماركيين والنروجيين في معسكرات التجميع هم في الأصل المان. وفي حزيران ١٩٤٤، احتل الحلفاء النورماندي واخذ كرستن يضغط على هملر حتى بدأ يقتنع بعدم قدرة هتلر في الحكم.

— انك على حق، لا يجب ان نقتل العالم كله يجب ان نكون رؤوفين تجـاه الشعـب الالماني.

وبعد بضعة اسابيع حاول كولونيل الماني اغتيال هتلر بوضع قنابل في مكتبه، فغضب هملر وجدد اخلاصه لهتلر. فأمره هتلر باعتقال الفي ضابط الماني وقتلهم.

لا حدود لغضـب هتلـر. لقـد علمـت استخبارات الحلفاء ان هتلر امر هملر بتفجير معسكرات التجميع والمعتقلين عندمـا يصـل الحلفاء الى بعد ١٥ ميلا. تحتوي المعسكرات على ثماني مئة الف معتقل. ناشد الحلفـاء السلطات السويدية التدخل لمنع هذه المجزرة الرهيبة. فطلبت الحكومة السويدية بدورها من كرستن التوسط لدى هملر لعدم تنفيذ هذه المجزرة.

— هل صحيح ان هتلر امرك بتفجير المعسكرات عند اقتراب الحلفاء؟ سأله كرستن في احدى الجلسات.

هذا صحيح. اذا خسرنا الحـرب، يجب ان يموت اعداؤنا. اجابه هملر.

— لكن لا يقوم عظماء المانيا بهذا العمل الوحشي. انت اليوم القائد الأعلى. انت اقوى من هتلر الآن. بلادك تتدهور. لقد اكتسحت القوات الألمانية في كل مكان. القيادات عاجزة عن القيام بأي عمل وانت لديك القوة الباقية — الأس أس.

في ١٢ آذار ١٩٤٥، وضع هملر احدى الوثائق التاريخية ووقعها ودعاها «وثيقة باسم الانسانية»، واعلن فيها عن:

١ — عدم تفجير معسكرات التجميع.

٢ — عدم اعتقال وقتل اي يهودي بعد اليوم.

٣ — السماح للسويد بمساعدة اليهـود المعتقلين.

وقع هملر هذه الوثيقة اولا ثم كرستن. ابلغ كرستن ستوكهولم بالنبأ بعد بضعة ايام، وأضاف قائلا انه قد سمح له باصطحاب ممثل عن المؤتمر اليهودي العالمي لمقابلة هملر. ثم اقنع كرستن مريضه باطلاق سراح ٥ آلاف معتقل يهودي. وبعد تردد طلب منه مقابلة احد المعتقلين اليهود للاتفاق على ورقة العمل لاطلاق سراح الباقين. لم ترق الفكرة لهملر في بادئ الأمر، وبعد عدة ساعات من الجدل، اقتنع بالأمر. فاختار المؤتمر اليهودي العالمي ممثلا عنه، شابا يدعى نوربرت ماسور. فقابله كرستن في ستوكهولم وانتقلا معا الى برلين في ١٩ نيسان.

عندما تقابل الرجلان — هملر وماسور — بدأ هملر الكلام عن اوضاع اليهود. لم يكن مضطربا. كما اعجب كرستن بقدرة ماسور على الانضباط. عندما بدأ هملر الكلام قال ان اليهود مصابون بمرض التيفـوس وامـراض معدية اخرى مما اضطرهم الى حرقهـم في الأفران، ويرد ماسور قائلا:

— لسنا هنا للكلام عن الماضي. نحن هنا لانقاذ ما تبقى. يجب ان نضمن حياة اليهود الموجودين في المانيا.

اجتمع الرجلان لمدة احدى عشرة ساعـة واتفقا عند الساعة ٦ صباحا من اليوم التالي وكان هملر خائفا من ان يقوم هتلر بالقاء القبض عليه بتهمة الخيانة العظمى.

بعد اسبوعين من سقوط المانيا، هرب هملر الى بريطانيا. فالقي القبض عليه فتناول حبوبا سامة في السجن وتوفي بعد ١٥ دقيقة. اما فليكس كرستن فاستقر في السويد.

في عام ١٩٤٩، وبعد الاطلاع على الوثائق والدور الذي لعبه، منحته الحكومة الهولندية وسام الاستحقاق.

في عام ١٩٥٣، أعطي كرستن الجنسية السويدية ومنحته وزارة الخارجية السويديـة «ورقة بيضاء» رسمية تمتدح دوره في انقاذ حياة المئات من السجناء، فمارس عملـه في المانيا، السويد هولندا وفرنسا الى ان توفي اثر نوبة قلبية في ١٦ نيسان ١٩٦٠.

■

نقل الموضوع من كتاب: Secrets and Stories of the War V: 2. 1963 LONDON

التاريخ الاجتماعي للإنارة

هدى سكاكيني البربير

من حجر الصوّان إلى ثورة الكهرباء



المنزل - الغرفة في القرية : الانارة والتدفئة والطهي بواسطة الموقد

● ابتداء بوسائل الانارة الأولى في العصر الحجري وحتى اكتشاف الكهرباء مرت البشرية بمراحل متعددة في صراعها الطويل ضد الطبيعة وضد نفسها من أجل تحسين ظروف حياتها ومعيشتها

كان هاجس التغلب على ظلمة الليل يؤدي تدريجياً إلى ابتكار أساليب متطورة . لكن هذه الاكتشافات ، على اهميتها ، لم تكن دائماً من نصيب كل أفراد المجتمع ، إذ انه حتى في هذا المجال الحيوي والمعيشي برزت التفرقة بين الموسرين والمعوزين على مر العصور : فكانت الطبقات العليا من المجتمع تنعم بأحدث الاكتشافات هذه ، بينما تحرم منها الطبقات السفلى ، إما بسبب غلائها الفاحش أو بسبب ندرتها .

هذا هو الاستنتاج المهم الذي يطرحه جاك لوفران في مقاله حول تاريخ الانارة والذي نشرته مجلة «ايستوريا» الفرنسية (تشرين الثاني -نوفمبر- ١٩٧٨ ، ص . ١٠٥ - ١١٥).

حجر الصوان :



منذ اكتشاف حجر الصوان دخلت البشرية عصر النار والنور . ومن بين كل ما ابتدعه الإنسان في العصر الحجري كان هذا الاكتشاف يشد إهتمامه أكثر من غيره : لذلك أخذ يركز جهوده لتطوير هذا الاختراع وإيجاد سبل أكثر سهولة للحصول على النار والنور .

عندما استطاع استخلاص الخصائص الاحتراقية لمادتي شحم الغنم والشمع تغيرت مظاهر أساسية من حياة الإنسان السابقة وبرزت الخطوات الأولى المتعثرة لحضارة الإنسان الجديد . ومن هاتين المادتين اللتين ستظلان خلال عدة قرون من أكثر الوسائل المستعملة للانارة انتشاراً ، توصل الفينيقيون ومن بعدهم الرومان إلى استخدام بعض أنواع الزيوت لهذا الغرض . من هنا نفهم لماذا كانت مواد الانارة متشابهة إلى حد كبير في العصور والعهود القديمة ، وحتى القرون الأولى من العصر الأوروبي الوسيط . فالاختلاف لم يكن يلاحظ إلا في معدات الانارة نفسها :

– بالنسبة إلى الطبقة الارستقراطية كانت هذه المعدات من البرونز ومزخرفة برسوم رائعة . أحياناً كانت على شكل تماثيل صغيرة تمثل الآلهة والأبطال الاسطوريين الذين كانت تزخر بهم كل الحضارات القديمة .

– أما بالنسبة إلى الطبقة الفقيرة والفئات المعوزة ، فكانت المصابيح البدائية المستعملة من الخشب المقطع أجزاء غير متناسقة . وكانت في الغالب تتخذ أشكالاً متعددة بتعدد الأدوات المختلفة المستخدمة في الأعمال اليدوية للفلاحين وصغار المهنيين . والملاحظ أن الشعوب القديمة كانت تكثر من استعمال معدات الأنارة ليلاً نهاراً . إن ذلك عائد في الدرجة الأولى إلى طبيعة بناء البيوت نفسها ، إن عند الاغنياء أو عند الفقراء . فالعادة المتبعة عند الفئتين ، ولأسباب مختلفة كما سنرى ، كانت عدم ترك المجال واسعاً لنفاذ نور الشمس وضوء النهار إلى داخل المنازل .

فما هي هذه الأسباب ؟ .

كانت بيوت الأمراء والأغنياء تتميز بإرتفاع شبابيكها عن الأرض وبقلة عددها وصغر حجمها ، اضافة إلى أن الأبواب كانت ضيقة نسبياً وذلك أما لأسباب دفاعية أو لإتقاء تقلّبات الطقس في الخريف والشتاء . أما بيوت الفقراء في العصور القديمة وحتى العصر الأوروبي الوسيط فكانت تفتقر إلى الشبابيك لأنها كانت أصلاً مكونة من غرفة واحدة .

وكانت فتحة الباب ضيقة ومغلقة في النهار

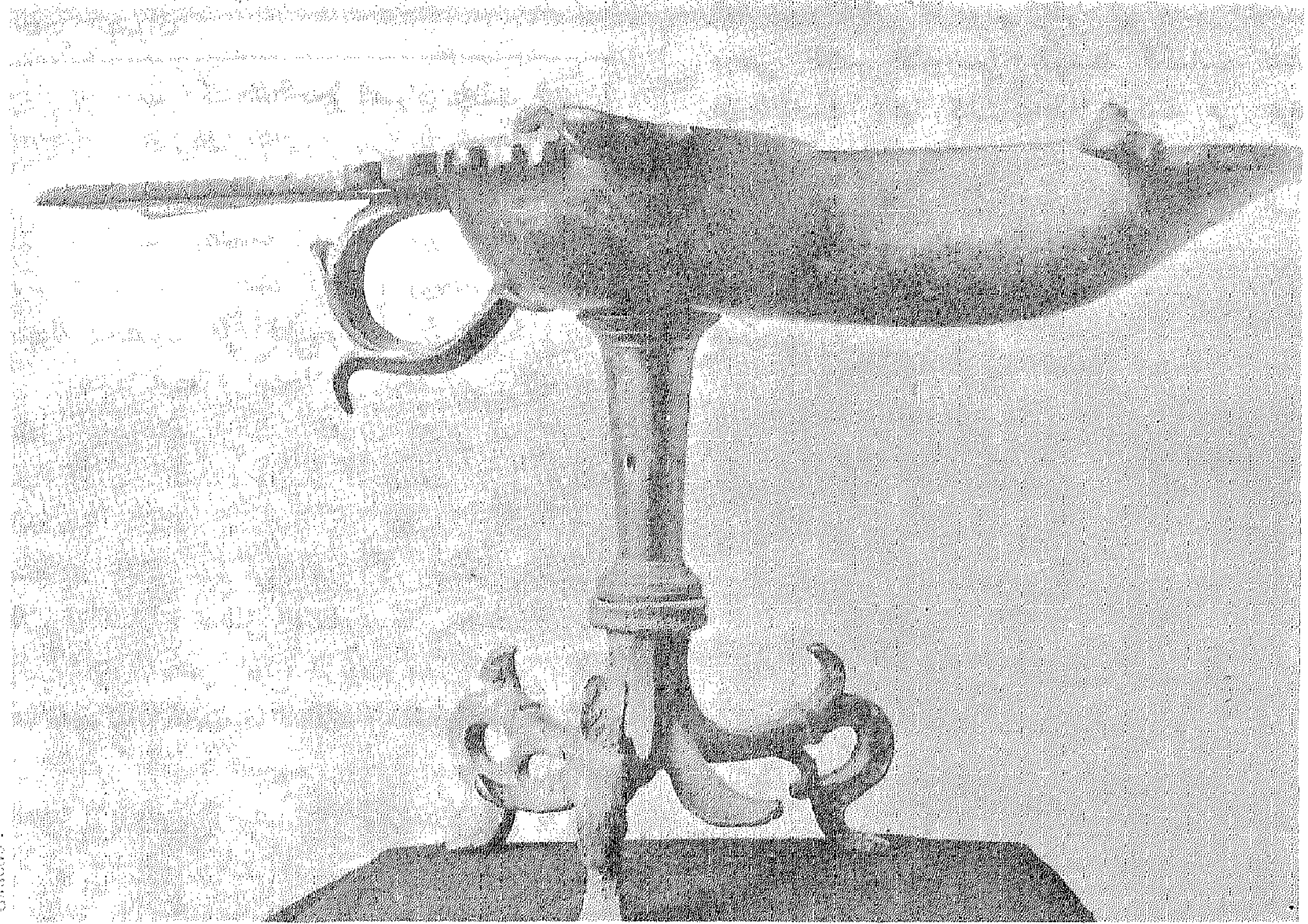


مصباح بدائي من البرونز من العصر الروماني – الاغريقي وهو ذو خمسة مساند – متحف سان جيرمان – أن – لأي

خصوصاً في جزئها الأسفل المتصل مباشرة بالأرض وذلك منعاً لدخول الحيوانات الداجنة إلى داخل الغرفة – المنزل . وهكذا لم يكن يتسرب النور إلا من الفتحة العليا للباب . وما زلنا حتى يومنا هذا نجد مثل هذه المنازل في بعض القرى والجبال النائية .

كان الفلاحون وسكان المدن يكتفون في الغالب ، من أجل انارة بيوتهم ، بنور الحطب المشتعل في الموقد . وكانت نار الموقد تستخدم أيضاً للطهي وللتدفئة . اضافة إلى ذلك كانوا يملكون نوعين من معدات الانارة البدائية .

– إما معدات من طين توضع فيها كمية من الشحم ويسبح في داخلها فتيل .



مصباح روماني بدائي من البرونز – متحف اللوفر

– أو مشعل من القماش المتوفر. صحيح ان المشعل كان يضيء المنزل في صورة أفضل إلا انه في المقابل ينشر دخاناً كثيفاً ويبث رائحة مزعجة.

أمام هذا الواقع كانت تطرح مشكلة أساسية: كيف كان يتم اشعال هذه المواد (شحم، شمع، زيوت)... ثم إعادة إضاءتها عندما تطفأ؟.

بطبيعة الحال كان حجر الصوان هو مفتاح حل المشكلة لقرون طويلة. كانت عملية صعبة، في مقاييسنا الحالية، لأنها كانت تتطلب بعض الوقت. لهذا السبب كان يتم اشعال مختلف معدات الأنارة ابقاؤها مشتعلة ليلاً نهاراً حتى تطفأ من تلقاء نفسها. هذا ما يفسر مثلاً لماذا كانت دور الأغنياء ومنازلهم مضاءة طوال الوقت. وكانت هذه العلامة من علامات الغنى واليسر. أما بيوت الفقراء المعدمين فغالباً ما تبقى مظلمة في الليل لعدم قدرة أصحابها على تحمل مصاريف الأنارة المستمرة. وعندما كان ينهض أحدهم في ظلمة الليل فإنه يكتفي بوضع قطعة صغيرة من الحطب في الموقد حيث تختمر النار تحت الرماد فتشتعل.

منذ القرن الرابع عشر كانت مادة الشمع غالية جداً ولا يتمكن من استخدامها في صورة دائمة إلا الأغنياء والموسرون. ومن المثير أن الشمعة المصنوعة من هذه المادة سمّيت على اسم المدينة الجزائرية «بوجي» (أو بجاية) والتي تقع على الخليج المسمى باسمها، ذلك ان هذه المدينة كانت تصدّر مادة الشمع بكميات كبيرة إلى أوروبا حينها. وهذه المدينة اثرية إذ يوجد فيها مسجد يعود بناؤه إلى القرن السادس عشر. وهي أصبحت اليوم نقطة استراتيجية مهمة على صعيد تصدير النفط الجزائري[1]

منذ أواخر العصر الأوروبي الوسيط ساهم انتشار النوافذ الزجاجية، التي كانت تتصدر منازل الأغنياء والنبلاء، في توفر المزيد من الانارة الطبيعية داخلها[2]

لكن لم يستخدم الزجاج، الذي كان لمدة غالياً جداً حينها، إلا على الشبابيك الداخلية لهذه المنازل منعاً لكسرها أو حتى لسرقتها

التطور بدءاً من القرن السادس عشر :

أول ثورة حقيقية في التاريخ الاجتماعي للانارة كان اكتشاف العناصر المشتعلة للكبريت . وترافق هذا الاكتشاف الذي دفع علم الكيمياء خطوات كبيرة إلى الامام ، مع بدء انتشار التدخين واستخدام الغليون في فرنسا منذ أواخر القرن السادس عشر . وساعد هذا الأمر كثيراً في اختراع الولاعة الفوسفورية البدائية : كان يكفي من أجل اشعال الولاعة حكها بعود من الخشب مطلي بقليل من الكبريت . ولم تنتشر هذه الولاعة إلا ابتداء من القرن الثامن عشر وانحصر استخدامها بين الأغنياء والمدمنين على التدخين من الفقراء والفئات المتوسطة .

في عصر النهضة الأوروبية أخذ الحرفيون يتسابقون على صنع الشمعدانات الكبيرة والضخمة ، فمهد ذلك لإنتشار الثريات المتعددة الضلوع منذ القرن السابع عشر .

ففي فرنسا أخذت تظهر الثريات المزينة بأروع الرسوم والزخارف . وكانت مكونة من ١٢ غصناً من البرونز أو النحاس . ومن الطريف انه في قصر فرساي لم تستخدم إلا الثريات الفضية . لكن لم يبق منها حتى يومنا هذا إلا القليل القليل بسبب الحروب وحاجة البلاد حينها إلى مادة الفضة .

التطور المهم الذي حصل في القرن الثامن عشر على صعيد الانارة كان تعميم المساند المعلقة على الحيطان في المنازل والدور العامة وفي الشوارع الرئيسية من المدن الكبيرة . وكانت هذه المصابيح المعلقة تضاء بواسطة قضيب طويل على شكل بندقية . في طرفه كانت توجد قطعة من الفولاذ تحدث الشرارة أثر احتكاكها بحصة . فيما بعد اضيف إلى طرف هذه «البندقية» مادة الصوفان : هكذا تم اكتشاف مبدأ الولاعة الحديثة المعروفة حالياً .

وبحكم العادة أصبحت هذه المصابيح البدائية تستعمل أيضاً للزينة . من هنا نفسر سبب وضع الشمعدان المضاء في عز النهار على طاولة الغداء .

ويذكر المؤرخون في هذا المجال الحفلة الكبيرة التي جرت في «قاعة المرايا» في قصر فرساي يوم ١٧٤٥/٢/٢٧ بمناسبة زواج ابن الملك لويس الخامس عشر من ابنة ملك اسبانيا . يومها ظهرت



رسم لبائع المصابيح في القرن ١٨

هذه المصابيح في أجمل ترتيب لها .

ولحسن الحظ أن العلماء لم يهتموا فقط بتطوير معدات الانارة الارستقراطية وإنما سرعان ما وجدوا حلولاً لاستبدالها لمعدات الإنارة الفوسفورية وهي أكثر مرونة : ففي العام ١٧٨٤ استطاع السويسري «إيمي ارغان» استحداث ما يعرف اليوم بالقنديل الذي يمنع انتشار الدخان ويحصره في أضيق نطاق ممكن . تبعه فيما بعد الصيدلي الفرنسي «انطوان كانكي» الذي أدخل على هذا الاختراع بعض التحسينات فسمي القنديل منذ ذلك الوقت بـ «كانكي» .

وعلى الرغم أن هذا الاختراع كان في متناول أوسع الفئات إلا انه لم يجد رواجاً سريعاً : فالأغنياء وجدوا شكله قبيحاً بالمقارنة مع الشمعدانات والثريات ، والفقراء تجنبوا استعماله بسبب غلاء الزيوت وعدم توفرها في صورة دائمة .

وهكذا لم يستعمل القنديل ابتداء من

القرن التاسع عشر إلا في المخازن والمحلات والمعامل.

مع بداية القرن التاسع عشر شهدت أوروبا اختراعات علمية في مجالات عديدة. وتمحورت كل الاختراعات في مجال الانارة خلال العقود الأولى من القرن الماضي حول المصباح - القنديل الذي شهد تطويراً ملحوظاً على يد العامل المهني الفرنسي «برتران غيوم كارسيل» (حوالي ١٧٥٠ - ١٨١٢) في العام ١٨٠٠ الذي اكتشف المصباح المعدني وسمي باسمه «مصباح كارسيل».

في الفترة نفسها تقريباً اكتشف المهندس الفرنسي «فيليب لوبون» (١٧٦٧ - ١٨٠٤) غاز الانارة. لكن لأسباب مجهولة استعمل في بريطانيا قبل استعماله في فرنسا.

وفي كانون الثاني ١٨٣١ اخترع الطالب الفرنسي شارل صوريا «الكبريت الكيميائي» الذي صنع في المانيا ثم في السويد قبل أن يصنع في فرنسا. كان هذا الاختراع مهما إذ لم تعد هناك حاجة لشرارة من أجل انارة هذا الكبريت.



الاحتفال بإنارة الشوارع بالمصابيح المعلقة في العام ١٦٦٦

الحفلة الكبيرة في فرساي في العام ١٧٤٥

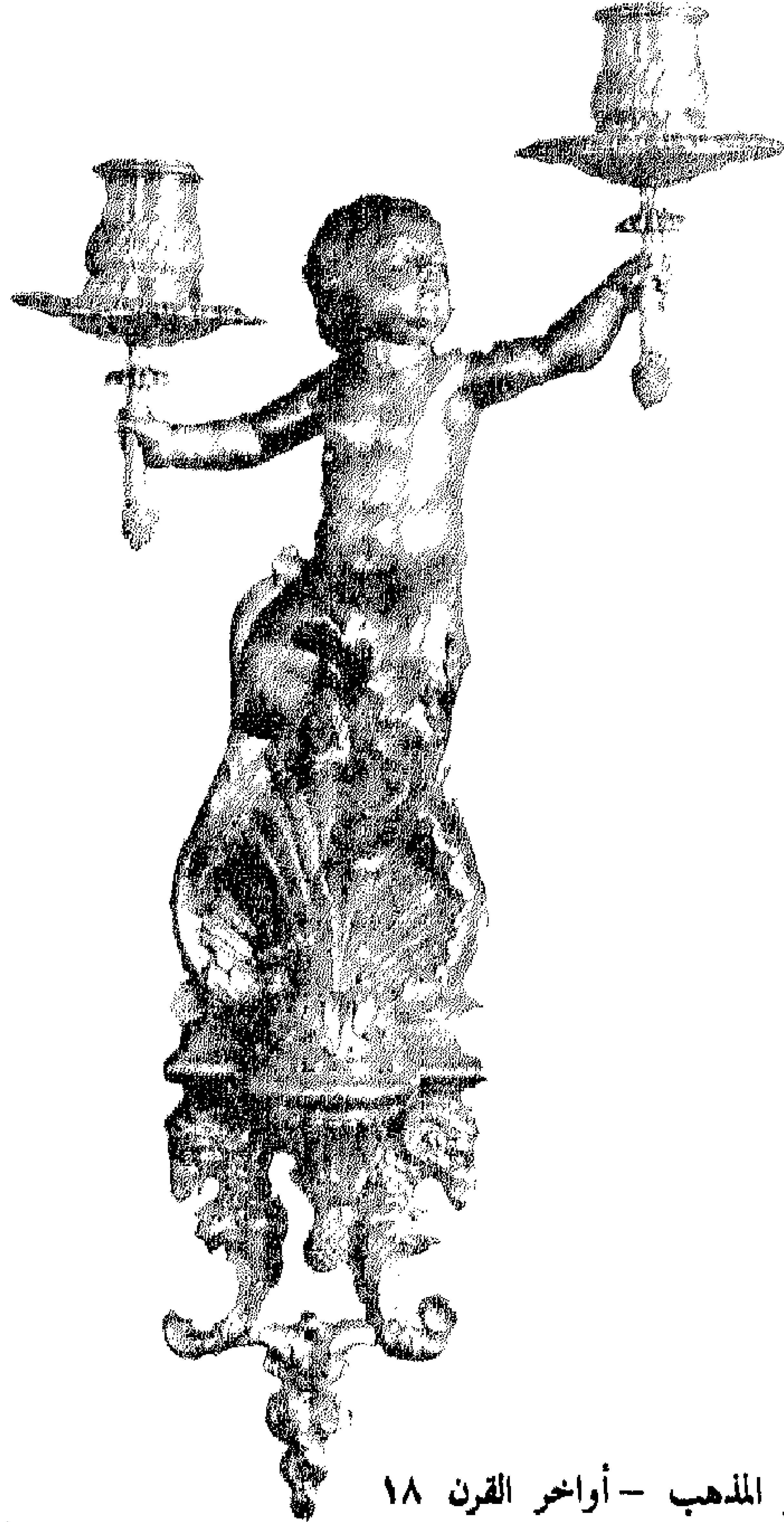


وفي العام ١٨٥١ ظهر أول مصباح بترولي.

أما الطاقة الكهربائية التي كانت معروفة منذ اختراع العالم الالماني أوتو فون غيريك (١٦٠٢ - ١٦٨٦) أول آلة كهربائية، فإنها لم تستخدم للانارة في فرنسا إلا حوالي العام ١٨٦١ في مدينة صغيرة تقع في مقاطعة سافوا، وهي مدينة «لاروش - سور - فورون»[٣].

... وكانت الثورة الثانية على صعيد الانارة. لكنها حتماً ليست هي الثورة الأخيرة.

■



شمعدان من البرونز المذهب - أواخر القرن ١٨

الهوامش

(١) من المفيد ان ينكب الباحثون العرب على إعادة نبش تاريخ هذه المدينة لاستقصاء حقيقة دورها في مجال تصدير الشمع، اضافة إلى ضرورة كتابة تاريخ الانارة في مجتمعاتنا العربية نظراً إلى أن المقال المنشور هنا لا يتناول هذا الموضوع الا ضمن الاطار الأوروبي والفرنسي بالتحديد.

(٢) كان اكتشاف الزجاج من الثورات الصناعية المهمة في تاريخ البشرية. ويشير كاتب المقال جاك لوفران ان تاريخ هذا الاكتشاف مجهول. ويقول أحد المؤرخين المطلعين وهو جان فوريستييه ان الإنسان كان يعرف صنع الزجاج منذ القدم، لكن لم يستطع أن ينتج الواحاً زجاجية من ٨ إلى ١٠ سم مربع إلا في العام ١٠٠٠.

(٣) هل صدفة ما قامت به حينها السلطة المركزية الفرنسية عندما ضمت هذه المقاطعة اليها نهائياً في العام ١٨٦١، وذلك أثر نجاحها في ضرب سلطة الاقطاع السافوي الذي حكم المنطقة منذ القرن الحادي عشر ميلادي؟.

أراجيز عربية قديمة لترقيص الأطفال

الحلقة الثانية

بقلم : فيبكة فالتر	ترجمة : محمد علي حشيشو



ماريونيت تستعيد التاريخ العربي وتسلي الصغار

أراجيز أرقصت الكبار :

ويقال إن قطع شعر الرقص التالية قد رددت من الكبار لإرقاص شخصيات معروفة من العصر الجاهلي أو من القرنين الأولين من التاريخ الإسلامي وذلك في طفولتهم. ويقال إن هنداً بنت الأوقص بن لجيم، وهي أم فزارة بن ذبيان. الجد الأسطوري لقبيلة عربية شمالية، أرقصت ابنها فزارة الصغير على الأبيات التالية :

إن تشبه الأوقص أو لجيماً
أو تشبه الأحنف أو هيما
تشبه رجالاً يمنعون الضيما

ونجد أبياتاً مشابهة مع قليل من الاختلاف لدى (Lyall) صفحة ٩٦ وما تلاها :

إن تشبه الأقصى او هيما
أو عجل أو حنيفة أو لجيما
بنيّنا فزار تشبه قوماً
بيض الوجوه يمنعون الضيما

والأغلب أن يكون الشعر من العصر الجاهلي، فهو ينطق بروح سيطرة الأم : فالأمثلة العليا التي يجب على فزارة أن يتشبه بها كلها من أقارب الأم فقط، وهم، حسب فوستنفلد «Wustenfeld

، « ، Genealogische Tabellen
أب الأم وجدها وأخوة أب الأم .

وتتناول الأبيات التالية كذلك الأمثلة العليا التي تذكرها منفوسة ، ابنة البطل البدوي الأسطوري زيد الفوارس ، لابنها الصغير حكي وهي تنشدها له (لسان العرب ، تحت هـ - ل - ف) :

أشبه أبا أملك أو أشبه عمل
ولا تكونن كهلوف وكل
يصبح في مضجعه قد انجدل
وأرق إلى الخيرات زناً في الجبل

وكما يقول ابن بري فإن عمل هو اسم خال قيس بن عاصم ، زوج منفوسة ، وقد يكون هذا القول قد اعتمد على الاعتقاد السائد بأن صفات الخال هي التي تورث بشكل خاص . ويقال بأن قيس بن عاصم عندما سمع هذه الأبيات شعر بأنه أهمل . وعلى أثر ذلك استطردت زوجته على الوجه التالي (لسان العرب ، نفس المكان) :

أشبه أخي أو أشبهن أباكا
أما أبي فلن تنال ذاكا
تقصر أن تناله يداكا

وتظهر نفس الأبيات في كتاب النوادر لأبي زيد ، صفحة ٢٩ ، السطر الرابع من الأسفل ، مع اختلافات بسيطة : فالإسم في البيت الأول يتغير إلى حمل ، وهو اسم يذكر كثيراً ، بينما لم أجد أي شاهد أو مكان آخر لاسم عمل . ويبدو البيت الثالث على الوجه التالي : تبيت في مقعده قد انجدل . وهنا أيضاً ترد صيغة الخطاب «أشبه أبا أملك» خلافاً لـ «أبي» في القطعة الثانية . بحيث يبدو الأمر أكثر احتمالاً بأن الأب وليس منفوسة قد أنشد للطفل الأبيات الأولى ، مما دفع بها إلى أخذ الطفل منه وتلاوة القطعة الثانية .

وهذان البيتان التاليان اللذان أرقصت بهما أم عقيل . أم علي بن أبي طالب ، أخاه الأكبر عقيل الذي دخل الإسلام متأخراً وذلك في طفولته حسبما جاء في «خزانة الأدب» للبغدادي ، م ٤ ، صفحة ٤١ ، ١٦ :

أنت تكون السيد النبيل
إذا تهب شمأل بليل .

ومن المحتمل أن معنى البيت الثاني هو : «عندما تحل أوقات عصبية قاسية» .

ويقال ان الأبيات التالية أيضاً صدرت عن أم عقيل حين كانت ترقصه عليه وتقبله (الخزانة ، م ٤ ، صفحة ٤١ ، ١٤) :

إن عقيلاً كاسمه عقيل
وبيبي الملقف المحمول
يعطي رجال الحي أو ينيل

ويقال إن ضباعة بنت عامر بن قرط ، وهي مكية دخلت الإسلام مبكراً ، أرقصت ابنها على الأبيات التالية (القالي ، الأمالي ، م ٢ ، ١١٧ ، سطر ١ - ٣) :

نما به إلى الذري هشام
قرم وآباء له كرام
جحاجح خضارم عظام
من آل مخزوم هم الأعلام
الهامة العلياء والسنام

وتعرب هذه القطعة عن التمني بأن يزداد اعتبار الأب بفضل الابن ، تعرب عن التمني كذلك بحياة ناجحة للابن تقوم على الإعتزاز والفخار بكرم المحتد والآباء . وليس اسم الابن المغيرة بن سلامة ، كما أورد القالي في المكان المذكور ، وإنما سلامة بن هشام ابن المغيرة ، إذ أن ضباعة بنت عامر ، وهي حسناء جميلة مشهورة ، تزوجها هشام ابن المغيرة من قبيلة مخزوم المكية المعروفة(٩) .

ويروي أن أم حكيم بنت عبد المطلب . جدة الخليفة عثمان لأمه ، أرقصت هذا في طفولته على الأبيات التالية (البلاذري ، أنساب الأشراف ، صفحة ١ ، سطر ٧ وما تلاه) :

ظني به صدق وبر
يأمره ويأتمر
من فتية بيض صبر
يحمون عورات الدبر
ويضرب الكبش النعر
يضربه حتى يخر
من سرر (!) ومن أخر .

وتبدو القطعة ، رغم أنها من بحر الرجز ، ذي الإيقاع المرقص ، إنها من حيث المضمون نصاً دعائياً موالياً للحكم في الفترة التي اشتدت الحملة فيها على عثمان من خصومه وحين ازداد الاستياء منه . وكما يبدو فإن الأسطر الثلاثة الأخيرة تتعلق بأكباش

الضحية. وليس من الواضح ما يقصد بـ (سرر) في الشطر الأخير، وهي غير مشكلة عند Gioteın) أيضاً، وربما قصد بها سرر أو سرر، جمع سُرّة.

وكالرواية السابقة، فإن هنداً بنت عتبة، أم الخليفة معاوية، أرقصت الأخير في طفولته على الأبيات التالية (القالي، الأمالي، م ٢، صفحة ١١٦، ١٤ – ١٦):

إن بني معرق كريم
محبب في أهله حليم
ليس بفحاش ولا لئيم
ولا بطخرور ولا سئوم
صخر بني فهر به زعيم
لا يخلف الظن ولا يخيم.

وفي هذه القطعة أيضاً لا نشعر أن الأبيات قيلت لطفل، وإنما نظمت لغرض دعائي. ويمكن الاعتقاد بأن القطعة تعود إلى فترة المعارك التي كانت جارية بين معاوية وعلي على الخلافة وغايتها التأكيد على فضائل معاوية بالمقارنة بعلي. ومما يؤيد ذلك أيضاً أن معاوية يوصف «بالحليم»، وهي صفة امتاز بها معاوية، ولكنها عرفت عنه في كبره، ولا يمكن أن تكتشف فيه في سن الطفولة بحيث يوصف بها وهو لا يزال طفلاً صغيراً.

ويقال ان فاطمة ابنة الرسول محمد أرقصت ابنها الحسين على البيتين التاليين:

إن بنى شبه النبي
ليس شبيهاً بعلي

وينطبق هذا القول من حيث المضمون على بعض الأحاديث التي تذكر بأن محمداً قال عن الحسين بأنه من صنوه. ومن المعتقد أن الروايتين تعودان إلى الفترة التي رجا فيها أنصار الحسين، بعد فشل علي، بأن يتولى ابنه الحسين الخلافة من بعده. وقيل إن صاحب الرسول، الزبير بن العوام، أرقص ابنه عروة، وهو محدث هام، على الأبيات التالية في طفولته (الإبشيهي، المستطرف، م ٢، صفحة ١٠، ١٣):

أزهر من آل بني عتيق
مبارك من ولد الصديق
ألذه كما ألذ ريقي.

ونجد الأبيات نفسها عند الجاحظ، كتاب البيان، م ١، صفحة ٧٤، ٢٢، وفي العقد، م ٢، صفحة ٤٣٩، ٨ – ٩، ولكن باختلافات بسيطة في مضمون البيت الأول: أبيض من آل بني عتيق. وهكذا فالبيتان يمدحان أصل عروة العريق: فقد كان عن طريق أمه حفيداً للخليفة الأول، أبي بكر، الذي يدعى هنا بلقبه عتيق وصديق. وتعتبر القطع التالية التي تحتوي مديحاً لمختلف أسلاف الأسرة العباسية تزويراً تم في العهد العباسي. فيقال إن الزبير بن عبد المطلب، أحد أعمام الرسول، الذي دخل الإسلام متأخراً، أخذ بحضور محمد أخاه الأصغر العباس، جد العباسيين، وأجلسه في حجره وراح يقول (القالي، الأمالي، م ٢، صفحة ١١٦، ١٤ – ١٦):

إن أخي عباس عف ذو كرم
فيه عن العوراء إن قيلت صمم
يرتاح للمجد ويوفي بالذمم
وينحر الكوماء في اليوم الشبم
أكرم بأعراقك من خال وعم.

ويلاحظ أن البيت الثالث والأخير نظما ليناسبا الدعاية للعباسيين بشكل خاص. إذ يمكن أن نفهم من كلمة «الذمم» العهود والاتفاقات التي أبرمت مع أهل الذمة من رعايا الخلافة. أما البيت الأخير فيشير إلى شرعية مطلب العباسيين التي تقوم على كون عباس ابن عبد المطلب عماً للرسول.

ويقال إن الزبير ردد الأبيات التالية لضرار ابن عبد المطلب، وهو أخ صغير للعباس، توفي مبكراً دون خلف (نفس المرجع، صفحة ١١٥، ١٨ – ١٩):

ظني بمياس ضرار خير ظن
أن يشتري الحمد ويغلي بالثمن
ينحر للأضياف ربات السمن
ويضرب الكبش إذا البأس ارجحن.

ويمتدح هذا الشعر في ضرار مختلف الفضائل العربية القديمة: السخاء إزاء من يمدحونه، وكرم الضيافة، والإستعداد للتضحية بالذبائح عند الحاجة.

ويختلف الأمر في القطعة التالية. فبعد أن ردد الزبير على إخوته وابنته أم الحكم أبياتاً شعرية



امتدحهم فيها ، دخلت عليه جارية اسمها ام مغيث ، ورجته أن ينشد بضعة أبيات لابنها مغيث أيضاً. وعندئذ أمر باحضاره سريعاً وأرقصه على الأبيات التالية (نفس المرجع ، صفحة ١١٦ ، ٥ – ٧) :

وإن ظني بمغيث إن كبر
أن يسرق الحج إذا الحج كثر
ويوقر الأعيار من قرف الشجر
ويأمر العبد بليل يعتذر
ميراث شيخ عاش دهراً غير حر

ويقول البكري في تعليقه على «الأمالي» إن البيت ما قبل الأخير ورد في كتاب «الترقيص» كما يلي : ويأمر العبد بليل يمتدر (السمط ، م ٢ ، ص ٧٤٤ ، ٣). ولا يبدو المضمون واضحاً تماماً ، ولكنه لا يحتوي أي مديح خلافاً للقطع السابقة ، وإنما يتنبأ لمغيث الصغير «ميراث شيخ عاش دهراً غير حر» ، أي مصير جده الذي كان عبداً مثله ، ويتوقع منه أعمالاً خاملة الذكر.

وفي مجموعة أشعار الأطفال المرقصة يورد القالي كذلك القطعة التالية التي تتعلق كذلك بأحد العباسيين . فيقال إن أم الفضل بنت الحارث الهلالية أرقصت بالأبيات التالية ابنها عبد الله بن عباس بن عبد المطلب ، الذي اشتهر كمحدث مكثار (نفس المرجع ، ص ١١٧ ، ٧ – ٨) :

ثكلت نفسي وثكلت بكري
إن لم يسد فهراً وغير فهري
بالحسب العد وبذل الوفر
حتى يواري في ضريح القبر.

وقد أدت الآمال الفخورة الطموحة التي وضعتها أم في ابنها إلى التعبير عن القطعة التالية وهي آخر القطع في هذه المجموعة . ففي ديوان الخطيئة ، ص ١١١ ، رقم ١٢ ، جاء أن ابا الجراح روى أنه مر بأعرابية كانت ترقص ولدها وتغني :

على يوم يملك الأمورا
صوم شهور وجبت نذورا
وحلق رأسي وافراً مضفوراً
وبدناً مذرعاً منحوراً

وعلى أثر ذلك سألها : «ويحك ، أتتمنين لابنك أن يتولى الخلافة»؟ فأجابت : «وما يمنعني من

ذلك؟». وقيل إنها كانت خيزران، أم الخليفتين الهادي وهرون الرشيد، وكانت جارية بربرية اعتقها الخليفة المهدي عام ١٥٩هـ ثم تزوج بها.

إن أبيات الترقيص هذه، وإن كان بينها ما تفتقت عنه المخيلة الأدبية، ذات أهمية من الناحية التاريخية الحضارية. ومع أن بعضها فقط يلقي بعض الضوء على الحياة العائلية العربية القديمة، ولكنها تكشف عن المثل الأعلى بين مقاييس الفضيلة عند قدماء العرب. فعلى عكس الأغاني الألمانية التي تردد للأطفال عند مداعبتهم في ركوب ركب أو أكتاف الآباء، فإن قليلاً من هذه القطع الشعرية العربية ذو طابع طفولي حقيقي، والأقل من ذلك تتميز بالعنصر الشكلي من ايقاع وقافية ووزن، أما في المضمون والمعنى فتميل إلى تداعي الأفكار غير المعقول بدلاً من إظهار الترابط المنطقي المعقول(١٠). ومع أن الوزن والقافية وما ينجم عن ذلك من طابع خاص تلعب هنا دوراً لا يستهان به، إلا أن مضمون عدد ضئيل جداً من هذه القطع ينم عن النية في اتخاذ دور الطفل أثناء مداعبته وترقيصه. ومن الناحية الشكلية البحتة ندرك ذلك من استعمال ضمير «أنت» لمخاطبة الطفل في عدد ضئيل من هذه القطع الشعرية، بينما يظهر الطفل في أغلبها مشاراً إليه بصيغة الغائب. ويحتوي أغلب القطع كذلك على أفكار الكبار عن الطفل، ومشاعرهم تجاهه، وتمنياتهم له في الحياة المقبلة بوجه خاص. وندرك إلى جانب حب الطفل والإعتزاز به ندرك بالدرجة الأولى التفاخر بالآباء والأجداد المشهورين والرغبة والتمني في أن يتخذهم الطفل مثلاً أعلى وأن يتشبه بهم في المستقبل، وأن يعمر طويلاً ويظل معتبراً محبوباً. ومن القطع القليلة الخاصة بالبنات يهدف بعضها تعزية الوالدين بولادة البنت. وينطق البعض بالفرح والسرور لشكل البنت الصغير اللطيف، ويعرب أغلبها عن الرغبة والأمل في ان تتزوج البنت وتنال زوجاً كريماً. ومن مجموع هذه الأبيات يمكن أن نستخلص سلسلة من الصفات التي كان العرب في ذلك الزمن يقدرونها في الرجل: كرم المحتد، وزكاء القلب، وكرم الضيافة، والسخاء في العطاء، والجلد والصمود، والاستقامة، والحلم، والشجاعة، والحيوية.

إن اغاني الأطفال والأراجيز على اختلاف أنواعها، والترانيم وأبيات الترقيص وغير ذلك من أغاني وأشعار الأطفال الترفيهية تتمتع اليوم بحب كبير في العالم العربي. وهي تذاع من محطات الاذاعة والتلفزيون، كما أن صناعة الاسطوانات أخذت في تسجيلها. وقد قام اينو ليتمان (E. Littmann) وهـ. غرانكويست (Granqvist) بجمع نصوص ترانيم تهويد الأطفال(١١) وفي العصر الحاضر الذي أصبحت اللهجة الدارجة هي وسيلة التفاهم السائدة في اللغة في البلاد العربية، فقد نظمت هذه الترانيم والاغاني كذلك باللهجة الدارجة. وما يميزها عن الأشعار التي بحثناها أعلاه هو التقدم الكبير في قوة تحسس نفسية الطفل، والوداعة والبراءة الطفوليتان اللتان يتم التوصل اليهما باستخدام كلمات في لغة الأطفال ومفاهيم وتصورات وتشابيه من عالم الطفل، بحيث تبدو شبيهة جداً بأغاني الأطفال المعروفة عندنا.

■

(٩) راجع ابن سعد. الطبقات. المجلد ١٧ ص ٩٦ وما تلاها.

(١٠) راجع مقال **P. Merker, W. Stammler: Kinderlied**

B.H. Naumann Reallexikon der deutschen Literaturgeschichte, Bd. I, Berlin 1926/8.

(١١)

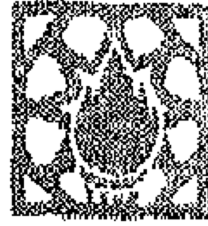
Littmann: Neuarabische Volkspoesie, S. 56-8, 134-7; Granuqvist: Birth, S. 118-20; St. H. Stephan: Palestinian Nursery Rhymes and Songs, JPOS 11 (1931), S. 62-85.

مختارات من المراجع

أبو زيد، كتاب النوادر في اللغة. بيروت

أبو الفرج الاصبهاني : كتاب الأغاني . ج (٣) القاهرة ١٩٢٩/١٣٤٧ . ج ١٣ و ١٨ نشر أحمد الشنقيطي . القاهرة بدون تاريخ .
العيني : شرح الشواهد الكبرى . ج ٢ . بولاق ١٢٩٩ .
البيهقي : كتاب المحاسن والمساوئ. نشر شفالي عام ١٩٠٢ .
البكري : سمط اللآلي . ج ٢ ، القاهرة ١٩٣٧/١٣٥٦ .
البلاذري : أنساب الأشراف ، الجزء ٥ . القدس ١٩٣٦ .
ابن سعد : كتاب الطبقات الكبير ، تحقيق زاخاو لايدن ١٩٠٥ - ١٩٤٠ .
إبن إياس : شرح المفصل . نشر يان لايبزغ ٨٨٢ - ١٨٨٦د.
الإبشيهي : كتاب المستطرف في كل فن مستظرف ، ج ٢ ، مصر ١٩٠٢/٣٢٠ .
ابن عبد ربه : كتاب العقد الفريد ، ج ٢ ، القاهرة ١٩٥٦/١٣٧٥ .
محمد بن مكرم بن منظور : لسان العرب ١ - ٢٠ بولاق . ١٣٠٠ - ١٣٠٧ .
البغدادي : خزانة الادب ، ج ٤ ، بولاق ١٢٩٩ .
ابن دريد : كتاب الاشتقاق . نشر ف . فوستنفلد .
ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ، نشر م . ي .دي
القالي : كتاب الأمالي في لغة العرب ، ج ٢ ، القاهرة ١٩٢٦/١٣٤٤ .
السهيلي : كتاب الروض العنف ، مصر ١٩١٤/١٣٣٢ .
السيوطي : كتاب بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة . مصر ١٩٠٨/١٣٢٦ .
الطبري : تاريخ الطبري . نشر (11. Ser. M.J. de Goeje) ، لايدن ١٨٨٣/١٨٨١ .
الزبيدي : تاج العروس من جواهر القاموس ، ١ - ٢٠ ، مصر ١٣٠٦ - ١٣٠٧ .
ياقوت : إرشاد الأديب إلى معرفة الأديب . نشر (D.S. Margoliouth.) ج ٥ ، لايدن ، لندن ١٩١١ . GMS VI, 5.
المفضليات ، نشر اكسفورد ١٩١٨ - ١٩١٢ .
نقائض جرير والفرزدق . نشر لايدن ١٩٠٨ - ١٩١٢ .

نشرت هذه المقالة بالالمانية في
Studia Orientalia in memoriam Garoli B: ockelmann, Halle 1968.
ثم ترجمت إلى العربية و نشرت في مجلة فكر وفن العدد ١٨ .



● يجب أن نلبس الحقائق التي نشاهدها ثوبا خياليا أو روحيا كما يجب أن نسعى لتحقيق الأماني الخيالية الروحية التي تنزع اليها نفوسنا .

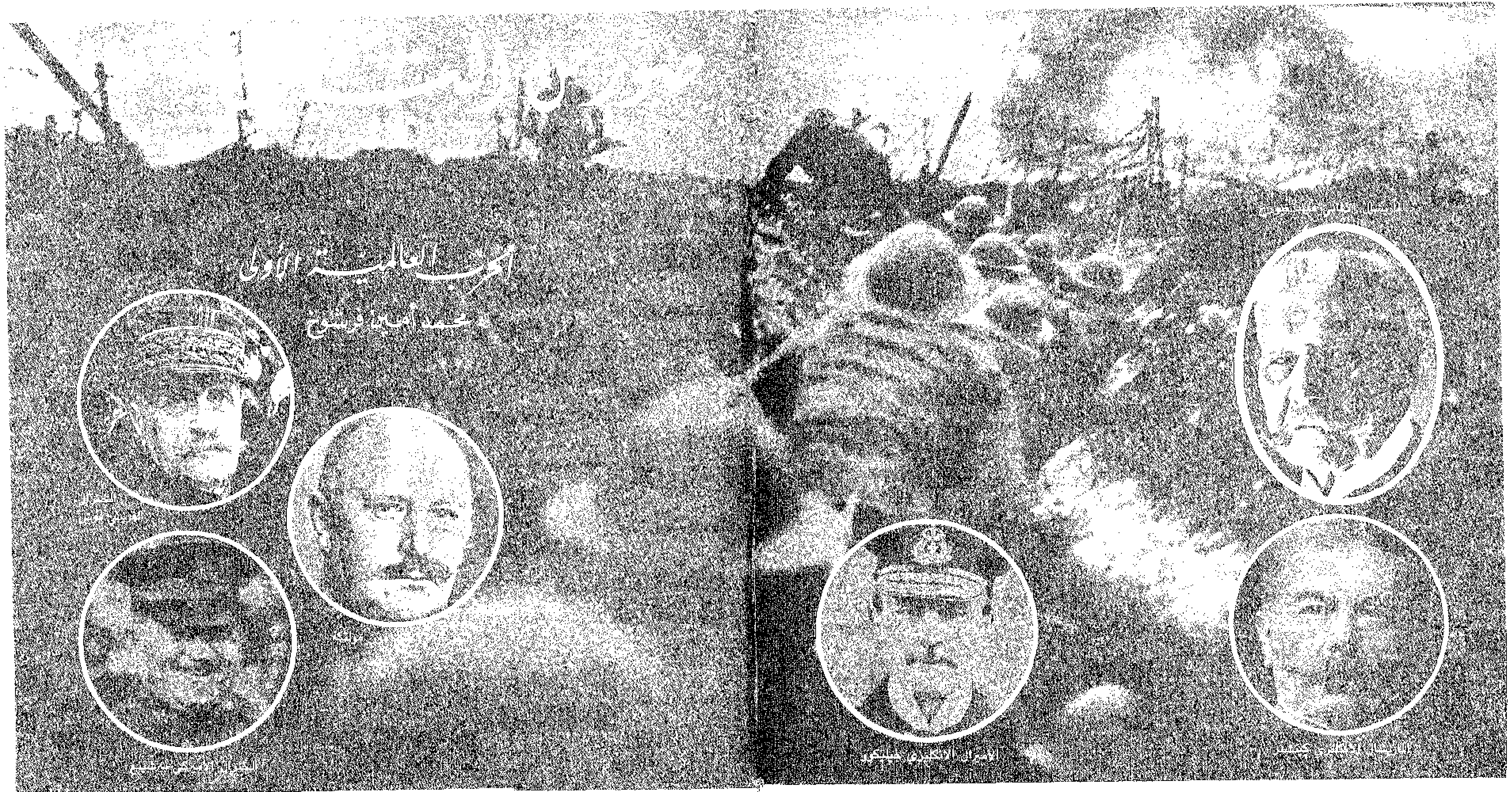
دوماس الصغير

● السعادة تترتب على العواطف أكثر من ترتبها على الحوادث .

لوردا فبري

● الصداقة تقوم مقام كل شيء فانها تزيد اغتباطنا في أفراحنا وتخفف حزننا في أتراحنا .

امرسن



الحرب العالمية الأولى

محمد أمين فرشوخ

عودة الى التاريخ الأوروبي الحديث تبرهن في صورة لا جدال فيها، ان الكل سارعوا في دخول الحرب كمن كان ينتظرها ولكنهم بدوا في عجلة من أمرهم للخلاص من أتونها عند أول فرصة سانحة.

ففي ١٩١٤/٦/٢٨ تجرأ طالب صربي على اغتيال ولي عهد النمسا وزوجته في مدينة «سيراييفو» المحظوظة. وكانت شرارة الحوادث الدامية، الخالية من أي معنى، والتي أودت – خلال أربعة أعوام وثلاثة أشهر وعشرة أيام وبضع ساعات مثقلة بآلام عظيمة بمستوى آمال البشرية في السلام – بحياة تسعة ملايين نسمة تقريباً، عدا ملايين الجرحى والمعطوبين والمشوهين من البشر وليس من الحيوانات. وكان الرقم القياسي للشهداء من حظ الشعب الروسي (مليونا قتيل).

على إثرحادث ٢٨ حزيران/يونيو استيقظت الحكومات وكأنها كانت على موعد... للقاء الحار: –

– في ٢٨ تموز/يوليو أعلنت النمسا الحرب على صربيا.

– في آب/اغسطس أعلنت المانيا الحرب على روسيا القيصرية.

– في الثالث منه أعلنت المانيا الحرب على فرنسا.

– في الرابع منه أعلنت انكلترا دخولها الحرب الى جانب فرنسا وبلجيكا.

– في السادس منه أعلنت النمسا الحرب على روسيا القيصرية.

– في الثالث والعشرين منه أعلنت اليابان الحرب على المانيا.

– في ٢٩ تشرين الأول/أكتوبر دخلت تركيا الحرب إلى جانب المانيا.

– في ٣ تشرين الثاني/نوفمبر أعلن الحلفاء الحرب على تركيا.

...باستثناء ايطاليا التي لم تدخل الحرب إلى جانب الحلفاء إلا في ١٩١٥/٥/٢٠ وأمريكا في ١٩١٧/٤/٢ .

العرب والحرب

خلال الحرب العالمية الأولى، أربع دول عربية أدلت بدلوها في شكل أوفى آخر، وهي مصر وليبيا والعراق وفلسطين .

– فور اندلاع شرارة الحرب باشرت بريطانيا بتحصين قناة السويس بمساعدة فرنسا، كما عززت قواتها فيها . من جهة أخرى استفادت تركيا من هيستيريا القتال وأخذت تعد العدة لتحرير مصر من الاحتلال الاستدماري البريطاني . بدأت الحملة العسكرية للباب العالي، جدا، في ١٩١٥/١/٢٦ . ففشلت . وظلت تراود حكام تركيا العثمانية فكرة إعادة الكرة، إلا أن ذلك لم يحصل، إذ أن شعب مصر هو الذي حرر بلاده .

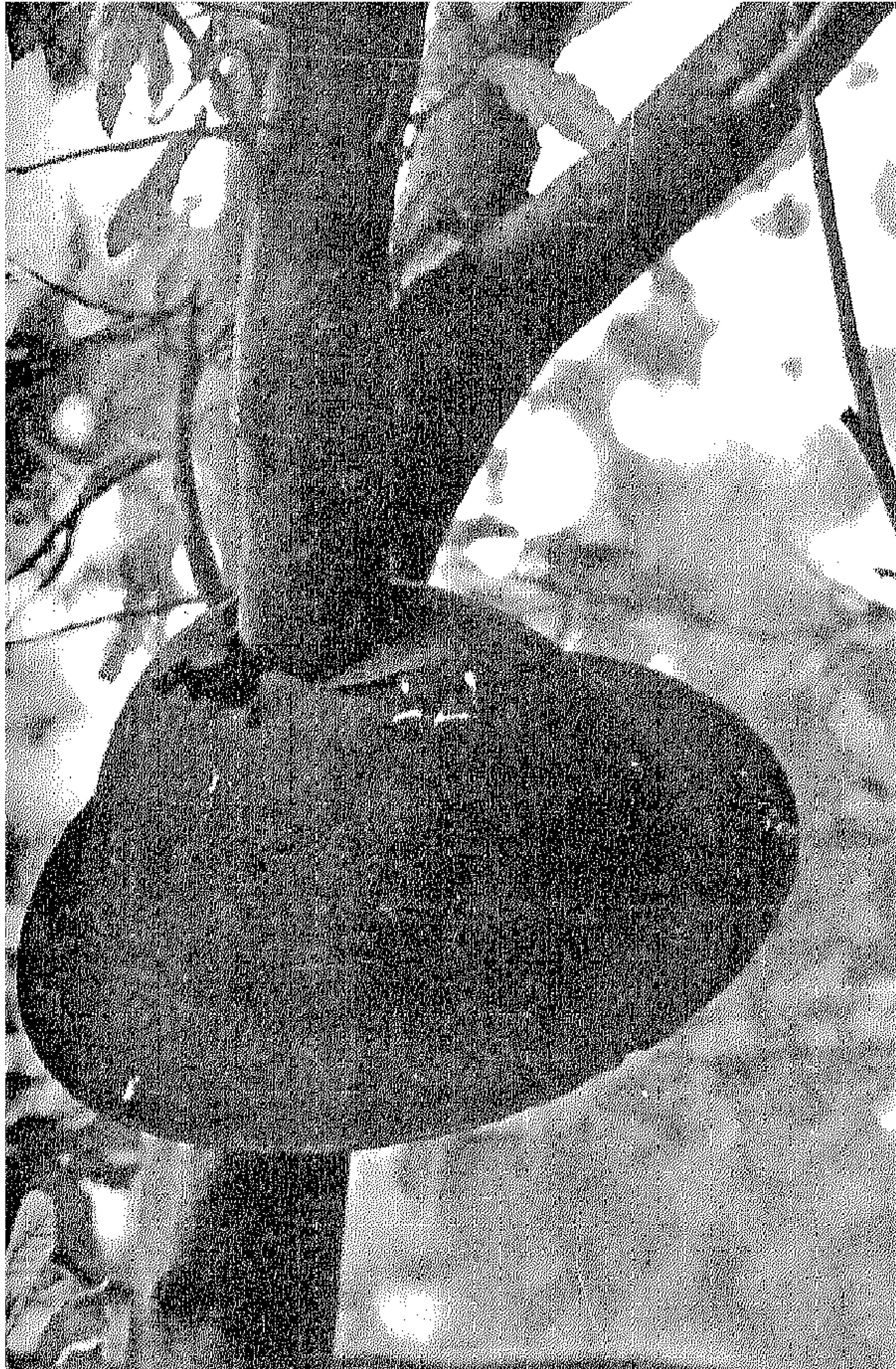
– في خريف ١٩١٥ ثار السنوسي – وبدعم من الأتراك الفاشلين في تحرير مصر قبل أشهر – ضد القوات البريطانية المتمركزة فوق الأراضي الليبية . لكن يبدو أن الأتراك نقلوا عدوى فشلهم المتمادي إلى ثوار السنوسي أنفسهم . فأخمدت ثورتهم في العام ١٩١٦ .

– منذ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩١٤ بدأت القوات البريطانية بالزحف على العراق بحجة حماية أنابيب النفط العائدة إلى شركة النفط الانكليزية الايرانية . ويبدو أن إمبراطورية الشمس الغاربة كانت السباقة في اختراع مثل هذه الحجة لتحريك فصائلها المسلحة . وفي ١٩١٧/٣/١١ نجحت بريطانيا في احتلال بغداد .

– أما فلسطين الحبيبة الجريحة فيبدو أنها كانت على جدول أعمال أهم الاجتماعات الديبلوماسية والعسكرية . ولم يعرف الشعب يومها إلا أن الزحف العسكري البريطاني نحو بلاده بدأ في أواخر العام ١٩١٦ ووصل إلى القدس – القلب في أواخر العام ١٩١٧ .

كبار ضباط الحرب

إذا كان من السهل وضع لائحة لجميع ضباط الحرب العالمية الأولى على جميع الجبهات، إلا أنه من الصعب أختيار أسماء الذين كانوا فعلا رموز هذه الحرب . وهذه محاولة أولى على سبيل التجربة :



خوذة جندي رافقت نمو شجرة الربيع : السلام الملغوم .

– **الماريشال الألماني هيندنبورغ** (١٨٤٧ – ١٩٣٤) . استدعي في العام ١٩١٤، بعد ٣ سنوات من تقاعده، لانقاذ الجيش الألماني من الانهيار أمام القوات الروسية القيصرية . في تشرين الثاني/نوفمبر من العام نفسه عين قائداً عاماً للجبهة الشرقية حيث استمر في منصبه حتى آب/اغسطس ١٩١٦، تاريخ استلامه القيادة العامة للقوات المسلحة الألمانية . تحت ضغط الهجوم المضاد للحلفاء على معظم الجبهات الرئيسية، اضطر للاستسلام في العام ١٩١٨ . بعد سبع سنوات من انتخابه مستشاراً لألمانيا المهزومة عسكرياً، تنازل راضياً مرضياً عن منصبه لأدولف هتلر (١٩٣٢) .

– **الماريشال الانكليزي اللورد كيتشنر** (١٨٥٠ – ١٩١٦) . في العام ١٩١٤ تسلم منصب وزير الحربية ثم ترأس في العام ١٩١٦ البعثة الخاصة المتوجهة بحراً نحو روسيا القيصرية، لكن سفينته أغرقت .

– **الجنرال الفرنسي فوش** (١٨٥١ – ١٩٢٩). شارك، بصفته قائداً للجيش الفرنسي التاسع، في معركة المارن الظافرة. في العام ١٩١٦ قاده بالتعاون النشيط مع الماريشال البريطاني دوغلاس هايغ (١٨٦١ – ١٩٢٨)، قائد القوات البريطانية على الجبهة الفرنسية (١٩١٥ – ١٩٢٨)، معركة السوم ضد القوات الألمانية (تموز/يوليو – تشرين الثاني/نوفمبر ١٩١٦). أصبح في العام ١٩١٧ رئيسا لهيئة أركان القوات المسلحة الفرنسية وعين في العام ١٩١٨ قائداً عاما لقوات الحلفاء على الجبهة الغربية، ثم بعد فترة على جميع الجبهات، قاد، بدءاً من ١٨/٧/١٩١٨، الهجوم المضاد الشامل الذي ادى الى انتصار الحلفاء في الحرب.

– **الماريشال الانكليزي اللنبي** (١٨٦١ – ١٩٣٦). في العام ١٩١٧ عين قائداً للقوات البريطانية في فلسطين واستطاع كسر شوكة القوات التركية في عدة معارك واستولى على القدس ودمشق وحلب. كان له الثقل الرئيسي في قيادة المعارك الحاسمة ضد العثمانيين مما اضطر تركيا للاستسلام في ٣٠/١٠/١٩١٨. في العام ١٩١٩ رقي إلى رتبة ماريشال وعين مفوضاً ساميا في مصر (١٩١٩ – ١٩٢٥).

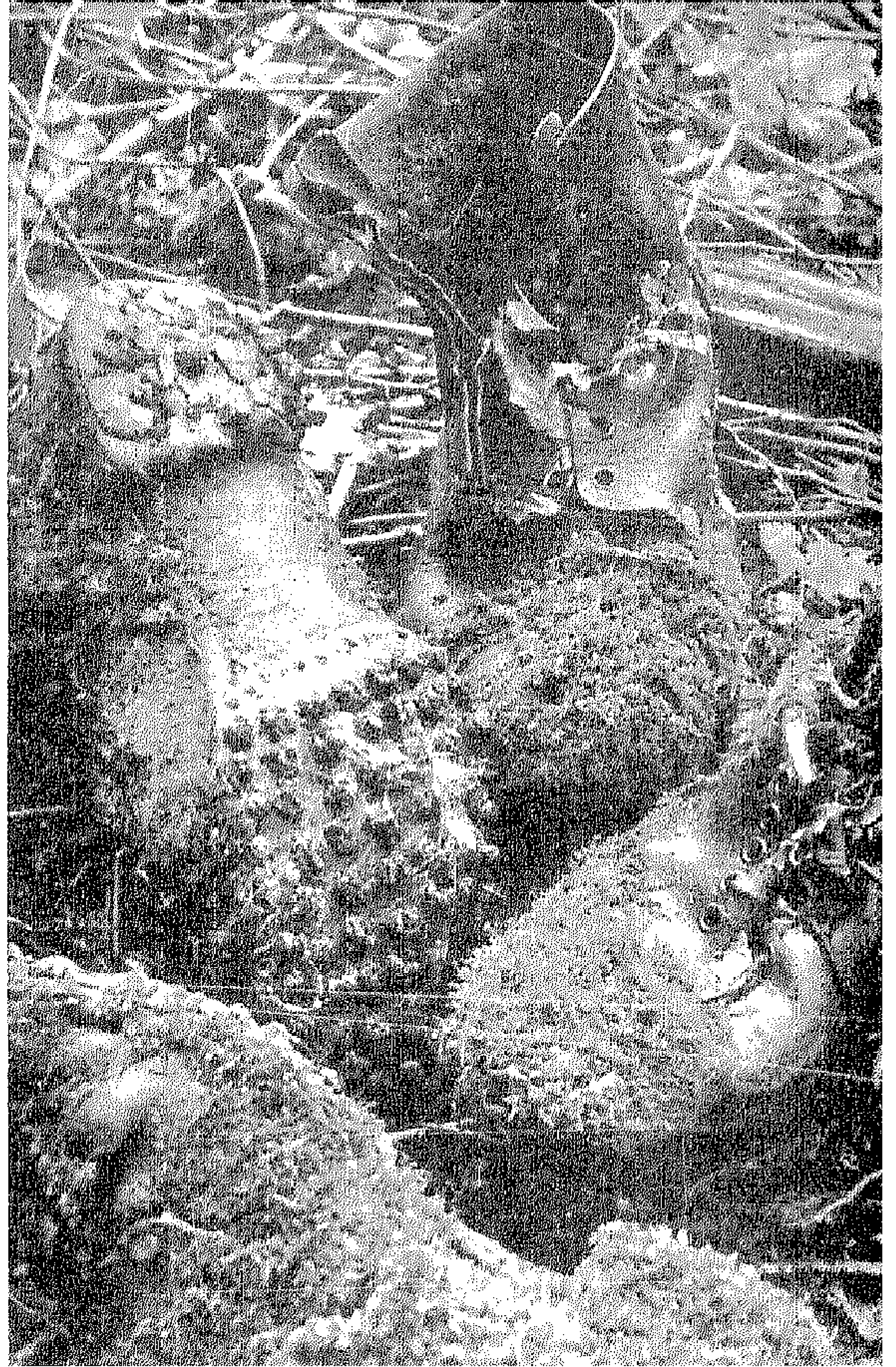
انتهت الحرب الأولى وبدء التحضير للثانية

مَن من آبائنا يذكر ماذا كان يعمل عند الساعة الخامسة من صباح ١١/١١/١٩١٨، عندما وقعت ألمانيا ما قبل الهتلرية وثيقة الاستسلام؟ نترك الجواب للمذكرات الشخصية المهم أن المؤرخين متفقون على نقطة مركزية وهي أن حدثين رئيسيين عجلا في إنهاء عمل طاحونة القتل والدمار:

– دخول الولايات المتحدة الأمريكية الحرب بكامل ثقلها.

– اندلاع ثورة أكتوبر الاشتراكية في روسيا.

والمثير أن هذين الحدثين ذاتهما – في طبعتهما المنقحة (أي بدء الهيمنة الأمريكية على أوروبا والبلاد التي تحتلها وتدعيم النظام الاشتراكي السوفياتي) كانا محور نقطة الارتكاز النازية في تفجيرها للحرب العالمية الثانية بدءاً من ١/٩/١٩٣٩. فماذا كان يفعل آباؤنا يومها؟.



أقدام الحرب مكسوة بعفن الأرض والتاريخ.

– **الأميرال الانكليزي سيرجون جيليكو** (١٨٥٩ – ١٩٣٥). ترأس الاسطول البحري الملكي (١٩١٤ – ١٩١٦) وأصبح بعد انتصاره في معركة جوتلاند الشهيرة ضد البحرية الألمانية (٣١/٥ – ١/٦/١٩١٦) وزير البحرية البريطانية (١٩١٦ – ١٩١٧).

– **الجنرال الألماني فون مولتكه** (١٨٤٨ – ١٩١٦). اشترك في الحرب ضد فرنسا (١٨٧٠ – ١٨٧١). في العام ١٩٠٦ عين رئيس هيئة أركان القوات المسلحة الألمانية. حاول في آب/أغسطس ١٩١٤ تطبيق الخطط العسكرية السابقة في الهجوم على فرنسا، لكنه فشل في معركة المارن (٥ – ١٠/٩/١٩١٤). أقيل من منصبه في ١٥/٩/١٩١٤.

– **الجنرال الأميركي الهوية جون بيرشينغ** (١٨٦٠ – ١٩٤٨). قائد القوات الأميركية على الجبهة الفرنسية (١٩١٧ – ١٩١٨).

نافذة على افريقيا

شاطئ العاج

نظرة تاريخية



رئيس الجمهورية وعقيلته .

«في البدء خلق نياميان (الله) سبعة قبائل، لها ينتمي كل سكان الأرض. وكل لدورها كانت تترك (ابولي) أي مكانها الأول : مهد الانسانية وتنزل الى الارض في أحواض صغيرة برونزية (ابيوا) تبقى مرتبطة بالسماء بواسطة أسلاك ...» .

ابيدجان العاصمة
تمدن وازدهار

هكذا بدأت الانسانية تمتلك الأرض حسب أسطورة يعتقدها شعب نزيما (NZIMA) في ساحل العاج . في الأزمنة القديمة – يقول المعمرون بالتواتر – إن الأجداد القدماء كانوا يعيشون في المنطقة الغابية من البلاد الحالية ، وهي في مجموعة قبائل تسمى ماكوي (Magwé) ، وهؤلاء هم الذين كونوا ، فيما بعد ، القرية الوحيدة ، مصدر السكان الموجودين حاليا ما بين نهر ايبو (ساساندرا) حتى نهر يو (باندامـا) ، وقد كانوا في عزلة عن كل المجموعات البشرية الأخرى . كانوا بدائيين لا يعرفون حتى التحطيب والنسج ، ثروتهم الوحيدة رعاية الماشية .

أما اكتشاف خليج غينيا فله قصة طويلة مع التاريخ ، بدأت مع مغامرين يعتقد أنهم بدأوا منذ القرن الخامس ق . م . يتوافدون على هذه الجهات ، وتحكي الاساطير في القرطاجيين أتوا هذه السواحل منذ ٢٥٠٠ سنة على سفن ذات خمسين مجذافاً تحمل ٣٠,٠٠٠ رجل وامرأة ٠٠٠ لكن هذه الذكرى المحفوظة رفضها المؤرخون المحدثون وقالوا أنها اذا كانت قد حصلت ، فحتما لم تتقدم السفن المغامرة لأكثر من رأس جوبي .

أما الاوروبيون فلم يقصدوا هذه الجهات – كما يذكر التاريخ القديم – لكن حفريات ١٩٧٤ اكتشفت قطع عملة رومانية ضربت بين سنوات ٣٣٠ و ٣٤٠ أيام الامبراطور قسطنطين الأول وابنه ، ولم يقل الاختصاصيون بعد ، في ذلك ، كلمتهم الأخيرة .

أما الاكتشاف الحقيقي والعملي لخليج غينيا فقد تم على أيدي البرتغاليين بتشجيع من هنري الشاب الملقب بالملاح (١٣٩٤ – ١٤٦٠) وكرت السبحة ... ومن بين البحارة الرواد واحد فلمندي جاب خليج غينيا في عام ١٦٠٠ وسجل هذه الكلمات : « ... بعد ساحل مالاكات حيث السوق الكبرى ... للحبوب والعاج ... وخمر البلح السلس المذاق .. نجتاز رأس النخل حتى نصل الى مجموعة من الأنهر .. هناك نقايض على الانياب العاجية ... وبعيداً عن الضفاف ، يوجد عدة قرى ، كنا نراقبها ونحن نجتاز المياه بقواربنا ... هؤلاء السكان كانوا مفاوضين بارعين لذا كانت قوارب التجار قليلة في هذه الجهات ... حيث عمق المياه أكثر من عشرين ذراعا ، وكانوا صناعاً ماهرين يحيكون الثياب الصوفية ويبادلونها مع سكان ساحل الذهب ، والذهب كنا نجده أحياناً معهم ولكن بكميات قليلة ، لقد بدأ يقدرونه اليوم . كنا نأخذ منهم : الذهب والعاج والبهارات والرقيق وذلك مقابل : قناديل ، نظارات ، مفاتيح ، أقمشة ، مزامير طينية ، قصاع وأحيانا : لآلئ فينيسية ودبابيس أو مرايا ، تلك كانت «بضائع» التجار والهولنديين منهم بشكل خاص وهم الذين حلوا محل البرتغاليين في القرن السابع عشر على هذه السواحل ...» .

وفي أواخر هذا القرن – السابع عشر – بدأ انتشار اسم «شاطئ العاج» على هذه المنطقة بخاصة مع انتشار الاستعمار .

بدء التغلغل الاوروبي

مع ازدياد اهتمام الاوروبيين بالتجارة مع افريقيا انطلقت مفاهيم جديدة في التداول : «لقد رأينا وسمعنا ما فيه الكفاية عن تلك الأراضي الجديدة ، وحان الوقت الآن لاستعمارها» ... وفعلا بدأ الهولنديون في ١٦٤٢ تأسيس تجارتهم بالرقيق ، في هذا الوقت ابحرت سفينة من شركة سانت مالو تحمل معها خمسة مبشرين كبوشيين لتنصير الوثنيين هناك ، أما فرنسا فان انتشارها كان ذا تأثير وفعالية أكبر ، ففي سنة ١٦٦٩ طلب الوزير كولبير من فيو دو بيلفورد مفتش «الشركة الهندية» ، وكان راجعا من رحلة

الى شواطئ خليج غينيا، بتحرير مذكرة تثبت افضلية البحرية الفرنسية في هذه السواحل، وبخاصة في المنطقة المسماة غينيا مثبتـاً في بيانات ووقائع ان مغامرين بحريين فرنسيين كانوا هم السباقين الى اكتشافها من مالاكات وقد اقاموا في «المنيا» على ساحل الذهب ..».

وقد ساهم لويس الرابع عشر، فيما بعد، في سنة ١٦٨٧ في تأسيس محطات تجارية على طول هذه الشواطئ.. لكن القرن الثامن عشر سجل استفحال تجارة الرقيق، عددياً على الأقل، فيما خص المنطقة هذه، وقد كانت هذه التجارة مزدهرة على أيدي الهولنديين بالذات أكثر من سواهم، مما حدا في سنة ١٨٣٨ وزارة البحرية الفرنسية الى ارسال سفينة «مالوين» بقيادة الكابتن البحري بووي - فييومي في مهمة ذات شقين الى السواحل الافريقية الغربية: التحقيق أو - اذا كان في الامكان - قمع تجارة الرقيق، من جهة، ومن جهة ثانية جرد مراكز الثروات الممكن استغلالها في هذه السواحل. هذه السفينة ارسلت ثانية سنة ١٨٤٢ في مهمة تمتين العلاقات مع رؤساء المنطقة المعروفة حالياً بشاطئ العاج بالذات، وقد جاء في التقرير الذي رفعه قائد السفينة الملازم البحري فلوريو لانكل الى القيادة ان هناك رغبـة من ملك ورؤساء شعب ال «اسييني» لمتابعة وتعميق العلاقات المتينة بينهم وبين الفرنسيين وقد وقع الفرنسيون كثيراً من المعاهدات مع رؤساء هذه المنطقة فيما بعـد، وذلك للتصدي لمشاريـع الانكليز التي باتت تشكل منافسة خطيرة لهم، في ذلك الوقت، وفي السواحل الافريقية الغربية بالذات. ثم كان هناك عهد جديد من العلاقات، بدأ حين دخلت فرنسا الى عمق المنطقة الداخلية وتوغل رجالها يفتشون عن مناجم الذهب في جهات آبي في أواخر القرن التاسع عشر.

الشعب الاصلي والغزاة

ربما من المشوق معرفة نظرة الشعب الاصلي، سكان البلاد، لهذا التوغل الاستعماري في بلادهم. لقد كان (اواتارا) رؤساء مدينة كونغ هـم الذين رحبوا، أولا، بالفرنسيين، وهم قوم عرفوا بالذكاء، بينهم نساك وعرافون خمنوا المستقبل .. فقد راجت لفترة، في زمن بعيد اسطورة تقول أن رجالا بيضا سيأتون ليتملكوا، وقد انتشرت هذه النبوءة في كل بلاد افريقيا، حتى لقد ظن لاول وهلة أنهـم سيكونون مراكشيين ولكن خاب الظن، وقد قيل أيضاً أنهم سيأتون من البحر .. وقد صح، هذه المرة، الزعم فأتوا من البحر.

لكن البيض هؤلاء لم يسكنوا بعد، ولـم يختلطوا، كما يعتقد، بالسكان الاصليين، فنحن نقرأ في شهادة لوكيل مصانع سويدي وصل البلاد في سنة ١٨٩٢ حيث يقول: «في هذا العصر، ساحل العاج، هو أرض غير مأهولة، لا أرى هنا أي أبيض مقيم فيها، أما الأسباب فهي صعوبة المناخ ووجود الحياة النباتية والحيوانية النامية بشكل غزير جدا، صحيح أن هذه البلاد هي تحت النفوذ الفرنسي ولكن فرنسا الى اليوم لم تملكها عملياً ..».

إن المرسوم الذي كرس شاطئ العاج مستعمرة في ١٠ آذار/مارس/١٨٩٣ خلق بلبلة في مواقف أهل البلاد ترى كيف كان صداه نقرأ للمؤرخ شريف ماما دو في ذلك الوقت: «.. لقد عرف سكان الغرب (غرب افريقيا) الشعب الأبيض في أواخر القرن التاسع عشر، عند انتهاء وجود «الساموري»، أن بعضهم استطاع مشاهدة البيض في ذلك الوقت ولكن أكثرهم كانوا يتهربون منهم أو من احتكاك مباشر معهم ... يقولون أنهم (البيض) مخلوقات غريبة، لهم ألوان غير محددة، ومتغيرة، لذا يصعب القبول بهم كبشر أسوياء، مع أننا نلاحظ وجود أعضـاء كاملـة لهـم في أجسامهـم، كمـا في أجسامنا ...».

ونصل اليوم الى نهاية هذه الفترة التاريخية، في ٢٧ تمز/يوليـو/١٩٦٠، لنسمـع فيليـكس هوفويي - بوانيي، يقول في الجمعية الوطنية لشاطئ العاج:

«عندما حاربنا خمسة عشر عاما بكل حمية وعناد لتنمية افريقيا بعامة، وشاطئ العاج بخاصة، من لم يفهم، يا ترى، رغبتنا بالتحرر حين وصلنا الى هدفنا هذا؟ لكننا اليوم نؤكد بأن رغبتنا المحققة قد اخصبت فرصة عظيمة هي وصولنا الى معركتنا اليوم، معركة جديدة نقدمها لكم ...».

لقد بدأ اليوم تاريخ جديد.

المرجع

La Cote D'Ivore
Exposition presentee par le Ministere
des Affaires culturelles
D'HIER A DEMAIN
Abidjan, du 13 zu 27 octobre 1979

ميشال اسطفان

المملكة المغربية

الحلقة الرابعة

(١٣) المكتب في منطقة أفريقيا الغربية الاسبانية ١٩٤٩ - ١٩٥١.

منطقة أفريقيا الغربية الاسبانية، كانت تتألف من المناطق الاسبانية الافريقية الشمالية الغربية، وضمت لاغويرا ونهر الذهب والصحراء الغربية (Villa cisneros الاسبانية)، وكانت عاصمتها سابقاً، وهذه التسمية للمنطقة لم تدم أكثر من ثلاث سنوات، إذ أصبحت تسمى في سنة ١٩٥١ بالصرحاء الاسبانية، ثم الحقت بممتلكات اسبانيا.

أما الطوابع التي صدرت هناك، فهي:

ما بين ٩ تشرين الأول/أكتوبر سنة ١٩٤٩ وأول آذار/مارس سنة ١٩٥١، مجموعتان، عادية وجوية، طابعان تذكاريان، وطابع للبريد المستعجل، ومجموعهما ٢٦ طابعاً، تحمل اسم المنطقة (AFRICA OCCDENTAL ESPAGNOLA) وقد استعملت ايضاً في إفني المغربية، وتفصيلها كما يلي:

طابع الذكرى ال ٧٥ لاتحاد البريد العالمي من فئة ٤ بزيتاس، يحمل صورة مواطن، وطابع ليوم الطابع من فئة ٥ بزيتاس يحمل صورة الملكة ايزابيل، ومجموعة عادية من ١٦ طابعاً، ومجموعة جوية من سبعة طوابع، وطابع واحد للبريد المستعجل، تحمل صور الصحراء والخيام والنخيل والجمال، ويظهر في الزاوية العليا من كل طابع، صورة الجنرال فرانكو.

- منطقة طنجة الدولية -

أما بخصوص منطقة طنجة التي أخذت وضعاً دوليا كما هو معروف، بموجب المعاهدة الفرنسية الاسبانية لعام ١٩١٢ ثم تعديلها بموجب اتفاقية باريس سنة ١٩٢٣، فقد افتتحت فيها مكاتب بريد أجنبية كالآتي:

(١٤) المكتب الفرنسي ١٩١٨ - ١٩٤٢.

أول مكتب فرنسي افتتح أعماله في طنجة، كان سنة ١٨٦٢، واستعمل الطوابع الفرنسية بدون أي توشيح.

وفي نيسان/أبريل ١٩١٨، وشح مجموعة من ١٨ طابعاً من (١) سنتيم الى ٥ فرنك، بكلمة (Tanger)، على الطوابع الخاصة بالمغرب التي اصدرها المكتب الفرنسي (اصدار ١٩٠٢)، ومجموعتين ايضاً للأجور المستحقة من ٧ و٤ طوابع، ثم في آب / اغسطس ١٩٢٨، أصدر مجموعة تذكارية جوية لمساعدة منكوبي الفيضان موشحة «TANGER» بأحرف مختلفة عن سباقاتها، على مجموعة تذكارية إصدار ١٩٢٨ للمكتب الفرنسي تحت الحماية، وهي من ٥ سنتيم الى ٥ فرنك. وفي آذار / مارس ١٩٤٢، توحدت مكاتب البريد الفرنسية مع مكاتب البريد الاسبانية بعد ما احتلت اسبانيا طنجة في سنة ١٩٤٠.

(١٥) المكتب الاسباني ١٩٢١ - ١٩٥٧.

أول مكتب بريد أسباني افتتح أعماله في طنجة كان سنة ١٨٦١، واستعمل الطوابع الاسبانية بدون توشيح.

وفي ٢٧ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩١٤، استعمل المجموعة التي صدرت سنة ١٩٠٩/١٠ للمكاتب الاجنبية الاسبانية والمؤلفة من ١٢ طابعاً، من ٢ س إلى ١٠ ب، وهي مجموعة أسبانية موشحة بسطرين: -

١ - «laCORREO ESPAGNOL».

«MARRUECOS» بحرف منحن، وهي التي خصصت لمنطقة طنجة كما ذكرنا في حينه.

وفي سنة ١٩٢١/٢٧، صدرت المجموعة الثانية لطنجة، من أربعة طوابع اسبانية موشحة

مثل المجموعة السابقة . ثم مجموعة ثالثة من ثمانية طوابع أسبانية ، توشحت مثل سالفتها أيضا ، إلا أن المجموعة الرابعة ، كانت مؤلفة من ١٣ طابعا عاديا وطابع واحد للبريد المستعجل، موشحة بسطرين : -

١ - « CORREO ESPAGNOL » .

٢ - « TANGER » ، أفقيا ثم درجت الاصدارات على هذا المنوال لمجموعات عدة ، كلها من المجموعات الاسبانية العادية والتذكارية والجوية ، توشحت بالافرنجي بكلمة طنجة أو بريد طنجة الاسباني أو بريد جوي طنجة ، بأحرف مختلفة عادية ومزخرفة ، نذكر منها مجموعتين تذكاريتين للمؤتمر التاسع لاتحاد البريد العالمي في لندن سنة ١٩٢٩ ، ومعرض أشبيليا وبرشلونا الاسباني .

وأثناء الحرب الأهلية الاسبانية سنة ١٩٣٦/٣٩ ، افتتح في طنجة مكتبان اسبانيان للبريد ، الأول كان تحت رقابة الوطنيين ، والآخر كان تحت رقابة حكومة الجمهوريين في مدريد . وقد صدرت سبع مجموعات من الطوابع ما بين ١٩٣٧ و ١٩٣٩ من قبل بريد الجمهوريين ، إلى أن حل الوطنيون محلهم سنة ١٩٤٠ .

ولا بد من الاشارة إلى أنه في سنة ١٩٤٠ ، وشح الجمهوريون عدداً من الطوابع « TANGER CORREO AERO » ، بفئات مختلفة ، ولكن لم تصدر رسميا ولم تستعمل في البريد ، بل تسربت إلى الهواة من قبل الرسميين الجمهوريين الذين مكثوا في القنصلية بعد انتهاء الحرب .

في ١٤ حزيران/يونيو ١٩٤٠ ، احتلت طنجة من قبل جيوش ممثل السلطان في المنطقة الاسبانية ، وفي ٤ تشرين الثاني/نوفمبر إلحقت بموجب مرسوم لتضم إلى المنطقة الاسبانية ، إلا أن الادارة الدولية لطنجة استرجعت في ١١ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٤٥ .

وفي ١٦ شباط/فبراير ١٩٤٨ ، صدرت أول مجموعة مصورة لطنجة تمثل مرافق المنطقة والبلاد ، مؤلفة من ١٤ طابعا ، وفي أول آب/اغسطس ١٩٤٩ ، صدرت مجموعة مصورة أخرى للبريد الجوي ، من ستة طوابع ، مع طابع للبريد المستعجل فئة ٢٥ س . وفي ٢٩ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٥٦ ، انتهى الحكم الدولي في طنجة وألحقت المنطقة بالمغرب ، ولكن البريد الاسباني لم يقفل إلا في ٣٠ نيسان/إبريل ١٩٥٧ .

(١٦) المكتب البريطاني ١٩٢٧ - ١٩٥٧ .

افتتح مكتب البريد البريطاني أعماله سنة ١٩٢٧ واستعمل الطوابع الانكليزية بعد أن وشحها بكلمة « TANGIER » بأحرف مختلفة المرة عن الأخرى . وصدر ما بين سنة ١٩٢٧ وأول نيسان/إبريل ١٩٥٧ ، تسع عشرة مجموعة هي كالآتي :

ثلاث مجموعات للملك جورج الخامس ، منها واحدة لذكرى اليوبيل الفضي (١٩٣٥) ، ثم مجموعة الملك ادوار الثامن ، وعشر مجموعات للملك جورج السادس ، منها التذكارية لمناسبة التتويج الملكي (١٩٣٧) ، والذكرى المئوية لأول طابع في العالم (١٩٤٠) ، وذكرى النصر (١٩٤٦) ، واليوبيل الفضي للزواج الملكي (١٩٤٨) ، والالعاب الاولمبية (١٩٤٨) ، والذكرى ال ٧٥ لاتحاد البريد العالمي (١٩٤٩) ، وأخيرا خمس مجموعات للملكة اليزابيث ، منها التتويج (١٩٥٣) ، وآخر مجموعة لطنجة كانت للذكرى المئوية لمكتب البريد البريطاني في طنجة ، وشحت « TANGIER 1857 — 1957 » ، وفي أول نيسان/أبريل ١٩٥٧ ، صدرت مجموعة مؤلفة من ٢٠ طابعا من نصف بنس إلى ١٠ شلن ، وكان من بينها طابع فئة ٩ بنسات ظهر خطأ بدون كلمة طنجة بالانكليزية ، وأصبحت قيمته اليوم تزيد على ١٠٠٠ جنيه استرليني ، وكان هناك ستة طوابع أخرى مغلوطة ، لم تتجاوز اغلاها الخمسين جنيها استرلينيا . وأما مجموع ما أصدره المكتب البريطاني في طنجة فهو ١١٢ طابعا .

وفي ٣٠ نيسان/أبريل ١٩٥٧ ، سحبت جميع طوابع طنجة من الاستعمال .

(١٧) المغرب في عهد الاستقلال ١٩٥٦ .

عندما اعترفت فرنسا بسيدي محمد بن يوسف سلطانا على المغرب في ٥ تشرين الثاني/نوفمبر واعترفت باستقلال البلاد في ٣ آذار/مارس ١٩٥٦ ، واعترفت أسبانيا بذلك في ٧ نيسان/أبريل ١٩٥٦ ، وانتهى وضع منطقة طنجة الدولي في ٢٩ تشرين الأول/اكتوبر ١٩٥٦ كما هو معروف ، توحدت البلاد بعد أن كانت منقسمة إلى جزئين ، المنطقة الشمالية تستعمل العملة الاسبانية ، والمنطقة الجنوبية تستعمل العملة الفرنسية ، واقرت العملة الفرنسية في كل البلاد في شباط/فبراير ١٩٥٨ ، ثم أعلنت بعدئذ المملكة المغربية الحالية وعلى رأسها الملك محمد الخامس .

وفي ١٧ آب/اغسطس ١٩٥٦ ، صدرت أول مجموعة في المنطقة الشمالية ،. بالعملة الاسبانية

مؤلفة من ثمانية طوابع ، ويحمل إثنان منها صورة الملك محمد الخامس ، والباقي مناظر عن مرافق البلاد المهمة ، ثم تلتها ست مجموعات ، منها مجموعتان عاديتان ، وثلاث مجموعات تذكارية ، لمناسبات وطنية ، ومجموعة جوية ، ومجموعها ٢٩ طابعاً ، أخرها صدرت في ١٩ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٥٧ .

أما المنطقة الجنوبية ، فقد بدأت في ١٩ أيار/مايو ١٩٥٦ ، باصدار أول مجموعة من سبعة طوابع ، بالعملة الفرنسية تحمل كلها صورة الملك محمد الخامس ، ثم تلتها خمس مجموعات تذكارية لمناسبات وطنية ، ومجموعها ٢٤ طابعاً ، وكان آخرها في في ١٩ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٥٧

وبعد هذا التاريخ ، أصبحت الحكومة تصدر الطوابع لجميع مناطق البلاد على السواء ، بالعملة الفرنسية فاصدرت في ٢٠ نيسان/أبريل ١٩٥٨ ، أول مجموعة لمناسبة معرض بلجيكا الدولي ، مؤلفة من ثلاثة طوابع ، ثم تلتها ١٢ مجموعة تذكارية لمناسبات وطنية وعالمية ، ومجموعها ٣٥ طابعاً ، كان آخرها في ٢٦ أيلول/سبتمبر ١٩٦٠ .

وفي ٢٦ شباط/فبراير ١٩٦١ ، اعتلى الملك الحسن الثاني العرش المغربي ، بعد وفاة والده الملك محمد الخامس ، وفي ٣٠ آب/اغسطس ١٩٦١ ، صدرت أول مجموعة في عهد الملك الحسن الثاني ، مؤلفة من ثلاثة طوابع لمناسبة الدورة الرياضية العربية ، وتلتها مجموعة تذكارية أخرى من ثلاثة طوابع ، لمناسبة مؤتمر اتحاد البريد واللاسلكي الافريقي ، ثم تغيرت العملة المحلية فصارت الدرهم المغربي (١٠٠ فرنك تساوي درهماً واحداً) ، وبها صدرت مجموعات عدة بعدئذ ، منها العادية والتذكارية المختلفة ، للمناسبات الوطنية والعالمية ، ومجموعة للاجور المستحقة ، وقد طبعت كلها في مطابع عالمية من الدرجة الأولى ، فاعطت مظهراً جذاباً وفخماً ، ومجموعها عدة مئات من الطوابع .

أما البطاقات ، فلم يصدر منها إلا خمس حتى ١٩٧٧ ، أهمها الذكرى الاربعون لمولد الملك ، التي صدرت في ٣ تموز/يوليو ١٩٦٩ ، وأصبحت قيمتها اليوم عشر جنيهات استرلينية .

– حركة البيع والشراء –

نشكر الادارة العامة للبريد في الجمهورية العربية اليمنية ومديرها السيد محمد عبد الله زايد الذي تكرم وأرسل إلينا نماذج ونشرات بتواريخ الاصدارات اليمنية الأخيرة ، ونشكر الاستاذ عبد الغني شنن الذي سلمنا هذه النماذج والمعلومات لننشرها ، خدمة لهواة جمع الطوابع وللقراء جميعاً . ونأمل استمرار تسلم هذه المعلومات مع الشكر .

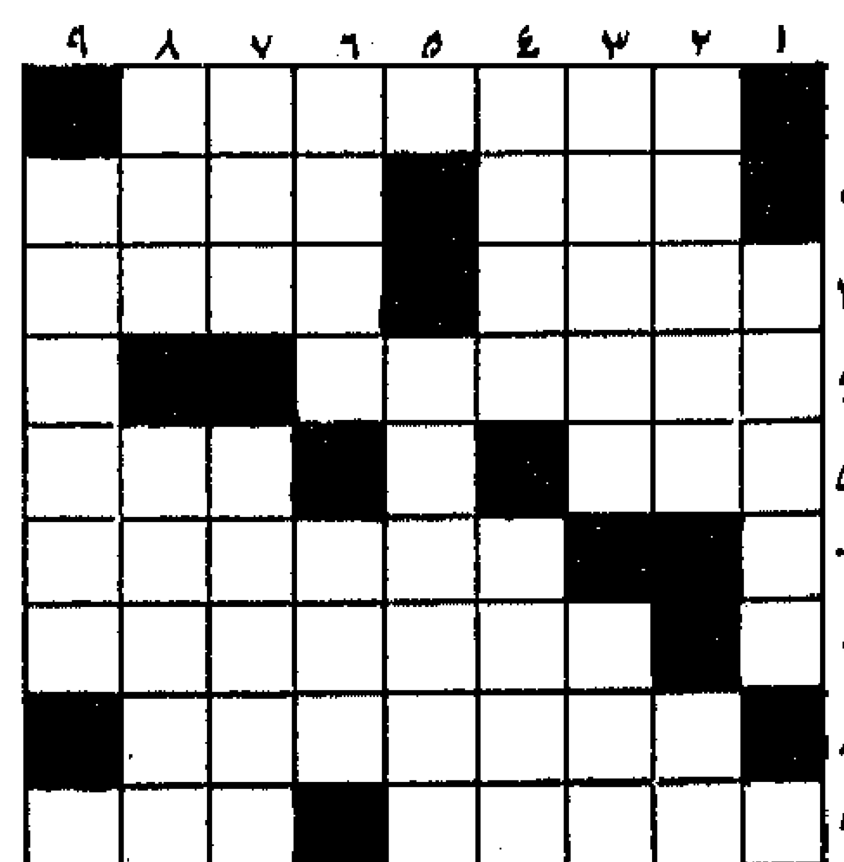
١ – بتاريخ ١٥ تشرين الثاني نوفمبر ١٩٧٩ ، صدرت مجموعة من طابعين وبطاقة للذكرى الثلاثين لتأسيس هيئة الطيران المدني العالمية الواقع في ٢٣ آذار/مارس ١٩٧٧ ، من فئة ٧٥ و ١٣٥ فلس والبطاقة من فئة ١٣٥ فلس أيضاً .

٢ – وبتاريخ ١ كانون الأول/ديسمبر ١٩٧٩ ، صدرت مجموعة من طابعين وبطاقة من فئة ٢٥ و ٧٥ فلس والبطاقة من فئة ٧٥ فلس أيضاً ، تحمل اسم « العرب » وترمز برسومها إلى تصدير العرب للعلم والمعرفة إلى جميع أنحاء العالم .

٣ – وبتاريخ ١ كانون الثاني/يناير ١٩٨٠ ، صدرت مجموعة من طابعين وبطاقة ، لمناسبة العيد الدولي للاتصالات السلكية واللاسلكية ، الواقع في ١٧ أيار/مايو ١٩٧٩ ، منفئة ٧٥ و ١٣٥ فلس ، و ١٣٥ فلس للبطاقة أيضاً .

٤ – وبتاريخ ١ شباط/فبراير ١٩٨٠ ، صدرت مجموعة من طابعين من فئة ٥ و ١٠ فلس ، لصالح أسر ورعايا شهداء ومجاهدي فلسطين .

كلمات متقاطعة

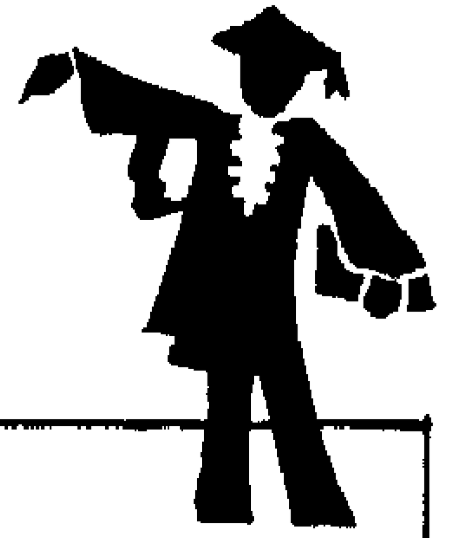


حل الشبكة صفحة ٩٤

أفقياً : –

١ – دواء السم (معكوسة) . ٢ – كساح (معكوسة) ، استنبأ الأبراج (معكوسة) . ٣ – حسامي ، أفنان (معكوسة) . ٤ – عاصمة دولة عربية . ٥ – فساد ، قسم من الذراع . ٦ – جذها في أقف يميناً . ٧ – مرفأ في المغرب على الأطلسي ويدعى أيضاً الصويرة . ٨ – اسطرلاب (مبعثرة) . ٩ – مرفأ وقاعدة عسكرية في تونس (معكوسة) ، برز .

عمودياً :-
١ - مدينة في المملكة المغربية (معكوسة) . ٢ - نزيرة ، قياس للمساحة . ٣ - يخبز فيه ، غلام ظريف خفيف (معكوسة) . ٤ - يبيض شعره ، نغدر (معكوسة) . ٥ - دولة عربية . ٦ - مدينة مغربية في مضيق جبل طارق (معكوسة) ، مدينة مغربية . ٧ - زحافة من العظائيات (معكوسة) ، الاسم الثاني لمؤسس دار الهلال . ٨ - ريح شرقية يقابلها دبور (معكوسة) ، مدينة في شمال المغرب (معكوسة) . ٩ - مرفأ مغربي على الاطلسي .



«دعوة لأصحاب رسائل الماجستير والدكتوراه»

يسر مجلة «تاريخ العرب والعالم» أن تدعو أصحاب رسائل الدكتوراه والماجستير في التاريخ في الجامعات العربية والأجنبية للتعريف برسائلهم على صفحاتها وذلك في مقالة تتراوح ما بين الألف كلمة والألف والخمسمائة كلمة وتشمل على لمحة موجزة عن الموضوع المعالج، مع الاشارة إلى مكان وزمان تقديمها وإسم الأستاذ المشرف عليها.

وإذ تفتح المجلة هذا الباب أمام اصحاب الرسائل في علم التاريخ، تتوخى أن تحقق بعضاً من الأهداف والتي أهمها:

- أولا - التعريف بانجازات الباحثين والطلاب العرب في ميدان علم التاريخ.
- ثانياً - التعرف على توجهات الجامعات العربية والأجنبية في نوعية الموضوعات المطروحة ومناهج البحث المتبعة.
- ثالثاً - توفير جانب من الببليوغرافيا التاريخية في موضوعات الرسائل التي قدمت ونوقشت في الجامعات العربية.



■ إذا صرفت ذهنك الى ما كان أمامك وعملت بجد ونشاط ورزانة وفقاً لما يوحيه اليك عقلك من دون أن يلهيك عن عملك أمر أو طارئ - اذا سلكت هذا المسلك وحافظت على طهارة ضميرك كما لو كنت مطلوبا للدينونة في ساعتك.. فلم تسته شيئاً بل كنت مقتنعا بصنع يديك وواثقا بجميع اقوالك وجميع اعمالك - فانت انت السعيد ولن يستطيع احد أن ينتزع منك تلك السعادة.

مركس اوريليوس

■ السعادة القصوى هي أن نكون محبوبين لأجل أنفسنا أو بالحري بالرغم من أنفسنا.
فكتور هوغو

رسائل القراء

الوزارة والوزراء في العصر العباسي الأول

نتناول في هذا البحث وضع الوزارة في العصر العباسي الأول. ونبدأ بالتعريف بكلمة الوزير: الوزير لغة مشتقة من الوزر والوزر الثقل أو العبء لأن الوزير يتحمل أعباء الحكم واثقاله. أو من الوَزَرْ وهو المعتصم وقد جاء في القرآن الكريم «كلا لا وزر إلى ربك يومئذ المستقر» لأن الناس يلجأون إلى الوزير في أمورهم المعاشية. كذلك ورد في القرآن الكريم قول موسى مخاطباً ربه «وأجعل لي وزيراً من أهلي» وهنا بمعنى النصير. ولكن الكلمة بمدلولها السياسي مستحدثة في الاسلام.

المراحل التاريخية للوزراة وأوضاعها.



في العهد الاسلامي «عهد النبي والخلفاء الراشدين» كانت الأمور الادارية شورى بين الناس، أما في العهد الأموي فلم تكن الوزارة مقننة القواعد ولا مقررة القوانين. وكان ذوو الاراء من مستشاري الخليفة يقومون مقام الوزراء في عهد معاوية. ان منصب الوزير استحدث مباشرة بعد انتصار العباسيين على الأمويين قبيل مبايعة الخليفة العباسي الأول حيث يقول آدم ميتز في كتابه الحضارة الاسلامية «عند انتهاء عهد الادارة الاقطاعية ومجيء عهد التنظيم البيروقراطي ظهر منصب الوزير في عهد الخلفاء الأولين من بني العباس» ويظهر أنه حين أُقر أمر الوزارة روعي تطور الدولة واتجاهها نحو التمركز وتوزيع السلطات، وذلك بتأثير الفرس وان كانت سلطتها لم تتخذ أشكالها المختلفة بصورة واضحة في عهد أبي سلمة الخلال أول الوزراء العباسيين. فسلطة الوزارة تدرجت حتى اتخذت شكلها المحدد في منتصف وأواخر العصر العباسي الأول، فمع أن أبا سلمه سمي وزيراً إلا أنه لم يتمتع بصلاحيات كاملة في جميع الدواوين. ثم أصبح الوزير ساعد الخليفة الأيمن يقضي باسمه في جميع شؤون الدولة، وله الحق في تنصيب العمال والاشراف على الضرائب، وينوب عن الخليفة في حكم البلاد. ويجمع السلطتين الحربية والمدنية، إلى جانب الواجبات العادية من نصح الخليفة ومساعدته.

ولكن كثيراً ما وقع الصدام بين الخليفة الوزير، فالخليفة يعتبر وزيره مساعداً له. بينما الوزير يود لو يسيطر على الجهاز الاداري كله وينفذ جميع الصلاحيات. من هنا نرى أن الوزارة لم ترسخ اصولها في عهد الخليفة العباسي الثاني المنصور. فكان أغلب وزرائه من الموالي ولم يعطهم كثيراً من السلطة والنفوذ فهم عرضة للعزل دائماً. حتى أن الوزراء كانوا يخافون على أنفسهم من بطش الخلفاء بهم فكان كل منهم يتجنب أن يسمى وزيراً. خصوصاً بعد أن مات أبو الجهم على يد الخليفة المنصور. وكان خالد بن برمك يعمل عمل الوزراء ويرفض أن يسمى وزيراً على الرغم من علو منزلته عند الخلفاء. أما في عهد المهدي فكانت أعمال الوزارة أكثر اتساعاً وفاعلية من ايام المنصور. لأن المهدي اعتمد على وزرائه واعطاهم صلاحيات اضافية، منها الرئاسة على الدواوين وحتى على الجيش. فاتسعت سلطتهم حتى وصلت إلى مركز من القوة في عهد الرشيد بلغ حداً كبيراً من النفوذ والقوة، ففوّض يحي بن برمك بجميع أنواع السلطة، فحصر البرامكة الوظائف بأيدي أعوانهم وأنصارهم ومن هنا كانت نكبتهم. كذلك فُوض وزير المأمون

الفضل بن سهل في الأمور السياسية وقيادة الحرب ورئاسة الشؤون الادارية وعرف «بذي الرياستين». وبسبب ازدواجية السلطة وتضارب الصلاحيات، اضطر المأمون أن يتخلص من الفضل بعد أن شعر بخطره. وحين تسلط الأتراك في عهد المعتصم ضعف مركز الوزارة وانتقلت السلطة إلى الجيش. وفي السياق التاريخي لتطور الوزارة وتنوع أشكال سلطتها وصلاحياتها رأى الفقهاء المسلمون أن الوزارة يمكن أن تكون من حيث حجم السلطة والصلاحية على نوعين:

أ – وزارة التنفيذ – تنحصر في تنفيذ أوامر الخليفة ولا يتصرف الوزير تصرفاً شخصياً فهو همزة وصل بين الخليفة والشعب.

ب – وزارة التفويض – تقوم على تصرف الوزير المطلق في شؤون الدولة بعد أن يفوض الخليفة اليه ذلك.

أما شروط وزارة التنفيذ كما جاء في كتاب الأحكام لأبي يعلى فهي:

الأمانة – الصدق في اللهجة – قلة الطموح – أن يسلم ما بينه وبين الناس من عداوة – أن يكون ذا ذاكرة حتى يعلم ما يفعل – ذكياً – ألا يكون من أهل الأهواء – ذا حنكة وتجربة.

ويحق لوزير التنفيذ أن يكون من أهل الذمة أما وزير التفويض فلا.

أما وزارة التفويض فتعتبر فيها كما يقول الماوردي «شروط الأمانة الأولى كلها إلا النسب، وأن يكون الوزير من أهل الكفاية في أمر الخراج وفي الحرب صاحب خبرة ومعرفة».

أما الفروق بين الوزارتين فهي كما يلي:

١ – يجوز لوزير التفويض مباشرة الحكم والنظر في المظالم وليس ذلك لوزير التنفيذ.

– يجوز لوزير التفويض أن يستبد بتقليد الولاة وليس ذلك لوزير التنفيذ.

٣ – يجوز لوزير التفويض أن ينفرد بتسيير الجيوش وتدبير الحروب وليس ذلك لوزير التنفيذ.

٤ – يجوز لوزير التفويض أن يتصرف بأموال بيت المال بالقبض والدفع وليس ذلك لوزير التنفيذ.

وكان يحق للخليفة أن يقلد وزيري تنفيذ مجتمعين ومنفردين وكذلك وزيري تفويض مجتمعين لا منفردين لأنهما إذا انفردا تعارضا وعند ذلك يصبح الحكم فوضى. ومن وزراء التفويض في العصر العباسي الأول آل برمك. ولكثرة الوزراء في ذلك العصر عين موظفون لمعاونة الوزير والاشراف على الدواوين المختلفة وادارة شؤونها. إلى جانب ذلك أصبح الوزير مقدماً على جميع القواد مع كونه ليس إلا رئيس الكتاب، أما رسم الوزير في لباسه فهو رسم سائر العمال، فكان يلبس دراعة وقميصاً مبطنة وخفاً وكان السواد هو اللباس العباسي الرسمي. وفي أيام الاحتفالات يرتدي ثياب الموكب وهي قباء وسيف وعمامة سوداء وهي الجزء الذي لا ينتزعه الوزير من لباسه الذي يلبسه وكان الخليفة يخلع عليه هذه الثياب وهي عادة من مراسيم تقليد الوزير.

أما كيفية عمل الوزير: يحضر اليه الكتّاب ويوزع عليهم العمل ثم يعودوا لاطلاعه عما فعلوا في مجلس خاص بالوزير. وفي مثل هذا المجلس كان الكتّاب يجلسون أمام الوزير كل في مكانه ومعه ادواته ورئيس هؤلاء الكتاب متقدماً عليهم. كان الوزير يحتفظ بصورة عن الوثائق المهمّة ويضعها في جملة سجلاته، ومتى عزل الوزير تنقل هذه السجلات إلى دار من يخلفه في الوزارة ويذكر أن بعض الرقاع الهامة كانت تحفظ في سفط خيزران ويكتب عليها بخط الوزير ما يحتفظ به من المهمات ويختم السفط بختم الوزير.

وعلى باب الوزير كان كثير من الرجال يقفون لحراسته، حتى أنه أخذ منهم ثلاثون دفعة واحدة في مهمة، مما يدل على كثرة عددهم، وكان في مجلس الوزير غلمان مسلمون يسيرون بين يدي الوجهاء من الناس ويخرجون بين يدي الوزير دائماً يجرون سيوفهم والناس يشاهدونهم. كان على الوزير ألا يذهب إلى دار الخلافة إلا في أيام الموكب، وذلك كل يوم اثنين وخميس، على أن يسير مع الوزير أحد كتابه الأربعة الذين يتولون الديوان وله في دار الخلافة دار مفردة يجلس فيها الخواص والحواشي بين يديه حتى يستدعيه الخليفة، فيجلس في مجلسه موالياً له. وإذا أراد أن

يكتب شيئاً تحضر له دواة نظيفة بسلسلة فيمسكها بيده اليسرى ويكتب باليمنى، وقد رأى المقتدر مشقة ذلك على وزيره علي بن عبس وهو يكتب كتاباً هاماً بحضرته فأمر الخدم أن يحملوا الدواة حتى ينتهي. كل هذه المظاهر من الأبهة أخذت في التناقص والتغير حتى أنه في عام ٣١٢هـ - ٩٢٤م أصبح الوزير يجلس في دار الحاجب وهذا مما يشير إلى نقص في منزلته.

والخليفة هو الذي كان يعين الوزير، وكان في العادة يقر وزير الخليفة السابق في منصب الوزارة. وكانت الحكومة ارستقراطية في ذلك الوقت، حتى أدى ذلك إلى ظهور جيل لكل طائفة من اصحاب المناصب. فكان أولاد الوزراء والكتاب والأمراء والاشراف هم الطبقة العليا بين ابناء العمال. وكانت المناصب تتصل بصورة وراثية. وذكر أن ابن مقلة - خلفه ابنه وهو في الثامنة عشرة من عمره كذلك أبو الفتح بن العميد تسلم بعد أبيه وعمره واحد وعشرون سنة ومن آل خاقان اربعة وزراء في سبعين عاماً واربعة من بني الفرات في خمسين سنة. وكان ابن العميد وزيراً لعماد الدولة رأس اسرة بني بويه.

في أوائل القرن الرابع الهجري انتقص اختصاص الوزير، فأخذ الخليفة منه الضياع العباسية التي كانت اقطاعاً يديره الوزراء ويحصلون منها ١٧٠ الف دينار، وأجرى للوزير رزقاً ثابتاً قدره خمسة الاف دينار ثم أصبح سبعة. وكان له مركز ممتاز بين سائر رجال الدواوين ولكل ولد من أولاده خمسمائة دينار في كل شهر.

من هم وزراء العصر العباسي الأول ؟

قامت الدولة العباسية على أكتاف الفرس، وقد اعترف العباسيون لهؤلاء بمساعدتهم في تأسيس الدولة، إلا أنهم لم يتخلوا عن عصبيتهم العربية وحبهم للملك فلم يسمحوا لهم أن يزاحموهم في السلطة (الخلافة). وهنا يكمن سبب تنكيل الخلفاء العباسيين بوزرائهم الذين مالوا إلى العلويين، فنرى السفاح ينكل بأبي سلمة الخلال. والمهدي بيعقوب بن داود والرشيد بالبرامكة، والمأمون بالفضل بن سهل. ومع ذلك لم يكن للوزراء الفرس أثر في النزاع الذي قام بين العلويين والعباسيين في عهد المنصور لضعف هؤلاء الوزراء في عهده، وقد نكب أغلب الوزراء على يد خلفائهم.

وإذا حاولنا أن نستعرض الوزراء في عهد كل خليفة من خلفاء العصر العباسي الأول نرى هذا العصر تميز ببعض الأسر التي تولى عدد من افرادها منصب الوزارة ويأتي في المقدمة البرامكة فقد تولي منهم أربعة وزراء وهم خالد بن برمك وابنه يحيى وابناه الفضل وجعفر واسرة الربيع بن يونس وهو عربي استوزره المنصور وال المورياني والفضل بن سهل وأخوه الحسن وزيرا المأمون.

وكان اول وزير لأول خليفة عباسي هو أبو سلمة الخلال حيث لقب بوزير آل محمد ولكنه قتل على يد ابي مسلم الخراساني بأمر من الخليفة أبو العباس السفاح، ثم استوزر السفاح من بعده خالد بن برمك، أما الخليفة ابو جعفر المنصور فقد عين وزيراً له أبا ايوب المورياني ومن بعده الربيع بن يونس الذي استمر في الوزارة حتى وفاة المنصور فأخذ البيعة للمهدي ولكنه قتل مسموماً على يد الخليفة الهادي؛ ربما انتقاماً. وفي عهد الخليفة المهدي ازدهرت الوزارة بسبب كفاءة وزيره ابو عبيد الله معاوية بن يسار ثم من بعده ابو عبد الله يعقوب بن داود. وآخر وزراء المهدي هو الفيض بن أبي صالح. أما الخليفة الهادي والذي لم تطل مدة خلافته فكان وزيره الربيع بن يونس الذي عاد وقتله وأعطى الوزارة من بعده لابراهيم بن ذكوان الحراني.

وعندما بويع الخليفة هارون الرشيد استوزر كاتبه قبل الخلافة يحيى بن برمك وبرزت اسرة برمك منذ ذلك الوقت حيث نهض يحيى باعباء الوزارة وكان صائب الاراء وحسن التدبير ولكن بعد نكبة البرامكة عين الرشيد ابا العباس الفضل بن الربيع الذي كان حاجباً للمنصور والمهدي والهادي والرشيد، وفي عهد المأمون برز آل سهل حيث كان الفضل بن سهل وهو من أولاد ملوك الفرس، أول وزراء المأمون لكنه راح ضحية ميله للعلويين وقد سمي الفضل «ذو الرياستين» لجمعه بين السيف والقلم، وقد مثل العنصر العباسي في الفتنة التي قامت بين الأمين والمأمون بينما مثل الفضل ابن الربيع وزير الأمين العنصر العربي - هنا نلاحظ تدخل الوزراء في الصراع الذي كان يقوم بين الخلفاء وتعصبهم لعرقهم الأصلي - ثم ولي الوزارة من بعده

أخوه الحسن بن سهل ومن بعده أحمد بن أبي خالد الاحول ، وآخر وزراء المأمون أبو عبد الله محمد بن يزداد بن سويد من خراسان واصله مجوسي ، وقد مات المأمون وهو وزيره.

نجوى الحسنية

المراجع

- الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري : ادام ميتز ، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريده ، الجزء الأول ، الفصل السابع ، الطبعة الرابعة ، دار الكتاب العربي .
- تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي : د . حسن ابراهيم حسن ، الجزء الثاني ، الطبعة السابعة ١٩٦٤ ، مكتبة النهضة المصرية .
- النظم الإسلامية : الدكتور صبحي الصالح ، دار العلم للملايين بيروت ، الطبعة الثانية ١٩٦٨ .

طرابلس الأمس

مدينة طرابلس هي الثغر الرئيسي في المنطقة الشمالية من لبنان ، اشتهرت عبر التاريخ بالازدهار التجاري ، والصناعي ، والثقافي .

أما اسمها – وهو يعني باليونانية : المدن الثلاث (الاتحاد الفدرالي لصور وصيدون وارواد) فيعود الى القرن الرابع ق . م .

وقد بلغت في العصور اليونانية والرومانية مرتبة رفيعة من التقدم ، وظلت من أهم المدن وأعظم المراكز الاقتصادية والصناعية حتى هجرها قسم كبير من سكانها عام ٦٣٥ .

ففي هذه السنة كان معاوية بن أبي سفيان عاملا للخليفة عثمان بن عفان على دمشق ، فوجه إلى طرابلس حملة عسكرية بقيادة الأزدي الذي بنى في ظاهر المدينة قلعة حولها الامويون في ما بعد إلى قاعدة بحرية .

وقد ظلت طرابلس تنمو وتزدهر حتى في عصر الانحطاط العباسي .

وفي سنة ٩٦٦ ، فتحها الفاطميون في عهد المعز لدين الله فغدت قاعدة للخلافة الفاطمية المتمركزة في القاهرة .

وسنة ١٠٧٠ غدت طرابلس دولة مستقلة ، يحكمها القاضي العلامة حسن بن عمار .

ولكن ما أن اطلت سنة ١٠٩٩ حتى مرت بطرابلس جيوش الحملة الصليبية الأولى بقيادة ريمون دي سان جيل الذي ما لبث أن عاد إليها سنة ١١٠١ وضرب عليها الحصار ثم توفى سنة ١١٠٥ ودفن بين أنقاض قلعته المحترقة والمعروفة حتى اليوم بأسم « صنجيل » .

ولم يبق اليوم من العهود الصليبية التي استمرت ١٨٠ عاما سوى قلعة صنجيل ومئذنة المسجد الكبير وجسر البرنس الذي ظل صالحا لجر المياه حتى هدم الفيضان جانباً منه عام ١٩٥٥ .

ورأى قلاوون أن طرابلس معرضة للحصار والهجوم فأقام على الشواطىء سلسلة من الحصون والأبراج «كبرج السباع» لرد غارات الصليبيين . وأصبحت الفيحاء مدينة عربية .

ومن أجمل مباني ذلك العصر الجامع الكبير الذي بناه قلاوون وابنه الأشرف مدرسة قرطاي باغ .

ثم جاء الأمير سيف الدين طينال فحول الى جامع كنيسة كرملية يعرف اليوم بجامع طنيال

ولما تولى الأمير عز الدين أيبك الحكم ، بنى في وسط المدينة الحمامات العامة الباقية حتى اليوم والمدعوة بأسمه .

ومن أبرز آثار المماليك والعثمانيين المدرسة البرطاسية التي بناها عيسى بن عمر البرطاسي بالقرب من الجسر القديم ، جامع الطحام العثماني ، جامع عبد الواحد ، وخان الصابون .

ولكن حتى أثناء سيطرة العثمانيين التي دامت من سنة ١٥١٦ – الى سنة ١٩١٨ احتفظت طرابلس بطابع المماليك لذلك نجد فيها اليوم حوالي ٤٠ بناية من عهد المماليك منها الأبراج الضخمة على الشاطيء وسبعة أبنية عثمانية فقط .

المرجع : من أرشيف عبد القادر جميل عدرة .

لواحظ عبد القادر عدرة

الكاتب الفلسطيني

مجلة الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين

تصدر مرة كل شهرين ، مؤقتا ٠

ـ تناقش قضايا الثورة الفلسطينية ومختلف القضايا العربية ٠

ـ وتتابع الفكر والادب التقدميين في الوطن العربي والعالم ٠

ـ قيمة الاشتراك السنوي :

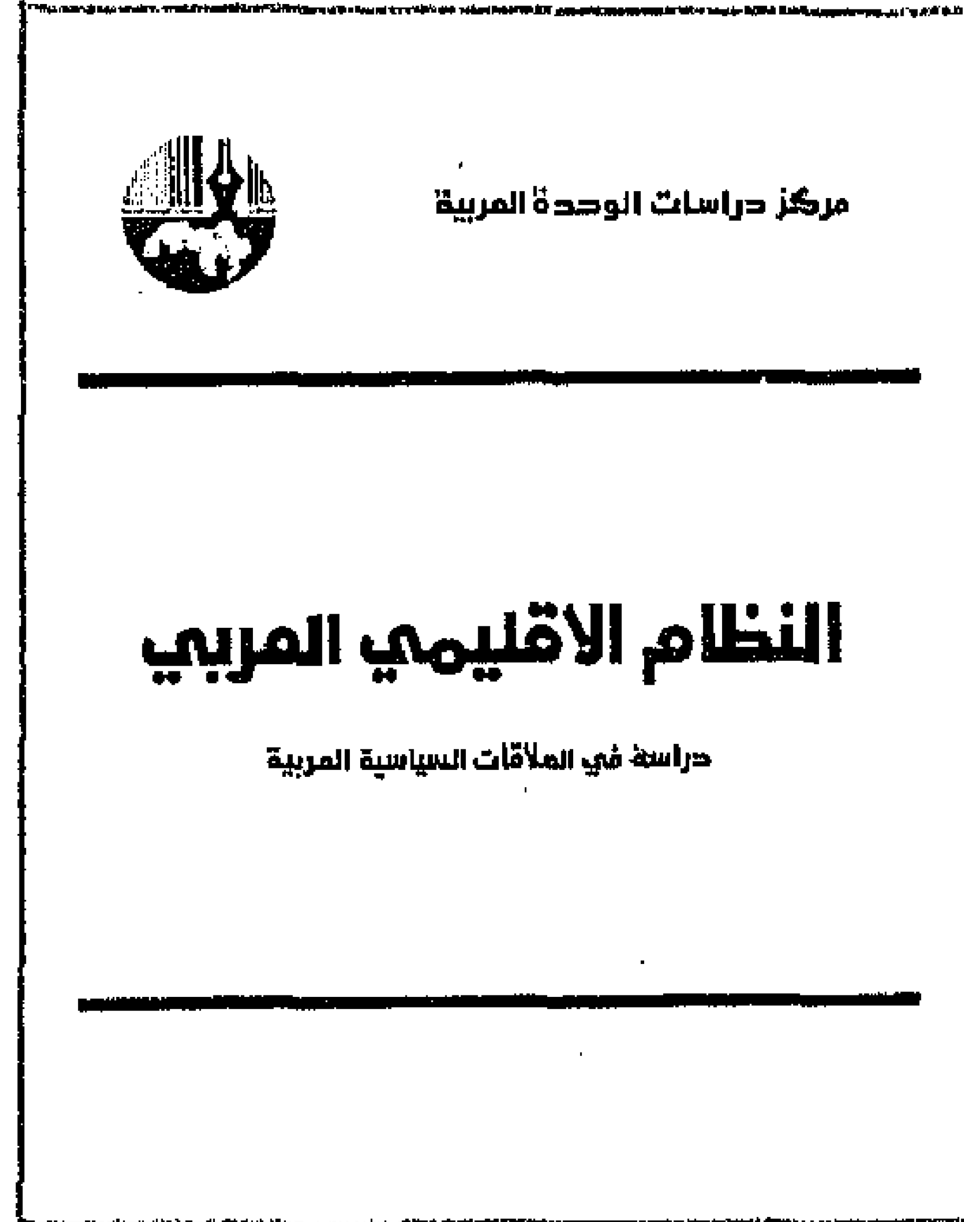
٣٠ ل.ل	في لبنان وسورية
٦٠ ل.ل	في بقية الاقطار العربية
١٠٠ ل.ل	في اقطار العالم
١٥٠ ل.ل	للمؤسسات ٠

ـ العنوان : بيروت ، لبنان ، ص ٠ ب ٢٠٧٥ ٠

النظام الإقليمي العربي

دراسة في العلاقات السياسية العربية

تأليف : جميل مطر
والدكتور علي الدين هلال



يعتبر هذا الكتاب أول دراسة علمية باللغة العربية في موضوع النظام الاقليمي العربي ومحاولة لتأصيل العلاقات السياسية بين الدول العربية وتحليلها وفقاً لإطار منهجي منظم. يدور هذا الكتاب حول مفهوم «النظام العربي»، نظرياً وتطبيقياً، من الناحية التاريخية وفي وضعه الراهن وفي تطوراته المستقبلية. فيتناول الكتاب عناصر الإستمرار والتغير فيه، والتحديات التي تواجهه وتسعى لاضعاف الأسس التي يقوم عليها، ومحاولات النظام للدفاع عن ذاته والحفاظ على هويته المستقلة.

القضية المحورية في هذه الدراسة هي موضوع النظام العربي كنظام اقليمي له طابع قومي، ويتكون من شبكة معقدة من التفاعلات السياسية والإجتماعية والاقتصادية، والذي تربط بين أقطاره عديد من الروابط كالخبرة التاريخية والوحدة الحضارية والثقافية والمستقبل المشترك.

تطرح الدراسة مفهوم النظام العربي كنقيض لمفهوم الشرق الأوسط الذي تطرحه الدراسات الغربية التي تتناول منطقتنا، وترفض هذا المفهوم — أي الشرق الأوسط — بناء على عدة اعتبارات. أولها انه لا يوجد أساس جغرافي لهذا المفهوم وانه تعبير سياسي استراتيجي في المقام الأول، وثانيها انه تعريف غيري أي لا ينطلق من الخصائص الذاتية للمنطقة ولكن من نظرة الغير إليها، ثالثها انه تعبير متحيز سياسياً وايديولوجيا. وتعرض الدراسة بالتفصيل لهذا الموضوع متناولة النشأة التاريخية لمفهوم الشرق الأوسط والدلالات السياسية التي يتضمنها.

إزاء ذلك تطرح الدراسة مفهوم النظام العربي الذي يتكون من منظومات الأقطار العربية التي تملك فيما بينها كل العناصر التي تؤهلها لأن تكون نظاماً اقليمياً مستقلاً كعنصر التواصل الجغرافي وعنصر التماثل وعنصر العلاقات الوثيقة والتفاعلات بين الدول التي تعتبر أعضاء في النظام. يضاف إلى هذا عنصر رائع يتميز به النظام العربي عن الأنظمة الاقليمية الأخرى في عالمنا المعاصر وهو عنصر القومية والسعي من أجل الوحدة. وإلى جانب هذا الطرح النظري تقدم الدراسة عرضاً كمياً للتفاعلات السياسية بين الأقطار العربية موضحة مدى كثافة وحدة هذه التفاعلات.

كما تتناول الدراسة الاطار التنظيمي والمؤسسي للنظام العربي فتدرس جامعة الدول العربية وكذا المنظمات والاتحادات العربية المختلفة، رسمية

وشعبية ، سياسية واقتصادية واجتماعية لتوضيح مدى التشابك الذي يربط الأقطار العربية بعضها ببعض (ويشمل الكتاب ملحقاً بأسماء ونشاط هذه المنظمات العربية).

كما تتناول الدراسة التحديات التي يواجهها النظام العربي والتي يمكن تلخيصها فيما يلي .

١ - تحدي المواجهة العربية - الإسرائيلية وبالذات توقيع معاهدة كامب دايفيد بين مصر واسرائيل والتي تؤدي إلى اعادة طرح هذه القضية على ضوء المعطيات الجديدة والآثار التي ترتبها على مستقبل المنطقة وهويتها .

٢ - تحدي الثروة التي اضافت بعداً جديداً للتمييز بين أقطار غنية وأقطار فقيرة وزادت من أهمية المنطقة اقتصادياً وسياسياً الأمر الذي رتب زيادة اطماع وتغلغل القوة الأجنبية فيها .

٣ - تحدي الطائفية والانقسامات الدينية أو السلالية التي يمكن أن تنهش في جسد العديد من أعضاء النظام العربي وتقود إلى عدم الاستقرار السياسي والاجتماعي فيها .

٤ - تحدي الواقعية السياسية والتركيز على المصالح القطرية والمشاكل الداخلية وبروز ما أسماه بعض المعلقين «بمنطق الدولة» .

وهكذا فإن الدراسة تتناول القضايا الأساسية التي يواجهها النظام العربي في المرحلة الراهنة ، وتبين ان القرارات التي سوف تؤخذ في الأعوام القليلة القادمة سوف تطرح تأثيراتها على النظام العربي لسنوات طويلة قادمة ، وأن المطلوب هو حماية النظام العربي من تحدي الذوبان في اطار أكبر ، أو تحدي منطق الدولة والقطري ، والتأكيد على الطابع القومي العربي لهذا النظام بإستمرار .

الحدود الدولية

لكل دولة ، في الوقت الحاضر ، حدود دولية ، أي المعترف بها دولياً . ولهذه الحدود قداسة معينة تكفلها المعاهدات والمواثيق الدولية . ومن ثم ينبغي علينا أن نشير هنا إلى أن خطوط الحدود كما تبينها الخرائط ليست إلا حدثاً جديداً .في العلاقات الدولية . ولم يكن يعرفه العالم قبل قرنين من الزمان . وهناك عدة أنواع من الحدود القائمة بين البلاد ، نذكر منها :

١ — الحدود الجغرافية :

وهي تتكون من :

أ — الجبال لقد كان من البديهي أن تعتمد الدول على الظواهر الجغرافية وتتخذها خطوطاً لحدودها . وأهم هذه الظواهر سلاسل الجبال والأنهار والبحيرات . وقد تبدو سلاسل الجبال أو مجاري الأنهار على الخرائط ذات المقياس الصغير ملائمة تماماً لرسم الحدود . ولكن الدراسة الاقليمية لهذه الجبال والأنهار لا تلبث أن تبين أنها وحدات طبيعية خاصة . فليست سلاسل الجبال حواجز طبيعية في جميع الحالات .

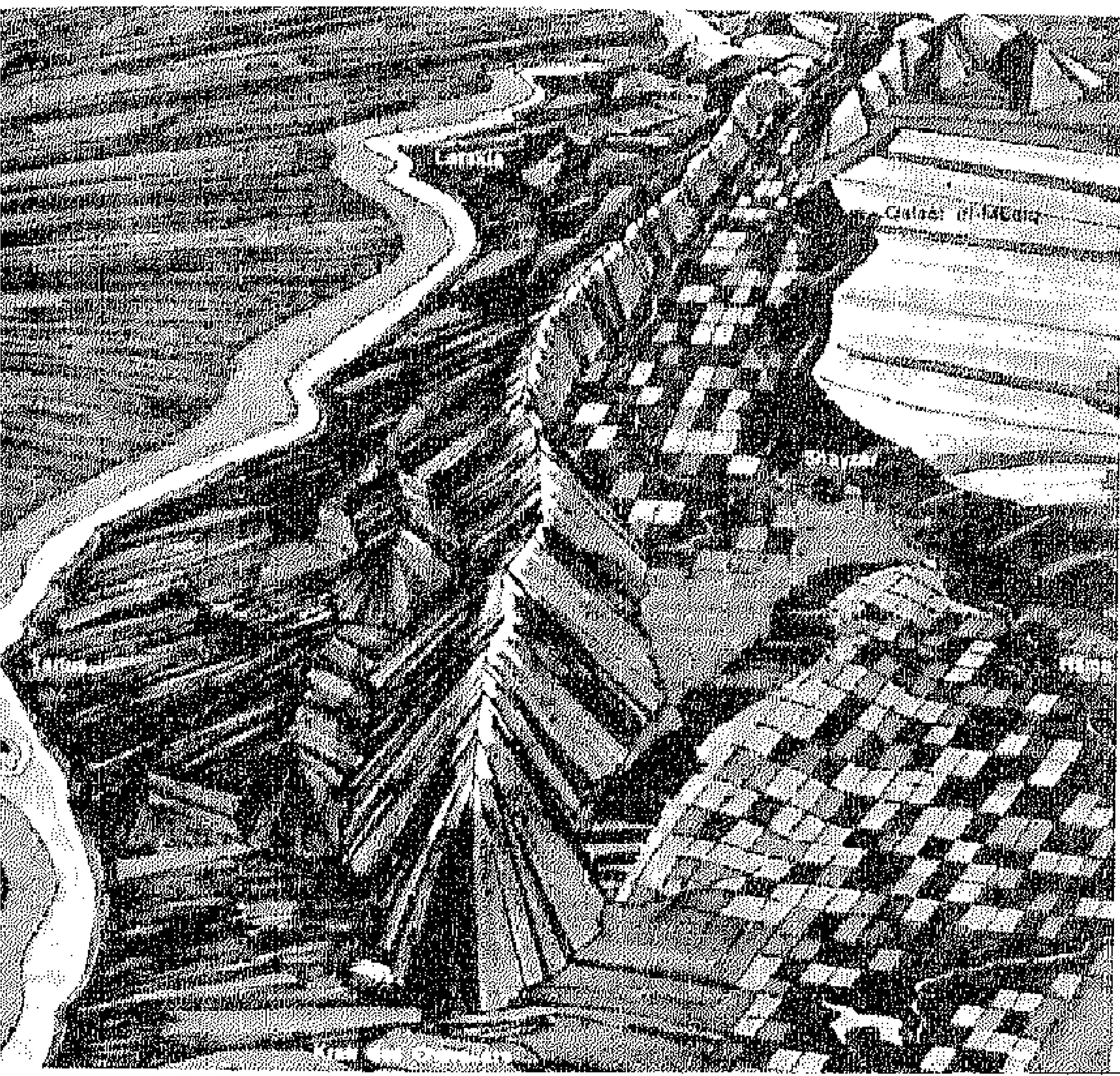
ب — الأنهار : كانت الأنهار الخطوط البديهية لرسم الحدود بين القوافل بعضها ببعض . غير أنها فقدت قيمتها كحدود سياسية لأنها عوامل وحدة أكثر منها عوامل فصل ، ولا سيما زيادة عدد السكان والتوسع في الاستقلال الاقتصادي . واتخاذ الأنهار طرقاً للملاحة وشق القنوات لايصال مجاري الأنهار بعضها بالبعض الآخر واستغلال مساقط المياه في توليد الطاقة الكهربائيه . هذا إلى استخدام مياه الأنهار في البلاد الجافة في أعمال الري .

وعند رسم الحدود النهرية يلاحظ أنها أما تتبع منتصف المجري أو منتصف الجزء العميق من النهر الصالح للملاحة . وفي هذه الحالة تتقاسم الدولتان مجرى النهر، وليس كمية مياهه الصالحة للملاحة. أما الحالة الثالثة فهي أقل الحالات استعمالاً.

الثالثة فهي أقل الحالات استعمالاً .

ج — البحيرات والمستنقعات :

البحيرات كالأنهار عامل اتصال بين الدول ، فهي تكون حدوداً جيدة بين دولتين لأنها أكثر ثباتاً على سطح الأرض من الأنهار التي تغير مجراها بسهولة .



تتخذ الدول من سلاسل الجبال والأنهار والبحار خطوطاً لحدودها.

٢ — الحدود الجغرافية البشرية :

ان الحدود رغم أنها ظاهرة حديثة نسبياً إلا أنها ذات أثر كبير في السكان . فهي التي تحد القوانين التي يخضع لها المواطن والعادات والتقاليد التي يجب أن يراعيها .

٣ — الحدود الهندسية :

هذه الحدود تسير في خطوط مستقيمة وتجعل من الدول أشكالاً هندسية منتظمة لا ترسم إلا في مناطق الصحاري أو الأقاليم الجديدة التي لم تعمر

بعد . وتنحصر أهمية هذه الحدود عند نقط الالتقاء ، حيث تعبر الحدود من دولة إلى أخرى ، وحيث تقام الجمارك .

انشاء الحدود وتخطيطها :

ازدادت أهمية خطوط الحدود في عصرنا الحالي نتيجة لنمو عدد السكان ، وزيادة كثافتهم على الأرض ، ولزيادة استغلال الموارد الطبيعية . وأصبح من المتعذر حالياً في مناطق الحدود ترك جهات خالية لا تخضع لملكية أحد . وقد بدأ هذا التطور منذ نهاية العصور الوسطى .

وقد يسر تحسن وسائل المسح الجغرافي وطرق رسم الخرائط مسائل تعيين خطوط الحدود ورسمها بدقة . فقد كانت معظم جهات العالم لا تهتم كثيراً بدقة تعيين الحدود . وعملية إنشاء الحدود وتخطيطها بالدقة تمر بعدة مراحل متميزة هي :

أولاً : تخصيص منطقة معينة تمارس فيها الدولة سيادتها أو الأقاليم التي تضيفها وتفرض عليها سلطاتها .

ثانياً : تحديد وتعيين رقعة اقليم الدولة أو ممتلكاتها وتعريفها تعريفاً دقيقاً حسب ما تنص عليه المعاهدات والإتفاقيات الدولية .

ثالثاً : عملية المسح الجغرافية وتخطيط الحدود .

وتشمل العملية الأولى منها اعطاء مساحة معينة إلى دولة ما والاعتراف بحق سيادتها عليها . ولما كان تخصيص هذه المنطقة المعينة يتضمن وصفها ووصف حدودها فسوف يؤدي هذا إلى المرحلة الثانية . وهي عملية التحديد . وتشمل تعريف خط الحدود تعريفاً دقيقاً وفق نصوص معاهدة أو اتفاقية خاصة أو وثيقة رسمية بين الأطراف المعنية بالأمر . وقد أصبح اقليم الدولة وممتلكاتها تقاس الآن بما يسمى الأبعاد الأربعة أي بالطول والعرض .. وتمثل سطح الأرض والمياه الاقليمية وبالعمق والارتفاع أما الخطوة الثالثة ، وهي عملية التخطيط ، فتبدأ بتكوين اللجان المشتركة التي تضم ممثلي الدول المتجاورة أو المهتمة بتخطيط الحدود . وتقوم هذه اللجان بعمليات المسح الجغرافي ورسم خطوط الحدود على الطبيعة

التحديد :

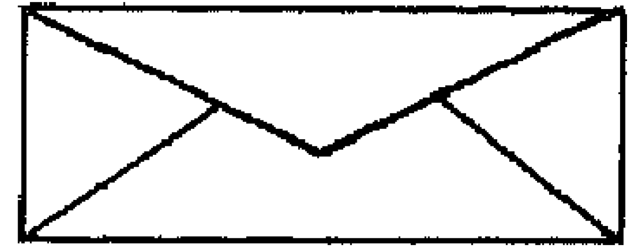
تتوقف طريقة تعيين الحدود وتعريفها إلى درجة كبيرة على نوع الحدود وعلى الظواهر الطبيعية أو البشرية للمنطقة التي تخترقها الحدود . وعلى ما تم كشفه أو وضعه على الخرائط منها . ففي حالة بعض الخطوط الهندسية قد تشمل المعاهدة تعريفاً شاملاً للحدود لا يترك سوى القليل لتصرف مهندسي المساحة والمخططين وفي أحوال أخرى لا تذكر سوى بضع نقاط رئيسية تحدد اتجاه خط الحدود . ويترك الخط بين هذه النقط إلى تصرف مخططي الحدود . وقد يلجأ في بعض الأحيان إلى تعيين الاتجاه العام .

التخطيط (رسم الحدود على الطبيعة) :

عملية التخطيط عملية فنية كبيرة تعقب عملية تعيين الحدود التي يتم الاتفاق عليها في مؤتمرات المواثيق والمعاهدات وهي تحتاج إلى الانتقال إلى الميدان وإلى المسح الجغرافي ورسم الخرائط ، واقامة العلامات المحددة . وقد يأخذ هذا بضعة أشهر أو عشرات السنوات من العمل المتواصل . لأن خطوط الحدود قد تخترق أملاكاً خاصة قد تنزع ملكيتها أو لمشاكل بين أعضاء اللجان ، أو نتيجة للظروف الجوية ، أو لصعوبات السطح وتعذر الانتقال .

لقد استخدم في السنوات الأخيرة في تخطيط الحدود الطرق العلمية والتصوير الجوي . ويكمل هذه العملية وضع العلامات على الخطوط لتجعلها واضحة . أما حدود الدول الحديثة فهي تخطط بوسائل مختلفة كوضع أعمدة من الأسمنت أو شواهد صخرية توضح أيضاً المسافات الكيلو مترية . وقد تكفي في بعض الحالات أكوام الحشائش المتشابكة . وفي حالات أخرى قد تستخدم الخنادق أو المصارف أو القنوات كعلامات مميزة للحدود .

بقلم : ممدوح حلمي



بريد القراء

○ **محمد مفرج – طنجة – المملكة المغربية**

« انني معجب جداً بمجلتكم لأنها المجلة الوحيدة في العالم العربي التي تحمل في طياتها ما لذ وطاب حيث نجد بين طياتها الكاتب الشهير والموضوع التاريخي الجيد المدعم بالصورة النادرة والوثائق القديمة .

«لقد اصبحت هذه المجلة بالنسبة لي بمثابة القاموس او دائرة المعارف . كما انني معجب بركن تاريخ الطوابع ، لما فيه من معلومات قيمة وطوابع نادرة . »

■ نحيي في الأخ محمد مفرج اندفاعه النبيل نحو المجلة ونحو جميع العاملين فيها ونعده بأننا سنبقى اوفياء على العهد الذي قطعناه على أنفسنا في العدد الأول من المجلة . ونحن بانتظار بعض الطوابع المغربية القديمة كما وعدنا .

○ **عبد الله علي التعزي – مكة المكرمة – المملكة العربية السعودية**

■ نشكر للأخ عبد الله علي التعزي عواطفه النبيلة نحو مجلة «تاريخ العرب والعالم» ونستمد من تأييده قوة للاستمرار والتقدم .

○ **جهور عبد الله التتنجي – نينوى – العراق**

■ نقدر بادرتك النبيلة ونشكرك عليها . ارسلنا لك العدد السابع بالبريد الجوي كما طلبت ونأسف لعدم تمكننا من ارسال العدد الثالث لنفاذه . بالنسبة للمواد السياحية التي طلبتها فاننا نقترح عليك الاتصال بوزارة الاعلام اللبنانية او بالسفارة اللبنانية في بغداد .

○ **الآنسة لواحظ عبد القادر عدرة – طرابلس – لبنان**

■ استلمنا رسالتك القيمة ونشكرك على الجهد الكبير الذي بذلتيه . الموضوع جيد وسننشره في باب القراء يكتبون ونأسف لعدم تمكننا من ادراجه في المسابقة بسبب عدم توفر الشروط اللازمة فيه .

○ **عماد محمد خسان – ثانوية الحكمة – بعلبك – لبنان**

« اود أن أشكركم على هذه المجلة الغراء التي أتت لتسد ثغرة كبيرة في المكتبة العربية . وقد استطاعت ان تقوم بهذا العمل بصدق وأمانة تستحق التقدير والاعجاب » .

■ نشكر للأخ عماد عواطفه الطيبة النبيلة ونأمل ان يجد في كل عدد يصدر في المستقبل نقلة جديدة نحو الأحسن .

بخصوص مساهمتك بمسابقة القرى والأحياء في الوطن العربي ، فاننا نأسف لعدم استطاعتنا ادراج القطعة التي ارسلتها بالمسابقة بسبب عدم توفر الشروط المطلوبة ، وابرزها الكتابة عن « القرى والأحياء » فقط وليس عن المدن الكبرى الرئيسية . ولكننا نعد الأخ عماد بنشرها في باب القراء يكتبون في اول مناسبة .

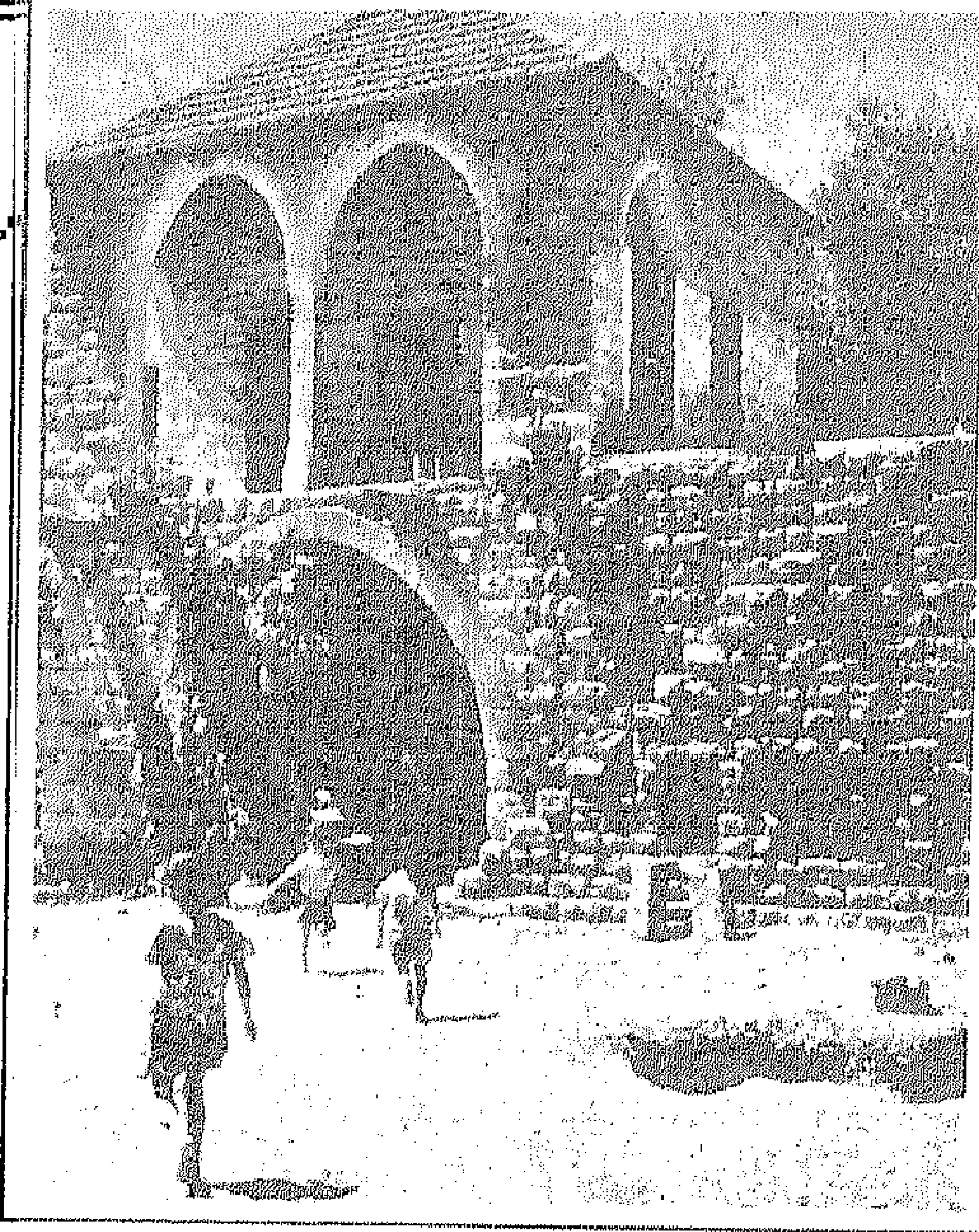
○ **عبد الحكيم محمد كشاد – طرابلس – ليبيا**

«يرسل تحية اعجاب لكل العاملين في المجلة وشكر للبواسل الأبطال الذين يرعونها بكل اهتمام منذ صدورها و«تاريخ العرب والعالم» اصبحت محط انظار الشباب منذ صدورها »

■ نحيي في الأخ عبد الحكيم اندفاعه الكريم ونعده بان نبقى عند حسن ظنه في المجلة . الموضوع الذي ارسله جيد ولكنه طويل جداً من جهة ولا يعالج الموضوع المطلوب وهو كناية عن ٢٠٠–٢٥٠ كلمة عن قرية أو حي او أثر تاريخي بارز في الوطن العربي ولكنه عالج دولة بكاملها ونأسف لعدم تمكننا ادراج دراسته في المسابقة .

حل الشبكة

	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩
١	■	ق	ا	ي	ر	ت	ل	ا	■
٢	■	ل	ل	ش	■	ج	ر	ب	ا
٣	س	ي	ف	ي	■	ن	و	ص	غ
٤	ا	ل	ر	ب	ا	ط	■	■	ا
٥	ن	ة	ن	■	ل	■	ز	ن	د
٦	ك	■	■	ق	م	ف	ي	ا	ي
٧	م	■	م	و	غ	ا	د	و	ر
٨	■	ا	ل	ب	ر	س	ا	ط	■
٩	ت	ر	ز	ن	ب	■	ن	ت	ا



تاريخ وأسماء ومعالم القرى والأحياء في الوطن العربي

إلى القراء الأعزاء :

ترغب مجلة «تاريخ العرب والعالم» أن تفتح باباً خاصاً للقراء ، لا سيما للطلاب في الثانويات والجامعات ، تدعو فيه إلى الكتابة المختصرة في موضوع : «تاريخ واسماء ومعالم القرى والأحياء في الوطن العربي» . والمجلة إذ تفتح باب هذا الموضوع تخصص مكافأة قدرها ١٠٠ ليرة لبنانية ، أو ما يعادلها للفائز الأول ، واشتراكاً سنوياً في المجلة للفائز الثاني ، على أن تتضمن المساهمة المقدمة معلومات جديدة وشيقة عن القرية أو الحي أو المَعْلَم وعن تاريخه واسمه وظروفه ، أو ما يحتوي من آثار عمرانية قديمة أو مظاهر حضارية ، وإذا أمكن صورة فوتوغرافية مأخوذة للحي أو القرية أو لأي مظهر عمراني أو اثري فيها ، كذلك على أن لا تتجاوز المساهمة الـ ٢٠٠ كلمة .

هذا ، وإذ تشدد المجلة على جدّة المعلومات الواردة ، تطلب من الكتاب الأعزاء ان يتقيدوا بأصول الكتابة العلمية وأن يشيروا إلى مصدر الاقتباس ، وتترك لهيئة التحرير حقها في اختيار المساهمات الصالحة للنشر ، وكذلك اختيار المساهمات الفائزة ؛ إذ من حصيلة ما يصل الينا ستختار هيئة التحرير ثلاث مساهمات للنشر في كل عدد بينها المساهمتان الأولى والثانية الفائزتان بالمكافأة .

* * *

نرجو من المشترك أن يكتب اسمه وعنوانه بخط واضح في نهاية مقاله وأن يرسله الينا بالبريد على العنوان التالي :

مجلة «تاريخ العرب والعالم» بيروت ص . ب . ٥٩٠٥

«مسابقة القرى والاحياء في الوطن العربي» .

* * *

تعتبر المواد المرسلة ملكاً للمجلة ، إذا نشرت أو لم تنشر .



رأي حر

محمد علي حماده

في مطلع القرن العشريــن، وبالضبط في العشرينـات منـه، بعـد الحرب العالميــة الأولى، شن بعض الكتاب الاوروبيين هجوماً عنيفاً على الطريقة التي، بها، يدرس التاريــخ، في المدارس والمعاهـد والجامعات. وأعلنوا أنها تربي الأجيــال على الأحقاد بسرد محرف او مزور لاخبار المجموعات الانسانية. وبذلك تتهيأ أسباب الكوارث التي تنزل بالأمم، في دورات منتظمة، تكاد تترسخ في اعتقادنا على أنها من الحتميات النهائية.

إن المجازر التي سببتها الصراعات بين الدول وما ألحقته من مظاهر الخراب، وأثارته من مشاعر القهر والعذاب، دفعت الى الشك في قدرة الانسان على كبت أنانيته والسيطرة على غرائزه البدائية، ما دامت الاثارة تتبعه من مهده الى لحده.

ولقد دعا بعض أنصار المؤيدين، يومئذ، للحملة على طريقة تدريس التاريخ، حكام الدول وقادة الشعوب، الغالب منها والمغلوب، إلى إلغاء اخبار الحروب وفظائعها من مناهج التعليم، وان تستبدل بها مادة تبرز، بصورة معززة، مآتي الانسان وتطور قيمه الروحية والاخلاقية. هذه القيم التي تنمي فيه ارادة التعايش مع امثاله في بيئته القوميــة، ومــع أنــداده في المجتمعات البشرية الأخرى. فتتداخـل بذلك المبــادرات الفرديــة والجماعيــة وتتشابــك الحضارات ويتضامن بناتها من فلاسفة وعلماء وأدباء، لتعم اغاني الحب فوق سرر الأطفال وأهازيج البناء في المدن والقرى، في الحقول والمصانع.

ولكن هذه المثالية، مثالية الصارخين في وجه العنف والدمار، كانت ترتد دائماً وتذهب مع رياح النافخين في أبواق الحروب، الطامعين في السيطرة وانتزاع الثروات من أصحابها.

ثم جاءت الحرب العالمية الثانية واهوالها لتنذر بأخرى لا بد قادمة وسوف تكون أشد هولا. ومع ذلك فقد بقيت البذرة الرديئة في النفوس لتدفع بالعقول الى اختــراع انمـاط متطورة جديدة من آلات القتل والتخريــب، القادرة على تفجير الأرض ومن عليها، خلال ساعات أو أيام، وافناء البشر، بلا استثناء، القوي والضعيف على حد سواء.

وعاد المثاليون الى المعركة ليواجهوا، في هذه المرحلة، تحالفا جهنميا بين مصالح المال وطموحات السياسة وخيلاء العسكرية، وهي متوازنة، وإن لم تكن متطابقة، وهي متواطئة دائماً، ولا تتحقق الا على حساب الأغلبيــة الساحقة من الشعوب، أي على حساب انسانية الانسان في كل مكان.


ونتساءل: هل يستطيع دعاة السلام ان يحققوا أهدافهم؟ وكيف؟ هل يكفي لذلك أن يعدلوا مناهج التعليم ويجعلوا من تدوين التاريخ علماً مكتمل الشروط في دقته وموضوعيته، لا بتعطيل المواد المتفجرة من أخبار الأمم، بل بتعليل هذه الأخبار وكشف المسؤولين عنهــا وبيان وسائل اجتثاثها من الجذور بل باجتثاث أسبابها: فالانسان المقهور في نفسه وجسده، او المحروم في رزقه أو المطعون في كرامته، أو المعتدى على وطنه، يتمرد، ومن أقدس حقوقه الطبيعية أن يثور ولو أدى ذلك الى تفجير ما حوله من معالم الحياة. اذاً فأول الطريق الى السلام، هو كبح القاهر والمجوّع والطاعـن والمعتدي.

في رأي المثاليين أن المدرسـة والمعهـد والجامعة يمكن أن تلعب دوراً رئيسيا في تكوين شخصية الانسان تصنع الضغينة وتربي على العنف، أو تصنع السلام بخلق الانسان المتزن الذي يميز الحق من الباطل، يمسك بميزان العدل، فلا كفة المستضعف تنخفض ولا كفة المستقوي ترجح.


ويبقى علم التاريخ يتيماً في معركة السلام، ان لم تنصره العلوم جميعاً.



معركة مونتينيكرو - الحرب العالمية الأولى (راجع المقالة ص ٧٤)



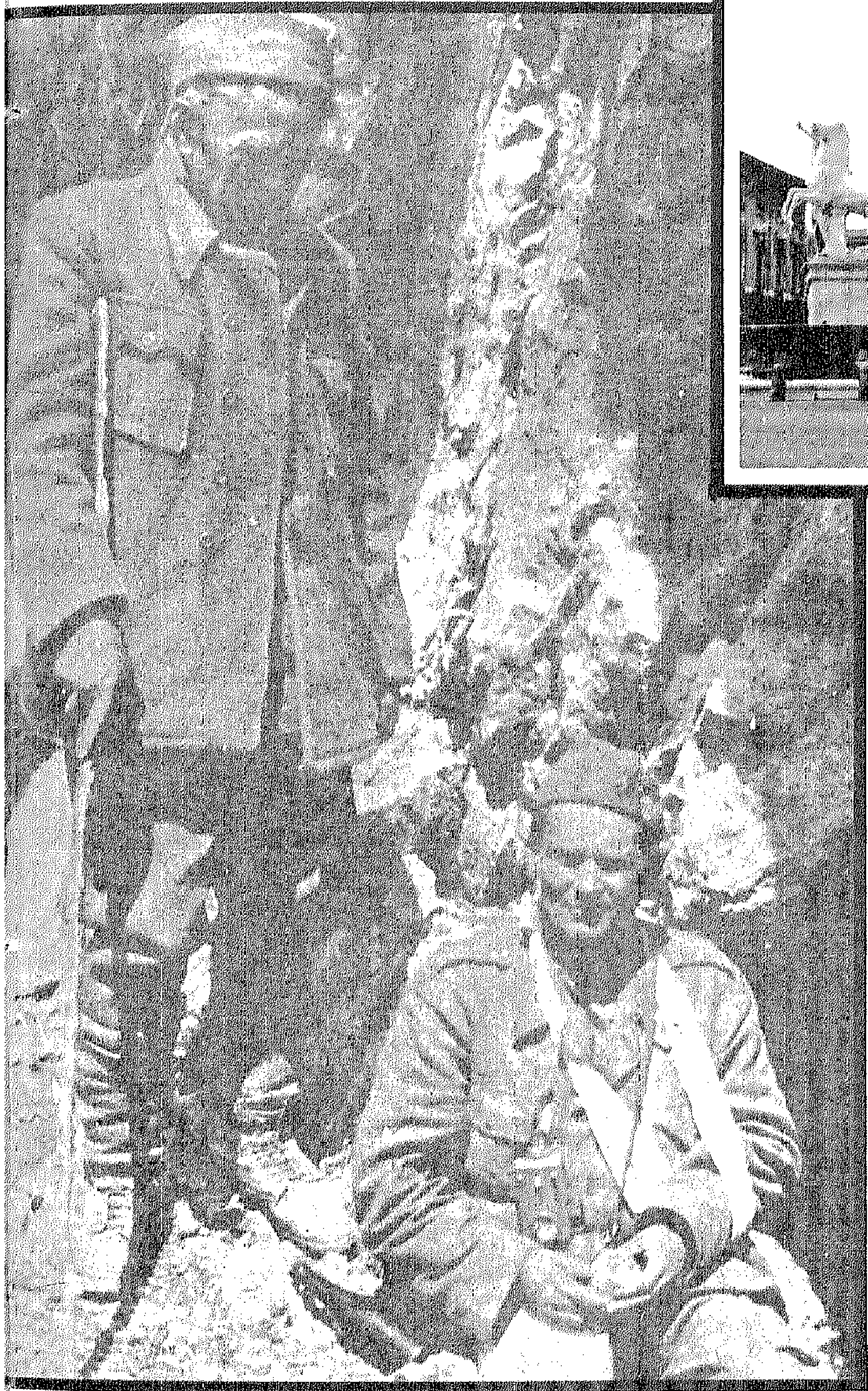
البتراء ـ الأردن (راجع المقالة ص ٤٨)


تاريخ الهند

في العدد القادم



تيتو :
تاريخ في رجل



المسلات المصرية
الفرعونية
في ساحات
أوروبا !

تاريخ العرب والعالم

مجلة شهرية مصورة تبحث في التاريخ العربي

السنة الثانية - العدد الثامن عشر - نيسان (ابريل) ١٩٨٠ الموافق جمادى الأولى ١٤٠٠

تصدر عن دار النشر العربية في منتصف كل شهر

رئيس التحرير : فاروق البربير

المستشار : د. أنيس صايغ



المدير المسؤول : محمد مشموشي

الإنتاج : مطبعة المتوسط ش.م.ل. ● التوزيع : الشركة اللبنانية لتوزيع الصحف والمطبوعات

ثمن النسخة

لبنان :	٤ ل.ل.	سوريا :	٦ ل.س
العراق :	٧٠٠ فلس	ليبيا :	٨٠٠ درهم
السعودية :	٧ ريال	الكويت :	٥٠٠ فلس
الاردن :	٥٠٠ فلس	أبوظبي :	٨ درهم
دبي :	٨ درهم	قطر :	٧ ريال
البحرين :	٧٠٠ فلس	المغرب :	٥ درهم
مسقط :	٨٠٠ بيزة	بريطانيا :	جنيه استرليني

الإشتراكات

في لبنان	٥٠ ل.ل
المؤسسات والدوائر الحكومية	١٥٠ ل.ل
في الدول العربية	٧٥ ل.ل
في أفريقيا وأوروبا	١٠٠ ل.ل
دول العالم الأخرى	١٥٠ ل.ل
المؤسسات والدوائر الحكومية في العالم العربي	٢٠٠ ل.ل

ص.ب : ٥٩٠٥ - بيروت ، لبنان • بناية أبو هليل - شقة ١١ • شارع السادات - تلفون : ٨٠٠٧٨٣

HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD

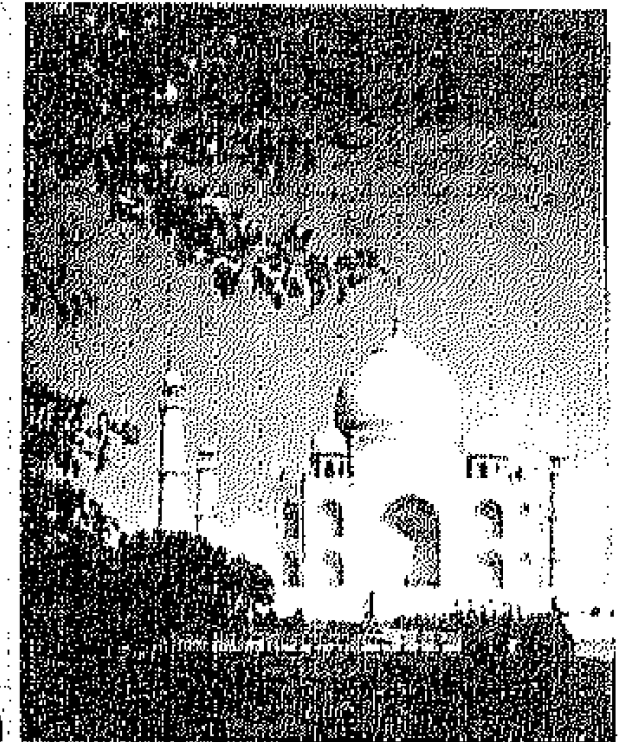
EDITED BY FARUK BARBIR
A MONTHLY ILLUSTRATED
MAGAZINE PUBLISHED FROM
SADATE ST. ABOU HLEIL
BLG. P.O.B. 5905
TEL. 800783
BEIRUT, LEBANON

VOL 2, NO 18, APRIL 1980
ANNUAL SUBSCRIPTION
$75 (INCLUDING $25 FOR
ADDITIONAL AIR MAIL CHARGES)
MAIL ALL COMUNICATIONS,
INCLUDING SUBSCRIPTIONS TO:
"HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD"

في هذا العدد

● المقالات الواردة توزَّع حسب التبويب الفني للمجلة. ولا علاقة لذلك بمكانة الكاتب. مع حفظ المكانة الاجتماعية للكتاب. تراعى في الألقاب الصفات العلمية فقط.

الموضوع — الصفحة



(راجع المقالة ص ٥١)

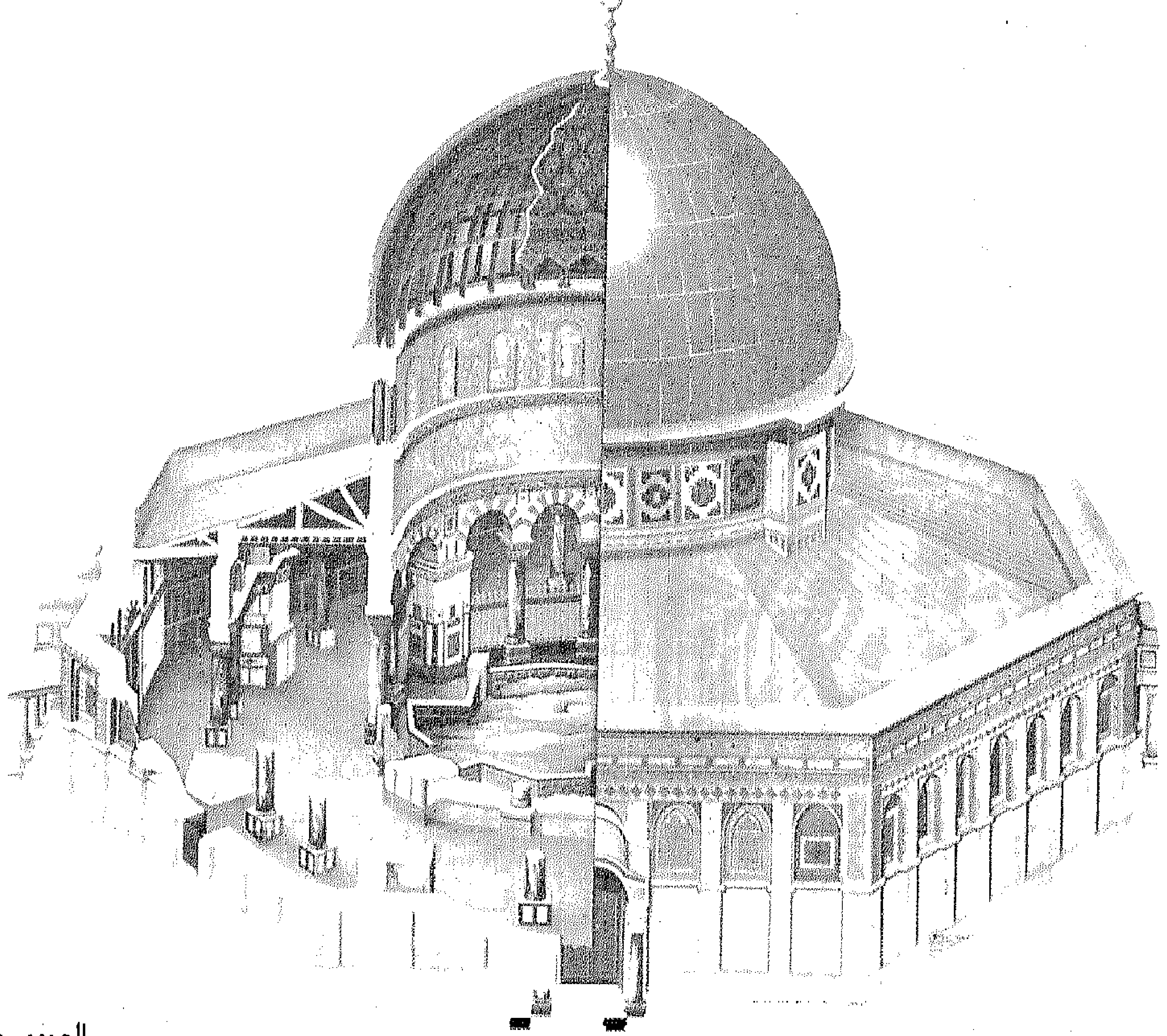
● المقالات والدراسات تُرسَل باسم رئيس التحرير على عنوان المجلة: ص. ب ٥٩٠٥ في بيروت.

● المقالات والدراسات التي تُنشَر لا تعبِّر بالضرورة عن آراء المجلة.

● المواد الواردة إلى المجلة لا تُرَدّ إذا لم تُنشَر.

الخلافة

د. يوسف ايبش



قبة الصخرة في القدس: مثل رائع للفن الاسلامي ايام الخلافة الاموية.

الصور من
J. Mitchell:
History & Culture

أ – حكومة الرسول في يثرب



كانت حكومة الرسول (صلعم) بعد هجرته الى يثرب عام ٦٢٢ م.، حكومة دينية دنياوية، تعتمد بالدرجة الأولى على شخصية الرسول بصفتيه النذير والبشير وعلى عقيدة الناس ان النبي انما يصدر في احكامه وتصرفاته، عن وحي الله وأمره. والنواة الاولى للمجتمع الاسلامي كانت امة محمد كما شكلها ونظمها الرسول في دار الهجرة. ففي هذه الأمة تقطع رباط الدم والعصبية القبلية وقام رباط الأخوة في الاسلام التي يفرضها الايمان بالله وبرسله وكتبه وملائكته واليوم الآخر؛ مما سهل على القبائل المختلفة والمتنافرة طاعة الرسول والانضواء تحت لوائه. وهكذا جمع في شخصه النبوة والامامة والزعامة والقضاء وامارة الجيش. وأصبحت البلاد العربية بعد ثماني سنوات

استاذ الفكر الاسلامي في دائرة العلوم السياسية في الجامعة الاميركية – بيروت.

مضت على هجرته تأتمر بأمره وتنزل في كل شيء عند حكمه فحقق الاصلاح الاجتماعي على المبادىء السامية كالعدل والاخاء وتحرير المرأة والعبيد ومحاربة اسباب الشقاء والفقر بين ابناء الجزيرة العربية، حتى لقد بلغ من افتتان بعض اتباعه بشخصيته انهم لم يصدقوا بموته عام ٦٣٢ م.

ب – الازمة الدستورية الأولى

واجه المسلمون عند وفاة الرسول (صلعم) أزمة دستورية حادة: من يخلف الرسول؟ من يقود الأمة؟ وما هي النظم الاجتماعية والسياسية الكفيلة بحفظ وحدة الأمة؟ ولم يكن في كتاب الله ولا في حديث رسوله اي نور يضيء الطريق في هذه الناحية بالذات. ولكن الأمة قد حلت هذه الأزمة الدستورية عن طريق استعمال حازم وسريع لمبدأ «الاجماع» الذي يكمن في تركيب الأمة كجماعة متساوية الواجبات والحقوق امام الله من خلال الشريعة. وانتهى الأمر باستخلاف ابي بكر الصديق فولدت الخلافة.

ج – الخلافة

الخلافة في الاصطلاح هي رياسة عامة في امور الدين والدنيا نيابة عن النبي (صلعم)، وفي ذلك يقول ابن خلدون: «الخلافة هي حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الاخروية والدنيوية الراجعة اليها، اذ احوال الدنيا ترجع كلها عند الشرع الى اعتبارها بمصالح الآخرة، فهي الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به». ولا خلاف بين أهل العلم ان الخلافة فرض كفاية اذا قام بها من هو اهل لها سقط فرضها عن كافة الناس. ويتفق الأشعري والباقلاني والبغدادي والماوردي وابو يعلى والغزالي وامام الحرمين والقلقشندي على ان الطرق التي تنعقد بها الخلافة هي:

الطريق الأول: البيعة:

وهي ان يجتمع اهل الحل والعقد ويعقدون الخلافة لمن يستجمع شرائطها، ويتأتى ذلك في حالتين:

١ – احداهما: ان يموت صاحب الأمر الذي كان منتصباً عن غير عهد الى احد يخلفه. وعلى ذلك كانت خلافة أبي بكر عقب وفاة الرسول، وكذلك كانت خلافة علي بن ابي طالب بعد اغتيال عثمان بن عفان.





مسكوكة ذهبية سكت في بغداد عام ٩٧٦م ذات وجهين يمثلان الخليفة الطائي ٩٧٤ – ٩٩١م والأمير البويهي عز الدولة ٩٦٨ – ٩٦٧.

٢ – والثانية: ان يخلع الخليفة نفسه من الخلافة او يخلعه اهل العقد لموجب اقتضى خلعه.

الطريق الثاني: العهد:

وهو ان يعهد الخليفة المستقر الى غيره ممن استجمع شروط الخلافة بالخلافة بعده، فاذا مات العاهد انتقلت الخلافة الى المعهود اليه ولا يحتاج الى تجديد بيعة اهل الحل والعقد، وعلى ذلك كانت خلافة عمر بن الخطاب حين عهد ابو بكر له بخلافته.

الطريق الثالث : الشورى :

وهو ان يجعلها الخليفة القائم شورى بين جماعة يستجمع كل واحد منهم شروط الخلافة، فيختار أهل الحل والعقد بعد موت العاهد واحداً من المعهود اليهم او يخرج الجميع انفسهم من العهد ويبقى واحد منهم. وعلى ذلك كانت خلافة عثمان بن عفان بعد اغتيال عمر بن الخطاب.

د - شروط الخلافة :

لصحة عقدها اربعة عشر شرطا

١ - الاول **الذكورة:** فلا تنعقد امامة المرأة لأن الخليفة لا يستغنى عن الاختلاط بالرجال وقيادة الجيوش ومنازلة الاعداء.

٢ - الثاني **البلوغ:** فلا تنعقد امامة الصبي لأنه مولى عليه فكيف يجوز ان يكون ناظراً في امور الأمة.

٣ - الثالث **العقل:** فلا تنعقد امامة المجنون لأن العقل آلة التدبير فاذا ذهب العقل ذهب التدبير.

٤ - الرابع **البصر:** فلا تنعقد امامة الاعمى لأنه لا يتولى القضاء.

٥ - الخامس **السمع:** فلا تنعقد امامة الأصم لأنه يتعذر عليه سماع مصالح المسلمين.

٦ - السادس **النطق:** فلا تنعقد امامة الأخرس لأنه يتعذر عليه الأمر والنهي.

٧ - السابع **الحرية:** فلا تنعقد امامة من فيه رق لأن الرقيق محجور للسيد.

٨ - الثامن **سلامة الأعضاء:** فلا تنعقد امامة من ذهبت يداه او رجلاه لعجزه عن القيام باعباء منصبه.

٩ - التاسع **الاسلام:** فلا تنعقد خلافة الكافر لأن المقصود من الامام مراعاة امور المسلمين واقامة الحد ونصرة الدين.

١٠ - العاشر **العدالة:** فلا تنعقد خلافة الفاسق المتابع لشهوته ومرتكب المحظورات.

١١ - الحادي عشر **الشجاعة والنجدة:** فلا تنعقد خلافة الجبان لأنه محتاج الى الشجاعة لحماية البيضة وجهاد الاعداء اللذين هما جل المطلوب من نصب الخليفة.

١٢ - الثاني عشر **العلم:** المؤدي الى الاجتهاد في النوازل والاحكام. فلا تنعقد خلافة غير العالم بذلك.

١٣ - الثالث عشر **صحة الرأي والتدين:** فلا تنعقد خلافة ضعيف الرأي غير المتدين.

١٤ - الرابع عشر **النسب:** وهو ان يكون من قريش لقول النبي (صلعم): «الأئمة من قريش».

هـ - واجبات الخليفة :

يتوجب على الخليفة مهام تنحصر في اربع دوائر:

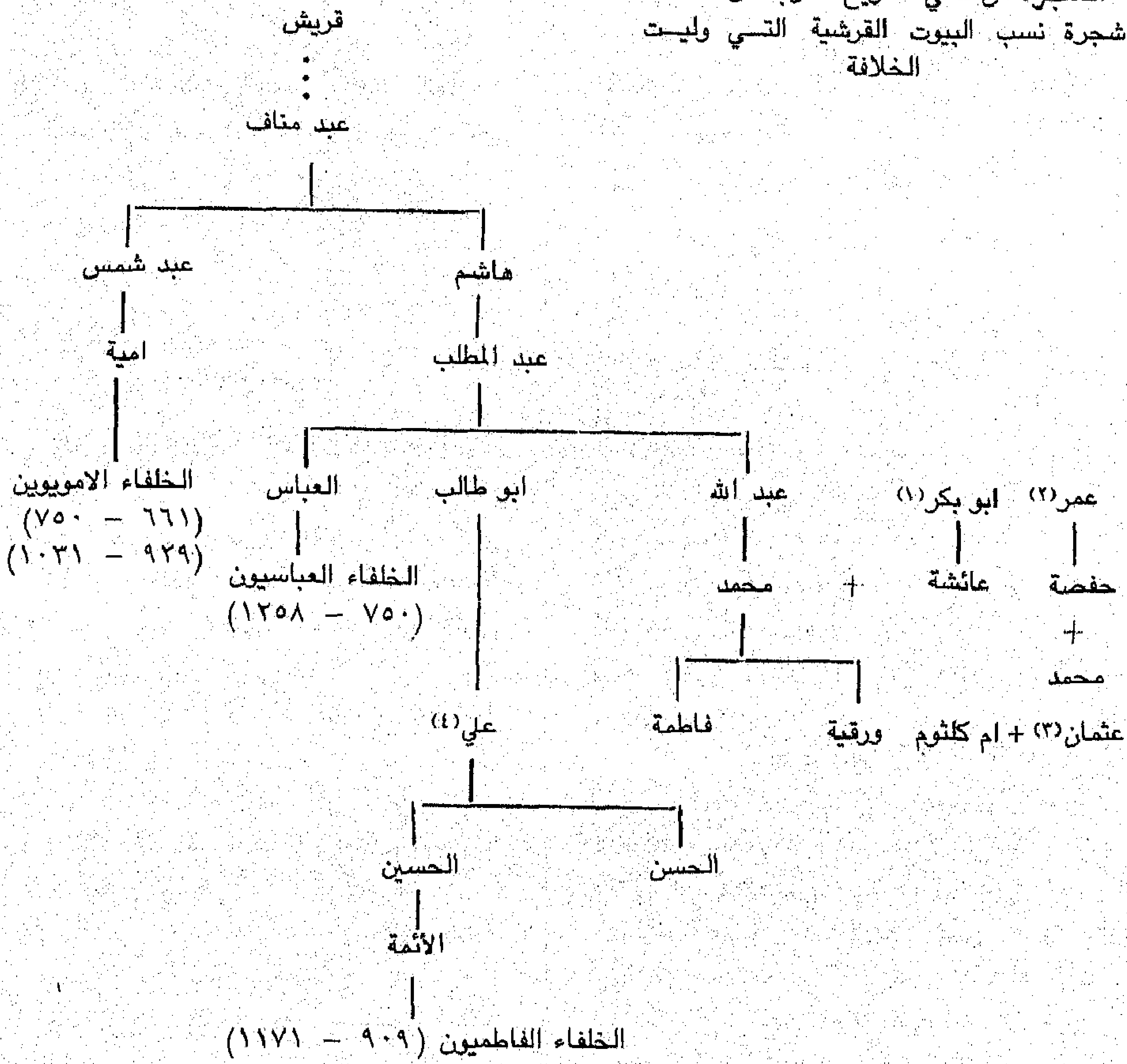
١ - **الدينية:** حفظ الدين على اصوله وما اجمع عليه سلف الأمة، ليكون الدين محروساً وحال الأمة فيه مضبوطاً. ثم النظر على اقامة الصلوات الخمس والجمعة، وصيام شهر رمضان، وتيسير الحج الى مكة المكرمة وتدبير امر الحجيج للقيام بمناسكه وأحكامه، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وجاء في الصحيحين ان رسول الله (صلعم) قال: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته. فالامام راع ومسؤول عن رعيته».

٢ - **القضائية:** اقامة الحدود الشرعية لتتوقى المحارم وتصان الأنفس والاموال، وتنفيذ الاحكام وقطع الخصومات حتى لا يتعدى ظالم ولا يضعف مظلوم، والمشارفة على الأمور العامة بنفسه قياساً على قوله تعالى: «يا داود انا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله». (سورة ص الآية ٢٦).

٣ - **التنفيذية والادارية:** تنفيذ الاحكام وقود المتظالمين الى التناصف بالرهبة، وزجر المتنازعين عن التجاحد بالهيبة. ثم اختيار الوزراء الامناء، وأمراء الجيش الأكفاء، وتقليد الولايات للثقات، وتعيين القضاة النصحاء، لتنضبط الاعمال الادارية العامة بالكفاة، وتحفظ الأموال بالامانة. وكذلك جباية الضرائب الشرعية من زكاة وخراج وغيرها من اموال الفيء والصدقات بدون حيف ولا تعسف، وصرفها من بيت المال على ما توجب من المصالح العامة من غير اسراف ولا تقتير.

٤ - **العسكرية:** تجهيز وقيادة الجيوش، وتحصين الثغور بالعدد والعدة، وبناء الحصون والقلاع والجسور والطرقات، وتدريب المقاتلة وتسليحهم، تعيين امراء الجيش الاكفاء، ومحاربة المعاندين للاسلام في الخارج واهل الردة والبغي وقطاع الطرق والعصاة في الداخل. وبالجملة حماية بيضة الاسلام والذب

الشجرة من حتي : تاريخ العرب ص ٢٤٣ .
شجرة نسب البيوت القرشية التي وليت الخلافة



الخلفاء الراشدون

(١) ابو بكر الصديق ٦٣٢ – ٦٣٤
(٢) عمر بن الخطاب ٦٣٤ – ٦٤٤
(٣) عثمان بن عفان ٦٤٤ – ٦٥٦
(٤) علي بن ابي طالب ٦٥٦ – ٦٦١

الشرط الرابع عشر: لصحة عقد الخلافة شرط اساسي هوالنسب القرشي، لقول النبي (صلعم) : «الائمة من قريش». وتدل هذه الشجرة على ان جميع الخلفاء من ابي بكر الصديق الى المستعصم اخر خلفاء بني عباس كانوا من صميم قريش.

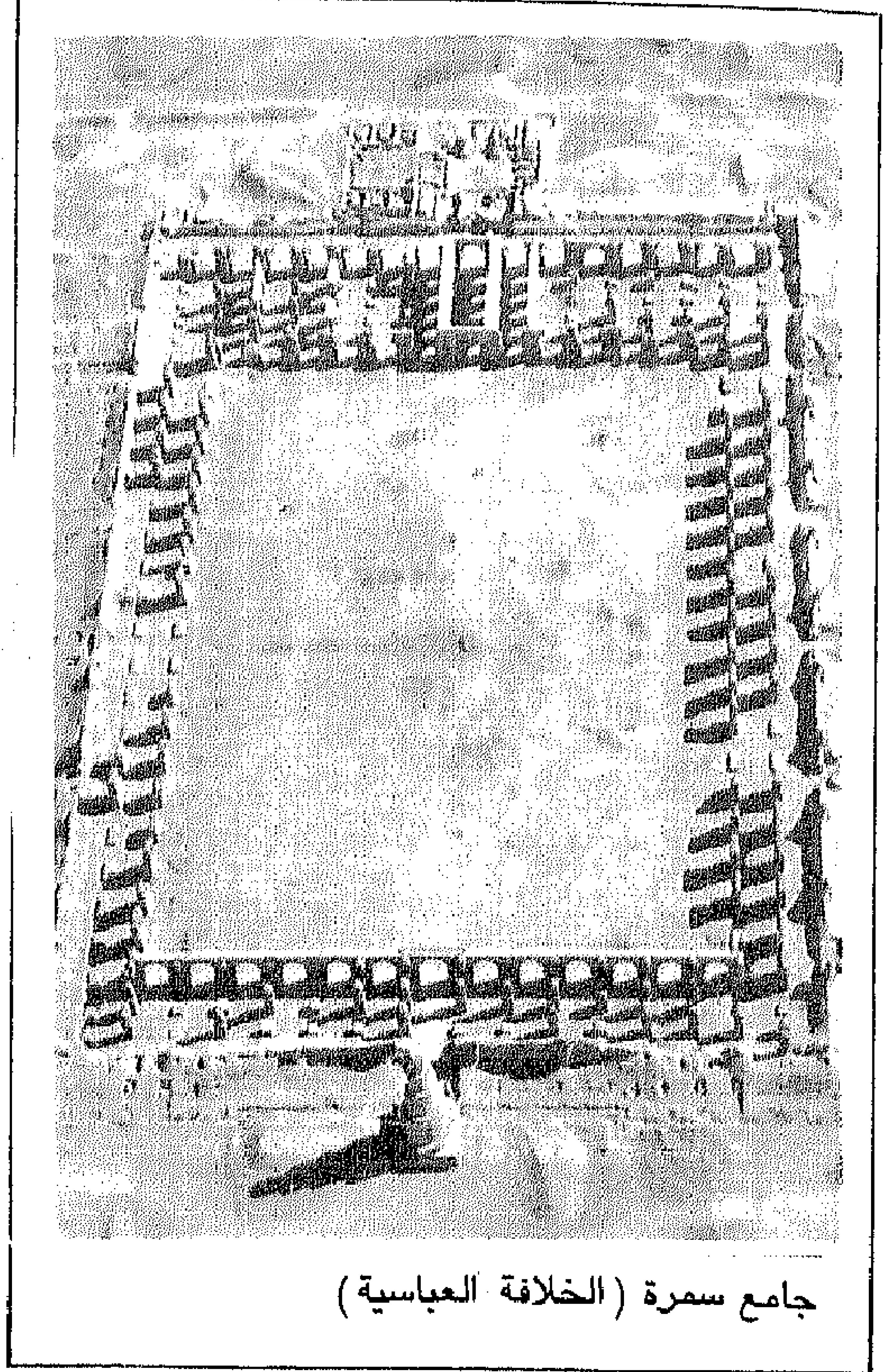
عنها، ليتصرف الناس في معايشهم، وينتشروا في اسفارهم، آمنين على انفسهم وعيالهم واموالهم.

و – واجبات الأمة للخليفة.

يتوجب على الأمة ما يلي :

١ – **الطاعة:** قال الله تعالى : «واطيعوا الله واطيعوا الرسول وأولى الامر منكم» (سورة النساء : الآية ٥٩). فأمر بطاعة اولى الأمر، وهم ولاة الامور اي الخلفاء، على ما ذهب اليه كثير من المفسرين. على ان الانقياد لأوامر الخليفة ونواهيه واجبة شرط ان يطيع الله ولا يخالف امرالشرع. ففي الصحيحين ان الرسول (صلعم) قال : «على المرء المسلم السمع والطاعة فيما احب او كره الا ان يؤمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة».

٢ – **المعاضدة والمناصرة في امور الدين وجهاد العدو:** قال تعالى : «وتعاونوا على البر


جامع سمرة (الخلافة العباسية)

والتقوى» (سورة المائدة: الآية ٢). ولا اسمى من معاونة الخليفة على اقامة الدين ونصرته. وفي صحيح مسلم عن ابي هريرة ان الرسول (صلعم) قال: «من خرج من طاعة وفارق الجماعة، مات ميتة جاهلية».

ز - فيما ينعزل به الخليفة:

ينعزل الخليفة وتسقط طاعته في الحالات التالية:

١ - الحالة الاولى: ان يتنازل عن خلافته لعجز من القيام باعباء منصبه لمرض او هرم ونحوهما.

٢ - الحالة الثانية: ان يخلعه اهل الحل والعقد لأمور منها: (أ) كفر بعد ايمان. (ب) تركه اقامة الصلاة والدعوة الى ذلك. (ج) فسق. (د) زوال العقل والجنون المطبق. (هـ) عاهات جسدية كالعمى اوالصمم او الخرس او فقدان الاعضاء وكل ما يمنعه من القيام بواجباته على أكمل وجه. (و) فقدان الحرية اما بأسر من الاعداء او من اهل البغي الى مدة يخاف معها على مصالح الامة. كل هذه الحالات توجب خلع الخليفة وعقد الخلافة لمن هو اهل لها.

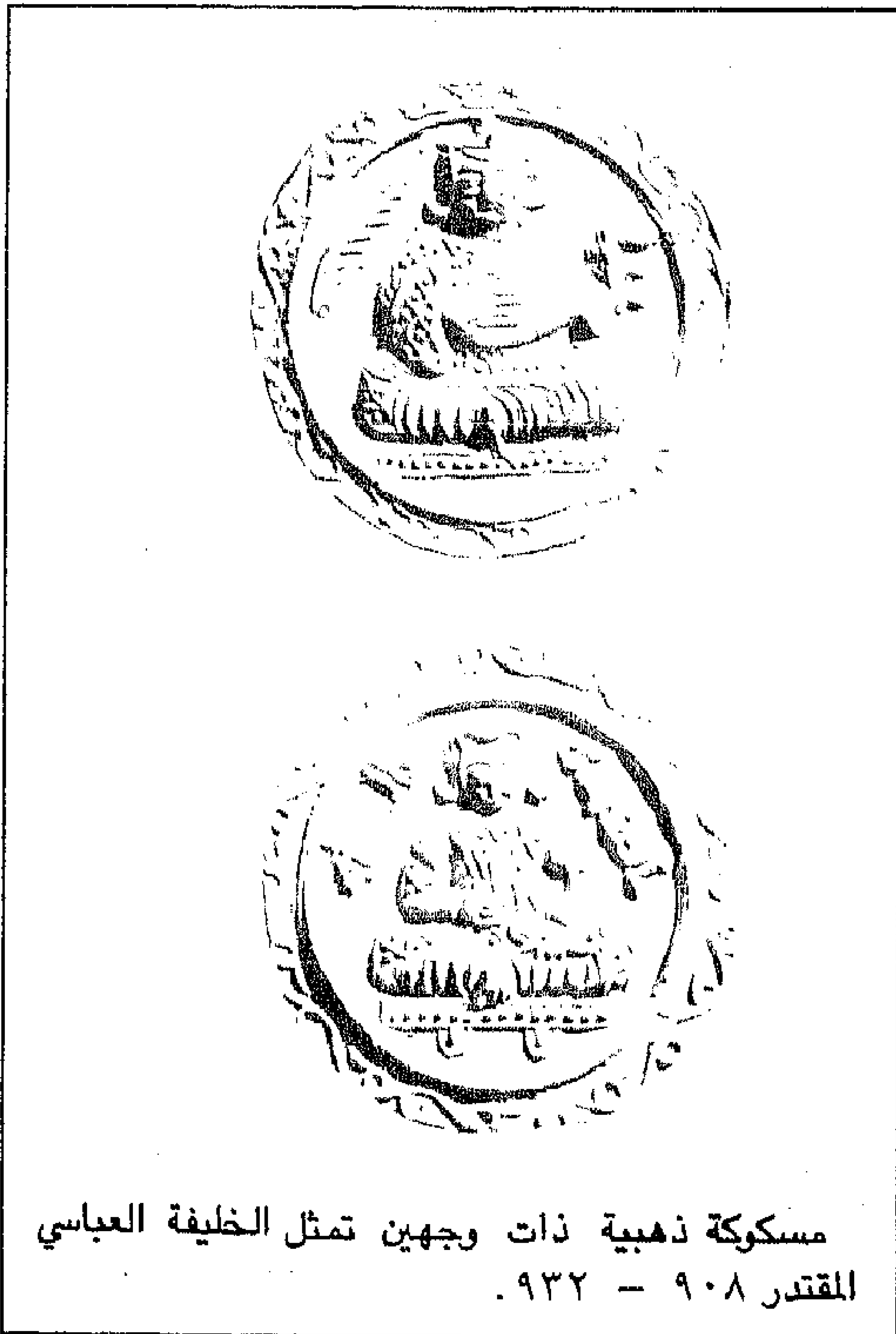
* **ملاحظة هامة:** ان حق الجماعة في خلع الحاكم الفاسق لم يكن له اي معنى عملي. لأن أحداً من اهل العلم لم يعين، وهو يسرد حق الناس في خلع الخليفة الجائر، الوسيلة القانونية، التي بها يتم الخلع. ويقول ابن جماعة: «فان خلا الوقت عن امام فتصدى لها من هو ليس من اهلها وقهر الناس بشوكته وجنوده بغير بيعة او استخلاف انعقدت بيعته ولزمت طاعته لينتظم شغل المسلمين وتجمع كلمتهم ولا يقدح في ذلك كونه جاهلا او فاسقاً..» ويقول ابن تيمية: «ستون سنة من امام جائر اصلح من ليلة بلا سلطان».

ح - ذكر من ولي الخلافة:

تولى الخلافة من وفاة الرسول (صلعم) الى سقوط الخلافة العباسية في بغداد سنة ١٢٥٨ اربع طبقات:

١ - الطبقة الاولى: الخلفاء الراشدون. وكانت مدة حكمهم من سنة ٦٣٢م - ٦٦١م في المدينة المنورة والكوفة.

٢ - الطبقة الثانية: خلفاء بني امية. وكانت مدة حكمهم من سنة ٦٦١م - ٧٥٠م في دمشق، والى سنة ١٠٣١م في الأندلس.

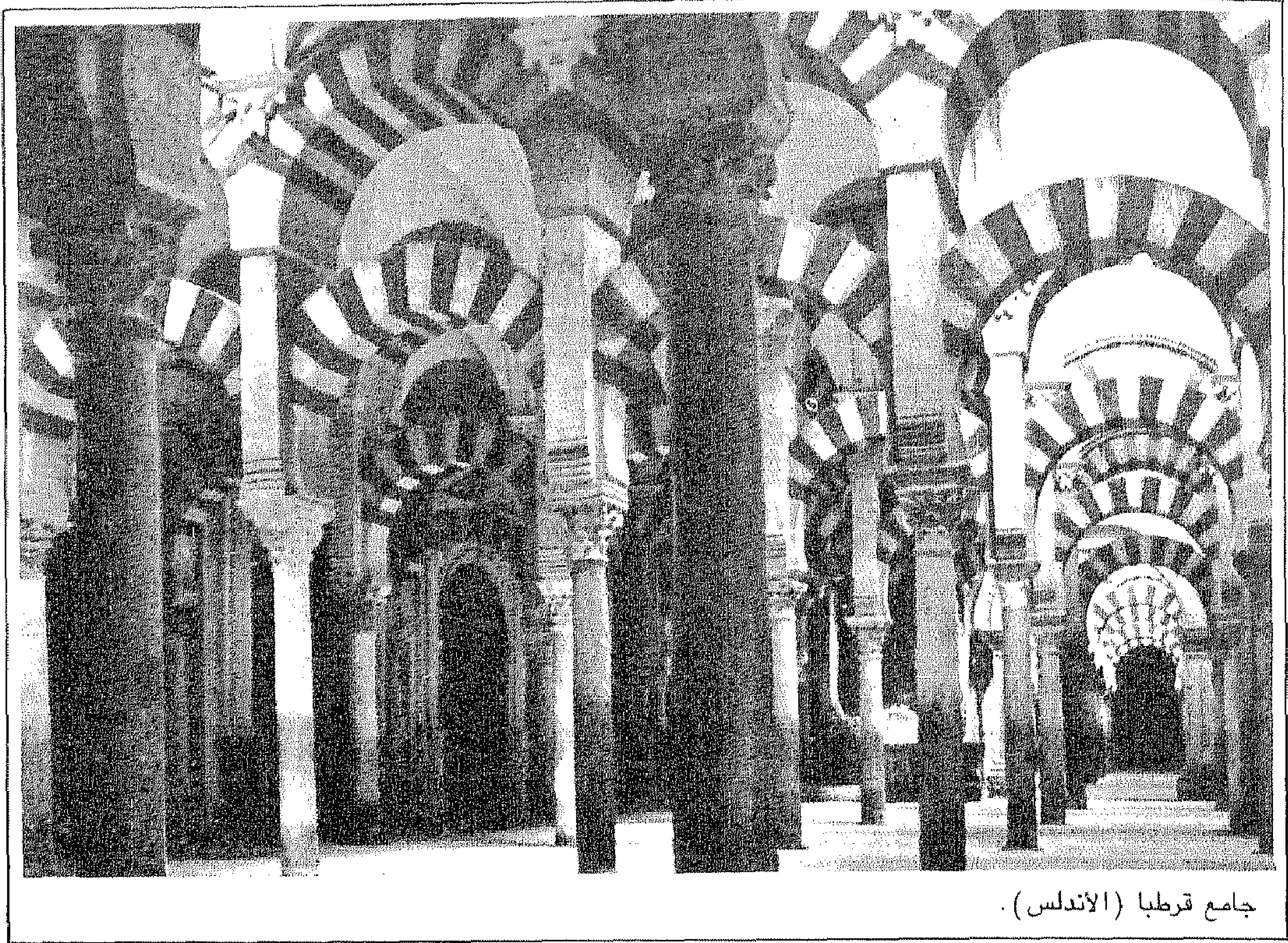

مسكوكة ذهبية ذات وجهين تمثل الخليفة العباسي المقتدر ٩٠٨ - ٩٣٢.

- الخليفة هارون الرشيد ٧٨٦ - ٨٠٩ الذي نقل الخلافة فعليا من الشام الى العراق والذي تميز عهده بالازدهار والرقي.





من رسم على جدران في تدمر تمثل احد افراد سلاح الفرسان العرب في ساحة القتال.



جامع قرطبا (الاندلس).

٣ - الطبقة الثالثة: الخلفاء الفاطميون من سنة ٩٠٩م - ١١٧١م في شمال افريقيا والقاهرة.

٤ - الطبقة الرابعة: الخلفاء العباسيون من سنة ٧٥٠م - ١٢٥٨م في العراق وبغداد.

ط - سقوط الخلافة.

هاجم هولاكو بغداد عام ١٢٥٨ ودخلها، ويقول ابن طقطقى: «فجرى من القتل الذريع، والنهب العظيم، والتمثيل البليغ، ما يعظم سماعه» واستشهد المستعصم اخر خلفاء بني العباس، بينما فر بعض ذوي قرباه الى مصر حيث نصب السلطان بيبرس احدهم خليفة صوري واطلق عليه اسم المستنصر بالله، رغبة منه ان يضفي على حكم المماليك صفة شرعية. ظلت هذه الخلافة الوهمية قائمة في مصر حتى زوال دولة المماليك عقب الفتح العثماني سنة ١٥١٦ - ١٥١٧.

حاول سلاطين آل عثمان ادعاء لقب «خليفة» ولكن دون جدوى اذ لم يعترف لهم بهذا اللقب معظم الذين كتبوا تاريخ هذه الحقبة امثال الغزي والمحبي والمرادي والجبرتي والبيطار. وبعد سقوط السلطنة العثمانية واعلان اتاتورك الجمهورية عام ١٩٢٢ قال الشيخ رشيد رضا: «ان دولة سلاطين بني عثمان لم تكن خلافة شرعية بحيث يعد الواحد منهم امام المسلمين كما ادعوا هم بذلك».

جرت محاولة اخيرة للنظر في مسألة الخلافة في مؤتمر عام عقد في القاهرة عام ١٩٢٦، ولكن المؤتمر لم يسفر عن نتائج عملية وتطبيقية فذهبت المجهودات النبيلة ادراج الرياح. ■





دينار عباسي اصبح في ايامه اساس العملة في البحر الأبيض المتوسط.



دكتوراه في العلوم الاسلامية من جامعة القاهرة. درس وحقق الاعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني ورفاعة الطهطاوي ومحمد عبده وعبد الرحمن الكواكبي وقاسم أمين وعلي مبارك وغيرهم. وألف خمسة وعشرين كتاباً في الفكر السياسي والاجتماعي والتاريخ والفلسفة. وله عشرات البحوث في المجلات الفكرية المختصة في مصر ولبنان والعراق والكويت وقطر وليبيا.

قبل ظهور الاسلام كان الخطر والتحدي يحيطان بالعرب من كل الجهات ويتقدمان شيئاً فشيئاً ليهدد ان حريتهم واستقلالهم، بل ووجودهم بالزوال!..

ففي الشرق: كانت الامبراطورية الفارسية تسيطر على عرب العراق والخليج، وفي بعض الفترات امتدت سيطرتها إلى اليمن في الجنوب..

وفي الغرب والشمال: كان الروم البيزنطيون يفرضون سيطرتهم على عرب الشام..

وفي الجنوب: احتلت الحبشة، لفترات طويلة، جنوب شبه الجزيرة العربية - (اليمن)

ولم يبق حراً ومستقلا من بلاد العرب سوى وسط شبه الجزيرة، الذي كان وعراً وفقيراً وصحراويا، تسكنه قبائل شديدة المراس في الحرب، عاشقة للحرية، رافضة لأية قيود تفرضها أية حكومة من الحكومات، خصوصاً اذا كانت هذه الحكومة غير عربية.. ومع ذلك.. فلقد حاولت الحبشة في سنة ٥٧١م - عام الفيل - أن تغزو وسط شبه الجزيرة، وتحتل مكة.. ولولا هزيمتها يومئذ لسيطر الأعداء على بلاد العرب كلها.

لكن هذا الخطر وذلك التحدي قد نبه في الأمة العربية عوامل اليقظة وروح المقاومة ونمى بين ابنائها صلات التضامن وروابط الاتحاد.. وفي فترة وجيزة شهدت بلاد العرب هذه الأحداث:

■ هزيمة جيش أبرهة الحبشي وغزوة الفيل سنة ٥٧١ م. وهو العام نفسه الذي ولد فيه الرسول محمد، عليه الصلاة والسلام؟!..

■ وتحرير اليمن من الاحتلال الحبشي بقيادة البطل العربي سيف بن ذى يزن (٥١٦ - ٥٧٤ م).

■ وقيام روابط التضامن بين حكومة مكة، بزعامة عبد المطلب بن هاشم (٥٠٠ - ٥٧٩م) وبين حكومة اليمن..

■ ونمو الروابط والعلاقات السلمية بين قبائل العرب في وسط شبه الجزيرة، وخاصة بعد الاتفاق على وقف الحروب والمنازعات والغارات أربعة أشهر من كل عام، هي الأشهر الحرم: رجب، وذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم. وفي هذه الأشهر كانت تقام المعارض والأسواق، ويتم الحج إلى الكعبة، وتعقد المسابقات بين الشعراء والحكماء في الأسواق الشهيرة: عكاظ، ومجنة، وذي المجاز.. الأمر الذي ساعد على تبلور الشخصية العربية الموحدة، وزاد من روابط التضامن والتقارب والاتحاد..

■ وكان أول انتصار للعرب على الفرس في يوم ذي قار سنة ٦١٠ م.. وهو العام نفسه الذي ظهر فيه الاسلام؟ ويومها استبشر الرسول خيراً، وتنبأ بأن هذا النصر سيكون فاتحة انتصارات أكبر، تحرر العرب من الفرس، وتنتقم لتاريخ طويل سيطر فيه الفرس على عرب الشرق والجنوب.

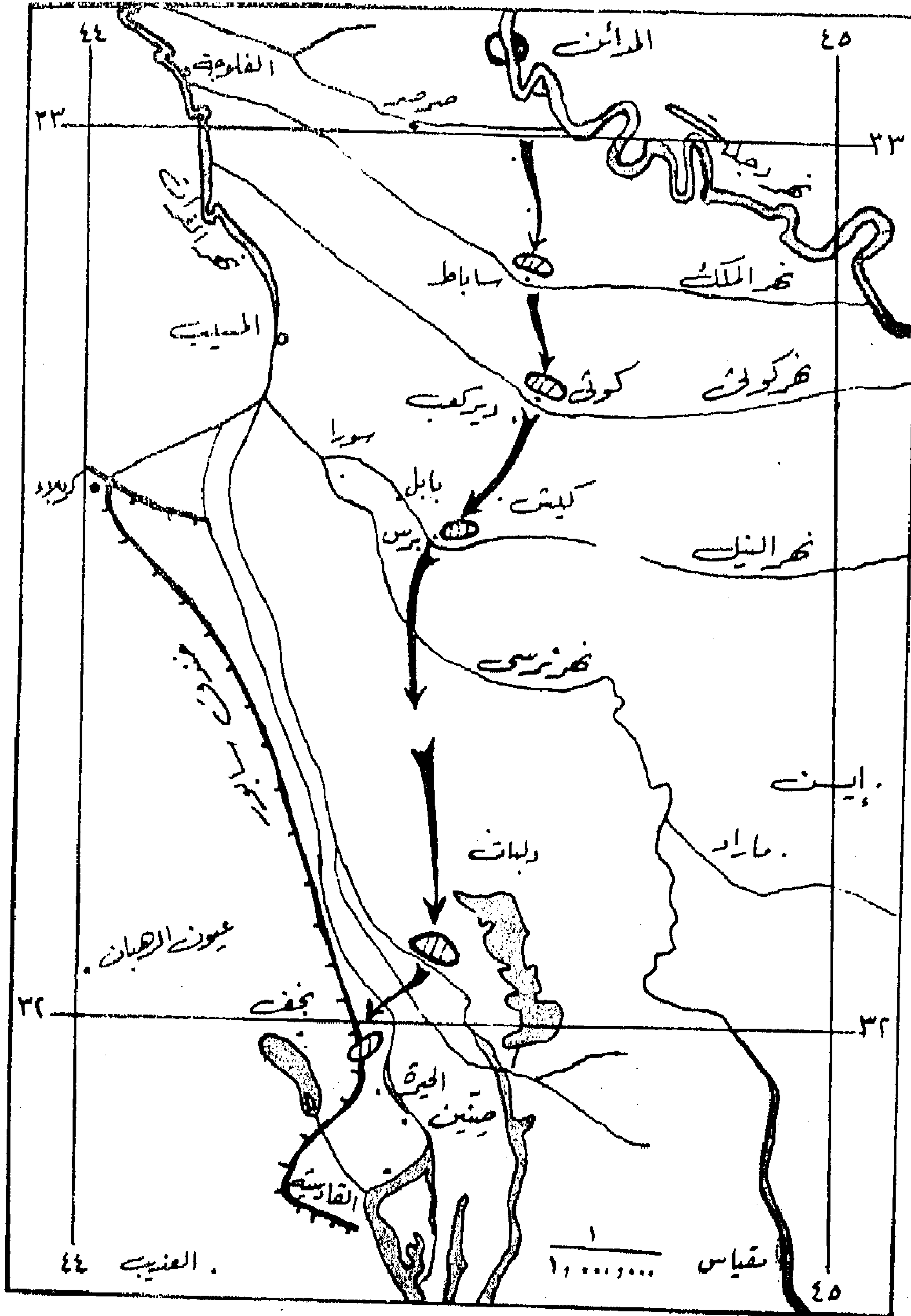
■ ثم.. كانت الدولة العربية الاسلامية التي أقامها المسلمون بالمدينة، بعد الهجرة، هي سلاح العرب الأول الذي استطاعوا به مواجهة الخطر والتحدي، بل ومطاردة مصادر هذا الخطر وذلك التحدي، ومن ثم: فتح صفحة جديدة في تاريخ الشرق، أصبحت القيادة فيها للعرب، وليس للفرس أو الروم!..

فلقد توحدت القبائل العربية خلف قيادة هذه الدولة.. وبعد أن تأكدت هذه الوحدة على عهد أبي بكر الصديق (١١ - ١٣ هـ ٦٣٢ - ٦٣٤ م) أصبح في استطاعة الدولة العربية الاسلامية أن تتطلع إلى تحرير الأرض العربية الواقعة تحت سيطرة كل من الفرس والروم منذ قرون: العراق العربي في المشرق، والشام العربي في الغرب والشمال.. ولقد نهضت الدولة بهذه المهمة التحريرية على عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب (١٣ - ٢٣ هـ ٦٣٤ - ٦٤٤م)..

■ فمنذ أواخر عهد أبي بكر كانت المناوشات والمعارك قائمة بين العرب وبين الفرس والروم، ولقد استطاع الجيش العربي أن يحرز عدداً من الانتصارات في عدد من المواقع بجنوبي العراق - في الحيرة، والبويب - بقيادة البطل العربي المسلم المثنى بن حارثة الشيباني (١٤هـ ٦٣٥م).. وأن يحرز كذلك عدداً من الانتصارات، في فلسطين، أهمها الانتصار في أجنادين.

■ لكن عهد عمر بن الخطاب هو الذي شهد الانتصارات الحاسمة، التي حررت العرب من الفرس والروم، وثأرت لتاريخ طويل أذلوا فيه العرب قبل ظهور الاسلام، وجددت شباب المنطقة، سياسياً وحضارياً، بفكر الاسلام.. ففي الوقت الذي فتح فيه انتصار العرب على الروم في موقعة اليرموك (١٥هـ-٦٣٦م) الباب لزحف عربي شامل حرر كل الشام، كان العراق

تحرك رستم



ينتظر هو الآخر معركته الحاسمة التي تقرر: لمن الغلبة؟ للفرس؟ أم للعرب المسلمين؟!..

فعرش فارس كان قد تولاه ملك جديد، هو يزد جرد بن شهريار (٦٣٢ - ٦٤٢م) وكان يدرك خطر اليقظة العربية القادمة لانتزاع العراق من الفارسيين، فجمع كلمة الفرس على الاستعداد لاخماد هذه اليقظة قبل أن تحقق انتصارها الحاسم.. ومن ثم بدأت حشود الفرس العسكرية تضغط على الجيش العربي الذي يقوده المثنى بن حارثة الشيباني فارسل المثنى إلى عمر بن الخطاب يخبره ان كفة الفرس قد رجحت، ويطلب الامدادات.. وأضيف إلى الموقف عامل جديد، وهو مرض المثنى بن حارثة، مرضاً بدا أنه مرض الموت!.. وأدرك عمر بن الخطاب خطر المواجهة المنتظرة، والوشيكة، وأيقن أنها حاسمة في تاريخ طويل لصراع طويل!.. فعزم على أن يخرج بنفسه لقيادة المعركة التي وضح أن مكانها سيكون (القادسية) - (غربي النجف، وعلى بعد ثمانية عشر ميلاً ونصف الميل من مكان الكوفة)، فهي معركة حاسمة، يزيد من أهميتها أنها ستدور في مكان حاكم، فاما أن يفتح نصر العرب فيها الباب لتحرير كل العراق ومطاردة اركان النظام الفارسي الاقطاعي واما ان تفتح

هزيمتهم فيها الباب لاسترداد الفرس السيطرة على جنوبي العراق ومنطقة الخليج .. فالقادسية - كما قال الخليفة عمر - : «باب فارس في الجاهلية ، وهي أجمع تلك الأبواب .. وهي منزل رغيب خصيب حصين ، دونه قناطر وأنهار ممتنعة ! » ..

وبالفعل ، خرج الخليفة إلى موضع يسمى «صرار» ، على بعد ثلاثة أميال من المدينة ، في الطريق إلى العراق ، فأقام معسكراً ، وشرع يجري الاستعداد لتأليف جيش القادسية .. ولكن الصحابة أشاروا عليه بمخاطر قيادته المباشرة للجيش في ميدان القتال ، وطلبوا اليه البقاء في العاصمة وأن يقود المعركة أحد الصحابة من أبطال الغزوات والفتوحات المشهورين .. ورشحوا له سعد بن أبي وقاص (٢٣ق. م هـ - ٥٥هـ ٦٠٣ - ٦٧٥م) فهو أسد من أسود الحرب وعلم من أعلام الفتوحات ..

تحضير الجيشين :

ولقد نهض عمر ، ومعه ولاة الأقاليم ، وقادة الحاميات ، ورؤساء القبائل بتوجيه كل الطاقات لتجهيز الجيش .. فالفرس قد جمعوا جموعهم ، حتى بلغ تعداد جيشهم هناك مائة وعشرين ألف مقاتل ، اذا أضيف اليهم أتباعهم وخدمهم ومعاونوهم بلغوا مائتي ألف ! .. وهم قد حشدوا في هذا الجيش ملوكهم وحكام أقاليمهم وأبرز الأساورة وأمهر المقاتلين .. واستعانوا في هذا الجيش بثلاثة وثلاثين فيلا ، كي تفسد على الخيل العربية يقظتها وصمودها عندما يشتد القتال ! .. وجعلوا قيادة هذا الجيش الجرار لأبرز قوادهم : رستم بن الفرخزاد ، قائد الجيش الامبراطوري .. ورفعوا رايتهم الشهيرة (درفش كابيان) ، وكانت من جلد النمر مرصعة بالجواهر ، يستبشر بها الفرس ، ولا يرفعونها الا في الأمر الشديد ! .. ومن خلف هذا الجيش قامت المدن تقيم الحصون ، وتؤلف الجيوش ، وتجمع الامدادات ..

وأمام هذا التحدي اتخذ عمر بن الخطاب قراره ، فقال : «والله لأضربن ملوك العجم بملوك العرب !» - فهي ، إذن ، مواجهة بين امتين وحضارتين ! .. وكل يستجمع لها أقصى مالديه من امكانيات .. وبعث عمر إلى مختلف أقاليم الدولة وولاتها أن «ينتخبوا ويختاروا جيش القادسية من خيار العرب» .. فكل قبيلة تقدم أبرز رؤسائها وأمهر مقاتليها وفرسانها وخير خيولها وأمضى سيوفها ، وكذلك تصنع القرى والمدن في مختلف الأنحاء .. بل لقد احتشد في هذا الجيش ، أيضاً ، أصحاب الرأي ، والشرف ، والسلطة ، والخطباء ، والشعراء ، والحكماء ! .. وضم عمر اليه أكثر من سبعين مقاتلا من الذين شهدوا غزوة بدر ! .. وأكثر من ثلثمائة من صحابة الرسول ! .. وسبعمائة من أبنائهم وثلثمائة من الأبطال الذين شهدوا مع الرسول فتح مكة ! .. حتى لقد أصبح هذا الجيش خلاصة الأمة العربية المسلمة .. وكتب الذين شهدوا جنوده عن المزايا التي تحلوابها ، فقالوا انهم لم يروا فيه من يتصف بصفة من ثلاث : الجبن ، أو الغدر ، أو الغلول - (اختلاس الغنائم والأموال) - ! ..

ولقد استغرقت عملية الحشد والانتخاب والاستعداد هذه ثلاثة أشهر ، عسكر أثناءها سعد بن أبي وقاص في (الثعلبية) على طريق مكة .. وعندما اكتمل له الاستعداد أوصاه الخليفة بأن يتبع سنة الرسول في المساواة بين الناس ، والوفاء بالأمان لمن طلبه من العجم ، وحذرهم من الغدر وعدم الوفاء بعهود الأمان .

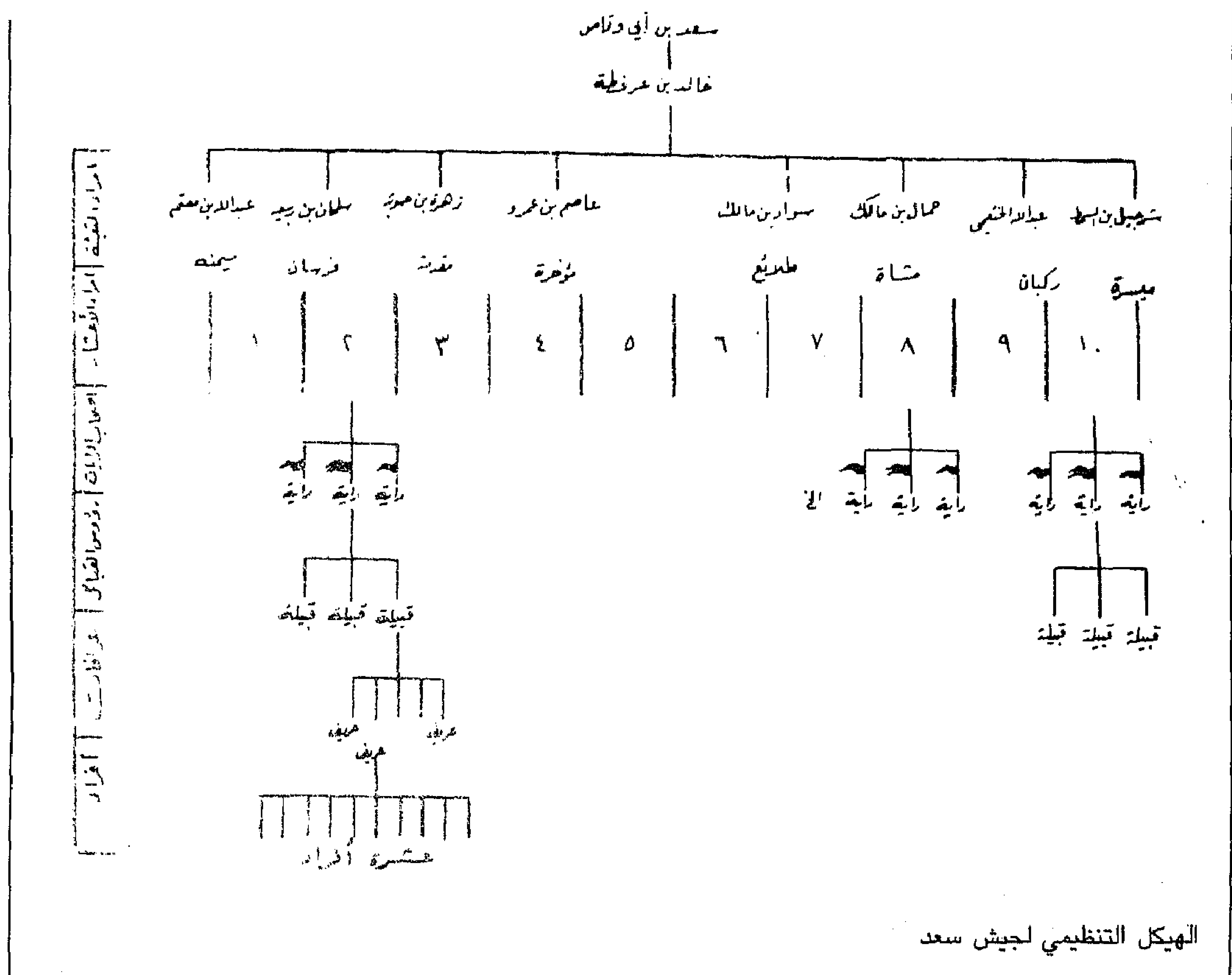
وزحف الجيش ، بقيادة سعد بن أبي وقاص ، إلى العراق ..

تنظيم الجيش العربي وقياداته :

وعندما اقترب الجيش العربي من مواقع الفرس ، كان المرض قد اشتد على المثنى بن حارثة الشيباني وقبل أن ينقلوه إلى منازل أهله حرص على أن يكتب إلى سعد بن إبي وقاص بخبرته في قتال الفرس ، ويقدم له مشورته حول المعركة المنتظرة ، ورشح له المكان الواقع بين القادسية ونهر العذيب معسكراً لجند المسلمين ..

وانضم جيش المثنى الى جيش سعد ، واصبح في هذا الجيش كثيرون من الأبطال الذين شهدوا ايام العرب ومواقعهم ضد الفرس حتى قبل ظهور الاسلام ! .. وانضم اليه كذلك عديد من فقراء الفرس ، دون ان يدخلوا في الاسلام ، وقبائل عربية كثيرة ، كانت ديانتها المسيحية ، فاصبح الجيش المسلم ، جيشاً للعرب بأديانهم المتعددة ، بل وجيشاً لكل الثائرين على ظلم الفرس واستبدادهم واقطاعهم ونظامهم الطبقي القاسي والرهيب ! ...

وفي مواجهة المائتي ألف فارسي ، عسكر ، عند القادسية ، أكثر قليلا من ثلاثين ألفا ،



الهيكل التنظيمي لجيش سعد

تمثلت فيهم خلاصة العرب يومئذ، يقودهم سعد بن أبي وقاص!..

لكن الخليفة الذي كان يود أن يقود المعركة بنفسه، لم يكتف بما بذل في الاعداد لها من جهود في المدينة!.. فكان يخصص وقته من الصباح حتى منتصف النهار لجمع الأخبار عن جيش القادسية، وتحليلها ودراستها مع الصحابة والمشيرين.. وكان يتوق إلى الاسهام بالرأي في تفاصيل الاعداد للقاء الفرس وقتالهم مع قائد الجيش سعد بن أبي وقاص، لكن طبيعة ميدان المعركة وتضاريس أرض القتال ومواقع العدو وأنواع الأسلحة لم تكن معلوماتها متوفرة لديه، فكتب إلى سعد بن أبي وقاص يطلب منه أن يكتب له بكل مالديه من التفاصيل، حتى يضع أمامه صورة خريطة للميدان ومن فيه وما فيه، كي يتيسر له الاسهام بالرأي والتوجيه!.. وجاء في رسالة عمر إلى سعد: «.. أنه قد منعني من بعض ما أردت الكتابة به اليك: قلة علمي بما هجمتم عليه، والذي استقر عليه أمر عدوكم.. فأكتب إلي: أين بلغك جمعهم؟ ومن رأسهم (قائدهم) — الذي يلي مصادمتكم؟ وصف لنا منازل — (مواقع) — المسلمين والبلد الذي بينكم وبين (المدائن) صفة كأني أنظر اليها! واجعلني من أمركم على جلية — (بينة) — ..» ... فكتب سعد إلى الخليفة بكل التفاصيل، وصف له المدن، والخنادق، والطرق، والجبال، والأنهار، والقادة، والناس، والسلاح.. الخ.. الـخ.. وكانت المراسلات تتم يومياً بين الخليفة وسعد.. حتى لنستطيع أن نقول: أن عمر بن الخطاب قد أقام بالمدينة «غرفة عمليات»، ووضع أمامه فيها خريطة لأرض معركة القادسية، وجعل يضيف إلى هذه الخريطة يوماً بيوم كل ما يحدث على واقعها من تغيرات، وبذلك استطاع أن يسهم اسهاماً حقيقياً في قيادة القتال وهو على مسافة شاسعة من ميدان هذا القتال!..

فهو يكتب إلى سعد لينظم المقاتلين: عشرة، عشرة.. ولكل عشرة قائد.. وأن يعين الأمراء على: المقدمات، والميامن، والمياسر، والمجنبات، والساقات — (المؤخـرة) — ، والطلائـع، والمشاة، والفرسان الخ.. الخ.. ويحـدد له ترتيب المقاتلين: فالأمير، يليه أمراء الجماعات

– (المقدمات، والميامن، والمياسر، .. الخ)، يليهم أمراء العشرة، يليهم أصحاب الرايات، يليهم رؤساء القبائل .. الخ .. الخ ..

وعندما تأتيه أنباء القتال بأسماء الذين أبلوا فيه بلاء حسناً، يرسل الجوائز: خيلا وسيوفاً إلى الفرسان المبرزين! .. فيشعر المقاتلون أن أمير المؤمنين معهم في الميدان! ..

ولم يكن الخليفة وحده هو الذي يعيش بكيانه وطاقاته تلك المواجهة الحاسمة بين العرب والفرس في القادسية، بل كانت معه في ذلك الأمة كلها .. حتى ليحكي المؤرخون أن الناس قد علقوا ثبات الدولة وزوالها على نتائج تلك المعركة، وأصبحت في كل بلد جماعة تخصصت في جمع أخبار القادسية وابلاغها إلى عامة الناس! .. بل لقد علق الناس الكثير من أمور حياتهم عليها «حتى أن الرجل كان يريد الأمر فيقول: لا أنظر فيه حتى أنظر ما يكون من أمر القادسية!» – كما يقول المؤرخون – :

كانت معركة مصيرية، حشدت لها الأمة خير ما عندها .. وتعلقت بنتائجها الآمال والأفكار والمصائر والمشاعر والقلوب! ..

قبل المعركة

وقبل ان يبدأ الصراع بأدوات القتال، بدأ بأدوات الفكر .. فلقد كانت للاسلام تقاليد مرعية: أن يبدأ المسلمون بدعوة عدوهم الى الاسلام او المسالمة، اولا ... فان ابى فالقتال .. وطلب الخليفة من سعد بن أبي وقاص رعاية هذه السنة، فبعث وفداً الى ملك الفرس يزدجرد، فلما دعوه الى الاسلام، غضب، وأمرهم بالانصراف، قائلا: لولا انكم رسل لقتلناكم! ... لكن رستم، قائد جيش الفرس، أرسل الى سعد يطلب منه ان يبعث اليه من يحاوره .. فذهب المغيرة بن ابي شعبة الى حيث يجلس رستم في خيمته على سريره الذهبي، وتقدم ليجلس الى جواره على السرير، فاستنكر الفرس ذلك، لمنافاته لنظامهم الطبقي الذي يجعل لكل طبقة مكانا محددا لا تتعداه! .. ومنعوا المغيرة من الجلوس على السرير، فحدثهم حديثا جذب الى العرب قلوب الطبقات الفارسية الفقيرة، واغضب الأثرياء والاقطاعيين والمستغلين .. قال لهم: «انا، معشر العرب سواء – (متساوون) – لا يستعبد بعضنا بعضا .. ولقد ظننت انكم تتساوون مع قومكم، كما نتساوى .. ولقد كان الأحسن – بدلا من ان تمنعوني الجلوس على سرير قائدكم – ان تخبروني أن بعضكم ارباب بعض؟! ان هذا الأمر لا يستقيم، ونحن لا نصنعه .. ولقد تيقنت الآن ان امركم مضمحل، فليس يقوم ملك على هذه السيرة، ولا على هذه العقول؟! ..» .. ولما سمع الفرس قول المغيرة، قال فقراؤهم: «صدق هذا العربي»! أما الأغنياء فتوجسوا خيفة من هذه البذرة الثورية التي بذرها في ارضهم، وقالوا: «والله لقد رمى بكلام لا يزال عبيدنا ينزعون اليه! قاتل الله اسلافنا، ما كان احمقهم حين كانوا يصغرون من امر هذه الأمة العربية؟!» ..

ثم تحدث رستم الى المغيرة بمنطق ملوك الفرس مع عرب العراق قديما قبل ظهور الاسلام، فحدثه عن ان الفقر والحاجة هما سبب خروج العرب للقتال، وان باستطاعتهم ان يأخذوا لأنفسهم طعاما ولدوابهم اعلافا ويعودوا الى وسط شبه الجزيرة تاركين العراق في ايدي الفارسيين .. لكن المغيرة حدثه عن الاسلام، وما أحدثه في العرب من انقلاب، واسمعه كلمات القائد سعد بن ابي وقاص: «ان الله تعالى احيانا بالاسلام، وأحيا به قلوبا كانت ميتة، وأمات به قلوبا كانت حية!» ودعاه الى ان يكون مع الأحياء، فأبى، وتوعد المغيرة والعرب بالابادة عندما يرتفع ضحى الغد، وأقسم على ذلك بالشمس والقمر! .. فانصرف المغيرة وهو يقول: لا حول ولا قوة الا بالله! ..

ولقد تكرر الحوار بين الأمتين والحضارتين مرة اخرى، عندما خرج رستم يتفقد جنوده، وأرسل الى واحد من سادات العرب واشرافهم في الجاهلية، هو زهرة بن عبد الله بن الجوية التميمي – وكان قد لقى الرسول واسلم وجاء اليوم ليقاتل الفرس تحت قيادة سعد بن ابي وقاص – ارسل اليه رستم ليحاوره، فلقيه، ودار بينهما حوار تأكد للفرس من خلاله ان اخطر ما يهدد نظامهم ليس التوحيد الديني الذي جاء به الاسلام، ولكن: المساواة بين الناس! .. بدأ رستم الحوار:

– انتم جيراننا، وقد كانت طائفة منكم في سلطاننا .. وكان لهم في ذلك معاش! .

– صدقت، لكن امرنا اليوم ليس كأمر اسلافنا، لقد بعث الله الينا رسولا، فدعانا فأجبناه .. وقال لنبيه، اني قد سلطت هذه الامة على من لم يؤمن بديني.

– وما هو هذا الدين؟

- شهادة ان لا اله الا الله، وان محمدا رسول الله، والاقرار بما جاء من عند الله.

- حسن! وأي شيء أيضا؟

- والناس، بنو آدم وحواء، سواء. اخوة لأب وام!

- اما هذه فان اهل فارس منذ ان تولى عليهم الملك أردشير وحتى اليوم لا يتركون احداً من طبقة السفلة يخرج من نطاق طبقته، وذلك حتى لا يعادوا الأشراف!..

- لكننا لا نستطيع ان نكون كما تقولون!..

وهنا دعا رستم رجالات فارس، فعرض عليهم الفكر الاجتماعي الذي يبشر به الاسلام في المساواة بين الناس، فهاجوا وماجوا.. وصمموا على القتال!..

وكما عبأ رستم أشراف الفرس وأغنياءهم عندما خوفهم من فكر الاسلام الاجتماعي.. أخذ سعد بن أبي وقاص في تعبئة جنده، بتذكيرهم بتاريخ قومهم مع الفرس فيما قبل الاسلام، وبما لهم من ثأر، وبما للعرب من تقاليد في الشجاعة والفداء لا يرقى اليها الفرس مهما حشدوا وأعدوا.. ولقد ألف للتعبئة فريقاً ضم أهل الرأي والنجدة والشعراء والخطباء.. فحدثوا الناس عن الاسلام الذي وحد العرب بعد التمزق والعداوات.. وعن المهمة التي تنتظرهم بفتح فارس كما فتح إخوانهم الشام.. وعن أن التنافس الحق والمشروع انما يكون في الجهاد.. وتحدث المؤرخون عن أن فريق التعبئة هذا كان يقرأ على الجند افكاراً صاغها وسماها «سورة الجهاد»!.. ففعلت فعلها في قلوب المقاتلين حتى زاد شوقهم للقاء الأعداء!..

«أيام» المعركة:

واشتعل القتال بين الفريقين في معركة ندر أن سجل مثيلا لها تاريخ العرب في الحروب والفتوحات.. ودام اشتعال القتل والقتال عدة أيام:

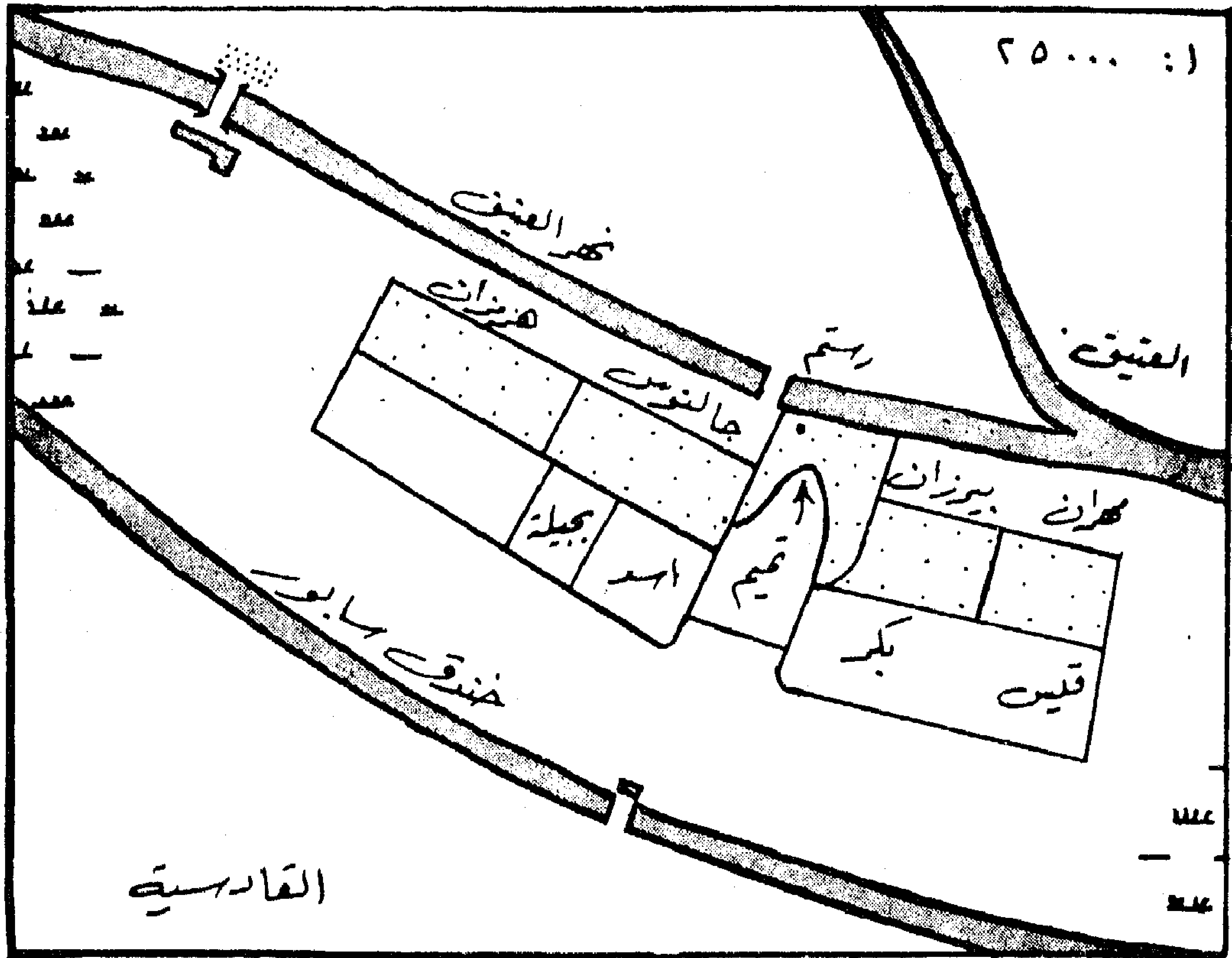
* ففي اليوم الأول - ويسميه المؤرخون (يوم أرماث) - هيأ سعد بن أبي وقاص جنده للقتال، بعد صلاة الظهر بنداء (الله أكبر).. كبر أربع مرات، وهم يرددون بعده التكبير.. وفي كل مرة يرفعون من درجة استعدادهم للقتال.. ولقد قال لهم: «إذا كبرت الرابعة شدوا النواجذ على الأضراس، واحملوا وازحفوا جميعاً حتى تخالطوا الأعداء»!.. ففعلوا، وبدأت المبارزة بين أبطال الفرسان..

وفي هذا اليوم لقى المسلمون من الفرس مكائد لم يتعودوها في القتال، وواجهتهم أسلحة لم تواجههم من قبل.. فالفرس قد زرعوا تحت أقدام خيل المسلمين المسامير!.. وربطوا خيلهم هم بعضها إلى بعض كي يمنعوها من الفرار!.. ثم دخلت الفيلة المعركة، على كل فيل تابوت به عشرون رجلا.. والخيل إذا رأت الفيلة، وقد توحشت من منظر الميدان وجو الحرب، أحجمت، ونفرت.. مما أدى إلى تفرق كتائب العرب الفرسان، حتى كادت بعض القبائل العربية - مثل بجيلة - أن تفني.. لكن سعد إبن أبي وقاص أسرع فأرسل من يتعلق بأذناب الفيلة، ويقطع أحزمة توابيتها، فسقطت التوابيت بمن فيها من الرجال، الأمر الذي أربك حركتها، وجعل يوم القتال الأول يمضي بخسارة في الصف العربي من الممكن تعويضها باستخلاص العبر والدروس!..

وحل الظلام، فتوقف القتال.. وكانت الليلة الأولى التي سماها المؤرخون (ليلة الهدأة) لهدوئها وخلوها من القتال!..

* وفي اليوم الثاني - ويسميه المؤرخون (يوم أغواث) - بدأ القتال منذ الصباح.. وكانت معركة للفرسان دامت حتى منتصف النهار، ثم زحف المشاة فالتحموا في القتال من منتصف النهار حتى منتصف الليل!.. وفي هذا اليوم دارت الدائرة على الفرس.. فالفيلة لم تشارك في القتال، لأنهم كانوا لا يزالون يصلحون لها التوابيت التي حطمها العرب بالأمس.. وأكثر من هذا فلقد ابتكر العرب سلاحا يشبه الفيلة! وذلك عندما صنعوا «هوادج» حملوها على ظهور الابل، وألبسوها كسوة مجللة مبرقعة، وحملوا على كل واحد منها عشرة رجال، وانطلقت هذه الابل بين صفوف الخيل الفارسية، فكانت تنفر منها الخيل، وتحاول الهرب من السلاح، فتحدث في صفوف فرسان الفرس من الارتباك أعظم مما أحدثته بالأمس الفيلة في صفوف الفرسان المسلمين!.

ولم تكن ليلة ذلك اليوم هادئة كيوم أرماث، بل كانت حافلة بالقتال.. ولذلك سماها المؤرخون «ليلة السواد»!.. وكانت حصيلة (يوم أغواث) قتل جمهور كبير من أعلام المقاتلين والفرسان في الجيش الفارسي.. حتى لقد بلغ



القادسية

قتلاهم وجرحاهم فيه عشرة آلاف ! ..

* وفي اليوم الثالث – ويسميه المؤرخون (يوم عماس) – استعد الفريقان للقتال، وكانت الأرض بين الصفين المتحفزين قد اصطبغت بالدم في مسافة بلغت الميل في الطول ! وقال المؤرخون عن لونها أنه « كالرجلة الحمراء » ! ..

وبدأ القتال .. وأبصر المسلمون مدداً يأتيهم من إخوانهم الذين انتصروا على الروم في الشام .. وكان المدد يصل إلى أرض المعركة على دفعات .. مائة بعد مائة، فيشتد أزرهم، وتقوى عزيمتهم، وتزيد في النصر الآمال ..

وكان الفرس قد أصلحوا توابيت الفيلة، وجاءوا بها إلى ساحة القتال، لكنهم أحاطوها بالحراس الذين يحرسون أحزمة توابيتها، ولقد أدى وجود هؤلاء الحراس من حول الفيلة إلى شل غرائزها المتوحشة لحرمانها من الانفراد والانطلاق، فضعفت فاعليتها في إرباك فرسان المسلمين .. وكان سعد بن أبي وقاص قد استعلم من الفرس الذين أسلموا وانضموا إلى الجيش العربي عن أنجح السبل في كسر شوكة الفيلة في القتال، فأخبروه أن مقاتل الفيلة في العيون والأشفار، فاختار من المقاتلين المهرة من اقتحم الميدان، فطعن الفيلين اللذين كانا يقودان باقي الفيلة في عيونهما وقطع مشافرهما، ففرا مسرعين، واخترقا صفوف الفرس، ومن خلفهما كل الفيلة، فأحدثوا ارتباكا شديداً في صفوف الأعداء ! .. ولم تتوقف الفيلة الهاربة إلا في عاصمة الفرس : (المدائن) ! .

وانتهى (يوم عماس) بتكافؤ الفريقين في نتائج القتال .

* ثم كانت (ليلة الهرير) .. وهي التي أعقبت (يوم عماس) – وفيها تصاعد القتال إلى ذروة لم يصل إليها من قبل .. حتى ليحكي المؤرخون أن صليل حديد آلات القتال وسيوفه

قد حاكى صوت صناع الأدوات الحديدية - (القيون - الحدادين) ! - وقاتل الجيشان حتى الصباح .. واستغرق الجنود في القتال حتى لقد منعهم عن الكلام، وحل محل الكلام عندهم : الصوت الزاجر الذي يحاكي زئير الأسود .. والعرب تسميه « الهرير » ، ولذلك سموها (ليلة الهرير) ! .. ولقد بلغ تلاحم الجيشين في القتال إلى الحد الذي خفيت فيه معالم سير المعركة عن كل من رستم وسعد بن أبي وقاص .. حتى كان الصباح فعلم سعد أن كفة المسلمين كانت الأرجح على كفة الأعداء ! ..

* وأخيراً .. كان (يوم القادسية) .. ولم يفصل بين بدء القتال فيه وانتهائه في (ليلة الهرير) سوى ساعة، استراح فيها المقاتلون، وتهيأوا لاستئناف القتال ! .. فلما كانت ساعة الظهر من هذا اليوم أصبح النصر في متناول العرب، فشقوا قلب الجيش الفارسي، ووصل فرسانهم إلى حيث خيمة القائد رستم، وكانت الريح العاصفة قد دخلت الحرب هي الأخرى، فهبت واقتلعت الخيمة ! .. وحاول رستم الفرار، فألقى بنفسه في نهر العتيق، فطارده الفارس العربي هلال بن علفة، فأمسك به، وقتله .. ثم صعد على سريره الذهبي وصاح : قتلت رستم ورب الكعبة ! .. فكبر المسلمون، شكراً لله وفرحا بالنصر، وحملوا السرير وطافوا بفارسهم الذي قتل قائد الجيش الامبراطوري، بينما كانت فلول الجيش الفارسي تعبر النهر هرباً، يقودها ملك من ملوكهم اسمه « الجالينوس » ، مخلفة وراءها عشرة آلاف قتيل جديد ! ..

وكان يوم القادسية هذا يوم الحسم في المواجهة التي دارت على تلك الأرض بين دولة اقطاعية ذات نظام طبقي ظالم وفكر مثقل بالكهنوت والاستغلال، وبين أمة شابة، خرجت جيوشها لتحرر الأرض والانسان، ولتجدد شباب الدنيا بعدالة الاسلام ومساواته وفكره الديني المتسامح والبسيط.

وبعد نصر القادسية هذا انفتحت أبواب فارس، مدينة بعد مدينة وحصناً وراء حصن، أمام العرب، فتحوا (حلوان) .. و (المدائن) - عاصمة الفرس - ثم (جلولاء) .. وكلها مدن عربية، في العراق العربي .. حرروها بعد أن ظلت في الأسر الفارسي عدة قرون ! ..

ولقد تغيرت بهذا النصر في القادسية - ومن قبله بنصر « اليرموك » في الشام - صورة الأمم ومراكز الشعوب في الشرق .. فمن قبلهما كان العرب مستضعفين تفترسهم المخاطر والتحديات، وكانوا يقولون - كما يحكي المؤرخون - عن فارس : « فارس الأسد » وعن الروم : « الروم الأسد » ! أما بعد هذا النصر فلقد قالوا عن عرب ربيعة - الذين أبلوا في القادسية أحسن البلاء - : « ربيعة الأسد » ؟! .. فحدث التحول في مكانة العرب في التاريخ، وأصبحت لهم القيادة في الشرق بدلا من الفرس والروم ! ..

صور خالدة من المعارك :

ولقد كانت ليوم القاسية صوره التي ذهبت نماذج في البطولات والفداء ..

* فالفارس العربي « أبو محجن الثقفي » كان معدوداً ومبرزاً بين الفرسان .. ولكنه كان عاشقاً للخمر، يشربها، رغم تحريمها في الاسلام ! .. ولقد نفاه عمر بن الخطاب من المدينة لشربه الخمر .. ثم التحق بجيش القادسية كي يشارك في القتال .. ولكنه عاد فشرب الخمر هناك، فغضب منه سعد بن أبي وقاص، وضربه، وحبسه في قصره - « قصر العذيب » - فلما اشتعل القتال، وحميت المعركة، أبصر أبو محجن، من محبسه، ما يلاقي المسلمون من تفوق الفرس في العدة والعتاد، فتاقت نفسه للجهاد، فتوسل إلى « زبراء » زوجة سعد بن أبي وقاص أن تطلق سراحه، وتعطيه فرس سعد كي يشارك في القتال، وأقسم لها أنه سيعود بعد أداء دوره كي يضع قدميه في الحديد من جديد ! .. واستجابت « زبراء » لطلبه، فاخترق أبو محجن صفوف الفرس، وقاتل قتال الأبطال، وحطم الفيل الأبيض الذي كان يقود الفيلة التي تحدث الارتباك في صفوف الفرسان المسلمين .. ورآه سعد بن أبي وقاص من موقع قيادته، وتساءل، حائراً : من هذا الفارس؟ ثم قال : أما الفرس ففرسي، وأما الحملة فحملة أبي محجن ؟! .. وبعد المعركة وجد سعد أبا محجن في محبسه وقيده، لكن زوجته قصت عليه القصة، فقال لأبي محجن : والله لا ضربتك في الخمر، بعد ما رأيت منك، أبداً ! .. فأجابه أبو محجن : وأنا، والله لن أشربها أبد ؟! ..

* وشهدت ساحة القتال كثيراً من المقاتلين والفرسان يعرضون نفوسهم على الموت، ويلحون الحاحاً شديداً في طلب الشهادة، وهم في خلال

ذلك ينجزون أخطر المهام ويصنعون في الحرب المعجزات !.. فأكثر من فارس قد اخترق صفوف الفرس وحواجزهم طالبا خيمة القائد رستم كي يجهز عليه .. و « علياء بن جحش العجلي » يتقدم كي يبارز من أبطال الفرس ، فيصيب كل منهما آخر.. ويموت الفارسي من فوره ، لأن الطعنة قد أصابت رئته .. ويجاهد البطل ليدخل أمعاءه إلى بطنه فلا يستطيع ، فيستعين على ذلك بأحد المسلمين ! ، ثم يمسك جلد بطنه باحدى يديه وسيفه بالأخرى ، وبدلا من أن يرجع إلى صفوف المسلمين يتقدم كي يقاتل الأعداء !.. ثم يموت وهو ينشد متحدثاً عن الطعنة التي يعاني منها :

أرجو بها من ربنا ثوابا
قد كنت ممن أحسن الضرابا !..

* والمؤذن .. يقف على مرتفع من الأرض ليؤذن لصلاة الظهر فتصيبه الأعداء !.. لكن المسلمين ، بدلا من أن يستخفوا بالأذان ، يتسابقون كل منهم يريد أن يصعد إلى المكان المرتفع كي يتحدى سهام الفرس ويؤذن للصلاة !. حتى لقد أوشكوا ، من التنافس على ذلك ، أن يقتتلوا بالسيوف !.. ولم يجد سعد بن أبي وقاص غير «القرعة» سبيلا يختار بها من بينهم من له شرف الأذان للصلاة ، تحت مرمى سهام الأعداء !..

* والمرأة العربية .. لقد كان لها في القادسية دور كبير.. فسلمى بنت خصفة كانت زوجة للقائد المثنى بن حارثة الشيباني .. فلما مات تزوجها سعد بن أبي وقاص .. فوقفت إلى جواره وهو يقود المعركة .. وعندما رأت كفة الفرس قد رجحت - في بعض مراحل القتال - أخذت تستفز سعداً ، وتحرضه ، بل وتتحدث عن شجاعة المثنى التي تفتقدها فيه ؟!..

وهذه المرأة العجوز، من بني النخع ، خرجت مع أبنائها الأربعة إلى ساحة القتال .. فحدثتهم عن اسلامهم الصادق ، وهجرتهم المخلصة .. وقالت لهم : إنهم خرجوا للجهاد ، ولم يخرجوا لجمع المال كما يفعل الجياع ، وأنهم بعد أن وضعوها - وهي العجوز - بين يدي أهل فارس ، فلا بد أن يقاتلوا قتال الأبطال الجديرين بأمومتها : « .. ما خنت أباكم ، ولا فضحت خالكم !.. انطلقوا فاشهدوا القتال وشاركوا فيه من أوله حتى آخره !..»..

وعندما كان يغيب عنها أولادها لم تكن تجزع ، وإنما كانت تتوجه إلى الله بالدعاء : «اللهم ادفع الخطر عن بني !».. وكان الفرسان الأربعة يعودون إلى أمهم بنصيبهم من الغنائم فيلقونه في حجرها ، فتقسمه بينهم على نحو يرضي عنه ويسعد به الجميع !..

وبين جولات القتال ، وفي فترات الهدوء على ساحته كانت النساء العربيات ، ومعهن الصبيان يشدون الأحزمة على الثياب ، وتحمل النساء الهراوات ، ويحمل الصبيان أواني الجلد الصغيرة - (الأداوي) - المليئة بالمياه ، ثم ينزلون جميعاً إلى ساحة المعركة .. الصبية يسقون جرحى المسلمين ، والنساء ينقلن هؤلاء الجرحى لتمريضهم ومداواة جراحهم .. ثم يجمعون جثث الشهداء ويحفرون لها القبور ويوارونها التراب .

* * *

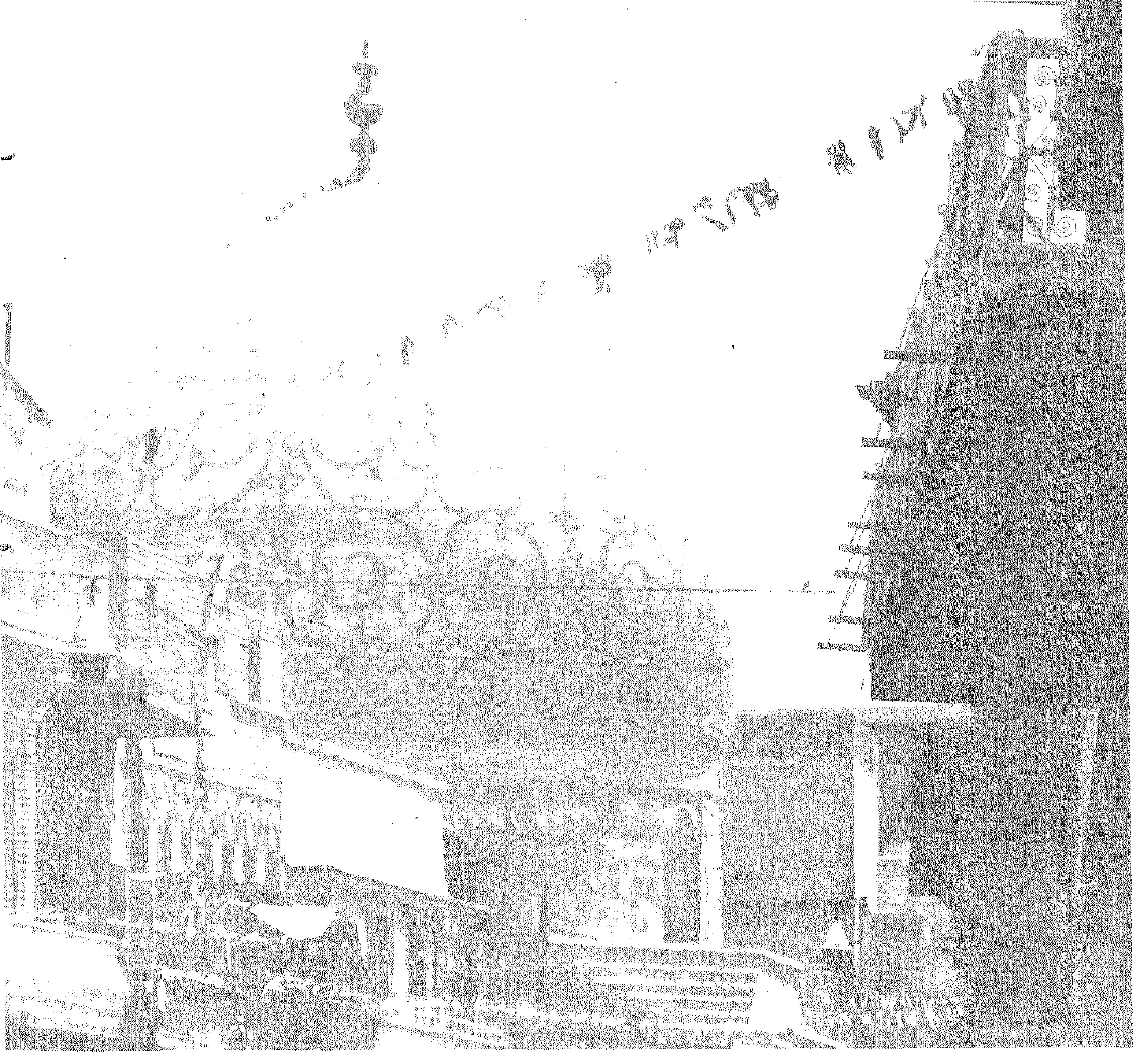
وأخيراً وصل البشير بأخبار نصر القادسية إلى عمر بن الخطاب فحمد الله على أن فتح للعرب باب فارس المنيع الخصيب !..

ووصلت الاخبار نفسها إلى يزدجرد بن شهريار، في (المدائن) ، فقرر الهرب ، فدلوه من قصره ، سرأ ، في « زبيل » - (قفة) - حتى سماه الناس « برزبيلا » ! - فهرب ومعه أمواله وأهله وكبار رجالات دولته !.. ذلك أن باب القادسية قد فتح أمام العرب كل الأبواب .. حتى لقد قال الفرس بعضهم لبعض عندما أبصروا خيل العرب تسبح الأنهار وتصعد الجبال : « والله ما تقاتلون إلا جناً ! » فانهزموا - بالرعب - بعد أن انهزموا بالقتال !..

وكان لا بد أن ينهزموا بعد أن واجهوا في القادسية فرسانا ومقاتلين أصبحت الشهادة عندهم أحب من الحياة ، حتى لقد غدوا يلحون في السعي للاستشهاد ، بل ويودون أن لو كانت لهم أجنحة الطيور لتسرع بهم إلى لقاء الأعداء ..

تحن بباب القادسية ناقتي
وسعد بن وقاص على أمير
تذكر، هداك الله ، وقع سيوفنا
بباب قديس والمكر عسير
عشية ود القوم لو أن بعضهم
يعار جناحي طائر فيطير!

■



تأسيس بغداد

د. سهيل زكار

استاذ التاريخ الاسلامي في جامعة دمشق.

تاريخ العرب والعالم - ٢٠

تاريخ الاسلام: تاريخ المدن:

يخيل لكثير من النـــاس ان الدين الاسلامي – بمحكم قيامه في شمال شبه جزيرة العـرب هو دين بدوي، يصلح لحياة البداوة، وان الرسـول محمداكان نصف بدوي. إن هذا الكلام ليس له اية قيمة علمية، لأن الاسلام نشأ أولا في مدينة مكة حيث ولد الرسول وعاش حياتــه الأولى إنسانا عاديا ثم نبيا، وحين ترك مكة هاجر إلى المدينة «يثـرب» وهنـاك أقـام نواة الأمـة الاسلامية، وأسس أول دولة في تاريخ الاسلام، كانت أول دولة ذات نظام مركزي في تاريخ عرب شمال شبه الجزيرة، كما أن الذين تحملوا اعباء نشر الاسلام وتوسيع رقعة دولته كانوا جميعا من أهل العراقة في سكنى المدن، ومن ينظر إلى العبادات وما يرتبط بها في الاسلام، يحكم بان هذا الدين دين مجتمعات مستقرة، وحين يتفحص المرء تاريخ الاسلام يجد ان هذا التاريخ قد صنع داخل عدد من المدن، وكانت صلاته بالأرياف ضعيفة، وربما كانـت هذه احدى الثغرات الكبيرة فيه، فتاريخ بني أمية مثلا يجعلنا مربوطين إلى عدة مدن: كالكوفة والبصرة، والفسطاط والقيروان ودمشق، وتاريخ الدولة العباسية هو في كثيرمن جوانبه تاريخ لمدينة بغداد، وحـين انحـل عقـد الدولـة العباسية، صار تاريخ الدول التي انفصلت عنها هو تاريخ المدن التي صارت مراكز لها، مثل غزنة والقاهرة وحلب والموصل.

وفي المدن وجدت مراكز الادارة والأسواق والمصانع وفيها وجدت ايضا المساجـد ودور الثقافة والتعليم.

وقد كان للفتوحات الاسلامية، نتائج هامة على أحوال المدن، فقد رفعت هذه الفتوحات من شأن عدد من المدن القديمة، بينما انخفضت قيمة بعض المدن الأخرى، ففي بلاد الشام على سبيل المثال – علا شأن دمشق وقلت قيمة القدس وأنطاكية، كما تحولت حلب من مدينة ثانوية إلى مدينة بالغة الأهمية.

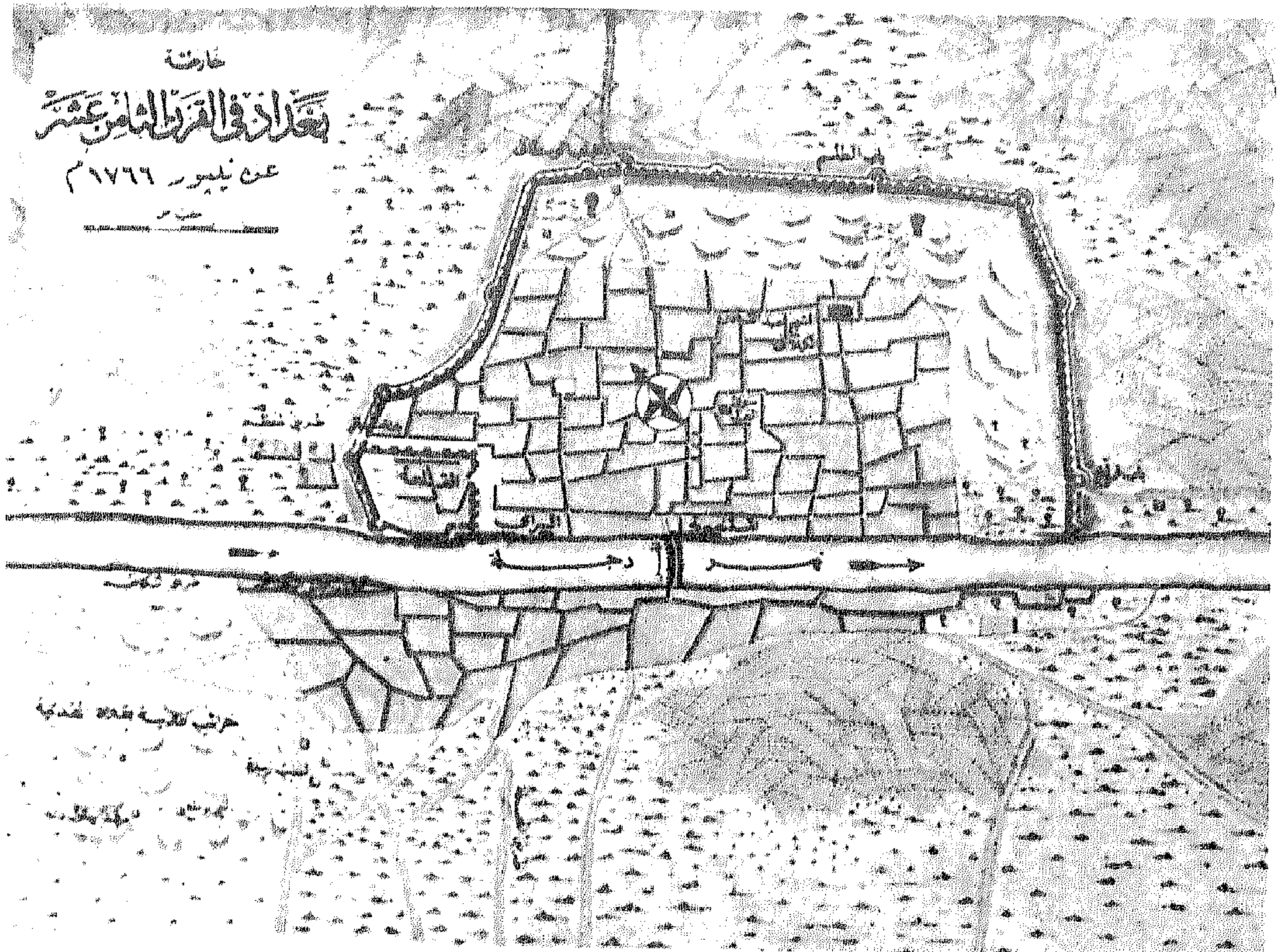
وحـين سكن المسلمـون في بعض المدن القديمة، فعلوا ذلك مع مواشيهم وخيولهم، هذا ولا نعلم بشكل مؤكد كيف تمت سكنى العرب الفاتحين في المدن القديمة: هل نزلـوا على السكان القدامى وشاركوهم بيوتهم، ام اتخذوا احياء خاصة بهم أخليت لهم، أم الحالتين معا؟

لكن مهما كان الحال فان سكناهم واستمرار هجرتهم من شبه الجزيرة سبباكتظاظا شديداً في المدن، ذلك أن المدن القديمة كانت محدودة الرقعة لأنها كانت محاطة بالأسوار، وفي هذه المدن لا نعرف هل توفرت أنواع من الخدمات البلدية أم انعدمت، لكن الذي نعرفــه من المصادر أن أحوال المدن الصحية كانت رديئة، وتاريخ بلاد الشام في العصر الأموي فيه الكثير من أخبار موجات الأوبئة، وقد ظلت الأوبئة تجتاح المدن والأقاليم الاسلامية لفترات طويلة.

ونظراً لاكتظاظ المدن، ولأن معظم السكان من العرب كانوا جنداً يتغيبون في المغـازي ولأسباب أخرى بشرية وعقائدية فقد تعرضت المدن الى مشاكل اجتماعية كثيرة كان يصعب حل بعضها، ومما تجدر ملاحظتــه في هذا الصـدد ان الدراسـات الاجتماعيـة، وكذا الاقتصادية لم تأخذ مكانها بعد بشكل مخصص ومتعمق في نتاج الدراسات التاريخية القائمة لماضي الاسلام والعرب. وعلى الرغم من بالغ اهمية دور المدينة في صنع التاريخ الاسلامي، لم يعرف العرب ولا المسلمون شرائع وقوانين خاصة تتعلق بسكنى المدن، كما لم يعرفوا حقوق المدينة، ولم يقم في تاريخ العرب حكم دول المدن، كما حدث في تاريخ روما ومدن اليونان.

وكانت المدينة في تاريخ الاسـلام ثكنـة للجيش، ومقرا للحكومـة، ومـركزاً للنشـاط الاقتصادي، ورغم أن عدد المدن التي أقيمت في تاريخ الاسلام كبيرة فنادرا ما حملت إحداها اسم بانيها، كما انها لم تحو مراكز عامة كالمسارح والساحات العامة، وأمـاكن اللهـو والنزهة، أو الشوارع العريضـة المستقيمـة، وكانت البيوت متلاصقة في البناء، لذلك كان وقوع اي حريق في بيت من البيوت يسبب كوارث كبيرة ذلك أن الحريق كان ينتقل من مكان إلى آخر بسهولة.

وتم انشاء المدن الجديـدة في البدايـة كمعسكرات للجند الذين كانوا ينتسبون إلى عدد من العشائر والقبائل، وكانت هندسـة هذه المعسكرات تشابه مضارب البدو مربعة الشكل ومتلاصقـة البيـوت، وحـين تحولـت هذه المعسكرات إلى مدن تحولت بيوت الشعر والخيم إلى بيوت في غاية البساطة، وكانت البيوت بلا ابواب، مسقوفة بجذوع النخل أو القصـب،



خارطة بغداد القديمة في القرن الثامن عشر مأخوذة من نيبهور

مفروشة الأرض بالرمال، وكان سكان المدن الجديدة من المقاتلة، غالبيتهم أهل ديوان يأخذون رواتب سنوية بين ٢٠٠ – ٢٥٠٠ درهم.

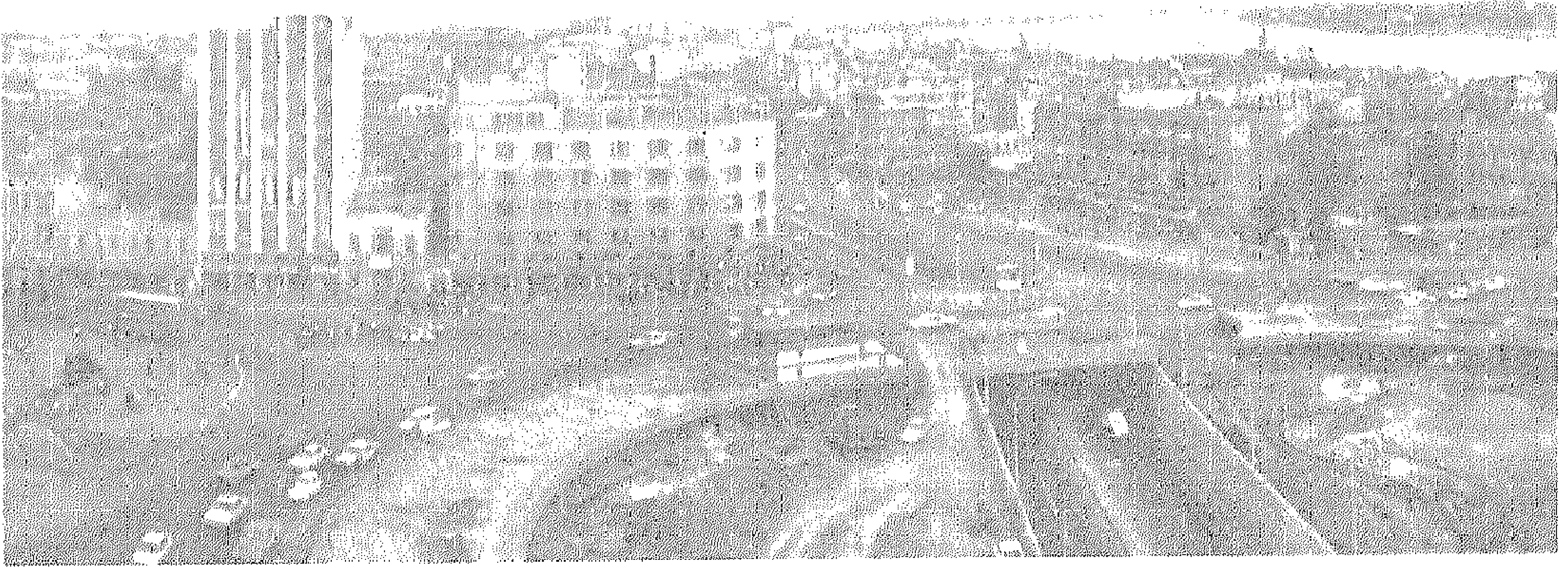
بناء بغداد:

والآن بعد هذه المقدمة الموجزة، التي كان لا بد منها سنشرع في الحديث عن بناء بغداد:

قيل لرجل: كيف رأيت بغداد؟ قال: الأرض كلها بادية، وبغداد حاضرها، ووصف بعض الأدباء بغداد فقال: هي سهلية جبلية برية بحرية، صيدها غزير، وخيرها كثير، طيب هواؤها، دائم رخاؤها وفضلها على سائر البلدان كفضل ماء الأنهار على ماء البحار... هي محل الخلفاء ومسكن الوزراء، ومأوى بني هاشم والأبناء، ومقرهم ودارهم في الشدائد والرخاء، الواسعة الدور، الكثيرة القصور، الغزيرة الأنهار، المرية العيون، صحيحة البناء، رحبة الفناء، نزهة الهواء، رفيقة بالغرباء، مواتية لكل من أتاها، مغيثة لمن استغاث بها، قديمة الصحبة، طيبة التربة، مسكن من تغنى، ومعقل من تنسك، بناها المنصور، وسكنها المهدي والهادي والرشيد والأمين والمأمون، جنة من جنات الدنيا، دجلة في وسطها، الفرات عن يمينها، ونهر الملك أمامها، ونهر عيسى مفترق لها، ونهر كرخايا يتخلل طرقاتها، ونهر الخندق دائر بها، قد جمع الله فيها ما فرقه في غيرها من البلدان من أنواع التجارات وأصناف الصناعات.

* * *

حين اتخذ العباسيون من العراق مقراً لدولتهم أخذوا يبحثون عن عاصمة لهذه الدولة، رغم ان العراق كان فيه عدد كبير من المدن مثل الكوفة، والمدائن والبصرة والأنبار فلقد رأى العباسيون ان أياً من هذه المدن لا يصلح ان يكون مقراً لدولتهم وعاصمة، ذلك ان البصرة، لا تملك الموقع المناسب، وهي منذ معركة الجمل قد أخذت صفة الانحياز للعثمانية – عثمان بن عفان – والكوفة كانت مقراً لعلي بن أبي طالب



بغداد الحديثة

وعاصمة له ، وصبغت دائماً بالصبغة الشيعية ، فهي على هذا معادية للعباسيين وريثة لعدد لا يحصى من المشاكل ، وكانت المدائن عاصمة الامبراطورية الساسانية قبل سقوطها ، وقد أنقص الفتح العربي من قيمتها ، ثم ان سكانها كانوا من الفرس ، ولقد اتخذ العباسيون في البداية الأنبار عاصمة لكن لفترة قصيرة حيث تبين أنها غير صالحة لتكون عاصمة دائمة .

ويلاحظ أن العباسيين منذ ان قامت دولتهم أخذوا في البحث عن موقع مناسب لاتخاذه عاصمة ، فهذا السفاح يختار لفترة من الزمن موقعاً قرب واسط عاصمة العراق منذ أيام الحجاج ، وقد بنى في هذا الموقع مدينة دعاها بالهاشمية ، لكن رغم هذه التسمية ظلت المنطقة تحمل اسم واسط القصب ، أو واسط الحجاج .

وفكرة التدوير في البناء والمدن ليست جديدة في حد ذاتها ، إنما هي جديدة في تاريخ الاسلام ، والحقيقة ان بغداد لا تنفرد بخطتها في التدوير ، إنما تمتاز بكونها أول مدينة تنشأ في الاسلام حسب خطة مدروسة مسبقة ، خلافاً للمدن التي أسست قبلها ، والتي كانت بداياتها معسكرات جند ثم تحولت إلى مدن ثابتة .

أمر المنصور بجمع مواد البناء من كافة مناطق دولته ، كما أمر بحشر رجال البناء والمهندسين وذوي الشهرة من شخصيات دولته حتى يقوموا بالاشراف على العمل ويشاركوا فيه ، ويروى بأن أبا حنيفة الفقيه المشهور ، مؤسس المذهب الحنفي كان بين هؤلاء ، وأمر المنصور بتسوية الأرض التي اختارها ، ثم وقف في وسطها «وأمر أن يوتد هناك وتد ، وأخذ حبلاً فمده على المقدار الذي اراد أن تكون استدارتها ، ثم أمر بطرح الرماد فطرح ، ثم نقص من مقداره أربعين ذراعاً ثم أدار خطاً آخر ، وجعل بين الخطين الخندق ، وجعل فتحته أربعين ذراعاً ، ثم عمل السور الذي خلف الفصيل وعرضه من أسفله ثمانية عشر ذراعاً وعرض أعلاه ستة أذرع ، وجعل على ذراع منه مما يلي الخندق الشرفات ، فصار الباقي خمسة أذرع ، ويمشي عليه الناس»

وهذا يعني ان المنصور خطط أولاً لخندق

وعندما فرغ من رسم العلامات على الأرض بذر الرماد، أمر بالنفط فصب على الرماد، وعندما حل المساء، أمر بالنار فطرحت، وعندما التهبت جميع الأماكن استطاع المنصور أن يتخيل مدينته وهي مبنية وقبل ان يضع حجر الأساس، أمر فأخذ له طالع المدينة، وكان مشجعاً للغاية.

وحين ننظر إلى خطة المنصور، نجدانها كانت خالية من الأسواق والأماكن العامة والحدائق وغير ذلك، وسيكون لهذا أثره على تطور المدينة فيما بعد.

وجعل المنصور لمدينته أربع بوابات كانت: باب خراسان، وباب الكوفة، وباب الشام، وباب البصرة، وشرع في العمل في بناء المدينة سنة ١٤٥هـ / ٧٦٢ م، لكنه اضطر إلى ايقاف العمل فيها بسبب خروج محمد النفس الزكية وأخيه ابراهيم عليه، وبعدما قضى على ثورتيهما، استأنف العمل في المدينة، وبعد سنة وثمانية أشهر أنجزت أعمال البناء، ويروى انه أنفق عليها ١٨ مليون درهم.

وبعدما وصل المنصور إلى سدة الخلافة قرر بناء عاصمة جديدة للدولة في موقع ينبغي ان تتوفر فيه الصفات التالية:

١ – الشروط الصحية

٢ – الصفات الاستراتيجية العسكرية والاقتصادية والزراعية والتجارية.

٣ – اتساع الرقعة وانبساطها.

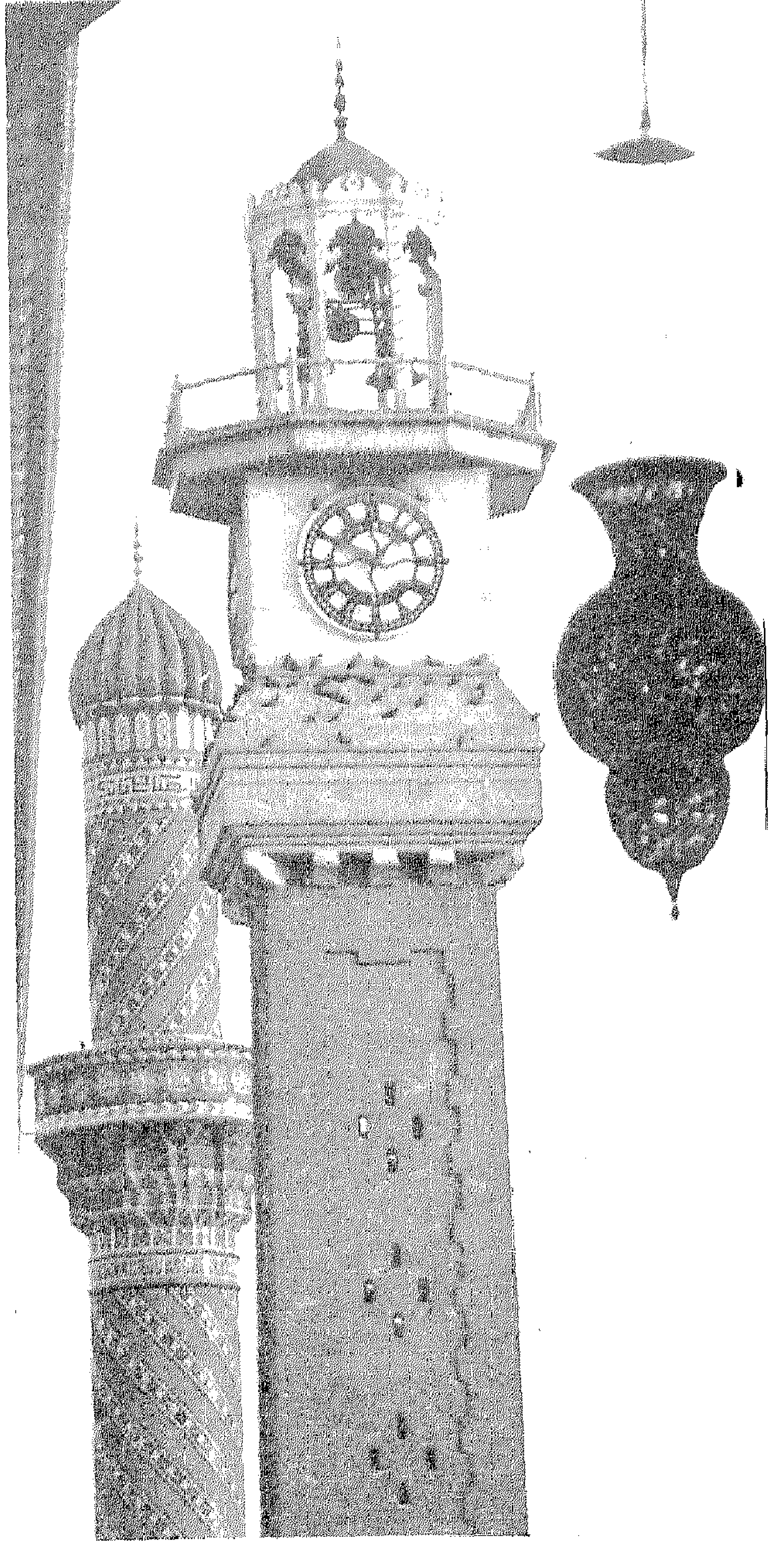
٤ – القرب من الماء.

٥ – سكان كثر وموارد كافية.

٦ – يمكن الوصول إليه بالبر والماء

٧ – صالحاً لاقامة نواة الأمة العباسية الاسلامية، وذلك بان يكون جديداً غير مسكون من قبل.

وأخذ المنصور يرتاد المواقع في العراق، وينتقل من مكان إلى آخر، وأخيراً وفق بالوصول إلى مبتغاه فحين كان مسافراً بين الكوفة والمدائن، بات ليلته في أحد المواقع فأعجبه، وسأل عنه، وسأل عن الأرض وهوائها ومناخها فتلقى من الأجوبة ما شجعه، وجعل يعزم على اختيار ذلك الموقع، فقرر اقامة مدينته الجديدة هناك، وكان ذلك الموقع يعرف باسم بغداد، أي «هبة الله» كما جاء عند ابن الفقيه الهمذاني، وهذا الموقع كان معروفاً منذ ما قبل الاسلام، حيث وجدت فيه بعض القرى والديارات، وقد ورد ذكره في



المئذنة والجرس ... معاً

عرضه اربعون ذراعاً، وجاء على طرف الخندق سور، ثم جعل خلف السور فيصل، اي سور عريض قليل الارتفاع، ثم سور ثالث، ثم خطط لأبنية المدينة، وخطط في الساحة الباقية لقصره ومسجده، وترك حولهما ساحة فارغة تفصل بينهما وبين أبنية المدينة الأخرى.

أخبار الفتوح، حيث هاجمه المثنى بن حارثة الشيباني أيام أبي بكر الصديق.

وبعدما قرر المنصور بناء مدينته في موقع بغداد رأى من الضرورة الشروع أولا بوضع خطة لبناء المدينة وبعد اعتماد الخطة استجلاب المهندسين ورجال البناء والعمال ومواد البناء والأثاث.

يبدو أن المنصور هو الذي وضع خطة مدينته وقام المهندسون بتنفيذ ارادته، ولعل هذه القاعدة قد قامت أثناء بناء غالبية المدن الاسلامية، اي ان وظيفة المهندسين كانت تنفيذية ولم تكن تخطيطية.

لقد أراد المنصور مدينته أن تكون مدورة، وذلك ليسهل الدفاع عنها، فهو كان يخطط لبناء مدينة يسكنها هو ورجال ادارة دولته وقيل أن مرد ذلك إلى وراثة عن الساسانيين، وقيل ايضاً غير ذلك، وإنما ذلك كله غير مقنع تماماً، ويبدو أن سبب التدوير كان سبباً عقائدياً دينياً بحتاً، فالمنصور كان يرى نفسه خليفة الله في أرضه وظله، وإماماً للمسلمين، تدور حوله أمور حياتهم ودينهم ودنياهم، كما كان من السائد في عصره أفكار جغرافية فيها أن الأرض تقسم إلى سبعة اقاليم أفضلها الاقليم الرابع والعراق ليس من الاقليم الرابع فقط، بل أرض بابل منه، حيث موقع بغداد، في القلب، وأرض بابل بالنسبة للأرض مثل السرة بالنسبة للجسد.

وجاءت مدينة المنصور هذه على الطرف الغربي لنهر دجلة لكن بعيداً عن شاطئ النهر نفسه، وجعل المنصور لقصره قبة عالية خضراء كانت تشاهد من بعد وجعل في أعلاها فارساً بيده رمح يشير به إلى اتجاه الرياح، وقد انهارت هذه القبة مع انهيار حكم الخلفاء، فانهار بانهيارها مجد بني العباس.

لا شك ان أعمال البناء قد استغرقت وقتاً طويلا، كما ان عدد العمال الذين استخدموا جاوز المئة ألف عامل، ولا شك أن المواد الأولية التي استخدمت كانت كثيرة، كما أنه قد أقيمت معامل لانتاج مواد البناء. وكان هناك حاجة إلى مساكن للعمال وأسواق، كما وجدت حاجة لوجود رجال ادارة مع حامية كبيرة من الجند تسهر على الأمن وتقوم بحراسة المواد الأولية، وتشرف على تنفيذ أعمال البناء، وطبعاً كان هناك معسكر لهذه الحامية.

ومن هنا نلاحظ انه في الوقت الذي كانت تبنى فيه مدينة رسمية للمنصور بني على الأقل مدينتان غير رسميتان، واحدة للعمال والثانية للجند، ويبدو ان العمال سكنوا في منطقة عرفت بالكرخ، كما سكن الجند في منطقة أكثر رقياً عرفت بالحربية، هذا وعندما تتطور بغداد سيكون للكرخ دور كبير في تاريخ الحركات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والدينية المتطرفة في بغداد. ولم يمنح المنصور المدينة الجديدة اسمه بل سماها دار السلام، وهي تسمية مشتقة من أسماء الجنة وصفاتها، لكن رغم هذا فقد غلب عليها اسمها القديم «بغداد» وبعد فترة من الزمن اضطر المنصور إلى جلب المياه إلى مدينته، كما أخذ الناس يبنون على طرف النهر الغربي ثم قطعوه إلى الطرف الشرقي. هذا ومن يتتبع تطور بغداد يجد أن هذا التطور قد خالف السنن المعروفة في توسع المدن وتطورها، فالمدن تتوسع من الداخل إلى الخارج، أو من المركز إلى الأطراف، أما بغداد فقد توسعت من الخارج نحو الداخل.

لقد سكنت بغداد حين أقيمت من قبل عناصر من مختلف مناطق الدولة، وعلى هذا تم في بغداد صنع نواة مجتمع جديد طالما نشد العباسيون إقامته أثناء إعدادهم لثورتهم، ولا شك أن نجاح المنصور في إقامة مدينته بسرعة وجدارة يدل على ضخامة طاقات دولته، وعلى انها ملكت ادارة راقية وذات كفاءة. ■

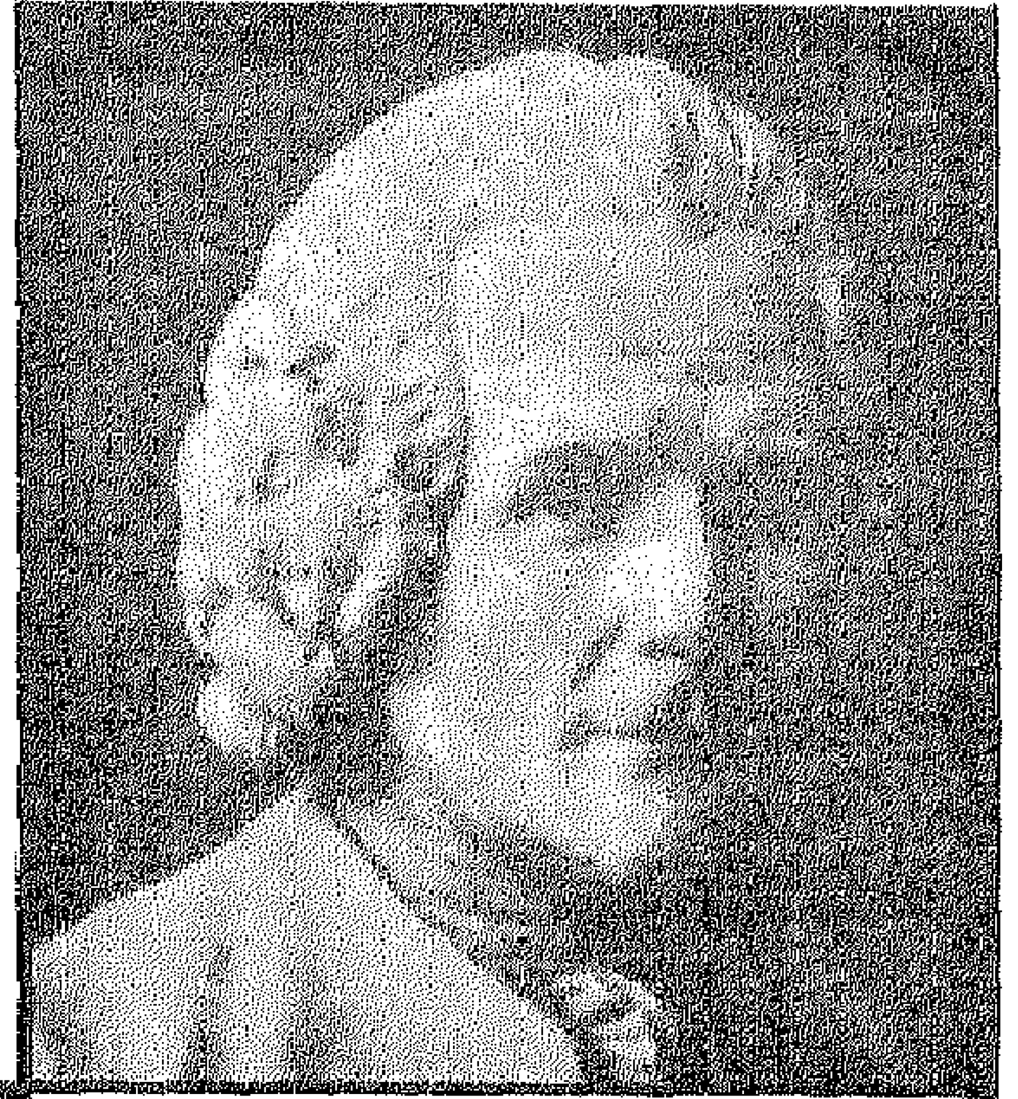


● دعني اضع للبلاد أغانيها ولا يهمني بعد ذلك من يضع لها قوانينها.

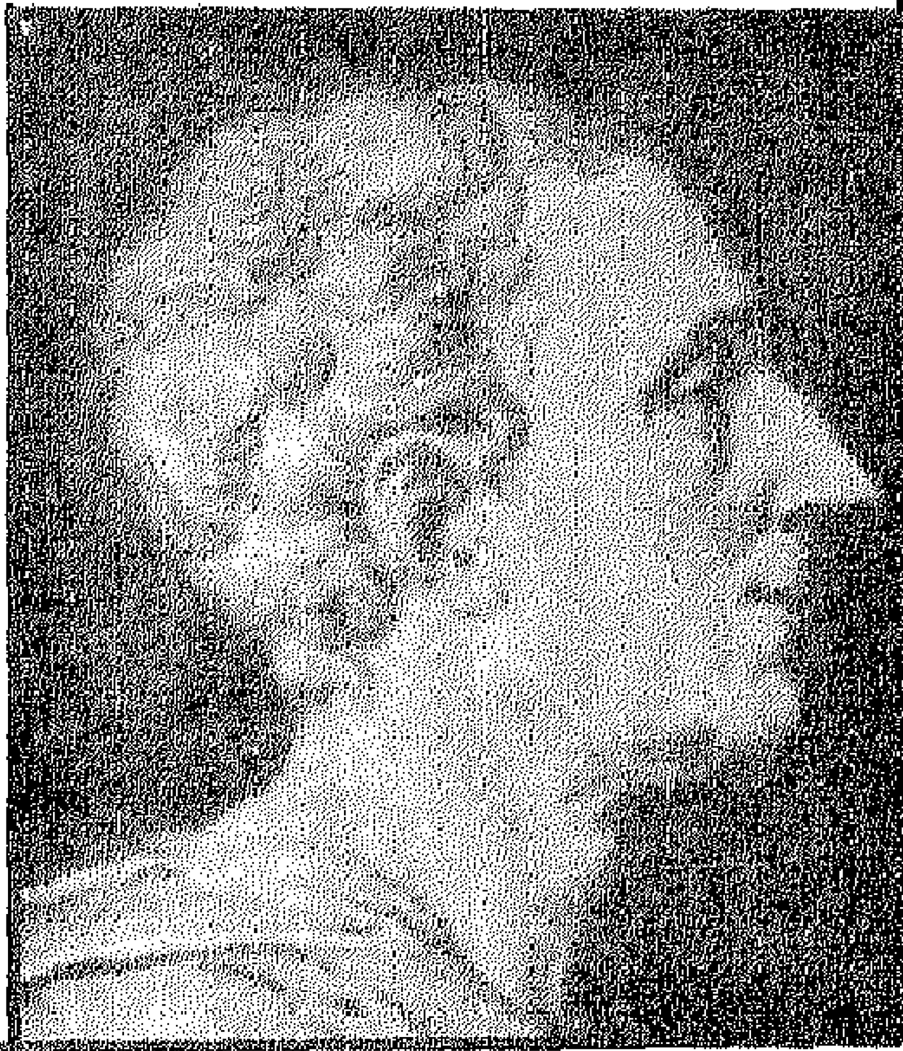
حكمة قديمة

فلسفة التنوير

تحديد شروط العلاقة بين الحاكم والمحكوم في القرن الثامن عشر


روسو

د. محمد مخزوم

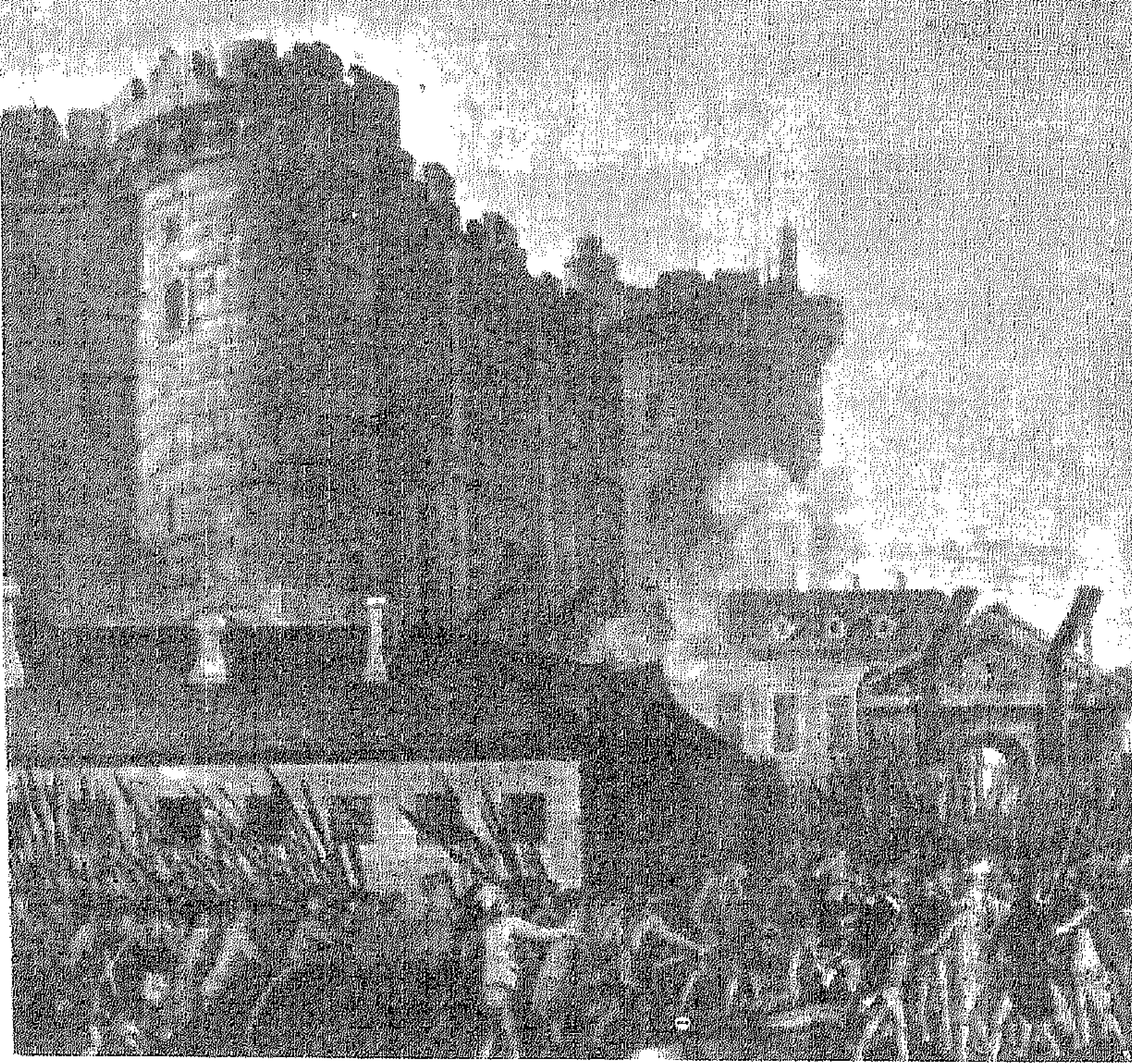

فولتير

ديديرو

مونتسكيو







سقوط الباستيل في ١٤ تموز ١٧٨٩ يحقق آمال فلاسفة التنوير

تبوأت فرنسا في القرن الثامن عشر مكانة عظيمة في عالم الفكر بفضل عدد من الفلاسفة مثلت فلسفتهم مصالح ومتطلبات الأغلبية العظمى من المجتمع الفرنسي. اذ ان انتقادات هؤلاء الفلاسفة لم تقتصر على المسائل الدينية فقط، بل شملت النظام القديم الذي يقوم على نظرية الحق الالهي واستبداد الملكية ومؤسساتها السياسية. فطالبوا بالتسامح الديني والمساواة الاجتماعية واقامة العدل والمحافظة على حقوق الانسان الطبيعية المتجسدة في الحرية وحق التملك المقدس، كما طالبوا باحلال سيادة العقل محل التسلط والتقليد وميتافيزياء القرن السابع عشر، معتبرين العصر الوسيط مرحلة انقطاع حضاري للبشرية. وهكذا خاض فلاسفة القرن الثامن عشر الفرنسيون معاركهم ضد السلطة على أرضية سياسية بحتة بعد ان تجاوزوا الصراع الديني الذي اتخذوه في القرن السادس عشر سلاحا لهم ضد الاقطاعية الدينية والارستقراطية(١).

وان كانت فلسفة التنوير قد تحدرت من الفلسفة الديكارتية الا انها تدين بمنهجها وجوهرها الى فلسفة لوك وواقع الحياة الانكليزية ايضاً. فبينما تنتمي فلسفة لوك الى القرن السابع عشر في انكلترا فانها تنتمي في فرنسا الى القرن الثامن عشر. وفي حين مثلت في فرنسا، ما قبل الثورة، هجوما على المصالح الاقطاعية نراها في انكلترا، بعد الثورة المجيدة، تنتصب دفاعا عنها(٢). ومع ذلك فقد تجاوز الفلاسفة الفرنسيون معلمهم لوك وجعلوا من القرن الثامن عشر قرنا فرنسيا لا جدال فيه. «وثمة اسباب اجتماعية، فضلا عن السياسية، اعطت الفلسفة السياسية الفرنسية نغمة من المرارة ليس لها نظير في فلسفة لوك. كان المجتمع الفرنسي نسيجا من امتيازات جعلت الانقسام بين الطبقات اشد وعيا، وأكثر استفزازا ان لم يكن اكثر واقعية، منه في انكلترا. وكان رجال الدين لا يزالون يملكون نحو خمس اراضي فرنسا بالاضافة الى دخل طائل وامتيازات واعفاءات جوهرية، ولكن بلا تفوق اخلاقي أو فكري يبرر مركزهم، وكذلك كانت طبقة النبلاء تتمتع بامتيازات بلا سلطة سياسية او زعامة(٣)».

امتازت فلسفة التنوير هذه بعدة مميزات رئيسية اهمها:

١ – انها كانت عالمية النزعة، تخطت الحدود الجغرافية لانطلاقتها، فتجاوزت بذلك التعصب القومي والتزمت الاقليمي اللذين سادا اوروبا في تلك الحقبة.

٢ - انها مجدت الانسان وكانت ذات نزعة فردية خالصة باعتبارها الفرد محور المجتمع المدني.

٣ - انها كانت معادية لهيمنة الكنيسة ومفاسد بعض رجال الدين.

٤ - انها كانت ذات منهج تجريبي جدلي. مجدت العقل ونبذت الخرافات والترهات.

واهم هؤلاء الفلاسفة في فرنسا واعظمهم اثراً: فولتير، مونتسكيو، روسو.



نابوليون بونابرت ابن الثورة البار (وتلميذ) روسو



فولتير

١ - فولتير (Voltaire) ١٦٩٤ - ١٧٧٨

اعتبر فولتير من اكثر فلاسفة القرن الثامن عشر نفوذاً وتأثيرا على قرائه لأسلوبه الذي اتصف بالسخرية اللاذعة والتهكم الفاضح على الأنظمة القديمة المستبدة وطغيان وجهالة العصر. هاجم فولتير في كتاباته التعصب الديني الذي كان يسود عصره ودعا الى حرية التعبير وحرية العقيدة والتسامح والغفران. وندد بالملكية المستبدة والاقطاع والمؤسسة الكنسية ومفاسد رجال الدين[٤] معتقداً ان الكنيسة مسؤولة عن ظلامة العصور الوسطى وانها لم تفعل سوى الشر منذ سبعة عشر قرناً. فرمته الكنيسة بالهرطقة واعدمت كتبه كما امرت بسجنه. فهاجر وعذب وسجن عدة مرات.

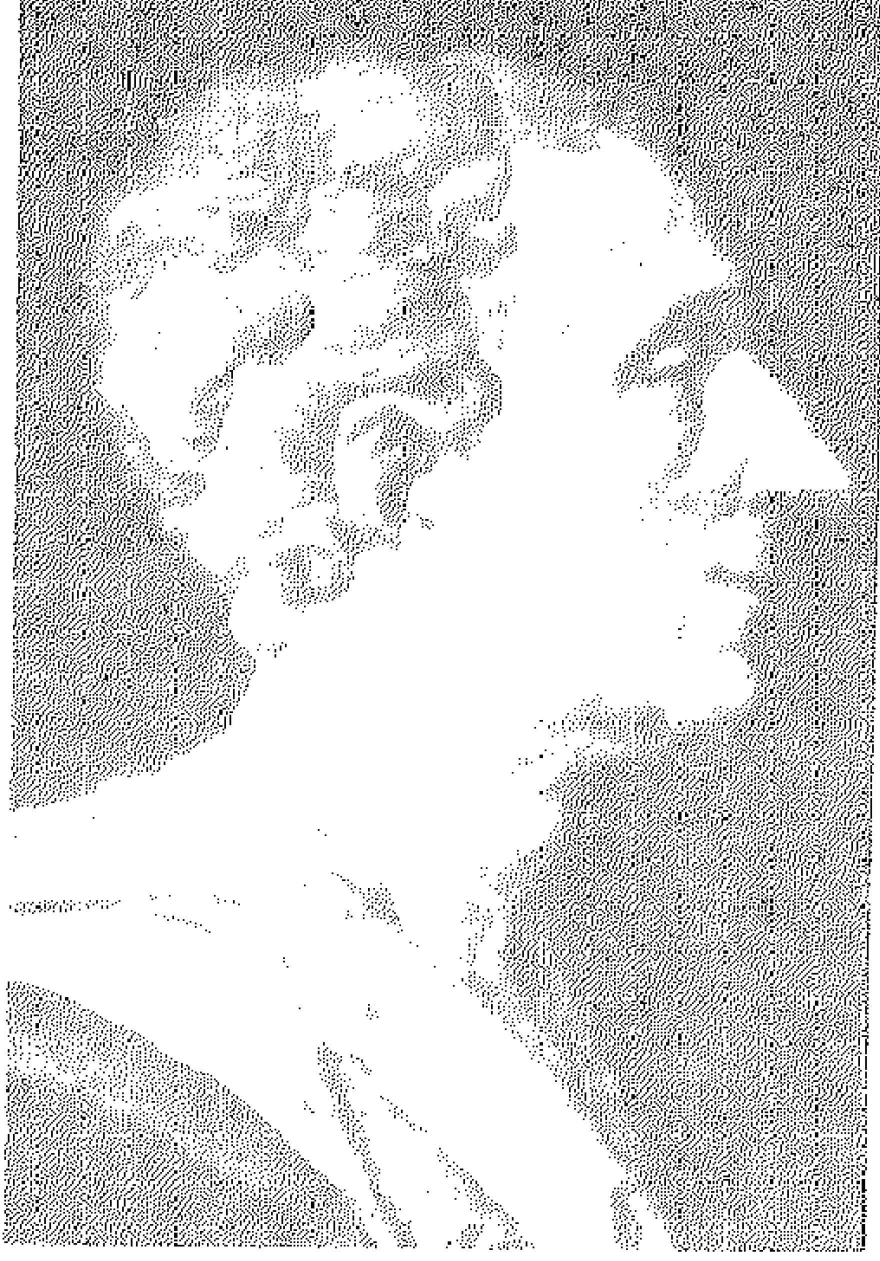
لم ينسب لفولتير اراء سياسية واضحة على غرار «روح القانون» لمونتسكيو و«العقد الاجتماعي» لروسو الا انه لم يقل عنهما اثراً في محاربة الفساد والاستبداد، ووجوب

الاعتماد على المحسوس والعقل. ففي رسائله الفلسفية» يهاجم الامتيازات الاجتماعية لفئة دون اخرى كما يهاجم نظام الضرائب الذي يسود فرنسا. بينما تنعم انكلترا في الحرية والمساواة. «ولا يعفى احد من دفـع بعض الضرائب بسبب كونه شريفاً او قسيساً، فجميع الضرائب تعين من قبل مجلس النواب الذي يعد الاول اعتبارا مع كونه الثاني في مرتبته»(٥) كما يذكر «لا يدفع احد وفق لقبه بل وفق دخله، ولا توجـد هنـاك جزيـة او جبايـة مراديـة، (Arbitraire) بل ضريبة حقيقية مفروضة على الارضين، وقد خمنت الأرضون كلها في عهد وليم الثالث الشهير وقد جعلت دون ثمنها.»(٦) ويذكر فولتير عند تهكمه على رجال الدين قائلا «فجميع رجال الدين في انكلترا متحفظـون، وكلهم متحذلقون، وهم اذا ما علموا وجود شباب في فرنسا عرفوا بالفجور وارتقوا الى الحبرية بمكايد النساء فيقومون بأمور الغرام جهراً وانهم يبتهجون بتأليف اناشيد ناعمـة وانهم يقيمون في كل يوم ولائم عشاء لذيذة طويلة وانهم يذهبون من هنالك لالتماس الانوار من الروح القدس، وانهم يكونون من الوقاحة ما يتسمون معه بورثة الرسل، حمدوا الله على بروتستانتيتهم ،بيـد انهـم ملاحـدة خبثـاء يستحقون ان يحرقوا مع الشيطان كما قال المعلم فرانسوا رابله، ولذا فانني لا اعنـى بأمورهم.»(٧)

ويظهر لنا اخيرا فولتير في سائر كتاباته المختلفة ثائراً ومعلماً في نفس الوقت. ثائراً على الطبقة العليا في المجتمع الفرنسي معتبراً الطبقة الثالثة انها وحدها التي تشكل الأمة بكاملها. ومعلما يطلب من الناس عدم الأخذ بالتقاليد باللجوء الى التفكير النقدي في اتخاذ المواقف. وهكذا فهو في اسلوبه التحليلي «يجعل المجرد حسيا ملموساً عن طريقة تفكيكه.»(٨).

٢ – مونتسكيـــو Montesquieu (١٦٨٩ – ١٧٥٥)

يرتكز الفكر السياسي عند مونتسكيو على فكرتين اساسيتين: تمجيد الحرية باعتبارها حقاً طبيعيا، واحتقار الاستبداد الذي يقـوم على الخوف والرهبة. ولهذا كان هدفه في جميع كتاباته اكتشاف الوسائل التي يضمن فيها الفرد حريته السياسية في ظل القوانين التي لا يخاف



مونتسكيو

في ظلها المواطن مواطناً آخر، وفي ان يفعل المرء ما يريده ضمن الحدود التي تسمح بها هذه القوانين «وتقوم حرية المواطن السياسية على راحة النفس التي تنشأ عن رأي كل واحد حول سلامته، ويجب لنيل هذه الحرية ان تكون الحكومة من الوضع ما لا يمكن المواطن معه ان يخشى مواطناً آخر»(٩).

يعتبر «ورح الشرائع» (L'esprit de lois) من اهم كتب مونتسكيو التي عالج فيها نظريته عن الحرية السياسية وعلاقة القوانين بالحرية والأمن والدفاع ووسائل الادارة كالضرائـب ومقدار الدخل العام. كما عالج علاقة القوانين بالسلوك والطبائع واوضاع الأمة والتجارة والنقد وعدد السكان والدين. كما تعرض ايضا لتاريخ القوانين وصلتها بالنظام الكلي عند الفرنج.

ويحـــاول مونتسكيـــو من خلال هذه الموضوعات التي بحثها في «روح الشرائع» ان يجد افضل الحكومات والوسائل للابتعاد عن الاستبداد. فالحكم الفردي بنظره لا يمكن ان يحقق السلم الاجتماعي عند البشر لكونه حكما مستبداً. كما انه لم يكن يثق بالديموقراطية الصرفة لخوفه ان تغالي في المساواة، او ان تؤدي الى فرد مستبد او الى الفناء كما حدث للديموقراطيات القديمـة. «اذن للديموقراطيـة حدان مفرطان يجب اجتنابهما وهمـا: روح التفاوت التي تسوقها الارستقراطية او الى حكومة الفرد، ورح المساواة المتناهية التي تسوقها الى استبداد الفرد، كما ان استبداد الفرد ينتهي

بغزو البلاد»[١٠]. ومع انه كان يرى في الارستقراطية الاعتدال والاستقرار الا انه تخوف ان تتركز في النهاية بيد فرد واحد فتؤدي الى الاستبداد لكونها وراثية محصورة بفئة معينة من الناس. «ويقع اقصى الفساد عندما يصبح الاشراف وراثيين، لما لا يكون لديهم اعتدال بذلك، واذا كان عددهم قليلا عظم سلطانهم ونقص امنهم، واذا كان عددهم كثيرا قل سلطانهم وعظم امنهم. ويزيد السلطان ويتناقص الأمن حتى يكون المستبد الذي يتجلى فيه فرط السلطان والخطر.»[١١]. اما الملكية المطلقة فهي بنظر مونتسكيو تجنح نحو الاستبداد لانها تتشكل من جماعات يتولد من تنافسها الامتيازات التي ينفرد بها فئة دون فئة من المواطنين «كما ان الديموقراطيات تزول عندما ينزع الشعب في السنات والحكام والقضاة وظائفهم تفسد الملكيات عندما تنزع امتيازات الهيئات أو المدن مقدارا فمقدارا، ويصار في الحال الأول الى استبداد الجميع ويصار في الحال الثانية الى استبداد الفرد.»[١٢]. وهكذا لم يجد مونتسكيو ضالته الا في حكومة مختلطة تضم الى جانب الملك الذي تتحقق فيه القوة طبقتي النبلاء ورجال الدين ومدن وهيئات مختلفة المصالح والامتيازات كما يجب ان يقوم بين الملك وهذه المؤسسات هيئات نيابية امينة على القوانين تتمتع بالاستقلال الا اذا حاول الملك ازالة سلطة الوسطاء. فتنقلب عندها الى حكم فردي مستبد «تزول الملكية حين يرد الامير كل شيء اليه فقط، فيدعو الدولة الى عاصمته والعاصمة الى بلاطه والبلاط الى شخصه وحده. ثم تزول الملكية حينما يجهل الأمير سلطانه وحاله وحبه لشعوبه، وحينما لا يشعر جيدا بان على الملك ان يحسب نفسه في مأمن كما يحسب المستبد نفسه في خطر»[١٣].

وما يشار اليه باهتمام بالغ هو تأكيد مونتسكيو على مبدأ فصل السلطات الذي توخى منه دعم حكومته المختلطة التي اقترحها، ضمانا للعدالة، وصونا لحرية المواطن السياسية وحمايتها من الاستبداد. فليست ثمة حرية بنظره اذا اجتمعت السلطتان التشريعية والتنفيذية بيد شخص واحد. «ولا تكون الحرية مطلقا اذا ما اجتمعت السلطة التشريعية والسلطة التنفيذية في شخص واحد او في هيئة حاكمه واحدة. وذلك لأنه يخشى ان يضع الملك نفسه او السنات نفسه قوانين جائرة لينفذها تنفيذا جائرا.»[١٤] كما يتمثل سر بقاء الدولة عنده بوجود التوازن بين السلطات او ما يسمى بتعادل القوى (Contre-forces) وذلك حتى لا يصبح بامكان شخص واحد او هيئة معينة وضع قوانين يعتمد على القوة في تنفيذها.

ومن المؤكد ان مونتسكيو قد تأثر في معالجته لفصل السلطات بالواقع الانكليزي من جهة ونظرية لوك السياسية من جهة ثانية، مع انه اضاف الى سلطتي لوك التشريعية والتنفيذية سلطة ثالثة مستقلة عنهما هي السلطة القضائية. «وكذلك لا تكون الحرية اذا لم تفصل سلطة القضاء عن السلطة الاشتراعية والسلطة التنفيذية، واذا كانت متحدة بالسلطة الاشتراعية كان السلطان على الحياة وحرية الاهلين امرا مراديا، وذلك لأن القاضي يصير مشترعا واذا كانت متحدة بالسلطة التنفيذية امكن القاضي ان يصبح صاحبا لقدرة الباغي.»[١٥] بالاضافة الى ان مونتسكيو كان متأثرا الى حد بعيد ايضا بالوضع السياسي الذي كان يسود فرنسا في تلك الحقبة. حيث قوضت الملكية المطلقة اركان الدستور، ورسخت معها الاستبداد الذي يمقته بشدة.

واخيرا فقد تمتع مونتسكيو ولا شك باسلوب ساخر مرير وسعة اطلاع عظيمة حتى اعتبر بحق انه مفكر سياسي اصيل مع كونه لم يكن يمتاز بالواقعية التي امتاز بها كل من مكيافلي وبودان. وما يؤخذ عليه برأي غروتويزن ان «قوانينه ليس لها اساس ولا هدف حقوقيان، وهذا ما ظل يؤخذ على مونتسكيو اثناء الثورة الفرنسية، فلم يكن مقبولا منه ان ينطلق من الواقع الى القانون، والا يعني بما هو كائن والا يعبأ بما يجب ان يكون.»[١٦] كما انه كان اكثر اهتماما بالبحث عن اسباب ما هو كائن وليس عما يجب ان يكون. « On dit ce qui est et non pas cequi doit etre ». وعلى الرغم من ذلك فقد كان مونتسكيو متحمسا للحرية صادقا في دعواه لها مما كان لكتاباته ابلغ الأثر على صياغة دستور الولايات المتحدة الاميركية وفي نفوس رجال الثورة الفرنسية.

روسو (Rousseau) (١٧١٢ – ١٧٧٨)

حاول روسو في كتابه «العقد الاجتماعي» الذي نشره عام ١٧٦٢ ان يدرس الناس كما

هم، وان يضع قانونا ثابتا لمجتمع مدني يؤكد فيه حقوق الانسان الطبيعية في الحرية والمساواة ضمن قوانين عامة تخيلها لتكون اصلح ما يحكم به البشر. «يولد الانسان حراً الا انه مكبل في كل مكان بالاغلال. كيف حدث هذا التغيير؟ اجهل ذلك. وما الذي يمكنه ان يجعله شرعياً؟»(١٧). هكذا يبدأ روسو كتابه العقد الاجتماعي باحتجاج صارخ وشديد على طغيان وفساد عصره. فالأغلال التي تكبل الانسان هي «السلطة» التي لا تستند الى الارادة العامة بل تمارس القوة التي تصنع حقا. ولما كانت القوة لا تصنع حقا فتصبح اذن العقود هي اساس كل سلطة شرعية بين البشر. وبهذا فلا يمكن ان يتنازل الانسان عن حريته بلا مقابل، لأنه يعتبر قد تخلى عن كونه انساناً وعن حقوقه في الانسانية اذ ان حق الاستعباد باطل وغير شرعي ومستحيل لأن «استعباد وحق لفظان متناقضان احدهما ينفي الآخر»(١٨).

والعقد الاجتماعي بنظر روسو يجب ان يتم بين الافراد انفسهم وليس بينهم وبين الحاكم او الحكومة. وهو التزام طوعي غير مبني على اية سلطة يرتبط به الفرد بمحض ارادته ويتمتع به بنفس الحرية التي كان يتمتع بها قبل العقد. فيتساوى الجميع في الشروط التي يضمنها العقد. ويصبح بموجبه كل عضو في المجتمع السياسي محكوماً بطاعته للقوانين التي يشرعها المجتمع كله وحاكماً لكونه مشاركاً في هذا المجتمع الذي يتمتع بصفته السيادية على الجميع. «ومع ان كل فرد يتحد مع الجميع الا انه لا يطيع الا نفسه ويبقى حرا كما كان من قبل.»(١٩) ينتقل انسان روسو بقبوله للعقد الاجتماعي من حاله الطبيعية الى الحالة المدنية ويستبدل الغريزة في ملكه بالعدالة ويحل الحق محل الجشع. «ان ما يفقده الانسان بالعقد الاجتماعي هو حريته الطبيعية وحقا لا محدوداً في كل ما يغريه وما يستطيع بلوغه، اما ما يكسبه فهو الحرية المدنية وملكية كل ما هو في حيازته»(٢٠) وللمحافظة على شرعية التحالف يجب ان يلتزم الجميع ضمنا باطاعة الارادة العامة. لأن حرية الفرد هي في اطاعة المجموع كما ان هذه الحرية لا تتعارض مع القسر الذي تنزله ارادة المجموع بها. حيث لا يعني القسر هنا بنظره الا اجبار الفرد على ان يكون حراً. لأن الحرية الحقيقية لا تتأتى الا من طاعة القانون. وان الافراد يكسبون فائدة كبيرة في المجتمع تفوق الفائدة من بقائهم منعزلين.

الارادة العامة والسيادة عند روسو

ليست الارادة العامة عند روسو ارادة الجميع او مجموع الارادات الخاصة، هي الروح العامة التي لا تراعي سوى المصلحة المشتركة والخير العام. اذ لما كان الفرد جزءاً من الجماعة فان ارادته والارادة العامة هي واحدة بذاتها. فالتصويت وقرارات الاكثرية لا تعني سوى مجرد وسيلتين لتمثيل الارادة العامة. وهكذا فان روسو يعتبر الارادة العامة جوهر العقد الاجتماعي «يسهم كل منا في المجتمع بشخصه وبكل قدرته تحت ادارة الارادة العامة العليا، ونتلقى على شكل هيئة كل عضو كجزء لا يتجزأ من الكل.»(٢١).

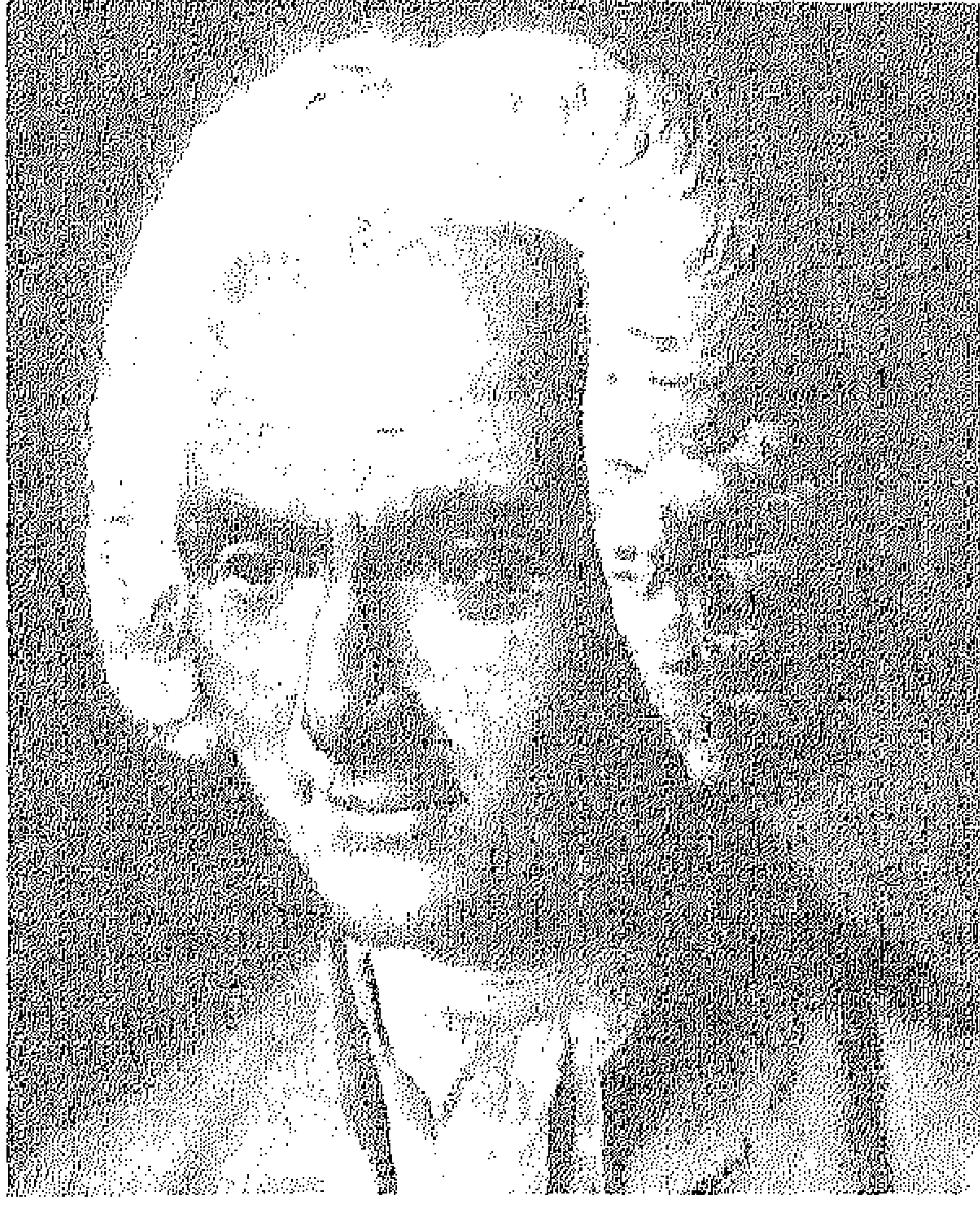
اما السيادة عند روسو فهي تتمثل في ممارسة الارادة العامة. ويعتبر الشعب صاحب السيادة الوحيد الذي يملك القوة التشريعية ووضع القوانين التي تعتبر افعالا حقيقية للارادة العامة. ولما كان صاحب السيادة يستمد كيانه من قدسية العقد فلا يحق له ان يتنازل عن جزء من نفسه او ان يخضع لصاحب سيادة اخر «لأن انتهاكه لحرمة العقد الذي يوجد بمقتضاه يعني تدمير نفسه، ومن لا يكون شيئاً لا ينتج شيئاً»(٢١). وهكذا فان السيادة غير قابلة للتنازل (Inalienable) لأي فرد او هيئة من الهيئات. كما انها لا تتجزأ (Indivisible) ولا تخطئ (Infaillible) لأن ارادتها عامة وبذلك فهي لا يمكن ان تمثل كما يجري في الانظمة البرلمانية «ان السيادة لا يمكن ان تمثل لنفس السبب الذي يجعلها غير قابلة للتنازل، فهي بصفة اساسية قوام الارادة العامة. والارادة العامة لا تمثل مطلقا: فهي اما ان تكون هي نفسها، او تكون شيئاً اخر، ليس هناك من وسط. ان نواب الشعب ليسوا اذ ممثليه ولا يمكن ان يكونوا كذلك فما هم الا مفوضون عنه، ليس في وسعهم ان يبتوا نهائيا في شيء. كل قانون لم يوافق عليه الشعب يكون باطلا، اي لا يكون قانونا مطلقا. فالشعب الانجليزي يظن انه حر لكنه مخطئ جدا، فهو لا يكون حرا الا اثناء انتخاب اعضاء البرلمان، وبمجرد ان يتم انتخابهم يصير هو عبداً، بل لا يكون شيئاً.

ان طريقة استعماله لحريته في فترات حريته القصيرة ثمينة بأن يفقدها »(٢٣).

ولما كانت السيادة عند روسو هي سيادة الشعب (الكل)، فحق التشريع ووضع القوانين اذن يجب ان يكونا من عمل الشعب وحده. اما تنفيذ القوانين فيجب ان يحصر بهيئة تسمى «الحكومة» ومهمتها تنفيذ القوانين والمحافظة على الحرية الفردية. «فما هي الحكومة اذن؟ انها هيئة وسيطة بين الرعايا وصاحب السيادة من اجل الاتصال المتبادل بينهما، مكلفة بتنفيذ القوانين وبالمحافظة على الحرية المدنية والسياسية على السواء»(٢٤) ويسمى اعضاء هذه الهيئة ولاة او ملوكا، او حكاماً بينما تسمى الهيئة ككل اسم الأمير (Prince). وهذه الهيئة (الحكومة) ليست سوى وظيفة يشغلها موظفون من قبل صاحب السيادة لممارسة السلطة التنفيذية حيث يحق له استردادها عندما يريد. اذ لا يوجد اي عقد بينهما وبين الشعب، لأنه ليس في الدولة الا عقد واحد، هو عقد الاتحاد الذي ينشأ بموجبه المجتمع. وهذا العقد يسقط كل ما عداه من العقود «ان التصرف الذي يؤسس الحكومة ليس عقداً قط وانما قانونا، وان من يؤتمنون على السلطة التنفيذية ليسوا مطلقا سادة الشعب بل هم موظفوه، وانه يستطيع اقامتهم وعزلهم متى شاء، وان المسألة بالنسبة لهم ليست قط مسألة تعاقد وانما طاعة »(٢٥) وهكذا يكون روسو قد خالف كلا من هوبز ولوك اللذين اعتبرا ان العقد الاجتماعي عقد مبرم بين الحاكم والمحكوم اذا اخل احد الطرفين في بعض شروطه اصبح الآخر في حل من التزاماته المقيد بها في العقد.

تقسيم روسو للحكومات

لقد قسم روسو الحكومات الى ثلاثة انواع. فالحكومة الديموقراطية هي التي يمارس فيها الشعب كله او الجزء الأكبر منه الحكم. ويكون عدد المواطنين الحكام فيها اكثر من المواطنين المحكومين. وبهذا تتحد السلطتان التنفيذية والتشريعية. لذلك فهي حكومة سيئة اذ لا يمكن وليس من الحكمة ان يكون واضع القوانين هو منفذها. كما انه من المستحيل ان يبقى الشعب فيها مجتمعاً للنظر في الشؤون العامة. والحكومة على هذا الشكل تتطلب بنظره دولة صغيرة جدا يتصف فيها الشعب ببساطة كبيرة



الفيلسوف الفرنسي جان جاك روسو

في الطباع كما يتطلب الحال كثيرا من التساوي في المراتب والثروات. ومع ان روسو يرى في الديموقراطية الصرفة احسن انواع الحكومات الا انها «لم توجد ولن توجد ابداً... فلو كان هناك شعب من الآلهة لحكم نفسه ديموقراطيا. فان حكومة على هذا المستوى من الكمال لا تصلح للبشر.»(٢٦).

اما في الحكومة الارستقراطية فيتميز فيها صاحب السيادة عن الحكومة ويتولى الحكم فيها عدد قليل من الناس. وهي ثلاثة انواع: الارستقراطية الطبيعية التي لا تصلح الا لشعوب بدائية، والوراثية التي يعتبرها اسوأ انواع الحكومات، ثم الانتخابية التي تعد احسنها.

اما الحكومة الملكية فهي تعني بنظره تركيز الحكم بيد حاكم واحد يستمد الآخرون سلطتهم منه. فتستجيب ارادة الشعب وارادة الأمير وقوة الدولة العامة وقوة الحكومة الخاصة لباعث واحد. كما يسير كل شيء فيها لهدف واحد. ولو ان روسو لم يتخوف من ان يتحول الحكم الملكي الى حكم مطلق لكانت الحكومة الملكية بنظره احسن النظم السياسية وخاصة اذا كانت السلطة فيها مستمدة من حب الشعب. ولكنه كان يرى ان النظام الملكي يناسب الدول الكبرى مع بعض الاستثناءات كما انه لا يلائم سوى الأمم الغنية، بينما الحكم الارستقراطي يناسب الدول القليلة الثروة والاتساع، اما الحكم الديموقراطي فيصلح للدول الصغيرة

والفقيرة.

والواقع ان روسو لا يهتم كثيرا بشكل الحكومة ديموقراطية كانت ام ارستقراطية ام ملكية اذ انه قد يكون شكلا معينا لحكومة ما، افضل في حالات معينة واسوأ في حالات اخرى، وما يزيد في فساد حكومة معينة هو اساءة استخدام السلطة فيها، والجنوح الى الاستبداد. وبدلا من ان يحكم الحاكم الرعايا ليجعلهم سعداء فانه يجعلهم بؤساء من اجل ان يحكمهم.

ويعتبر روسو بحق انه من اهم المفكرين الذي وضعوا اسس النظم السياسية التي تدين لها جميع الحكومات الديموقراطية في العالم. امتاز بدقة الملاحظة بحيوية فائقة، واسلوب تحريضي ضد مخلفات الماضي من منطلق الواقع الذي كانت تعيشه شعوب اوروبا في منتصف القرن الثامن عشر. كما اعتبر داعيه الى التطور الاجتماعي من منطلق شعبي. ولما كان شر المجتمع بنظره يكمن بوجود اسياد وعبيد، فقد جعل القانون فوق البشر لتضعف تبعيتهم للأسياد اذ ان شر القوانين خير من افضل الاسياد.

وكان للغموض الذي اتصفت به كتابات روسو احيانا، ثم للتناقض احيانا اخرى ان ادى الى اختلاف النقاد بشأنه. فمنهم من رآه عدوا للطغيان يمجد الديموقراطية. ومنهم من عده حليفا للاستبداد والدكتاتورية القيصرية، او طوباويا وقع اسير المبادئ المجردة. ومع ذلك فان روسو لم يفكر قط كمكيافللي في استغلال الناس المضللين، ولا كهوبز وغيره من اصحاب نظريات الحد الطبيعي الذين اهتموا بتبرير ما هو كائن انطلاقا من الوقائع اكثر مما اهتموا بالبحث عما يجب ان يكون، ولا على طريقة مونتسكيو الذي كان رجل قانون وعالم اجتماع بينما كان روسو يهتم بالطبيعة وسعادة الانسان والحب الاجتماعي.(٢٧). ■

هوامش البحث

١ – SOBOUL. A: La Revolution francaise t,1 P 69 (Gallimard 1962)
٢ – سباين: تطور الفكر السياسي ص ٧٤٤ (ترجمة علي ابراهيم السيد، دار المعارف بمصر ١٩٧١)
٣ – المرجع السابق، ص ٧٤٤
٤ – فولتير: الرسائل الفلسفية ص ٤٤ (ترجمة عادل زعيتر. دار المعارف بمصر ١٩٥٩)
٥ – المرجع السابق ص ٥٠
٦ – المرجع السابق ص ٥٠
٧ – المرجع السابق ص ٣٣
٨ – غروتوين: فلسفة الثورة الفرنسية ص ٨٠ (ترجمة عيسى عصفور، وزارة الثقافة دمشق ١٩٧٠)
٩ – مونتسكيو: روح الشرائع الجزء الأول ص ٢٢٨ (ترجمة عادل زعيتر القاهرة ١٩٥٣ دار المعارف)
١٠ – المرجع نفسه ص ١٦٨
١١ – المرجع نفسه ص ١٧١
١٢ – المرجع نفسه ص ١٧٢
١٣ – المرجع نفسه ص ١٧٣
١٤ – المرجع نفسه ٢٢٨
١٥ – المرجع نفسه ص ٢٢٨
١٦ – غروتوين: فلسفة الثورة الفرنسية ص ٧٥
١٧ – روسو: في العقد الاجتماعي ص ٣٥ (ترجمة ذوقان قرقوط. دار القلم – بيروت ١٩٧٣)
١٨ – المرجع السابق ص ٤٥
١٩ – المرجع السباق ص ٤٩.
٢٠ – المرجع السابق ص ٥٥
٢١ – المرجع السباق ص ٥٠
٢٢ – المرجع السابق ص ٣٥
٢٣ – المرجع السابق ص ١٥٥
٢٤ – المرجع السابق ص ١٠٦
٢٥ – المرجع السابق ص ١٦٣
٢٦ – المرجع السابق ص ١١٨
٢٧ – روسو: في العقد الاجتماعي، مقدمة بقلم بيير بورجلان ص ١٥.



الذكرى المئوية لميلاد ساطع الحصري

د. عبد العزيز شرف

■ «قال الزعيم الايطالي «ماتزيني» في القرن الماضي وهو يدعو الشباب إلى الوحدة الايطالية: «انكم تبحثون عن وطن وهي فطرة غرسها الله في قلوبكم، ويدعوكم صوت أبطالكم.. إنكم إخوة»..

وحين يذكر الوطن العربي المفكر العربي الكبير ساطع الحصري أو «أبو خلدون» فانما يذكر المفكر الذي أصل مفهوم الشخصية القومية، حين قال: «ما أسعد الأمم التي حققت وحدتها القومية، واستكملت شخصيتها السياسية، فاستطاعت ان تجعل حدودها الدولية منطبقة على حدودها القومية»(١)

ذلك أن كل امرىء ينزع بطبيعته الانسانية إلى أن يعرف نفسه المفردة، ولم يبدأ هذا النزوع بتلك العبارة التي نقشت على أحد المعابد اليونانية في العصر القديم، تدعو الآحاد إلى أن يتعرفوا على أنفسهم بأنفسهم، ذلك لأن هذا النزوع – على حد تعبير الدكتور يونس(٢) – سمة من سمات الانسانية، بدأت معها وارتقت برقيها، وتعقدت بتعقد الحياة في العصر الأخير. وهذه المعرفة – أو لعل الأصح أن نقول مع الدكتور يونس – «وهذا النزوع إلى المعرفة هو الذي يحقق شخصية الفرد، ويجعل له «الخصوصية» التي يمتاز بها عن سائر الأفراد في مجتمعه الكبير، ومجتمعه الصغير على السواء. ولولاها لأصبح الأفراد آحاداً يعرفون بنوعهم وجنسهم فحسب. كما تعرف الآحاد في الأشياء والنبات والحيوان، بصفات عامة مشتركة. إن تميزت فانما تتميز بظواهر تقاس بالأشكال والألوان والأحجام وما قد يكون بين أجزائها من نسب تختلف بها عن غيرها من الأجزاء الموجودة في جنس أو نوع أو صنف. أما أفراد النوع الانساني، فلهم قسماتهم التي تدل على كل واحد منهم، وهي ليست مجرد القسمات الظاهرة على الوجوه فقط، فهذه إمارات خارجية، ولكنها قسمات نفسية تحققها شخصية الفرد، ويظهرها اتجاهه الخاص في التخلق والسلوك.

«وأنه ليقال بحق في ان اكتشاف

« الشخصية » في مطلع القرن الماضي كان أعظم كشف حصلت الانسانية عليه ، وهو كشف لا يمكن ان يقاس به كشف قطر غير مأهول أو قارة مجهولة ، ولا يمكن أن يقاس به كذلك كشف قوة كامنة أو طاقة مكنونة في عنصر من عناصر الأشياء التي ندرج بينها ، بل إنه كشف يعظم حتى على ما يفاخر به عصر النهضة الأوروبية من أنه عرف العقل الانساني ، وحرره ، أو حاول أن يحرره ، من رواسب الخرافة ، وشوائب التخليط . ومن أجل هذا كله كان لزاماً علينا أن نعرف أنفسنا المفردة ، معرفتنا لنفسيتنا الجماعية ، فالفرد يستمد وجوده من جماعته الخاصة وجماعته العامة معاً ، وهو لن يستطيع أن يعرف ذاته إلا إذا عرف مجتمعه الذي يعيش فيه وله ، ويأخذ منه أكثر مما يعطيه . وإذا كان نزوع الفرد إلى معرفة نفسه ، قد انتهى به إلى أن يجعل لهذه النفس علماً قائماً بنفسه ، له أصوله ومناهجه وتجاربه أيضاً ، فان نزوع الجماعة المتبلورة المتجانسة إلى معرفة نفسها العامة ، قد انتهى بها آخر الأمر إلى أن تجعل في مجال علم النفس شعبة قائمة لوجدان الجماعة »(٣) .

أبو خلدون والشخصية العربية

تمثل ساطع الحصري هذا المفهوم القومي الذي يمثل مفتاح شخصيته وفكره على السواء ، وأشاع هذا المفهوم ، ودعا اليه ، وقضى حياته أسيراً له ، مناضلا من أجله . يقول : « إذا قدر لي أن أدرك اليوم الذي تتحقق فيه الوحدة العربية فسأعد نفسي أسعد الناس جميعاً ، وسأنسى كل ما تكبدته من مشاق وآلام ، وسأترك هذه الحياة راضياً مرتاحاً ، كأنني لم أتعب أبداً ، ولم أشعر بذرة من الألم »(٤) .

فالدور الذي كرس الحصري حياته من أجله يتلخص في تأصيل مفهوم الشخصية العربية القومية ، فأشبع بذلك النزوع إلى معرفة ذاتيتنا الجامعة ، كان ينظر إلى دوره على أنه فرض عين لا فرض كفاية .

لقد عاش « أبو خلدون » حياته منذ ميلاده في صنعاء اليمن عام ١٢٩٧ هـ (١٨٨٠ م) لأبوين عربيين من حلب ، حفيداً لأجداد حجازيين ، إلى أن انتقل إلى الرفيق الأعلى في عام ١٣٨٨ هـ (١٩٦٨ م) . عاش لهذه الفكرة القومية ، التي جسدتها حياته الفردية والجماعية على السواء . فقد تنقل ابو خلدون مع أبيه القاضي محمد بن هلال الحصري في البلاد العثمانية ، العربية منها وغير العربية ، ودرس في استنبول ، ليتخرج من المدرسة الملكية الشاهانية عام ١٩٠٠ م ، واشتغل بعد تخرجه في التعليم وفي الادارة ببلاد البلقان ثماني سنوات ، تعرف فيها على مشكلات الحياة ومعاناة البشر ، وشهد عن كثب الحركات القومية التي كانت تمور بها أرض البلقان ، وتأمل في حوافزها ودوافعها ، واستجابة مختلف الجماعات البلقانية لها(٥) . ولما قامت حركة الاتحاد والترقي أيدها أبو خلدون ، وشارك في مباهجها يوم أعلن الدستور عام ١٩٠٨ ، ثم تكشفت الحركة عن برق خلب ، فحاد عنها لينصرف إلى تجربته في التربية ويخلص لاتجاهه العلمي . ذلك أن ايمانه بالشخصية العربية في المفهوم القومي هو الذي دفع به إلى أن يستجيب للدولة العربية في دمشق ، فيرسي دعائم تعليم عربي قومي ، يلبي متطلبات دولة عربية عصرية ، ولكنه لم يلبث أن هاجر من دمشق بعد واقعة ميسلون ليلحق بالعراق يجاهد فيه عشرين عاماً ، ثم يعود إلى دمشق ليصنع الثورة الثقافية التي استوحت مبادئ القومية العربية وروح التقدم وليصدر « صك الاستقلال الثقافي »(٦) .

التاريخ دواء للتشاؤم

ودعوة الحصري إلى تأصيل الشخصية القومية ، دعوة علمية ، لذلك لم يأبه بتشاؤم المتشائمين أو يأس القانطين ، فكتب يقول عام ١٩٤٧ :

« وأما الذين يستسلمون إلى القنوط والتشاؤم من كثرة المشاكل والمساوئ التي يلحظونها ، فاني أدعوهم إلى التوسع والتعمق في درس تواريخ النهضات القومية الحديثة ، لأني أجد فيها أحسن الأدوية الشافية من داء التشاؤم والقنوط ، وأقوى المؤثرات الموقظة للايمان القومي » .

فالحصري يتوسل التاريخ كوسيلة علمية لتحرير الشخصية العربية من الكبت ، ومن الخوف ، ومن الاستغلال والتسخير ، حتى تنمو الشخصية الفردية والجماعية على السواء ، يقول :

« لا شك في أن سبيل النهضة والوحدة محفوفة بأنواع المشاكل والعقبات ، ولا شك في أن الموانع التي يجب علينا أن نقتحمها قبل أن

نصل إلى غايتنا المنشودة كثيرة وكبيرة جداً ، غير أن هذه المشاكل، مهما كانت عويصة ، وهذه العقبات ، مهما كانت عظيمة ، يجب ألا تثنينا عن عزمنا ، وألا تزعزع ايماننا .

لا يجوز لنا أن نرتاع من كثرة المشاكل وأن نفزع من هول العقبات، بل يجب علينا أن نؤمن ايماناً راسخاً بأن تلك المشاكل والعقبات ستتلاشى أمام نهضتنا القومية ، وستزول أمام حقنا في الوحدة والحياة » .

وحدة اللغة والتاريخ

وتأسيساً على هذا الفهم يتحدد مفهوم الشخصية القومية عند الحصري على أساس من وحدة اللغة ووحدة التاريخ ، وعنهما «تتولد وحدة المشاعر والمنازع ، ووحدة الآلام والآمال ، ووحدة الثقافة » .

وحين يذهب الحصري هذا المذهب ، فانه يؤكد ما يذهب اليه علماء اللغة المحدثون(٧) من أنه اذا كان للقومية وجود حقيقي او مفهوم محدود فانه يجب أن نتلمسه في تلك الرابطة الوثقى التي تؤلف بين أفراد المجتمع ، وتوحد بين أفكارهم وأحاسيسهم وعواطفهم ، والتي تسمى باللغة أو اللسان . فالقومية في حقيقة أمرها ليست إلا الشعور بما يجذب أفراد المجتمع بعضهم إلى بعض لتتألف منهم وحدة متميزة، وقد دلت الملاحظة الحديثة على أنه حين تقوى الصلة بين مناطق مجتمع من المجتمعات ، وتسهل بينها وسائل الاتصال ، تتكون لها مع الزمن «لغة مشتركة » تقرب بينهم ، وتعين أهلها على تفاهم أسرع وأيسر ، وتقضي لهم مصالحهم الدنيوية .

واللغة المشتركة — هي كما يقول الدكتور أنيس — تعبير آخر لما يسميه السياسيون بالقومية ، ولذلك لم يكن من المصادفة أن القومية حين بدأت تتخذ شكلها في القرن الثامن عشر لم يكن روادها من العسكريين أو السياسيين ، وإنما كانوا من العلماء والشعراء والكتاب الذين حاولوا جهدهم أن يلتمسوا روح الشعب في الأساطير القديمة ، والأغاني مجهولة الأصل . وكانت اللغة في أعمال هؤلاء المفكرين اداة هذه الذكريات والتجارب المشتركة ، والسجل التاريخي(٨) .

لا غرابة بعد ذلك أن نرى ساطع الحصري يقف في مصاف المفكرين الألمان حين يؤمن معهم بأثر اللغة في تكوين القومية . ولعل هردر العالم اللغوي في أواخر القرن الثامن عشر كان أول من نبه الأذهان في كتبه إلى علاقة اللغة بنفسية الأمة وشخصيتها إذ يقول : « إن اللغة القومية بمنزلة الوعاء الذي تتشكل به ، وتحفظ فيه ، وتنتقل بوساطته أفكار الشعب . واللغة سواء قلنا أنها خلقت دفعة واحدة من قبل الله أم ذهبنا إلى أنها تكونت تدريجياً بعمل العقل ، لا يمكن أن نشك في أنها الآن تخلق العقل ، أو على الأقل تؤثر في التفكير تأثيراً عميقاً ، وتسدده وتوجهه توجيهاً خاصاً . والأدب الذي يسود بين الطبقات العليا من الأمة يعكس تأثيرات خارجية أو أجنبية ، ولكن لغة الشعب تمثل في كل روح، الشعب نفسه . إن لغة الآباء والأجداد بمثابة مستودع لكل ما للشعب من ذخائر الفكر والتقاليد والتاريخ والفلسفة والدين . إن قلب الشعب ينبض في لغته . إن روح الشعب يكمن في لغة الآباء والأجداد »(٩) .

وتأسيساً على هذا الفهم اتجه أبو خلدون إلى دراسة مسائل اللغة والأدب ، أو على حد تعبير الدكتور شاكر الفحام(١٠) — يعالج مشكلاتها بنظرات تربوية طوراً وقومية طوراً آخر ، وقد كتب له التوفيق في معظم مباحثه الأدبية القومية التي نجد أكثرها في كتابه : « اللغة والأدب وعلاقتهما بالقومية » والذي نشر أيضاً بعنوان : « آراء وأحاديث في اللغة والأدب » ، يقول الحصري في تأكيد أهمية عنصر اللغة في تكوين الشخصية القومية ان بلاد العرب هي « جميع البلاد التي يتكلم أهاليها باللغة العربية ، من جبال زاغروس في الشرق إلى المحيط الأطلسي في الغرب ، ومن شواطئ البحر الأبيض وهضاب أناضول في الشمال إلى المحيط الهندي ومنابع النيل والصحراء الكبرى في الجنوب . كلها تدخل في نطاق بلاد العرب(١١) .

عناصر الأصالة والتجديد في الشخصية القومية

وفي ضوء هذه الرؤيا القومية في فكر الحصري (أبو خلدون)يمكن التمييز بين عناصر الأصالة ومظاهر التجديد في الشخصية القومية ، فهو يقول : «يجب علينا أن نسلك ، بدون تأخر، وبحزم واندفاع ، مسالك التجديد في كل ساحة من سوح الحياة المادية والمعنوية والاجتماعية ، في اللغة ، والأدب ، في التربية والأخلاق ، في

العلم والفن، في السياسة والثقافة، في الزراعة والصناعة والتجارة، في البيت والمدرسة، في القرية والمدينة، في الشارع والحديقة»(١٢) فالمفهوم القومي - كما تقدم - هو مفتاح شخصية الحصري، وهذا المفهوم كما يقوم على عناصر أصالة فانه يقوم على التجديد كذلك، ويتفق الحصري معنا في اتخاذ هذا المفهوم مفتاحاً لشخصيته وفكره على السواء، حين أجاب عن سؤال عن قائمة مؤلفاته التي تدور حول القومية العربية، قال: «بناء عليه أرتب مؤلفاتي هذه على النحو التالي: «آراء وأحاديث في الوطنية والقومية - محاضرات في نشوء الفكرة القومية - ما هي القومية؟ - آراء وأحاديث في القومية العربية - العروبة بين دعاتها ومعارضيها - العروبة أولا - دفاع عن العروبة - صفحات سن الماضي القريب - آراء وأحاديث في اللغة والأدب - آراء وأحاديث في التاريخ والاجتماع - حول وحدة الثقافة العربية - البلاد العربية - البلاد العربية والدولة العثمانية - يوم ميسلون - آراء وأحاديث في التربية والتعليم - حولية الثقافة العربية - رسائل إلى بول مونرو - تقارير عن أحوال المعارف في سورية واقتراحات في إصلاحها».

ويذكر الحصري في محاضراته عن نشوء الفكرة القومية أن هذه الفكرة قد نمت وأخذت تتغلغل في النفوس في أوائل القرن التاسع عشر حتى أصبحت «من المبادئ والمعتقدات الفعالة التي تدفع إلى العمل».

فهذه الفكرة إذن - كما يذهب إلى ذلك الدكتور عادل العوار هي نوع من الأفكار - القوى، أو الفكر - القواتية كما يقول. إنها قوة أخلاقية أو قيمية كما نقول بلغة اليوم.

ولذلك عنى الحصري بتحليل أخطار النزعة الاقليمية التي تتمسك بالأمر الواقع كما يقول: «أما الفكرة القومية فتنزع إلى الأمل المنشود».

«إن النزعة الاقليمية تكون أشد تأثيراً في سواد الناس، وأكثر موافقة لمصالح النفعيين، لأن للدولة معالم مشهورة وملموسة، وسلطة فعلية: لها علم خاص يراه الناس، شرطة خاصة، وجيش خاص، وأوراق هوية وجوازات سفر خاصة، وحكومة خاصة مع نقودها الخاصة ومجالسها الخاصة. في حين أن فكرة القومية - عند تعدد الدول - تكون محرومة من أمثال هذه المعالم المادية، لأنها تبقى أمام هذه الدول بمثابة نزعة معنوية تجول في الخواطر، وتختلج في الصدور».

ويخلص الحصري إلى أن فكرة القومية العربية لم يتم نشوؤها ولكن المستقبل سيكون لهذه الفكرة القومية العربية العامة التي لا تزال في حالة نزاع وكفاح مع النزعات الاقليمية. انها لم تتغلب على تلك النزعات، ولكنها لم تستسلم اليها، ولما تكف عن مصارعتها ومكافحتها.

ويذهب الدكتور عادل العوار إلى أن هذه الجذرية الفكرية التي تستخلص «عمومية» الفكرة القومية العربية من حوادث التاريخ، تؤكد وجهة نظر الحصري المؤمن بمستقبل هذه الفكرة، وان هناك جذرية فكرية أخرى يصوغها، لا من مناقشات الوقائع التاريخية، كما فعل في كتاب «المحاضرات» التي القيت عام ١٩٤٨، بل من مناقشة الأحداث والنظريات على النحو الذي عرضه أبو خلدون في كتابه: ما هي القومية؟ ونشره في طبعته الأولى سنة ١٩٥٥. وهذه الجذرية الفكرية الجديدة من ذاتها التي انطلق منها في كتاب «المحاضرات» وهي التي أوجزها هو ذاته في كلمتي: اللغة والتاريخ. يقول في ختام بحثه الذي عرض فيه مختلف الأمثلة التاريخية وناقش من ثم أشهر النظريات القومية التي جاء بها «ريفان» و«ستالين» والماركسيون من جهة، أو التي تود ربط القومية بالدين كنظرية جمال الدين الأفغاني ورأيه في الوحدة الاسلامية وفي الجنسية أو القومية، وقد نفى عن الأفغاني أن يكون أراد بالجامعة الاسلامية معنى أن يكون للمسلمين كلهم دولة واحدة، وقرر في نهاية هذه البحوث والمناقشات ان أس الأساس في تكوين الأمة وبناء القومية هو: وحدة اللغة ووحدة التاريخ.

واذا كان التفكير القومي - كما يقول الدكتور العوار - يجاوز اليوم موقف الحصري، فقد كان له الفضل العظيم في الزيادة المؤمنة المناضلة في تأصيل مفهوم الشخصية القومية، وما رقى الحصري «برأيه في القومية العربية الى اعتباره رأياً ثابتاً حقيقياً صالحاً للقوميات كلها في كل زمان ومكان الا لايمانه وثباته عليها، ونقلها من صعيد الجزئي المحدود، إلى مستوى الكلي العام، وقد كان هذا هو ديدنه في فكره وعمله له على السواء» على حد تعبير الدكتور العوار.

ولذلك لم ينتسب الحصري إلى حزب أو حركة سياسية، وانما ظل مؤمنا بفكرته وفياً لها مناضلا عنها، ويتم حياته مثلما بدأها، يقيم في غرفة من فندق متواضع في القاهرة بعد استقالته من معهد الدراسات العربية العالية، رافضا أي عون مادي عرضه عليه عدد جم من الشخصيات العربية مؤثراً عدم الاستجابة الا لمثله الأعلى(١٣).

أبو خلدون والفكر الاجتماعي

في سنة ١٩٤٨ ألقى الحصري في الجمعية الجغرافية الملكية بالقاهرة ست محاضرات في نشوء الفكرة القومية في اوروبا والبلاد العربية تشير الى اتجاهه العلمي في توظيف الفكر الاجتماعي لمفهوم الشخصية القومية.

وحين عمل الحصري مستشارا للادارة الثقافية لجامعة الدول العربية جاءت حولياته الثقافية حول اوضاع التعليم في الأقطار العربية تضم المعلومات وأوضاع الثقافة العربية واتجاهاتها في القرن العشرين(١٤).

وفيها يبين الحصري، «ان الفروق في نظم التعليم واتجاهاتها الثقافية لم تكن نتاج طبيعة البلاد الأصلية وحاجاتها الحقيقية، وانما كانت من نتائج السياسات الأجنبية التي سيطرت على مقدراتها»، واذا كان الحصري يطلق عليه لقب «رائد الوحدة الثقافية العربية» فان ذلك يرجع الى فلسفته التربوية التي أشاعها ضمن أفكاره في تأصيل المفهوم القومي، وإليه يعود الفضل الأكبر في عقد الاتفاقات الثقافية التي أدت إلى توحيد نظم التعليم في كل من مصر وسوريا والعراق والأردن. وهو كمنظر تربوي يستحق بجدارة ان يعد واحداً من رواد التربية الحديثة.

ولقد ترك الحصري عددا كبيرا من المؤلفات التربوية بعضها كتب بالتركية، والكثير بالعربية ومؤلفاته في التربية يربطها خيط المفهوم القومي بمؤلفاته في الاجتماع واللغة، ولذلك ينظر اليه على أنه امتداد للمفكر الاسلامي الكبير ابن خلدون ولقد كان الحصري معجباً به، وسمي ولده «خلدونا» وعكف على «مقدمة ابن خلدون» وآثاره يقتلها بحثا حتى الف عن ابن خلدون تأليفا عجيبا في عمقه فذا في اسلوبه(١٥).

ومما ألح فيه الحصري في كتابه هذا «دراسات عن مقدمة ابن خلدون» البرهنة على أن كلمة العرب الواردة في مقدمة ابن خلدون، وهي التي ولدت أغرب الالتباسات وأدت الى أسوأ النتائج، انما عني بها البدو والاعراب. وفي هذا رد على الشعوبيين الذين لا يفتأون يستشهدون بابن خلدون انتقاصا من العرب(١٦).

■

الهوامش:

١ – ساطع الحصري: آراء واحاديث في القومية العربية ط ٣ – ١٩٥٩ ص ٢٣.
٢ – د. عبد الحميد يونس: مجتمعنا ص ٥ وما بعدها
٣ – د. يونس: المرجع نفسه ص ٨.
٤ – ساطع الحصري: آراء وأحاديث في العلم والأخلاق والثقافة ط ١، ١٩٥١ ص٩٦.
٥ – د. شاكر الفحام: «كلمة العدد – ساطع الحصري» – مجلة المعلم العربي ٢٤، ٣ شباط وآذار (فبراير ومارس) ١٩٧٧.
٦ – د. شاكر الفحام: المرجع نفسه وساطع الحصري: آراء وأحاديث في العلم والأخلاق – مرجع سبق ذكره ص ٦٤ – ٩٦.
٧ – د. ابراهيم أنيس: اللغة بين القومية والعالمية ص ١٠٢ وما بعدها.
٨ – المرجع السابق ص ١٠٤.
٩ – ساطع الحصري: ما هي القومية؟ ص ٥٦.
١٠ – المصدر نفسه.
١١ – ساطع الحصري: العروبة أولا ط ٢ – ١٩٥٥.
١٢ – ساطع الحصري: آراء وأحاديث في التاريخ والاجتماع (ط ١، ١٩٥١) ص ١٦.
١٣ – د. عادل العوا: «الجذرية الأخلاقية لدى ساطع الحصري، مجلة المعلم العربي،» مرجع سبق ذكره.
١٤ – علي جبر: «مع الحصرى في منطلقاته القومية»، مجلة المعلم العربي، مرجع سبق ذكره.
١٥ – المرجع السابق – راجع كتاب الأستاذ الياس حرقص في «نقد الفكر القومي».
١٦ – المرجع السابق.



حوار حول ما ورد في «وثائق من التاريخ» حول طبيعة الامارة في الجبل

إعداد: د. وجيه كوثراني

كانت قد نشرت مجلة «تاريخ العرب والعالم» في باب «وثائق من التاريخ» في العدد ١٥ تاريخ ١٥ كانون الثاني / يناير ١٩٨٠م.، ثلاث وثائق تدور حول الصراع الدرزي – الماروني عام ١٨٤٠ – ١٨٤١ من «مجموعة المحررات السياسية» ترجمة فيليب وفريد الخازن. وقد اثارت هذه الوثائق بموضوعاتها جدلا انصب في شكل اساسي حول طبيعة الامارة في الجبل وعلاقة هذه الامارة بالدولة العثمانية. وقد وردنا من الدكتور زكي النقاش كتاب يحمل ردا على بعض الموضوعات – الوثائق وعلى ما ورد في تقديم الدكتور وجيه كوثراني لهذه الوثائق.

وفيما يلي، وفي اطار حوار مفتوح، ننشر رسالة الدكتور النقاش ورد الدكتور كوثراني عليها.

رسالة الدكتور زكي النقاش



ان ما نشرته مجلة «تاريخ العرب والعالم» على ثلاث صفحات ونيف من عدد شهري كانون الثاني ١٩٨٠ وصفر ١٤٠٠هـ. بقلم الدكتور وجيه كوثراني تحت عنوان «ثلاث وثائق تاريخية حول: الصراع الدرزي الماروني على امارة الجبل عام ١٨٤١» لهو من الأهمية بمكان، وانه ليستحق بالتالي الوقوف عنده، استجلاء لبعض جوانب تاريخ لبنان الذي ما زلنا نتلمس مصادره الموثوقة، تيسيرا للفوز بمؤرخ يرجع اليها ويتقيد بالموضوعية المجردة عن الهوى.

اما الأهمية التي يحسن ان تعطى للموضوع فتكمن فيما اطلق عليه «وثائق من التاريخ» زد على ذلك ان ناشرها الدكتور الكوثراني، يحتل مكانة يستحقها علمه، وهدفه هو في المشاركة في تحضير عناصر تاريخ وطننا

المفدى، لبنان العربي، الصحيحة والموثوقة.

من هنا كانت ضرورة الوقوف عند هذه «الوثائق الثلاث» التي كان ينتظر بعض المراقبين من الصديق وجيه ان يذكر مكان وجودها، او المرجع الذي استقاها منه. وكذلك كان يتوقع بعض المطالعين للمجلة ان يقرأوا للدكتور رأياً في مدى صحتها، وما اذا كان قد خامره شيء من الشك في حقيقتها وخلوص نية واضعيها، وذلك من خلال اللغة التي كتبت بها، فضلا عن بعض ما تضمنته من تعابير واقوال، قد لا تكون كلها تستحق الاخذ بها.

فمن دواعي الوقوف عند نص كل من الوثائق ما قد جاء، اولا، في الوثيقة الاولى: «عريضة الدروز الى الباب العالي بتاريخ آخر حزيران، سنة ١٨٤١، من قول، وهو التالي: «يطالبون (الدروز) السلطان بتعيين رئيس منهم كما كان الحال في عهد الشيخ بشير جنبلاط» أهـ. وهنا يتساءل البعض: وهل، حقا، كان هناك «تعيين .... في عهد الشيخ بشير جنبلاط»، علما ان لا احد ينكر قيام الصراع بين الشيخ الجنبلاطي والامير الشهابي عهد ذاك. والسؤال الثاني الذي يفرض نفسه، والموجه «بالفتحة على الجيم) للدكتور الكوثراني هو التالي: «وهل من الصحة في شيء القول: «كانت الدولة العثمانية، ويفعل التقليد الذي استمر (؟)، والذي تعتبر امارة «الجبل»، امارة للدروز (؟)، ولا تزال تعتبر (الدولة العثمانية) الامير الشهابي (بشير قاسم) «اميراً درزيا» و«أميراً على الدروز»؟.

وهل يجب التأكيد على ان لفظة «درزي» و«دروز» لم تكن معروفة قبل القضاء، عام ١٦٣٤، على مؤسس «لبنان الاكبر» الحقيقي، الامير فخر الدين المعني الثاني العظيم. نعم لم تكن تلكما اللفظتان «الدرزية» و«الدروز» معروفتين حتى ظهرتا في كتابات بعض الغربيين، حين تعرضوا للبحث عن اصل «الامير الخطير.. الذي تجاسر وعمل لاستقلال امارة صيدا وجبل لبنان» (عادل اسماعيل في كتابه: «تاريخ لبنان» من القرن السابع عشر حتى ايامنا باللغة الفرنسية، ج (١) ص XIV) عن الدولة العثمانية، لتكون «الدولة المعنية» بكل ما في الدولة من ابعاد: سياسة، واستقلالية، واجتماعية، واقتصادية. فمن اين جاء «ذلك التقليد الذي استمر والذي... والذي....»؟.

هذا مع العلم ان المعنيين لم يكونوا على مذهب «اهل التوحيد»، بل كانوا على مذهب «اهل السنة». وليس قولنا هذا دفاعا عن... ولا شجباً لـ... بل هو تقرير للحقيقة، مع احترامنا الكلي للمذاهب الفقهية الاسلامية على اختلافها.

وكذلك يساءل بعضهم عن صدق التعبير القائل: «بالتوازن حول السلطة» بين الطائفتين اللبنانيتين والذي «كان الاخلال فيه، الى جانب عوامل اخرى سياسية مفجرا لتلك الصراعات»، الا يعتقد الدكتور الكوثراني ان التعبير القائل «بالتوازن في السلطة «بين الدروز» (؟) والنصارى (الموارنة) تعبير خاطئ وانه يقتضي تصحيحه، لأن السياسة الغاشمة التي ظهرت في ذلك العهد، قد خلقته للتغطية والتضليل؟

واني لالفت النظر الى ان بعض ماجاء في الوثائق من نصوص يحتاج الى التحري عنه والتثبت مما يعنيه، ثم ان لغة الوثائق الثلاث، تكاد تكون واحدة، مع بعدها عن لغة اهل ذلك الزمان من لبنانيين وعثمانيين. وكذلك فان دعوى الوثيقة الثالثة المسماة: «عريضة مسيحي دير القمر» والمتمثلة (الدعوى) في القول: «... فاستمروا (الدروز) على مهاجمة المسيحيين (كذا) والاعتداء عليهم خارج المدينة» دعوى باطلة، لأن الموارنة انفسهم كانوا منقسمين بدليل ما جاء في ج (٢) ص (٤٨٧) من «كتاب اخبار الاعيان في جبل لبنان» اصدار الدكتور فؤاد افرام البستاني، لمؤلفه: الشيخ طنوس الشدياق، من القول التالي: «اما مشايخ النصارى الخائنون، فلما حضروا الى بعبدا، اخذ بعضهم يراسل وجوه دروز الشويفات» أهـ. اذن لم تكن «العريضة» على حق في دعواها النطق باسم «المسيحيين». هذا من جهة، ومن جهة ثانية، فاننا نقرأ في المرجع نفسه المذكور ص (٤٨١) ما يلي: «... وسارت النصارى (اقرأها الموارنة) ولما وصلوا الى كفر قطرا، اشاع نصارى (موارنة) رشميا ان الملكية = (الروم الاورثوذكس) قادمون لقتالهم...». كذلك نقرأ ص (٤٨٣) ما يلي: «اما الامير عبد الله قاسم فجمع خمسماية رجل من بلاد جبيل وحضر بهم الى بعبدا، وكان معه رجلان درزيان، فلما ابصرتهما النصارى (الموارنة) هجموا عليهما فقتلوا احدهما بغيا واحرقوه (كذا). وخلص الامراء الدرزي الآخر

منهم واطلقوه» أهـ. فما رأيكم في هذا القول؟ الا تدل بصراحة تامة على انقسام الموارنة (ولا اقول النصارى) على انفسهم، فضلا عن ان الروم الاورثوذكس لم يكونوا بجانب الموارنة، بل كانوا حلفاء «الدروز» في الخلاف والخصام. واخيرا نقرأ للدكتور كمال الصليبي في: «تاريخ لبنان الحديث» ص (٨٢): ففيما بقي الفوز حليف الدروز هناك (في البقاع)، تقهقر النصارى، وانقسموا بعضهم على بعض، وذلك ان الروم الاورثوذكس، وقد داخلهم الشك في نوايا (اقرأ: نيات) الموارنة... ترددوا في الانتصار لهم، بل انهم لم يتوانوا، في بعض الاحيان (؟) من الانتصار للدروز» اهـ. ولا بد من لفت النظر الى ان اللفظة «المسيحيون» الواردة في الوثائق الثلاث، تقابلها في مؤلفات العهد لفظة «النصارى» وهذا له دلالته بالنسبة «للوثائق التاريخية الثلاث».

اما الوثيقة الثانية، حاملة «الفرمان السلطاني»، الى الامير بشير قاسم بتاريخ ٣ ايلول ١٨٤٠، فلندع الكلام عن نصوصها ولغتها، ولنكتف بما علق به الدكتور الكوثراني على ما فعله الانكليز بشأن تاريخها اذ قال في الهامش رقم (١) ص (٥٢): «ان الانكليز استصحبوا هذا الفرمان دون تاريخ، ولكنهم اذاعوه في ١٠ تشرين الثاني من السنة نفسها المذكورة، وارخوه في ٣ ايلول ١٨٤٠ انتقاما (كذا) من الامير بشير عمر على نشرته الصادرة بالتاريخ ذاته، وارهابا بان لهم السلطان المطلق» أهـ. فان لهذا التعليق دلالته على ما يخامر البعض من الشك بامر تلك «الوثائق التاريخية».

وعليه لعله في الامكان توقع ما يجلو بعض الغموض في الموضوع.

بيروت في ١٩٨٠/١/٢٧

رد الدكتور وجيه كوثراني:

اشكر الدكتور زكي النقاش على اهتمامه بقراءة ومتابعة زاوية «وثائق من التاريخ» في مجلة «تاريخ العرب والعالم»، هذه الزاوية التي كان لي شرف اعدادها بناء على رغبة رئيس التحرير. ومهمة الاعداد هذه، صحيح انها لا تلزم صاحبها جهدا في التأليف، لكنها تحمله مسؤولية ما، مسؤولية الاختيار والتقديم.

نعتذر اولا من الدكتور زكي النقاش ومن جميع القراء عن الخطأ الذي حصل سهوا في سقوط اسم المرجع الذي اخذت منه الوثائق. والمرجع هو: مجموعة المحررات السياسية والمفاوضات الدولية عن سورية ولبنان، المجلد الاول ١٨٤٠ – ١٨٦٠، تعريب فيليب وفريد الخازن، جونيه ١٩١٠، ص ٢١ – ٢٢، ص ٥٠ – ٥٢، ص ٧٣ – ٧٥.

وهذه المجموعة هي بمعظمها ترجمة للمجموعة الوثائقية الفرنسية التي نشرها البارون (DE TESTA) بعنوان "Recueil des traites de la porte Ottomane avec les puissances Europeennes" Paris 1892-1894

وهذه الوثائق عبارة عن مراسلات السفارات والقنصليات الاجنبية في عاصمة ومدن الدولة العثمانية ومترجمة عن الفرنسية. وبالتأكيد قد تكون الترجمة قد خضعت لتحوير ما في مضامين اللغة. وهذا ما لاحظه الدكتور زكي النقاش بحق في صيغة اعادة ترجمتها الى العربية بواسطة فيليب وفريد الخازن. وهذا بالتأكيد هو احدى نقاط ضعف هذه الوثائق. وكنا نعتقد ان مجرد ذكر المرجع الذي سقط سهوا من الطباعة يكفي لاستنتاج طبيعة هذه الوثائق المترجمة عن الفرنسية. ولذلك لم نورد ذلك في التعليق الذي قدمناه. ومن هنا الاشكال الذي وقف عنده الدكتور النقاش وهو محق بذلك.

وعلى كل حال، من يطلع على النص الفرنسي في (DE TESTA) يلاحظ توافقا بين النص العربي المترجم لفيليب وفريد الخازن والنص الفرنسي في (DE TESTA).

هذا من جهة، ومن جهة اخرى، ان ايراد هذه الوثائق في باب «وثائق من التاريخ» في مجلة تاريخية عامة غير متخصصة، كمجلة «تاريخ العرب والعالم» ومتنوعة الاهتمام ومصادر الاقتباس، لا يتطلب تدخلا ونقدا تحليليا مفصلا لكل وثيقة تنشر من قبل من يقترحها للنشر، فاقتراحها للنشر من قبل من يعد هذه الزاوية، لا يلزم ابدا صاحب «الاعداد» على الالتزام بمضمون الوثيقة كلها، فلم يوردها مقترحها كاستشهاد على تحليل تارخي او رأي محدد بل كمصدر من جملة مصادر البحث، خاضع للنقد والرفض، مع كل

ما يطرحه ذلك من دلالات ومعان تاريخية.

كان لا بد من توضيح المنهج الذي سرت عليه في اعدادي لزاوية «وثائق من التاريخ». لكن استدرك فأقول اني مسؤول تماما عما ورد في تقديم الوثائق، ولذلك أعتبر نفسي مطالباً بالرد فقط على النقاط التي أثارها الدكتور النقاش انطلاقاً من التقديم.

يدخلنا الدكتور زكي النقاش في سجال ايديولوجي حول رؤية تاريخ لبنان، سجال يحاول ان يحصر النقاش كما استقر في عهد الانتداب الفرنسي وابان السنوات الاولى من الاستقلال في الاسطورة التي تقول بان «فخر الذين المعني الثاني هو مؤسس لبنان الاكبر الحقيقي» وفي الجدل الذي طرحته عملية التنافس بين الطوائف «الملبننة» في تمثل تاريخ لبنان وفي التقرب من هذا «المؤسس». فهذا المؤسس (فخر الدين الثاني) هو درزي بالنسبة للايديولوجيين الدروز وماروني، او قريب من الموارنة ومشجع لهم، بالنسبة للأيديولوجيين الموارنة، ومن اهل السنة، بالنسبة للأيديولوجيين الاسلاميين في المدن التي ادخلت في دولة لبنان الكبير.

والواقع ان هذه «الاسطورة» (اسطورة فخر الدين المؤسس للبنان) هي اسطورة مارونية في الاساس[1] «قبضتها» الطوائف الاخرى ودخلت في اسطورتها في سياق عملية الانخراط في لبنان — الامرالواقع (الدولة) لكن من موقع التزاحم والتنافس على ادعاء التأسيس.

وفي الوقت الذي تخلت فيه المارونية السياسية عن هذه الاسطورة (راجع دراسة من دراسات القضية اللبنانية تحمل عنوان: هل توحد لبنان مع فخر الدين الثاني؟)، نرى ان الدكتور النقاش لا زال متمسكاً بها من موقع اسلامي ملتحق بالمحور الماروني — اللبناني.

وهنا اعود الى الموضوعات التي طرحتها في تقديم الوثائق:

اولا: تهدئ من روع الذين يتقاتلون على التقرب من مؤسس لبنان والبحث عن طائفته بالتذكير بأنه لم يكن هناك ما يسمى «لبنان» في عهد فخر الدين المعني الثاني. فالامارة هي لعصبية آل معن الذين ولوا على بلاد الشوف، البلاد التي كانت تدعى «جبل الدروز» (راجع كمال الصليبي «تاريخ لبنان الحديث»، ص ١٢ — ١٣، وايضا عادل اسماعيل: جزء ٤ «تاريخ لبنان» بالفرنسية ص ١٢٤). وقد تولوا هذا المنصب على قاعدة عصبية محلية غالبة اقرت كسلطة محلية من قبل السلطان اي من قبل السلطة الاسلامية المركزية. وذلك كمقاطعجية، اي ملتزمين للضرائب وفق اسس النظام العثماني كما استقر ابتداء من القرن السادس عشر. فليس في الامر تأسيس لدولة ولا لاستقلال، بالمعنى الذي يتحدث عنه الدكتور النقاش بتأثير الايديولوجية اللبنانية، «الانعزالية» او «العروبية» لا فرق.

ان الصراع الذي خاضه فخر الدين هو مظهر من مظاهر الصراع بين «الملتزمين»، اي بين ممثلي سلطات الدولة العثمانية محليا (ولاة، امراء مشايخ اتراك وغير اتراك) وفي وقت بدأت المدن والدول التجارية الاوروبية تخترق المجتمعات العربية الاسلامية عن طريق «الامتيازات» والبعثات.. فالعصبية المعنية، عصبية درزية، بالمعنى السلطوي السياسي للكلمة، عصبية حاكمة في جبل الدروز. من هنا التسمية التي شاعت والتي سميتها تقليدا عثمانيا: «امراء جبل الدروز» او امراء عشائر الدروز». هذه التسمية استمرت كتقليد وان كانت قد فقدت اساسها المذهبي مع تنصر الشهابيين. والفرمان العثماني الذي يعتبر عام ١٨٤٠ الامير بشير الثالث «اميرا للدروز» وردت ترجمته الفرنسية عند (DE TESTA الجزء الثالث، ص ٨٣)، ويستشهد بمقطع منه الدكتور عادل اسماعيل في كتابه (تاريخ لبنان ج ٤، ص ١٠٧). وحبذا لو كنا نستطيع ان نحصل على الفرمان العثماني (التركي) نفسه.

ثانيا: ان هذه التسمية «جبل الدروز»

(١) من المفيد جدا مراجعة محاضرة الدكتور كمال الصليبي: «فخر الدين والفكرة اللبنانية» نشرت في كتاب «ابعاد القومية اللبنانية»، محاضرات جامعة الروح القدس، ١٩٧٠.

هي التي تتكرر في الوثائق وفي كتب الرحالة للدلالة على المناطق الممتدة من المتن حتى جزين. اما لبنان «جبل لبنان» فلم يكن التعبير حتى نهاية القرن الثالث عشر يعني اكثر من المناطق الشمالية التي يقطنها الموارنة: جبة بشرى، بلاد البترون، جبيل (كمال الصليبي، تاريخ لبنان الحديث، ص ١٢). وحتى كسروان فانها كانت مقاطعة مستقلة، تذكر بصورة منفردة من جبل لبنان كما نلاحظ ذلك في كتابات (VOLNEY) عن رحلته في سورية في اواخر القرن الثامن عشر.

واما عن امتداد «الامارة المعنية» فهذا الامتداد ليس له اي دخل بلبنان الكبير او «الاكبر».. انه امتداد في التزام الضرائب وصل الى صفد وحمص وابواب دمشق.. من هنا كان الصراع مع ولاة المنطقة بصفتهم «الملتزمين» الأهم. وهذا الامتداد لا يمكن ان نفسره منهجيا الا باستخدام مفاهيم ابن خلدون عن العصبية والسلطة، فالعصبية التي تستطيع ان تستتبع العصبيات المجاورة هي العصبية التي تقوم كسلطة، ومن هنا اقرارها الشرعي (تعيينها) من قبل السلطان.

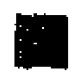
ان الدور الذي لعبته العصبية والتحالفات العائلية هو الذي جعل الانتماء المذهبي في ايام المعنيين يختفي ليبرز الانتماء العصبوي (قيسية ويمنية) حيث تنخرط الانتماءات المذهبية في الانتماء الحزبي - السياسي (العصبية). ولم يبرز الانتماء المذهبي - الديني «كعصبية طائفية» الا مع بداية تنصر الشهابيين، ولكن بشكل اساسي مع التغلغل الاوروبي الاقتصادي والثقافي وتفكيك لحمة المجتمعات الشرقية (ابتداء من منتصف القرن التاسع عشر).

واللافت للنظر ان تعبير لبنان لم يستخدم بصورة واضحة الا للدلالة على جبل لبنان وبصورة خاصة ابتداء من تأسيس متصرفية الجبل. ويعبر الدكتور الصليبي عن هذه الفكرة بقوله: «لم تستعمل عبارة «لبنان» استعمالا رسميا محدد المضمون، الا بعد انشاء المتصرفية اللبنانية. فالمعنيون حين حكموا مناطق لبنان الجنوبية ثم وسعوا حكمهم في غضون القرن السابع عشر حتى شمل معظم المناطق الشمالية عرفوا بـ «امراء الدروز» لا «امراء لبنان» وكذلك عرف حلفاؤهم الشهابيون، بين ١٦٩٧ و١٨٤١. مع ان هؤلاء لم يكونوا من الدروز وانما من السنة الذين تنصروا في ما بعد» (الصليبي ص ١٢). ونذكر الدكتور النقاش ان لفظة «درزي» عنت بالاضافة الى الطائفة، انتماء سكنيا في «جبل الدروز»، من هنا قال بعض الرحالة عن الموارنة انهم دروزا وتحدثوا عن «اديرة الدروز» و«رهبان دروز». واما فيما يخص ملاحظة الدكتورالنقاش لاستخدام الوثائق تعبير «المسيحيين» والتذكير بان التعبير الذي كان يستخدم هو «نصارى» فصحيحة. ولكن الترجمة الفرنسية استخدمت تعبير (CHRETIENS) وكان المترجمان فيليب وفريد الخازن امينين للنص الفرنسي حرفيا كما ورد عند (DE TESTA).

ويبقى الدكتور النقاش والقراء احرارا في مناقشة «مجموعة المحررات السياسية» والتي بمعظمها ترجمة عن مجلدات (DE TESTA) ومقترح نشر هذه الوثائق بصيغة الاعداد في مجلة «تاريخ العرب والعالم» مسؤول فقط عن ارائه الواردة في التقديم فقط. وهذه الآراء ثمرة جهد طويل في البحث كنا نرجو الدكتور النقاش ان يطلع عليها في الابحاث المختصة والمنشورة ومنها كتابي «الاتجاهات الاجتماعية - السياسية في جبل لبنان والمشرق العربي» ١٩٧٦، ومنها ايضادراسة (D CHEVALLIER) القيمة: "Societé du Mont-Liban à l'époque de la révolution industrielle en Europe" paris, 1971

ومنها ايضا دراسة تاريخية سوسيولوجية اعدت في معهد العلوم الاجتماعية، الجامعة اللبنانية، ١٩٧٥ وعنوانها: «الملكية والعلاقات العائلية في جبل لبنان ابان العهد العثماني»، د. مسعود يونس.

نشكر اخيرا الدكتور زكي النقاش على اهتمامه بما نكتب، ونرجو منه ان يساهم في تخليص علم التاريخ في لبنان من المنهج السجالي الايديولوجي الذي يقع فيه معظم المؤرخين اللبنانيين.



ملف الوطن العربي

البحرين



جوهرة في حضن الخليج

إعداد "قسم التوثيق والأبحاث"



هناك في نقطة ما من على اليابسة، كان يتجمع الملاحون بعد رحلة طويلة محفوفة بالمخاطر بين أراضي ما بين النهرين ومنطقة نهر السند. نقطة تتميز بالحماية الطبيعية، ووفرة المياه العذبة التي ألبست أراضيها الساحلية بالخضرة الكثيفة.

نقطة تسابق المؤرخون على وصفها بالنعوت المختلفة، منهم من قال عنها بأنها أرض مقدسة طهور، ومنهم من وصفها بلؤلؤة الخليج ومنهم من جعلها أنشودة الخليج الدائمة...

تلك النعوت المختلفة لم تكن سوى لمنطقة البحرين التي نقول عنها نحن بأنها «جوهرة في حضن الخليج» جوهرة لتمتعها بسواحل فياضة باللآلىء، وهي في حضن الخليج لكونها تتوسط منطقة الخليج العربي.

البحرين والحضارات الانسانية القديمة :

وفي جولة عبر العصور السحيقة، وجدنا بأن الانسان البحريني هو صاحب جذور عميقة في تاريخ الحضارة الانسانية تمتد إلى ما قبل التاريخ عبر خمسين ألف سنة[1].

فهو عرف حضارة العصر الحجري من خلال سكان بلاده الصيادين الذين كان لهم مواقع للسكن وجدت آثارها على جبل الدخان وعلى طول الساحل القديم.

كما أن هناك بعض الأدوات التي تعود إلى ٧٠٠٠ - ٨٠٠٠ سنة خلت، تنبىء عن وجود زراعة في الأجزاء الساحلية الغربية من جزيرة البحرين حيث توجد اليوم بعض النباتات المبعثرة. ومن العصر نفسه نجد أيضاً قطعاً من حجر الصوان مقطوعة بشكل أنيق على هيئة رؤوس سهام، وهذا يدل على أن الانتاج الزراعي كان يدعم بانتاج من لحوم الحيوانات التي كانت تصاد بالقوس والنبل.

وبينما نجد حضارة العصر الحجري في البحرين قد عرفتها غيرها من المناطق المجاورة، إلا أننا نجد بأن الانسان البحريني قد تميز عن غيره بأنه إلى جانب معرفته بحضارة العصور الذهبية والبرونزية والحديدية والتي تبدأ بالعصر الذهبي ٢٠٠٠ - ٣٠٠٠ قبل الميلاد، فانه استطاع أن يجعل من بلاده البحرين مدينة تجارية بارزة ومتقدمة تقدماً فائقاً ظلت لمدة تزيد على ألف سنة مهيمنة على التجارة البحرية في أقطار الخليج العربي.

وقد أيد علماء الآثار ذلك، وأكدوا على أن البحرين قد شهدت في تلك الفترة تطوراً كبيراً وإنها كانت بمثابة همزة وصل تجارياً وحضارياً بين العالمين المتمدنين آنذاك وادي الرافدين ووادي نهر السند (العراق والباكستان حالياً).

كان يطلق على الشعب الممارس لتلك التجارة البحرية (آلك ديلمون) أي شعب ديلمون. وديلمون هي أحد الأسماء الكثيرة التي عرفت بها بحرين اليوم. فهناك اسم تلمون (Tilmun) وبرديسو[2] (Paradeso) وتيلوس (Tylos) تيلوون (Tilwun) وجميع هذه الأسماء الأجنبية من الممكن أن تكون قد أطلقت على الجزر فقط، أما البحرين فقد عرفها مؤرخو العرب القدامى بأسياف البحرين[3] وأطلقوا عليها مختلف الأسماء المقدسة، كأرض الله وأرض البحر وأوال والمحرق.

وهذان الاسمان الأخيران فقد أطلقا على البحرين الحالية لتقديسها، فأوال صنم - بن وائل كانت تعبده وتدعو إلى تعظيمه، وقد عمت عبادة هذا الصنم أنحاء الجزيرة.

أما محرق، فهو صنم لعبد القيس وقد عرف باسم محرق لأن عبدته كانوا يقدمون إليه القرابين البشرية محروقة.

جميع هذه الأسماء الأجنبية منها والعربية إن دلت على شيء، فانما تدل على ما كان للبحرين من مكانة وقدسية لدى الشعوب التي استوطنتها. فهم على اختلاف مراحلهم، نجدهم يتفننون بابتداع الأسماء المقدسة ويطلقونها عليها. ونجدهم أيضاً يتغنون بها شعراً ينتقل إلينا عبر العصور والأجيال كشعر «أنكي» إله المياه العذبة الذي قال :

«بأنها أرض مقدسة طهور، لا ينعب فيها الغراب.. ولا يفترس الأسد، ولا أحد يمرض.. ولا أحد يشكو ولا أحد يقول : عيني تؤلمني.. رأسي يوجعني.. لا أحد يشيخ، ولا أحد يقول : المرأة تصبح عجوزاً.. الرجل يصبح كهلاً».

وبعد أن يبارك «أنكي» أرض ديلمون

بالماء العذب يمنحها كل فواكه الأرض

ذلك النص الشعري ما هو إلا تأكيد على ما جاء به المؤرخون من أن جزر البحرين كانت مقدسة ، ويؤيد أقوالهم هيرودوت أبو التاريخ ، فقد كتب منذ آلاف السنين بأن أهالي المناطق المجاورة كانوا ينقلون موتاهم إلى قبور لهم في جزيرتي تيلوس والمنامة وإلى المحرق في مواكب مقدسة .

البحرين .. الشاطىء الفينيقي الآخر .

لا يسعنا أن نختم حديثنا عن البحرين والحضارات الانسانية السابقة ، ما لم نشر إلى الفينيقيين وعلاقتهم بأهل البحرين . يقول هيرودوت ، أن الفينيقيين جاؤوا من الخليج العربي ، وأصلهم من كنعان وموطنهم البحرين ، فالقبائل الكنعانية سكنت منطقة « أرض الله » . وعمرتها وأنشأت حضارتها ، وفي أوائل الألف الثالث قبل الميلاد ، هاجر قسم منها إلى بلاد الشام وسكنوا السواحل وعمروا الجبال وعرفوا هناك بالفينيقيين .وذكر سترابون الجغرافي وهو من أئمة الجغرافيين اليونانيين ، أن أوال قد وجد فيها مقامات ومعابد قديمة هي من بقايا مدن فينيقية .

والدكتور جواد علي وهو من الثقاة في البحث التاريخي ، يذكر بأن المقابر التي ظهرت في البحرين هي للفينيقيين .

ومما يقول الرحالة اللبناني أمين الريحاني في كتابه « ملوك العرب » صفحة ١٩٠ ، « أن علماء التاريخ وعلماء الآثار إذن متفقون مع الأنبياء ، على أنه مهما كان أمر الأساطير وبعدها عن الحقائق فمن المعقول أن الفينيقيين وهم من الشعوب الشرقية السامية ، ومن رجال الدين الأولين ، نشأوا في جوار الخليج أو فيه ، وكانت أسفارهم في البداية بين الهند والشام ومصر ، ثم ظعنوا إلى سواحل سورية وخاضوا البحر الأبيض فوصلوا إلى قادش وبلاد الغال وأصبحوا في تلك الأيام الصلة التجارية الوحيدة بين الشرق والغرب الأقصى » .

وأخيراً حري بنا أن نكتفي بهذا المقدار من الشواهد التاريخية على فينيقية البحرين ، مفسحين المجال أمام محطات حضارية أخرى في تاريخ البحرين ، معتمدين في ذلك على أنه ما ذكر من شواهد قد أصبح غني عن البيان والتأكيد بأن الخصائص الحضارية الأصيلة للشاطئين الفينيقيين - لبنان والبحرين - هي واحدة في أكثر من جانب(٤) .

البحرين في العهد الاسلامي

«ليس بين مسقط والبصرة أجمل من مركز هذه الجزيرة . وليس أصلح منه للتجارة او للحرب . فهي تتوسط الخليج في زاوية حصينة منه كأنها بارجة راسية في جون متسع بين قطر والقطيف بل كأنها ، وهي عند مهد اللؤلؤ ، جوهرة في جيب الخليج . فلا عجب اذا تسابق اليها الفاتحون في قديم الزمان ، وتنازعها من الأمم ذوات الصولة والعرفان »(٥) .

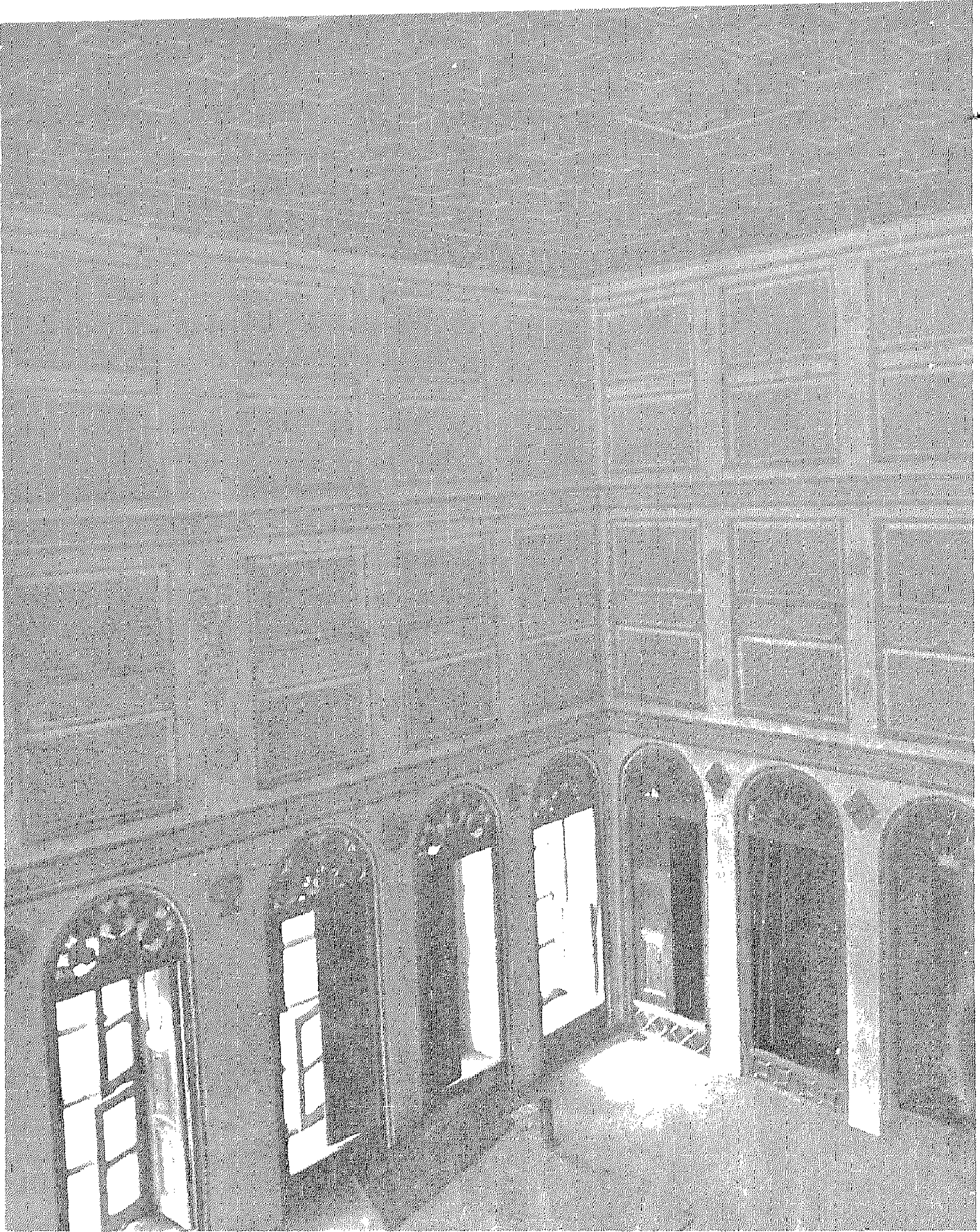
إن هذا الوصف الجميل الذي أتانا به الرحالة اللبناني أمين الريحاني عن البحرين لغني عن التعليق ، وكل ما نستطيع قوله أن تلك البلاد قد دفعت ثمن جمال موقعها واستراتيجيتها غاليا ، من خلال ما تعرضت له من حروب وغزوات .

فهي عرفت العصر الجاهلي من خلال قبائل عبد القيس ووائل ثم اعتنقت الاسلام في السنة السادسة للهجرة على يد مبعوث النبي (ص) وأحد صحابته العلاء بن الحضرمي ، ولكن اهلها عادوا فارتدوا عن الاسلام بعد وفاة الرسول الكريم (ص) كما ارتد غيرهم من سائر انحاء الجزيرة ، وقد أدت ردتهم الى خروج العلاء بن الحضرمي من البحرين ليعود اليها من جديد على رأس لواء من الجيش عقده له ابو بكر ليحارب به المرتدين وينتصر عليهم ومن ثم امره عليها استجابة لطلب اهلها .

دانت البحرين بعد ذلك للخلفاء الراشدين ثم لبني امية ، وقد شهدت ابان حكمهم ثورات عديدة منها ثورة مسعود بن أبي ربيعة على عاملهم هناك وتغلبه عليه وتنصيب الأشعث بن عبد الله الجارودي والياً مكانه فحكمها تسع عشرة سنة .

وقد حاول الأمويون فرض سيطرتهم من جديد على الجزيرة ، الا ان زمام الأمور كان قد فلت من ايديهم ليتسلمه العباسيون .. ويقيموا في البلدان والأمصار التي كانت تابعة للأمويين .

احتل عقبة بن مسلم البحرين من قبل ابي جعفر المنصور الخليفة العباسي . وظل عمال العباسيين حاكمي الجزيرة والاحساء حتى سنة



« المحرق » : الهندسة الاسلامية الرائعة

٢٤٩هـ — ٨٢٩م. عندما استولى عليها رجل يدعى صاحب الزنج(٦) ، أحد الأنبياء الكاذبين، الذي خرج على رجال الدولة العباسية داعياً الناس الى طاعته. وكان اهل البحرين اول من أمنوا به ورفعوه الى مقام النبوة وجبوا له الخراج وقاتلوا عمال الخليفة.

وقد استمرت ثورة صاحب الزنج اكثر من اربع عشرة سنة اهرقت خلالها كثير من الدماء وشهدت البلاد الكثير من المآسي، وقد انتهت بمقتله سنة ٢٧٠هـ، تنفست بعدها البلاد الصعداء ولكن لمدة قصيرة لتعود وتشهد من جديد ظهور داعية متهور اخر هو ابو سعيد القرمطي، الذي جاء من خورستان الى الكوفة في العراق حيث اخذ يدعو فيها الى إمام من أهل البيت قيل انه محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق وقيل انه محمد بن الحنفية. وكان

القرامطة تارة يدعون لهذا وطورا لذاك، وفي كلتا الحالتين فتنة على الدولة العباسية.

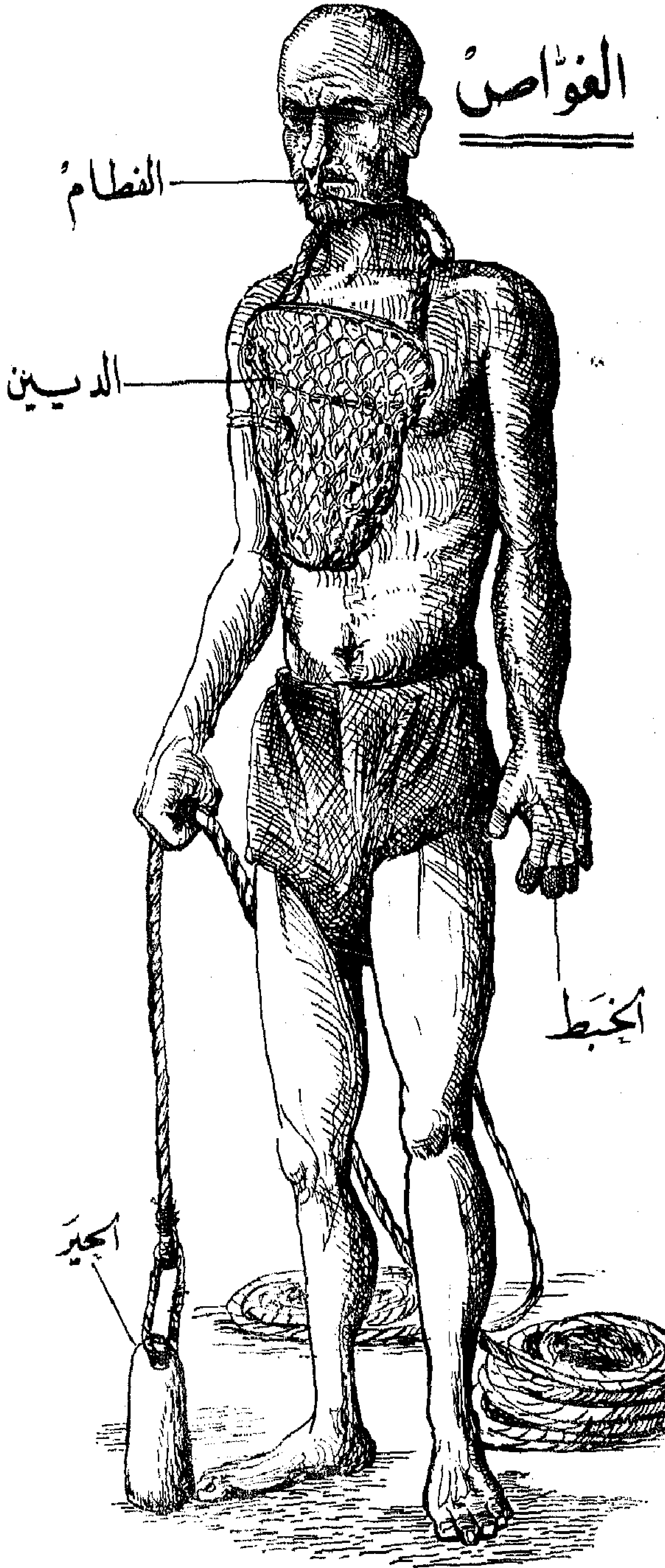
إشتدت حروب القرامطة على الخلفاء العباسيين وتعددت فظائعهم وانتزع زعماؤهم الملك من عمال العباسيين في عمان والحسا والقطيف والبحرين التي ظلت في حوزتهم الى ان ضعف أمرهم وبدأت سيادتهم تتلاشى وتسير نحو الزوال في منتصف القرن الخامس هجري حيث استطاع امير عربي هو عبد الله بن علي العيوني ان ينتزع الحكم من ايديهم وينشئ دولة العيونيين التي استمرت زهاء مئتين وخمسين سنة. ومن ثم ظلت البحرين حتى نهاية القرن الخامس عشر ميلادي تحكم حكما قبليا من قبل حكام واسر وطوائف عربية مستقلة من منطقة شرق الجزيرة العربية وسواحل الخليج العربي.

البحرين من البرتغاليين والفرس إلى آل خليفة.

احتل البرتغاليون البحرين سنة ١٥٢٢م. وحكموها حتى سنة ١٦٠٢م، حيث هزموا نهائيا من قبل أمير شيراز آنذاك الذي أرسل قوة عسكرية لمقاومة الاحتلال البرتغالي. وبعد انتصاره عليهم ضم البحرين إلى إيران باسم الشاه آنذاك. وجدير بالذكر أن الايرانيين كانوا أقوى منافس للبرتغاليين في الخليج في تلك الفترة.

واستمرت إيران تحكم البحرين بصورة غير منتظمة زهاء ١٨٠ سنة. وحينما استولى عليها فرع « آل خليفة » من شيوخ العتوب أو بني عتبة الذين نزحوا من الكويت إلى الزبارة في شبه جزيرة قطر سنة ١٧٦٦م. وطرد الوالي الايراني منها، أرسيت منذ ذلك العهد أسس حكم آل خليفة في البحرين الذي استمر عبر التاريخ وما ظل مستمرا حتى يومنا هذا بالرغم من جميع الهزات والاضطرابات التي رافقته.

والأسرة الخليفية التي تحكم البحرين، تنتسب إلى تغلب بن وائل بن قاسط بن بني ربيعة من العرب العدنانية ويلتقي نسبها بالرسول الكريم (ص) بنزار، وتغلب بها قبائل وبطون وأفخاذ، منهم بنو فرسان وبنو عنزة وآخرون، لذا فهم والحالة هذه من العروبة في الصميم.



الغواص وأدوات غوصه

بحرين .. أليوم .

يطلق اسم البحرين اليوم على مجموعة الجزر الواقعة في وسط الخليج العربي منفصلة عن ساحل قطر والقطيف وتشكل بمجموعها بلداً عربياً مستقلا ملتحما بالحضارة العربية وبالكيان العربي الكبير الذي كانت البحرين جزأ منه منذ عهود موغلة في القدم. وأهم الجزر التي تتألف منها الدولة هي :-

المحرق وسترة والنبي صالح وأم النعسان وجزر حوار. أما البحرين فاسم يطلق على أكبر جزر الدولة وفيها العاصمة التي تعرف بالمنامة ويسمى ميناؤها بعروس الخليج الذي يقال بأنه من أجمل شواطىء العالم(٧).

وسكان البحرين كغيرهم من سكان سواحل الخليج العربي، عرب انحدروا من سلالات عربية كان بعضها يسكن تلك المناطق منذ عهد بعيد والبعض الآخر نزح عن الجزيرة العربية. ويوجد أيضا بين السكان جاليات أخرى من إيرانيين وهنود وباكستانيين وبريطانيين أوروبيين وإفريقيين وغيرهم.

ويدين معظم السكان بالدين الاسلامي، كما أنه يوجد بعض المسيحيين وقليل من اليهود وغير ذلك من أصحاب المعتقدات الأخرى.

آثار البحرين :

إن أبرز المعالم الأثرية في البحرين تتمثل في معابد باربار، وقلعة البحرين ومسجد الخميس. هذا عدا ما تضمه جنبات متحف البحرين من آثار تدل على عظمة حضارات دلمون المتعاقبة.

معابد باربار :

إن هذه المعابد تغطي فترة حضارية يبلغ مداها مئات من السنين وتعود إلى ٢٠٠٠ سنة قبل الميلاد. وهي معابد متعاقبة بني الواحد تلو الآخر. وأقدمها وأصغرها هو الذي يقع في بطن التل وقد بني من الأحجار الموجودة في جزيرة البحرين ذاتها، بينما بنيت المعابد الأخرى من حجر كلسي جميل اقتلع من جزيرة جدة الواقعة في الشمال الغربي من ساحل جزيرة البحرين.

ولمعابد بربار علامات تشبه تلك التي تنتمي إلى حضارة وادي الهندوس في باكستان، وكذلك إلى حضارة السومريين في العراق، غير أن بناء تلك المعابد وما وجد فيها من آثار تدل بصورة واضحة على أن حضارة « دلمون » كانت منفردة بذاتها عن الحضارتين المذكورتين.

وهذه المعابد جميعها ليست إلا دليلا تذكارياً للشعب الذي أدار دفة التجارة عبر البحار في العصر الألفي الثالث ق.م.

قلعة البحرين :

إن أقدم مدينة في البحرين تقع مختفية تحت أضخم قلعة تاريخية التي هي قلعة البحرين القديمة. تقع هناك ست مدن فوق بعضها البعض على تل تغطية الرمال.

وفي سنة ١٥٢٢ م، قام البرتغاليون بتوسيع قلعة قديمة كانت قائمة على رأس التل وأحاطوها بخندق جاف يبلغ طوله ثلاثين قدماً. وظل البرتغاليون يستخدمونها طيلة ثمانين عاماً، حتى أنها ظلت تستخدم بين وقت وآخر حتى أوائل هذا القرن.

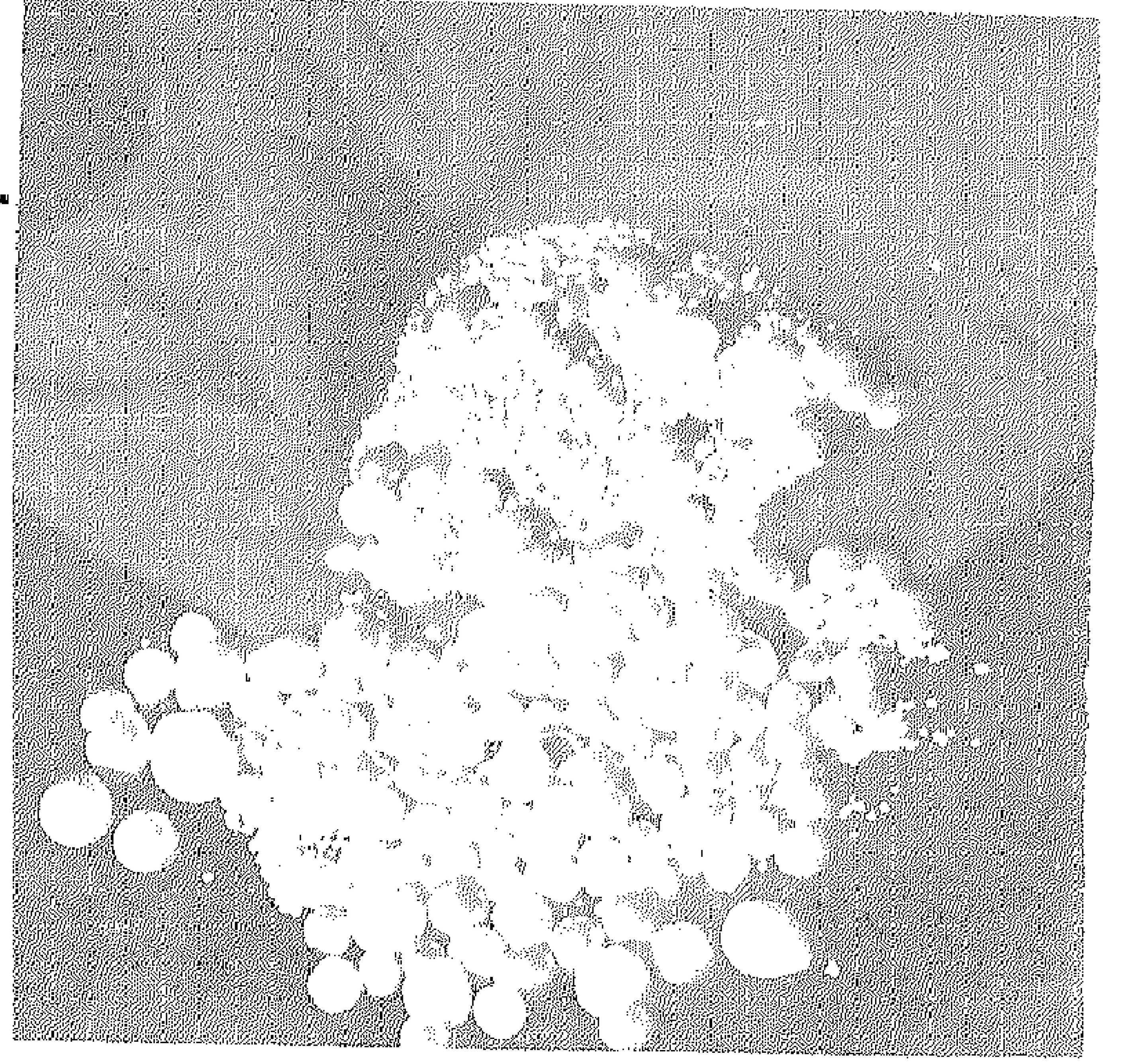
مسجد الخميس :

تشير الكتابات الأثرية في المسجد إلى أن تاريخ بنائه يعود إلى النصف الثاني من القرن الحادي عشر ميلادي، وتنسبه إلى أبي سنان محمدابن الفضل عبد الله ثالث وال عيوني يتولى حكم البحرين مع نهاية القرن الحادي عشر ميلادي.

وقد جدد المسجد مرتين، المرة الأولى سنة ١٣٤٠ م، كما تشير إلى ذلك الكتابات الحجرية التي وجدت في المسجد، والمرة الثانية في القرن الخامس عشر. ويعتقد أن المنارتين اللتين يتميز بهما منظر المسجد قد أقيمتا أثناء التجديد الأول، وبقايا المسجد الحالية تعود أيضا إلى زمن التجديد الأول، إلا أن بقايا حجر القبلة هي من البناء الأصلي.

وإلى الجهة الجنوبية من مسجد الخميس وبعد القرية ذاتها يقوم مسجد بسيط في بنائه يعرف بالمسجد الرفيع. وأهم ما فيه كتابة كوفية احتفظت بوضوحها وهي تشبه كتابات مسجد الخميس، وتنتسب من حيث النمط إلى الكتابات العباسية التي وجدت في مدينة سامراء التي يعود تاريخها إلى القرن التاسع ميلادي.

لايمكن أن ننهي حديثنا عن الآثار في البحرين دون التعرض لذكر أهم صناعتين تقليديتين رافقتا أهالي البحرين منذ غابر الأزمان وتعتبران من أهم الآثارات الحية التي لا زالت ترافق ابن البحرين. وهما صناعة



لا زال لؤلؤ لبحرين يجذب أنظار التجار العالمين

اللؤلؤ وصناعة السفن .

ترتبط صناعة اللؤلؤ والغوص عليه بتاريخ البحرين ، فاللؤلؤ كان مصدر الدخل الرئيسي ومحور التجارة حتى قبل الثلاثينات بقليل . وقد عمل في صناعة اللؤلؤ معظم أهل البحرين من غواصين وتجار ومصدرين . وقد كان الغواص مادة دسمة لكثير من الحكايا والأساطير . وموسم الغوص كان من أكبر المواسم وأهمها في البحرين ، يشكل بحد ذاته مهرجاناً شعبياً ، إذ يخرج فيه الأهالي يقرعون الطبول ويهزجون – إلى حيث ترسو سفن الغوص بالألوف ، فيودعون الراحلين إلى أمكنة الغوص ويتمنون لهم التوفيق برحلتهم في موسم الغوص الجديد الذي يبدأ عادة في أوائل شهر حزيران (يونيو)(٨) .

أما صناعة السفن ، فهي لا زالت ترافق البحريني وتعتبر جزءاً من تراثه الشعبي ، فهي إلى جانب بديهيات صنعها لارتباطها بحياة البحريني المعيشية ، إلا أننا نجد بأن ابن البحرين قد حرص إلى حد ما على الطريقة القديمة في صنع بعضها كمراكب الدو (Dhow) ، التي ما زالوا يزودونها بالمجاذيف بدلا من المحرك الآلي . أما من علائم التجديد القليلة في طريقة صنعها فتظهر في استعمالهم للمسامير الحديدية بدلا من الخشبية التي كان يستعملها أجدادهم .

هذا ومما يحلو ذكره ، إلى أننا نجد تلك السفن (الفولكلورية) تمخر عباب مياه الخليج جنباً إلى جنب ناقلات النفط الضخمة .

الهوامش

١ – يوجد في البحرين حوالي مئة ألف مدفن أثري تحتل مساحة عشرين ميلا مكونة بذلك أضخم مقبرة في العالم من عصر ما قبل التاريخ . ويتراوح ارتفاع هذه المدافن بين متر وعشرين سنتيمتراً إلى سبعة أمتار ، ، وارتفاع المدفن كان يستدل منه على مدى رخاء وغنى الشخص ، فكلما زاد ارتفاعه ، كان ذلك يعني أن الشخص أكثر ثراء .

ومن خلال ما تجمع من معلومات لدى أصحاب تلك التنقيبات الأثرية والتي رعاها حاكم البحرين السابق الشيخ سلمان بن حمد آل خليفة وأبناؤه يمكن إعطاء فكرة واسعة عن تاريخ البحرين خلال عصور ما قبل التاريخ عبر ٥٠ ألف سنة .

٢ – اسم برديسو يقابل في العربية « الفردوس » وقد جاء ذلك في نص بابلي يعود إلى عام ٣١٧ ق.م . ويقول الدكتور جواد علي في كتابه « تاريخ العرب قبل الاسلام » إن هذه التسمية حملت بعض العلماء على التفكير بأن ما ورد في التوراة عن جنة عدن ، إن هو إلا أغاريد المنطقة التي تقع على سواحل الخليج العربي .

٣ – أسياف البحرين ، هو اسم جامع لبلاد على ساحل خليج بين البصرة وعمان وكانت هي وعمان في أيام بني العباس عملا واحداً . (أنظر تاريخ الأمم الاسلامية للشيخ محمد الخضري) .

٤ – للتوسع في هذا الموضوع أنظر « دليل البحرين التجاري » لعام ١٩٦٣ ، الذي يرجح بأن الفينيقيين الذين سيطروا على سواحل البحر الأبيض المتوسط وأوروبا وتحكموا في تجارة العالم ، لم يكن هؤلاء الفينيقيون سوى بحرينين ، نزحوا إلى لبنان ومنه استعمروا العالم بذكائهم واختراعاتهم مثل صناعة الزجاج الملون والأرجوان ثم اكتشاف الأحرف الهجائية .

وقد أكد ذلك أيضا المؤرخ اللبناني الاستاذ يوسف ابراهيم يزبك من خلال محاضرة ألقاها في اليوم الأخير من المؤتمر العالمي الثاني للجامعة اللبنانية في العالم ، الذي عقد في بيروت في العشر الأخير من شهر آب عام ١٩٦٤ ، عن الفينيقيين اللبنانيين وأصولهم وفروعهم . وقد أنهى من خلالها كل جدل حول هذا الموضوع بتأكيده على أن البحرين هي موطن اللبنانيين الأوائل .

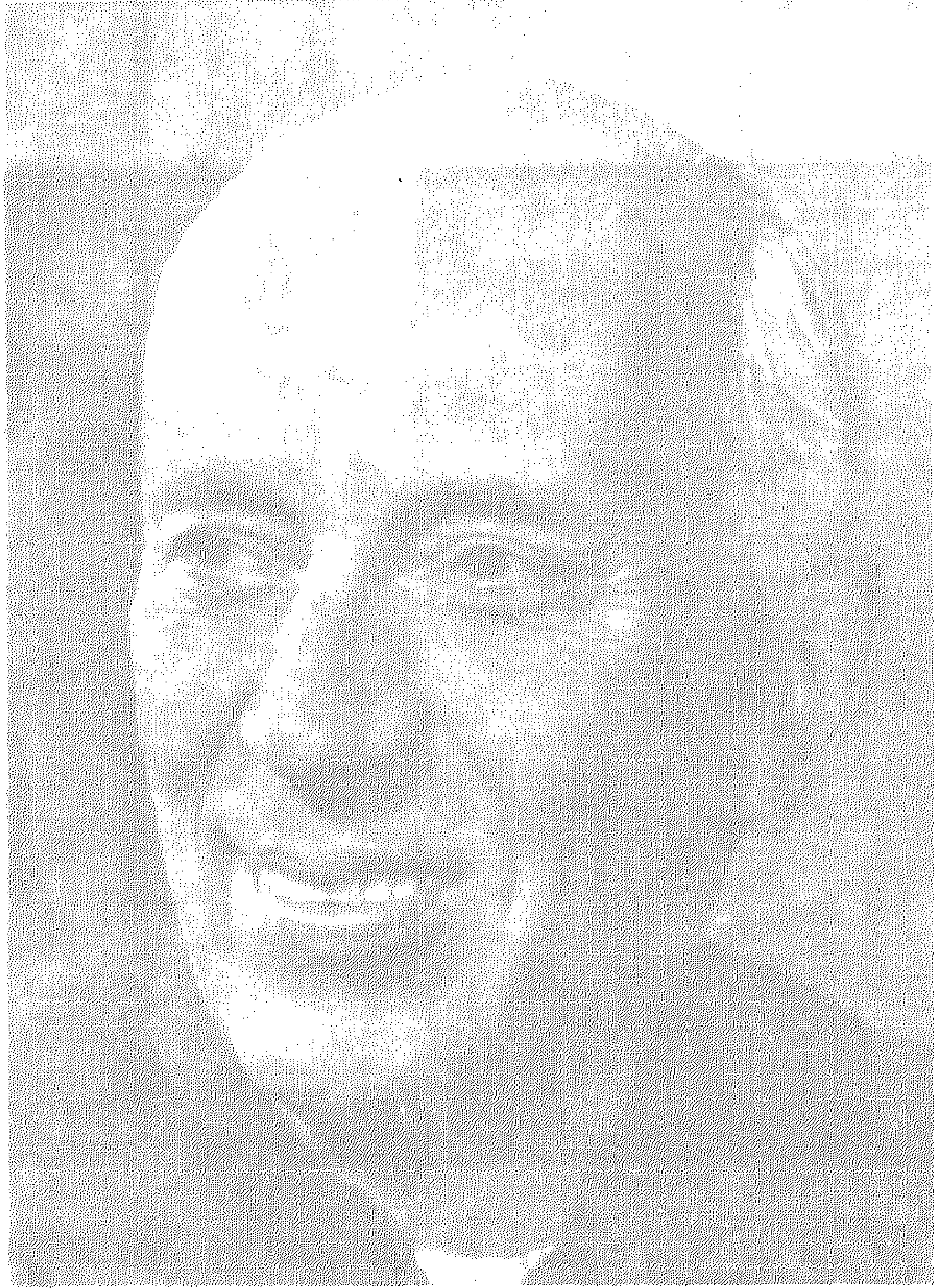
٥ – أمين الريحاني : ملوك العرب ، الجزء الثاني ، ص ٢٠٣ .

٦ – هو علي بن محمد بن عبد الرحيم بن عبد قيس .

٧ – مصطفى الدباغ : الجزيرة العربية ، ج ٢ – ص ٢٣٣ .

٨ – للتوسع في موضع صناعة اللؤلؤ أنظر : (Moslem World

Paul W. Harrison, Economic And Social Conditions In East Arabia. P. P. 167 — 170.



كيف يؤرخ نهرو لدخول الإستعمار الإنكليزي إلى الهند؟

لعل من المفيد وقد أصبح كلام نهرو الذي يمثل مرحلة تارخية معينة في نضال شعوب العالم الثالث - وثيقة تاريخية بحد ذاته - لعل من المفيد أن نسترجع نموذجاً من رؤية تاريخية للعلاقة بين الشرق والغرب وكيف يتمثل التاريخ، تاريخ الاستعمار وتاريخ العالم الثالث في فكر القيادات السياسية الشعبية لتلك المرحلة من تاريخ نضال شعوب آسيا.

وما تنشره فيما يلي هو عبارة عن رسائل لنهرو موجهة الى ابنته انديرا «مقتبسة من كتاب : لمحات من تاريخ العالم».

٥ ديسمبر ١٩٣٢



كتبت اليك من قبل ثلاث رسائل مطولة عن الهند في القرن التاسع عشر. وقصة الهند قصة طويلة تتضمن كفاحاً مروعاً متصلا فاذا اقتضبتها أكثر مما ينبغي فأخشى ما أخشاه أن أجعلها صعبة يستعصى فهمها.

ومن المحتمل أني أولي هذا العصر من قصة الهند اهتماما أكثر مما أوليه لأقطار أو عصور أخرى. وليس هذا أمر غير طبيعي، فلكوني هندياً فان اهتمامي بالهند أكثر من اهتمام غيري بها، ولكوني أعرف عن الهند أكثر



نهرو مع شاعر الهند الكبير طاغور

مما يعرف غيري فاني أستطيع أن أكتب عنها كتابة وافية أكثر مما يكتب الآخرون. وبجانب ذلك فان أحداث هذه الفترة تعني بالنسبة لنا شيئاً أكثر كثيراً من مجرد اهتمام أو عرض تاريخي.

فالهند الحديثة كما نجدها اليوم قد تكونت وتشكلت في مطلع القرن التاسع عشر. فاذا شئنا أن نفهم الهند على حقيقتها فعلينا أن نعرف شيئاً عن القوى التي تضافرت على خلقها أو الاضرار بها، فعن طريق هذا وحده نستطيع أن نخدمها بعقل وذكاء، وأن نعرف ما يلزم أن نفعله، وأي طريق يجب أن نسلك.

وأنا لم أنته بعد من الحديث عن هذه الفترة من تاريخ الهند، فلا يزال لدى الكثير عنها مما أود أن أحدثك به. وأنا في هذه الرسائل أجعل موضوع الحديث نقطة أو أكثر، ثم أعالج كل نقطة على انفراد لتكون أيسر فهماً.

ولكنك تعرفين بطبيعة الحال ان كل التغيرات وضروب النشاط التي حدثتك عنها، وكل التغيرات وضروب النشاط التي سأصفها لك في هذه الرسالة وما يليها من رسائل قد حدثت في وقت واحد تقريباً، وأثر أحدهما في الآخر، وأنتجت فيما بينها هند القرن التاسع عشر.

وقراءتك عن حسنات الانجليز وسيئاتهم في الهند تشعرك أحياناً بالغضب من السياسة التي اتبعوها، ومن البؤس الذي انتشر نتيجة لهذه السياسة.

ولكن على من تقع تبعة ما حدث؟ أليس الخطأ فيما حدث ناشئاً عن ضعفنا وجهلنا نحن؟ فالضعف والجهل دعوة إلى الطغيان واغراء به. وإذا كان الانكليز يفيدون من وراء انقساماتنا وخلافاتنا، فالخطأ خطأنا في أننا ننقسم على أنفسنا ونختلف فيما بيننا.

واذا كانوا يقسموننا ليضعفونا، واذا كانوا يحققون مأربهم في ذلك باللعب على أوتار الأنانية الفاشية بين أحزابنا وطوائفنا المتنافرة، فلا شك أن سماحنا بذلك هو في ذاته علامة على تفوق الانجليز. فاذا شئت أن تغضبي فاغضبي من الضعف والجهل والصراع المتبادل بين أحزابنا وطوائفنا، لأن هذه الأشياء هي المسؤولة عن مشاكلنا ومآسينا.

ونحن نقول أنه ظلم الانجليز واستبداهم. فظلم من؟ واستبداد من في الواقع؟ ومن يفيد منه؟ لا يفيد منه كل الانجليز، لأن ملايين منهم هم أنفسهم أشقياء مغلوبون على أمرهم. ومما

لا شك فيه أن في الهند طبقات وجماعات صغيرة قد أفادت قليلا من الاستغلال الانجليزي للهند. فأين نرسم الحد الفاصل إذن؟

وليس الموضوع موضوع أفراد ولكنه موضوع نظام. فنحن نعيش تحت آلة هي آلة الاستعمار الجديد الذي هو نتيجة الرأسمالية الصناعية. فمكاسب هذا الاستغلال وأرباحه تذهب كلها تقريبا الى طبقات معينة. وبعض مكاسب وأرباح هذا الاستغلال تبقى في الهند ولكنها تؤول الى طبقات معينة أيضاً.

ولهذا يكون من الجهل أن نغضب من الأفراد أو من الانجليز عامة. فاذا كان النظام جائراً وضاراً بنا فان المصلحة تقضي بتغييره، ولا يهم مطلقا من يديره ويشرف عليه، فالنظام الفاسد يعجز فيه حتى خير الناس واكفأهم. ولا تستطيعين، حتى لو رزقت أقوى إرادة في الدنيا، أن تحولي الحجارة والأرض إلى طعام حسن مهما أجدت طبخها. وكذلك الحال، على ما أعتقد، مع الاستعمار والرأسمالية. فليس من المستطاع تحسينهما أو اصلاحهما، والتحسين أو الاصلاح الحقيقي بالنسبة لهما هو في القضاء عليهما معا قضاء مبرماً.

هذا هو رأيي، وإن كان البعض يخالفني فيه. ولست في حاجة إلى أن تأخذي أي شيء على أنه حقيقة واقعة. وتستطيعين، عندما يحين الوقت، أن تدرسي الأشياء وتكوني رأيك الشخصي عنها. ولكن معظم الناس متفقون على شيء واحد، وذلك الشيء هو أن الخطأ في النظام، وأنه لا فائدة ولا نفع من التضايق والغضب من الأفراد. فاذا اردنا تغييراً فدعينا نهجم على النظام ونغيره.

لقد رأينا بعض آثار النظام الضارة في الهند. واذا درسنا أحوال الصين ومصر وأقطار أخرى كثيرة فاننا نرى نفس النظام ونفس آلة الاستعمار الرأسمالي تعمل في استغلال أبناء هذه الشعوب.

أولى خطوات السياسة الانكليزية في الهند

وبعد فنعود إلى قصتنا. لقد أخبرتك عن المرحلة المتقدمة في صناعات النسيج الهندية الهندية عند ما أتى البريطانيون الى الهند. فمع التقدم الطبيعي في طرق الانتاج وبدون أي تدخل من الخارج، كان من المحتمل ان تدخل آلات الصناعة الحديثة الهند. فالحديد والفحم يوجدان في بلادنا، وهذان، كما رأينا في انجلترة، ساعدا كثيراً في حركة التصنيع بها، ومهدا لها الى حد ما. وهذا كان يمكن أن يحدث في النهاية ايضاً في الهند، وإن كان حدوثه ربما تأخر قليلا نظراً للأحوال السياسية المضطربة.

على أية حال لقد تدخل البريطانيون في الأمر، وكانوا يمثلون قطراً ومجتمعاً انتقلا وتقدما في الصناعة باستخدام الآلات الحديثة الكبيرة في الانتاج الصناعي.

وربما يظن الانسان، لهذا، أنهم يرحبون بحدوث تغيير مماثل في الهند أيضاً، ويشجعون طبقة رجال الصناعة في الهند ممن كان يحتمل منهم جداً أن يمهدوا لهذا التطور. ولكنهم لم يفعلوا شيئاً من هذا القبيل، وإنما فعلوا عكس ذلك تماماً. فقد نظروا إلى الهند نظرة منافس لهم في المستقبل ولهذا قضوا على صناعاتها، ولم يشجعوا نمو صناعات الآلات الحديثة الكبيرة.

وهكذا نجد أحوالا عجيبة في الهند. فنحن نجد البريطانيين الذين هم أكثر شعوب أوروبا تقدما في ذاك الوقت يتخذون لأنفسهم حلفاء في الهند من بين أكثر الطبقات الهندية تخلفاً ومحافظة.فنراهم يساندون طبقة اقطاعية محتضرة، ويخلقون طبقة من ملاك الأراضي، ويؤيدون مئات الحكام الهنود غير المستقلين في دولهم نصف الاقطاعية. وفي الحقيقة نراهم يقوون النظام الاقطاعي في الهند.

ومع هذا فهؤلاء البريطانيون كانوا في أوروبا رواد ثورة الطبقة الوسطى أو الطبقة البورجوازية التي أعطت برلمانهم السلطة والقوة، كذلك كانوا رواد الثورة الصناعية التي استحدثت في العالم الرأسمالية الصناعية. فبسبب قيادتهم وأسبقيتهم في هذه الأمور تقدموا كثيراً على منافسيهم ومزاحميهم وأسسوا امبراطورية مترامية الأطراف.

وليس صعبا أن يفهم المرء لماذا تصرف البريطانيون على هذا النحو في الهند، فأساس الرأسمالية كله هو المنافسة والاستغلال، والاستعمار مرحلة متقدمة من هذا. فالبريطانيون ومعهم القوة قتلوا منافسيهم الحقيقيين، ومنعوا متعمدين ظهور منافسين آخرين،

ولم يكن من الممكن لهم أن يصادقوا الجماهير، لأن الهدف كل الهدف من وجودهم

في الهند هو استغلالهم لهؤلاء الجماهير، ولا عجب فمصالح من يقع منهم الاستغلال ومصالح من يقع عليهم الاستغلال ليست واحدة، ومن ثم وقع البريطانيون على من بقى من الاقطاعيين الذين كانوا لا يزالون في الهند. وهؤلاء لم تكن لهم قوة حقيقية حتى حينما جاء البريطانيون الى الهند، ولكن البريطانيين ساعدوهم وأعطوهم نصيباً ضئيلا في استغلال البلاد، وهذه المساعدة استطاعت أن تعطي فقط اسعافاً مؤقتاً لطبقة استنفدت زمن نفعها. وكانت هذه الطبقة تعتقد أن البريطانيين إذا تخلوا عنها، فأما أن تنهار وتتهاوى، وأما أن توفق بين نفسها وبين الأحوال الجديدة. وقد كان في الهند نحو ٧٠٠ دولة ما بين صغيرة وكبيرة معتمدة كلها على حسن نوايا البريطانيين. وأنت تعرفين بعض هذه الدول مثل حيدر أباد، وكشمير، وميسور، وبارودا، وكولوبير إلخ. ولكن الغريب أن معظم حكام هذه الدول الهنود لم يتحدروا من طبقة الأشراف الاقطاعية القديمة، وهم في ذلك مثل معظم ملاك الأرض الكبار الذين لا ترجع تقاليدهم إلى عهد بعيد جداً. وعلى أية حال هناك حاكم واحد يستطيع أن يرجع بنسبه إلى ما قبل التاريخ، وذلك هو «المهارانا» حاكم يوديبور وزعيم القبيلة التي تسمى نفسها قبيلة الشمس، وربما كانت الشخصية الحية التي تضارعه وتنافسه من هذه الناحية هو ميكادو اليابان.

الانكليز وأديان الهند

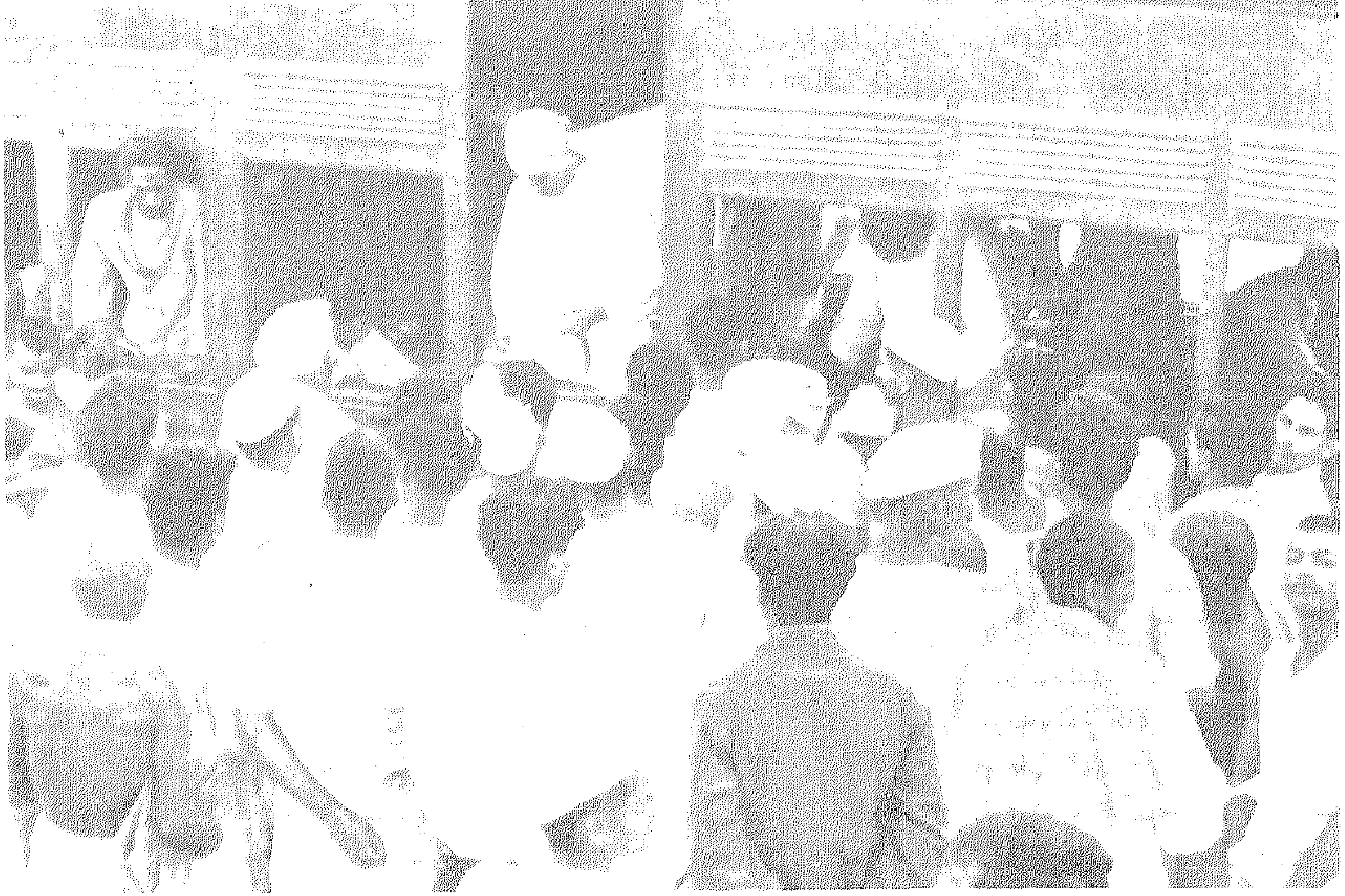
وقد ساعد الحكم البريطاني أيضاً الطوائف الدينية المحافظة. وهذا يبدو غريباً، فالبريطانيون يدعون اعتناق المسيحية، ومع ذلك فمجيئهم جعل الهندوكية والاسلام في الهند أشد صرامة وتصلباً. ورد الفعل هذا كان إلى حد ما طبيعياً، لأن الغزو الأجنبي من شأنه أن يدفع الأديان والثقافة في البلد المغزو إلى أن تحمي نفسها بالصرامة والتصلب. وقد حدث بنفس الأسلوب أن أصبحت الهندوكية أشد صلابة وأن قويت الطائفية العنصرية بعد الفتوح الاسلامية في الهند. والآن نرى أن الهندوكية والاسلام كليهما يقفان هذا الموقف الصارم المتصلب إزاء الانجليز الدخلاء. ولكن اذا تغاضينا عن هذه النقطة فاننا نرى حقاً أن الحكومة الانجليزية في الهند قد ساعدت عمداً ولاشعورياً العناصر المحافظة من المسلمين والهندوس.

ولم يكن اهتمام الانجليز منصباً على الدين أو على تغيير معتقدات الهنود وأديانهم وإنما كان اهتمامهم موجهاً إلى تحقيق الغنى والثراء. لقد كانوا متهيبين من التدخل في الشؤون الدينية خشية أن يؤدي تدخلهم إلى غضب الشعب فيثور عليهم. ولكي يتفادوا حتى مظنة التدخل بالغوا في حماية ومساعدة أديان الهند، أو بمعنى أصح بالغوا في حماية ومساعدة شعائر الأديان المظهرية. وكثيراً ما كانت النتيجة أن نرى الشكل الخارجي يبقى دون أن يكون بداخله أي شيء.

وهذا الخوف من إثارة المتشددين في الدين جعل الحكومة تقف بجانبهم في كل ما يمس شؤون الاصلاح، فكان في ذلك تعويق للاصلاح. وقلما تستطيع حكومة أجنبية أن تحدث اصلاحاً اجتماعياً. لأن كل تغيير تحاول ادخاله لا يقابل من الشعب بالقبول والارتياح.

ومن نواح كثيرة كانت الهندوكية والقانون الهندوكي يتطوران ويتقدمان، ولو أن تقدمهما في العصور الحديثة قد أخذ في البطء بشكل ملحوظ. والقانون الهندوكي في جملته ينبثق من العادة، والعادات تتغير وتتطور وتنمو. وهذه المرونة التي تميز بها القانون الهندوكي قد تلاشت تحت الحكم البريطاني وحل محلها تشريعات قانونية غير مرنة وضعت بعد استشارة أكثر العناصر جموداً وتشدداً. وهكذا نرى القانون الهندوكي الذي كان ينمو نمواً بطيئاً قد أوقف نموه. أما مسلمو الهند فكانوا أشد استياء من الأوضاع الجديدة وانكاراً لها، ولهذا لم يكن أمامهم إلا أن ينعزلوا عن مجتمعهم وينطووا على أنفسهم.

وكثير من الفضل يعزى إلى الحكم البريطاني في إبطال عادة حرق الأرملة الهندوكية نفسها في النار الجنائزية التي تحرق فيها جثة زوجها. فالبريطانيون يستحقون بعض الفضل في هذا، ولكن الحكومة في الواقع لم تهتم بالأمر إلا بعد سنوات كثيرة من ثورة المصلحين الهنود بزعامة «راجا رام موهان روي»، ومن قبل البريطانيين قام حكام آخرون بتحريم هذه العادة، كما قام البوكيرك البرتغالي بالغائها في جوا. وقد ألغاها البريطانيون نتيجة لثورة الرأي العام الهندي ومجهودات المبشرين لامسيحيين.



بعد خروجه من سجن قلعة أميناكار ١٩٤٥

وعلى قدر ما اذكر أن هذا هو الاصلاح الوحيد الذي اضطلعت به الحكومة البريطانية وكان له مغزى أو أهمية دينية.

وقد تحالف البريطانيون مع كل العناصر المتخلفة والمحافظة في الهند، ولم يألوا جهداً في أن يجعلوا من الهند قطراً زراعياً فقط ينتج الخامات اللازمة لصناعاتهم. وبعض الأقطار الأخرى أولت صناعاتها المحلية كل تشجيع واهتمام. فاليابان مثلاً، كما سنرى فيما بعد، جرت أشواطاً بعيدة إلى الأمام في ميدان التصنيع. ولكن الحكومة البريطانية في الهند وضعت ما استطاعت من العقبات والصعاب في طريق الصناعات الهندية.

فنتيجة للضرائب التي فرضتها على استيراد الآلات الصناعية والتي لم ترفع حتى عام ١٨٦٠ كان بناء مصنع في الهند يتكلف أربعة أمثال ما يتكلفه نظيره في انجلترة، على الرغم من أن الأيدي العاملة في الهند أرخص منها في انجلترة. وكل ما تستطيعه سياسة التعويق هذه هو أن تؤخر حدوث الأشياء فقط، ولكنها لا تستطيع أن توقف سير الحوادث التي لا مفر منها.

ونحو منتصف القرن التاسع عشر بدأت المصانع التي تقوم على الآلات الحديثة تنمو في الهند، فصناعة الجوت بدأت في البنغال برأسمال بريطاني، وظهور الطرق الحديدية ساعد في نمو الصناعات، وبعد عام ١٨٨٠ أخذت مصانع النسيج التي أنشئ معظمها برؤوس أموال هندية تنمو وتكثر في بومباي وأحمد أباد. ثم بدأ التعدين والكشف عن المعادن. وباستثناء مصانع النسيج قامت حركة التصنيع البطيئة هذه معتمدة في جملتها على رأس المال البريطاني ويكاد يكون هذا على الرغم من الحكومة.

وقد تكلمت الحكومة عن سياسة السماح للأشياء بأن تأخذ طريقها الطبيعي، وكذلك عن سياسة عدم التدخل في المشروعات الخاصة، ولكن الحكومة تدخلت في التجارة الهندية في انجلترة وحطمتها بالضرائب الجمركية ووسائل التحريم عندما كانت هذه التجارة مزاحمة ومنافسة للتجارة البريطانية في القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر. ولما صارت السيادة والغلبة للتجارة البريطانية أمكن للحكومة ان تتحدث عن سياسة السماح بلأشياء

بأخذ طريقها الطبيعي وعدم التدخل في المشروعات الخاصة.

ومهما يكن من أمر فان الحكومة في الواقع لم يكن موقفها مجرد عدم اكتراق او مبالاة، فالثابت فعلا أنها عمدت الى سياسة تثبيط الهمم بالنسبة لبعض الصناعات الهندية وخاصة صناعة النسيج النامية في بومباي وأحمد أباد. فقد فرضت ضريبة جمركية على منتجات هذه المصانع الهندية، وسميت ضريبة رسم الجمارك على القطن. وكانالغرض من هذه الضريبة هو مساعدة مصانع المنسوجات القطنية الهندية. والمعروف ان كل دولة تقريبا تفرض بعض الضرائب الجمركية على بعض الواردات والمنتجات الأجنبية حماية لصناعاتها المحلية أو زيادة في دخلها. ولكن الحكومة البريطانية في الهند اقدمت على شيء مدهش جداً وغير مألوف. ذلك انها فرضت ضرائب جمركية على المنتجات الهندية نفسها! وعلى الرغم من شدة احتجاج الشعب وثورته ضد ضريبة رسم الجمارك هذه فانها ظلت مفروضة وحصلت حتى سنوات قريبة.

على هذا النحو ظهرت الصناعات الحديثة في الهند وانتشرت انتشاراً بطيئا فيها. فالطبقات الأكثر غنى في الهند قامت بمشروعات كثيرة في سبيل التنمية الصناعية. وعلى ما اذكر أنشأت الحكومة مصلحة للتجارة والصناعة عام ١٩٠٥، وحتى هذه المصلحة لم تقم بأي كجهود يذكر حتى قامت الحرب العالمية الأولى. فنمو النشاط الصناعي هذا خلق طبقة من العمال الصناعيين هذا خلق طبقة من لعمال الصناعيين الذين اشتغلوا في مصانع المدن. وقد دفع ضغط السكان على الأرض الذي حدثتك عنه، والأحوال التي أدت الى شبه مجاعة في المناطق الريفية — أقول لقد دفع ذلك كثيراً من القرويين الى تلك المصانع وإلى المزارع التي كانت قد بدأت تنتشر في البنغال وأسام. وهذا الضغط أيضاً دفع الكثيرين الى الهجرة لأقطار اخرى طمعاً في الحصول على أجور عالية. وقد اتجهت الهجرة خاصة إلى جنوب افريقية، وفيجي وسيلان، وموريشس (Mauritius).

ولكن هذا التغيير والانتقال لم يفد أولئك العمال الهاجرين كثيراً، فقد عوملوا في بعض الأقطار كما لو كانوا عبيداً، وفي مزارع الشاي في أسام لم تكن حالتهم أحسن مما كانوا عليه من قبل. وقد اضطر الكثيرون بعد ما صادفهم من تثبيط العزيمة وعدم التشجيع أن يعودوا من المزارع إلى قراهم الأولى، ولكنهم لم يجدوا ترحيباً بهم في قراهم لعدم وجود ارض لهم يعملون فيها.

حياة الصناعيين الهنود التعسة

وسرعان ما وجد عمال المصانع ان أجورهم المرتفعة نسبيا لا تكاد تنهض بمطالبهم لارتفاع اسعار الحاجيات في المدن، ولكون تكاليف المعيشة فيها أعلى مما هي عليه في القرى. أما عن الأماكن التي اضطروا إلى السكنى فيها فلم تكن أكواخاً وعششاً بائسة قذرة رطبة فقط، بل كانت مظلمة غير صحية ايضاً.

كذلك كانت الأحوال التي يعملون تحت وطأتها سيئة قاسية، ففي القرى كثيراً ما كانوا يتعرضون للجوع القاتل ولكنهم كانوا يأخذون حظهم من الشمس والهواء النقي. أما وقد انقلبوا إلى عمال في المصانع فقد صار حظهم من الشمس ضئيلا جداً، ولا حظ لهم في الهواء النقي. وأجورهم لم تكن كافية لمقابلة تكاليف المعيشة المرتفعة. وحتى النساء والأطفال اضطروا ان يعملوا ساعات طويلة، واعتادت الأمهات اللائي يحملن أطفالهن على أذرعتهن ان يعطوهم ادوية منومة مخدرة حتى يتمكن من القيام بعملهن والتفرغ له.

وهكذا كان العمال الصناعيون يشتغلون بالمصانع في مثل هذه الحالات التعيسة المضنية. لقد كانوا اشقياء طبعاً، ولما عيل صبرهم بدأوا يتذمرون ويتبرمون، وأحيانا في حالات اليأس اضربوا بالامتناع عن العمل. ولكنهم كانوا ضعافا عاجزين، وكان من اليسير على مستخدميهم الأغنياء مؤيدين من الحكومة ان يحطموهم إذا شاءوا. ولكنهم عرفوا شيئا فشيئا وفي بطء وبعد تجربة مؤلمة قاسية قيمة العمل المشترك الموحد، ومن ثم انشأوا اتحادات العمال.

لا تظني ان هذا وصفاً للأحوال الماضية، فقد طرأت بعض تحسينات واصلاحات في أحوال العمل في الهند، كما صدرت بعض قوانين تضمن نوعاً من الحماية للعامل الفقير.

ولكنك إذا زرت «كونبور» أو «بومباي» او غيرهما من المناطق الصنايعة فانك ستجدين ان مساكن العمال لا تزال الى اليوم على حال من السوء تثير الفزع والأسى في قلب من يراها.



في مأتم المهاتما غاندي عام ١٩٤٨

السلطة الانكليزية الحاكمة وموظفوها

لقد كتبت اليك في هذه الرسالة وغيرها من الرسائل عن البريطانيين والحكومة البريطانية في الهند. فكيف كانت حال هذه الحكومة؟ وكيف كانت تمارس الحكم؟

فهناك كانت شركة الهند الشرقية أولا، ولكن البرلمان الانجليزي كان من ورائها. وفي عام ١٨٥٨ وبعد الثورة الكبرى تولى البرلمان الانجليزي مسؤولية مباشرة. وفيما بعد أصبح ملك الانجليز - أو بمعنى أصح ملكة الانكليز الجالسة على العرش وقتئذ - قيصرة الهند.

ففي الهند كان الحاكم العام الذي صار نائب الملك أيضاً في أعلى السلم، ومن تحته كان هناك جماهير وجموع حاشدة من الموظفين. وكانت الهند مقسمة كما هي الآن تقريباً إلى إمارات ودول. وكان مفروضاً في حكام الدول الهنود أنهم نصف مستقلين، ولكنهم كانوا في حقيقة الأمر معتمدين كل الاعتماد على الانجليز. وكان يعيش في كل دولة من الدول الكبرى موظف انجليزي يسمى «المقيم» له الرقابة العامة على الحكومة، ولم يكن يعنيه من شؤون الاصلاح الداخلي أي شيء، لا ولم يكن يهمه في كثير أو قليل أن تكون حكومة الدولة سيئة أو غير سيئة، أو أن تباشر سلطتها على طراز قديم أو حديث.

كل ما كان يعنيه ويهمه هو أن يمكن للسلطة الانجليزية في الدولة. وقد كان ثلث الهند تقريباً مقسماً إلى هذه الدول، أما الثلثان الآخران فكانت تحكمها الحكومة الانجليزية في الهند حكماً مباشراً. وكان كل الموظفين الكبار في الهند البريطانية من الانجليز، وقد ظل الأمر كذلك إلى ما يقرب من نهاية القرن التاسع عشر حينما بدأ بعض الهنود يتسللون إلى الوظائف الحكومية، وحتى مع هذا فان كل القوة والسلطة طبعاً بقيتا ولا تزالان باقيتين في أيدي الانجليز. وهؤلاء الموظفون الكبار، باستثناء العسكريين، كانوا أعضاء فيما يسمى بالادارة الهندية. وهكذا كانت كل حكومة الهند محكومة بهذه الادارة. والحكومة التي قوامها موظفون يعين بعضهم بعضاً، وليسوا مسؤولين أمام الشعب عما يفعلون تسمى حكومة موظفين أو حكومة «بيروقراطية».

ونحن نسمع كثيراً عن الادارة الهندية ومن فيها من أشخاص في غاية الغرابة والعجب،

وإن كانوا أكفاء في بعض النواحي . فهؤلاء نظموا الحكومة ، ومكنوا للحكم الانجليـزي ، وانتفعوا هم أنفسهم كثيراً . فجميع المصالح الحكومية التي ساعـدت في تدعيـم الحـكم الانجليزي وجباية الضرائب قد نظمت تنظيماً تتجلى فيه الكفاية ، أما غير ذلك من المصالح الحكومية فأهملت .

ولما كان موظفـو الادارة الهنديـة غـير مسؤولين أمام الشعب ولم يعينهم الشعب في وظائفهم فانهم لم يوجهوا أي اهتمام أو عناية بالمصالح الحكومية الأخرى التي تهم معظم طبقـات الشعـب . ولما كان ذلك طبيعيا تحت هذه الظروف فانهم انقلبوا متعجرفين متغطرسين يستخفون بالرأي العام ويزدرونه . ومع أنهم كانوا ضيقي الأفق محدوديـن في نظرتهم ، فانهم أخذوا ينظرون إلى أنفسهم على أنهم أعقل العقلاء وأحكم الحكماء على الأرض .

وكان خير الهند يعنى في المنزلة الأولى بالنسبة لهم الخير الذي يعود عليهم شخصياً من الوظائف التي يعملون بها . وقد كونوا نوعاً من جمعية استلطاف واستحسان متبادل ، يمدح فيها بعضهم بعضا ، ويثني فيها هذا على ذاك ، وذاك على هذا .. وقد أدت القوة والسلطـة المطلقتان في النهاية إلى هذا ، وأصبح موظفو الادارة الهندية أسياد الهند تقريبـاً . وكان البرلمان الانجليزي من البعد بحيث لا يستطيع التدخل في الأمر ، وعلى أية حال فلم يكن هناك مناسبة لتدخله ، لأن موظفي الادارة الهندية كانوا يخدمون مصالحه ومصالـح الصناعـة البريطانية . أما مصالح الشعب الهندي فلم يكن هناك وسيلة للتأثير عليهم في أن يولوها شيئاً من الرعاية ولو إلى درجة ما . وقد كان حتى مجرد النقد الواهـن الخفيـف يستثـير سخطهـم واستياءهم ، ولهذا كانوا متعصبين لا يحتملون ولا يطاقون !

ومع هذا فقد عمل في الادارة الهندية كثير من الموظفين الأمناء الأكفاء ، ولكن هؤلاء لم يستطيعوا أن يغيروا غرض السياسة المرسومة أو يحولوا التيار الذي كان يدفع بالهند أمامه دفعاً . فموظفو الادارة الهندية كانوا ، بعد كل ما ذكر ، عملاء رجال المال والصناعة في انجلترة ممن كان همهم الأساسي استغلال الهند .

وقـد ازدادت كفايـة حكومـة الهنـد البيروقراطية هذه في كل ماله اتصال بمصالحها الخاصة ومصالح الصناعة البريطانية . أما نشر التعليم والصحة وانشاء المستشفيات والاضطلاع بضروب النشاط الأخرى الكثيرة التي من شأنها أن تنشىء شعباً سليماً متقدماً ، فكان حظها الاهمال كل الاهمال . ولم يكن هناك تفكير في هذه الأشياء إلى عهد قريب . فمدارس القرى تلاشت واندثـرت . ثم بدأت الحكومـة تنشر التعليم في بطء وعلى غير ارادة منها مدفوعة الى ذلك بمطالبها الخاصة . فالموظفون الانجليز قد احتلوا كل الوظائـف العاليـة ، ولكنهـم لم يستطيعوا أن يملأوا الوظائـف الصغـيرة أو الكتابية . ولما كانت الحكومة في حاجة إلى كتبة ، فقد أنشأ الانجليز المدارس والكليات في أول الأمر لتخريج الكتبة وصغار الموظفين . ومنذ ذاك التاريخ أصبح هذا غرض التعليم الأساسي في الهند ، وغالبيـة من أخرجهـم هذا النظـام التعليمي كانوا صالحين للأعمال الكتابية فقط . ولكن سرعان ما صار عدد الكتبة المتخرجين في المدارس والكليات أكثر مما تستوعبه دواوين الحكومة والمصالح الأخرى . ومن ثم ترك كثيرون منهم بلا عمل فكونوا طبقة جديدة من المتعطلين المتعلمين . وقد كانت البنغال أسبق من غيرها في التعليم الانجليزي الجديد . ومن أجل ذلك كانت الكثرة الغالبة من الكتبة في أول الأمر بنغاليين .

وفي عام ١٨٧٥ أنشئت ثلاث جامعات في كلكتا ، وبومباي ، ومدراس . وهنـاك حقيقـة تستحق التسجيل ، وهي أن المسلمين في الهند لم يتحمسوا للتعليم الجديد أو يتقبلوه ، ولهذا تخلفوا في سباق الكتبة والوظائف الحكومية . وقد أصبح ذلك فيما بعد سبباً من أسباب شعورهم بالغبن وعدم المساواة .

وهناك حقيقة أخرى تستحق التسجيـل ، وهي أن البنات أهملن إهمالا تاماً من حيث التعليم حتى عندما بدأت الحكومة تضطلـع بنشره . ولـم يكن ذلك بالأمـر المدهش أو المستغرب ، لأن الغرض من التعليم الذي كانت تنشره الحكومة هو ، كما ذكرت آنفاً ، اعداد طبقة من الكتبة وكان الكتبـة الرجـال هم المطلوبون وقتئذ ، نظراً للتقاليـد الاجتماعيـة المتخلفة . ومن ثم اهملت البنات اهمالا تاماً ، ولكن حدث بعد ذلك بزمن طويل أن بدأت العناية قليلا بتعليمهن .

■ A Study of NEHRU Bombay

أسماء الشهور العربية ما هو مصدرها؟

كلنا يعرف ان السنة القمرية مكونة من ١٢ شهراً قمرياً أي ٣٥٤ يوماً و٨ ساعات و٤٨ دقيقة. فالشهر القمري ٢/١ ٢٩ يوما. فأخذت الشهور ٢٩ و٣٠ يوماً على التوالي.

والتقويم الهجري قمري خالص طول العام. فيه ٣٥٤ او ٣٥٥ يوماً. ولا علاقة للشهور بفصول السنة.

والشهور العربية او القمرية هي: المحرم، صفر، ربيع الأول، ربيع الآخر، جمادى الأولى، جمادى الآخرة، رجب، شعبان، رمضان، شوال، ذو القعدة، ذو الحجة.

أما لماذا اطلق العرب هذه الأسماء بالذات على الشهور القمرية، فهناك اكثر من تفسير وأكثر من تعليل، ذكره فقهاء اللغة والمؤرخون.

■ أن **المحرم** أول الشهور العربية سمي بهذا الاسم لأن العرب كانوا يحرمون فيه القتال والحرب والغارات.

■ وسمي **صفر صفراً** لوباء كان يعتريهم فيمرضون وتصفر الوانهم. وقيل انما سمي الصفر لأن الأسواق التي كانت باليمن تسمى «الصفرية»، وكانوا يمتارون فيها. ومن تخلف عنها هلك جوعا. وفي ذلك قال النابغة الذبياني:

إني نهيت بني ذبيان عن أفق
وعن ترفههم في كل أصفار

وقيل ايضاً انه سمي الصفر لأن المدن كانت تخلو فيه عن اهلها بخروجهم الى الحرب. وهو مأخوذ من قولهم: أصفرت الدار منهم إذا خلت.

■ وسمي **شهرا ربيع الأول وربيع الآخر**، للزهور والأنوار وتواتر الأندية والأمطار. وهو نسبة الى طبع الفصل الذي نسميه نحن «الخريف» وكان العرب يسمونه «ربيعا». وقيل ايضا سمي ربيع الأول وربيع الآخر لارتباع الناس والدواب عينهما، فان قيل قد توجد الدواب ترتبع في غير هذا الوقت، قيل قد يمكن ان يكون هذا الاسم لزمنهما في ذلك الوقت، فاستمر تعريفهما بذلك مع انتقال الزمان واختلافه.

■ وسمي **شهرا جمادى الأولى وجمادى الآخرة** لجمود الماء فيهما حين جاءت السيرات ووقع الجليد والضريب، وهو فصل الشتاء في الزمانالذي سميت به هذه الشهور. لأنهم لم يعلموا ان الحر والبرد يدوران فتنتقل اوقات ذلك.

■ وسمي **رجب رجباً** لأنه قيل فيه «أرجبوا» أي كفوا عن القتال والغارات لأنه شهر حرام. وقيل انما سمي الرجب لخوفهم اياه. فيقال «رجبت الشيء» إذا خفته.

■ وسمي **شعبان شعبان** لتشعب القبائل فيه الى مياههم وطلب الغارات.

■ وسمي **شهر رمضان** لأن الحجارة كانت ترمض فيه من شدة الحر في ذلك الوقت. والوجه الآخر انه أسم من اسماء الله تعالى ذكره. ولا يجوز ان يقال رمضان وانما يقال شهر رمضان.

■ وسمي **شوال** لارتفاع الحر وأدباره. وقيل بل سمي بذلك لأنه قيل فيه «شولوا» أي ارتحلوا.. وقيل ايضا بل سمي بذلك لأن الأبل كانت تشول فيه في ذلك الوقت، إذ نابها من شهوة الضراب ولذلك كرهت العرب التزويج فيه.

■ وسمي **ذو القعدة** لقعودهم فيه عن الحرب والغارات وللزومهم منازلهم.

■ وسمي **ذو الحجة** لأن الحج فيه.

●

الهادي إلى الحق

د. سهيل زكار

لقد لقنت الثورة العباسية جميع الأحزاب الاسلامية التي طمحت لحيازة السلطة درسا بليغاً للغاية، كان من بنوده توجب اختيار المناطق النائية عن مركز الخلافة للنشاط ضدها، وهكذا نلاحظ أن الذين ثاروا على الدولة العباسية في بلدان الأطراف مثل الأندلس وشمال إفريقية واليمن حققوا قسطاً وافياً من النجاح، ومن المعلوم أن جل المسلمين الذين ثاروا على الدولة العباسية انتموا إما إلى أحزاب الشيعة أو الخوارج.

وأحزاب الشيعة كما هو معلوم صدرت على ثلاث مجموعات رئيسية، اثنتان كبيرتان وثالثة أدنى، والمجموعة الأولى ارتبطت بالحسن بن علي وأولاده، والثانية هي التي ارتبطت بالحسين بن علي وآله، والثالثة جماعات الكيسانة التي نادت بامامة محمد بن الحنيفة ثم بعض أولاده من بعده.

وعندما يطالع المرء تاريخ العصر الأموي يجد أن أفراد الأسرة الحسينية هم الذين حملوا راية الثورة الشيعية ضد الأمويين، إنما مع قيام الدولة العباسية نشط آل الحسن بعد طول صمت وانتظار وفجروا عدة ثورات كبيرة، ويبدو أن آل الحسن بن علي قد عظم عددهم وباتوا يكونون عدة أسر ضخمة كان من أبرزها أسرة عرفت باسم الأسرة الرسية، نسبة إلى مكان سكناها الذي عرف بالرس، وهو قرية على مقربة من المدينة المنورة.

لقد اهتم عدد من أفراد هذه الأسرة ببلاد اليمن ونشطوا فيها سياسياً وفقهياً، ثم أن أفراد هذه الاسرة تبنوا مذهب الأمام زيد بن علي وطوروه، وعلى أيديهم انتشر هذا المذهب وظل قائماً يعمل به خاصة في اليمن، وكان من أشهر رجالات الأسرة الرسية القاسم بن ابراهيم (١٧٠ - ٢٤٢هـ) الذي كان عالماً كبيراً له آراء قيمة في المذهب الزيدي، كما كان مطلعاً على مذهب الامام أبي حنيفة. وأشهر من القاسم وأعظم دوراً في تاريخ اليمن وتاريخ الاسلام حفيده يحيى بن الحسين بن القاسم الذي عرف بلقب الهادي إلى الحق، ذلك أنه نجح حيث أخفق جده، وأسس مركزاً عظيماً لأسرته في اليمن ظل قائماً سياسياً قرابة الألف سنة ولم ينقطع دينياً بل ما زال مستمراً.

لا ندري سنة ولادة الهادي إلى الحق، لكن لربما كان ذلك ما بين (٢٣٠ - ٢٤٠هـ)، ولقد تهيأ له نيل ثقافة دينية عالية للغاية، وهذا واضح في سيرة حياته وفي التراث الذي خلفه لنا، وجمع الثقافة شجاعة وإقداماً ومثالية كبيرة في العمل، وتشبه بجده المصطفى، لهذا عندما بلغ من العمر الأربعين شعر بأنه مؤهل للامامة، متمتع بصفات كاملة، لهذا رأى أنه وجب عليه الخروج وذلك حسب مبادىء العقيدة الزيدية.

وقام الهادي بمراسلة شخصيات المدينة وسواها «يدعوهم إلى طاعة الله تعالى والمجاهدة لأعدائه والمناصرة لأوليائه، والاظهار لدينه والاحياء لسنن نبيه، ويعلمهم فيها بأن حجج الله قائمة عليها فليخافوا في سرهم وعلانيتهم وليجيبوا داعي الله»، وقد شجعه على ذلك استلامه لمراسلات وصلته من بعض جهات اليمن تدعوه للقدوم والخروج بها.

وفي سنة ٢٨٠هـ استجاب الهادي لدعوة اليمنيين له، فذهب إلى اليمن ووصل إلى مقربة من صنعاء، لكن الحظ لم يحالفه، فعاد أدراجه إلى بلده، حيث ظل إلى سنة ٢٨٣هـ، فتلقى من جديد دعوات ملحة من عديد من جهات اليمن، فاستجاب لها، وتوجه مجدداً نحو اليمن، فوصل إلى صعده سنة ٢٨٤هـ وأخذ يعمل فيها محاولا تأسيس دولة موحدة تحت لوائه، واتخذ لنفسه لقب الهادي إلى الحق، وبات اتباعه ينادونه بلقب أمير المؤمنين.

وكانت اليمن في اواخر القرن الثالث ممزقة تتنازع الأمور فيها عدة قوى محلية وخارجية، ثم أن الهادي إلى الحق، لم يكن صاحب الدعوة

الشيعية الوحيد في اليمن، فقد كان هناك دعاة الاسماعيلية الذين حققوا نجاحات خطيرة، وفجروا ما يعرف بثورات القرامطة خاصة بين قبائل بلحارث ويام.

ولمدة خمسة عشر عاماً، أي حتى سنة وفاته في ٢٩٨هـ بذل الهادي غاية جهده للسيطرة على اليمن جميعها، لكن التوفيق لم يحالفه بشكل عام، حيث أنه لم يتمكن من القضاء على القرامطة، وأخفق في نيل وإخلاص عدد كبير من سادة القبائل وأصحاب القلاع الجبلية في البلاد.

ورغم هذا فهو قد أقام لأسرته قاعدة دينية سياسية، لذلك إذا اعتبرنا نجاح الهادي السياسي في اليمن محدوداً، فان نجاحه الديني كان واسعاً ومهماً، فالهادي رغم أنه كان من اتباع الامام زيد، كان مجدداً في هذا المذهب، ومطوراً له، وفي الحقيقة ليس من المغالاة أبداً أن نقول أن ما يعرف باسم المذهب الزيدي في اليمن، هو أحق أن يدعى مذهباً هدوياً، أكثر من أي شيء آخر.

وتجربة المذهب الزيدي الهدوي في اليمن تستحق الدراسة بشكل عميق، لأنها التجربة السيعية الوحيدة التي جمعت بين معطيات العقل وتراث النبوة. ■

رأي

الدكتورة أمان شعراني مديرة كلية التربية الفرع الأول الجامعة اللبنانية.

تحية طيبة

إنه لمن دواعي الغبطة، وليس ــ ا بمستهجن، أن تلد في لبنان، ،ببد الذي وقف على شرفة التاريخ، يرقب تلاقي الحضارات على أرضه، فأثرت فيه وفيها أثر، اغتنى بها وزادت به غنى، أن تلد مجلة تعنى بتاريخه وتاريخ العرب والعالم، فتعيد بهاء الصورة الأصيلة، وتنزع الزيف والتحريف وتجعل من المواطن العربي إلى أي قطر انتمى يعتز بتاريخه وحضارته ويفخر بماضيه.

وإذا كان القصد الافساح لهذا المواطن أن يطل على ماضيه فيؤخذ بعظمة ما أعطى قومه، فيجب أن نتجاوز هذا القصد المخدر، إلى عملية تفاعل بين الماضي والحاضر تشكل عنصر دفع وحافزاً جديداً للاقتداء بالسلف وتحدي الواقع الحضاري القائم بفهمه ومحاولة مماشاته والسبق عليه.

وإننا تحقيقاً لهذه الغاية تمنينا على هيئة اساتذة شعبة التاريخ في كليتنا المشاركة في الموضوعات التاريخية في حدود اختصاصاتها وكلما طلب إليها ذلك كما نأمل مستقبلا أن تلقى المجلة رواجاً بين طلاب الكلية بعامة وشعبة التاريخ بخاصة، كما إننا قد اشتركنا بعدد من المجلة لهذا العام ونأمل المساهمة عن طريق الاشتراك بأعداد أكثر في المستقبل.

وختاماً لابد من تسجيل إعجابنا وتقديرنا لحضرات الاساتذة الذين يوفرون للمجلة موضوعات تاريخية قيمة تعتمد الثقافة التاريخية وتعميمها متمنين مجانبة السرد التاريخي واللجوء إلى التحليل والتمحص بالخبر والتأكيد على الاسناد والمصادر والمراجع، وربط الحدث التاريخي بالواقع الحياتي لأن هدف التاريخ إضافة إلى حفظ التراث، هو استخراج المبادىء والقيم للاستفادة منها في حل مشكلاتنا السياسية والاقتصادية والتربوية والاجتماعية المعاصرة.

أمان شعراني

نشكر للاستاذة الدكتورة أمان شعراني مديرة كلية التربية – الفرع الأول – الجامعة اللبنانية، رسالتها هذه ومضمونها النبيل مؤكدين أننا نبذل كل جهدنا واهتمامنا لتكون عند حسن ظن المسؤولين التربويين في العالم العربي كافة وكل اختصاصي في التاريخ أو طالب له بل وكل مثقف عربي يهتم بتاريخ وطنه وبتاريخ العالم.

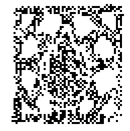
من خفايا الحرب العالمية الثانية

عميل لوريان

إعداد: هدى سكاكيني بريدي



لوريان. القاعدة البحرية المحصنة بجدار جبار من الاسمنت.



الحرب السرية التي تتطور يوما بعد يوم على امتداد العالم، حرب لها أبطالها. والقصة التي يرويها هنا بول دريفوس، كاتب «قصص المقاومة المثيرة» وكما ترويها كتب أخرى هي مأساة ضابط في البحرية كان يعمل في قاعدة الغواصات الالمانية في «لوريان» الفرنسية، وقد أدهش عندما اكتشف حقيقته، كل من عرفه.

– عميل... عميل... عميل...

كانت هذه الكلمة تنتقل من فم الى اذن، او تطلق بصوت عال عندما لا يكون هناك اثر لبزة خضراء – رمادية وما زالت تتردد دون كسل يوما بعد يوم، وهي تهمه لازمت المهندس «جاك ستوسكويف» في كل مكان.

ففي كل مكان ذهب اليه كانت هذه الكلمة تلاحقه كالسهم.

انه صنيعة الألمان.

هكذا كان يقول عمال ورش السلاح وكانت المدينة تردد: – انه صديق البوش. انه خائن.

اما هو فكان يسير بخطى ثابتة ونظرة جامدة بشفتين مطبقتين وملامح قاسية وكأنه لا يسمع هذه الاشاعة التي لم تنفك تنتقل في أنحاء المدينة الممزقة. كان يسخر من كل ما يقال عنه. ولا شيء كان يستطيع تحريك لامبالاته.

دخلت زوجته يوما أحد المخازن لتفاجأ بصاحبه يقول لها بقسوة:

– انني ارفض خدمتك يا سيدتي؟

– ولماذا؟

– لأنك زوجة عميل.

وامتقع لونها عندما سمعت هذه الاهانة واضطرت الى ترك المدينة والذهاب للعيش في «كيمبير».

ولكن زوجها بقي في «لوريان» حيث كانت مظاهر العداء تكبر شيئا فشيئا، ووصلت الى الذروة في تشرين الاول ١٩٤٢ عندما أجبر ٢٤٦ عاملا من ورش السلاح على الذهاب للعمل في المانيا. وقرر المهندس «ستوسكويف» اقتيادهم بنفسه، وكان ذلك الدليل القاطع في اعين الناس على تعامله الكامل مع العدو.

في المحطة تجمعت العائلات لالقاء تحية الوداع على ابن او خطيب او أخ أو صديق. ومن دون الاكتراث بالقوات الالمانية أنشد سكان «لوريان» المرسيليان، ثم النشيد العالمي. وعندما تحركت القافلة تعالت الاصوات بالصراخ:

– الموت لستوسكويف.

ولقد تعرف عليه بعض العمال وهو في مقصورته في الدرجة الاولى برفقة ضابط من البحرية الفرنسية هو الكابتن البحري «بيكام» قائد المنطقة بالوكالة. وتجاهل ستوسكويف القبضات المرفوعة في وجهه وبقي دون حراك كمن لا يسمع الشتائم المتوجهة اليه.

٢٤٦ بدلا من ٦٠٠

رافق القافلة حتى «فيسر مونده» وهي مرفأ متقدم في «بريم» على ضفاف «الفيسر»، حيث قرر الرايخ الثالث تطوير مواقعه البحرية. وقد قال سكان «لوريان» ان الألمان طلبوا ٦٠٠ عامل رفضوا كلهم الذهاب. وعندئذ طلب «بيكام» من «ستوسكويف» إجراء مفاوضات ولاعتقاده بأنه من غير الممكن مقاومة هذا الأمر مهما كانت الوسائل، حاول المهندس تحديد الموقف.

– اذا اقدمتم على افراغ مكاتب العمل فان ورش السلاح ستبقى دون اية امكانية لمتابعة نشاطها.

هكذا حاول اقناع محاوريه الألمان.

– ولا تنسوا ايضا أن ذلك سيكون سببا لايقاف العمل كليا في المنشآت الجديدة. وازيد فأقول ان قراركم هذا سيعطي نتائج نفسية مدمرة، فعند رؤيتهم رفاقهم يذهبون سيعمد

العمال الى القيام باضرابات متقطعة، وحتى الى القيام بعمليات تخريب. واذا كنتم تعتقدون انكم ربحتم الجولة فانكم في الحقيقة ستخسرونها ولصالحكم انصحكم بالتخفيف من متطلباتكم.

وانتصر ستوسكويف واقنع الألمان بصبره وحججه القوية. فقبل هؤلاء بانزال العدد المطلوب الى النصف. اما في «برس» حيث لم يواجهوا عادوا بالعدد المطلوب فقد اخذوا خمسماية عامل.

ولكن بالنسبة لسكان «لوريان» بقي المهندس ستوسكويف الرجل الذي «أخذ» ٢٤٦ من أولادهم قام باقتيادهم بنفسه الى المانيا.

وانتهت الحرب، لكن المشاعر العدائية لم تنته. بل على العكس، فغداة تحرير «لوريان» من الجيب الالماني في ٨/ أيار/ ١٩٤٥ تم تأليف «لجنة تحقيق».

«ستوسكويف جاك مهندس كفؤ يملك كل الصفات الحميدة،

«لم يتوقف عن اظهار مشاعره الوطنية الرفيعة، وساعد في النصر بتقديمه، أثناء الاحتلال، معلومات قيمة عن التحركات البحرية للعدو وبالأخص تحركات الغواصات المتمركزة في لوريان».

من هو اذن هذا الجاك ستوسكويف؟

الزاسي، ولد في باريس في ٢٧ تشرين الثاني ١٨٩٨ من عائلة تظهر العداء السافر لألمانيا لأنها لم تنس عملية ضم الألزاس لألمانيا عام ١٨٧٠. عند اندلاع الحرب الكبرى كان يبلغ السادسة عشرة من عمره. كان عليه الانتظار عامين كي يلتحق بسلاح المدفعية حيث حصل على ترقية. وفور توقيع الهدنة دخل الى كلية «البوليتكنيك» الحربية. كان تلميذاً ذا مواهب واضحة وذاكرة مدهشة مما جعل رفاقه يلقبونه



احدى عمليات احصاء وفرز اسماء المتقدمين للخدمة الاجبارية حسب قانون ٤ ايلول / سبتمبر ١٩٤٢ وهم كل مولود بين اول ١٩١٢ وآخر ١٩٢١

ولف الذهول كل السكان عندما علموا في الخامس والعشرين من تشرين الاول ١٩٤٥ بأن الحكومة الفرنسية اعلنت انه ابتداء من أول تشرين الاول ١٩٤٣ تقرر ترقية جاك ستوسكويف، بصورة دائمة الى رتبة مهندس عام من الدرجة الثانية في الهندسة البحرية ومنحه وسام جوقة الشرف وصليب الحرب.

وعقدت الدهشة ألسن السكان عندما قرأوا النص التالي:

«بالانسكلوبيديا الناطقة».

مهندس لامع

عند تخرجه من المدرسة عام ١٩٢٤ اتجه لدراسة الهندسة البحرية وكلف بادئ ذي بدء بادارة اعمال الانشاءات البحرية في شربورغ ومراقبة واجراء التجارب على اول قذائف قدمت للبحرية.

ومن مركزه هذا استطاع تحصيل معلومات وافية عن البوارج الخفيفة مما دفع ادارة

الانشاءات البحرية في باريس الى استدعائه لدراسة امكانية انشاء بوارج اسرع وأقوى وأفضل تجهيز. وتوصل الى اختراع مضاد للقذائف وحطم الرقم العالمي لسرعة البوارج الحربية بايصاله الى ٤٥ عقدة في الساعة.

ونقل الى «لوريان» في الأول من تشرين الاول ١٩٣٩ حيث فرض منذ البداية نفسه، وكعامل نشيط فقد ادهش كل معاونيه بدقة اعماله التي لا تخطئ وكان «مونتين» كاتبه المفضل ويبدو انه اخذ من «كتاب المحاولات» الذي كان كتابه الرائد حكمة حياته: «تكون حياتك كلها في المكان الذي تنتهي فيه. فالاستفادة في الحياة ليست في السماع انما في استعمالها».

وكتاب «المحاولات» الذي قرأه الآف المرات كان مفتوحاً فوق مكتب ستوسكويف في «لوريان» عندما دخلها الألمان في ٢١ حزيران ١٩٤٠. ماذا حدث في هذا الوقت؟

وقام الحاكم البحري، الاميرال بنفنتينو باخراج كل القطع البرية التي تستطيع الابحار من مضادات القذائف، والطرادات، وحرس السواحل وارسلها الى «بروتانا». وفي المرافئ الشمالية اضطر الى سحب حتى بعض القطع البحرية التي لم يكن قد انتهى انشاؤها وقام ايضاً بنقل كل البحارة بدءاً من تلامذة مدرسة الميكانيكيين.

اما في المرفأ فقد احرقت خزانات المازوت وحطمت ابواب الاحواض.

كانت الثالثة بعد الظهر عندما وصلت قوات الماجور «ريمان» الى مركز الترسانة. كان ستوسكويف في مكتبه عندما فتح الباب ودخل ضابطان المانيان. وبلغة فرنسية ونبرة حادة قال لهما:

– ايها السادة، اذا كنتما تريدان رؤيتي فاعلنا هويتكما. كما اني اطلب منكما نزع قبعتيكما عندما تدخلان مكتبي.

وخرج الضابطان وعلى وجهيهما الدهشة واقفلا الباب وراءهما بعد لحظات عادا وطرقا الباب بهدوء ودخلا وكل منهما يحمل قبعته بيده، بعدما سمعا الاذن بالدخول.

توقف العمل

ومنذ الأيام الأولى للاحتلال، وبصفته مديراً للانشاءات البحرية، فكر المهندس العام انطوان دو «بأنه يجب ان منتظم في الهزيمة من أجل تخفيف مرارتها والحد من نتائجها».

كان الألمان يريدون وبسرعة تصليح ما تعطل في الترسانة خاصة في الأحواض، من أجل استعمالها. وكان المهندس العام انطوان يبذل كل جهوده كي لا يقوم الألمان بفرض قوانينهم على العمال. فاذا استطاع جمع العمال والفنيين وابقاءهم بامرة القيادة الفرنسية يكون قد ابقى الحل الأمثل.

لكن هل يقبل العدو بذلك؟ واوفد انطوان «جاك ستوسكويف» الذي يتكلم اللغة الالمانية بطلاقة للمفاوضة، وفرض برنامجه على المحتلين.

– هل تعتقد بأن الفرنسيين يقبلون بالعمل لحسابنا؟

– سأل الاعداء وهم نصف مقتنعين.

– انها مهمتي، اكد لهم ذلك. واذا قاوموا سأعرف كيف أجبرهم على الطاعة.

ولتجنب التدهور واختفاء المعدات الصناعية قام المهندس الاول انطوان وذراعه اليمنى ستوسكويف ببناء الورش وانشاء افران الفحم وتصليح الآلات ذات النفع العام. اما الآلات الضرورية فكان يجري سحبها سراً من المخصصات الالمانية.

كان ستوسكويف يقوم يومياً بجولة تفتيشية. وأحياناً كان يتذمر من ان العمل لا يسير بسرعة – بينما هو المسؤول الاول عن التأخير – التخريب. وبمجرد وقوع خطأ من احد العمال كان يوجه له وبنبرة حادة ملاحظات قاسية.

وتجاهل العمال فضل رب العمل هذا، وفر عليهم تلقي الاوامر من الألمان وبالتالي العمل لزيادة القوة الحربية للرايخ الثالث

ان اول غارة جوية انكليزية فوق «لوريان» حصلت في ٢٧/ ايلول/ ١٩٤٠. واستمرت من ثم حتى ١٩٤٣ حتى افلحت بتدمير المدينة وقلبها رأسا على عقب. ومساء احد الأيام اصابت القنابل المحطة الكهربائية الرئيسية وصرح احد الفنيين قائلا لستوسكويف ما كان العمال يرددونه همساً.

– ستنجح بقتلنا جميعا هنا.

– ولم ينبس المهندس ببنت شفة. ولكن مساعده «لوبوت» تدخل قائلا:

– ايها الأبله الا تفهمون اننا هنا من اجلكم.

– كلا. ففي كل «لوريان» لم يفهم احد.



رحيل اخر دفعة المانيا من لوريان وجوراها، لقد بقيت القاعدة البحرية كما هي، ولم تزل تحمل اسم ستوسكوبف.

وحقيقة الامر لم يكن احد ليستطيع ان يفهم. ولتنفيذ خطته الخطيرة التي صمم عليها، كان جاك ستوسكوبف مجبراً على التقاط مكافآت الالمان جاعلا نفسه، في اعين مواطنيه عميـلا متواطئاً.

مهمة كبيرة (فرعونية)

في الأشهر السبعة الاولى من الاحتلال لم تتغير الحالة بتاتا في «لوريان» فالترسانة تبدو وكأنها تعمل. اما المرفأ التجاري الذي انشئ بعد الحرب العالمية الاولى على مدخل «تير» بين «كيروجان» و«دولا بيريير» بقي هادئا مثل كل المرافئ الفرنسية.

ولكن كل شيء تغير مع بداية عام ١٩٤١. ففي «كيرومان» على وجه التحديد جاء مهندسو مؤسسة «توديت» وتبعهم جيش من العمال. وبدأوا في شباط ببناء قاعدة كبيرة للغواصات.

تألفت القاعدة من ثلاثة ابنية ضخمة من الاسمنت المسلح. بلغ طول الاولين ١٣٠ مترا بارتفاع ١٨ مترا ونصف. وقد احتوتا احد عشر مخبأ حيث كانت تجري اعمال المراقبة والتصليح والترميم على الغواصات التي يجري ادخالها بواسطة عربات من الفولاذ وتوضع في اماكن جافة. وانتهت الأعمال في هذين المركزين في كانون الأول من عام ١٩٤١. وكانت قد ابتدأت في أيار من العام نفسه.

وفي تشرين الأول ١٩٤١ بدأ الالمـــان ببناء المركز الثالث الذي لم ينته الا في ايار عام ١٩٤٣ وكان عبارة عن ممرات متقابلة من الاسمنت المسلح طول الواحد ١٧٠ مترا وعرضه ١٣٨ مترا وارتفاعه عشرون مترا. وكان يحتوي على سبعة احواض عامة تستطيع استقبال ١٣ غواصة.

ولتحقيق هذه الأعمال الفرعونيـة جلـب العمال كالعبيد من منازلهم من كل اوروبـا المحتلة وقاموا بصب حوالي مليون طن من الاسمنت.

واصبحت مدينة «لوريان» احدى القواعد الالمانية الخمسة المقامة على ساحل الأطلنتيك والمخصصة للغواصات. اما الاربعة الباقية فكانت: برست، سان نازير، لاباليس، وبردو. وكل واحدة تقوم بتصليح وتجديد نوع محدد من الغواصات. ففي لوريان كانت انواع «تسعة ب وتسعة ت» وهي غواصات قاذفة وزنها ٧٤٠ طنا تنتمي الى الاسطولين الثاني والعاشر اللذين يضمان لوحدهما خمسين قطعة.

كان مرفـأ «كيرومـان» يخبـىء وحده ثمانية كاسحات الغام واثني عشر طرادا وقطعا فرنسية استولى عليها في المرافئ الفرنسيـة وكانت جاهزة للحـرب. وكان هنـاك ايضـاً «مدمرات الحواجز» وناقلات مسلحة مجهـزة خصيصاً من أجل تفجير الألغام المغناطيسية

التي كانت الطائرات الانكليزية تلقيها في قعر المضائق .

وفهم «جاك ستوسكويف» بان حركة تنقلات هذه القطع وخاصة الغواصات - ذات اهمية بالغة للانكليز. وعن طريق علاقاته «الصديقة» مع الألمان، استطاع ستوسكويف ان يدخل بانتظام الى قاعدة كيرومان. كان الفرنسي الوحيد الذي سمح له بالدخول.

معلومات سرية

كان يراقب كل شيء ودون كتابة اي مذكرة. لقد كان يسجل ذلك في ذاكرته القوية. كان يرى على الغواصات رسوماً كورق اللعب وصور حيوانات واسماك وعروس البحر وايضاً... بقرة ضاحكة وشيئاً فشيئاً استطاع التعرف على كل غواصة.

لاحظ ايضاً الغواصات الالمانية كانت عند دخولها القاعدة ترفع اعلاما ملونة تدل على انتصاراتها. العلم الابيض يدل على ان ناقلة تابعة للحلفاء قد اغرقت.. والعلم الأبيض المقطع باللون الاحمر، على طراد اما الأحمر فيدل على سفينة حربية.

وبعد عودتهم من معاركهم كان ستوسكويف يستجوب قادة الغواصات دون ان يظهر بأنه يقوم بذلك. وأحياناً واثناءالحديث كان يسجل حدثا هاما. كما سمع ذات يوم ان احد ضباط «الفريسمارين طلب من قسم الخرائط ثمانية اوراق تابعة للبحر الكاريبي وفوراً ارسل اشعارا بذلك مما سمح بتحويل خط سير عدة ناقلات بترول حليفة.

ولكن بعض المهمات كانت اكثر خطورة. لقد قام ستوسكويف بتصوير وحدات كاملة داخل مخابئها وذلك بالاشتراك مع مواطن شاب قاده على ظهر طراد سريع.

وارسلت كل هذه الوثائق الى حركة الاتحاد المتخصصة بدعم قسم الاستخبارات البريطانية بالمعلومات. وتألفت شبكة اخبار «نجمة البحر» واقامت لها مركزين في «برست» و«بوردو» في البداية كانت الاخبار ترسل الى «فيشي» ومنها باتجاه لندن بواسطة مبعوثين اما الآن ولضرورة السرعة فانها ترسل بالراديو.

ويوماً بعد يوم، وكمن يجمع قطع موازييك، استطاع ستوسكويف اعطاء القيادة البحرية البريطانية تقريرا عن كل تحركات الغواصات الألمانية.

القنابل تمطر

من مركز قيادته العامة الذي اقامه في قصر «كيرنيفيل» على الضفة الغربية لنهر سكورف كان الاميرال «دنيتز» يوجه غواصاته. فاذا استطاع اغراق عدد من القطع البحرية الحليفة اكثر من العدد الذي تصنعه البحرية الانكليزية والاميركية فانه سيربح معركة الاطلنتيك. واذا استطاع هذا الرجل النحيف ذو الملامح القاسية ربح معركة الاطلنتيك فان المانيا بذلك تحصل على فرصة لربح الحرب.

ولهذا السبب كانت المانيا تقوم بصناعة عدد من الغواصات يزداد دائماً.

وبدون توقف كان ستوسكويف يحصيها ويعيد احصاءها. فالاثنتا عشرة «التي ظهرت في «كيرومان» في شهر تشرين الاول ١٩٤٠ اصبحت عشرين في كانون الثاني ١٩٤٢. وكان يرسل حوالي خمسين رسالة اسبوعياً وذلك بعد كل مرة يدخل فيها ويخرج من القاعدة.

ولازاحة هذا الخطر المميت المتمثل في هذه الغواصات كان الحلفاء يضاعفون غاراتهم الجوية كانت القنابل تتساقط عمياء، مدمرة المدينة وحاملة الموت الى العائلات في «لوريان».

ولم يتركز القصف على القاعدة وحدها الا في نهاية ١٩٤٢. وقامت القاذفات الاميركية بأول غارة نهارية لها في ٢١ تشرين الأول بمجموعة من ١٥ طائرة وكررتها في ١٨ تشرين الثاني ثم في ٢٢ وايضاً في الثلاثين من كانون الأول.

قتل من جراء ذلك كثير من العمال من جنسيات مختلفة وكثير من السكان المدنيين. وتسببت بخسائر كبيرة في مختلف المصانع ولكن القلعة الكبيرة المسلحة بقيت سليمة.

في آب ١٩٤٢، عين المهندس العام «انطوان» مديراً مركزياً في «فيشي» وكبديل له في رئاسة المقاطعة استدعت الحكومة الى الخدمة في تشرين الثاني الاميرال «بورتزمبارك»، بحار كبير ورجل حرب مشهور بطبعه الحاد وبطيبته.

وتفاهم على الفور مع ستوسكويف ومعاونيه الرئيسيين لتنفيذ خطة بعشرة سكان المدينة. فاسكنوا القسم الاكبر من العمال مع عائلاتهم في الضواحي المجاورة.



لوريان في الليل

جاء هذا القرار في وقته لينقذ العديد من الأبريـــاء. فخـــلال شهــــر كانــــون الثاني ١٩٤٣ لم تتوقف الطائرات الاميركية عن قصف «لوريان» وبعد غارتين قامت بهما في الخامس عشر من الشهر كانت المدينة قد دمر القسم الاكبر منها نتيجة لالقاء القنابـل المتفجـرة والحارقة. وتكررت الغارات.

وفي كل مرة كان الفرنسيون يموتون بسبب هذا التكتيك الغبي الذي يقوم على عملية القاء كميات كبيرة من القذائف فوق مساحة واسعة دون الانتباه الى الأخطار البعيدة. وانفجـر السكان غضباً وكتبوا على الجدران «محررين قتلة».

وفي صفوف الألمان وقعت ايضا خسائر في الأرواح وفي المعدات. لكن قاعدة الغواصات بقيت كما هي. واثناء هذه الغارات المدمرة اكبر قنابل صنعت في العالم وقد استطاعوا بواسطة الانوار الكاشفة الضخمة اصابة سطح القاعدة ولم تستطع هذه القنابل الا «خدش» الاسمنت.

بعد كل غارة، كان ستوسكوبف يرسـل اشعارا الى لندن بأنـــه لا جدوى من هذه الغارات الجوية ولكن صرخته كانت في واد..

ازدياد الشكوك

بدأ الألمان يشعرون بأن هذه الترسانة لا تقدم لهم الخدمات المنتظرة.. فالأعمال تستغرق وقتاً طويلا، والمراسلات تزداد دون معنـى، وارادة العمال السيئة تكبر؛ واختفاء المعـدات والمحروقات والآلات المتحركة يزداد بصـورة

دائمة. فقرروا نقل قسم من العمال الى مرافئ اكثر امنا واقل تعرضاً للغارات.

وفي «لوريان» تمنوا بأن لا يحتفظوا الا بالفرق العمالية الضرورية كي يستطيعوا اجبارهم على العمل باشراف مهندسين المان. واصطدموا مرة اخرى بمعارضة ستوسكويف.

وتدهورت الامور خلال صيف ١٩٤٣ بعد ذهاب الاميرال «بورتزا مبارك» الذي ترك قيادته في الخامس من تموز. وبدأت مداخلات ستوسكويف المتكررة تزعج الألمان. فهذا الرجل الذي كانوا يعتبرونه حليفاً مخلصاً لهم، اصبحوا يشكون بأنه يريد احتواءهم. ففي مناسبتين على الأقل لم يستطع اخفاء مشاعره الوطنية

المرة الاولى في «هينون» حيث اقدم العامل بوشيه على البصق على حذاء ضابط من الدرك.

واوقف على الفور وارسل هذا الفرنسي للمحاكمة امام محكمة عسكرية المانية.

واحتج ستوسكويف وبما ان احتجاجه لا ينفع شيئاً فقد ارسل الليوتنانت «بوشار» للدفاع عن هذا المسكين.

المرة الثانية كانت عندما حاول البحري «بلويارد» منع احد اصدقائه من اشعال لفافة جندي الماني. فحكم عليه بالسجن ثلاثة اشهر. وتدخل ستوسكويف. واستطاع تخفيض العقوبة الى ستة اسابيع وبعد ذلك الى الغائها.

وهذان مثلان من قليل.

هل انتهى الألمان الى الشك بالدور الذي يلعبه ستوسكويف؟ هل اوقف «الغستابو» بعض رجال المقاومة الذين تكلموا تحت التعذيب؟ لا احد يدري ولكن ابتداء من بداية العام ١٩٤٤، وضع المهندس تحت المراقبة. وكانت هذه المراقبة من ترسانة «لوريان» وفي «كيمبر» حيث تقيم عائلته وحيث وجد الوسيلة والحجة للذهاب بصورة منتظمة للاتصال باحد رجال شبكة «الاتحاد».

وفي احد الاجتماعات المحظورة على الفرنسيين اشتكى الميجور «ريمان» وكان قائد الترسانة من مواقف ستوسكويف وايده بذلك معاونوه. ونقلت هذه الاحتجاجات الى الليوتنانت «بوشارد» بواسطة مترجمين: الليوتنانت البحري «دوبر ناردي» ذي الأصل النمساوي والمدني الالماني «بروبرز». قالا له:

«اننا نشعر ان الامور لا تسير سيراً حسنا مع السيد ستوسكويف. فكل «المهندسين الالمان يتذمرون منه. يجب ايجاد بديل له في مدة قريبة.. وقد يكون المترجمان ارادا تحذير ستوسكويف بواسطة زميلهما الفرنسي؟ وقد يكون الميجور «ريمان» استعمل هذه الطريقة الملتوية لكي ينصح المهندس سراً بالابتعاد وفي كل الاحوال كان الخطر يتهدده.

انه يعرف ذلك، ولكن لم يهتم. وقد باح بسره، لأول مرة، الى المهندس «لوبوت» الذي نصحه بترك منصبه. قال له: «لا يمكنني التخلي عن عملي حاليا. انني على رأس شبكة لا يمكن ان تستمر بدوني وهروبي الآن سيسبب لها نتائج خطرة.

الغستابو يتحرك

وحصل ما كان متوقع حصوله. ففي الواحد والعشرين، من شهر شباط ١٩٤٤ اوقف الغستابو «جاك ستوسكويف» واقتاده الى «فان» حيث ادلى باولى اعترافاته وتعرض للمراحل الاولى من تعذيبه.

بعد يومين طرق رجال البوليس الألمان المنزل في «كيمبر» حيث تنتظر السيدة ستوسكويف زوجها وكان كل ما تفوهوا به هو:

– لدينا امر بالتفتيش.

لم يفاتح المهندس زوجته ابدا باعماله السرية. ولكن بحدس المرأة عرفت كل شيء. وفور اعلامها من قبل معاوني زوجها في العمل بان «الغستابو» اوقفه، قامت بالتفتيش في كل اوراقه.

ولكنها لم تجد شيئاً يذكر. ولكونه كان يثق بذاكرته القوية، فانه لم يكن يدون شيئاً تقريباً. فالرسائل والرموز كانت تبقى محفورة في رأسه. ولكنها وجدت بعض الملاحظات التي قد تثير الشكوك فاسرعت باحراقها.

وقام رجال البوليس بتفتيش كل المنزل ولم يجدوا شيئاً وذهبوا.

– الى اللقاء يا سيدة ستوسكويف.

لم ترد لهم التحية. اغلقت الباب وعندما عاد الصمت بدأت بالصلاة. كانت تردد باستمرار «جاك، جاكي المسكين، هل سأراك بعد الآن؟»

اما هو فكان قد نقل اثناء ذلك الى «رين» وقام عملاء «الغستابو» الجدد باعمال وحشيه ضده كانوا يريدون اعترافه باسماء اعضاء

شبكة الاتحاد. وعلى الأخص بالشبكة المساعدة «نجمة البحر» التي كانت تجمع المعلومات على طول الشاطئ الفرنسي للاطلنتيك. والتزم ستوسكوبف بالصمت.

ووضعه الألمان في سجن «رين» نفسها لمواجهته باعضاء من الشبكة التي كانوا يريدون تفكيكها وكان جوابه الوحيد عن كل اسئلتهم:

— لا اعرف شيئاً. لا اعرف شيئاً ابداً.

وكانوا يعيدون تعذيبه.

وفي ٣١ تموز اخرجوه من زنزانته وارسلوه الى مركز «كامبيان» حيث كانت تجرى عملية اختيار السجناء. وبعد توقف قصير في سجن «فرين» المركزي ارسلوه الى مركز التجمع في «ستيرميك» في الالزاس التي طالما احبها.

وفي ليلة الاول من ايلول ١٩٤٤، وفي الساعة التي وصل فيها الحلفاء الى «رين» و«شالون سور مارن» انتزع جاك ستوسكوبف من على فراشه القذر مع مائة وسبع اعضاء اخرين من شبكة الاتحاد: ١٥ امرأة و٢٢ رجلا من منطقة «بروتان» و٢٢ رجلا من بوردو لاروشكال، اربعة من منطقة النورماندي تسعة من منطقة البحر المتوسط، اربعة من منطقة الشمال، ثلاثة عشر من مركز الراديو، وثمانية من خدمات الالمان العامة ومن المنطقة الباريسية.

نقل الجميع الى مركز الانتقام الرهيب في «ستروتهوف» الواقع على علو ٧١٠ امتار عن سطح البحر والذي يديره الاكثر وحشية ودموية في المانيا النازية: منفذ اوامر الفوهرر والاس اس «جيهروم».

كان الجلادون الالمان التابعون لقسم الاستخبارات يدفعون واحدا بعد الآخر من اعضاء شبكة «الاتحاد» المئة وثمانية باتجاه سلم عريض يؤدي الى غرفة الموت ثم يقتلونهم باعصاب باردة باطلاق رصاصة في العنق ثم بعدها يحركون جسر الغرفة فتندفع الجثة بواسطة قلاب نحو رافعة تقوم برميها داخل فرن للاحتراق.

بعد ثمانية اشهر وفي الثامن من ايار ١٩٤٥ استسلمت اخر قوات الفرقة الالمانية التي بقيت في احدى «جيوب اللوريان». استسلم الرايخ الثالث دون شروط. والرجل الذي وقع وثيقة الاستسلام هو نفسه الذي كان يقيم في قصر «كيرنيفيد» في «المورييون» لاعتقاده بانه سيشاهد انتصار غواصته عن قرب: الاميرال دنيتز.

دمرت مدينة «لوريان» بكاملها. ولكن قاعدة الغواصات بقيت سالمة... وهي تحمل اليوم اسم المهندس العام جاك ستوسكوبف. ■



«دعوة لأصحاب رسائل الماجستير والدكتوراه»

يسر مجلة «تاريخ العرب والعالم» أن تدعو أصحاب رسائل الدكتوراه والماجستير في التاريخ في الجامعات العربية والأجنبية للتعريف برسائلهم على صفحاتها وذلك في مقالة تتراوح ما بين الألف كلمة والألف والخمسمائة كلمة وتشمل على لمحة موجزة عن الموضوع المعالج، مع الاشارة إلى مكان وزمان تقديمها وإسم الأستاذ المشرف عليها.

وإذ تفتح المجلة هذا الباب أمام اصحاب الرسائل في علم التاريخ، تتوخى أن تحقق بعضاً من الأهداف والتي أهمها:

— أولا — التعريف بانجازات الباحثين والطلاب العرب في ميدان علم التاريخ.

— ثانياً — التعرف على توجهات الجامعات العربية والأجنبية في نوعية الموضوعات المطروحة ومناهج البحث المتبعة.

— ثالثاً — توفير جانب من البيليوغرافيا التاريخية في موضوعات الرسائل التي قدمت ونوقشت في الجامعات العربية.

سلطنة الحسان في قصور آل عثمان



هذه بعض أخبار عن دور النساء في الدولة العثمانية . لا نجد لها مكاناً في الكتب التاريخية العامة . فهي نظراً لطرافتها ولطرحها زوايا خاصة من تاريخ السلاطين العثمانيين، قد تشكل موضوع اهتمام لدى القارىء . ولقلة المصادر في هذا الموضوع ننقل هذه المقالة عن مجلة تاريخية مصورة صدرت في الثلاثينيات بعنوان «عصر السلطان عبد الحميد واثره في الأقطار العربية ١٨٧٦ - ١٩٠٩»

سيطرة النساء على شؤون الدولة :

لعبت النساء الحسان في قصور آل عثمان في مختلف العصور الأولى أدواراً عظيمة فكان لهن الشأن الأعظم في تسيير شؤون الدولة . فجميع الوزراء ورجال الدولة الذين تولوا المناصب العالية بعد وفاة السلطان سليمان القانوني كانوا تحت نفوذ نساء القصر.

فقدان روح الشجاعة من نفوس السلاطين المتأخرين :

والسلاطين الذين تعاقبوا على العرش بعد سليم الأول الملقب بياوز كانوا فاقدين لروح الشجاعة والبطولة التي تحلى بها أسلافهم، منقادين إلى ربات الخدور وهذا مما أفسح المجال لازدياد نفوذ النساء في الدولة .

السلطانة نيلوفر زوجة أورخان الغازي :

فالسلطنة العثمانية في الأدوار الأولى من حياتها لم يكن للنساء تأثير في شؤونها . وهذه السلطانة (نيلوفر) زوجة اورخان الغازي كانت تقضي حياة طاهرة نقية منصرفة إلى تدبير شؤون قصرها . فبينما كان زوجها في ساحات الحروب يحاصر القلاع ويفتتح الحصون كانت هي تستقبل الضيوف وتكرم وفادتهم كربة بيت صالحة .

وأغلب السلطانات اللواتي كان يؤتى بهن من قصور قياصرة البيزنطيين وأمراء الاناضول كن يؤلفن حياة عائلية هنيئة يصح أن تتخذ نموذجا صالحا للرعية وقلما تتدخل هؤلاء السلطانات في مسائل الدولة والحكم. فالسلطانة تيودورة الرومية ابنة الامبراطور قانتا قوزينوس البيزنطي التي عقد عليها أورخان الغازي في أواخر أيامه لغايات سياسية كانت تعد بكل حق المثل الاعلى للجمال الساحر والاخلاق الفاضلة الممتازة .

السلطان سليم يفضل عشق الوطن على كل عشق :

ولم يسجل التاريخ اسم حسناء سيطرت على أحد السلاطين التسعة الذين تعاقبوا قبل سليمان القانوني أو على شؤون الدولة .

فالسلطان سليم الأول الملقب بياوز والذي فتح الاقطار العربية وأضافها إلى امبراطوريته كان يفضل عشق الوطن على كل عشق فنراه يترك حياة القصور المليئة بانواع الترف والمسرات ويغادر الاستانة ممتطياً صهوة جواده إلى تشالديران ومنها إلى سوريا فمصر مجتازاً البراري القاحلة والصحارى القاتلة في سبيل إعلاء شأن الوطن . وكانت زوجته السلطانة حفصة حاكمة القصر الوحيدة لاتزاحمها فيه غيرها وقلما شوهد سليم الاول في قصره لان الحرب كانت تشغل أكثر اوقاته .

سليمان القانوني يخضع لحسناء روسية !

ولكن ابنه السلطان سليمان القانوني كان غير ابيه فقد انفق خزائن الدولة التي ملأها أبوه بالذهب على مسراته ولهوه وزهوه وأظهر خنوعا للنساء مع شدة بأسه ومن أيامه بدأت حياة النساء في القصور تتجه اتجاهاً جديداً واعتباراً من هذا العهد ايضاً بدأت القصور تعج بالعبيد والاغاوات والجواري الحسان فالقانوني الذي هز الشرق والغرب بفتوحاته وانتزع كثيراً من التيجان وحطم كثيراً من العروش وافتتح كثيراً من القلاع والحصون انهزم وتقهقر وخضع للسلطانة خرم زوجته المحبوبة التي ملكت عقله وسلبت فؤاده واستولت على حواسه فكان لها أطوع من البنان .

من هي السلطانة خرم ؟

كانت هذه الحسناء الروسية من جملة الجواري اللواتي جيء بهن إلى القصر لتقدم إلى البادشاه في أحد الأيام فلم تطق الأنزواء بين ظلمات الجدران كباقي الجواري الحسان وصعب عليها احتمال حياة الأسر فأخذت تتمرد على القائمين على حراستها وإزداد تمردها وعصيانها وبلغ حداً لم يعد في الامكان السكوت عنها فعرضوا أمرها على السلطان الذي أمر أن يؤتى بها إلى حضوره ولما مثلت بين يديه بقامتها المشوقة وجمالها الرائع الفتان ونظرها الفتاك وبراءة الطفولة المرسومة على محياها الوضاح سحرته ببلاغة منطقها وبذبول عينيها وبشجاعتها التي حملتها على العصيان فاخضعت بنظرة واحدة لسلطان جمالها القاهر ذلك القلب العظيم الجبار قلب اعظم سلطان في ذلك الزمان ومنذ تلك الدقيقة تحولت الفتاة الروسية الحسناء(روكزلان) إلى السلطانة خرم زوجة القانوني ومالكة قلبه واصبحت سيدة القصر المطاعة وإزداد مع الايام طموحها فلم تكتف باستيلائها على قلب السلطان بل شرعت تتدخل في شؤون الدولة وتسيطر على الوزراء والقادة وقامت بدسائس ومناورات



السلطان
اورخان الغازي

عظيمة بالاتفاق مع صهرها رستم باشا فعملت على قتل الامير مصطفى ابن زوجها وولي عهده فضمنت بذلك العرش لأبنها سليم الثاني السكير واوغرت صدر القانوني على صهره وصدره ابراهيم باشا فامر بخنقه بينما كان نائماً في قصره وجاءت بدلا منه إلى الصدارة بصهرها وشريكها في المؤامرات رستم باشا واخيراً ماتت بين أحضان القانوني فبكاها ورثاها وتوجع وتفجع كثيراً لفقدها .

سليم الثاني وزوجته السلطانة نوربانو :

وانتقلت سيادة القصر بعد وفاة السلطانة خرم إلى السلطانة نوربانو اليهودية الحسناء وزوجة سليم الثاني الذي كان يحيى الليالي في انتهاب الملذات والمسرات وشرب المسكرات واقتراف المحرمات ولو لم تكن الدولة في يد وزير قدير حكيم مثل الصوقللي لانهار بناء الدولة من ذلك العهد . ولما توفي سليم الثاني ضحية سكره كتمت نوربانو خبر موته وبعثت بمن أتاها بولدها مراد الذي كان غائباً في مغنيسيا وفي تلك الليلة نفسها قتل موظفو القصر بايعازها أولاد زوجها الخمسة خنقا ليخلو جو الحكم لابنها .

وفي هذا العهد كانت إدارة الدولة الداخلية في أيدي نساء القصر والخارجية في أيدي العلماء والوزراء والقواد والسلطان لا سلطة له .

مراد الثالث وزوجته السلطانة صافية :

ولما تزوج ابنها مراد الثالث من السلطانة صافية وكانت من قبل جارية في القصر جلبها قرصان البحر أسيرة من البندقية خضع لجمالها وانجذب إلى سحر عينيها فثارت الغيرة في نفس الحماة وأخذت تقدم لابنها الجواري بالدزينات لتصرفه عن الحسناء صافية فلم تتوفق وبلغ عدد الجواري اللواتي حشدتهن في القصر الخمسمائة .

وكانت السلطانة نوربانو وكنتها صافية تبيعان وظائف الدولة بالمزايدة ! !

وهكذا بقيت قصور آل عثمان مدة طويلة تحت سيطرة نساء أجنبيات عملن على ازدياد نفوذهن وقلما دخل القصور نساء تركيات .

السلطانة كوسم زوجة أحمد الأول :

ومن أشهر النساء اللواتي سجلن لهن أسماء بحروف بارزة على صفحات التاريخ العثماني السلطانة كوسم زوجة السلطان أحمد الأول وأصلها حسناء رومية إسمها آناسطاسيا وقعت أسيرة في أيدي والي البوسنة فقدمها هدية إلى مولاه السلطان فرسخت أقدامها في القصر وانتشر نفوذها انتشاراً عظيماً ولعبت أدواراً مهمة في سياسة البلاد ولما تولى العرش ابنها ابراهيم الهته عن الحكم بالجواري واستلمت هي إدارة الدولة فكانت حاكمة البلاد الفعلية فلم يكن الباب العالي يقوم بعمل قبل الاستئذان منها !

السلطانة ترخان تقتل حماتها كوسم :

وكثيراً ما دفعت الغيرة والحسد ما بين الحماة والكنة في قصور آل عثمان إلى اقتراف أعظم الجنايات من ذلك أن السلطانة كوسم هذه حاولت مرة اغتيال كنتها السلطانة ترخان فتغدت هذه حماتها قبل أن تتعشاها وبايعازها خنق آغاوات القصر السلطانة كوسم بستائر نوافذ غرفتها .

زهد عثمان الثاني :

وكان السلطان عثمان الثاني مكتفياً بزوجة واحدة فلم يحب معاشرة غيرها ومراد الرابع الذي قضى أكثر أوقات سلطنته في الحروب لم يجد وقتاً للحب والغرام وقد ضرب السلطان ابراهيم الرقم القياسي في هذا الباب فأكثر من الجواري بقدر ما شاءت له أمه السلطانة كوسم .



صافيناز هانم

وان سيطرة النساء على شؤون الدولة زعزعت كيانها غير أن وجود الصدارة في أيدي عائلة كويرلي الشهيرة خففت شيئاً من الأضرار التى انزلتها السلطانات بالسلطنة .

السلطان محمود وضيفه الرجل الافرنسي

وكان سلاطين آل عثمان شديدي التقيد بالحجاب لا يسمحون لأحد برؤية نسائهم ومن غريب ما يروى عن السلطان محمود الملقب بالعادل أنه بعد أن أباد الانكشارية توثقت عرى الصداقة بينه وبين رجل افرنسي أحبه كثيراً وقربه إليه وفي أحد الأيام دعاه لتناول طعام الغداء على مائدته السلطانية ، وبينما هما على المائدة سأله السلطان أن يطلب منه ما يريد ويتمنى ما يشتهي من الهدايا والمنح السنية .

ويظهر أن ذلك الضيف كان ثقيلا ، فاقد الذوق ، فقد طلب من السلطان أن يسمح له بمشاهدة أجمل امرأة في الحرم ، وبما أن السلطان سبق أن وعده بمنحه ما يريد لم يشأ الرجوع عن كلامه ، وبعد قليل ظهر أحد آغاوات الحرم وبيديه صينية من الذهب مغطاة بمطرزات حريرية فوضعها بأمر السلطان أمام ضيفه الافرنسي فكشف هذا الغطاء عنها وإذا برأس إمرأة جميلة مقطوع من جثتها وملطخ بالدماء فادرك إذ ذاك أنه رأس أجمل امرأة في قصر السلطان وقد منعته التقاليد من مشاهدة وجهها حية فجيء له برأسها مقطوعاً ! ولا نعلم ماذا كان جواب الافرنسي بعد مشاهدته هذا المنظر الفظيع .

نساء السلطان عبد العزيز وجواريه

وفي أيام عبد العزيز بلغ عدد نساء السراي على ما يقال التسعمائة حتى ضاقت بهن غرف القصر وازداد عدد آغاواتهن الخصيان زيادة فاحشة فكان مجموع سكان القصر الفين وخمسمائة نسمة لا غير عدا الجنود والحراس .

مقام والدة السلطان في قصور آل عثمان

أن ارفع رتبة تتمتع بها السيدة في قصور آل عثمان هي رتبة (والدة السلطان) والتاريخ العثماني طافح باخبار هؤلاء الوالدات وتداخلهن المضر في شؤون الدولة ومدى تأثيرهن أحياناً في بعض المواقف الحاسمة وقد ذكرنا فيما تقدم شيئاً من أخبارهن .

واعتاد سلاطين بني عثمان إذا توفيت

والدتهم أن يسندوا منصب الوالدة الشاغر إلى احدى مربياتهم أو خالاتهم واعتادوا أيضاً أن يعاملوا الوالدة الجديدة كأنها والدة حقيقية .

والدة السلطان عبد الحميد :

توفيت والدة السلطان عبد الحميد في ريعان صباها فتبنته برستو خانم أحدى زوجات عمه السلطان عبد الحميد ولما آل العرش اليه انتقل اليها منصب الوالدة ولقبت بهذا اللقب غير أن ابنها عبد الحميد غمطها حقها والغى جميع الامتيازات التي كانت تتمتع بها صاحبات هذا المنصب من قبل ثم اساء معاملتها فلم تطق احتمال الذل والهوان من ابنها ، بل غادرت القصر وانقطعت في قصرها الكائن في (نشانطاش) .

مراتب السيدات في الحرم :

وتلي والدة السلطان في مراتب نساء الحرم الشاهاني رئيسة خزينة الحرم (خزينة داراوسته) فزوجات السلطان الشرعيات اللواتي عقد له عليهن ويعرفن باسم (قادين) ومرتبة (قادين) في سلسلة مراتب سيدات القصر تنقسم إلى أربع درجات فهنالك القادين الاولى والثانية والثالثة والرابعة . والقادين تنتخب عادة من اللواتي هن بمرتبة (اقبال خصكي) بعد أن يصبحن امهات .

وتأتي بعد إقبال خصكي في المنزلة السيدات اللواتي هن بدرجة (إقبال) واللواتي لم يصبحن امهات بعد ثم المرشحات للدخول على السلطان ويعرفن باسم (كوزده) أي المنظورة وعلى هذا فأن الجارية التي يؤتى بها للقصر وهي صغيرة عليها ان تجتاز المراتب الآتية بالتتابع وهي (كوزده) (اقبال) (اقبال خاصكي) (قادين افندي) (خزينة داراوسته) (والدة سلطان) .

زوجات السلطان عبد الحميد :

كان للسلطان عبد الحميد اثنتي عشرة زوجة درجة إقبال خصص لكل منهن ومن زوجاته اللواتي بدرجة (قادين أفندي) دائرة خاصة فيها عدد كبير من الجواري والعبيد والوصيفات عدا الموظفات الرسميات وهن : الكاتبة وأمينة المستودع وحافظة الخاتم ومديرة التزيين وحاملة الابريق وخادمة المشروبات ورئيسة القهوجية وأمينة السر . وكان في كل دائرة عدد كبير من الخصيان خاضعين لرئيسهم المعروف (بقيزلرأغاسي) .

وربما بلغت حاشية إحدى (القوادين) المائة لان الموظفات اللواتي مر ذكرهن كن يستخدمن بدورهن عدداً كبيراً من المساعدات أما أشغال القصر فكانت تدار بمعرفة الجواري والعبيد والمربيات .

كيف تنتخب نساء القصر :

وجميع النساء اللواتي يدخلن حرم السلطان يؤتى بهن صغيرات بمعرفة تجار الرقيق وهنالك كثير من الوزراء والولاة كانوا يمارسون هذه الحرفة السافلة ونريد بها إعداد الجواري والسراري للقصر .

ويراعي غالباً في انتخاب نساء القصر جمال الوجه ودقة التكوين بقطع النظر عن حسبهن ونسبهن ومن هؤلاء الجاريات يولد أولياء العهد ثم يرتقون العرش .

سكرتيرة عبد الحميد :

وكان لدى عبد الحميد كاتبة خاصة تكتب له أوامره الخطية التي يريد تبليغها إلى دائرة الحرم أما أوامره الشفوية فاعتاد أن يبلغها بواسطة آغاوات الحرم . وإذا ما سقطت احدى محظياته اللواتي هن بدرجة «إقبال» من النظر تخلى عنها وزوجها من أحد المقربين الذين يود مكافاتهم .

كيف ينتقي السلطان سراريه :

والنساء اللواتي هن بدرجة (كوزدة) ينتخبن من الجواري فمتى أراد السلطان زيارة إحدى دوائر الحرم يخبر بذلك الوالدة وهذه تأمر الجواري أن يتضمخن بالاطياب ويلبسن أفخر ما لديهن من الحلي والثياب ويظهرن باجمل مظهر فيفعلن كل ذلك ويلبثن منتظرات اشراق طلعة سيد الحرم ومتى جاء وجلس في المكان المعد له أحاطت به الجواري وانصرفن إلى خدمته فواحدة تأتي بالمشروبات المنعشة محمولة على الصواني الذهبية وأخرى تقدم له اللفائف الفاخرة وثالثة تأتي بالقهوة إلى غير ذلك من انواع الخدمة فاذا وقعت عين السلطان على واحدة من هؤلاء الجواري وأحبها سأل الوالدة عن اسمها واكتفى بالقول إنها (فتاة جميلة) فعندئذ تتقدم تلك الفتاة وتلثم طرف السجادة التي يكون السلطان جالساً عليها وفي اليوم الثاني تصبح (كوزدة) أي رائقة في عين السلطان .

نزهة الجواري في حديقة القصر .

والجواري في القصر تحت مراقبة الآغاوات

ولا يسمح لهن بالخروج من القصر بتاتا غير أن السلطان يأذن لهن في بعض الاحيان بالنزول إلى حديقة القصر الفسيحة لاجل النزهة فيخرج الاغاوات معهن .

شحن الجواري من القصر :

وفي كل سنة يشحن السلطان كمية من هؤلاء الجواري إلى خارج القصر فيوضعن في دائرة خاصة ويبقين هنالك إلى أن يتيسر لهن أزواج من رجال الحاشية أو من المقربين والتي تتزوج منهن يخصص لها راتب شهري يتراوح ما بين العشرين والثلاثين ليرة ويعطى لها منزل في إحدى ضواحي الاستانة والمتزوجون من هؤلاء الجواري يجدون في ذلك شرفاً لهم وباعثاً على التقدم السريع في دوائر الحكومة .

غرام عبد الحميد :

هنالك روايات كثيرة تروى عن غرام عبد الحميد في أيام شبابه ولكن بعض هذهالروايات ملفق كما ذكرنا آنفاً والبعض الآخر مبالغ فيه فقد هام بحب فتاة بلجيكية خياطة إسمها كوردية فحملها على اعتناق الاسلام واتخذها زوجة له في أوائل شبابه . والحادثة الآتية التي نرويها للقراء حقيقية استقيناها من مصدر عليم يوثق بصحته :

أن قلب عبد الحميد طيلة أيام حياته لم يخضع في يوم من الأيام إلا لسيدة واحدة وهي الجارية الحسناء صافيناز وكانت صافيناز هذه مع شقيقتها ناجية ويلدز من جواري محمود بن عياش باشا التونسي فاختص الباشا بناجية لنفسه واهدى صافيناز وشقيقتها يلدز إلى السلطان عبد العزيز . ولما وقع نظر السلطان على هاتين الجاريتين البارعتين في الجمال سحره جمالهما وكاد يطير فرحاً وبلغ من سروره بهما انه أنعم على كل واحد من الخصيان الذين أتو بهما إلى الاستانة بخمسمائة ليرة وأهدى محمود باشا علبة سجاير غالية الثمن . ثم خصص لهاتين الشقيقتين أفخر أقسام قصره وعين لكل منهما جيشاً من الخدم ووضعهما تحت عناية والدته وقد فكر يوماً في الاقتران بصافيناز ولكن الفتاة رفضت هذا العطف الملكي السامي بجرأة نادرة ولا نعلم ماذا كان موقف السلطان عبد العزيز أزاء هذه الصدمة العنيفة التي لم يكن يتوقعها من حبيبته طبعاً إنما نعلم أنه أعلن زواجه بعد ذلك بشقيقتها يلدز بعد أن رقاها إلى درجة (خزينة دار اوسته) وهكذا نالت يلدز الشرف الذي رفضته اختها صافيناز .

لماذا رفضت صافيناز الاقتران بعبد العزيز :

ويظهر أن السلطان لم يكترث لهذا الرفض فهو لو حقق في أسبابه لتبين له أن هنالك علائق غرامية خفية توثقت بينها وبين ابن أخيه الامير عبد الحميد وهذا ما حملها على رفض الزواج به ...

كيف نشأت علائق الغرام بين صافيناز وعبد الحميد :

وتفصيل الخبر أن عبد الحميد الذي اعتاد منذ صغره أن يتجول في أنحاء القصر لاستراق الاخبار والنظرات كان يتطلع دائماً من ثقوب الأبواب والنوافذ ويحول أذنه إلى الناحية التي يسمع منها صوت حديث ، وقد حدث مرة أنه بينما كان يتطلع من أحد الثقوب كجاري عادته أبصر الفتاة الساحرة الجمال صافيناز محظية عمه فاعجب بجمالها النادر الفتان وعلق بهواها من أول نظرة ومن ذلك الوقت انقطع إلى مراقبتها وملاحقتها وصار اتبع لها من ظلها وأخيراً تمكن من الاجتماع بمليكة فؤاده فكاشفها بغرامه وبادلته هي الاخرى الغرام واتفقا على كتمان هذا الحب ولكن عبد الحميد الشاب العاشق لم يطق العيش بلا صافيناز سالبة عقله فذهب إلى والدة السلطان عبد العزيز وباح لها بحبه الفتاة وبما يعانيه من جراء بعده عنها وأقسم اليمين المغلظة أنه لن يعيش إذا لم يقترن بصافيناز .

والدة السلطان عبد العزيز تحل المشكل :

ولما رأت والدة السلطان عبد العزيز تعلق عبد الحميد الشاب بالحسناء صافيناز رقت له ووعدته خيراً بعد أن فكرت في طريقة مناسبة تنقذ بها الامير العاشق من شقاء غرامه ففي احد الايام قابلت ولدها السلطان عبد العزيز واخبرته أن صافيناز طريحة الفراش وهي تشكو من ألم واضطراب زائدين وسألته أن يسمح للفتاة بالطلوع إلى أحد المصايف انتجاعا للعافية فوافق السلطان على ذلك وأخذت الوالدة بعد ذلك تخبره باشتداد المرض على صافيناز كلما وجدت الفرصة السانحة وبقيت كذلك إلى أن لاحظت أن ابنها نسي صافيناز أو كاد ينساها وعندئذ أعلمته بوفاة الفتاة ولما كان السلطان يثق كثيراً بوالدته لم يخامره الشك في الامر بل

صدق ما قيل له واعتقد أن الفتاة اصبحت في عالم الأموات فظفر اذ ذاك عبد الحميد بملكية فؤاده وسالبة عقله فاقترن بها ولم يكن هنالك من طريقة غير الطريقة التي عمدت اليها (بسما سلطان) والدة عبد العزيز لانقاذ عبد الحميد من شقائه وقد بقي خبر رواجه بصافيناز مكتوماً إلى أن اعتلى العرش وعندئذ رقاها إلى درجة قادين أفندي وأصبحت ربة المابين.

عبد الحميد لم يحب سوى صافيناز:

وقد حكى عبد الحميد مرة لأحد ندمائه المقربين بعد اعتلائه العرش وانقطاعه في قصر يلدز، في ساعة من ساعات انسه أنه لم يحب في حياته إمرأة سوى صافيناز وصرح أيضاً أن الفضل في اصطباره على احتمال المكاره في أوائل شبابه يعود اليها.

نساء القصر يسمن صافيناز مر العذاب:

والحقيقة أن صافيناز كانت على جانب عظيم من الجمال وهذا ما أثار غيرة بقية نساء القصر فاخذن يتهمنها بشتى التهم ويسئن معاملتها وفي أحد الأيام اضرمت إحداهن النار في قاعة الحرم واتهمت صافيناز باضرام هذه النار قصد إحداث الحريق فلم يعد في وسع صافيناز احتمال هذه التهم بل طلبت من عبد الحميد أن يفصلها من القصر.

عبد الحميد يتخلى عن صافيناز:

لم يشأ عبد الحميد إجابة صافيناز إلى طلبها في بادئ الأمر ولعله تظاهر بعدم الرضاء ولكنه أخيراً وافق على طلب حبيبته وسمح بخروجها من القصر إلى محل ترتاح فيه من حسد الحاسدات فخصص لها قصراً فخماً في (استنبول) وراتباً شهرياً قدره خمسون ليرة تتقاضاه طيلة أيام حياتها وبعد مدة زوجها من أحد أفراد حاشيته ولما احترق قصرها الكائن في (استنبول) أعطاها قصراً آخر في حي (جامبجه).

أنجال عبد الحميد:

رزق عبد الحميد خمسة أنجال وهم الامراء: محمد سليم، وعبد القادر، وأحمد، وبرهان الدين، وعبد الرحيم، وكان أحبهم إلى عبد الحميد الأمير برهان الدين. وجميع هؤلاء الأمراء كانوا محاطين بالجواسيس يعيشون في دائرة خاصة بهم في القصر عيشة عزلة وانفراد ومع أن أباهم لم يكن متعلماً سعى لتهذيبهم، ولا حاجة للقول أن هذا التهذيب بقي محدوداً نظراً لحياة الانفراد التي كانوا يقضونها بين جدر القصر وقد لقن كل واحد منهم إحدى الصناعات وقلما واظبوا على الدوام في المعامل ودور الصناعات التي انشئت في القصر خصيصاً لتعليم الأمراء ونشأوا جميعهم من هواة الموسيقى وفاق الأمير برهان الدين أفندي اخوته في هذا الفن وكان الأمراء يتعلمون الرسم على المسيو لوري أحد اساتذة مدرسة الفنون الجميلة في الاستانة.

وجميع أنجال عبد الحميد ما عدا الأمير محمد سليم أفندي كانوا حائزين على رتب عسكرية إلا أنهم لم يشاهدوا الفرق المنتسبين اليها إلا في حفلات (السلاملك) فقط فكان عبد القادر أفندي وأحمد أفندي من ضباط الفرسان وعبد الرحيم أفندي من ضباط المدفعية وبرهان الدين أفندي من ضباط البحرية.

السلطانات والأصهار:

ويقال أن عبد الحميد فقد ابنتين من بناته وذلك قبل ارتقائه العرش يوم كان مقيماً في (اسكدار) فالأولى السلطانة خديجة ذهبت ضحية حريق نشب في القصر والثانية اصيبت بداء الدفتريا في الرابعة من عمرها وقد سمى عبد الحميد المستشفى الذي أنشأه للاطفال في حي (شيشلي) باسم (خديجة سلطان) تخليداً لذكرى ابنته هذه ورزق عدا هاتين الابنتين ست بنات أخرى من امهات مختلفات وهن: السلطانة ذكية وزوجها الداماد نوري بك والسلطانة نائلة وزوجها الداماد محمود جلال الدين باشا والسلطانة نائلة وزوجها عارف حكمت باشا والسلطانة عائشة وزوجها أحمد نامي بك والسلطانة شادية وزوجها فاخر بك والسلطانة رفيقة وزوجها علي فؤاد بك وجميع هؤلاء السلطانات كن يحملن وسام (خاندان آل عثمان) ووسام المجيدي من الطبقة المرصعة ووسام الشفقة من الطبقة الاولى. ■



شخصيّات وراء الأحداث

ايمان نويهض

روبرت موغابي جوشوا نكومو



روبرت موغابي

ولد روبرت موغابي، وهو من ألمع القادة الوطنيين في روديسيا . في كوتاما (Kutama) سنة ١٩٢٥ حيث درس ثم عمل استاذاً في مدرسة الارسالية الكاثوليكية. تعرف إلى النشاط السياسي مبكراً واصطدم خلال دراسته في كلية فورت هير الجامعية في جنوب افريقيا مع رئيس الوزراء الروديسي تود (Todd) آنذاك وهدده بالضرب إذا أقدمت الحكومة الروديسية على حسم رواتب الأساتذة.

أمضى أواخر الخمسينات في غانا خلال عهد غوابي نكرو، حيث تزوج من غانية. عاد إلى وطنه سنة ١٩٦٠ وقام سنة ١٩٦٣ بالتعاون مع القس سيثول (Sithole) بانشاء جبهة (Zanu) منفصلا عن جبهة (Zapu).

اعتقل سنة ١٩٦٤ واستمر اعتقاله عشر سنوات حصل خلالها على ثلاث درجات جامعية في القانون بالمراسلة، كما نجح في إزاحة القس سيثول عن زعامة جبهة (Zanu) التي ترأسها فيما بعد.

تأثر موغابي بالأفكار الاشتراكية وطالب بزيمبابوي مستقلة ولا عنصرية وتحالف مع جبهة (Zapu) لنكومو ضمن الجبهة الوطنية لتحرير زيمبابوي سنة ١٩٧٦. وعارض اللقاء مع سميث ممثل الأقلية البيضاء واستمر ونكومو بالعمل المسلح ضد النظام الروديسي بالرغم من تسلم موزوريوا (حليفهما السابق) لرئاسة الحكومة خلال سنة ١٩٧٩ كما عارض لقاءات حليفه نكومو مع ممثلي النظام الروديسي. شارك في الاتفاق الأخير (كانون الأول ١٩٧٩) مع النظام الروديسي برعاية بريطانيا والولايات المتحدة الذي سمح له بالعودة إلى بلاده وعودة البلاد إلى حظيرة بريطانيا كفترة انتقالية تجري

فيها انتخابات حرة يعلن بعدها استقلال روديسيا تحت اسم زيمبابوي. ولقد جرت الانتخابات النيابية واستطاع حزب روبرت موغابي ان يفوز بأكثرية مقاعد مجلس النواب البالغ عددها مائة مقعد. وتوزعت المقاعد كما يلي:

حزب موغابي ٥٧ مقعداً. حزب جواشوا نكومو ٢٠. حزب ميزمراو ٣ مقاعد و٢٠ مقعدا للأقلية البيضاء.

جوشوا نكومو

ابن مالك أبقار وواعظ ديني ولد يوم ١٩ حزيران ١٩١٧ في ماتابيلاند وهو من قبائل الكارانغا. تلقى علومه الابتدائية في روديسيا واستكملها في جنوب افريقيا ليعود سنة ١٩٤٥ إلى الوطن مسؤولا عن الضمان الاجتماعي لعمال السكك الحديدية فسكرتيراً عاما لاتحاد عمال السكك الحديدية الروديسية واستمر بالدراسة فحصل على شهادة ب. ع. من جامعة جنوب افريقيا.

انتخب رئيسا للكونغرس الوطني الافريقي سنة ١٩٥٧ وبعد حله على يد السلطات هرب نكومو إلى بريطانيا خوفاً من الاعتقال وعاد سنة ١٩٦٠ فأنشأ الحزب الديموقراطي الوطني الذي حل في السنة التالية فأنشأ جبهة زابو (Zapu).

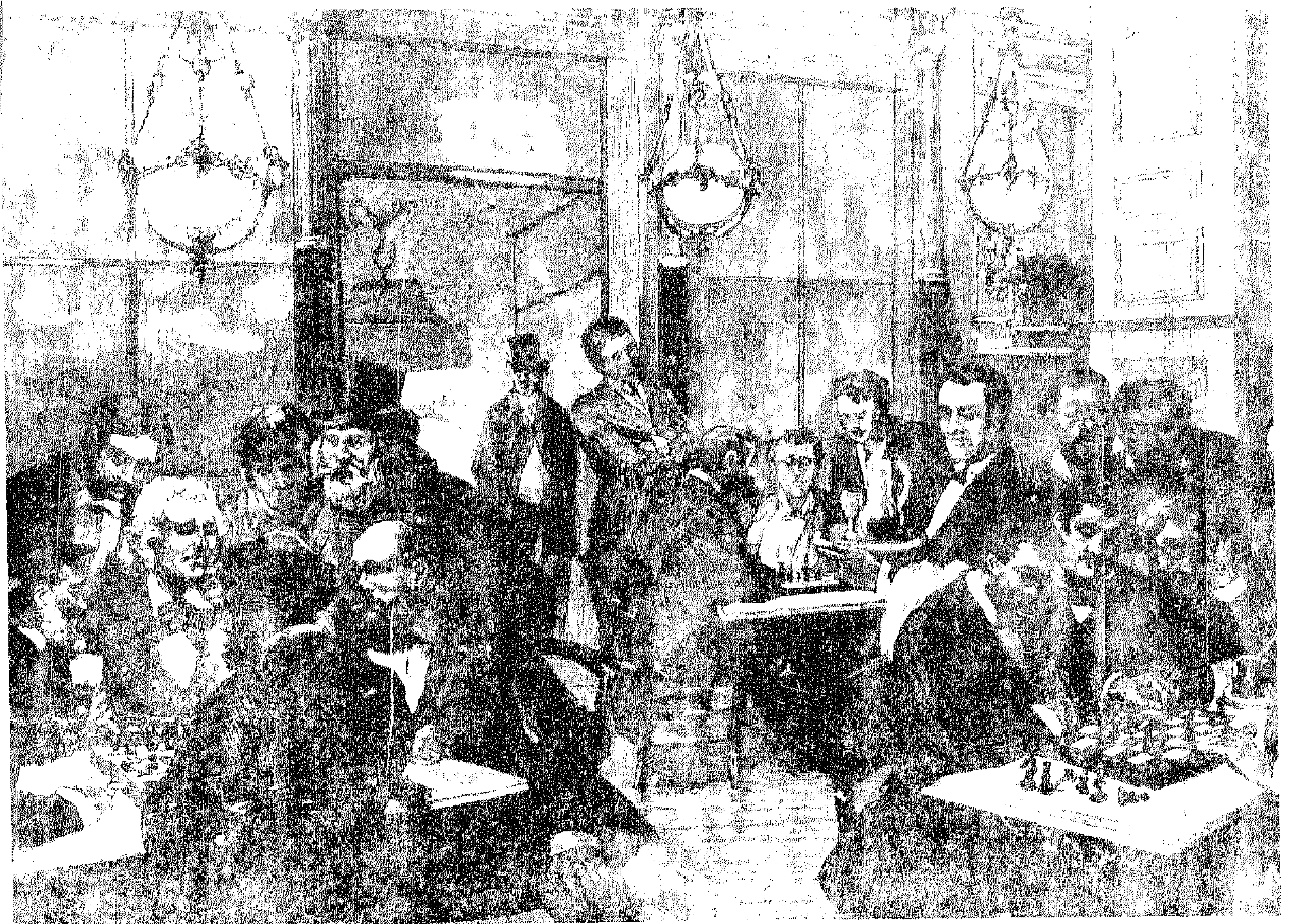
نفي مرتين خلال ١٩٦٢ - ١٩٦٤ ثم وضع في معسكر اعتقال من نيسان ١٩٦٤ حتى كانون الأول ١٩٧٤ حين أفرج عنه فطار بين الدول الأوروبية والافريقية لدعم قضية بلاده. والتقى روبرت موغابي زعيم جبهة زانو (Zanu) سنة ١٩٧٦ ضمن « الجبهة الوطنية لتحرير زيمبابوي» التي رفضت التفاوض مع سميث ممثل الأقلية البيضاء سنة ١٩٧٧ وعارضت مفاوضات موزوريوا (الحليف السابق) مع سميث التي انتهت في اذار ١٩٧٨ على اتفاق بتسليم الحكم للأكثرية السوداء واقامة انتخابات برلمانية. عارض نكومو الاتفاق بالرغم من موافقته على المبدأ والتقى بشكل سري بايان سميث نفسه في آب ١٩٧٨ معرضاً لنفسه لكثير من الانتقادات. استمر نكومو بالعمل المسلح ضد النظام الروديسي ونجحت المساعي البريطانية - الأميركية على جمع كافة الزعماء الروديسيين للاتفاق في كانون الأول ١٩٧٩ على مرحلة انتقالية في روديسيا نحو اقامة الاستقلال. وبناء عليه عاد نكومو إلى روديسيا مع الوعد بوقف العمل المسلح. ■

بقلم محمد مراد سكر

مقهى لاريجانس

ملتقى كبار لاعبي الشطرنج

في القرن الثامن عشر



صورة لمقهى لاريجانس اخذت خلال جولة شطرنج بين باريس وفيينا بواسطة التلغراف! تشيفورين يتابع نقلة يقوم بها روزنتال.

خلال مقالاتنا السابقة عن الشطرنج ورد اسم مقهى لاريجانس مراراً عديدة، كمكان مختار يلتقي فيه اللاعبون الكبار في الشطرنج من كافة أنحاء العالم. ترى متى أنشئ ولماذا كانت له هذه الأهمية هذا ما نحاول ان نسلط عليه الأضواء خلال مقالنا اليوم.

في سنة ١٦٧٠ أقام أحد الأميركيين في معرض سان جرمان زاوية كان يقدم فيها للزوار القهوة في فناجين خاصة، وسرعان ما استهوت الفكرة الكثيرين في أوروبا، وهكذا نشأت فكرة المقاهي في أوروبا وبدأ انتشارها.

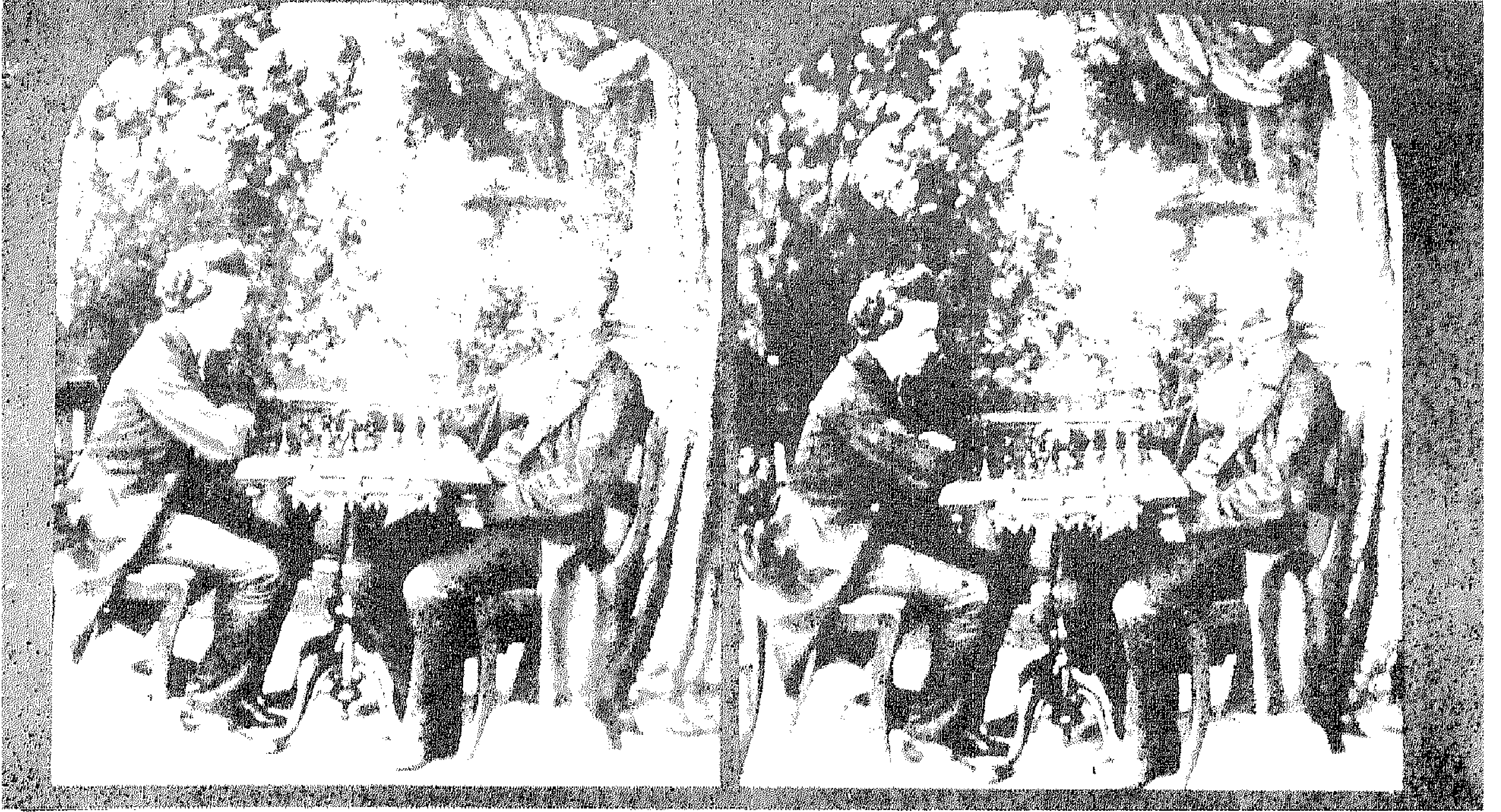
وفي سنة ١٦٨٨ قام السيد لوفيفر بافتتاح مقهى القصر الملكي وذلك في الساحة القديمة للقصر الملكي. بعد لوفيفر قام لوكليرك بمتابعة العمل وكان للأخير امرأة بمنتهى الجمال، ما إن بدأت بخدمة الزبائن وتقديم القهوة لهم حتى انتشر اسم المقهى وتقاطر عليه كل محب للجمال من الطبقة الارستقراطية وقسم من الشعراء الذين يستهويهم الجمال فقاموا بتنظيم قصائد صغيرة (أراجيز) تتغنى بجمالها، قصائد لاقت من الشهرة في ذلك الحين حدا دفع الكثيرين من جعل المقهى المكان المفضل لهم كل يوم، وتضيف القصة ان الحاكم فيليب دي اورليان ودوق دي شارتر كانا من بين رواد هذا المقهى، ولما كانت كلمة ريجانت بالفرنسية تعني الحاكم. ولما كان قصر الحاكم لا يبعد عن المقهى فقد أطلق الناس على هذا المقهى تسمية لاريجانس نسبة إلى ما سبق وأصبح يعرف بمقهى لاريجانس. وبهذا الاسم اشتهر هذا المقهى وأصبح ملتقى طلاب الجمال من الطبقة الأرستقراطية، وبقيت شهرته مدة طويلة من الزمن بعد ان أصبح ملتقى لاعبي الشطرنج. ولعل القصة التالية تلقي بعض الضوء على رواد هذا المقهى.

يقول لوفيه سنة ١٧٨٧: دخلت مقهى لاريجانس يوماً، فلم أر سوى اناس غارقين في تحضير المات للشاه، جلست قرب احدى الطاولات، ولكن انفعالاتي الداخلية، وكنت منفعلا ذلك اليوم من أمر خارجي، لم تسمح لي بالجلوس طويلا، فقمت أتمشى في المقهى بخطوات واسعة يقطع صوتها السكون العميق الذي يلف المقهى، وفجأة ارتفع صوت أحد اللاعبين وهو يفرك يديه بفخر: شاه مات، فما كان من خصمه إلا أن قال، فقدت الوزير وبالتالي جولة جميلة، أتفرك يديك ظناً منك أنك ربحتها بجدارة، ألا تعلم من هو صاحب الفضل في ذلك، ثم أدار رأسه نحوي قائلا: إنه صاحب الفضل في هذه النقلة، فتوقفت مدهوشاً ومتطلعاً إلى اللاعب الآخر بشكل يفهم منه من اني لا أفقه شيئاً مما يقوله خصمه، فتابع اللاعب المغلوب: ألا تفهم العلاقة، منذ ساعة والشاب يدور ويلف، حول عزيزتي صوفيا التي تجلس عن يميني وابنة عمي الجميلة التي تجلس عن يساري، عزيزي عندما يكون الانسان محباً لا يدخل مقهى لاريجانس، لقد شغلت بالي لدرجة لم أعد أرى اللعب فقمت بهذه النقلة الخطأ التي لا يقوم بمثلها إلا كل مبتدئ، هل من المعقول ان أخسر وزيراً بهذا الشكل (ألا تعلم مشيراً إلي، بان كل بنات العم لا تساوي هذا الوزير الذي خسرته اليوم).

وحباً في انقاذ الموقف، تراجعت من مكاني بسرعة فاذا بأزرار سترتي تعلق برقعة لاعب آخر فاوقعها أرضاً، وهاأنذا أمام خصمين جديدين، قال لي احدهما، ألا تنتبه قليلا، بينما صرخ الآخر لقد افقدتني جولة رابحة، فيجيبه الأول، ولكن جولتك انت هي الخاسرة، كنت سأربح هذه الجولة ولو لعبتها ضد فيردوني، وأنا كنت ربحتها ولو كنت ضد فيليدور، فأجبتهم بخجل، أرجو ان لا يزعل احدكما، سأقوم بدفع ثمن هذه الجولة، تدفع... أجاب الآخر بتهكم، لا يبدو عليك انك على سعة من المال لتدفع ثمن هذه الجولة، فقلت بحياء لم؟ ما هو الشرط؟ فقال: الشرف، لقد حضرت من بعيد خصيصاً لألتقي هذا السيد الذي يظن انه ليس له نظير، ولولاك للقنته اليوم درساً لن ينساه، درس؟! يقول الآخر، أحمد الله على ان هذا السيد قد انقذك من خسارة، فقد كنت سأربح الوزير بعد ١٨ نقلة، ولكنك لن تلعب أكثر من عشر نقلات فالمات كان بانتظارك.

ايها السيد، انت السبب بهذه الاهانة، حضرة السيد، يجب ان اعرف انه في مقهى لاريجانس لا يركض الناس. وهنا يهب لاعب آخر ليقول صه، في مقهى لاريجانس لا يصرخ الناس بل لا يتكلمون مطلقاً.

وكثر الكلام من كل جهة كل يوبخني بطريقته إلى ان حضر صديقي ليسحبني خارج المقهى.



بول مورفي البطل الأميركي (١٨٥٩) يلاعب اللاعب الهنغاري الشهير لوينثال

كان مقهى بروكوب أول مركز شطرنج في باريس ، وفي سنة ١٧٤٠ ترك الهواة هذا المقهى ليلجأوا إلى مقهى لاريجانس ، ولعل الروائي المعروف لوساج كان أول أشهر لاعبي هذا المقهى ، وقد وصف ذلك قائلا : «كنت ترى في صالة كبيرة زينت بالقناديل والمرايا حوالي عشرين من كبار الشخصيات يلعبون الداما أو الشطرنج على طاولات من مرمر يحيط بهم متفرجون لا يرفعون نظرهم عن الرقع ، الجميع يتحلى بالصمت ، لا تسمع سوى صوت النقلات ، انه المكان الذي تشعر فيه بالوحدة على الرغم من احاطتك بستين شخصاً .

في سنة ١٧٦٢ تخلى لوكليرك عن المقهى للسيد راي ، ويذكر ديدرو المقهى فيقول : مهما كان الطقس ممطراً أم جميلا فقد كنت ارتاد هذا المقهى يومياً في الخامسة مساء ، هناك كنت اتسلى برؤية لاعبي الشطرنج فكما كانت باريس محط انظار السائحين ، فان مقهى لاريجانس كان محط انظار أشهر لاعبي الشطرنج في العالم ، فعند راي ، يلتقي ليغال ،فيليدور ، مايو ، الخ ..

في مقهى لاريجانس ، ظهر لأول مرة الموسيقي فيليدور ، جوزف الثاني امبراطور النمسا ، ابن ماري تيريز الذي كان يسافر باسم مستعار ، الكونت دي فالكنشتاين سنة ١٧٧٧ ، القيصر بول الأول ابن كاترين (روسيا) سنة ١٧٨٠ . كما كان من رواد هذا المقهى في اواخر القرن الثامن عشر اشهر لاعبي الشطرنج في العالم ، فبالاضافة إلى ديدرو ولوساج ، كنا نرى جان جاك وجان باتيست روسو ، فولتير ، مارمونتيل ، دالامبر ، برناردان دي سان بيير ، مارشال دي ريشيليو ، البانجامان فرانكلين ، لافاييت ، شامفور ، بومارشيه ، كميل دي موسلين ، باراس الخ ...ويروي كتاب «فرنسا خلال الثورة» الذي كتبه الأخوة كونكور ، كان مقهى لاريجانس الذي عرف بالشطرنج وباسم لافاييت ، يطرد الناس الذين يلبسون الثياب المهلهلة أو الرخيصة . ويروي لوريدان لاركي القصة التالية :

في مقهى الريجانس كان مارتان يحكم بين لاعبين عندما قام احدهما بعناية بفتح سترته ليظهر للحكم «الكوردون بلو» الذي يحمله ، فتظاهر مارتان بعدم رؤيته ، وتابع التحكيم إلى ان انتهت الجولة ، ثم التفت إلى هذا اللاعب



صورة مورفي المهداة من قبله لمقهى لاريجانس مؤرخة بخط يده في ١٢/١٠/٨٥.

قائلا : والآن بعد ان رايت انك على خطـأ تستطيع سيدي الدوق ان تعيد تبكيل ازرار سترتك .

وبقيت النخبة الباريسيـة اثنـاء الثـورة الفرنسية تتابع زياراتها لهذا المقهى ومن بينهم كما اسلفنا روبسبيير، وقصته مع الفتاة التي لبست ثياب شاب ولعبت معه وربحته وافرجت بالتالي عن حبيبها الكونت معروفة لقرائنا فقد سبق ورويناها في عدد سابق. وكان نابليون من رواد مقهى الريجانس هذا، وقد احتفظ المقهى بطاولة كتب عليها (طاولة نابليون التي لعب عليها سنة ١٧٩٨) وكان نابليون من محبي الشطرنج والجولات القليلة المحفوظة عن نابليون تشهد بعبقريته في الهجوم، وقد قرأنا في أحد الكتب القديمة الشطرنجية ما يلي :

مقهى لاريجانس هو المكان الذي يجتمع فيه حالياً الشخصيات الباريسية التي تلعب الشطرنج . وقد كان المقهى في القرن الثامن عشر مكان الاجتماع المفضل لأشهر رجالات الفكر في فرنسا مثل فولتير، روسو، دوق دي ريشيليو،

مارشال دي ساكس، شامفور، سانت فوا، فرانكلين، مار مونتيل، فيليدور وغريم الذين امضيا اغلب اوقاتهما في هذا المقهى إما لاتمام اعمالهما الخاصة وإما في لعب الشطرنج، حتى ان الكراسي والطاولات التي استعملاها بقيت محتفظة باسميهما مدة طويلة، وكم مرة سمعت صاحب المقهى يقول بفخر للنادل، اخدم جان جاك، وانظر إذا كان فولتير بحاجة لشيء، فقد كان من عادة جان جاك روسو ان يلعب يومياً بعض الجولات في الشطرنج في هذا المقهى وكان يلبس دوما قبعة من الفرو وثوبه الأرمني، وكانت الجماهير التي تعرف اوقات دخوله المقهى في كل يوم تتزاحم في الموعد هذا على باب المقهى لتشاهد الكاتب الكبير وتحييه، مما دعى الشرطة لأن تقف يومياً في ذلك الوقت لتبعد الناس عن باب المقهى.»

وبين الرواد البارزين ايضاً، نذكر دوق دي كارامان، كونت دي مونتالو، المركيز دي جياك، البارون اندريه، فيكونت دي فوفرولاند، الفرد دي موسيه، وكان الأخير يلعب من وقت لآخر مع ارنوس دي ريفيير لغاية وفاته سنة ١٩٠٥.

ويروي شارل جولييه القصة التالية: أحد المسنين من رواد المقهى القدامى (ثلاثين عاماً) الذين كانوا يقضون فيه حوالي ١٥ ساعة يومياً يتفرج على اللاعبين، لكن لم يره احد يوماً يلعب الشطرنج. وذات مساء وبعد ان فرغ المقهى من رواده إلا من لاعبين كانا يكملان جولة طالت ووقف صاحبنا يتابع الجولة عندما احتج احد اللاعبين على طريقة نقل احد الأحجار ولما كان هذا المسن هو الشاهد الوحيد في الصالة فقد التفت إليه احد اللاعبين ليكون حكماً في هذا الخلاف، فاجاب بحياء: عذراً سادة... — لا، يجب ان احكم.

— ولكن.. — غير مقبول، عليك ان تحكم ونحن نرضى بحكمك.

— ولكني لا افقه بهذه اللعبة... — إذا ماذا تعمل هنا كل يوم في هذا المقهى

— سادتي. انا متزوج وعندي.. ويبدأ برواية مشاكله المنزلية وخلافاته الخ...

* * *

سنة ١٨٥٨ زار المقهى اللاعب الأميركي الشهير بول مورفي، حيث لعب مع اشهر اللاعبين وربح منهم وكان يبلغ من العمر ٢١ عاماً، كما اجريت في هذا المقهى أول دورة دولية في الشطرنج وكان ذلك خلال المعرض الدولي الذي جرى في باريس سنة ١٨٦٧، تمت هذه الدورة بناء على مبادرة من ترنوس دي ريفيير الذي نظم المباراة، فاز بها يومئذ البارون كوليش من رواد المقهى ايضاً، وقد نال الجائزة التي قدمها الامبراطور.

البير كلير، المستشار الأول في القصر ايضاً كان من رواد هذا المقهى وبقي لمدة تزيد عن ستين عاماً يحضر تقريباً كل يوم بعد الظهر ليلعب الشطرنج وكان صديقاً للرئيس غريفي الذي كان ايضاً من رواد المقهى، يلعب الشطرنج واحياناً ليلعب البلياردو، وبقي من رواده لغاية يوم انتخابه رئيساً. ويظهر ان طبخة انتخابه تمت في المقهى، لذا بث عيونه حتى لا تتم طبخة اخرى تطيح به، وقد اغلقه احترازاً لمدة بسيطة من الزمن.

* * *

خلال الجمهورية الثالثة بقي مقهى لاريجانس لمدة ٢٨ سنة بيد صاحبه كيفير مركزاً للاعبي الشطرنج ومكاناً لاجتماعاتهم ومبارياتهم ومحجاً لكبار اللاعبين مثل روزانتسال، تشيغورين، رايس وسواهم مما اتينا على ذكرهم سابقاً. وفي سنة ١٩٠٣ باع كيفير مقهاه وقام صاحبه الجديد بادخال بعض التعديلات عليه ثم بيع مرات عديدة وكان كل واحد يدخل على المقهى بعض التعديلات والتوسعات حتى فقد طابعه القديم واصبح مطعما اكثر منه مقهى، ولكنك كنت ترى في احد غرفه صورة الريجانس القديم سنة ١٨٤٣ تمثل سانت امان وستاوتن يلعبان، كما كنت ترى صورة مورفي وهو يلعب استدباراً.

وفي سنة ١٩١٦ اختفت تقريباً كافة معالم الريجانس القديمة بعد ان تالفت جمعية اصدقاء لاعبي الريجانس الذي نقل مركزه إلى مقهى (أونيفير) ومنذ ذلك الحين انقلب مقهى لاريجانس إلى مطعم وبقي بعض اللاعبين الكبار يحجون اليه من وقت لآخر يذكرون فيه ايامهم الغابرة ويتذكرون اجمل مبارياتهم.

■

ميشال اسطفان

الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية

تقع في افريقيا الشمالية، مساحتها ١٧٥٩٥٤٠ كلم مربع، وعدد سكانها نحو مليون وسبعمائة الف نسمة، عاصمتها طرابلس.

دخل الفينيقيون قديماً هذه البلاد، وأقاموا قواعد تجارية لهم على شواطئها. ثم جاء اليونان بعدهم فكانت كلمة ليبيا تطلق على مساحات شاسعة ليس لها حدود في شمالي افريقيا، أما الرومان فانهم اقاموا فيها امارتين: ليبيا العليا وسموها سرانيكا وليبيا السفلى وسموها مرمريكا. وأهمل اسم ليبيا الى ان اعاده اليها الايطاليون في اوائل هذا القرن، كما ان حدودها كانت غير مستقرة تختلف باختلاف الفاتحين.

ودخلها العرب سنة ٦٤٢م بعد ان احتلوا الاسكندرية، فاصبحت البلاد بذلك جزءاً من الامبراطورية الاسلامية في شمال افريقيا.

وفي القرن الثاني عشر غزاها النورمانديون، ثم غزاها فرسان القديس يوحنا في القرن السادس عشر، الى ان دخلها العثمانيون سنة ١٥٥٦ وضموها الى الامبراطورية العثمانية. الا انها بقيت متمتعة باستقلالها الذاتي، وخصوصاً في عهد السلالة القرمنلية التي امتد حكمها من سنة ١٧١٤ الى سنة ١٨٥٣.

كانت مطامع الغرب موجهة دائماً نحو شواطئها، فقامت لهم هناك مراكز اعمال مكنت لهم مع الايام اسباب التغلغل شيئاً فشيئاً، وخصوصاً الدولة الايطالية التي احتلت عسكرياً بعض المناطق على شاطئ المتوسط في اعقاب الحرب الايطالية العثمانية سنة ١٩١٢، واطلقت عليها اسمها القديم ليبيا. ثم وسعت رقعة نفوذها خلال الحرب العالمية الاولى. إلا ان الشعب كان في ثورات متواصلة ضد الايطاليين، انتهى بضم البلاد نهائياً الى الممتلكات الايطالية سنة ١٩٣٩.

واثناء الحرب العظمى الثانية، في اعقاب انتصار الحلفاء في معارك افريقيا الشرقية سنة ١٩٤٠/١٩٤٣، احتلت فرنسا وبريطانيا البلاد، ووضعتا يديهما على الأحكام فيها حتى سنة ١٩٥٠ حين اجتمع المجلس الوطني واعلن محمد ادريس السنوسي امير سرانيكا ملكا على ليبيا. وفي ٢٤ تشرين الثاني / نوفمبر سنة ١٩٥١، اعلن استقلال البلاد ثم انضمت الى الجامعة العربية في آذار / مارس سنة ١٩٥٣.

ان الوضع الاقتصادي المتدهور يومذاك حمل السلطة على منح بعض الامتيازات لبريطانيا التي ابقت قسماً من جيشها هناك، وبعض الامتيازات للولايات المتحدة الاميركية التي انشأت قاعدة عسكرية هائلة لها واقامت عدة مناطق استراتيجية.

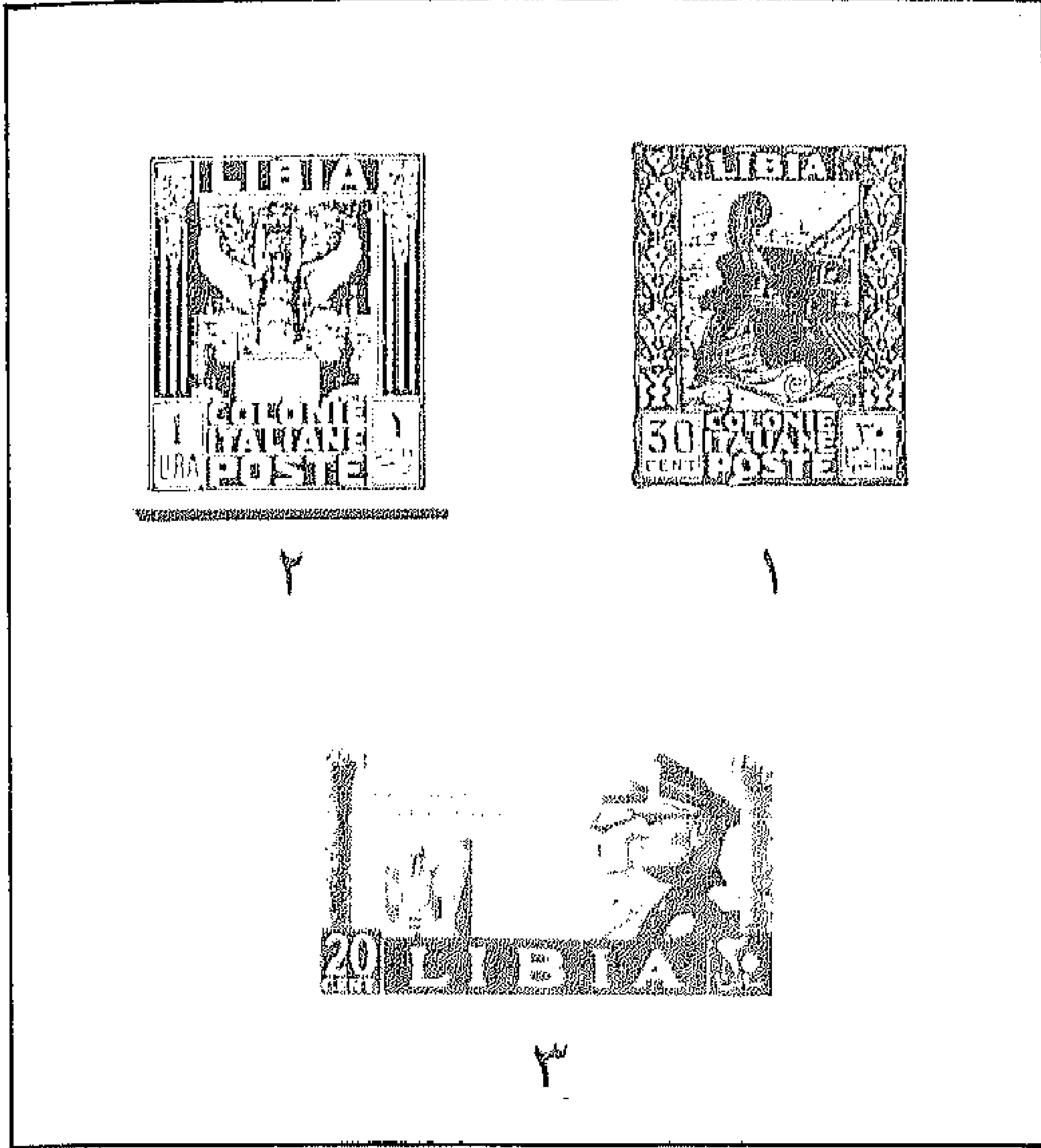
وفي سنة ١٩٦٤ ألغي النظام الاتحادي في البلاد ثم جاءت الثورة سنة ١٩٦٩ باسلوب جديد في الحكم سار في البلاد نحو التقدم والازدهار، محطماً معالم الحكم القديم وآثاره بانيا حياة ونظاماً ومستقبلا أفضل ولم يزل هذا التطور في سعي حثيث إلى اليوم.

تاريخ الطوابع

بدأ استعمال الطوابع في ليبيا بالمكاتب البريدية الاجنبية الايطالية، ففي سنة ١٨٦٩ افتتح مكتب قنصلي ايطالي للبريد في طرابلس واستعمل طوابع ايطالية مخصصة لجميع المكاتب الايطالية في الامبراطورية العثمانية.

وفي ١٥ آذار / مارس سنة ١٩٠١ افتتح مكتب بريد في بنغازي. وفي تموز / يوليو من السنة ذاتها صدر اول طابع ايطالي من فئة ٢٥ سنتيم، خصص لمكتب بريد بنغازي، موشحاً « BENGASI 1 PIASTRA 1 ». وفي كانون الأول / ديسمبر سنة ١٩١١ وشح طابع اخر من فئة ٢٥ سنتيم بالتوشيح والفئة ذاتها ليستعمل هناك، وكانت القوات الايطالية قد احتلت بنغازي في ٢٠ تشرين الاول / اكتوبر سنة ١٩١١ في حربها مع الأتراك. اما في ولاية طرابلس فقد استعملت المكاتب الايطالية في كانون الاول / ديسمبر سنة ١٩٠٩، الطوابع الايطالية لسنة ١٩٠١ موشحة « DI BERBERA TRIPOLI »، فصدرت مجموعة عادية من عشرة طوابع وطابعين للبريد المستعجل. وعلى اثر احتلال المدينة من قبل القوات الايطالية في الحرب المذكورة، الحقت بايطاليا في ١٨ تشرين الاول / اكتوبر سنة ١٩١٢ وعرفت بمستعمرة ليبيا. اما داخل البلاد فقد تم اقتحامها تدريجياً لغاية سنة ١٩٣٢. وفي كانون الاول / ديسمبر سنة ١٩١٢ صدرت اول مجموعة عادية مؤلفة من ١٦ طابعاً من الطوابع الايطالية موشحة « LIBIA » باحرف مختلفة، تلتها خمس مجموعات عادية وتذكارية وللطرود والاجور المستحقة اخرها صدرت في شهر آذار / مارس سنة ١٩١٦.

في تموز / يوليو ١٩٢١ صدرت اول مجموعة مصورة من ١٢ طابعاً (صورة بعض النماذج ٢،١)، ودرجت على هذا المنوال لغاية ١٦ ايار / مايو ١٩٤١ عندما صدرت اخر مجموعة تحمل رسم هتلر وموسوليني لمناسبة ذكرى محور برلين روما (صورة ٣)، واما مجموع ما صدر فهو ١٨٨ طابعاً، منها للمجموعات العادية والتذكارية والطرود والبريد المستعجل والاجور المستحقة، واثمنها اليوم هو طابع البريد المستعجل من فئة ١/٤ ١ لير اصدار ١٩٢٧ قيمته ٨٠٠٠ جنيه استرليني وطابع للطرود فئة ٥ سنتيم اصدار سنة ٩٢٧ أصبحت



١ ٢

٣

قيمته اليوم ٤٥٠٠ جنيه استرليني.

اما في مقاطعة سرينايكا فقد صدرت في ٢٤ تشرين الاول / اكتوبر ١٩٢٣ اول مجموعة تذكارية ايطالية من اربعة طوابع، اصدار ١٩٢٢ بعد توشيحها « CIRENAICA » تلتها مجموعات عدة تذكارية وجوية موشحة باحرف مختلفة عن الاولى ومنها مصورة طبعت خصيصاً باسم المقاطعة، اخرها صدرت في ٥ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٣٤، وأثمنها الطابع الاخير من فئة ٢٥ لير الموشح بالتاج الملكي « SERVIZIO DI STATO » أصبحت قيمته اليوم ٩٠٠ جنيه استرليني، اما مجموع ما صدر فهو ١٣٧ طابعاً.

وفي مقاطعة تريبوليتانيا فقد صدرت ايضاً بتاريخ ٢٤ تشرين الاول / اكتوبر ١٩٢٣ اول مجموعة تذكارية من اربعة طوابع موشحة « TRIPOLITANIA »، ودرجت كذلك الاصدارات الموشحة باسم المنطقة لكن باحرف مختلفة، ثم صدرت المجموعات التي تحمل صوراً تذكارية وللبريد العادي والجوي والمستعجل، آخرها في ١٦ شباط / فبراير سنة ١٩٣٥، وكان مجموعها ٢٤١ طابعاً. ونذكر بالمناسبة ان الطابع الجوي لأول رحلة بين روما وموغاديشو اصبحت قيمته اليوم ٩٠٠ جنيه استرليني، على غرار آخر طابع صدر لسريناكيا.

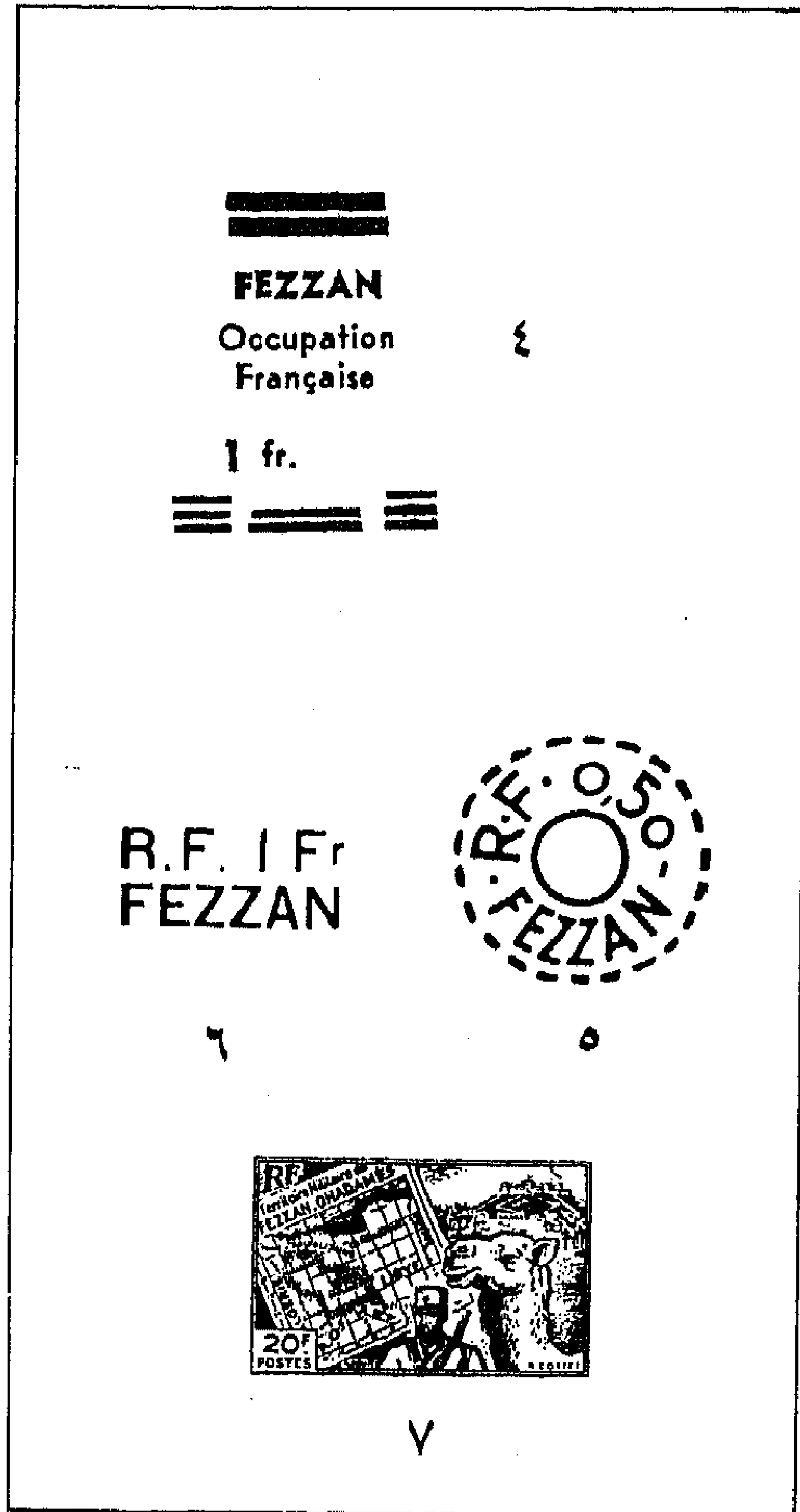
وفي ١٠ حزيران / يونيو سنة ١٩٤٠ عندما اعلنت ايطاليا الحرب على بريطانيا، اصبحت ليبيا ما بين ١٩٤٠ و١٩٤٣ مسرحاً حربياً ما بين

الجيش الايطالي معززة بفيلق افريقيا الالماني والجيش الثامن البريطاني الذي احتل ليبيا في ١٦ شباط / فبراير ١٩٤٣، فاصبحت ليبيا تحت الادارة العسكرية البريطانية من سنة ١٩٤٣ الى ١٩٥١. اما الطوابع التي استعملت في سرينايكا فكانت مجموعة من ١١ طابعا انكليزيا من فئة بنس واحد الى عشرة شلنات، موشحة «M.E.F.» اي قوات الشرق الاوسط، وكانت تستعمل في المناطق المحتلة في افريقيا من قبل القوات البريطانية، في اريتريا والصومال الايطالي وسرينايكا، وتريبوليتانيا وجزر الدوديكانيز، وكانت قد صدرت في اول كانون الثاني / يناير ١٩٤٣.

اما منطقة تريبوليتانيا فكانت تستعمل الطوابع ذاتها الموشحة «M.E.F.»، لكن صدرت في اول تموز / يوليو ١٩٤٨ مجموعة اخرى خاصة بالمنطقة من ١٣ طابعا من الطوابع الانكليزية ايضا، موشحة بسطرين «B.M.A/TRIPOLITANIA»، اي ادارة عسكرية بريطانية وباللير الايطالي من لير واحد الى ٢٤٠ لير، ومجموعة للأجور المستحقة من خمسة طوابع من لير واحد الى ٢٤ لير. اما في ٦ شباط / فبراير ١٩٥٠، وكانت قد اصبحت المنطقة تحت الادارة المدنية البريطانية، فقد صدرت مجموعة من ١٣ طابعا ومجموعة من خمسة طوابع للأجور المستحقة، موشحة «B.A. TROPOLITANIA» اي ادارة بريطانية.

وفي سنة ١٩٥٠ الحقت سرينايكا بالمملكة الليبية، وفي ٢٤ كانون الاول / ديسمبر ١٩٥١ اصبحت جميع مناطق ايبيا من ضمن المملكة. اما منطقة فزان الواقعة في جنوب ليبيا، فكانت قوات فرنسا الحرة قد دخلتها من تشاد بقيادة الجنرال لوكليرك، واحتلت مرزوق، اكبر بلد في فزان، بتاريخ ١٦ كانون الثاني / يناير ١٩٤٣، وبقيت فزان تحت الادارة العسكرية الفرنسية لغاية ١٩٥١، بما فيها منطقة قدامس الواقعة في الزاوية ما بين تونس والجزائر. وفي هذه الأثناء اصدرت في ١٦ ايار / مايو ١٩٤٣ مجموعة عادية من ١٢ طابعا، واخرى للأجور المستحقة من خمسة طوابع موشحة فزان (صورة ٤)، قيمتها اليوم نحواً من ٨٠٠٠ جنيه استرليني.

وفي ١٠ حزيران / يونيو ١٩٤٣ وشحت ثلاثة طوابع باليد في صبحا على طابعين ايطاليين ٠,٥٠ فرنك على ٥٠ سنتيم للبريد. و٠,٥٠



فرنك على ٥٠ سنتيم للبريد الجوي بالتوشيح المستدير (صورة ٥)، وطابع ليبي من فئة ٢٥ س توشح بفئة فرنك واحد (صورة ٦)، اصبح قيمة هذه الطوابع الثلاثة اليوم، مستعملة نحواً من ٦٠٠ جنيه استرليني.

وفي ١٦ تموز / يوليو ١٩٤٣، وشحت باليد سبعة طوابع ايطالية المخصصة للطرود، بالتوشيح رقم ٥. والمعروف ان هذه الطوابع صغيرة الحجم ومستطيلة افقيا ومقسومة بتخريم عمودي، فجاء التوشيح مقسوماً الى نصفين، ويقتضي جمع طابعين للحصول على توشيح كامل. اما قيمة هذه المجموعة مستعملة اليوم والمقسومة، فيزيد عن ٤٠٠٠ جنيه استرليني.

وفي ٢٩ تشرين الاول / اكتوبر ١٩٤٦، أصدرت مجموعة مصورة لتستعمل في فزان وقدامس، مؤلفة من ١٥ طابعا (صورة نموذج واحد ٧).

وفي سنة ١٩٤٨ و١٩٤٩ ، اصدرت مجموعة من طابعين للبريد الجوي ومجموعة من ١١ طابعاً للبريد العادي، لتستعمل في منطقة فزان وحدها .

وفي سنة ١٩٥٠ و١٩٥١ ، اصبحت المنطقة تحت الادارة المدنية، واصدرت مجموعة من طابعين، رصد ريعها للمؤسسات الخيرية، ومجموعة من ستة طوابع للاجور المستحقة ومجموعة عادية من ١٢ طابعا وطابعين للبريد الجوي كلها مصورة .

وفي ٢٤ كانون الاول / ديسمبر ١٩٥١ ، اصبحت المنطقة جزءاً من المملكة الليبية .

منطقة قدامس، الواقعة في الزاوية المحادة لتونس والجزائر، والتي كانت منذ ١٩٤٣ تعتبر كجزء من فزان ، اصبحت تحت الادارة العسكرية الفرنسية واصدرت بتاريخ ١٢ نيسان / ابريل ١٩٤٩ ، مجموعة عادية خاصة بها من ثمانية طوابع، وطابعين للبريد الجوي، عليها رسم صليب (صورة ٨)، قيمتها اليوم نحو من ٢٠ جنيهاً استرلينيا .

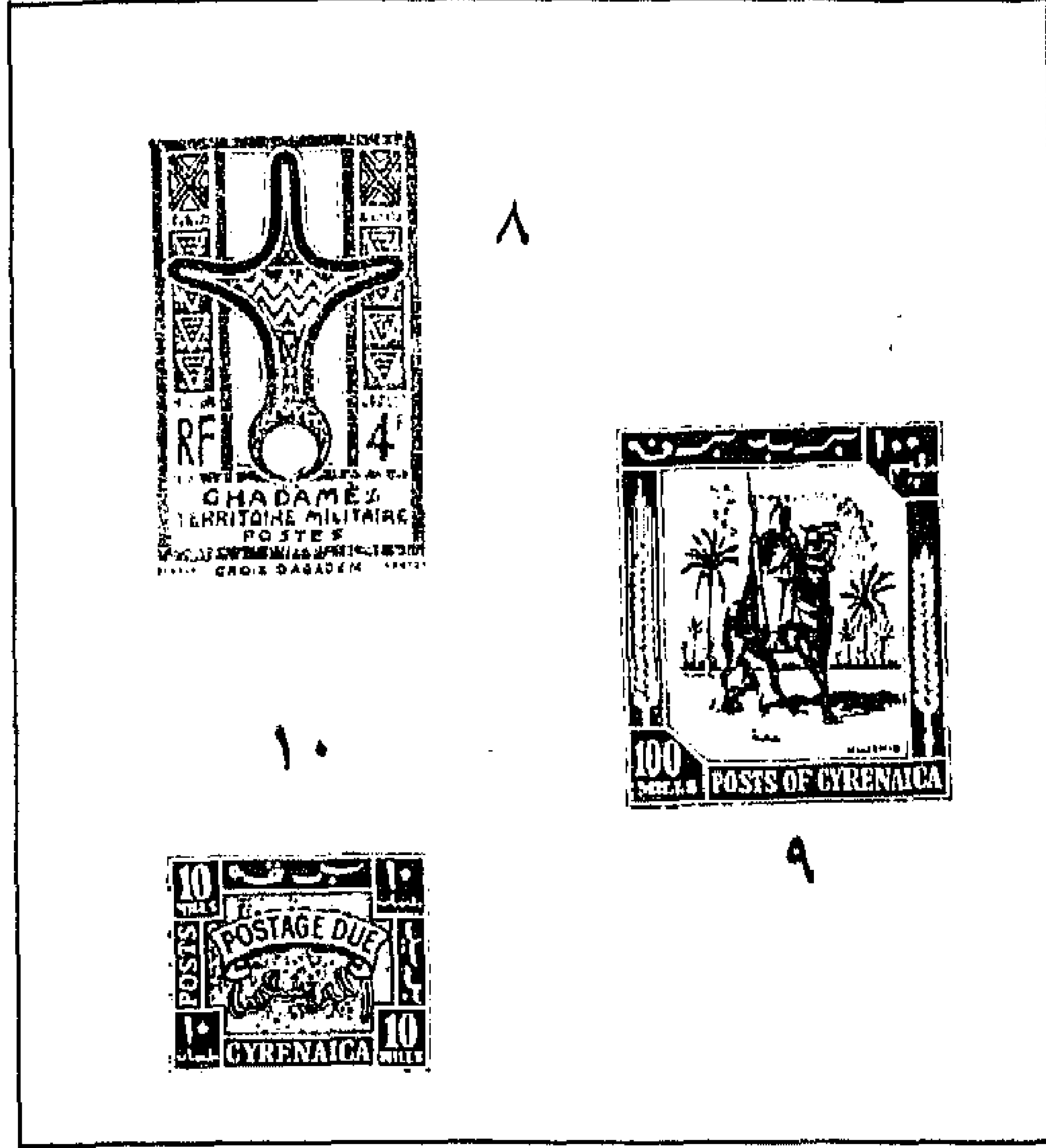
وفي ٢٤ كانون الاول / ديسمبر ١٩٥١ ، اصبحت المنطقة جزءاً من المملكة الليبية .

وفي سنة ١٩٥٠ ، فان سرينايكا التي كانت تحت الادارة العسكرية البريطانية منذ ١٩٤٣ ، اعطيت استقلالا ذاتيا فاصدرت في ١٦ كانون الثاني / يناير ١٩٥٠ ، مجموعة عادية من ١٣ طابعاً عليها صورة فارس محارب (صورة ٩)، قيمتها اليوم تزيد عن ٤٠ جنيها استرلينيا، ومجموعة للاجور المستحقة من سبعة طوابع (صورة ١٠)، قيمتها اليوم تزيد عن ١٠٠ جنيه استرليني .

وفي ٢٤ كانون الاول / ديسمبر ١٩٥١ ، اصبحت المنطقة جزءاً من المملكة الليبية .

اصدارات المملكة الليبية

في ٢٤ كانون الاول / ديسمبر ١٩٥١ ، وقد اصبحت جميع مناطق ليبيا المستعمرة من ايطاليا مملكة واصبح الملك ادريس السنوسي ملكاً على البلاد ، لم يكن هناك مجال من الوقت لاصدار طوابع خاصة ، فاضطرت ادارة البريد لتوشيح الطوابع الموجودة في الاستعمال وقتئذ ، وهي مجموعة الفارس (صورة ٩)، ومجموعة الاجور المستحقة (صورة ١٠). وهكذا اصدرت المجموعة العادية المؤلفة من ١٣ طابعا ومجموعة الاجور المستحقة المؤلفة من سبعة طوابع ،



لتستعمل في سرنايكا بعد ان وشحتها باللغتين «ليبيا LIBYA» قيمتها اليوم تزيد على ٢٥٠ جنيها استرلينيا ، واصدرت لمنطقة تريبوليتانيا عشرة طوابع عادية وخمسة طوابع للاجور المستحقة من المجموعتين ذاتهما بعد ان وشحتهما باللغتين ايضا بكلمة ليبيا وباضافة العملة المستعملة في المنطقة وهي ليرة الادارة العسكرية ، وبالافرنجي «MAL» اي «LIRE MILITARY AUTHORITY» ، قيمتها اليوم تزيد على ١٢٠ جنيها استرلينيا .

اما لمنطقة فزان ، فقد وشحت عشرة طوابع للبريد العادي فقط ، باللغتين ايضا وبالعملة الفرنسية اي الفرنك ، قيمتها اليوم تزيد على ٢٠٠ جنيه استرليني .

وفي ١٥ نيسان / ابريل ١٩٥٢ اصدرت اول مجموعة تحمل رسم الملك ادريس السنوسي مؤلفة من ١٢ طابعاً للبريد العادي (صورة ١١)، ومجموعة للأجور المستحقة من اربعة طوابع (صورة ١٢) ، ومجموعة من ثمانية طوابع للبريد الحكومي موشحة باللغتين « رسمي OFFICIAL » ، على طوابع الملك من ٢ مليم إلى ٢٥ مليم . ثم تتابعت الاصدارات العادية والتذكارية للمناسبات الوطنية والعربية المقررة من الجامعة العربية ، لغاية تنحي الملك عن عرشه في أول أيلول / سبتمبر ١٩٦٩ أما مجموع ما صدر في عهد الملك بما فيه المجموعة التي تحمل رسمه ، فهو ٢٥٦ طابعا تشكل ثمانين مجموعة مع ١٢ بطاقة تذكارية .



اما الطوابع التي استعملت مباشرة بعد قيام الجمهورية العربية الليبية فهي ما تبقى من الطوابع الملكية وقتئذ، ولكن جرى عليها توشيح بختم كبير باسم الجمهورية باللغتين، ليغطي اسم المملكة الليبية، وهناك مكاتب بريد عدة الغت اسم المملكة بتشطيبه بقلم عريض.

وفي ٧ كانون الاول / ديسمبر ١٩٦٩، اصدرت اول مجموعة تذكارية لمناسبة ذكرى ثورة اول سبتمبر، مؤلفة من ستة طوابع (صورة ١٣)، تبعتها المجموعات المختلفة العادية والتذكارية والبطاقات، للمناسبات المحلية والعالمية والاجتماعية والعلمية؛ اسوة بباقي البلاد المتحضرة.

اما العملة المحلية التي كانت ١٠٠٠ مليم يساوي جنيها ليبيا، فقد تغيرت سنة ١٩٧٢ الى ١٠٠٠ درهم يساوي دينارا ليبيا.

وفي ٢٢ تشرين الثاني ١٩٧٦، اعلن رئيس البلاد العقيد معمر القذافي الاسم الجديد للجمهورية وهو الجماهيرية العربية الليبية، واعلن عن مسودة دستور يعطي حق الحكم الديموقراطي للجان شعبية، اما الطوابع، فلم يجر عليها تغير الا سنة ١٩٧٧، وعلى مجموعة ذكرى الثورة، فقد اصبحت تحمل اسم «الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية» ومن الممتع أن نذكر عن اصدارات عدة صدرت بحجم صغير وظريف مقاس ٢٠ × ٢٦ مليمتر، يلفت الانتباه وأعطت ميزة خاصة للبلد المصدر، وراقت في نظر هواة جمع الطوابع المتقدمين. ■

أسئلة القراء

السيد المقيس حسن بن محمد – فاس المغرب.

نشكر لكم ثناءكم وتقديركم لهذه المجلة ولمجهوداتنا فيها. اما بشأن الطوابع التي ترغبون في بيعها، فيقتضي موافاتنا ببيان تفصيلي لها، وهل هي جديدة او مختومة وما هي حالتها، فنوافيكم بالجواب. كما ان كتلوج الطوابع الذي تطلبون، يمكنكم الحصول عليه من المكتبات عندكم.

السيد زياد حمزة – السويداء سوريا.

نشكر لكم كتابكم اللطيف، اما بشأن الطوابع التي لديكم، فلا قيمة تجارية لها، وليست الصور التي ننشرها الا نماذج عنها فقط تعين للاسترشاد بها، ففيها الثمين وغير الثمين، ولمعرفة الأسعار يمكنكم الحصول على احد الكتالوجات المعروفة للطوابع.



● قد يجد الجبان عشرات الحلول لمشاكله، ولكنه لا يختار من بينها الا حلا واحدا هو الهرب.

مثل صيني

لقاء جبابرة الملاكمة الذي عاد الحديث عنه في أميركا بعد ٥٣ سنة !!

وفيق علم الدين


جاك ديمبسي

من كان أحق بالفوز: جاك ديمبسي أم جين تاني ؟

شائعات عن محاولة آلكابوني ملك الجريمة التدخل في المباراة:


منذ ٥٣ عاماً وبالتحديد في ٢٢ أيلول (سبتمبر) ١٩٢٧، شهدت مدينة شيكاغو حدثاً رياضياً ضخماً ولم تستطع تلك الحقبة الطويلة من الزمن، أن تمحو ذكراه عن أذهان الجماهير في الولايات المتحدة، بل ان مناسبة مرور نصف قرن على تلك الواقعة، جددت ذكرى لقاء جبابرة الملاكمة جاك ديمبسي وجين تاني على بطولة العالم للوزن الثقيل، وقد ساهمت عدة عوامل في بقاء هذه المناسبة حية في الأذهان حتى الآن، منها ان ديمبسي [٨٣ سنة] وتاني [٨٠] ما زالا على قيد الحياة، كما ان هناك أكثر من جانب غامض ومثير لتلك المباراة التي شاهدها عدد من المشاهير وقتذاك بداية من قمم الفن

كتشارلي تشابلن والمجتمع حتى آل كابوني ملك الجريمة

في عام ١٩٢٦ فقد الملاكم الأسطوري ومعبود الجماهير جاك ديمبسي لقبه كبطل العالم إثر هزيمته أمام جين تاني الذي كان يلقب بالبحار المقاتل والذي اشتهر بثقافته العالية بل وصداقته المقربة للأديب الشهير جورج برناردشو، وقد انتهى لقاء البطلين والذي أقيم بمدينة فيلادلفيا بفوز تاني بالنقط بعد مباراة من ١٠ جولات، وابتعد ديمبسي عن الملاكمة، ولكنه تحت الحاح منظم مبارياته عاد للأخذ بالثأر، وتحدد يوم ٢٢ أيلول (سبتمبر) للقاء الثأري، على ان يحصل تاني على مليون دولار، أما ديمبسي فينال ٤٥٠ الف دولار!

وما أن اعلن النبأ حتى قامت الدنيا

استعداداً لهذا اللقاء الذي أطلق عليه اسم «معركة القرن العشرين». وتحولت مدينة شيكاغو إلى ما يشبه خلية نحل زحاماً وضجيجاً حتى من قبل موعد المباراة بشهرين، وتوالى حضور الصحفيين من أنحاء أوروبا منذ بداية الصيف، وبدأت الاشاعات والأنباء تتناثر ما بين دعوى قضائية لقسيس يطلب إلغاء المباراة لأنها غير أخلاقية. إلى اشاعة تقول أن آل كابوني سيتدخل لصالح ديمبسي، إلى نبأ عن مرض ديمبسي كذبته زوجته الممثلة الجميلة ايستل تايلور. أما نسبة المراهنات فكانت ٩ إلى ٥ لصالح تاني ثم تغيرت تدريجياً حتى أصبح الرهان متعادلا، وبلغ حد الهوس إلى درجة أن رجلا من مدينة لوس انجلوس راهن على فوز ديمبسي بعشرة آلاف دولار!

وخصصت قطارات ركاب خاصة لنقل المشاهدين وعشاق الملاكمة من مدن هوليوود وتولسا وأوكلاهوما وبيتسبرغ وناشفيل وفلوريدا ونيو أورليانز وسان لويس وميلووكي، بالاضافة إلى طائرة خاصة أقلت نخبة من نجوم الفن مثل زيغفيلد وهارولد لويد وارنفنغ برلين، وازدحمت الصالة بلفيف من قمم نجوم هوليوود وكان دوغلاس فيربانكس الصديق الشخصي لديمبسي أول الحاضرين وتلاه تشارلي تشابلن ثم غلوريا سوانسون وويل روجرز وجون باريمور والمغني آل جولسون وبستركيتون وراعي البقر الشهير توم ميكي. كما حضر المباراة ملك الجريمة آل كابوني الملقب بذي الوجه المجروح، وكان يرتدي قبعة كبيرة بيضاء ويدخن سيجاراً ضخماً وكانت قد سرت اشاعة قوية تقول ان آل كابوني سيحاول التدخل في نتيجة المباراة لصالح ديمبسي الذي أسرع فأرسل اليه خطاباً خاصاً يقول فيه «لا تتدخل واترك المباراة تمضي في روح رياضية» وفي اليوم التالي تسلمت زوجة ديمبسي باقة من الورد وبطاقة مكتوباً بها «إلى عائلة ديمبسي ولتمض المباراة في روح رياضية»!

أما عن أثمان التذاكر فقد تراوحت ما بين ٥ و ٤٠ دولاراً.

وتجمع ٥٠ مليون أمريكي، يمثلون نصف سكان الولايات المتحدة وقتذاك، حول أجهزة الراديو لتتبع المباراة، بينما ازدحمت مقاعد الملعب بمائة وخمسين ألف مشاهد، واكتمل العدد في السابعة مساء اي قبل بدء المباراة بثلاث ساعات، واتخذت الترتيبات لاتمام

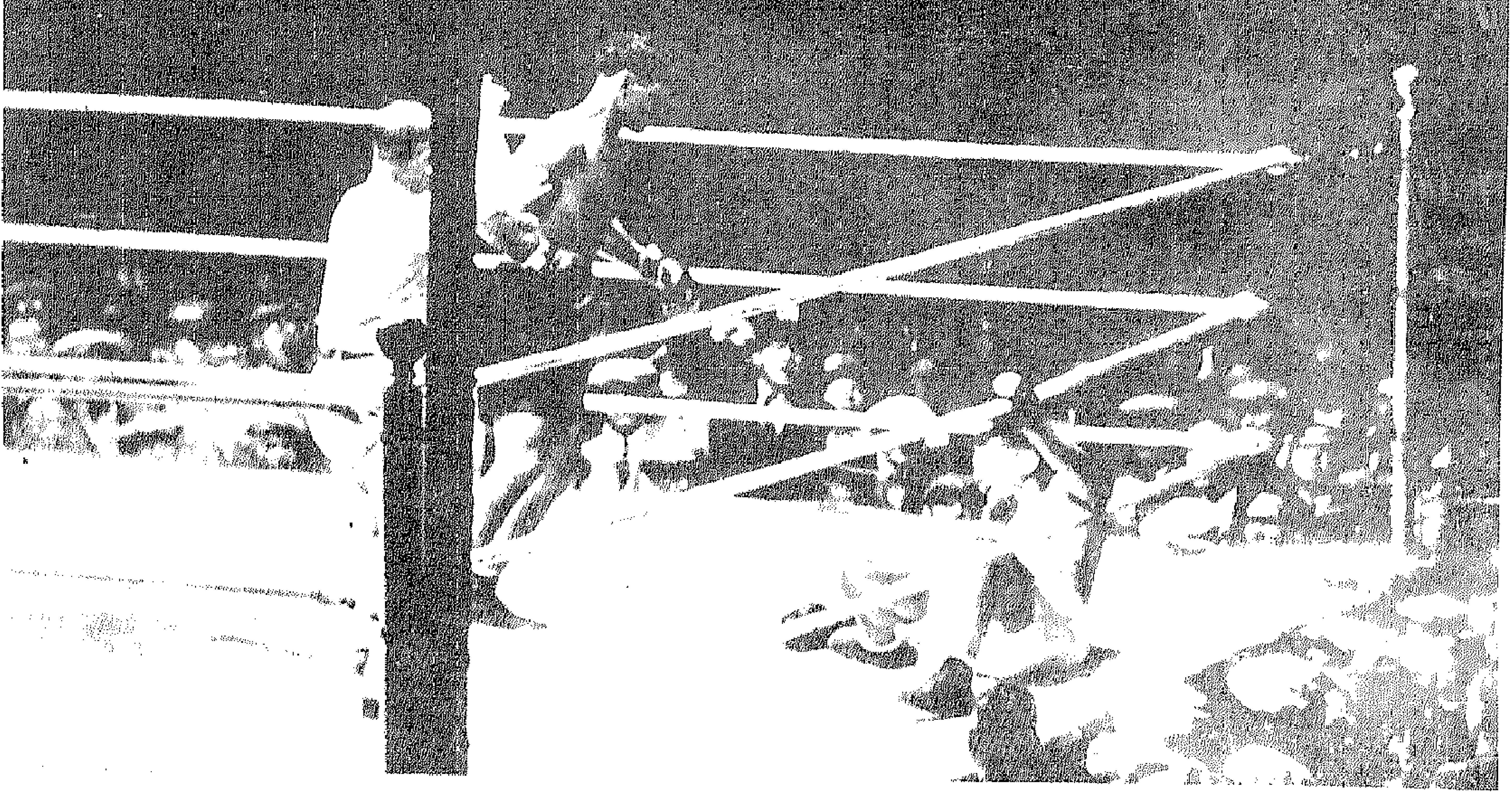

آل كابوني

إرسال تلغرافي مع فرنسا وانجلترا والبرازيل وكندا والمكسيك واستراليا، ومن الطريف انه سمح لنزلاء السجون الأميريكية بسماع الوصف الاذاعي.

وفي تمام العاشرة دخل ديمبسي الحلقة يرتدي «شورت» أسود وتلاه جين تاني بخمس دقائق وكان يرتدي زياً أبيض.

وكان من المقرر ان يحكم المباراة ويف ميلر ثم تغير في الدقيقة الأخيرة ليحل محله الحكم ديف باري بعد ان ثارت أقاويل حول اتصالات مشبوهة للحكم المستبعد مع بعض المقامرين، وقبيل بدء المباراة ووسط ضجة هائلة من الجمهور، جمع الحكم الملاكمين ومساعديهما، وقال لهم انه في حالة الضربة القاضية على الملاكم الضارب ان يبتعد إلى ركن الحلقة، وانه لن يبدأ العد على المضروب قبل ان يتم ذلك.

وعلى مدى الجولات الست الأولى كان تاني متفوقا، ومن الطريف ان ايستل زوجة ديمبسي التي تكره الملاكمة أغلقت على نفسها باب الحمام في سكنها بالفندق حتى لا تسمع المباراة، وفجأة وبلا تفسير مفهوم خرجت قبل بداية الجولة السابعة بالذات بعد ان عدلت عن الحبس الاختياري. وحدث انه بعد دقيقة واحدة من بداية الجولة السابعة شوهد ديمبسي يفاجئ الكل بتوجيه ضربة ساحقة إلى تاني الذي سقط ممدداً على الأرض، وقوبلت الضربة



الجولة الحاسمة ... جين تاني على الأرض والحكم يحاول إبعاد جاك ديمبسي .

القاضية برد فعل جنوني من جانب المشاهدين ، الذين وقفوا رجالا ونساء ، فوق المقاعد يلوحون بايديهم ويقذفون بقبعاتهم في الهواء ويصرخون باعلى أصواتهم وتبين بعد ذلك ان خمسة أفراد من الذين كانوا يتابعون المباراة في الاذاعة ماتوا بالسكتة القلبية ، كما أصيب اثنان من مدينة ديترويت بأزمة قلبية عنيفة .

ووقف ديمبسي بجانب جسد تاني الممدد ، لمعاودة ضربه إذا تمكن من النهوض ، ولم يتبع ديمبسي بذلك تعليمات الحكم بضرورة الابتعاد إلى ركن الحلقة ، ولم يبدأ الحكم العد على تاني كما تجري العادة ، وطلب من ديمبسي التوجه إلى ركن الحلقة ، وقد استغرق الأمر منذ سقوط تاني وكلام الحكم وعودة ديمبسي إلى ركن الحلقة ٥ ثوان غالية ، بدأ بعدها الحكم العد على تاني ولكن بداية من العدد ١ وليس ٦ ، ولما وصل إلى العدد ٩ نهض تاني ، الذي استفاد من الوقت الضائع الذي وصل إلى ١٤ ثانية فقد أطلق بعد ذلك على المباراة اسم مباراة « العد الطويل » .

وسرعان ما استعاد تاني قوته وتفوق على مدى الجولات المتبقية وفاز بالنهاية بالنقط ، وقد عرف بعدها ان زوجة ديمبسي اغمي عليها بغرفتها فور اعلان النتيجة .

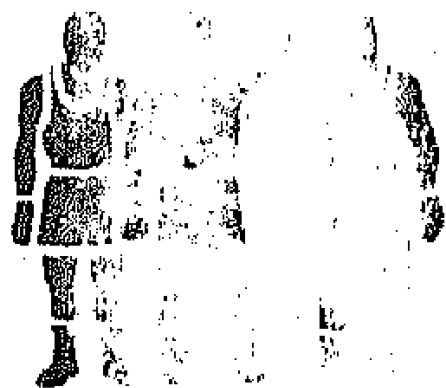
وما إن وصل نبأ النتيجة تلغرافيا إلى لندن حتى صدرت نشرة صحفية خاصة تتضمن وصف المباراة .

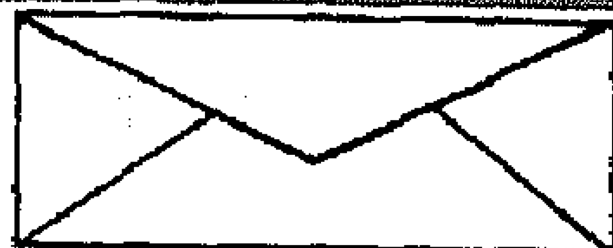
وقد بذلت عدة محاولات لاقناع ديمبسي بالاشتراك في لقاء ثالث مع تاني ولكنه رفض واعلن الاعتزال ، وتبلغ المأساة أقصاها عندما يتعرض ديمبسي لضربتين أخريين قاصمتين ، الأولى عندما فقد ثلاثة ملايين دولار خلال الأزمة الاقتصادية التي اجتاحت أمريكا ، والثانية إثر انفصاله عن زوجته لنزاع بينهما .

ويعيش البطلان الآن في مدينة نيويورك ، وتأثرت صحتهما بحكم الزمن ، ديمبسي (٨٣ سنة) مع زوجته الرابعة ديانا التي تزوجها عام ١٩٥٨ ، وقد شفي منذ زمن قريب من آثار أزمة قلبية ، أما تاني (٨٠ سنة) الذي كان يجري في شبابه عدة أميال يوميا ، وأصبح يمشي حاليا متكئا على عصا غليظة ، أما اليد الأخرى فتستند إلى مرافق دائم .

وأحيانا ما يتقابل البطلان حاليا في حفلات خاصة ، وما ان يتم ذلك حتى يلتف كل الحضور حولهما ، ويتردد السؤال الدائم « ترى ماذا حدث منذ ٥٠ عاما في الليلة المثيرة للعد الطويل »

■





بريد القراء

● صلاح زين الدين – بعقلين – الشوف . لبنان

■ شكراً لعواطفك الطيبة تجاه المجلة والقائمين عليها . المواد التي ارسلتها حولت الى سكرتير التحرير لتقرير صلاحيتها للنشر.

بالنسبة للتجليد فاننا ننصحك بالاتصال باحدى دور التجليد المختصة .

أما بالنسبة للصورة الملونة التي اقترحتها فانها احدى مشاريعنا للمستقبل ان شاء الله .

● طانيوس وديع موسى – صغبين – البقاع الغربي – لبنان

السيد سكر : تحية شطرنجيه من متابع لاخبارك وتحليلاتك ومسائلك « الشطرنجية » الجذابة . وبعد ارجو ان ترسل لي او تنشر عناوين بعض المجلات العالمية الشهيرة التي تهتم بالشطرنج وتصدر باللغة الانكليزية .

■ شكرا لرسالتك اللطيفة وفيما يلي عنوان المجلة :

BRITISH CHESS MAGAZINE
9 MARKET STREET, ST
LEONARDS ON SEA.
EAST SUSSEX TN 380 D Q
ENGLAND

● سيد خليل شكر – محافظة نينوى – العراق .

■ شكرا لعواطفك الطيبة تجاه المجلة وننصحك بالاتصال بالسفارة اللبنانية في بغداد لتزويدكم ببعض النشرات السياحية .

● محمد السعدي – قصاع شارع بغداد – دمشق – الجمهورية العربية السورية

■ استلمنا رسالتك اللطيفة ونشكرك على مشاعرك النبيلة تجاه المجلة وجميع العاملين بها . احلنا اسئلتك الى سكرتير التحرير وسيجيب عليها في اقرب فرصة .

● شهاب مهنا – ذوق مكايل – لبنان

■ شكراً للصورة الملونة الرائعة لمدينة صيدا التي ارسلتها لنا . ونعدك بنشرها في اقرب فرصة ممكنة .

● مازن حلباوي – دمشق – الجمهورية العربيةالسورية

لقد استأثرت مجلة «تاريخ العرب والعالم» باهتمامي منذ العدد الأول الذي ظهر في اواخر عام ١٩٧٨ . ولم استطع منذ ذلك الوقت وحتى الآن ان اوجه اليكم اي انتقاد او شكوى سواء أكان ذلك من ناحية رونقها الجميل او من ناحية معلوماتها التاريخية والتراثية والفنية الرائعة .

ارسل تحياتي الى جميع العاملين في هذه المجلة الذين يحاربون هم ايضا بالقلم والكلمة لاخراج هذه الموسوعة التاريخية الشهرية العظيمة التي تنير للناشئة حقيقة تاريخهم وتزيدهم معرفة به من خلال هذه الموسوعة التي لم يشهد لها الوطن العربي والعالم كله مثيلا !..

■ نشكر الأخ مازن على عواطفه النبيلة ونؤكد له بأننا مستمرون في تأدية رسالتنا القومية مادام لنا اصدقاء ومشجعون مثله .

المسـابقـة

تاريخ وأسماء ومعالم القرى والأحياء في الوطن العربي

إلى القراء الأعزاء:



ترغب مجلة «تاريخ العرب والعالم» ان تفتح باباً خاصاً للقراء، لا سيما للطلاب في الثانويات والجامعات، تدعو فيه إلى الكتابة المختصرة في موضوع: «تاريخ واسماء ومعالم القرى والأحياء في الوطن العربي». والمجلة اذ تفتح باب هذا الموضوع تخصص مكافأة قدرها ١٠٠ ليرة لبنانية، أو ما يعادلها للفائز الأول، واشتراكاً سنوياً في المجلة للفائز الثاني، على أن تتضمن المساهمة المقدمة معلومات جديدة وشيقة عن القرية او الحي او الأثر وعن تاريخه واسمه وظروفه، أو ما يحتوي من آثار عمرانية قديمة أو مظاهر حضارية، وإذا امكن صورة فوتوغرافية مأخوذة للحي او القرية او لأي مظهر عمراني أو أثري فيها، كذلك على ان لا تتجاوز الـ ٢٠٠ كلمة.

هذا، وإذ تشدد المجلة على جدة المعلومات الواردة، تطلب من الكتاب الأعزاء ان يتقيدوا بأصول الكتابة العلمية وأن يشيروا الى مصدر الاقتباس، وتترك لهيئة التحرير حقها في اختيار المساهمات الصالحة للنشر، وكذلك اختيار المساهمات الفائزة، إذ من حصيلة ما يصل الينا ستختار هيئة التحرير ثلاث مساهمات للنشر في كل عدد بينها المساهمتان الأولى والثانية الفائزتان.

* * *

نرجو من المشترك ان يكتب اسمه وعنوانه بخط واضح في نهاية مقاله وأن يرسله الينا بالبريد على عنوان المجلة

هيئة تحرير المجلة استلمت عشرات الرسائل ولكن معظمها، بكل اسف، عالج مواضيع خارجية ليست مطلوبة. فنص المسابقة صريح وواضح والمطلوب كما ورد في النص مرات.

فالبعض كتب عن تاريخ دولة كالأخ محمد كشاد وكثيرون جداً كتبوا عن احداث شهيرة والمطلوب الكتابة عن القرى والأحياء في الوطن العربي فتاريخ المدن العربية والعواصم متوفر في معظم الكتب التاريخية والموسوعات الجغرافية. ولكن الهدف كان ولا يزال تشجيع الطالب او الباحث على تعريف القارئ العربي بقرى او احياء عربية مجهولة او آثار حضارية او عمرانية قديمة..

والبعض استرسل في الكتابة، فكتب اكثر من عشر صفحات والمطلوب فقط ما بين ٢٠٠ – ٢٥٠ كلمة!

فادارة التحرير تشكر جميع المشتركين على مساهماتهم وتنوه بصورة خاصة بجهود البعض وتأسف لعدم استطاعتها اعطاء الجائزة الاولى لأي مشترك ولكنها تعلن فوز السيد خليل محمد عبدوني بالجائزة الثانية وهي عبارة عن اشتراك سنوي مجاني في «تاريخ العرب والعالم».

تنويه خاص:

- عماد محمد خشان – من لبنان – كتب عن «مدينة بعلبك».
- حيدر مجيد ياسين – من العراق – كتب عن «مدينة الموصل»
- شهاب مهنا من لبنان – كتب عن «مدينة صيدا»
- عبد الحكيم محمد كشاد – من ليبيا – كتب عن «مرحلة ليبيا القديمة».
- خليل محمد عبدوني من لبنان – كتب عن قرية «السلطان يعقوب الفوقا».
- الآنسة لواحظ عبد القادر عدرة من لبنان – كتبت عن «مدينة طرابلس».

وستنشر ادارة التحرير بعضاً من هذه المساهمات في باب «القراء يكتبون».

حضارة البداري

حضارة البداري حضارة مصرية من عصر ما قبل التاريخ وهي احدى حضارات العصر الحجري الحديث، كشفت بواسطة برنتويد في قرة الهمامية بالقرب من مدينة البداري بمحافظة اسيوط حيث وجدت مقابر القوم ومساكنهم وبذلك كانت المعلومات عنهم كاملة، وقد امتاز البداريون على اسلافهم التاسيين بمعرفة النحاس ولذلك اعتبروا في مرحلة حضارية ارقى واحدث، فهم يرجعون الى منتصف الألف الخامسة قبل الميلاد. ولقد استخدم البداريون الفاس النحاسية في قطع الأشجار اذ انه حينما استقروا في منطقة البداري كان المطر يسقط على القطر المصري من ساحل البحر المتوسط حتى اسيوط.

وقد نبع البداريون في صناعة الأواني الفخارية، وبلغت هذه الصناعة في عهدهم درجة عالية من الاتقان والرقة، وتسود بالبداري مجموعتان من الآنية الفخارية: المجموعة الحمراء ذات الحافة السوداء، والمجموعة السوداء المزينة برسوم بيضاء.

وقدصنع البداريون اسلحتهم الحجرية من الصوان المحلي واتبعت في هذه الصناعة طريقة تشظية مشهورة في عصر ما قبل التاريخ يقال لها الشظية بواسطة الضغط، والعالم الأثري فلندرز بترى يربط بين هذه الصناعة المصرية وبين الصناعة السولترية في اوروبا (نسبة الى كهف سولتري في فرنسا) ويقيم عليها نظرية انثروبولوجية غريبة مؤداها ان سلالة قوقازية هاجرت من بلاد القوقاز في طريقين الى غرب اوروبا والى مصر. ولكن اغلب الاثريين لا يرون هذا التشابه في الصناعتين المصرية والفرنسية مبرراً للقول بان جنسا واحدا هو الذي أنشأها. وقد صنع البداريون بهذه الطريقة المكاشط والسهام المتعددة الاشكال والأسلحة التي على شكل ورق الصفصاف والاسلحة المسننة كالمنجل والمنشار فاما السهام فهي من ادوات الصياد واما المكاشط فهي من ادوات دباغ الجلود، اما المنجل فهو من ادوات الزارع واما المنشار فهو من ادوات النجار وهذا يعطينا فكرة عنالحرف المعروفة عند البداريين في ذلك الوقت. وفيما عدا الادوات الحجرية كان عند البداريين الات عظيمة مدببة الطرفين ربما كانت تستخدم كسهام، كما كان عندهم من ادوات القتال - بخلاف القوس والسهم - العصي القاذفة المصنوعة من الخشب ثم القرص المصنوع من الحجر الصلب.

ولقد تفوق البداريون في صنع اللوحات الارتوازية التي كانت تسخدم لطحن الملاشيت (التراب النحاسي الأزرق) والمعزة (التراب الحديدي الأحمر) كما عرف البداريون صناعة التماثيل، فقد وجد بمقابرهم تماثيل نسائية صغيرة واشياء فنية من العاج كالقواريرو الملاعق والامشاط والدبابيس، كما كانوا يشكلون حبات الخرز من الكوارتز والفلسبار، وكانوا يشكلون الاقراص من قشر بيض النعام ويصنعون من اصداف البحر منظومة في شكل عقود واحزمة واساور.

وقد كان البداريون يدفنون الميت في وضع مقرفص في حفرة غير عميقة مكسوة بالحصير او جلد الماعز، واحيانا يغطى الميت باغصان الأشجار. ومن الناحية السلالية كان البداريون حاميين عليهم مسحة زنجية فهم من اصول الشعب المصري في العصر التاريخي غير ان المسحة الزنجية فيهم واضحة، ويقترب شكلهم من الدرافيديين الحاليين بالهند.

ودلت محتويات مقابرهم على انهم كانوا يؤمنون بحياة اخرى، وكانت لهم طقوس جنائزية معينة فقد وجدت عندهم مدافن خاصة بالحيوان فضلا عن الحيوان المدفون مع الميت، وهي طقوس افريقية ما زالت متبعة عند بعض القبائل الحالية في وسط افريقيا وجنوبها.

وكانوا يعيشون في قرى ويزرعون الحبوب ويرعون الحيوان ويلبسون ملابس منسوجة من الياف النبات، وكانوا مهرة في صقل الحجارة وفي الغزل والنسيج وصناعة الاسبتة والاواني وفي نحت الخشب والعظم والعاج هذا فضلا عن ممارستهم للفن كتشكيل التماثيل ومعرفتهم للطقوس الجنائزية وايمانهم بالحياة الاخرى.

دائرة المعارف



رأي حر

د. محمد مخزوم



لما كان الفكر الانساني على امتداد العصور التاريخية، سلسلة مترابطة الحلقات يمثل فيها كل مجتمع مرحلة معينة من مراحل التطور التقدمي للحضارة الانسانية، فان العرب ساهموا في انطلاقة هذه الحضارة عبر المرحلة التي شهدت فترة الركود الحضاري وهي المرحلة التي تقع بين بداية اضمحلال الامبراطورية الرومانية وقيام عصر النهضة في أوروبا.

والعرب في ماضيهم عندما تصدروا غيرهم لملء هذا الفراغ عمدوا إلى الاطلاع على تراث اليونان والرومان كما فعل الأوروبيون في بداية خلق حضارتهم الحديثة عندما أقبلوا على ترجمة الحضارة العربية إلى اللاتينية في العصر المعروف بعصر الترجمة من العربية إلى اللاتينية.

وديناميكية الحضارة تفرض الاتصال بالماضي لأن إحياء التراث القديم يقوم عليه بناء المستقبل على أساس كشف المعايب واستقصاء الحقائق وفهم العبر والاطلاع على النشاط الانساني عبر التاريخ إلى جانب كونه قضية متعلقة تماما بتحديد هوية الانسان وانتماءاته.

ومحاكاة الماضي لا تعتبر وقفه على الأطلال كما أنها لا تفرض التقليد لأن تطور المجتمع لا يتم إلا بالنضال المستمر ضد القوى المحافظة إلى حد بعيد والمتعلقة تزمتا بالتراث القديم.

ونحن اليوم بينما نعيش قضية التجديد هذه لا بد لنا من استيعاب تراثنا الحضاري وصيانته واغنائه ونقله عبر تاريخنا لئلا نكون أمة في التاريخ تناست ماضيها ورفضت استيعابه. والتراث العربي المتناثر اليوم في خزائن المكتبات العالمية على شكل مخطوطات تربو على المليون إنما هو موسوعة حقبة تاريخية طويلة تناولت جميع العلوم وحقول الثقافة: من العلوم الطبيعية والرياضيات والطب والصيدلة وعلم الفلك إلى مجال الفلسفة والتاريخ والجغرافية واللغة والآداب.

ولما كان العمل في هذا النوع يستدعي قيام مؤسسات ضخمة مجهزة بشريا وفنيابجهاز كامل، فاننا ندعو جميع المعنيين بهذا الأمر لأنشاء هذا الصرح الذي يسمح لنا بكتابة تاريخنا على أسس مخبرية(مع أن التاريخ أشد الدراسات إنسانية). نتخطى فيه التخمينات من جهة وتبعية المستشرقين ودوافعهم من جهة ثانية، فنكون لنا مدرسة رائدة تعتمد النقد والتحقيق والاستنتاج في صناعتها لتاريخنا.

لهذا يجب أن تكون وأن تبقى وتستمر مجلة تاريخ العرب (بخط عريض) والعالم (بخط رفيع) لترفع مدماكا في هذا الصرح العظيم بهمة قرائها ومحرريها ومستشاريها وكتابها. فتبرز لنا قضايانا الاجتماعية لتقدم لها الحلول عبر مقالات تستمد جذورها من تاريخنا المفعم بملاحم البطولة فتقدم لنا بذلك ماضينا كما كان « لا كما نتوهم أن يكون » حسب تعبير الدكتور قسطنطين زريق.

إن التقدير المتزايد لمجلة تاريخ العرب والعالم اعتمادا على عملية التسويق وعلى رسائل القراء بأن تنشر المجلة بعض عيناتها تباعا، لا شك أنه يسير جنبا إلى جنب مع تحقيق الطموحات الموضوعة سلفا: مجلة يلجأ إليها (المهموم) في أوقات فراغه و (المتخصص) في أوقات بحثه و (المثقف) في جميع أوقاته. ■



مونيـه :
الفنان الذي
أنار الظـلال



فرنسـا :
حوادث أيار ١٩٦٨
وكيف أطاحت
بديغول ؟



از سرخ و از سفید و از سیاه و از زرد و از جنس

فرمودم که در پیش من زیلوچه انداختند